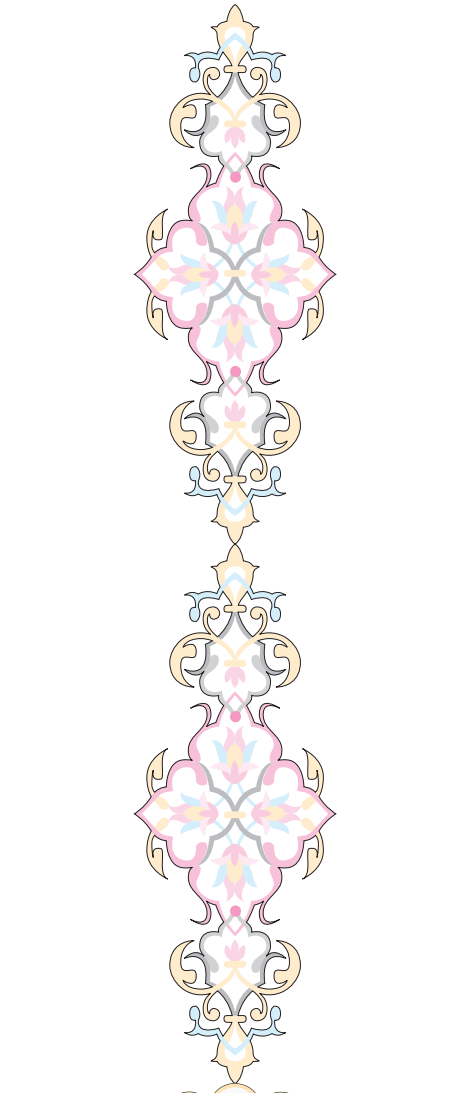
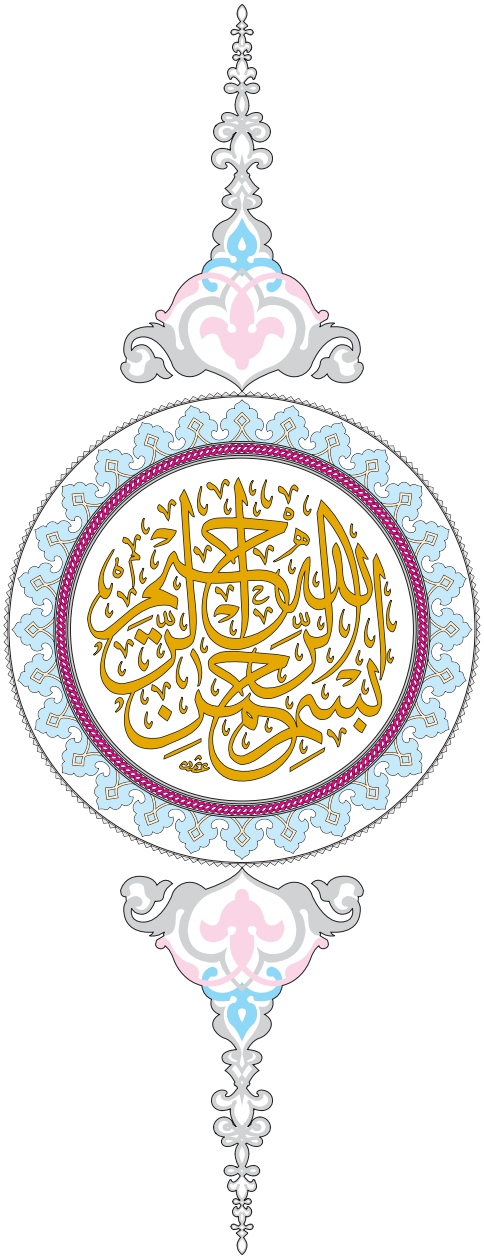
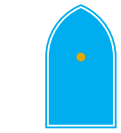
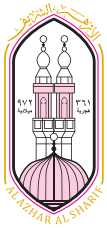



بسم الله الرحمن الرحيم



سقيفة الصفا العلمية



مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

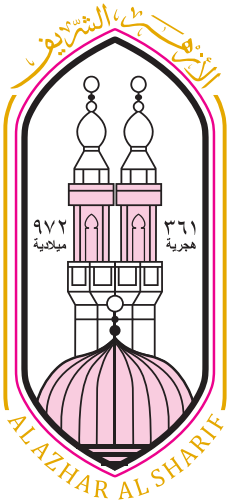
٥٨

المجلد الحادي والخمسون ـ القسم الثاني

السنة ١٣٩٩هـ

الأزهر الشريف

سقيفة الصفا العلمية



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الخامس ـ السنة الحادية والخمسون ـ رجب ١٣٩٩ هـ ـ يونية ١٩٧٩ م

هـ ١٤
ع ٢٢٢٢٦
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية

آيات الله فى الأنعام

كيف يخرج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال الله تعالى « وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » الآية ٦٦ من سورة النحل

مناجاة

سبحانك اللهم وبحمدك : عرفناك فى آياتك بالعقول والضمائر ، ورأيناك فى شواهدك بالقلوب والبصائر ، فأنت يا مولاى وان احتجبت عن العيون والأحاسيس الظاهرة ، فقد تجليت ببراهينك للأرواح الطاهرة والبصائر النيرة ، فمتى غبت يابارىء النسم عن الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، كيف يحتاج الفكر الرشيد فى التعرف عليك الى جهد جهيد ، ألست حاضرا يا مولاى فى خفقان القلوب ،

وخواطر العقول ، وخلجات العيون، ألست ظاهرا يا الهى فى رفيف الندى ورفرفة الأطيار ، وتفتح النوار وعبير الأزهار ، وأهازيج الحمائم . ألست شاهدا ومشهودا فى الليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، ألست أنت الذى تكوّر الليل على النهار وتكوّر النهار على الليل ، ألست أنت الذى خلقت الهواء والماء ، والنجم والشجر ، والوهاد والنجاد. من الذى رفع سمك السماء فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دجاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ، أليس كل ذلك يا مولاى بأمرك ، وصادرا عن مشيئتك ، ونافذا بقدرتك ، ومدبرا بحكمتك ؟ فكيف يجحدك الجاحدون ويشكك فيك المارقون ، ويتحير فى الايمان بك الحائرون ، ويغفل عن ذكرك الغافلون ؟! ان هؤلاء وأولئك لو عرفوا قدرك لخجلوا من سلوكهم ، وندموا على انحرافهم ، ولكنهم كما قلت فى أمثالهم يا أعز قائل : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فلهذا تفضلت بكرمك وعظيم رحمتك فنبهت فى كتابك الغافلين الى آياتك ، وأيقظت النائمين ليحسوا بوجودك فليس كل الناس سواء فى سلامة الوجدان ، ودرجة العرفان وها أنت ذا يا مولاى تدلهم فى هذه الآية على بعض شواهدك التى ينعمون بها وهم لا يشعرون ، وتذكرهم بمواضع العبرة فيها وهم عنها غافلون ، اذ تقول جل ثناؤك وعظم بهاؤك ، وتعالت أسماؤك « وان لكم فى الأنعام لعبرة »

والأنعام هى : الابل والبقر والغنم والمعز ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام تفسيرا لها : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » ثم قال : « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين (١) » فهى أربعة بأنواعها ثمانية بذكورها واناثها .

والعبرة العظة ، وهى فى الأنعام ،

(١) انظر الآيتين ١٤٣ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام عقب قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا .. » الآية ١٤٢ منها .

أنها تذكرنا وتدلنا على قدرة الله تعالى وخالقيته ووحدانيته وحكمته فى أمرها كله ، ومن العبرة فيها ما حكاه الله بقوله جل شأنه :

« نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » قرئت (نسقيكم) بضم النون وفتحها ، وهما لغتان عربيتان فصيحتان (١) .

والفرث ما يكون فى الكرش (٢) الى أن ينزلق فى الأمعاء ليأخذ سبيله الى الخارج ، فاذا خرج لا يسمى فرثا .

وقد يتوهم قارىء أن اللبن فى اناث الأنعام يكون فى كرشها بين الفرث والدم كما هو ظاهر العبارة الكريمة « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » ولكن هذا الوهم غير صحيح لأنه مخالف للواقع الذى يعرفه العربى ويدرك المراد من لغة القرآن وأسلوبه الأدبى الرفيع ، انه حين يذبح الاناث المرضعات من الأنعام ، لايجد فى كرشها شيئا من اللبن ولا من الدم ، فلابد أن يعرف أن المراد من خروجه من بين الفرث والدم أنه مستخلص منهما وناشىء عنهما ، وسنبين للقارىء الكريم فيما يلى كيف يخرج اللبن من بينهما

ان الأنعام اذا مضغت الطعام وابتلعته نزل الى الكرش لتقوم بهضمه ، فاذا تم هضمه فيها فان خلاصته تنجذب الى الكبد عن طريق الأنابيب الدقيقة المنبثة فى جدار الكرش وسائر جهازها الهضمى ، التى أعدها الله لامتصاص خلاصة الغذاء وايصاله الى الكبد ، وما يبقى بعد ذلك من كثيفه فانه ينزل الى الأمعاء لتتخلص منه عند اللزوم

وبعد أن تصل خلاصة الغذاء الى الكبد تتحول فيها الى دم مخلوط بالصفراء والسوداء ، والماء الزائد

١) فالأولىَ من أسقاه ــ وهى لغة حمير ــ والثانية من سقاه ــ وهى لغة قريش ــ وقيل هما لغة واحدة وتستعمل أسقاه بمعنى اعد له ما يشربه ، وسقاه بمعنى أوصل الشراب الى فمه .

٢) الكرش بكسر الكاف وسكون الراء أو بوزن كتف ، وهى للماشية كالمعدة للانسان ، وهى مؤنثة : ا هـ قاموس .

عن حاجة الجسم المشتمل على أخلاط ضارة به لو بقيت فيه ، فأما الصفراء فتذهب الى المرارة ، وأما السوداء فتذهب الى الطحال ،وأما الماء فيذهب الى الكليتين ، ليتحول فيهما الى بول ينزل منهما الى المثانة عن طريق الحالبين ، ثم يخرج من المثانة الى الخارج من مخارجه عند ارادة التخلص منه

عمل الكبد بعد صنع الدم وتنقيته

وبعد أن حولت الكبد خلاصة الغذاء الى دم ، ونفت منه ما يضر بالجسد ، وبعثت به الى مخارجه تدفع الدم النقى الى القلب ، ليدفعه بدوره فى الشرايين الى أنحاء الجسم المختلفة ومنها الضرع

ضرع الماشية وعمله

والضرع لحم غددى اسفنجى أبيض ، أعدته العناية الالهية بحكمة وتدبير عجيب ، ليكون مصنعا لتحويل الدم الى لبن نقى خالص سائغ للشاربين ، فلا تجد فيه شائبة من رائحة الفرث ولا لون الدم بل هو شراب شهى هنىء لذيذ الطعم ، مشتمل على كل العناصر الأساسية فى تكوين الانسان والحيوان ، وبث الحرارة والدفء فى جسده ، بما حواه من البروتينات والمواد الدهنية والسكرية

ونظرا الى أن الدم هو الأصل فى تكوينه ، فان الحالب اذا بالغ فى حلب اللبن لاستخراج كمية كبيرة منه ، فربما لا يسعفه الضرع بتحويل الدم الى مطلوبه الكثير من اللبن ، فلهذا ينزل الدم دون أن يتحول الى لبن ، فينبغى للحالب التوسط وعدم اجهاد الضرع .

ويعتبر اللبن غذاء كاملا ، فلو اقتصر عليه أحد وشرب منه مايكفيه لم تسقط قوته ، وقدامى الأطباء يعتبرونه الغذاء الثالث بعد اللحم فالبيض ، ومن كان مريضا بالروماتيزم واقتصر على تناوله صباح مساء ، فانه يبرأ من مرضه ، وقد جرب ذلك صديق لى فشفاه الله ولم يعاوده هذا المرض حتى الآن

الضروع هى البطون التى يخرج منها اللبن

قد علمت مما سبق عمل الضروع فى صنع اللبن بما أودعه فيها الحكيم

الخبير من الخصائص والافرازات التى تحدث هذا التحول البديع ، وهذه الضروع هى البطون التى قال الله فى شأنها « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا» [١] الخ فان فى باطنها الجهاز الذى أعده الله لصنع اللبن ، فاذا خرج اللبن من هذه الضروع ، فقد خرج من أجهزة باطنية مستورة عن العيون ، والمقصود من سقيهم اياه منها من بين فرث ودم أن تكوينه مر بهما على النحو الذى سبق بيانه ، ولم يتأثر بهما فى طعم أو لون أو ريح ، بل جاء على هذا النحو العجيب من النظافة والرائحة المحببة ، والطعم اللذيذ ، فتبارك الله أحسن الخالقين

المعنى الاجمالى للآية

وان لكم أيها المكلفون لعظة كبيرة فى الابل والبقر والغنم والمعز، حيث انها تأكل الحب والنوى والعشب ، وغير ذلك من طعامها رطبا أو يابسا ، حتى اذا وصلت الأغذية الى كروشها ، سكبت الأوعية الهاضمة عليها عصاراتها ، فاذا استحالت الى طعام هضيم ، امتصت خلاصته أوعية خاصة أودعها الله جهازها الهضمى ، وذهبت بها الى الكبد ، حيث تستخلص منها الدم الشريانى ، وتبعث به الى القلب وترسل ما فيها من الصفراء الى المرارة ، وما فيها من السوداء الى الطحال ، وما فيها من الماء الزائد والنفايات الضارة الى الكليتين

فأما الدم الشريانى الذى يذهب الى القلب ، فانه يدفعه الى أنحاء الجسم المختلفة ، لتغذية وتعويض ما تلف منه ، وامداد أجهزته بما يجعلها تؤدى وظائفها ، وفى جملتها ضروع المرضعات من الأنعام ، فانه يدفع اليها حاجتها من الدم آنا بعد آن ، فتقوم تلك الضروع بتحويل الدم الذى يصل اليها، الى لبن نقى، لا أثر فيه من ريح الفرث ولا من لون الدم ، ولا من أى شىء استكره

١) ضمير بطونه عائد على الأنعام باعتبار الجنس فهو والنعم شىء واحد كما قال الكسائى ، وذكر هنا فأنث فى سورة المؤمنون ، لأن التذكير يرجع الى معنى الجمع والتأنيث يرجع الى معنى الجماعة كما قاله ابن العربى ــ ولهم تأويلات اخرى وحسب القارىء ماذكر .

منهما ، بل تراه خالصا من شوائبهما الكريهة ، سائغا هنيئا للشاربين ، لا يغص به شاربه ، ولا يمله متناوله

فما أعظم قدرة الله ، وما أغزر رحمته ، وما أبلغ حكمته ، وما أحكم تدبيره ! لقد تم ذلك كله دون علم ولا ارادة من الحيوان ، ولا تدبير من الانسان ، بل هو تدبير من (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أليس فى ذلك عظة لأولى الأبصار ، وعبرة لمن يريد الاعتبار ؟ أليس ذلك برهانا على وجود اله حكيم وقادر عليم ورحمان رحيم ؟ فسبحانك يا أرحم الراحمين •

ألا وان الابداع فى اعداد الأغذية للجسم لا يقتصر على هذا القدر المجمل ، بل هو شيء لا يتصوره العقل ، ولا يفى بعظمته البيان ، فقد أعد الله فى الجسم بلايين الخلايا لتحويل الأغذية الى عظام وأظافر ولحم وشحم وأسنان، فتعد لكل نوع ولكل جزء من الغذاء ما يناسب بناءه وتكوينه دون خلل أو خطأ ، وبالجملة فان الجهاز الهضمى فى الانسان والحيوان يعتبر أعظم معمل كيموى فى العالم ــ كما ذكره الدكتور موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك (سابقا) فى كتابه (العلم يدعو الى الايمان) ترجمة محمود صالح الفلكى وكيل وزارة المالية والاقتصاد (سابقا)

نعم أخرى فى لبن الانعام

ولقد عرضت الآية فى العبرة فى الأنعام الى نعمة اللبن مشروبا لأنه أساس ما عداه مما يستخرج من اللبن ، ولأنه أول ما يخرج منها من بين فرث ودم ، وتركت التحدث فى بقية نعم الله فيه الى تجارب الانسان وابتكاراته فى استعماله ، فكم فيه من نعم ومتعة فى غير شربه ، فمنه نصنع الجبن المختلف الأنواع والطعوم ، ونستخلص الزبد الشهى ونحوله الى سمن صالح للتخزين والاستعمال فترة طويلة ، وبه نصنع أصناف الحلوى الرفيعة على اختلاف أنواعها وطعومها اللذيذة ، فلا تجد نوعا منها الا مخلوطا باللبن ، أو ممزوجا بزبده أو سمنه •

وبالجملة فمن تدبر فى بدائع

صنع الله فى الألبان ، حيث بدأ مسيرة تكوينها بخلق الأغذية اللائقة بالأنعام واعداد مقارها والأجهزة الهاضمة لها ، وخلق الضروع التى تصنعها بعد وصول الدم اليها ، وأعانها على أداءوظيفتها وهداها الى وقت قيامها بها والفراغ من درها وافرازها ــ من تدبر كل ذلك بعقل رشيد وقلب شهيد ، اعترف بكمال قدرة الله وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته ، وأن يردد نحو ما يقوله الشاعر :

حكم حارت البرية فيها
وجدير بأنها تحتار

وصدق الله تعالى اذ يقول « ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »

تعدد ذكر الانعام فى سورة النحل

وقد ذكرت الأنعام فى سورة النحل عدة مرات ، ايذانا بجليل نعم الله فيها وتعدد منافعها ، ومن ذلك قوله تعالى فى أوائلها «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » ٥

أى أنه تعالى خلق هذه الأنعام التى تقدم بيانها فيها ما نستدفىء به حيث تحفظ لنا حرارة أجسامنا، وتدفع البرد عنا فى فصل الشتاء ، حين نصنع من أصوافها وأوبارهاثيابا وأغطية وفرشا ، وكل ذلك له أثره البليغ فى توفير الحرارة فى الاجساد والدفء فى البيوت ، كما خلق فيها منافع كثيرة غير ذلك ، كالحرث وادارة النواضح ، ودرس الحاصلات الزراعية ، وكصناعة الحقائب والخيام من أصوافها وأوبارها وأشعارها وصناعة الأحذية والفراء من جلودها

ومن الأنعام نأكل اما بتناول لحومها طبخا أو شواء ، واما بتأجيرها والتعيش من أجورها ، واما ببيع نتاجها أو بيعها بعد تسمينها ، ثم ذكر الله نوعا آخر من منافعها فقال :

« ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) » أى وكما خلقها لمنافعنا المادية ، فقد جعل لنا فيها جمالا تتمتع به النفوس وتسريح له القلوب ، حيث نرى فيها جمال التركيب ، وتناسب الأعضاء وتعدد الألوان أو اتحادها ، وسلاسة القياد ، وسرعة الامتثال ، والعدو

السريع رغبة فى مطلب أو هربا من مهرب ، ونحو ذلك من أصناف الجمال الذاتى أو الخلقى

وحمل بعضهم الجمال فيها على التزين بها فى أعين الناس والوجاهة لديهم (١) ، والمعنى الأول أولى من الثانى فان الاول هو اللائق بتواضع المؤمنين الموسرين ، أما الثانى فانه قد يحمل على الخيلاء وينتهى الى الكبرياء

وتقييد الجمال بقوله « حين تريحون وحين تسرحون » ليس الغرض منه أن جمالها مقصور على وقت الاراحة آخر النهار ــ حيث يردها أصحابها من مراعيها الى مراحها ــ ووقت الروح أول النهار ــ حين يخرجون بها من حظائرها الى مسارحها ومراعيها ، بل لأنه يكون أكثر ظهورا فى هذين الوقتين منه حين عودتها من رحلة مكدودة فيها ، أو من عمل أجهدت فيه .

ثم ذكر فضلها فى الأسفار البعيدة فقال عز من قائل :

« وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم (٧) »

أى وخلق الأنعام لتحمل أثقالكم من متاع وطعام وكل ما يثقل على الانسان حمله ، تحملها الى بلد لم تكونوا قادرين على بلوغه الا بمشقة الأنفس وتعبها وتهافت قوتها ،وحمل بعضهم الأثقال على ما يعم الأبدان والأولاد والأحمال ، وشمولها للانسان مأخوذ من قوله تعالى « وأخرجت الأرض أثقالها » وهو رأى طيب موافق للواقع ، وهذه المزية خاصة بالابل ، وبالجملة فان فى الأنعام مزايا مشتركة كاللبن والدفء والأكل وكثير من المنافع ، وتختص البقر بالحرث والابل بحمل الأثقال غالبا ، ويصنع من جلودهما بيوت متنقلة ، كما يشير اليه قوله تعالى فى سورة النحل « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها

١) ويقول أصحاب هذا الرأى : ان هذا الجمال والتزين وان كان من متاع الدنيا ، فقد أذن الله فيه لعباده بهذا النص ، كما قال صلى الله عليه وسلم « الابل عز لأهلها ، والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير » خرجه ابن ماجه فى السنن .

يـوم ظعنكم ويـوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشـعارها أثاثا ومتاعا الى حين » ٨٠

وبعد فقد علمت مما تقدم أصنافا من نعم الله وآياته ، ومن حقه تعالى أن تشكره على هذه النعم بكمـال الايمان به ودوام الطاعة له ، وتقواه فى السر والجهر ، واليسر والعسر ، وأن تتوب اليه من ذنوبك انه كان توابا ، وتستغفره من أوزارك انه كان غفارا ، وعليك بدوام قراءة القرآن والاتعاظ بعظاته ، والادكار بزواجره ، واحذر شهواتك فانهـا سفينة الردى ، واحذر أصـدقاء السوء فانهم شؤم عليك ، واعلم أن أجلك مستور عليك وأملك خادع لك ، والشيطان لاصق بك ، يزين لك المعصية لترتكبها ، ويمنيك التوبة لتسوفها ، حتى تهجم منيتك عليك أغفل ما تكون عنها فيالها من حسرة، على ذى غفلـة ، أن يكون عمرك عليك حجة ، وأن تؤديك أيامك الى شقوة • وأسـأل الله لى ولك برد اليقين ، ولـذة المتقين وطمأنينـة الصالحين ، ورضوان رب العالمين

مصطفى محمد الطير

« وصية اعرابية لابنها اراد سفرا »

أى بنى ! اياك والنميمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا وخليق الا يثبت الفرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضـا الا كلمنه ، حتى يعى ما اشتد من قوته ، واياك والجود بدينـك ، والبخل بمالك ، واذا هزرت فاهزر كريما يلن لهزتك ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ومثل بنفسـك مثال غيرك ، فمـا استحسنت من غـيرك فاعمـل به ، وما استقبحت من غـيرك فاجتنبه .

لا خمور ولا فجور ولا ربا
بل جو إسلامى طاهر مطهر

للأستاذ أحمد حسين

ذلك عنوان يبدو انه باحدى الصحف السيارة ، أليق ، ذلك أن مجلة الأزهر ، قد ارتقت فى ظل رياسة تحريرها الجديدة ، الى ذروة لم تصل اليها من قبل ، فأصبحت عامرة بالابحاث والدراسات المتعمقة بما لا يوجد فى أى مجلة علمية أخرى متخصصة أو غير متخصصة، وسوف أكتب بالفعل ان شاء الله فى هذا الموضوع فى الصحف اليومية ومع ذلك ، فقد أردت أن أبدأ من الأزهر حامى حمى الاسلام ، لا فى مصر وحدها ولكن فى كل العالم الاسلامى ، فقد استقر الرأى أخيرا على وجوب سيادة التشريع الاسلامى فى مصر ، وأرى أنه يجب ، أن يصاحب هذا أو يسبقه جو اسلامى عطر طاهر مطهر ، من الأرجاس الذى غرقت فيها الانسانية ، ان أشد ما غرق فيه المسلمون من "وهم" وخطأ ، هو تصورهم ان الحياة العصرية والتقدم ، تعنى الخمور والفجور والربا ، ولم يتصوروا أبدا أن ذلك كله لا يعنى تقدما ، بل ردة الى الوراء ، وانسلاخ من المدنية والحضارة ، فانتشار الخمور والفجور وعلى رأسها الزنى والتعامل بالربا ، كان من أخص خصائص الجاهلية ، ولو نظرنا الى القرآن نظرة مادية بحتة لكنا أمام وثيقة تاريخية .. تحدثنا عن أحوال سيطرت على الجزيرة العربية منذ ألف واربعمائة سنة ، ولم تكن هذه الأحوال السائدة الا انتشار الخمور والفجور والربا ، فكان الزنى على سبيل المثال ، نظاما اجتماعيا معترفا به ، فكانت الزوانى يعلقن راية على خيامهن ، ليعلم من لم يكن يعلم

انهن بغايا وبائعات هوى ، وكان الكافة لا يرون حرجا فضلا عن اثم، فى ممارسة الزنى ، وكل ما يهمنا ان نقرره ، انالفجور والخمور والربا ليست بالأمور العصرية ، ولا هى آية التقدم والتمدن ، وانما هى قديمةقدمالزمان ، وهى قد سبقت الحضارات والمدنيات ، فغير صحيح اذن الزعم بأنالفجور والخمور والربا هى آية التقدم فضلا عن الحضارة .

زوال الحضارة الاوربية والامريكية !

ويتصور أقوام أنه ما دامت هذه الآفات الثلاث « الفجور والخمور والربا » سائدة فىأوروبا وأمريكا، فهذا هو الدليل على أنها من مقتضيات المدنية ، ومهمة هذا المقال أن يبدد هذا الوهم ، فأوروبا لم تنهض الا فى القرون الثلاثة (من السابع عشر الى التاسع عشر) . ففى هذه القرون الثلاثة أحرزت أوروبا ما أحرزته من انتصارات ، وفتحت واستعمرت واكتشفت ، ولم تكن اوروبا وبالتالى امريكا تعرف فى هذه الفترة الفجور ، واذا كانت تعرف الخمور ففى دائرة محدودة يهيمن عليها ضبط النفس ، وكان الشكر يعتبر خطيئة وجريمة ، وفى ظل ما اعتبروه حضارة أوروبية ، وهو ليس فى حقيقته الا الأخذ ببعض التعاليم الاسلامية ، وقد حققت أوروبا كل ما حققته فىهذه الفترة، غير انهمسمحوا لليهود بأن يتغلغلوا فى حياتهم الفكرية والثقافية والمالية ، فكان أن نفذوا فيهم مخططاتهم ، التى تهدفالى تفكيك شعوب العالم ودفعهم نحو الانحلال والتدهور ، ليبقى اليهود وحدهم هم المترابطون والمتكاتفون ، فيسهل عليهم السيطرة على العالم ، فكانت الثوراتوالحروب ، وفرض النظام الرأسمالى ، ونقيضه الشيوعى ، وكلا النظامين يهدفان لغرض واحد وهو هدم الوشائج الانسانية ، واحلال الكراهية والصراع بين الطبقات ، بدلا من الحب والتعاطف والتعاون ، ومن خلال ذلك زحف الصهيونيون على فلسطين فاحتلوها وشرعوا يغيرون

على العرب بمساعدة أوروبا وأمريكا تصوراً منهم جميعا ان الدنيا قد دانت لهم ، ونسوا ان الدمار كان قد دب اليهم فى ظل ما نشره اليهود فى صفوفهم من خمور وفجور وربا ، وبدأ القرن العشرون يشهد تدهورا أوروبيا أمريكيا ، وطبعا لم يشعر بذلك المسلمون ، ولم يشعر بالأكثر أصحاب الشأن من أوروبيين وامريكان ، متصورين ، ان خروج البلد أو ذاك ، أو هذه الكتلة من الدول ، منتصرة فى هذه الحرب هو كل شىء ، حيث هو نصر مادى بحت ، لا يمثل كبير شىء ، وليس أدل على ذلك ، من أن انجلترا التى خرجت من الحرب العالمية الأولى أقوى قوة عسكرية فى العالم لم تستطع أن تثنى ارادة الشعب المصرى الذى هزم ارادتها ، وأكملت الحرب العالمية الثانية ما بدأته الحرب العالمية الأولى ، وانهارت الامبراطوريات الأوروبية ، وكان أكثرها انهيارا أعظمها قوة ، وأعنى بها الامبراطورية الانجليزية .

امريكا وفيتنام :

وخرجت الولايات المتحدة الامريكية من الحرب العالمية الثانية وهى بدورها تتصور نفسها أقوى قوه فى الدنيا ، فاذا بها تنهزم هزيمة مخزية أمام دولة أسيوية صغيرة ، هى فيتنام ثم لا تقوم بعد ذلك للولايات المتحدة قائمة ، ذلك انه متى سلط هذا الثالوث الشيطانى « الخمور والفجور والربا » فذلك يعنى تدهور المجتمع وانحلاله اذ يصبح أفراده عبيد شهواتهم ، عبيداً للمال .

نهوض العالم الاسلامى :

والذين تتبعوا مقالاتى على صفحات مجلة الأزهر يعلمون اننى من المؤمنين بأن التاريخ قد دار دورته بسرعة ، فشرعت شمس الحضارة والمدنية ، تغرب فى الغرب ، لتشرق من جديد فى الشرق ، وما العالم الاسلامى الا قلب هذا الشرق ، حقا ان اوروبا وامريكا لا تزال لديهما قدرة على عمل الآلات والسلاح ، ولكن ذلك هو ثمرة عمل الأمس ، وكد الأمس فضلا عن تضحيات فالنتيجة محتومة بل ومحققة .

وليس السلاح ،ولا الآلات باللذين يشكلان حضارة .

وانما تقوم الحضارة على الايمان بالله والتشريع السماوى الذى يصونه ضمير الفرد والجماعة ، وعلى الأخلاق والسلوك وجوهرهما العدل فى معاملة الآخرين ، وكبح الشهوات فى مواجهة النفس ، وأكل الربا هو اهدار للعدل بالنسبة للآخرين وشيوع الخمور والفجور هو اطلاق للشهوات والغرائز .

على العالم الاسلامى ان يستعد :

ان فرصة العالم الاسلامى ، أصبحت سانحة وشكراً لأعداء الاسلام ، وعلى رأسهم الصهاينة فقد أحسوا بنهضة العالم الاسلامى فبدأوا يحذرون من يقظة المسلمين، ولن يستطيعوا ولو تكاتف أعداء الاسلام جميعا أن يوقفوا هذه اليقظة ، وغنى عن البيان أن ما دفع الى هذا التحذير هو أحداث ايران ، ونحن من ناحيتنا لا نرى فيها الا نصراً للاسلام والمسلمين .. الذى يحدث على امتداد العالم بشتى الصور والأشكال .

ومن هنا قلنا : ان على العالم الاسلامى ان يستعد وأول خطوة فى سبيل الاستعداد هو الكف عن كل ما يجىء من أوروبا من عادات وتقاليد وأفكار فى الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة ، فضلا عن الأخلاق والسلوكيات التى أصبحت كلها يهودية تهدف كلها لدمار المجتمع .

وعلى العالم الاسلامى ، أن يلوذ بقيمه وعاداته وتقاليده التى تكونت على ضوء تعاليم الاسلام من ذلك على سبيل المثال .. عدم شرب الخمر أو تداولها وبيعها وشراؤها ، ويكفى لكى نظهر عظمة الاسلام وعمق تأثيره على معتنقيه .. أن نذكر ماذا فعلت أمريكا لتحريم الخمر فى مطلع هذا القرن .

امريكا والخمر :

لقد أدرك مفكرو الولايات المتحدة الامريكية وقادتها فى مستهل هذا القرن ما فى تعاطى الخمور من أثر مدمر على المجتمع ، ليس فقط من

حيث تأثيره على الصحة العامة ، ولكن من حيث تشجيعه على الجريمة والعنف الذى أصبح سمة من سمات المجتمع الامريكى ، وأصدرت الدولة تشريعا لحظر الخمر ، وشحذت الدولة كل امكانياتها وأجهزتها وأسلحتها لتطبيق هذا الحظر ، فكانت النتيجة هى الفشل ، والفشل التام الساحق الماحق ، اذ ادى حظر الخمر فى امريكا ، الى عكس المقصود منه تماما ، فقد ازداد الخطر على الصحة العامة ، اذ أصبح الناس « من شاربى الخمر » يشربون خمراً مغشوشاً ، أو يصنعونه بأنفسهم داخل بيوتهم ، أما من حيث الجرائم واصطناع العنف ، فقد تضاعف ذلك عشرات المرات ، وقامت دولة عصابات مهمتها تهريب الخمور وصنعها ، وقتل كل من يحول دون ذلك أو رشوته كبيراً ما كبر شأنه ، وهكذا تضاعفت المفاسد ، مما اضطر الدولة وأنفها راغم أن تعيد السماح باطلاق الخمور تداولا وشربا وبيعا وشراء وصنعاً .

فاين ذلك من الاسلام :

وما عليك الا أن تقارن ذلك ، بما هو عليه الحال بين المسلمين ، حيث لا تكاد نسبة من يشربون الخمر تصل الى نصف فى الألف ولم تصل هذه النسبة الى هذا القدر الذى يمكن اهماله حسابيا الا فى ظل الاستعمار الأوروبى للمسلمين .

ومع ذلك ، فقد ظل الأمر محصورا فى المدن ، وبين نفر من الناس تصوروا أن التمدن هو فى تقليد الأوروبيين ، أما الآن وقد زال الاستعمار وأوروبا وأمريكا يتدهوران ، فقد أصبح على المجتمع الاسلامى أن يلوذ بقيمه التى أثبتت القرون أنها سر نجاحه وعلى رأسها « حظر شرب الخمر » .

ولا فجور :

كما يجب أن يتطهر وجه المجتمع المصرى « لأنه وجه الاسلام » من كل مظاهر الفجور ، والفجور باعتباره فساداً وشراً ، لا يمكن استئصاله من أى مجتمع لأنه جزء

من الحياة ، فكما أنها تتألف من النور والظلام ، فهى تتألف كذلك من الخير والشر ، فعندما نقول ان المجتمع يجب أن يتطهر من الفجور ، فنحن لا نعنى بحال القضاء عليه فذلك مستحيل لأنه جزء من طبيعة الحياة ، وانما الذى نعنيه هو أن تكف الدولة والمجتمع على اعتباره من الأمور التى يمكن لأى سبب من الأسباب ، ولو فى أضيق الحدود وقصره على أماكن معينة ، فكل ذلك من قبيل « المجاهرة بالمعاصى » وهو مايدمر المجتمعات تدميرا ، وأبناء الجيل الجديد قد لا يعرفون مثلا .. أن ممارسة الزنى فى مصر عن طريق المومسات والبغايا ، كانت تجارة مشروعة فى مصر ، وكانت الحكومة المصرية « بأوامر الانجليز طبعا » كانت تعطى رخصة لمزاولة العهارة ، فعندما قمت واخوانى نحارب البغاء الرسمى ، كانت الحجة التى تشهر فى وجهنا « على الدوام» ،هى القول بأننا اذا ألغينا البغاء العلنى ، فسوف يتحول الى سرى، فيتضاعف خطره ، ولم نكن نتردد لحظة فى الرد : فليكن ، ولكن مصر المسلمة لا يمكن ــ أبدا ــ أن تعترف بالزنى كأمر مشروع .

وهذا هو عين ما يجب ان يقال اليوم لكل مظاهر الخلاعة والانحراف والمجون ، ولعب القمار، ومزاولة البغاء مما يندرج تحت كلمة « الفجور » فالقول بأننا اذا منعنا هذه المظاهر فى العلن فسوف تتضاعف وتصبح أشد خطرا فى السر ، ومرة أخرى .. لا يعنيناهذا الزعم ، بفرض صحته « وهو غير صحيح » .

ولنا فى ذلك الحديث الشريف : « اذا بليتم فاستتروا » .

حكاية السياحة وزيفها :

ومن الامور التى أصبحت تتردد بكثرة ــ وهى من الأكاذيب والمغالطات الشائعة ــ القول بأن التشجيع على السياحة يتطلب أن نوفر للسائح ما اعتاده من حياة اللهو والفجور والا بحث عن متعة فى مكان آخر ، وليس ذلك الا أثراً من آثار الماضى ، عندما

كان العالم الاسلامى قد انصرف عن حضارته وأصبح تابعا ذليلا لأوروبا • أما اليوم وقد نهض العالم الاسلامى وأصبح من مسئولياته أن يقود لا أن يقاد ، فيجب أن يظهر بوجهه الحقيقى بكل حضارته الاسلامية البناءة ، حيث لا خمور ولا فجور ولا ربا ، ان السائح الأجنبى ، سوف يأتى اضعافا مضاعفة ليشهد ، ما يتصور استحالته ، ولكن الاسلام جعله ممكنا ، والسائح يريد تغييراً فى حياته ، وأى تغيير أعظم من أن يتنفس هواء نقيا ويعيش فترة فى مجتمع نظيف طاهر •

ولا ربا :

ولنصل أخيراً الى الركن الثالث من أركان هذه القوة التى تدمر المجتمعات ، والتى نجح اليهود فى اقناع الأوروبيين والأمريكان بها ، وهى أن الحياة العصرية ، لا تستطيع السير ــ فضلا عن الانطلاق ــ الا من خلال « الربا » حيث تؤدى المشاركة الى كل النتائج التى تنشط الحياة الاقتصادية والمعاملات ، بين الناس ، وقد سارت البشرية بهذا الأسلوب ألوف السنين ، فباطلة هذه « التركيبة » التى نجح اليهود فى اقناع البشر بها ، من وجوب الربا ، حيث لم يستفد منه الا اليهود فقط ، فأصبحوا ملوك المال فى العالم ، ولم يصلوا الى ذلك الا من خلال للربا •

وبعد :

فاننى لن أمل ولن أسأم من دعوة العالم الاسلامى الى النهوض ليقود العالم ، ولن يكون ذلك بالسير فى ركاب أوروبا وافكار أوروبا ، ولكن بالعودة الى الشخصية الاسلامية ومقوماتها من التعاليم الاسلامية ، ولما كان من هذه التعاليم اطلاق اللحية ، ونحن هنا فى مصر لم نحلق لحانا الا منذ الاستعمار البريطانى وتقليدا لأوروبا ، فقد هدانى الله « وله الحمد والشكر » لأطلق لحيتى ، وان كنت أدهش لشىء ، فهو تأخرى فى فعل ذلك حتى الآن ، وليس يعزينى الا أن كل شىء يتم عندما يشاء الله

والحمد لله أولا وآخرا •

حقائق سافرة

الأزهر وحرية الفكر

للدكتور محمد رجب البيومى

أراد الأستاذ توفيق الحكيم أن يجمع مالديه من خطابات شخصية وقصاصات صحفية فى كتاب خاص يكون شاهدا على جهاده الأدبى فى عمره الحافل ، فأصدر ما سماه (وثائق من كواليس الأدباء) وللأستاذ أن ينشر ما يشاء ، ولكن ليس له أن يجبر الناس على أن يفهموا الحقائق على غير وجوهها الصحيحة ، كما يلوح ذلك فى كثير مما كتب ، اذ شاء أن يجعل نفسه نصيراً للحرية والفكر ، وهو ادعاء سنعرف مقدار حقيقته فى نهاية هذا المقال ، وقد كنت أوثر أن أغضى عنه لولا أنه تحرَّش بالأزهر فى صفحات من كتابه ، تحرشا لا يستند الى واقع قائم ، فندد بما زعم من تدخله المتكرر فى شئون الفكر مستندا الى وهم لا أساس له ، وقد ثبت له عن يقين أن الأزهر لم يناهضه فى شىء ، ولكنه سوَّد ما سوَّد وكأن الوهم المتخيل أصبح حقا واقعا ، اذ بلغه ـ كما ادعى ـ أن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله قد اعترض على ما جاء بكتابه (يوميات نائب فى الارياف) خاصا برجال القضاء الشرعى ، فاهتبل هذه السانحة دون أن يتأكد من صحتها ثم أدلى بحديث ينعى فيه على الأزهر تدخله المتكرر فيما سماه بشئون الفكر ، وكأنى بالفارس المضطهد وقد سره أن يظهر فى صورة المدافع عن الحرية فاندفع الى رد الهجوم المتخيل ليعلم الناس أنه أحد ضحايا الرأى الحر ، والفكر الجرىء ، وقد شاء أن يقرن الاسلام بالمسيحية ، والأزهر بالكنيسة ، كما

يفعل أعداء الاسلام ظلما دون عدل ، فقال فى حماسة :

« وقد آن الأوان لنواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الأزهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن تتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة ، وخطر التأليف ونهضة العلوم اذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى بمثل هذه الروح ، فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون ، فلما جاءت عصور النور ، وتم فصل الكنيسة عن الدولة استطاعت الحضارة أن تزدهر هذا الازدهار الذى يسود العالم اليوم ، فلاشك اذن عندى أن مستقبل مصر متوقف على ضمان حرية العقل والأفكار الضرورية لكل نهضة حقيقية »[1]

وقد توالت الصفحات فى كتاب الأستاذ الكبير لتثبت له الحقائق أن الأستاذ الأكبر لم يتدخل فى شىء يتعلق بكتابه ، وكان عليه بعد ذلك أن يرفع هذه الصفحات الظالمة من الوثائق لأنها بنيت على افتراء باطل ، ولكن الكاتب أثبتها فى اصرار ، ثم نسى أنها دعوى كاذبة فقال فى نهايتها معقبا « هذه الأحاديث والأخبار المنشورة فى صحف ذلك العهد تتعلق بأزمة الحياة الفكرية التى تعرضت لها لما رأيت من خطورتها على نهضتنا العقلية »[2]

وقارىء هذا الكلام يظن أن الأستاذ قد تعرض حقا لأزمة فكرية ، كما يظن أن الحياة الفكرية فى مصر بنوع عام قد تعرضت لهذه الأزمة بسبب تدخل الأزهر !؟ وكل ذلك خطأ لا يقوم دليل واحد على صحته لدى من يزنون الأشياء بميزانها الصحيح ، ولا نحب أن نمضى بالحديث الى آفاق شاسعة تخرج بنا عن نطاق الأستاذ توفيق الحكيم الى سواه ، بل نحب فى هذا المقال أن نبين أن الأستاذ توفيق الحكيم تحرّش بالأزهر فى

١) وثائق من كواليس الأدباء للأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠
٢) وثائق من كواليس الأدباء للأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٩

مناسبات كثيرة دون أن يكون صاحب حق فى هذا التحرش ، كما نحب أن نذكره ببعض ما نسيه من بطولة الأستاذ الأكبر فى مواجهة العدوان المحتل بجبروته وطغيانه ، ليعلم من المدافع الحقيقى عن الكرامة الانسانية فى ميدانها الأصيل ــ :

١ ــ يقول الأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ « ان الانتصار الذى تم (للأزهر) فى حظر كتاب (جان دارك) قد شجع على الاستمرار فى هذه الخطة» ، ولكى يكون القارىء على بينة من موقف الأزهر الصائب من قصة جان دارك وموقف الأستاذ توفيق الحكيم المخطىء منهما نوجز الحديث عنها فيما يلى :

لقد قررت كلية الآداب منذ أربعين عاما تدريس قصة جان دارك لبرناردشو الكاتب الانجليزى الذائع ، فقرأها الطلاب ورأوا فى بعض ما جاء بها من الحوار على لسان أحد الأشخاص طعنا فى نبى الاسلام ، فتحمس الطلاب المسلمون لكرامة نبيهم العظيم ، وطالبوا المسئولين بعدم تدريس القصة ، وكتبوا عن ذلك فى الصحف ، فاهتم وزير المعارف بالأمر ، وتحدث كبار علماء الأزهر يؤيدون الطلاب وفى طليعتهم الامام المراغى والأستاذ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، ولكن الأستاذ توفيق الحكيم شاء أن يتّدعى الغيرة على الحرية ــ حيث لا خوف على حريته هو من أحد فكتب ينتقد الطلاب الذين ثاروا لكرامة نبيهم ، والأزهر الذى قام بواجبه فى تأييد الطلاب ، وقال فى ادعاء غريب بعد أن تساءل فى دهشة عن فزع الطلاب [١]

« ان الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوربا المسيحية دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية ، ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات ، وأن المسيحية التى عاشت عشرين قرنا لا يهدمها عشرون كتابا ، كذلك نستطيع أن نقول فى الاسلام أن

١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٨ ١٩٣٩/٣/٢٠ م .

هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا وثبت لأحداث الزمان وشاهد دولا تدول وعروشا تزول ، وشعوبا تولد ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف ، أو عبارات تقال ، ان هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق ، كذلك يدهشنى أن ينشأ الفزع فى جامعة عصرية ، يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الأول، وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة فلا خوف عليه الآن من مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية »

هذا ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم ، وهو كلام ظاهر البطلان لدى صغار الطلاب ، فضلا عن أصحاب الأقلام من المفكرين ، وقد تعرض لدحضه أحد طلبة كلية اللغة العربية بمجلة الرسالة حين كتبه الأستاذ منذ أربعين عاما وهو صديقى الأديب الغيور أحمد عبد الرحمن عيسى ، فسأل الأستاذ فى قوة [١] : أى برنامج من برامج التعليم فى أوروبا قُرّرت فيه كتب" تطعن فى المسيح ، وتجرّح سيرته ثم قُرّرت على الطلاب فى الجامعة وفرضت عليهم فرضا لتكون من أسس ثقافتهم الرسمية ؟! ان انجلترا حرّمت دراسة نظريات علمية بالجامعات احتراما لشعور الجماهير حين مسّت بعض أصول المسيحية ولكنها لم تحرمها خارج الجامعة ، فللكتّاب أن يتحدثوا عنها كما يشاءون ، ولكن ليس لأحد أن يقرر على الطلاب ما يغرس فى نفوسهم الشكوك !؟ وسؤال الأستاذ الصديق يدل على أن الكاتب الكبير لا يفرق بين تدريس كتاب يُقرّر غَصباً على الطلاب ، وكتاب يؤلفه انسان ليقدمه للقراء دون أن تفرضه الجامعة فرضا دون اختيار !؟ وأزيد على ما كتب الصديق فأتساءل لماذا تكون أوربا والمسيحية دائما وجهة الكاتب الكبير فى المقارنة ، كما قارن الآن بين الجامعة المصرية وجامعات أوربا ، وبين المسيحية والاسلام فيما نقلناه عنه ، وكما قارن بين الأزهر والكنيسة فى حديثه بالمقطم !؟ ان هذه المقارنة توحى أن الأستاذ يعتقد أن الاسلام

١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

كالمسيحية ، وأن رجال الاسلام يملكون من التحكم فى المصائر والعواقب مثل ما كان يملك القساوسة فى الكنيسة ، وهى مقارنة تسىء الى الاسلام ، اذ تحمل عليه أوزاراً لم يقترفها حماته ولا تمت الى أصل من أصوله ، وهذا ما عناه الأستاذ الدكتور محمد البهى حين قال فى الرد على دعوى الأستاذ توفيق الحكيم [1]

« ان الأزهر لا يطلب سلطان الكنيسة فى القرون الوسطى ، ولم يطلبه يوما مثا ، وانما يؤدى مهمته الروحية فوق مهمته العلمية وهى المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، وشيخ الأزهر لا يحد من حرية البحث الجامعى اذا ما حاول أن ينزع الأمة من تحكم فئة تدعى لنفسها من الألقاب الثقافية ما تشاء مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمى فيه » ثم قال الدكتور البهى : « حددوا الألفاظ قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة بين نهضات الأمم على أسس صحيحة ، وتخلوا قبل كل شىء عن عقيدة وجوب تقليد الغرب ، أما الايمان أولا بوجوب تقليد الغرب فى خيره وشره ، ثم الزام القارىء بنتائج ما يسمى (البحث) المبنى على هذا الايمان فذلك هو هدم حرية التفكير ، والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة فى القرون الوسطى »

فاذا تركنا ما كتبه الأستاذان الدكتور البهى، وأحمد عبد الرحمن، عيسى الى ما كتبه غير الأزهريين فاننا نجد الكاتب الغيور الأستاذ محمد أحمد الغمراوى يفرد للرد على كلام الأستاذ توفيق الحكيم مقالا ممتازا بالرسالة [2] تحت عنوان (أما لهذا الليل من آخر) قال فيه : ان الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة قد أكرهوا اكراها على ترك القصة المقررة ، ولكنهم لم يكرهوا فى شىء بل دفعتهم غيرتهم الدينية من تلقاء أنفسهم الى رفض هذا التهجم وأبلغوا شكواهم الى العميد ، فلم

١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٢٢١ سنة ١٩٣٩ م .
٢) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ٣/٢٧ سنة ١٩٣٩ م .

يفعل شيئا، فاهتم بالأمر شيخ الأزهر ووزير المعارف ، فاذا كانت هـذه قيامة ــ كما تصور الحكيم ــ فمن الذى أقامهـا !؟ أمَّن طلب تغيير الكتاب أم مَن فـرض على الطلاب شـيئا يمَّس جوهرهم الايمـانى فلفظوه ؟؟ وأزيد على كلام الأستاذ الغمراوى فأتساءل هل تضـمنت القصة نقاشا علميا وتحليلا فكريـا فيما تعرضت فيه لنبى الاسلام ، أو هوحوار على لسان بعض الاشخاص لم يعن فيه بتقرير الحقائق !؟ فأين الخوف على التقدم العلمى والحرية الفكرية ليس أَبا عُذرَتِه ،بل سبقه كل الاباء !؟

على أن ما يتباهى به الأسـتاذ الحكيم من الـدعوة الى الحـرية الفكرية ليس أباعذرته ، بل سبقه اليه كل مفكر اسلامى درس أصول هذا الـدين الحنيف ، والأسـتاذ المـراغى الذى لم يـرض الكاتب موقفه من القصة ، ونسـب اليـه انتقادا مُفترَى على بعض ما جاء فى «يوميات نائب فى الأرياف»قد خطب أكثر من مرة فى طلاب الأزهر ليعلن لهم رأى الاسلام فى تقرير حريـة الفكر ، وليرد على من يخافون من تَدخُّل الأزهر فى شئون الكتابة كما وهم الأستاذ الحكيم ، فقـال رحمه الله من حديث مستفيض [١]

« ان الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحيـاة العامـة فهم يقولون ان الأزهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، اذ يحظَّر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلميـة الحـرة ، هذا ما يقوله الناس ، أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها، لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء ، ومن الأئمة الـذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمـل هذه المذاهب المتعددة التى نقرؤها فى علم الكلام ، وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه ، وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا فى أن يردوا عليهـا بالـدليل ، فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى ولكن الأزهر يكره شـيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين ،

١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص (و) من الجزء الرابع سنة ١٩٣٩ .

وتعمّد الاستهزاء بأئمة المسلمين ، يكره هذا ، ويكره أن يشكك العامة فى دينهم ، وأن يشكك النشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم ودائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها » .

فاذا تركنا موقف الأستاذ الحكيم من قصة برناردشو وثورة الطلبة فى كلية الآداب على بعض ما جاء بها خاصا بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم الى موقفه من رسالة (القصص الفنى فى القرآن) فاننا نجد المفكر الكبير يتسرّع فى مؤاخذة الأزهر ومن سارواسيره فى معارضة الرسالة دون أن يعرف حدود المسألة ، وكان له فى تسرعة الأول ما يدعوه الى التؤدة فى الاعتراض، فقد ظن المسألة مسألة حرية رأى ، لا مسألة فوضى جامعة ، وكان فى تجربته السابقة عبرة عاصمة ، حتى لا يقع فى خطأ يضطر الأستاذ العقاد الى أن يصححه له ، كما يضطر عميد كلية الآداب أن يوضح للجمهور أن الذين يتدخّلون فى شئون الجامعة ليسوا على شىء من الدراية العلمية تؤهلهم لهذاالتدخّل، وموجز القصة أن أحد الطلاب تقدم لنيل الدكتوراه برسالة تبحث فى (الفن القصصى للقرآن) وقدعرضت الرسالة للفحص فرفضها الأستاذان أحمد أمين ، وأحمد الشايب وقال عنها الأستاذ أحمد أمين فى تقريره العلمى « وقد وجدتها رسالةليست عادية ، بل هى رسالة خطيرة أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام لصدق التاريخ ، وأن محمدا فنان بهذا المعنى ، وعلى هذا كتبت الرسالة من أولها الى آخرها » [1]

ومن حق الأستاذان الفاحصان أن يرفضا كلاما يريان بطلانه ،ولكن الأستاذ المشرف على الرسالة قد أيد الطالب، ولم ينتظر الحكيم حتى يقرأ الرسالة ، بل أرسل صيحته المضرية فى احترام حرية الفكر ، وخالف الجامعة فيما اتجهت اليه من رفض الرسالة !؟ ومن البديهى أن الجامعة لا تستطيع أن تمنح الدكتوراه

١) مجلة الرسالة : العدد ٧٤٩ ١٩٤٧/١١/١٠ م .

لطالب مخطىء ، فلها الحرية كل الحرية أن تقول للمخطىء : أخطأت، ولكن هذا البديهى ينكره الأستاذ توفيق الحكيم ويسير فى ركب المندفعين باكيا على حرية الرأى حتى يضطر الأستاذ العقاد أن يأتى بعصا موسى فتسكت المعارضين جميعا حين قال [١] :

« حرية الرأى مكفولة لكل انسان ، ولكن لا حرية بغير تبعة ، فكل ذى رأى مسئول وحده عن رأيه ، وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته وليس له أن يلقى التبعات على غيره ، لأن حريته تنتهى عند انتهاء التبعة التى يحملها باختياره ، فلا اختيار له فى حريات الآخرين !؟

من حق الباحث أن يبدى ما يشاء فى حدود القانون وليس من حقه أن يحمل غيره (يريد الجامعة) على تزكية رأيه وترويجه أو الاذن باجازته ونشره ولاسيما اذ يكون ذلك الغير هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الأمة كالجامعة المصرية وما جرى مجراها

فالجامعة المصرية جامعة حكومة ، ومعنى أنها جامعة حكومية : أن الزامها لطلابها هو الزام يقوم به القانون وتحميه الدولة وليس فيها للطالب أو ولى أمره خيار فليس لأحد أن يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دروسا تحتاج الى احتمال تبعة ، وليس له أن يلقى عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرها وتزكيها ، وهو يزعم أنه حر فيما يصنع وأنها هى المقيدة أمامه فلا حرية لها ، فى رفض هذا الصنيع .

وقد سبقتنا الى النظام الجامعى أمم كثيرة ، .. فلم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة اكسفورد مثلا ببحث فى ميلاد السيد المسيح هل كان مولدا طبيعيا أو كان مولد خارقة واعجاز !؟ ولم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة السوربون ببحث فى تدوين الأناجيل ، هل هى، من كتابة الرسل أو كتابة آخرين معلومين أو مجهولين !؟

والجامعات الانجليزية تدرس تواريخ الأديان وتدرس المقابلة بينها ، فلم نسمع قط أنها أجازت لصاحب رأى أن يطلب منها اقرار

١) المصدر السابق .

قول من الأقوال يخالف ما تلتزمه أمام جميع المتعلمين .

الى أن يقول الكاتب الكبير الأستاذ العقاد : « ليس بعالم ولا مستحق لأمانة العلم من لا يقدر ولا يميز بين ما يقرره باسمه ، وما يطلب من المشرفين على التعليم أن يقرروه ، وقلما يعنينى هنا أمر رسالة بعينها وانما يعنينى توضيح الحد الفاصل فى مسألة الحرية ، وهو حد منسى على ما نرى فى حسبان بعض المبتدئين ، بل بعض الأدباء المعدودين !؟

ولو لم يكن هذا الحد محتاجا الى التذكير فى مرحلتنا هذه من الحياة الفكرية لما رأينا رجلا كصديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ينساه وهو ينقد الجامعة المصرية لأنها رفضت تبعة تلقى عليها ، وليس من حقها أن تقبلها باسم الدولة ، وليس من مقتضى رفضها أن تحول بين طالب من الطلاب ، أو مدرس من المدرسين وبين اعلان ما يراه بغير واسطتها اذا شاء »

* * *

بلغ العقاد فصل الخطاب فى ايضاح الحق ودحض الباطل ، وسكت الأستاذ الحكيم فلم يستطع الرد عليه فى شىء ! وقد أثبت كلام العقاد أن الذين ينقدون الجامعة ويتباكون على الحرية الفكرية ! لا يعرفون مهمة الجامعة من ناحية ولا يعرفون حدود الحرية الفكرية من ناحية ثانية ، فأولى بهم السكوت !؟

* * *

وبعد .. فتظاهر الاستاذ توفيق الحكيم بالحرص على الحرية والغيرة عليها وتقرير ذلك عن نفسه فى كثير مما كتب وقال ، لم يكن مما يعنينا أن نكشفه على وجهه الصحيح لو لم يحاول أن يتنقص من أعلام كبار ، هم فى الحقيقة أنصار الحرية الحقيقيون ، فالامام المراغى قد جاهر على رءوس الأشهاد بحياد مصر فى الحرب العالمية الثانية معلنا أن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى حرب الانجليز والألمان ، وقد قامت الدنيا وقعدت وأبرق السفير البريطانى وأرعد فى وقت كان هو الحاكم الفعلى بمصر ، فلم يتراجع الشيخ الأكرم عن قوله ، وحينما

اتصل به رئيس الوزراء فى منتصف الليل (حسين سرى) مذعورا من تهديد السفير ، ومحذرا الشيخ أن يعود عماقال ، قال له الامام الأكبر فى كبرياء : من أنت ؟ أستطيع أن أقيلك بخطبة واحدة فوق منبر الأزهر أو منبر الحسين [١] ! ولكن الأستاذ توفيق الحكيم اعترف بنفسه أنه عاش عشرين عاما غائب الوعى لا يعى فظائع الطغيان والكبت والقهر ، وظل يمدح ويقرظ حتى غاب المعتدى وأمن المؤاخذة فأصدر كتابه (عودة الوعى) لينتقد من دعا الى اقامة تمثال له ظانا أن من جاء بعده سيحذو حذوه ، حتى اذا انكشف المستور ، صاح صاحبنا : لقد عاد الوعى ! ومضى يجمع قصاصات من الصحف تحمل تعريضا أليما بزعيم من زعماء الكرامة والرجولة والحرية الحقيقية !؟ ولم يسأل نفسه : أين العصا من السيف ؟ وأين المنجل من الحسام ؟؟

د٠ محمد رجب البيومى

١) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب ص ١٩٥ ــ المطبعة المنيرية

وعظ مالك بن دينار عظة مؤثرة أبكت الحاضرين فلما فرغ افتقد مصحفه فلم يجده ، فأقبل عليهم يقول : كلكم تبكون فمن سرق المصحف ؟

* * *

الدنيا كالماء المالح ، كلما ازددت منه شربا ازددت منه عطشا .

* * *

* الايمان قوة الحياة .

* * *

* كما انه لا يمكن لانسان أن يحيا بغير قلب ، كذلك لا يمكن لانسان أن يحيا بغير دين .

* * *

* دلتنى خبرة عشرين سنة على أن السبب الأساسى لتفشى المجون والفساد ــ سوء طريقة تلقين التعاليم الدينية .

« تولستوى »

في مواجهة الإلحاد المعاصر

غيبيات المادة

للدكتور يحيى هاشم

يعنى الحس المشترك عادة بالشىء المادى أشياء مثل شجرة ، كرسى ، قلم الى آخر هذه الأشياء التى يصعب حصرها ، فالشىء المادى بهذا المعنى هو موضوع جامد ذو أبعاد ثلاثة ، محدد بسطح معين يعزله عن البيئة ، كما يجعله قابلا للتعرف عليه على الرغم من تغير هذه البيئة .

وعلى ذلك فيمكننا تعريف الشىء المادى كما يفهمه الحس المشترك على أنه كائن يدوم خلال التغيرات ، أى أنه كائن فعلى يحافظ على نواة ثابتة خلال تغير الخواص الادراكية والخارجية ، وباختصار هو كائن يحتل حيزا محددا فى المكان وله دوام معين فى الزمان وله وجود مستقل عن وجودنا ونكون على ادراك مباشر به .

وعن هذه المادة كتب نيوتن يقول :

انى أرجح ان الله عندما خلق الدنيا خلق المادة أجزاء جامدة صلبة متحركة ، لا ينفذ فيها شىء ، وليس فى مقدور قوة عادية ان تقسم ماجعله الله واحدا .

والى ما بعد عهد دالتن الفيزيقى الكبير ١٧٦٦ — ١٨٤٤ كان الأمر حيث زعم ان الذرة لا تنقسم ، وانها تدخل اعنف التفاعلات الكيموية وتخرج منها ولم يضرها من ذلك شىء . وكان يرى ان هذه الذرات أشياء تلمس وتحس .

وفى اثر بحوث بيركورى ومدام كورى قام السير جوزيف جون طمسون ١٨٥٦ — ١٩٤٠ فى عام ١٨٩٧ (ففقأ عين العقيدة التى تقول

ان الذرة هى آخر شىء يقف عنده تجزؤ الأجسام)

(وكان على طمسون ان يبحث تلك المناطق التى تتصل فيها المادة بالقوة والقوة بالمادة ... تلك المناطق التى تقع عند الحد بين المعلوم والمجهول من هذه الدنيا) واكتشف طمسون : الالكترون ، أو « الدقيقة » كما سماه أول مرة ، وتوصل الى أن المادة والطاقة الكهربية شىء واحد وانهارت بهذا حوائط الذرة وواصل العلماء كشفهم لأسرارها

الذرة :

تتركب المادة من عناصر

وتتركب العناصر من ذرات

وتتركب الذرات من بروتونات والكترونات ونيوترونات ... الخ

الفرق الأساسى بين البروتون والنيوترون يرجع الى ما يحملانه من شحنة كهربائية فالبروتون يحمل شحنة موجبة بمعنى انه ينجذب الى شحنة سالبة ويتباعد عن شحنة أخرى موجبة .

وقد أطلق رذرفورد على ذرة الايدروجين الحاملة لشحنة موجبة كلمة بروتون المشتقة من أصل لاتينى معناه « الاول »

اما النيوترون فمتعادل أى لا يحمل اى شحنة كهربية على الاطلاق ، وهذا نفسه هو معنى الكلمة لغويا (المتعادل ــ أو المحايد) .

والالكترون يحمل شحنة سالبة معادلة للشحنة الموجبة فى البروتون

وباكتشاف النيوترونات فى سنة ١٩٣٢ اكتملت الصورة الأساسية للذرة . غير ان العلماء شرعوا ــ بناء على ما ظهر بعد ذلك من نظريات حديثة ــ فى وصف حبيبات لم يلحظ احد وجودها من قبل وان كانوا يعتقدون بأنها توجد فى الذرة فعلا . وهكذا ظهر فى الثلاثينات فرع جديد فى علم الفيزياء للبحث فيها اطلق عليه « حبيبات أولية »

وقد علق البعض على غرابة هذا الاسم اذ ان هناك حقيقتين فقط فى هذا الميدان اولاهما ان الحبيبات الاولية ليست أولية بأى حال من الاحوال بل هى بالغة التعقيد والحقيقة الثانية ان الحبيبات ليست

حبيبات فقط بل يعمل البعض منها كموجات من الطاقة ليس لها أيّة كتلة .

وكانت اولى الحبيبات التى اكتشفت مماثلة للالكترون فيما عدا انها تحمل شحنة موجبة وقد اكتشفها سنة ١٩٣٢ كارل اندرسون من المعهد الفنى بكاليفورنيا اثناء قيامه بابحاث فى الاشعة الكونية واطلق عليها اسم بوزيترون وكان قد لاحظ ان بعض الذرات عندما تتعرض لاصطدام الأشعة الكونية بها تخرج حبيبة لها خواص الاليكترون تماما فيما عدا انها تحمل شحنة موجبة والسبب فى انها لم تلحظ من قبل ان فترة بقائها تبلغ نحو واحد على بليون من الثانية .

وفى عام ١٩٣٥ تنبأ هيديكى يوكاوا (ولد سنة ١٩٠٧) من جامعة كيوتو فى اليابان بوجود حبيبة أخرى ــ الميزون ــ وجاء فيما قاله يوكاوا ان الميزون هى الرباط الطاقى أو الغراء الذى يربط الحبيبات معا داخل النواة .

وقد عثر كارل اندرسون بدوره على الميزون اثناء ابحاثه عن الاشعة الكونية ..

وأظهرت الابحاث اللاحقة أن الميزون نوعان ــ نوع ثقيل أو « بى ميزون » وآخر خفيف أو موميزون .

وفى عام ١٩٣١ تنبأ فيزيائى استرالى يسمى وولفجانج باولى (١٩٠٠ ــ ١٩٥٨) بوجود حبيبة أخرى تشع من بعض العناصر وكانت حبيبة بلا كتلة تعمل على التخلص من الطاقة التى كان يبدو انها تختفى اثناء الاشعاع .

ولم تكشف هذه الحبيبة بالفعل الا فى عام ١٩٥٦ ، ناتجة من تفاعلات نووية جبارة . وتعرف الآن باسم نيو ترينوس .

وعندما يتصادم بوزيترون واليكترون يختفى الاثنان معا ولذلك يعرف البوزيترون أيضا باسم « مضاد الاليكترون » .

وقد أدى ذلك الى الظن فى وجود حبيبة مضادة لكل نوع من الحبيبات وثبت أخيرا أن هذا الظن فى موضعه . وأصبح مجموع

الحبيبات والحبيبات المضادة التى وجدت داخل الذرة أكثر من الثلاثين .

لا مادية النيوترون :

يقول الكاتب البريطانى آرثر كوستلر :

من بين كل هذه الجزيئات الاولية التى تتضمنها قائمة عالم الفزياء وتثير حيرة الانسان ، ومن أكثرها شبها بالاشباح الجزء المسمى النيوترون . وقد تنبأ بوجوده وولف جانج بولى عام ١٩٣٠ بناء على أسس نظرية خالصة . بيد أنه حتى عام ١٩٥٦ ، اى طوال خمسة وعشرين عاما أو يزيد كانت النيوترونات الفعلية التى تنبعث من المجمع النووى الضخم للجنة الطاقة الذرية من الولايات المتحدة المقام على شاطىء نهر سافانا يصطادها داخل المعمل كل من ف رانيس و ك كووان ويرجع السبب فى مضى وقت طويل حتى تم تسجيلها الى ان النيوترون لا يكاد يتميز بخصائص فيزيائية : اذ ليست له كتلة أو شحنة كهربائية ولا مجال مغناطيسى . ومن المعروف أن ليس بالامكان جذبه بالمغناطيسية ولا يمكن الامساك به أو طرده بوساطة المجالات الكهربائية والمغناطيسية لجزيئات أخرى ينطلق بجوارها .

ومن ثم فان النيوترون المتولد فى سكة التبانة بل فى بعض السدم وينطلق بسرعة الضوء يمكنه ان يظل نقيا عبر الجسم الصلب للارض وينفذ منه وكأنه ينفذ عبر الفراغ . ولا سبيل الى ايقاف النيوترون الا عن طريق صدام مباشر بجزىء أولى آخر . والجدير بالذكر أن فرص حدوث مثل هذا الصدام المباشر اثناء النفاذ عبر الارض كلها تبلغ حسب التقدير السائد مرة من بين ١٠ر٠٠٠ مليون . ويشير الكاتب العلمى مارتن جاردنر الى ذلك قائلا : « لحسن الحظ انه ثمة نيوترونات كافية حولنا بحيث أصبح ممكنا وقوع مثل هذه الصدامات والا لاستحال علينا تسجيل النيوترون .

بينما يطالع القارىء هذه الجملة تنبعث بلايين النيوترونات وتأتى الى الأرض منطلقة من الشمس والنجوم

الأخرى ، بل ربما من سدم أخرى ، وتنفذ عبر جمجمة القارىء ومخه.»

يقول آرثر كوستلر :

« ويذهب العقل المحايد الى الاعتقاد بأن النيوترونات ذات نسب بالأشباح وهو العقل الذى لا يرفض وجودها وليس هذا القول مجرد استعارة لفظية »

ليست الذرة شيئا ماديا :

يقول هانز ريشنباخ ــ وهو ملحد :

بعد ان فسر لويس دى بروجلى الجمع بين النظريتين الجزيئية والموجية بأبسط معانيه وهو ان هناك جزئيات تصحبها موجات تسير مع الجزىء وتتحكم فى حركته ... قدم شرودنجر تفسيره بالاستغناء عن الجزيئات ، وأنه لا توجد الا موجات تتجمع فى بقاع صغيرة معينة فينتج عنها شىء يشبه الجزىء، فهى اذن حزم موجية تسلك على نحو شبيه بالجزيئات ..

ثم اقترح ماكس بورن الفكرة القائلة بأن الموجات لا تكون أى شىء مادى على الاطلاق وانما تمثل احتمالات فأدى تفسيره هذا الى حدوث تحول غير منتظر فى مشكلة الذرة ، وفى هذا التفسير لا تكون للموجات حقيقة الموضوعات المادية بل تكون لها حقيقة المقادير الرياضية فحسب .

وواصل هيزنبرج السير فى هذا الطريق ، حيث كشف عن مبدأ اللا تحدد

واخيرا جمع بور بين نتائج بورن ونتائج هيزنبرج فوضع مبدأ التكامل ، وهو المبدأ القائل بأن تفسير بورن يقدم وجها واحدا للمشكلة ، وان هناك وجها آخر وهو ان ننظر الى الموجات على انها ذات حقيقة فيزيائية وهو رأى لا يكون فيه للجزيئات وجود ، ولا سبيل الى التمييز بين هذين التفسيرين لأن اللاتحدد كما يقول هيزنبرج يجعل من المستحيل القيام بتجربة فاصلة .)

ويوضح ريشنباخ المعنى الذى ينطوى عليه مبدأ التكامل الذى تحدث عنه بور فيقول : « عندما يسمى وصف الموجة والجزىء وصفا تكامليا يعنى انه بالنسبة الى المسائل

التى يكون احد هذين الوصفين تفسيرا كافيا لها ، لا يكون الآخر تفسيرا كافيا والعكس بالعكس ، مثال ذلك : اننا اذا كنا بصدد لنموذج التداخل على شاشة فاننا نأخذ بالتفسير الموجى ، اما اذا كنا بصدد ملاحظات عدادات جيجر نستخدم التفسير الجزيئى • وينبغى ان نلاحظ ان لفظ « التكامل » لا يفسر او يزيل الصعوبات المنطقية التى تنطوى عليها لغة ميكانيكا الكوانتم وانما هو مجرد تسمية لها فحسب •• ومن الواجب أن نؤكد ان هذا الموقف المنطقى ليس له نظير فى عالمنا الفعلى الكبير » •

ويقول هيزنبرج عن لا مادية الذرة :

(ليس الجوهر جسيما ماديا فى الفضاء والزمن وانما هو بشكل ما مجرد رمز تتخذ قوانين الطبيعة عند تقديمه شكلا سهلا واضحا •)

ويقول :

(اتضح من تفسير « الخصائص الحسية » للمادة عن طريق ذراتها ان مثل هذه الخصائص لا يمكن ان تنسب لقالب المادة النهائى بشكل بسيط •)

ويقول :

(لقد منحت الذرة اذن ــ على الأقل فى خيالنا ــ كل النواحى الميكروسكوبية للمادة ، ثم عرف مع الزمن ، ان اصغر الجسيمات ، كالالكترونات مثلا ، لا يمكن أن تمتلك نفسها « الخواص الحسية » للمادة)

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(الذرة ــ أو اذا اردنا الدقة « الالكترون » أصغر وحدة فى الفيزيقا الذرية الحديثة ــ لم تعد تظهر فى ذاتها حتى ابسط الخصائص الهندسية والميكانيكية)

ويقول :

(لقد وضع كل ما توصلنا اليه من تفهم للمادة فى النهاية فى شكل معادلات رياضية)

ويقول الدكتور هرمان راندال :

(أما ان تكون معادلات الموجات بالغة التجريد فلأمر واضح • وأكثر

الفيزيائيين يكتفون الان بعدد من المعادلات الرياضية التى تتنبأ عن الحوادث فى حقل الاشعاع .

وقد توقفوا عن التطلع الى نموذج ميكانيكى للذرة يمكن ان ترتسم صورته فى المخيلة ..)

ويبين هيزنبرج أن :

تركيبات الذرة هى التى تحدث خصائص المادة : من اللون والرائحة والزمن وشغل الفراغ اما الذرة فليس لها شيء من ذلك .. يقول :

(اذا قلنا ان حركة الذرات داخل الاجسام هى التى تميز بين الباردة منها والساخنة ـ اذ تكون حركتها فى الاجسام الساخنة اسرع منها فى الباردة ـ فان الذرة الواحدة لا يمكن أن تكون باردة أو ساخنة .

وعلى هذا جردت الذرة بالتدريج من كل « الخصائص الحسية » وصارت الخصائص الهندسية هى الوحيدة التى بدا لمدة طويلة انها تحتفظ بها من القول بأنها تشغل الفضاء والمكان والقول بأن لها حركة محددة ـ غير ان التطور فى الفيزيقا الذرية الحديثة قد ازال حتى هذه الخصائص)

ويقول :

(ان الخواص المرئية للمادة كشغلها للفراغ وقوة المواد واللون والخصائص الكيمائية ، كلها صفات للمادة فى شكلها المتكامل ، ولكنها لا ترتبط بنفس الطريقة بأصغر « القوالب » التى لا تنقسم للمادة ...)

ومن هنا فقد بدأت طائفة من العلماء تقلع عن وصف المادة بما يفيد ماديتها .

يقول دكتور هرمان راندال :

(هناك ميل لاستعمال مصطلحات جديدة ـ يصفها الكثيرون بأنها منطق جديد وهى الاستمرار الزمانى المكانى ، والاحداث والمجارى والفاعليات بدلا من الأشياء أو الجواهر ، وقد ذهبت علاقة الموضوع بالمحمول وحل محلها السلاسل الوظيفية والنسب المتبادلة)

كيف امكن ادراك الذرة :

هل ترى الذرة بطريق مباشر أو غير مباشر ؟ كلا لا هذا ولا ذاك .

وقد يمكن رؤية نجم غير مرئى

بالميكروسكوب الالكترونى الذى يكبر الاشياء أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ مرة .

ولكن هذا المنظار لا يكفى لرؤية الذرة ...

وكما رأينا كبار العلماء التجريبيين ينكرون فى البداية : الجاذبية ثم ينكرون الكهرباء

وجدناهم أيضا ينكرون النظرية الذرية .

وهم كانوا فى انكارهم مدفوعين بارتباطهم بالمنهج العلمى التجريبى الذى لا يعترف بغير مايدرك حسيا .

يقول الدكتور جون كيمنى :

(رفض بعض الاوائل من دعاة الفلسفة العملية القول بالنظرية الذرية لان المفاهيم التى تستند اليها غير قابلة للتحديد بواسطة عمليات حسية ، أى بكلمة اخرى ، لان الذرات غير مرئية ، غير ان هذه النظريات تغلبت على كل انتقاد)

ان التسليم بوجود الذرة ، وبأجزائها ليس ناشئا من كونها خاضعة للادراك الحسى بأى وجه من الوجوه ولكن لأمرين :

الأمر الأول :

الضرورة المنطقية اللازمة لتفسير الوقائع المشاهدة .

يقول فيرنر هيزنبرج :

(ربما استطعنا ان نوضح بمثال الصفة الرمزية للمفهوم الحالى عن الذرة فالذرة من الفيزيقا الحديثة تظهر تشابها للجذر التربيعى لناقص واحد $\sqrt{-1}$ فى الرياضة — فبالرغم من أن الرياضة الأولية تقول انه لا يوجد مثل هذا الجذر التربيعى بين الأرقام العادية ، الا اننا نجد ان أكثر القضايا الرياضية أهمية تتخذ ابسط شكل لها اذا ما قدمنا هذا الجذر التربيعى كرمز جديد .

فالتبرير اذن يكمن فى القضايا نفسها .

وبنفس الشكل فان خبرات الفيزيقا الحديثة تبين لنا انه لا وجود للذرات كأشياء مادية بسيطة ، الا ان تقديم مفهوم « الذرة » يمكننا من الصياغة السهلة للقوانين التى تحكم كل المعطيات الفيزيقية والكيمائية .)

ويقرر الدكتور جون كيمنى ان :

الأجسام الأصغر من الذرة مجرد افتراض يسهل تعليل الوقائع المشاهدة وذلك اذ يقول :

(نحن نعتقد بوجود اجسام اصغر من الذرة لا لأننا « رأيناها » ــ ولو بشكل غير مباشر ــ ولكن لان افتراض وجودها يشكل اسهل فرضية يمكن لها تعليل الوقائع المشاهدة)

الأمر الثانى :

الذى تعرف به الذرة : آثارها • يقول الأستاذ جيمس •أ• كولمان :

(اننا لا نستطيع رؤية الذرة • حتى لو استخدمنا اقوى ما نملك من المجاهر وعلاوة على ذلك فان سرعة الالكترون فى مداره حول النواة تبلغ حوالى ١/١٠٠ من سرعة الضوء وهى درجة لا تمكنا من رؤيته باية طريقة •

ولكن ليس من الضرورى ان نرى الالكترون فعلا وهو يدور لكى نحدد شكل مساره اذ انه لحسن الحظ ينتج عن مساره اثار معينة يمكن اختبارها تجريبيا)

ويقول فيرنر هيزنبرج :

(انه يمكن ملاحظة المادة فى ظواهرها عن طريق التقدم الرائع فى الطرق التجريبية الا انها لا تخضع لاحساساتنا •)

كتلة الجسم تابعة لحركته :

عندما يتحرك جسم ما بسرعة أكثر فأكثر فان كتلته تصبح أكبر فأكبر • ولنفرض جدلا ان رصاصة اطلقت بسرعة ٩٩ر٩٩٩٩٩ فى المائة من سرعة الضوء فان كتلتها تصبح عدة اطنان • وليس هناك من وسيلة معروفة للتخلص من ارقام ال « ٩ » وجعل الرصاصة تسير بسرعة تساوى سرعة ١٠٠ فى المائة من سرعة الضوء أما اذا سار الجسم بسرعة الضوء نفسها فان كتلته تصل الى ما لا نهاية •

طول الجسم تابع لحركته :

كلما زادت سرعة الجسم بالنسبة لراصد مّا ازداد فى القصر • والآن نتساءل :

ماذا يحدث اذا اخذنا فى زيادة السرعة أكثر فأكثر ؟

هل يختفى الجسم ؟

هذا هو بالضبط ما تقول المعادلة انه سوف يحدث ، اذ يتضح بسهولة أنه كلما اقتربت السرعة ع من سرعة الضوء حـ اقترب طول الجسم من الصفر • وعندما تصبح ع=حـ فان الطول يصبح صفرا وهذا يعنى ان الجسم يكون قد اختفى •

طاقة الجسم تابعة لحركته :

لقد وجدنا ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعته ، وتبعا لذلك يجب أن تزداد طاقته أيضا • اذ ان الجسم الأثقل تكون له طاقة أكبر من الجسم الأخف اذا كانا يتحركان بنفس السرعة • ويمكن اثبات ان الزيادة فى الطاقة الناتجة عن ازدياد الكتلة تساوى الزيادة فى الكتلة ، يصحبها أو يكافئها طاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء •

وهذه هى النتيجة التى توصل اليها اينشتين • ويعبر عنها رياضيا بالمعادلة •

$$ط = ك حـ^{٢}$$

حيث ط الطاقة المكافئة ، ك كتلة الجسم ، حـ سرعة الضوء •

وتفسير المعادلة هو انه اذا تحولت كتلة اى جسم الى طاقة دون ان يتخلف عن ذلك اية مادة ، فان مقدار الطاقة المنطلقة تحدده هذه المعادلة •

المادة والطاقة :

أظهرت نظرية النسبية الخاصة أن المادة والطاقة ليسا بالامرين المختلفين تمام الاختلاف كما كان الانسان يعتقد قرونا طويلة ، بل الواقع ان فى الامكان تحويل الواحدة الى الاخرى •

ويعبر عن ذلك بالرموز التالية :

$$ط = ك ع^{٢}$$

ومن العجيب انه لو كان فى مقدورنا ان نحول الكتلة بأكملها الى طاقة لكان فى رطل واحد من الفحم الحجرى ما يكفى لمد الولايات المتحدة بأكملها بحاجتها من الكهرباء لمدة شهر كامل •

واذا قارنت بين الطاقة المنطلقة باحتراق رطل من الفحم والطاقة المنطلقة عندما تتحول كتلته كلية الى طاقة فانك تجد ان الطاقة الناتجة فى الحالة الثانية تعادل ثلاثة بلايين مرة قدر الطاقة فى الحالة الاولى •

فعملية تحـويل جزء محسوس من المادة الى طاقة تختلف كلية عن عملية الاحتراق العادى .

تحويل المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة :

يقول الكـاتب البريطانى آرثر كوستلر :

(يستطيع عالم الفيزياء ان يلاحظ ما لا يمكن تصوره والتفكير فيه . وهو تحول الكتلة الى طاقة وتحول الطاقة الى كتلة .)

ويقول فيرنر هيزنبرج :

(ان المادة والاشعاع ليسا سوى ظاهرتين مختلفتين لحدث واحـد ، ولقد كانت الخطة الأولى فى هذا السـبيل هى اكتشـاف ديـراك واندرسون انه من الممكن ان تحول المادة الى اشعاع وان يحول الاشعاع الى مادة .)

ويقول :

(لقد وجدنا الان ــ كما تمنى الأغريق ــ جوهرا واحدا أساسيا ، منه يتكون كل الواقع ، واذا كان علينا ان نسمى هذا الجوهر ، فلن نسميه الا « الطاقة » ولكن هـذه الطاقة الأسـاسية لها القدرة على الوجود فى أشكال مختلفة .

ومن بين الاشـكال الأسـاسية للطاقة هنـاك ثلاثة أنواع بالذات ثابتة هى الالكترونات والبروتونات والنيـوترونات ، وتتركب المـادة بمعناها الحقيقى من هذه الاشكال الثلاثة بالاضافة الى طاقة الحركة ، كما ان هناك جسيمات تتحرك دائما بسرعة الضوء تشمل الاشـعاع ، وأخيرا هناك اشكال لها فترة حياة قصيرة ، لم نكتشف منها الا القليل

وعلى هذا فان تعـدد الظواهر الطبيعية يخلق اذن عن طريق تعدد مظاهر الطاقة)

قانون بقاء الطاقة افتراضى :

يؤكد قانون بقاء الطاقة ان كمية القوة الفـاعلة فى الطبيعية بأكملها لا تتغير ولا يمكن ان تزيد أو ان تنقص .

وهذا القانون يدعى بالقانـون الاول للحرارة الحركية .

والقانون الثانى قانون تشـتيت الطاقة القائل :

أن مجموع الطاقة الكونية ، ولو أنه ثابت لا يتغير .. الا أن مجموع الطاقة النافعة يتناقص بتحوله النهائى الى حرارة غير نافعة أو مشتته ..

يقول دكتور هرمان راندال عن هذين القانونين :

مما تجب ملاحظته أن هذه التعميمات الكبيرة بالرغم مما لها من قيمة فائقة فى توحيد ظواهر الطبيعة المتنوعة تحت بضعة قوانين اساسية .. انما هى افتراضات اكثر منها نظريات مطلقة ثابتة ، ومع كونها فرضيات ضرورية للعلم ، الا أنها بالرغم من ذلك فرضيات فى الايمان العلمى

وقد هددت الاكتشافات العلمية الحديثة هذا القانون ..

يذكر برنارد جافى : (أن العلماء افترضوا وجود جسيم مضاد للنيوترينو ــ وهو جسيم افترضوا وجوده ايضا ليفسروا به ما يحدث للميزون عندما ينحل فيعطى الكترونا ونيوترينو ــ

وسموا الجسم الذى افترضوه اتى نيوترينو .

وقد افترضوه ــ وهذا هو المقصود بالاستشهاد ــ ليحتفظوا بصحة القانون الذى يفرض ثبات المادة والطاقة أو عدم انعدامهما .)

ونحن نعلم كيف يتشبث العلماء بافتراض معين لعدم توصلهم ــ أو لعدم رغبتهم فى التوصل ــ الى افتراض آخر يحل محله . وانظر مبحثنا الفائت عن التشبث الارادى بالنظريات .

ما هى الجاذبية :

عندما اقترح كيبلر فرضه القائل أن حركتى المد والجزر ترجعان الى قوى جذب تنبعث من القمر ، شجب جاليليو هذه الفكرة واعتبرها تخيّلات سحرية لانها تتضمن « التأثير عن بعد » وهو ما يتناقض مع (قوانين الطبيعة)

بيد أن هذا لم يمنع نيوتن بعد ذلك من وضع نظريته عن الجاذبية.

ويعنى قانون الجاذبية عند نيوتن : انه « بين كل دقيقة من دقائق المادة فى الكون ، وكل دقيقة أخرى قوة تجاذب تتناسب طرديا مع كتلتها وعكسيا مع مربع المسافة بينهما »

يقول سير اسحاق نيوتن :

(لم استطع كشف اسباب خصائص الجاذبية هذه من الظواهر وليس لدى اية فروض عن ذلك)•

وعلى ذلك فان اكتشاف قوانين الحركة والجاذبية انما قام على عدم امكان تداخل الاجسام بعضها فى بعض وخاصية قبولها للحركة ومالها من قوة دافعة •

وبالنسبة لنا يكفى أن تكون الجاذبية موجودة فعلا تبعا للقوانين التى شرحناها والتى عم استخدامها لتفسير كل حركات الاجرام السماوية •

يقول : ادوارد •ج• هيوى :

(ان قانون الجاذبية من أهم قوانين الطبيعة رغم أن الجاذبية نفسها ما زالت لغزا عميقا مجهولا)

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(ان هذا القانون فى وضعه العملى ، يؤدى الى وصف لكيفية دوران كوكب ما حول الشمس . أو بالاحرى ، لكيفية دوران كل منهما حول الآخر ، ان الكوكب والشمس يحتملان مواقع معينة حددتها مواقعهما السابقة ، ولكن أيمكن لنا القول بأن المواقع الحالية هى المسببات للمواقع اللاحقة ؟)

بامكاننا ، طبعا ، أن نسمى «قوة التجاذب » بالسبب ، الا أن هذا مفهوم خيالى لا يشكل سببا يمكن مشاهدته بالنسبة الى المنهج التجريبى •

ولما كان « الوزن » يعزى الى « الجاذبية » فانه يصبح من المسلمات التى لا يدرى كنهها •

ما هى المغناطيسية .

يقول ادوارد ج هيوى :

(الواقع أن نظرية الجزيئات المغناطيسية لا تفسر تماما كل ما يتعلق بالمغناطيسية فنحن لا زلنا نعجب ما الذى يجعل كل جزء من هذه مغناطيسا • ولكنها على أى حال مجرد تخمين معقول للمغناطيسية ولكن الحقيقة انه ما من مخلوق يعلم بالضبط كيف تعمل المغناطيسات •

وربما كان هناك دوائر كهربية صغيرة بدلا من المغناطيسات ••

وبعد كل هذا تأتى النظرية التى تنادى بأن الارض كلها عبارة عن مغناطيس • كيف يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟ لا احد يعرف •

ولهذا فان نظرية الجزيئات المغناطيسية كما نرى أقرب وأصدق نظرية يمكن أن تفسر الكثير عن المغناطيسية رغم انها تعجز عن تفسير البعض الآخر

قد تكون هذه النظرية خاطئة تماما •

وعلى أى حال فالمغناطيسية لا زالت مبهمة يعتورها الكثير من الغموض)

ما هى الكهرباء :

التيار الكهربى لا يخرج عن كونه سيلا من الاليكترونات ، انها اليكترونات حرة ، انها تلك الاليكترونات التى هربت من ذراتها ولم تعد بعد مقيدة الى أنويتها •

يقول : ادوارد •ج• هيوى :

(اننا نعلم ما الذى تفعله الكهرباء ونعلم كيف تعمل ذلك ، ولكننا لا نعلم بالضبط لماذا تعمل الكهرباء ما تعمله • اننا فى الحقيقة لا نعلم بالضبط ما هى الكهرباء اننا نستعمل الكهرباء ، ولكننا لا نستطيع أن نفهمها تماما •)

ماذا « نرى » ؟

ان التموجات الكهربية والضوئية هما شىء واحد لكن •• انك لا تستطيع أن ترى التموجات الكهرومغناطيسية ، ولكنك ترى الضوء فكيف يمكن أن يكونا اذن صورتين لشىء واحد ؟ ان التفسير هو فى أطوال الموجة والتموجات •

ويمكننا قياس الاطوال المختلفة للتموجات الكهرومغناطيسية • وبعض هذه التموجات ذات أطوال قصيرة تكون فى بعض الأحيان أقصر من قطر الذرة ، فى حين أن لبعضها اطوالا قد تصل الى الاميال

فهناك تباين بين أطوال الموجات الكهرومغناطيسية • ولكنها جميعها تسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل فى الثانية فى الفراغ ••

ولأعيننا القدرة على رؤية التموجات الكهرومغناطيسية اذا كانت ذات طول معين • وهذه هى التموجات الضوئية •

ولا نرى التموجات الضوئية على شكل تموجات .

ولكننا نرى الضوء فقط . ونحن نعلم أن الضوء يسير فى تموجات ذات طول معين وأن الضوء ما هو الا جزء ضئيل واحد من أنواع مختلفة من التموجات الكهرومغناطيسية وتستطيع آلة التصوير أن تميز عددا من الموجات المختلفة الطول اكثر من العين ، ولذلك تستطيع آلة التصوير أن تلتقط صورا فى الظلام اذا وجدت انواع معينة من التموجات الكهرومغناطيسية . ورغم عدم قدرتنا على رؤيتها فانها تكون صورا على اللوح الحساس

تجريدات العلم :

يقول الدكتور جون كيمنى عن اتجاه العلم الى التجريد :

(ان القول « هذا السائل ازرق اللون » هو تقرير حسى وكلمتا « سائل » و « أزرق » تعبيران حسيان ايضا .

وأما القول بأن « الهيدروجين يتحد مع الاوكسجين ليشكل الماء فهو تجريد من مرتبة دنيا ، ذلك لان كلمة « هيدروجين » لا تشكل تعبيرا حسيا لان المشاهدة وحدها لا تكفى للدلالة عما اذا كان غاز معين هو بالفعل غاز الهيدروجين غير انه ليس من العسير على الرغم من ذلك ، أن تعتمد تعريفا حسيا على شكل اجراء الاختبار الكيميائى العادى لغاز الهيدروجين » .

أما القول بأن « ذرات الهيدروجين تحتوى على كهيرب واحد » فيشكل نظرية أكثر تجريدية من الاقوال السابقة ومن المحال أن تتمكن من التقدم بتعريف حسى لكلمة « ذرة » وكلمة « كهيرب »

وعليه نجد انفسنا نواجه تدرجا فى المفاهيم على قدر متزايد فى التجريد أما تبرير الوجود لكل من هذه المفاهيم فيكمن فى فائدتها لتشكيل النظريات البسيطة)

يقول فرينر هيزنبرج :

(هل يستطيع العلم أن يدعى انه يقود الى تفهم للطبيعة ؟

لقد حاولت أن أبين كيف أن الفيزيقا والكيمياء ــ تدفعهما قوة

لا نكاد نعرفها ـ قد تطورتا باستمرار فى اتجاه التحليل الرياضى للطبيعة على هدى مبدأ التوحيد ولقد تناقضت فى نفس الوقت ادعاءات علمنا بتفهم الطبيعة ـ بالمعنى الاصلى لهذه الكلمة .)

ويبين الدكتور هرمان راندال لنا كيف أن العلم لم يعد ماديا فيقول :

(ان الطاقة اصبحت فى هذه الايام أكثر اساسية من « المادة » وعلى ذلك فان علمنا لم يعد اليوم علما « ماديا » اذا اردنا الدقة فى التعبير وليس لقوانين الحركة الآلية من الشمول مثل مالسلوك حقل الاشعاع .)

بل قد لا تكون هذه القوانين سوى مجرد شكل خاص لذلك السلوك . ونتيجة هذا أن علمنا اليوم لم يعد علما (آليا) كعلم نيوتن . .)

ويقول برتراندرسل :

(نحن لا ندرك دائما كم هى مسرفة فى التجريد تلك المعلومات التى تقدمها لنا الفيزياء النظرية . فهى تقيم معادلات اساسية ، تتيح لها أن تتناول بناء الحوادث المنطقى ، بينما تدع ماهية الطبيعة الذاتية للحوادث التى تتصف بذلك البناء .. مجهولة كل الجهل .

فنحن لا نعرف طبيعة الحوادث الذاتية الا عندما تحدث لنا . وليس فى الفيزياء النظرية على الاطلاق ما يتيح لنا أن نقول أى شىء عن طبيعة الحوادث الذاتية فى غير ذلك المجال .

فهى قد تكون مشابهة لما يقع لنا من حوادث ، وقد تكون مختلفة عنها كل الاختلاف على انحاء لا يمكننا أن نتخيلها مطلقا .

وكل ما تتيحه لنا الفيزياء لا يعدو بعض المعادلات التى تقدم لنا بعض ما تتصف به تغيرات الحوادث من خواص .

أما ما هى هذه التغيرات ، ومن والى أى شىء تتغير ، فان الفيزياء لا تحير جوابا .)

وهكذا يتضح لنا التحول العجيب الذى قادته الفيزياء المعاصرة فى مفهوم المادة :

يقول الأستاذ عباس العقاد :

(كانت فضيلة المادة عند الماديين انها تقوم على الحقائق والوقائع لا على الظنون والأوهام .

فهى عندهم حقيقة الحقائق الثابتة التى لا يعتريها الشك لأنها محسوسة ملموسة محصورة فى مكان محدد : يخبط احدهم على المائدة بيده أو يضرب الأرض بقدمه ويقول لمن يجادله : هذه هى الحقيقة التى ألمسها بيدى وقدمى أو أراها بعينى .

ثم حدثت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون .

فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من اربعة وانها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء .

ثم تقدمت معرفتهم بالمادة حتى أفلت من المادة كل شىء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة .

فاللون من الشعاع والشعاع هزات فى الأثير .

والوزن جاذبية والجاذبية فرض من الفروض .

والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعةالجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة .

والحرارة ما هى ؟ حركة . والحركة فى أى شىء ؟ فى الأثير .

والأثير ما هو ؟ فضاء ، أو كالفضاء ، وكل وصف اطلقته على الفضاء فهو بعدذلك مطابق لأوصاف الأثير .

حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال .

فهذه الصخرة القوة صلبة جامدة يضربها الضارب بيده فترده فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها . فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة من يد الانسان القوى بالعضل والعصب ؟

ان حقيقة الصخرة تفقد تحت

يده برهانها فلا يحسه ، أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق ..

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة اخرى فاذا المادة كلها كهارب وذرات . واذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور . هل هذا الشعاع موجات ؟ أو هذا جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك فهذا وذاك فى ميزان « التجربة » سواء)

ويقول الأستاذ فانيفاربوش عن تمرد العلم على المحسوسات :

(يذكرنا العلم على الدوام بأننا مازلنا جهلاء ، وأنه مازال امامنا الكثير مما نتعلمه فالزمان والمكان متشابكان بأشكال غريبة وليس هناك زمن مطلق أو مكان مطلق .

وفى داخل الذرة تحدث ظواهر لا يجدى حيالها التخيل ، ولا تنفع الحواس التى ترشدنا فى خبراتنا اليومية ، ولكنها تستسلم للمعادلات التى لا معنى لها سوى انها تؤدى عملها على مايرام .

والكتلة والطاقة تتحول كل منهما الى الأخرى .

والجاذبية الصخرة الصماء التى شيدها نيوتن ، قد لا تكون الا مجرد خاصية من خواص الكون والحياة ، كما تتكشف لنا تفاصيلها، تصبح اكثر دقة وتعقيدا ، وتزيد حيرتنا يوما بعد يوم فيما اذا كانت وظائفها المذهلة ــ قد نشأت بمحض الصدفة أو بحكم الزمن .)

وهكذا أخذ العلم التجريبى يدفع الفكر الانسانى مرة أخرى ناحية الخيال .. وهذا ما جعل أرثر كوستلر يقول :

(أن علماء الفيزياء النظريين يدركون تماما الطبيعة السريالية للعالم الذى خلقوه ولكنه فى الوقت نفسه عالم ينطوى على قدر هائل من الغموض) .

وبالله التوفيق .

د. يحيى هاشم

سعيد بن المسيب "القدوة والمثل"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

ما زالت قصص الصالحين مددا زاخرا يفيض بالخير ويمد بالبركة ، ويتزود منه الناس فى مختلف عصورهم الزاد الذى يعينهم على مشقة الحياة وكدر الزمان وغلبة الهوى وفتنة التسلط .

ومن القصص ما يوحى بعظمة صاحبه فى ناحية من النواحى ، ومنه ما يوحى بالعظمة فى جميع جوانبها ، واننا لنقرأ تاريخ أسلافنا الصالحين رضوان الله عليهم ، فنحسب أنهم ليسوا من هذه الطينة التى خلق منها الخلق ، فهم نماذج عليا من الكمال الانسانى الذى يشع منه الخير والفضيلة فى شتى صورهما . ولو ذهبنا نقيسهم بمقياس زماننا المادى لرأينا عجبا وربما أساء الكثير منا الحكم عليهم لأننا نرى الدنيا بمنظار النفعية والمادية والأنانية والمصلحة الخاصة والكسب القريب ، فما من أحد يرتفع عن هذه المعايير — فى وهمنا القاصر — الا انسان اختل طبعه أو انحرف ذوقه .

هل يعتبر ناس هذه الأيام من يحيى ليله قائما أو مفكرا أو من يقضى حياته صائما ومن يقرأ القرآن كله فى يومه ومن يصدف عن باب الشهرة والسلطة انسانا سويا عاقلا ؟ انهم يقولون عنه ما يقولون . ويصفونه بالغفلة والشذوذ ويصمونه بالتهور والجنون .

* * *

ولقد كان جل أسلافنا من الصالحين من هذا الصنف الذى ترك الدنيا لأبنائها يتنازعون عليها ورموا بقصدهم الى الله فتصرفاتهم تصرفات ملائكة تمشى على الأرض، ولكنها تصرفات ذلك الزمان الغابر الذى عاشت فيه المثل وحييت فى

وجدان الناس فالمستغرب هو النقص لا الكمال .

اقرءوا معى هذه القصة واعجبوا

روى ابن خلكان فى تاريخه عن سيرة سعيد بن المسيب :

قال أبوودداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أياما . فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها . فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟

قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : ان أنا فعلت تفعل ؟ قلت : نعم . ثم حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال على ثلاثة .

قال : فقمت ، وما أدرى ما أصنع من الفرح ، فصرت الى منزلى جعلت أتفكر : ممن آخذ وأستدين

وصليت المغرب ــ وكنت صائما ــ فقدمت عشائى لأفطر ــ وكان خبزا وزيتا ، واذا بالباب يقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، ففكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد ابن المسيب ، فانه لم يُرَ منذأربعين سنة الا بين بيته والمسجد ، فقمت وخرجت ، واذا بسعيد بن المسيب ، فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد ، هلا أرسلت الى فآتيك ؟ قال : لا أنت أحق أن تؤتى ؟

قلت : فما تأمرنى ؟ قال : رأيتك رجلا عزبا وتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك ، فاذا هى قائمة خلفه فى طوله ، ثم دفعها فى الباب ، ورد الباب ، فسقطت المرأة من الحياء .

فاستوثقت من الباب ، ثم صعدت الى السطح فناديت الجيران ، فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ فقلت : زوجنى سعيد بن المسيب ابنته وقد جاء بها على غفلة منى ، وهاهى فى الدار ؟ فنزلوا اليها ، وبلغ أمى الخبر ، فجاءت ، وقالت : وجهى من وجهك حرام ان مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ..

ثم اذا هى من أجمل الناس وجها وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتينى ولا آتيه ، ثم أتيته وهو فى حلقته ، فسلمت عليه فرد على ولم يكلمنى حتى انفض من فى المسجد ، فلما لم يبق غيرى قال : ما حال ذلك الانسان ؟ قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو . قال : ان رابك شىء فالقضاء ؟

فانصرفت الى منزلى . وكانت بنت سعيد هذه قد خطبها عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتى ضربه فى يوم بارد وصب عليه الماء .

* * *

فانظر ماذا فى هذه القصة من مثل كريمة ترتفع بأصحابها عن مقياس عالمنا الذى نعيش فى أرجائه اليوم ؟ فسعيد بن المسيب يرفض مصاهرة ذوى المال والسلطان والنفوذ والشهرة ، ويزوج الفقير البائس المسكين على درهمين أو ثلاثة ، ولكن لنا أن نقول : انه أحسن الاختيار فقد اختار الصلاح على الفساد ، واختار الآخرة على الدنيا واختار الاستقرار والهدوء على التهدد ، لقد رأى ببصيرته الثاقبة ، ما يصلح لدينه ودين ابنته وما هو خير لهما فى عاقبة أمرهما ، فاختار أبا وداعة على الوليد بن عبد الملك .

ولكن الناس يقولون فى عصرنا الآن بلسان المادة عمن يتأسى بسعيد بن المسيب ما يقولون !؟

على أنه فى القصة جوانب أخرى لا تغفل ، فلم يكتف سعيد بأن يزوج ابنته لأبى وداعة الفقير حتى يسرع بأن يزفها اليه بنفسه ، وابنته هذه ليست عبئا عليه ولكنها حسيبة جميلة صالحة حافظة للقرآن عارفة بالسنة ، وهى ان انتسبت الى أسرتها فهى قرشية مخزومية ، وان انتسبت الى أبيها فهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وأحد علمائها المعدودين وأئمتها المجتهدين ، وحسبك فى هذا أن عبد الملك بن مروان كان حريصا على مصاهرته أولا ، وعلى الظفر بالموافقة على مبايعة ابنيه الوليد وسليمان ثانيا ، لما يعرفه من منزلته الرفيعة بين عامة المسلمين وخاصتهم ..

وفى تصرف أبى وداعة مثل عليا، فلم يقبل أن تزف عروسه اليه سراً

وقد عرف الناس عنه وفاة زوجه ، بل أعلم جيرانه بأن سعيد بن المسيب زوجه ابنته وزفها اليه ، درء اللشبهة وقطعا لألسنة السوء ، وفى ذلك تطبيق لما رواه الامام مسلم عن أنس رضى الله عنه ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مع احدى نسائه ، فمر به رجل فدعاه فجاء ، فقال : يا فلان ، هذه زوجتى فلانة، فقال : يا رسول الله ، ان كنت أظن به فلم أكن أظن بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان يجرى فى الانسان مجرى الدم .

* * *

بقى أن نعلم أن سعيد بن المسيب ــ كما جاء فى طبقات بن سعد ــ كان أعلم أهل زمانه ، وأنه قال : ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وعمر منى . قال سعد : وأحسبه قال : وعثمان ومعاوية .

ولقد أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت وسعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر ، وعن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ومنهن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ، كما سمع عن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وصهيب ومحمد بن مسلمة رضى الله عنهم . وجل روايته المسندة عن أبى هريرة وكان زوج ابنته .

ولقد شهد له أجلاء التابعين ، فقال مكحول عنه : سعيد بن المسيب عالم العلماء ، وكان عمر بن عبد العزيز لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب ، وكان عمر يجله ، ولقد أرسل اليه انسانا يسأله فدعاه فجاءه حتى دخل . فقال عمر : أخطأ الرسول انما أرسلناه يسألك فى مجلسك ، كان هذا فى أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة .

ولئن كان سلوك سعيد بن المسيب مع أبى وداعة مضرب مثل فسلوكه مع عامل المدينة حين ضربه وسجنه لاكراهه على البيعة لابنى عبد الملك أعجب وأمثل !؟

ولقد ضرب ستين سوطا قبل ذلك على يد جابر بن الأسود بن عوف الزهرى والى المدينة من قبل عبد الله بن الزبير لأنه رفض البيعة لابن الزبير حتى يجتمع أمر الناس.

وقد لام ابن الزبير عامله على ذلك

فلما جاء عبد الملك وولى هشام ابن اسماعيل المدينة وطلب البيعة لولديه رفض سعيد بن المسيب الاسراع فى البيعة وطلب أن ينظر فضربه الوالى ستين سوطا ، ووضعه فى السجن ، ولكن ذلك لم يلنه ولم يجعله يغير رأيه .

وفى سجنه صنعت ابنته طعاما له ووسعت فيه . قال أسلم أبوأمية مولى بنى مخزوم : فلما جاءه الطعام دعانى سعيد فقال : اذهب الى ابنتى فقل لها : لا تعودى لمثل هذا أبدا ، فهذه حاجة هشام بن اسماعيل ، يريد أن يذهب مالى فأحتاج الى ما فى أيديهم ، وأنا لا أدرى ما أحبس ــ كم أحبس ــ فانظرى الى القوت الذى كنت آكل فى بيتى فابعثى الى به ، فكانت تبعث اليه بذلك وكان يصوم الدهر ويفطر فى أيام العيدين وأيام التشريق .

* * *

انه لم يرض أن يذل نفسه لهؤلاء ولم يرد أن يتعرض لاحتياجه اليهم . قال عمران بن عبد الله الخزاعى : انى أرى أن نفس سعيد ابن المسيب كانت أهون عليه فى ذات الله من نفس ذباب .

وفى صبره على آلام سجنه وتعذيبه فى سبيل كلمة حق واعتناق مبدأ وحرية رأى مثل وأى مثل ، ولكن المثل الرائع يؤخذ من هذه القصة :

قال رجل من آل عمر : قيل لسعيد بن المسيب : ادع على بنى أمية ، فقال : اللهم أعز دينك وأظهر أولياءك وأخز أعداءك فى عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقد كان فى دعائه حريصا على اعزاز الدين ونصر الاسلام وأمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يفكر فى أن يكون دعاؤه على من ظلمه اقتصاصا لنفسه .

ولقد بلغ من أنفته لله أنه كان يدعى ليأخذ عطاءه من بيت المال فيأبى ويقول : لا حاجة لى فى ذلك حتى يحكم الله بينى وبين بنى مروان .

وكان سعيد بن المسيب يرى الاعتزاز بالعلم ويأبى أن يهينه أو يدنسه بالجرى فى ركاب الحكام ، والقصة الآتية تدل على ذلك :

حدّث ابن مهران قائلا : قدم عبد الملك بن مروان المدينة فامتنعت منه القائلة واستيقظ فقال لحاجبه : انظر هل فى المسجد أحد من حداثنا من أهل المدينة ؟

قال :فخرج فاذا سعيد بن المسيب فى حلقة له ، فقام حيث ينظر اليه ، ثم غمزه وأشار اليه باصبعه ثم ولى، فلم يتحرك سعيد ولم يتبعه ، فقال : أراه فطن ؟ فجاء فدنا منه ثم غمزه وأشار اليه وقال : ألم ترنى أشير اليك ؟ قال : وما حاجتك ؟

قال : استيقظ أمير المؤمنين فقال : انظر فى المسجد أحدا من حداثى فأجب أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد أرسلك الى ؟ قال : لا ، ولكن قال : اذهب فانظر بعض حداثنا من أهل المدينة فلم أر أحدا أهيأ منك . فقال سعيد : اذهب فأعلمه بأنى لست من حداثه .

فخرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ الا مجنونا ، فأتى عبد الملك فقال له : ما وجدت فى المسجد الا شيخا أشرت اليه فلم يقم فقلت له : ان أمير المؤمنين قال : انظر هل ترى فى المسجد أحدا من حداثى ؟ فقال : انى لست من حداث أمير المؤمنين وقال لى : أعلمه . فقال عبد الملك : هذا سعيد بن المسيب فدعه .

❖❖❖

ومن المثل التى نستفيدها من حياة ابن المسيب حرصه على الجماعة ، ولقد عذب فى سبيل الجماعة فما افتتن ، وكان ضربه أيام ابن الزبير لأنه قال : حتى يجتمع الناس ، وكان ضربه فى أيام عبد الملك لأنه أراد أن ينتظر اجتماع الناس على البيعة حتى لا تنشق كلمة المسلمين ؟!

ولحرصه على الجماعة رفض مفارقة المدينة ، ورفض مفارقة المسجد ، قال ميمون بن مهران : بلغنى ان سعيد بن المسيب عمر أربعين سنة لم يأت المسجد فيجد أهله قد استقبلوه خارجين منه قد قضوا صلاتهم ، ومن أقوال سعيد فى ذلك : ان الشيطان مع الشاذ وهو من الاثنين أبعد .

❖❖❖

ولقد اشتكى عينه فقيل له : لو خرجت يا أبا محمد الى العقيق فنظرت الى الخضرة لوجدت لذلك خفة ، قال : فكيف بشهود العتمة والصبح ؟

وفى أيام موقعة الحرة لزم الناس بيوتهم ولم يشهدوا الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة غير سعيد بن المسيب . قال سعيد : لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى المسجد أحد من خلق الله غيرى ، وان أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون : انظروا الى هذا الشيخ المجنون ، وما يأتى وقت صلاة الا سمعت أذانا فى القبر — قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تقدمت فأقمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

ولزومه المسجد فى موقعة الحرة اعتصام من هذه الفتنة التى لفح أوارها الناس جميعا ، وكان سببها أن أهل المدينة ثاروا على عامل يزيد بن معاوية وهو عثمان بن محمد بن أبى سفيان وعلى مروان بن الحكم وغيرهما من بنى أمية بعد مقتل الامام الحسين رضى الله عنه وبعد أن شاع كثير من الجور والفساد ، فسيَّر اليهم يزيد جيشا من الشام على رأسه مسلم بن عقبة فحاصر المدينة ونهبها وقتل كثيرا من أهلها .. والحرة : مكان قريب من المدينة .

وكان لا يحب الخوض فى سيرة أحد ، وينهى من يخوض فى ذلك .

حدث على بن زيد قال : قال لى سعيد بن المسيب : قل لقائدك يقوم فينظر الى وجه هذا الرجل والى جسده ، قال فانطلق فنظر فاذا رجل أسود الوجه فجاء فقال : رأيت وجه زنجى وجسده أبيض ، فقال : هذا سب هؤلاء الرهط .. طلحة والزبير وعليا ، فنهيته فأبى ، فدعوت عليه بقولى : ان كنت كاذبا فسود الله وجهك ، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه .

* * *

وليس غريبا على رجل كسعيد بن المسيب أن ينور الله قلبه وطريقه على الرغم من المرض الذى أصاب عينيه فى آخر حياته ، فقد حدث ابن حرملة قال : أدرك سعيد بن المسيب رجلا من قريش ومعه مصباح فى ليلة مطيرة ، فسلم عليه وقال : كيف أمسيت يا أبا محمد ؟ قال : أحمد الله ، فلما بلغ الرجل منزله دخل وقال : نبعث معك بالمصباح ، قال : لا حاجة لى بنورك ، نور الله أحب الى من نورك .

ولقد عرف عن ابن المسيب أنه كان يبالغ فى ستر عورات الناس ــ وهذه مروءة نفتقدها اليوم ــ قال ابن حرملة : خرجت الى الصبح فوجدت سكران فلم أزل أجره حتى أدخلته منزلى ، فلقيت سعيد بن المسيب فقلت : لو أن رجلا وجد سكران أيدفعه الى السلطان فيقيم عليه الحد ؟ فقال لى : ان استطعت أن تستره بثوبك فأفعل . فرجعت اليه فاذا به قد آفاق ، فلما رآنى عرفت فيه الحياء ، فقلت له : أما تستحى ؟ لو أخذت البارحة لحددت فكنت فى الناس مثل الميت لا تجوز لك شهادة ، فقال : والله لا أعود أبدا !؟ قال ابن حرملة : فرأيته قد حسنت حالته بعد .

هذه مثل نهديها الى أنفسنا فى هذا الزمن الذى نعيش فيه لندرك من خلالها مدى الهوة العميقة التى تردينا فيها وكيف انتهت بنا الدنيا الى هذا البوار الذى وصلنا اليه ، لاوجه للمقارنة بين حال أولئك الذين يمثلهم سعيد بن المسيب وبين حالنا التى أصبحت مسخا مشوّها ، لا وجه للجمال فيه !

ان زينة العلم العمل به ، وزينة المسلم كرامته ، وزينة المؤمن صدقه .. اللهم اجعلنا ممن يصدقون فى أقوالهم وأفعالهم وممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

فضل الحلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب الحليم الحيى ويبغض الفاحش البذى »

وقال بعض الشعراء :

أحب مكارم الأخلاق جهدى
وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما
وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يهابا

التوجيه الإسلامى لعلم النفس

للدكتور فؤاد أبو حطب

(٢) بناء علم نفس اسلامى « صوفى » :

ـ ٢ ـ

أما الاتجاه الثانى فيحاول بناء علم نفس اسلامى فى اطار المصطلحات والرموز الصوفية وحدها .. ومن أكثر المؤلفات انتماء الى هذا الاتجاه .. كتاب نقدى حديث ، للدكتور حسن الشرقاوى (١٤) .

وهذا الاتجاه على ارتباط بالاتجاه الأول ، فقد أشار مؤرخو علم النفس الدينى (٦٤) الى أن الصوفيين فى مختلف العصور ، ومن مختلف الديانات هم اسلاف سيكولوجية الدين بالمعنى الحديث .

والتصرف فى جوهره نزعة « روحية » تسعى الى الوصول الى الله ، وفى سبيل ذلك اهتم المتصوفة المسلمون بتحليل النفس البشرية تحليلا عميقا ، وشرحوا آداب المريد فى علاقته بالشيخ ، وما يجب أن يتحلى به من الخصال السامية (كالصدق والاخلاص والقناعة والزهد) .

ورسموا لهذا المريد وسائل النجاة (مثل التوبة والندم والتقوى والورع والصمت والتأمل والخلوة والاعتكاف) .

وتحدثوا عن أحوال النفس ومقاماتها مثل : (العشق ، والشوق ، والخوف ، والرجاء ، والغيبة ، والحضور والفناء ، والبقاء ..) .

والواقع أن الاتجاه الصوفى فى الاسلام ـ كنزعة روحية متطرفة ـ قد لا يتفق مع خاصية « التوازن » فيه ، والتى تشمل جميع جوانبه ، سواء فى الاعتقاد

والتصور ، أو التعبد والتنسك ، أو الأخلاق والآداب ، أو التشريع والنظام ، وحسبنا فيما تتحدث عنه .. أن نشير الى التوازن فى الاسلام ، بين الروحية ، والمادية ، وبين مطالب الدنيا والآخرة ، وفى المؤلفات المتخصصة .. اشارات كثيرة الى ذلك (٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٠) .

(٣) الدراسات النفسية فى تراث العلماء المسلمين :

يوجد اتجاه ثالث بين الكتاب المسلمين فى علم النفس يتمثل فى اعادة قراءة التراث العربى فى فنون التأليف والترجمة المختلفة وخاصة ما يرتبط منها بموضوعات علم النفس الحديث . ونحن نستخدم كلمة « التراث » بمعناها الذى أشار اليه عبد السلام هارون (٣٥ : ٥) أى « كل ما خلفه مؤلف من انتاج فكرى بعد حياته » فالتراث هنا هو انتاج العلماء والمفكرين والمصنفين المسلمين على مر العصور .

ـ واقدم نماذج هذا الاتجاه ما فعله المتخصصون فى الفلسفة الاسلامية حين حققت مخطوطات فلاسفة المسلمين مع حركة احياء التراث فى العصر الحديث ، ومن ذلك مؤلفات : الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد .

ـ وكان ابن سينا أكثر هؤلاء اهتماما بالمسائل التى تعد «نفسية» بالمعنى الحديث ، ولذلك نجد أحد رواد « الجيل الثانى فى علم النفس فى مصر .. وهو الدكتور محمد عثمان نجاتى ، يهتم بمسألة الادراك الحسى عند ابن سينا من منظور سيكولوجى معاصر (٤٧) كما يهتم الأهوانى (٣) ببعض المسائل النفسية عند ابن سينا أيضا ، وخاصة فكرة « الشعور » وموضوع الصلة بين النفس والبدن ، والمسألة الأخيرة خاصة لها تاريخ طويل فى الفلسفة، واهتم بها الفارابى قبل ابن سينا ، وقد أثرت فى تطور علم النفس ، وسوف نعرض لها فيما بعد .

أما رسالة حى بن يقظان لابن طفيل فقد اهتم بها : الدكتور عبد الحميد الهاشمى (٢٤) وأعاد قراءتها فى اطار سيكولوجية النمو والتعلم .

ولا زلنا فى حاجة الى اعادة قراءة آراء أهل المدينة الفاضلة « للفارابى » فى حدود علم النفس الاجتماعى ، و « اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » لابن قيم الجوزيه فى اطار علم النفس المرضى والاكلينيكى ـ و « المقايسات » لأبى حيان التوحيدى فى ضوء علم النفس التجريبى .

ـ الا أننا يجب أن ننبه الى أن هذا « التراث الفلسفى » يجب أن نلتزم ازاءه باطار نقدى حين نعيد قراءته سيكولوجيا واسلاميا ، وخاصة اذا علمنا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة قد تأثر بأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ، ولذلك قد نجد فيما يكتبون أثرا لما يمكن أن يسمى « علم نفس يونانى » يتصل بنظرة فلاسفة اليونان هؤلاء الى الانسان والكون ، والتى لا تمت بصلة الى التصور الاسلامى .

ـ وقد يصدق ما قلناه هنا على الاتجاه « الصوفى » أيضا ـ الذى قد يعد من فئة هذا الاتجاه التراثى ـ وخاصة اذا علمنا أنه توجد مؤثرات خارجية عديدة أثرت فى التصرف الاسلامى .. مثل الرهبنة المسيحية ، والبرهمية الهندية ، والمانوية الفارسية ، ـ وكلها تختلف عن خصائص التصور الاسلامى للكون ، والانسان .

ـ وقد يكون حجة الاسلام الامام الغزالى استثناء من هذا كله ، فقد كان الرجل من أعظم الفقهاء ، والفلاسفة والمتكلمين ، والمعلمين ، والصوفية ـ الا أنه التزم فى جميع الأحوال باطار نقدى جعله ـ فى تاريخ الفكر الاسلامى ـ مؤسس أول نسق اسلامى متكامل لعلم النفس (٣٠ : ٤) ، ولذلك فان الدراسة التى أجراها عبد الكريم عند الغزالى ، لا بد أن تحتل مكانة العثمان .. عن الفكر السيكولوجى خاصة فى أى جهد جديد ، يبذل لاعادة توجيه علم النفس وجهة اسلامية .

ـ وتوجد محاولات أخرى تنتمى الى هذا الاتجاه التراثى ذات صيغة مختلفة ـ وتتمثل فى اعادة قراءة التراث العربى فى فنون الأدب والتربية وغيرهما ، وانتقاء ما يتصل منه بموضوعات علم النفس ، ومجالاته ، والربط بين ما يتضمنه من مصطلحات ومفاهيم ومبادىء من ناحية ـ وما يهتم به علم النفس الحديث من ناحية أخرى .

ـ ومن بين هذه المحاولات .. نشير الى محاولتين مهمتين (*) :

قام بأولاهما : الدكتور محمد خلف الله أحمد عام ١٩٤٠ م (٤٤) فى قراءاته السيكولوجية لكتاب الأذكياء لابن الجوزى ، والتى حاول فيها أن يوائم بين تصور الذكاء : عند ابن الجوزى ، ومفهوم الذكاء : عند كل .. من بينيه ، وسبيرمان .

أما المحاولة الثانية : فهى أكثر حداثة وشمولا ، وهى التى قام بها الدكتور سيد أحمد عثمان (١٩) فى قراءته السيكولوجية أيضا لكتاب « تعليم المتعلم طريق التعلم » لبرهان الدين الزرنوجى ، والتى سعى بها أن يكتشف العناصر التى يتألف منها نسق المتعلم ـ التعليم عنده فى هذا الكتاب ، وربطها بمفاهيم سيكولوجية التعلم الحديثة ، والكشف فيه عن مفاهيم ومبادىء سيكولوجية ذات صبغة اسلامية تحتاج الى مزيد من البحث ـ ومنها : مفهوم النية ، ومبدأ العلاقة بين الخلق والتكوين الخلقى أو القيمى والتعلم ،وتصنيف الدوافع تصنيفا جديدا ، والاتجاه « الاسلامى الانسانى » الذى يجعل المتعلم مركز النشاط التعليمى وغير ذلك من المفاهيم والمبادىء .

(*) توجد محاولة ثالثة قام بها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (٤) فى تحقيقه ونشره للرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين للقابسى ، ورسالة « آداب المعلمين » لابن سحنون ، الا أن تناول الأهوانى لهاتين الرسالتين غلبت عليه المسحة « التربوية » على الرغم من بعض الاشارات المتكررة الى مفاهيم سيكولوجية التعلم .

وبالاضافة الى ذلك اهتم الدكتور سيد أحمد عثمان ــ خاصة ــ بسبق الزرنوجى فى آرائه عن التكرار ، والحفظ ، والنسيان ، والتى أعاد «اينجهاوس» اكتشافها فى القرن التاسع عشر .

ــ والجهد الذى يبذله أصحاب هذا الاتجاه ، جهد حميد لا شك ، ففيه الغيرة والحماسة : للفكر العربى والاسلامى ، كما فيه التفتح على اهتمامات علم النفس ، الا اننا نرى : أن هذه الحركة تحتاج الى جهد كبير لتنظيم نتائجها الجزئية فى اطار كلى ، والا تراكمت المصطلحات والمفاهيم ، والمبادىء والأفكار : تراكما يصل بنا الى حد العجز عن التنظيم والفهم ، هذا الاطار الكلى، هو ما نسميه « التوجيه الاسلامى لعلم النفس الحديث » .

نحو توجيه اسلامى لعلم النفس الحديث :

من عرضنا فى القسمين السابقين يتبين لنا أن علم النفس الحديث ــ كما قال عنه مؤرخوه ــ له « تاريخ » قصير ، و « ماض » طويل ، ويمتد ماضيه كغيره من العلوم الطبيعية والاجتماعية ــ الى حضارة الاسلام ، أى انه ليس وليد حضارة الغرب الحديثة ، وبالتالى : يجب أن يصنف فى قائمة ما يجب أن ينبذ منها ، كما يرى ويلح عليه بعض الكتاب .. صحيح أنه أحرز ــ كغيره من ميادين المعرفة ــ تقدما هائلا فى الغرب خلال القرن الذى انقضى منذ نشأته الرسمية ، كعلم تجريبى أكاديمى عام ١٨٧٩م وأعظم انجازاته : هو ما يتم فى وقتنا الحاضر خلال الربع الأخير من القرن الميلادى الحالى ، الا أن ذلك لا يجعله من مبتكرات الغرب ، ومستحدثاته .

ــ والأزمة الحقيقية التى يواجهها علم النفس الحديث ــ فى ضوء التشخيص الاسلامى ــ هى أزمة المعرفة كلها فى حضارة الغرب ، والتى يمكن أن نلخصها فى عدم التوازن المعرفى .

فالتقدم والانجاز يعوزه الترشيد، حتى صار الخلل سمة العصر سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية

أو الاجتماعية ، ثم من الوجهة المعرفية ، ولعل من أعظم صور الخلل « المعرفى » ـ بالرغم من انفجار المعلومات ـ ما يسميه أوينهايمر (٦٦) صراع العلم والثقافة ، وما يسمى أحيانا في بلادنا الاسلامية صراع العلم والدين، وما يسمى فى صورة أكثر حداثة « تقدم التكنولوجيا وتخلف « الايديولوجيا » •

ـ والازمة بالطبع ـ أعم من نطاق علم النفس ، فهى تشمل ميدان المعرفة كله لتصبح أزمة ايستمولوجية • ومن هنا تأتى حاجتنا الى التوجيه الاسلامى للمعرفة ، ولايتسع المقام لتفصيل هذه المسألة ، وقد يتاح لنا الكتابة فيها فى حدود ما يمكن ان نسميه نحو فلاسفة اسلامية للعلم ، ولذلك سوف نقتصر على تناول هذا الأمر بصورة مجملة وفى اطار سيكولوجى ما استطعنا تحقيقا لاهداف الندوة الحالية •

ـ ولا شك فى أن التوجيه الاسلامى لعلم النفس ـ على ضوء ما بينا : لا يمكن أن يكون جهد فرد أو عدة أفراد ، كما لا يمكن أن يكون جهدا تطوعيا اختياريا تحكمه المصادفات ، وانما لا بد أن تتوافر عليه العصبة أولو القوة التى يلم افرادها بالموضوعين الماما واسعا • فالمتخصص فى علم النفس الذى يتناول هذا الموضوع لا يجب أن يقتصر على ذخيرته من المعرفة فى علم النفس ، وانما عليه أن يلم الماما دقيقا بخصائص الاسلام عقيدة وشريعة ومنهجا ومذهبا ونظاما ، وهو جهد يتطلب منه أن يتوافر عليه لسنوات طويلة للتعرف على بعض جوانبه • ومثل هذا يجب أن يقال على رجال الدين الذين يتناولون المسائل النفسية من وجهة نظر الاسلام ـ أى ان الأمر يتطلب ما يسميه الدكتور عمر خليف من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث « توزيع العمل فى الدراسة العلمية » (٣٢) •

ـ وفى حدود ماأتيح لنا من الوقت يمكن أن نعرض فيما يلى بعض الأسس العامة لما نسميه التوجيه الاسلامى لعلم النفس ، عارضين بايجاز وعمومية لبعض المسائل

الايستمولوجية التى تحتاج لمزيدمن التفصيل ، كما بينا .

(١) دراسة النفس تكليف قرآنى :

ـ اذا كان القرآن الكريم دعوة صريحة لتأمل الكون فانه بنفس القدر دعوة مباشرة لتأمل النفس ـ وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » (الروم : ٨) .

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم» (التغابن : ٣) .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) .

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » . (الذاريات : ٢٠ ، ٢١) .

ـ وهكذا نجد أن دراسة النفس وتأملها تكليف مباشر فى القرآن الكريم .

(٢) الهدف الأعظم من هذه الدراسة التعرف على آيات الله :

ـ هذه الدراسة للنفس الانسانية هدفها الأعظم التعرف على آيات الله فى خلق الانسان ـ كما أن هدف دراسة العلوم الطبيعية التعرف على آيات الله فى خلق الكون . وآيات الله : هى علامات قدرته فى خلقه وبهذا يصبح العلم كله تسبيحا لله ـ وهذا الهدف العظيم واضح بذاته فى الآيات القرآنية التى أشرنا اليها .

(٣) الاعجاز العلمى للقرآن الكريم :

واذا كان الله تعالى قد عبر عن علامات قدرته فى خلق الكون والانسان بأنها « آيات » فانه يصف القرآن الكريم أيضا بأنه « آيات » يقول الله تعالى :

« ولقد أنزلنا اليك آيات بينات ، وما يكفر بها الا الفاسقون» (البقرة : ٩٩) .

ـ وهكذا تكون علامات قدرته سبحانه « متلوة » فى القرآن الكريم و « مجلوة » فى مخلوقاته ولذا يرى بعض المفسرين (٣١ : ٧٤) أن قوله تعالى « ما ننسخ من

آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (٢ : ١٠٦) يحتمل الآية فى كتاب الله والآية فى خلقه .

وهذا الربط الوثيق بين«آيات» الله فى كتابه الخالد وآياته فى الكون والانسان : دعا أحد الكتاب المعاصرين (٣١ : ٧) الى القول بأنه : « لو كان القرآن عالما محسوسا لكان هذا الكون العجيب ! ولو كان الكون كتابا متلوا لكان هو هذا القرآن ، فكلاهما كتاب الله المبين وكلماته الكريمة » .

ــ يقول الله تعالى فى وصف القرآن الكريم :

« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى » (الرعد : ٣١) .

ويقول الرسول الكريم فى وصفه أيضا ، فى حديث طويل بأنه :

« كتاب الله
تبارك وتعالى
فيه نبأ من قبلكم
وخبر من بعدكم
وحكم ما بينكم ،
هو الفصل ليس بالهزل ،
من تركه من جبار قصمه الله ،
ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ،
هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ،
وهو الصراط المستقيم ،
وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ،
ولا تلتبس به الألسنة ،
ولا تنشجب معه الآراء ،
ولا يشبع منه العلماء ،
ولا يمله الأتقياء ،
ولا يخلق على كثرة الرد ،
ولا تنقضى عجائبه » .

ــ ويقودنا هذا الى القول بأن من أهداف العلم عامة ــ ومنه علم النفس ــ فى الاطار الاسلامى : أن يكون وجها من وجوه اعجاز القرآن ، من بين وجوه اعجازه المتعددة المتجددة .

ـ وكان السيد محمد رشيدرضا (٤٥) أول من تنبه الى العلم كأحد جوانب الاعجاز القرآنى ، الىجانب اعجازه فى ميادين الشريعة ، والفقه واللغة ، والأدب .

ـ ويتوافر ـ فى عصرنا الراهن ـ بعض الباحثين على تأمل هذا الاعجاز العلمى للقرآن ، وخاصة فى مجالات الفلك ، والفيزياء ، والأحياء .

ويهتم الشيخ محمد متولى الشعراوى (٥٢) كثيرا بهذه المسألة، وفى رأيه : أنه اذا كان القرآن الكريم يتحدى العرب باعجازه اللغوى ، فانه يتحدى العالم بالعلم ـ وحين يصبح العلم سبيل الانسان للتعرف على آيات الله فى مخلوقاته ، فانه من خلال العلم ذاته ـ يكتشف حدوده التى لا يتعداها ـ مهما أحرز من تقدم وهذه الحدود تتمثل فى تحديين ، أشار اليهماالقرآنالكريم ، وهما : تحدى الخلق ، وتحدى الغيب .

يقول الشيخ الشعراوى (٥٢) حول مسألة تحدى الخلق : « كأن الله سبحانه وتعالى يقول : اننى أنا الله أقول لكم : سأعطيكم العلم وأريكم آياتى فى الآفاق ، ولكنكم لن تخلقوا ذبابة ولو اجتمع كل علماء الأرض فى كل العصور » .

وذلك تفسيرا لقوله تعالى :

« ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له» (الحج ٧٣) .

وعن تحدى الغيب .. يقول الله تعالى عن المغيبات الخمس :

« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فىالأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » (لقمان : ٣٤) .

ـ ويوجد مظهر آخر من مظاهر الاعجاز العلمى للقرآن الكريم ـ كهدف للعلم ـ يتمثل فى فهم الحقائق العلمية ـ ومنها الحقائق السيكولوجية ـ التى يتضمنها كتاب الله ، وهنا يجب أن نشير الى ثلاثة أمور :

ـ أولها : أن كتاب الله ليس دائرة معارف علمية يتضمن تفاصيل حقائق العلم ، وانما ما يتضمنه منها هو على سبيل تأكيد رسالته ككتاب دعوة ، وهداية ، وارشاد ـ ولو كانت كل حقائق العلم متضمنة فيما دعانا الله سبحانه وتعالى الى مزيد من الكشف عنها .

ـ ثانيهما : يجب ألا تحمل كلمات القرآن الكريم ما لا تحتمله من معان وألا نحاول ما يفعله البعض من اقحامه فى التفاصيل الجزئية لنتائج البحوث والمخترعات .

ثالثها : دراسة السيرة النبوية ابتغاء الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا حيا يمشى على قدمين ، وكان خلقه وسلوكه القرآن .

(٤) العلم عبادة :

ـ العلم عبادة اذن : هو الذى يؤدى بالباحث الى التعرف على آيات الله فى الكون والانسان ، كما يؤدى به الى بيان جوانب متجددة من اعجاز القرآن الكريم ، وهو بهذا يقود الانسان الى الله ويصله به ، ويصبح العلم بهذا محققا للغاية من خلق الانسان التى حددها سبحانه وتعالى فى قوله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) .

ـ ومفهوم العبادة ـ فى الاسلام ـ لا يقتصر على الصلة بين الانسان وربه كما هو الحال فى بعض الأديان الأخرى ـ وانما تتضمن معانى أوسع نطاقا تمتد الى مختلف جوانب الحياة تحقيقا لوظيفة الانسان ، كخليفة لله فى الأرض .. وهنا تأتى قيمة العلم ، كطريق لتحقيق العبادة بهذا المعنى الشامل .. فالتعرف على آيات الله فى خلقه يؤدى ـ كما بينا ـ الى توثيق صلة الانسان بربه ـ كما يؤدى به أيضا الى معرفة خصائص هذه المخلوقات للانتفاع بها فى عمارة الكون الذى استخلف فيه .

وهكذا يصبح معنى العبادة ـ فى الاسلام ـ كما يحددها كاتب معاصر (١ : ٩٣) كما يلى :

« ان العبادة التى من أجلها خلق الانسان فى هذه الحياة هى السير فى الطريق التى تؤدى الى تحقيق خلافته عن الله فى الأرض.. ومن لوازم هذا ــ بعد الايمان بالله ــ الضرب على الأرض والتعاون مع الغير وأداء الواجب ، والمحافظة على حقوق الآخرين » .

وبهذا تتحقق للعلماء تلك المكانة الرفيعة التى خصهم بها الله تعالى فى كتابه الكريم ، حين يقول :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا » (آل عمران : ٧) .

« شهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقسط » (آل عمران : ١٨) .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك » (النساء : ١٦٢) .

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به » (الحج : ٥٤) .

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت : ٤٩) .

« وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله » (الروم : ٥٦) .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق » (سبأ : ٦) .

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » (غافر : ٨٣) .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة : ١١) .

كما يتحقق لهم وصف الرسول الكريم لهم بأنهم ورثة الأنبياء .

(٥) الكشف عن سنن الله :

ــ اذا كان العلم فى الاسلام عبادة يتقرب بها العالم الى الله من خلال التعرف على آياته والتصديق باعجاز كتابه ، والسعى لعمارة الأرض ، فان سبيل العلم الى ذلك هو الكشف عن سنن الله فى

مخلوقاته ، وسنة الله هى ما جرى به نظامه فى خلقه .

وليس من قبيل المصادفة أن أطلق رواد العلم فى الاسلام على بعض العلوم ، مثل علم الفيزياء ، بأنه « علم الكشف عن سنن الله فى الكون » (٢٣) . وفى علم النفس يكون هدفنا أيضا الكشف عن سنن الله فى سلوك الانسان ، ومع كشفنا لكل سنة منها : وجهنا الكشف الى مجهولات أخرى لكشفها .

ويستخدم الانسان فى الكشف عن سنن الله ما زوده ـ سبحانه وتعالى ـ به من نعم ، وخاصة الحواس والعقل ، والا يستمولوجيا الاسلامية فى وجهتها المتوازنة لا تحدث تضادا بين الحس والعقل ، كما فعلت نظريات المعرفة على مر العصور ، والتى أدت الى ظهور المدارس الامبريقية فى مقابل المدارس العقلية (أو العقلانية) . ففى الاسلام تتكامل وسائل المعرفة تحقيقا لاحدى غايات العلم ، وهى شكر الله على أنعمه ، والشكر من ألوان العبادة ـ يقول الله تعالى :

« والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم : السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل : ٧٨) .

« وهو الذى أنشأ لكم : السمع ، والأبصار ، والأفئدة : قليلا ما تشكرون » (المؤمنون : ٢٧٨)

كما اعتبر وسائل المعرفة هذه مسئولية فى قوله تعالى :

« ... ان السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء : ٣٦) .

(٦) حدوث وسائل الكشف عن سنن الله :

فى سعى الانسان للكشف عن سنن الله : يستخدم ـ كما أشرنا ـ امكاناته البشرية ، وهى بفطرتها محدودة ، ومعرضة للوقوع فى أخطاء الضعف ، أو القصور ، أو النسيان ، أو الخداع ـ وقد أشرنا

الى هذه المسألة فى حديثنا عن اليقين ، والموضوعية، وجوهرها : أن الانسان ليس معصوما من الخطأ .

ومهمة العلم : أن يرشد الى الصواب فى حدود امكانيات البشر الحسية ، والمعرفية .

وفى الاسلام : أن من اجتهد وأصاب : فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ، بشرط صدق النية ، وخلوص المقصد .

ومن الأدعية القرآنية المأثورة « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » (البقرة : ٢٨٦) .

ومن الأحاديث المشهورة ... قول الرسول الكريم : « رفع عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » (٣١ : ٦٩) .

وقد وضع القرآن الكريم مجموعة من الضوابط لوسائل المعرفة البشرية : تعين الانسان على الاقتراب من الصواب .

ولقد لخص على عبد العظيم (٣١ : ٦٩ ــ ٨٣) هذه الضوابط تلخيصا طيبا يمكن أن يعد مدخلا طيبا لمناهج البحث فى العلم عامة ، أو فى علم النفس خاصة ، نذكر أهمها فيما يلى :

١ ــ التجرد من الميول والأهواء عند البحث العلمى « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله (القصص : ٥٠) .

ويشمل هذا : التعصب لنظرية أو مذهب أو اتجاه .

٢ ــ التثبت قبل اصدار الحكم فى مسألة علمية ، وهذه القاعدة الذهبية هى التى يستخدمها الباحثون فى مختلف ميادين المعرفة، والتى تسمى : القابلية للاستعادة أو التكرار

كما تتضمن قاعدة الموضوعية باعتبارها : الاتفاق النسبى بين الملاحظين ، وأمر الله صريح بألا تبنى الأحكام على مجرد الظنون « ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (النجم : ٢٨) .

٣ ــ التعمق فى فهم البواعث والملابسات ، بحيث لا يقف الباحث عند المظاهر الشكلية ، أو الظواهر

السطحية ، أو الصفات العارضة ، فانها كثيرا ما تخدع الباحث .

وقد أخذ الله تعالى على المدعين أنهم « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم : ٧) .

٤ ــ العبرة فى البحث العلمى : بالكيف ، لا بالكم .. وهذا المبدأ مفيد لنا فى العالم الاسلامى ومعظم دوله من فئة المجتمعات النامية ، فى مواجهة ما يسمى : الانفجار المعرفى ، وثورة المعلومات .

والاهتمام بالكيف يكاد يكون خاصية اسلامية متميزة ، يحددها : قول الله فى وصف الناس عامة : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

٥ ــ البعد عن الغرور : فان غرور العلماء مزلق خطير قد يحيد بهم عن الطريق السوى .

يقول الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم : هو أعلم بمن اتقى » (النجم : ٣٢) .

والتواضع سمة مهمة للعالم المسلم ، لأنه يدرك بحق أن العلم لا يدرك كله ــ ولذا تخفى على أعظم العلماء بعض جوانب المعرفة يقول الله تعالى فى ذلك :

« ... وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) .

«... وفوق كل ذى علم عليم» (يوسف : ٧٦) .

٦ ــ التأنى فى الحكم ومقاومة الميل الفطرى عند الانسان للتعجل ــ وقد أوصى الله سبحانه وتعالى : رسوله بالأناة عند تلقى القرآن الكريم ، فقال : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » (القيامة : ١٦) .

كما قال تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » (طه : ١١٤) .

٧ ــ الاهتمام بالتفاصيل والدقائق ، واحترام الآخرين ، حتى ولو صدرت عن أشخاص ليسوا

بذوى شأن كبير ، وتناول مختلف المواد ، حتى ولو كانت ضئيلة . وما خلق الله شيئا عبثا : « ... ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (آل عمران : ١٩١).

٨ ــ الوقوف عند حدود ما نعلم ، ومن العبارات المهمة التى كان يرددها كثيرا أقطاب السلف الصالح « الله أعلم » ؟

يقول على عبد العظيم (٣١ : ٧٩) « الراسخون فى العلم يبذلون جهودهم فى البحث فاذا لم يصلوا الى نتيجة محددة استعانوا بغيرهم ، أو تركوا أبحاثهم لتتمها الأجيال القادمة ، وكثيرا ما تختفى الحقائق ولا تلوح الا بعد أجيال وأجيال وبعد أن يشترك فيها علماء من كل جيل » .

ومعنى ذلك : أن العالم المقتدر : هو الذى لا يتعسف فى تفسير نتائجه أو يحملها ما لا تحتمل .. وقد ضرب الله سبحانه المثل بقول عيسى عليه السلام ــ « ... سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » (المائدة : ١١٦) .

٩ ــ العودة الى الصواب والاعتراف بالخطأ ، اذا تبين الحق وقد مدح الله المؤمنين بأنهم اذا أخطأوا لم يتمادوا فى أخطائهم : « ... ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (آل عمران : ١٣٥) .

د. فؤاد أبو حطب

قصة الإسراء والمعراج

عوامل خلودها، الآراء فى تكييفها، التشكيكات الموجهة إليها

للدكتور عبد الغنى الراجحى

١ ــ اذا كانت كبريات الأحداث والوقائع تخلد فى أذهان الناس وتحيا فى ذاكرتهم أجيالا وأجيالا لما تنطوى عليه من العجائب والغرائب والعبر والدروس المستفادة ، فان حادث الاسراء والمعراج برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يجب أن يوضع على رأس قائمة هذا النوع من كبريات الأحداث ، وقد صدرت الآية الكريمة المتحدثة عن الاسراء بكلمة سبحان المفيدة للتعجب والتنزيه ، فقال تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » .

والانسان عند التعجب يقول سبحان الله . وجاءت فى نهاية هذه الآية كلمة الآيات بمعنى العجائب والدلائل الدالة على كمال قدرة الله ، وذلك فى قوله تعالى :

« لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

وجاء فى سورة النجم فى رحلة المعراج به صلى الله عليه وسلم الى السموات العلى قوله تعالى :

« ولقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وفغر أهل مكة أفواههم عجبا واستغرابا فقالوا نحن نضرب الى القدس أكباد الابل شهرا ذهابا وشهرا ايابا ومحمد يقول انه زارها وعاد فى جزء ليلة واحدة ؟ ؟

واذا كانت كبريات الحوادث والوقائع تخلد فى أذهان الناس وتعيش فى ذاكرتهم أجيالا وأجيالا لما فيها من الأساليب القصصية التى

تسرد الوقائع متتابعة فى حبكة دقيقة ، ومشاهد تأخذ بمسامع الناس ومجامع القلوب وتستقطب الانتباه بما تثيره من المعانى والحوار والمفاجآت والعقد وحلها ، فى أساليب قصصية جميلة ، فان حادث الاسراء والمعراج يجب أن يكون فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فان وقائعها ومشاهدها وحوادثها وعقدها وفكها من ألفها الى يائها ، بلغت الذروة فى باب أحسن القصص الذى تكفلت به السنة النبوية الصحيحة ، من مشهد نومه صلى الله عليه وسلم فى بيت أم هانىء ثم بالبيت الحرام ، ثم شق صدره وغسله بماء زمزم ، وجبريل وميكائيل والبراق والرحلة الى بيت المقدس ، وما رآه من المشاهد العجيبة وسؤاله لجبريل واجابته له ، ثم الوصول الى بيت المقدس والصلاة بالمرسلين الذين كانوا فى انتظاره ، وما تبع ذلك من نصب المعراج فوق الصخرة ، ثم العروج الى السموات العلى ، وما رآه من المشاهد والمناظر ، والحديث مع الملائكة والرسل وسدرة المنتهى ، ورؤية الله أو كلامه ، ثم العودة فى جزء من الليل الى القدس ثم الى مكة ثم ما كان من موقف كفرة مكة وموقف الصديق ، وفريضة الصلاة ونحو ذلك . والأدباء وأرباب الدراسات الأدبية يقولون أن المعرى فى كتابه رسالة الغفران قد اغترف من بحر هذه القصة وحاكاها فى أساليبها وأحداثها ، وكذلك الأديب الايطالى دانتى فانه فعل ذلك فى كتابه الكوميديا الالهية وجحيم دانتى .

واذا كانت كبريات الأحداث تخلد على الزمن وتظل بها عامرة أذهان الناس أجيالا ، بعد أجيال بسبب أن بطولة هذه الأحداث تقوم بها شخصيات مرموقة محبوبة مجيدة ، فان حادث الاسراء والمعراج يجب أن يوضع فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فان شخصيات أحداثها ووقائعها هى محمد صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق وانسان عين الوجود الذى ما خلق الله شيئا أكرم عليه منه ، وآتاه من الخصائص ما لم يؤته

لأحد قبله من المرسلين ، وهو الذى تخفق اليوم بحبه قلوب أكثر من تسعمائة مليون من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتلهج باسمه وذكره ألسنتهم فى اليوم والليلة عشرات المرات ، هذا بالاضافة الى من كانوا معه هذه الليلة فى مزاولة أحداث الرحلة وممارسة أفعالها ، من جبريل وميكائيل وابراهيم وآدم وموسى والرسل فى المسجد الأقصى وغير ذلك .

واذا كانت كبريات الأحداث تخلد فى أذهان الناس وتبقى على الزمن ذكريات مجيدة لأنها موثقة فى وثائق خالد تحميها من البلى وعوامل النسيان ، فان حادث الاسراء والمعراج ، يجب أن يوضع فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، لأنها موثقة ثابتة فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بدرة ، ثابتة فى آى الذكر الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حيث يقول جل من قائل :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

وباسم هذا الحادث سورة من أعظم السور فى القرآن الكريم هى سورة الاسراء . والسنة النبوية الصحيحة المسجلة فى كتب السنة تتكفل بتفصيلات هذا الاسراء ثم بالمعراج وتفصيلاته ، والسنة النبوية وحى له قداسته واحترامه ، وقامت الأمة الاسلامية بالحفاظ عليها وعلى أسانيدها بصورة لم تحصل فى أمة من الأمم ، والمحافظة على الأسانيد حتى تصل الى الرسول خصيصة من خصائص أمة الاسلام .

واذا كانت الأحداث تبقى وتخلد بسبب اتساع أماكن حدوثها وانتشار مسرح وجودها واتساع لمساتها باتساع أماكن وجودها فيكبر حجمها ويتسع دويها ، فان حادث الاسراء والمعراج فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فمن مكة المكرمة وبيت الله الحرام وزمزم والمقام الى بيت المقدس الى

السماوات العلى سماء سماء الى سدرة المنتهى اذ يغشى السدرة ما يغشى الى مستوى سمع فيه صرير الأقلام فى تصاريف الأقدار الى حيث تأخر جبريل ، وتقدم هو صلى الله عليه وسلم حيث اشتد القرب وحانت ساعة التجلى بالتكلم والرؤية ثم العودة من نفس هذه المعالم ، الى حيث بدأها صلى الله عليه وسلم تحدوه عناية الرحمن وفى ركابه ملائكة الله .

٢ ــ اشتجرت آراء الناس فى هذا الموضوع الخطير وتفرقوا فى النظر اليه طرائق قددا ، فمن رأى شاذ عجيب غريب لا ندرى كيف تسلل الى الكتب الاسلامية حيث دس فيها دسا وحيث ينسب الى معاوية وعائشة انكار هذه الرحلة ، وأنها رضى الله عنها قالت ما فارق جسده صلى الله عليه وسلم فراشه أو فراشى ، وبقليل من التأمل نجد أن هذه المقالة كالقضية التى تحمل فى طياتها دليل كذبها ، فان الاسراء كان قبل الهجرة بنحو سنتين ، وعائشة لم يدخل النبى بها ولم يكن له معها فراش الا فى المدينة وبعد الهجرة ، فالذين افتروا هذه المقالة على عائشة لم يجيدوا سبكها ولا حبكها ، وخانتهم الذاكرة ولم يعملوا بقول القائل : « اذا كنت كذوبا فكن ذكورا » . وهكذا ينم الكذب عن نفسه ويكشف نفسه بنفسه .

ان كان فى رواية أخرى هى الأخرى مكذوبة انها قالت ما فقدت جسد رسول الله ولكن كان الاسراء بالروح .

ومن رأى آخر يدعى ان الاسراء والمعراج أمر حق لا شك فيه لكنه كان من قبيل الرؤيا المنامية ولم يكن من قبيل الرؤية البصرية ، ولعله قد استدل على ذلك بالآية الكريمة :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » . سورة الاسراء. فان بعض الناس يقولون ان لفظ الرؤيا بالألف انما يستعمل فى الرؤيا المنامية ، أما البصرية فانما تستعمل فيها الرؤية بالتاء ، لكن المحققين يعودون فيقولون ان لفظ الرؤيا يستعمل فى النوعين المنامية والبصرية ، ومما يدل دلالة قاطعة على أن الاسراء لم يكن مناميا انه

لو كان كذلك لما كان هناك تعجب ولا غرابة ولا انكار من كفرة مكة، ولا تشنيع على رسول الله ولا استبعاد لما ادعاه لأن عالم الرؤى عالم فسيح واسع قابل لأى مقولة تقال فيه دون عجب أو استنكار ، ثم ان القصة صدرت بلفظ السبحان الدال على التعجب ،ولا تعجب فى الامور المنامية ، ويجوز اذا كان ولا بد أن يكون لفظ الرؤيا فى المنامية لا البصرية أن يكون الرسول قد رآها مناما ثم نفذها يقظة ولا مانع من ذلك كما أفادته بعض الروايات وابراهيم الخليل قد رأى قصة الذبح لولده مناما ثم كانت يقظة .

ومن رأى آخر يدعى أن حادث الاسراء والمعراج انما كانت بالروح فقط دون الجسد ، وهو رأى يبطله التصريح بلفظ العبد فى قوله تعالى « أسرى بعبده ليلا » ، لأن العبد لا يطلق الا على مجموع الروح والجسد معا بمعنى الانسان العابد والعبد ، ثم كيف تنفصل الروح عن الجسد وتتركه جثة هامدة لتقوم وحدها بهذه الرحلة البعيدة المدى ؟؟

ورأى آخر يدعى أن هذه بطريقة وحدة الوجود والوجود الوحدوى الذى تم فيه اندماج الرسول بجميع الكائنات ، علويها وسفليها ، روحيها وماديها ،فتسنى له بهذه المرتبة الحصول على معرفة ما حدث عنه أنه رآه ، وهذا كما نرى رأى غريب وغير مفهوم ، لأنه عسر الهضم وهو أشبه بالشطح الصوفى المضنون به على غير أهله، وفيه من صعوبةالتصور والادراك ما يوجب الاعراض عنه وعدم الأخذ به ، والرجوع الى رأى جماهير علماء المسلمين من أن الاسراء والمعراج كان يقظة بالجسد والروح معا ، الأمر الذى تؤكده قرائن الأحوال ، ويقرر القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

٣ ــ المستشرقون وأعداء الاسلام والفكر الاسلامى أثاروا حول هذه القضية استشكالات ومجادلات لتكذيبها وابطالها ، فيقولون كيف يعقل ان الجسم البشرى والكائن الحى يستطيع أن يعيش حيا بعيدا عن مادة الأوكسجين التى تنقطع فى الفضاء بعد بعد

معين من الأرض تنعدم عنده وبعده مادة الأوكسيجين الذى لا يستطيع أن يعيش بدونها الكائن الحى حيث لا تنفس بدونها • والجواب عن ذلك ان الانسان المخلوق الضعيف استطاع مؤخرا أن يتغلب على هذه الصعوبة فيصعد الى طبقات الجو العالية الخالية من مادة الأوكسيجين ويتجول طائرا فى الفضاء كيف يشاء لأنه استطاع أن يعبىء الأوكسجين وأن يصطحبه معه فى أنابيب يطلق منها متى يشاء هذه المادة لتتوفر له صلاحية التنفس وصلاحية الحياة مهما ارتفع بمركباته الهوائية وطائراته الجوية الى آفاق الفضاء ، فاذا كان المخلوق قد استطاع التغلب على هذه الصعوبة التى يعانيها اذا ارتفع بنفسه فوق مستويات وجود الأوكسجين الطبيعى • أفلا يكون الله العزيز الحكيم أكثر استطاعة أن يفعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟ بلى انه على كل شىء قدير •

ثم يقولون • كيف استطاع محمد وهو انسان بشر أن يتحرر بجسده من منطقة جاذبية الأرض للأجسام ، ويصل الى نقطة انعدام الوزن ، وينطلق منفصلا عن علاقته بالارض الى أجواز الفضاء والسماء • والجواب عن ذلك أن الانسان البشر قد استطاع مؤخرا التغلب على هذه الصعوبة وانفصل عن منطقة الأرض وجاذبيتها مندفعا نحو الكواكب من القمر وغيره بمركباته الصاروخية • فهل يستطيع البشر بعلمه واقتداره أن يفعل ذلك ثم يعجز خالق البشر ومعطيه العلم والقدرة أن يفعل ذلك برسوله ؟ كلا • وفاقد الشىء لا يعطيه • وقدرة الله فوق الشك والتهم •

ثم يقولون الكائنات التى تقول القصة ان محمدا رآها فى ليلة الاسراء والمعراج ، كقدح من اللبن وقدح من الخمر ، فشرب اللبن وترك الخمر ، فقال له جبريل هديت الى الفطرة ، والثور الذى خرج من ثقب فى جحر ثم أراد أن يعود اليه فلم يستطع ، وقال جبريل انه مثل الرجل يتكلم الكلمة لا يلقى لها بالا فيندم ويريد الرجوع فيها فلا يستطيع ، والذين رآهم يأكلون جمرا بأفواههم يخرج من أدبارهم

وكان مثلهم كمثل آكل مال اليتيم، والذين رآهم تضرب رؤوسهم بالحجارة وكانوا مثلا مضروبا للمتكاسلين عن الصلاة . والذين رآهم يخمشون جلودهم بأظافرهم وكانوامثلاللمغتابين ، والذينرآهم يتركونلحما طيبا هنيئا ليأكلوا لحما فاسداً خبيثا ، وكانوا مثلا للزناة يتركون الزوجات الطيبات الحلال الى نساء زانيات فاجرات ، والذين رآهم يزرعون فيحصدون كلما حصدوا زرعوا وكلما زرعوا حصدوا ، وكانوا مثلا للمنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، والذين يسبحون فى نهر منالدماء ، والمرأة المتزينة التى نادته صلى الله عليه وسلم فأعرض عنها .

يقولون من أين جىء بهذه الكائنات والأشخاص ؟ وهل خلقوا الآن ثم اعدموا ؟ وهلكانت هذه أجرام وأجسام حقيقية أو خيالات وأوهام ؟ والجواب عن ذلك ان الشاشة البيضاء الكبيرة والصغيرة قد استطاعت أن تعرض مرئيات ومشاهدات لا يشك من رآها على الشاشة انها هى هى ، يسمعها تتحدث ويراها تقوم بجميع الأعمال ، ويأخذ عنها العبر والدروس المستفادة ، ويعلق على ما تقوله من أقوال وما تؤديه من أدوار وأفعال ، ثم لا يكون أمامه بعد كل ذلك الا الصور والأشباح والظلال دون حاجة الى ماديات الأجسام اطلاقا .

فاذا كان الناس قد فعلوا ذلك كوسائل ايضاح وتربية وتعليم ، ودراسة حقائق اجتماعية وعلمية وأخلاقية وتربوية ، أفلا تكون القدرة الالهية على ذلك أقدر فتعطى لرسول الله هذه العبر والدروس المستفادة بهذه الطريقة ؟ بلىوقدرة الله فوق الشك والتهم .

ثم يقولون وهذه الأبعاد الشائعة والمسافات الواسعة هلفى مقدور بشر أن يقطعها ذهاباً وايابا فى جزء ليلة وبهذه السرعة ؟ والجواب عن ذلك فى طريقةالتعبير عن الاسراء فى القرآن الكريمحيث يقول تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبدهليلا»فالاسراء والسرى لم يكن من رسول الله بصفته البشرية والشخصية ، ولكن كان

ذلك من منطلق القدرة الالهية المحركة للرسول فى هذه الليلة كيفما تشاء بالسرعة التى تشاء وتتخطى هذه المسافات كيف تشاء ، وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير من سرعة الأفلاك والكواكب وأضوائها وأشعتها ما يقرب هذه السرعة الى الأذهان ، ويقول صاحب القاموس « السرى كالهدى سير عامة الليل وأسرى واسترى وسرى به وأسراه وبه واسرى بعبده ليلا .. تأكيد » أهـ .

ثم يقولون ان الرسل والأنبياء السابقين قد ماتوا وأفضوا الى رحمة ربهم من أزمان بعيدة قبل ميلاد محمد خاتمهم فكيف تسنى له أن يجتمع بهم فى المسجد الأقصى ليصلوا خلفه ويقابل ويكلم كثيرا منهم فى السموات واحدة بعد الأخرى كما تحدثت أحداث القصة ؟

والجواب عن ذلك انه كان بالأرواح والأشباح التى لا يشك من رآها انها هى هم بأنفسهم وذواتهم وشخصياتهم كما حدث الرسول فى بعض الروايات عن موسى لما رآه فقال عنه فى لونه أدمه يعنى سمرة ، وفى جسمه قوى يكاد شعر صدره يخرق قميصه وكأنه من رجال ارذشنوءة « قبيلة يشتهر رجالها بالقوة والبطش » . وهكذا كان موسى فانه كما قال القرآن الكريم وكز فرعونيا فقضى عليه فى الحال ، وقالت ابنة شعيب لأبيها : « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » . وقال الفرعونى لما خافه موسى يا موسى « أن تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض »، وهكذا نستطيع أن نقول بمنتهى الثقة والاطمئنان كما قال القرآن الكريم فى جدية هذه المرائى « ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى » وكما قال : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » سورة النجم .

ويمكن أن يقال فى هذه الشبهات جميعها انها استبعادات مجردة عن الدليل والاستبعادات المجردة عن الدليل لا تعطل الحقيقة الثابتة بالدليل . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الأزهـــر جامعًا وجامعة
أومصـــر فى ألف عـــام

للأستاذ محمد كمال السيد

ترجمنا فى المقال السابق للشيخ عبد الله الشرقاوى شـيخ الجـامع الأزهـــر • والآن تترجم باذن الله لبقية العلماء الخمسة الذين وعدنا بهم من الذين شاركوا فى عضـوية الديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى أدواره الثلاثة فى أثناء وجودهم فى مصر • وهم : السيد خليل البكرى ـ والشيخ مصطفى الصاوى ـ والشيخ سليمان الفيومى ـ والشيخ محمد المهدى •

السيد خليل البكرى :

لم يكن السـيد خليل من علماء الأزهر • وان كان الأرجح أنه تلقى دراسته بالأزهر مثل عموم المثقفين فى ذلك العصر • ولكنه كان سليل البيت البكرى الصديقى • وينتهى نسبه الى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه •

وسـاق لهم صـاحب الخطط التوفيقية سلسلة من النسب بهـا (٣٨) اسما حتى وقت على باشـا مبارك (الخطط طبعت سنة ١٣٠٥ هـ ، سنة ١٨٨٧ م) وهى تتفق الى حد كبير مع سلسلة النسـب التى ذكرها الجبرتى (آخر تاريخ الجبرتى سنة ١٢٣٦ هـ ، سنة ١٨٢٠م) مع اختلافات يسـيرة فى ترتيب بعض الاسماء • وهى خلافات تغتفر نظرا لتكرر الاسماء • فمثلا نجد اسـم محمد فى ثلاثة أجيـال متعـاقبة ، ولكل منهم كنية ولقب ومن الصعب ضبط مثل هذه الأمور فى فترة ثلاثة عشر قرنا • ونميـل الى ترجيـح ماذكره على مبارك فهو على ما يبدو قد استمد معلوماته من آل البيت البكرى بما عندهم من مستندات •

كما يبدو أنه أراد مجاملتهم فردد

ما نقل اليه من تاريخهم أنهم ينتسبون الى البيت النبوى الكريم عن طريق والدة جدهم السادس عشر (ابتداء من السيد عبد الباقى الموجود فى زمن على مبارك) • فهى شريفة من نسل الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب •

وفى هذا بعض الشك • فقد ذكر ابن عقبة فى كتاب (عمدة الطالب فى نسب آل أبى طالب) أن الحسن المثلث لم يعقب الا من ولده عبد الله • وفى كتاب الفيروزابادى (النفحة العنبرية فى أنساب خير البرية) أن المعقبين من أولاد الحسن المثنى خمسة • وليس فيهم الحسن المثلث • وذكر أن الحسن المثلث مات مسموما فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان • وفى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ج ٢ ص ٥٩) أن الحسن المثلث أعقب عليا الذى أعقب الحسين الذى ثار وقتل سنة ١٦٩ هـ • فهذه ثلاثة أقوال متضاربة •

ولكن لا نرى داعيا للتفصيل والمناقشة • فنسبة الشرف للبيت النبوى الكريم قد تأتى بالتواتر • كما قد تأتى من طريق النساء • وقد تولى بعض السادة البكرية نقابة الأشراف • ولم يكن يجوز هذا الا اذا كان معاصروهم يعتبرونهم منهم •

كذلك أرجع على مبارك وجودهم فى مصر الى ما قبل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) بناء على حجة موجودة بخزانتهم بالتاريخ المذكور أن المظفر تقى الدين شاهنشاه بن أيوب (أخا صلاح الدين) أنشأ مدرسة للشافعية بالفيوم • وأوقف عليها أطيانا • وشرط التدريس فيها (لسيدنا ومولانا شيخ الأسلام والمسلمين • بقية السلف الصالحين • سلالة صديق سيد المرسلين • أبى الاشراف نجم بن مولانا أبى المكارم عيسى بن مولانا أبى المحامد شعبان • الصديقى الشافعى • ثم من بعده لذريته ونسله وعقبه المقلدين لمذهب الأمام الأعظم محمد ابن ادريس الشافعى)

ونجم المذكور بهذه الحجة هو الجد الخامس والعشرون (ابتداء من السيد عبد الباقى الموجود بزمن

على مبارك) بسلسلة النسب التى ساقها صاحب الخطط التوفيقية .

فلاشك أنه بيت عريق فى المجد . وكانت لهم مساكن متعددة بباب الخلق . وعابدين . وعلى الخليج المصرى تجاه زاوية جلال الدين الشهيرة بالجامع الأبيض (غربى شارع بورسعيد بين باب الشعرية والظاهر) . وبالأزبكية بدرب عبد الحق . والأخير كان مطلا على بركة الأزبكية وكان يعمل فيه المولد النبوى الكريم فى عهد الفرنسيين. كما سنذكر باذن الله

وعند تنظيم منطقة الأزبكية فى عهد اسماعيل أخذ منهم بيت الأزبكية المذكور وعوضهم عنه بسراى عباس باشا الأول بالخرنفش وصار مكان جزء من بيت الأزبكية مبنى صندوق الدين قبل الغائه بين البوستة العمومية وميدان ابراهيم باشا .

وكان لهذه الأسرة علامة مميزة. وهى أنه اذا دنا أجل أحدهم يظهر بعقبه الأثر الشريف ــ وهو أشبه باللدغة ــ ويرجعونها الى اللدغة التى أصابت أبا بكر الصديق فى الغار مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى أثناء الهجرة الى المدينة. واذا ظهرت هذه العلامة قطع الأمل من شفاء المريض . وهى دليل على صحة النسب عندهم . وتظهر العلامة عند وفاتهم من رجال ونساء وأطفال حتى ولو كان سقطا (الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٢١)

وكان شيخ السجادة البكرية يجمع أحيانا ــ فضلا عن الخلافة البكرية ــ نقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية والأضرحة والتكايا . وناهيك بما لبعض الأضرحة الكبيرة مثل الامامين الحسين والشافعى وغيرهما من أوقاف ونذور .

ويحسن أن نذكر أن نقابة الأشراف لم تكن وقفا على أسرة معينة . بل تولاهما أشراف من أسر شريفة مختلفة مثل الرفاعى والسادات الوفائية وغيرهما .

وفى سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٥ م) تولى نقابة الأشراف أبو الأمداد أحمد سبط أبى الخير عبد الخالق أبى الوفا . فلما عين سنة ١١٧٦ فى خلافة بيتهم (السادات الوفائية)

تنازل عن نقابة الأشراف للسيد محمد البكرى • وهو ابن عم السيد خليل المترجم له وزوج أخته • وكانت مشيخة السجادة البكرية وقتذاك للسيد أحمد البكرى أخى السيد خليل •

وأبو الوفا لقب أسرة السادات الوفائية • وبعد أبى هادى محمد سلف أبى الأمداد أحمد المذكور انقطع نسل الأسرة من الذكور • فتولى أحمد المذكور مشيخة السجادة الوفائية • ووالدته ووالدة شمس الدين أبى الأمداد محمد السادات المعروف فى زمنى الفرنسيين ومحمد على بنتا عم • وشمس الدين هو ابن عبد الرحمن عارفين الملقب بالخواجة لقب كبار التجار فى البضائع الأجنبية ــ وهو ليس من السادات الوفائية •

ولم يكن السيد خليل محل تقدير من أسرته ومن أولى الأمر • لما فى سلوكه من رعونة • ولارتكابه أمورا غير لائقة كتعبير الجبرتى • فلما توفى أخوه السيد أحمد سنة ١١٩٥ تخطوه فى مشيخة الطريق • وعينوا ابن عمه السيد محمد البكرى الصديقى المذكور فجمع بين المشيخة ونقابة الأشراف •

ثم تخطوه مرة ثانية لما توفى السيد محمد البكرى المذكور سنة ١١٩٦ هـ فعينوا ابنه محمد أفندى البكرى فى المشيخة ونقابة الأشراف فظل فيهما حتى توفى سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م)

وقد أخطأ الجبرتى عندما ذكر أن خليلا هو ابن خال محمد أفندى البكرى المذكور • فالواقع أنه خال لأنه لا يتصور أن يكون المرء أبن عم أو ابن عم والد خال فى نفس الوقت • ولفظ (ابن) أضيف سهوا من المؤلف أو خطأ من الناسخ أو الناشر • وقد ذكر الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى كتابه (سيرة السيد عمر مكرم ص ٤٤) أن السيد خليل خال محمد أفندى البكرى •

وبعد وفاة محمد أفندى البكرى تولى مشيخة السجادة البكرية خاله السيد خليل المترجم له • أما نقابة الأشراف فقد تولاها السيد عمر مكرم •

يدلنا هذا على أن السيد خليل لم يكن محل ثقة أو تقدير من أهله أو من الأمراء الذين كان بيدهم الأمر وقتذاك • فقد انتقل مراد بك فى المرتين السابقتين وألبس الخليفة الخلعة وقلده المنصبين • ولما استقر الرأى أخيرا على تعيينه اكتفى بتوليته خلافة بيتهم • أما نقابة الأشراف فقد أعطيت للسيد عمر مكرم الذى كان نجمه بدأ فى الصعود وأخذت شخصيته تظهر فى مجرى الأحداث •

فلما قدم الفرنسيون • وخرج السيد عمر مكرم مع من خرجوا الى الشام • تداخل خليل معهم • وأفهمهم أن نقابة الأشراف لبيتهم • وأنها غصبت منه • فقلدوه اياها فى ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (أغسطس سنة ١٧٩٨ م) • واستولى على وقفها • ونودى فى المدينة (بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب)

وعظم شأنه بتعيينه فى الديوان فضلا عن مشيخة الطريق ونقابة الأشراف • فازدحم بابه بأصحاب الدعاوى والشكاوى • ولجأ لخدمته مماليك الأمراء المتغيبين يحتمون به •

وكان عند خلافه مع أبن عمه على الخلافة • قد قسم المنزل الذى بالأزبكية وعمر نصيبه وأنشأ به بستانا به أصناف الأشجاروالفواكه• فلما استقرت له الأمور فى عهد الفرنسيين استولى على بقية المنزل وضمه الى نصيبه وانفرد بسكنه • وكان يحتفل فى منزله هذا بليلة المولد النبوى • فيدعو كبار القواد الفرنسيين للعشاء • ويخلع عليه صارى عسكر (أى القائد الأكبر) خلعة فى هذه المناسبة • وهم من جانبهم يرسلون الى منزله الطبلخاناه الكبيرة (فرقة من الموسيقى) تدق الطبول مع المزامير المختلفة الأصوات • ويطلقون صواريخ نارية فى الهواء •

والشعب المصرى شديدالحساسية بسلوك قادته وزعمائه • فلما قامت ثورة القاهرة الثانية (مارس / أبريل سنة ١٨٠٠ م) بعد نقض معاهدة العريش • اتهمه الشعب بموالاة الفرنسيين • وهجم عليه طائفة من جنود الأتراك والمماليك

مع بعض العامة • فنهبوا داره بالأزبكية • وسحبوه مع أولاده وحريمه الى الجمالية ماشيا على قدميه عارى الرأس • وأهين أشنع اهانة • فلما وصلوا الجمالية أخذه أحمد محمود محرم التاجر (أحد أعضاء الديوان الثانى) الى منزله فآواه حتى انتهت الثورة •

ولما فرض كليبر بعد هذا الغرامة الفادحة على أهالى القاهرة تأديبا لهم • أعفاه من هذه الغرامة لما حصل له • بل وعوضه عما فقد • وبعد أن تخربت داره بالأزبكية انتقل الى بيت البارودى بباب الخلق ثم الى بيت عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى بشارع رحبة عابدين (شارع مصطفى باشا عبد الرازق حاليا) •

وبعد خروج الفرنسيين نزعت منه نقابة الأشراف • فقد حضر شخص من استانبول فى ديسمبر سنة١٨٠١م ومعه مرسوم بولايته النقابة • ولم يكن هذا الشخص محل ثقة من الأهالى والأشراف • فقد حصل على هذا المرسوم بطرق مريبة • فراجع ولاة الأمر فى مصر السلطان فى استانبول • فعزل • وتقرر بدله نقيبا للأشراف السيد عمر مكرم فى ١٨/٤/١٨٠٢ م •

ولما تولى خسرو باشا ولاية مصر جمع الوالى الجديد المشايخ فى ١٩/٣/١٠٨٢ م وتكلم معهم فى عزل السيد خليل البكرى عن مشيخة البكرية • فوافقوه • وتعين بدله فى المشيخة السيد محمد أبو السعود البكرى من فرع آخر غير فرعه من البيت البكرى •

وهكذا نزعت منه نقابة الأشراف ومشيخة البكرية •

وكان قد عقد لابنه أحمد على بنت المرحوم محمد أفندى البكرى السابق له فى المشيخة • فتصدى له السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات وآخرون بعد عزل خليل من المشيخة والنقابة وأبطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضى •

وقصة أخرى تدل على هوان خليل البكرى بعد خروج الفرنسيين ــ فقد ذكر الجبرتى فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ (٢٣/٧/ ١٨٠١ م) أى بعد خروج الفرنسيين من القاهرة بأيام :

حضر اليسرجى (تاجر الرقيق الأبيض أما تاجر الرقيق الأسود فكان يسمى الجلاب غالبا) الذى كان جلب مملوكا للشيخ البكرى وأدعى أنه قهره فى أخذ المملوك بالفرنسيس • وأخذه منه دون القيمة • وأنه كان أحضره على ذمة مراد بك • وطال بينهما النزاع • وآل الأمر بينهما الى انتزاع المملوك من خليل • وكان قد أعتقه وعقد له على ابنته فأبطلوا العتق • وفسخوا الزواج • وأخذ المملوك عثمان بك الطنبورجى المرادى • ودفع للشيخ دراهمه • ولجلابه باقى الثمن) • واشترى خليل لنفسه دارا بحارة الفرن (متفرعة من شارع اسماعيل بك خلف حارة السادات بدرب الجماميز) واشترى بيتين بجوارها من بيوت الأمراء الأقدمين ضمهما اليها • وعمر الجميع عمارة متقنة • وباع فى سبيل ذلك حصصه والتزامه • واكتفى بما يخصه فى وقف جده لأمه الشيخ الحفنى (شيخ الأزهر توفى سنة ١١٧١ هـ ١٧٥٧ م • وسيأتى ذكره ضمن شيوخ الأزهر بأذن الله) • وكانت هذه الدار كبيرة تصل حدودها الى دار السادات الوفائية • فبعد وفاة خليل سنة ١٢٢٣ هـ (سنة ١٨٠٩ م) تعرض الشيخ السادات لابنه أحمد وأخذ بستان هذه الدار بأبخس الأثمان • فأضافه الى بستان السادات • وأقام جدارا سد به شبابيك منزل البكرى وأظلمه

وتوفى خليل البكرى فى أول فبراير سنة ١٨٠٩ فى فقر ودين وخمول •

وقد أغفلنا ذكر بعض المخزيات فى سلوك خليل البكرى التى وردت فى تاريخ الجبرتى تنزيها لمجلة الأزهر عن ترديدها • ولكن نقول أنه جميل من على باشا مبارك أن يحاول ستر عثرات شخص من بيت كريم له مكانته الاجتماعية والدينية فى وقته فقد قال فى ختام ترجمة السيد خليل البكرى • بعد أن أغفل ذكر بعض الوقائع التى ذكرها الجبرتى وخفف من ألفاظ البعض الآخر : (ولا التفات لما قاله الجبرتى مما لا يناسب شرف هذا البيت العالى المقدار • سيما والأحوال الجارية فى أوقات الفتن لا يوقف لها على

قرار • ولا تعلم لها حقيقة ولا يوصل لها الى أصل صحيح)

كما قال فى ختام الفذلكة التى ذكرها عن البكريـة : (فلا يريبن القارىء ما عسى أن يقف عليـه فى بعض الكتب مما يخالف ذلك فانه مع قلته لا يعول عليه)

مع أنه لم يذكر فى هذه الفذلكة اسم السيد خليل • حين أنه ذكر فيها جميع ما أمكنه الوصول اليه من تراجم من تولوا المشيخة • بل وتراجم من كان لهم ذكر من فروعهم ولم يتولوا المشيخة •

وهو انكار عاطفى لم يقدم عليه أى دليل • فهو مجـرد نفى • ولا يعيـب الأسرة أن ينحـرف بعض أعضائها • فى فترات أجيال كثيـرة العدد • فالناس بشر • ولا عصـمة الا لنبى • وليس من حق المؤرخ أن يخفى الوقائع • وان كان يجوز له أن يفسرها أو يوجد لها المبررات •

ننتقل بعد هذا الى العضو الثالث من أعضاء الديوان • وهو :

الشيخ مصطفى الصاوى

لا نجد فى تاريخه ما يعيبه • وقد ترجمه الجبرتى فى وفيـات سـنة ١٢١٦ هـ (ذو القعدة سنة ١٢١٦ ـ مارس سنة ١٨٠٢) وقال أنه من مواليد صـوة • شرقى بلبيس ـ فنسب اليها الصاوى • وهى نسبة على غير القياس •

وهو بهذا من مديرية الشرقيـة مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى • ولم يذكر الجبرتى فى ترجمته غير مـا وصفه به من جمال الخلق ورفيع الخلق ورفيع المكانة • وذكر بعض النماذج التى تـدل على براعتـه اللغوية •

ولكن مما سبق ذكره فى المقالات السابقة نعلم أنه قد نافس الشـيخ عبد الله الشرقاوى فى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ بعـد وفاة الشيخ أحمد العروسى • وهذا يدل على مكانته بين زملائه •

كما ذكرنا أنه بعد موقعة انبابة أوفد العلماء منـدوبين لمفاوضـة نابليـون • هما الشـيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيـومى الآتى ذكره • وفى هذا دليل على الثقة من ناحية • ومن ناحية أخرى دليل على جرأتهما • فالمقابلة الأولى

مع الفاتح فيها اقدام ومخاطرة • وان كان فى المنشور الذى أذاعه نابليون عقب نزوله فى الأسكندرية ما يدعو الى بعض الاطمئنان •

ولما أخمدت ثورة القاهرة الثانية فى ابريل سنة ١٨٠٠ كان الصاوى ممن وقع عليهم غضب الفرنسيين • وخصوه بنصيب كبير من الغرامة التى فرضوها على أهالى القاهرة •

ولم يعش الصاوى غير شهور قليلة بعد خروج الفرنسيين

الشيخ سليمان الفيومى

أما الرابع من أعضاء الديوان فهو الشيخ سليمان الفيومى • من مواليد الفيوم كما يدل عليه لقبه • ونجد فى ترجمته وتاريخ حياته صورة جميلة من حسن الخلق • وكريم الطباع • وعلو الهمة • وفائق المروءة • وصادق الوطنية مما يجب أن يتحلى به العلماء وقادة الفكر والشعوب •

نشأ الشيخ سليمان الفيومى فقيرا • وجاور بالأزهر • ودرس على شيوخ عصره • واتصل بالشيخ على الصعيدى • وبعد وفاته اتصل بالشيخ أحمد الدردير • وكان الفيومى جميل الصوت • فاختلط مع المنشدين فى الأذكار • وبهذا كان يذهب الى بيوت الأعيان فكان محل اكرامهم • ثم اتصل ببعض ذرية السلطان برقوق • وهم نظار على أوقافه ومن الأعيان وقتذاك • فراج أمره • واتصل بنساء الأمراء عن طريق الأغوات • وحاز بتقواه ولباقته رضاهن • وتوطد مركزه عندهن وعند أزواجهن • فتحسنت أحواله المالية • ثم عين شيخا لرواق الفيمة (أهل الفيوم) • وبنى له محمد بك المبدول دارا بحارة عابدين •

ومحمد بك المبدول هذا كان أسمه أصلا مراد بك • ولما حضر حسن باشا قبطان سنة ١٢٠٠ هـ من استانبول لتأديب ابراهيم بك ومراد بك كما سبق ذكره فى مقال سابق • فلكراهته اسم مراد أبدل أسمه الى محمد فعرف باسم محمد بك وعينه أميرا للحج • واليه ينسب جامع المبدولى بجوار المتحف الصحى بشارع الشيخ ريحان مقابل سراى عابدين • والجامع الحالى

بدلا من مكانه السابق بحارة عابدين عند انشاء سراى عابدين فى عهد الخديو اسماعيل .

ولما توفيت زوجة الشيخ سليمان الفيومى زوجته الست زليخا امرأة ابراهيم بك الكبير ببنت عبد الله الرومى . وكانت ثرية فتصرف فى أوقافها وصارت له شهرة فى جميع البلاد .

وكان قليل البضاعة فى العلم كما ذكر الجبرتى . ولكن كان بيته مفتوحا للقاصدين يكرمهم بالمأكل والاقامة . ويبذل ما يستطيع فى قضاء حوائج الناس . فلا يعود الا فى العشاء الآخرة . وهذا دون مقابل أو أجر . واذا قدمت له هدية من أحد أصحاب الحاجات فرق الكثير منها على من يكون بمجلسه من الحاضرين .

ولما حضر حسن باشا قبطان سنة ١٢٠٠ هـ . واضطهد الأمراء فهربوا منه الى الصعيد . وقصد حسن باشا بيع نسائهم كالرقيق ــ كما سبق ذكره ــ التجأ الكثيرات منهن الى منزل الفيومى فحماهن حتى خرج حسن باشا سنة ١٢٠١ هـ . وظللن بمنزله حتى سنة ١٢٠٥ حيث توفى اسماعيل بك بالطاعون وعاد ابراهيم بك ومراد بك الى العاصمة . فكان هذا محل تقدير منهم وزيادة فى قدره عندهم .

وكذلك لما حضر الفرنسيون وهرب الأمراء . التجأ نساؤهم الى منزله حتى امتلأ بهن هو وما جاوره من الدور . فدافع عنهن وأقمن فى كنفه شهورا . وقد ذكرنا أنه والشيخ مصطفى الصاوى كانا المندوبين عن العلماء فى المقابلة الأولى مع نابليون .

وكان محل تقدير من الفرنسيين ففضلا عن عضويته بالديوان فى أدواره الثلاثة . قد عينوه شيخا لمشايخ البلاد . وله مرتب خاص عن ذلك فضلا عن مرتب عضوية الديوان

ومن مواقفه الوطنية أنه عند ما خرج نابليون الى الشام قرر استصحاب بعض العلماء والقاضى التركى . ومصطفى بك كتخدا الوالى ــ أى وكيل الوالى العثمانى أبى بكر باشا الطرابلسى الذى كان قد هرب الى الشام عند قدوم

الفرنسيين كما سبق ذكره . وكان نابليون عين مصطفى بك المذكور أميرا للحج .

فلما وصلوا الى القرين اضطر بعضهم للتخلف بسبب أخذ جمالهم للجيش . ومن تخلف بالقرين هم المشايخ الصاوى والفيومى والدواخلى والعريشى (وجميعهم من أعضاء الديوان الأول) ومصطفى بك والقاضى التركى .

وانتهز أمير الحج مصطفى بك هذه الفرصة وأراد مناوشة الفرنسيين . فلم يوافقه على ذلك غير القاضى التركى والشيخ سليمان الفيومى . وعاد الباقون الى القاهرة

فأخذ مصطفى بك والقاضى التركى والشيخ الفيومى يحضون الأهالى شرقى الدلتا على مقاومة الفرنسيين . وقامت ثورة اتسعت فى الشرقية والدقهلية حتى أمكن للفرنسيين اخمادها . وهرب مصطفى بك وأثبتوا خيانته فعزلوه من امارة الحج وصادروا ممتلكاته وعزلوا القاضى التركى . وعينوا مكانه بالانتخاب الشيخ أحمد العريشى كما سبق ذكره . أما الشيخ الفيومى فقد عاد الى القاهرة وظل محل ريبة الفرنسيين . ولكن هذا لم يمنع من تعيينه فى الديوانين الثانى والثالث .

وفى أواخر عهد الفرنسيين لما شاع أمر هزيمتهم أمام الأنجليز والأتراك فى (أبو قير) . وأتضح زحف الجيش العثمانى من الشرق . احتاط الفرنسيون فى القاهرة من قيام الشعب ضدهم . فاعتقلوا أربعة من العلماء أعضاء الديوان فى القلعة وهم : الشرقاوى والصاوى والفيومى والمهدى . ولكن لم يطل هذا كثيرا . ولم يسيئوا معاملة المعتقلين . فقد كان أعتقالهم لمجرد الاحتياط . وسرعان ما جلا الفرنسيون .

وبعد خروج الفرنسيين ظل الفيومى مقدرا عند العثمانيين .وفى عهد الاضطرابات التى أعقبت خروج الفرنسيين . ومقتل طاهر باشا قائمقام الوالى كما سنذكر فى المقال التالى بأذن الله . ومقتل خليل أفندى الدفتردار التجأ الى دار الفيومى أخو الدفتردار المقتول وخازنداره

وغيرهما فحماهم وواساهم حتى سافروا الى بلادهم .

وتوفى فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٢٢٤ هـ (١٨١٠/١/٢٠ م) . وكانت جنازته حافلة . ولا يقل عدد المشيعات عن عدد المشيعين . وخرجت جنازته من داره المذكورة بحارة عابدين . وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار المتقدمين .

وتوفى مدينا بعشرة آلاف ريال. تنازل عنها سماحا أرباب الديون . رحمه الله .

ننتقل بعد هذا الى العضو الخامس من أعضاء الديوان فى أدواره الثلاثة ولعله ألمعهم شخصية وذكاء . وهو :

الشيخ محمد المهدى

كان أسمه (هبة الله بن أبيفانيوس) من بلدة نهيا بمديرية الجيزة . وكان أبوه أبيفانيوس كاتبا نصرانيا عند سليمان كاشف . وكان مولده على الأرجح حوالى سنة ١١٥٥ هـ (١٧٤٢ م)

واسمه الأصلى من مقال للأستاذ محمد الهياوى نشر بالعدد ٩٣ من مجلة السياسة الأسبوعية فى ١٩٢٨/١٢/١٧ م . ومن كتاب سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد . أما تاريخ مولده فهو استنتاج من ترجمة الجبرتى له فى وفيات سنة ١٢٣٠ هـ أنه توفى عن خمسة وسبعين عاما . ونهيا تبعد حوالى الثمانية كيلو متر شمالا من أهرام الجيزة .

وتوسم سليمان كاشف ، الغلام النجابة . فضلا عن خفة الظل ووسامة الوجه . فكفله . وأراد أن يخلطه بمماليكه . ولكن التربية العسكرية للمماليك لم تلائم الغلام . فانقبض عنها . فوجهه الكاشف وجهة أخرى . بأن حفظه القرآن وأسلمه للشيخ الحفنى فتتلمذ له . ونسب اليه . وأصبح اسمه محمد المهدى الحفنى .

هذه رواية . ورواية أخرى ذكرها الجبرتى أن والده من الأقباط . وأسلم هو صغيرا دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى . وحلت عليه

أنظاره • وأشرقت عليه أنواره • وفارق أهله • وتبرأ منهم • وحضنه الشيخ ورباه وأحبه • واستمر بمنزله مع أولاده • واعتنى بشأنه • وأحفظه القرآن •

والروايتان متقاربتان وتصلان الى نتيجة واحدة • واذا أخذنا برواية الجبرتى نجد أنه اتصل بالشيخ الحفنى ما يقرب من الخمسة عشر عاما • فقد توفى الشيخ الحفنى سنة ١١٨١ هـ • والمهدى من مواليد سنة ١١٥٥ هـ واتصل به وهو صبى دون البلوغ أى كان فى العاشرة من عمره مثلا •

ولما توفى الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمنهورى سنة ١١٩٣ هـ • وكان من خلفاء الشيخ الحفنى فى الطريقة الخلوتية • جلس المهدى مكانه بالأزهر • واشتغل بالقاء الدروس • ونما أمره • وذاع ذكره • وبعد صيته •

وتزوج المهدى بنت الشيخ محمد الحريرى مفتى الحنفية وخطيب وامام مسجد الكخيا • ورزق منها بابنه محمد أمين • ومحمد أمين هو والد الشيخ محمد المهدى العباسى الذى عين مفتيا فى عهد ابراهيم باشا • وشيخا للأزهر فى عهد اسماعيل وتوفيق وفى عهده بدأت أولى الخطوات فى اصلاح الدراسة بالأزهر وتنظيمه كما سيأتى عند ذكر شيوخ الأزهر باذن الله •

وفى زواج محمد المهدى الحفنى الحنفية وقتذاك • وفى وصول بابنة الشيخ محمد الحريرى مفتى حفيده الشيخ محمد المهدى العباسى الى الافتاء ومشيخة الجامع الأزهر ما يدل على التسامح الطبيعى فى نفوس المسلمين • وسماحة القاعدة ، أن الأسلام يجب ما قبله • فلم تمنع الأول سابقة نصرانيته من مصاهرة شخص ذى مركز دينى ممتاز • كما لم تعق الثانى عن الوصول الى أكبر المناصب الدينية وهى مشيخة الجامع الأزهر

وتداخل الشيخ محمد المهدى الحفنى مع الأمراء • وأصبح بذكائه ولباقته ذا مركز مرموق • ولما خرج حسن باشا قبطان من مصر سنة ١٢٠١ هـ كما ذكرنا ترك كتخداه أى وكيله اسماعيل بك لقبض ما

قرره على الأمراء • فاتصل المهدى باسماعيل بك وتقرب اليه • فلما عين المذكور واليا على مصر باسم اسماعيل باشا التونسى (١٢٠٣ ــ ١٢٠٥ هـ) ازداد تقربا اليه • وأكثر من التردد عليه وزيارته بالقلعة والمبيت عنده أغلب الليالى • وأنعم عليه الوالى بالكساوى • وعينه فى الضرنخانة (سك النقود) والسلخانة والجوالى (الجزية على غير المسلمين) •

ولما وفد الطاعون فى أواخر ولاية المذكور وأطاح بمئات الألوف • ومنهم الكثيرون من ذوى الثراء • فأحله الباشا محل من اختارهم من ذوى الرزق والأقطاعات • فازداد ثراء واتسعت دائرة أطيانه فى الجيزة والبحيرة والمنوفية والغربية • وأخذ فى الاتجار فى كافة المحاصيل من كتان وقطن وأرز وغيرها •

وابتنى له دارا عظيمة فى الأزبكية بناحية الرويعى •

ويتفرع الآن من شارع ابراهيم باشا شارع اسمه شارع المهدى عند ميدان قنطرة الدكة • ويسير شرقا موازيا لشارع نجيب الريحانى أو وجه البركة سابقا • كما أنه يوجد شارع المهدى الخصوصى عند تقاطع شارع الرويعى مع شارع البواكى فى مقابلة موقف الأوتوبيس العمومى فى أول شارع ٢٦ يولية من جهة العتبة • وموقع الشارع الأول (المهدى) كان من ضمن بركة الأزبكية عند دخول الفرنسيين • فقد كانت تمتد شمالا حتى شارع نجيب الريحانى أو وجه البركة سابقا • أما موقع الشارع الثانى (المهدى الخصوصى) فقد كان على الحدود الشرقية لبركة الأزبكية • ونرجح أنه المقصود من وصف الجبرتى (أسماء ومسميات من تاريخ وخطط مصر القاهرة لكاتب المقال)

ولما دخل الفرنسيون مصر تداخل المهدى معهم • ولما شكل نابليون الديوان الأول من العلماء كان المهدى عاشرهم • وكان كاتم السر (سكرتيرا) لهذا الديوان •

وحاز المهدى تقدير نابليون حتى وصفه فى مذكراته أنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لسانا وأكثرهم

علما وأصغرهم سنا (تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ج ٢ ص ٣٠١)

وكانت أغلب المنشورات التى يذيعها الفرنسيون من انشائه • فبعد انتصار نابليون فى يافا بالشام أرسل الأعلام التى كسبها فى المعركة لتعلق على مآذن الأزهر • وأرسل معها خطابا فيه : أريد أن تقابلوا المهدى وأعضاء الديوان وتتفقوا معهم على احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسلة اليكم •

وانتفع المهدى من اتصاله بالفرنسيين فعظم شأنه وكبر مقامه• وأصبح عندهم محل الوساطة والشفاعة • وقال الجبرتى : « وزاد ايراده وجمعه • واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا • وأقاموه عنهم وكيلا فى شؤون كثيرة وبلاد وقرى يجبى اليه خراجها • ويصرف منها ما يصرفه • ويأتيه الفلاحون منها بالأغنام والسمن والعسل • وماجرت به العادة • ويتقدمون اليه بدعاويهم وشكاويهم • ويفعل بهم ما كان يفعله أصحاب الألتزامات من الحبس والضرب وأخذ المصالح • وصار له أتباع وخدم من وجهاء الناس ومن دونهم •• الخ » • ثم قال : « وكان هو المشار اليه فيه (أى فى الديوان) • وخدمة الديوان الموظفون تحت أمره • واذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه وبأيديهم العصى ويوسعون له الطريق » ١هـ •

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية فى مارس / أبريل سنة ١٨٠٠ • وبالغ الفرنسيون فى قمعها فى شدة وقسوة • وأرسل كليبر يطلب وفدا من المشايخ للتفاهم معهم • فذهب الوفد مكونا من الشرقاوى والسرسى والفيومى والمهدى • فطلب منهم أولا خروج العثمانيين من القاهرة • فلما رجعوا ثار الناس بهم • واعتبروهم خونة • وأهانوهم

وفى أثناء هذه الثورة حرق بيت المهدى المذكور بالأزبكية • فأعفى المهدى • مثل خليل البكرى — من المساهمة فى الغرامة التى فرضت على القاهرة • وقال الجبرتى : « وكان المهدى قبل ذلك — أى قبل حريق بيته — قد نقل جميع ما فيه الى داره بالخرنفش • ولم يترك فيه الا بعض الحصر • ولم يكن فيه

غير بعض الخدم • وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين » ١ هـ •

ولكن من الأنصاف للمهدى أن نكرر ما ذكره الرافعى من رسالة من بوسليج مدير الشؤون المالية الى نابليون : « أن المهدى رجل يطمع فى الشهرة والتزلف الى الجماهير • وأنه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل ألا يفقد شيئا من منزلته عند الناس » •

كذلك من الأنصاف للمهدى • وللجبرتى أيضا • أن نذكر ما قاله الأخير عنه بصدد علاقته بالفرنسيين « وبالجملة كان وجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام • سد بعقله ثقوبا • وداوى برأيه فتوقا وجروحا • لاسيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع • وما يكدر طباع الفرنسية من مخارق الرعية • فيتلافاه بمراهم كلماته ويسكن حدته بملاطفاته »

ولم يحد خروج الفرنسيين من نشاطه الاجتماعى • فاتصل بالعثمانيين وتداخل معهم • وتقرب الى شريف افندى الدفتردار • فثبت وظائفه والتزاماته وسموحاته • وأضاف اليها ما ينتقيه من الديوان • وكل ذلك من غير مقابلة أو حلوان •

والدفتردار أى ممسك الدفتر • وهى وظيفة أقرب لوزير المالية • وعزل شريف أفندى آخر سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠٤ م) • والحلوان يساوى رسم التسجيل • وكان يدفع نظير الأثبات فى دفاتر الدولة لاسم من استفاد من وظيفة معينة أو التزام أو غير ذلك •

ولما قتل الدفتردار خليل أفندى الرجائى عقب مقتل طاهر باشا سنة ١٢١٨ هـ كما ذكرنا فى ترجمة الشيخ سليمان الفيومى • وأعقب هذا فتن واضطرابات كانت نهايتها مبايعة الشعب بزعامة السيد عمر مكرم لمحمد على فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م) كما سنذكر باذن الله • فيبدو أن المهدى كان فى هذه الفترة منصرفا الى شؤونه الخاصة وادارة أملاكه الواسعة • وكان كثير التغيب عن القاهرة • أو ربما وجد من الحصافة عدم الأشتراك فى الأحوال الجارية لغموضها • وعدم وضوح الجانب الأقوى •

وتزوج الكثيرات بخلاف ابنة الشيخ محمد الحريرى مفتى الحنفية السابق ذكره •

ولما توفى الشيخ سليمان الفيومى سنة ١٢٢٤ هـ (١٨١٠/١/٢٠) ترك زوجته المعروفه بالسحراوية • وكانت وافرة الغنى واسعة الثراء • وكانت طاعنة فى السن فاشترت لزوجها الفيومى جارية بيضاء أعتقتها وزوجتها له لترضيه • ولكن الفيومى مات قبل أن يدخل بها • وترك زوجتيه المذكورتين • فلما توفيت السحراوية أمكن للمهدى بتداخله أن يضع يده على دارها وأموالها وجواريها • ومالها من عقار والتزام • وزوج الجارية المذكورة لأبنه عبد الهادى •

واشترى دارا بالكحكيين (بجوار حى الباطنية جنوبى الجامع الأزهر) وجدد عمارتها وأسكن فيها زوجة أخرى أصلها من دمياط • وأسكن معها ضرة لها أصلها من شابور (على الشاطىء الغربى لفرع رشيد بالقرب من كفر الزيات)

وبنى دارا عظيمةفى جهة الموسكى على الشاطىء الغربى للخليج (جنوبى تقاطع شارعى بورسعيد والأزهر) • وماطل بائعى أرضها فى دفع باقى ثمنها ما يقرب من الخمس سنوات لكثرة تغيبه • ولم يصل البائعون الى حقهم الا بالشكوى الى كتخدا الباشا • وكانت هذه الدار واسعة • وبها من الجهة الغربية بستان يصل غربا الى المناصرة وكوم الشيخ سلامة (بالقرب من سوق الخضار بالعتبة) • وبنى ابنه محمد أمين فى هذا البستان دارا له ظلت الى العهد الحديث فأزيلت ودخل جزء منها فى توسعة شارع الخليج أو بورسعيد • وتحول الباقى الى مساكن ودكاكين • وكان أمامها قنطرة على الخليج اسمها قنطرة المفتى ــ نسبة الى الشيخ محمد المهدى العباسى شيخ الأزهر حفيد المهدى الكبير اذ كان تولى الأفتاء قبل مشيخة الجامع الأزهر • وأزيلت هذه القنطرة عند ما ردمت شركة الترام الخليج المصرى سنة ١٨٩٨ م لتسيير خطوط الترام فيه (أسماء ومسميات لكاتب المقال)

ومن أولاده الذين رزق بهم الشيخ محمد المهدى الحفنى محمد أمين السابق ذكره وكان حنفى

المذهب كجده لأمه الشيخ محمد الحريرى • ومحمد تقى الدين توفى شابا فى حياة أبيه وكان مالكيا • والشيخ عبد الهادى وكان شافعيا كأبيه • وألقى دروسا فى الأزهر بعد وفاة أبيه •

وفى توزيع المهدى لأولاده على المذاهب المختلفة موضع نظر •

وذكر الأستاذ محمد فريد أبو حديد (سيرة السيد عمر مكرم ص ١٨٩) من المستشرق الفرنسى مارسل (١٧٧٦ ــ ١٨٥٤ م) أنه كان لا يمتنع عن مشاركة الفرنسيين تعاطى الخمر فى حفلاتهم • ومارسل المذكور كان عضوا فى المجمع العلوى الذى أنشأه نابليون بالقاهرة •وكان مديرا للمطبعة الأهلية التى أنشأها نابليون • واشترك فى وضع كتاب وصف مصر وكتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية • وله رسالتان عن مستشفى قلاوون ومقياس الروضة (الرافعى جـ ١ ص ١٤٠ مع ملاحظة صغر سن المذكور أثناء الحملة الفرنسية) •

وكان للمهدى سنة ١٨٠٩ (١٢٢٤ هـ) دور فى ابعاد محمد على للسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط كما سنعرض له فى المقال التالى باذن الله • وكافأه محمد على بنظر أوقاف ضريح الأمام الشافعى ووقف سنان باشا فضلا عن مبلغ كبير من المال • وكما قال الجبرتى : نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر مكرم •

وسنان باشا من أوائل الولاة العثمانيين • تولى مصر مرتين (٩٧٥ ــ ٩٧٦ هـ ، ٩٧٩ ــ ٩٨٠ هـ) • وتولى بعد ذلك الصدارة العظمى (رئاسة الوزارة) فى تركيا • وله آثار كثيرة فى مصر والشام من مساجد ورباطات وتكايا • وجدد حفر خليج الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) • (تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٤)

ولما أوقع محمد على بالمماليك فى مارس سنة ١٨١١ خرج ابنه طوسون لحرب الوهابيين فى الحجاز وتقرر أن يخرج معه أربعة من الفقهاء على المذاهب الأربعة • فتعين المهدى عن فقهاء الشافعية فى سبتمبر سنة ١٨١١ وعاد لمصر فى فبراير سنة ١٨١٢ م •

ولما توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر فى شوال سنة ١٢٢٧ هـ (أكتوبر سنة ١٨١٢ م) طمع المهدى فى مشيخة الأزهر مكانه . وأمر محمد على بأجتماع المشايخ عنده . وأجمع فقهاء الشافعية الحاضرون على تعيين المهدى . وقرأوا الفاتحة . وهنأوه. وانتظروا صدور القرار . ولكن كان لمحمد على رأى آخر . فلم يأخذ برأيهم وعين الشيخ محمد الشنوانى كما سنذكر فى المقال التالى باذن الله .

وتجلد المهدى . ولم يظهر الامتعاض . حتى أنه عندما قدم عليه الشيخ الشنوانى لزيارته رحب به وهنأه . وخلع عليه خلعة فرو سمور .

ومع واسع ثروته لم يكن المهدى منعما فى حياته . وكان يتنقل بين أملاكه دواما . وذكر الجبرتى أنه ينام حيثما اتفق ولو على حصير ويأكل ما يجد من طعام ولو بطارخ أو فسيخ . ويبدو أن البطارخ والفسيخ كانا بأرخص الأثمان وقتذاك ومن مآكل السوقة .

وقد ألهته الدنيا فبذل ما أعطاه الله من ذكاء وطاقة فى جمع المال . ولو بذلهما فى النواحى العلمية والدينية لأفاد كثيراواستفاد الذكرى الطيبة الجديرة بالبقاء .

وأخيرا توفى فجأة بداره بالكحكيين مساء فى ٢ صفر سنة ١٢٣٠ هـ (فبراير سنة ١٨١٥ م) . ونقله أولاده الى داره بالموسكى . ومن هناك شيعت جنازته . وصلى عليه فى الجامع الأزهر . وكان مشهدا عظيما حافلا .ودفن بجوار قبر الشيخ الحفنى . فسبحان من له الدوام .

وقال عنه الجبرتى فى ختام ترجمته : « كان من فحول العلماء . يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق . ويقررها بالحاصل . وانتفع عليه الكثيرون من الطلبة . ومنهم الآن مدرسون مشهورون ومميزون بين نظرائهم من أهل العصر . ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين . وبعض اللاحقين . ولو لم يشتغل بالانهماك على الدنيا لكان نادرة عصره) .

محمد كمال السيد

أسلوب السخرية فى القرآن الكريم

تأليف الدكتور عبد الحليم حفنى

عرض وتقرير : الأستاذ السيد حسن قرون

هذا كتاب جديد يضاف الى القرآن الكريم ، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية بجوار أمثاله مما انتحى ناحيته من القرآن الكريم ونسب اليه مثل : المرأة فى القرآن الشيطان فى القرآن . اليهود فى القرآن . قصص القرآن الى كثير مما لم أطلع عليه فأبدى رأيى فيه ، والكتاب الذى أتحدث عنه ، ويلوى قلمى نحوه هو « أسلوب السخرية فى القرآن الكريم» لمؤلفه (الدكتور عبد الحليم حفنى)

وقد يضايقك عنوان الكتاب ، لأننا نقدس القرآن الكريم وهو كلام الله عما تراه من عمل الانسان من سخرية أو تهكم أو دعاية أو نكتة .. ولكنك حين تقرأ الكتاب مثلى وترى عقيدة المؤلف ورأيه ، والقصد الذى عمد اليه ، والجهد الذى بذله فى توضيح نظريته والتطبيق عليها ومراجعه التى استند اليها صرت معه ، وقلت قوله ، ورضيت هذا العنوان ، والمؤلف قد شعر شعورك وشعورى فمهد لقوله وبين غرضه وأفاض فيه ، وما من شك فى أن كل من قرأ القرآن وتمعن فى معانيه عرف مراميه . يجد هذا النمط من الكلام ويجد المفسرين يقولونه ويثبتونه نوعا من الأساليب التى تدحض سخرية أعداء الاسلام على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، وان كان المفسرون أو غيرهم لم يفردوا له تأليفا خاصا ، أو كتابا يجمع متفرقه، ويتتبع مسالكه ، لذلك أعلن المؤلف فى مقدمته :

« وقد كان موضوع هذا البحث — وهو أسلوب السخرية فى القرآن — جانبا من الجوانب الواضحة فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فلا أعلم

أن أحدا من الباحثين قد تناوله قط ولو فى مقالة ، واذا كانت الكتابة عن القرآن عامة من الصعوبة .. فان الكتابة عن جانب منه لم تطرقه البحوث أشد صعوبة وأعمق تهيبا .. ومما يزيد فى ثقل هذه المشقة أن تضاف اليها مشقة نفسية تنبع من الشعور بأن الموضوع متصل بقاعدة الاسلام . كتاب الله»

وقد بين المؤلف دوافع تأليف الكتاب واتجاهاته فى نقاط أثبتها فى المقدمة متخذا من الطرق العلمية سبيله الى جلاء موضوعه وتقديمه للقارىء على أسس علمية يقبلها العقل ويقرها المنطق ، والمؤلف ليبلغ المنشود مما عمد اليه ، والمقصود مما استهدفه لم يعتمد على اللغة والأدب وعلوم اللسان العربى فحسب وانما حشد ورصد مجموعات من العلوم النفسية والاجتماعية والجغرافية (البيئة) والتاريخية وفى مقدمتها السيرة النبوية فى كتبها القديمة والحديثة فكان له من كل هذا معين وروافد ترضى الباحث والمتلقى والناقد على السواء .

والمؤلف فى أول عنوان له من كتابه وهو السخرية وضع هذه الآية : « سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » وبدأ كلامه بمفهوم معنى السخرية وأعاد الحديث عن « السخرية فى القرآن » لأنه يخشى أن ينظر اليها بعض من ضاقت آفاق تفكيرهم من المؤمنين بالقرآن على أنها قد لا تتفق مع اجلالهم للقرآن من حيث انه كلام الله .. ولكنهم يغفلون عن أن القرآن مع أنه كلام الله الا أنه يعتبر « الناطق بلسان المسلمين » والممثل لحالهم بالنسبة الى أعدائهم ، واذا كان المسلمون وأعداء الاسلام حزبين متخاصمين أبدا فان القرآن هو الممثل لحزب المسلمين ومن البديهى أن القرآن لا ينطق بلسان المسلمين ولا يدافع عنهم باعتبارهم أشخاصا أو جماعة، وانما بوصفهم ممثلين للعقيدة الاسلامية ، ومن هذه الزاوية ليس هناك اختلاف أو تباعد بين عداء القرآن وعداء المسلمين وعداء العقيدة الاسلامية ، لأن القرآن لا يعتبر ممثلا للمسلمين الا فيما يتعلق بالاسلام بوصفه « عقيدة

وشريعة » وبهذا الوصف نقبل نسبة السخرية الى الله تعالى ، لأن القرآن بصفته ناطقا بلسان المسلمين يجعل هذه الصورة كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم والقرآن فى كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم الى النصر .

ولما كان أعداء الاسلام قد اتخذوا السخرية سلاحا ليضعفوا من شوكة المسلمين فى مكة أو فى المدينة أو فى كل موطن التقى فيه الايمان بالكفر كان لزاما أن يستخدم هذا السلاح ، ويؤيد المؤلف موقفه بالنقل عن الزمخشرى فيسوق قوله: يقول الزمخشرى :

« فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب .. فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به » وما السخرية ؟ ولماذا نلجأ اليها وما آثارها ؟ السخرية فى مدلولها العرفى واضحة لا تلتبس بمعنى آخر ، ويؤدى معناها عدة ألفاظ أبرزها التهكم والاستهزاء ، وهى سلاح عدائى مهما كانت دوافعها ، ويستعين المؤلف بآراء الباحثين عن السخرية فينقل عن علماء النفس قولهم : « الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا ان هى الا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها انما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس فتلتمس فى اللهو ترويحا عن نفسها وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيرا ما يثقل كاهلها » وهذه الأنواع المذكورة يجعلون عنوانها الضحك ، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع ويسترسل المؤلف فى ترسيخ فلسفة الضحك فيذكر أقوال طائفة من الفلاسفة الأقدمين والمعاصرين ، ويوازن بين ضحك البدائى وضحك المتحضر ، و ينتهى من كل هذا الى أن الضحك شعور بالانتصار وكذلك

السخرية تفيد شعورا بالانتصار والتفوق والتعالى على الخصم ، والمهم عندى ما أثاره المؤلف نتيجة بحوثه عن آثار السخرية ، فيذكر لها آثارا كبارا منها « النقد والاصلاح الاجتماعى » تسلط على الخارجين على كيان الجماعة ، ومنها « طلب التغيير الاجتماعى » ومهما بدت بريئة من كل غرض فلابد أن تحمل غرضا يكمن وراء هذا المظهر البرىء ، ولها دورها فى تقويم الخلق الاجتماعى ومعالجة اعوجاجه ومن مجالاتها (ميادين الحروب) فانها وسيلة الى اضعاف الروح المعنوية فى الجيش المسخور منه ، وخطورة السخرية بالنسبة للحرب النفسية أو العسكرية أنها تؤدى دورين هامين لصالح الساخر : أحدهما تقوية الروح المعنوية فى صفوف الساخرين ، والآخر هو أنها تضعف الروح المعنوية فى الذين توجه اليهم ، والسخرية تقتضى ذكاء وقدرة على تأليف العبارة الموجزة وبلوغ المفارقات من أقرب طريق ، والساخر لابد أن يتحلى بذكاء ومنطقية ، وسرعة بديهة ، وحسن تخلص ، وبراعة فى الرد ، وشعور بالتفوق والانتصار والاستعلاء • والامام محمد عبده يوضح هذا المعنى فى قوله : « من شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع » •• كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبى جهل والوليد ، وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل مكان ، ويحتاط المؤلف لكل موقف فيذكر اعتراضا هو قد ترى الضعفاء يسخرون من الأقوياء ، فيرد مبينا حالة المستهزأ به من رئيس أو زعيم ممن لا يسير مع مرءوسيه حسب وظيفته ، فتسقط منزلته من نفوسهم فيرون أنفسهم أنهم فى مركز نفسى أقوى من مركز الذين يسخرون منه مهما يكن ذا قوة مسيطرة ، ويؤيد هذا موقف المصريين من المستعمرين على مدى الأحقاب ، فهم يعتقدون أنهم أذكى وأعلى وأنقى من هؤلاء الذين سطوا وغلبوهم على أمرهم •

وخرج المؤلف من عرضه هذا الى أن « القرآن الكريم لم يختر أسلوب السخرية من أعدائه ليكون

مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير كما يتراءى لبعض المفسرين ، وانما اختاره لأهداف أبعد ، وأغراض أعمق تبدو فيها الدراسة العلمية ، والتخطيط المنسق الذى يثبت أن القرآن الكريم كان أسبق من علم النفس وباحثيه ادراكا للسخرية فى معناها العلمى » كما أن القرآن ارتفع بها عن موطن البداوة الى مناط الحضارة ، بل ارتفع بها عن الهجاء الذى كان سلاح الشعراء حين نزول القرآن ويخيل الى أنك مثلى تستعجل الحديث عن أعداء الاسلام ومكانة السخرية بين الطرفين ، وفى يقيننا كما فى يقين المؤلف أن سخرية القرآن أنفذ مسلكا وأكثر براعة وأسمى عبارة وأمس بالبلاغة من سخرية غيره ، لأن الله يعلم طبائع النفوس ولا تخفى عليه خافية ، وسنجد أعداء الاسلام وان سكنوا الجزيرة العربية آن نزول القرآن الا أنهم يمثلون الأعداء فى كل مكان وزمان .. والأعداء هم : العرب واليهود والنصارى أو هما معا كما يسميهما المؤلف « العداوة المزدوجة وامتدادها » ص ٣٣ من الكتاب ثم المنافقون ، وبحث المؤلف يتناول حسب عنوانه جانبا واحدا من السيرة النبوية ومنها معجزة محمد صلى الله عليه وسلم «القرآن» الا أن البحث يكشف لك السيرة النبوية كشفا موسعا لأن حديث السخرية اقتضى التوسع من حيث ان السخرية كانت فى منزل الوحى الأول تعالج نوعا من العداوة الطاغية التى تعتد بالحسب والنسب والنشب ، والتفاخر بالأجسام والعقول والرياسة ، وما نقوله عن منزل الوحى الأول فى مكة نقوله فى منزل الوحى الثانى فى المدينة فسنرى بجانب العرب ظهور اليهود مناهضين للدعوة ولهم أساليبهم ومكرهم ، وسنرى قوما من الأوس والخزرج والأعراب حول المدينة جعلوا النفاق سياجا وملاذا ، ومن كل هذا نجد معارضة بالكلمة كما نجد معارضة بالأسلحة ، فالأعداء كثيرون والمسلمون كانوا قلة على مدى أكثر من خمسة عشر عاما منها ثلاثة عشر فى مكة ، وفى كل تلك السنوات الطويلة كان القرآن هو السلاح القهار الذى يدفع الأعداء ويدحر المتكبرين ، ويعطى

الثقة الحقة فى نفوس أصحاب محمد ومن باب أولى يعطى الثقة الكاملة لصاحب الرسالة نفسه .

ويجىء فى المقام الأول المشركون وهم الذين جعلوا مع الله الها آخر «ويستثنى الاسلام من هذا الوصف أهل الكتاب أى الذين لهم كتاب سماوى وهم اليهود والنصارى ، والمشركون يمثلون الجبهة المضادة للاسلام ، ومنها جماعة معينون من المشركين كانوا بالاضافة الى عداوتهم للاسلام يملكون سلاحا معينا هو سلاح السخرية ، وهم الذين حددهم القرآن فى قوله :

« انا كفيناك المستهزئين » ومنهم قادة المشركين « أئمة الكفر » كما سماهم القرآن نفسه ، وهؤلاء يمسكون زمام الجبهة المضادة للاسلام » .

وينبغى لنا ونحن نعالج أمر السخرية أن نستحضر ما لاقاه المسلمون من اضطهاد نفسى وبدنى لندرك الى أى مدى كانت السخرية لها وقعها فى نفوس الذين يضطهدون عمارا وبلالا وصهيبا وغيرهم فى مكة ، بل امتد العدوان لشخص الرسول فى مكة والطائف وهو مركز الدعوة والصورة المثلى التى ان اهتزت كان لاهتزازها الأثر المخيف لحياة المسلمين ودعوتهم الطيبة ، لذلك نجد القرآن يواسى النبى ويسليه بمثل : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (١)

وللمؤلف فن رفيع فى عرض سخرية القرآن فهو يذكر ما جاء فى الآية أو الآيات موضحا وموازنا ، ثم يعقب بذكر نص القرآن ، فيقول : ويسوق القرآن سخرية أعداء النبى به ، ولكنه يوجه اليهم سخرية بالغة حيث يسخر منهم فى عقيدتهم فيجعلهم لا يعبدون شيئا وانما يعبدون مجرد الهوى فى النفس ويسخر منهم فى عقولهم فيجعلهم فى مرتبة الموازنة بينهم وبين الأنعام ، ثم يفضل الأنعام عليهم حيث انها تؤدى فى الحياة دورها الطبيعى

(١) سورة الأنعام آية ١٠

الذى خلقت من أجله ، أما هم فيخالفون الفطرة التى فطر الناس عليها ويحاربون غريزة أولية فى الانسان وهى الشعور بالخالق ، وهى ما يسميها علماء النفس غريزة التدين ، فتفضيل الأنعام عليهم وان بدا فى صورة السخرية البالغة الا أنه معنى حقيقى لا تجوز فيه . يقول القرآن الكريم عن السخرتين منهم ومن القرآن : « واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (١)

واذا كانت هذه الآيات تسرية عن نفس النبى لأنها موجهة اليه الا أنها تشعر المسلمين بأنها لهم أيضا ، فتزيل عنهم الهم والضيق وتبعث فيهم الثقة بالنفس ، وفى الوقت نفسه تحطم معنويات العدو، فوصفهم بالأنعام يسر المسلمين ويدفعهم هم للتفكير فى موقفهم من معنى الاله . ومثل هذا كان له تأثير كبير فى نفوس المشركين ولاسيما أئمة الكفر ، فيجنون جنونا من وقع السخرية عليهم ، ويذكر المؤلف قصة أم جميل زوج أبى لهب حين سمعت مانزل فيها من سخرية وقد سمته هجاء محمد لها. تقول الرواية : ان أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفى يدها فهر ــ حجر ملء الكف ــ من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ، فلا ترى الا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله انى لشاعرة ثم قالت :

مذمما عصينا
وأمره أبينا
ودينه قلينا

(١) سورة الفرقان الآيات (٤١ ــ ٤٤)

وحين تتصور مبلغ سخرية القرآن من امرأة فى ذروة المجد والشرف ، ثم هى أنثى ككل امرأة يعنيها قبل كل شىء صورتها ومظهرها فى نفوس الناس وقلوبهم واذا هى تجد من يمحو عزها وشرفها ، ويقبح صورتها يجعلها مجرد حمالة للحطب ، بل أكثر من ذلك يرسم صورتها وكأنها دابة تقاد بحبل من ليف فى عنقها ، حين تتصور امرأة ، وامرأة فى هذا الوضع من قومها تبلغ منها سخرية القرآن هذا المبلغ يمكن أن تتصور ما تتركه هذه السخرية فى نفسها

وهذا التوجيه لسورة « المسد » يدل على فهم عميق من المؤلف ، وبيان واقعى منه لمعنى السخرية وأثرها ، وكذلك تجده موفقا فى كل مثال أتى به مما يدل على دراسة وافية لمعانى القرآن الكريم، واليك سخرية بالتقاليد يقدم لها المؤلف قائلا :

ومن هنا نفهم جانبا مهما من اهتمام القرآن الكريم بالسخرية اللاذعة من عاداتهم ومحاكاتهم ، وخاصة ما يتعلق بالآباء ، فان القرآن يعرض أولا تمسكهم الشديد باتباع آبائهم على أى وضع ، وعلى أية حال ، ثم يسخر من آبائهم ، ومن اتباعهم لآبائهم الذين تصورهم هذه السخرية ، وكثيرا ما يسوق القرآن هذه السخرية فى استفهام يبرز السخرية المقصودة كقوله : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون • ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون (١) »

وهاتان الآيتان اشتشهد بهما المؤلف أيضا حين تعرض « لمبدأ التمسك باتباع الآباء » فبين أنه نزعة مستقلة فى نفوسهم وهىأعممن العادات نزعة تسيطر على أفكارهم وتوجه عقيدتهم ، فقد اتخذوا من آبائهم وأجدادهم وخاصة البارزين منهم ما يشبه الآلهة •• ومن أمثلة

(١) شورة البقرة (١٧٠ ــ ١٧١)

ذلك قصة أبى لهب عم الرسول الذى كان يؤازره ويتعصب له (بعد وفاة أبى طالب) ففكر بعض أعداء الرسول فى حمله على التخلى عن مناصرة ابن أخيه ، فالتمس أهم نقطة تسيطر عليه وعلى غيره وهى تقديس الآباء والأجداد ، فقال لأبى لهب : ان محمدا يزعم أن عبد المطلب فى النار ، ففزع أبو لهب ، وأرسل الى النبى يسأله : أين عبد المطلب ؟ فرد النبى بأنه مع قومه ، فطابت نفس أبى لهب • وقال : نعم المقام أن يكون مع شيوخ قريش ، ولكن الذى أراد الوقيعة عاد يقول له : فان محمدا يزعم أن شيوخ قريش فى النار ، فأرسل أبو لهب الى النبى يسأله : وأين قومه ؟ فأجاب النبى بأنهم فى النار • هنالك انقلب أبو لهب عدوا من أشد أعداء النبى وألدهم عداء ، وكان تشبثهم هذا الشديد بكل ما يتعلق بالآباء عقبة أمام الاسلام ، ويسير المؤلف فى تأييد رأيه الى أن يقول : ولذلك تجد القرآن يصور مدى تشبثهم باتباع آبائهم فى حين لا حجة لهم ولا منطق فى هذا الاتباع مع وضوح ضلال آبائهم وسفه تفكيرهم ، ويصور القرآن أيضا الغاءهم عقولهم وتفكيرهم استنادا الى عقول آبائهم بأنهم أصبحوا حينئذ كالغنم التى لا تعى من كلام راعيها الا مجرد الصوت الذى لا يدل على معنى ، ولا يفهم منه شىء بالنسبة لهم : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »

وبذلك صاحب الوقيعة بين النبى وعمه على مقدار كبير من الذكاء ومكر الحيلة وكذلك كانت قريش ، وقد وصفهم القرآن بأنهم قوم خصمون ، ووصف الجاهلية يطلق على تعاميهم عن دعوة الاسلام، وهربهم من تقبله ، ولكنهم كانوا ذوى عقول تدرك وتحاور وفى قصة الوليد ما يشير الى عقليته الناضجة ، وبصره بمعانى الأساليب القرآنية • وأنا لا أريد أن ألخص لك كتابا يقع فى أربعمائة صفحة وسبع وأربعين صفحة ، وانما يعنينى أن أذكر لك بعض طرائفه مما أتى به من السخرية ، وصنيعه

فى التحليل والتعليل والادراك الأصيل لبلاغة القرآن ، وظهوره على أعدائه قاهر أو متحديا ، من غير حيدة عن منهج المؤلف ورؤيته لأى المؤلف أن القرآن اتخذ من البيئة العربية مادة للسخرية ، وهى بيئة صحراوية قائلا : وتتراءى لنا طبيعة الارض العربية واضحة خلال سخرية القرآن فمن ذلك هذه السخرية الشديدة التهكم بالتكبر المختال الذى ترسمه سخرية القرآن رسما (كاريكاتيريا) مضحكا بأنه يمشى مشية عجيبة لا كما يمشى الناس ، فهو يضرب الأرض بقدميه كأنه يريد أن يخرقها ، ويشمخ بأنفه ووجهه الى السماء كأنه يريد أن يطاول الجبال فى ارتفاعها ، ولكن سخرية القرآن تقول له : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا • كل ذلك كان سيئة عند ربكمكروها » والسخرية الشديدة واضحة فى قوله تعالى : « انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » فمن البدهى أن أحدا لا يظن أنه سيخرق الأرض مهما تكن مشيته ، وأن أحدا لا يظن أنه سيبلغ بقامته رءوس الجبال مهما مد عنقه ، ومهما شمخ بأنفه ، ومهما تطاول بقامته ورأسه ، ولكنه كما يقول الزمخشرى تهكم بالمختال •• على أننا نلاحظ دقة التعبير فى قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » فقيد موضع السيئة بجانب الله سبحانه بينما أطلق الكراهة اشارة الى أن هذه المشية وما تدل عليه من خلق صاحبها ذنب عند الله ، وفوق ذلك هى مشية مكروهة من الله والناس، لأن الناس لا يحبون المتعالى عليهم وان أظهروا له طاعة أو تقربا ، فان قلوبهم لا تضمر له الا البغض والكراهية ، والذى يعنى الموضوع من هذه السخرية ما يوحى به قوله تعالى : « انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فقد تضمن هذا التعبير أن هذا الشخص المختال فى مشيته حوله جبال يحاول أن يطاولها ، ومعنى ذلك أنه يمشى فى بيئة تنتشر فيها الجبال وهو واقع البيئة العربية ، وكذلك التأكيد لهذا الماشى المختال بأنه لن يخرق الأرض ، فانه وان كان معلوما أن المشى لن يخرق أى أرض الا أن

التعبير يوحى ضمنا بصلابة الأرض ، لأن المبالغة التى تقتضيها السخرية انما تتحقق اذا تصورنا أن الأرض التى يمشى عليها صلبة جدا لا يخرقها المشى ، ولا ما هو أقوى من المشى، بخلاف ما لو تصورنا أنها أرض رخوة لينة .. وبهذا توضح لنا هذه السخرية طبيعة الأرض التى يعيش فيها العربى ، وهى الأرض الصخرية الصلبة ، والجبال المنتشرة فيها . وبهذا كله يعطيك المؤلف صورة واضحة للسخرية يبسطها بكل دلائلها من جغرافية وبلاغية ونفسية ، وبهذا يعيد للبلاغة العربية شبابها أو يعيد لنا النقد الأدبى فى بهائه ونقائه وحسن ضروبه

واليك صورة أخرى لحيوان البيئة كما جاء فى سخرية القرآن الكريم . يقول المؤلف : وسخرية القرآن تستغل خبرة العرب بحيوان الصحراء ، ومنه حمار الوحش ، فترسم صورة لأولئك الذين ساق الله اليهم الهداية ، وأرسل اليهم النور ، ليستضيئوا به ، وتستبير حياتهم ببهائه ، فأصموا آذانهم ، وأغلقوا أبصارهم ، بل نفروا من هذا النور نفارا شديدا ، وكأنهم جماعة من حمر الوحش فاجأها خطر يتهدد حياتها ،فانطلقت مذعورة بأقصى ما أتيح لها من عدو ، لا تلوى على شىء ، ولا تفكر فى شىء ، ومن الواضح أن قرن موقف أعداء الاسلام بهذه الصورة من حمر الوحش ، وتمثلها فى الذهن أى المقارنة بينهما تحمل أقصى سخرية بقوم يتصورون فى أنفسهم العقل والتؤدة والغلبة . « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة (١) »

وهكذا يسير المؤلف فى تفسير ما يختاره من الآيات خاصا ببحثه . فاذا جئنا الى المنافقين ومن وراءهم من اليهود فماذا يقدم لنا من الصور وللمؤلف فلسفة انفرد بها فى بيان معنى النفاق ، والفرق بينه وبين الكفر ، ثم ان له رأيا فى تدين اليهود وموجز ما قال فى هذا الشأن، ومن المعروف أن النفاق لم يعرف فى مكة ومن حولها ، ذلك أن المسلمين لم يكونوا من القوة يومئذ

(١) الآيات (٤٩ ــ ٥١) سورة المدثر والقسورة الأسد أو جماعة الصائدين

بحيث يخاف منهم الكفار فيظهرون خلاف ما يبطنون ، والمسلمين مع قلتهم قابلوا جبهة الكفر بالتحدى ، فهم يطوفون بالكعبة ، ويعلنون القرآن ويصبرون على الأذى أو يهاجر من يهاجر الى الحبشة ، وقد يحاصرون فى شعب أبى طالب ويمنع عنهم الطعام وغيره من متطلبات الحياة ولكنهم ثابتون على المبدأ لا يبغون عنه حولا ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة وصارت لهم جماعة من الأنصار تكونت بداية الدولة الاسلامية ، هنا كان لليهود مجالهم الذى طبعوا عليه من حقد على البشرية ، فكانوا أشد الناس عداوة للاسلام ، وقفوا ضده جميعا الا قليلا منهم ليس له خطر ، ومن ثم جعلهم القرآن فى الترتيب أول الأعداء : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا .. » فلقى منهم الاسلام والمسلمون أخطر المواقف ، رفضوا الاسلام بصورة جماعية ، وسنوا للعرب النفاق ، فكل روايات التاريخ تؤكد أن الذين نافقوا من العرب انما التفوا حول نفاق اليهود وظاهروه كقول ابن حزم : « وكفر جمهور اليهود وظاهرهم قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الاسلام مداراة لجمهور قومهم » وكم لهم من دعايات واشاعات حول الدين وصاحبه ينفثون السموم ليشككوا ويضللوا ، بل كانوا يعملون على قتل الرسول نفسه ، وهو الذى هادنهم ، وجعل لهم ميزة على أنهم أهل كتاب ، وقد تظن أن موقفهم العدائى راجع الى قوة عقيدتهم وتمسكهم بكتابهم ، ولكن المؤلف يثبت بالأدلة القاطعة ضعف العقيدة عندهم ، بل يحكم عليهم بفقدان مبدأ الاعتقاد وقد يبدو هذا الحكم غريبا لما عرف عنهم من الانطواء على دينهم مهما تفرقوا فى أنحاء الأرض ، لكن الحقيقة أن انطواءهم على الانتماء الى دينهم ليس مصدره الاعتقاد بالدين ، وانما مصدره (الأنانية) متغلغلة فى أعماقهم لكونها نابعة من طبيعة خاصة بهم ، وصفات مشتركة يحسون بها فى سلالتهم فيأنسون اليها ويلتفون حولها ، انها عنصرية بحتة لا تكاد تتصل بالدين بمعناه العقدى ، ويؤكد ذلك كثرة من أرسل من الأنبياء

اليهم .. وتكرار الرسل فى شعب واحد معناه أن أحدا من هؤلاء الرسل لم ينجح فى أن يغرس فى هذا الشعب الايمان والاعتقاد ، والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى كثير من مواضعه ، ومن ذلك قوله تعالى: « .. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ولئن كان القرآن قد قرر أن نزعة الكفر عند اليهود صفة متوارثة فيهم عبر القرون والأجيال فان بعض الباحثين الغربيين المعاصرين فى بحث خاص عن اليهود يقرر هذه الحقيقة التى توصل اليها فى بحثه وقد سبقه القرآن اليها منذ أمد بعيد .

يقول (ريك) : « ان وراء المظهر السطحى للنقد الذاتى ــ عند اليهود ــ تكمن نزعة شكية عدائية تتجه نحو الدين ، بل نحو الله يضلل عباده بالوعود المعسولة التى لن تتحقق يوما »

ويقول هذا الباحث نفسه فى حديثه عن طبيعة العدوان فى نفسه باعتباره المخادع الأكبر الذى اليهود : « وقد لا يقف العدوان عند حدود الخصوم البشريين ، بل قد يمتد أيضا نحو قوة أخرى غير بشرية ، تتخذ فى نظر اليهود صورة الطاغية الأكبر ، ونعنى بهذه القوة الله نفسه » فاليهود اذن ليس فى طبيعتهم الاستعداد للايمان ومبدأ الاعتقاد ، وهو أوضح تعليل للنفاق ، فان النفاق يقوم أساسا على « فقدان الاعتقاد » فى أى شىء خارج ذات صاحبه ومصلحتها ، ولذلك كان من ابرز صفات المنافقين فى القرآن الكريم « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » فهم لا يعتقدون فى الاسلام ، ولا يعتقدون فى الدين الذى يظن الناس أنهم ينتسبون اليه فى الخفاء ، ويستمر المؤلف فى مذهبه هذا متحدثا عن بخلهم وغدرهم وعدوانهم ، وخلو قلوبهم من كل شعور بالايمان والعقيدة قائلا ، ومن (١) تفاهة

(١) ص ٢٦٧ من الكتاب

تفكيرهم ، وضيق أفقهم الذى يتحدث عنه (ريك) وذلك فى قصة تنجية الله سبحانه لهم من عذاب فرعون ، ومن الذل والخسف الشديد الذى كان يخيم على ليلهم ونهارهم ، ولا ينجو منه رجالهم ولا نساؤهم ولا أطفالهم ثم زادهم الله فوق ذلك من نعمه مالم يكونوا يحلمون به ولا يدور لهم قط فى خيال ، وكان معهم نبى من أعظم الأنبياء هو موسى عليه السلام ، وأحدث الله لهم معجزة ينجون بها من عذاب فرعون قلما يحدث مثلها لقوم على يد نبى من الأنبياء ، حيث شق الله سبحانه لموسى البحر ليجوز فيه قومه بنو اسرائيل ، وكان المنتظر من قوم يسبغ الله عليهم نعمة النجاة أن تمتلىء نفوسهم شكرا لله وايمانا به ، وكان المنتظر أن تظل صورة هذه المعجزة الكبرى فى انشقاق البحر لهم ماثلة فى ذهن كل فرد منهم لا تبرحه حتى يموت ، ولا يبرحه معها شكر وايمان بالله لاحد لهما ، ولكن ذلك كله لم يصل الى نفوسهم ، ولم يؤثر قط فى قلوبهم لأن نفوسهم غير مستعدة للايمان مهما تهيأ لها من دواعى الايمان ، ولأن نفوسهم غير مستعدة للشكر والوفاء مهما يسبغ عليها من دواعى الشكر والوفاء ، بل هى متحفزة دائما لكل ما يناقض الخير فى نفوس الناس ، فاذاهم فور خروجهم من البحر ولم تجف أقدامهم بعد ومعهم موسى عليه السلام يرون قوما يعبدون الأصنام ، فينسون الله وينسون فضله العظيم عليهم ، وينسون معجزته التى أجراها لينجيهم بها ، ويقولون لموسى : اجعل لنا صنما نعبده كما يعبد هؤلاء آلهتهم ، ويصور القرآن هذه القصة مبتدئا اياها بذكر فضله أيضا ، وبين هذه الأفضال يقبع غدر اليهود وكفرهم وجحودهم لكل نعمة :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة

قال انكم قوم تجهلون • ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون • قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » وتكفى هذه القصة لبيان ايمانهم ووفائهم نحو خالقهم الذى أنعم عليهم بنعم لايقدر الناس على شكرها ويجهدون فى أدائه ، فهم كما قال المؤلف « لو آمنوا بالتوراة ما كفروا بالاسلام » تعليقا على سخرية القرآن بهم فى قوله : « واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون »

وأنتقل مع المؤلف من اليهود الى المنافقين ، والمنافقون العرب جاءهم النفاق من مجاورة اليهود ، فالنفاق نبع من المدينة وما حولها من الأعراب ، كما يقول سبحانه : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » والمهم عندى رأى المؤلف فى النفاق وهو رأى له قدره وخطره ، فهو يقرر أن النفاق يقوم أساسا على « فقدان الفرد الاستعداد للعقيدة فى طبعه »

ويشرح رأيه معتمدا على رأى علماء النفس والاجتماع عن ملازمة الدين المجتمعات ، وأقل ما توصف به نزعة التدين والاعتقاد أنها غريزة أساسية فى الأفراد ، وحيث كانت نزعة الاعتقاد والتدين غريزة فهى اذن أمر فطرى فى طبيعة الأفراد يولدون وينشئون به ، وهذه النزعة تتمثل فى شعور الفرد شعورا نفسيا تلقائيا بالاله وسلطانه وهيمنته • دون أن يحتاج الى مرشد الى ذلك، لأنه شعور مستقر فى النفس ونابع منها ، وتبعا لذلك فانه يكيف سلوكه ويصوغه فى ضوء احساسه بالاله، والذى يعنى علماء الاجتماع من غريزة التدين هو تأثيرها فى السلوك وفى تكوين الظواهر الاجتماعية ، من حيث انها مجال الدراسة الاجتماعية • أما الذى يعنى علماء النفس فهو وجود غريزة التدين والاعتقاد من حيث هى فى النفس ومن حيث تأثيرها فى نفسية الفرد ومشاعره وعواطفه ، والذى يعنى موضوعنا من ذلك مجرد اتفاق علماء النفس والاجتماع على أن الاعتقاد الدينى غريزة أصلية فى الانسان ، وهذا يؤيده الحديث الشريف :

« ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وينتهى من ذلك الى أن من يعبد غير الله عنده غريزة التدين ولكنه ضل الطريق الى الله، ومن هنا يمكن أن نتحدث عن النفاق بأنه « فقدان هذه الغريزة الفطرية » من باب الشذود عن التكوين الطبعى فى الانسان بمعنى أنه على حين يحمل الناس فى طبعهم غريزة الشعور بالاله والاعتقاد بوجوده نجد المنافق فاقدا لهذه الغريزة أصلا وتكوينا ، وهو حينئذ شاذ عن الفطرة السوية للبشر ، واذا كان الشأن فى الناس أن يكونوا عقلاء ولكن منهم من يشذون فيولدون مجانين ، وقد يكونون ذوى حواس سليمة ، ولكن منهم من يشذون فيولدون فاقدين لبعض هذه الحواس كالسمع والبصر ، وكذلك الشأن فى العقيدة ، فمنهم من يولدون وفيهم غريزة التدين وبعضهم يولدون فاقدين تلك الغريزة . وبناء على ذلك فليس صحيحا أن المنافق يدين بدين آخر غير الاسلام ، ولكنه يظهر اسلامه اتقاء لضرر أو أى غرض ، وانما الواقع الذى يؤيده القرآن أنهم لا يدينون قط بأى دين ، وليس فى نفوسهم قط الا طلب المنفعة المادية المباشرة لأشخاصهم ، والمنفعة التى لا تكلفهم مشقة أو بذلا أو تعرضا للمخاطرة بالنفس أو المال كما يصور القرآن موقف بعضهم من المشاركة فى القتال مع المسلمين أو حتى السفر للقتال فيقول : « وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما (١) » وكان المنافقون منبثين بين المسلمين يتحركون حركات مدمرة يعملون على التفرقة بين الصفوف ، وتثبيط الهمم ، والتشكيك فى الدين ، والتهوين من الأعمال العظيمة

والقرآن تحدث كثيرا عن المنافقين فى سوره ، وخصهم بسورة كاملة هى سورة (المنافقون) ، والآيات

(١) الآيتان ٧٢ ـ ٧٣ سورة النساء

تحكم على المنافقين بأن عقابهم أشد العقاب ، وأنهم فى أسفل درك من النار . « ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ويسوق المؤلف أقوال المفسرين ، ومنهم من عقد موازنة بين الكافر الأصلى والمنافق، ومنهم من شرح معنى « مذبذبين بين ذلك » متحدثا عن المنافقين أفرادا وجماعات وسلوكهم فى المجتمع الاسلامى على عهد الرسول ، وهو فى كل مقام يلح على أنهم فقدوا غريزة التدين والايمان ، وهو رأى مقبول ولك أن تأخذ به أو تعارضه ان وجدت دليلا يؤيد معارضتك ، ويضاف الى ذلك اجابته عن سؤاله : النفاق من طبيعة المنافق وهو تكوين فطرى وخالق هذا التكوين هو الله سبحانه فكيف يخلق فيهم هذه النقيصة ثم يحاسبهم عليها (١) ؟ ومع أنه اعتذر عن عدم الاجابة أجاب ولكن الاجابة لا تقنع الانسان اقناعا تاما ، وخير ما يقال أن نترك الأمر لخالقه ، أو نقول مع القائلين : ان الله أعطاه عقلا واختيارا وعليه أن ينتفع بهما ، فما يقال فيه يقال فى الكافر ، ويعقد المؤلف فصلا عنوانه « المنافقون والسخرية » ويناقش السخرية عندهم وعند الكفار فيقرر أن سخرية الكفار لا تأتى من الكفار كجماعة ولكن تأتى منهم كأفراد أو الى نفر منهم . هم أئمة الكفر ، أما المنافقون فيبدو من حديث القرآن عن سخريتهم أنها جزء من طبيعتهم جميعا ، وصفة من صفاتهم ، فهى سخرية نابعة من فقدانهم العقيدة فهم لا يرون فى أى دين أو عقيدة شيئا يستحق الاهتمام ، وانما يرونه تفاهة أو عبثا أو أى شىء من قبيل الاستهانة وعدم الاهتمام فنفوسهم ذاتها تحمل السخرية والاستهزاء بالعقيدة سواء صدر من ألفاظهم ما يدل على ذلك أو لم يصدر ، وهذا يختلف اختلافا شديدا مع سخرية الكافرين الآخرين ، فان هذه لا تنبع من نفوس مستهيفة .. وانما تمثل مجرد سلاح عدائى يراد به الضرب فى الاسلام والمسلمين بخلاف المنافقين الذين لا يحملون فى نفوسهم الا الاستهزاء النابع من الاستهانة ، ولذلك يجعل العلماء

(١) ص ٩٩ من الكتاب وما بعدها

صفة الاستهزاء فارقا بين المنافق والكافر الصريح حيث يرون التصريح بالكفر تحديا وعداء يدلان على الاهتمام ، كما يقول الرازى فى سياق تقرير أن النفاق أقبح من الكفر الصريح « ان المنافق ضم الى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر »

ويقول الزمخشرى : « فان قلت : لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله فى الكفر ، وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهليه ومداجاتهم » ثم يتحدث المؤلف عن صفاتهم ، ويذكر قول الله لرسوله عنهم : « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم » (١) ومن صفاتهم المبالغةفى اخفاء أمرهم ، واستشعار الريبة ، والكذب والاعتماد على المظهر ، والجبن الشديد والسلوك النفعى ، وكل صفة من هذه الصفات يمثل لها بآية من القرآن الكريم فيها سخرية بهم .

يقول المؤلف فى صورة من صور الخوف ، يصور القرآن أثر الخوف الشديد الذى يعتريهم حينما يتعرضون لموقف مخيف ، فيلفت النظر الى عضو معين فيهم حينئذ ، هذا العضو متمثل فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم ، وهو «العين» ويضرب القرآن مثلا من أمثلة مواقف الخوف بالنسبة للمنافقين وهو أن ينزل من القرآن ما فيه أمر القتال ، حينئذ يشعر المنافقون بحكم ادعائهم الاسلام أنهم مضطرون لمشاركة المسلمين فى القتال ، والمشاركة فى القتال تعرض حياتهم للخطر ، وحينئذ ترتسم فى عيونهم كل مشاعر الرعب والفزع ، ويبحثون عن أى أمل يتعلقون به للنجاة ، أو للتخلص من هذا الموقف الذى يواجههم ، فلا يجدون أملا الا فى شخص الرسول ، فتتعلق نظراتهم الفزعة الجازعة به كأنها نظرات من يعالج سكرات الموت ، ضارعة الى الرسول أن يغيثها من هذا الخطر الذى يواجهونه :

« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت

(١) الآية ٣٠ سورة محمد

سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم (١) وتعبير « أولى لهم » فى صيغة الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويلاحظ فى تعبير الآية أن كل هذا الرعب الذى اعتراهم والذى بدا فى عيونهم ونظراتهم ليس لأنهم أمروا بالقتال ، وانما لمجرد أن السورة التى نزلت « ذكر فيها القتال » ... ويتركز اهتمام المنافقين حين يشاركون المسلمين مواقعهم فى الحرص على الغنائم وينكشف نفاقهم لدرجة السخط حينما يحظون منها بما يريدون ، حتى انهم يصلون الى الطعن فى شخص النبى .. « ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون (٢) »

ولا يفوتنى وأنا أطالع هذا الكتاب أن اشير الى فصل عقده بعنوان « الشعبية فى سخرية القرآن » وقد كان له توفيق فى عرضه وحسن تأنيه واستئناسه بآراء المفسرين وأساليب البلاغة وفن القول ، ويقصد بالشعبية تنزل أصول القرآن أحيانا الى معان وتعبيرات دارجة يتداولها الناس فيما بينهم ويستخدمون مضمونها أو أسلوبها فى حياتهم العادية ، واذا القرآن يوردها فى كثير من آياته فيصل الى القلوب من أقصر طريق ، وبأقوى طاقة ، ففى هذا النوع من الأساليب معان متداولة لا تحتاج الى كدذهن او اطالة فكرة ولا سيما اذا صيغت السخرية بأسلوب الواقع وصورته ، ويؤيد كلامه بأقوال المفسرين وأرباب البلاغة من مثل تفسير الرمانى لقوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » حيث يقول :نوالله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ فى الوعيد ، وحقيقته « سنعمد » الا أنه لما كان الذى يعمد الى شىء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجرى به التعارف دللنا بذلك على

(١) الآية ٢٠ سورة محمد
(٢) الآية ٥٨ سورة التوبة

المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامة والخاصة موضع الحكمة » فهو يرى أن كون هذا الأسلوب أعرف من غيره عند العامة وغيرهم وأكثر شيوعا من أسباب ايثار القرآن له • ونحن نقول اليوم فى دراستنا للبلاغة ان الكلمة التى تستخدم فى حياتنا اليومية تحمل شحنة عاطفية مشعة فاذا جاءت فى أسلوب كان لها التأثير المطلوب •

وقد مثل المؤلف لاستخدام القرآن لهذا النوع مما يحمل الطابع الشعبى ليقرب دعوته الى أذهان العامة ، وليس معنى هذا أن هذا الأسلوب لا يناسب الخاصة، بل انه من أروع أساليب القرآن وملاءمتها للنفوس على اختلاف مستوياتها روعة وتأثيرا وانجذابا ، وتراه فى السخرية يبلغ حدا بعيدا من ذلك ما ساقه المؤلف من وعد الله رسوله بالنصر فى الدنيا والآخرة ولكن اعداءه يغيظهم هذا فينكرونه ويكذبونه ، ويرد عليهم القرآن فلا يناقش موضوع نصر الله لرسوله ، لأنه أمر مقضى لا يحتاج الى جدال أو تأكيد ، وانما يرد عليهم بصورة بالغة السخرية قائلا لهم : من كان يشك فى نصر الله ورسوله ، ويغيظه ذلك ، فليرفع حبلا يعلقه فى مكان عال ، ثم ليخنق نفسه بهذا الحبل ليموت فيذهب عنه الغيظ ، أو لينظر بعد موته أذهب عنه الغيظ أم لم يذهب • « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » ؟ وفى الآية أكثر من سخرية بالكافرين ، منها صورة قتل النفس بهذه الطريقة ، فان التصوير نفسه سخرية بهم • ومنها أن الموت ليس مذهبا للغيظ كالغاية التى تنشد فى اذهاب الغيظ • ومنها وصف قتلهم أنفسهم بأنه كيد ، والكيد ما يعمله المرء ضد غيره ، وقتلهم أنفسهم ليس كيدا ضد الرسول ، وانما هو كيد ضد أنفسهم ، ولكن ذلك كله امعان فى السخرية وتنويع فى صورها ووجوهها ، والمعنى فى جملته مما يتداوله الناس بينهم ، فمضمون الآية : من غاظه نصر الله فليقتل نفسه ، ومن هذا الباب نجد أمثالا

عامية ، منها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فاليشرب من البحر) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فلينفلق) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فليضرب رأسه فى الحائط) ومثل هذه الآية كثير أتى به المؤلف وحلله ووضحه وعلل له مما يغبط عليه ويعد فى حسناته ، وتنجلى براعة الكاتب فى « سخرية القرآن ووحى الألفاظ » فقد مثل لها بآيات كثيرة منها قوله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب»(١) فجاء كلامه هكذا : لفظ الخزنة يستعمل عادة فى الحراس الذين يقومون بالمحافظة والحراسة على شىء معين ، وهذا الاستعمال حين يضاف الى جهنم يرسم فى ذهن السامع صورة لجهنم وقد وكل بها حراس ينظمون أمر حفظها ، ومراقبة من بداخلها ، وحراسة أبوابها ، ونحو ذلك مما تتصوره فى حفظه وحراس يوكل اليهم حفظ شىء مهم يخشى ضياع شىء منه ، أو امتداد مطامع اليه مما يجعل السامع لأول وهلة من سماع لفظ الخزنة ، يتخيل هؤلاء الخزنة قائمين مثلا حول جهنم ، وحارسين على أبوابها خشية أن يهرب أحد من داخلها ، أو يتسلل أحد من الخارج فيدخلها ، أو تمتد يد الى شىء مما فيها ونحو ذلك ، وهذه الصورة يرسمها فى الذهن المدلول المباشر للفظ الخزنة ، ولكن الصورة الحقيقية التى يؤكدها العقل ولا يرتاب فيها أن النار لا يناسبها شىء من ذلك ، فليس فيها شىء يطمع فيه فيحتاج الى حراسة ، وليست مغرية حتى يفكر أحد فى الدخول اليها راغبا فتحتاج الى حجاب ، وليس هناك مفر لمن فيها حتى يحتاجوا الى سجان يحول بينهم وبين الهرب ، كما يقول الجاحظ عن ذلك ملمحا الى مايحمله لفظ الخزنة من سخرية بأهل جهنم ، والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ

« ١ » الأية ٤٩ سورة غافر

الخازن سميت به » ويناقش كلام الجاحظ ثم يقول : يكفى أن يقال : ان التعبير مراد به السخرية وحتى السياق كله يبدو فيه القصد الى التذكير والتوبيخ والسخرية حيث تجد الملائكة يجيبون أهل النار على طلبهم السابق بقولهم كما ينسب اليهم القرآن ويحكى عنهم بقوله : « قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات • قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » فهم يسخرون من أهل جهنم بقولهم لهم « ادعوا » مع اقتران هذا بما يمحو ذلك وهو « وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » وكثير من حديث القرآن عن جهنم ووصفه لها يؤيد أن لفظ الخزنة لا يراد به الا مجرد السخرية يجعل جهنم كأنها شىء مرغوب فيه أونحوه مما يحتاج الى حراسة ، كما وصفها القرآن بأنها (نزل) وبأنها (مهاد) فى قوله تعالى : « لهم من جهنم مهاد » وكما عبر عن اصطلاء عذابها الشديد (بالذوق) الذى يستعمل عادة فى الأشياء المقبولة والمرغوب فيها ، وتوارد الصورتين على الذهن: صورة جهنم البشعة ، وصورة جهنم التى تحتاج الى حفظةوالمقارنة بينهما كل ذلك موضع للمفارقة والطرافة التى تنبع منها السخرية • وجهد المؤلف فى هذا التحليل أوضح من أن يحتاج الى تنويه :

على أن المؤلف لتدفقه وانطلاقه نحو الأهداف التى وضعها نصب عينيه قد يجىء فى عبارته كلمة أو تعبير لا يرضاه المحافظون على اللغة أو الذين نسميهم المتزمتين ، فمثلا كلمة (تعساء) جمع تعيس أو تاعس لا يقبلونها لأن هذا الجمع خاص بمن تلزمه الصفة مثل كريم وكرماء وعاقل وعقلاء جاء ذلك فى قوله عن اليهود « (١) فهم يعرفون فى قرارة نفوسهم ويعتقدون أنهم تعساء » وقد خطأ رواد جيلنا حافظ ابراهيم فى عنوان كتابه «البؤساء» فالتعاسة والبؤس غير لازمين للانسان • وقد استعمل كلمة « قاصر » فى غير محلها فى قوله عن كذب المنافقين :

(١) ٢٥٦ سطر ٦ قبل الأخير

« (٢) فهذا القدر ليس قاصرا على المنافقين » والصواب ليس مقصورا، واستخدم كثيرا فى كتابه التعبير « على ضوء » والفصحاء يقولون « فى ضوء » اتباعا للقرآن فى قوله « كلما أضاء لهم مشوا فيه » ويستخدم (شفافة) والفعل (شف) لا تأتى منه صيغة المبالغة ، كما استخدم (المساهمة) وقد أنكرها بعضهم والصواب الاسهام والمساهمة تستخدم فى (القرعة) وقد يستخدم حرفى عطف ، وينبغى أن يكتفى بواحد منهما فلا يقبل منه (بل وما) وقد نبه على ذلك العقاد فى بعض كتبه ، وقد يجىء الخطأ فى اسناد الفعل الى الضمير ويسرنى أن يكون خطأ مطبعيا مثل قوله : « (٣) بخلاف تعبير الشاعرين اللذين هجيا خالد بن عبد الله » والفعل هجا يهجو عند اسناده الى ألف الاثنين يرد الى أصله وهو الواو فنقول : هجوا . ومثل ذلك بديا والصواب بدوا وقد جاء خطأ فى بعض الشخصيات ، أورد المؤلف قول حسان الذى يعرض فيه بالمهاجرين ومنه :

(٤) أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

وقد فسر البيت بقوله : الجلابيب لقب أصحاب النبى عند مشركى مكة ، وابن الفريعة يعنى صفوان بن المعطل . والصواب أن ابن (الفريعة) حسان ، لأنها أمة ، ومعنى البيت كثر المهاجرون فى المدينة وابن هذه المرأة العظيمة أصبح وحيدا فيها كما اخطأ فى نسب (جهم بن الصلت) الذى رأى مناما سيئا لجيش قريش وبلغ أبا جهل ، فقال : « وهذا أيضا نبى آخر من بنى عبد المطلب » والصواب أنه من بنى (المطلب بن عبد مناف) وأبو جهل يعادى كل انسان من ذلك البطن .

وقد كنت أود ألا يعنى المؤلف نفسه بالفصل الذى عقده بعنوان

(٢) السطر الأول تحت العنوان (الكذب)
(٣) سطر ٦ قبل الأخير ص ٣٩١
(٤) ص ٨٦

« السخرية والهجاء » لأن فيه موازنة بين الشعر والقرآن وقد حسم الأمر منذ نزول القرآن بالتحدى وعجز العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات مفتريات ، ومن أسلافنا من قبل ذلك مثل (الباقلانى) وأراه قد خالفه التوفيق ، وكان الأجدر بمؤلف أسلوب السخرية فى القرآن أن يعفى نفسه من هذا الصنيع ومع ذلك فالفصل حوى مادة أدبية لها مذاقها الطيب . انى أدعو كل من يحب الثقافة بأجلى مظاهرها أن يقرأ هذا الكتاب ، فقد حوى كل أطراف الآداب .

السيد حسن قرون

فضيلة القصد فى الكلام

قال عليه الصلاة والسلام : رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

وقال لمعاذ : أنت سالم ما سكت ، فاذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال على كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل ، وارجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

شبهات حول السنة

للدكتور رءوف شلبى

ليس التشدق أو التفيهق من سمات الجماعة الاسلامية انالعمل والشورى هما من خصائص هذه الأمة وقد نعى القرآن الكريم ككثرة الكلام اذا صدر من الجماعة الاسلامية يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢ : ٣) • الصف

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

هلك المتنطعون •

هلك المتنطعون •

هلك المتنطعون •

ويقول : انما أهلك من كان قبلكم كثرة السؤال •

ومع هذا فقد ظهر فى المحيط الاسلامى من يحب التشدق والتفيهق والجدل فى مصدريةالسنة للتشريع الاسلامى مع أن الأدلة سندا وعملا واضحة الدلالة فى حتمية اتخاذ السنة كمصدر أساسى للتشريع الاسلامى ولكن صنفا من الناس يحبون الترف العقلى أو المماحكة أو التفلسف أورد عدة شبهات يمكن تركيزها فى ثلاث :

الشبهة الأولى حول تفسيرقوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (الأنعام ٣٨) •

ففى القرآن كفاية تامة للتشريع

الشبهة الثانية : حول تفسير قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ٩)

ففى الآية حصر يفيد أن القرآن وحده دون ما عداهو المرادبالحفظ

فلو كانت السنة مصدرا للتشريع لتكفل الله بحفظها مثل القرآن .

الشبهة الثالثة :

ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابة السنة فى عهده فقال : «لا تكتبوا عنى غير القرآن، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » .

فلو كانت السنة مصدرا لأمر بكتابتها مثل ما أمر بكتابة القرآن الكريم .

توضيح وتفسير

وبالجملة فان :

هذه الشبهات هى : مغالطات من جانب .

وهى تحكم فى تفسير آيات القرآن الكريم من جانب ثان .

وهى خلط وعدم تمييز للمواقف غير المتحدة من جانب ثالث .

وللرد عليها نبدأ بها واحدة واحدة .

الشبهة الاولى

تتعلق بتفسير قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٣٨ الأنعام :) ومركز الشبهة انهم فهموا : ان المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم وأنه احتوى على كل شىء بحيث لا تحتاج الأمة من بعده الى مصدر آخر فاذا احتاجت .. كان مفهوم هذا الاحتياج ان فى القرآن تفريطا وهو محال لأن الوحى صادق فى أن القرآن لا تفريط فيه .

الرد عليها

١ ــ مركز الشبهة فيه تحكم أو مغالطة لأن مجموع الآيات التى تسبق وتلحق هذه الآية تفيد أن المراد من الكتاب هنا اللوح المحفوظ الذى اشتمل على العمر والرزق والسعادة والشقاوة لكل المخلوقات .

قال ابن كثير فى تفسيرها : أى الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله تعالى : وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » أى نفصح بأسمائها واعدادها

ومضائها وحاصر لحركاتها وسكناتها (ابن كثير ٢ : ١٣١) .

قال الخازن : يعنى فى اللوح المحفوظ لأنه يشمل جميع أحوال المخلوقات (خازن ٢/١٣٢) .

وصدر الآية يمهد لمثل هذا الرأى من التفسير بقول الله تعالى : «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

وعجزها يؤكد هذا المعنى : « ثم الى ربهم يحشرون » .

فالحديث فى الآية يدور حول شمول العلم الالهى والتدبير الالهى لكل أمم المخلوقات من الطير والدواب جميعا والبشر مثلهم .

والذى اشتمل على كل هذا انما هو اللوح المحفوظ فقط أما القرآن فهو مشتمل على نظم حياة الانسان فقط ولهذه الآية نظائر : يقول الله تعالى :

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع الابعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب أن ذلك على الله يسير » (فاطر : ١١) .

« وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (الأنعام : ٥٩) .

قال ابن كثير فى تفسيرها : كل ذلك فى كتاب عنده .

٢ ــ نسلم أن المراد من الكتاب هو القرآن الكريم ويكون حاويا لكل شىء غير أن كل شىء فيه على صفة الكلية محتاج الى قوله تعالى: « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم » (النحل : ٦٤) .

والذى يحملنا على هذا التخصيص أمران :

الأول : ان القرآن يصدق بعضه بعضا كما أرشد الى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم : « انما نزل يصدق بعضه بعضا » .

الثانى : ان كثيرا من الامور الجزئية المرتبطة بالأحكام الشرعية غير موجودة فى القرآن وانما

وضحتها السنة مستندة الى الأصل العام الذى لم يفرط القرآن فيه ولا منه شيئا .

يدل على هذا : ان الصلاة واجبة لقوله تعالى :

« أقيموا الصلاة » .

ولكن : كم عددها فى اليوم ؟

وكم عدد ركعات الفرض الواحد ؟

وما الذى يقرأ فيها من القرآن ؟

وما هى الصلاة التى يجهر فيها والتى يسر فيها ؟

ثم كيف يجمع الناس ؟

ومتى تؤدى الفرائض ؟

لم تتعرض آيات القرآن الكريم لشىء من هذا مع أنه موصوف : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » يعنى من المسائل الكلية العامة التى تحتاج الى تبيين من النبى صلى الله عليه وسلم كما تنص على ذلك الآيات الموضحة لوظيفة النبى صلى الله عليه وسلم فى وكالته عن الله فى تبيين ما أنزله الله الى الناس من القرآن الكريم .

وانما تعرض لتوضيح كل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق تعاليم الوحى الأمين .

٣ ــ على أننا نقول ان هذه الآية جزء من سورة الأنعام وهى سورة مكية نزلت بجملتها على كبرها وطولها تناقش ادلة التوحيد وتدحض ترهات المخاصمين للحق، فالآية : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فى معرض الرد على طالبى المعجزات حتى يؤمنوا بعد مناقشات فى أول السورة :

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين » (الأنعام : ٤) .

« ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (الأنعام : ٧) .

فالآية هنا فى معرض توضيح أن الأدلة على الألوهية والوحدانية وصدق رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم مبثوثة فى آى القرآن الكريم وأن الوحى لم يفرط فى

اثبات هـذه الأدلة بكل أنـواع الاستدلال :

العقلى
والتاريخى
والوجدانى

وعلى هذا فالمعترضون بالآية على عدم حجية السنة ليس لهم سند ولا دليل ، وبقيت السنة مبجلة محتمة كمصدر أساسى من مصادر التشريع الاسلامى .

الشبهة الثانية

تتعلق هذه الشبهة بتفسير قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكـر وانـا له لحافظون » .

ومركز الشبهة : ان الحصر فى هذه الآية يفيد أن القرآن وحده كـاف فى مصـدر التشريع لأنـه وحده الذى وعد الله بحفظه ، ولو كانت السنة كذلك لوعد الله بحفظها وذلك بناء على تفسيرهم الذكـر بالقرآن .

الرد عليها

١ ـ ونحن نقول ليس بلازم فى الاحتمالات العقلية أن يكون المراد من الذكر القرآن وحده لأمرين :

الأول : انه لو كان المـراد من الذكر القرآن فقط لصرح الله به كمـا صرح به فى كثيـر من الموضوعات التى تحتاج صراحة الى النص على اسم القرآن مثل :

« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الاسراء : ٩) .

« وقرآنا فـرقناه لتقـرأه على الناس على مكث » (الاسراء : ١٠٦) .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » (القمر : ٧)

« بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القـريتين عظيم » (الزخرف : ٣١) .

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمهـا وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه » (النمل : ٩١ ، ٩٣) .

فقد صرح فى هذه الموضوعات كلها باسم القرآن .

٢ ــ لو كان المراد من الذكر القرآن وحده لعبر عنه بالضمير (انا نحن نزلناه) .

اذ افتتاح السورة فيه نص وذكر للقرآن « ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » والتعبير بالضمير فى نظر اللغة العربية أجود لأن الضمير أعرف المعارف والعلم فى المرتبة الثانية من الضمير وذلك يكون متفقا مع ما للقرآن من المنزلة الرفيعة وتعتمده الصناعة العربية.

واذن فليس من الحتم أن يكون المراد من لفظ « الذكر » القرآن ويبقى أن نرشح لتفسير لفظ الذكر أحد معنيين .

الأول : أن يكون المراد من الذكر : الرسالة والشرف الذى استحقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واتصف به بنزول القرآن والنبوة عليه .

يقوى هذا الاحتمال الآيات المتقدمة على آيتنا هذه حيث صورت تلك الآيات مقالات الكافرين المعتدين على النبوة بأوصاف مفتراة مبعثها الحقد والحسد :

لقد قالوا له : انك لمجنون .

لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين وطلبوا منه معجزات ... الحجر .

فرد الله عليهم ووعد بحفظ الرسالة والشرف الذى اصطفى له محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهو تكريم للنبى صلى الله عليه وسلم ووعد بحفظ رسالته وشرفه .

أما أن القرآن الذى أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكسبه شرفا فهذا بالنص القرآنى فيقول الله تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف : ٤٤) .

فهو شرف للنبى صلى الله عليه وسلم .

وهو شرف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يدل عليه أن الضمير فى قوله : « وانه لذكر لك » عائد على القرآن المصرح به قبل ذلك فى قوله تعالى :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف : ٣١) .

أو المصرح به وضعا : « فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم » (الزخرف : ٤٣) . « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف : ٤٤) وبهذا يقوى احتمال ان المراد من الذكر هنا الشرف والرسالة .

الثانى : أن يكون المراد من الذكر الشريعة مطلقا ويرشح لهذا الاحتمال ما تناولته السورة بعد ذلك من تصوير لموقف الأمم السابقة من رسلهم .

« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين » (الحجر : ١٠) .

« وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون » (الحجر : ١١) .

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » (الحجر : ١٢) .

« لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » (الحجر : ١٣) .

والانبياء يكلفون الامم بالشرائع، والشريعة كتاب الله وسنة نبيه ، والذى يستعرض حالات الامم السالفة مع الانبياء يقف على مناقشات ومكابرات ومحاجات مع الرسل تدور كلها حول التكاليف التى يأمرهم بها النبى المرسل اليهم وعلى هذا تكون الآية التى معنا « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » قد نبهت على أمر خطير : هو أنه اذا كان الأمر فى الامم السالفة ينتهى الى الغاء الشريعة بعد معارك عنيفة بين الرسل والسماء من جانب والكافرين من جانب آخر ، فان هذه الشريعة «قرآنا وسنة» قد وعد الله بحفظهما الى يوم القيامة ولن ينال الكافرون منها شيئا .

ويقوى هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على هذا الأمر الى قيام الساعة » وعليه فيكون المراد من الذكر : الشريعة : قرآنا وسنة .

لكن بقى أن يقال كيف يعود

الضمير فى قوله تعالى (له) على السنة مع أنها غير مذكورة فى القرآن لا بالنص ولا بالصفة ؛ غير أن الجواب من نفس استعمالات القرآن الكريم ، ففى آية الواقعة : « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » فتلك صفات الحور العين مع أنه لم يجر لهن ذكر سابق على هذه الآيات فكيف عاد الضمير فى (انشأناهن) على الحور العين ؛ انه السياق العام والفحوى التى تعطى المعنى المجوز لعود الضمير عليه .

وليست تلك الآية فقط فهناك آية أخرى فى سورة ص يقول الله تعالى :

« اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد » (ص : ٣١) .

« فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب» (ص ٣٢) .

فالضمير المستتر فى توارت عائد على الشمس مع أنه لم يرد لها ذكر فى السورة لا بالنص لا بالوصف ، ولكن السياق العام والفحوى هيأت المعنى الذى يصح أن يعود عليه الضمير مرادا منه الشمس .

وآتينا فى سورة الحجر عاد الضمير فيها على السنة من هذا القبيل ، واذن فلا مانع من أن يكون معنى الذكر الشريعة مطلقا : قرآنا وسنة ، وتكون السنة داخلة فى وعد الله سبحانه وتعالى بالحفظ والصيانة .

٣ ــ يمكن أن يعود الضمير على النبى صلى الله عليه وسلم قاله ابن كثير : « ومنهم من أعاد الضمير على النبى صلى الله عليه وسلم كقوله « والله يعصمك من الناس ، ويكون المعنى : فى مواجهة تحدى الكافرين ان الله يشهد بأنه أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيحفظه من كيدهم ٢/٥٤٧ تفسير ابن كثير .

نعم هذا الاحتمال بعيد فى نظر ابن كثير غير أنه احتمال يوهى شبه المتعللين المتعسفين المانعين حجية السنة لشبهة خيالية ليس عليها دليل .

على أن حفظ محمد صلى الله عليه وسلم حفظ لذاته ورسالته ودينه وسنته ، فيكون الحفظ شاملا للسنة كذلك واذن فلا منفذ من الاستسلام لحجية السنة كمصدر فى التشريع الاسلامى .

الشبهة الثالثة

تتعلق هذه الشبهة بالتحامل والتعصب فى فهم حديث شريف : « لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ويدعون أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه جمع الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله » .

يقول أصحاب الشبهة بناء على ذلك :

اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين السنة واذا كان أبو بكر منع الناس أن يحدثوا .. فمدلول هذا عدم الاحتجاج بالسنة ، والاكتفاء بما فى القرآن الكريم كمصدر منفرد للتشريع الاسلامى .

الرد عليها

أولا : فى الحديث الذى رويتموه أيها المشتبهون نقطتان

الاولى : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة .

الثانية : التحديث عنه دون حرج .

ومفهوم هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بحفظ السنة بطريق واحد وهو طريق الحفظ فى الصدور والتحديث والرواية عنه دون الكتابة والتدوين فى القرطاس .

أما بالنسبة للقرآن الكريم فقد أمر عليه الصلاة والسلام بحفظه بالطريقين معا :

١ ــ طــريق الحفــظ فى الصدور •

٢ ــ طريق الكتابة والتدوين فى القرطاس •

وعلى ذلك فلا سند للمشتبهين بالحديث فان عــدم كتابة السنة ــ فى عهد النبى صلى الله عليــه وسلم ــ لا ينفى حجيتها غاية مافى الأمر أن الحفــظ له طــريقان ، ودرجتان :

الطريقان هما : التدوين بالكتابة والحفظ والرواية •

والدرجتان هما : درجة أولى وتتحقق بالجمع بين الطريقين •

ودرجة ثانية وتتحقق بأحدهمــا

فالقرآن الكريم له درجة عليــا أولى تتحقق بالجمع بين التدوين ، والرواية •

والسنة لها درجة عليا ثانية تتحقق بالرواية فقط •

وعلة ذلك وحكمته أن النبى صلى الله عليه وسلم حرص على أن تبقى ذاتية القرآن الكريم بعيدة عن أدنى شبهة فأفرد العصر النبوى لتدوين القرآن وحــده يدل على هــذا ما يرويه أبو هــريرة رضى الله عنه :

ان رسول الله صلى الله عليــه وسلم رآهم يــكتبون الأحــاديث فقال : ما هــذا الذى تكتبون ؟ قلنا أحاديث سمعناها منــك •• فقال : أكتابا غير كتاب الله تريدونه ؟ ما أضل الأمم من قبلكم الا ماكتبوه من الكتب مــع كتاب الله ، فقال أبو هريره رضى الله عنه : اتحــدث عنك يا رسول الله ؟ قال : نعــم حدثوا عنى ولا حرج ، فمن كذب على متعمدا فليتبــوأ مقعــده من النار » •

كــذلك روى عن عبــد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئا الا كلام الله ففى الحديث علة نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تدوين السنة رسميا بأمر الدولة فى ظل النبوه وهى نفس العلة التى جعلت عمــر بن الخطاب رضى الله عنه ــ وهو أمير دولة الاســلام

وأشهر الناس بموافقة الوحى له ـ يتردد فى تدوين السنة بعد أن استخار الله شهرا ثم يصبح وقد عزم الله له ولكنه يقول :

انى كنت أردت أن أكتب السنة وانى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا أشوب كتاب الله بشىء » .

ثانيا : على أن عدم الأمر بالكتابة لا ينفى كون السنة مصدرا من مصادر التشريع الاسلامى اذ مصدريتها غير مرتبطة بالتدوين وعدمه بل هى مرتبطة بالحفظ وحفظ السنة مقرر من النبى صلى الله عليه وسلم بدرجته وطريقه : « حدثوا عنى ولا حرج » فلم يعد لكم أيها المشتبهون علة تتعللون بها غير انكم يلزمكم معرفة الفرق بين درجتى حفظ القرآن والسنة وطريقى هذا الحفظ ، وأن هدف النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلم الوقت الذى نزل فيه القرآن الكريم من كل تدوين الا كتابة القرآن الكريم افرادا للعصر ألا يسع سواه بالطريق الرسمى الذى تتوجه اليه الدولة كلها لرعاية كتاب الله .

ثالثا : أما ما يرويه أبو مليكة عن سيدنا أبى بكر فنحن لا ننازع فيه غير أنه لا يقوم دليلا على عدم الاحتجاج بالسنة كمصدر من مصادر التشريع كل ما هنالك أنه يحافظ على السنة من الدخل لكثرة الألسن والقوميات التى دخلت فى الاسلام فحرص سيدنا أبو بكر على أن تسلم السنة من التحريف فمنع العامة لا الخاصة عن التحديث حتى لا يحدث اضطراب فى ألفاظ الحديث الشريف يدل على هذا أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه أنفذ ميراث الجدة بناء على الحديث الشريف الذى رواه المغيرة :وشهد معه محمد بن مسلمة ، فلم يعد بعد ذلك للمشتبهين من تشدق .

رابعا : على أن الحديث الذى نهى عن تدوين السنة لم يكن النهى فيه على الاطلاق بل هو خاص بأن يكون التدوين عاما شائعا لكل فرد من الأمة بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن بكتابة بعض الأحاديث .

ويجب أن نفهم أن هنـاك فارقا كبيرا بين أمـر واذن ، وهـو أن الأمر تبعث عليه علة اذا أمنت هذه العلة كان الاذن •

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بعدم كتابة السنة كان لعلة هى ألا يختلط الحديث بالقرآن ، أو أن يفهم الناس اتحاد الرتبة فى الزمن والطريق •

فلما وضح للناس هذا ولم تعـد هنا خشية من هذا الاختلاط اذن النبى صلى الله عليه وسـلم لأبى شاة أن يكتب له حديث خطبـة الوداع •

ان الله جب عن مكة الفيـل وسلط عليهم رسول الله والمؤمنين، وأنها لم تحل لأحـد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ألا وانها أحلت لى ساعة من نهار ، وانها سـاعتى هذه حرام لا يختلى شـوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط سـاقطتها الا لمنشد فمن قتل له قتيل فهـو بخير النظيرين : اما أن يقتـل ، وما أن يقاد أهل القتيل •

فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى هذا يا رسول الله فقال : اكتبوا لأبى شاه •

بل ان النبى صلى الله عليه وسلم ليأمر بكتابة العلم ، والسنة هى العلم بعد القرآن الكريم يقول صلى الله عليه وسلم « قيـدوا العلم بالكتابة » ويعلق الخطيب البغدادى على هذا فيقول :

وفى وصف الرسـول صلى الله عليه وسلم الكتاب بأنه قيد للعلم دليل على اباحة رسمه فى الكتب لمن خشى على نفسه دخول الوهم فى حفظه •

فدل ذلك على أن الاذن بالكتابة كان موجودا لطائفة خاصـة وأن الأمر بالنهى عن التدوين كان للعامة يؤيد ذلك :

١ ــ ما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه : ما كان أحد أعلم بحـديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا عبد الله بن عمـرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب •

٢ ــ وقد اعترض بعض الصحابة على تدوين عبد الله بن عمـرو

للسنة فقالوا له : انك تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يغضب فيقول ما لا يتخذ شرعا عاما ؟ فرجع ابن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : اكتب عنى فوالذى نفسى بيده ما يخرج من فمى الا حق .

٣ ــ ويروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رجلا كان يشهد حديث النبى صلى الله عليه وسلم فلا يحفظ فيسألنى فأحدثه فشكى قلة حفظه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : استعن على حفظك بيمينك وبذلك تسقط كل شبه المشتبهين وتبقى السنة الاسلامية مصدرا أساسيا من مصادر التشريع الاسلامى .

لها وظيفتها .

ولها منزلتها .

يؤكده المجال التطبيقى فى العبادة والمال والأسرة والحاجات اليومية رغم أنف الجاحدين .

د. رءوف شلبى

من هدى النبوة

المجتمع الفاضل كما يصوره النبى

صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

ان تراثنا الاسلامى الصحيح ـ المليء بما يصلح شأننا ، ويقوم اعوجاجنا ، وينير طريقنا ، ويبصرنا بما فيه خيرنا ، فى ديننا ودنيانا وآخرتنا .. ويدلنا على ما ينبغى أن نسلكه فى علاج أمورنا ، وتطهير قلوبنا ومجتمعاتنا .. سواء عندنا فى مصر ، أو فى غير مصر ، من البلاد العربية الشقيقة ، والاسلامية الموحدة بالله ...

فهو علاج لم يجىء به بشر يخطىء ويصيب .. ولكن جاء به رسول معصوم من الخطأ ، بعثه الله رحمة للعالمين .. بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بأذنه ، وسراجا منيرا .. هو محمد بن عبد الله ، الذى أرسله الله بالاسلام ، لبناء دولة الاسلام والمسلمين ، على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .. « وما ينطق عن الهوى . انهو الا وحى يوحى » ، « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » ، « وأنزل عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » ، ويقول الله بعد ذلك ، مخاطبا أمة محمد : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .. وفى الختام يقول سيدنا رسول الله : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى » ..

ومما روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من هذا التراث الصحيح ، ماروواه الصحابى الجليل ، « عبادة بن الصامت »

رضى الله عنه ــ فقد روى أن رسول الله قال :

« بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ، ولاتزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله عز وجل ، فهو الى الله ، ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه .. فبايعناه على ذلك . » صدق رسول الله ..

ولقد وقفت حيال هذا الحديث الشريف بعض الوقت .. أتدبر معانيه ، وأتفهم دلالاته .. حتى وجدتنى أمام حديث شريف ، بعيد الغور ، عميق المعنى ، غزير الفكرة ، عظيم الدلالة .. وهو يأتى البيوت من أبوابها ، وينفذ الى الاصلاح والفلاح والعلاج ، من أيسر الطرق ، وأنجع الادوية ، وأخفها تعاطيا .. ذلك ، لأنه نبع الفطرة السوية النبوية الربانية .. وهو من أجل ذلك كله أكبر من أن يفى بما يحتويه مقال ، أو يستوعبه حديث .. فآثرت ، فرارا بنفسى ، واعترافا بعجزى .. أن أحاول بقدر المستطاع أن ألم بمضمونه المامة خفيفة ، ليتاح نشرها ، ويذاع من أفكاره ومبادئه ما قد ينفع الناس .. فتصفو نفوس .. وتعمر قلوب .. فيصلح الله من أحوالنا ، فانه سبحانه شاء أن لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال .. بيد أنه سبحانه لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .. وقد وعد ، وهو لا يخلف وعده : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ..

هذا ، وان المعرفة الاجمالية براوى الحديث ــ لتدل على أنه من الأخيار المختارين الذين ارتضاهم رسول الله ..

فعبادة بن الصامت ــ رضى الله

عنه ــ راوى الحديث ، هو أحد النقباء الاثنى عشر ، الذين التقى بهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيعة العقبة ، بمنى .. وهو من قبيلة الخزرج التى أزال الرسول ما بينها وبين قبيلة الأوس .. ووحد بينهما ، وألف بين قلوبهما ، بمشيئة الله القائل : « ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم .. » ، وسماها الأنصار، الذين نصروا الله ورسوله ، وأحبوا اخوانهم المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم .. فهم الذين قال الله فيهم : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ..

وكان عبادة بن الصامت شابا فى الثلاثين من عمره ، حين كان نقيبا مختارا .. وكان رضى الله عنه ، ممن آتاهم الله بسطة فى العلم ، والعقل ، والجسم ، والوجاهة ، ومحبة الخير ، وقوة الايمان ..

وقد انتقاه سيدنا عمر فى خلافته ، ليكون معلما بالشام ، وقاضيا بفلسطين .. ومات بها قتيلا ، فى خلافة معاوية .. ودفن ببيت المقدس ...

وكذلك كان سائر النقباء ، أقوياء ، صالحين مصلحين ، فأصلحوا ، وأحسنوا وتعاونوا ، وأقاموا دولة على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .. فهيأوا مجتمعاتهم لبغض المنكر ومطاردته ، ومحبة المعروف ومتابعته ، والالتزام بما أنزل الله من كتاب وحكمة ، فرضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون ..

ومن هنا ، لعل من الخير للقيادات الرشيدة ، فى كل بلد عربى ، أو اسلامى ، عملا بسنة نبيها ، وهدى رسولها ــ أن تعمل جادة صادقة ، على اعداد الشباب المؤمن الصادق المتفتح الذى يخشى الله ، ويفهم الحياة ، ويعمل فيها كما أرادها واهب الحياة ..

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه .. ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله .. ليتخذوا من هذا الشباب أعوانا وأنصارا وأجنادا .. مبايعين لهم على الالتزام بما ألزمهم به دينهم ، والابتعاد عما نهاهم عنه ..

وقمة الأمر فى ذلك ، ماجاء فى مبايعته صلى الله عليه وسلم .. فالشباب أقدر على العمل فى سهولة ويسر .. ونحن فى سباق مع الزمن .. وأعداؤنا يتربصون بنا .. والتاريخ يعيد نفسه .. والفساد يتكرر ، مادام على الأرض كفر وايمان ، ومادام فيها حق وباطل ، ومادام فيها صراع قائم ، ولابد للحق أن ينتصر ، اذا ما تولاه المؤمنون به ، والعاملون له ، مابقيت على الأرض حياة ...

ان كل ما أنكره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى حديثه الشريف ، فى الايام الأولى لرسالته ، وبايع على انكاره وازالته .. موجود بيننا ، وقائم فى أيامنا ، وعلى صورة أفظع وأشد ، مما كان عليه من قبل .. فنحن نعيش فى جاهلية ، دونها ما كان فى الجاهلية الأولى .. !!!

** فالاشراك بالله .. موجود بيننا على أوسع نطاق .. وعلى صور مختلفة وألوان متعددة .. حتى عند من ينتسبون الى الاسلام، عن جهل وحماقة .. وبخاصة فيما يسمى بالشرك الخفى ، الذى قد يفسد عليهم عقيدتهم وعبادتهم ، بمخالفتهم الصريحة لنصوص القرآن وما صح من السنة .. وسأشير اليهما بمشيئة الله ، اشارة خفيفة ، فى بيان أول نص من نصوص المعاهدة .. وهو : « أن لا تشركوا بالله شيئا » ..

** والسرقة ــ وهى النص الثانى ، فى المنكرات ــ موجودة ، وقد استفحل أمرها ، عما كانت أيام أن نهى رسول الله عنها .. فما أكثر الافتنان فى ارتكابها ، وتنويع وسائلها .. وقد اتسعت دائرتها .. فهى منتشرة فى المصالح والمؤسسات العامة ، والمصانع .. وما أكثر الحرائق التى ترتكب أيام الجرد .. لاخفاء معالم السرقة .. ! ومما يزيد من الأسف انتشارها بين

العاملين فى المؤسسات التعليمية ، والقضائية .. !! وماذا نسمى المعلم الذى لا يخلص فى أداء واجبه ، ولا يتقى الله فيه ، ويضيع على تلاميذه وقتهم ، دون أن يفيدهم ؟! ثم يضطرهم بوسائله المنكرة التى يجيدها الى أن يأخذوا منه دروسا خاصة .. ! الله أعلم ، كم تكلف الكثيرين من الآباء ما لاطاقة لهم به ، ولا قدرة لهم عليه ، وما هم فى أشد الحاجة اليه ، فى طعامهم ، وفى ضروريات حياتهم .. »

ثم كيف يستحل هذا المعلم راتبه الذى يتقاضاه من الدولة فى أول كل شهر ، وهو لا يقوم بشىء من الواجَب فى مقابله ، مع أنه قد ارتضاه يوم قبل العمل رسولا من رسل التربية والتعليم ؟!

وانه ليس الغنى عن كثرة العرض ، وانما الغنى غنى النفس .. ورحم الله من قال :

والنفس راغبة اذا رغبتها
واذا تـرد الى قليل تقنع

ومن قال :

ما كل ما فوق البسيطة كافيا
واذا قنعت ، فبعض شىء كاف

على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه عنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها . »

ويقول :

« ما من نفس تخرج من الدنيا حتى تستوفى رزقها ، وأجلها .. فاتقوا الله ولا تكدوا فى الطلب » ـ وفى رواية : « وأجملوا فى الطلب » .. ويؤيده حديث آخر : « اطلبوا الحاجات بعزة الأنفس ، فان الله قاضيها » .. فهل ما يفعله هؤلاء المقصرون فى أداء واجباتهم ، ثم يتحايلون على استغلال المعوزين .. يتفق مع عزة النفس وسمو الرسالة ؟!!

وماذا نسمى المحامى الذى يستغل موكله ، لاطالة مدة التقاضى ، ليحصل من وراء ذلك على مضاعفات الاتعاب .. ويستبيح لنفسه أن يأخذ أموالا بغير حق . ؟!

وماذا نسميه اذا ما نجح فى احتياله على القاضى ، بتلقين شهود الزور ، وتحفيظهم الاجابة عن كل

سؤال توجهه اليهم المحكمة .. ؟!
أو بالمساعدة على تلفيق ما يقدم من المستندات الصورية ، بالمبالغة فى اخفاء معالمها ، والتغطية على من يريد كشفها ، بشراء ذمته .. لينتزع من القاضى حكمه لصالح موكله ؟! مع أن المفروض أن يكون المحامى نصير القاضى فى اظهار الحق ، والانتصار له .. لا عونا على نصرة الباطل .. لتحقيق مطامع ذاتية ، واستلاب أموال الناس بغير حق ؟!

أفليست هذه الأمثلة .. وغيرها كثير .. من ضروب السرقات ؟؟!

وكم سمعنا وقرأنا فى الصحف ، عن مستندات فى المحاكم قد سرقت .. أو قد ضاعت .. أو قد أحرقت مع غيرها من المستندات ، لاخفاء معالم الجريمة .. ولو استدعى ذلك احراق أكثر من حجرة من حجرات المحكمة ، أو المحكمة كلها .. !!!

** والزنا ـ وهو المنكر الثالث فى المبايعة ـ قائم فى بلادنا على قدم وساق .. وفى معظم البلاد الاسلامية .. !

على أنه فى الجاهلية الأولى ، يكاد يكون وقفا على « صاحبات الرايات الحمر » .. وصواحباتها من الاماء ، لا من الحرائر من النساء !

ولذا كان من أمثال العرب : « تموت الحرة ولا تأكل بثديها » .

وهذا أحد الشعراء العرب الأحرار ، يقول :

أصون عرضى بمالى ، لا أدنسه
لابارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فأكسبه
ولست للعرض ان أودى بمحتال

ان الزنا فى عصرنا قد استفحل أمره ، واشتد خطره ..

وان مما يساعد على استفحاله وانتشاره ـ ماذاع وشاع ، وملأ الابصار والأسماع ، من ألوان الخلاعة والمجون والاستهتار ، والعرى الفاضح ، والافتنان فى ابراز المفاتن ، من نساء كاسيات عاريات ، امتلأت بالكثير منهن الشوارع ، والمصانع ، والمصالح ، ومعاهد العلم .. رءوسهن كأسنمة البخت ، لا يشممن رائحة الجنة .. فهن حبائل الشيطان .. !!!

** وقتل الأولاد ـ وهو النص الرابع فى المنكرات ـ موجود عندنا ، وعند غيرنا .. باهمال تربية الأولاد تربية اسلامية ، وعدم اعدادهم لحياة فاضلة ...

كما أن القتل بمعنى ازهاق روح انسان ظلما بغير نفس ـ موجود فى كثير من البلاد العربية والاسلامية .

وعندنا فى مصر ، يقتلون البرىء بذنب المسىء .. فيما يسمى بقتل الثأر .. فهم لا يقتلون القاتل الحقيقى ، وانما يقتلون أكبر شخصية فى الأسرة من أقربائه ، لتكون الفجيعة أشد ، وقد يكون هذا المقتول ظلما من أصلح عباد الله، وأشدهم بغضا للقاتل من أسرته وبراءة منه .. ! لكنه الظلم .. وضعف الايمان .. والجهل بالاسلام .. وعدم التربية الدينية من الصغر .. وسمعت أنه فى احدى الدول العربية ذات الشأن .. تختطف البكر ، أو الغلام .. وبعد ارتكاب الفاحشة يقتلون الضحية حتى لاتدل عليهم وهم من شباب الأسرة المالكة .. ولاخفاء معالم الجريمة قد يعمدون الى دفنها بوسائلهم الخاصة ..

على أن قتل الأولاد فى الجاهلية ، كان خشية الفقر أو العار ، وله دوافع أخرى .. وحديثه قد يطول .. وقد أعود اليه فى فرصة أخرى بمشيئة الله ..

وقاتل الله الظالمين .. فى هذا المجال .. وان حكام المسلمين شركاء فى هذا الاثم ، لأنهم لم يقوموا بواجباتهم التى أوجبها الله عليهم فى رعاية الصغار ومعونة الكبار .. فلقد وصلنا الى ما لاتحمد عقباه .. وفينا من يتجر بعرضه الكثيرون من أرباب الغنى الفاحش .. ومن يبيع بناته وغلمانه لتجار الفاحشة وعشاقها .. وفينا .. من أمثال « قارون » .. الذين تقدر أموالهم بألاف الالاف، وآلاف آلاف الآلاف من الجنيهات .. ومن المؤسف والمخجل أن أصحاب هذه الأموال ، يستخدمونها فى سبيل الشيطان .. وينفقون الكثير منها فى الخمور والشهوات والملذات ، واتيان الفاحشة مع النساء والغلمان .. !

وما خبر شراء الفنادق العائمة ، بملايين الجنيهات ببعيد .. !

والمشترى للأسف الشديد .. عربى مسلم ، من أثرياء دول البترول ، الذين يكفرون بما أنعم الله به عليهم ، من ثراء فاحش ، بعد فقر مدقع ، كانوا فيه لا يجدون ما يقتاتون به الا بشق الأنفس . !!

وهكذا يصدق عليهم قول الله :

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى .. »

يضاف الى ذلك قصورهم الفاخرة ، المطلة على شواطىء بحيرات وبحار ، فى دول لا تعرف معانى الشرف والفضيلة ولا تخشى الله .. وانما تعرف المال وتعبده من دون الله .. وان هؤلاء العرب الكافرين بأنعم الله ـ يودعون الكثير من أموالهم فى بنوك اليهود .. وانها لتستخدم فى محاربة الاسلام والمسلمين .. فياسبحان الله الذى يمهل ولا يهمل .. انه سبحانه ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته .. وصدق الله العظيم : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » ..

وكم دالت أمم ظالمة من قبلهم .. سجل القرآن الكريم نهايتها فى قوله : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .. !!

** والبهتان ، الذى هو اختلاق الكذب الفاضح للاطهار الأبرار ـ وهو المنكر الرابع فى المبايعة ـ موجود فى بلادنا الاسلامية والعربية .. وبخاصة فى معظم دول البترول وفيمن يسمون أنفسهم بالرافضين ، أو دول الرفض ، الذين يرفضون الحلول العملية للقضية الفلسطينية .. فمعظم مايذاع عندهم ، أو ينشر فى صحفهم كذب وبهتان .. وليس هذا من الاسلام فى شىء ، لأن الاسلام أمانة وطهارة ، وصدق وكرامة ، وبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. وقاتل الله الشيوعيين ، وعملاءهم وأعوانهم الذين يبيعون أنفسهم للشيطان الرجيم ، ويعيشون فى الأرض فسادا ، بما يحصلون عليه من الأموال .. وما ينتهكون من الأعراض .. وما يملأون به بطونهم من ألوان الطعام وألوان الشراب ..وما يسفكون من دماء الأبرياء .. ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا .. ورحم الله من قال :

يقضى على المرء فى أيام محنتـه
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ومع هذا ، فقد كان البهتان فى الجاهلية ، يكاد يكون وقفا على قلة من الشعراء الذين كانوا يستأجرون للهجو ، كما يتكسبون بالمديح ... وكان منهم فى عصور لاحقة — من يمثل فى هجوه المقذع دور التخويف والارهاب .. كهؤلاء الذين يعيشون فى عصرنا على تخويف الناس بالقتل والاختطاف باسم الفدائية .. وهم فى حقيقة أمرهم قطاع طرق يستغلون أصحاب الملايين ، من الجبنـاء .. ويحيون على الفساد فى الأرض .. ويعيشون على الكسب الحرام .. عيش البغـاة المترفين من الملـوك والأمراء .. ولن ينفعهم ارهابهم ولا أمـوالهم .. وسـيعلم الذين ظلمـوا أى منقلب ينقلبـون .. يخربون بيـوتهم بأيديهم وأيـدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وأخيرا .. أجـد نفسى أمـام نصـوص المبايعة التى بايع عليهـا الرسول نقبـاءه المختـارين لاقامة المجتمـع الاسـلامى النظيف .. فبايعوه عليها هم ومن وراءهم — مبايعة الصادقين فى ايمانهم ، الأوفياء بالتزاماتهم ، المتخلصين من منكراتهم .. فكانت حيـاتهم أمنـا وأمانا ، وعزة وسلاما .. وصلح لهم أمـر الدين والدنيا والآخرة ..

ولمثل هذا ، فليعمل العاملون ، من قادة المسلمين فى جميع البـلاد العربية والاسلامية ، اذا كانوا بحق يؤمنـون بالله واليـوم الآخـر ، ويريدون الخير لأنفسهم وأوطانهم وأمتهم ، وصلاح أمرهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ويحبـون أن يحسن الله عاقبتهم فى الأمور كلها ، وأن يجيرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .. وأن يرد اليهم كـرامتهم المسلوبة وعـزتهم المنهوبة وقوتهم المفقودة وأن يعتبروا بما حل بأمتهم من هوان ، بعد ما كان لها من منعة وسلطان .. وحقهم أن يعتبروا بما هم فيه الآن .. وما كان من قبل .. وكان .. وكان .. »

فهذا شاعر يصور ماكان المسلمون عليه .. وما صاروا اليه .. فيقول :

اذا نحن سرنا ، سارت الناس حولنا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

فبينا نسوس النـاس ، والأمر أمرنا اذا نحن فيهم سوقة تتنصفو .. !!

ورحم الله زمانا استنجد فيه ملك الفرس بملك الصين ، على المسلمين فكان جواب ملك الصين :

« أنا لا قبل لى بقوم ، لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها .. ! »

فهل يستطيع المسلمون جميعا عربا وغير عرب ـ فى أيامنا هذه وبوضعنا الذى نحن عليه ـ أن يحرروا اخوانهم المسلمين فى روسيا من سيطرة الروس عليهم ومن احتلالها لأرضهم وممتلكاتهم .. ؟! انهم للأسف الشديد أضعف من أن يرفعوا حتى أصواتهم فى وجه روسيا بكلمة الحق .. !!! وان دولا اسلامية وعربية ـ لتسير الآن فى ركب روسيا وتأتمر بأمرها ، وتعمل على استرضائها ضد اخوان لهم قد تحرروا من سيطرتها .. !! وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. يوم لا ينفع الندم ولا يجدى البكاء ..

أتبكى على سعدى وأنت تركتها
فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع؟!

فما العلاج ؟ اننا أمة مريضة بأمراض كثيرة ذكر الحديث الشريف أصولها الأصيلة ، فاذا صدقنا فى علاجها ، وتطهير المجتمعات الاسلام من أدرانها وأوبائها ـ عادت الحياة الينا بعد موت .. وتحركنا بعد شلل ، وصحونا بعد نوم غبنا فيه مئات السنين .. فهل نحن فاعلون ؟!!

ان الذين يملكون العلاج هم القادة فى كل أمة مسلمة .. وهم الذين يقدرون على ازالة المنكر .. وهم الذين يستطيعون أن يحملوا الأمة على حظها بالسيف .. ان لم تستجب له طواعية واختيارا .. ورحم الله من قال : « ان الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن .. »

وما داموا يعلنون أنهم يحبون كتاب الله وهدى رسوله ، وأنهما جماع الخير كله ، فلماذا لا يسعد الناس جميعا بهذا الخير الذى سعد به أسلاف لنا من قبلنا ، كانوا اشراقة الدنيا ، ومصابيح الظلام ، ودرة فى جبين الدهر .. وانه لن يصلح حال هذه الأمة الا بما صلح به أولها ..

فهل نعمل جادين على ازالة هذه الموبقات ، التى بدأ رسول الله بمحاربتها ، وتنقية المجتمع من أوزارها ، وبايع على ذلك الخيرة من أصحابه .. بادئا بغرس بذور العقيدة الصحيحة فى النفوس ، فهى البناء القوى السليم الخالد الذى لا يتزعزع بنيانه أبدا ، وهى نبض القلب وأنفاس الحياة ، وبدونها لا تكون حياة .. ولن يكون تطهير لمعوقات الحياة .. أو غرس نظيف لأشجار الحياة .. أو استمتاع طيب لثمرات هذه الحياة ..

أليس رسول الله قد بدأ معاهدته الشريفة فى حديثه الشريف بقوله :

« عاهدونى على أن لا تشركوا بالله شيئا » ، لأنه صلى الله عليه وسلم يحرص أول ما يحرص على أن تكون عقيدة المسلمين عقيدة توحيد خالص لا يشوبه شرك ، بحيث يؤمنون بالله وحده لا شريك له ، خالصا ورازقا ، ومحييا ومميتا ، وعزيزا حكيما ، وسميعا بصيرا ، ومنتقما جبارا ، وحيا باقيا قيوما ، وعليما قديرا خبيرا ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، وهو يقضى بالحق ، كل الوجود ملكه ، وهو المتصرف فيه وحده ، « ليس لك من الأمر شىء » ، « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، وأنه سبحانه المعبود بحق دون سواه ، « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ، وهو وحده المقصود والمسئول والمستعان به ، « الله الصمد » « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .. ثم يقول الرسول لابن عمه عبد الله بن العباس .. « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله .. » ويقول لابنته فاطمة : « أنا لا أغنى عنك من الله شيئا .. اعملى .. » ..

هذا ، وكل أنبياء الله ، دعوا الله

دعاء مباشرا ، بلا واسطة ، لأن الله سبحانه لا يحتاج الى واسطة ، لأنه أعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين .. فأيوب عليه السلام يقول : « رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .. « وزكريا اذنادى ربه ، ربلاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين » ..

والوسيلة فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » ، المراد بها العمل الصالح ، ولا شيء غير ذلك ..

وما خلق أحد من الأنبياء وغير الأنبياء الا لعبادة الله وطاعة الله وامتثال أمر الله .. « يا موسى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » ..

ويحكى الله على لسان عيسى قوله : « قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ..

وعلى لسان محمد قوله : « قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون »

وقوله : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله .. » وقوله : « وقل رب زدنى علما »

ان كلمة « أن لا تشركوا بالله شيئا » تستوجب ما أشرت اليه آنفا .. كما تستوجب أن لا يكفر أحد بأنعم الله عليه .. ونعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى ، « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. ولاشك أن من هذه النعم ــ كل عضو من أعضاء الانسان .. وكل حاسة من حواسه الخمس .. وأمواله ، وأولاده ، وعقله ، وعلمه وقلمه ، ولسانه ..

وان عدم الكفر بها أو الاشراك بالله فيها ــ يكون بشكرها ، باستخدام كل نعمة من هذه النعم فيما خلقت له ، وفق تعاليم الاسلام وتوجيهاته بشأنها .. أما استخدامها فى مجالات الاثم والبغى والفسوق والعصيان ، ومخالفة أوامر الله بشأنها ، وهو ضرب من الكفر بالمنعم المتفضل بها على عباده .. وهو لاشك اجتراء على الله ،ونسيان له ، واشراك به ..

وعدم الاشراك بالله شيئا ، يقتضى كذلك أن لا نشرك معه فى العبادة أحدا .. « فلا تدعوا مع الله أحدا » .. ان التوحيد الخالص لله ، يقتضينا أن تكون عبادتنا له خالصة .. حتى من الرياء والسمعة، وابتغاء عرض من أعراض الدنيا .. فذلك وأمثاله ــ ضرب من الاشراك بالله شيئا ..

وان هذه المعانى كلها .. وأضرابها .. فى مفهوم التوحيد الخالص ــ لتوحى بها أول عبارة فى حديث المبايعة : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا » ..

أرأيتم كيف تكون العقيدة الصحيحة ؟!!

وأين مكانها بين صفوف المسلمين .. وجماعاتهم التى لا تعد ولا تحصى .. ؟!!

نحن كثير .. ولكننا غثاء كغثاء السيل .. !!! ببعدنا عن التوحيد الخالص لله رب العالمين ..

فمتى تنغرس فى قلوبنا عقيدتنا الصحيحة الموحدة التى لا يشوبها أدنى شرك .. كما كان عليه اسلافنا رضوان الله عليهم .. فطابت بهم الحياة ، وطابت لهم الحياة ..

انها يوم تنغرس فى قلوبنا بهذا المفهوم الصافى .. فنؤمن بالله ظاهرا وباطنا ، قولا وفعلا وسلوكا ، سيكون هو اليوم الذى تستقيم فيها أمورنا .. ولا تقف الجبال فى طريقنا .. ولا نرى مستحيلا فى سبيلنا .. ويومئذ نستعيد عزة بادت وسيادة هلكت ، وتراثا انتهب ، ومجدا ضاع .. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .. وصدق الله العظيم ! « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ..

ويل للشيوعيين ..

ان الأسوياء من عباد الله ، بفطرهم السليمة ، يؤمنون بالله ، ولا ينكرون وجوده ..

فالأعرابية البدوية ، وقد سئلت: هل لهذا الكون من خالق ؟ تقول : نعم .. ان البعرة تدل على البعير ، وان السير ليدل على المسير .. فسماء ذات أبراج .. وأرض ذات فجاج .. أفلا تدلان على اللطيف الخبير .. ؟!!

لكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ..!

لقد كفر بالله ، فى الماضى البعيد بعض العرب الجاهلين ، الذين يحكى القرآن عنهم قولهم :

« وما يهلكنا الا الدهر ، ومالهم بذلك من علم، ان هم الا يخرصون» وقولهم ، « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين »!

ولقد كفر بالله فى عصرنا ، وفى أيامنا ــ الشيوعيون المنحلون الذين ألغوا عقولهم ، وأنكروا وجود الله ، فهم لا يؤمنون به، ولا يخشونه .. وهم من أجل ذلك لا يحترمون حقا ، ولا يقيمون عدلا ، ولا يوفون بعهد .. لأن الحياة كما يقولون : مادة ، ولا اله ..

فلم يزيدوا على ما قاله بعض الجاهلين من قبل .. بل كانوا ألعن وأضل سبيلا .. !!

ومن كانوا كذلك ، فلا أمان لهم ، ولا خير يرجى منهم ..

ان من لم يؤمن بالله الخالق الرازق المنتقم الجبار ، مالك الملك ذى الجلال والاكرام ، العادل الحكيم الذى يجزىء كل نفس بما كسبت ــ لا يمكن أن يكون له قلب يخشع ، أو نفس تصفو ، أو هدف كريم نبيل ترقى اليه مشاعره .. ومن كان كذلك ، فالحيوان خير منه ، لأن فيه على الأقل نفعا للانسان ..

وفى الكلاب نفع وفيها وفاء لأصحابها ! ولا وفاء عند شيوعى لا يؤمن بالله .. !

يشهد بذلك سلوك الشيوعيين فى كل أرض دنستها أقدامهم .. فهم ينشرون فيها الغدر والخيانة ، والخسة والنذالة ، وقتل المروءات، وسلب الحريات ، واذلال الأحرار، وسفك دماء الأبرياء الأطهار .. !

أما المؤمنون بالله حقا ، فهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ..

هم الذين لا يغفلون أبدا عن ذكر الله ، يذكرونه ولا ينسونه ، فى جميع أحوالهم ، فى شدتهم ورخائهم ، فى صحتهم ومرضهم ، فى قوتهم وضعفهم ، فى غناهم

وفقرهم ، فى شبعهم وجوعهم ، فى ريهم وظمئهم ، فى حلهم وترحالهم ، فى يقظتهم ومنامهم ، فى حركتهم وسكونهم ، فى راحتهم وأعمالهم ، فى سلوكهم ومعاملاتهم ، فى عباداتهم ومجاهداتهم ..

يحبون الخير لغيرهم ، كما يحبونه لأنفسهم ، ويكرهون الشر لغيرهم كما يكرهونه لأنفسهم .. فهم أمن وأمان ، ونعمة وسلام ..

* * *

العناية بالتربية من الصغر ..

وان تصحيح العقيدة ، وتأصيلها، وتحقيق مفهومها ، كما أراده الله ورسوله ــ يستوجب العناية التامة بتربية الناس عليها من الصغر .. بدءا بتحفيظ القرآن الكريم .. واعداد المعلم الصالح .. والمنهج الصالح ، للتربية الدينية .. واعطاء دراستها ما يليق بها ، من الاحترام والجدية والقداسة ، فى ساحة الدرس .. وفى جميع المراحل التعليمية : من الكتاب أو المدرسة الأولية .. الى نهاية المرحلة الجامعية .. مع الحرص على أداء الشعائر الدينية فى أوقاتها ، داخل جميع المؤسسات التعليمية وغير التعليمية .. فى الوزارات ، والمصالح الحكومية ، والمصانع والتجمعات العمالية .. عسى أن يتذكروا الله فيخشوه ، فى مجالات أعمالهم ، ومعاملاتهم ، وفى حياتهم داخل بيوتهم وخارج بيوتهم .. وياحبذا لو توفرت القيادات الصالحة ، والقدوة الحسنة ، فى هذه الساحات جميعا .. !!!

عبد الحميد الفضالى

رؤية إسلامية

الله .. الإنسان .. الخليقة

للأستاذ زاهر عزب الزعبى

فى خضم من ضلال الشرك • وظلام الوثنية ، وفوضى الجاهلية ••• كانت جزيرة العرب تعانى من جاهلية عمياء عادت بسكانها القهقرى الى وثنية حمقاء كتلك التى جابهها وحاربها فى الماضى السحيق جد العرب الأول : ابراهيم عليه السلام •

وكان لكل قبيلة عربية وثنها الخاص بها ، له تتعبد ، واليه تبتهل كى يمنحها البركة والخير ويقيها الضر والشر ، فاللات والعزى ومناة وهبل كانت أصناما نحتتها قبائل العرب من صخر جبالهم وقدسوها ، واتخذوها أربابا يقدمون لها القرابين ، ويتوجهون اليها بالعبادة •• وينسجون حولها الأساطير والترهات والاباطيل •

وكان البيت الحرام ــ الذى رفع قواعده ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وجعله الله مثابة للناس وأمنا ــ قد صار فى النهاية الى أن أصبحت عرصته معرضا لاوثان الشرك •• حيث تنصب كل قبيلة وثنها ، واليه فى كل عام تحج : به تتبرك وله تتعهد ، وباسمه تنحر الذبائح والقرابين ••

وكان هذا الضلال ــ الذى ران على عقول الناس وقلوبهم فمسخ عقيدتهم وشوهها ــ قد لازمته فوضى فى الأخلاق والكيان الاجتماعى كله •• فالغرائز البدوية الجامحة كانت على الدوام مثارا لاشتباكات لا تنتهى بين القبائل• وكانت الحرب تندلع حامية مضطرمة الأوار لأوهى الأسباب وأتفهها •

ومجمل القول أن العرب كانوا يعيشون حياة بدائية ، لا تهديهم

عقيدة ولا تنظم مجتمعهم حضارة. وانما كانوا يعيشون على الفطرة تتحكم فيهم مطامع الانسان وانفعالاته وغرائزه الحمقاء . وفيما عدا بعض الروابط والتقاليدالقبلية الواهية ، كان العربى يعيش حياة انفرادية قاسية ، يواجه بعبوس وصرامة ــ كلما تطلع حواليه ــ وجه الصحراء الكالحالبهيم، وكأنما اقتبس انعزاليته (التى تبعده كلية عن الانضواء فى كيان اجتماعى متماسك) من تفككرمال الصحراء التى تحيط به من كل جانب ، ويجد فىجوانبها الفسيحةالمنبسطة وطقسها المتطرف ما يوائم فطرته وحياته : سهولة وبساطة فى العيش وحدة فى الغرائز ، وتطرفا فى انفعالات النفس ، وتناقضا فى الطباع .

وفى هذه الفترة من الزمن شاء الله أن يتجلى على الانسانيةباحدى معجزاته وأن يتفضل عليها برحمته وبركاته ، فنزل وحيه على أمى من أهل هذه الصحراء كان الله قد تعهده منذ مولده ورعاه ، فلم يتورط هذا طول حياته فى حمق الجاهلية ولم يتدنس فى حمأة الوثنية . فكأن الله قد ادخره لأعظم وأجل وأسمى مهمة اضطلع بها ــ منذ بدء الخليقة ــ انسان .

وكان هذا الأمى البدوى هو محمد بن عبد الله ..

وكانت هذه المهمة هى رسالة الله ..

وعلى حين غرة من محمد ، وعلى غير انتظار منه نزل عليه ملاك السماء يحمل رسالة الله :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق..
خلق الانسان من علق ..
اقرأ وربك الأكرم ..
الذى علم بالقلم ..
علم الانسان ما لم يعلم .. »

(بداية سورة القلم)

وهكذا ولد الاسلام .. عقيدة تشمل الانسانية كلها .. ورسالة تدعو ــ أول ما تدعو ــ الى التعريف بالله وتنبىء عنه باسمه ، وتقيم الدليل بينا على وجوده .

وبتوالى الآيات يتحدد معنى الألوهية كما يقرره الاسلام : فالله

واحد لا شريك له ولا مثيل فى ذاته أو صفاته ، متفرد بالخلق والتدبير .. متفرد باستحقاق العبادة والتقديس ..لا يستعان الا به ولا يخضع الا له .. فلا خالق غيره ولا متصرف سواه .. وله وحده العزة والسلطان .

وهو القديم الذىلا أولىلوجوده وهو الباقى الذى لا فناء يعتريه .

وعلى الجملة فالله ــ كما يتجلى من خلال الاسلام ــ ذات أزلية سرمدية متصفة بكل كمال ومنزهة عن كل نقص .. هو صانع العالم وخالق الكون ، لم يلد ولم يولد ، واحد لاشريك له ولا مثيل .

وهكذا جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى فكرة عن الاله الواحد الأحد رب العالمين ، ورب المشرق والمغرب ورب الأمم الانسانية كلها .

والاله فى الاسلام ليس نسخة محرفة عن المعنى الذى عرفت به الألوهية فى أى من الأديان (١) السابقة أو فى أى من الفلسفات .

واذا كان أرسطو الذى كان أستاذ الفلسفة اليونانية ، والذى ظل أستاذا لفلاسفة الغرب حتى اليوم ، قد انتهى الى أن الاله كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا ارادة ، لأنه غنى عن العمل وعن الاختيار ، ولا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق الانسان . .وانما تمت الخليقة بشكل تلقائى .. اذ أن المادة الأولى التى هى أصل الخليقة « الهيولى » لها خاصية تجعلها فى شوق الى الوجود.. وهذا الشوق هو الذى دفعها الى أن توجد .. وهذه الخاصية ــ فى اعتبار أرسطو ــ ذات طبيعة (ديناميكية) فهى لا تدفع الهيولى الى الوجود فحسب ، وانما تدعوه أيضا الى أن يتكامل بنفسه ويتطور من النقص الى الكمال .. ولتميز الهيولى بهذه الخاصية خرج بذاته الى الوجود ثم مضى ــ بما فيه من طابع

(١) كما الت اليه فى أفهام معتنقيها

ديناميكى ــ يسير فى درجـــات التطور حتى صار كونا • وفى قطاع من هذا الكون ــ الأرض ــ أوجد الأحياء ، ثم مضت هذه الأحيـاء تتطور بدورها حتى كان الانسان بما فيه من عقل مفكر •• والقياس يقتضى أن يتطور الانسان الى ماهو أرقى وأكمل الى صـورة لا يمكن التنبؤ بها الآن •••

ولكى يربط أرسطو بين مـادة الخلق الأولى ــ الهيولى ــ وبين الاله قال : ان ما فى الهيولى من خاصية هى شوقه الى الوجود قد أفاضها عليه الاله •• وقـد وصف الأستاذ العقاد ــ مفنـدا مذهب أرسطو فى كتابه : « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » هذه الافاضة الالهية بأنهـا ليست من عمليات الخليقة فلا يقال عن العالم انه من خلق الله الا أن تكون الخلقة عـلى هذا الاعتبار •

فالله فى نظر أرسطو كمال مطلق لا يعمل ولا يريد •• ومثـل هذا الكمال المطلق فى وجـوده سلبى كالعدم المطلق على حد سواء •

واذا كان أرسطو كعقل بشرى محدود الامكانيات قد توصل الى تصور الكمال المطلق فى الله وجعله السبب الأول فى الخليقة فهو قد أخطأ فى ربطه بين السبب وبيـن عملية الايجاد نفسها برباط واه هو رباط الافاضة الربانية على الهيولى بخاصية الشوق الى الوجود •• أما عملية الايجاد نفسها فليس لله فيها نصيب ، وانما هى ترجع أولا وأخيرا الى الموجود نفسه (الهيولى) •• فانه بما فيه من خاصية أفاضها عليه الاله ، قد أوجد نفسه ، ومضى أيضا بهذه الخاصية الموهـوبة فى طريق التطور ولازال •

والبرهان على بطلان هذا الرأى هين بين •• فالهيولى قـد تعلقت به هبة الله وهو بعـد ليس الا فى حالة من العدم لا يقبل تعلقا من أى نوع كان ، فكيف تسنى لهذا العدم أن يتلقى هبة الله •• ثم كيف تسنى لهذا الاله الذى هو عبارة عن كون من الكمال المطلق المجرد عن الفعل والارادة أن يباشر فعـلا من أى نوع كان وقد جرده أرسطو عـن العمل ، ثم جعله يفيض على الهيولى بخاصية الشوق الى الوجود ؟!!

ولكن أرسطو يشكر على أنه بامكانياته الفكريةالبشرية المحدودة قد توصل الى ادراك وجود الله ، وان كان ادراك وجوده قد سبقته به الأديان السماوية منذ زمان طويل .. ثم أنه تصوره على أنه كمال مطلق غير محدود مستغن عن كل ما عداه . وقد جاء الاسلام فصحح الذهب الفلسفى عن الألوهية ، والذىيعتبر رأىارسطو فيه قمة وقفت عندها الفلسفة حتى اليوم .

فالله فى الفلسفة يعقل وجوده ولا يعقل ما دون هذا الوجود ، ويتنزه عن الفعل والارادة لأن كليهما طلب وهو مستغن عن طلب شىء خارج وجوده .. ولكن الله فى الاسلام ذات واعية .. هى عبارة عن الكمالالمطلق أيضا ولكن هذا الكمال المطلق لا يشينه أن يتفضل الله بالخلق والايجاد لما هو دونه .. ومن دواعى هذا الكمال أن يكون الله عالما ، وليس علمه قاصرا علىذاته ، وانما هوعلم مطلق شامل .. يشمل أيضا ما سوى ذاته من كل موجود وكل ما سيوجد وكل معدوم يستحيل أن يوجد أو لم يرد له الوجود . فهو الذى خلق العالم حين أراد ذلك ، وفى وقت أن اختار لهذا العالم أن يكون ، وهو العليمبكل شىء فيه :

« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فىكتاب مبين » (سورة يونس) .

وقد آثرت مناقشة رأى أرسطو وحده لأنه هو الرأى الذى تبنته الفلسفة فيما بعد وآثره الفلاسفة المتأخرون بعد أن كفونا هم أنفسهم عناء استبعاد ودحض آراء فلاسفة آخرين فى الألوهية من أمثال أفلاطون وغيره من الفلاسفة الأقدمين .

والاسلام أيضا قد صحح ما تداولته من قبله الافهام والعقول عن فكرة الوجود فى ذاتها ، فقد أعطى فكرة صحيحةعن الوجود السرمدى الذى لا يتحقق الا فى الله ، ونفى أن يتحقق لشيئين وجود من شأنه الدوام والبقاء .. وجود

لا أول له ولا نهاية.. وان كل ماعدا الله انما هو وجود زمانى . .وجود يبدأ وينتهى فى الزمان .. والله وهو الواحد الأحد الذى لا يشاركه ضريب أو مثيل فى وجوده السرمدى هو الخالق والموجد لكل موجود زمانى .

وعلماء الكلام المسلمون قد قصروا الوجود فى تقسيمهم له على هذين النوعين لا غير .. فوجود الله ــ فى اعتبارهم ــ وجود سرمدى أزلى لا أول له ولا انتهاء، وقد أطلقوا لفظ « العالم » اسما على ما سوى الله (ذاته وصفاته) من كل موجود ، والعالم عندهم شامل للسموات والأفلاك وما فيها من كواكب وأقمار وما فى هذه من هواء وماء ونباتات وجمادات وأحياء .. واتتحوا فى برهنتهم العقلية على حدوث العالم وعدم انفكاكه عن الزمان الذى به تقاس فترة وجوده المحدودة بالبداية والنهاية الحتميتين .. بأن قسموا العالم وكل موجود فيه الى قسمين فالعالم وكل ما فيه اما أن يكون جوهرا (وهو القائم بنفسه) واما أن يكون عرضا (وهو ما قام بغيره) .. ثم مضى هؤلاء فى برهانهم فحكموا بأن الأعراض حادثة لأن بعضها حادث بالمشاهدة كحدوث الصمت بعد الكلام وانتهائه باستئناف الحديث وكذلك الحركة بعد السكون والسكون بعد الحركة وتعاقب الظلمة والنور بتعاقب الليل والنهار .. أما ما لم نشاهد حدوثه من الأعراض كسكون بعض الأجسام الساكنة كالجبال فان مجرد احتمال تحركها دليل على حدوث هذا السكون ، لأن الأجرام كلها متساوية فى الأحكام ، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر ، وامكانية تحرك حجر من هذا الجبل الساكن يؤكد امكانية تحرك الجبل كله ، وعلى هذا فسكونه طارىء يجوز عليه العدم ، وكل ما يجوز عليه العدم لا يكون قديما أبديا فى قدمه، لأن القديم اذا كان واجبا لذاته فظاهر أنه لا يجوز عليه العدم ، فان لم يكن واجبا لذاته لم يجز أن يكون صادرا بالاختيار للزوم الحدوث له حينئذ .. فتعين أن يكون صادرا بطريق التعليل من

واجب لذاته ، فيلزم استمرار وجوده مادامت العلة موجودة فلا يجوز عليه العدم . ولما كان العدم جائزا عليه انتفت علة دوامه فهو حادث .. وعلى هذا فالأعراض حادثة .

أما الجواهر فدليل حدوثها أنها ملازمة للاعراض الحادثة ، لأن الجواهر محل للاعراض .. والاعراض قد قام الدليل على حدوثها والملازم للحادث حادث .. اذن فالجواهر بدورها حادثة .

ولما كان العالم لا يخرج عن كونه اما عرضا أو جوهرا وكلاهما حادث (محدود فى وجوده .. وموجود بسبب من غيره) اذن فالعالم كله حادث .

قال صاحب الجوهرة :

فانظر الى نفسك ثم انتقل
للعالم العلوى ثم السفلى
تجد به صنعا بديع الحكم
لكن به قام دليل العدم
وكل ما جاز عليه العدم
عليه قطعا يستحيل القدم

واذا كان رأى أرسطو فى الاله ــ وان كان قد تصوره على كمال مطلق الا أنه قد قصر فى تصور أنه الموجد بالفعل للعالم ــ لم يستطع أن يصل الى مستوى الفكرة الاسلامية وما حققته من اقناع واشباع عقليين فانه من نافلة القول أن نناقش الأشكال الوثنية التى تصورت بها البشرية معنى الألوهية. فان اليونان الأقدمين كانوا يتمثلون الألوهية فى مجمع من الأرباب :عدد من الالهة لكل منهم وظيفة خاصة وميزة خاصة .. وقد تلعب بهم الأهواء أو تتضارب الرغبات أو تتداخل الاختصاصات فيشتبكون فى عراك !!

وكذلك الهنود الأقدمون كانوا يتصورون معنى الألوهية فى عدد من الأرباب ، منها ما يرمزون اليه بنوع من الحيوان ، أو يتخيلونه فى عنصر من عناصر الطبيعة ، أو يجسمونه فى وثن من حجر ، وبعض هؤلاء الأرباب ان لم يكن أكثرهم كان يتطلب من كهانه أن يتقربوا اليه بالبغاء المقدس أو سفك الدماء .

ثم قطعت الديانات الهندية شوطا طويلا فى مدارج التطور

حتى وصلت الى ذروة لم تتعداها فى كل من البرهمية والبوذية .. والبرهمية عقيدة عرفت بأنها دين بغير اله ، ومع ذلك فهى مليئة بأسماء الأرباب ، وعقيدتها ترتكز على ثالوث من براهما وفشنو وسيفا .. وقد وصفت هذه الآلهة بصفات تشخصها وتجعلها أقرب الى الجنس الانسانى منها الى الاله، وقد وصف كل منها بالذكورة وجعل له قرينة من الاناث .

ثم جاءت البوذية وهى تعتمد على البرهمية ولكنها شكل أرقى وأعلى فى التطور الدينى. فقالت أنه ينبغى أن نتجرد من الوعى ومن لباس الجسد حتى ندخل فى النرڤانا.. والنرفانا فى زعم البوذيين حالة يتجرد فيها الانسان من الآلام ويشعر بسعادة عليا .. وقد أوغل البوذيون أيضا فزعموا أن النرڤانا هذه هى الاله .. والاله فى زعمهم ليس ذاتا وانما هو حالة يمكن للانسان أن يصل اليها اذا تجرد من وعيه واحساسه ، أو اذا أنكر جسده أو تخلص منه كلية ، أو بعبارة أخرى يحس الانسان بالنرڤانا التى هى الاله اذا وصل الى حالة من الانجذاب فقد فيها وعيه كلية ، أو اذا تخلص من جسده سواء بالموت أو بالانتحار ، وبدون ذلك لا يمكن أن يعرف الانسان شيئا عن هذا الاله .

وليت شعرى كيف يتأتى للمرء أن يدرك كنه اله يتطلب ادراكه فقدان الوعى .. والوعى هو آلة الادراك ؟؟!!.. ثم لو توصلنا الى هذا الادراك فان النرڤانا لا تعدو أن تكون ـ كما وصفت فى البوذية ـ نوعا من السعادة .. أو السعادة العليا كما يقولون ..وهذه السعادة العليا هى فى نفس الوقت عين الاله .. وعلى هذا فاله البوذية لا يعدو أن يكون معنى مجردا مرادفا للنشوة التى يحسها المجذوبون أو بعض مرضى النفوس .. هذا اذا استطعنا أن تتجرد من الوعى أثناء حياتنا بدون حاجة الى التخلص من الجسد كلية بالموت على أية صورة جاء .. وفى هذه الحالة الأخيرة لن تكون النرڤانا سوى حالة عامة تنتهى اليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود .. وهى حينئذ شىء

يناسب العدم أكثر مما يناسب الوجود .

واذا نحن ضربنا صفحا عن الأشكال البدائية للتجارب الانسانية فى مجال الدين كعبادة الانسان البدائى لأسلافه أو عبادة الطواطم والأوثان وعبادة الأرواح فاننا نجد فى النهاية محاولات انسانية بحتة قد قاربت ادراك الاله الواحد العظيم .. وعلى رأس هذه المحاولات تقف الاخناتونية التى اعتنقها ـ قبيل بعثة موسى ـ فرعون مصر « اخناتون » .

ومجمل القول فى نقد الديانات القديمة أن أقصى مدى وصلت اليه فى ادراك الخالق وتنزيهه أنها صورته أو فهمته على وجه شابه كثير من العيوب التى تعلق بما يجب أن يتصف به الخالق من وحدانية أو من كمال أو بما يجب أن يتنزه عن الاتصاف به من نقص .

والاسلام لم يغض من شأن المحاولات الانسانية فى بحثها عن سبب الخليقة وعن الله .. بل انه يذكر بالتمجيد محاولة ابراهيم عليه السلام فى الوصول الى ادراك الله حيث جاء فى القرآن الكريم :

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين .

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (الانعام : ٧٥/٧٩) .

وقد كانت محاولة ابراهيم هذه سابقة على بعثته فى أصح الاقوال وأقوى الاحتمالات .. والاسلام يعترف أيضا بما سبقه من رسالات سماوية أولها رسالة آدم عليه السلام وأخبرنا القرآن بأن الله قد أرسل بعد آدم رسلا وأنبياء كثيرين .

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » (النساء / ١٦٤) .

ولكن القرآن يشدد فى التأكيد بأن هؤلاء الأنبياء والرسل لم يكونوا سوى بشر عاديين اصطفاهم الله ليبلغوا رسالته وليهدوا أقوامهم الى الطريق المستقيم .. فهؤلاء الأنبياء والرسل فى حقيقتهم بشر واناس يتفقون مع سائر الناس فى كل صفات البشرية .. وبهذا يتيسر لسائر امتهم التلقى عنهم وتقليدهم فيما يقولون ويفعلون .. ومع ذلك فان الله خصهم بنوع من الاصطفاء .. هو فى الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدرة على التزام المثالية البشرية كما يريدها الله .. وبذلك صاروا اهلا لتلقى وحى الله ــ اما مباشرة كموسى عليه السلام أو بواسطة الملك المكلف بالوحى كسائر الأنبياء والمرسلين ــ وتبليغ ذلك للناس .. وقيادتهم اياهم فى التطبيق العملى فى سائر مناحى الحياة ، وكانوا بذلك مبلغين عن الله معصومين عن الخطا فيما يبلغون ، وكانوا اسوة لاقوامهم فيه ، والى هذا تشير الآيات :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .. بالبينات والزبر ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل : ٤٣ : ٤٤) .

(وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » (الأنبياء : ٨) .

ويقول القرآن الكريم ان رسالة الله على الدوام كانت ذات هدف واحد هى توجيه الانسان نحو طريق الهدى ، وان اصول الرسالات وقواعدها كانت دائما واحدة لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى .. ومن ثم يطلب القرآن الكريم الايمان بجميع الرسل وبما انزل عليهم جميعا .. ويعتبر أن فى الايمان بالبعض دون البعض خروجا عن دين الله وكفرا بهداه :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ،

وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٢) .

واذا كان الاسلام يقر جميع ما سبقه من رسالات ـ ومن بينها اليهودية والمسيحية ـ فانه يقرها على وجهها الصحيح لا على ما آلت اليه فيما بعد ـ بعد ان داخلها الكثير من الترهات والأباطيل .

وقياس الصحة والبطلان فى المبادىء الدينية التى تضمنتها اليهودية والمسيحية هى موافقتها أو عدم موافقتها للمبادىء الاسلامية نفسها .. لأن هذه المبادىء ليست الا رسالة الله التى لم تختلف فى أية رسالة من الرسالات حتى ولا فى اليهودية أو فى المسيحية عنها فى الاسلام .

« ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتو الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب .. فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » (آل عمران : ١٩ : ٢٠) .

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (آل عمران : ٨٥) .

ومن ثم فاننى فى مقال سابق قد أطلت باستفاضة فى شرح ظروف تدوين التوراة وما لابس ذلك من دواعى تحريفها واستشهدت بما جاء على لسان السيد المسيح عليه السلام من اتهام كتبة التوراة بتزوير وصايا الله .. وفى ذلك يقول القرآن أيضا :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » (آل عمران : ١٨٩) .
« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » (النساء : ٤٦) .

ومن أجل ذلك تعتبر الصورة التى رسمتها التوراة لاله موسى صورة غير صحيحة فان اليهود ـ اذا اعتبرنا روايات التوراة ـ

لم يكونوا موحدين ، ولم يكونوا ينكرون وجود الالهة الكثيرين غير الههم .. هذا فضلا عن الصورة الممسوخة التى صورت بها التوراة ذلك الاله .

وفى مجال المقارنة لا يمكن أبدا أن يعتبر « يهوه » اله اليهود صورة راقية من صور العقيدة الدينية .. فالعقيدة اليهودية كانت معيبة من جهة توحيد الله .. وكانت معيبة من جهة ما يجب أن يتصف به من كمال .. وكانت معيبة من ناحية ما يجب أن يتنزه عنه من كل نقص .

وفى المسيحية جاء عيسى بن مريم عليه السلام فاختص بدعوته بنى اسرائيل دون من سواهم من العالمين ، وقد اثبتت الأناجيل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التى قصدته متوسلة أن يشفى ابنتها المريضة فأجابها بأنه لم يرسل الا الى خراف بنى اسرائيل الضالة . (مرقص : ص ٧ ، متى ص ١٥) .

فالعقيدة الالهية كما دان بها اليهود والمسيحيون وجمدوا عليها الى ما بعد وفاة المسيح انما كانت عقيدة شعب مختار من بين الشعوب فى اله مختار من بين الآلهة ، وليس من عقيدتهم توحيد الله ، ولا يمكن أن تعتبر هذه العقيدة مما يتسع لديانة انسانية عامة ، لأنها عقيدة قومية متعصبة .

وحينما ظهر الاسلام كانت العقيدة فى المسيحية قد تطورت الى تلاشى النعرة القومية واتساع نفوذ الله .. ولكن وحدانيته عابها اشراكهم المسيح نفسه معه فى الالوهية باعتباره ابنا له .

وقد جاء الاسلام بعقيدة تنزه الاله فيها عن لوثة الشرك ، وعن جهالة العصبية وسلالة النسب ، وعن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الأديان الكتابية .

« الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين » .. (فاتحة الكتاب) .

والاسلام لم يعتن بتنزيه الله واظهار وحدانيته وعظمته وكماله فحسب .. بل انه اعتنى أيضا ببيان

العقيدة كما أوحى الله بها صحيحة ونقية من كل شائبة الى رسوليه الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام .

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (المائدة) .

« يا أهل الكتاب : لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم، رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد ، سبحانه، أن يكون له ولد ، له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » (النساء : ١٧١) .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الأرض جميعا ... » المائدة : ١٧) .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ... » (المائدة : ٧٣) .

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون » (المائدة : ٧٥) .

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (آل عمران ٥٩) .

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا .. يا اخت هارون ماكان أبوك أمرأ سوء وما كانت امك بغيا .. فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ .. قال : انى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا .. وجعلنى مباركا اينما كنت، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا.. وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا .. والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .. ذلك عيسى بن مريم : قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى

امرا فانما يقول له : كن فيكون .. وان الله ربى وربكم فاعبدوه » (مريم : ٣٥/٢٧) .

والاسلام حين يعترف بماسبقه من رسالات فانه يطلب الايمان بأن محمدا عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبأن رسالته تضمنت خلاصة الرسالات السابقة وزادت عليها ما به كمال الانسانية التى أتاح الله لها هذه المرة ــ وبشكل نهائى ــ الطريق الواسع نحو التطور الصحيح ، ونحو الرقى المادى والروحى .

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠) .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة ٣) .

ولهذا كانت هذه الرسالة الالهية النهائية رسالة عامة موجهة الى جميع الناس مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم فى كل زمان ومكان ابتداء من وقت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يوم القيامة .

« قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (الأعراف ١٥٧) .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨) .

والاسلام بما تضمنه من ارشادات الهية ليس صالحا لهداية الانسانية وحدها وانما هو صالح أيضا لهداية وارشاد سائر أجناس المخلوقات العاقلة الأخرى من غير الجنس البشرى .

« قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : انا سمعنا قرآنا عجيبا .. يهدى الى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا .. وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدا .. وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا .. وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا .. وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا .. وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا .. وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا .. وانا كنا نقعد

منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا .. وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا .. » (الجن : ١/١٠) .

وفى خريف عام ١٩٦١ سمعت من راديو القاهرة برنامجا اذاعيا حرره أحد العلماء العرب المتخصصين فى علوم الطبيعة وابحاث الكون جاء فيه : انه من المحتمل جدا أن يكون الجن نوعا من الأحياء التى تعيش فى أحد الكواكب الأخرى ، وانهم قد فاقوا انسان الأرض فى مناحى العلم بحيث يستطيعون التنقل عبر الكواكب أو على الأقل توصلوا الى مخترعات يمكنهم بها ان يروا — من كوكبهم — كل أحوالنا ويستمعوا الينا ويؤثروا فينا بشكل أو بآخر .

وسواء أكان هذا حقيقة قد يثبت العلم صحتها فيما بعد أو شطحة من شطحات خيال هذا العالم العربى فان الاسلام يطالبنا بأن نؤمن بأن الجن مخلوقات كائنة فعلا .. وانهم استمعوا الى قرآن الله متلوا بلسان نبيه محمد عليه السلام فوجدوا فيه صلاحهم ورشدهم ، وانهم مكلفون كالبشر بشريعة الله واتباع هداه والايمان به .

« وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا .. » (الجن : ١٤/١٥) .

وعلى غير العادة فى حديث القرآن عن العالم الغيبى ومطالبتنا بالايمان بوجوده كطوائف الملائكة فانه حينما تحدث عن الجن بين المادة التى خلق منها الجن بينما لم يتعرض مرة واحدة — على كثرة ما ذكر — للمادة التى خلق منها الملائكة أو الحور العين مثلا :

« وخلق الجان من مارج من نار » (الرحمن : ١٥) .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (الحجر : ١٧) .

والنار مادة معروفة فى كوكبنا الأرضى وهى مصدر الاشعاع والحرارة فى كل نجم ملتهب حى كالشمس .. فاذا كان العلماء يقررون ان الحياة تتشكل حسب

ظروف البيئة فانه ليس من المستبعد أن تكون نبؤة محرر البرنامج الاذاعى على حق .

وسورة الرحمن من أولها الى آخرها وضع الله فيها الانسان مع الجن فى اطار واحد .. موجها الخطاب اليهما معا ومناقشا اياهما معا ومقيما الحجة عليهما معا فى عبارات واحدة وبخطاب واحد :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار .. وخلق الجان من مارج من نار ..فبأى آلاء ربكما تكذبان» « يا معشر الجن والانس أن استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان »

(الرحمن)

وسواء أكان الجن سكانا غير بشريين لكوكبنا الأرضى أم أحياء فى كوكب أو نجم آخر فانهم ما داموا مكلفين ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد شملتهم .. فان الاسلام لا يكون عاما للجنس البشرى وحده ، وانما هو عام لكل حى عاقل لا تقل قوته العقلية عن مستوى الانسان العادى .

فلو فرض وأننا ـ سكان الأرض ـ قد تقدمنا فى ابحاث الفضاء (التى جندت لها الدول الكبرى فى الوقت الحاضر كل الامكانيات) ووصل انسان الارض الى كوكب آخر فوجد فيه احياء فى مستوى الانسان العقلى والفكرى لشملت هذه الدعوة سكان هذا الكوكب ولأصبحوا مكلفين بالايمان بمبادئها والعمل بها .. وأصبح عموم الاسلام وشموله غير قاصر على سكان الأرض فحسب بل يشمل غيرهم من سكان الكون جميعه .. كلما وجد فى أى من كواكبه سكان هم أهل للادراك .. أهل للوعى .. أهل للتكليف .

واذا كانت العقيدة فى الاسلام هى الأصل والايمان بها هو الأساس الذى ينبنى عليه الجانب العملى من الدين وهو ما اصطلح على تسميته بالشريعة فان الله لم يكتف بمجرد الاعلام حين أراد الافصاح عن كنه ذاته وصفاته اعتمادا على الثقة

بالمصدر وصدق النبى . بل انه سبحانه جلت حكمته أقام الحجة وأتى بالبرهان المعقول والبينة المحسوسة المشاهدة المرة تلو المرة والدليل تلو الدليل .

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون .. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون .. وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين .. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (البقرة : ٢١/٢٤) .

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون .. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » (البقرة : ٢٨ ٢٩) .

« ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠) .

وأمثلة من هذا القبيل فى القرآن كثيرة .. وقد أشرنا فيما سبق الى ما استدل به علماء الكلام من دليل عقلى على حدوث العالم جواهره وأعراضه ، وكل ما فيه من سموات وأرضين وما فى كل منها من جماد وأحياء .

وحدوث العالم اتخذه هؤلاء العلماء مقدمة منطقية فى البرهنة على وجوب وجود الله .. وأجروا البرهان هكذا :

العالم حادث .. وكل حادث لا بد له من محدث .. وهذا المحدث اما أن يكون واجب الوجود أو جائزه فلو كان جائزه لجاز عليه العدم ، فان تحقق عدمه ظل العالم فى حاجة الى محدث ، وان لم يتحقق عدمه لكان حادثا ولاحتاج هو أيضا الى محدث ومحدثه الى محدث فان رجع الى الأول مباشرة أو بالواسطة فدور والا فان تتابع المحدثون الى ما لا نهاية فتسلسل .. وكل من الدور والتسلسل

باطل فبطل ما أدى اليه وهو انه غير واجب الوجـود وثبت انه واجب الوجود .

ومن مشاهد العالم والطبيعـة أيضا استند علمـاء الكلام فى البرهنة بطريق آخر على وجـوب وجود الله فقالوا :

ان الممكنات موجودة بالضرورة .. وكل موجود ممكن لا بد لهمن موجد . وهذا الموجد اما أنيكون عين الممكنات ، وهـذا باطـل لاستلزام تقدم الشيء على نفسه.. واما أن يكون جزءها ، وهذا محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببـا لنفسه ان كان هو الجزء الأول او لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ، فلا بد أن يكون الموجد من غيـر الممكنات .. وغير الممكن اما أن يكون مستحيـلا أو واجبا .. والمستحيل معـدوم فـلا يحقق الوجود لغيره ، لأن فاقـد الشيء لا يعطيه لغيره ، فتعين أنيكون هذا الموجد واجب الوجود .

وواجب الوجود ليس سوى الله تعالى .

ومن ثبوت وجوب وجـود الله استدلوا بأن وجوده قديم لا أول له وباق لا نهاية له .

اذ انه تعـالى لو لم يكن قـديما لا أول لوجـوده أو لو لم يكـن باقيا لا نهاية لوجوده لكان حادثا ، ولو كان حادثا لجاز عليه العدم ، ولو كان كذلك لكـان غير واجب الوجود .. ولكن قد ثبت لهوجوب الوجود ، فانتفى ما أدى الى غير ما ثبت له من وجوب الوجود وهو كونه غير قديم أو غير باق ، وثبت له ـ سبحانه وتعالى ـ وجـوب القدم ووجوب البقاء ..

قال صاحب الجوهرة :

فواجب له الوجـود والقدم
كذا بقاء لا يشاب بالعـدم
وانه لمـا ينـال العـدم
مخالف برهـان هذا القـدم

وفى كتب العقيدة الاسلاميةنجد أن علماء الكلاملم يتركوا صفة من صفات الكمـال نسبت الى الله الا وبرهنوا على صحـة هذه النسبة الى ذاته سبحانه وتعالى بالدليـل العقلى الذى لا يقبـل الشـك وبالبرهان المنطقى الذىلا ينقض.

فهى عقيدة العقل المقتنع والايمان المطمئن المستنير ومع ذلك فالله سبحانه تعالت حكمته قد نبه انه ليس للبشر أن ينسبوا لله صفة لم ينسبها لنفسه فى قرآنه أو على لسان نبيه فى خبر قطعى وكذلك أن يناجوه باسم غير ما وضعه لنفسه أو دعاه به رسوله :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه .. » (الاعراف : ١٨٠ » .

وقد أرشد الله تعالى الى ما وضعه هو من أسماء وصفات تمثل ذاته وقدرته وحكمته وكل ما له من كمال يليق به .. ومن هذه الاسماء والصفات : الواحد ، الأحد ، الصمد ، القدوس ، الحى ، القيوم ، الغنى ، الأول ، الآخر ، السميع ، البصير ، العليم ، الخالق ، البارىء ، المصور ، البديع ، القادر ، القاهر ، الولى ، الحافظ ، رب ، رحمان ، رحيم ، رءوف ، ودود ، لطيف ، حليم ، رزاق ، وهاب ... الخ .

وكان هذا التشديد فى منع ارتجال الأسماء لله هو غلق باب الشرك وقطع طريقه ومنع اسبابه حتى لا تؤدى الاباحة فى النهاية الى تشويه معنى الالوهية أو الحط من عظمة الاله وكماله على نحو ما حصل فى كل من اليهودية والمسيحية .

وفى غير ما هو توقيفى من خصائص ذات الاله فان الاسلام قد أتاح للانسان قدرا من الادراك الواعى غير محدود الا بقدرة عقل الانسان ذاته . .والقرآن الكريم ملىء بآيات تحض الانسان وتدفعه دفعا الى استكشاف مغاليق الطبيعة والكون وان يستخدم كل ما سخره الله له فى كل ذلك من خيرات اذا أحسن التصرف .. ولكى يخطو الانسان فى مسالك هذا الطريق وهو آمن من العثرات والخطأ فقد رسم الله له المنهج القويم للتصرف الصالح .. فالانسان فى نظر الاسلام مخلوق نيطت به أمانة التكليف وهو فى نفس الوقت بصير على نفسه لأنه أهل لهذه الأمانة .. وهو على قدر نهوضه بمقتضيات هذه الأمانة لم يحدد مصير نفسه وحسب بل ربما حدد

مصير مجتمعه أيضا .. ولهذا كان من الخطورة أن يخلى بين الانسان وأمانة الله تخلية مطلقة لأن الأمانة ليست أمرا هينا ، وانما هى مجاهدة دائمة للنفس الأمارة بالسوء .. فكان لا بد من أن يوضع حد لضعف الانسان أمام مغريات الهوى .. والحياة الدنيا قصيرة الأمد ، وفيها يحيا الانسان بغرائز ملتهبة وشهوات عارضة .. فهو يعيش دائما على حافة هاوية الهلاك .. وهو جدير بأن يورد نفسه مورد التهلكة اذا استكان لضعفه فى لحظة طيش واحدة .. فاذا نجح فى التزام قواعد الله ومنهجه ، وكبح جماح شهوات نفسه أعانه الله على اجتياز هذه الحياة الفانية بسلام وأعد له فى الآخرة خلودا فى نعيم وسعادة حيث جنات الفردوس قد أعدها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات مقاما ونزلا أبديا .. فاذا لم يتحقق للانسان فلاح فى حياته الدنيا فالشقاء الخالد فى حياته الآخرة حيث يعذب فى جحيم سقر . ولن يتصرف الله ازاء الانسان فى الآخرة تصرفا مستبدا ، ولن يترك للأشقياء منهم فرصة الظن بأنهم قد غبنوا أو حاق بهم ظلم ما بل سيحاسبهم فى محاكمة عادلة .

« كل امرىء بما كسب رهين » (الطور) .

« وما ربك بظلام للعبيد » (فصلت) .

والله اذ سوى الانسان وخلقه على أحسن تقويم وسخر له كل ما فى الكون من خيرات جعله أيضا بما حمله من تكليف صاحب عزيمة وارادة وفكر .. فعلى الانسان أن يتحرى النهج الأقوم فى حياته وفى الانتفاع بخيرات الله حتى لا يكون كفرد من فصيلة العجماوات السائمة .. وهذا التحرى يجعل اختيار الانسان وحريته لا مجرد انطلاق أعمى ولكن انطلاقا واعيا مصمما .. فالله حين يوجه الانسان فى الحياة ويبين له سبيل الصواب انما يساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أسمى درجة من الكمال الانسانى فى الروح والخلق والمادة والعقل ، وينظم علاقته بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان فى كل مظاهر الحياة ، وكل تكييف لعمل الانسان حسب منهج الله يعتبر

عبادة مشروعة • فكل لحظة يقضيها المرء وينفقها فى معاملته من أجل الله والانسان ، وكل تأمل وتدبير، وكل حركةانبعثت منهدى الله فهى فى نظر الخالق تقديس وعبادة وتمجيد له •

واذا كان عمل الانسان هو الذى يحدد فى النهاية مصيره الاخروى فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •• وعلى هذا فقد صحتمسئوليةالانسان ، لأنه فاعل مختار ولأن مصيره نتيجة فعله وليس شيئا لازما ولا مفروضا عليه •

« وان ليس للانسان الا ما سعى •وان سعيه سوف يرى • ثم يجزاه الجزاء الأوفى»(النجم : ٣٩ : ٤١) •

وقد بدا لبعض الناس أن اطلاق الله ليد الانسان فى الحياة ومنحه الحرية فى أفعاله وفى تحديد مصيره يحد من عظمة الله نفسه•• اذ كيف يأذن الله للانسانأنيفاجىء خالقه باختيار لم يسبق بعلمه وأن يعبث بنظم وقوانين نظم الله بها مجرى ملكوته !! ؟؟

ولكن الله خلق الكون ونظمه وقدر لكل شىء فيه قدره •• والانسان ــ فى دائرة وجوده الضيقة وسط هذا الكون الجبار ــ سيد نفسه فى تصرفاته •• وعلم الله محيط شامل ولا يخضع للزمان أو المكان فانه دائما حاضر وبالحاضر •• والله يعلم أولا كل الحوادث الطبيعية والأفعال الاختيارية التى وجدت فى العالم ، يعلم الاتجاهات التى سوف يتجه اليها كل فرد فى حياته •• يعلم مصير كل فرد لأنه يعلم الطريق الذى سيتخذه فى الحياة • ومهما كان عمل الانسان فانه لا يخرق نظاما استنه الله وقدره للكون لأن نظام الكون هائل وعظيم عظمة الكون نفسه ••• عظمة تستمد حتميتها من ارادة الله التى لا ترد وقدرته التى لا تدفع •

ولقد اعتنى الاسلام ــ فى محيط الانسانية ــ بوحدتها وهى الفرد• فعمل على بناء شخصيته وتقويمها، ورسم لها طريق التصرف فى حرية وعزة وكرامة •• لأن هذا الفرد كوحدة يمثل نواة لكل مجتمع انسانى ابتداء من الأسرة الى الأمة

الى المجتمع الانسانى بأسره .. وتقويم شخصية الفرد وتربيتها على العزة والكرامة والحرية أمر جوهرى للنهوض بالبشرية كلها والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تنبىء عن تكريم الله للانسان واعزازه له .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البحر والبر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء : ٧٠).

ومع ذلك فالانسان كثيرا ما يتخلى عن هذه المرتبة العليا التى وضعه الله فيها فيتخلى عن كرامته ويضع زمام أمره لبعض الجهلاء من جنسه الذين كانوا ولا يزالون يعتبرون الانسان حيوانا راقيا لا أكثر ، ولذلك تراهم يعمون عن حكمة الله ولا يتبينون سوى حلول حيوانية لمشكلات البشر . فهم فى ميدان السياسة يريدون أن يجندوا الناس ويعبئوهم كالحشرات .. وهم يفعلون ذلك وسيفعلون دائما اذا أعطاهم الانسان فرصة من نفسه فى أى مكان فى العالم وفى أى وقت سنحت لهم الفرصة .. ولكن الله قد وعد بأن يمحق الباطل ويحق الحق وان لا يتخلى عن عباده حين يعرض لهم من بينهم من ينكرون على الانسانية أية قيمة أو عمل يفوق قيمة وعمل اليعاسيب العاملة فى خلية النحل .. فرحمته وسعت كل شىء وعنايته سهرت على الانسان فى كل وقت وحين .

والله هو الذى خلق الانسان حين سواه بشرا من طين ، وجعل منه كائنا قادرا على السلوك العقلى والحكم على الأشياء ، والتقرير الارادى والاختيار الأخلاقى .. والقرآن الكريم اذ يقرر هذه الحقيقة يدعمها بحقيقة رئيسية أخرى .. وهى أن الله خلق الانسان ليكون وكيله أو خليفته فى الأرض ، وقد اقيم الانسان فى هذه الأرض لا ليسيطر على سائر مخلوقاتها وانما ليسخرها أيضا ولينتفع بكل كائن فى الأرض وبكل عناصر وقوى الطبيعة فيها .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض

جميعا منه انفى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٢ : ١٣).

والذى ينظم للانسان كل هذا بل ينظم حياته كلها انما هو هدى الله والطريق الذى رسمه له. وهذا الهدى الالهى ينبنى أيضا بما فيه من تكليف بالايجاب أو بالمنع أو بالاباحة فى الحياة الانسانية الاولى الفانية على نظرية البعث فى حياة أخرى خالدة غير فانية تبدأ بحساب حق يعقبه ثواب أو عقاب طبقا لما كان عليه الانسان فى حياته الاولى .

ولكن حرية الانسان فى اختيار فعله ومصيره لا تنقض علم الله ولا قدرته .

وقد احتدم الخلاف بين المدارس الكلامية الاسلامية فى أفعال العباد وهل هى نابعة أصلا من مصدر انسانى خالص أم من مصدر الهى خالص .. وقد قال الجبرية بالمصدر الالهى الخالص ووقفوا موقفا حرفيا أمام بعض النصوص القرآنية التى تقرر بصراحة ان الله وحده هو مصدر كل فعل سواء أكان فعلا علاجيا بالجوارح أم مجرد انعقاد بالقلب كالارادة والاختيار والعزم .

ووجدوا فى آيات القرآن الكريم ما يؤيد رأيهم من امثال آية :

« والله خلقكم وما تعملون » .

والاحتمالات اللغوية فى تفسير هذه الآية سواء كانت (ما) فى قوله وما تعملون : موصولة أم نافية تنفى عن الانسان كل فعل أو عمل حتى ارادته وحريته فى الاختيار من حيث انهما فى واقع الأمر لا يعدوان أن يكونا فعلا حقيقيا للانسان .. وقالوا أيضا فى مقام الاحتجاج العقلى على هذا الرأى بأن الانسان لو كان منشئا لافعاله لكان قادرا ولشارك الله فى صفة من صفاته وهى القدرة ومشاركة الله ومماثلته فى ذاته أو صفاته قد قام الدليل على بطلانها. وبذلك صور هؤلاء الجبرية الانسان كدمى مسرح العرائس يتحرك بلا بصيرة ولا ارادة نحو مصير مقدر محتوم .

وأما المعتزلة فقد كانوا على النقيض من ذلك اذ ذهبوا الى أن أفعال الانسان كلها من مصدر

انسانى خالص واستشهدوا بآيات كثيرة من القرآن الكريم :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقالوا فى مقام الاحتجاج العقلى ان الانسان لو لم يكن موجدا لافعاله ومنشئا لها لما صح جزاؤه بالثواب أو العقاب ولكان فى عقاب المسىء ظلم له ، والظلم نقيصة والنقائص بطل اسنادها الى الله بالدليل فتعين أن يكون الانسان مصدرا لافعاله كلها وليس من مصدر لها سواه .

أما اهل السنة فقد تحرجوا من أن ينسبوا للانسان أفعاله كلها فيقعوا فى شبهة الشرك التى نبه عليها الجبرية فى حجتهم العقلية ، ومن أن ينفوا عنه القيام بأفعاله فينقضون أسباب الجزاء الأخروى .. ومن ثم اتخذوا طريقا وسطا باختراع ما أسموه بالكسب والاكتساب .. والكسب والاكتساب فى اعتبارهم ليسا الا حرية الانسان فى اختياره للفعل . وهذه الخاصية قد منحها الله له منذ الخليقة .. فاذا ما اختار الانسان فعل الخير كان هذا كسبا أما اذا اختار فعل الشر كان اكتسابا .. واذا ما تم اختيار الانسان للفعل وانعقد عزمه عليه تدخلت قدرة الله وأوجدت الفعل عن طريق الانسان نفسه .

ومن هذا نجد الرأى السائد بين الفرق الاسلامية يؤكد استقلال الارادة الانسانية ولكن من الحق أيضا أن الحكم الأخير لله ، فحرية الانسان تستتبع أن يكون الانسان مسئولا أمام الله ، أما السلطان الالهى المطلق فيظهر نفسه فى التاريخ أو فيما تتكشف عنه احداثه .

والتاريخ الانسانى متحرك (ديناميكى) وهو ــ من أحد وجوهه ــ مجموع اختيارات البشر . انه نتيجة استعمال الانسان لارادته المستقلة بالاضافة الى حكم

الله على هذا الاستعمال.. فالتاريخ على هذا نسيج مشترك من حرية الانسان وسلطان الله المطلق. وكثيرا ما يشير القرآن الكريم الى الماضى باعتباره شاهدا على ارادة الله وقدرته النافذتين فى شئون الناس .

« وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون »(يس : ٩) .

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » (الانعام : ٦٥) .

« وكأين من قرية امليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير » (الحج : ٤٨) .

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوما آخرين» (الأنبياء : ١١) .

وأيا ما كان الأمر فالانسان يعلم عن يقين ان هناك قوة أعظم من نفسه هو مسئول أمامها .. وقد علمته التجربة انه كثيرا ما يعقد العزم على الفعل ولكنه لا يتمكن من تنفيذه لأن هناك قوة أكبر قد حالت دون نفاذ هذا الفعل .

ويقول السير محمد اقبال فى تفسيره للآية القرآنية : « انا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩) : يعنى أن كل مخلوق قد وهب امكانية محدودة هو حر فى تحقيقها أو عدم تحقيقها : وفى حدود محدودة ضيقة يتصرف الانسان.. ولكن هذه الحدود الممنوحة للانسان على ضيقها تشمل مصيره كله .

وعلى هذا فالانسان محدود وحر معا ، وهو خاضع للضرورة الا انه يتغلب عليها ببعض الامكانيات الممنوحة له .

« ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (سورة الاسراء : ٣٧) .

ومن ثم كان التأثير الانسانى فى التاريخ مجهودا فرديا ولكن النتائج النهائية للتاريخ الانسانى تكون فى الأغلب صنعا الهيا ... اذ الانسان لا يملك الا ارادته وحريته وفعله ، وبها يتصرف فى نطاق محدود بينما

مسار التاريخ الانسانى العام يرتبط الى حد كبير بالقوانين والنظم الالهية العامة التى تسير الكون بأجمعه ، ولهذا فالمصير العام للبشرية لا يملك فرد واحد من مجموعة البشر أن يحدده أو يتصرف فيه .. لأن الله ينفذ مشيئته فى الحياة عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة : ٢٥١) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوى عزيز » (الحج : ٤٠ » .

ومع ذلك ففى هذا التدافع التاريخى يستطيع الانسان أن يهتدى بالتجربة الى سبيل الحق والصواب .. فقد وهب له الله الحس والعقل ، وفى هذين الكفاية ليستكشف بهما ما هو ضرورى للمحافظة على النفس وللتمييز بين الصواب والخطأ ، وهذا الاستكشاف فى نطاق الضرورى لا يمكن أبدا أن يكون عاصما للانسان من أن يضل أو يتخبط فى ظلمات الغواية أو الجهل اذا خلى بين الانسان وبين عقله وحواسه المحدودة دون هداية يتلقاها من الله .. ومن ثم فقد احتيج الى الوحى لتصحيح ضلال عقله وزيغ ارادته .

ولكن الخطأ الفردى وثيق الصلة الى حد كبير بالكل الاكبر الذى ينتمى اليه هذا الفرد البشرى .. فكان لا بد أن يكون الوحى الالهى غير قاصر على هداية الفرد وحده بل وجب أن يشمل هداية المجتمع الانسانى جميعه .. ومن أجل ذلك تعين أن يكون للمجموع البشرى قيادة هى الدولة نفسها وكان لا بد أن تكون لهذه الدولة قوة مقومة رادعة حتى تمنع التأثير السيىء للفرد الضال على مصير الجماعة كلها .

والدولة فى رأى الشيخ محمد عبده انما هى تجربة حتمية لوضع مبادىء الله المثالية فى أشكال

مكانية وزمانيـة .. فى تنظيمات انسانية محددة .

الى هنا والاسلام لا يحتم دولة ثيوقراطية فالخليفة أو القائد لايدعى هنا بأنه يستمد سلطته المطلقة مـن الله ، وانما هو حاكم دنيوى ينفـذ قوانين لها طابعها الدنيوى الصرف بصرف النظر عن مصدر تشريعها. وهو ـ أى الحـاكم ـ فى نفس الوقت خاضع لرقابة المحـكومين أنفسهم اذا هو حاد عن تنفيذ هذه القوانين جانحا الى هواه الخالص أو ارادته المطلقة .. والخليفـة عمر ابن الخطاب قد حث المسلمين فى خطبه أن يقوموه اذا أخطأ أو حاد. والقداسة الالهية انما هى للقوانين لا للحاكم الذى لا يعدو أن يكون بشرا عاديا لا ميزة له ولا خاصية سـوى امكانياته الشخصية البحتة التى جعلت منه كفئا لقيادة الجماعة .. وهذه الامكانيات شـخصية مكتسبـة وليست ممنوحـة أو موهوبة .. ولهذا أصر الاسلام على ألا يجعـل صـلة من أى نوع بين المسلم وربه فشعائر العبادات انمـا يؤديها الفرد لربـه بلا واسطة أو رقيب أو دافع سوى ضميره ورغبته الخالصة . والحاكم ليس له حق التدخل فى افعال الفرد الا ما كان منها له صـلة بعلاقـة هذا الفرد وجماعته ..

والاسلام قـدر عنايته بالفـرد الانسانى اعتنى أيضا بالجماعـة الانسانية فارتباط الانسان بجماعته يهيىء للحيوات الفردية وضعـا اجتماعيا هو نوع من الاخوة يشعر معها الفرد بتزايد فى القوة والامن، ويخلق عنده مجالا للوعى الجماعى المشترك .. وهذه الاخوة وهـذا الوعى ينتج عنهما نوع من الترابط الانسانى يتجاوز حدود الوطـن المحلى او الجنس المحدود .

ومن هنا كانت الامة او الجماعة التى يريدها الاسلام ذات طابـع متحرك ومن شأن حركتها ان تكون مثابرة لا تكل نحو خلق مجتمـع عالمى أو حركة نامية لا يقف لهـا نمو قبل أن تشمل العالم جميعـه فينتظم فيها سكانه بأجمعهـم ينظم شئون حياتهم قانون دائم الصلاحية .. قانون لا يعرف حـدودا فى الزمان او المكان.. قانون دولى.. عام .

منزلة السنة فى التشريع ..
والرّد على مفتريات ضدها

فضيلة الشيخ حسينى عرابى عطوة

الصراع بين الحق والباطل قديم ورهيب ، والذى يمثل الحق هو الاسلام دون سواه ، لذلك نجد المذاهب الالحادية واللادينية تجمعت ضده ، ولما يئست الشيوعية الآن من مواجهة الاسلام مواجهة علنية ، لبس الشيوعيون ثوب المسلمين ، وقالوا : لا مانع من أن يكون المسلم شيوعيا ، وأخذوا يثيرون الشبه ضد الاسلام بلسان المسلمين ، فمنهم من يتباكى على الدعوة ويحمل رجالها أوزار الانحرافات الفكرية المتطرفة ، وهم الذين خلقوها ودبروها وتولوا كبرها .

ومنهم المشكك فى الأخذ بالسنة والاحتجاج بها .

ومنهم من يتحدى مرويات أبى هريرة .

ومنهم من يقول فى القرآن برأيه .

ومنهم من يريد نقض قانون الله سبحانه فى الميراث .

ومن المسلمين المتحمسين من سايرهم فى توجيه اتهامات التقصير للعلماء .. أمشاج وأخلاط .. اتحدت أصواتهم فى الهدم واختلفت فى العلاج والبناء !

لذلك كان لزاما علينا أن ندافع عن السنة باعتبارها مصدر التشريع الثانى بعد القرآن الكريم ، ومن هذا المنطلق نحصر الكلام عن السنة ـ على تعدد مناحيه ـ فى هذه الاتجاهات :

تعريفها ، وحجيتها فى التشريع ، ومقامها منه ، وعلاقتها بالقرآن الكريم .

تعريف السنة : السنة فى اللغة. الطريقةحسنةكانت أو سيئة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليهوزرها ووزر منعمل بها الى يوم القيامة » .

وقد تطلق على ما يقابل البدعة. وهو المشروع مطلقا سواء كانذلك بكتاب أو أثر .

والمراد بها فى بحثنا هذا ما نسب الى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير .

الاحتجاج بها فى التشريع

مما لا شك فيه ــ ويحمل معه اليقين كل اليقين ــ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو المرجع المعصوم عن الخطأ فى الفقه فى كتاب الله عز وجل ، والوقوف على حقائقه ، وبيان مجمله ، وتوضيح مشكله ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وقد أعطاه الله سبحانه تلك الصلاحيات بالنبوة والعصمة وعدم اقراره على الخطأ فى دين الله سبحانه بقوله : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » الآية ٤٤ من سورة النحل .

وأمر الأمة بالرضوخ لأمره ، وعدم التمرد على قيادته ، وحذر من ذلك فقال : « وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » الآية ٧ من سورة الحشر .

وجعل طاعته صلى الله عليه وسلم عينا لطاعة الله عز وجل ، فقال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . الآية ٨٠ من سورة النساء . بل جعل له طاعة علىسبيل الاستقلال فقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . الآية ٩٢ من سورة المائدة .

وقال سبحانه :« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . الآية ٦٣ من سورة النور

فقد دلت هذه الآيات ــ وغيرها فى القرآن كثير ــ على مقام السنة فى التشريع ، وحجيتها ، ووجوب الرجوع اليها واعتبارها ، وأولئك الفضلاء من أولى العلم .. الذين يحثون على ذلك ، انما يستشعرون تمسكهم بها كالتمسك بكتاب الله عز وجل ، ويعتبرون عملهم بها عملا بكتاب الله سبحانه ، وتعطيلهم لها تعطيلا لكتاب الله جل وعلا .

وقد نبه القرآن الكريم على أن اتباع السنة مرقاة لبلوغ حب الله جل جلاله ، ومحقق لمغفرة الذنب ، فقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (الآية ٣١ من سورة آل عمران) .

بل جعل القرآن الكريم رفع الصوت على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى سبيل التوسع بمايشمل التمرد على كتابه وعدم الاذعان لأمره .. محبطا للعمل ، موبقا فى الاثم ، فقال: « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » الآية ٢ من سورة الحجرات .

وأفاضل الأئمة وكبار العلماء ــ فى سائر العهود ــ تمسكوا بالسنة ، لأنهم عرفوا وآمنوا بأن التمسك بها هو تمسك بكتاب الله والعمل بها انما هو عمل بكتاب الله عز وجل .

قيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا الا بالقرآن ؟

فقال : والله لا نبغى بالقرآن بدلا ، ولكنا نريد من هو أعلم منا بالقرآن ــ يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد ذكر عبد الله بن مسعود .. حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الواشمات والمستوشحات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله » .

فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ،

فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ؟

فقال : وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله ؟

فقالت المرأة : « لقد قرأت مابين لوحى المصحف ، فما وجدته » .

فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وروى أن طاووسا : كان يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال له ابن عباس : اتركها ؟

فقال : انما نهى عنهما أن تتخذا سنة .

فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجر ؟ لأن الله تعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

والسنة .. هى التى جاءت مبينة لما أجمل من الأحكام فى الكتاب : كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والطهارات والذبائح ، والانكحة .. وما يتعلق بها من الطلاق ، والظهار ، واللعان ، وغير ذلك .

وهو داخل تحت قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك ، فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يصدر عنه من قول ، أو فعل ، أو تقرير .. الا مبلغا عن الوحى ، خصوصا فى كل أمر يتصل بالدين ، حتى ولو كان فى دائرة الأخلاق ، أو الاجتماع « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

بل ان الأوزاعى قال : الكتاب أحوج الى السنة ، من السنة الى الكتاب ، وذلك لأنها تبين المراد منه .. ولكنى أقول بأن قصد الأوزاعى من حاجة الكتاب الى السنة انما هو الشرح والبيان فحسب ، لأن المثل الأعلى لله دون سواه ، ولولا الكتاب لما كانت السنة .

وقصارى القول وأحمده أن حجية السنة من ضروريات الدين التى أجمع عليها المسلمون ونطق بها القرآن .

مقام السنة فى التشريع : ومقام السنة فى التشريع لا يتجاوز أن يكون فى المرتبة الثانية بعد كتاب الله عز وجل ، وذلك نظرا لأن ثبوت الحكم بالكتاب قطعى ، وثبوته بالسنة فى جملته ظنى ، الا اذا كانت سنة متواترة ، او مايبلغ درجة المتواتر من المشهور على رأى علماء الأحناف .. ومع ذلك فهى بعد القرآن دائما وأبدا ، ويشهد لذلك الأخبار والآثار .

ففى حديث معاذ بن جبل : بم تحكم ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فان لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله .»

وعن عمر بن الخطاب .. أنه كتب الى شريح القاضى ،« انظر ما تبين لك من كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومثل هذا كثير فى كلام السلف والعلماء ــ وما فرق به الأحناف بين الفرض والواجب فى مذهبهم مبنى على تقدم الكتاب على السنة .

علاقة السنة بالقرآن : تقدم الصلة بين السنة والقرآن على أمور :

١ ــ أنها تأتى موافقة للكتاب فتكون جارية مجرى التأكيد .

ومن ذلك مثلا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفسه » فانه يوافق

قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى النساء ، فانهن عوان عندكم أخذتموهن بامانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» .. فهو جار مجرى التأكيد لقوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف» .

وقوله تعالى : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

٢ ــ أنها مبينة للكتاب فتفصل المجمل ، كالأحاديث الواردة فى الطهارة والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والذبائح ، والأنكحة .. وما يتعلق بها من الطلاق .. الخ .

وتوضح المشكل كتفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (الآية ١٨٧ من سورة البقرة) بأنه بياض النهار ، وسواد الليل .

وتخصص العام : وذلك مثل تفسيره صلى الله عليه وسلم للظلم فى قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الآية ٨٢ من سورة الانعام .

فعمم بعض الصحابة فى مفهوم الظلم ، وقالوا : « وأينا لم يظلم ؟ » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس بذاك ، وانما هو الشرك » .

وتقيد المطلق : كبيان المقصود من « اليد » فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (الآية ٣٨ من سورة المائدة) حيث بينت السنة بأن المراد : اليد اليمنى ، وأن القطع من الكوع ، وأن المسروق نصاب فأكثر من حرز مثله .

٣ ــ دلالتها على حكم سكت عنه القرآن : وذلك كحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» .

فان الوارد فى القرآن الكريم حرمة الأم التى أرضعت ، والأخت من الرضاعة فحسب ، فجاءت السنة وألحقت بهما سائر القرابات من الرضاعة ، كالقرابات المحرمات من النسب .. ثم ألحقت بالاناث الذكور ، لان اللبن للفحل ، فاذا كانت المرأة بالرضاع أما فالذى له اللبن أب .

ومثل ذلك بيان السنة لبقية العصبة التى سكت عنها القرآنفى الميراث ، فذكر الله الفرائض مقدرة لأهلها ،ولم يذكر ميراث العصبة الا فيما أشار اليه بقوله فىالأبوين « فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

وبقوله فى الأولاد : « للذكر مثل حظ الانثيين » .

وبقوله فى آية الكلالة : « وهو يرثها ــ أى أخوها ــ ان لم يكن لها ولد » .

وبقوله فى سائر الاخوة العصبة « وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » .

وبقى بعد ذلك من كان من العصبة غير هؤلاء المذكورين ، كالجد ، والعم ، وابن العم ، وابن الأخ وأشباههم فبينته السنة :

فقال صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى عصبة ذكر » فشمل هذا ما بقى مما يحتداج اليه ، بعد ما نبه القرآن الكريم على أصله .

٣ ــ انها ترد ناسخة لحكم ثبت بالكتاب .. كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » فانه نسخ آية الوصية للوالدين والأقربين الواردة فى سورةالبقرة « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت انترك خيرا الوصيةللوالدين والأقربين بالمعروف حقاعلىالمتقين» الآية ١٨٠من سورة البقرة .

وكقوله صلى الله عليه وسلم : « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » نسخ آية سورة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى

البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » الآية ١٥ من سورة النساء .

وهذا رأى الأحناف الذين يقولون بأن الزيادة على الكتاب من قبيل النسخ .

واعترض على ذلك الامام الشافعى ، كما هو معروف فى كتب الأصول ولسنا فى حاجة الى بسطه .

وانه مما ينبغى أن يعلم بأن السنة ليست مستقلة فى التشريع عن القرآن الكريم استقلال الشىء المباين لغيره ، لأن كتاب الله لم يترك صغيرة ولا كبيرة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » الآية ٢ من سورة المائدة .

ولكن ارتباطها بالقرآن ارتباط الشرح بالمشروح ، ومع كل هذا فلا يغيب عن أذهان العقلاء دورها الخطير ذو البال فى الاسلام ، اذ أنه ثبت بها على سبيل الاستقلال فى التشريع داخل الدائرة العامة للقرآن الكريم ، ومقاصده : أحكام لم ينص عليها فى القرآن ، ما كان لنا أن نكتشفها ، لولا نور الرسالة وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما مر فى الأمثلة السابقة .

وان هؤلاء الذين يتطاولون على السنة اليوم : فهم المقلدون لاخوانهم الذين ضلوا من قبل ، وهذا كله لا يحدث الا ابان المحن ، وانصراف الأمة عن دينها ، واشتغالها بما يزعج الرأى العام ، ويشيع الفرقة بين المسلمين ، وفى زمن كهذا تمتحن فيه الأمة بالشدائد ، يطفو على السطح غثاء الفكر ، وزبد الرأى ، وأعداء الاسلام فى كل عصر يستغلون تلك الظروف القاتلة .

فقد استغلها فى القديم الرافضة ، والجهمية ، والخوارج ، فى مخالفة أهل الاجماع ، فالروافض ردوا حيث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » بعموم

(١) الآية ٣٨ من سورة المائدة

قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الاثنيين » الآية ١١ من سورة النساء .

وأنكر الجهمية أحاديث الصفات بقوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

ورد الخوارج أحاديث الشفاعة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

وكذلك ردوا الأحاديث الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بما فهموا من آيات الوعيد فى القرآن .

واستغل الشيوعيون والالحاديون عزل الشعب عن دينه ، وأنشأوا لهم مدارس قامت على ما يسمى بالفكر الاشتراكى ، ولما وجدوا الشعب حريصا على دينه ، ولن يقبل التحول عنه ، ادعوا بأن الشيوعية لا تتعارض مع الاسلام ، وسمحوا لأنفسهم باعلان ذلك الشعار ، ووجدوا وراءهم من النابتة المسممة للفكر من يتجاوب مع أصدائهم ، ولما رأوا المعقل حصينا أظهروا الاسلام مع استبطانهم للكفر شأن اخوانهم فى كل زمن ، وأخذوا يشككون فى حقائق الاسلام .

فأول ما اتجهوا اليه ارادة حصر الاسلام فى القرآن ، ومعنى ذلك الاطاحة بالجانب العملى للاسلام الذى بينته السنة ، ولا يخفف من الخطر احتواء القرآن للسنة ولكنه احتواء على سبيل الاجمال وقد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم اما بوحى ، أو اجتهاد ، لا يقره الله فيه على الخطأ ، وبهذا الذى تظاهروا على المضى فيه يتحول الاسلام الى دين متجمد يفقد الحركة ولا يقوى على الصمود ، وكل شىء ثبت بالسنة ينسى بالهجر والترك .

فمثلا : لا يحرم الزواج بالرضاع ، الا بما قال القرآن الكريم فقط

ـ بتحريمه : من الأم ، والأخت ، وما ثبت بالسنة ينقض ولا يعمل به ، ويجمع فى الزواج بين البنت وخالتها وبنتها ، وبين عمتها ، لأن حرمة ذلك ثبتت بالسنة ـ فى رأيهم ولم تثبت بالقرآن .. وهكذا حتى تفقد معظم أحكام الاسلام من وراء ذلك الاتجاه الخطير !!

والليالى من الزمان حبالى
مثقلات يلدن كل عجيبه

فلما وجدوا المقاومة عنيفة والصمود قويا أخذوا يشككون فى ميراث الامة من السنة النبوية المطهرة وقالوا : بأن أكثر الاحاديث آحادية وهم يدورون حول قصدهم الاول باسلوب آخر .

وأحادية أكثر الحديث ـ كما يقولون ـ لا تبرر ترك السنة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتفى فى امور دينية مهمة برجل واحد .

وقد عقد البخارى فى أواخر صحيحة بابا خاصا ذكر فيه بضع حوادث مهمة كالأذان ، وتغيير القبلة ، والصوم ، والفرائض ، والأحكام ـ وكلها قائمة على خبر الرجل الواحد .

والمعول عليه ، فى صاحب الخبر الواحد: ورعه ، وحفظه ، ودقة ضبطه ، وأمانته .

وليس كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعهم ، ومن كانوا لهم تبع ، فقد مدحهم الله سبحانه فى كتابه ، وشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ، والايمان !

ومن مقولاته فيهم : « الله الله فى أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، ولا تتخذوهم غرضا من بعدى ،فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » البخارى.

وفى نفس القصد الخبيث الذى يحمل الضراوة على السنة ..طعنوا فى مرويات أبى هريرة رضى الله عنه متعللين بكثرتها مع تأخر اسلامه ،

منكرين فضل الله على من يشاء من عباده !

وقد أقنع أبو هريرة بروايته المعاصرين له ، الذين كانت غيرتهم على الدين ، خالصة لله تريد البناء ، والمجد للاسلام ، فقال فيما يرويه البخارى : « انكم تقولون : انأبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،وتقولون : ما بال المهاجرين والانصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبى هريرة وان اخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتى من الانصار عمل أموالهم، وكنت امرءا مسكينا من مساكين الصفة أعى حين ينسون !

« وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه : لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى ، ثم يجمع اليه ثوبه ، الا وعى ما أقول، فبسطت ثوبى حتى اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته جمعتها الى صدرى فما نسيت من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك من شىء » رواه البخارى ــ وهو يدل على قوة حفظه ، وتفرغه ، وأن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم شملته بخير اختص به .

وفى نفس عدواتهم للسنة بأسلوب آخر ، وهو تأخر تدوينها الى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخذوا من نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة فى بدء نزول الوحى حتى لا تختلط بالقرآن ، وتناسوا أنه صرح لهم بالكتابة حال حياته ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ بعد أن وعت القرآن الكريم صدورهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، وتربت عندهم الملكة التى يفرقون بها بين القرآن وغيره !

ولغوا وأكثروا من الهذيان وتمسكوا بما رواه الامام مسلم فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى

غير القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن : فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج » .

والتحقيق فى هذا الأمر .. بأن النهى عن كتابة الحديث كان فى أول نزول القرآن خوفا من اختلاط السنة بالقرآن ، وبعد أن ألف الصحابة أسلوب القرآن ووعته صدورهم وتربت عندهم ملكة التمييز بين القرآن وغيره ، صرح لهم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بكتابة الحديث .

وليس بخاف على أحدأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا فى حفظهم أوعى ممن يكتب ويسجل ، وكم من ضرير لا يبصر ولكنه يسمع ويحفظ ويضبط ويؤتمن على الرواية أكثر من مئات المبصرين ، وقد قال تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » الآية ٤٦ من سورة الحج .

فوق هذا فقد اختصهم الله بمواهب حفظ بها الاسلام بحفظ كتابه ، ورعاية سنة نبيه ، الشارحة له ، ومع ذلك فقد صرح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لهم بالكتابة فى الوقت المناسب ، وحال حياته المباركة فقد روى الامام احمد بقوله :

« حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله ابن الأخنس أخبرنا الوليد بن عبد لله بن يوسف بن ماهك عن عبد الله ابن عمرو قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، فقالوا : انك تكتب كل شىء تسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب ، والرضا ، فأمسكت عن الكتابة ، وذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى الا حق » المسند ج ٢ ص ١٦٢ ورجاله رجال الصحيح عدا الوليد ابن عبد الله ، وقد نقل الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب ص ١٣٩

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج

فيه عن ابن معيـــن قال : ثقة ، وذكره ابن حيان فى الثقات .

وقد تكررت الأحاديث فى هـذا المعنى فى المسند ، والمستدرك على الصحيحين من طريق ابن وهب .

وقد كان الصحابة ــ رضـوان الله عليهم ــ يكتبون لبعضهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولأنفسهم فكان للامام على صحيفة يقيد بها السنة .

وكذلك لعبد الله بن عمرو بـن العـاص وكان يسمى صحيفتـه : بالصادقة ، وقد شهد له أبو هريرة : بأنـه من المكثـرين فى الحفظ والـرواية ، وبأنه كان يكتـب الحديث وهو ما كان يكتب .

وقد كتب المغيـرة بن شعبـة حديثا لمعاوية بناء على طلبه .

وكذلك كتبت السيدة عائشـة له بناء على طلبه .

ولولا اجازة رسول الله صـلى الله عليه وسلم بكتابة حديثه بعد النهى الذى نسـخ بالاجازة بعـد زوال العلة التى من أجلهـا كان النهى ــ لولا ذلك لما قيدوا ، ولما كتبوا لأنفسهم ، أو لبعضهـم .. وكثير من الصحابة كانت لهـم صحائف تضـم ما يسـمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديث ، كصحيفة جابر بن عبـد الله وسمرة بن جندب ، وكتب ابن عباس لابن أبى مليكة .

وبذلك يبطل مدعاهم بأن الحديث لم يدون فى القرن الأول ، اذ من المعلوم بـأن ابن عبـاس توفى سنة ٦٨ هـ .

وتوفى المغيرة بن شعبة سنـة ٥٠ هـ .

وتوفى معاوية سنة ٦٠ هـ .

وتوفيت أم المؤمنين عائشة سنة ٥٧ هـ .

وقد شرح الله سبحانه صـدر عمر بن عبد العزيز لجمـع حديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم وذلك على رأس المائة فكتب الى أبى بكر بن محمد عامله وقاضيـه على المدينة : « انظر ما كان مـن حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم فاكتبـه فانى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء .. » وكذلك

كتب الى عماله فى امهات المدن الاسلامية •

وهذا العمل كان قاعدة صلبة ونواة طيبة لجمع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أكابر علماء القرن الثانى وبنوا عليه ، فنبغ منهم امام دار الهجرة مالك رحمه الله ، وحماد بالبصرة، وسفيان بالكوفة ، والأوزاعى بالشام ومعمر باليمن ، وابن المبارك بخراسان •

ثم جاء القرن الثالث فولد معه الشىء الجديد ، وهو التخصص فى فنون الحديث ، والاشتغال بدراسة رجاله ، وكشف صحيحه من سقيمه ، نبغ منهم : البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ••

وهذا القرن يعتبر أكثر القرون عطاء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه ظهر كبار المحدثين وجهابذة المؤلفين وحذاق النقاد وفيه أشرقت شموس الكتب الستة التى جمعت صحيح الحديث ، ولم يفلت منها الا النزر اليسير ، وهى المصادر المأمونة للمستنبطين ، لا تقاربها شبهة ، ولا تلف بها بدعة ، وعلى ضوئها يؤمن العثار ويتوقى الزلل •

ومن هنا تتهاوى تلك الشبه ، وتنجاب هذه الغيوم، ويتضح الحق فى مقام السنة من التشريع الاسلامى •

وصدق الله سبحانه اذ يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » الآية ١٨ من سورة الحج •

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « يوشك رجل منكم وهو متكىء على أريكته يحدث بحديث عنى ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وان ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله » • رواه الحاكم فى المستدرك عن المقدام بن معد يكرب •

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •

حسينى عرابى عطوة

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

وقد بدت وجهات نظر حول بعض طرق « الثنائية » من المحدثين المؤيدين لها ، فأحدثت اعتراضات وجدلا :

* فأكثر الألفاظ الثنائية يرجع ـ عند الشيخ العلايلى ـ الى المعلات ، اذ يرى المعلات من بقايا العصور السحيقة ، ولذا لم تخضع للوضع النظامى ، فكانت وليدة فوضى الوضع القديم ، قبل الوضع الثابت ، وهى بذلك بداية فى دور النضج اللغوى كما جاء فى (مقدمته) .

ولذا فالشيخ يدعونا الى اتخاذ هذه المعلات المحفوظة فى المعاجم المختلفة عدة لفهم الثلاثى على وجهه الصحيح ، لأنه الأصل التاريخى الذى انفصل عنه ، يقول : « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف ـ حروف الجدول الهجائى الذى سبق ذكره ـ بأصواتها حين كانت لغة ، على شىء من الافتراض المقلوب وسبيل هذا التعيين المعلات مطلقا ، وبالاخص منها اللفيف فى العربية ، سواء أكان لفيفا مقرونا أو مفروقا .

وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد ، وانما بأن ننتقل منها بالمقارنة الى ماهو الأدخل فى تفكير الساذجين واعتباراتهم » (١) .

واذا لاحظنا العلاقة البينة بين المعتل والمضاعف ، والمضعف الرباعى والمهموز ، فى مثل : (عبى ، عب ،

١) المقدمة للشيخ العلايلى ١٣٠

عبعب ، عبأ) تأكد لنا أيضا صحة ما يراه الشيخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين يرى أن « اعتبار المعقل ثنائيا اتجاه سليم من الناحية الصوتية » (٢) .

وحين قال الشيخ العلايلى باتخاذ المعلات المختلفة عدة لفهم الثلاثى على وجهه الصحيح أدخل فى اعتباره الثلاثى الصحيح أيضا فاضطره ذلك الى التكلف .

فحين تتأمل وجهته فى مادة (عبل) . تجده جعلها متفرغة من (علا) المعتلة ، وأصلها (عل) أما الباء فهى عين الكلمة مكنوفة بالفاء واللام ، كانهما سياج لها فسلمت من الحذف ، مع أنها الحرف المحشو المزيد ، وبذل الحرف المعتل للعوارض حتى حذف : فكان حرف الباء الصحيح المحشو تعويضا عن حرف العلة الساقط المحذوف . ولو أسقطنا حرف الباء المزيد قياسا على سقوط الحرف المعتل لظهرت لنا الكلمة الثلاثية على صورتها الثنائية الحقيقية ، فاذا هى (عل) فقط .

فأى جامع يجمعها بعدهذا بهاتين المادتين الى الطريق الطبيعى ، لو أرجعنا (عبث) بحذف الباء وهو الحرف الوسط الى (عث) التى هى الثنائى المضعف والتى يكون معلتها (عثا) . وعلى رسلها تعود (عبد) الى (عد) والتى يكون معلتها (عدا) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا على طريقة الشيخ العلايلى هذه بقوله انها : « مبنية على التكلف لأن تطبيقها لا يتم الا بتجريد الحرف الوسط ، الذى هو الباء فى المثالين السابقين ثم تناول المادة وفيها المعلات التى وقع فيها الحرفان على ترتيبهما . مع أن تجريد مادة من حروف الوسط انما يكون بمنزلة الحذف والاسقاط لذلك الحرف المحشو ، فكيف يسلخ من بنية المادة جزء لا يتجزأ منها ، ثم تظل هذه

٢) فى التطور اللغوى ١٠٣

المادة معبرة دونه عن غرضها تعبيرا كاملا » (١) .

أضف الى ذلك أنه سيترتب على قول الشيخ العلايلى هذا : «عكس ما ذهب اليه النحاة والصرفيون القدماء : من أن هذه الأفعال المعتلة ترجع فى الأصل الى بنية ثلاثية ، سواء أكانت معتلة العين أو اللام فكلمة (قام) من (قوم) ، وكلمة (باع) من (بيع) ، وكلمة (دعا) من (دعو) وكلمة (سعى) من (سعى) ، كما أن الفعل (وعد) ثلاثى لفظا وتقديرا ! » .

كما أننا نلاحظ « ما فى رأى الشيخ من نظرة وصفية يختلف بها عن منطق النحاة التعليمى المعيار ، فقد أرادوا طرد أوزان الأفعال على وتيرة واحدة : توزن بميزان واحد هو (فعل) فحملوا المعتل على الصحيح ، وبنوا مذهبهم على أساس (الخط العربى) الذى يشير الى الصوت الطويل برمز أصلى مستقل : دون الصوت القصير . كما يخلط بين صوتى الواو اللينة والمدية ، فيشير اليهما برمز واحد، فى مثل (وعد ، ويقوم) ، وكذلك الياء فى مثل (يسر ، وقيل) ، فكل رمز فى الخط العربى يمثل عنصرا ذا اعتبار فى الأصالة أو الزيادة » (١) .

ولكن يعذر الشيخ العلايلى فى افتراض التصور ، لأن المرحلة قديمة ، وعز الدليل وندر الشاهد، ولذا لا مانع من أن تتجاوز عن الوهم القليل اذا أدى الى تصور مقبول يقوده خيال خصيب ، من عالم أريب ، وعقل واع حصيف .

ومن يطالع المقدمة للشيخ ، ويرى بصره بالعربية ، وثقافته المتنوعة ، يصدقه فيما يتصوره ويقتنع بما يقرره .

ومحاولته الفذة لوضع (معجم لغوى) بديع فائق ، تدل على أهليته لما يرى وتمكنه وجراءته ، وتشهد

١) فقه اللغة العربية . ابراهيم نجا ٨٦

١) فى التطور اللغوى ١٠٣

بصحة ما ذهبنا اليه فى براعتــه ، وتكفينا أدلته الاحتمالية لذلك .

* وللاستاذ جورجى زيدان ، وجهة نظر أخرى فى ارجاع الثلاثى الى ثنائى ، أثارت أيضا اعتراضا :

ذلك أنه اعتبر الثنائى ، هــو الأصل لجميع الكلمات ، كــرأى القائلين بذلك ، الا أنه انفــــرد بارجاع الثلاثى الى أصلين ثنائيين، وأخذ منهما على طــريق النحت ، مثلا : (قطف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى أصلين هما : (قط) المفيدة للقطــع و (لف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى المفيدة للجمع. فولدنا منهما بطريق النحت (قطف) المفيدة للمعنيين ، على طريق النحت باغفال اللام فى (لف) ونقل حركتها الى ما قبلها ، فصارت قطف .

وكذلك : (قمش) بمعنى جمــع ما على الأرض من فتات ، ترجــع لأصلين هما : (قم) بمعنى كنس، و (قش) بمعنى جمع ، وتولد من (قم قش) قمش ، بطريق النحت، بالغاء القــاف الوســطى بطــريق التخفيف (٢) .

والنحت قديم ، عرفته العرب : فنحتوا الرباعى مثــل : عبشم ، وبسمل ، ودمعز : من عبد شمس ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وأدام الله عزك .

كما نحتوا من الثلاثى (ضــبط وضبر) ضبطر ، بمعنى الرجــــل الشديد ، وصــلدم من (صلد ، وصدم) ... ففكرة النحت نجدها قديمة قدم لغتنــا ، فهو مســبوق بها ، ولا شك .

وقرر ابن فارس فى المقاييس : أن الرباعى والخماسى منحــوتان دائمــا ، مثل : (بحثرى) بمعنى بدد ، مأخوذ من أصلين : (بحث) عن الشىء ، و (البثر) وهو مايظهر على البدن . ولكن جورجى زيدان جعل النحت فى الثلاثى والثنــائى أيضا ، وذلك فضلا عن أنه مجاف لوجهة نظر الاقدمية ، فانه أيضــا

٢) الفلسفة اللغــوية ٦٢

لا يطرد فى مواد كثيرة ، فحكمه غير مبنى على استقراء واسع ، كما ذكر الدكتور ابراهيم نجا ، حين نقده بقوله :

« وما ذكره جورجى زيدان فى ارجاع الكلمة الى أصلين ثنائيين : انكان لكل منهما معنى فى نفسه، واذا لم يتحقق ذلك .. فلا يخلو الأمر من أن يكون لأحد الأصلين معنى فى نفسه أولا : فان كان الأصل الذى له المعنى فى نفسه هو الامر فعلا ، وكان الحرف المضاف الى ذلك الأصل زيد اعتباطا — وغالبا ما يكون أحد هذه الأحرف (ل . م . ن . ر) — وأضيف للمبالغة ، أو تنويع الفعل بما يطابق قصده ، نحو : فض ، رفض ، وهب ، لهب . واذا لم يكن لأحد الأصلين معنى فى نفسه بألا يكون اسما ولا فعلا ، فلا يخلو من أن يكون حرفا فى غالب الأمر، وقد يكون اسما مفتقرا الى غيره ، أو كان فعلا فى الأصل ولم يعد مميزا الآن .

وتطبيقا على ذلك ، قالوا : ان كلمة (مال) بمعنى مقتضيات مركبة من (ما) الموصولة ولام الجر ، وحذف المجرور . وأصله : (مالى) أى الذى لى ، أو (مالك) أى الذى لك . وكذلك كلمة (ويل) أصلها (وى) ، و (لى) .وبهذا الأسلوب رأى فريق من اللغويين : أن ليس مركبة من (لا) النافية ، و (أيس) الدالة على الكون المطلق فى بعض اللغات السامية ... (١)

وما رآه جورجى زيدان فى هذا الصدد ، هو جزء من القضايا الخمس التى صدر بها كتابه . نذكرها لعلاقتها الوثيقة بما نحن بصدده وهى :

١ — أن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هى تنوعات لفظ واحد .

٢ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها (يقصد الادوات) انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

٣ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على

١) فقه اللغة العربية دكتور نجا ٨٧ ، ٨٨

معنى فى نفسهـــا يرد معظمهـا بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية •

٤ ــ وأن جميع الألفاظ المطلقة ترد قابلة للرد (بالاستقراء) الى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ •

٥ ــ وأن ما يستعمـل للدلالة المعنوية من ألفاظ ، وضع أصـلا للدلالة الحسية ، ثم حمل على المجاز لتشابه فى الصور الذهنية » •

وهو يرمى من ذلك الى اثبات : « ان لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عدا أحـادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التى ينطق بها الانسـان غريزيا » (١) •

واذا أسرف جورجى زيدان فى القول بالنحت أى نحت الثـلاثى من ثنائيين على رأى البعض فهو خير ــ فى نظـرى ــ من الذين يردون النحت فى لغتنا ، أو يقللون منه الى النذر اليسير والندرة :

فالأب مرمرجى لا يوافـق على اتصاف الحروف المنفصلة بمعـان خاصة طبيعية ، ولا بالأحادية ولا بالنحتية فى العـربية ، أى نحت الثلاثى من ثنائيين ، تبعا لزعم بعض الاقدمين بأن الرباعى منحوت من ثلاثيين (٢) •

والأستاذ أنيس فريحـة ، يرى أن « النحت قليل جدا فى لغتنا ، مثل (ماهية ، ومال) يقول : والوهم أن تظن أن (حوقل) وأشباهها منحـوتة ، وانمـا هى مختصرات العبارات وجمل ليست كتابا بالمعنى اللغوى • ويعترف بالنحت فى لغات أخرى ، ويمثل بكلمة (بيولوجيا) المأخـوذة مـن BIOS بمعنى الحيـاة ، و LOGOS بمعنى الكلمة أو العلم •

وكلمة (تلسكوب) المأخـوذة من كلمتى TELE بمعنى البعد

١) الفلسفة اللغـوية ٣٣

٢) معجميات عربيـة سامية ١٠٣

والمسافة و SCOPE أى مـــدى الرؤية •

ويضيف بأن الجذور العربيـة تأبى النحت ، لأنك اذا حذفت حرفا من الحـروف الاصـلية أفسـدت المعنى •

واذا وفق بعضهم لنحت (برمائى) للحيـوان الـذى يعيش فى المـاء واليابسة و(مدرحية) لتفسيـر التاريخ على أسس مادية وروحية • فليس معنى هذا اننا نسـتطيع أن نستفيد من هذه الخاصية اللغوية » (١) • هذا ما ارتآه الأستاذ أنيس فريحة •

ووجهـة نظـر الأب مـرمرجى الدومنكى (٢) فى رد النحت أننا اذا قلنا : « ان طائفة من الثلاثيات ممكن صدورها عن ثنائيين أوثلاثة، حسب اختلاف مداليلها ، فلا نعنى بذلك أنهـا مركبـة من ثنـائيين منحوتين ، بل انها نتيجة لزيادتين أو ثلاث : الواحدة جرت بالتتويج، والثانيـة بالاقحـام ، والأخيرة بالتذييل ، مثلا :

الثنائى (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) : بمعنى الزجر •

والثنائى (هر) توج بالنون ، فصدر عنه (نهـر) بمـدلول جرى •

والثنائى (نر) اقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بفحـوى أنـار وأضاء •

وكذا القول فى الأضداد ، مثلا (طلع) يدل على الظهور والغياب ، فهو على رأينا ــ ليس بمنحوت من (طل) و (طع) ، بل ان الثنائى (طل) ذيل بالعين ، فصدر عنـه (طلع) بمعنى ظهر •

والثنائى (طع) اقحم فيه اللام، فنجم عنه (طلع) بمدلول اطمأن ونزل والغياب ضرب من النـزول والاطمئنان •

فهو لا يرى النحت فى أمثـال

١) تطريات فى اللغة ٧١ ، ٧٢

٢) راجع المعجميـة العربية فى ضـوء الثنـائية والالسنية السامية لمرمرجى ١٣٥ ــ ١٤١

هذه ، ولكن جاء الاكتناز تابعا لاختلاف المداليل ، كما رأينا بزيادة الحروف .

ورأيى أن هذا القول على طلاوته ، يحرم العربية من منفذ من منافذ تنميتها الذاتية ، اذ أن النحت أو الاشتقاق الكبار — كما سماه بعضهم — صنو الاشتقاق بألوانه ، وهو باب عظيم فى تنمية اللغة ، و « ديناميكيتها » فى الزيادة والتوليد والنماء .

والقول بندرة النحت ، أو الغائه كلية من لغتنا قول فج ، لا يستند الى أساس علمى مدروس ، بل اعتبره — أنا بعد بحث ودراسة — من خواص لغتنا وميزة لها فى الثروة اللغوية كطريق من طرق الاشتقاق ، كما سماه بعضهم بالاشتقاق (الكبار) . ولا تقتصر أمثلته على الستين أو السبعين لفظة — وهى مع ذلك ليست بالقليلة — التى وعتها بعض كتب الأدب واللغة ، بل هو أكثر من ذلك وأوسع ، لو عالجنا بابه معالجة فهم واستثمار . وقد وضع فيه الأستاذ (اسماعيل مظهر) رسالة قيمة ، حاول فيها جعل أسسه وطرقه معبدة وسلسلة كأنها قواعد وجداول رياضية .

وليس هذا مجال الافاضة أو الشرح فى هذا الجانب .

ولكنا نقول : بأن محاولة الأستاذ جورجى زيدان ورأيه فى النحت ، أضاف على الأقل — سندا جديدا ، ورصيدا يضاف الى أدلة وأسانيد « الثنائية » .

وحسبه ما ذكر من أمثلة واجتهاد توضح جانبا من جوانب الرس والأصل اللغوى عند وضعه الأول، أو عند اشتقاقه بعد ذلك .

* أما مزاول الثنائية والألسنية السامية : الأب مرمرجى الدومنكى، فيسلك فى تثبيت دعائم الثنائية مسلك الاستشهاد والمقارنة بين أخوات العربية من السامية الأم ، لمعرفته للغات عديدة (*) .

(*) يرى الأب مرمرجى — والحق فيما رآه — ان المشتغل باللغات =

فيطوف بالقارىء فى معانى المادة بين المعاجم العربية ، ويظهر اشتقاقاتها ومعانيها الحسية والمعنوية .. ثم يقارنها بمعانيها فى أخواتها السامية .

ثم ينسق ويعلل على كل ما سبق وذكره ، مبينا الرس الثنائى الذى تضمن الفكرة الأولية من المعانى التى وردت للمادة .

ثم يشير الى كيفية اشتقاق المعانى وقربها أو بعدها ، والحقيقى والمجازى منها .

ثم يأتى بأمثلة لما ثلث المادة التى معه ، ويبين عليها كل المراحل التى سبق ذكرها ، منسقا ومعللا ، ويخلص من كل ذلك الى أن الجذر الثنائى واحد ، تدورحوله المعانى ، ومنه أخذت ، وعليه جاء الحرف الزائد

فهو على سبيل المثال يذكر مادة (بر) بتشديد الراء ، ويرينا المعانى التى تؤخذ منها فى الاستعمالات والاشتقاقات ، كما جاء فى العربية وأخواتها من السامية :

فمادة « بر » فى العربية بمعنى : الصدق ، والرحمة ، والطاعة ، والرواج ، والقبول ، والقهر ، والصلح ، والصلة ، والتزكية ، والمضىء ، والرفعة ، والكثرة ، والغلبة ، وركوب البر ، والملاطفة ، والطاعة ، والتحرج ، والانفراد ، واسم من أسماء الله الحسنى ، واليابسة ، ومقابل البحر

وفى «السريانية » بر
ومن معانيها :بر ، صدق ، سذج ، بله ، غبى ..

وفى « العبرية »

والمقارنات لابد وأن يكون متضلعا فى لغتين أو أكثر ، مع معرفة فقهها وقواعدها ولهجاتها ، فضلا عن معرفة بعض الالسنة غير الساميةالتى لها علاقة بالعربية ، أو بغيرها من الاخوات السامية . وذكر أن مستسيما (من علماء السامية) المانيا هو () (١٦٢٤ ــ ١٧٠٤) كان اختصاصيا بارعا ، وكان يعرف خمسا وعشرين لغة .

ومن معانيها : نظف ، قسم ، اختار ، صقل ، فحص .

وفى « الحبشية » (BARARA) ومن معانيها : طهر ، صدق ، نفذ ، نزع ، سرق ...

وفى « الأكدية » (BARARU) ومن معانيها : أضاء ، لمع تلألأ ، فحص ، استفهم ...

وفى «الامهرية » ، و « القطرية» جاء الثنائى (بر) بمفهوم (قط ، وقد) كما فى المعجم الدثينى تأليف . (LANDBERG)

ثم يشير التنسيق والتعليل فيرى :

أن الفكرة الأولية الحسية المتضمنة فى الثنائى (بر) كما فى مجانسه (فر) هى فكرة : الشق والقطع ، والفصل ، والابعاد ، وهى كامنة أو ظاهرة فى بقية المعانى على اختلافها فى العربية وأخواتها : فمن القطع نظافة وصقل ، واختيار وفحص ، والفارغ منفصل عن غيره مما كان يملؤه ، والتافه فارغ من المحتوى الطيب ، والبلاهة حرمان من العقل . ومن النقاء المادى ينتقل الى النقاء الأدبى والروحى فى الفضائل ... وفى مزيد المادة واشتقاقاتها ، يرجع المعانى الأخرى الى الفكرة الأولى : فالبر (القمح) سمى بذلك لانفصاله عن تبنه .. والقمر يلمع على الدنيا نتيجة الصقل ، والصقل مكمل لعمل التنظيف والتنقية ...

وبمناسبة ذكر (فر) مقابل (بر) ذكر الأب مرمرجى : أن كلمة (فوريم) فى الأكدية (الأشورية والبابلية) بمعنى السهم ، أو القطعة من الأرض ، ويجوز أن يكون مشتقا من الرس الثنائى السامى ، وهو (فر ، أو بر) (١) .

وعلى نسق ما جاء فى (بر) والفكرة الأولية التى تضمنتها ، تأتى معانى المواد المكتنزة فى : (برأ) فى العربية ، و (BRA) فى السريانية ، و (BARA)

١) معجميات : عربية سامية ١٤ ـ ٣٤ بتصرف

فى العبرية ، و (BARU)

فى الأكدية ، و (هبرا) فى الفينيقية، و (برا) فى السبئية •

ومثل (برا) المواد : (برح) و (برد) (١) •

وبعد دراسة ومقارنة الاحصاءات والمراجع المتنوعة ، وفى شبه قياس منطقى يرى الأب مرمرجى : وفرة الاصول والرساس العربية ، وتفوقها عددا على أصول ورساس بقية الألسن السامية ، بل ولعلها أوفر ثروة من لغات العالم أجمع • وهذا قول يحتاج الى مؤازرة واستعانة ودراسة بالحاسب الالكترونى ، لتبيان الحقيقة •

كما يرى ان الاصول الموسومة بالثلاثية والرباعية المجردة ، هى بالحقيقة توسعات اشتقاقية لرساس الثنائية ، التى بها بدأت نشأة اللغة، وعنها صدرت جميع المشتقات على تضارب أنواعها :

فالرباعى — مع ما يدعيه الصرفيون من مجردتيها الرباعية — ترجع بسهولة الى ثلاثيات ، فهى — اذن — ثلاثية مزيدة (٢) •

أضف الى ذلك أن الثلاثيات المجردة الشاملة : (المثال ، والأجوف ، والناقص ، والمهموز ، والمضاعف ومكرره) هى بأجمعها قابلة للرد أيضا الى « الرس الثنائى » فيجدر — من ثم — طرحها من مجموع الأصول الثلاثية ، فيبقى السالم وحده ، وهو كذلك هين رد أغلبيته الى الثنائى ، مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما ، كما هى باقية بين الثلاثى والرباعى، وبين الثلاثى ومزيداته •

أما البقية الباقية البائن تعذر ردها من الثلاثى الى الثنائى ، فذلك يمكن عزوه الى ضياع الرساس الثنائية ، أو فقدان فحاويها الأولية، مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزايدات ، أو المشتقات التى بلغ عددها الثمانمئة أو أكثر ، كما جاء فى الاحصائيات •

١) السابق ١٤٤

٢) راجع : هل العربية منطقية لمرمرجى ١٤٥ — ١٥٠

فالرد الى « الرس الثنائى » هو الأصل عند الأب مرمرجى ، واذا لم يتمكن من ذلك يعزوه الى الفقد والضياع ، كما ضاعت تصاريف بعض الأفعال فى مثل (يدع ، يذر ، عسى ، ليس) ، أو أن الخفاء جاءمن خفاء المعنى الأصلى لسبب من أسباب الضياع والفقد .

ويرى طريق توسع الثنائيات ــ كما أسلفنا ــ بتكرارالحرف الثانى، أو بالتكرار والمد معا ، أو بزيادة التاء فى الآخر ، أو بالثلاثة مجتمعة .. وكل التوسعات المختلفةمتضمنة منطوق « الرس الثنائى » المشتقة منه ، وقد أحصى منها ثلاثمائة وسبعة وعشرين رسا (١) .

وعلى هذا النمط الذكى الواعى فى الضبط والتخريج ، يرد الأب مرمرجى المواد الكثيرة التى تناولها بالشرح والتأصيل ، الى رسها «الثنائى » ويشير الى معانيها التى تنوع اكتنازها ، وينبه على أصلها الذى تنتسب اليه فىفروع السامية، وأماكن تعاورها فى الاستعمال مما يدل على ذكاء وألمعية ، مكنه منهما ثقافته الواسعة والواعية .

وفى عجالة نسرد بعض أمثلة لمواد أشار الى رسها الثنائى (٢) :

مادة (بلد والبلدة) بمعنى أقام، من بلد ، أو لبد (بالقلب) مشتق من الثنائى « لب » .ومادة « لحن » من الثنائى (حن) .

ومادة (ملك والملاك) أصله (مل) بمعنى تكلم ، من باب الاطلاق ، وتوسع المعنى فوصل الكلام من باب التقيد .

أما مادة (ملك وملاك) بتخفيف (ملأك) من لأك أو ألك ، ومنه ألوكة وملأكة بمعنى رسول ورسالة فأصله الثنائى (أل) . بمعنى : أسرع .

ومادة (أدب) من دأب على سبيل القلب ، وأصله الثنائى (دب)

١) معجميات عربية سامية ٧٢ ــ ٨٠ بتصرف
٢) راجع معجميات عربية سامية

ومادة (الشعـــر) من الرس الثنائى (شع) اذا برز ، وانتشر ، وتفرق ، وأضاء .

ومادة (وثب) بمعنى قفز وقعد ــ على الضـد ــ من (ثب) . ومادة (ساعور) بمعنى النـار ، من (سع) دعاء للمعزى وتحريض لها للاقبال ، وتوسع فيه فى تسعير النار .

و (الأب » أصل سامى ، من الثنائى (أب) مأخوذة من ميـل الطبيعة للانبات والايلاد . ومبدله (أ م) ــ بين البـاء والميـم ــ وكلاهما يدل على الانـدفاع الى الافراع فى المواليد .و(حواريون) من (حر أو حار) اذا تحـــرك وسار .

و (الكاهن والكهنـوت) من (كه) وكهكه اذا تنفس . و(هيمن) عبـرية من (من) والمنـة ، اى القوة . و (الفاروق) سامية ، للذى يفصل بين الامور ، وأيضا الشديد الفزع ، من (فق) الدال على الانفراج والانفتاح .

هـذه أمثلـة سـقناها ، لمزاول الثنائية ، تدل على سعة أفقه فيمـا ينادى به ، وتمكنه فما ارتـآه . ومن شاء مزيـدا ، فليراجع ــ ان شاء ــ تآليفه العـديدة فى هـذا الجانب .

* ومع أن علماءنا العـرب القدامى ، ومعاجمنا العـربية لم تنص صراحة على القول بالأصول الثنـائية كنظرية ، الا أن صـنيعها فى التطبيق يشير الى ذلك ضمنا ، اذ تبين من تتبع كلامهم ــ كمـا أسلفنا ــ ومن النظر فى معاجمنـا الاصيلة ــ وجود علاقة بين فحوى المعنى العام للاصول الثنائية ،وبين الثلاثى المتفرع عن هذه الأصول ، مما يدل على أن « الثنائية » ترددت فى أذهانهم كنظرية ، ولمسـناها فى أقوالهم ومعاجمهم كتطبيق ..

وقد جمع الدكتور امين فاخـر بتتبع وجهد فائق أمثلة كثيرة لذلك فى كتابه : (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية ، وعلاقتها بالاصول

الثنائية) فى دراسة معجمية احصائية ، تؤكد ما ذهبنا اليه .

وهذه أمثلة قليلة تمثل غيضا من فيض ، مما جاء فى كتبهم وقواميسهم :

فمادة (عم) أصل ثنائى يدل على العلو والارتفاع . وفى « العين » للخليل بن أحمد : العميم : الطويل من النبات ، وبه قال ابن فارس(١) والجوهرى (٢) .

وفى الأصول الثلاثية لهذه المادة نجد المعنى :

ففى (عمد) بالدال رجل عمدان وعمدانى أى طويل قال أبو عبيدة : عمدت الشيء أقمته فهو معمود ، وقال تعالى : « ارم ذات العماد » اى الطول ، وجاء عند الجوهرى (٣) وابن فارس (٤) ما يؤيد ذلك .

وفى (عمر) بالراء ما يدل على العلو والارتفاع ، كما جاء فى الجمهرة (٥) .

وعمرك الله : دعاء بطول العمر . والعومرة : الصياح ، ومنه الاهلال بالعمرة كما ذكر ابن فارس (٦) والمعتمر أيضا : المعتم على رأسه .

وفى (عمق) بالقاف ، معنى الطول أحيانا : فقد ذكر ابن فارس (٧) عن ابن الأعرابى : العمق اذا كان صفة للطريق فهو البعد . واذا كان صفة للبئر فهو طول جرابها

وفى مادة (فص) بالفاء والصاد ، ما يدل على الفصل بين شيئين ، كما ذكر ابن فارس (٨) والفصوص : مفاصل العظام ، قال أبو عبيدة : الا الأصابع . وفص الجرح : سال . وقال : الجوهرى : فص الأمر : مفصله.. ومعنى الفصل هذا موجود فى ثلاثى هذه المادة :

١) المقاييس ١٥/٤
٢) الصحاح ١٦٣/٢
٣) الصحاح ١٥٦/٢
٤) المقاييس ١٣٩/٤
٥) الجمهرة ٣٨٧/٤
٦) المقاييس ١٤١/٤
٧) المقاييس ١١٤/١
٨) المقاييس ٤٤٠/٤

ففى (فصح) بالحاء ، معنى الانفصال ، يقال : فصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة ، كما ذكر الجوهرى (١) .

وفى (فصد) بالدال ، معنى الانفصال ، يقال : فصد العرق والناقة ، اذا قطع العرق ، فخرج دمه ، كما ذكره ابن دريد وغيره (٢) .

وفى (فصع) بالعين ، معنى خروج شىء عن شىء أيضا (٣) :وقال الجوهرى (٤) : فصعته من كذا تفصيعا ، أى أخرجته فانفصع .

وفى (فصل) باللام ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم، ومنه الفصيل اذا انفصل عن الناقة ومفاصل العظام .

وفى (فصم) بالميم ، وضوح معنى الفصل ،كما فى سائر المعاجم، فصم الشىء كسره من غير أن يبين وقال تعالى : « لا انفصام لها » .

وفى (فصى) بحرف العلة ، دلالة على الانفصال أيضا ، يقال : فصيت الشىء أفصيه فصيا ، اذ أبنته منه ، كما ذكر ابن دريد (٥) . وقال الجوهرى (٦) : تفصى الانسان اذا تخلص من الضيق والبلية ، وتفصيت من الديون اذا تخلصت منها ، وقال الجوهرى ايضا : افصم المطر ، أى أقلع (٧) . وأفصى المطر ، أى أقلع (٨) .

ومن العلماء من لم يرتض القول « بالثنائية » ، وراح يعترض على القائلين بها ، ولكل وجهة .

الحديث موصول

(الحديث موصول)

د. توفيق محمد شاهين

١) الصحاح ٢/٢٤٤
٢) الجمهرة ٢/٢٧٣
٣) المقاييس ٤/٥٠٧
٤) الصحاح ٢/٢٤٤
٥) الجمهرة ٣/٨٤
٦) الصحاح ٢/٢٤٧
٧) الصحاح و (فصم)
٨) الصحاح : (فصى)

المحدث الفقيه

الإمام الطحاوى رضى الله عنه

الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق والهادى الى صراطك المستقيم وعلى اله وصحبه ومن سلك طريقه واتبع سنته الى يوم الدين وبعد :

فان اسلافنا السابقين فى الاسلام رضوان الله عليهم ، لهم أسبقية الفضل والولاء لديننا الاسلامى الحنيف ، ما لم يكن لغيرهم ، مهما طال الزمن ، وامتدت الايام .

« فخير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »

لهذا سجل التاريخ اسماءهم ، وخلد ذكراهم ، حتى ارتسمت على كل أفق من آفاق العالم الاسلامى اسماء رجال منهم معدودين ، امتازوا بمواهب وعبقريات ، رفعتهم الى الأوج الأعلى من آفاق هذا العالم ، وسجلت أسماءهم فى قائمة عظماء التاريخ وجهابذة العلم وأصبحوا نجوما لامعة ، ومصابيح ساطعة ، تتلألأ فى كبد السماء ، كتلألؤ الجوزاء وتضيىء لأهل هذه الدنيا فتستفيد من نورها المجموعة البشرية كل حسب مكانته وعلى مقداره وبذلك بنوا لأنفسهم مجدا لا يطرأ عليه التلاشى والنسيان ، وخلدوا ذكراهم على مر الزمان وتعاقب الأيام .

وثمة رجال ارتسمت أسماؤهم فى كل أفق من تلك الآفاق ، وهم قليلون للغاية ، شذت بهم طبيعة هذا الكون ، فكان لهم من نبوغهم وعظمتهم ما جعلهم أفذاذا فى دنيا الاسلام ، وشواذا لا يمكن أن يجعلوا مقياسا لغيرهم ، أو ميزانا

تنوزن به مقادير الرجال ، اذ لا يمكنها ان تنال مراتبهم ، وان اشرأبت اليها أعناقهم وحدثتهم بها نفوسهم .

واذا حق لأمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب ، أن يتيه فخرا واعجابا بالنوابغ من أبنائه ، ويشيد بفضلهم ، ويعطر الدنيا بشذا عرفهم ، وأريج ذكرهم ، فان مصر فى طليعة الأمم التى سعدت بأبنائها الغر الميامين ، الذين تطامن لهم جبين الدهر وحلقوا فوق مناط النجم .

من بين هؤلاء وأولئك جميعا ، من تعقد الخناصر على فضله ، الامام الكامل ، والعالم الفاضل الجليل زين الفضائل ، وزينة المحافل ، بدر المجامع ، وغرة المجالس ، بين يدى الملوك ، والخلفاء ، والأمراء :

أبو جعفر احمد بن محمد ، بن سلامه ، بن عبد الملك الأزدى الطحاوى ، الفقيه الحنفى ، الذى انتهت اليه رياسة أصحاب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه بمصر .

والطحاوى نسبة الى طحا ، قرية من صعيد مصر ولكن الامام ياقوت الحموى ، والامام الحافظ جلال الدين السيوطى يقولان : انه من طحطوط ، ولخفة النطق نسب الى طحا .

وقد تعددت فى مصر بلاد تحمل هذا الاسم ، منها طحا بوش ، وطحا البيشا ، وطحا العمودين ، وطحا المرج ، وطحا نوب ، والتى كانت مسقط رأسه ، من بين تلك البلاد هى : طحا العمودين ، أو طحا الأشمونين ، بين البحر الأعظم واليوسفى من أعمال منية ابن خصيب ، ويعرفه النسابون بأنه :

أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن سلامه ، الطحاوى الحجرى الأزدى .

والحجر : فخذ من أفخاذ قبيلة الأزد ، باليمن ، هاجر منها أجداده بعد الفتح الاسلامى واستقروا فى مصر ، وفى رحابها ولد أبو جعفر الطحاوى ، كما يقول السمعانى فى الأنساب :

ليلة الأحد لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين ، وتوفى فى ذى القعدة سنة احدى وعشرين وثلثمائة ، وبهذا يكون قد

عمر اثنين وتسعين سنة ، قضاها فى خدمة العلم والدين ، حتى كان من خيار السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

كرس رضى الله عنه حياته طوال عمره لخدمة الدين والمذهب ، وبهذا استحق مكانته السامية من العالم الاسلامى عامة ، وأهل الحديث والفقه خاصة ، وباتتاجه الغزير العريق لفظا ومعنى ، أصبح وأمسى علما من أعظم أعلامه ، ودعامة من أكبر دعائمه ، يذكر اسمه مع كل تعظيم واجلال ، واكبار واعجاب ، حتى انتهت اليه رياسة أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصار أماما يسترشد بعلومه ويقتدى ، وعلما يستضاء بأنواره ويهتدى ، أعلى الله قدره ودرجاته ، وأجزل أجره وعطاءه ، فقد شاءت ارادته سبحانه وتعالى أن يبارك فى علمه وقلمه ، فتخرج منهما للناس تتاجا علميا من أفضل النتاج ، فيه كل ما يدل على غزارة العلم ، وسعة الاطلاع ، وقد ميزه الله تعالى بصفات بارزة ، وخصه بعناية فائقه ، وفضله على كثير مسن خلق تفضيلا .

حياته العلمية رضى الله عنه :

تلقى أبو جعفر الطحاوى العلم وأخذه ، عن هارون بن سعيد الأيلى وعبد الغنى بن رفاعه ، ويونس بن عبد الأعلى ، وعيسى بن مشرود ، وبحر بن نصر ، ومحمد بن عبد الله عبد الحكم وطبقتهم .

وتلقى عنه وأخذ : أحمد بن القاسم الخشاب ، ويوسف الميانجى ، وأبو الحسن محمد بن أحمد الأخميسى وأبو بكر بن المقرىء ، وعبد العزيز بن محمد الجوهرى ، والامام الطبرانى ، وأحمد بن عبد الوارث الزجاج ، ومحمد بن بكر بن مطروح ، وجماعة غيرهم .

وقد عاصره رضى الله عنه ، أحمد بن طولون ، وكان يتردد ابن طولون عليه لوعظه المفيد ، وتذكيره البليغ ، كما عاصره كذلك الجبار أبا منصور الجزرى ، الذى كان أمير مصر فى ذاك الوقت .

ودخل الجبار يوما على الامام الطحاوى ـ كما ذكر ابن حجر ـ

ففزع منه ، وملك الرعب قلبه ، ولكن الجبار لاطفه وأكرمه وأحسن اليه ، ثم قال له :

يا سيدى ، انى أريد أن أزوجك ابنتى ، فماذا ترى ؟

فقال له الطحاوى : لا أفعل .

فقال : ألك حاجة الى المال ؟ قال : لا .

قال : فهل أقطع لك أرضا ؟ قال : لا .

قال : فاسألنى ماشئت ؟

قال : وتسمع ؟ قال : نعم .

قال : احفظ دينك لئلا ينفلت ، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت ، واياك ومظالم العباد . ثم تركه ومضى ، فكان ذلك سبب رجوعه عن ظلمه لأهل مصر .

من مؤلفاته :

صنف الامام أبو جعفر الطحاوى التصانيف الكثيرة فى أنواع العلوم، وبرع فى الفقه والحديث ، وتصانيفه مفيدة عزيزة الفوائد ، جمة المعنى ، عميقة المغزى ولا سيما كتابه النفيس « شرح معانى الآثار » الذى يتضمن المحاكمة بين أدلة المسائل الخلافية ، وقد ساق فيه أبو جعفر سند الأخبار التى يتمسك بها أهل الخلاف فى تلك المسائل الخلافية .

ثم خرج من بحوثه التى ضمنها لهذا الكتاب ، بعد نقدها اسنادا ومتنا ، رواية ، ونظرا ، بما يقتنع به الباحث المنصف ، وبهذا كان كتاب « شرح معانى الآثار » خير كتاب فى التفقيه ، وتنمية ملكة الفقه ــ لزيادة ما فيه من بيان وجوه الاستنباط ، واظهار وجوه المعارضة ، وتمييز الناسخ من المنسوخ .

ومن بين كتبه النفيسة ومن مؤلفاته الخطيرة الذى لا يستغنى عنه باحث ، ولا يسكت عنه كاتب ، كتابه العظيم فى فنه ، العميق فى دقته وبحثه « مشكل الآثار » الذى قال هو فيه :

« انى نظرت فى الآثار المروية عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، بالأسانيد المقبولة التى نقلها ذوو التثبت فيها ، والأمانة عليها ، وحسن الأداء لها ، فوجدت فيها أشياء مما سقطت معرفتها ، والعلم بما فيها ،

عن أكثر الناس ، فمال قلبى الى تأملها ، وتبيان ما قدرت عليه من مشكلها ، ومن استخراج الأحكام التى فيها ، ومن نفى الاحالات عنها ، وأن أجعل ذلك أبوابا أذكر فى كل باب منها ما يهبه الله عز وجل لى من ذلك فيها حتى أبين ما قدرت عليه منها ، كذلك ملتمسا ثواب الله عز وجل عليه ، والله أسأل التوفيق لذلك ، والمعونة عليه ، فانه جواد كريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل » أهـ .

منزلته بين العلماء :

كان لأبى جعفر الطحاوى رضى الله عنه ، مهابة وجلالة ، لما امتاز به من صفات حميدة ، وما حصله من علوم شتى ، وأصحاب الفضل يعرفون أقدار الناس ، وينزلونهم منازلهم ، فانما يعرف الفضل من الناس ذووه .

قال عنه ابن العماد فى شذرات الذهب :

« شيخ الحنفية ، الثقة الثبت ، صنف التصانيف ، وبرع فى الفقه والحديث »

وقال أبو سعيد بن يونس :

« كان ثقة ثبتا ، فقيها عاقلا ، لم يخلف مثله »

وقال عنه الشيخ أبو اسحاق :

« انتهت اليه رياسة الحنفية بمصر »

ويقول عنه ابن عبد البر رضى الله عنه :

« كان الطحاوى كوفى المذهب ، كان عالما بجميع مذاهب الفقهاء ، وكان من أعلم الناس بسير الكوفيين وأخبارهم ، مع مشاركته فى جميع مذاهب الفقهاء » أهـ

وقال السمعانى : « كان الطحاوى ثقة ، ثبتا »

ويقول ابن الجوزى :

« كان الطحاوى ثبتا ، فهما ، فقيها عاقلا »

وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبى فى تاريخه الكبير :

« الطحاوى ، الفقيه ، المحدث ، الحافظ ، أحد الأعلام ، كان ثقة ثبتا ، فقيها ، عاقلا ، ويقول الحافظ ابن كثير عنه أيضا :

« هو أحد الثقات الأثبات ، والحفاظ الجهابذة »

وقال عنه الصلاح الصفدى فى الوافى :

« كان ثقة ، نبيلا ، ثبتا ، فقيها ، عاقلا ، لم يخلف بعده مثله »

ويقول عنه ابن أسعد اليافعى أيضا :

« برع فى الفقه ، والحديث ، وصنف التصانيف المفيدة » .

وقال الحافظ السيوطى عنه :

« هو الامام العلامة ، الحافظ ، صاحب التصانيف البديعة ، وكان ثقة ، ثبتا ، فقيها ، لم يخلف بعده مثله » أهـ

وأثنى عليه رضوان الله عليه ، الامام الطبرانى ، وأبو بكر الخطيب ، وأبو عبد الله الحميدى والحافظ المزى ، وهذا يدل على جلالة قدرة وعلو منزلته ، وسمو مكانته .

ولا يفوتنا أن نذكر ما قاله البدر العينى عنه فى شأن معاصرته لأصحاب الصحاح والسنن لما فى ذلك من أهمية جليلة تبين بوضوح واضح ما اشتملت عليه حياة الامام الطحاوى العلمية :

يقول البدر العينى : رضى الله عنه :

« كان عمر الطحاوى حين مات أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، صاحب الصحيح ، سبعا وعشرين سنة .

لأن البخارى مات سنة ست وخمسين ومائتين .

وكان عمره حين مات مسلم بن حجاج ، صاحب الصحيح ، اثنتين وثلاثين سنة ، لأن مسلما مات سنة احدى وستين ومائتين .

وشاركه الطحاوى فى روايته عن بعض شيوخه .

وكان عمره حين مات أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى صاحب الجامع خمسين سنة .

لأن الترمذى مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

وكان عمره حين مات أحمد بن شعيب بن على النسائى ، أربعا وسبعين سنة .

لأن النسائى مات سنة ثلاث وثلثمائة ، وشاركه أيضا فى روايته، وروى الطحاوى عنه أيضا .

وكان عمره حين مات محمد بن يزيد بن ماجة ، صاحب السنن ، أربعا وأربعين سنة ، لان ابن ماجة مات فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وشاركه أيضا فى روايته عن بعض شيوخه .

وكان عمره حين مات ابن حنبل اثنتى عشرة سنة .

لأن أحمد بن حنبل مات سنة احدى وأربعين ومائتين .

وكان عمره حين مات يحيى بن معين ، أربع سنين ، لأن يحيى بن معين مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين » أهـ

وبعد : فان الامام الطحاوى من العلماء المبرزين ، واعلام الأئمة الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

حفلت به كتب التراجم ، وتتبع سيرته كثير من المؤلفين ، وسجلوا مواقفه الفذة :

فى خدمة الدين ، والدفاع عن الحق ونشر العلم .

له ترجمة : فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧١ ، وأخرى فى الفهرست ٢٠٧ ، وثالثة : فى تهذيب ابن عساكر جـ ٢ ص ٥٤ ، ورابعة : فى المنتظم جـ ٦ ص ٢٥٠ ، وخامسة : فى الجواهر المضية جـ ١ ص ١٠٢ وسادسة : فى تاج التراجم ص ٨ ، وسابعة : فى الوافى جـ ٨ الورقة ٣ ، وثامنة : فى العبر جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، وتاسعة : فى الشذرات جـ ٢ ص ٢٨٨ وعاشرة : فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ، ص ٢٣٩ ، والاحدى عشر : فى غاية النهاية جـ ١ ص ١١٦ ، والاثنى عشر فى مرآة الجنان جـ ٢ ص ٢٨١

ثم ترجم له الحافظ الذهبى كذلك فى تاريخه الكبير ، وابن عبد البر فى كتاب العلم .

والحديث عن هذا المسند المحقق المدقق الامام الطحاوى رضى الله عنه لا يجف له قلم ، ولا يطوى عنه سجل .

ومهما أوتى الانسان من بلاغة جنان ، وحسن تبيان ، لا يسعه الا الاعتراف له ولمن سبقه بالفضل ، والاقرار لهم بالعلم ، نفعنا الله بحبهم وعلمهم ، وجزاهم الله عما قدموا لنا من تراث اسلامى أصيل خير الجزاء .

ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

مـــذكـــرة

بشأن شكاوى مبعوثى الأزهر فى الخارج من المعاملة المالية الحالية للمعارين على نفقة جمهورية مصر العربية

وردت الى ادارة البعـــوث الاسلامية شـــكاوى عديدة من السادة مبعوثى الأزهر فى مختلف الدول يتضررون فيها من ضـآلة مرتبات الاعارة الحالية التى تمنح لهم وعدم تناسبها مع موجة الغـلاء التى سادت العالم وأوضاع البلاد الاقتصادية التى يعملون بها .

وقد أيدت السفارة المصرية فى الخارج هذه الشكاوى وطلبت من الأزهر تعديل هذه المرتبات على نحو يكفل للمبعوث حياة كريمة حتى يتمكن من أداء رسالته على خيـر وجه ويظهـر بالمظهـــر اللائق به والمشرف لمعهده وبلده .

ولابراز مدى الضيـق المادى والمعاناة النفسية والظروف الصعبة التى يعمل تحت وطأتهـا مبعوثـو الأزهر ننقل فيمـا يلى بعض آراء السادة سفراء جمهورية مصر العربية التى وردت الى الأزهـر فى هـذا الشأن :

(أ) جاء فى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى كندا رقم ١٣ بتاريخ ١٩٧٨/١/٢٥ ما يلى :

« ونـود الاحاطـة بأن مـرتب السائق أو السفرجى فى كندا لا يقل عن ٧٠٠ (سبعمائة) دولار شهريا وبناء على ذلك فان السفارة ترى أنه لكى يتحقق الهدف من ارسال مبعوثين للازهر فى هذه البـــلاد فلا بد من أن تكون مرتباتهم ضعف ما يتقاضونه حتى تتنـاسب مـع أهمية الهـــدف من ايفادهم وحتى يتمكنوا من أداء رسالتهم على الوجه الأكمل .

(ب) وفى الكتاب الموجه الى فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهـر

من السيد الوزير المفوض قنصل عام مصر فى زنزبار رقم ١ بتاريخ ١٩٧٨/٢/١٥ ـ أكرر شكرى على جهودكم وجهود رجال الالأهر الشريف فى زنزبار وقد رأيت أن أطلعكم على موضوع أرجو أن يحظى برعايتكم وهو خاص بمرتباتهم التى لا تكاد تكفيهم نظرا لغلاء المعيشة واستمرار رفع الأسعار بشكل واضح مما يؤثر على عملهم وقيامهم بالدعوة •

(جـ) وفى كتاب السيد سفير سفير جمهورية مصر العربية فى موريشيوس رقم ٣٩٦ فى ١٥/١٢/ ١٩٧٨ بشأن مرتبات مبعوثى الأزهر « هذا المرتب يقل عن المرتب الذى يتقاضاه خدم المنازل فى موريشيوس وعلى ذلك فان السفارة سوف تستمر فى تغطية نفقاتهما المعيشية الضرورية حفاظا على سمعة وكرامة مصر فى الخارج » •

(د) وفى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى جيبوتى رقم ٤٠ فى ٧٨/١٢/٢١ فى شأن بعثة الأزهر ـ لقد لقى تواجدهم هنا كل ترحيب من المسئولين الذين عبروا عن تقديرهم الكامل للازهر لهذه المبادرة التى تدل على روح طيبة وتفهم من الأزهر لأهمية التعاون مع جيبوتى فى المجال الدينى والثقافى كما قدرت السفارة بدورها هذه الخطوة من الأزهر ونأمل أن تليها خطوات •

فوجئت السفاة بالضآلة الشديدة لمرتبات السادة المبعوثين وهو ما لا يمكن معه توفير أدنى مستوى للمعيشة بالنسبة لهم نظرا لارتفاع مستوى المعيشة هنا ارتفاعا باهظا الأمر الذى يضعهم فى وضع غاية الاحراج بالنسبة لكرامتهم ومستوى حياتهم •

(هـ) ونذكر أخيرا من هذه الشكاوى وكتب السادة السفراء ما جاء فى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى نيجيريا المرفق به المذكرة المقدمة من مبعوثى الأزهر بشأن ضآلة مرتباتهم فى مواجهة نفقات المعيشة والسفارة تؤيد ما جاء فى مذكرة السادة أعضاء البعثة ونود الاحاطة بأن

نيجيريا تعتبر من أغلى بلاد العالم نظرا لنسبة التضخم المرتفعة بها ولاشك أن مرتبات ساتهم لا تتناسب مطلقا مع مستوى المعيشة هنا .

لذا نرجو التكرم باعادة النظر فى مرتباتهم مما يحقق لهم مستوى معيشة كريمة تساعدهم على آداء مهمتهم فى هذه البلاد .

وغير ذلك من الشكاوى الكثيرة التى ترد الى الأهر وتأييدالسفارات المصرية لما ورد بها خاصا بمرتبات الاعارة الحالية وهذا أمر أصبح عاما يستوعب جميع الدول تقريبا.

التعليق

(أ) يعامل المعارون على نفقة الازهر الى دول آسيا من الناحية المالية بالقانون رقم ٤٠٥ لسنة ١٩٥٥ .

* ويعامل المعارون على نفقة الأزهر الى دول أفريقيا من الناحية المالية طبقا لقرار رئيس الجمهورية رقم ١٤٨٩ لسنة ١٩٦٢ المعدل بالقرار رقم ٩٣٥ لسنة ١٩٦٩ .

* ويعامل المعارون على نفقة الأزهر الى الجمهورية العربية اليمنية من الناحية المالية بقرار رئيس الجمهورية رقم ١٢٢٤ لسنة ١٩٦٤ .

* ويعامل المعارون على نفقة الأزهر لبعض البلاد بقراراتخاصة صادرة لها مثل : أوغندا والسودان.

* هذه المعاملة المالية التى قرر بعضها منذ أكثر من عشرين عاما وبعضها منذ أكثر من عشر سنوات أضحت الآن لا تتناسب مطلقا مع مستوى المعيشة فى هذه البلاد ولا مع موجة الغلاء الفاحش التى اجتاحت ــ ولاتزال ــ دول العالم ، الأمر الذى ترتب عليه امتناع أغلب المرشحين الى هذهالدول عن السفر لضآلة مرتباتهم التى يتقاضونها من الازهر فى الخارج والتى لا تفى بالتزاماتهم الضرورية ولا تحفظ لهم كرامتهم ومكانتهم كعلماء موفدين من الأزهر يعتبرهم الناس قدوة لهم فى سلوكهم وتصرفاتهم الشخصية بينما تحتم عليهم رسالتهم

ووضعهم الاجتماعى الاختـــلاط بالمجتمع الذى يعيشـــون فيه وأن تظل بيوتهـــم مفتوحة لاستقبال المواطنين الذين يقصدونهم للسؤال فى أمور دينهم ودنياهم•ولا يخفى على أحد ما يترتب على ذلك مـــن أعباء مادية اضافية يتحملها مبعوث الأزهر •

فى الـــوقت الذى يجـــد فيـــه المرشح الى هذه الدول زميله المعار الى دول الخليج والدول العربيـــة التى تتحمل مرتباته يتقاضى مرتبا شهريا أضعاف ما يأخذه من الأزهر بجانب المميزات الأخرى التى يتمتع بها باعتبار أنه يعيش فى مجتمـــع عربى قريب من المجتمـــع المصرى لا يحس فيه بغربة ولا يواجـــه مشاكل ومصاعب فى تعليم أولاده ولا يتحمل نفقات مرتفعة فى تكاليف السفر فى حالة عودته كل عام الى مصر لقضاء اجازته السنوية فيحجم عن السفر ويرفضه خاصـــة وأن بالامكان الحصول على عقد للعمل فى هذه الدول من غيـــر مشقة تذكر •

(ب) بجانب ذلك توجد دول كثيرة غير منصوص على معاملتهـــا المالية بالقوانين والقرارات السابقة

والازهر مضطر بحكم رســـالته وتطلعات المسلمين اليه فى هـــذه الدول باعتبار أنه المنهـــل الذى أراده الله واختاره لهم لينهلوا منه علوم الاسلام واللغة العربية والمنارة التى أقامها الله لهم ليستضيئـــوا بهديها ونورها ــ مضطـــر أن يلبى حاجة المسلمين فى هذه البـــلاد بايفاد علمـــائه اليهـــم للتدريس والوعظ والارشاد •

ويعامل الأزهر هـــؤلاء المعارين ماليا معاملة بالمثل لأقـــرب بلد له معاملة مالية مقررة •

غير أنه توجد بلاد كثيرة ،الأزهر حتى الآن عاجز عن تلبية وتحقيـــق رغبات المسلمين فيها وخاصة فى أوربا وأمريكا لعدم وجود معاملة مالية مقررة لأى بلد فيها •

(جـ) يضاف الى ما سبق عامل آخر يسبب شكوى المعارين مـــن الأزهر من التفرقة فى المعاملة المالية

بينهم وبين زملائهم المعارين من وزارة الاوقاف .

فقد صدر قرار رئيس الجمهورية رقم ٣٦ لسنة ١٩٧٧ فى شأن المعاملة المالية للمعارين من وزارة الاوقاف الى الخارج الذين تتحمل الدولة مرتباتهم يتضمن معاملتهم ماليا معاملة رجال السلك الدبلوماسى.

وبناء على ذلك فان جميع المعارين من وزارة الاوقاف يعاملون ماليا معاملة خاصة بينما زملاؤهم المعارون من الأزهر ويحملون نفس المؤهل العلمى الذى يحملونه ويعملون معهم فى نفس الحقل ويقومون بعمل واحد مشترك وموفدون من بلد واحد يعاملون ماليا المعاملة العادية ــ المذكورة سابقا ــ التى تدفع المرشحين الجدد على الامتناع عن تنفيذ الاعارة ، أو الاعتذار عن عدم اتمام مدتها لمن يخاطر بقبولها فى أول الامر .

الراى

ترى ادارة البعوث الاسلامية أن هذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية سواء بالنسبة لتحقيق رسالة الازهر فى نشر دين الله واعلاء كلمته ، أو بالنسبة لاقامة العلاقات الطيبة وتقوية الروابط الوطيدة بين مصر ودول العالم الخارجى .

الأمر الذى يستدعى حلا سريعا لعلاج هذه المشكلة حتى لا تكون ضآلة المعاملة المالية الحالية سببا فى اعتذار المرشحين عن عدم السفر ، ونتيجة لذلك يخلو الميدان لغير مبعوثى الأزهر «لا سيما وأن هناك دولا عربية أخذت تغزو هذا الميدان فى الآونة الأخيرة وتنافس مصر فى هذا المجال وتغدق أموالها الطائلة على مرتبات مبعوثيها محاولة انتزاع دور مصر ــ بلد الأزهر ــ القيادى والتاريخى فى هذا المجال » وبالتالى يفقد الأزهر دوره الرائد فى توجيه الدعوة الاسلامية وشغل مراكزها الهامة فى أنحاء العالم وفى ذلك خسارة كبيرة لمصر ومساس بدورها الرائد فى هذا المجال .

وعلاج هذه المشكلة يستدعى :

١ ــ تحقيق العدالة بين جميع المعارين وذلك بتوحيد المعاملة المالية

بين جميع الفئات المتماثلة المعارةمن جمهورية مصر العربية على نفقتها الى الدولة الواحدة .

٢ ـ ضرورة الاسراع فى اصدار قرار المعاملة الماليةللمعارين خارج الجمهورية الذى سبق أن أعدته ووافقت عليه اللجنة التنفيذية العليا للعلاقات الثقافية والتعاون الفنى حتى تزول أسباب هذه الشكاوى وتتهيأ الحياة الكريمة لمبعوثى الأزهر ، ومن جهة أخرى لكى يقبلوا على السفر الى هذه البلاد مع عدم شعورهم بالغبن بالنظر الى زملائهم الذين يوفدون أو يتعاقدون مع البلاد العربيةالتى تمنحهم مرتبات وبدلات تحقق لهم طمأنينة وأملا فى مستقبلهم .

والله ولى التوفيق .

فوزى فاضل الزفزاف
مدير ادارة البعوث
الاسلامية

خطبة نبوية

قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال : نضر الله امرءا سمع مقالتى فأداها كما سمعها : فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه .

ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة اولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من ورائه .

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : يقول الله تعالى على لسان عيسى ابن مريم : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » فما الحكمة فى تخصيص عيسى بالسلام على نفسه ؟

ج : وقد أجاب عن هذا السؤال الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فى كتابه الفتاوى بما يلى:

السلام على المؤمنين والمرسلين :

للمؤمنين عامة مكانة عند الله ، بها يحفظهم ويرعاهم ، وبها يؤمنهم من كل مكروه ، ومن ذلك نرى القرآن الكريم يذكر تحية الله لهم ، وتكريمه اياهم بالسلام عليهم .

وقد كان للأنبياء والرسل فوق ما للمؤمنين من الحفظ والرعاية والتأمين ، والتحية والتكريم ، سلم عليهم بالوصف العام : « وسلام على المرسلين » وسلم عليهم بالعلم الخاص « سلام على نوح فى العالمين » . « سلام على ابراهيم »، « سلام على موسى وهارون » ، « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ..

السلام على يحيى وعيسى

ولكن يحيى وعيسى عليهما السلام كان لهما شأن خاص فى ولادتهما ، فجاء السلام عليهما بنحو خاص لا يشاركهما فيه أحد من الأنبياء والمرسلين ، فيحيى جاء أثرا لدعوة أبيه « زكريا » بعد أن صارت أمه عاقرا ، وبلغ أبوه من الكبر عتيا « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى

ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » . فأجاب الله دعوته ، وحقق له على غير السنة المألوفة أمنيته ومنحه « يحيى » وجعله رضيا كما طلب ، وصاغه بالخلال الطيبة التى تملأ قلب زكريا فرحا وسرورا ، وساق اليه البشرى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا » وقد توج تلك الخلال بسلام التكريم والحفظ على يحيى فى العهود الثلاثة التى تمر بالانسان ، ويكون فيها أشد ما يكون حاجة الى تكريم الله وحفظه : عهد الظهور فى هذه الحياة التى يتعرض فيها للتكاليف والواجبات ، وعهد الانتقال منها الذى يترقب فيه المحاسبة على ما قام به من عمل ، وعهد الرجوع الى ربه الذى يرى فيه صحيفة عمله وما أعد له من جزاء « وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا » وكان كل ذلك زيادة فى تطمين زكريا باجابة دعوته على أحسن ما تكون الاجابة .

عيسى له شأن خاص

أما « عيسى » فقد انفرد عن يحيى بشأن لم يشاركه فيه ، فقد أحيطت ولادته من أم فقط — كما تحدث القرآن — من خصوم والدته ، وخصوم فضل الله على عباده ، بما ملأ نفسها ببواعث القلق والاضطراب ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها ، حتى قالت حينما جاءها المخاض : « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وقد كان ما قدرت من قوتها « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا »

وما أحوجها فى ذلك الوقت الى رحمة خاصة ببرهان محس قاطع ، يبدد على القوم أفكارهم بالنسبة اليها .. وما هو الا أن أشارت اليه بعد وضعه فأجابهم بقدرة الله الذى خلقه من أم فقط ، والذى أنطق كل شىء « قال انى عبد الله . آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا اينما كنت، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى

ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » ..

تكريم بدد بهتان المفترين :

وبهذا النطق الالهى ، الذى جرى على لسان عيسى وهو فى المهد ، قر الحق فى نصابه ، وظهر فضل الله عليه وعلى أمه ، وما كان لولد يفترى ، ولا لسيدة تفترى أن يحصلا على هذا الفضل وذلك التكريم .

وكما تبدد بهذا المنطق بهتان المفترين ، تسجلت به ــ على لسان عيسى ــ عبوديته لله . وأنه محل رحمته وبركته ، وأنه قد صاغه على النحو الذى يريده نبيا ، مباركا ، برا ، عطوفا رحيما ، وأنه بعد ذلك كله فى محل العناية والأمان من ربه فى عهوده الثلاثة

وبه أيضا تبددت شبهة الذين سموا به عن رتبة البشرية ، وقالوا به على الله شيئا ادا

واذا كان الله تحدث لزكريا بأوصاف ولده يحيى ، فقداقتضت حكمته لظروف عيسى الخاصة أن تجرى القدرة الالهية أوصاف عيسى ومزاياه على لسان نفسه ، لتكون حجة الحق ــ فى طهارة أمه وبشريته ــ نابعة من نفسه وبصوته، وعلى مسمع من المفرطين فيه المغالين ، والمفرطين المقصرين : «ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .

س : مواطن كريم يسأل : كثر الجدل فى قريتنا حول تحية المسجد « ركعتى دخول المسجد » وهل هى واجبة أو مندوبة ، وهل هى مشروعة فى جميع الأحوال .. ؟ الخ ..

ج : وقبل الاجابة نود أن ننصح الأخ المسلم وغيره من المسلمين المتدينين أن يتجنبوا الجدل فى المسائل الفرعية الناشىء عن التعصب المذهبى وعليهم الاهتمام بالمسائل الكلية من أداء للفرائض واجتناب للمعاصى وأداء للشعائر الاسلامية فى جو من الصفاء والأخوة الصادقة حتى لا يعكر صفوهم مثل هذا الجدل « فما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » ونحن أحوج ما نكون الى وحدة الصف

والهدف متمسكين بحبل الله المتين وكتابه المبين « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » ثم تقول وبالله التوفيق .

جاء فى كتاب « بداية المجتهد » لابن رشد : الجمهور على أن ركعتى دخول المسجد مندوب اليها من غير ايجاب ، وذهب أهل الظاهر الى وجوبها ، وسبب الخلاف فى ذلك هل الأمر فى قوله عليه الصلاة والسلام « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » محمول على الندب أو على الوجوب فان الحديث متفق على صحته ــ فمن تمسك فى ذلك بما اتفق عليه الجمهور من أن الأصل حمل الأوامر المطلقة على الوجوب حتى يدل الدليل على الندب ، ولم ينقدح عنده دليل ينقل الحكم من الوجوب الى الندب قال : الركعتان واجبتان .

ومن انقدح عنده دليل على حمل الأوامر ههنا على الندب ، أو كان الأصل عنده فى الأوامر أن تحمل على الندب حتى يدل الدليل على الوجوب ــ فان هذا قال به قوم ــ قال : الركعتان غير واجبتين

لكن الجمهور انما ذهبوا الى حمل الأمر هنا على الندب لمكان التعارض الذى بينه وبين الأحاديث التى تقتضى بظاهرها أو بنصها أن لا صلاة مفروضة الا الصلوات الخمس .. مثل حديث الأعرابى وغيره ، ، وذلك أنه ان حمل الأمر هنا على الوجوب لزم أن تكون المفروضات أكثر من خمس .

ولمن أوجبها : أن الوجوب ههنا انما هو متعلق بدخول المسجد لا مطلقا كالامر بالصلوات الخمس ..

واختلف العلماء فيمن جاء المسجد وقد ركع ركعتى الفجر فى بيته . هل يركع عند دخوله المسجد أم لا ؟ فقال الشافعى : يركع وهى رواية اشهب عن مالك ، وقال أبو حنيفة : لا يركع وهى رواية ابن القاسم عن مالك .

وسبب اختلافهم عموم معارضة قوله عليه الصلاة والسلام : « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » وقوله « لا صلاة بعد ركعتى الفجر الا ركعتى الصبح » فههنا عمومان وخصوصان : أحدهما فى الزمان ،

والآخر فى الصلاة ، وذلك أن حديث الأمر بالصلاة عند دخول المسجد عام فى الزمان خاص فى الصلاة ، والنهى عن الصلاة بعد الفجر الا ركعتى الصبح خاص فى الزمان عام فى الصلاة ، فمن استثنى خاص الصلاة من عامها رأى الركوع بعد ركعتى الفجر ، ومن استثنى خاص الزمان من عامه لم يوجب ذلك

واختلفوا فيمن جاء يوم الجمعة والامام على المنبر هل يركع أم لا ؟

فذهب بعض الى أنه لا يركع وهو مذهب مالك وذهب بعضهم الى أنه يركع .. والسبب فى اختلافهم معارضة القياس لعموم الأثر ، وذلك أن عموم قوله عليه الصلاة والسلام « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » يوجب أن يركع الداخل فى المسجد يوم الجمعة وان كان الامام يخطب ، والأمر بالانصات الى الخطيب يوجب دليله ألا يشتغل بشىء مما يشغل الناس عن الانصات وان كان عبادة ..

وجاء فى سبل السلام فى شرح حديث جابر رضى الله عنه : «دخل رجل يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : صليت ؟ قال لا ، قال : قم فصل ركعتين » متفق عليه ..

والحديث دليل على أن تحية المسجد تصلى حال الخطبة ، وقد ذهب الى هذا طائفة من الآل والفقهاء والمحدثين ويخفف ليفرغ لسماع الخطبة .. ذهب جماعة من السلف والخلف الى عدم شرعيتهما حال الخطبة والحديث هذا حجة عليهم وقد تأولوه بأحد عشر تأويلا كلها مردودة عليهم .

وأما من دخل الحرم فى غير حال الخطبة فانه يشرع له الطواف فانه تحيته ، أو لأنه فى الأغلب لا يقعد الا بعد صلاة ركعتى الطواف ، ويرى مالك البدء بها قبل السلام على النبى عليه الصلاة والسلام بمسجده الشريف

ويلاحظ أن وقتها عند الدخول قبل الجلوس قال فى كتاب الاقناع « وهى ركعتان قبل الجلوس لكل داخل وتحصل بغرض أو نفل آخر وتتكرر بتكرر الدخول ولو على

قرب ، وتفوت بجلوسه قبل فعلها ، وان قصر الفصل ، الا ان جلس سهوا وقصر الفصل ، وتفوت بطول الوقوف كما افتى به بعض المتأخرين

والبيت بالطواف، والحرم بالاحرام، ومنى بالرمى ، وزيد عليه تحية عرفة بالوقوف ، وتحية لقاء المسلم بالسلام » .

فائدة : قال الأسنوى : التحيات أربع : تحية المسجد بالصلاة ،

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

صن النفس واحملها على ما يزينها
تعش سالما والقول فيك جميل
ولا ترين الناس الا تجملا
نبابك دهر أو جفاك خليل
وان ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد
عسى ؛كبات الدهر عنك تزول

×××

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالايمان ينتفع
ان الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب اذا مارث ينخلع

محمود سامى البارودى

فى هذا العدد

آيات الله فى الانعـــــام :	للاستاذ مصطفى محمـد الطير
لا خمور ولا فجـــور ولا ربا :	للاستاذ احمد حسين
حقائق سافرة	د . محمد رجب البيومى
فى مواجهـــــــة الالحاد :	د. يحيى هاشم .
ســـــعيد بن المسيب :	للاستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى
التوجيه الاسلامى لعلم النفس :	د. فؤاد ابو حطب
قصـة الاسراء والمعـــــراج :	د. عبد الغنى الراجحى
الازهر جامعـــــا وجامعة :	للاستاذ محمد كمال السيد
اسلوب السخرية فى القرآنالكريم :	للاستاذ السيد حسن قرون
شبهات حـــــــول السنة :	للدكتور رؤوف شلبى
المجتمـــع الفاضـــــــل :	للاستاذ عبد الحميد الفضالى
رؤيـــة اســـــــلامية :	للاستاذ زاهر عزب الزغبى
منـــزلة السنة فى التشريع :	للاستاذ حسينى عرابى عطوة
اصـــول اللغة العـــــربية :	الدكتور توفيق محمد شاهين
المحـــــــدث الفقيـــه :	للاستاذ موسى محمد على
مذكـــرة بشأن مبعوثى الازهر :	للاستاذ فوزى الزفزاف
الفتـــاوى :	الاستاذ عبد الحميد شاهين

رقم الايداع ١٩٧٩/١٦٧

مطابع شركة الاعلانات الشرقية
القـاهرة

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء السادس ـ السنة الحادية والخمسون ـ شعبان ١٣٩٩هـ ـ يوليه ١٩٧٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية

متى شرع الإعلام بالصلاة وكيف شرع الأذان والإقامة؟

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير

قال الله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا» (النساء : ١٠٣) .

وقال سبحانه : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » (النساء : ١٠٠) .

البيان

فرضت الصلاة في ذروة الاضطهاد الديني من قريش للمسلمين بمكة ، فكانوا يؤدونها هناك فرادى بلا أذان وبلا اقامة ، حذرا من المشركين واتقاء أذاهم ، ولما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة وقرب منها في هجرته ، أدركته أول صلاة يجتمع فيها شمل المسلمين بعد هجرتهم في أرض بني سالم بن عوف ، فقد خرج المهاجرون والأنصار لاستقبال الرسول بها ، وكان عدد من صلاها معه مائة ، وهي أول جمعة في

الاسلام ، وقد خلت من الأذان والاقامة ، لأنهما لم يكونا قد شرعا بعد .

وقد خطب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة خطبة جليلة قال فيها بعد حمد الله تعالى والثناء عليه « أما بعد — أيها الناس — فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فاينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع ان يقىوجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

هكذا كانت خطبته صلى اللهعليه وسلم لهم يومئذ . وكانت الصلاة والخطبة بمسجد بناه بنوسالم بن عوف فى أرضهم قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأطلق عليه بعد « مسجد الجمعة » .

وبعد استقرار النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، أوجب الله الهجرة الى المدينة على من لم يهاجر اليها بعد ، ليسلموا من أذى المشركين ويسلم دينهم ، ولينعموا بجو الايمان والحرية بالمدينة الى جوار الرسول صلىالله عليه وسلم ، وليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وحكم الله علىالمتخلف عن الهجرة ، وهو قادر عليها، بالاثموأن مأواه جهنم ، واستثنى المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا» .

ولم يكتف بذلك ، بل حبب اليهم الهجرة بما سيجدونه فى المهجر من رغد العيش وسعته . ووعدهم بأن من لم يبلغ دار الهجرة ، بل مات فى الطريق اليها فقد وقع أجره على الله تعالى ، وفى ذلك يقول سبحانه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » فأقبل المتخلفون عن الهجرة ، ولقوا من أهل المدينة مزيدا من الحب والترحيب والايثار ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

مراحل تشريع الأذان

الأذان فى اللغة الاعلام مطلقا ، وفى الشريعة الاسلامية الاعلام بالصلاة بعبارات معينة ، وقد شرع بعد الهجرة الى المدينة حين كثر المسلمون وتباعدت دورهم ، واحتاجوا الى ما يعلمهم بمواقيت الصلاة ، ويدعوهم الى الاجتماع عليها بعد أن أصبحوا فى ظل المدينة آمنين على أنفسهم ودينهم .

وكانت مشروعيته على مرحلتين « اولاهما » اعلام الناس ودعاؤهم الى الصلاة بغير ألفاظه المعهودة ، وفى ذلك يروى الشيخان — البخارى ومسلم — بسنديهما عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما انه قال : « كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون ويتحينون الصلاة ليس ينادى بها ، فتكلموا يوما فى ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقا مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بلال . قم فناد بالصلاة » . فأنت ترى فى هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلالا أن يدعو الناس الى الصلاة من غير أن يحدد له عبارات معينة لدعوتهم ، فكان ينادى بما يجول فى خاطره من عبارات .

ومنهم من حدد العبارة التى كان ينادى بها بلال ، وهى قوله « الصلاة جامعة » كما أخرجه ابن سعد فى الطبقات .

« المرحلة الثانية » اعلامهم بالصلاة بألفاظ مخصوصة يرويها عبد الله بن زيد باسناد صحيح قال فى ضمن حديثه : «طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا فى يده، فقلت : يا عبد الله ، أتبيع الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ فقلت ندعو به الى الصلاة ، فقال : أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ فقلت بلى ، فقال : تقول : « الله أكبر الله أكبر» فذكر التكبير أربع مرات ، ومضى فى الأذان على الوجه المعروف حتى بلغ آخره « لا اله الا الله » ثم قال ، بعد أن ذكر أنه علمه الاقامة : « فلما أصبحت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ،فأخبرته بما رأيت » فقال : « انها رؤيا حق ، ان شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق يا رسول الله : لقد رأيت مثل ما أرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد .

مذاهب العلماء
فى ألفاظ الأذان

يرى كثير من أهل العلم أن الأذان يكبر فى أوله أربع تكبيرات وممن قال بذلك أبو حنيفة والشافعى والثورى وأحمد واسحق وغيرهم ، وحجتهم فى ذلك حديث عبد الله ابن زيد وحديث أبى محذورة اللذان رواهما أبو داود ، وقد جاء فيهما التكبير أربع مرات فى أول الأذان .

ويرى الامام مالك أن يكبر فى أول الأذان مرتين فقط ، وحجته فى ذلك عمل أهل المدينة فى عهده ، وكان يؤثره على النصوص الفردية، لأنها سنة عملية نقلها الخلف عن السلف الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده فى ذلك حديث لمسلم عن أبى محذورة جاء فيه التكبير مرتان ، وهى مخالفة لرواية أبى داود لحديث أبى محذورة ، فقد جاء فيها التكبير أربع مرات .

وقد استبان مما تقدم أن من يكبر أربع مرات أول الأذان يستند الى أصل صحيح ، ومن يكبر مرتين يستند الى أصل صحيح أيضا ، فلا ينبغى أن يعيب أحد الفريقين الآخر ، كالذى نراه بين بعض أصحاب المذاهب هنا .

مذاهب العلماء
فى الترجيع فى الشهادتين

أجمع العلماء على أن الأذان لا يصح بغير النطق بالشهادتين مرتين ، واقتصر فريق منهم على ذلك ومنهم الامام أبو حنيفة ، وسفيان الثورى وأحمد فى رواية عنه ، وحجتهم فى ذلك حديث عبدالله ابن زيد ، فقد جاء فيه بعد التكبير أربع مرات «أشهد أن لا اله الاالله» مرتين و « أشهد أن محمدا رسول الله » مرتين كذلك .

وأكثر العلماء ومنهم الشافعى ، يرون ترجيع الشهادتين مرتين فى كل منهما ، بأن يقول المؤذن كلتيهما سرا مرتين ، ثم يجهر بكلتيهما مرتين ... ان الأوليان بقولهما سرا اخلاصا من أعماق قلبه واحتسابا لوجه الله الكريم ، والأخريان يقولهما جهرا لذلك ، مع الاعلام بميقات الصلاة .

والترجيع سنة عند هؤلاء ، فلا يبطل الأذان بتركه عمدا أو سهوا ، ولكن تفوت تاركه فضيلة الترجيع وثوابه ، وقيل هو ركن يبطل الأذان بتركه ، والرأى الأول أصح ، لأنه قد جاءت عدة أحاديث لم يذكر فيها الترجيع ، ولو كان ركنا لذكر فى كل منها ، ومنها حديث عبد الله بن زيد صاحب قصة الأذان ، كما أن حذفه ليس فيه اخلال ظاهر بمتطلبات الأذان ، بخلاف بقية كلماته .

واستدل من رأوا أن الترجيع ركن فى الأذان بحديث أبى محذورة ، حيث ثبت فيه بتلقين النبى صلى الله عليه وسلم اياه ، وبعمل أهل الحرمين ، وبأن فيه زيادة ، وزيادة الثقة مقبولة ، وبأن اسلام أبى محذورة متأخر ، فحديثه ينسخ المتقدم .

ونحن نقول : انه لا يلزم من كل ذلك أن يكون الترجيع ركنا فى الأذان يبطل بعدمه ، فلماذا لايكون سنة فقط ـ كما قال به كثير من العلماء ، وبالجملة فمن أذن بترجيع فذلك حق لموافقته لحديث أبى محذورة ، ومن اذن بغير ترجيع فذلك صحيح لموافقة رواية عبد الله ابن يزد ، فلا ينبغى لفريق أن يلزم آخر بما يراه ، لأن شرط الالزام أن يكون الحكم مجمعا عليه .

التثويب فى الاذان

التثويب أن يقول المؤذن فى أذان الفجر خاصة بعد « حى على الفلاح » : « الصلاة خير من النوم » مأخوذ من ثاب بمعنى رجع ، كأن المؤذن رجع الى الدعوة الى الصلاة مرة أخرى بعد « حى على الصلاة » .

أما الصلوات الأخرى فلا تثويب فيها ، وقد رواه خاصا بالفجر أبو داود وغيره باسناد جيد ، كما رواه ابن جزيمة فى صحيحه ، والدارقطنى والبيهقى باسناد صحيح عن أنس قال : « من السنة اذا قال المؤذن فى أذان الفجر حى على الفلاح قال : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم . الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله » وممن قال بالتثويب عمر بن الخطاب وابنه وأنس والحسن وابن سيرين وغيرهم .

مذاهب العلماء فى الاقامة

عندما يتهيأ المسلمون لصلاة الجماعة ، يدعوهم المؤذن أن يقوموا الى الصلاة بذكر يشبه ذكر الأذان ، غير انه فرادى فيما عدا التكبير فى أولها وآخرها ولفظ « قد قامت الصلاة » فان ذلك يذكر مرتين ، ودليل ذلك حديث أنس : « أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة » . (خرجه الشيخان » .

وروى البيهقى باسناد صحيح : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلالا أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « انما كان الأذان على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرتين ، والاقامة مرة مرة ، غير انه يقول : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة » أخرجه أبو داود والنسائى باسناد صحيح .

قد يقول قائل : ان التكبير فى أول الاقامة شفع وليس وترا ، وكذا آخرها ، اذ يقول المقيم فى كليهما الله أكبر الله أكبر . قلت ان الوترية فى أحاديث الاقامة اما محمولة على معظم الذكر ، أو محمولة على أن المقيم ينطق التكبير المزدوج فى أولها وآخرها فى نفس واحد ، فهو لهذا كأنه وتر .

وانما نطق التكبير فيها شفعا لأنه المروى فى أحاديثها ، ففى حديث عبد الله بن زيد « ثم تقول اذا أقمت الصلاة : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا اله الا الله . أشهد أن محمدا رسول الله . حى على الصلاة . حى على الفلاح . قد قامت الصلاة . قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله » .

سؤال وجواب

فهمنا مما تقدم أن أساس تشريع الأذان والاقامة رؤيا رآها عبد الله ابن زيد وعمر بن الخطاب فى المنام ولم ينزل بها الوحى ، فكيف يكون هذا تشريعا من الله تعالى .

والجواب : ان الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » فهذا يدل على أن الرسول له أن يجتهد ، وقد اجتهد فى طريقة الاعلام بالصلاة ثم أقر هذه الرؤيا .

وأيضا قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وموافقة الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جاء فى الرؤيا عن الأذان ، فيها تبيين للصلاة التى أنزلها الله وأوجبها فى القرآن الكريم ، بنحو قوله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وأيضا ان الله تعالى قد أقر هذا الاجتهاد فلم ينزل ماينافيه ، وبذلك يكون الأذان تشريعا من الله تعالى

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان اذا اجتهد ولم يوافق الله على اجتهاده ، فانه سبحانه كان يعلمه بعدم موافقته ، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم حين وافق على أخذ الفدية من أسارى بدر ، أنزل الله عتابا له على ذلك قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » من الآية ٦٧ من سورة الانفال .

أما اذا وافق على اجتهاده ـ كما هو هنا فى موضوع الأذان ـ فانه يكون تشريعا من الله .

ما يستحب فى الاذان والاقامة

يستحب التأنى فى الأذان ليسمع البعيد عن المسجد فيتيسر له ادراك الجماعة ، أما الاقامة فيستحب فيها الاسراع لأنها لمن حضر الصلاة . روى عن ابن الزبير مؤذن بيت المقدس فى عهد عمر رضى الله عنه أن ابن عمر قال له : « اذا أذنت فترسل ، واذا أقمت فاحذم » والترسل التأنى والترتيل وترك العجلة ، وهو أولى وأليق بالأذان لأنه للغائبين ، والحذم بالحاء المهملة الاسراع وهو أليق بالاقامة فانها للحاضرين ، والاسراع بها أن يصل بعضها ببعض .

ويكره تمطيط الأذان والتطريب به . روى أن رجلا قال لابن عمر : انى لأحبك فى الله ، قال : وأنا أبغضك فى الله . انك تبغى فى أذانك . قال حماد : يعنى التطريب ، وقال الأزهرى : البغى أن يكون رفع صوته يحكى كلام الجبابرة والمتكبرين ، وقال غيره : هو التشادق فيه ـ اهـ ـ

والصواب فى الأذان أن يكون صوته بتحزين وترقيق ، ليس فيه جفاء كلام الأعراب ، ولا لين كلام المتماوتين ـ قاله الشاش فى المعتمد .

ويستحب أن يرفع صوته ، لما فى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، أن أبا سعيد الخدرى قال له : « انى أراك تحب الغنم والبادية ، فاذا كنت فى

غنمك أو باديتك ، فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك فى النـــداء ، فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جـن ولا انس ولا شيء الا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم .

ويستحب أن لا يبالغ فى رفـع صوته حتى لا يضر نفسه ، وروى أن عمر سمع أبا محذورة قد رفع صوته فقال له : « أما تخاف أن ينشـق مريطاؤك) . والمريطاء ــ كما قال ابن فارس ــ من الصـــدر الى العانة .

ما شرع له الاذان والاقامة

شرعـا للصلـوات الخمس ولم يشرعا لغيرها بلا خلاف ، وينـادى للعيد والكســوف والخسـوف والاستسقاء بعبـــارة (الصـلاة جامعة) وكذا التراويح اذا صليت جماعة ، ولا يستحب ذلك فى صلاة الجنازة على الأصح ، ويرى الامام الغزالى « استجـاب ذلك فيها » والمذهب الأول .

الاذان أفضل من الامامة

الراجح أن الأذان أفضل مـن الامامة ، لما رواه مسلم عن معاوية قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » . ولمـا رواه البخارى عن أبى هريرة قال : « لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا » .

أما مواظبة النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء والأئمة على الامامة ولم يؤذنوا ، فمحمول على أنهم كانوا مشغولين بمصالح المسلمين التى تحول بينهم وبيـن مراعاة أوقات الأذان ، وتحـديد أوقات الصـلاة بالاجتهاد بنحـو القراءة وحركات الشمس ، ويؤيد ذلك مارواه البيهقى باسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قال : لو كنت أطيـق الأذان مع الخلافة لأذنت .

بعض أحكام الاذان والاقامة

قيل هما سنة فى الصلوات الخمس فى الحضر والسفـــر والجماعـة

والانفراد ، فان تركا صحت الصلاة ، وبه قال الجمهور ، وقيل فرض كفاية فى حق الجماعة حضرا وسفرا ، فى مسجد أو غيره ، وقيل ذلك فى مسجد الجماعة . وليسا شرطا لصحة الصلاة ، وقيل بل هما شرط لصحتها ، وهو رأى ضعيف .

ما يستحب من الدعاء والذكر بعد الأذان

يستحب بعد الأذان أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعى له بالوسيلة ، أخرج مسلم بسنده عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىَّ ، فانه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » .

وأخرج مسلم بسنده عن سعد ابن أبى وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا غفر له ذنبه » .

وأخرج البخارى بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

والله تعالى هو الموفق للصواب .

مصطفى محمد الطير

من هدى النبوة

المجتمع الفاضل كما يصوره النبى

صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

— ٢ —

الرسول أولى المنهيات اهتمامه

ونلاحظ أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى حديث المبايعة — قد أولى المنهيات المراد تركها والتخلص منها ، اهتمامه الشريف ، فنص عليها .. فى حين ذكر المأمورات على طريق اجمال ، فى قوله : «ولا تعصوا فى معروف» فعدم العصيان فى المعروف ، هو تنفيذ الأمر بالمعروف الذى عرف حسنه من الشارع الحكيم .. وذلك لأن التخلى يسبق التحلى ، فالانسان يتنظف ويتطهر أولا ، قبل أن يلبس النظيف من الثياب ويتطيب .

ولهذا قيل: « التخلى عن الرذائل، قبل التحلى بالفضائل » .

كما أن الترك أيسر من الفعل.. فاذا طلبت من السارق ألا يسرق أموال الناس بالباطل ، كان أيسر عليه الترك ، من مطالبته بأن يحسن الى الناس من ماله الخاص .

ومن هنا ، وجب على الحاكم المسلم الجاد الغيور على دينه وعرضه ووطنه — أن يلبى دعوة رسول الله ، أولا وقبل كل شىء ، فى تطهير المجتمعات الاسلامية ، من جميع المنكرات والموبقات .. وفى طليعتها ما نص عليه رسول الله فى حديث المبايعة .. حتى لا يكون بيننا ملحد أو مشرك .. ولا يكون بيننا سارق .. ولا زان .. و لاقاتل .. ولا كذاب .

فالأصل فى بيئات الاسلام والمسلمين — النظافة ، والطهارة ،

والمروءة والانسانية ، والشرف والعفة .. والنظام .

أما هؤلاء الذين يقعون فى هذه المنهيات ، أو يرتكبون شيئا من هذه المنكرات..فهم خارجون على هذا الأصل .. أو دخلاء عليه .. قد تجردوا من المعانى الفاضلة ، وارتدوا ثياب الخسة والنذالة والقذارة ، والبغى والعدوان ، والفوضى والطغيان ،وأحدثوا خللا وفزعا واضطرابا وفسادا وافسادا ، فى مجتمع الأمن والطهر والاستقرار والصلاح والاصلاح .

فوجب على الحاكم المسلم ، أن يعيد البيئة الاسلامية الى أصلها ، والى ما كانت عليه قبل اعتداء المعتدين واجرام المجرمين وبغى الباغين .. وذلك بأن ينفذ فيهم حدود الله ، التى بينها فى شرعه الحكيم.. مهما كانت منزلة المجرم عند الحاكم أو الرئيس الأعلى ، لقرابة أو صداقة ، أو مكانة فى المجتمع .. لأن حدود الله لاتعرف المحاباة .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجيئه « أسامة بن زيد » شفيعا فى المخزومية التى سرقت ، فيغضب منه رسول الله ، ويقول له قولته المشهورة التى تشع نورا وضياء ، وعدالةوانصافا ، ومساواة كاملةفى تنفيذ حدود الله : «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ . انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وأيم الله ، لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطع محمد يدها » .

وقد استنكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ..» .

فلماذا نبطىء فى تنفيذ حدود الله ؟!! كفى ما كان من نهب وسلب وتخريب وتسيب فى مال الأمة وحقوق الشعب !!

ولمصلحة من هذا الابطاء فى اقامة الحدود ؟!! وقد طفح الكيل

•• وبلغ السيل الزبى •• وجاوز الحزام الطبيين •• وصار الناس لا يأمنون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، من قطاع الطرق الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، ويختطفون البنات والزوجات ، ويهتكون الأعراض ، ويغتصبون الأموال ، ويقتلون من يدافع عنها جهارا نهارا ؟!••

بل انها تهز المجتمع من أساسه، وتقضى على أمنه وأمانه !!

ان القوانين الوضعية يحيط بها الخطأ من كل جانب ، لأن كل بنى آدم خطاء •• فهى لا تصلح علاجا ولا دواء ، ولا تحقق ردعا ولا زجرا •

انما حدود الله ، هى الرادعة الزاجرة ، لأنها من عند عالم السر والنجوى ، من عند خالق الناس والكون والحياة الذى يعلم الداء ويعرف الدواء يعلم حقيقة الاجرام وكنه المجرمين ، يعلم ما يصلح البشر ، وما لا يصلحهم : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟!•

ولذلك ورد فى الحديث الشريف الذى أقف حياله خاشعا ، محاولا أن أبين بعض ما فيه ــ قول رسول الله :

« فمن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له » •

والعقوبة فى الدنيا ــ اقامة الحد الشرعى •

وعبارة الحديث توحى بأن من أقيم عليه الحد فى الدنيا ــ يكفر الله ذنبه ويغفره ، فلا يعاقب به مرة أخرى •• وذلك فضل من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم •

ما عدا عقوبة الاشراك بالله ، فلا غفران لها •• بنص كتاب الله :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » •

انتشار حانات الخمور ومراقص النساء

ومن عجب أن تنتشر فى بلاد المسلمين حانات الخمور •• ودور

اللهو الفاحش كما فى شارع الهرم. وهى ظاهرة مؤسفة فى كثير من بلاد المسلمين .. ففيها الشراب والنساء واتيان الفاحشة ، ما ظهر منها وما بطن .

ومن هنا وجب على الحاكم المسلم أن يبادر بتحريم شرب الخمر ، كما حرمها الله ، وأن يعاقب شاربها بجلده ثمانين جلدة ، على مشهد من الناس ، ليرتدع الآخرون .. فالخمر أم الخبائث ، كما سماها سيدنا رسول الله ، لأن من شربها سكر واذا سكر هذى ، واذا هذى افترى ، وارتكب ما لا يليق ..

وقد حكى رسول الله ان رجلا من بنى اسرائيل ، استدعته امرأة الى بيتها ، فلما دخل البيت ، حالت بينه وبين الخروج ، الا أن يرتكب جريمة من جرائم ثلاث : أن يشرب الخمر ، أو يقتل غلامها ، أو يزنى بها .. فاختار أن يشرب الخمر ، ظنا منه أنها أهون الثلاثة .. لكنه لما شربها سكر ، فلما سكر قتل الغلام ، وزنى بها !!!

فهى بحق أم الكبائر !! ..

فهل يصح أن نستهين بها ، أو نقصر فى منعها ، ونحن مسلمون نؤمن بحرمتها وخبثها وفسادها وافسادها ؟!!

أما أماكن اللهو الفاحش الداعر ، المسماة « بالكباريهات » فوجودها سبة وعار وفضائح مخزية ، نعير بها ونساء ، وتتهم بأننا غير مسلمين .. وبأننا متغاضون عن الفاحشة .. وترتكب فى أهلينا وأقربائنا !!!..

وكل من يرضى بذلك ، فهو مستهتر لا يغار على أهله ، و لن يشم رائحة الجنة ، كما أشارت بذلك السنة المطهرة .

وما قيمة الرجل اذا لم يكن غيورا ؟!

انه أشبه بالخنازير ، فى خستها وقذارتها ، وانعدام غيرتها .

ومن الخير لنا كمسلمين أن نصحح أوضاعنا ، وأن يبادر حاكمنا المؤمن بالغاء التصريحات التى أعطيت فى عهود الضلال ،

لاقامة وبناء هذه الاماكن الداعرة التى تشيع الدعارة والدياثة بين الناس ، وبخاصة الشباب المجنى عليه ، بحرمانه فى عهود الضلال من تعلم دينه وأداء شعائره ، والعمل بمقتضاه !!.

أعلامنا فاسد

وشىء آخر أطالب به ولاةالأمر، خدمة لضعفاء النفوس ، وحمايةلهم من الوقوع فى الآثام ذلك هو اصلاح الاعلام فى بلاد الاسلام ..

فاعلامنا للأسف الشديد ــ اعلام هزيل وبيل ، يهدم ولا يبنى ، ويفسد ولا يصلح .. ان أكثر ما يعرض فى المسارح ، وعلى الشاشة الكبيرة .. والشاشة الصغيرة « السينما والتليفزيون » من التمثيليات والمسرحيات ، والأفلام ــ خليع ماجن مبتذل ، هدام ، لا يربى خلقا ، ولا يبنى نفسا ، ولا يقوم اعوجاجا .. بل هو مثير لأحط الغرائز فىالانسان، ودافع لارتكاب الفواحش والموبقات .. وبخاصة فى أولئك المخمورين ، وأشباه المخمورين ، ممن لا عاصم لهم منعقل ، ولا من دين ، ولا من يقظة ضمير !! .

وعندنا فى بلادنا ، فى مصرنا العزيزة ــ بلد الأزهر الشريف ــ كتاب لهم غرام بالاثارة الجنسية فيما يكتبون ، وعليها يعيشون .. وفى قصصهم التى ينشرونها ، عن رحلاتهم التى يقومون بها ، ويتخيلون وقوع أحداثها ، على الصورة التى تحقق أغراضهم ، ونجاحهم فى ايقاظ الغرائز الحيوانية الدنيا ، فى الانسان المصرى والعربى المظلوم .. فتتضاعف أعداد المنحلين والقارئين لهذا الأدب الخليع الرخيص المسموم !!

ومن المؤسف أن كثيرا من هذا القصص نشر ، وينشر فى الصحف اليومية الكبرى .. وبعض المجلات !! ..

انه من باب الكرامة الاسلامية، فى أمة مسلمة ، يقوم دينها أساسا على معاداة هذه الموبقات ، وعدم اقرار وجودها ، أو التحريض

عليها ــ ألا يكون لهذه الموبقات ودوافعها ــ وجود رسمى مصرح به من الحكام المسلمين فى ديار الاسلام..ولا يسمح لهؤلاء الرقعاء من الكاتبين ، بأن يكون لهم وجود أو عمل فى هذه الصحف التى تخلى لهم الصفحات ، لنشر الشهوات واذاعتها بين الناس ، صيانة على الأقل للمراهقين والمراهقات ، من الفتيان والفتيات ، ومن فى حكمهم وعملا على الأقل بمبدأ « اذا بليتم فاستتروا » .

ثم كيف يبيح الرقيب ــ ان كان له وجود ــ نشر هذه السموم الفتاكة ، والأدواء المهلكة لما تبقى من قيم وأخلاقيات الاسلام ؟ !

ان الرقيب هو الله ، الذى يحاسب كل نفس بما كسبت ، وكل أمة بما استحقت .. لكن رحمته سبقت غضبه ، وهو من أجل ذلك لا يعجل بالعقوبة ، لكنه يمهل ولا يهمل..ولما كانت النقمة تعم ، فالخوف من عمومها وشمولها ، يدفعنى الى التخويف من عواقبها ، وكفى ما نحن فيه !!.. أليس الله يأمرنا فى محكم كتابه فى قوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ونقول أخيرا ، وليس آخرا فى هذا المجال ، للذين يستحبون العمى على الهدى : ان من أراد دعارة وفجورا ، وانسلاخا عن آدميته ، وتجردا من انسانيته ، واشباعا لغرائزه الدنيا .. فليذهب الى غير ديار الاسلام والمسلمين ، ان كان عنده بقية من حياء .. ففيها متسع لأمثاله من الحيوانات الآدمية !!..

* * *

ثم جاء فى الحديث الشريف :

« ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله ، فهو الى الله ، ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه » ..

فاذا ما ضممنا الى هذا القول الكريم ، قولا كريما آخر ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر :

«كل أمتى معافى الا المجاهرين» استطعنا أن نفهم أن الذين

لا يجاهرون بعصيانهم ــ فان باب الأمل والرجاء مفتوح أمامهم••فقد يعفو الله عنهم ، ان شاء ، أو يعاقبهم ان شاء ء فالأمر كله لله وحده •• غير انه سبحانه لا يظلم الناس شيئا •• وأنه سبحانه أعدل العادلين وأحكم الحاكمين •• وأنه سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل •• وهو جل شأنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات •• ولن يخلف الله وعده••واذن فهو أعلم بمن تاب ، ومن لم يتب ، وبمن كان صادقا فى توبته ، ومن كان كاذبا فيها •• فهو يعلم السر وأخفى •• فمن أخلص فى توبته ، شمله الله تعالى بعفوه ورحمته •• وكما ستره فى ارتكاب خطيئته ، بعصيانه سرا ، فهو بفضله جل جلاله ، يقبل توبة الصادق فى توبته فيما بينه وبينه•• فالمهم أن تكون توبة العبد توبة نصوحا ، ليقبلها الله ! ! ••

فقد روى فى السنة المطهرة ، أن موسى عليه السلام ، قام ذات يوم ، ليصلى صلاة الاستسقاء ، فلم ينزل الله المطر •• فناجى موسى ربه قائلا : يا رب •• لقد صلينا ، فلم تغثنا •• ! فقال الرب لموسى : يا موسى ، لقد كان بينكم رجل عاص ، فمره أن يخرج من بينكم• فقال موسى لمن معه : ان بيننا رجلا عاصيا ، فليخرج ، حتى يغيثنا الله•• فلم يخرج أحد •• وأعاد موسى صلاة الاستسقاء ، لكن السماء فى هذه المرة أمطرتهم •• فلما انتهى موسى من صلاته ، رجع لمناجاة ربه فأخبره الله بأن العاصى قد تاب اليه سرا ، كما عصاه سرا •• فقبل الله توبته •• فطلب موسى من ربه أن يدله عليه•• فقال الله : يا موسى ، لقد سترته وهو عاص ، أفأفضحه وقد تاب ؟!!

أما المخطىء المجاهر بعصيانه ، فهو انسان فقد الحياء ، وهو بمجاهرته ، كأنه يتحدى الله ولا يخشاه ، فهو رجل أساء الأدب مع الله •• كما أنه بمجاهرته ــ يشجع غيره على عصيان الله ، ويحرضه على ارتكاب الخطايا بغير مبالاة ،

فهو شيطان .. وهو مرتكب لأكثر من ذنب .. وهو قمين بحرمانه من عفو الله .. وقد ورد فى حديث المجاهرين بالمعاصى : « وان من المجاهرة أن يعمل الرجل عملا بالليل ثم يصبح ، وقد ستره الله ، فيقول يا فلان عملت البارحة كذا ، وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » .. فهل مثل هذا الذى فقد حياءه ، وبالغ فى عصيانه ، وحارب الله ورسوله ، وجاوز قدره مع الله .. هل مثل هذا يستأهل عفو الله ؟!!

* * *

وجاء فى الحديث الشريف :

« ولا تعصوا فى معروف » ..

والمعروف ــ كما أشرت اليه من قبل ــ هو ما عرف حسنه من الشارع الحكيم أمرا ، ونهيا ..

فالواجب علينا جميعا : رؤساء ، ومرءوسين ، حكاما ومحكومين ، قادة ومقودين ــ أن نلتزم بأوامر الله ، نأتى منها ما استطعنا .

أما النواهى ، فلا نقربها أبدا ، قولا واحدا ..

عملا بالحديث الشريف : « اذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » .

ولأن الترك أيسر من الفعل ، « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، وفى ذلك رحمة من الله لنا ، وتخفيف عنا .. والتخلى مقدم على التحلى .

وفى الامتثال خيرنا ، وعزنا ، وأمننا ، فى دنيانا وآخرتنا .. فقد أخبرنا رسول الله أن من وفى وامتثل ما بايع عليه ومات عليه ، فأجره مدخر له عند الله .. والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ومثوبته ورحمته . .

هذا ، أما غير المعروف حسنه من الدين ، كالاضافات التى يضيفها المبتدعون ، الى دين الله ، اختراعا ، أو استحسانا ، كما يقولون ــ فهو افتراء على الله ، واتهام لدينه بالنقص ، وأنه دين فى حاجة لمن يكمل نقصه ، أو يجبر كسره !..

مع أن الله سبحانه وتعالى قد

أكمل دينه ، وأتم نعمته، ورضى لنا الاسلام الذى جاءنا من عنده ـ دينا نتعبد به ، ونسترشد به فى كل ما نأتى وما ندع .. ونسير على هداه ..

فقد كانت آخر آية نزلت من عند الله على رسوله المبعوث رحمة للعالمين ـ هى قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

فهل بعد اكمال الله الخالق المعبود لدينه ، واتمامه له ، ورضاه عنه ، واختياره لشرعه ـ يكون هذا الدين ، فى حاجة الى مخلوق خطاء من بنى آدم ، ليس نبيا مرسلا ـ لاكماله واتمامه ؟!!.

ان الدين مصدره الله ، ولا مصدر له سواه .. وهو سبحانه الحكيم العليم بما يصلح مخلوقاته من الشر ، اذا ما التزموا فى تعبدهم ، وتعاملهم ، بما جاءهم فى كتاب الله وسنة رسوله .. من غير زيادة عليهما ، أو انقاص منهما .. فالكتاب والسنة لم يتركا فى سبيل الهداية قولا لقائل .. وان كل من خالفهما ، أو ادعى نقصانهما أو عدم صلاحيتهما ، فهو الناقص ، وهو الضال المضل الذى لا يريد للناس صلاحا .. لما جاش فى نفسه الأمارة بالسوء !!..

ان أحد فلاسفة الغرب .. ولعله « برنارد شو » يقرر أن صلاح العالم بالاسلام .. ويقول : مخاطبا قومه : « اذا لم تتخذوا الاسلام دينا .. فاتخذوه شريعة ودستورا. ان شريعته لكفيلة بسعادة البشر». قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

ان الله تعالى يقول :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

ويقول : « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

ويقول : وما آتاكم الرسول

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب» .

ويقول : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول .. » .

فهو سبحانه ينفى التفريط والتقصير فيما شرع ، عن كتابه الكريم الذى هو متن السنة .. وهو يأمر باتباع سبيله ، والتزام ما شرع فيه من الدين القويم .. فصراطه مستقيم .. كما ينهى عن اتباع السبل المخالفة لمنهجه ، عند أهل البدع والأهواء .

وهو يوجب الأخذ بالأوامر التى جاءنا بها رسول الله من عند الله . والانتهاء عما نهى عنه .. والا فالعقاب الشديد والعذاب الأليم لمن لم يتق الله فى أوامره ونواهيه !! .

ثم هو يأمر المختلفين على أمر أو المتنازعين فى شىء — أن يردوه الى الله ورسوله ، أى يعرضوه على ما جاء فى الكتاب والسنة بشأنه ، ففيهما الحق الواضح ، والبيان الشافى ، والحجة القاطعة المبددة لظلمات الشك ، والمطفئة لنيران النزاع والخلاف ، والجامعة لوحدة الأمة الاسلامية ، التى هى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله !!!

لقد أنزل الله على رسوله الكتاب والحكمة .. والحكمة هى السنة .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ... ألا وانى قد أوتيت الكتاب ، ومثله معه .. » .

فليس لأحد أن يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، ما وجدنا فيه من شىء اتبعناه !! .

وقد حكى الشافعى (رضى الله عنه) ان اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد ! .

وقد حذرنا الرسول فى حديث يقول فيه : « .. واياكم ومحدثات الامور ، فانكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

ومما جاء فى تعريف البدعة ، انها طريقة فى الدين مخترعة ، ابتدعت على غير مثال سبقها من الشارع .

ويقرر المحققون من العلماء أن الدين ينهى عن الاختراع فيماحدده ورسمه على وجه مخصوص كالعبادات .. فلا يصح لأحد أن يغير فيها شيئا بزيادة او نقص ، أو تبديل هيئة بهيئة أو كيفية بكيفية. « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كما يقررون بأن ما أحدثه عمر رضى الله عنه ــ فى صلاة التراويح ــ أو ما أحدثه عثمان رضوان الله عليه فى الأذان يوم الجمعة ــ انه داخل فى السنة ، وليس من البدعة استنادا الى قول رسول الله « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

وكما يقررون فى اجماع ، بأن الدين لا يمنع من الابتداع ، والاختراع فىأمور الدنيا والافتنان فيها ،أليس الرسول يقول : « انتم أعلم بشئون دنياكم » .

فمن حقنا أن نبتدع ونخترع فى الامور المعيشية ، والاجتماعية ، والعمرانية ، والصناعية . بحيث تلتئم مع أصول الدين ومقاصده . وأن يكون أساس هذا الاختراع درء المفاسد ، وجلب المصالح ، واقامة العدل ، واماطة الظلم ، ورد المظالم الى ذويها . كالمستشفيات، والجامعات ، ودور القضاء ، واقامة المصانع ، وايجاد الطرق المسهلة لرقى الصناعة والتجارة ، ووسائل المواصلات البرية والجوية والبحرية ، وبناء الجيوش وتسليحها بأحدث المعدات .. ومعرفة العلوم والتجارب الموصلة للكشف عن المخبوء من كنوز الكون .. ومعرفة ما يمكن معرفته من أسرار الطبيعة، وأسرار الحياة ، فى ملكوت الله.. واعداد كل ما يقوينا ، ويعلى من شأننا ، ويرفع من أقدارنا فى جميع مناحى الحياة ، لاحقاق الحق وابطال الباطل ، وردع البغاة وقهر

المعتدين ، وارهاب الظالمين .. « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... » .

كل ذلك وأمثاله مطلوب منا ، ويؤجر عليه صاحبه ، ويثاب فاعله .

واذن فالعمل للدين والدنيا ، واجب على كل مسلم ومسلمة ، فى حدود ما حدده الله ورسوله للمسلمين .. فليس خيرنا من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيرنا من أخذ من هذه وأخذ من هذه ، كما يقول سيدنا رسول الله .. وان اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى التى تعطى ، واليد السفلى هى التى تأخذ .. فالعمل واجب ، والعمل عبادة وطاعة ..و فى عهد عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه — لم يكن أحد يمد يده لسؤال الناس ، لأنهم كانوا جميعا يعملون ويكسبون رزقا حلالا ، ولا تقعدون عن طلب الرزق انتظارا لما يقدم اليهم من صدقة او زكاة .. ان الفقراء والمساكين لم يكن لهم وجود فى خلافة عمر بن عبد العزيز !!.

أما بعد ، فهل يصح أن يكون فى مجتمعاتنا الاسلامية ، وبين المنتسبين الى الاسلام — من يعيشون على هامش الحياة .. أو من يغيرون فى دين الله .. باسم البدعة الحسنة ، او تحت ستار « التصوف » أو ستار « الذكر والعبادة » ، مع المخالفة الصريحة لنصوص الكتاب والسنة .. ولما كان عليه سلفنا الصالح ، عليهم رضوان الله .. فى اذكارهم ، وعبادتهم ، وأعمالهم ، ومعاملاتهم.

ان كثيرين منهم لا يذكرون الله ، ولا يتأدبون معه ، ولا يخشون فى ذكرهم له ، ولا يسلكون سبيل الذاكرين من المؤمنين .. وانما يذكرون أنفسهم وما يشعرون..

انهم لا يكادون يفهمون من مدلول الذكر ، الا هذا اللون الضيق الذى يحبسون أنفسهم فيه ، مع المخالفات الكثيرة التى يرتكبونها فى أدائه .

وينسون أن مجالس العلم من ألوان الذكر .. ولذلك لا يلقون

لها بالا ، ولا تنال منهم اهتماما .. ويحرمون أنفسهم ، من العلم النافع لهم .

لقد دخل رسول الله ذات يوم المسجد ، فرأى حلقة ذكر ، وحلقة علم .. فقال : أما هؤلاء (وأشار الى حلقة الذكر) ، فيدعون الله ان شاء أعطاهم ، وان شاء منعهم . وأما هؤلاء (وأشار الى حلقة العلم) فيتذاكرون العلم ويتدارسونه .. وانما بعثت معلما ، وجلس فى حلقة العلم .

ومن هنا نفهم أن حلقة العلم (وهى ذكر وعلم) ــ أفضل من حلقة الذكر وحده .

كما أننا نفهم أن الذاكرين فى حلقتهم لم يكونوا يحدثون صراخا ولاضجيجا ، ولا جلبةولا ضوضاء، وانما كانوا ملتزمين فى دعائهم وذكرهم لأدب القرآن والسنة : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية .. » « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية » .. « لأنكم لا تنادون أصم ولا نائيا ولكنكم تنادون سميعا قريبا » .

والا ، لشوشوا على حلقة العلم ... ولنهاهم الرسول الذى لا يسكت عن قول الحق والخير والهدى والرشاد !! .

كما ينسى هؤلاء ، أن خير ألوان الذكر قراءة القرآن ، والصلاة .

فقد كان رسول الله اذا أراد مناجاة الله فزع الى الصلاة.. واذا أراد أن يناجيه الله تلا كتاب الله .

الى غير ذلك من ألوان الذكر النافع . كذكر التفكر الصامت الذى يستعرض الانسان فيه حياته من يوم ولادته الى يوم موته ، ودخول قبره ، وسؤاله ومحاسبته ، وأنه لا ينفعه ماله ولا أولاده من الله شيئا ، فيتوب الى الله من أعماقه ويستأنف حياة صالحة قبل فوات الأوان .. وكذكره لله ، بقيامه للصلاة فى جوف الليل والناس نيام !! .

انه قد بلغ الأمر بالمخالفين فى حلقات أذكارهم ــ انهم اذا سمعوا اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ لا يصلون عليه ولا

يحفلون به .. فى حين اذا سمعوا اسم شيخ من أشياخهم يصابون بالارتعاش والتشنج ، أو الانجذاب .. ويطلبون من حضرته الصفح والمغفرة.ويستغيثون به ، ويطلبون المدد منه ، لأنهم يعتقدون خطأ ، أنه يضر وينفع ، ويغيث ويشفع .. مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يخاطبه ربه بقوله :

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

فكيف يملك شيوخهم ما لا يملكه رسول الله ؟ !!

كل ذلك وغيره ، قد أوحى به النهى الشريف فى قول رسول الله فى حديث المبايعة :

« ولا تعصون فى معروف » .

« فيا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم » ..

لا تبطلوها ، بالبدع والأهواء !

ولا تبطلوها ، بمآربكم الفانية فى الحياة الدنيا !

ولا تبطلوها ، بمعصية الله ورسوله !

ولا تبطلوها ، بالشك والنفاق !

ولا تبطلوها ، بالعجب والاستعلاء على الحق .. فان العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب !

ولا تبطلوها بالمن والأذى.. ولا تبطلوها بالرياء والسمعة !

ورحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السىء !

وحسبكم أن تعلموا أخيرا قول رسول الله : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه ، فهو رد » أى مردود مرفوض .

وقوله : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتى » .

وفقنا الله واياكم لما فيه رضاه . انه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الحميد الفضالى

صورة من حكمة الله

النسخ ... والتدرج
فى الحكم الشرعى

بقلم الأستاذ أحمد حسين

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط او لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا غفورا » .

قضية الناسخ والمنسوخ

تحدثت فى هذا التفسير اكثر من مرة عن قضية الناسخ والمنسوخ وما كان لنا أن نعيد القول بمناسبة هذه الآية التى تساق دائما للتدليل على وجود الناسخ والمنسوخ فى آيات القرآن حيث لا تصلح الآية الا لاثبات التدرج فى التشريع وليس لاثبات معارضة بعض الآيات لبعضها الآخر .

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) .

القدامى والمحدثون :

ومجمل ما يقال فى قضية الناسخ والمنسوخ أن القدامى كانوا يسلمون فى غير تحفظ بوجود الناسخ والمنسوخ حتى جعلوا منه فرعا أساسيا من فروع العلم وحظروا على كل من يتصدى لتفسير القرآن الكريم أن لا يكون محيطا بهذا العلم .

على أن ذلك لم يمنع القدامى من الاختلاف حول ما هو منسوخ وما هو محكم فما من آية قال عنها البعض انها منسوخة الا وقال بعض آخر عنها انها ليست كذلك ولكن وجود الناسخ والمنسوخ ظلت قضية مقررة واتفق على أن المتأخر من

القرآن يلغى المتقدم واتفق كذلك على ان القرآن ينسخ السنة ثم جرى الخلاف حول ما اذا كانت السنة تنسخ القرآن وانحصر الخلاف بطبيعة الحال حول مدى ثبوت السنة الناسخة فاذا ثبتت السنة الناسخةفلا جدال انها تنسخ القرآن فالمصدر فى كليهما واحد « وما ينطق عن الهوى » .

والمهم الجدير بالتسجيل والتقرير ان كل هذه الابحاث كانت تدور من الناحية العامة أى النظرية أما من الناحية التطبيقية فكما قدمنا ما من آية قال البعض انها منسوخة الا ووجد من يقول أنها محكمة ثم يعمل على التوفيق بينها وبين الآية التى وصفت بأنها ناسخة أما المحدثون ابتداء من الشيخ محمد عبده وتلامذته فقد نفوا أن يكون فى القرآن نسخ ، ولما كان القرآن الكريم يتضمن آية صريحة وقاطعة فى حدوث النسخ بمعنى التغيير والاستبدال : « وما ننسخ من آية أو ننسها نأتى بخير منها أو مثلها » .

وازاء هذه الصراحة فى النص اضطر الشيخ محمد عبده الى القول بأن « الآية » تعنى فى هذا الموضع « الآية الكونية » ولم نقتنع برأى الشيخ محمد عبده ولكنا رضينا كل الرضا عن قول المرحوم الدكتور احمد غلوش أن المقصود بالآية هنا هو الكتب السماوية من أمثال التوراة والانجيل فقد كانت كل دعوى اليهود ضد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : ألست تعترف يامحمد انهذه التوراة من عند الله ؟ فيكون الجواب « نعم » فيسرع اليهود الى القول : فهل من المعقول أن يغير الله كلامه ؟!

فكانت هذه الآية ترد عليهم بأن الله يفعل ذلك تبعا للتطور البشرى وأن الجديد اذا لم يكن أحسن من القديم فهو على أقل تقدير يساويه « نأت بخير منها أو مثلها » ويدعم هذا النظر ويقويه أن الآية وردت فى سياق الجدل مع اليهود ومعلوم أن هذه كانت حجتهم فكان لا مناص من ذكرها وذكر الرد عليها .

أو ننسها :

وذلك كله فضلا عن اشتمالة الآية على وصف يستحيل وصف

آيات القرآن به وهو كلمة «ننسها» وسبب الاستحالة هو وعد الله سبحانه وتعالى بعدم حدوث ذلك ـ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ

ولما خشى رسول الله صلى الله عليه وسلم من امكان حدوث ذلك بمعنى أن ينسى بعض الآيات طمأنه الله سبحانه أن ذلك لن يحدث ـ لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه ـ فنسيان الرسول لبعض آيات القرآن فضلا عن أنه مناف لطبيعة الرسالة (التى تقوم على العصمة) فثمة وعد من الله عز وجل بأن ذلك لن يحدث .

نسيان الكثير من الرسالات

وحيث نرى أنفسنا أمام وعد صريح لسيدنا محمد أن الله سيحفظ كل آياته التى أنزلها عليه نرى عديدا من الرسالات التى أنزلها الله يوما ما قد نسيت تماما ولم يبق لها ذكر أو أثر وقد أشار القرآن الكريم الى أسماء بعض هؤلاء الرسل ولم يشر الى البعض الآخر وبالتالى الى فحوى رسالتهم .

ولذلك كان من رأينا أن آية « ما ننسخ من آية ... » الآية لا علاقة لها بموضوع الناسخ والمنسوخ الذى هو حقيقة مؤكدة فى الشريعة الاسلامية وانما الآية تشير الى الأديان السابقة .

الآية الوحيدة التى تتصل بالنسخ

فى رأينا أن الآية الوحيدة التى يمكن ان يوصف بها ما يجرى لبعض آيات القرآن هو ما قرره القرآن الكريم نفسه بصدد القضية موضوع البحث .

وهو قوله تعالى فى سورة النحل : « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر » .

فليس هناك نسخ فى القرآن بمعنى أن تلغى آية حكم آية وانما هناك استبدال مكانى بوضع آية مكان آية على أن تظل الآيتان عاملتان كلما تهيأت الظروف لتحقيق أى منهما .

وفى رأينا أن لا تغنى آية عن تطبيق آية أخرى أبدا وكل ما فى

الأمر أن تقدم عليها فى التطبيق آية أخرى لتبقى الأولى عاملة فى مجالات خاصة كما سوف نرى فى هذه الآية التى نحن بصددها .

النسخ فى الاحكام الشرعية وليس لآيات القرآن

ونبادر فنقول أن وجود النسخ فى الأحكام الشرعية مسألة مقررة لا جدال فيها وقد أشار اليها القرآن الكريم اكثر من مزة وهذا هو ما يحدث اللبس عند الكثيرين ناسين ــ أن للشريعة الاسلامية مصدران وهما القرآن والسنة وقد سبقت السنة دائما بأعمال سار عليها المسلمون ردحا من الزمان ثم نزل القرآن الكريم بحكم يغاير أو يعدل بالتشديد أو التخفيف فيبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانفاذ الحكم الجديد والغاء ماجرى عليه العمل قبل نزول أمر القرآن الصريح .

ولعل أوضح مثال على ذلك تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة . فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى اتجاه بيت المقدس ولم يكن ذلك يسبب له أى ضيق أو حرج ما بقى فى مكة فقد كان يصلى الى حائط الكعبة الجنوبى بحيث تكون قبلته فيما وراء ذلك هو بيت المقدس وظل الحال على هذا المنوال حتى بعد أن هاجر الى المدينة فأصبح يتجه فى صلاته صوب الشمال حيث بيت المقدس واستمر المسلمون يتوجهون فى صلاتهم الى بيت المقدس حتى هبط الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن تكون الكعبة وليست بيت المقدس هى قبلته فى الصلاة فتحولت القبلة من الشمال الى الجنوب وهذا نسخ لحكم (أى الغاء حكم وازالته) واتباع حكم جديد ، ولكنك لن ترى فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو لاتخاذ بيت المقدس قبلة وانما الذى حدث أن نزلت آية قرآنية تبطل ما جرى عليه العمل بالفعل ولكنها لا تناقض آية سابقة أبدا ، كان هذا رأينا من أكثر من عشر سنوات سجلناه فى كتابنا « الاسلام بلغة العصر » واليوم وبعد معايشتنا

للقرآن ونحن نشتغل بتفسيره زادت هذه القضية وضوحا فى تفكيرنا وسنرى كيف تدعم الآية الكريمة التى نحن بصددها هذا النظر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »

هنا ويتنادى القائلون بالنسخ ، أنظروا لقد كان السكر مباحا الا فى الصلاة . ولقد أصبح ذلك منسوخا بتحريم الخمر عندما اعتبرها القرآن « رجسا من عمل الشيطان » وأمر باجتنابها ومن هنا يبطلون العمل بحكم هذه الآية ، ونحن لا نرى هذا الرأى فضلا عن أن نأخذ به ، وعندنا أن محكمة عاملة الى يوم الدين لم تنسخها الآية الأخرى لقد حرم الله الخمر فيما حرم ومع ذلك فما أكثر ما يرتكب المسلمون المؤمنون المحرمات ، ووقوع الانسان فى خطيئة بارتكابه أحد المحرمات فان هذا لا يعنى بحال أن يرتكب المزيد من الخطايا والآثام ، فان يشرب المؤمن الخمر خطيئة ، ولكن أن يقرب الصلاة وهو « مخمور » خطيئة أعظم ، وهكذا يظل تحريم الصلاة على السكران ، قائما الى جوار تحريم الخمر نفسها فيكون المقدم عليه كمن يقدم على ارتكاب جريمة مضاعفه .

يبقى من يقول أن حظر الآية للصلاة فى حالة السكر معناه اباحة السكر فى غير الصلاة . وعندنا ان هذه مجرد تعلات لا تنتهى ومن يريد أن يشرب الخمر فسيظل يجد من أبواب الجدل الشىء الكثير ، فحتى آية التحريم القاطعة التى وصفت الخمر بأنها :

- تماثل الانصاب والأزلام .
- أنها رجس من عمل الشيطان .
- الأمر باجتنابها .
- الزجر لعدم الكف عنها .

ومع هذا التحريم المغلظ ، وكون شارب الخمر يجد ، فستجد من يقول لك أن الآية خلت من لفظ « التحريم » ومن هنا قلنا أن من يريد الجدل فباب الجدل مفتوح دائما فالقول بأن النهى عن الصلاة فى حالة السكر هو اباحة للسكر فى غير الصلاة ، هو لون من ألوان

الجدل (المذمـــوم) وتبقى الآية الكريمة فصحيـة ناطقـة الى يوم القيامة تحذر السكارى والمخمورين من الاقتراب من الصلاة .

حتى تعلموا ما تقولون :

ونريد أن نؤكد لأنه حقيقة آن تحريم الخمر قد تدرج فى التشديد والتغليظ على شرب الخمر فبـدأ بايحاء « تتخذون منها سكرا ورزقا حسنا » أى أن الخمر لا تعـد من ضروب الرزق الحسن ولا شك أن المؤمن الصادق قد فهم من هـذا الايماء كراهية الخمـر ولكن نظرا لأن التركيز كان فى بادىء الأمـر على التوحيد وهجر عبادة الأصنام من ناحية ولأن تعاطى الخمر كان قد أصبح فى قريش عادة متأصلة فقد ظل فريق ممن أسلموا يشربون الخمر وراحوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن حـكم الاسلام فى الخمر وهنا تدرج معهم الشارع الحكيم فأفصح لهم عمـا فى شربها من اثم كبير .

وكان ذلك كافيا لدى جمـاعة المؤمنين للكف عن شربها ولكن الآية التى نحن بصددها تكشف عن أن نفرا ظلوا (بحكم العادة القاهرة) يشربون ، فأمرهم القرآن الكريم أن لا يقربوا أماكن الصلاة فضـلا عن الصلاة نفسها وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون .

ولمـا كانت الخمر هى آفة تصيب العقل فما كان لمخمور أن يتأكد انه لن يخلط فى الكلام ويكون معنى ذلك ، هو تحريم الخمر التى تمنع الانسان من الصلاة . ومع ذلك فقد احتاج الامر لاستئصال عادة شرب الخمر الى آية جديدة تجعل شرب الخمر كالميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فهناك تدرج فى التشديد والتغليظ ولكن ليس هناك نسخ فالآيات كلها محكمة يكمل بعضها بعضا ويفسره ولا يلغيه .

اخترنا كلام ابن كثير

وقد قيل فى بعض التفاسيـر القديمة تخليط كثيـر فى أسباب نزول هذه الآية وذكـرت أسماء لبعض أجلاء الصحابة مثل : (على ابن أبى طالب وعبد الرحمن بـن عوف) ولما كنا لا نرتاح لمثل هذه

الأقاويل ومن ناحية أخرى فنحن نقف عند حد المأثور فقد رأينا أن نختار لك ما قاله العلامة ابن كثير فى تفسيره وقد كان شديد الحرص على معرفةالأحاديث النبوية الشريفة ومقارنتها والتحقق منها قال :

« ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة فى حالة السكر الذى لا يدرى معه المصلى ما يقول وعن قربان محالها التى هى المساجد للجنب الا أن يكون مجتازا من باب الى باب من غير مكث وقد كان هذا قبل تحريم (١) الخمر ونزلت آية : « يسألونك عن الخمر والميسر ... » الآية . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها على عمر فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال :« اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شاملا» فكانوا لا يشربون الخمرفى أوقات الصلاة حتى نزلت : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » الى قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون» فقال عمر : انتهينا .. انتهينا .

ونكتفى بهذا القدر مما جاء فى تفسير ابن كثير الذى مضى بعد ذلك يسرد كل ما ورد فى هذا الباب ؛ ويكفينا أنه استهل بحثه بايراد هذا الحديث عن سيدنا عمر والذى يدل على أن التدرج فى حظر الخمر وتحريمها ليس قائما على الغاء آية ، فالآيات كلها يكمل بعضها بعضا بعد أن كانت كل آية متأخرة تزيد ما سبقها شرحا .

وحاول بعض المفسرين أن يقول أن المقصود بالسكر هنا هو سكر النوم ولكن ذلك ليس برأى والاتفاق على أن السكر فى هذه الآية هو سكر الخمر .

يقول ابن كثير : « وقوله تعالى : حتى تعلموا ما تقولون هو أحسن ما يقال فى حد السكران انه الذى لا يدرى ما يقول فان المخمور

(١) لم ننقل جملة اعتراضية .

فيه تخليط فى القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها •

ولا جنبا الا عابرى سبيل :

وكما حرم القرآن على السكارى الاقتراب من الصلاة سواء من العبادة أو مكانها « المسجد » فكذلك حرمهما على من كان « جنبا الا عابرى سبيل » وقد قالت كثرة المفسرين أن عابرى سبيل تعنى السفر حيث قال بعض آخر أن المقصود بها ، هو عدم تواجد « الجنب » فى المسجد الا أن يكون عابر سبيل ولا مانع عندنا من العمل بكلا الرأيين أى أن لا يقرب الجنب الصلاة (بمعنى العبادة) حتى يتطهر على الكيفية التى سوف تشير لها الآية ، الا اذا كان مسافرا او الا اذا كان يعبر المسجد (مجرد عبور) •

الجنب :

يقال جنب الرجل وأجنب من الجنابة ،والجنابة مخالطة الرجل المرأة •

وفى كتب الفقه تحديد لما يحكم به على المرء أنه أصبح جنبا ، وهى على كل حال من الكلمات الشائعة التى يعرف الكافة معناها : العامة قبل الخاصة •

حتى تغتسلوا :

هنا ويظهر القارق العظيم بين نظرة القرآن الى السكر (أى شرب الخمر) الذى هو اثم ومعصية وبين الجنابة التى هى حالة طبيعية تعرض لكل انسان طائعا كان أو عاصيا ،بارا كان أو شقيا فقد حرم على السكران الاقتراب من الصلاة (حتى يعلم ما يقول) وهى مسألة معنوية لا يتيقن منها المؤمن بما يهدىء باله الا أن يبتعد عن شرب الخمر من أساسه أما دون ذلك فمن أدراه أن لا يقع فى المحظور• أما مع الجنابة فليس سوى اجراء مادى بسيط يكفى أن يقوم به المؤمن لكى تنتفى عنه صفة الجنابة ويصبح طاهرا يقرب الصلاة والمصلى معا وهذا الاجراء هو الاغتسال «حتى تغتسلوا » وكما ان لفظ «الجنابة» مشهور وشائع ومعروف للكافة فكذلك « الاغتسال » الذى هو السبيل للتطهر من الجنابة• وفى كتب الفقه (كما فى تفسير القرطبى)

كل ما يتعلق بالاغتسال وكيفيته وحدوده .

القرآن تشريع للبشرية كافة

على أن الذى يعنينا دائما هو ابراز كيف أن القرآن لكريم ليس من صنع بشر ولا هو خاص بمكان وزمان معينين ، بل هو تشريع عام خالد فها هو ذا يأمر المؤمنين كلما أجنبوا أن يغتسلوا ، مع أن القرآن نزل أول ما نزل يخاطب عربا فى صحراء العرب حيث لا يجدون الماء الا بشق النفس ويجدوا منه مايكفى لشربهم وشرب دوابهم فان الاسلام يقوم أول ما يقوم على النظافة والطهارة عن طريق الماء أولا فلا صلاة الا بعد غسل من الجنابة وبعد وضوء قبل أى صلاة وذلك أمر بعيد كل البعد عن البيئة التى نزل فيها القرآن ، فلم يكن فى مكة كلها الا بئر زمزم ليرتوى منه الناس وكذلك الحال فى المدينة بزيادة بئرين أو ثلاثة .أما خارج مكة والمدينة فقد يسير الانسان اياما وأياما لا يجد ماء الا ما يحمله فى « قربته » التى تكفى مع الجهد والمشقة لشربه ومع ذلك فان المتتبع لعبادات الاسلام يرى أغلبها يبدأ بالطهارة التى يؤلف الغسل بالماء عنصرها الاساسى ذلك أن القرآن لم يتأثر بالبيئة المحلية ولم ينزل ليكون دينا للعرب وانما هو لبنى البشر كافة فى كل زمان ومكان .

وان كنتم مرضى او على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم .

ولكن الله لا يكلف بما لا يطيقه الانسان

فالطهارة المادية هى النظافة والنظافة لا تكون بغير الماء ومن هنا جعل القرآن الكريم الماء هو الأصل فى الوضوء وفى الاغتسال، ولكن الله سبحانه وتعالى وهو خالق الانسان ويعرف كل الظروف التى تتصل وتحيط به فهو يعلم أن استعمال الماء قد يؤذيه فى بعض الأحوال وقد يكون منعدما فى أحيانا أخرى ولما كان الله سبحانه

وتعالى لا يكلف الانسان بما لا يطيق (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) فقد أعفاه من استعمال الماء فى أربع أحوال :

المرض : وكفى أن يصف المختص الانسان بأنه مريض يؤذيه استعمال الماء كى يسقط عنه التكليف باستعماله .

السفر : ثم تأتى حالة السفر ويكفى أن يصدق على الانسان وصف المسافر حتى يكون فى حكم الحالة السابقة . أى يسقط عنه التكليف باستعمال الماء وطالما سمعت كثيرا من المتدينين يقولون بحسن نية : ان ذلك ينطبق على السفر فى الزمن القديم حيث كان السفر قطعة من العذاب اما اليوم وقد أصبح السفر مريحا والماء متوفرا حتى فى حالة السفر ، فهم يرون أنفسهم مكلفين باستعمال الماء ولا يدرك هؤلاء المسلمون الطيبون انهم من حيث لا يشعرون يكررون قول من لا يؤمنون بالقرآن ويرون فيه تشريعا قديما وان الدنيا قد تطورت فأصبحت فى حاجة الى تشريع جديد على المؤمن الصادق أن يؤمن بأن الله يعلم هذا الذى يقوله وهو عندما يشرع فهو يشرع لكل زمان ومكان فهو يعرف كل الظروف ، وعلى الانسان أن لا يتصور انه يعلم ما لا يعلمه الله ويجب عليه متى تحقق الوصف الذى يصفه به القرآن من انه مسافر .. الى آخر الأحوال التى عددتها الآية ، واشتراط عدم وجود الماء لا يعنى انعدامه بالكلية بل ان وجود بعض الماء فى القافلة بما يكفى الشرب لا يلزم المسافر باستعمال الماء ، كما أن توفر الماء بأى كمية لا يلزم المريض باستعمال الماء متى قال له المختصون ان استعمال الماء يؤذيه ، وفى كتب الفقه تفصيل ذلك كله وسيجد فيها مختلف الآراء فليأخذ بأى منها .

أو جاء أحد منكم من الغائط :

أى اذا أحدث . والأصل فى كلمة الغائط المنخفض من الأرض والجمع الغيطان والأغواط وبه سميت غوطة دمشق .

وكانت العرب تستخدم هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن اعين الناس ثم سمى الحدث الخارج من الانسان « غائطا » .

وفى هذه الحالة رد على من قالوا بأن التيمم لا يجوز فى الحضر فالسخط هو عدم وجود الماء اللازم للوضوء .

أو لامستم النساء :

وملامسة النساء كناية عن المباشرة الجنسية وقد رأى البعض أن مجرد اللمس بمعناه الظاهرى المتعارف عليه ولكننا لا نأخذ بهذا الرأى فليرجع الى كتب الفقه من يشاء .

فتيمموا صعيدا طيبا :

المعنى اللغوى للكلمة «تيمموا» أى اقصدوا ولكن « التيمم » هو اصطلاح تعبدى اسلامى وهو مسح الوجه واليدين « صعيدا طيبا » والصعيد هو الأرض المرتفعة ولكن اللفظ هنا يعنى اصطلاحا ما تشرحه كتب الفقه تفصيلا من ضرب الكفين على التراب النظيف أو على الصخر الذى يعلوه غبار أو على كذا وكيت من معادن الارض مما لا نخوض فى شرحه أو تفصيله فالمرجع دائما هو لكتب الفقه وليس من رأينا فى كل الاحوال من يتصور أن التيمم لا يكون الا بتلويث الانسان بتراب أو بغيره فالنظافة أصل من أصول الاسلام « النظافة من الايمان » .

وليس التيمم « فى تصورنا » الا عملية رمزية يراد بها تذكير المسلم الذى لا يجد الماء الى نقصان أحد التعبديات «الوضوء والغسل» فليس الهدف من تيمم هو أن يلوث الانسان نفسه بالتراب أو بالرماد أو بالطين ... الخ .

وذلك يبين من كلمة « طيبا » وليست الوساخة والقذارة بالتى يمكن أن تنشأ فعلا عن أن توصف بالطيب ويبين كذلك من كيفية التيمم .

فامسحوا بوجوهكم وأيديكم :

جاء فى معجم ألفاظ القرآن مسح الشىء يمسحه مسحا ، أجرى عليه يده وأزال الأثر الذى عليه ، تقول مسحت اللوح المكتوب . (انتهى) .

أى أن الأصل فى المسح هو ازالة الأثر لا اضافة أثر .

على أن المعجم يعود فيقول لنا : ويقال مسحت الشيء اذا أمررت يدك عليه لا لتزيل عنه شيئا ، تقول : مسحت رأس اليتيم اظهارا للعطف عليه .

ومن هنا فعلى الرغم من أننا نجعل العبرة فى كل الامور التعبدية والتشريعية على ما يجيء فى كتب الفقه فنحن عند رأينا من أن التيمم عملية رمزية يقصد بها عن طريق امرار الكفين بالوجه واليدين الى أن هناك امرا غائبا (وهو الماء) .

ان الله كان عفوا غفورا :

وتختتم الآية بما يشعر اننا بازاء نقص فى العبادة لعدم استخدام الماء (للأسباب القاهرة) ولكن الله يقبل من عباده البديل الذى أجازه لهم ويعفو ويغفر انه البر الرحيم الذى لا يريد أن يشق على عباده .

احمد حسين

فضيلة القصد فى الكلام

قال عليه الصلاة والسلام : رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

وقال لمعاذ : انت سالم ما سكت ، فاذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال على كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل ، وارجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

المذهب الشيعى فى شعر السيد الحميرى

الأستاذ السيد حسن قرون

فى سنة ١٠٥ هـ ولد الشاعر (السيد الحميرى) وهى السنة التى مات فيها (كثير عزة) ليكون امتدادا له فى عقيدته ومقالاته فى حب آل البيت ، وكان مولده فى (نعمان) ، قال ياقوت :« واد قريب من الفرات على أرض الشام » ، وقد انتقل به أبواه الى البصرة حيث نشأ بها ، ولما شب عن الطوق عرف أن الكميت بن زيد الأسدى شاعر بنى هاشم والشيعة قد صار الى أمية والأمور لها مصاير ، فآكد فى نفسه أنه لن يصير الى أمية مهما تعنتت الأيام وجاءت بما لا تشتهى الأنفس ، وكان من حظه أنه لم يقع تحت طائلة التنكيل من ولاة بنى أمية ، لأن الأمور كانت فى سبيل التغيير ، والتغيير فى صالحه • وقد سئل عن التشيع من أين له ؟ فقال : « غاصت على الرحمة غوصا »

والسائل والمسئول كانا ذكيين ، فلم ينحدر السيد الحميرى من أبوين شيعيين ، بل كانا خارجيين من فرقة (الاباضية) لذلك كان السؤال وكان الجواب ، ويقتضينى البحث أن أتحدث عن أسرته ، فأما أمه فهى امرأة من الأزد ، والأزد يمانيون سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم تفرقوا فى الجزيرة ، فأقاموا فى أنحاء متباعدة ، منهم فى الشام الغساسنة ، ومنهم فى الحجاز الأوس والخزرج ، وفى الجنوب ازد شنوءة ، وأما أبوه فهو محمد بن يزيد بن مفرغ الحميرى ، ومحمد هذا لا يعرف التاريخ عنه الا أنه وزوجه كانا اباضيين ، وكان منزلهما بالبصرة فى غرفة بنى ضبة ، فكان ابنهما السيد يقول طالما سب أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى هذه الغرفة ، واسم السيد

(اسماعيل) ، وأغلب الظن أنه لقب نفسه بهذا اللقب « السيد » واشتهر به ، وزاده وضوحا فكنى نفسه «أبا هاشم » اعلانا لهواه ووجهة نظره ، وقد هم أبواه بقتله لما علما بمذهبه، ولم ينقذه من براثنهما الا (عقبة بن سلم الهنائى) فقد آواه فوهب له منزلا فكان فيه حتى ماتا فورثهما . واذا كان أبوه محمد هذا ليس ذائع الصيت فان جده (يزيد بن ربيعة) كان ذائع الصيت وربيعة هو مفرغ لقب بمفرغ لأنه راهن أن يفرغ عسا من لبن فشربه حتى فرغه ، فلقب مفرغا ، وكان شابا سيالة ، صناعته اصلاح الآنية المصدوعة ، وابنه يزيد هو المشهور لموقفه بشعره الناضج من آل زياد ، وقد كتب عنه الدكتور طه حسين فصلا فى كتابه « ألوان » وجعل عنوان مقاله « شاعر الحب والبغض والحرية » ويزيد بن مفرغ الحميرى جد الشاعر له صلة بالدراسة الأزهرية ، فنحن نحفظ قوله فى (عباد بن زياد) حين صحبه الى سجستان فلم يحظ منه بطائل وكان عباد له لحية عظيمة ، فاتخذ منها مجالا لهجائه فقال :

ألا ليت اللحى كانت حشيشا
فنعلفها خيول المسلمينا

نحفظ هذا ونحفظ قوله حين خرج من سجن عباد :

عدس مالعباد عليك امارة
نجوت وهذا تحملين طليق

والشاهد فى (عدس) صوت لزجر الدابة ، (وهذا) بمعنى الذى ، واذا كنا نحفظ هذين البيتين من شعره فان الحسين رضى الله عنه تمثل بشعره حين رفض خلافة يزيد بن معاوية ، فمن أين جاءه التشيع ؟ هل غاص عليه الرحمة غوصا كما يقول ؟ أبواه كانا من الخوارج ، وجده كان شاعرا يمدح معاوية وله حلف فى قريش ونسب فى اليمانية ، يكره بنى زياد ولكنه لا يذكر بنى هاشم، ولم يعرف عنه أنه ذهب اليهم ، أو أشار الى حقهم ، وينبغى أن ننظر الى احداث عصره ، وما كان يقال فى ذلك الزمان .

حين ترعرع السيد نظر فرأى حوله أحزابا قائمة ، ولكل حزب شعراؤه ، وأشهر الأحزاب كانت شيعة بنى أمية وشيعة بنى هاشم ، والخوارج ، وبقايا من

أنصار الزبيريين ، وكثر الحديث حول الامامة ، ومن أحق الناس بها، وكان الكميت قد فتح باب الاحتجاج للشيعة بقوله :

فان هى لم تصلح لحى سواهم
فان ذوى القربى أحق وأوجب

يقولون : لم يورث ولولا تراثه
لقد شركت فيه بجيل وأرحب

فالخلافة لا تصلح لغير قريش لأنها قبيلة صاحب الرسالة ، وعلى هذا فيجب أن يكون الخليفة أقربهم اليه ، وأقربهم هم بنو هاشم وان قالوا : ان الرسول لا يورث فلم يتولاها بنو أمية ، بل يجب أن تشركهم القبائل الأخرى ومنها بجيل وارحب ، ولابد أن السيد أعجب بذلك المنطق ، فولج المجتمعات ودخل (المربد) (١) حيث الأدباء والشعراء وعلماء الأخبار واللغة والأدب واستمع الى ما يقال، وقامت ثورات من العلويين ، ورأى التنكيل بهم ، فعطف على المغلوبين أصحاب الحق فى الرياسة والحكم ، وتنقل بين الكوفة والبصرة فازداد معرفة وازداد تعمقا ، وحن حنين النيب الى التغيير ، وأن يصل الحق الى اصحابه ، ورأى الامامة من حق على وبنيه ، على أن مذهبه هذا لم يمنعه من حب الهاشميين جميعا ، أليسوا من شجرة واحدة ؟ لكن هذه الشجرة لها فروع وأغصان وثمار فأيها يختار ؟ لنترك المذاهب السياسية جانبا ولننظر فى الفرق التى ظهرت فى عهده .

أول فرقة تألفت واهتز عرش أمية من سطوتها هى فرقة الزيدية ، أتباع زيد بن على زين العابدين حفيد الحسين رضى الله عنه ، فقد كان أتباعه يجمعون فى على بن أبى طالب كل الفضائل ، فهو أول من أسلم وهو شجاع وذب عن الاسلام بسيفه ، وهو عالم وهو زاهد ، شاركه بعض الصحابة كل فى واحدة منها لكنه هو الذى جمع الخير من جميع أطرافه ، ولم يشأ أن يخرج على الجماعة حين خلافة أبى بكر رضى الله عنه خوفا على الاسلام ، فالأنصار يطالبون بالخلافة أو على الأقل منهم أمير ومن قريش أمير ، والنفاق فى

(١) المربد فى البصرة يشبه سوق عكاظ فى الجاهلية .

المدينة يتربص بالمسلمين الدوائر ، والجزيرة العربية ارتدت ومنعت الزكاة ، عرف على ذلك فآثر الخمول وهذا يضاف الى فضائله ، ومن هنا قال زيد وأتباعه يجوز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، ومن حججهم أن طالوت كان ملك بنى اسرائيل وفى جيشه نبى هو (داود) عليه السلام، وهذا المذهب رفضه بعض أتباعه فأنكروا خلافة أبى بكر وعمر فسموا « الرافضة » واتجهوا الى ابن أخى زيد وهو (جعفر بن محمد) فاعترفوا بامامته ، وقالوا الأئمة نص عليهم صاحب الشرع بالتعيين ، كل امام يوصى لمن بعده ، فعلى وصى الرسول ، وأوصى على الى الحسن، والحسن الى الحسين ثم الى زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم جعفر الصادق ، لم يأخذ السيد الحميرى بمذهب الزيدية ولا بمذهب الرافضة ، اتجه الى أن الأئمة على والثلاثة من بنيه : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وعند محمد بن الحنفية توقف ، وقال : انه لم يمت، وسيرجع فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، وهو ما ذهب اليه كثير عزة قبله بأعوام ، لكن العباسيين ارتضوا هذا المذهب فى سياقه وانتهوا به الى أن محمد بن الحنفية أوصى من بعده الى ابنه أبى هاشم ، ثم أوصى أبو هاشم بعد رجوعه من دمشق وشعر بالموت لسم وضع له فى طريقه من الخليفة أوصى الى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ومحمد أوصى الى ابنه ابراهيم الامام ، وابراهيم أوصى بها الى أخيه (أبى العباس السفاح) لم ينكر السيد على بنى العباس مقالتهم فحين تغلبوا على بنى أمية ، وتولى الخلافة السفاح كان السيد ممن قد حضر خطبته ، فحين نزل من المنبر أنشده وهو فى بهجة غامرة ، وآمال فساح :

دونكموها يا بنى هاشم
فجددوا من عهدها الدارسا

دونكموها فلا علا كعب من
كان عليكم ملكها نافسا

دونكموها فالبسوا تاجها
لا تعدموا منكم له لابسا

قد سامها قبلكم ساسة
لم يتركوا رطبا ولا يابسا

لـو خيـر المنبـر فرسـانه
ما اختـار الا منـكم فارسـا

فلسـت من أن تملكوهـا الى
مهبـط عيسى فيـكم آيسـا

فسر أبو العباس ، وقال : أحسنت يا اسماعيل سلنى حوائجك ، وكانت حوائجه طلب الولاية لأحد أحبابه.

قلت : انه توقف عند ابن الحنيفة، وجعل الأمر اليه حين يرجع ، وكان جعفر الصادق لا يرى رأيه ،والشيعة جعلت من جعفـر الصادق مفتـرق الطرق فى أمر الشيـعة بعده ، ولا بأس أن نذكر هذا بايجاز ، فكيف كان ذلك ؟ ذهب المؤرخون ومنهم صاحب الملل والنحل وابن خلدون الى أن جعفراً الصادق أنجب ولدين: اسماعيل ، ومـوسى الكاظم ومات اسماعيل قبله ، وبقى له موسى ، يقول ابن خلدون : ومن هنا افترقوا فرقتين : فرقة ساقوها الى ولـده اسماعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية ، وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشريـة لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وقولهم بغيبته الى آخر الـزمان . فأما الاسـماعيلية فقالـوا باماميـة اسماعيل بالنص عن أبيه جعفـر ، وفائدة النص عليه عندهم ــ وان كان قد مات قبل أبيه ــ انما هـو بقاء الامامة فى عقبه كقصة هارون مع موسى عليهما السلام . قالوا : ثم انتقلت الامامة من اسـماعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، لأن الامام عندهم قد لا تكون له شوكة فيستتر ، ويكون دعاته ظاهـرين اقامة للحجـة على الخلق ، واذا كانت له شوكة ظهر ، وأظهر دعوته ويسلسلون الأئمة الى محمد الحبيب وهو آخر المستورين، وبعده ابنه (عبد الله المهدى) الذى أقام دولة الفـاطميين فى المغـرب ومصر ، ويسمون أيضا (بالباطنية) نسبة الى قولهم بالامام الباطن أى المستور .

فأما الاثنا عشرية فربما خصـوا باسم (الامامية) عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر اسماعيل الامام فى حياة أبيهمـا جعفر فنص على امامة موسى هذا ، ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ، ثم ابنه محمد

التقى ، ثم ابنه على الهادى ، ثم محمد الحسن العسكرى وهو (المهدى المنتظر) وهو الذى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة .. وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وهذا المذهب يتيح للأتباع أن يقوموا ويظهروا الحق ويحكموا باسم الامام الغائب حتى لا يأثموا بترك اقامة الحجة للخلق والسيد الحميرى لم يشاهد ما تحدث عنه ابن خلدون، ولكنه شاهد وعاصر جعفرا الصادق، وكانت له صلة به ، وتردد عليه . قالوا : استأذن السيد فى الدخول الى جعفر الصادق فأمر بايصاله وأقعد حرمه خلف ستر ، ودخل فسلم وجلس فاستنشده فأنشده قوله :

امرر على جدث الحسين
وقل لأ عظمه الزكيه
يا اعظما لا زلت من
وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره
فأطل بهو قف المطيه
وابك المطهر للمطهر
والمطهرة التقيه
كبكاء معولة أتت
يوما لواحدها المنيه

فبكى جعفر وسالت الدموع على خديه ولحيته ، وارتفع الصراخ والبكاء من داره حتى أمره بالامساك وقد تظن أنه بشعره هذا كان متشيعا له أو متبعا لآثاره ، انه لا يحيد عن مذهبه ، ان مذهبه كما قدمت أن الامامة صارت بعد الحسين الى أخيه محمد بن الحنفية ، وأنه حى منتظر لا يموت ، وهو المهدى المنتظر .

يقول أبو الفرج الأصفهانى فى (الأغانى) روى بعض من لا تصح روايته أنه رجع عن مذهبه ، وأنه لقى جعفر بن محمد ، فقال بامامته، ورجع عن مذهب الكيسانية (أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى) ورووا فى ذلك شعرا منه :

« تجعفرت باسم الله والله أكبر وأيقنت أن الله يعفو ويغفر »قال أبو الفرج : ولم نجد ذلك فى رواية صحيحة ولا قولا محصلا ، وان القصائد التى نقلت لا تناسب فى جزالتها أشعاره التى فيها الكيسانية.

وقد ذهب بعض الرواة الى أن السيد حين نعى الى جعفر الصادق

ترحم عليه ودعا له ، فقال له رجل : يا بن رسول الله تدعو له وهو يشرب الخمر ويؤمن بالرجعة ! فقال : حدثنى أبى عن جدى أن محبى آل محمد لا يموتون الا تائبين وقد تاب ، ورفع مصلى كان تحته فأخرج كتابا من السيد يعرفه أنه قد تاب ويسأله الدعاء له ، وأنا أعتقد حسب دراسة شعره أنه لم يفارق مذهبه ، ولم ينتحل غيره ، فاذا كتب الى جعفر طالبا دعاءه فهو كانشاده الشعر فى رثاء الحسين يبين عن حب وولاء لهذا البيت ، وان كانت عقيدته تتمثل فى قوله والحديث عن ابن الحنفية واسمه محمد وكنيته أبو القاسم :

سمى نبينا لم يبق منهم
سواه فعنده حصل الرجاء

تغيب غيبة من « غير موت »
ولا قتل وسار به القضاء

وبين الوحش يرعى فى رياض
من الآفاق مرتعها خلاء

فحل فما بها بشر سواه
بعقوته له عسل وماء

الى وقت ، ومدة كل وقت
ـ وان طالت عليه ـ لها انقضاء

كأنا بابن (خولة) (٢) عن قريب
ورب العرش يفعل ما يشاء

يهز دوين الشمس سيفا
كلمع البرق أخلصه الجلاء

تشبه وجهه قمرا منيراً
يضىء له ـ اذا طلع السناء

فلا يخفى على أحد بصير
وهل بالشمس ضاحية خفاء ؟

هنالك تعلم الأحزاب أنا
ليوث لاينهنهها لقاء

فندرك بالذحول (١) بنى أمى
وفى ذاك الذحول لهم فناء

وأكبر الظن ان هذا الشعر قيل قبل أن تزول دولة بنى أمية ، ويفتك بهم العباسيون فتكا ذريعا ، فقد أدركت الذحول وحل بهم ما تقشعر منه الأبدان ، ولا أراه يرمز به الى العهد القائم فقد هش له وبش ، واستقبله فرحا به ، راضيا عنه آملا فيه البقاء الى مهبط عيسى الا اذا كان يرمى الى مطلق عمل المهدى المنتظر ،

(١) خولة أمه وهى من بنى حنيفة واليها ينسب .
(١) المفرد : ذحل وهو الحقد والعداوة ، يقال طلب بذحله أى يثأره

وهو القضاء على الجور ، واحياء العدل ، وبعض الرواة يصمه بأنه يؤمن بالرجعة ، ويعنى الرجعة أن الامام الذى خلى مكانه ، وقضى نحبه يرجع الى حياته الدنيا ، ولهم براهين منها قصة اهل الكهف ، والذى مر على قرية ، وقتيل بنى اسرائيل ، وهى خوارق الانبياء فتطبيقها على غيرهم خروج على معنى المعجزة والغاية منها، ويذكرون له شعرا منه :

اذا ما المرء شاب له قذال
وعلله المواشط بالخضاب

فقد ذهبت بشاشته وأودى
فقم ياصاح نبك على الشباب

الى يوم تئوب الناس فيه
الى دنياهم قبل الحساب

فليس بعائد ما فات منه
الى أحد الى يوم الايلب

أدين بأن ذلك دين حق
وما أنا فى النشور بذى ارتياب

كذاك الله أخبر عن أناس
حيوا من بعد درس فى التراب

والبيت الأخير هو الشاهد عند من يصمه ويدينه ، والذين دونوا تاريخه لا ينسون له تلك النادرة التى تدعو الى الابتسام ، وان كانوا بها يؤيدون ما ذهبوا اليه ، قالوا : كان السيد يدين بالرجعة ، فجاء رجل اليه ، فقال : بلغنى أنك تدين بالرجعة ، فقال : صدق الذى أخبرك ، وهذا دينى . قال : فتعطينى دينارا بمائة دينار الى الرجعة ؟ قال السيد : نعم ، وأكثر من ذلك ان وثقت لى بأنك ترجع انسانا . قال : وأى شىء أرجع ؟ قال : أخشى أن ترجع كلبا أو خنزيرا فيذهب مالى . فأفحمه .

والذى أوشك أن أتيقنه أن السيد الحميرى دفعه حبه لعلى وبنيه الى تلك العقائد التى هتف بها ،و أبانت عن ولائه فجعلته يتمنى رجعة على لأنه يراه مظلوما ، وران على خلده أنه أمر يمكن أن يقع ، ثم تملكه شعوره فغطى على عقله فكانت الرجعة وكان الرجاء فى محمد بن الحنفية بعد الحسين ، وقد بشر بدولة بنى هاشم ، فلما مات أنكر

(٢) جماع مؤخر الراس وجمعه اقذلة ، وقذل .

كثير عزة موته • وتبعه السيد فكثير يقول فى ابن الحنفية :

تغيب لا يرى فيهم زمانا
برضوى عنده عسل وماء

وهذا ما قاله السيد بل ينسبون ما قاله كثير اليه ، وقد تجلى حب على منه فى شعر كثير يفيض بمشاعر متقدة ، اقرأ معى قوله

انى أدين بما دان الوصى به
وشاركت كفه كفى بصفينا

فى سفك ماسفكت منها اذا اختضروا
وابرز الله للقسط الموازينا

تلك الدماء معا يارب فى عنقى

ثم اسقنى منها أمين أمينا
أمين من مثلهم من مثل حالهم

فى فتية هاجروا لله سارينا
ليسوا يريدون غير الله ربهم
نعم المراد توخاه المريدونا

فأنت تراه لا يقنع بالحب والولاء، ويأبى الا أن يشاركه فى الدماء ، يضعها فى عنقه ليلقى الله بها يوم الجزاء ، وهو معتقد أنه ناج له ثواب ما نواه ورجاه • ولم يخش العذاب وهو يشارك الوصى ؟ والوصى لا يقترف الكبائر ولا الصغائر ، فمن والاه نظر اليه الله فأعطاه حسن الثواب • وهذا الحب المكين هو الذى دفعه الى جمع أخباره وآثاره، فكان يأتى (الأعمش) فيكتب عنه فضائل على بن أبى طالب ، فخرج من عند أحد أمراء الكوفة ذات يوم ، وقد حمله على فرس ، وخلع عليه خلعة ، فوقف بالكناسة (موضع بالكوفة) ثم قال :

يا معشر الكوفيين ، من جاءنى منكم بفضيلة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه لم أقل فيها شعرا فله فرسى هذا وما على

فجعلوا يحدثونه وينشدهم حتى أتاه رجل فقال : ان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عزم على الركوب ، فلبس ثيابه ، وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ، ثم أهوى الى الآخر ليأخذه ، فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود (ثعبان) فانساب فدخل جحرا ، فلبس على رضى الله عنه الخف ــ ولم يكن قال السيد فى ذلك شيئا ــ ففكر هنيهة ثم قال : قد قلت :

ألا يا قوم للعجب العجاب
لخف أبى الحسين وللحباب(١)

أتى خفا له فانساب فيه
لينهش رجله منه بناب

فخر من السماء له عقاب
من العقبان أو شبه العقاب

فطار به فحلق ثم أهوى
به للأرض من دون السحاب

الى جحر له وانساب فيه
بعيد القعر لم يرتج بباب

كريه الوجه أسود ذو بصيص
حديد الناب أزرق ذو لعاب

ودوفع عن أبى حسن على
نقيع سمامه بعد انسياب

والارتجال واضح على هذه الأبيات ، والقصة حدثت للنبى صلى الله عليه وسلم كما رواها ابن عباس ، ولكن الرجل أراد امتحان السيد ـ كما يخيل الى ـ ، والسيد ينجح دائما فى المضايق لذكائه وقدرته على افحام مناوئه !

من ذلك أنه سمع محدثا يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ساجدا ، فركب الحسن والحسين ظهره عليه السلام ، فقال عمر رضى الله عنه : نعم المطى مطيكما : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم الراكبان هما ! فانصرف السيد من فوره فقال :

أتى حسنا والحسين النبى
وقد جلسا حجرة (٢) يلعبان
ففداهما ثم حياهما
وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه
فنعم المطية والراكبان
وليدان أمهما برة
حصان مطهرة للحصان
وشيخهما ابن أبى طالب
فنعم الوليدان والوالدان

ولو كان ممن يحب هوناً ما لاكتفى بما سمع ، ولأعفى نفسه من ذكر الوالدين ، فعلى أولا وعلى آخرا ، ومنه مبدأ الأئمة ، وبه تتابعوا بالنص ، لأن صاحب الشرع لابد أن يفعل ذلك ؟ لأن الامامة ركن من أركان الدين ، وليست تترك للأمة

(١) الحباب = الثعبان .
(٢) نامية .

أو الشعب ليكون الانتخاب والاختيار ، فلابد من التنويه فى كل شعر بهذه القضية ، وكانت الحواضر الاسلامية على اختلاف مناهجها تسمع له ، ولا تتنكر لما يقول ، وكان المتزمتون يرفضون رواية شعره ، لكن خلفاء بنى العباس ممن عاصرهم بدءاً بالسفاح الى الرشيد كانوا يعاملونه على أنه شاعرهم والمشيد بفضلهم ، ولم يتعرض للوقيعة بينه وبينهم الا مرة واحدة ، كانت من القاضى (سوار ابن عبد الله العنبرى) ولم أتبين الدافع لسوار ، أهو الاخلاص لبنى العباس أم بغضه لمذهب الشاعر ؟ جلس المنصور بالجسر الأكبر حين عقد له على دجلة البصرة وسوار بن عبد الله قاضى البصرة جالس عنده والسيد الحميرى بين يديه ينشده شعرا منه : ان الا له الذى لا شىء يشبهه

أعطاكم الملك للدنيا وللدين

والمنصور يضحك مسرورا بما ينشده ، فحانت منه التفاتة فرأى وجه سوار يتربد غيظا ، ويسود حنقا ، ويدلك احدى يديه بالأخرى ، فقال له المنصور : مالك أرابك شىء؟ فقال : نعم ، هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس فى قلبه ، والله يا أمير المؤمنين ما صدقك عما فى نفسه ، ان الذين يواليهم غيركم . فقال له المنصور : مهلا ، هذا شاعرنا ووليا ، وما أعرف عنه الا الصدق والمحبة والاخلاص فى الطاعة ، وهذه التهمة خليقة أن ترمى بالسيد الى التهلكة ، لأن المنصور لا يتغاضى أبدا عن ملكه ، ولذا فزع السيد اليه قائلا : يا أمير المؤمنين ما زلت والله مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم ، ولكن هذا وأهلوه أعداء الله ورسوله قديما والذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات (يعنى وفد بنى تميم وبنو العنبر منهم) فنزل فيهم القرآن « ان أكثرهم لا يعقلون » وانفض المجلس ولم تنفض العداوة ، وعداوة الشعراء بئس المقتنى كما يقول المتنبى ، فهجا السيد القاضى ، وبدأ بقصيدة ذكر فيها عيوب القاضى وأجداده فرماه بكل منكر ورمى جده بأنه سرق عنزة النبى وهى

عصاه التى توضع فى مصلاه ، وكرر قصة النداء من وراء الحجرات وولاءهم لعثمان من تلك القصيدة قوله :

يا أمين الله يا منصو
رى يا خير الولاة
ان سواربن عبد الله من شر القضاة
نعثلى (١) جملى
لكم غير مثواتى
جده سارق عنز
فجرة من فجرات
لرسول الله والقا
ذفه بالمنكرات
وابن من كان ينادى
من وراء الحجرات
فاكفينيه لا كفاه الله
شر الفاقرات (٢)

فشكاه سوار الى المنصور ، فلم يغضب على الشاعر ، ولم يهمل القاضى ، فأمر الشاعر أن يعتذر الى القاضى ، ولكنه رفض عذره ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لكن السيد الحميرى عد رفض عذره اهانة له ، فوجه اليه هجاءه

أتيت دعى بنى العنبر
أروم اعتذارا فلم يعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها
مع القوم فى فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى
الى رجل من بنى العنبر؟
أبوك ابن سارق عنز النبى
وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو
ن لأهل الضلالة والمنكر

وجزاه القاضى اساءة باساءة ، فرد شهادته فى مجلس القضاء ، فأرسل اليه السيد شعرا فيه هجاء ، وعرف السيد أنه بصدد الشكوى فأسرع الى المنصور فسبق خصمه وأخذ ينشد المنصور شعرا منه :

قل للامام الذى تنجى بطاعته
يوم القيامة بحبوحة النار
لاتستعينن ــ جزاك الله صالحة

(١) نعثلى : نسبة الى نعثل رجل طويل اللحية كان يشبه به عثمان اذ أنيل منه :
وجملى : نسبة الى واقعة الجمل (٢) المصائب . (٣) لم يقبل العذر .

ياخير من دب فى حكم بسوار

ودخل سوار ، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر اياس ابن معاوية حين قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود فما أحوجك الى التعرض الى السيد ولسانه ؟ ثم أمر السيد بمصالحته ، ولقد صدق الشاعر باختياره وصف القرآن لمثل القاضى « ان أكثرهم لا يعقلون » وأين سوار من اياس الذى يضرب بذكائه المثل ؟

ولم يحدث للشاعر بعد هذا موقف يخافه ، وبقى على مذهبه فى التنويه بأئمته ، ويشارك الناس فى حياتهم، ولا ينكر عليهم اتجاهاتهم

والسيد الحميرى شاعر من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، ولو تفرغ لأجناس أدبية غير ما كان يلهج به لأتى بالعجب العجاب ولترك لنا فنا خصبا تتمتع به ، ولا غروفى ذلك فهو ينزع الى عرق شاعر له أصالة واجادة ، وهو جده يزيد بن مفرغ وفيه منه التمسك بالرأى ، والبعد عن التلون ، فاذا أحب أحب الى غير نهاية ، واذا أبغض أبغض الى مالا نهاية ولو كلفه العذاب ومرارة السجن والاعنات ، وهكذا كان حفيده السيد ، فهو قد أحب بنى هاشم ، ورأى فى على كل الفضائل والشمائل ، وآمن بامامته وتوقف عند ابنه محمد بن الحنفية ، فقال فيه ما جعله موضع المؤاخذة من معاصريه ، وكاد يجمع نقاد عصره على فحولته فى الشعر وتفوقه فيه ، يقول صاحب الأغانى : وكان شاعرا مطبوعا مكثرا ، ويقال : ان أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد : فانه لا يعلم أن أحدا قدر على جمع شعر واحد منهم حتى يستوعبه كله ، وانما مات شعره وهجر الناس ذكره لافراطه فى سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أزواجه . وقد اعترف الأصمعى بعلو مقامه فى فنه ، فقد حكى النهدى قال : رأى معى الأصمعى دفترا فيه شعر السيد الحميرى فقال : ما هذا ؟ فسترته عنه لعلمى بما عنده ، فأقسم على أن اخبره فأخبرته ، فقال : أنشدنى قصيدة منه ، فأنشدته قصيدة ثم أخرى وهو يستزيدنى ثم قال : ما أسلكه

لطريق الفحول لولا مذهبه ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ، وحكى أن العتبى قال يوما ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهبا فى شعره ولا أنقى ألفاظا من السيد ، وشهادة العتبى لها قيمتها ، لأنه رجل من بنى أمية والسيد من الثائرين على بنى أمية ، والمشهر بفساد حكمهم ، ومن الغريب أن القصيدة التى أعجبته وقال عنها أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذى يهجم على القلوب بلا حجاب تنتهى بهذين البيتين :

أقسم بالله وآلائه
والمرء عما قال مسئول

ان على بن أبى طالب
على التقى والبر مجبول

مما يعطى انطباعا بالنظرة الموضوعية لنقد الشعر بميزان الذوق والمعرفة ، ولو استمع الى الشعر من قائله لازداد اعجابا وعليه اقبالا ، فقد ذكروا أن السيد كان أسمر تام القامة ، أشنب ، ذا وفرة ، حسن الألفاظ ، جميل الخطاب ، اذا تحدث فى مجلس قوم أعطى كل رجل فى المجلس نصيبه من حديثه ، واذا كان السيد شغل بمذهبه ، والحديث عنه ، والدعوة له لم يترك نصيبه من الغزل والقول فيه واحسان قوافيه ، وقد غنى من شعره هذه الأبيات :

ما جرت خطرة على القلب منى
فيك الا استترت عن أصحابى

من دموع تجرى فان كنت وحدى
خاليا أسعدت دموعى انتحابى

ان حبى اياك قد سل جسمى
ورمانى بالشيب قبل الشباب

ارحمى اليوم هائما بك صبا
هائم القلب قد ثوى فى التراب

وهو شعر قدقيل مثله من العشاق ولكنه يحوى ملامح السيد من وضوح وانسياب وتمكن من الأداء ، وطابعه النفسى من المروءة التى ترتفع بصاحبها عن افشاء سر الهوى مهما لاقى من الوجد ، وكفاه أنه شاب قبل الشباب ، وأنه قد ثوى فى التراب .

على أن من أهم ما يميز السيد أنه شاعر ملتزم وظف شعره لغاية ، فلم يك كمعاصريه من الشعراء من أمثال بشار وأبى العتاهية وأبى

نواس أساس الأمر عندهم هو المدح ونيل الجوائز ، ثم التهاجى واللعب بعقول الناس ولذلك تجدهم يصفونه بأنه من أهل التصوف مع أن التصوف كان فى بواكيره الأولى على يد الفضيل بن عياض ومريديه، وأكبر الظن أن تصوفه كان فى عفته واعتزازه بنفسه ، وبعده عن مجتمع الخلاعة والمجون ، هل لما ذهب اليه السيد أثر فى الفرق التى ظهرت بعد وفاته ؟ لم يسأل أحد هذا السؤال، ولكنه خطر ببالى وأنا أقرأ مذهب الامامية ، فالسيد توقف عند ابن الحنفية ، وجعله « المهدى المنتظر » وكذلك الامامية ، وهم الاثنا عشرية توقفوا عند الامام الثانى عشر وهو المهدى المنتظر ، فهذه العقيدة جاءت اليهم من نظرتهم الى المهدى المنتظر، وفيه أحاديث مروية يداخلنى الشك فيها ، فلم أجد تواترا يؤيدها ، فالامام الثانى عشر هو (محمد الحسن العسكرى) اختفى فى سرداب وقد كان أتباعه فى العصور البعيدة ينتظرون خروجه ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، هذه العقيدة ملامحها وأهدافها شبيهة بما قاله السيد الحميرى بيد أن الامامية حسب التطور أوضح مسلكا ، وأكثر نفعا ، فالامام غائب فمن يحل محله لاقامة الحجة حتى يظهر ؟ الجواب هم الاتباع ، ومن ثم بقيت الدعوة وبقى المذهب ، فاذا انتصر الأتباع حكموا باسم الامام الغائب وهذا يحصنهم من دعوة علوى يطالبهم بامامته ، لأنهم بصدد انتظار الامام الغائب ، وليس له أن يغير ما سلكوه وساروا عليه ، وتسأل نفسك اليوم وقد ظهرت الشيعة فى ايران وغلبت وأقامت حكومة فلم لا ينصبون علويا عليهم ؟ والجواب ما ذكرت آنفا .

لم يوص السيد الحميرى حين وفاته أحدا بمذهبه كما أوصى كثير عزة ، فعندما احتضر دعا ابنة أخ له فقال : يابنة أخى ، ان عمك كان يحب هذا الرجل فأحبيه يعنى على بن أبى طالب ــ فقالت : نصيحتك ياعم مردودة عليك ، أحبه والله خلاف الحب الذى أحببته أنت ، فقال لها برئت منك وأنشد :

برئت الى الاله من ابن أروى
ومن قول الخوارج أجمعينا

ومن عمر برئت ومن عتيق
غداة دعى أمير المؤمنينا

وابنة أخيه أسلم عقيدة منه ، فهى لا تبرأ من ابن أروى عثمان بن عفان ولا من عمر ولا من أبى بكر الصديق وهو عتيق . وانما حكوا عن السيد لما حضرته الوفاة الخبر التالى :

قال بشار بن عمار وهو من رواة الأخبار : حضرت وفاة السيد فى الرميلة ببغداد ، فوجه رسولا الى صف الخرازين الكوفيين ، يعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول فذهب الى صف السنوسيين ، فشمتوه ولعنوه ، فعلم أنه غلط : فعاد الى الكوفيين ، فوافاه سبعون رجلا معهم سبعون كفنا ، قال : وحضرناه جميعا ، وانه ليتحسر تحسرا شديدا ، وان وجهه لأسود وما يتكلم الى أن أفاق افاقة ، وفتح عينيه ، ونظر الى ناحية القبلة وقال : يا أمير المؤمنين — على بن أبى طالب — أتفعل هذا بوليك ؟ قالها ثلاث مرات ، مرة بعد أخرى ، فتجلى والله فى وجهه عرق بياض ، فما زال يتسع ويلبس وجهه حتى صار كله كالبدر ، وتوفى ، وقمنا فأخذنا فى جهازه ، فدفناه فى الجنينة ببغداد ، وذلك فى خلافة الرشيد .

والذى يعنينى من هذا الخبر مكانة السيد فى قلوب الناس ، واهتمامهم بمرضه ووفاته وتكفينه ودفنه . أما الكرامة وما حدث له من سواد ثم بياض فذلك عهدة الراوى ، ويكفى أن السيد لم يفعل فعل كثير عزة فيوصى بما يسوءه ويحسب عليه ، وكفاه ما عاناه وما قاساه فى سبيل ما ذهب اليه وكلفه من أمره عسرا ، والله رحيم بعباده .

السيد حسن قرون

رحلة مع كتاب "الرسول صلى الله عليه وسلم"

لفضيلة الكاتب الإسلامى الشيخ سعيد حوى

أعدها الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

— ١ —

مقدمة

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال رضيت بالله تعالى — ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم — رسولا وجبت له الجنة » أخرجه أبوداود .

ومن الخير أن أصدر رحلتى مع هذا الكتاب — الثانى فى سلسلة أعدها الكاتب السورى العظيم الشيخ سعيد حوى تتناول أربعة موضوعات مهمة فى الاسلام . هى : الله — الرسول — الاسلام — حَبَّذا لله ثقافة واسلاما . بهذا الحديث الشريف الذى اختتم المؤلف به بحثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . ولعلنا فى هذه الأيام المباركة التى نستقبل فيها نسمات رمضان المبارك نسهم بهذه الرحلة فى احياء هذا الشهر العظيم ، الذى نرجو من الله أن يبعث من شذاه فى المسلمين روحا من روح النبى — عليه أفضل الصلاة والسلام — فيعيدوا سنته ويحيوا رسالته ، ويقيموا شريعته ويحققوا قولته : « الخير فى وفى أمتى الى يوم القيامة » .

ولننطلق معا فى رحلتنا مع هذا السفر الجليل الذى يذكر المسلمين بنبيهم الكريم « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

لقد تناول الكاتب فى مقدمته الانسان الذى ميزه الله عن بقية المخلوقات فى خلقته وعلمه وارادته وتصرفاته وامكاناته ومكانته وبيانه وعقله وادراكه وخياله وتصوره

واستعداده الأخلاقى ، وبناء على ذلك فقد أصبح هو المسئول الوحيد أمام الله من بين هذه المخلوقات جميعا ، وهو الخليفة ،

والاستخلاف يعنى :

أن المستخلف فى الملك ليس مالكا أصيلا ، وأن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا أمره هو ،

وألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له ، وأن يفعل ما يريده المستخلف لا ما يريده هو .

وهذا يعنى : أن الانسان ليس حرا بل هو عبد الله ، فسيادته على الكون فى مقابل عبوديته لله ، والا أصبح فى حكم الجماد أو الحيوان .

ولا يقوم الانسان بأمر الله الا اذا عرفه حق معرفته ولا يتم ذلك الا بمعرفة الرسول الذى يصطفيه.

ذلك أن الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، والرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ، ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود وهى مهمة ارشاد الانسان الى طريقه الصحيح . ولكن كيف يتسنى لنا نحن البشر معرفة الرسل حتى نهتدى وننجو ؟

لقد وضع الله علامات يعرفون بها .. تظهر فيما يلى :

ـ فى صفاتهم الشخصية التى هى خلاصة الأخلاق العالية .

ـ فى معجزاتهم التى هى علامة على رسالتهم .

ـ فى النبوءات التى يتنبأون بها ويصدقها المستقبل .

ـ فى الثمرات التى تدل على انسجام دعوة النبى مع قواعد الفطرة .

ـ فى البشارات التى يقوم بها الأنبياء السابقون للأنبياء اللاحقين.

وهذه العلامات الخمس .. هى موضوع هذا الكتاب الذى يعتبر مقدمة للكتاب الثالث فى السلسلة التى أشرت اليها آنفا ، والذى أرجو أن أوفق فى عرضه فى بحث آخر .. ان شاء الله تعالى .

الصفات المثلى فى الرسول

صلى الله عليه وسلم :

لقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الغاية فى كمال الصفات الحسية والمعنوية ، وقد تواترت الأخبار على جماله وحسن مرآه ، فمن ذلك ما روى عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة أضحيان ، فجعلت أنظر اليه والى القمر ، فلهو كان أحسن فى عينى من القمر . وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر أيضا : مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم خدى فوجدت ليده بردا وريحانا كأنما أخرجهما من جونة عطار ،

وأخرج الشيخان عن أنس : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ، ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبى .. وخلاصة ذلك ما قاله عبد الله ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة
لكان منظره ينبيك بالخبر

على أن هناك صفات أساسية أجمع عليها علماء الكلام لتكون متوفرة فى الرسول .. هذه الصفات هى :

الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة :

فمن حيث الصدق فقد شهد على صدق النبى صلى الله عليه وسلم خصومة قتل أتباعه ، كما شهد على ذلك الواقع الذى تمثل فى أخباره ووعوده وعهوده ونبوءاته ، كما تمثل أيضا فى مداعباته .

أما شهادة الخصوم له فيقصها لنا التاريخ فى رواياته الكثيرة ، ونستشهد على ذلك بهذه الرواية : أخرج البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : ان أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أمشى وأبو جهل فى بعض أزقة مكة اذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى جهل : يا أبا الحكم هلم الى الله ورسوله أدعوك الى الله ، فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت

منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حَقٌّ لاتبعتك ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل علىَّ فقال : والله انى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شيء ، ان بنى قصى قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، قالوا : فينا الحجابة ، علنا : نعم ، قالوا : فينا اللواء ، قلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب ، قالوا : منا نبى .. والله لا أفعل .

وأخرج الترمذى عن على ، أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالى : « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

والذى يؤيد هذه الشهادة له من قبل خصومه اقبال هؤلاء الخصوم على الايمان به بعد محاربتهم اياه ، من أمثال خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ومن قبلهما عمر بن الخطاب وغيرهم .

بل لم يكتف هؤلاء وغيرهم بمجرد الايمان ، بل أخلصوا له أصدق الاخلاص .

أما شهادة أتباعه على صدقه فلم تكن على صدقها الا نتيجة تجربة كاملة جعلتهم يؤمنون به ويشهدون له ، وكلما ازداد اختلاطهم به ازداد تصديقهم له واذعانهم لرسالته وتفانيهم فى حبه وايثارهم له على كل شيء ، يشهد لذلك ما لاقوه من أذى فى سبيل هذه الدعوة التى جاءهم بها وتحملهم هذا الأذى الشديد ، وعدم تضعضع ايمانهم ازاءه ، وتسابقهم فى الاستشهاد تحت لوائه .

أما شهادة الواقع فهى أعلى الشهادات لأنه لا يسع الانسان أمامها الا التصديق والايمان وقد دلت الأحداث التاريخية التالية على مطابقتها لما أخبر به .

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم صادقا فى كل ما يتحدث به حتى فى مداعباته ، جاء رجل اليه يستحمله فقال له : انا حاملوك على ولد ناقة ، فقال : يا رسول الله ،

ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تلد الابل الا النوق ؟

وجاءته عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال : يا أم فلان ان الجنة لاتدخلها عجوز ، فولت تبكى ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، ان الله تعالى يقول : « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا» .

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا يا رسول الله انك تداعبنا ، قال : انى لا أقول الا حقا .

انها نبوة وما كان للنبوة أن يكون للباطل عندها أو معها نصيب واذا كانت مداعباته صادقة فأولى به أن يكون صادقا كل الصدق فى كل موضع .

فمن أمثلة صدقه فى عهوده ووعوده أن عبد الله بن ابى الخنساء يقول ــ فيما أخرجه أبو داود ــ : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك، فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال : يافتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث انتظرك ، والامثلة على ذلك كثيرة وبخاصة فيما يتصل بحروبه وعهوده مع اعدائه فيها ، وهم يشهدون بذلك

روى البخارى أن هرقل سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر ؟ أجابه أبو سفيان : لا ، فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أنه لا يغدر ، كذلك الرسل لا تغدر .

ولقد صدقت العلوم العصرية ما حدث به النبى صلى الله عليه وسلم من نبوءات وأحاديث ، فمن ذلك قوله لفاطمة بنت أبى حبيش حين سألته عن دم الاستحاضة الذى لا يكاد ينقطع، فهل تترك الصلاة من أجله ؟ فأجابها : لا ان ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسلى وصلى .

فقد صدق العلماء المختصون المعاصرون هذا القول حين قرروا

أن الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس ، أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه الى نزيف يحدث فى بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم .

وحين سأله طارق الجعفى عن الخمر للدواء ، قال : انه ليس بدواء ولكنه داء . فقد قرر الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا فهى ضارة بالخميرات فى طول القناة الهضمية ، وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا ، والخمر لها تأثير فى الوراثة فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم ضعفاء البنية ناقصى العقول ويكون لديهم ميل الى الاجرام ودافع الى الشر ، وأن من يبحث كتب الطب يتولاه العجب عند من يقرأ مسببات الأمراض المختلفة اذ يجد للخمر نصيب الأسد فى ذلك .

والامثلة على ذلك كثيرة ، فما من كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وكان الحق والصدق ملأها .

وكلام الرسول ينقسم الى قسمين : ما له علاقة بالغيب وما له علاقة بالمشهود والمحسوس .

فالنوع الثانى فقط هو الذى يستطيع الانسان أن يختبره فاذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول ، ولكن لابد من ملاحظات :

١ ــ أن معرفة صحة الحديث وتأكد ثبوته عن رسول الله ينبغى أن يسبق دراسة المضمون لأن كثيرا من الكلام دس عليه ، حتى يكون تحليل المضمون قائما على أساس سليم ، ولابد أن يتوفر ذلك فى كل دراسة لها علاقة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ ــ ان بعض الألفاظ فى اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية الى مدلولات شرعية فصارت تطلق على كلا المدلولين ، وقد تستعمل فى القرآن والحديث تارة بالاستعمال الأول وتارة بالاستعمال

الثانى ، فلا بد من التأكد أولا من نوعية استعمال اللفظ فى النص الذى يدرسه ، فكلمة السماء قد تطلق على كل ما علا وقد تطلق على سكن الملائكة ،وقد أخطأ كثيرون فى فهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم ، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهى ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هى من باب الحقائق ، وهم فى كلا الحالين متوهمون وجعلوا توهمهم من الاسلام فحملوا الاسلام ما ليس فيه جهلا •

٣ ــ ان بعض الامور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل منهايكون سببا من عدة أسباب مؤثرة ، فلو ذكر انسان سببا واحدا فقط لا يعنى أن ينفى الأسباب الأخرى •

٤ ــ ما يحدث من اخبار بعض الناس من انكشاف الغيبيات ممكن، فقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى امكان حدوث ذلك ، ولكن لا يقبل ذلك الا بضوابط ومن قوم مشهود لهم بالصلاح ملتزمين بالشرع وان يكون ما يخبرون به متفقا مع ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه القضية التى يتحدثون عنها •

٥ ــ هناك ظواهر غيبية أخذت محلها الآن فى معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الايمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، ذلك مثل ظاهرة الأحلام والتنويم المغناطيسى وتحضير الأرواح والاتصال بعالم الجن وظاهرة التلباثى ، وهذه الظواهر لا تصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة ولكنها تؤكد أن الرسول هو الطريق الوحيد المأمون لمعرفة عالم الغيب •

٦ ــ مراعاة أن الله هو الذى أمرنا بتصديق رسوله واتباعه •

أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم

أما الأمانة فقد شهدت البشرية فى تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت حياته يظهر فيها التطابق الكامل بين قوله وفعله، لقد كان هنا التزام تام فى تطبيق

ما يدعو اليه ـ يقول الجلندى ملك عمان مجيبا عن دعوة النبى له للاسلام : والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى انه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود ، وأشهد أنه نبى .

وقد بلغ منتهى الكمال فى صفاته وأخلاقه باجماع الرواة وتواتر الأخبار ، ويكفى ذلك ما قاله الله عن رحمته : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وقد وسعت رحمته الناس جميعا حتى قال الله له : « فلعلك ياخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وكانت حياته الحربية تنفيذا لقوله تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وكان أمينا فى تطبيق حدود الله لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وغضب حين كلمه اسامة فى اسقاط الحد عن امرأة سرقت ، وخلاصة أوصافه صلى الله عليه وسلم هو ما قالته السيدة عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » .

صفة التبليغ

لقد سلك رسول الله كل طريق سليم فى تبليغ دعوته على الوجه الأكمل ، وسلك الناس فى المقابل كل طريق يخطر على البال ليثنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل .

هناك فرق بين الرسل وغيرهم من أصحاب المذاهب والمبادىء ، فغير الرسل يدعون الناس الى شىء تألفه نفوسهم وهذا لا يحتاج الى تضحية ، وأحيانا يضجون ولكن فى انتظار كسب مادى يفوق تضحيتهم ، ودائما يلاحظون السلامة الا اذا أتاهم ما لم يكن فى الحسبان ، والحياة عزيزة عليهم فما أسهل ما ينسون دعوتهم اذا يئسوا من الكسب او النصر ، ولا نعنى بالطبع اتباع الرسل فان هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل .

ولكن رسالة الرسل فى التبليغ صعبة لتعارضها مع أهواء النفوس وشهواتها ومطامعها ، وكما يعانون

صعوبة من أعدائهم يعانون مثلها في تربية اتباعهم ، وصبر الرسول على ما يلاقيه فى ذلك دليل على حرارة صدقه واخلاصه للدعوة لله. وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم نماذج رائعة فى صبره وكفاحه ومعاناته من مواقف الكافرين منه ، ونماذج رائعة لطرقه التى سلكها للقيام بعملية التبليغ ، مما يشهد بحق أنه رسول الله حقا ، فقد سلك أعداؤه معه سبيل الايذاء العنيف وصبر ، وحاولوا اغراءه فرفض ، وضغطوا عليه عائليا فلم يفلحوا ، وسلكوا طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والاتهامات والمقاطعة ، ولقد هموا بقتله حتى نجاه الله بهجرته ، وكانوا قبل ذلك يلاحقونه فى دعوته ويثبطون عنه من يميل قلبه الى الاسلام .

وهو على الرغم من كل هذه العوائق ماض فى تبليغ دعوته جاد فى اتمام رسالته بكل ما أوتى من قوة ، ولم يدع سبيلا واحدامشروعا الا سلكه ولا وسيلة سليمة الا اتبعها ، ولم يقصر ابلاغه على حدود الجزيرة العربية بل تجاوزها الى خارجها ، ورسله ورسائله الى النجاشى فى الحبشة والمقوقس فى مصر وهرقل فى الروم وكسرى فى فارس وغيرهم فيها مبلغ الدلالة على تبليغه ونصحه وصدقه فى تبليغ رسالته ، وحماس أتباعه من بعده انما هو صدى لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلى حالات الصدق وأداء الواجب والشعور بالمسئولية امام الله ، ولم يفارق الرسول الدنيا الا وكانت رسالته قد عمت الآفاق وسمع بها القاصى والدانى ، وحفظ أتباعه القرآن والحديث وحافظوا عليه حرفيا دون أدنى تغيير .

فطانته صلى الله عليه وسلم

وهى صفة ملازمة للتبليغ ، فالرسول معرض للمناقشة والتساؤل والاعتراض من المتشككين والمنتقدين ، فلا بد له من الذكاء وقوة البيان وحدة العارضة حتى يستطيع أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، وهذا وحده يحتم أن تكون دعوته حقا كلها ، فغير الحق

ليست له حجة واضحة ، ولا بد للرسول أن يواجه الناس جميعا على اختلاف تخصصاتهم حتى يمكن أن يدحض حجة كل فى تخصصه ، ولا بد للرسول من أن يخاطب الناس على قدر عقولهم .

لقد اكتملت الصفات الأساسية للرسل فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى خلقه الله على أكمل صورة وأتم حال وأرفع مقام ، ووفقه لأعظم الأعمال مما ينوء بحمله أعظم الرجال مجتمعين فسار فى طريق لم تضطرب بدايته فيه ولم تتحول مسيرته عنه ، حتى وصل الى نهايته على استقامة تامة .

القدوة العليا

تفرد الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات لم يشركه فيها كل الرسل وان شاركه بعضهم فى بعضها وبذلك اجتمع له الكمال ، لأن الله جعل الاسلام نظاما شاملا لحركة الدنيا هاديا الى نعيم الآخرة ، فلا بد أن يكون رسوله قدوة للناس فى كل شىء ، ولا أدل على ذلك ــ مثلا ــ من خلق الصبر الذى استوعبت حياته جميع المواقف التى يحتاج الناس فيها الى الصبر . فما من بلاء يبتلى به الناس الا ويجدون الرسول قد ابتلى بمثله وصبر عليه فيقتدون به ،لقدعرض الكاتب لنماذج أربعة فى حياة المصطفى كأمثلة تشهد بأنه هو صاحب القدوة الكاملة والانسانية العليا ، وانه لا كمال لأحد بعده الا باتباع هذا النبى واقتفاء أثره ، واليك هذه النماذج :

النموذج الاول : أنه صلى الله عليه وسلم الأخلاقى الأول ، وقد زكاه القرآن الكريم فى ذلك بقوله: « وانك لعلى خلق عظيم » . وهو المثل الأعلى لجميع الفضلاء فى العالم ولجميع المتخلقين بالاخلاق العالية ، فهو فى صبره وفى حلمه وفى رحمته وفى صدقه وفى أمانته وفى كرمه وفى تواضعه وفى جميع الأخلاق الفاضلة مثل أعلى ، يشهد بذلك الصديق والعدو فمامن أحد فى زمانه أو بعد زمانه درس سيرته العطرة الا وأيقن أن الخلق المحمدى لا يرقى اليه مطعن .

النموذج الثانى : انه كان رجل الاسرة الأول أبا وزوجا ، ولم يغب

وجه الحكمة فى زواجه المتعدد ، ولقد تناولته أقلام كثيرة مغرضة فى قلوب أصحابها مرض لا يعرفون ان هذا التعدد دليل على النبوة والرسالة لما فيه من الحكم والمصالح المتعددة ، ويكفى فى ذلك أنه استل بهذا الزواج سخائم نفوس وحل به مشكلات وألف به قلوبا ونشر به الدين .

ولقد كان فى زواجه مثاليا راعى العدل الكامل بين زوجاته من حيث السكن والنفقة والاصطحاب فى السفر والمبيت والزيارات والوقت ، ومن حيث المعاملة الانسانية الكريمة حتى كان يستشيرهن أحيانا ، فى الوقت الذى لم تجرؤ امرأة فى العصر الذهبى للفروسية فى أوربا أن تقدم مشورة لزوجها ، بل كان اللطم على وجهها عقوبة لها ان جرأت على ذلك ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لا يكتفى بسماع المشورة ، ولكنه كان فى حاجة أهله — ومن أقواله المأثورة « خدمتك زوجتك صدقة » ، ومن حيث تجمله لزوجاته ولطفه معهن وايناسه لهن ، ومن كلماته المأثورة «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » ، ومن حيث سياستهن وتأديبهن ومداواة قلوبهن حتى تصفو والوفاء لهن ، وقد استطاع أن يرفعهن الى مقام النبوة فى الاخلاق ، وقد ظهر ذلك واضحا حين نزلت آية التخيير فكلهن اخترن الله ورسوله على زهرة الدنيا .

هذا هو المثل الكامل فى الزواج وابتناء الاسرة الذى يدل على سواء الفطرة والحياة ، فحب المرأة — كما يقول العقاد — لا معابة فيه وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه وحتى يكلفه شططا فى طلابه ، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى الطباع ، ولم تشغل الزوجات النبى صلى الله عليه وسلم عن عمل صغير أو كبير ، فمن من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية

والدولة الاسلامية ، ومن ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟ وكما كان مثاليا فى زواجه كان مثاليا فى أبوته ، كان نعم الأب لا لأولاده فقط بل لكل الأولاد .

النموذج الثالث : النبى هو المعلم والمربى الأول ، ولقد أوضح القرآن مهمة النبى بقوله : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » . وكان الجانب الأعظم من حياته صلى الله عليه وسلم مستغرقا بهذا الجانب : التعليم والتربية ، وبهذا الجانب تستقيم كل جوانب الحياة ، فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها وبلا تربية يعرف بها كل فرد واجبه تصبح أمة فوضوية .

والظاهرة فى حياة الرسول انه بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية ، وصهر أفرادها صهرا تاما ، ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد وحدد فيه لكل فرد مهمته ورباه على أدائها ورسم لهم الطريق وقادهم فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه فانطلقوا بعده لم يغيروا ولم يبدلوا فكان ما كان .

وكمال المربى يظهر فى النواحى الآتية : فى قدرته على الانتقال بالانسان من حالة دنيا الى حالة عليا وفى قدرته على الانتقال بأكبر عدد ممكن فى هذه الحالة ، وبصلاحية تعاليمه وتربيته وحاجة الناس اليها على مدار الزمان ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك حتى قال « بوزورث اسمث » : ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق وكما قال « هيل » فى كلام عن النبى « لا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد » .

وعلى كل فتلاميذ النبى الذين تركهم بعده أكبر دليل على كمال استاذهم ومربيهم ، هؤلاء التلاميذ من أمثال ابى بكر وعمر وعبد الله ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم كثير ، لقد غير طاقات هؤلاء

وملكاتهم ووجهها الوجهة الصحيحة .

كان يعلم ويحض على التعليم ويطلب من المتعلم أن يعلم الجاهل ويأخذ بيده الى الطريق السليم في كل أوجه الحياة وهو البصير بأدواء النفوس وعلاتها يداويها على بصيرة ورفق ، وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة والعجب فالقرآن هو الذى « يهدى للتى هى أقوم » وبذلك كان منهاج النبى فى التربية أوفى منهج ، حينما تمسك به المسلمون ارتقوا وحين تركوه ضعفوا كما هو حالهم الآن .

النموذج الرابع : هو رجل الدولة الاول سياسيا وعسكريا ، فلقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم مقومات النجاح فى القيادة السياسية العليا كما جمع مقومات النجاح فى القيادة العسكرية ، وقد استوعبت قيادته الدعوة ووثقت بها وبأحقيتها ووثقت فى انتصارها ولم يتناقض سلوكها مع ما تدعو اليه ، بل كانت مواقفها كلها موجهة لصالح الدعوة، وقادرة على استيعاب المستجيبين لها تربية وتنظيما وتسييرا ، مع القدرة على حل كافة المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد ، وجمعت الى جانب ذلك بعدا فى النظر واستيعابا لكل الواقع وتحقيق النصر والاستفادة منه وتطبيق مبادىء الدعوة واحكام أمر بناء الدولة ، ويكفى فى الاستدلال على كمال ذلك فى شخصيته صلى الله عليه وسلم التعرض لجانب واحد من هذه الجوانب وهو قدرته على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية .

فالدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث :

ـ ألا تقدر على تربية أتباعها تربية نموذجية فيؤدى ذلك الى نفور الناس ويصبح الاتباع حجة على الدعوة لا حجة لها .

ـ ألا تستطيع الدعوة تسخير طاقات المنضمين اليها فى سبيلها وتصبح للقيادة وحدها المسئولية كلها .

ـ أن يفتقد الأتباع الرعاية الدائمة بحيث يصبحون منسيين أو فى حكم المنسيين .

وأنت عندما ترى قيادة الرسول لأتباعه تجدها قد تجنبت هذه النواحى الثلاث ، بحيث أثمرت الدعوة ونجحت نجاحا منقطع النظير ، فقد واسى أتباعه ولاحظهم بعين مودته ورعاهم وحافظ عليهم ومن وسائله فى ذلك دعوتهم الى الهجرة ، وتفقده أحوالهم حين استقر بهم المقام فى المدينة وتأمينه الحياة لهم ورسمه السياسة التى كفلت لهم الاطمئنان ومن ذلك وضع معاهدة سديدة مكنت من ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس جميعا .

أما قيادته العسكرية فكلها مثل عليا يتعلم منها القواد نماذج الفن العسكرى العبقرى ، ولقد قرر ذلك العقاد حين بين كيف أن نابليون كان يطبق خطط النبى صلى الله عليه وسلم فى معاركه ، من حيث اختياره الموقع الملائم والفرصة الملائمة ومعاجلة العدو قبل اتمام استعداده ، وكان النبى سابقا فى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها ، وكان لا يبدأ بعدوان ولكنه اذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم ولو كان فى عسرة كما حدث فى موقعة تبوك ، وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ولا يضيع الوقت فى انتظار مايختاره أولئك الأعداء ولا يترك زمام الحركة بأيدى المهاجمين الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين كما حدث فى موقعة الخندق ، وكان يعتمد على القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان .

بل ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يخطىء فى حساباته العسكرية الدقيقة كما أخطأ من جاء بعده من كبار القواد العسكريين الذين حاولوا أن يطبقوا الخطط التى كان يطبقها من أمثال نابليون وهتلر ، ولا تعليل لذلك الا أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت تمده الى جوار عبقريته الفريدة عناية الله التى تنصره وتحميه ، فمزايا الرسول العسكرية أجل من أن تحصر وقد لمسها الكتاب

لمسا خفيفا ، وعرض المؤلف وغيره من المفكرين فى غير استقصاء لأنها أكبر من الاستقصاء ، ولعل من أبرع ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم كقائد عسكرى هو تأمينه لجيشه ودولته بتحقيق الهيئة العسكرية التى تجعل الآخرين دائما فى حالة رعب .

وقد عبر نفسه عن ذلك بقوله : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ، وقد كان لذلك أثره الكبير فى أن يستطيع ثلاثة آلاف جندى فى مؤتة التصدى لجيش قوامه مائتا ألف جندى .

معجزات الرسول

ـ المعجزة القرآنية :

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : ما من نبى الا وأوتى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .. والوحى باق تعهد الله بحفظه حيث قال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فالمعجزة باقية ببقاء القرآن .

الترابط فى القرآن : والذى يلاحظ فى القرآن التماسك والتآلف وليس التفكك كما يتصور البعض تصورا فاسدا ، والدليل على وجود الترابط ما نسوقه من مثال واحد على ذلك وله نظائره المتعددة فى القرآن الكريم . تأمل سورة « ق » تجدها تتحدث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة من ينذرهم بالبعث بعد الموت ، فيرد الله على امكانية ذلك بلفت انظارهم الى الكون ليتعرفوا فيه قدرة الله ، ويحذرهم من المصير الذى لقيه من كذب مثلهم كقوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، ثم تصف السورة أحوال هؤلاء الشاكين وتذكرهم بما سيلقونه عند الموت وبعده والمصير الذى ينتظرهم فى الآخرة ويقارن بينه وبين المصير الذى ينتظره المسلمون الاتقياء ، ثم تدعو السورة الناس الى التذكر والتدبر وأن خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الانسان لم يتعب الله منه ، فكيف اذن يعجز عن اعادة الموتى الى الحياة يوم البعث يوم تشقق الأرض

عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ـ وما على الرسول الا أن يصبر على هؤلاء وأن يذكرهم بواسطة القرآن بيوم الوعيد .

فمعانى هذه السورة مترابطة متكاملة ، وهكذا الشأن فى جميع سور القرآن ، بل ان هناك ترابطا بين القرآن كله فهو يشكل وحدة منتظمة تشهد بوحدانية منزله جل وعلا .

من خصائص القرآن

ومن خصائص القرآن غير ماذكر ماأشار اليه الله بقوله : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فقد أخبر الله أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود بما يشهد أن القرآن حق، فما سيعرفه الانسان سيكون مطابقا لما فى القرآن ، ولن يكون هذا الا اذا كان منزله يعلم أسرار السموات والأرض ، والأدلة على ذلك فى القرآن كثيرة أشار اليها الكتاب كما أشار اليها أولو العلم فى كتب أخرى خصص بعضها لذلك ، ومن الامثلة على ذلك قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » « والجبال أوتادا » « يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » .. وغير ذلك من مختلف الآيات التى تلفت الأنظار الى الحقائق العلمية التى لم يعرفها العالم الا فيما تلا عصر القرآن من عصور مما يشهد بأن القرآن من عند الله السميع العليم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

كما أن من خصائصه التى تشير الى ربانية مصدره ما أشار اليه بقوله : « وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فقد ثبت بالدليل القاطع صدق ما أخبر به فى الماضى والمستقبل ، كما ظهر ذلك فى الكشوفات والتنقيبات الأثرية التى أيدت الحديث عن القدامى كعاد وثمود وأصحاب الفيل وغيرهم ، وأما حديثه عن المستقبل وتصديق المستقبل لحديثه فان ذلك أدل فى

بابه على أنه من عند الله ، فما من كلمة قالها القرآن نقضتها الوقائع على مر الأيام حتى هذا الزمان وآخر الزمان ، سواء فى ذلك ما جاء من تشريع أو أخبار أو بيان .

ـ ومن خصائصه أيضا أننا نجد الحقيقة فيه أبدا واضحة ، ففيه تصحيح لكل الاختلافات السابقة « ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

ـ على أن لغة القرآن وأسلوبه يفوقان طاقة البشر ويخالفان ما درج عليه البلغاء والشعراء فى عصره وبعد عصره ، بالاضافة الى صوره التى تتأبى أن يكون القرآن وليد البيئة العربية من أمثال قوله تعالى « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده ما لم يكد يراها » .

ـ وقد جرت عادة البلغاء أن تختلف أساليبهم على حسب أحوالهم وظروفهم وحياتهم ، ولكن القرآن وقد نزل فى ثلاثة وعشرين عاما لا يختلف أسلوبه ، بل هو على وتيرة واحدة فى القوة وشدة الأخذ والبلاغة والفصاحة والانسجام لا تختلف أجزاؤه ولا تضطرب معانيه ولا تتناقض أياته .

ـ كما أن من تمام اعجازه مع هذه القوة الآخذة التيسير « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

المعجزات الآخرى : هذا طرف من الحديث عن المعجزة القرآنية ، أما المعجزات المادية الأخرى فما أكثرها بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرها الثقات ، وليس بغريب أن تظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون فان ذلك هو آثار قدرة الله لتقوم حجة الله على خلقه ، ولم يوجد رسول أبدا فى تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة تتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله ، ومن أمثلة هذا الاعجاز انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين يديه ، وتسبيح الطعام

والحصى فى يديه ، وحنين الجذع اليه ، وامطار السماء لدعائه وائتمار الاشجار بأمره ، والاسراء والمعراج .

ان معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كثيرة متواترة موزونة بأدق موازين النقد بما يشهد بصحتها ، وان انسانا يرى معجزة المعجزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمن بأن محمدا رسول الله فهو انسان أعمى القلب والعقل ،وان انسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات النبى ثم لا يؤمن به لهو مظلم الوجدان والضمير ،وان انسانا مثل هذين ليقولن فى يوم مع أمثاله من القائلين : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

مع نبوءات النبى صلى الله عليه وسلم

والمقصود بالنبوءات الاخبار عن المستقبل المجهول بما يتحقق تحققا تاما لا يخرم منه شيء لأنه مستمد من الله الذى يقول فى حق النبى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، الا من ارتضى من رسول » فليس ذلك من قبيل التوقعات أو التكهنات أو المقدمات التى تؤدى الى نتائج . وقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم عن نبوءات تجعلك على مثل الشمس المبصرة من أنه رسول الله ولا ينطق عن الهوى .

فمن ذلك ما حدث بحين رجف به أحد وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان ، فقال : أثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان — وقد أثبتت الأيام شهادة عمر وعثمان — ومن ذلك قوله عن عمر لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم . يعنى عمر ، وقوله عن الحسن بن على : ان ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، وقوله لعمار بن ياسر : تقتلك الفئة الباغية ، فكان كما قال .

أما النبوءات التى تنطبق على حاضرنا فما أكثرها ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم

الساعة حتى يفيض المال فيضا ويغيض الكرم غيضا ويجترىء الصغير على الكبير واللئيم على الكريم » .

« سيأتى على الناس زمان تمات فيه الصلوات ويشرف فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن، ويفشو فيه الرشا والزنى وتباع الآخرة بالدنيا فاذا رأيت ذلك فالنجا النجا. قيل وكيف النجا ؟ قال :كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك » .

« ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه » .

« سيظهر شرار أمتى على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كما يستخفى بينكم المنافق اليوم » .

هذه بعض نبوءات ، وهى ليست فى حاجة الى توثيق لأن وقوعها الآن يوثقها ، وانك اذا ما تأملت أى حديث مما أورده الكتاب واستشهدنا ببعضه هنا الا رأيته واقفا على الأرض يشهد شهادة صادقة بأن هذا الرسول لا يقول الا حقا ولا ينطق الا صدقا .

الثمرات : لعله من ثمرات الرسل عليهم السلام الالتزام بالحق والفضيلة والعمل على الاستجابة للفطرة السليمة التى تفرق بين الخير والشر وتعرف الحلو من المر ، وأول ثمرة لدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم هى التوحيد وما أجمله وأعظمه ، فالوثنية وبال على على أصحابها ومسخ للحقيقة الناصعة فى قلب الانسان ، ويمكن ادراك ذلك من واقع الهند التى تبلغ ٢٠٠ مليون بقرة وتترك هذا العدد الهائل الذى يمكن أن يساهم فى حل مجاعة العالم يرعى على حساب حاجة الانسان وراحته وأمنه ووقته وسعادته ، فهل يعقل أن يسخر الانسان لرفاهية الحيوان فى الوقت الذى خلقه الله ليكون فى خدمة الانسان ؟ ولكنها الوثنية التى شوهت الحقائق ومسخت حقائق الأشياء . هذا مثل من الحاضر

يقاس عليه أمثلة عديدة فى القديم والحديث فى مختلف البلاد والقارات ، فسيدنا محمد عليه السلام بعقيدة التوحيد وضع الانسان فى محله الصحيح حيث علمه أن الكون كله لله وأن الله جعله فى خدمة الانسان وأن الله خالق هذا الكون له الكمال المطلق والمستحق وحده بالعبادة .

ومن ثمرات الدعوة الايمان باليوم الآخر الذى يطلب فيه الانسان النجاة فيصبح محور سلوك الانسان ، فمن أجل هذا اليوم يدخر الناس الصالحات ويتسابقون فى الخيرات ويزهدون فى الدنيا ايثارا للآخرة عليها ، وبذلك تقوم الاخلاق مقام القانون ولقد وضع أصحاب الرسول خلق النبى صلى الله عليه وسلم قدوة لهم ، وتعلموا من هذه الآية الكريمة مثلا عليا وهى : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمعتم بها » تعلموا أن يجوعوا فى الدنيا ليشبعوا فى الآخرة ويشقوا فى الدنيا لينعموا فى الاخرة ، ولم تفتنهم الدنيا على الرغم مما فتح الله عليهم فيها من كنوز كسرى وقيصر بل اجتازوها دون أن يتلوثوا بها ، ومن أجل ذلك كانوا يتسابقون فى الشهادة اغتناما لأجرها عند الله ، وكم منهم من عذب دون أن يتزحزح عن دينه رجاء ما عند الله . لقد أيقظ النبى صلى الله عليه وسلم الضمير فى نفوس المسلمين فعلا سلطانه على كل سلطان . وداء الناس اليوم هو فقدان هذا الضمير الذى مات فى نفوسهم فضاعت القيم وانعدمت المثل .

ومن ثمراتها احياء الانسانية الواحدة الكريمة ، فقد جعل الاسلام الناس أمة واحدة لا فضل لأحد فيها الا بالتقوى ، وكانت العصبية والجاهلية تعمى على الناس فى مشارق الأرض ومغاربها الطريق وتصنع بينهم فروقا لا أساس لها وانما صنعها الكفر والشقاق والنفاق .

لقد أعلن الاسلام انسانية الانسان ووحدة الانسانية ، فالرجل انسان والمرأة انسان والعبد انسان والناس كلهم سواء فى هذه

الانسانية فلا شعب أعلى من شعب ولا جنس أعظم من جنس ، والانسان فى نظر الاسلام هو سيد المخلوقات وكل ما فى الكون مسخر له ، ولقد أطلق الإسلام المد التحـــررى فى أنحـاء الأرض حتى أنسى القبطى سياط الرومان وذلها ، وحتى أصبح الخادم والمخدوم يأكلان من طعـام واحد ويلبسان من قماش واحد تحقيقا لقول النبى صلى الله عليـه وسلم « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمـــل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينـوهم عليه » .

ومن ثمرات الرسالة الاحساس بالمسئولية الفردية ، فقد أيقظت فى النفوس الشعور بالتبعـة ، وكل انسان مسئول عن نفســه فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وكلكم راع وكلكم مسئول عـن رعيته ، وفى ذلك تحطيم لنظرية كانت سائدة وما زالت فى أديان أخـرى تدين الانسان بسلوك غيره .

أما الاسلام فقد عمل على استقامة سلوك الانسان بتحميله تبعـة ما يصنع وأنه وحده المسئول عن عمله فلا تواكل ولا كسل ولا اعتماد على الاخرين ولا استغلال لقدرات الغير

ولا يخفى أن العدل وهو ثمرات من ثمرات نبى الاسلام يصاحب ذلك الخلق الكريم ، وقد نادى القرآن الكريم بالعدل : « واذا حكمتم بين الناس أن تحـــكموا بالعـدل » ووصف النبى صلى الله عليه وسلم العادلين بقوله « هم خيار الناس» ومن العجيب أن يأتى هذا العـدل العظيم الذى وسع الناس جميعـا فى أمة كانت تؤمن بسياسة «انصر أخاك ظالما أو مظلومـــا » ولقـد استوعب المســلمون بسرعة وبعمق هذا الخلق الجميل حتى غلبوا به الأمم وساسوها فدخلوا بسببه فى دين الله أفواجا .

وكان من ثمرات رسالة المصطفى الطاعة البصيرة التى يظهر الفرق واضحا بينها وبين الطاعة العميـاء التى كانت لـدى الامم الأخـرى للملوك والأمـــراء . كانت طاعة

المسلمين لنبيهم وخلفائهم طاعة فى الحق والعدل لا ظلم فيها ولا طغيان ، هذه الطاعة تتمثل فى كف الناس عن شرب الخمر فور نزول الأمر باجتنابها ، وفى الالتزام بهذه الطاعة أيا كانت الظروف حتى قالت عجوز كان عمر قد نهاها عن شيء قبل أن يستشهد : ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا ـ وقد وضع النبى صلى الله عليه وسلم ضابطا لهذه الطاعة فقال : لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى .

ولقد تنج عن الاسلام أجيال خيرة جريئة بالحق، تعرف ما هو الخير وما هو الشر فتقوى الحق وتقوض الباطل وهذا هو الذى جعل الصالحين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم يتعرضون للحكام بالوعظ والارشاد والتوجيه دون خوف منهم ، وكثير من هؤلاء الحكام كان يستجيب لهذه النصائح والتوجيهات .

لقد أصبحت دولة الاسلام دولة هداية لا جباية ومن هنا يتضح الفرق بين هذه الدولة وغيرها من الدول التى لا هم لها الا الابتزاز والاستنزاف ، كما اصبحت دولة جهاد وحرية بعد أن كفلت جميع أنواع الحريات للمواطنين وفى مقدمة ذلك الحرية الدينية « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» وهنا فرق كبير بين دولة الاسلام وغيرها من الدول ، يظهر فى اسبانيا التى لا يوجد فيها الآن مسلم واحد بعد أن كان بها ثلاثون مليون مسلم ، فى الوقت الذى يوجد فيه نصارى آمنون على دياتهم فى كافة الأقطار العربية والاسلامية ، وما زالت معاهدة عمر بن الخطاب مع أهل ايليا مضرب المثل فى كفالة الحرية الدينية الكاملة للناس أجمعين لقد قتل الصليبيون عندما فتحوا بيت المقدس أكثر من سبعين ألفا من المسلمين ، وحين استرده المسلمون لم يقتلوا نصرانيا واحدا.

البشارات : مما يشهد على صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم تبشير الكتب السماوية السابقة برسالته ، وقد جاء فى القرآن الخبر

بذلك فعلى لسان عيسى عليه السلام « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وفى التوراة مايقصه القرآن الكريم : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة » وقد تواترت الأخبار قبل بعثة النبى مبشرة به ، وقصة اسلام سلمان الفارس وعبد الله بن سلام ومحاورة حيى بن أخطب وأخيه أبى ياسر خير دليل على ذلك .

وقد أثبتت الدراسات الحديثة بمختلف اللغات بما لا يدع مجالا للشك أن الكتب الديانية السابقة بما فيها ما هو منسوب الى الفرس وما هو منسوب الى البراهمة وماهو منسوب الى اليهود أو النصارى قد بشرت بهذا النبى الأمى الذى يبعثه الله فى أمة العرب ويتلقى الحكمة عن ربه وأنه موصوف بأنه رحمة للعالمين . ولكن الحسد والبغى حالا بين كثير من هؤلاء الدارسين وبين الايمان الحق فحاولوا أن يلتووا ويتعسفوا فى فهم النصوص الواردة فى تلك الكتب ليصرفوها عن وجه الحق .

ومع وجود تحريفات الآن فى العهدين القديم والجديد الا أنه مع هذه التحريفات يوجد فيهما ما يشير الى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن التواء الفهم وسوء النية عند من صده الله عن طريق الهدى يفهم هذه النصوص على غير وجهها الصحيح .

وبقى كتاب واحد أثار ثائرة العالم الغربى هو « انجيل برنابا » الذى أعطى قولا فصلا فى المسائل الثلاث وهى رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح ، وقد أصدر البابا جيلاسيوس الأول الذى جلس على الاريكة البابوية عام ٤٩٢ م أى قبل مولد المصطفى بقرن من الزمان تقريبا أمرا بعدم مطالعة هذا الكتاب الذى ما يطالعه منصف منهم الا ويشهر اسلامه ، ذلك لأن الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة غير متناقضة مما لا مثيل له فى العهد القديم والعهد الجديد. الى ما فيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح الخفايا فى حياة المسيح كما أن فيه

صولة فى تهذيب النفس وصدقا فى العبارة يشهدان بما له من قوة روحية خفية ، ونستشهد من هذا الانجيل بفقرة فيها تبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فى الفصل السادس والتسعين : أجاب يسوع : « لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى انى لست « مسيا » الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحتمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ، الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى رحمة الله خلاص الذين يؤمنون به . وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا » .

وبعد ، فهذا عرض موجز لهذا السفر الجليل الذى ختمه مؤلفه الكبير بسؤال وجهه الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف قصص الأنبياء للدكتور كارلو ملينو المستشرق الايطالى عن كلمة « بيركليتوس الواردة فى الانجيل فأجاب بقوله : ان القسس يقولون ان معناها المعزى ، فقال له ولكنى أسأل الدكتور كارلو ملينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا . فقال : ان معناها الذى له حمد كثير ، فسأله أيضا هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد فقال : نعم .

وهذا ما جاء فى القرآن على لسان المسيح : لأ ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » صلى الله عليه وسلم .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

في مواجهة الإلحاد المعاصر

احتياج العالم إلى الله

طبقا لقوانين الفيزياء الحديثة

بقلم : الدكتور يحيى هاشم

من المعروف الآن فى علم الفيزياء الحديثة أن قوانين الميكانيكا التى تسرى على حركات الأجسام الكبيرة لا تنطبق على الذرات المفردة فضلا عن الالكترونات والبروتونات ، والنيوترونات ، وغيرها من مكونات الذرة ..

أما حركة هذه الصغيرات فلها احوال غير محددة ، ولا تتدخل حالة منها فى اخرى ، وقد تقفز الصغيرة من حالة من هذه الحالات الى اخرى دون وجود قوانين تحدد أى هذه القفزات هو ما سيحدث فى أى ظرف من الظروف .

وهذا هو ما يسمى فى الفيزياء الحديثة بمبدأ عدم التحدد (١)

وقد امتحن هذا المبدأ من كبار العلماء ، مثل أينشتين ، الذى حاول اكتشاف المتناقضات فيه ولكن مجهوداته أدت الى تقويته بدلا من دحضه ..

وعندما عجز اينشتين عن ذلك سلم بأن فكرة هيزنبرج خالية من المتناقضات الا أنه حتى آخر ايام حياته ظل يأمل أن تعود الفيزياء مرة أخرى الى وجهة نظر امكان التحديد فى يوم من الأيام (٢)

ولكن هذا لم يحدث وظل مبدأ عدم التحدد يمثل ركنا فى الفيزياء الحديثة ، ويناقش الدكتور ايزنك موضوع حرية الارادة فى ضوء مبدأ عدم التحدد لهيزنبرج ـ وهذه

(١) أعلن فريز هيزنبرج هذا المبدأ عام ١٩٢٧ ، انظر بواتق وانابيق ص ٤٠٠ وقصة الفيزياء ص ٢٤٨ وغيرهما من المصادر .

(٣) قصة الفيزياء ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

المناقشة ، وان كان ايزنك يجـريها على صعيد الارادة الانسانية لكنها تفيدنا فى الدخول الى موضـوع الارادة الالهية الذى نقصد اليه ..

يقول ايزنك :

(ان قضية حـرية الارادة هى قضية فلسفية لا يجب أن تعنينـا كثيرا .. ومن المشكوك فيـه أن يكون لعبارة حرية الارادة أى معنى .. فالسلوك بالنسبة للبيولوجى هو نتيجة الوراثة والبيئـة اذ يتحـد الاثنان لانتاج حالـة معينـة من الدافعيـة وتشـكيلة معينـة من العادات ..) .

فالسلوك الناتج هو حصيلة ذلك الاتحاد ، وباعتباره كذلك يجب أن يكون محتوما .

ومن الصـعب أن ترى فى هذا السياق ماذا يمكن أن تعنى «حرية الارادة » .

فهـل هى تعنى أن السـلوك لا تحتمه اطلاقا الدوافع أو العـادات أو الخبرة السابقة أو أى شىء آخر ؟

وهل تساوى القول بأن الصدفة العمياء قد تتـدخل فى السـلوك الانسانى بصرف النظر عن الوراثة أو ضغط البيئة ؟

ليس من المسـتحيل بالطبع أن يكون مثل هذا الزعم صـحيحا . فقانون عدم التحديد لهيزنبرج على سـلوك مادون الـذرة من أدق الجزيئات يمنعنا من القيام بتنبؤات دقيقة حول سلوك هذه الجزيئات . وبالنظر الى أن اجسادنا مكونة من عدد كبير من الذرات والجزيئـات المكونة بدورها من جـزيئات دون الذرة فليس من غير المعقـول أن الصدفة قد تتدخل بالتأكيد فى تحديد السلوك ، وهى الى هذا الحد تقلل من الحتمية المتضمنة فى تأكيدنا على الوراثة والبيئة كعلل كافية للسلوك.

الا أن هذا بعيد كل البعد عن فكرة « حريـة الارادة » التى اذا كانت تعنى شيئا على الاطلاق فهى تعنى بالتأكيد شيئا مختلفا تماما عن تدخل احداث الصدفة العمياء على المستوى دون الذرى فى التعبير عن

الدوافع والرغبات والمخاوف الانسانية (١)

* * *

وأقول : ان كون هذا التحليل بعيدا كل البعد عن اثبات حرية الارادة ناشىء من مغالطة ارتكبها المؤلف حين افترض أنه اذا لم تسر حركة الجزيئات وفقا لقانون محدد فانها تكون حينئذ نهبا للصدفة ، وبالطبع فالصدفة ليست هى الحرية، لكن ليس هذا هو التفسير الوحيد ومبدأ هيزنبرج حين اكتشف عدم التحدد فى حركة الجزيئات لم يفترض الصدفة ، والأمر يحتمل فى هذه الحالة افتراض (ارادة) غير خاضعة للتحديد ، أى ارادة حرة .

يقول برتراندراسل ، معلقا على مبدأ هيزنبرج :

(انه لا يعرف حتى الآن على وجه يقارب التأكيد : هل هناك قوانين تتحكم فى سلوك الذرات المفردة من كل وجوهه أم ان سلوك هذه الذرات سلوك عشوائى فى ناحية من نواحيه ؟

وهناك من يظن أن الذرة لاتخضع لأى قوانين على الاطلاق فى هذا الصدد وانما لها ما يمكن أن يسمى « ارادة حرة » ويقرر أصحاب هذا الرأى أن العقل يستطيع أن يقرر ما تقوم به ذرات المخ من انتقالات فى لحظة ما ، وهكذا يحدث ما يشاء من نتائج على نطاق واسع ، بواسطة بضعة أفعال ، كفعل الزناد (٢) .

ثم يقول برتراندراسل :

(انى لأكرر اعرابى عن دهشتى لأن يلجأ البعض الى هذه النظرية فيما يتعلق بموضوع حرية الارادة. لأن المبدأ لا يقدم أى دليل على أن سير الطبيعة غير محدد . انما هو يثبت أن الجهاز الزمانى المكانى القديم ليس وافيا تماما بمطالب علم الطبيعة الحديث .. فالمكان والزمان

(١) الحقيقة والوهم فى علم النفس د. هـ. ج. ايزنك ترجمة قدرى حنفى ودكتور رءوف نظمى ، منشورات جماعة علم النفس التكاملى دار المعارف عام ١٩٦٩ ص ٢٨٤ .

(٢) مجموعة نظمى لوقا (عالمنا المجنون) ص ٥١ : ٥٤ .

قد اخترعهما اليونان ، وقد كانا عظيمى النفع لاغراضهما حتى كان القرن الحالى فأحل اينشتين محلهما نوعا من التسمية المزجية يقال له (الزمكان) ولكن الميكانيكا الكمية قد أوضحت ضرورة تغيير أشمل لأساس البناء ، وأن نظرية عدم التحدد من أمثلة هذه الضرورة وليست مثالا على فشل القوانين الطبيعية فى تعيين سير الطبيعة)

ثم يقتبس من ترنر قوله : (ان مبدأ عدم التحدد يتعلق بالقياس لا بالعلية) يعنى أنه ناشىء عن عجز أدوات القياس المتاحة لنا ، وليس ناشئا عن عدم العلة

ثم يقول : (لا يوجد مطلقا فى مبدأ عدم التحدد ما يثبت أن أى حدث طبيعى غير معلول) ..

* * *

ونحن نناقش برتراندراسل فى أربع نقاط :

١ ــ الأولى اعتقاده أنه بالرغم من مبدأ « عدم التحدد » فالعلم الطبيعى سوف يكشف فى المستقبل عن القانون الذى يحكم حركة الصغيرات والذى يعجز عن كشفه الآن بمقاييسه الحالية القائمة على الزمان والمكان أو على«الزمكان» .

ويصور لويس دى بروجلى الاعتقاد بوجود حتمية يحتمل الكشف عنها فيما بعد فيقول :

(ان أنصار الحتمية سوف يقولون : ان هذا ــ يعنى مبدأ عدم التحدد لهيزنبرج ــ لا يثبت أنه ليس هناك حتمية كاملة للظواهر الطبيعية وأنه يثبت فقط أننا لا نعرف كل العناصر التى يعتمد عليها فى كشف الظواهر الطبيعية ، وأن بعضا من هذه العناصر تغيب عنا ، ومعرفتنا لها ينبغى أن تقدم دليلا على الحتمية ، واذا تقدمت الفيزياء التجريبية خطوات تقدمية كاشفة عن هذه العناصر المجهولة عند ذلك سوف يكون ممكنا أن نقيم الحتمية من جديد ..) . ويستمر بروجلى قائلا :

(هنا نسمع همسا عن « المتغيرات الخفية » التى قابلتنا فى الفيزياء الكلاسيكية خصوصا فى الديناميكا الحرارية ، اذ كان وصفها يبدو ناقصا ، ولجأنا الى وجود «المتغيرات

الخفية » التى كانت تفلت من ابحاثنا التجريبية ، وهى متغيرات كانت معرفتها ضرورية للوصول الى وصف كامل للمجموعة .. الا نستطيع اذن أن نفرض أن نظريات الكم الحالية نفسها تتغاضى هى الاخرى عن وجود متغيرات خفية « معينة » لو توصلنا الى معرفتها لأتاحت لنا اكمال وصف الظواهر الميكروفزيائية واخضاعها للحتمية ؟ ..)

ويرد لويس دى بروجلى على هذه التساؤلات قائلا :

(لا يبدو أن الأمر على هذا النحو

فى الحقيقة ان ذات شكل قوانين الاحتمال التى تظهر فى فزياء الكم كما أمكن توضيح ذلك ليس الشكل الذى يناظر وجود «المتغيرات الخفية » ، وهكذا يغلق أمامنا باب كان من الممكن أن تستعيد الفزياء الحتمية من خلاله ، فهل هناك طريق آخر ؟

يبدو هذا الأمر بعيد الاحتمال اذا تأملنا مليا الطريقة التى يتدخل بها كم الفعل ، اذ يدخل علاقة جديدة بين الوجهين الديناميكى والهندسى للكون تحرم كل معرفة مضبوطة للوجهين ، وبهذا الشكل تجعل مستحيلا وضع قوانين حاسمة للتتابع بين الظواهر التى يمكن مشاهدتها » (١) .

ويقول لويس دى بروجلى فى رده على الاعتقاد باكتشاف الحتمية فيما بعد :

(ان الفكرة التى تنطوى على أنه من الضرورى الاحتفاظ من حيث المبدأ بصحة الحتمية والسببية حتى على المقياس الأولى ـ أى الميكروفيزيائى ـ لا تبدو على الاطلاق مقبولة لدى فزيائيين كثيرين على الأخص من بين الأجيال الأصغر سنا ، والبرهان على ذلك قائم فى الشروح العميقة التى كتبها يوهان فون نيومان .

ولقد وجه هذا الفزيائى الرياضى الكبير فى كتاب نشره عام ١٩٣٢ فى برلين قبل رحيله الى الولايات المتحدة .. اتهاما قاسيا ضد الحتمية الظاهرية للظواهر الماكروئية .

(١) . الفيزياء والمكروفيزياء ص ١٤٨ : ١٤٩ .

لأن الترتيب السببى الظاهرى ليس له أصل سوى قانون الأعداد الكبيرة وهذا مستقل تماما عن كون العمليات الأولية ـ التى هى العمليات الفزيائية الحقيقية ـ تتبع أولا تتبع القوانين السببية) ثم يقول :

(وهكذا تكون حتمية الظواهر الماكروئية بالنسبة الى نيومان والى معظم الفزيائيين الكميين فى الوقت الحاضر وهما راجعا الى تأثير المتوسطات ، ومظهرا احصائيا بسيطا .) (١) ويقول لويس دى بروجلى كاشفا زيف الحتمية فى الطبيعة :

(فقوانين الميكانيكا بحسمها الظاهرى ليست أكثر من خداع ووهم راجع الى تعقد الأجسام التى تتناولها تجربتنا المباشرة ، والى نقص الدقة فى قياساتنا.) (٢) ثم يقول جازما باللاحتمية فى الطبيعة :

(تتيجة لفيزياء الكم من المستحيل أن نسلم بأنه توجد وراء لا حتمية قوانين فزياء الكم الحالية حتمية متخفية يمكن أن تظهر لنا كما لو كنا قادرين على فهم تطور متغيرات خفية معينة ..) (٣)

ويقول لويس دى بروجلى ضد توقع ظهور الحتمية مرة أخرى فى علم الطبيعة :

(ان بعض العلماء يعتبرون اللاحتمية ـ التى أظهرتها فيزياء الكم ـ مما لا يمكن قبوله لأنه يبدو لهم متعارضا مع مبدأ السبب الكافى . وربما لم يكن هذا ـ آخر الأمر ـ الا نتيجة لعادات فكرية متأصلة . ومن الغريب فى هذا الأمر أن الفزيائيين الشباب الذين تعودوا منذ بداية دراساتهم النظر الى الأشياء بمنظار الفزياء الجديدة يبدو أنهم لا يقابلون من الصعاب قدر ما يقابل الأكبر سنا منهم .) (٤)

(١) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٢٥ : ٢٢٦ .
(٢) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٢٤ .
(٣) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٣٠ .
(٤) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٣٠ : ٢٣١ .

هكذا يقرر هؤلاء العلماء أنه لا مبرر من الناحية الفيزيقية لاحتمال التراجع عن اللاحتمية ، وعلى كل فنحن نرى أنه لا مسوغ على الأطلاق للقول بأن تلك القوانين التى يحتمل أن يكشف عنها الانسان فى المستقبل توصف بأنها طبيعية ، وقد تجردت تماما من الزمان المكان .

انه ماذا يبقى لها بعد هذا التجريد لتوصف بالطبيعية ، وراسل هوالذى يقرر أن ثنائية العقل والمادة أصبحت أمام الحقائق العلمية الحديثة فى خبر كان وأنه لم يعد أيهما غير سلسلة أحداث ترتبط بقوانين ، وأننا لا نعرف شيئا عن هذه الاحداث الا فى كيانها الزمانى المكانى (١)

ماذا يصح من وصف هذه القوانين بأنها طبيعية ، فى عالم يقول عنه راسل (ان العقل والروح والمادة ليست سوى رموز لأشياء غير معروفه) (٢)

واذا نزع عنها وصف « الطبيعية» فماذا تكون ؟

ماذا عند راسل خارج هذه الدائرة؟

لا شيء .

فى حين أن ضرورة السببية ـ المقررة عقليا ، والتى يتمنى راسل أن لو عادت فيزيقيا .. ـ الجأتنا الى شيء خارج .

الجأتنا الى عالم الأمر ..

وهو لا شيء الا أن يكون أمر الله ..

وهذا ما ينبغى أن نسميه دليل القانون « غير الطبيعى » على وجود الأمر الالهى ، أى على وجود الله .

* * *

٢ ـ أنه وان كان مبدأ عدم التحديد يتعلق كما يقول راسل وترنر بالقياس لا بالعلية فان هذا فى الحقيقة ينسحب على جميع القوانين الطبيعية ، بمعنى أنها جميعا تتعلق بالقياس لا بالعلية (٣).

(١) العقل والمادة ص ٢٠٣ : ص ٢٠٩ .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٧ .
(٣) أعنى أن القوانين الطبيعيةمهمتها الوصف والقياس ، لا التفسير ، ولا تبيان العلة .

ومن هنا يبقى تطلع العقل الدائم الى اكتشاف العلية ، وهنا لا غنى عن الدين أو الميتافيزيقا ــ وتصبح الأسباب الطبيعية قياسات غير محددة مفتقرة الى تفسيرها بالعلة ، وهى أى العلة لا محالة غير هذه القوانين .

* * *

٣ ــ أنه وان كان صحيحا ما يقوله رسل (لا يوجد فى مبدأ عدم التحديد ما يثبت أن أى حدث طبيعى غير معلول .) لكنه على أى حال يضعنا ــ أى مبدأ عدم التحدد ــ أمام حالات لا يمكن أن تثبت فيها ما اذا كان الحدث الطبيعى معلولا لعلة طبيعية ؟

وهذا كاف لكى ينهدم المنطق الالحادى القائم على أن العلم قدم التعليل الكافى للظواهر الطبيعية وازاح من الطريق الحاجة الى التعليل بالارادة الالهية .

هنا يعترف العلم بأنه لا يقدم العلة الطبيعية .

بل هنا يعترف العلم بأنه عاجز عن تقديم القياس والعلة معا فى صلب حقيقة الظاهرة الطبيعية ..

اذن يكون القياس العلمى بعد ذلك مجرد قوانين احصائية توسطية للمجموع الكبير لا يدرى مصدر انضباطها بعد أن زال هذا الانضباط من الوحدات الصغيرة التى يتألف منها هذا المجموع .

وليس لأحد أن يظن أن حساب الاحتمالات يضمن تحقق شىء بالفعل الا كما يجوز للمقامر ــ فى مغالطة شهيرة ــ أن يعتقد أنه اذا خسر مرات عديدة متوالية فان المرات التى سيربح فيها ربحا متواليا آتية لا مهرب لها . ظنا منه أن « قانون المتوسطات يجعل المعدل يتساوى فى النهاية » حيث ــ فى الحقيقة ــ لا يوجد ــ فى الواقع ــ مثل هذا القانون الذى يجعل الأشياء تحدث على نحو أو آخر .

وهو أشبه برجل احترق مصنعه الذى يعمل فيه فقال « عشرة الاف مصنع فى هذه البلاد ولكن يبدو أنها الغت قانون المتوسطات وفسخته لانها اختارت مصنعا واحدا بالذات

هو الذى أعمل فيه .. ومن العجيب أن ذلك لا يحدث عندما اراهن فى السباق » (١) .. !!!!

أنه لا يصح القول بأن مصدر الانضباط هو حساب الاحتمالات الذى يقرر حتمية ظهور حالة معينة بنسبة معينة كلما تكررت احتمالات الظهور مرات معينة ـ رسنزيد هذه المسألة وضوحا فى بحثنا فى عجز العلم عن تجنب القول بالمصادفة ـ وذلك لأن من المقرر أيضا عند العلماء أن هذه الحتمية (ليست ألا تصورا رياضيا ، يتصف بما تتصف به الرياضة من ضبط ويقين طالما لم يطبق ولكنه عند التطبيق ينشأ عدم اليقين ..) (٢) هذا ما يقوله برتراند راسل نفسه ـ وهو ملحد ـ ويقول الدكتور ليكونت دى نوى ـ وهو مؤمن ـ (لا يمكننا أن نثبت أن الفرص الضئيلة سوف تتحقق حتى فى نهاية بليون بليون قرن ، فقد تتحقق مرة واحدة منذ البداية ثم لا تعود ثانية على الاطلاق .) (٣) .

أما وقد تحقق هذا الانضباط بالفعل فى حالات معروفة فى الطبيعة فى انضباط المجموع الاحصائى للصغيرات ، وانضباط نسبة الوفيات فى بيئة معينة ، وانضباط نسبة الذكور الى الاناث فى المواليد .. الخ ..

فان الأمر يرجع اذن الى غير قانون الاحتمالات النظرى ..

وهنا أيضا تسقط دعوى العلم فى الاستغناء بالاسباب : مهما يكن تفسيره لهذه الأسباب ، عن الارادة ويعود للارادة حقها فى تفسير الظواهر .

بل هنا ينبغى أن نستنبط ما نسميه :

« دليل الانضباط الاحصائى الواقعى للصغيرات على وجود الله

ومحتوى هذا الدليل هو أن

(١) فن الاقناع للدكتور ليونيل روبى ص ٢٥٦ .
(٢) فلسفتى لبرتراند رسل ص٢٣٥ .
(٣) مصير البشرية ص ٣٣ : ٣٤ .

الصغيرات التى تتكون منها المادة لا تحتوى على قوانين تحكم سيرها، ومع ذلك فانه عندما تكثر هذه الصغيرات وتكون المجموع الكبير (الجسم) يدخل هذا المجموع تحت قوانين الميكانيكا المعروفة ، وهذه القوانين التى تتحكم فى سلوك الاجسام مجرد قوانين احصائية تعطى النتيجة المتوسطة لعدد كبير من الحركات دون حتمية تطبيقية ترجع اليها ودون حتمية ترجع الى الأصل المادى ، فهى اذن ـ أى هذه الحتميةأو هذا الانضباط الواقعى ـ تأتى من خارج الوضع النظرى لهذه القوانين ومن خارج الأصل المادى للمادة ، فهى اذن تحتاج فى تفسيرها الى ارادة الله سبحانه وتعالى .

* * *

٤ ـ ان برتراند راسل يهاجم رجال الدين فى محاولتهم الاستفادة بمبدأ عدم التحدد : من أجل اثبات وجود الارادة الالهية وراء الظواهر الطبيعية .

وهو يبنى هذا الهجوم على مغالطة :

فيدعى أنهم يحاولون اسقاط مبدأ العلية (١)

ثم يقول : (وان مبدأ العلية قد يكون صحيحا ، كما أنه من الممكن أن يكون غير صحيح ، بيد أن الأنسان الذى يبتهج بعدم صحته لا يدرك تماما معنى عدم صحة هذا المبدأ ، انه فى العادة يستبقى التسليم بكل ما يرغب فيه من قوانين العلية ، من مثل ان الطعام يغذى ، والبنك سيدفع له رصيدا مقابل شيكاته مادام له رصيد ، بينما يرفض من قوانين العلة مالا يلائمه ، وأى سذاجة أكثر سذاجة من هذا الموقف الطفلة) (٢) .

وهكذا يسلط راسل سخريته على رجال الدين ، وهى مردودة عليه لأنه ما أظن أنه يغيب عنه أن رجال الدين اذ يبتهجون بمبدأعدم التحدد لا يرون فيه اسقاطا للعلية مطلقا ، وانما يرون فيه دلالة على أن العلية

(١) والحقيقة انهم لا يفعلون ذلك .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون نظمى لوقا ص ٥٧ : ٥٨ .

كامنة وراء سلسلة الظواهر الطبيعية لا فيها ، ويرجعون بها الى أمر خارج عنها ، هى الارادة الالهية . ان رجال الدين أشد تمسكا بمبدأ العلية على النحو الذى يقررونه ، (وكما وجدناه عند الامام الغزالى) لأنهم يرون فيه دليلا من أدلتهم على وجود الله ، وهذه السخرية التى ساقها راسل هو أحق بها ومن تابعه من منكرى وجود الله ، فهم الذين يستعملون مبدأ العلية فيما يروق لهم ، ويرفضونه حيث لا يروق ، انهم يرفضونه عند ما يكون طريقا للاستدلال على وجود الله ، بينما يقبلونه فى الاستدلال به على علية الظواهر ، بل انهم ليوغلون فى ذلك اذ يؤمنون بوجوده فى الظواهر ايمانا أعمى غير مستند الى البحث التجريبى الذى يعتمدون عليه (١).

واذا تبين ذلك يصبح لا مجال لايغال راسل فى السخرية من رجال الدين اذ يسجل عليهم أنهم مع محاولتهم اثبات صحة الدين من خلال مبدأ عدم التحدد يعودون فيحاولون أن يثبتوا (صحة الدين عن طريق الذرات التى تطيع قوانين الطبيعة ، وهو الرأى الذى يؤمن به السيرجيميس جينز .)

ثم يقول ساخرا (والغريب ــ أو لعله من المضحك ــ أن نرى رجال الدين يستوون فى حماسهم لكل من الرأيين ، وكأنما بات همهم كله استنقاذ العقيدة بأى ثمن وبأى وسيلة .) (٢)

هكذا يلجأ راسل الى هذا الأسلوب الساخر ، فى مقام جليل كهذا لنكشف مغالطته ، على رجال الدين ، الذين هم كما رأينا لا يسقطون مبدأ العلية مطلقا وانما يثبتونه راجعين به الى ما خلف الظواهر : الى الارادة الالهية ، ومن ثم يستشفون هذه الارادة فى كلتا الحالتين ، حالة التحدد ، وحالة عدم التحدد بل هم يرون فى التراوح بين الحالتين دليلا جديدا على « علية » ، « الارادة الالهية » انه

(١) وذلك عندما يصرون على وجوده بينما الفيزياء الحديثة تدل على عدم وجوده (مبدأ عدم التحدد
(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٥٩

لحق مشروع ـ منطقيا ـ للفكر الدينى أن يثبت مبدأ « الارادة الالهية » سواء ثبت مبدأ (عدم التحدد) أو ثبت مبدأ « الحتمية » لأنه فى كلا الحالين يقوم الدين على أن العلة الحقيقية كامنة وراء الظواهر .

ان افتراض حتمية القانون لايلغى الارادة الالهية كما لا يلغيها القول بعدم الحتمية .

* * *

حدوث العالم وفناؤه

أولا : الكون متناه حجما :

هذا ما يقرره العلم الحديث

فلقد تمكن أينشتين من ايجاد نصف قطر الكون ، وأنه يتوقف على متوسط كثافة المادة فى الكون .

« وبالتعبير الرياضى : وجد اينشتين أن نصف قطر الكون يتناسب عكسيا مع الجذر التربيعى للكثافة . »

وباستعمال أحسن التقديرات لمتوسط كثافة المادة فى الكون يكون التقدير الحالى لنصف قطر الكون هو $٢^{٣٣}$ ميلا ، وترتيبا على ذلك يقول العلماء : انه اذا تمكن أحد الفلكيين يوما ما من بناء تلسكوب كبير بعيد المدى فاننا نستطيع أن نتخيل ما يمكن أن يحدث عندما ينظر أحدنا من خلاله :

(ربما يرى جسما لامعا مضيئا يشبه القمر ، وينمو على سطحه شجرة منحنية غريبة المنظر . وقد تمضى ساعات طويلة من البحث والتدقيق قبل أن تشرق عليه الفكرة بأنه ينظر الى صلعته اللامعة وقد اتم الضوء الصادر عنها دورته حول الكون وعاد ثانية .) (١)

يقول سير آرثر ادنجتون

(وبطبيعة الحال فان هذه الفكرة التى تتضمن فراغا كرويا مقفلا قد يصعب هضمها الى حد كبير ولكن من الحق انها ليست اسوأ من تلك الفكرة الأقدم المتعلقة بالفضاء اللانهائى المفتوح الذى لا يمكن أن

(١) النسبية فى متناول الجميع ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

يتصوره أحد فليس ثمة من يستطيع أن يتصور اللانهاية) (١) .

ثانيا : الكون متناه زمنيا :

يستدل العلم الحديث على أن للكون بداية من عدد من النتائج التى توصل اليها أخيرا :

١ ــ فهو متناه فى المستقبل ..

وذلك يستدل عليه من قابلية المادة للفناء كما تقرره الفيزياء الحديثة خلافا لما يعتقده المخدوعون من تلاميذ المدارس الثانوية واضرابهم (!!!)

يقول الدكتور جورج جاموف من مشاهير رجال الفيزياء النووية المعاصرين :

(ان ميكانيكا النسبية تؤدى الى احتمال وجود عالمين مختلفين : أحدهما موجب وهو الذى نعيش فيه والثانى غريب سالب : وهو مالا سبيل له سوى تحدى واعتراض سبيل تصوراتنا وأحلامنا .

وكتلة الاجسام فى هذا العالم السالب هى بدورها سالبة كذلك . ومعنى ذلك أنها عندما تدفع فى اتجاه معين تتحرك فى الاتجاه المضاد . وبطريقة التشابه أو المقارنة نستطيع أن نطلق على الكهارب التى لها كتل سالبة اسم الكهارب البليدة ..) (٢) .

ثم يقول :

(ونظرا لامكان وجود البروتونات والنيوترونات والكهارب التى تتكون منها ذرات المادة العادية وظهورها جميعا فى الحالات المضادة ، فان ذلك يعنى امكان وجود المادة المكونة من هذه الجسيمات) .

ومن اللازم أن تكون جميع

(١) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٦ ، ولا يطعن فى استدلالنا بهذه النتيجة التى توصل اليها اينشتين ما ثبت بعد ذلك من أن الكون فى حالة اتساع مستمر ، فهذا من حيث الاستدلال على نهاية الكون حجما مجرد تعديل جزئى وليس الغاء .

(٢) قصة الفيزيقاء ص ٣٥٤ ، وقد جاء أخيرا فى الانباء العلمية ان فريقا من علماء المنظمة الاوربية للبحوث النووية « سيرن » توصلت تجريبيا الى تخليق هذه المادة المضادة . انظر مجلة « أكتوبر » العدد ١١٤ فى ١٩٧٨/١٢/٣١ .

الصفات الكيموية والطبيعية للمادة المضادة هى عينها صفات المادة العادية ، والسبيل الوحيد الذى نستطيع به أن نقرر أن حجرين يتكونان من مادتين متضادتين فيما بينهما هو ضمهما معا فاذا لم يحدث شيء كانا من نفس النوع المادى ، أما اذا حدثت بينهما عملية افناء (١) ذريعة فهما من مادتين متضادتين ..

فهل مادة الكون بأسره من نفس النوع أى أن هناك أرجاء من نوع مادتنا وأخرى من المادة المضادة موزعة هكذا حسبما اتفق عبر الفضاء اللانهائى ؟

هناك رأى قوى بأن المادة المنتشرة فى مجموعتنا الشمسية والتى تدخل فى نطاق الطريق اللبنى « طريق التبانة » هى من نوع واحد متجانس

ولكن السؤال هو : هل اقرب المجرات لنا فى الفضاء مثل سديم اندروميدا العظيم وهل مئات ملايين مجرات النجوم الأخرى المتناثرة فى الفضاء تتكون كلها من نفس النوع من المادة أم هى خليط مكون من ٥٠٪ من كل من المادتين ؟

واذا كانت جميع مادة الكون من نوع واحد فلماذا يكون الأمر هكذا .. ؟

واذا كان بعضها من المادة العادية .. وبعضها الآخر من المادة المضادة .. فكيف تم فصل هذه الاجزاء المميزة بعضها عن بعض ..

اننا لا نملك الاجابة عن أى من هذه الأسئلة (٢))

ولكننا نحن نتصدى للاجابة :

اذ هنا ينبغى ان نستنبط دليلا على وجود الله يمكن ان نسميه :

دليل الامساك : أو دليل أمساك المادة من الفناء ..

فحوى هذا الدليل : أنه مادام أن الفيزيا الحديثة تقرر أن المادة لها قابلية مستمرة للفناء وان هذا الفناء يحدث عندما تلتقى بمادة

(١) بينا فى موضع آخر ان قانون بقاء الطاقة قانون افتراضى ، لابد منه للمنهج العلمى ، وليس معبرا عن حقيقة خارجية تجريبية .

(٢) قصة الفيزيقا ص ٣٦١ .

أخرى تماثلها تماما فى جميع الصفات وان شيئا ما يحدث آنذاك لا يعرفه العلم الا عند حدوثه فيسمى بعض هذه المادة (مادة عادية) وبعضها الآخر (مادة مناقضة) ..

فهذا يدل على أن عامل الحفظ وارد من خارج المادة ، كما يدل على أن عامل الافناء وارد من خارجها كذلك : وهو الله سبحانه وتعالى . وهو مصداق قوله تعالى : (ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده ..) صدق الله العظيم .

* * *

٢ ــ وهو متناه من جهة الماضى :

ويقول جورج جاموف عن تولد المادة من لا شىء وذهابها الى لا شىء وفنائها بالاشعاع :

(ذهب نيل بور .. الى أن قانون بقاء الطاقة لا ينطبق فى حالة تحللات بيتا ذات النشاط الاشعاعى ، وأنه فى حالة انبعاث جسيم بطىء من جسيمات بيتا تختفى كمية معينة من الطاقة ..

أما فى حالة انبعاث جسيم سريع من جسيمات بيتا فيكون من الممكن تولد كمية اضافية من الطاقة من لا شىء ..

وتبعا لهذه النظرية فان قانون بقاء الطاقة فى العمليات النووية الأولى ينطبق على المتوسط فقط) (١) .

وهذا الذى يقرره العلم الحديث من فناء المادة، يذهب ــ فى تقديرى ــ الى أبعد مما ذهب اليه شيخ الاسلام الشيخ مصطفى صبرى عندما استدل على فناء المادة بما اثبته العلم الحديث من تحولها الى ماليس بمادة (٢)

٣ ــ بل هناك دلالات علمية أقوى على أن للعالم بداية ،تستنتج مما توصلت اليه الفيزياء الحديثة عن تمدد الكون اذا أضيف ذلك .. الى ما تقرر عن تناهى الكون حجما:

يقول السير آرثرادنجتون عالم الفلك الانجليزى الكبير :

(من الاستنتاجات التى اخذناها عن النظرية النسبية أنه يجب أن

(١) قصة الفيزياء ص ٣٨١ .
(٢) موقف العقل والعلم حـ ١ ص ٢٣٧ : ٢٣٨ .

توجد قوة تعرف باسم « التنافر الكونى » تعمل على نشوء هذا النوع من التشتت الذى معه يتباعد كل جرم عن أى جرم آخر) (١) .

ولم تكن قوة التنافر الكونى هذه مجرد استنتاج من النظرية النسبية ولكنها من المسائل التى اسفرت عنها الملاحظة والرصد الفلكى فيما تم كشفه اخيرا من التباعد بين الاجرام ، يقول ادنجتون :

(والشىء الملحوظ الذى تم اكتشافه فيما يتعلق بالمجرات هو انها تجرى متباعدة عن مجرتنا ، وانها كلما ازداد بعدها عنا ازدادت سرعتها . وتنطلق المجرات بسرعات عاليه جدا) ..

ولماذا تجرى كلها متباعدة عنا ؟ اذا ما فكرنا قليلا فسوف نرى ان النفور لا يوجه مباشرة ضدنا ، فانها فى نفس الوقت الذى تتباعد فيه عنا اذا بها تتباعد بعضها عن بعض كذلك .. وهذا التمدد لا يتجه بعيدا عن مركز بالذات ولكن يسبب تشتتا عاما ..

ويسير الاتساع بالمعدل الحالى الى المدى الذى معه سوف تصل السدم الى ضعف ابعادها الحالية فى مدى ١٣٠٠ مليون سنة .. ونحن نعتقد أنه جنبا الى جنب مع تمدد اتساع الكون المادى يتمدد الفضاء نفسه ، وتتلخص الفكرة فى أن المجرات التى تمثل الجزر تتناثر عبر فضاء كروى يتمدد ..) (٢).

يقول سير ارثر أدنجتون :

(ان فترة ١٣٠٠ مليون سنة تعتبر زمنا قصيرا فى تاريخ الكون). فاذا أضفنا ذلك كله الى ما تقرر عن تناهى الكون حجما كان لابد أن نستنتج أن الكون متناه أيضا زمنيا

وهذا ما عبر عنه ارثر أدنجتون بقوله :

(١) العلم اسراره وخفاياه : حـ ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر العلم اسراره وخفاياه للدكتور هارلو شابلى حـ ١ ص ٩٥ : ٩٧ والنصوص المأخوذة من السير ارثر ادنجتون نشرها فى مقال له عام ١٩٣٧ .

(ويعنى ذلك بالتالى أننا لا نستطيع أن نرجع القهقرى فى الزمن الى مالا نهاية) (١)

ويقول الدكتور هارلو شابلى مدير مرصد هارفارد (من عام ١٩٢١ ــ ١٩٥٢) : (ان الارصاد الحديثة التى أخذت باستخدام منظار هيل تشير الى أن معدل تمدد الكون آخذ فى التباطؤ) • (٢)

ثم يشير الى النظريتين السائدتين الآن الخاصتين بأصل العالم : النظرية التى تنادى بأن الكون نشأ أول ما نشأ فى لحظة واحدة عارمة •

والنظرية التى ينادى بها مجموعة من العلماء الانجليز وتذهب الى أن الكون نتيجة عملية نشوء مستمر من غير ابتداء أو انتهاء معين ؟

ويتساءل : أى هاتين النظريتين ترجحه الحقائق العلمية ؟

يقول :

(انه لما كان معدل التمدد يتباطأ فعلا ، وأن كثافة المادة تزداد بازدياد المسافة فان هاتين الحقيقتين تشيران الى كون خلق دفعة واحدة وراح يتطور ، وتقفان ضد نظريات النشوء المستمر) •

* * *

٤ ــ وتستنتج حقيقة أن للكون بداية ــ أيضا من القانون الثانى للديناميكا الحرارية ••

فحوى هذا القانون أن الحرارة تسرى دائما من الاجسام الساخنة الى الاجسام الباردة ولا يحدث العكس بتاتا ••

وأنه ليس فى الامكان تحويل الحرارة الى طاقة ميكانيكية من غير أن يكون لدينا فائض أو مزيد من الحرارة الهابطة من مكان ساخن الى آخر بارد (٣) •

وبالرغم من السيد برتراندراسل ــ فاننا نجد فى هذا القانون ما يدل على حدوث العالم ، واحتياجه لمحدث •

وسنترك السيد برتراند راسل

(١) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٦ •
(٢) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٩ •
(٣) قصة الفيزياء ص ١٥٦ : ١٥٨ •

نفسه يقدم لنا هذا القانون ودلالته. يقول راسل :

انه اذا كان هناك فرق فى درجة الحرارة بين جسمين متجاورين فان الأشد حرارة منهما يبرد ، والأشد برودة تأخذ درجة حرارته فى الارتفاع حتى يتساويا فى درجة الحرارة .

ولكن سرعان ما وجد أن للقانون معنى أهم من هذا بكثير ..

فالدقائق المادية فى الاجسام الشديدة الحرارة تتحرك فى سرعة كبيرة جدا بينما تلك التى فى الاجسام الباردة تتحرك بسرعة أقل .

وفى آخر الأمر يجد عدد من الدقائق السريعة الحركة وعدد من الدقائق البطيئة الحركة انهما فى حيز واحد فان الدقائق السريعة ترتطم بالبطيئة حتى تصل المجموعتان الى سرعة متوسطة مشتركة .

وتصدق الحقيقة المماثلة على كل صور الطاقة فحيثما وجد قدر كبير من الطاقة فى حيز ما وقدر ضئيل فى حيز مجاور مالت الطاقة الى الانتقال من الحيز الأول الى الثانى حتى يتم التساوى ..

وهذه العملية لا رجوع فيها

ويقول راسل :

(لعل من أعوص المسائل التى تعترض طريق العلم فى هذه الآونة الاخيرة تلك المشكلة التى تنجت عما يبدو لنا من انهيار العالم .

ذلك أن العالم مثلا به من العناصر الاشعاعية ما ينحل باستمرار الى عنصر أقل تركيبا ، ولا نعرف الوسيلة التى تتمكن بها من اعادة تجميع وتركيب هذه العناصر ..)

ونظرا لأن الكون المادى يعتبر الآن فى نظر الفيزيقا متناهيا ويتكون من عددمحدود وان كان غير معروف من الالكترونات والبروتونات فهناك حد نظرى للتجميع الممكن للطاقة فى بعض الاماكن دون الاخرى فاذا رجعنا بالبصر الى الماضى وجدنا بعد ايغالنا فيه .. أننا وصلنا الى حالة للعالم لا يمكن أنها سبقت بحالة أخرى وهذه الحالة الأولى هى

التى كانت فيها الطاقة موزعة توزيعا أبعد ما يكون عن المساواة (١)

ويشرح ادنجتون هذه النقطة فيقول :

« وكلما توغلنا فى ماضى الزمن وجدنا أن العالم يزداد تمايزا بالتدريج الى ان نصل الى لحظة كانت فيها قوى العالم متمايزة تمايزا كاملا ، ومن المستحيل ان تتجاوز هذه اللحظة ايغالا فى الماضى فالتمايز الذى نتكلم عنه يبلغ مرتبه الكمال، ولا توجد سلسلة لا متناهية من حالات التمايز الاعلى والاكثر علوا، وهذا التنظيم نقيض الصدفة ، فهو شىء لا يمكن حدوثه عرضا واتفاقا»

ويعلق راسل على أدنجتون فيقول:

(ويلاحظ أن ادنجتون فى هذه الفقرة لم يستنتج حدثا محددا للخلق بيد الخالق وليس من سبب يمنعه من ذلك الا عدم حبه لهذه الفكرة ، مع ان الحجج العلمية المؤدية الى النتيجة التى يرفضها أقوى بكثير من الحجج التى تعارضها ..

ثم يقول : (انى أعتقد أنه يجب التسليم بأن ما يمكن أن يقال اثباتا لفكرة ان الكون له بداية فى الزمان فى عصر ليس باللامتناهى فى قدمه يرجح كثيرا ما يمكن أن يقال اثباتا لاى استنتاج آخر) ..

وبالرغم من أن راسل يشكك فى سريان هذا القانون فى كل الأزمان على أساس غيبى متعنت قائلا : (قد لا يسرى القانون الثانى للديناميكا الحرارية على كل زمان ومكان) فانه يضطر الى أن يقول : (ينبغى علينا أن نقبل مؤقتا افتراض أن العالم له بداية ترجع الى وقت محدد وان كان غير معروف) (٢) .

وقد كان من البدهى ان يخضع راسل لهذه النتيجة وما تؤدى اليه من ان العالم من صنع خالق ..

ولكنه وقد وصل الى هذه النقطة يبدو وكأن قد اصابه مس .. فيذهب يرتكب حماقات عجيبة ..

انه يرفض التسليم بالخالق ، مفضلا عليه القول : (بأن الكون قد

(١) مجموعة عالمنا المجنون ص ٦٥ : ٦٧ .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٦ : ٧٠ .

بدأ تلقائيا) فاذا بدا له ان هذا قول عجيب ، قال شيئا اعجب ،قال: (انه ليس من قانون فى الطبيعة يقول ان مايبدو عجيبا لايمكن ان يحدث) !!!

وهو يفضل ان يرتكب هذه الحماقة العجيبة ، على القول بخلق الله للعالم ويرى ان قانون الطبيعة لا يقبل القول بالخالق (لان استنتاج « خالق » للعالم هو استنتاج علته ، ولايسلم بالاستنتاجات العلية فى العلم الاحين تبدأ من قوانين محسوسة والخلق من العدم لم يره أحد)(١).

هكذا : « الخلق من عدم على يد خالق » لا يسلم به العلم ، ولكن العلم يسلم بالخلق من عدم اذاكان لاعلى يد خالق ..

هكذا : « الخلق من عدم لم يره أحد » على يد خالق لايسلم به العلم ولكن العلم يسلم بالخلق من عدم لم يره أحد اذا لم يكن على يد خالق

ماأعجب هذا الحضيض الذى وصل اليه عقل الفيلسوف ..

ما أصدق أن يقال عن راسل ماقاله هو عن ادنجتون (انه لم يستنتج حدثا محددا للخلق بيد الخالق ، وليس من شبب يمنعه من ذلك الا عدم حبه لهذه الفكرة) وما أصدق بسكال حين أخذ يعلل لاصرار الملحد على الحاده وهو ينطبق أعظم الانطباق على راسل فى هذا الموقف وفى غيره من المواقف التى تتابعها :

يقول بسكال : (ان مايجعل الملحد متصلبا فى الحاده ليس ضعف الشواهد الموجودة فى العالم المنظور بل قرار اتخذته الارادة والعواطف . والعيب الرئيسى فى مذهب للالوهية مبنى على الاعتبارات الرياضية والفزيائية وحدها هو انه لايلتفت الى المشكلات والدوافع الانسانية التى تشكل فى نهاية الامر موقف الانسان من الله) . (٢)

د. يحيى هاشم حسن

(١) مجموعة عالمنا المجنون ص ٧٠ .

(٢) الله فى الفلسفة الحديثة تأليف جيمس كولينز ترجمة فؤاد كامل نشر مكتبة غريب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين عام ١٩٧٣ ص ٤٦١ .

الإسلام : شريعة عالمية

للأستاذ زاهر عزب الزغبى

١

لا بد للمجتمعات البشرية من ضوابط تنظم العلاقات التى تربط على الأقل بين أفرادها .. ومهما كانت هذه المجتمعات فلا بد من هذه الضوابط والا فسدت أحوال المجتمع وآلت حاله الى انحلال وزوال .. وحتى فى أشد المجتمعات بدائية نجد هذه الضوابط على شكل عادات وأعراف اصطلح الأفراد على احترامها واتباعها .. فاذا ما ارتقت المجتمعات وأصبحت أمة ذات سيادة وسلطة حاكمة فان الضوابط هنا تتخذ شكل القوانين الآمرة الملزمة .. وهذه القوانين تحل محل العادات والتقاليد فى تنظيم أمور الناس ومعاملاتهم وعلاقاتهم .. وهنا لا يكون ثمة اعتبار للعرف أو التقليد اذا تعارض مع القانون ، وانما تصبح العبرة بنصوص القوانين وروحها ومقاصد مشرعيها .. ولكن تبقى لعادات الجماعة وتقاليدها فعاليتها حيث يعسر على الشارع أن يستقصى بالنصوص القانونية كافة التفاصيل الجزئية فى الحقوق والالتزامات المتقابلة .. وهكذا نجد أن القوانين لا تبطل كلية التقاليد والعادات والأعراف الانسانية ، وانما تهذبها فتبطل وتنسخ منها ما كان غير صالح لنظام الجماعة ، وتعترف ببقاء الصالح منها حيث تظل تؤدى مهمة تنظيمية ولكنها فى هذه المرة تقوم بوظيفة المساعد للقانون بدلا من أنها فى — ميدانها الأول — كانت هى القانون ذاته .

ومؤرخو التشريع جميعا يثبتون نظرية متفقا عليها : وهى أن القانون

لم ينشأ دفعة واحدة ، وانما بدأ بالاعتراف ببعض العادات والأعراف وجعل لها الاحترام الملزم .. ثم ارتقى القانون شيئا فشيئا فوضع الأسس الحقوقيةوالقواعد القانونية العامة .. ولكن أهم مراحل الرقى التشريعى كانت هى تلكالمرحلة التى تجسدت فيها الحرية الحقيقية فيما يسمى بالعقود ، ونظمت واحترمت نتائجها على نحو لا يجعل من حرية التعاقد ذات مساس أو اضرار أو حيف بحقوق وحرياتغير المتعاقدين أو بالنظام العام للجماعة أو بآدابها المرعية .

والتطور التشريعى لم يكن أبدا منفصلا عن سير التطور العام للجماعات البشرية وتدرجها فى مدارج الرقى وأطوار التقدمالمدنى. ففى الجماعات البشرية التى تحيا حياة ذات آفاق محدودة نجد قوانينها بسيطة محدودة ولكنها تفى بحاجة الجماعة فى تنظيم شئونها وأمور حياتها .. أما فى الامم التى سجلت تقدما مدنيا راقيا نجد قوانينها كثيرة متشعبة ودقيقة فى نصوصها ، والى جانب نصوص القوانين نجد فقه التشريع (أى نظريات قانونية) وشروح لهذه النصوص مما يعين القاضى حين تطبيقه للقانون على الاجتهاد برأيه فى فهم النصوص والقياس عليها بصورة توسع استيعاب تلك النصوص المحدودة الى آفاق غير محدودة بمراعاة العلل التى راعاها الشارع ، وتحكيم علل ودلائل هذه النصوص .

ومن ثم يمكن القول أن القانون بوجه عام فى أية أمةمن الامم ليس الا صورة صحيحة لحياتها الاجتماعية واقتصادية ، والهدف منه اقامة العدل وحفظ حقوق الفرد والجماعة بقواعد قانونية ملزمة .. وهذه القواعد تكون وقتية ومحلية اذا كانت قد سنت لتعمل فى مجال له أوضاعه الخاصة ذات الطابع العرفى الاقليمى .. ولكنها تكون صالحة للدوام وللتعامل بها على نطاق دولى اذا كانت تعبر عن مفاهيم وحقائق ثابتة مسلم بها على نطاق انسانى عام ، او اشتملت على

قواعد عدلية عالمية كقاعدة منع الضرر والعقاب عليه وايجاب التعويض عنه ، وكقاعدة عدم سريان حكم العقد الا على عاقديه وعدم تأثيره فى حقوق الغير •

ومن المسلم به بين فقهاء القانون أن العدالة لا تتعدد وجوهها أو صور الحقوق أمامها • ولذلك كان تعدد أوجه العدالة فى شريعة ما مما يعيبها ويجعلها غير صالحة للتعامل فى مجتمع متمدين يحترم العدالة ويجلها •• ومن العيوب التى طعنت بها الشريعة اليهودية أنها فى بعض صور التعامل كانت تبيح لليهودى أن يغبن عميله اذا كان أجنبيا بينما كانت تحرم هذا الغبن نفسه اذا كان الطرف الآخر فى التعامل يهوديا •

« لا تقرض أخاك بربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا • للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك » (تثنية : ٢٣ / ١٩ ، ٢٠) •

وعابوا عليها أيضا أن بعض الجنايات كان يضيع قصاصها اذا أدى الجانى مالا للهيكل وعفا عنه الكهنة •

وكانت الشريعة الرومانية أيضا معيبة من حيث أنها كانت تقنن للنبلاء الرومان حقوقا معينة وليس لسواد الشعب نظيرها •• وكذلك كانت الشريعة الرومانية تحتوى على تشريعات خاصة لا تسرى الا على سكان الأراضى الرومانية نفسها بينما كانت تحتوى على تشريعات مخالفة لتطبق فى المستعمرات والأراضى الخاضعة •

ووظيفة القانون فى حياة الأمة جليلة وخطيرة •• وللقانون فى حياة الأمة ثلاث وظائف كبرى هى : العلاج ، والوقاية ، والتوجيه •• وحتى يتمكن القانون من أن يؤدى وظيفته يجب أن يكون ملزما obligatory •• والقانون اما أوامر أو نواهى ، ولكى تتوفر للقانون الطاعة والالتزام فى العمل به يحتاج الى

نوع اضافى من الأحكام التشريعية يسمى بالمؤيدات : وهذه اما زواجر مدنية كبطلان العقود المخالفة للقانون ، واما عقوبات تأديبية كالسجن والغرامات المالية لكى يضطر المكلف الى التزام حدود القانون وطاعته •

ومن ثم يمكن تقسيم أحكام التشريع الى نوعين : (١) أحكام محمية وهى القانون الأصلى ، (٢) وأحكام حامية ، وهى المؤيدات

ولكن الشرع كضوابط ملزمة يجد فيه دائما الأذكياء ثغرات يخالفونه منها وهم آمنون من العقاب ، فما لم تكن نصوصه مقدسة ومحترمة فى نفوس الناس لاستطاعوا أن يحققوا منافعهم ومطامعهم غير المشروعة اذا أمنوا العقاب بالمغالطة الذكية فى تأويل نصوصه ، أو بالتخلص من الدليل الذى يدينهم أمام من وكل اليهم أمر تطبيقه وتنفيذه •• ولهذا كان التشريع شيئا قاصرا اذا لم تسنده عوامل أخرى ذات صلة وثيقة بضمير الانسان ونفسيته وأخلاقه •

والاسلام كدين قد كفل صلاح البشر أفرادا وجماعات بالتربية والتنظيم •• وقد اعتنى الاسلام أول ما اعتنى بمخاطبة عقل الانسان وضميره ووجدانه فأتاح للضمير أن يعتبر المثل الأخلاقية حين يتعامل فى نطاق الشريعة ••

والشريعة الاسلامية : اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله أو شرع أصولها ، وكلف المسلمين اياها ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله وعلاقتهم بالناس • وهى على هذا ذات شقين متميزين •• الأول منهما عبارة عما ينظم ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون الى ربهم ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم فى الايمان به وطاعته والتودد اليه ، وهذه تسمى بالعبادات •

أما الشق الثانى فهو مجموع القواعد التى تنظم حياة الناس • فتحفظ لهم المصالح ، وتدفع عنهم المضار سواء كان ذلك فيما بينهم وبين أنفسهم أم فيما بينهم وبين

الغير على وجه تمتنع معه المظالم ويسود العدل والامن والاطمئنان. وهذه أطلق عليها الفقهاء المسلمون اسم المعاملات .

والشريعة الاسلامية تنبنى على أساس متين من عقيدة قوامها الله الواحد الذى لا مثيل له ولا شريك، الخالق القادر العليم ، الذى خلق الناس واليه معادهم حيث سيبعثون ـ بعد انقضاء حياة الدنيا الفانية هذه بالموت ـ فى حياة أخرى شاء الله لها أن تكون خالدة ، وفيها سيحاسب الانسان عما قدم من أعمال فى دنياه ليلقى عليها جزاء عادلا فى أخراه : فاما ثوابا بالنعيم الخالد واما عقابا بالعذاب المقيم .. ولهذا كانت الشريعة الاسلامية على خلاف غيرها من التشريعات والتقنينات الوضعية التى تستمد قوتها من يقظة رجل البوليس وحنكة القاضى ... فهى تعتمد أساسا على الايمان بالله الذى لا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء والذى لا تخفى عنه خافية .

والاسلام فى معالجته الاصلاحية للانسان قد استهدف ثلاثة أهداف أساسية كل منها نتيجة لما قبله وأساس لما بعده .

أولا ـ تحرير العقل البشرى من رق التقليد والخرافات ، وذلك عن طريق العقيدة والايمان بالله ، وتوجيه العقل نحو معنى الألوهية بالدليل والبرهان والتفكير العلمى الحر .

ثانيا ـ تربية ضمير الفرد واصلاح نفسيته ، وذلك عن طريق تعريفه بالمثل الأخلاقية واشباع نفسه منها ، وتوجيهه نحو الخير والاحسان وكل ما هو واجب أو أصلح ، ومنع شهواته ومطامعه الغريزية من أن تتغلب على عقله ومسئولياته ، وتذكيره دائما بالله الجدير بالعبادة ، وبما يتنظره من ثواب وعقاب فى الآخرة لكى يظل المؤمن فى مراجعة دائمة لأعماله وفى يقظة دائمة كى لا يقصر فى واجباته .

ثالثا ـ تحقيق العدالة والامن والحريات فى مجتمع صالح .

ومن أجل الهدف الأول كانت أصول العقيدة والايمان .. ومن أجل الثانى كانت العبادات ..ومن أجل الثالث كانت المعاملات .

وهذه المعاملات فى جملتها عبارة عن نظام مدنى شمل جميع الأسس القانونية اللازمة لاقامة حياة اجتماعية مدنية راقية فى دولة من شأنها أن تنظم علاقات الناس مع بعضهم البعض وعلاقتهم بالسلطةالحاكمة ، وتكفل صيانة الحريات وكافة الحقوق الخاصة بالأفراد وكذلك الحريات والحقوق العامة للمجتمع .. ومن ثم وصف الاسلام بأنه «دينودولة» ومن الخطأ الفاحش-اعتبار جانب الدين فى الاسلام دون الدولة ، أو اعتبار جانب الدولة منه دون الدين . أو بالأحرى اعتبار عقيدته وشعائره التعبدية ومثله الأخلاقية دون اعتبار للجانب المدنى البحت منه . أو العكس .. فالاسلام كل مترابط ، وقد يساء فهم الحقيقة اذا جزأناها فيساء تطبيقها وتظهر بصورة مشوهة أو غير لائقة .

والجانب التعبدى من الشريعة الاسلامية قد استهدف منه أساسا أن يكون طهارة للقلب وتزكية للنفس وتقوية للايمان بالله وتدعيما للصلة بين المؤمن وربه وباعثا على امتثال أوامره والمحافظة على شريعته الا أن الله جلت حكمته قد رسم شعائرها وصاغها مراسم تفيد الانسان فى حسه وفى جسمه ، فى عقله وفى بدنه .. فبالاضافة الى المعنى التهجدى فى العبادات نجد فيها أيضا مصلحة الانسان واضحة جلية .

وفى المرة الثانية التى نزل فيها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبلغه قوله تعالى :

«يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » (بداية المدثر) .

فالاسلام اذ يبدأ الدعوةبالتعريف بالله والحض على النظافة والطهارة البدنية والروحية فانما يضع مصلحة الانسان وصحته موضع الاعتبار والرعاية .

والعبادات هى : الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ،وهذه الأربع بعد التصديق بالرسالة والاقرار بوحدانية الله تمثل أركان الاسلام وعمده .

قال صلى الله عليه وسلم :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وايقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » .

والصلاة شعيرة تعبدية فرضها الله لتصلح روح الانسان وبدنه معا وتحقق له كثيرا من المصالح الدنيوية .. فأول شروط صحتها أن يكون الانسان على طهارة البدن ، وطهارة البدن لا تتوفر الا بالاغتسال اذا تحقق موجبه أو بالوضوء .. وكذلك طهارة الثوب والمكان .. وبذلك ضمن الاسلام للانسانية نظافة دائمة فى البدن وفى الملبس وفى الوسط الذى يعيش فيه .. ثم ان الصلاة قد فرضت فى أوقات محددة خمس مرات فى اليوم .. وهى تبدأ بالتوجه الى الله فى النية والاجلال له بالتكبير ، ثم الخلوص له بالبسملة ثم حمده على نعمه ، والافصاح عن الوهيته ووحدانيته والاقرار له بالعبودية والتماس الهداية والفلاح منه تعالى فى الفاتحة.. ثم التهجد له بالقراءة ، ثم تأكيد الخشوع والخضوع فى الركوع والسجود .. ثم الانصراف من وقفة العبادة بالسلام والرحمة.

والصلاةصلة روحيةبين الانسان وربه ، أو رحلة الى الله تتكرر كل يوم خمس مرات ، وبها يستفتح الانسان يومهويختتمه ، وهىتذكرة دائمة حتى لا يضعف ايمان المرء أو تهن عقيدته ، أو تضعفروحهفتغلب عليه شهواته ، أو يغلظ حسه فيقل تقديره للمثل الأخلاقية أو يقل اهتمامه لأحكام الله الشرعية ..

وهى فوق ذلك رياضة بدنية تقوى أعضاء الجسم وتنشط وظائفها الفسيولوجية .

ومن تمام فائدة الصلاة أنتكون فى جماعة حيث يستزيدالمؤمنبوعيه

الاجتماعى عزة ، وحيث تنتفى بها الفوارق أمام الله فيزيد فى الانسان الشعور بالكرامة .

وفى كل اسبوع ينعقد بها مؤتمر محلى فى صلاة الجمعة حيث تزيد مراسمها موعظة يلقيها خطيب هو فى العادة أفقه الحاضرين وأكثرهم علما وأوسعهم اطلاعا فيعالج بها احدى المشاكل ويلتمس لها حلولا أو يشرح فيها حقيقة تتعلق بأمور الدين أو الدنيا ويوضح غوامضها ويبين عن مغاليقها .

أما الصوم فهو امساك عن أهم شهوات النفس وأهم ضرورات البدن فرضه الله ليكون تعبدا له وتقربا اليه ، برهانا على الخضوع والاستسلام لسلطان الله ، وتمجيدا لعظمته ، ولكنه أيضا رياضة تفيد الانسان فى روحه وحسه وبدنه . انه استسلام وخضوع لأوامر الله بالطاعة ، واختبار لارادة المسلم فى مجاهدة النفس وحملها على الطاعة والاستسلام ، وتعويد للمؤمن على الصبر ، ورياضة له على كبح جماح الشهوات وعلى منع النفس من الاسترسال فى التوقان الى الحصول على المتع والملذات ، وان الصوم أيضا لتجربة يجتازها المسلم فيشعر بألم الحرمان وقسوة الحاجة ومضض الجوع .

وهذه التجربة تجعله — ان لم يكن قد ابتلى بمحنة الفقر — بمعزل عن واقع الحياة فلا يقدر باتزان الظروف العصيبة التى ينوء بها كاهل الفقراء .. وفضلا عن ذلك فان هذه التجربة تجعله ايضا — ان كان على قدر من الغنى — يقدر باتزان القيم الحقيقية فى الانسان والمال ، فلا يترك للمال أن يطغى على انسانيته فيصاب بالغرور وبالبطر استعلاء وتكبرا ، أو يعتريه الجبن خشية الفقر فيصاب بالشح والبخل .. وكثيرا ما نرى من بين الأغنياء من تجبروا وطغوا وسعوا فى الأرض فسادا بسبب ما يمتلكونه من مال ، ونرى من بينهم أيضا من كانت آمالهم سببا فى انهم قد امتهنوا كرامتهم واستذلوا أنفسهم وعاشوا وهم فى خشية من الفقر عيشة

أحسن منها وأكرم عيشة الفقراء . فالصوم فضلا عن أنه عبادة دينية يعتبر أنجع علاج نفسي ضد بسطة الغنى وعوز الفقر ، وهو أيضا علاج بدنى ووقايةمن أدواءالتخمة وراحة للجهاز الهضمى بصفةخاصة وللجسم كله بصفة عامة .

وقد شاءت حكمة الله وعدالته أن يكون الصوم كسائر العبادات اجراء محتملا يطيقه أواسط الناس بلا جهد شاق ، ولكنه فى نفس الوقت على قدر كاف للغرض منه ومحصل للفائدة المرجوة فيه .. تقدير الهى حكيم بلا اسراف أو تقتير .

والاسلام لم يغفل ابدا عن المعالجة فى المجتمع الذى خطط مشروع تكوينه .. فالحج فضلا عن أنه عبادة وطاعة يستلهم فيها المؤمن جلال الله وعظمته فى موطن الوحى ومنبع الرسالة فهو أيضا مؤتمر عالمى يلتقى فيه المسلمون على صعيد واحد من شتى أنحاء الأرض فيتدارسون ويتشاورون فتمتزج المعارف وتتوالد التجارب وتتوطد العلاقات وتتدعم الأخوة فى الله تحت راية الاسلام وفى كنف الأمان والاطمئنان .. واذا كانت المؤتمرات المحلية قد كفلتها الصلاة فى الجماعة والجمعة والعيدين فان الحج مؤتمر عالمى عام فرضه الله على القادر مرة فى العمر وأجزل الثواب لمن لم يكتف بالمرة الواحدة كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وعلى هذا النحو درج الاسلام فى أن يتيح للمسلم أن يستفيد من شعائر العبادة التوقيفية فى شئون دنياه .

وقد امتازت عبادات الاسلام على غيرها من عبادات الأديان السابقة من حيث أن الاسلام قد راعى أن تكون العبادات كلها تكليفا يخاطب ضمير الانسان وحده ويترك لهذا الضمير حرية الاقامة وحرية الآداء فلا وسيط من كهانة ولا من ضرورة لتدخل أى عنصر غريب يسيطر على هذا الضمير أو يكون شرطا لقبول العبادة ولو نيابةعن الله ، فلاضرورة للهيكل أو للسدنة حتى تصح الصلاة .

فالاسلام قد حرر الانسان فى عقيدته وحرره فى عبادته .. فلا اله الا الله ولا سلطان على الانسان لأحد سواه .. والانسان فى نظر الاسلام مخلوق حر مسئول..ومن شأن الحر أن يترك لضميره ، وأن يخلى بينه وبين مسئوليته ، فاذا لم يرع واجبات هذه المسئولية لم يكن منصفا لنفسه ، والله بهكفيل ، فاليه المعاد ، وعنده سيلقى كل امرىء عادل الجزاء .

واذا كنا قد أتينا على ذكر الجانب التعبدى من الشريعة الاسلاميةملمحين بايجاز الى بعض ما يمكن أن تلمحه العقول من حكمة التشريع فيه ، والله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين ، وسيظل العقل البشرى على الدوام قاصرا عن تلمس كمال حكمته ومدى جلاله وعظمته ، فان الجانب القانونى القضائى منها على كثرة ما تعرض له من النقد قد وقف صامدا أمام التجارب ليثبت أنه التشريع الكامل الصالح الذى لا يخذل الانسان ولا المجتمع الانسانى كلما التجأ اليه فى طلب للعدل والامن والاستقرار .

والنظام القانونى القضائى فى الشريعة الاسلامية قد تضمن قواعد وأحكاما أساسية فى كل من ميدان الحقوق الخاصة بفرعيها المدنى والجنائى وميدان الحقوق العامة بفرعيها الداخلى والخارجى ، أى الادارى والدولى .

وفى جميع هذه قد أتت الشريعة الاسلامية بنصوص تتضمن مبادىء أساسية ، وتركت ــ فيما عدا بعض الفروع الضرورية كضريبة الزكاة ، ونظام التوريث ــ التفصيلات الفرعية للاجتهاد فى التطبيق ، بحسب المصالح والمقتضيات الزمانية والمكانية .

ولقد تكاملت تفاصيل الشريعة الاسلامية عند تطبيق مبادئها الكلية فى جنبات الامبراطورية الاسلامية الواسعة التى شملت أجناسا وأقواما من البشر عديدين لهم ظروفهم المتباينة كل التباين وثقافاتهم وحضاراتهم المختلفة كل الاختلاف .

وكنتيجة لهذا التطبيق فى هذه الظروف المختلفة نشأ أيضا فقه تفسيرى وتفصيلى حول النصوص الأصلية فى الشريعة ، فقد ضبطت طرق استنباط المبادىء والأحكام الكلية من النصوص ومن غيرها من مصادر التشريع كفتاوى الرسول واجماع المسلمين ووضحت بأحكام طرق استعمال القياس عند دوران العلل مع أحكامها وجودا وعدما .

وكانت هذه القواعد الاصولية (أو ما أطلق عليها علم أصول الفقه) نبراسا وهديا سار عليه الفقهاء فى فتاويهم (و القضاة فى أحكامهم) .. ومن مجموع هذه الفتاوى والأقضية مع حيثياتها تكون علم الفقه ذاته الذى يعد حتى الآن على الأقل أعظم وأوسع تراث قانونى عرفته الانسانية وقد نشأت فيه مذاهب فقهية قانونية كثيرة أشهرها أربعة مذاهب وهى : مذهب الأحناف ومذهب الشافعية ومذهب المالكية ومذهب الحنابلة .

وقد اختلفت هذه المذاهب فى كثير من القضايا ولكنه كان اختلافا فى التفسير القانونى للنصوص التشريعية ، وليس على أية حال اختلافا دينيا .. وبهذا الاختلاف المذهبى فى تفسير النصوص أهدى الاسلام الى البشرية ثروة تشريعية عظمى سواء فى نظرياتها القانونية أم فى تطبيقاتها القضائية ..

واذا نحن استعرضنا بايجاز النظام القانونى فى الشريعة الاسلامية أمكننا أن نكون فكرة صحيحة عن مدى دقة هذه الشريعة وصلاحيتها الدائمة فى تنظيم الحياة الانسانية .

والقسم القانونى القضائى من الشريعة الاسلامية نظام قانونى كامل .. وككل قانون كامل ينقسم الى قسمين رئيسيين : الأول الحقوق الخاصة ، والثانى الحقوق العامة .

أما القسم الأول فينقسم بالتالى الى قسمين : الأول منهما هو القانون المدنى وثانيهما هو القانون الجنائى .

والحقوق العامة تنقسم ايضا الى قسمين رئيسيين : أولهما القانون الادارى والثانى القانون الدولى .

وسنبدأ فى شرح هذه الفروع الأربعة كل على حدة :

أولا : القانون المدنى :

أ ـ الشخصية القانونية :

حصرت الشريعة الاسلامية الشخصية القانونية فى الانسان وخاطبت بالتكليف كل فرد من أفراده .. فالفرد الانسانى هو الشخصية القانونية الطبيعية فى نظر الشريعة الاسلامية .. ولكننا فى نفس الوقت نلمح فى بعض الأحكام الشرعية اعترافا ضمنيا بمبدأ الشخصية القانونية الاعتبارية .. وذلك فى كل ما هو كفرض الكفاية فالمطالب به جماعة المسلمين وكدية المقتول التى تلتزم بها العاقلة .

والتعريف الفقهى للشخصية القانونية هو : صلاحية الشخص لاكتساب الحقوق والالتزام بالواجبات .. أو بعبارة أوضح كون الشخص أهلا للخطاب والتكليف. وتبدأ الأهلية المدنية فى نظر الشريعة الاسلامية بولادة الانسان وتنتهى بوفاته ، ولكنه لا يستطيع أن يزاول موجبات هذه الأهلية الا ببلوغه سن النضوج الانسانى. يستوى فى ذلك الرجل والمرأة .. وبشرط أن يكون هذا الانسان فى درجة كافية من القوة العقلية ، والا ظل كالطفل ناقص الأهلية ، وتنتقل حقوقه والتزاماته الى الولى أو الوصى أو القيم يباشرها نيابة عنه بما فيه مصلحته .

ب ـ المعاملات والحقوق المدنية :

شملت الشريعة الاسلامية كافة أنواع المعاملات المدنية فرسمت القواعد المضبوطة التى يمكن على أساسها التفريع والقياس لاستنباط الحكم العادل فى أية قضية من أى نوع من أنواع التعامل المدنى .. فالبيوع والمزارعات والمقايضات وطرق استغلال الأموال فى الأعمال التجارية ، والاجراءات القضائية فى رفع الدعاوى واستدعاء الخصوم وسماع الشهود ، وانهاء الخصومات

بالعجز عن اقامة البينة أو بالمصالحات أو بالتنازل ، وسقوط بعض الدعاوى لبعض الأسباب كموت الخصم أو عدم جواز سماعها للتقادم أو للتراخى فى رفعها كما فى الشفعة .

وعلى الجملة فان القانون المدنى فى الشريعة الاسلامية يحتوى على كل الأنواع والفروع التى تشملها القوانين الحديثة ولكن بصورة أكثر دقة فى تحقيق العدالة .

واذا جارينا التبويب الحديث للقوانين المعمول بها فى الأمم المتحضرة .. أمكن تقسيم القانون المدنى فى الشريعة الاسلامية — بصورة تقريبية — الى الأبواب التالية :

١ — قانون الاجراءات القضائية .

٢ — الالتزامات .

٣ — العقود .

٤ — الأحوال الشخصية .

١ — قانون الاجراءات القضائية

وفى قانون الاجراءات القضائية اعتبرت الشريعة الاسلامية أن جميع الالتزامات مضمونة بتأييد القاضى، وجعلت للقاضى سلطات واسعة غير محدودة فى اجبار كل انسان — ولو كان الخليفة — على تنفيذ التزامه . وحوادث قضاء القضاة على الخلفاء والملوك معروفة وكثيرة فى التاريخ الاسلامى .

وقد أوجبت الشريعة الاسلامية مواصفات خاصة يتعين أن تتوفر فى القاضى : وأهم هذه المواصفات أن يكون متفقها فى أمور الدين والشريعة ، وأن يكون سليم الحواس ، وأن يكون فوق مستوى الشبهات مشهودا له بالنزاهة والتجرد عن الأطماع والتعصب .. ويتحتم على القاضى أن ينزل المتخاصمين منزلا متكافئا فى مجلس القضاء فلا فضل لأحدهما على الآخر مهما كان مركزه الاجتماعى بل الكل أمام العدل سواء ..

وتسمع دعوى صلحب الحق أو وكيله ، والبينة على المدعى « سواء

فى الدعوى الأصلية أم فى الدفوع الفرعية » ، واليمين على من أنكر. فان رفض المدعى عليه حلف اليمين ألزمه القاضى بحلفهـــا والا قامت الحجة عليه ولزمته الدعوى .

وأول الأدلة الاقرار .. واقـرار الشخص لا يسرى الا على نفسـه وحقوقه.. ويجب أن لا يعيب هذا الاقرار أى شائبة من الضغط أو الاكراه على أى نوع كان هـذا الضغط أو الاكـــراه .. ثم يلى الاقرار فى الترتيب من أنواع البينة الشهادة .. ونصابهـا فى سـائر الحقوق المدنية رجلان أو رجـــل وامرأتان ، ولا تنعقـد بالنسـاء وحدهن الا فيما تحتمـه طبيعـة الجنس بأن كانت أمـورا لا يطلع على وقائعها سواهـــن ، كالمسائل المتعلقة بالحيض والولادة وغيرهـا من الأمور النسائيـة الخاصـة ، وبعضها يكفى فيه شهـادة المـرأة الواحدة.. ويلى الشهادة من أنواع البينة الظروف والوقائع المـادية ، وهذه يترك لضمير القاضى وخبرته تقدير قيمتها فى اثبات الدعوى ، فان لم تسعف القـاضى خبـراته الخاصـة فى هذا المجال وجب عليه أن يستعين بأهل الخبرة .

وقد نبه الاسلام الى أهمية الصك الكتابى كوثيقة مثبتة للحقـوق فى المعاملات والمبـادلات المالية حيث جاء فى القرآن الكريم وصف لأدق ما ينبغى أن تكون عليه الصكوك المستندية :

« يا أيهـا الـذين آمنـوا اذا تداينتم بدين الى أجـل مسمى فاكتبوه وليـكتب بينـكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليـكتب ، وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئـا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هـو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبـــوه

صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم • وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته • وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » (البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣) •

وهكذا راعت الشريعة الاسلامية أصولا دقيقة فى ضبط المعاملات وثبوتها لا نجد خيرا منها فى أى من القوانين الأخرى •

وقد راعت الشريعة أيضا التسهيل فى المعاملات التجارية الدائرة أو ما يسمى فى الاصطلاحات الحديثة بالحسابات المفتوحة فلم تجر عليها أحكام الديون الثابتة •• وهذه الشروط والقواعد التى تضمنتها الآية من حيث اثبات التعامل بالصكوك المحررة ليست من قبيل الشروط اللازمة بحيث يضيع الحق باهمالها ولا تسمع الدعوى فى الدين اذا لم يكن بصك كتابى •• ولكنها من قبيل الأولى ، وتركها ليس الا تركا للاولى وانما العبرة بالاشهاد أو بأى نوع آخر من طرق البينة •• ولذلك ركزت الآية على الاشهاد واهتمت به أكثر مما اهتمت بكتابة الصك ••كما أهابت بضمير الذى اؤتمن على دين أو وديعه — شغلت ذمته بأيهما دون احتياط ثبوتى سواء بالكتابة أو بالاشهاد — أن يتقى الله ويؤدى الأمانة ولو لم تلزمه البينة •

وفى الحقوق المدنية كما فى القانون الجنائى أجازت الشريعة الاسلامية لغير صاحب الحق أن يرفع الدعوى حسبة لصالح الجماعة فى تحقيق العدالة•• والحسبة نظام يقابل نظام النيابة العمومية فى العصر الحديث •• وقد أجازته

الشريعة الاسلامية فى بعض الحقوق المدنية كما أوجبته فى الدعاوى الجنائية .

٢ ــ الالتزامات :

اعتبرت الشريعة الاسلامية كل فعل ضار بالغير موجبا مسئولية الفاعل أو المتسبب والتزامه بالتعويض عن الضرر ولو كان عن خطأ .. فان كان عن عمد وجب أيضا عقوبة الفاعل أو المتسبب .. ويقابل هذا فى القوانين الحديثة نظرية « سوء استعمال الحق »..

والشريعة الاسلامية لا تؤسس هذه النظرية على المعيار الشخصى وحده ــ كما فعلت كثير من التشريعات الحديثة ــ بل تضيف الى ذلك معيارا ماديا.. فهى تذهب الى حد تقييد استعمال الحق بالغرض الاجتماعى والاقتصادى الذى تقرر الحق من أجله .. والفقه الاسلامى ملىء بتطبيقات متعددة لهذه النظرية .. ومنها تحريم الاحتكار فى السلعة الضرورية مراعاة لحق الجماعة .. ومنها تحريم استعمال المال فى أغراض تضر بالغير كاغراق الرأسمالية الصناعية الأسواق بمنتجاتها وبأسعار فيها خسارة كبيرة للقضاء على المؤسسات الصناعية المنافسة ، ثم احتكار الاسواق بعد ذلك ، واسترداد هذه الخسارة فيما بعد أضعافا مضاعفة .. ومنها تحريم اكتناز المال أو استغلاله فى غير وظائفه الاجتماعية والاقتصادية المشروعة .. ومنها حقوق الجوار. فليس للجار أن يستعمل حقه بحيث يترتب على هذا الاستعمال حدوث ضرر لجاره..فلا يجوز له مثلا تعلية حائطه اذا كان يترتب على ذلك حجب الضوء أو مسارب الهواء عن جاره كما لا يجوز له فتح نوافذ على جاره اذا كان ذلك يؤذى هذا الجار .

ومن هذا القبيل أيضا ضرورة الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ..

ويقرر صاحب مرشد الحيران أنه : « اذا كان المالك مديونا دينا ثابتا عليه شرعا يجوز نزع ملكية الزائد عن حوائجه الضرورية

المحتاج اليها فى الحال ومنها مسكنه الضرورى .. اذا لم يكن له مال من جنس ما عليه من الدين الشرعى، ويباع قضاء ـ اذا امتنع عن بيعه بنفسه ـ لقضاء دينه من ثمنه . ويبدأ فى البيع بالأيسر فالأيسر بقدر الدين » .

وكما أخذت الشريعة الاسلامية بنظرية عدم استعمال الحق استعمالا سيئا فانها أيضا أخذت فى باب الالتزامات بنظرية الضرورة أو ما يسمى فى التشريعات الحديثة بنظرية الأحوال الطارئة .. وقد وصفها الفقيه الفرنسى لامبير L'ampère بقوله : « تعتبر نظرية الضرورة فى الفقه الاسلامى أشد جزما وشمولا من فكرة يوجد أساسها فى القانون الدولى العام فى نظرية الظروف المتغيرة (شرط بقاء الحال على ما هو عليه) .. وفى القضاء الادارى الفرنسى فى نظرية الظروف الطارئة ، وفى القضاء الانجليزى فيما أدخله من المرونة على نظرية استعماله تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التى نشأت بسبب الحرب ، وفى القضاء الدستورى الأمريكى فى نظرية الحوادث المفاجئة » .

وقد طبقت الشريعة الاسلامية هذه النظرية كلما وجد العذر الطارىء الذى لم يكن فى الحسبان وقت التعاقد ومن أمثال ذلك : هلاك الزرع بآفة فى العين المؤجرة يسقط كل أو بعض القيمة الايجارية ، وفسخ عقد الايجار بالعذر ، وقد يكون العذر راجعا للعين المؤجرة كمن استأجر حماما فى قرية ثم هجر الناس هذه القرية ،وقد يرجع العذر الى المؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة لوفاء دين فى ذمته وليس من وسيلة سوى بيعها للوفاء بهذا الدين ، وقد يرجع العذر الى المستأجر كانتقاله بسبب خارج عن ارادته من حرفة الى أخرى أو افلاسه أو اصابته بعاهة .

وملخص هذه النظرية اجمالا كما طبقتها الشريعة الاسلامية .. أنه فى حالة حدوث عارض عام أو خاص لم يكن متوقع الحصول فى العادة وقت التعاقد وترتب على

حصوله جعل تنفيذ الالتزام ــ سواء أكان التزاما بدين أو بعقد ــ مرهقا ، جاز للملتزم طلب تخفيف التزامه الى الحد المعقول .

وتعتمد هذه النظرية على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد عبر عنها الفقهاء بتعبيرات مختلفة منها ، لا ضرر ولا ضرار ، الضرورات تبيح المحظورات ، فنظرة الى ميسرة ، الضرر يدفع بقدر الامكان ، أهون الضررين يدفع أشدهما ... الخ .

وعد اعتبرت الشريعة الاسلامية نوعين من الالتزامات .. التزامات شخصية تتعلق بذمة الانسان نتيجة لفعله .. والتزامات شرعية أوجبها الشارع كنفقة الأقارب وزكاة المال ... ونصيب الفرد فى المساهمة العامة فى حالة النفرة أو التعبئة العامة لملاقاة عدو أو مجابهة خطر داهم كالمجاعات ونحوها .

٣ ــ العقود :

وفى العقود أقرت الشريعة الاسلامية الأسس التالية :

(أ) العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره ، والتزام العاقد ينتقل الى من يخلفه فى ماله كالوارث أو الموصى له : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (أول المائدة) .

(ب) الشروط العقدية حرة وملزمة للعاقدين ، الا ما يخالف النظام العام والآداب العامة .

«المؤمنون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا» (حديث نبوى شريف) .

(جـ) العقود كلها رضائية لاتنعقد الا بالتراضى الحر .

(د) العقود تصبح صحيحة كاملة وسارية المفعول بمجرد الاتفاق بين طرفيها أو أطرافها دون اشتراط شىء من المراسم الشكلية الا فى عقد الزواج حيث اشترط الاشهاد، ومع ذلك فقد اعتبر وقوع التراضى وحده كافيا لدفع حد الزنا عن المتعاقدين اذا لم يستكمل هذا العقد شروط صحته من الاشهاد وتسمية المهر .

(هـ) أوجبت الشريعة الاسلامية في انشاء العقود وتنفيذها أن تخضع للقواعد الأخلاقية العامة وأن يسودها حسن النية .. فالتراضي الذي يتم بين اثنين أو جماعة على غش أو تدليس أو الاتفاق الذي يجمع بين اثنين من أجل معصية انما هو تآمر وليس بعقد مشروع ولا يستتبع أي أثر ملزم .

وكذلك جعلت الشريعة الاسلامية كل غش أو تدليس أو غلط أو تغرير من أحد العاقدين موجبا خيار الآخر ومسوغا له فسخ العقد لا خلاله بالتراضي .

(و) اعتبرت الشريعة الاسلامية العرف والعادة أساسا لتحديد حدود الالتزامات والحقوق العقدية في كل ما سكت عنه نص العقد .. فطريقة استعمال المأجور وكيفية دفع الأجرة يتبع فيه عرف الناس .. وللعرف اعتبار فضائي واسع المدى في كل وجه من أوجه الشريعة الاسلامية ما لم يصطدم أو يعارض بنص شرعي ملزم ومحدد في موضوعه . كالتعارف على الالتزام بدين القمار فانه لا عبرة له .

وعلى الجملة فان الشريعة الاسلامية لم تحدد أنواعا معينة من العقود وانما أتاحت للارادات الحرة أن تزاول حقها العقدي في كل ما هو مباح وكل ما هو مشروع ، غير مشترطة أي قيد سوى أن يسود العقد الحرية في التراضي وحسن النية في تنفيذه .. وكل ما يعطل حرية التراضي أو يعيب حسن النية في التنفيذ انما يبطل العقد ويبطل آثاره فيما عدا الاضرار التي تحيق بأحد المتعاقدين فانه يكون مستوجبا عنها تعويضا .

(يتبع)

زاهر عزب الزغبي

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

٦

نظرية الثلاثية :

وجدنا أن مؤيدى نظرية « الثنائية » يرون أن المواد اللغوية نشأت أول أمرها ثنائية ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق : أى من حرفين أولهما متحرك ، حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن • وأن سنة التطور والنمو كانت هى العامل الفعال فى اكتناز المادة الثنائية وجعلها مركبة من ثلاثة أحرف فأكثر •

وكثير من المتقدمين والمحدثين من علمائنا العرب ومن غيرهم ، قال بذلك ، وأشارت كتبهم اليه فى ابحاثهم ، وان لم ينصوا عليه صراحة •

وقد عاصرت نظرية الثنائية نظرية الثلاثية ، وناوأتها فترة طويلة ، وكان لها أنصارها ومؤيدوها من العلماء العرب وغيرهم • وعلماء الصرف والنحو قديما من المؤيدين لها ، يقولون : بأن أقل الأبنية ثلاثة : حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه وحرف يكون واسطة بين المبدوء به والموقوف عليه ، لتنافى أحكامها •

بل وذهب بعضهم الى أن صيغة الكلمة مطلقا ــ فى الساميات عموما ــ ثلاثية ، وذلك هو القياس فى الاشتقاق ، ابتداء من البابلية القديمة حتى اللغات الحية الآن ••

وعلى أساس ذلك كان عمل اللغويين واعتباراتهم فى أصول الجذر الثلاثى للغة ، وقياس ما وجد وما يجد من مفردات اللغة • وهذا تعميم لا يجوز علميا ، الا اذا ثبت على أسس منهجية •

واضطرهم ذلك الى عد الثنائى ثلاثيا ، ليوافق ميزانهم (فعل)

ويقبل التصريف على مذهبهم ، ولو كان متكلفا • يقول الخليل : « وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل (يد) ، وانما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السكون ، مثل : (بأيد) فى آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لأنه اعراب ، وذهب الحرف الساكن فاذا أردت معرفتها فاطلبها فى الجمع والتصغير ، كقولهم : (أيديهم ، ويديه) (١)

وتعسف النحاة فى اعتبار كل ثنائى ثلاثى الأصل سقط ثالثه لعلة حتى صار عندهم قاعدة ، مع أن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل بالوظيفة النحوية داخل العبارة • فالقول بأن الثنائى جاء وفق صيغة قياسية ، ثابتة ، وأنه أصيب بعلة ذهبت بعجزه ، أمر أقرب الى الصناعة منه الى السليقة والطبيعة اللغوية •

ولكن ظلت القاعدة مرعية يتوارثها الخلف عن السلف ، يقول ابن مالك :

وليس أدنى من ثلاثى يرى
قابل تصريف لما قد غيرا

وعلى كل لعل القول بالثلاثية تأثر كما تأثر تقعيد النحو فى العربية بالمنطق الصورى الاغريقى •

فضلا عن أن العقل لا يقر القول بالثلاثية ، الا اذا بلغ الأمر مرحلة نضج وتفلسف ، واحتياج لتنويع وتصنيف يواكب ماجد وما يجد ، لأن اللغة ظاهرة ترافق المجتمع فى نشوئه ونموه وتطوره ، ولم تصنع مسبقا وفق مقاييس موضوعة ، بل العكس هو الصحيح

كما أن الثلاثية وما فوقها تمثل مرحلة حضارية فى معانى مفرداتها ، والانتقال من مرحلة العفوية فى الوضع الى القصد والتفكير فيه •

وذكر بعضهم : أن الثلاثى أكثر وأخف ، بل وأفصح من غيره :

يقول ابن جنى : « ان الأصول ثلاثة : ثلاثى ، ورباعى ، وخماسى • فأكثرها استعمالا ، وأعدلها تركيبا، هو الثلاثى • وذلك لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه •

(١) العين ، للخليل بن احمد ــ تحقيق د. عبد الله درويش ص ٥٥ .

وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه فحسب ، ولو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه اعتدالا ، لأنه أقل حروفا ، وليس كذلك : ألا ترى أن ما جاء من ذوات الحرفين جزء لا قدر له فيما جاء من ذوات الثلاثة ، وأقل منه ما جاء على حرف واحد . فتمكن الثلاثى اذن انما هو لقلة حروفه ، ولشىء آخر : وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما وتعادى حاليهما : الا ترى أن المبتدأ به لا يكون الا متحركا ، وأن الموقوف عليه لا يكون الا ساكنا . فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يفجأوا الحسن بضد ما كان آخذا فيه ، ومنصبا اليه ، فقد وضح بذلك خفة الثلاثى » (١)

فابن جنى يعتد بالكثرة فى استعمال الثلاثى وصوره ، مع أننا نعده ثنائيا نوعه الحرف الثالث .

وكلامه عن اعتدال تركيب الثلاثى يشبه كلام الفلاسفة ، وتفكير المناطقة ، واللغة قامت أول ما قامت بعيدة عن العقل والمنطق .

ولسنا نرى تعاديا بين متحرك وساكن . وحسبنا أن ابن جنى أشار الى الثنائى والأحادى .

والدكتور محمد حلمى موسى فى كتابه : (احصاء جذور الصحاح بالكومبيوتر) ذكر : أن الجذور الثلاثية جاءت فى العربية بنسبة ٨٥ر٣٧٪ الى جميع الجذور التى تبلغ ٥٦٣٩ جذرا . والجذور الرباعية جاءت بنسبة ٥٨٤ر١٣٪ الى جميع الجذور وجاءت الجذور الخماسية بنسبة ٦٧٤ر٠٪ وجاءت الجذور الثنائية بنسبة ٣٧ر٠٪ الى كل الجذور » . وسنعقب على ذلك بعد قليل ، بكثرة الثنائى .

ولعل قلة الثنائى فى نظر القدامى والمحدثين ترجع الى عد الثنائى بدون تضعيف للحرف الثانى ، مع أن مضاعفات الثنائى فى العربية يقابلها فى الساميات الثنائى بدون تضعيف : أى أن كل المضاعفات فى العربية هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات متصفا بمعنى حقيقى

(١) الخصائص ١/٥٥ .

وتام • وقد ورد بهذه الطريقة كثيرا من الثنائيات كما ذكر الأب مرمرجى الدومنكى • (١)

والمجمع اللغوى المصرى يعتبر الأخ لغة فى الأخ ، وأصله : أخو ، فحذفت الواو ، أى أن الثنائى المضعف فيه لغتان : التضعيف وغيره • فاذا ساوينا الثنائى المضعف بما أصله ثلاثى ، فأولى أن تكون المساواة فيما لم يظهر فيه أصل ثلاثى •

وحكى السيوطى فى المزهر قول بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح بأن : « الثلاثى أحسن من الثنائى والخماسى ••• وأن من شروط الفصاحة توسط الكلمة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف » • وهذا كلام فى الجمال ، ونحن فى الكمال قبل الجمال •

وعلى كل لم تسلم هذه نظرية (الثلاثية) من النقد والأخذ والرد ، وتطرقت اليها المغامز والاحتمالات ، حتى من بين مؤيديها ، والقائلين بها ، وهاك طرفا من ذلك :

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : ان نظام الصرف العربى هو نظام صوتى بالدرجة الأولى ، وان أخطأ القدماء فربطوا بينه وبين الشكل الكتابى ، وقد تسنح لنا فرصة •• لتقديم بعض شواهد هذا الخلط ، بين الظواهر المتباعدة ، داخل نظام علمى ملفق ، قام على احكامه ذكاء القدماء ، وقلدتهم فيه الأجيال حتى يومنا هذا •• » (٢)•

ومعنى هذا أنه لابد من اعادة النظر فى قواعد العربية ، وفق نظريات علم اللغة الحديثة • اذ مع احترامنا لعلمائنا القدامى ، والقول بفضلهم وسبقهم ، الا أن قلة امكاناتهم وقتذاك ، وما جد الآن من تقنيات ، جعل مسافة الخلف فى الأصوات واسعة •

ومن علمائنا من يرى ــ بعد عرض النظريتين ــ أن نساير «وجهة نظر القائلين بأن أصول الألفاظ

(١) **المعجم الوسيط** (جـ ١) أخ ــ أخو ، **والمعجمية** للاب مرمرجى . وراجع ما كتبناه فى هذه السلسلة فى مجلة الازهر .

(٢) فى التطور اللغوى ٢٠ .

ثلاثة ، كما هو موجود فى الاستعمال فعلا ، لأن مرحلة الاشتراك فى الحرفين مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا الا ضمن بحث تاريخى ، ولأن الأمثلة التى ذكرها « الثنائيون » لا تكفى لاثبات نظريتهم على استقراء واسع ، ولأنه لابد من اشتراك الساميات كلها ـ كأخوات للعربية ـ فى بحث واسع عن تلك المرحلة التاريخية ... ثم يذكر : أن البحث فى ظاهرة الثنائية لم يجىء عفو الخاطر ، بل لابد وأن فى العربية من إسرارها وروابطها ، ما هو جدير بالبحث والتحرى والامعان .. ويدعو المهتمين باللغة الى متابعة البحث ، للوصول الى الرأى القاطع فى المشكلة . » (١)

وهو بذلك يساند الثلاثية كواقع كثير فعلى ، ويشير اليها كحدث وقع فى مرحلة تاريخية ، يعوزه البحث الواسع العميق ، والمقارنة الواجبة الواعية . وكان الأولى ـ فى نظرنا اعتبار الثنائية من مدخرات النشأة الأولى للغة ، الدال على قدم تاريخها ، ومدى التطور الذى أصابها ، والنمو الذى بلغته .

والاستاذ ريمون طحان ، يرى أن الأمر وان انحدر فى اصول العربية من الثنائية الا أنه يعترف بواقع الثلاثية الآن ، يقول : « ومن استعراض حقل المفاهيم العربية نجد أن هذه ـ أمثلة الثنائية ـ وان جاءت من حرفين أصليين خصهما بمعنى واضح حرف ثالث ـ تتألف الآن من ثلاثة حروف صامتة ، تؤدى بتجمعها فكرة عامة . ولئن عرفت العربية عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود الى اصول غير ثلاثية ، تعدل ما هو غير ثلاثى ، وتدخله فى صميم التركيب العربى : أى تنطلق معظم الكلمات العربية من مرتكز بنيانى أساسى ، هو الأصل الثلاثى »(٢).

فهو يشير الى الثنائى ، ويعترف بالثلاثى لكثرة استعماله ، وكان أولى به أن يشير الى أن الثنائية من هذا المنطلق : من مدخرات النشأة الأولى للغة ، اى عهد ما قبل

(١) فقه اللغة العربية د. ابراهيم نجا ، ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) الالسنية العربية ٨٦ .

القياس ، قبل أن تستقيم على قياس وقواعد .

لا أن يحكم بأن الثنائية تشكل مرحلة تاريخية من مراحل التطور ، وتحولت الى أصول ثلاثية ، بفعل تحولات داخلية بحتة ، كالمد والتضعيف والزيادة .

ونجد من أيد « الثلاثية » من المستشرقين ، يشير الى احتمالات تؤيد « الثنائية » فى اللغات السامية ـ بعامة ـ أكثر من الثلاثية :

يقول العلامة الالمانى (جزينس): ان ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية ، لدرجة ان اللغة فى بعض الحالات تصطنع طرائق معينة للاحتفاظ بثلاثية الأصول ذات المقطعين ، ولو بصفة ظاهرة ، كما فى : (عدة وثقة) وكما فى الأسماء الستة العربية .

غير أن كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى أصول ثنائية ، نسميها جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية . (١)

وفى نفس الاتجاه ، يقول العلامة ، (رينان) الفرنسى : « ان من بين الأصول الثلاثية أنواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية ، الا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لايكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل « الثنائى » ، ومثل لذلك بمادة : (ند) وناد ، وتندد ، وندا ، بمعنى تمايل وتفرق ... ثم يعود (رينان) فيقول : « وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد فى جميع الحالات تقريبا أن أحد أحرفها الثلاثية أضعف من الآخرين ، وانه لا يحدث فى المعنى الأساسى الا تعديلا طفيفا » (٢)

فهو يعد من الأفعال الثلاثية أفعالا ثنائية الأصل ، وان كانت ثلاثية الصورة لاعتبارات صرفية ، ويجعل

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٢) السابق ٣٠٩ .

أحد الأحرف الثلاثية ضعيفا ، ولو كان صحيحا . وهذه ظاهرة تستوقف النظر وتواكب ما ارتآه الشيخ العلايلى حين جعل (عبل) من (علا) المعتلة ، وأصلها (عل) (١) .

ونجد من الباحثين من يضع مفردات العربية فى نظام رياضى ، قوامه الهيكل الثلاثى ، وكأنه بذلك يضعنا امام الأمر الواقع ، كما صنع الاستاذ ريمون طحان ، الذى يرى : أن العربية لغة الأحرف التى تخضع فى وضع مفرداتها لنظام رياضى متكامل ، يتألف الهيكل عادة من ثلاثة حروف صامتة ، ترتبط به ، أو تتجمع حروفه لتؤدى فكرة عامة حسية قد تعمل بها عوامل التجريد ، والتصعيد ، والتعميم ، والتخصيص ، والانتقال بالمعنى (MU TATION) ويتخذ الهيكل الأصلى أجسادا وأشكالا وصيغا تعود رغم تنوع معناها الى الفكرة الأساسية المشتركة . »

والطريف أن النظام الرياضى المتكامل ـ الذى اعتقده ـ جعله يقدم على احصائيات عددية ، نظن أن لغتنا لا تتحمله عمليا ، يقول : « ويمكن احصاء المفردات العربية التى تتألف من صوت واحد بالطريقة التالية : تتألف أصوات اللغة العربية الصامتة من ٢٩ حرفا ـ باعتبار الهمزة ـ تدخل عليها الحركات الخفيفة والممدودة ، (أى الفتح والضم والكسر ، فى حالتى الحركتين : الخفيفة والممدودة) فيكون ما يتألف من حرف واحد هو ٢٩×٦ = ١٧٤ مثل : (فم = فا ، فى ، فو ، ذا ، ذو ، ذى ... وبعض حروف العطف ، والاستفهام ، والجر ، والقسم ، والندبة ، والنداء ، وبعض الضمائر المتصلة المرفوعة ، والمنصوبة ، والمجرورة ، وفى أمر اللفيف المفروق ، مثل : ق ، ف ، ش ... من : وقى ، وفى ، وشى . وأشبع العرب وهن الصوت المنهوك بهاء السكت ، فقالوا : قه ، وفه ، وشه (٢) .

ويذكر أن العربية اعتمدت فى وضع مفردات تتألف من حرفين

(١) فقه اللغة العربية للدكتور نجا ٨٦ .
(٢) الألسنية العربية ٧٦ ، ٧٧ .

صامتين ، تضاف اليهما الحركات الخفيفة والثقيلة ، ويتم ذلك نظريا بالعملية الحسابية التالية : ٢٩ حرفا ، أو ٢٨ (باسقاط الهمزة التى تتلاشى أحيانا فى حركات المد) فتكون ٢٨×٢٧ = ٧٥٦ ، ولا نجد عمليا فى العربية الا عشرات من الكلمات فقط ، وردت فى بعض كتب اللغة ، مثل (أب ، أم ، أخ ، أخت ، حم ، دم ، يد ، بن ، بنت ، اسم ، شفة ، رئة ...) وقدألحقت ببعض هذه الثنائيات أحرف اضافية ثلثت لفظها ، وأدخلتها فى الشكل العربى السائد والشائع » (١) .

ولانه يرى أن معظم الكلمات فى العربية ينشأ عن اصول ثلاثية (ثلاثة حروف صامتة وغير مصوتة)، هى حجر الزاوية فى اقامة صرح التنظيم الرياضى اللغوى المتكامل ، يقول : ان الثلاثى هو الذى يؤدى الى اكتناز العربية ، ويحدث ذلك نظريا على الشكل التالى : ٢٨×٢٧×٢٦ (باهمال تنوع حركات الأصول الثلاثية) ينتج ١٩٦٥٦ ويذكر أن العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور (٣٠٠٠ تقريبا) يتم بموجبها وضع معظم الكلمات العربية » (٢) .

وبالتنظيم الرياضى اللغوى ، يرى أننا لو استثمرنا الأصول الرباعية ، لأفضى الأمر الى لغة رمزية ، تفوق فيها وسائل التعبير المفاهيم التى قد يستوعبها الفكر البشرى ، اذ ينشأ عن الاستثمار : ٢٨×٢٧×٢٦×٢٥ = ٤٩١٤٠٠ ويضاف الى هذا العدد المربع من الجذور مشتقات الرباعى (٣) .

فالاستاذ ريمون يشير الى أن اللغة العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور ، يمكن أن تكون (٣٠٠٠) ، وفى ذلك رد على من يدعى ان الاحصاء اللغوى للثنائيات فى لغتنا أقل من أن تفى بحاجة الانسان ، وبخاصة اذا رددنا كثيرا

(١) السابق ٧٨ .
(٢) السابق ٨٦ .
(٣) السابق ٨٨ .

من أصول الثلاثيات الى ثنائيات ، وأيضا اذا اسعفنا قدر من جذور الرباعى الرياضى اللغوى •

اما احصائياته اللغوية بعامة فان لغتنا ــ عمليا ــ لا تتحملها ، لان اللغة ــ أى لغة ــ تنشأ طبيعية متدرجة ، تلاحق المضامين الاجتماعية التى تسبق المداليل اللغوية ، قلة وكثرة وضيقا وسعة تبعا للتطور والحضارة • يقول الأب مرمرجى :

« اللغة تابعة السنة الطبيعية ، فهى خاصة لأحوال الانسان المختلفة ،ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات • وهى فى بعض أجزائها : قياسية ، منتظمة ، محكمة • وفى البعض الآخر : سماعية لا ضابط ولا قيد لها • وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية • ولا هى شبه الكتب المعدة للطبع التى تنضد حروفها ، وتضغط صفائحها بالآلة الطابعة فيمكن الطباع ان يستخرج منها عددا من النسخ غير المحصاة ، واحدتها ضهية أختها ، دون اختلاف » (١) •

وهذا الكلام بما نحن فيه أليق وأنسب ، ويتمشى مع طبيعة اللغة التى قدمنا انها لم تكن فى أول امرها منطقية ، لأنها حينئذ لم تعرف المنطق ، ولكنها واكبت الطبيعة والحياة فى تدرجها ، سنة الحياة والأحياء •

الثنائية فى الميزان :

القائلون بنظرية « الثنائية » منطقيون ، ولم يبدأوا من فراغ ، ولم يكونوا أسارى الوهم والخداع ، كما لم يدفعهم التحرض والجرأة على قول ما قالوا ، وماأثير فى وجههم من اعتراضات لم تثبت عند التنفيذ :

* فقد استنتج (جورجى زيدان) : أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عددا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها اللسان غرزيا • وبنى استنتاجه على مرتكزين يؤيدهما الواقع ،

(١) معجميات عربية سامية ١٠٨

وتسندهما الشواهد ويخدمان قضية الثنائية ، وهما ــ كما اسلفنا ــ

أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها ــ ويقصد بها الأدوات ــ انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية ، وتضم الأسماء والأفعال وما يشتق منها .

وحين قرر ذلك جورجى زيدان لاحظ ان الألفاظ المتحدة تتقارب لفظا عند اشتراكها فى حرفين هما حامل المعنى الأصلى ، ثم يأتى الحرف الثالث ــ على الجذور الثنائية التى هى حوامل المعانى ــ لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى فقط ، عن طريق الاشتقاق الكبير ، والأكبر ، (١) والكبار (النحت) .

وهو بتقريره ليس بدعا بين اللغويين ، فقد أشار الى ذلك : الخليل بن احمد ، وسيبويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس ...

ووصف بعضهم هذا الاتجاه بالمغالاة ، واحلام اليقظة والتخيلات يقول : « لقد غالى ابن جنى فى هذا ، ومعه الثعالبى صاحب (فقه اللغة) : اذ جعلا مجرد الاشتراك فى أصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلا على الاشتراك فى عام لبعض الكلمات ، فيقرر : ان المعنى العام (للتفرقة) يكون بصوتى (الفاء والراء) ، والمعنى العام (للقطع) يكون (بالقاف والطاء) ، الى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه احلام اليقظة ، عند رجل ، اشتد ولعه واعجابه باللغة العربية ، فيتصور فيها ما ليس منها ، وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح فى الأذهان ولا تتصف به لغات من لغات البشر » (٢)

وفى قول الدكتور أنيس الغاء سريع للمسألة برمتها ، واهمال لما

(١) مجلة الأزهر ، عدد المحرم ١٣٩٩ ص ١٥٧ .
(٢) من اسرار اللغة ٦٧ .

قرره الاقدمون فى هذا الصدد ، وما حوته بطون المعاجم وقبله العقل وأيده الاستعمال ، والتذوق الراقى. ومن يطلع على ما كتبه الدكتور أمين فاخر فى بحثه التطبيقى عن (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية) ، ويتابع ما بدأه بتأن وروية ، يجد صدق وثبات وصحة ما قرره السلف من علمائنا .

والشيخ العلايلى يمتدح جورجى زيدان بأنه : تنبه الى أن الثلاثى متفرع عن ثنائى سابق لا فى الاشتقاق فقط ، كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الابدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضا . ويضيف الشيخ العلايلى : بأننا اذا حاولنا انصافا ، فلم تكن أفكاره فى فحواها بأكثر من أفكار كتاب « العين » التى بثها الخليل ابن احمد ، وأرسلها ارسالا (١) . ولذا يدعونا الدكتور عبد الصبور شاهين ، الى ان نحسن تتبع آراء الأقدمين فى مظانها ، وأن نستقصى بصورة كاملة مذاهبهم ، ليتم تحقيق التكامل بين آرائنا وآراء الأقدمين . (٢) وهى دعوة حرية بالقبول ، لخدمة لغة الضاد .

* ويتفق أصل الوضع اللغوى عند العلماء القائلين بالثنائية ، مع الواقع والطبيعة فى تدرج الأشياء :

فقد نطق الانسان أولا مقاطع واحدة ، أو (هجاء واحدا) ــ كما يرى الأب انستاس الكرملى ــ أى بناء مكونا من صامت ومصوت (سواء أكان المصوت فتحة أم كسرة أم ضمة) وربما اتبعه بصامت ، فتتكون الصورة المقطعية ، وهى بذلك فى اجمالها اشارة الى مصطلح الهجاء الواحد ، وتلك نظرة تساير الواقع ، ولا تختلف نظرة الأب مرمرجى عن هذه النظرية الا بمصطلح شكلى ، هو الثنائية ، لان الكلمات بين يديه تتكون من رمزين مكتوبين ، بصرف النظر عما بها من مصوتات هى فى الحقيقة عناصر صوتية أساسية .

(١) مقدمة العلايلى ١٣٦ .
(٢) فى التطور اللغوى ٩٠ .

ورأينا كيف جعل الشيخ العلايلى أدوار اللغة متدرجة شبه طبيعية تترقى فى أدوارها بترقى الانسان ومتطلبات حاجياته • فسلك الانسان لذلك سلوك « الاحادية » ، ثم « الثنائية » فى اختراع اللغة ، ثم كان اكتنازها بعدئذ لتكون أكثر خصوبة وأسخى عطاء ، فتتمكن من العطاء الواسع ، والوفاء بما تتطلبه الحياة والأحياء •

فكان الدور الأول ، للمقطع الاحادى البسيط للانسان البدائى •

والثانى للمقطعين ، حين ترقى الانسان بعض الشىء ، فحاكى أصوات الطبيعة •

وكان الدور الثالث للجمع بين الدورين السابقين ، فألف منهما دلالة مركبة ، تفى بتغطية متطلباته والمداليل الاجتماعية التى تدرجت فى خمس حلقات طالت حتى بلغ الانسان رقيه ، والحضارة ذروتها •

وذلك لأن : « طريقة الاشتقاق والتوسع فى الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص الى الأكثر والأكمل ، اى حسب السنة الطبيعية : سنة الرقى ، وليس بالعكس الا من باب الاختزال ، وهو نادر ، ولا يحدث فى طور التكوين النشوء ، بل فى عصر الكهولة والهرم ••• والعلاقة الأساسية الثابت ــ غالبا ــ وجودها بين المشتق والمشتق منه هى اللحمة المعنوية ، مع توسع الدلالة وتطورها : بالانتقال من حيز المعانى المادية الحسية ، الى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية والروحية » •

هذا ما ذكره الأب مرمرجى ، تأييداً لسنة الترقى الطبيعية فى اللغة ، شأن أى شىء يتدرج ولا بأس به من طريق ــ معقول ــ لتوسيع اللغة ، وتكثير مفرداتها ، لتغطية الأحداث والمتطلبات حقيقة وعقلا وخيالا ، وكمالا وجمالا •

والأب مرمرجى يؤكد ، ويصر ــ فى موضوعية وخبرة ــ على أن الزيادة ــ التى تمت بها التوسعات ــ لم تكن اعتباطا ولا عشوائية ، : « دون ضبط الحرف المطلوب ، ودون تخصيص الدور القائم به فى ميدان الزيادة » ، وبملاحظة : أنه « فى طور التكون اللغوى تبدأ

الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا فى سبيل التكامل والاستقرار ، فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبى ، ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ... وقد تجرى هذه الزيادة بالحروف ، بعض الأحيان لمقاصد تلوح متضاربة ، لا بل متضادة : » كياء المضارعة التى تستعمل « للغائب ، والمثنى ، وللجمع : المذكر والمؤنث ... والتاء التى تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث »

هذا ما ذكره الأب مرمرجى ردا على اعتراض (J. A. D, M.) فى مجلة (arientlia.) الصادرة فى رومة جـ ٢ مجلد ١٩ ص ٢٠٧ ــ بأن الزيادة التى تذكر تتويجا أو اقحاما او تذييلا ــ انما هى اعتباطية وغير منضبطة .

وهذا الرد منطقى يتمشى مع طبيعة اللغة واقعا ، وتاريخا محفوظا ــ يؤيده السماع والقياس والاستعمال ، وبخاصة فى فترة التدرج وعدم الاستقرار اللغوى التام .

ولذلك يقول الشيخ العلايلى : أن العطاء الواسع والاحكام اللغوى ، انما حصل حين صار الثلاثى وحدة الكلمة ، فتوسع بالاشتقاق والتصريف ، أما حين كانت الاضافة للبناء ، كانت الاضافة للثنائى ، وعلى ذلك :

فقد كانت الزيادة للبناء ، وهى ما تضاف للثنائى ، لصوغ الثلاثى ، وموضعها الوسط .

وحين كانت للاشتقاق ، وتضاف الى الثلاثى لتحصيل الرباعى وغيره ، وموضعها الآخر .

وحين كانت للتصريف ، كتفعل ، واستفعل ... كان موضعها الأول غالبا .

وواقع اللغة يثبت ما قاله الشيخ العلايلى فى البناء والاشتقاق والزيادة ، والعربى يملك لغته ، وهى شغله الشاغل ، تترقى معه ، وينميها حين تضطره الحاجة بوعى وسهولة ، والحاجة أم الاختراع والتطوير .

د . توفيق محمد شاهين

الصوفية ووحدة الوجود

لفضيلة الشيخ موسى محمد علي

ان من أهم ما يتحامل به المغرضون على السادة الصوفية اتهامهم زورا بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد حل فى جميع أجزاء الكون : فى البحار ، والجبال ، والصخور ، والأشجار والانسان والحيوان ... الخ .

أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق ، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة فى هذا الكون هى ذات الله تعالى وعينه . وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولا شك أن هذا القول يخالف عقائد الأمة ، بل انه يخالف عقائد الايمان الصحيح .

وما كان للصوفية وهم المتحققون بالاسلام والايمان والاحسان أن ينزلقوا الى هذا الدرك من الضلال وما ينبغى لمؤمن منصف أن يرميهم بهذا الاتهام جزافا دون تمحيص أو تثبيت ، ومن غير أن يفهم مرادهم ، ويطلع على عقائدهم الحقة التى ذكروها صريحة واضحة فى أمهات كتبهم ، كالفتوحات المكية ، واحياء علوم الدين ، والرسالة القشيرية وغيرها ...

ولعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون : ان هذا القول بتبرئة السادة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد ، انما هو تهريب من الواقع أو دفاع مغرض عن الصوفية بدافع التعصب والهوى .

ولبيان الحقيقة الواضحة نذكر نماذج من كلام السادة الصوفية تثبت براءتهم مما اتهموا به من القول بالحلول والاتحاد ، وتثبت

كذلك تحذيرهم الناس من الوقوع فى هذه العقيدة الزائفة ، وتظهر بوضوح واضح أن ما نسب اليهم مما يفيد الحلول أو الاتحاد : اما مدسوس عليهم ، أو مؤول بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة

يقول الامام الشعرانى رحمه الله تعالى :

« ولعمرى اذا كان عبّاد الأوثان لم يتجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول الضعيفة ؟ هذا كالمحال فى حقهم رضى الله تعالى عنهم ، اذ ما من ولى الا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق ، لأن الله بكل شىء محيط » .

والحلول والاتحاد لا يكون الا بالأجناس ، والله تعالى ليس بجنس حتى يحل بالأجناس ، وكيف يحل القديم فى الحادث ، والخالق فى المخلوق ؟

ان كان حلول عرض فى جوهر ، فالله تعالى ليس عرضا ، وان كان حلول جوهر فى جوهر فليس الله تعالى جوهرا ، وبما ان الحلول والاتحاد بين المخلوقات محال اذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلا واحدا لتباينهما فى الذات ، فالتباين بين الخالق والمخلوق وبين الصانع والصنعة ، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين .

وما زال العلماء ، ومحققو الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والاتحاد ، وينبهون على فساده ، ويحذرون من ضلاله .

يقول الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى فى عقيدته الصغرى :

« تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها » .

وقال فى عقيدته الوسطى :

« اعلم أن الله تعالى واحد بالاجماع ، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شىء ، أو يحل هو فى شىء ، أو يتحد فى شىء » .

وقال فى باب الأسرار :

« لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه ، انما يقول : أنا العبد الذليل فى المسير والمقيل » .

وقال فى الباب التاسع والستين ومائة :

« القديم لا يكون قط محلا للحوادث ، ولا يكون حالا فى المحدث » .

وقال أيضا فى باب الأسرار :

« من قال بالحلول فهو معلول ، فان القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد الا أهل الالحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول »

ثم استطرد يقول :

« الحادث لا يخلو عن الحوادث، ولو حل بالحادث القديم لصح قول أهل التجسيم ، فالقديم لا يحل ولا يكون محلا » .

وقال فى الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل :

وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ، ولا حل فيه الحق ، اذ لو كان عين الحق ، أو حل فيه لما كان تعالى قديما ولا بديعا .

وقال فى الباب الرابع عشر وثلاثمائة :

لو صح أن يرقى الانسان عن انسانيته، والمالك عن ملكيته، ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الاله عن كونه الها ، وصار الحق خلقا ، والخلق حقا ، وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبا ، فلا سبيل الى قلب الحقائق أبدا .

وقال فى الباب الثانى والتسعين ومائتين :

من أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وأن الشمس ما انتقلت اليه بذاتها ، وانما كان القمر محلا لها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شىء ولا حل فيه .

أما ماورد من كلام الصوفية فى كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد فهو اما مدسوس عليهم ،

بدليل ما سبق من صريح كلامهم فى نفى هذه العقيدة الضالة ، واما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة الدخيلة ، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطىء ورموهم بالزندقة والكفر .

أما الراسخون فى العلم والمدققون المنصفون من العلماء فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من ايمان وتقوى .

يقول جلال الدين السيوطى رضى الله عنه فى كتابه الحاوى للفتاوى :

واعلم أنه وقع فى عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد ، اشارة منهم الى حقيقة التوحيد ، فان الاتحاد عندهم هو المبالغة فى التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد الأحد ، فاشتبه ذلك على من لا يفهم اشاراتهم فحملوه على غير محمله ، فغلطوا وهلكوا بذلك .. الى أن قال :

فاذن أصل الاتحاد باطل محال ، مردود شرعا وعقلا وعرفا باجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين .

وليس هذا مذهب الصوفية ، وانما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى ، فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا فى عيسى عليه السلام : اتحد ناسوته بلاهوته . وأما من حفظه الله تعالى بالعناية ، فانهم لم يعتقدوا اتحادا ولا حلولا ، وان وقع منهم لفظ الاتحاد فانما يريدون به محو أنفسهم ، واثبات الحق سبحانه .

وقد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات ، وبقاء الموافقات ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا ، وبقاء الرغبة فى الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة ، وبقاء الأوصاف الحميدة وفناء الشك ، وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر .

ثم قال : وأما قول أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى :(سبحانى، ما أعظم شأنى) فهو فى معرض الحكاية عن الله ، وكذلك قول من

قال : (أنا الحق) محمول على الحكاية ، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد ، لان ذلك غير مظنون بعاقل ، فضلا عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات ، ولا يظن بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع ، الغلط بالحلول والاتحاد ، كما غلط النصارى فى ظنهم ذلك فى حق عيسى عليه السلام

وانما حدث ذلك فى الاسلام من واقعات جهلة المتصوفة ، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك .. ثم استطرد يقول :

والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك ، فيطلق على المعنى المذموم الذى هو أخو الحلول ، وهو كفر، ويطلق على مقام الفناء اصطلاحا .. كما اصطلح عليه الصوفية ولا غضاضة فى الاصطلاح ، اذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ فى معنى صحيح لا محذور فيه شرعا ، ولو كان ذلك ممنوعا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد ، وأنت تقول : بينى وبين صاحبى زيد اتحاد .

وكم استعمل المحدثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد فى معان حديثية وفقهية ونحوية .

كقول المحدثين : اتحد مخرج الحديث

وقول الفقهاء : اتحد نوع الماشية

وقول النحاة : اتحد العامل لفظا أو معنى

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققى الصوفية ، فانما يريدون به معنى الفناء الذى هو محو النفس واثبات الأمر كله لله سبحانه ، لا ذلك المعنى المذموم الذى يقشعر له الجلد .

فالمعنى الذى يريدونه بالاتحاد اذا أطلقوه انما هو تسليم الأمر كله لله ، وترك الارادة معه والاختيار ، والجرى على مواقع أقداره من غير اعتراض ، وترك نسبة شىء ما الى غيره سبحانه وتعالى .

يقول الشيخ على وفا رضى الله عنه :

« المراد بالاتحاد حيث جاء فى كلام القوم فناء العبد فى مراد الحق

تعالى كما يقال : بين فلان وفلان اتحاد ، اذا عمل كل منهما بمراد صاحبه » .

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى فى كتابه مدارج السالكين شرح منازل السائرين :

الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن ارادة السوى ،شائما برق الفناء عن ارادة ما سواه، سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه ، فانيا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ، فضلا عن ارادة غيره ، قد اتحد مراده بمراد محبوبه ،فصار المرادان واحدا .. ثم قال :

وليس فى العقل اتحاد صحيح الا هذا ، والاتحاد فى العلم والخبر، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدا مع تباين الارادتين والعلمين والخبرين ، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب ، وفناء ارادة المحب فى مراد المحبوب ، فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ، قد فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه ، أيضا .

ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب الا فى الله ، ولا يبغض الا فى الله ، ولا يوالى الا فى الله ، ولا يعادى الا فى الله ، ولا يعطى الا لله ، ولا يمنع الا لله ، ولا يرجو الا اياه ، ولا يستعين الا بالله ، فيكون دينه كله ظاهرا وباطنا لله ، ويكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق اليه.

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون »

والجامع لهذا كله : تحقيق شهادة أن لا اله الا الله علما ومعرفة وعملا وحالا وقصدا ، وحقيقة .

هـذا النفى والاثبـات الـذى تضمنته هذه الشـهادة هو الفنـاء والبقاء ، فيغنى عن تأله ما سـواه علما واقرارا وتعبدا ، ويبقى بتألهه وحده ، فهذا الفناء وهذا البقـاء هو حقيقة التوحيد الذى اتفق عليه المرسلون صلوات الله عليهم وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقامت عليـه سوق الجنة ، وأسس عليه الخـلق والأمر .. الى أن قال :

وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الارادة . والمعصـوم من عصـمة الله ، وبالله المسـتعان والتوفيق والعصمة .

وقال فى موضع آخر : وان كان مشمرا للفناء العالى ، وهو الفنـاء عن ارادة السوى ، لم يبق فى قلبه مراد يزاحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى ، بل يتحد المرادان، فيصير عين مراد الله تعالى هو عين مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبـة الخالصة ، وفيهـا يكون الاتحـاد الصحيح ، وهو الاتحاد فى المراد ، لا فى المريد ولا فى الارادة .

ورغم أن ابن تيمية قيل فى نزعته بالنسبة للصوفيةما قيل ، فانه يبرىء ساحتهم من تهمة القول بالاتحاد ، ويـؤول كلامهم تـأويلا صـحيحا سليما .

أما تبرئته لساحتهم فقد قال فى فتاويه :

ليس أحد من أهل المعرفـة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ، ولا اتحاده به ،وان سمع شىء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلفه الأفاكـون من الاتحاديـة المباحيـة الذين أضلهـم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية .

ثم استطرد يقول :

كل المشايخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليـه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته ، وأنه يجب افراد القديم عن الحادث وتمييـز الخالق عن المخلوق ، وهذا فى كلامهم اكثر من أن يمكن ذكره هنا .

وأما تأويله كلامهم فقد قال فى مجموعة رسائله : « وأما قول الشاعر فى شعره » :

أنا من أهوى
ومن أهوى أنا

فهذا انما اراد به الشاعر الاتحاد المعنوى ، كاتحاد احد المحبين بالآخر الذى يحب احدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين، اذا كان قد استغرق فى محبوبه ، حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غبت بك عنى
فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة هى الاتحاد السائغ

من هذه النصوص المتعددة تبين لنا أن كل ماورد فى كلام الصوفية من كلمة (اتحاد) انما يراد بها هذا الفهم السليم الذى يوافق عقيدة أهل السنة والجماعة ، ولا يصح أن نحمل كلامهم على معان تخالف ما صرحوا به من تبنيهم لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وما على هذا المنصف الا أن يحسن الظن بالمؤمنين ويؤول كلامهم على معنى شرعى مستقيم .

أما وحدة الوجود فقد اختلف علماء النظر فى موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجود ، فمنهم من تسرع باتهامهم بالكفر والضلال ، وفهم كلامهم على غير المراد ، ومنهم من لم يتورط بالتهجم عليهم فتثبت فى الأمر ورجع اليهم ليعرف مرادهم ، لأن هؤلاء العارفين مع توسعهم فى هذه المسألة لم يبحثوا فيها بحثا يزيل اشكال علماء النظر ، لأنهم تكلموا فى ذلك ودونوا لأنفسهم وتلاميذهم لا لمن لم يشهد تلك الوحدة من غيرهم . لذلك احتاج الأمر للايضاح لتطمئن به قلوب أهل التسليم من علماء النظر

ومن العلماء الذين حققوا فى هذه المسألة الشيخ محمد الشريف رضى الله عنه ، فقال :

« الوجود واحد لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه وتعالى ، وهو واجب فلا يصح تعدده ، والموجود هو الممكن وهو العالم فصح تعدده باعتبار حقائقه ، وقيامه انما هو

بذلك الوجود الواجب لذاته ، فاذا زال بقى الوجود كما هو ، فالموجود غير الوجود فلا يصح أن يقال الوجود اثنان : وجود قديم ووجود حادث ، الا أن يراد بالوجود الثانى الموجود من اطلاق المصدر على المفعول ، فعلى هذا لا يترتب شيء من المحاذير التى ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق الى أن قال :

الحس لا يرى الا الهياكل أى الموجود ، والروح لا تشهد الا الوجود ، واذا شهدت الموجود فلا تشهده الا ثانيا ، على حد من قال :

ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله .

وأراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر ، لان الرؤية من خصائص البصر ، والشهود من خصائص البصيرة ، لذلك ورد : أشهد أن لا اله الا الله ، ولم يرد أرى ، بل ولا يصح أن يقال : أرى » .

وهكذا شأن العلماء المنصفين يغارون على الشريعةالغراء ،ويتثبتون فى الأمور دون أن يتسرعوا بتكفير أحد من المؤمنين ، ويرجعوا فى فهم كل حقيقة الى أهل الاختصاص بها.

ونظرا لأن مسألة وحدة الوجود أخذت حظا كبيرا من اهتمام بعض العلماء وشغلت اذهان الكثير نقول:

ان الوجود نوعان : وجود قديم أزلى ، وهو واجب ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق) أى الثابت الوجود ، المحقق .

ووجود جائز عرضى ممكن ،وهو وجود من عداه من المحدثات .

وان القول بوحدة الوجود ، وأن الوجود واحد هو الحق تعالىيحتمل معنيين :

أحدهما حق ، والثانى كفر ، ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان :

١ ــ الفريق الأول : أرادوا به اتحاد الحق بالخلق ، وأنه لا شيء فى هذا الوجود سوى الحق ، وأن الكل هو ، وأنه هو الكل ، وأنه عين الاشياء ، وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

فقوله : هذا كفر وزندفة ، وأشد ضلالة من أباطيل عبدة الأثان .

وقد شدد الصوفية النكير على قائله ، وأفتوا بكفره ، وحذروا الناس من مجالسته . قال أبو بكر محمد بنانى رحمه الله تعالى :

فأحذر يا أخى كل الحذر من الجلوس مع من يقول : ما ثم الا الله ويسترسل مع الهوى فان ذلك هو الزندقة المحضة ، اذ العارف المحقق اذا صح قدمه فى الشريعة ، ورسخ فى الحقيقة ، وتفوه بقوله : ما ثم الا الله ، لم يكن قصده من هذه العبارة اسقاط الشرائع واهمال التكليف حاشا لله أن يكون هذا قصده .

٢ ــ الفريق الثانى : قالوا ببطلان وكفر ما ذكر ، من أن الخالق عين المخلوق ، وانما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الازلى وهو الحق سبحانه فهو لاشك واحد منزه عن التعدد . ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضى المتعدد وهو الكون الحادث نظرا لأن وجوده مجازى ، وفى أصل عدمه لا يضر ولا ينفع . فالكون معدوم فى نفسه ، هالك فان فى كل لحظة ، قال تعالى : « كل شىء هالك الا وجهه » وانما يظهره الايجاد ، ويثبته الامداد الكائنات ثابتة باثباته ، وممحوة بأحدية ذاته ، وانما يمسكه سر القيومية فيه وهؤلاء قسمان :

١ ــ قسم أخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ، ثم بالذوق والعيان ، وغلب عليه الشهود ، فاستغرق فى فجج بحار التوحيد ، ففنى عنه نفسه فضلا عن شهود غيره ، مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا حق .

٢ ــ وقسم ظن ان ذلك لفظى ، فتوغل فى تلاوة عباراته ، وتمسك بظواهر اشاراته ، وغاب فى شهودها عن شهود الحق ، فربما هانت الشريعة فى عينيه لما يلتذ به من حلاوة تلك الألفاظ ، فيقع على أم رأسه ويتكلم بما ظاهره ان الشريعة فى جهة يختص بها اهل الغفلة ، والحقيقة فى جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ، ولعمرى ان هذا لهو عين الزور والبهتان ، وما ثم الا شريعة ومقام احسان »

وعلى كل فالأولى بالصوفى فى هذا الزمان ان يبتعد عن الألفاظ

والتعابير التى فيها ايهام أو غموض أو اشتباه لئلا يوقع الناس بسوء الظن به ، أو تأويل كلامه على غير ما يقصده ، ولأن كثيرا من الزنادقة والدخلاء على الصوفية قد تكلموا بمثل هذه العبارات الموهمة والألفاظ المتشابهة ، ليظهروا ما يكنونه فى قلوبهم من عقائد فاسدة وليصلوا بذلك الى اباحة المحرمات ، وليبرروا ما يقعون فيه من المنكرات والفواحش فاختلط الحق بالباطل ، وأخذ المؤمن الصادق بجريرة المنحرف الفاسق .

لهذا جمل الصوفية بواطنهم وظواهرهم بالشريعة الغراء ، وأوصوا تلاميذهم بالتمسك بها قولا وعملا وحالا ، فهى عندهم باب الدخول وسلم الوصول ، ومن حاد عنها كان من الهالكين .

وبعد : فهذه النصوص التى ذكرناها عن ساداتنا العلماء ، وعن الصوفية الأخيار ، تكشف للقارىء الكريم أن الصوفية مبرؤون مما نسب اليهم من القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وان كلامهم مؤول على وجه شرعى ، وموافق لما عليه اهل السنة والجماعة من العقيدة الصحيحة السليمة ، وانهم ما نالوا هذه المواهب العرفانية الا بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأنهم حقيقة رجال السلف الصالح الذين تمسكوا بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتدوا به فأفلحوا وتحققوا بالاتباع الكامل له عليه الصلاة والسلام فنالوا الرضى من الله تعالى وفازوا بسعادة الدارين .

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

موسى محمد على

« كلمات فى التصوف »

للحسين بن على بن دينار : (اياك أن تطمع فى الأنس بالله ، وانت تحب الأنس بالناس واياك أن تطمع فى المنزلة عند الله وانت تحب المنزلة عند الناس)

شبهات حول السنة

للدكتور رءوف شلبى

-٣-

د ـ وظيفة السنة ومرتبتها
فى التشريع الاسلامى

١ ـ وظيفة السنة :

* قال عبدا لله بن مسعود رضى الله عنه •

« لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله •

فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت :

« يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ؟

فقال : ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله ، فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ؟

فقال : لئن كنت قرأتيه وجدتيه قال تعالى :

« ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » •

* والامام الشافعى رضى الله عنه يشرح وظيفة السنة بقوله :

« وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : ما أنزل الله فيه نص كتاب فبينه رسول الله مثل ما نص الكتاب •

والآخر : ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين رسول الله معنى ما أراد •

من المقرر أن القرآن الكريم ممتلىء بالقواعد العامة لأنه دستور سرمدى خالد أبدا للأمة الاسلامية والقواعد العامة تحتاج دائما الى

تفسير لالحاق الجزئيات باحدى القواعد العامة وذلك ما وكل فيه النبى صلى الله عليه وسلم من قبل ربه .

وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم بسلوكه وأقواله وموافقاته للأمة ما تحتاج اليه.يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما شيئا مما أمركم الله به الا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه » .

يقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

قال تبارك وتعالى : «ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ».

وقال : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وقال : « أتموا الحج والعمرة لله » .

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلاة ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها والزكاة ومواقيتها .

وكيف عمل الحج والعمرة .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالقرآن كما يقول مطرف بن عبد الله الشخير عندما قيل له : لا تحدثونا الا بالقرآن فقال : « والله ما نريد القرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن » .

ومعنى هذا

ان القواعد الكلية العامة فى القرآن الكريم تحتاج الى عالم بالقرآن ليربط الجزئيات المستحدثة بهذه الكليات العامة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو أعلم الناس بالقرآن .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه فسر كثيرا من أركان الاسلام مثل الصلاة والزكاة وأعمال الحج .

يقول الأوزاعى : « الكتاب أحوج الى السنة من السنة الى الكتاب » ويشرح هذا النص ابن عبد البر فيقول : يريد أنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

يقول الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

« ان السنة تفسر الكتاب وتبينه » .

وتتضح لنا هذه الوظيفة للسنة من خلال التطبيقات العملية التى اتخذها المسلمون عن نبيهم عليه الصلاة والسلام .

أولا : فى مجال العبادة :

١ ــ فرض القرآن الصلاة والزكاة .

« أقيموا الصلاة .

وآتوا الزكاة .

ولكن السنة هى التى توضح ذلك : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

« ليس فيما دون خمس أوسق صدقة ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة » .

وفى هذا المقام يروون عن سيدنا عمران بن حصين انه قال لرجل : « انك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا تجهر فيها بالقراءة .. ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال : اتجد هذا فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله ابهم هذا ، والسنة تفسر ذلك » .

٢ ــ لما نزل قول الله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » أشكل أمر الآية على الصحابة رضوان الله عليهم اذ فهموا المراد من الظلم : مجاوزة الحد والخروج عن القصد فى كل شىء . فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أينا لا يظلم يارسول الله ؟ فوضح لهم عليه الصلاة والسلام : أن المراد من الظلم الشرك وقرأ : « يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » .

ثانيا ــ فى مجال المال

١ ــ لما نزل قول الله تعالى : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن مدلول ينفقون بذل كل مايصل الى أيديهم ، ففسر النبى صلى الله عليه وسلم هذا المدلول بقوله :

« انما فرض الله الزكاة ليطهر بها ما بقى من أموالكم » .

٢ ــ وعندما تحدثت آية الفرائض عن المواريث لم تتعرض لتوريث الكافر من المؤمن ولا العبد من الحر ولا القاتل لأبيه ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث وأن الدين يقدم على الوصية .. ولكن السنة هى التى وضحت كل هذا .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يرث المسلم الكافر .

ولا يرث الكافر المسلم » .

ويقول :

« الثلث ، والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » .

ثالثا ــ فى مجال الخيانة

١ ــ نظم القرآن الكريم حدود القصاص :

« كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » .

وهذه القواعد العامة تفيد عموم وجوب القصاص من كل من ثبتت عليه جريمة القتل العمد ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يخصص هذا العموم بقوله : ألا لا يقتل مسلم بكافر .

٢ ــ وعندما حددت سورة المائدة ان السارق والسارقة تقطع أيديهما ، لم تحدد مكان القطع ولا نوع اليد

من الكوع أو المرفق .

اليمنى أو اليسرى

ولكن السنة هى التى حددت اليمنى من الرسغ

رابعا ــ فى مجال الاسرة

١ ــ ذكر القرآن الكريم المحرمات من النساء .

«حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعمـــاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخـــواتكم من الرضاعة ، وأمهـــات نسـائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما »•

وبقى حكم الجمع بين المـرأة وعمتها والمرأة وخالتها فبينته السنة يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » •

٢ ــ امر الله نبيه صلى الله عليـه وسلم أن يكون الطلاق للعـدة فى قوله تعالى : «يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » •

وكان ابن عمر قد طلق زوجتـه وهى حائض فقال النبى صـلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « مره فليراجها ثم يتركها حتى تطهـر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء أمسك بعد وان شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » •

فكان ذلك تفسيرا من السنة لما أوجزه القرآن الكريم من الأحكام•

٣ ــ وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا بنص القـرآن الكريم •

« والذين يتوفون منكم ويذرون (زواجا يتربصن بأنفسهن أربعـة أشهر وعشرا » •

وعدة الحامـل المطلقة وضـع الحمل بنص القرآن الكريم :

« وأولات الأحمال أجلهـن أن يضعن حملهن » •

ولكن ما حكم عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ؟

سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حامل ثم وضعت بعـد نصف شهر من وفاة زوجها فأخبرها النبى صلى الله عليه وسـلم أن قد حلت وانتهت عدتها فبينت السنة بذلك أن عدة الحامل مطلقا وضع الحمل

٤ ــ جاءت الجدة الى أبى بكر رضى الله عنه تلتمس ميراثها فقال : « ما أجد لك فى كتاب الله شيئا وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا ، ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس فقال له هل معك أحد ؟ فشهد معه محمد بن مسلمة بمثل ذلك فانفذه سيدنا أبوبكر» .

لقد حددت آية المواريث الفرائض وأصحابها ، ولكن الجدة لأم ألحقتها السنة الاسلامية بأصحاب هذه الفروض .

خامسا ــ الحاجات اليومية

١ ــ أحل الله الطيبات
وحرم الخبائث .
وبين هذين الأصلين .
الطيب الحلال .
والخبيث الحرام .

أشياء لم يوضحها القرآن الكريم وتركها للسنة الشريفة ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير ونهى عن أكل لحم الحمر الأهلية وقال : انها رجس .

٢ ــ والله سبحانه وتعالى أحل صيد البحر وحرم الميتة وبين هذين مسائل تتعلق بأحد الحكمين فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان السمك الميت من البحر حلال وقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته .

بهذا يتأكد للواثقين من دينهم وعقولهم ومستوى البحث العلمى النظيف أن السنة الاسلامية طبقت عمليا كمصدر أساسى للتشريع الاسلامى يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة » .. فأكد بذلك انها مصدر أساسى للتشريع الاسلامى .

هـ ــ مرتبة السنة فى التشريع

١ ــ روى أبو داود والترمذى وابن ماجة عن المقدام بن معديكرب قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

٢ ــ والقرآن الكريم يأمرنا بنص صريح : « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

٣ ــ وقد ألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكاما بقواعدها الكلية .

لقد حرم نكاح المرأة على عمتها مثل ما حرم الله الجمع بين الاختين .

وحلل رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتة البحر مثلما أحلّ الله صيده .

فهل الأحكام بالحل والحرمة من النبى صلى الله عليه وسلم تختلف فى درجتها عن الأحكام بالحل والحرمة فى القرآن الكريم ؟

يجيب الحديث النبوى الشريف على هذا : « ألا وان ما حرم رسول الله كما حرم الله » .

ومغزى هذا أن مرتبة السنة فى قيمة الحكم هى مثل القرآن الكريم فما حلله رسول الله صلى الله عليه وسلم له قيمة الدرجة لما حلله الله تبارك وتعالى ، وما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم له قيمة الدرجة لما حرمه الله تعالى فى كتابه المجيد .

غير انه عند استنباط الحكم من المجتهد فى عملية الاجتهاد تكون السنة المصدر الثانى بعد البحث فى القرآن الكريم على حد المنهاج الذى رسمه سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه عندما سأله النبى صلى الله عليه وسلم :

« كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟

قال : فبسنة رسول الله ؟

قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟

قال : أجتهد ولا آلو •

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » •

فحدد سيدنا معاذ أن النظر عند الاجتهاد لاستنباط الحكم يكون أولا فى القرآن الكريم فان وجد كفى ، وان لم يوجد يثنى بالنظر فى السنة الشريفة •

وبهذا الاعتبار تأخذ السنةالمرتبة الثانية بعد القرآن الكريم عند النظر فى الأدلة لاستنباط حكم شرعى •

أما قيمة الحكم المستنبط من السنة فهو مثل الحكم المستنبط من القرآن الكريم فى وجوب الأخذ به والايمان بأحقيته وقد حكم الله جل شأنه •

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » •

« وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحى يوحى » •

دكتور رءوف شلبى

« من نعم الله على عباده الصابرين »

السعة بعد الضيق والعافية بعد البلاء ، والرخاء بعد الشدة واليسر بعد العسر •

وسائل الإعلام فى عصر النبوة

للدكتور محمد سيد محمد

لاشك أن الباحث تأخذه الرهبة وهو يتجول بفكره فى الثلاثة والعشرين عاما قمريا التى بدأت بنزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم وفاته . لأن ما حدث فيها شامخ وعميق ومتعدد الأبعاد ، ومرتبط بالأزل ومربوط بالأبد . كما أن تلك الفترة ـ التى اصطلح على تسميتها بعصر النبوة ـ زودت العقل والتفكير والتدبر بالغيب ، وزودت غرائز الناس فى الأرض وما ينفعهم فيها ، ومختلف أوجه حياتهم بقواعد يوحى بها من السماء ، وتكفل لهم غنم الآخرة .

ان ذلك لابد وأن يملى على الباحث ـ بغض النظر عن عقيدته ـ رهبة وحيرة أشبه بحيرة الصائغ أمام صندوق كبير من المجوهرات عليه أن يختار جوهرة منه ويجلوها ليعرضها ويبرز فيها فنه وصنعته .

ويختلف احساس الباحثين بهذه الرهبة ، كما يختلف أيضا تعبيرهم عنها وتحديد زواياها .

ولقد تمثلت هذه الرهبة التى شعرت بها وأنا أبدأ بحثى عن « وسائل الاعلام فى عصر النبوة » فى فتنة مسميات العصر ومصطلحات العلم الذى أمارسه ، وهو الاعلام ، فأفصل منها أثوابا لبعض أحداث عصر النبوة فتبدو أثوابى سخيفة ومضحكة .

الأمر الثانى : الخوف من أن يشدنى المضمون فى عصر النبوة فاستحى ـ أولا أستطيع ـ الوقوف حيث يوجب البحث ، وبذلك أصبح مجرد راوية لأطراف من السيرة دون أن أصل ببحثى الى غايته .

وبوضع هذين الأمرين أمام ناظرى ، وبالتزام قواعد البحث العلمى ، تتبعت وسائل الاعلام فى عصر النبوة ، منذ وقفته صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا يبدأ الطور العلنى للدعوة الى وقفته

ـ ص ـ على جبل عرفات فى حجة الوداع مؤكدا تأديته للبلاغ ، مشهدا الله على ذلك بقوله : « الا هل بلغت اللهم فاشهد » ومختتما بخطبة الوداع بيان الحقوق والواجبات للفرد والجماعة . ومحددا للأفراد مسئولياتهم .

حلقات الاعلام بالدعوة

اذا ألقيت حجرا فى بركة ماء هادئة نجم عن ذلك تكون حلقات من الماء تبدأ صغيرة ثم تتسع شيئا فشيئا . وهكذا . شأن الدعوة .. انها حلقات بدأت صغيرة ثم اتسعت .. انها جهد متتابع ومتواصل . ومنذ نزول الوحى بدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسئوليته فى ابلاغ الدعوة .

لقد أعلم زوجته السيدة خديجة ، وأعلم صاحبه أبا بكر الصديق ، وأعلم ابن عمه عليا بن أبى طالب ؛ أعلمهم جميعا بأمر الدعوة فصدقوه وآمنوا بدعوته . ثم بدأت الدائرة تتسع بعد ذلك . وكانت وسيلته فى الاعلام بدعوته هى الاتصال الشخصى المباشر .

ولقد ظلت الدعوة فى أول أمرها سرا ، ولكن معنى السرية هنا ـ فيما أرى ـ معنى نسبى ، لأن الدعوة كانت حديث الناس بمكة منذ أيامها الأولى . كما ذاع أمر الدعوة وهى فى طورها السرى الى خارج مكة ، التى كانت فى ذلك الوقت ملتقى القادمين للتجارة أو لزيارة الكعبة .

ومعنى السرية فى الدعوة نسبى أيضا ، لأن العلن هو منهج الوحى وأسلوبه فى خطاب الناس ونشر الحقائق ، فالوحى هو النبأ العظيم كما يقول تعالى : « عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون » ..

والنبأ لايكون خفية ولا سرا .. لأن طبيعته الظهور والعلانية .

ومعنى السرية فى الدعوة نسبى أيضا لسبب ثالث ، وهو أن الاعلام بكلام الله هى وظيفة الأنبياء والرسل بصفة عامة .

ولايعنى ذلك أن مؤلفى السيرة على خطأ حين ذهبوا الى القول بأن الدعوة ظلت سرا حتى نزل قول الله تعالى : وأنذر عشيرتك الاقربين .

ولكن ما يؤكد التمحيص الدقيق لقراءة كتب السيرة هو أن اعلام النبى صلى الله عليه وسلم للناس بالدعوة ــ سواء كانوا أقرب الناس اليه كزوجته ، وأقرب أصدقائه اليه وأقرب أبناء عمومته اليه ، أو من يليهم فى القرب ــ كان عمل الرسول اليومى ، بل ان الاعلام بالدعوة كان حياته • وأن سرية الدعوة لم تكن بالمعنى المغلق لمفهوم السرية وانما كانت بمعنى السير ــ المتأنى والمتعقل بالدعوة الى غايتها •

لقد شجعنا كتاب السيرة الاوائل على النظر فى سيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعين فاحصة ، وعلى الربط بين أحداث مختلفه لاجلاء حقيقة تاريخية أو حقيقة علمية لأنهم سردوا الأحداث دون عناية بالتعليق عليها ، وأقدموا على تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة •

« ولقد كان وراء منهاجهم هذا فى الكتابة ، ووراء ذلك القدر المذهل من الموضوعية الذى تزخر به مؤلفاتهم ، اعتبارهم التاريخ المظهر الخارجى لارادة الله فى عالمنا هذا ، واعتقادهم أنه بالامكان التوصل الى كنه هذه الارادة باستقراء ظواهرها » (١) •

وبناء على ذلك يمكن القول بأن الاتصال المباشر أو الاتصال الشخصى بلغة الاعلام اليوم ــ كان وسيلة الاعلام بالدعوة التى اتخذها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ منذ بداية نزول الوحى ، وأن الاعلام بالدعوة كان أشبه بالحلقات المتوالية الاتساع •

ثم بدأ الطور الثانى من أطوار الاعلام بالدعوة بعد ثلاث سنوات من نزول الوحى فيما يروى بعض كتاب السيرة • ومع هذا الطور بدأت صفحة جديدة من وسائل الاعلام بالدعوة فى عصر النبوة •

(١) حسين أحمد أمين : « تأملات فى تطور كتابة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى الشرق والغرب » .. مجلة العربى « العدد ٢١٥ ، اكتوبر ١٩٧٦ . »

الطور العلنى للدعوة

يبدأ هذا الطور من أطوار الاعلام بالدعوة بنزول الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين » .. وتشير وقائع التاريخ الى بداية ملفتة للنظر فى وسائل الاعلام بالدعوة .

فقد صعد النبى صلى الله عليه وسلم « على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا . فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش .فقال النبى : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك الا صدقا . قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا . فنزلت « تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

وفى رواية أخرى أخرجها أحمد وجماعة عن أبى هريرة ، تقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا قريشا وعم وخص فقال : يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فانى لا أملك لك ضرا ولا نفعا ألا ان لكم رحما وسأبلها ببلالها . وجاء فى بعض الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع عليه الصلاة والسلام بنى هاشم فاجلسهم على الباب ، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم فى البيت ثم طلع عليهم فأنذرهم .

وجاء فى روايات أخرى أنه عليه الصلاة والسلام أمر عليا كرم الله وجهه أن يصنع طعاما ويجمع له بنى عبد المطلب ففعل ، وجمعهم وهم يومئذ أربعون رجلا فبعد أن أكلوا، أراد صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم

بدره أبو لهب الى الكلام • فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا ثم دعاهم فى الغد الى مثل ذلك • ثم بدرهم بالكلام فقال : يابنى عبد المطلب انى أنا النذير اليكم من الله تعالى والبشير ، قد جئتكم بمالم يجىء به أحد ، جئتكم بالدنيا والآخرة ، فأسلموا تسلموا ، وأطيعوا تهتدوا • ويعلق الامام الألوسى على هذه الروايات بقوله : « اذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار » • (١)

ان أشهر الروايات هى ارتقاء الرسول صلى الله عليه وسلم الصفا ، وهى أكثرهم جذباً للأنظار • ولكن الموضوعية التى جعلت الامام الألوسى يقول : « ان صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار» تدفعنى الى القول بأن ما تؤكده وقائع التاريخ من مثابرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سلوك سبل عديدة فى الاعلام بالدعوة يجعلنى أكثر ميلا الى ترجيح تعدد طرق الاعلام بالدعوة • وأن الروايات لاتتناقض ـ فى نظرى ـ بل تتكامل • وقد يكون بعضها وقع بعد فترة زمنية أخرى من الرواية الأولى • فان الرواية التى تذكر أنه صلى الله عليه وسلم جمع نساءه وأهله فى البيت ، ـ ان كانت قد وقعت ـ فالأرجح أنها وقعت بعد وفاة خديجة لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجمع معها زوجة أخرى • وكان موت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنوات •

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الروايات تؤكد ظهور وسيلة جديدة من وسائل الاعلام بالدعوة هى ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الاتصال بالجماهير • فالرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم الخطبة فى جمهور من الناس كوسيلة لاعلامهم بالدعوة • وبذلك تصبح الخطبة وسيلة ثانية من وسائل الاعلام بالدعوة الى جانب الاتصال الشخصى الذى لم يكن قاصراً على أهل بيته أو أصدقائه ، بل كان صلوات الله وسلامه عليه لا

(١) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسى : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، القاهرة : ادارة الطباعة المنيرية ، الجزء التاسع عشر ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم أو شرف أو ثقل أو تأثير الا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده .

الفعل ورد الفعل

برغم أن حديثنا خاص بوسائل الاعلام فى عصر النبوة ، الا أن رد الفعل لدى المشركين لم يكن مرتبطا بالمضمون فقط بل وبالوسيلة أيضا . وكان رد الفعل لدى المشركين فى جملته ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر « التشويش » على اعلام الرسول بالدعوة بشتى السبل .

ولقد تواكبت طرق التشويش مع تطور وسائل الاعلام بالدعوة بشكل سافر منذ بداية الطور العلنى للدعوة حتى فتح مكة .

فى البداية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أرادوا الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم حتى تقاتلوا .

ولما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة بذكر آلهة المشركين وتسفيه هذه الآلهة ، وتسفيه عقول من يعبدها من دون الله . كان رد الفعل أن ذهب رجال من أشراف قريش الى أبى طالب قائلين :

يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه

فلما اشتدت الدعوة اشتد أسلوب زعماء قريش مع أبى طالب، ولجأ الكافرون الى وسائل المقاطعة الاقتصادية وتسليط سفهائهم بايذاء الرسول وتكذيبه ، ورميه بالشعر والكهانة والجنون .

وقد حاول مشركو مكة وكفارها أن يمنعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الاتصال بالناس لخوفهم من تأثيره عليهم . ولخوف الكفار من التأثير القوى للقرآن فقد حاولوا التشويش عليه أيضا ، ويتحدث القرآن عن محاولتهم « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن

والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

كما لجأ الكفار الى استخدام وسائل أخرى للتأثير فى الناس لتكون مضادة لتأثير القرآن عليهم ينجحون فى جذب الناس اليهم ، فلجأوا الى الشعراء الذين قاموا بانشاء القصائد الشعرية وسير الأبطال .. الخ . بل انهم ذهبوا الى اكثر من ذلك فحاولوا تقليد القرآن نفسه ، وأنى لهم هذا ! «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . كما كان لشعراء الكفار دور فى هجاء الرسول والمسلمين والدعوة . لقد برز دور الشعر الذى أخذ شكل الدعاية . وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم يرد على شعراء الكفار .

الدائرة الثالثة ووسائلها

يقول الامام الحافظ ابن القيم الجوزية : أن مراتب الدعوة : المرتبة الأولى : النبوة ، الثانية : انذار عشيرته الاقربين ، الثالثة : انذار قومه ، الرابعة : انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة ، الخامسة : انذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس الى آخر الدهر . (١) وهو قول يمس وسائل الاعلام فى عصر النبوة مسا مباشرا .

وفى مرحلة توجيه الدعوة الى الدائرة الثالثة من دوائر جمهور الدعوة نرى أن وسائل الاعلام أخذت شكل عرض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للدعوة على القبائل ، والاستفادة من المواسم للاعلام بالدعوة . وفى هذا الطور من أطوار الدعوة تمت الهجرة الى الحبشة ، ثم كانت الهجرة الى المدينة نتيجة للقائه صلى الله عليه وسلم للوفود واعلامهم بالدعوة . وبنجاح الهجرة الى المدينة بدأت دولة الاسلام .

وهنا سنجد أن الاعلام المضاد من الكفار بشتى وسائله لم يكف عن ملاحقة الاعلام بالدعوة حتى أن هجرة الحبشة (٢) تشهد جوارا مصيريا ودقيقا بين المهاجرين

(١) الامام الحافظ عبد الله بن القيم الجوزيه ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، الطبعة الاولى ، القاهرة : مطبعة محمد على صبيح ، ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م ، ص ٢٧ .

(٢) كانت الهجرة الاولى الى الحبشة تضم اثنا عشر رجلا واربع نسوة ثم

المسلمين وبين كفار مكة امام ملك الحبشة ، حاول فيه الكفار ان يوقعوا بين الاسلام والمسيحية ، ولكن صدق المسلمين وصلابتهم وحسن تصرفهم نجاهم من الوقيعة

ومن وسائل الاعلام فى هذه الحلقة أو الدائرة الثالثة من دوائر الاعلام بالدعوة الاستفادة من المواسم ليعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل(١) أفكان صلوات الله وسلامه عليه يعرض نفسه فى المواسم ـ اذا كانت ـ على قبائل العرب يدعوهم الى الله ، ويخبرهم انه نبى مرسل ، ويسألهم ان يصدقوه ويتبعوه .

وتروى كتب السيرة رواية عبد الله بن عبيد الله بن عباس اذ يقول : « انى لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول : يا بنى فلان ، انى رسول الله اليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال : وخالفه رجل أحول وضىء ، له غديرتان ، عليه حلة عدنية . فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه » .

قال : فقلت لأبى : يا أبت من

بلغهم أن قريشا قداسلمت ـ وكان هذا الخبر كاذبا ـ فرجعوا الى مكة فلما بلغهم أن الامر اشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش اذى شديدا . ثم أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ثانية الى الحبشة ، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن النساء ثمان عشرة امراة فاقاموا عند النجاشى على احسن حال فبلغ ذلك قريشا فارسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير المخزومى فى جماعة ليكبدوا لهم عند النجاشى ففشلوا فى ذلك .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، الجزء الثانى ، القاهرة : مصطفى البابى الحلبى واولاده ، ١٩٣٦ ، ص ٦٣ .

هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول؟

قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

والى جانب التشويش كرد فعل مستمر كان رفض بعض الكفار للدعوة رفضا مرذولا . فعندما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى حنيفة فى منازلهم ، فدعاهم الى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم .

وكما كان الرفض كانت المساومة طريقا فى الرد على اعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة . فهذا بن صعصعة يرد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ص — بقوله : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه . ويروى ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق أنه قال : حدثنى الحصين ابن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد قال : لما قدم أبو الحسير ، أنس بن رافع ، مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم اياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فجلس اليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وماذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى الى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب . قال : ثم ذكر لهم الاسلام . وتلا عليهم القرآن . قال : فقال اياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أى قوم هذا والله خير مما جئتم له . قال : فيأخذ أبو الحسير ؟ انس بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه اياس بن معاذ وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

قال : فصمت اياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وانصرفوا الى المدينة ،

وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ولم يكن رسول الله ـ ص ـ يعرف اليأس فى ابلاغ الدعوة . وكان تكرار الوسيلة فى العام التالى فيه خير كثير .

تروى لنا سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

قال ابن اسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من انتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال: وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام ، أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب اوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوثا الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم اولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله انه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه .

فاجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية وكانت الهجرة ، وكانت بداية

الدولة الاسلامية فى المدينة . ومن ثم اتخذ الاعلام بالدعوة وسائل جديدة . فأصبحت صورة الاعلام اليومى بالدعوة تتم بتعليم المسلمين الجدد . وأقيم المسجد النبوى حيث بركت ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم . وبدأت وسيلة أخرى من وسائل الاعلام بالدعوة ، هى بعث الوفود .

الاعلاميون الشهداء

قد يرى المتتبع لكل ما سقناه من وسائل الاعلام بالدعوة أن شيئا من الراحة لابد وأن يصيب الداعية والدعاة ببناء الدولة الاسلامية فى المدينة. ولكن تاريخ الدعوة يؤكد أن دعاتها لاقوا الشهادة كما لاقاها زملاؤهم فى الغزوات . لقد بدأت وسيلة اعلام جديدة بعد الهجرة هى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وفق ترتيبات معينة ـ بعض أصحابه لابلاغ الدعوة.وسنتبين هناظاهرة الفعل ورد الفعل على مستوى الدائرة الثالثة ـ وهم جمهور العرب ـ كما لمسناها على مستوى الدائرة الثانية وهم كفار مكة .

قدم أبو عامر بن مالك (١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد ، فدعوهم الى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس فى أمرك : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من أصحابه ، من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا ببئر معونة (وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم) فلما نزلوها بعثوا واحدا منهم هو حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا ان يجيبوه الى مادعاهم

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

اليه ، وقالوا : لن نحقر أبا براء ، وقد عقد لهم عقدا وجوارا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه الى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فاحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم الا كعب بن زيد فانهم تركوه وبه رمق فعاش حتى استشهد يوم الخندق .

اعلام الدولة النواة

بنجاح الهجرة الى المدينة بدأت نواة الدولة الاسلامية . وبدأ الاعلام اليومى وبدأ اعلام ارسال واستقبال الوفود أو الافراد .

وبنجاح الهجرة انتقل الصراع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه المؤمنون من المهاجرين والانصار ، وبين كفار مكة ومن آزرهم من اليهود والكفار والمنافقين الى الصدام المسلح فى صورة الغزوات المتتابعة .

وبنفس القدر أخذ الاعلام المضاد للدعوة صور الحرب النفسية والدعاية السوداء . فما أن نزلت الآية الكريمة بتحول المسلمين فى صلاتهم من استقبال بيت المقدس الى استقبال الكعبة . حتى أطلق كفار مكة دعايتهم السوداء بان النبى صلى الله عليه وسلم قد عاد الى قبلتهم وانه سوف يعود الى دينهم .

وكان المنافقون يستغلون ظروف غزوة الخندق ليطلقوا دعايتهم السوداء بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعدهم بملك كسرى وقيصر وها هم لا يستطيعون الخروج من المدينة .

وظل اعلام الدعوة يواجه اساليب الحرب النفسية والدعاية السوداء من اليهود والمنافقين وكفار مكة والعرب ، ويفند ضلالهم حتى كانت الجولة الحاسمة بفتح مكة . وتمثل الفترة من الهجرة الى الفتح أقصى فترات الحرب النفسية والاعلام المضاد . والقرآن الكريم يحوى الكثير من الآيات التى ترد على تساؤلات اليهود الخبيثة وعلى المنافقين والكفار فى هذا الصدد .

وقبيل الفتح وبتوقيع صلح الحديبية مع كفار مكة بدأت حلقة جديدة من حلقات الاعلام بالدعوة

يمكن أن نطلق عليها الحلقة العالمية

الرسائل الى الملوك وسيلة أعلام دولى

تتبين مما ترويه كتب السيرة أن صلح الحديبية (١) لم يكن يلقى قبولا أو حماسا من عامة المسلمين. وأن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أبعد مما رأى كثير من المسلمين ، بل يمكن القول بعامة المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولكن هذا الصلح كان مفتاح تصفية الجيوب اليهودية التى كادت تقتل كل من بقى فى المدينة من المسلمين ، عندما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم متجها الى الحديبية . وكان هذا الصلح أو الاتفاق هو الطريق الى فتح مكة بغير دمار أو قتال .

يروى الامام الحافظ الجوزية فى كتابه زاد المعاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية كتب الى ملوك الأرض وأرسل اليهم رسله ، فكتب الى ملك الروم ، فقيل له انهم لا يقرؤون كتابا الا اذا كان مختوما . فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر : «محمد» سطر ، و«رسول» سطر ، و « الله » سطر .و ختم به الكتب الى الملوك . وبعث ستة نفر فى يوم واحد من المحرم سنة سبع من الهجرة .

* الرسالة الى النجاشى ملك الحبشة حملها عمرو بن أمية الضمرى

(١) صلح الحديبية : كان هذا الصلح برغم ما فيه غزوا نفسيا لكفار مكة . وترجع القصة الى خروج النبى صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة بألف وأربعمائة من أصحابه قاصدين مكة للاعتمار . فأحرموا بالعمرة من ذى الحليفة فلما وصلوا الحديبية بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه الى مكة ليخبر أهلها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدزيارة بيت الله الحرام، ولم يكن قاصدا حربا . فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم . وظن المسلمون انهم قتلوه فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه على أن يدخلوا مكة حربا ، فلما بلغ المشركين ذلك اطلقوا سراح سيدنا عثمان . وبدأت مفاوضات الصلح التى كان أبرزها جورا أن من يرجع من المسلمين الى المشركين لا يردوه ، وأن من يأتى الى النبى مسلما يرده الى المشركين . وفى العالم التالى دخل الرسول صلى الله عليه وسلم معتمرا .

* الرسالة الى قيصر ملك الروم وأسمه « هرقل » حملها دحية بن خليفة الكلبى

* الرسالة الى « كسرى » ملك الفرس حملها عبد الله بن حذافة

* الرسالة الى المقوقس حاكم مصر واسمه « جريح بن مينا » ملك الاسكندرية عظيم القبط حملها حاطب بن أبى بلتعه

* الرسالة الى الحارث بن أبى الغسانى ملك البلقاء حملها شجاع بن وهب الأسدى

* الرسالة الى هوذة بن على الحنفى باليمامة حملها سليط بن عمرو

هؤلاء السفراء من أصحاب رسول الله تم اختيارهم لجزء من المهمة ، فدحية الكلبى الذى حمل مسئولية لقاء هرقل قيصر الروم فى ظروف انتصاره على كسرى كان يتميز بحسن المظهر تميزه بحسن الايمان وحسن الادراك .

أما محتوى الرسائل فكان الدعوة المباشرة بالايمان بالله وحده والاسلام . ونص الرسالة التى حملها دحية الى هرقل يعبر عن هذا المضمون .

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . »

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد . أسلم تسلم : واسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وان تتول فان اثم الأكارين (١) عليك . ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

أما أثر الرسائل فقد كان النجاح فى الاعلام بالدعوة ، بل والحوار حول الدعوة ذاتها . ولم تكن الرسائل للملوك رسائل شخصية وانما كانت موجهة الى رعايا الملوك من خلال حكامهم .

أما رد الفعل فقد اختلف ممن وجهت اليهم الرسائل ومن حاشيتهم لقد كان رد هرقل على دحية قوله

(١) « الأكارين » هم الزراع والحراث والمقصود بهم رعية هرقل .

انى أعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى .

ولقد عاصر أبو سفيان قبل اسلامه سفارة دحية ، وكان فى تجارة لقريش الى الشام . وبينما هو فى غزه اقتاده رجال هرقل ليقابل ملكهم هو ومن معه ليسمع منهم أخبار النبى .

ويروى أبو سفيان الحادثة وقد مثلوا أمام هرقل ومعه المترجم فسألهم من أقربهم نسبا للرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ ، فكان أبو سفيان . فقال هرقل لحاشيته : أدنوه . وأقعده بين يديه ، وأقعد من كانوا معه خلفه . ثم قال انى سأسأله فان كذب فردوا عليه . يقول أبو سفيان أنه لو كذب ماردوا عليه ولكنه تكرم عن الكذب حتى لا يحفظوا عليه الكذب فيحدثوا به عنه . ويقول أبو سفيان أنه حاول أن يقلل فى اجاباته على هرقل من أمر الرسول ، ولكن هرقل لا يكتفى بالسؤال تلو السؤال وانما يعيد الحديث كله ليستوثق ، ويقول لترجمانه مخاطبا أبا سفيان : قل له انى سألته كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض فى أوسطكم نسبا . وكذلك يأخذ الله النبى اذا أخذه لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ، فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان . وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الايمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه . وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون ،

وسألتك بما يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللهولا تشركوا به وينهاكم عن عبادة الأوثانويأمركم بالصلاة وبالصدق والعفاف والصلة

فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، وهو نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم • ولو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه • ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه • انطلق لشأنك •

يقول أبو سفيان فلما قال ماقال كثر عنده الصخب ، وارتفعت أصوات الذين حوله من عظماء الروم ، وكثر لغطهم فلا أدرى ماذا قالوا • وأمر بنا فأخرجنا • ويقول أبو سفيان أنه خرج يضرب كفا بكف • وهو اذ ذاك على الكفر لم يسلم بعد ــ على ما صار اليه أمر محمد صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام !

وجملة الروايات فى رد فعل هرقل أنه لم يستطع اعلان اسلامه خوفا ممن حوله

وكان رد الفعل عند كسرى هو تمزيق رسالة النبى • وعلى العكس تماما أسلم النجاشى ملك الحبشة على اثر الرسالة ــ كما تقول بعض الروايات ــ وكان رد الفعل المصرى وسطا أو بين بين ، فقد رد المقوقس ردا حسنا ، وأهدى للنبى صلى الله عليه وسلم مارية القبطية التى انجبت له ابراهيم وبعض الهدايا الأخرى التى وزعها الرسول على بعض صحابته • أما ملك اليمامه فقد أكرم رسول الرسول برغم أنه لم يسلم ــ فيما تقول بعض الروايات

لم يكن هؤلاء السفراء الستة الذين خرجوا فى يوم واحد الى المجتمع الدولى آنذاك هم آخر السفراء من حملة الرسائل للاعلام بالدعوة • فقد حمل رجال آخرون رسائل الى حكام اليمن والبحرين وعمان • وكان من سفراء النبى للاعلام بدعوته أفذاذ من أمثال على بن أبى طالب وأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل

بيان الحقوق والواجبات فى خطبة الوداع

وعلى جبل عرفات كانت خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بيانا للحقوق والواجبات فى علاقة الفرد بنفسه (أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته) • وفى علاقته بأسرته (ان

لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق • لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة •• الخ) ثم يقول صلى الله عليه وسلم « انما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا » •

ويحدد علاقة الولد بوالده ، ويحدد الميراث والوصية • وفى علاقة الفرد بالمجتمع (ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام) • ثم يعلن أن ربا الجاهلية موضوع ، وأن دماء الجاهلية موضوعة • ثم يحدد علاقة الفرد بالعالم بقوله : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى ، ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد •• فليعلم الشاهد الغائب »

وهكذا أصبح الشاهد مسئولا عن الاعلام بالدعوة ، الشاهد بالمعاصرة ، والشاهد من الأجيال التالية : بالمعرفة والايمان ، كل اليه البلاغ وعليه البلاغ •• والاعلام بالدعوة حركة دائمة متجددة ومعين فى نفس الوقت لا ينضب ، وسمع الانسان وبصره وفؤاده عنه مسئول ومسئول •

د• محمد سيد محمد

من شاء عيشا رضيا يستفيد به
فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدبا
ولينظرن الى من دونه حالا

فى عباب النور

للأستاذ محمد عادل سليمان

فى العيون رفرفان .. تكأتان .. على راحتيهما تستريح أثقال الدعوة فلا يتململان رهقا ، ولا يسأمان ضغوطا .. بل يسعان كل الأعباء صبرا ورحابة .

فهما للدعوة جبلان اشمان يذودان رعونة رياح الكفر أن تحاول اطفاء النور .. وعلى صخراتهما تتكسر كل الأقواس والسهام فشلا وخيبة دون تصويب واصماء .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهما قرير العين على دعوة الحق ، فعمه « أبو طالب » سيد بنى هاشم حجاب الشموخ بين نوش الكفار وشخص النبى . وأم المؤمنين « خديجة » رضى الله عنها سيدة النساء .. شارة الاباء فى وجه الرجال .

وفى عام واحد مات «أبو طالب» وماتت خير النساء « خديجة » ، وما سمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا العام « عام الحزن » الا لأنه يعلم ما وراء ذلك من محاولات الكيد والتربص من رؤوس الكفر بدعوة الحق ، ومواقف العناد الصلف أمام مد النور الزاحف الجديد .

وما كان « أبو طالب » ، و « خديجة » رفرفين للنبى .. بل كانا رفرفين للدعوة .. فما كان وما يكون للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتكىء على الخلق ومعه ربه .. «والله يعصمك من الناس» عهد الهى بالعصمة والمنعة ، والحفظ والحماية .

وتوهم أهل الكفر دك الجبلين الشامخين .. وأن المسافة بينهم وبين النبى فضاء بلا حراسة ،فبيتوا

كل ليلة غدرا « والله يكتب ما يبيتون » .

وكأن الله تعالى أراد أن يعلن حراسته لنبيه ، ويرفع راية الاعجاز والقهر فى وجه الرفض .. فكانت ليلة « الاسراء والمعراج » .

ماذا ــ اذن ــ فى الاسراء ؟.. وماذا ــ اذن ــ فى المعراج ؟

رحلة اللمحة بين المسجدين فيها تلاشى المسافة .. وفى المسجد الأقصى اعلان الامامة فى هذا المشهد .

المسجد خاشع فى ذوب النور المالىء كل فضاء .. أبهاء المسجد ترقص تحت غلالات النور الأبيض .. همس الهمس السريانى بذكر الله .. حركات صلاة جليلة بين ركوع وسجود .

فجأة .. يصمت الهمس ، وتسكن الحركة .. يقف الكل .. يصطف الكل حرس شرف .. تترقب كل عيون الحرس قدوم السيد .

فى المسجد الأقصى .. حرس الشرف جميع الأنبياء والرسل منذ آدم عليه السلام .. يصطفون فى شرف استقبال سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويصل الحبيب المحبوب فى موكب الملائكة ،وتمتلىء عيون الرسل والأنبياء من نوره ، وتستقى أرواحهم من فيضه .. ويؤذن للصلاة .. ويقف حرس الشرف جميعا لينالوا شرف المأمومية خلف امامة الامام الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقدمه « جبريل » عليه السلام ليصلى بالأنبياء والرسل اماما .

وفى هذا الموقف المهيب بين يدى الجليل سبحانه وتعالى.. أكثر من فقه .. امامة الرسول اقرار بالفضل .. واذا كان يؤم القوم أعلمهم .. فامامة الرسول اعتراف من الأنبياء والمرسلين بأنه صلى الله عليه وسلم أعلمهم بالله..واذا كان الموقف موقف القرب من الله والمناجاة والصلة فى الصلاة .. فامامة رسول الله شرف للأنبياء والرسل به لأنه امامهم فى القرب ووسيلتهم جميعا الى الله فى المناجاة والصلة .. وفى هذا دليل على

أنهم جميعا لم يدخلوا حضرة القرب الا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وامامة الرسول للأنبياء والمرسلين اعلان الهى بالغاء الشرائع كلها واقرار شريعة الاسلام ، واشارة الى نسخ جميع النبوات والرسالات ، وتبعية الرسل والأنبياء جميعا لسيدنا رسول الله .

وامامة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنبياء والمرسلين فى المسجد الأقصى اشارة الى تقدمه عليهم جميعا فى الخلق وان جاء بعدهم فى الختام .

ففى المرسلين آباؤه وأجداده .. « اسماعيل وابراهيم » عليهما السلام ، وفيهم « نوح » أطول الأنبياء عمرا عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما يزل بعد فى الخمسين .. اذن .. فامامته لهم اشارة الى سبق الخلق عليهم ، ووقوفهم جميعا فى مقام المأمومية خلفه اشارة الى سريان سره صلى الله عليه وسلم فيهم .. فبه كانوا رسلا وأنبياء .

وتنتهى رحلة اللمحة بين المسجدين فى تلاشى المكان لتبدأ رحلة العروج من الأرض الى مابعد سدرة المنتهى فوق السموات فى تلاشى الزمان والمكان معا .

وفى كل سماء ترحيب الى ترحيب سماء .. حتى تجاوز سموات السموات العلا .. « عند سدرة المنتهى .. عندها جنة المأوى .. اذ يغشى السدرة مايغشى .. ما زاغ البصر وما طغى .. لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وماذا فى رحلة العروج اذن ؟ جبريل عند مقامه يقف .. « وما منا الا له مقام معلوم » .. ويمضى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يمضى فوق مقام جبريل .. يمضى فى عباب النور الالهى تغشاه سحابات الرحمة والرضوان .. بلا أين ، ولا بين ، ولا زمان ، ولا مكان .. بين يدى ربه خالق الزمان والمكان .. وعاد النور الثانى الى سجدة الذوب فى مقام النور الأول « كان الله ولا شىء معه » .. والتقى المحب

بالمحبوب والطالب بالمطلوب .. « التحيات لله .. والصلوات والطيبات » فيجيبه ربه « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .. وفى هذا الموقف الجمعى يذكر النبى الصالحين .. « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

ويودع الله رسوله من الاسرار والأنوار ما لا طمعية فيه لنبى ولا رسول .. اذ رأى ربه بعينى رأسه بلا احاطة ولا حصر ، ولا كيف ولا كم ، ولا فوق ولا تحت ، ولا زمان ولا مكان .. تعالى الله عن الاحاطة والحصر والادراك ، والكيف والكم ، والفوق والتحت والزمان والمكان .

وفرض الله الصلاة فى المعراج اشارة الى فقه العروج فيها من أرض البشرية الى سماء المناجاة الفوقية .. وما كان تردد الرسول بين موسى عليه السلام وربه تنقلا من مكان الى مكان..بل هو بين موسى عليه السلام الى مقام التجلى الالهى عليه صلى الله عليه وسلم فى عباب النور .

واذا كان الاسراء « لنريه من آياتنا » فى أماكن الأرض المقدسة .. فان المعراج سر الرحلة وروحها، ونقطة الدائرة الحقيقية « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وفى الاسراء شاهد أماكن الأعمال فى الأرض .. فى مدين وسيناء وبيت لحم .. والمسجد الأقصى . لكنه ـ فى المعراج ـ شاهد حقائق الأعمال ونتائجها .. اقوام يزرعون ويحصدون .. وأقوام ترضخ رؤوسهم بالحجارة .. وأقوام .. وأقوام .. ففى الملأ الأعلى ملكوت كل شىء .. « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء » .

اللهم صل على الجامع المجموع بك عليك .. والدال بك اليك .. من أسريت به فأرى من آياتك .. وعرجت به « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » صلاة وسلاما تليقان بجلالك وجمالك خليه .. وبمقامه العظيم لديك حق قدره العظيم وجاهه العظيم .. آمين .

محمد عادل سليمان

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزى

المستشار حسن حسب الله

انتهينا فى المقال السابق من الكلام عن حد شرب الخمر .

ونتكلم فى هذا المقال عن بقية جرائم الحدود وهى جرائم البغى والحرابة والردة .

أولا : حد البغى

حد البغى فى الاصطلاح الشرعى يمكن أن يقابله ما هو معروف حاليا بالثورة المسلحة ضد الحاكم المسلم أو الحرب بين دولتين اسلاميتين .

وحد البغى من الحدود الثابتة بالكتاب لقوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » ــ الحجرات ٩

والأصل فى نظام الحكم الاسلامى أن يكون للمسلمين فى أنحاء الارض امام أو رئيس واحد والبغاةهم قوم من المؤمنين يخرجون عن سلطان هذا الامام ويخالفونه الرأى بقوة السلاح ويسعون لقتاله ولذلك فرض الله على باقى المؤمنين معاونة الامام فى قتالهم لأنهم لو تركوا وشأنهم لعمت الفوضى وساد الفساد واضطربت أمور المسلمين.

وأركان جريمة البغى ثلاثة :

أولها : أن يكون الحاكم عدلا .

وثانيها : أن يستند الخارجون عليه الى تأويل معين يسيغ لهم من وجهة نظرهم هذا الخروج كأن يدعوا بأن انتخابه لم يكن صحيحا أو أنه لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله أو أنه لم يفعل أمرا كان يجب عليه فعله وهكذا يكون لهم سند من أصول الحكم الاسلامى وان لم يكن قويا .

وثالثها : أن تكون لهم قوة يجتمعون عليها فان لم تكن لهم قوة أو كانت لهم قوة ولكن حاولوا الاعتداء فرادى غير مجتمعين فانهم لا يعتبرون بغاة ويحاسب كل منهم على ما صدر منه من أفعال .

ويرى بعض الفقهاء اضافة ركن رابع هو أن يبدأوا بالقتال والاعتداء فان لم يبدأوا بالقتال فلا يعتبرون من البغاة ولكن جمهور الفقهاء يرون أنهم متى خرجوا للقتال واعتزموه فلا ينتظر الامام حتى يقاتلوه وعليه أن يبدأ هو بقتالهم وقتلهم وهو ما نرى الاخذ به .

فمتى توافرت هذه الشروط فان الجريمة تكون تامة ويعاقب مرتكبوها بالقتل .

وهذا الحد القصد منه العمل على صيانة المجتمع الاسلامى من التفكك والخصام والاندفاع تحت أية نزوات أو آراء تصدر نتيجة التعصب والحماس قبل التثبت والتيقن فالقرآن الكريم فى هذا التشريع افترض امكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين مع احتفاظ كلتا الطائفتين بصفة الايمان ومع احتمال أن تكون احداهما باغيةعلى الاخرى ولذلك أمر المؤمنين بقتال البغاة وقتلهم وهو ما حدث فعلا بعد ذلك عندما قاتل الامام على البغاة فى وقعة الجمل وفى وقعة صفين وقام بقتالهم معه أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم .

ولا يمنع تفرق المسلمين اليوم الىعدة دول وممالك بكل منها امام أو رئيس من تطبيق حد البغى فواجب الدول الاسلامية أن تجتمع لتقاتل البغاة أينما كانوا وفى أية صورة كانوا فلو أخذت احدى الدول الاسلامية مثلا بالنظام الشيوعى لوجب على باقى الدول الاسلامية قتالها وقتل البغاة فيها اذا لم يعودوا الى حكم الاسلام .

ثانيا : حد الحرابة أو قطع الطريق

وحد الحرابة فى الاصطلاح الشرعى يقابله ما هو معروف حاليا فى قوانين العقوبات بالاتفاق الجنائى .

وحد الحرابة ثابت بالكتاب لقوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ــ المائدة ٣٣ .

ان الشريعة الاسلامية مليئة بالأحكام المتعلقة بحماية النفس وحماية المال وصيانة النظام وكل ما يكفل تحقيق الاستقرار والطمأنينة والعدالة ولذلك فرضت العقوبات الرادعة لمنع أى اعتداء على النفس أو المال أو نظام الحكم الاسلامى ومن أقوى الحدود للمحافظة على ذلك حد الحرابة .

وقد أخذ اسم الحرابة من وصف الله تعالى لهؤلاء المعتدين بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وذلك باعتدائهم على شريعة الله وعلى أمن المسلمين .

وقد اختلف الفقهاء فى تعريف الحرابة .

فذهب الحنفية الى أن الحرابة أو قطع الطريق هى الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمنع المارة من المرور ويقطع الطريق سواء كان من جماعة أم من واحد وسواء أكان القطع بسلاح أم بغيره من العصا والحجر ونحوها وسواء أكان بمباشرة الكل أم بمباشرة البعض واعانة البعض الآخر (مثلا البعض يراقب الطريق والبعض يباشر العدوان وهكذا) ويشترط الامام أبو حنيفة فى المكان الذى تقع فيه الجريمة أن يكون خارج العمران بعيدا عن الناس ولا تأخذ هذه الجريمة هذا الوصف اذا وقعت داخل القرية أو المدينة وشاركه فى ذلك أكثر فقهاء الشيعة وخالفه فى ذلك تلميذه أبو يوسف فقرر أن العبرة بامكان طلب الغوث ولذلك ذهب الى أن قطع الطريق يتحقق فى القرية والمدينة اذا كان المعتدون فى مكان لا يمكن فيه أجابة المستغيث .

وقد أخذ الامام الشافعى برأى أبى يوسف فنظر الى قرب الغوث فقط بصرف النظر عن المكان وقضى بامكان وقوع قطع الطريق فى القرية والمدينة .

وأخذ الامام أحمد بقول أبى حنيفه .

أما الامام مالك فقد توسع فى معنى الحرابة حتى يشمل المعنى كل

الجرائم وكل الاماكن حتى المنازل نفسها فى القرى والمدن فاذا دخل السارق الدار مسلحا أو قتل القاتل ضحيته غيلة فان هذا السارق وهذا القاتل يدخلان فى المحاربين فيعاقب هذا السارق المسلح بحد الحرابة وليس بحد السرقة فقط فالامام مالك ينظر الى معنى العنف والغلبة الشخصية بالنسبة للجانى على المجنى عليه فان كان المجنى عليه لا يستطيع دفع الجانى كان الجانى محاربا •

ونرى الأخذ برأى الامام مالك خاصة بعد أن تفشت ظاهرة السرقة بالاكراه وخطف الفتيات فى رابعة النهار وفى عواصم الدول ونشطت عصابات اللصوص والمنظمات الارهابية فى ارتكاب جرائمها فى كل مكان •

ولا يشترط لتوافر أركان حد الحرابة أن تتم جرائم الاعتداء على النفس أو المال أو العرض فعلا وانما يكفى فى ذلك أن يجتمع نفر من الناس لهم منعة وقوة ويتفقوا فيما بينهم على ارتكاب هذه الجرائم ليتعاقبوا بحد الحرابة وبذلك يكفى تكوين أية عصابة أو منظمة ارهابية لمعاقبة جميع أفرادها بحد الحرابة ولو لم تبدأ نشاطها الاجرامى •

ويشترط لاقامة الحد على المحارب أن يكون بالغا وعاقلا لان ذلك شرط لاقامة الحدود وقد تفرع عن ذلك خلاف بين الفقهاء فيما اذا كان بين المحاربين صبية أو مجانين هل يسقط حد الحرابة عن جميع المحاربين تبعا لذلك أم يقتصر العفو عن الصبية والمجانين وحدهم ؟

ذهب الحنفية الى سقوط حد الحرابة عن الجميع لأن هذه الجريمة هى تعاون على الاثم فاذا سقط الحد عن بعض المتعاونين سقط عن باقيهم لان العفو يسرى الى كل أجزاء الجريمة •

أما الامام مالك فقد ذهب الى منع سقوط الحد عن غير الصبية والمجانين فلا يستفيد باقى المحاربين من ذلك لأن هذه الجريمة اعتداء مباشر على الله وعلى جماعة المسلمين وحتى يتوافر الأمن للأمةالاسلامية•

ونرى الأخذ برأى الامام مالك والا استطاع المحاربون الافلات من العقاب باصطحابهم بعض الصبية أو المجانين معهم •

وعقوبة المحاربين كما وردت فى النص القرآنى « .. أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » صارت محل خلاف نتيجة التعبير بحرف « أو » ونتيجة هذا التنويع فى العقاب .

فذهب ابن عباس وبعض الصحابة الى أنهم اذا قتلوا فقط قتلوا واذا سرقوا فقط قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف واذا أفزعوا الناس فقط عوقبوا بالنفى واذا قتلوا وسرقوا قتلوا وصلبوا وبهذا أخذ أبو حنيفة والشافعى وأحمد رضى الله عنهم .

وذهب الامام مالك الى أن الامام حر فى اختيار العقوبة الملائمة وأن « أو » فى النص القرآنى للتخيير وأن الله تعالى جعل هذا العقاب على جريمة الحرابة فى ذاتها بصرف النظر عن نوع الجرائم التى تقع من المحاربين فسبب العقوبة واحد وهو ذات الحرابة التى هى التخويف والارهاب وليست الجرائم التى ارتكبوها فعلا والتى قد يكون من بينها الزنى .

ونرى الأخذ بمذهب امام مالك الذى يعتبر كل من يخرج على النظام العام لارتكاب الجرائم محاربا لله ورسوله مادامت عنده قدرة على الارهاب والتخويف أيا كان نوع هذه القدرة وأيا كانت الجرائم المرتكبة فلا يقتصر الأمر على جريمة دون جريمة حيث لم يذكر فى النص القرآنى جريمتى القتل والسرقة بالنص .

وقد اختلف الفقهاء كذلك فى تعريف عقوبة النفى من الأرض فذهب البعض الى أن النفى هو الابعاد من البلاد الاسلامية حتى يلتحقوا بدار الحرب .

وذهب مالك والشافعية والحنابلة الى أن النفى يتم بابعاده عن البلد الذى ارتكب فيه الجريمة وحبسه فى المكان الذى أبعد اليه . أما أبو حنيفة فقد ذهب الى أن النفى يتم بالحبس ولو فى البلد الذى ارتكب حوله جرائمه . ونرى الأخذ برأى الامام مالك حيث ان فى الاخذ به ابعاد للمحارب عن أعوانه فى بلدة وتحقيق للطمأنينة للمجنى عليهم بمعرفتهم بابعاد الجانى من بلدهم .

وتبعا لمذهب الامام مالك فالى جانب العقاب بحد الحرابة يعاقب المحاربون بالحدود المقررة لكل جريمة ارتكبوها على حدة وذلك لأن جريمة الحرابة جريمة مستقلة عن هذه الجرائم وهو ما نرى الأخذ به .

وقد استثنى النص القرآنى من اقامة الحد بالعقوبات المنصوص عليها فيه من يتوبون قبل القبض عليهم وذلك لقوله تعالى « الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ــ المائدة ٣٤ .

ويشترط فى التوبة المسقطة لاقامة حد الحرابة أن تتم قبل ارتكاب أية جريمة غير جريمة الحرابة فلم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يزنوا بل عادوا الى رشدهم وألقوا بسلاحهم ونقضوا اتفاقهم قبل أن يتغلب ولى الامر عليهم .

ثالثا : حد الردة

حد الردة ثبت بالكتاب والسنة . فالقرآن الكريم أثبت الجريمة لقوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ــ البقرة ٢١٧ .

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة أى أكلت من مرعى خبيث فانتفخت ثم ماتت (نفقت) .

وأثبتت السنة عقوبة هذه الجريمة وهى القتل ، لقوله صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه » وقوله « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفى رواية أخرى « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس بغير نفس » ــ كذلك قاتل أبو بكر الصديق المرتدين وقتل منهم من قتل وعاونه فى القتال كل الصحابة فكان ذلك اجماعا منهم على قتل المرتد .

والمرتد هو المسلم الذى يخرج من دين الاسلام سواء دخل فى دين سماوى آخر كاليهودية أو النصرانية أو دخل فى دين غير سماوى كالبوذية مثلا أو لم يدخل فى أى دين على

الاطلاق واكتفى بخروجه من دين الاسلام فجريمة الردة تتوافر بمجرد الخروج عن الاسلام .

وحتى يحكم بالردة فلابد من مظاهر تدل على ذلك ولابد أن تكون هذه المظاهر قاطعة فى خروج المرتد من الاسلام لأن عقوبة الردة شديدة وقاسية ولا يمكن تداركها بعد تنفيذها .

ولذلك اتفق العلماء على أنه لا يعتبر المسلم مرتدا اذا فعل فعلا أو قال قولا يحتمل الكفر ويحتمل غيره وروى عن الامام على ــ كرم الله وجهه ــ أنه قال « اذا قال كلمة تحتمل الكفر من مائة وجه وتحتمل الايمان من وجه فانه لا يحكم بالكفر » .

وقد عدد العلماء من الأعمال والاقوال التى تدل على الكفر ما يلى :

١ ــ سب النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ ــ انكار المحرمات الثابتة بدليل قطعى لا شبهة فيه كمن ينكر تحريم الخنزير أو تحريم الربا أو تحريم الزنى ــ وهناك فرق بين انكار تحريم هذه المحرمات واتيانها . فانه اذا أنكر التحريم اعتبر مرتدا وكافرا أما ان سلم بالتحريم ولكن أتاها فانه يكون مسلما عاصيا فقط .

٣ ــ انكار العبادات الأربع وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج أو أية عبادة منها أو انكار ما هو معروف منها بالضرورة كانكار أن الصلوات خمس أو انكار عدد ركعات الصلاة .

٤ ــ انكار أمر من أمور العقيدة الاسلامية متى كان ثابتا بدليل قطعى لا شبهة فيه كانكار أن القرآن الكريم من عند الله أو الاشراك بالله تعالى أو انكار ربوبيته ووحدانيته أو صفة من صفاته .

وقد اختلف الفقهاء فى أمر من يترك الصلاة تركا تاما فذهب الامام أحمد رضى الله عنه الى أنه يعتبر مرتدا سواء كان منكرا أو جاحدا لها أو غير منكر لفرضها لأن الصلاة

عماد الدين وتركه لها دليل على الاستهانة بأحكامه وذلك يعتبر بابا من أبواب الجحود والانكار .

أما باقى الأئمة فلم يأخذوا بهذا الرأى الذى انفرد به الامام أحمد واشترطوا أن يكون تارك الصلاة فى هذه الحالة منكرا لها جاحدا لفرضها فلا يكفى مجرد الترك التام تكاسلا للحكم بالردة والكفر .

ويشترط فى المرتد ليقام عليه حد الردة أن يكون بالغاوعاقلا فلا يكفى أن يكون صبيا مميزا وان كان الصبى المميز يقبل اسلامه الا أنه لا يحسب عليه كفره بعد ذلك مادام لم يصل الى سن البلوغ .

وقد اختلف الفقهاء أيضا فى عقوبة المرأة المرتدة بينما أجمعوا على وجوب قتل الرجل المرتد . فذهب الامام أبو حنيفة وأصحابه الى أن المرأة المرتدة لا تقتل وانما تحمل على التوبة وان اقتضى الامر اكراهها بالحبس حتى تتوب واستندوا فى ذلك الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل المرأة فى الحرب فاذا كانت لا تقتل وهى كافرة أصلا عندما تخرج فى الحرب ضد المسلمين فأولى ألا تقتل اذا ارتدت بعد اسلامها خاصة وأن المرأة لا حول لها ولا قوة وأنه يمكن دفع ضررها بحبسها .

وخالف الامام أبو حنيفة باقى الأئمة مالك والشافعى وأحمد فقالوا يقتل المرتد سواء كان رجلا أو امرأة وروى ذلك عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما وحجتهم فى ذلك أن المرأة مكلفة وتدخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه » كما أنها داخلة فى عموم الحديث المتفق عليه من أن التارك لدينه يقتل وأنه لا يصح الاحتجاج بعدم اباحة قتلها فى الحرب لأن قتال النساء لم يكن معتادا عند العرب والاسلام لا يبيح القتل فى الميدان الا فى أضيق الحدود وليست المرأة هى المستثناة فقط من القتل فى الميدان وانما يستثنى أيضا الشيوخ والعمال الذين لا يقاتلون ومع ذلك فاذا ارتد أحد هؤلاء بعد اسلامه فانه يقام عليه حد الردة ويقتل . ونرى أن هذا الرأى هو الأرجح وأن ردة

المرأة كردة الرجل سواء بسواء فكلاهما عبث بأحكام الدين وكلاهما له نفس الأثر من الفساد •

وقد اختلف الفقهاء أيضا فى وقت تنفيذ العقوبة •

فذهب البعض الى أنه متى ثبتت الردة وجب القتل على المرتد حتى أنه لو قتله شخص قبل اقامة الحد عليه لا يقتل به لأنه بالردة أصبح دمه غير معصوم اذ الردة جعلت دمه حلالا •

وذهب الامام مالك والأمام أبو حنيفة الى أنه لا يقام عليه الحد ولا يقتل الا بعد أن تعرض عليه التوبة واختلفوا فى المهلة التى تمنح له فى هذه الحالة فحددها مالك وأبو حنيفة بثلاث ليال وذهب الزهرى الى أن المرتد يدعى للتوبة ثلاث مرات من غير التزام أن تكون فى ثلاثة أيام وذهب ابراهيم النخعى الى أن التوبة لا تحدد بمرة أو ثلاث مرات ولا بيوم أو ثلاثة وانما يجب تكرار التوبة حتى اذا ما كان اليأس من الاستجابة لها فحينئذ يجب اقامة الحد بالقتل •

والذى نراه هو الأخذ بما روى عن عمر رضى الله عنه من أنه قال ان تاب ففى الحال والا قتل •

كذلك اختلف الفقهاء فى تكرار الردة وتكرار التوبة فذهب الامام مالك الى أنه لا يستتاب من تكررت ردته لأنه بذلك يكون قد اتخذ دين الله هزوا وأثبت أن توبته الأولى كانت عن نفاق ولم تكن عن صلاح وايمان •

أما الامام الشافعى فيرى أن المرتد يستتاب دائما لأن الأمر بالاستتابة عام فى كل الاحوال لا فرق بين مرتد عائد ومرتد مبتدىء وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أمر المنافقين ولكنه لم يقتلهم وهذا هو الرأى الراجح •

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن جرائم الحدود ونبدأ الكلام عن جرائم القصاص وجرائم التعزير فى أعداد قادمة ان شاء الله •

حسن حسب الله

شوقي ديوان العربية

للدكتور سعد ظلام

أحمد شوقى فخر مصر والشرق(١) ، أمير الشعراء ، وديوان العربية ، وسفرها الخالد ، وحادى العروبة فى مواكبها الزاحفة الى الحرية والاستقلال

ولد شوقى فى السادس عشر من اكتوبر سنة ١٨٧٠ على أرجح الآراء ، وتوفى فى الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٢ فيكون قد عاش اثنين وستين عاما الا يومين اثنين (٢) .

كان شوقى موهبة فذة ، تربى فى قصر الخديوى ، وتعلم بالمدارس المصرية ، أحب الأدب وأقبل عليه وقرأ فيه بشغف ، وتأثر بالبارودى الذى كان يهز الدنيا من حوله هزا عنيفا ، ثم أرسل فى بعثة الى « باريس » لدراسة الحقوق فنهل من الثقافة الغربية المتنوعة ما شاء له أن ينهل. ولما عاد التحق بوظيفة فى القصر .

قال الشعر فى بواكير حياته ، ولكن احسان الخديوى اليه قيده بقيود حريرية ، ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا كما يقولون ، فكان شاعر الامير وشاعر القصر ، وكان يقول :

« أنا فيه القريض والشعراء» (٣)

(١) الدكتور زكى مبارك زهر الاداب مقدمة الجزء الاول ، مطبعة السعادة سنة ١٩٥٣ القاهرة ص ٨ (٢) احمد شوقى شاعر الوطنية للاستاذ احمد زكى عبد الحليم طبعة اولى سنة ١٩٥٨ المطبعة التجارية ببيروت ص ٨ (٣) من قصيدة شوقى « همت الفلك واحتواها الماء » .

وقدحدث أن الخديوى أراد فى مغامرة أن يجمع القوى الوطنية من حوله ليرهب الانجليز ، ولكن خاب أمله فتهاوى عن العرش ، وعزل ، ولكون شوقى يحارب الانجليز سرا قرروا نفيه الى « الاندلس » اسبانيا فى اغسطس سنة ١٩١٥ وعاد فى فبراير سنة ١٩٢٠ وهو شاعر الشعب بعد أن تخلص من قيود القصر •

حاكى شوقى الأقدمين فى مراحله الشعرية المبكرة ، فتفوق عليهم ، وامتاز بصوره الشعرية الأنيقة التى تحمل شفافية حسه الرهيف •

وقد عارض البوصيرى فى « نهج البردة » ووقف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم لينا جيه فيقول فى أدب وخشوع :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى
المادحون وأرباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحهم فيك حب خالص وهوى
وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد انى لا اعارضه
من ذا يعارض صوب العارض الغرم
وانما انا بعض الغابطين له
ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس
ترمى فصاحته سحبان بالبكم

وعارض أبا اسحاق الحصيرى فى قصيدته « يا ليل الصب متى غده » بقصيدته :

مضناك جفاه مرقده
وبكاه ورحم عوده

وعارض المتنبى فى قصيدته البائية التى مدح فيها كافورا الأخشيدى والتى مطلعها :

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب
واعجب من ذا البحر والبحر اعجب

وتمثل روح البارودى فى شعره •

ولكن محاكاته للأقدمين كانت تعنى أمرا واحدا هو لفت الأنظار اليه واظهار قدرته وتفوقه ، وكان يقصد الى معارضة القصائد المشهورة للشعراء الفحول •

ثم استقل فنيا بعد أن عطف الأذهان اليه بشخصيته المتميزة وقاموسه اللغوى • وقد قال شوقى فى مختلف الفنون والأغراض الشعرية •

ومن شعره فى الغزل قوله فى مشيبه :

لم تبق منى يا فؤاد بقية
لفتوة أو فضلة لعراك
كنا اذا صفقت نستبق الخطى
ونشد شد العصبة الفتاك
واليوم توقظ فى حين تهزنى
ما يوقظ الناقوس فى النساك

وقد كان دائم الترديد لهذه الأبيات • التى يحس فيها بأسفه على الشباب الضائع بعد أن أشرف على الستين •

وقوله من قصيدة « لبنان » :

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل
فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضبانا وأعرض نافرا
حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى الى اترابه
وزعمتهن لبانتى فأغرته
فمشى الى .. وليس أول جؤذر
وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادنى
واتيت من سحر البيان فصدته

وان كان غزله فى أغلب الأحيان مصنوعا ، لا يمثل عاطفة مشتعلة بقدر ما يمثل غنائية جميلة •

وقال فى الوصف :

وشعره الوصفى يمتاز بصوره الجميلة التى يؤلفها خياله الرشيق، فتجىء مليئة بالظلال والأضواء والألوان ، فيها حيوية الحركة ، ونبض الحياة ، يقول فى « زحلة»

وربوة الواد قى جلباب راقصة
الساق كاسية والنحر عريان
واقبلت بالنبات الارض مختلفا
افوافه فهو اصباغ والوان
والطير تصدح من خلف العيون بها
وللعيون كما للطير الحان
وقد صفى « بردى » للريح فابتردت
لدى ستور حواشيهن افنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال .. ولا
جفت من الماء اذيال واردان
خلفت « لبنان » جنات النعيم .. وما
نبئت أن طريق الخلد « لبنان »

ومن أروع قصائده الواصفة ، قصيدة « النيل » :

وقد اخترع ميدانا فى الوصف لم يسبق اليه ، وهو وصف الحضارة الانسانية فكتب فيها قصائده « توت عنخ آمون » و « أبو الهول » و « أنس الوجود » و «فى سفح الهرم » و « الى النيل » •

ومن أروع قصائد الشعر العربى فى الحضارة الانسانية « السينية» التى عارض فيها «سينية البحترى» فى وصف « ايوان كسرى » فقد زار شوقى وهو فى « الأندلس » آثار الاسلام فى أشبيلية » و « غرناطة » و « قرطبة » و « طليطلة » ووصف ثراءها الحضارى والانسانى وجمالها وروعتها من خلال نظرة حزينة وشعور ذاتى أسيف ، وصور فيها غربته وحنينه الى الوطن •

يقول شوقى فى وصف جامع قرطبة :

وكان الآيات فى جانبيه
يتنزلن من معارج قدس
منبر تحت « منذر » من جلال
لم يزل يكتسيه أو تحت « قس »
ومكان الكتاب يغريك ريا
ورده غائبا .. فتدنو للمس

وقال فى الدين :

وقصائده فى هذا الجانب تمتاز بصدق الاحساس وصدق التعبير ، فعاطفته الدينية قوية صادقة ، وهو فى هذه القصائد يدافع عن الدين دفاعا حارا ويتخذ من موهبته فى المحاماة وسيلة للدفاع عن الاسلام ، فهو يرد على من قال ان الاسلام انتشر بالسيف :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل .. وتضليل احلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما اتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم (١)
والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا .. وان تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب .. من شهوات الظالم الغلم (٢)

وقال فى الحنين الى الوطن :

واحساسه الوطنى صادق قوى ، ولذلك كان شعره الوطنى صادقا مؤثرا .

يقول من سينيته :

يا ابنة اليم ما ابوك بخيل
ما له مولعا بمنع وحبس
احرام على بلابله الدو
ح .. حلال للطير من كل جنس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل
ظمأ للسواد من « عين شمس »
شهد الله لم يغب عن جفونى
لحظة ساعة ولم يخب حسى

وقال فى الفخر مخاطبا الخديوى :

كرهت الذى قى راحتيك وشاقنى
جوائز عند الله مبتغيات
ومن يك مثلى « أحمد الوقت » لم تجز
عليه ولو من مثلك الصدقات
ولى درر الاخلاق فى المدح والهوى
« وللمتنبى » درة .. وحصاة

وقال فى الوطنية :

وشعره الوطنى هتاف البعث واليقظة ، وقيثارة الكفاح والنضال يقول فى حب مصر :

احبك مصر من اعماق قلبى
وحبك فى صميم القلب نام
سيجمعنى بك التاريخ يوما
اذا ظهر الكرام على اللئام
لاجلك رحت بالدنيا شقيا
اصد الوجه والدنيا امامى
وانظر جنة فارى ذئابا
فيصرفنى الاباء عن الزحام
وهبتك غير هياب يراعا
اشد على العدو من الحسام

(١) العمم اسم جمع للعامة (٢) الغلم الهائج الثائر .

ويقول مخاطبا اللورد كرومر :

فرعون قبلك كان أعظم سطوة
واعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة
كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه
مصرا .. فكانت كالسلال دخولا (١)
هدمت معالمها وهدت ركنها
واضاعت استقلالها المأمولا

هاجم شوقى الاحتلال والمعتمد البريطانى وأعوان الاحتلال • يقول مهاجما « رياض باشا » الذى ردد أقوال كرومر فى أن الاحتلال نعمة على مصر والمصريين •

غمرت القوم اطراء وحمدا
وهم غمروك بالنعم الجساما
راوا بالامس انفك بالثريا
فكيف اليوم اصبح فى الرغام
لهجت بالاحتلال .. وما أتاه
وجرحك منه ـ لو احسست ـ دام

ويخاطب « دنشواى » فى ذكراها الأولى للحادثة المشئومة :

كيف الارامل فيك بعد رجالها
وباى حال اصبح الايتام
عشرون بيتا اقفرت .. وانتابها
بعد البشاشة وحشة وظلام
« نيرون » لو ادركت عهد « كرومر »
لعرفت كيف تنفذ الاحكام

وحمل على « فتحى زغلول » أحد أعضاء المحاكمة ، ولم تمنعه مكانته الأدبية والعلمية ولا مكانته من سعد زغلول أن يكتب اليه بمناسبة ترقيته وكيلا للحقانية يقول :

اذا ما جمعتم أمركم وهممتم
بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين

ويسمع بأنباء ثورة سنة ١٩١٩ وهو فى المنفى ، فيثب فرحا ، ويباركها بقصيدة من أجل عيون الشعر العربى كله يقول :

يوم البطولة لو شهدت نهاره
لنظمت للاجيال ما لم ينظم
لولا عوادى النفى أو عقباته
والنفى حال من عذاب جهنم
لجمعت الوان الحوادث صورة
مثلت فيها صورة المستسلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه
وحكيته متغيظا لم يكظم

وعاد شوقى من المنفى فى فبراير سنة ١٩٢٠ ليعطى روحه وكيانه كله للوطن ، عاد وهو شاعر الشعب يشاركه فى كل معاركه الاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، فهتف للدستور ، ولدار النيابة والبرلمان ، ونظم لمشروع ملنر ، وذكرى ١٢ فبراير ، ومناصرة الوفد ، وتمثال نهضة مصر ، واشترك فى توجيه الحركة الوطنية كلها بقصائده الفصاح ، ورثى زعماءها : مصطفى

(١) السلال مرض السل .

كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول • ومجّد دورهم البطولى العظيم ، وقال فى نهضة الأزهر قصيدة جميلة وفى المسل •

يقول فى الدستور :

الامر شورى لا يعيث مسلط
فيه .. ولا يطغى به جبار
عهد من الشورى الظليلة نضرت
آصاله واخضلت الاسحار
فجنى البلاد به ثمار جهودها
ولكل جهد فى الحياة ثمار

ويقول فى مجلس النواب :

بنيان اقوام مشوا بسلاحهم
وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المخضب حائط
ومن المشانق والسجون جدار

وفى الجانب القومى شارك شوقى العروبة كلها يقظتها وتطلعها الى الحرية ، وهتف معها بكل جوارحه • قال فى السودان وسورية ، وعمر المختار قائد الكفاح الليبى الذى صلبه الاستعمار الايطالى •

يقول للسودان :

ولن نرتضى أن تقد القناة
ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح
وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها
عيون الرياض وخلجانها
تتمم مصر ينابيعه
كما تتم العين انسانها

وقد ابتكر شوقى فنونا شعرية لا عهد للعربية بها •

فقد حاكى « لافونتين » فأجرى الشعر على لسان الحيوان ، وقدم لنا المسرحية الشعرية بتقاليدها ومقوماتها الفنية فى شعر نظيم ، وقد كانت قبله تتعثر فى ذيول العامية والزجل والشعر ، ففتح بذلك صفحة جديدة للشعر العربى ، وقدم سفرا جديدا فى ديوان العربية الخالد •

وقدم المنظومة التاريخية الطويلة فى قصيدته :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

والتى مثل بها مصر فى المؤتمر الشرقى فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ • ويذهب البعض الى تسميتها بالملحمة لطولها •

وكتب للأطفال شعرا كثيرا ومن ذلك قصائده التى كتبها الى ابنته أمينة •

لقد خدم شوقى بشعره الأدب والتاريخ والوطن والعروبة والاسلام ، وأهدى الى اللغة العربية والى المسرح العربى روايات كان

فيها المبتكر الأول لهذا النوع فى الشرق ، وبرهن بمجهوده على أن اللغة العربية ـ كما عرفت فى مختلف العصور ـ لغةالعلم والأدب والفلسفة والفن الرفيع ولغة التمدن ولغة الحضارة على مدى الأجيال .

وقد بايعه شعراء العربية بامارة الشعر فى مؤتمر عقد فى ٢٩ ابريل سنة١٩٢٧ ، وتوجوه أميرا للشعراء، ووقف حافظ ابراهيم صديقه ومنافسه الأول يقول فى هذا الحفل :

امير القوافى قد أتيت مبايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ووقف محمد توفيق دياب لينشد قصيدة شوقى التى يشكر فيها للشعراء وفاءهم وحبهم له .

يقول فى تواضع عظيم :

شرفت مصر بالشموس من الشر
ق نجوم البيان من أعيانه
لست انسى يدا لاخوان صدق
منحونى جزاء ما لم اعانه
رب سامى البيان نبه شانى
انا اسمو الى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين اولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

وفى ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ مات حافظ ابراهيم فرثاه شوقى بقوله :

قد كنت اوثر ان تقول رثائى
يا منصف الموتى من الاحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة
قدر .. وكل منية بقضاء

وبعد أن فرغ شوقى من القاء قصيدته تمثل بقول جرير فى رثاء الفرزدق ، فقال :

« والله ان بقائى بعده لقليل » .

وفى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ صمت هذا الكمان الساحر صمتته الأبدية ، وهدأ القيثار هدأة الموت واستسلم وأسلم روحه الى السماء.

د. سعد ظلام

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ـ كتاب الهلال ص ٤٦ .

الحـــرب فى الإســـلام

عقيد شرطة / عبد الحكيم عباس خالد

تمهيـد :

نحاول فى هذا المقال أن نعرض لفكرة الحرب عبر مراحل التاريخ المختلفة ، مع التركيز على مفهـوم شريعة الاسلام الحنيف للحرب ، ونرجـو أن يكون فى هذا المقـال الرد على بعض افتراءات مـؤرخى الغرب على دين الاســلام ، ولعله أيضا أن يكون من المناسب تناول هذا الموضوع فى هذه الفترة التى يركز فيها السيـدالرئيس المؤمـن محمد أنور السادات ، كل جهوده لانهاء حالة الحرب فى منطقةالشرق الأوسط واحـــلال الســلام فى ربوعها ــ ولا نشـك أن الـدافع الأول وراء ذلـك ، هـو تشـبع سيادته بروح الاسلام ، دين السلام والحب والوئام .

نبذة تاريخية عن ظاهرة الحرب :

الحرب ظاهـرة بشرية عرفهـا الانسان منذ نشأة الحياة ، وتاريخ البشرية حافل بالصراعات والحروب لأسباب مختلفة : اجتماعيـــة أو اقتصادية أو قـومية أو نفسية أو عقائدية أو سياسية ، حتى أصبحت الحرب صفـة لازمـــة للتاريخ الانسانى .

وتركت أهوال الحـروب عبـر التاريخ آثارها واضحة جلية ، نئن من ضراوتها حقب ذلك التاريخ ، وتتلطخ صفحاته بدماء الضحـــايا الأبرياء .

كما اكتسبت الحرب زيادة فى الأهمية ، مـع ظهـــور الجماعات السياسيةوتباين اتجاهاتها ومآربها ، وتعارض مصالحها ، وكثرة وقوع التصادم بينها ، فكانت الحـرب وسيلة لقهر الارادة المعادية ، وكبح جماح القوى المضادة ، وبغية النصر

على الخصوم ـ ذلك النصر الذى تعصف نشوته بالعقول ، فيتغنى به الشعراء الأقدمون فى مختلف الأمم .

ولا يمكن حصر الدوافع على الحروب ، فهى متعددة ومتنوعة ومتجددة ومعقدة ، فدوافع السيطرة والانتقام والاستحواذ والطموح والتوسع ، أكثر أهمية فى بعض الأحيان من دافع الطعام .

ودوافع الحرب تتعدد أو تتعقد بازدياد العلوم ونموها ، وبتقدم التكنولوجيا وازدياد فاعليتها . وبميل أداة الحكم الى التركيز . وبازدياد قوة الدول وتعدد حاجياتها (١) .

وقبل ظهور الأديان السماوية اتسمت الحروب والصراعات بالوحشية وجنون الرغبة فى سفك الدماء والتخريب والدمار ، وقد صدم ذلك مشاعر الفلاسفة والحكماء ، فانصرف تفكيرهم الى دراسة مشروعية الحرب ، وبحث كيفية حصرها فى أضيق الحدود .

وقد ذهب فريق من المفكرين فى العصور القديمة الى اعتبار الحرب وظيفة دائمة من وظائف الحياة الانسانية ، بل ادعى بعضهم ان الحرب ضرورية ونافعة أيضا كما ذهب فريق ثالث أبعد من ذلك ، فاعتبر الحرب نظاما الهيا ، اذ هى تجربة سامية تمر بها مختلف الامم والشعوب .

وقد ولد تعاقب الحروب وآثارها الحزينة فى النفوس الخيرة مشاعر الحنين الى استتباب السلم ، وقد ناهض الحرب ، ونادى بنبذها كثير من الفلاسفة مثل : « أورليوس وبلاطو وشيشرون» وطالبوا بضرورة استقرار السلام بين الشعوب ، ولكن دعوة أولئك الفلاسفة كانت على أسس انسانية وأدبية فقط . ومع نزول الأديان السماوية ، تهيأ للبشرية وجود النواة الأولى لقانون الحرب ـ ففى ظل هذه الأديان ـ رغم اختلاف نظرتها للحرب ، نمت الجذور الأولى لقانون الحرب وازدهرت ، كماشيد الفقه الاسلامى

(١) الأستاذ الدكتور / حامد سلطان ـ أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية نمرة ٩٧٤ دار النهضة العربية ص ٢٤٦

نظرية كاملة فى قانون الحرب . ومن أبرز فقهاء الاسلام الحنيف فى هذا المضمار محمد بن الحسن الشيبانى المؤسس الأول لقانون الحرب .

احكام الحرب فى الشريعة الاسلامية :

نظمت الشريعة الاسلامية موضوع الحرب على أسس لم يتوصل اليها القانون الدولى الانسانى حتى الآن . فالاسلام لم يجز الحرب الا لأسباب محددة هى :

١ ــ رد العدوان والدفاع عن النفس والوطن والمال .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

٢ ــ الدفاع عن الدعوة الاسلامية وتأمين حرية الدين والاعتقاد .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

٣ ــ تأديب ناكثى العهد .

« وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » .

٤ ــ درء الفتنة التى يحاول أعداء الدين اشعالها بين صفوف المسلمين :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا ، فلا عدوان الا على الظالمين » .

كما نظمت شريعة الاسلام أيضا أسلوب اعلان الحرب ، فلا يجوز لقائد الجيش أن يبدأ قتال العدو قبل ابلاغه .

« واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا » .

والحرب أمر مكروه فى الاسلام ، ولا يجوز أن يبادر المسلمون أعداءهم حتى يدعوهم الى ثلاث :

أولا : اما العهد ، يعاهدونهم عليه ــ على أن يكون سلمهم سلم المسلمين .

ثانيا : واما الاسلام يرتضونه دينا ، فيكونون معهم .

ثالثا : واما الحرب .

وواضح عدم وجود أى اكراه فى نشر الدعوة الاسلامية ، كما ذهب أعداء الاسلام ، فالتخيير بين أمور ثلاثة لا يعد اكراها ـ وقال الله عز وجل : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . فاذا ما انتهى الأمر الى وجوب الحرب، فان الاسلام يورد بشأنها أربعة قيود هى :

١ ـ ألا يقاتل غير المقاتل ، ويحرم قتال غير المشتركين فعلا فيه .

٢ ـ تحريم اتلاف الأموال ، الا اذا كان لها تأثير مباشر فى الحرب .

٣ ـ وجوب احترام المبادىء الانسانية والفضائل أثناء الحرب .

٤ ـ اجابة طلب الأمان فى ميدان القتال .

وبالنسبة لمعاملة العدو ، فقد حرمت الشريعة الاسلامية :

١ ـ الاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال والرهبان .

٢ ـ النهب والسلب ، الذى كان سائدا فى الحروب الجاهلية .

٣ ـ التمثيل بالقتلى ، والاحراق بالنار .

٤ ـ نقض العهود والمواثيق .

ونظمت الشريعة الغراء ، كيفية معاملة العدو المهزوم وأسراه ، فأوجبت على المسلمين عدم التفاخر بالنصر ، والزهو به وذلك حفاظا على مشاعر جند الأعداء ، وكسبا لقلوبهم ، لما يلمسون من حسن معاملة المسلمين لهم. وواضح مافى ذلك من نبل وشهامة . وبالنسبة لمعاملة الأسرى فقد بين القرآن الكريم حكم الأسرى ، فقال تعالى :

« حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

اثر مبادىء الاسلام فى القوانين الدولية :

لقد ساهمت المبادىء الاسلامية على مر الزمان فى تدوين أحكام قانون الحرب فى نطاق القانون

الدولى فى بعض المعاهدات العامة، لعل أهمها ما يأتى :

١ ــ اتفاقية باريس المنعقدة فى ١٦ ابريل سنة ١٩٥٦ التىوضعت قواعد معاملة المحاربين فى الحروب البحرية •

٢ ــ اتفاقية جنيف المنعقدة فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٦٤ فى تحسين حال الذين يجرحون فى ميـــدان القتال ، وقد أعقبتها اتفاقية أخرى فى ٦ يوليو سنة ١٩

٣ ــ اتفاقية أحـكام الحـرب البرية التى انعقدت فى جنيفسنة ١٨٩٩ •

٤ ــ اتفاقية لاهاى ــ التى تحرم استعمال الطلقات المعروفة باسـم « دم دم » وتحرم استعمال الغازات السامة ، واتفاقيـة لاهاى سـنة ١٩٠٧ الخاصة بتحـديد المركز القانونى للسفن التجارية عنـد اعلان الحرب ، واتفاقية لاهاىسنة ١٩٠٧ الخاصـة بتحويل السـفن التجارية الى سـفن حربية ، وتلك الخاصة بوضع الالغام البحرية • وقد بلغ عدد اتفاقيات لاهاى فى خصوص الحرب ، والتى انعقـدت كلها سنة ١٩٠٧ • حـوالى ١٥ اتفاقية (١) •

وقد ظل التنظيم الدولى للحرب، منطلقا من مبدأحق الدولة المطلق فى شن الحرب ، على أسـاس سيادة الدولة ، والمساواة الكاملة بين الدول وأعضاء الجماعة الدولية، وترتب على ذلك النظر للحـرب بوصفها مؤدية لوظيفة حيويـة فى مجـال العـلاقات الدوليـة هى حسم الخلافات التى تنشـأ بيـن الدول ، وكان ينظر الى هذا الحق من حقوق الدولة بوصفه حقـا مطلقا ولصيقا الى أبعد الحـدود بمبدأ السيادة (٢) • ولكن عندما اكتوت البشرية بنـار الحـربين العالميتين الأولى والثانية ، وتبينت الأبعاد الرهيبـة لظاهـرة الحرب الشـاملة ، بدأ البحث الجـاد عن

(١) دكتور / حامد سلطان ــ المرجع السابق « ص ٢٥٢ : ص ٢٥٣ »

(٢) دكتور / صلاح الدين عامر ــ مقدمة لدراسـة قانون النزاعات المسلحة ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ دار الفكر العربى ص ٦

الوسائل التى تكفل القضاء على الحق المطلق للدولة فى شن الحرب، وآخر هذه المحاولات ما تضمنه ميثاق الأمم المتحدة ، حيث نصت ديباجته على الرغبة الأكيدة فى القضاء على حق الدولة فى شن الحرب بقولها : « نحن شعوب الأمم المتحدة ، قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التى فى خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف » .

وبعد ...

فهل هناك شك الآن فى سماحة الاسلام ، وفى نبذه للعداوة والبغضاء والحرب ، وفى دعوته الحثيثة لنشر السلام على هذا الكوكب الأرضى .

وقد قال الله تعالى : موجها الخطاب لرسوله الكريم : « وان جنحوا للسلم ، فاجنح لها وتوكل على الله » . صدق الله العظيم .

عبد الحكيم عباس خالد

من تعاليم أستاذ الحياة
عليه السلام

- الكلمة الطيبة صدقة .
- ما عال من أقتصد .
- اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة .
- احترسوا من الناس بسوء الظن .
- ليس الغنى عن كثرة العرض، وانما الغنى غنى النفس .

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٤٦٧ ويصفون من كان كثير الشعر طويله ، بأنه مشعر على صيغة اسم الفاعل ، وهذا خطأ ، لأن المشعر حقا هو الجنين الذى نبت على جسده الشعر .

تقول : أشعر الجنين فهو مشعر ، وفى الحديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه اذا أشعر »

وتقول أيضا : شعَّر الجنين تشعيرا فهو مُشَعِّرٌ وزان مُنَجِّم ، استشعر تشعرا فهو مُسْتَشْعِرٌ وتشعر شعرا فهو متشعر وزان متكلم . كل أولئك بمعنى واحد .

ولتأدية الوصف الذى يريدونه ينبغى أن يقال : رجل أشعر ، ولذا لقب نبت ابن أُوَرَ بأنه أشعر ، لأنه ولد وعليه شعر ، وهو أبو قبيلة باليمن منهم أبو موسى الأشعرى ، ويقولون : جاءتك الأشعرون بحذف ياء النسب

أو يقال : رجل شَعِرٌ وزان طرب ، أو رجل شعرانى بياء النسب .

ويقال : أشعر الرجل خفه اذا بطنه بشعر آشعر . بالتضعيف ، . شَعَرَهُ بالتخفيف فهو خف مُسْتَشْعَرٌ ومُشَعَّر ، ومشعور بصيغ اسم المفعول .

والشعر بفتح الشين وسكون العين ويحرك هو نبتة الجسم مما ليس بصوف ولا وبر جمعه أشعار ، وشعور ، وشعار بكسر الشين ، الواحدة شعرة .

والشعار بالكسرهو العلامة في الحرب ، وكذا هوماتحت الدثار من الثياب وهو يلى شعر الجسد ويفتح ، جمعه أشعرة ، وشعر كشراع ، وأشرعة ، وشرع •

ويقال : أشعر القوم اذا نادوا بشعارهم ، أو جعلوا لأنفسهم شعارا •

والشعيرة البدنة المهداة ، جمعها شعائر كما فى قوله تعالى : «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير» وشعائر الحج مناسكه وعلاماته كما فى قولهسبحانه « ان الصفا والمروة من شعائر الله » •

والمشعر الحرام وتكسر ميمه جبل بآخر مزدلفة ، قال تعالى : « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام »•

والمشاعر الحراس ، ومنها يقال : ما يشعركم أى ما يدريكم ، وفى التنزيل : « ما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » •

وتقول : استشعرت البقرة اذا صوتت الى ولدها تطلب الشعوربحاله ، قال الجعدى :

فاستشعرت وأبىأن يستجيب لها
فأيقنت أنه قد مات أو أكلا

٤٦٨ وهم يخطئون حين يجمعون المصير على مصائر بالهمز ، والصواب أن يقال فى جمعه مصاير بالياء ،

مصايرهم ، كما فى قول مضرس بن ربعى •

تقول : خرج القوم الى مضرس السابق •

ومالوحش هاجتنى ولكن ظعائن
دعاهن رواد الكلا ومصايره

وللمصير معنيان : أحدهما المرجع كما فى قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه والىالله المصير » وقوله : « قل تمتعوا فان مصيركم الى النار » والآخر الموضع تصير اليه المياه كما فى قول

٤٦٩ وينكرون أن توصف المرأة بأنها مفضالة كما يوصف الرجل ، محتجين بقول ابن مالك :

ولا تلى فارقة فعولا
أصلا ولا المفعال والمفعيلا

أى أن التاء الفارقة بين الذكر والمؤنث لا تلى ما كان على وزن فعول ، وقيده الناظم بالأصل يريد به اسم الفاعل فانه أصل لاسم المفعول ، تقول هذه امرأة صبور وشكور ، وخجول ، ولا يجوز أن يقال صبورة ، ولا شكورة ، ولا خجولة .

وكذلك ما كان على وزن مفعال ، تقول : امرأة معطاء ، ومزواج ولا يجوز أن تلحقها التاء ، بيد أن بعض هذه الأوزان لحقته التاء شذوذا ولذلك قال ابن مالك :

وما تليه تالفرق
من ذى فشذوذ فيه
فكلمة مفضالة عربية سليمة بدليل ما ورد فى مراجع اللغة .

ففى المختار : امرأة مفضالة على قومها اذا كانت ذات فضل سمحة ، وفى القاموس رجل مفضال على قومه اذا كان ذا فضل ، وهى بهاء .

والمتفضل من يدعى الفضل على أقرانه ومنه قوله تعالى : « يريد أن يتفضل عليكم » .

٤٧٠ ويقول الواحد منهم لصديقه : بين بلدنا وبلدكم بون عظيم، يعنى مسافة طويلة وبعدا عظيما ، وهو التعبير خطأ ، لأن البون بفتح الباء وسكون الواو لا صلة له بالبعد ولا بالمسافة ، وانما معناه الفضل والمزية ، وهو مصدر قولك بانه يبونه بونا اذا فضله ، وقولك : بينهما بون لا يقال الا عن اثنين من الأناس ، ومعناه بين درجتيهما فى الفضل ، أو بين اعتبارهما فى الشرف .

والصواب أن يقول القائل : بين بلدنا وبلدكم بين عظيم بالياء لا غير .

ولك أن تقول : بين بلدنا وبلدكم بين كبير بكسر الباء، والبين بهذا الضبط هو الأرض قدر مد البصر ، ويقال : ،عليك بذاك البين فانزله .

والانسان البين وزان هين هو الفصيح ذو البيان ، والجمع أبيناء ، وقول العرب : هذا الشيء بين بين معناه بين الجيد والردىء ، وهما اسمان جعلا واحدا وبنيا على الفتح كخمسة عشر .

٤٧١ ويقولون : تناولنا اليوم فى غدائنا فطيرا ، وأكل كل واحد منا فطيرة ، يعنون خبزا مخلوطا بالسمن ، والحق ان الفطير ضد الخمير وهو العجين الذى لم يختمر ، وكل شيء أعجلته عن ادراكه فهو فطير .

ولهذا يقال على سبيل المجاز : لا خير فى الرأى الفطير أى لا خير فى رأى لم يكن دقيقا ولا متسما بالحكمة والحذق ، ويقال أيضا : رأى الأحمق فطير ولبه مستطير .

أما الفطيرة فهى شاة تذبح فى يوم الفطر ، ومثلها الفطورة بضم الفاء .

٤٧٢ ولقد فشا على ألسنة كثير من الخاصة وأسلات أقلامهم قولهم : هؤلاء تعساء أى هلكى ساقطون ، وهذا خطأ ، لأن فعلاء بضم ففتح ممدود يطرد فى وصف مذكر عاقل بزنة فعيل بمعنى فاعل غير مضعف كحليم وحلماء ، وحكيم وحكماء وظريف وظرفاء .

وكلمة تعيس لم ترد فى اللغة ، لأن الفعل من التعس له بابان أحدهما باب نفع تقول تعس فلان يتعس تعسا

اذا أكب على وجهه فهو تاعس ، وعلى هذا فالجمع تاعسون .

والباب الآخر باب تعب ، تقول : تعس فلان تعسا فهو تعس وعلى هذا فالجمع تعسون .

وهذا الفعل يتعدى بالحركة وبالهمزة فيقال تعسه الله ، وأتعسه الله اتعاسا قال :

غداة هزمنا جمعهم متالع (١)
فآبوا باتعاس على شر طائر

ويقال فى الدعاء : أضرع (٢) الله خده ، وأتعس جده ، وهو متعوس منحوس ، ومن المجاز قولهم جد تاعس ناعس ، وقولهم تعسا لفلان أى هلاكا له وخسرانا .

قال تعالى : « والذين كفروا فتعسا لهم » أى فعثورا وانحطاطا لهم ، وانتصابه بفعله الواجب اضماره سماعا ، والجملة خبر الذين كفروا .

٤٧٣ هناك تركيب شاع فى الصحف ولاكته ألسنة كثير من المثقفين هو قولهم : فعلنا ذلك رغم فلان ، وهذا التعبير فاسد ، لأن الرغم معناه الكره والذل ، يقال رغم أنفى لله بكسر الغين رغما بالحركات الثلاث فى راء المصدر ، أى ذل وانقاد لأنه أمس به الرغام وهو التراب .

فعلى هذا يكون معنى التركيب الشائع فعلنا ذلك كره فلان وذله وهذا مما لا يسيغه عقل والصواب أن يقال : فعلنا ذلك على رغم فلان أو على رغم أنفه أى على كره منه وذل وذكر الأنف فى التركيب الأخير من الأمثال التى جرت فى كلام العرب بأسماء الأعضاء ولا يريدون أعيانها ، ومنها قولهم كلامه

(١) متالع بضم الميمم : جبل بالبادية فى سفحه ماء يقال له عين تتالع .
(٢) أضرع الله خده : أذله .

تحت قدمى ، وصاحبته خلف ظهرى يريدون الاهمال وعدم الاحتفال .

ويقال أيضا : فعلنا ذلك برغم فلان أو برغم أنفه أى تستعمل فى هذا التركيب اما على واما الباء كما فى قول عمر بن أبى ربيعة :

قال ساروا فأمعنوا واستقلوا
وبرغمى لو أستطيع سبيلا

وكما فى قول مطيع بن اياس وهو من شعراء الدولة الأموية :

وبرغمى أنأصبحت لاتراها ال
عين منى وأصبحتلا ترانى

وكما فى قول المتنبى

برغم شبيب فارق السيف كفه

وكانا على العلاتيصطحبان

ولنا أن نقول فعلنا هذا الشىء رغما أى كرها او كارهين كما فى قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها أى شئتما ذلك أو أبيتما .

٤٧٤ ويقولون : استقل القوم القطار يجعل القوم فاعلا والقطار مفعولا به ، يعنون أنهم ركبوه ، وهذا خطأ . لأن استقل معناه حمل ، ولا يقعل أن يحمل القوم القطار ، والصواب أن يقال : استقل القطار القوم بجعل القطار فاعلا والقوم مفعولا به أو يقال : أقلهم القطار ، أو قلهم القطار بالفعلين الرباعى والثلاثى .

والفعل استقل قد يكون متعديا كما فى قولك : أستقل فلان نصيبه اذا عده قليلا كتقاله ، وقولهم هو يستقل الكثير ويتقاله خلاف يستكثره ويتكاثره .

وقد يكون لازما وذلك اذا كان بمعنى الارتحال ، تقول : استقل القوم عن ديارهم اذا ارتحلوا عنها ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

قال ساروا فأمعنوا واستقلوا
وبرغمى لو أستطيع سبيلا

ويكون لازما أيضا اذا كان

بمعنى الارتفاع والانافة كما في قولك : استقل البناء اذا أناف فهو بناء مستقل منيف، واستقل الطائر في طيرانه ، واستقل عمود الفجر .

ومن هذا قول عمر بن أبي ربيعة :

ياطيب طعم ثناياها وريقها
اذا استقل عمود الصبح فاعتدلا

٤٧٥ ويقولون : نأكل في اليوم ثلاث وجبات : وجبة الصبح ، ووجبة الظهر ووجبة العشى وهذا فاسد ، لأن الوجبة هي الأكلة في اليوم والليلة ، أو أكلة في اليوم الى مثله من الغد .

تقول : وجب الرجل عياله وفرسه توجيبا اذا عودهم أكلة واحدة في اليوم والليلة ووجب ناقته توجيبا اذا لم يحلبها في اليوم والليلة الا مرة واحدة ، ومثل الوجبة في الوزن والمعنى كلمة الوزمة، ولتأدية المعنى الذي يريدونه ينبغي أن يقال : نأكل في اليوم والليلة ثلاث مرات أو ثلاث أكلات :

أولاها : الغداء بالفتح وهو طعام الغدوة ، جمعه أغدية ، تقول تغدى فلان اذا أكل أول النهار ويسميه الناس خطأ بالفطور ، والحق أن الفطور بفتح الفاء هو ما يفطر عليه الصائم عقب غروب الشمس ، ومثله في الوزن السحور وهو ما يتسحر به الصائم في وقت السحر .

وثانيتها : الكرزمة بفتحتين بينهما سكون وهي طعام نصف النهار ويسميها الناس خطأ بالغداء .

وثالثتها : العشاء بالفتح وهي طعام العشى وجمعه أعشية .

٤٧٦ حرم بعض الأدباء استعمال كلمة حوائج بمعنى حاجات ، والواقع أنها عربية سليمة . قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وقال : « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » . وقال أعشى قيس :

النـاس حـول فنائه
أهل الحوائج والمسائل

وقال الفرزدق :

ولى ببلاد السند عند أميرها
حوائج جمات «وعندى ثوابها

وقال أبو سعد بن هبة الله ابن الوزير :

فسيان بيت العنكبوت وجوسق
رفيع اذا لم تقض فيه الحوائج

وقال غير هؤلاء :

لتقم أنت يا ابن خير قريش
فلتقض حوائج المسلمينا

وقال ابن السكيت فى كتاب الألفاظ : ان حاجة تجمع على حاجات ، وحاج ، وحوج ، وحوائج .

وذهب قوم الى أن حوائج جمع لحو جاء كصحارى وصحراء . أى أن حوجاء جمعت على حواجى ثم قدمت الياء على الجيم وقلبت همزة فصارت حوائج ..

ومن الأدلة على أن حوجاء معناها حاجة قول الشاعر :

من كان فى نفسه حوجاء يطلبها
عندى فان له رهنا باصحار

وعن ابن عمر قال : « ان لله عبادا خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس اليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون يوم القيامة .

تنبيه : مثل حاجة وحاج : هامة وهام ، وراحة وراح بمعنى كف الانسان ، وعادة وعاد ، وغابة وغاب ، وساعة وساع ، ومن هذا قول القطامى :

وكنا كالحريق أصاب غابا
فيخبو ساعة ويشب ساعا

٤٧٧ ينكر المدرسون على طلابهم أن يستعملوا كلمة مطار اسم مكان اعتمادا منهم على القاعدة المعروفة التى تقول : يصاغ اسم المكان من الثلاثى على وزن مفعل بكسر العين

اذا كان صحيح الآخر مكسور العين فى المضارع ويلزمونهم أن يستبدلوا بها كلمة مطير لانها من طار يطير .

والحق أن كلا من اللفظين اسم مكان مساير للقاعدة ، فمطار اسم مكان من طار الطائر يطور طورا وطيرانا اذا حام حول الشيء ودار ، وفى حديث على « والله لا أطور به ما سمر سمير » أى لا أقربه أبدا .

وفى أساس البلاغة ، وأنا لا أطور بفلان أى لا أحوم حوله ولا أدنو منه ، ولا أطور طواره بفتح الطاء وكسرها من طوار الدار وهو ما يمتد معها من فنائها .

فالمطار اذن اسم للمكان المعروف الذى تجتمع فيه الطائرات تحوم حوله وتدور ومنه تطير واليه تعود . أما المطير فاسم مكان من طار الطائر يطير طيرانا وطيرورة اذا ارتفع فى الهواء وحرك جناحيه، وعلى هذا يكون الجو هو المطير لأنه مكان الطيران .

مما تقدم يتضح أن المطار لمعنى المكان المعروف أدق من المطير ، اذ يقال : انتظرنا العائدين من السفر فى المطار، ولا يقال فى المطير الا على سبيل المجاز .

٤٧٨ شاع على ألسنة كثير من المتعلمين وأسلات أقلامهم جمع الصفة التى على وزن فعلاء جمع مؤنث سالما ،فقالوا فى جمع شقراء ، وسوداء ، وبيضاء وزرقاء ، وصماء ، شقراوات ، وسوداوات ، وبيضاوات ، وزرقاوات ، وصماوات .

وهذا خطأ صراح ، لأن الصفة اذا كانت على وزن أفعل للمذكر وفعلاء للمؤنث جمعت لهما جمع تكسير فقط على وزن فعل بضم فسكون، فيقال : هم وهن شقر ، وسود ، وبيض ، وزرق ،

وضم ، قال ابن مالك فى ألفيته .

فعل لنحو أحمر وحمرا
فِعْلَة" (١) جمعا بنقل يدرى

ومما يؤيد هذا قوله تعالى فى محكم آياته : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . وقوله : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » وقوله : « صم بكم عمى » .

وقول شاعر الحماسة عمرو ابن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا

بيد أن كلمة خضراء هى التى انفردت من بين أخواتها بأن لها حالتين :

احداهما : أن تكون صفة فيقال فى جمعها خضر بضم فسكون ، ومن هذا قوله عز شأنه : « أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر » .

وقوله : « ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق»

والحالة الأخرى : ألا تكون صفة ، وانما هى اسم، وذلك فيما يأتى :

١ - أن تكون بمعنى السماء ، فيقال : ما تحت الخضراء أصدق

(١) فعلة بكسر الفاء وسكون العين لم يطرد فى شىء ، بل هو محفوظ فى ستة أبنية : فعيل : يقال صبى وصبية ، وفعل بفتحتين يقال : فتى وفتية ، وفعل بفتح فسكون يقال : شيخ وشيخة ، وفعال بالفتح يقال : غزال وغزالة ، وفعال بالضم يقال غلام وغلمة ، وينقل وزان الى : يقال : ثنى وثنية ، والثنى هو التالى فى السيادة كالوزير بالنسبة للسلطان ، وقد جمع ابن غازى رحمه الله ما يجمع على فعلة فعال :

فصبية وشيخة وفتية وغلمة وغزلة وثنية
خذها جموعا نسبت لفعله فاحفظ ولا تقس وقيت العلة

ولا أكرم من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذا تجمع جمع الاسم فيقال : خلق الله سبع خضراوات كما يقال فى جمع صحراء صحراوات .

٢ ـ لقد سمت العرب خضر البقول بالخضراء، ومن ذلك قوله عليه السلام : « تجنبوا من الخضراء ما له رائحة » يقصد الثوم والبصل والكراث ، وعلى هذا يقال فى جمعها خضراوات كحلكاء وهى دويبة تغوص فى الرمل وحلكاوات .

٣ ـ وتطلق اسما للمرأة الحسناء فى منبت السوء، ومنه الحديث : « اياكم وخضراء الدمن» والدمن جمع دمنة بالكسر وهى آثار الناس وما سودوا، فيقال : « هؤلاء خضراوات الدمن » .

٤ ـ وتطلق اسما للدلو الواسعة العظيمة ، ويقال فى جمعها : تسقى الأرض والأشجار بالخضراوات .

٤٧٩ ويصفون الأكول الذى يحرص على كثرة الأكل فيقولون : انه بطنى ، بكسر ففتح فياء مشددة ، وكان عليهم أن يصفوه باحدى الصفات الآتية فيقولوا :

١ ـ انه بطين بفتح فكسر وزان تطير ، وهو من لا يهمه الا بطنه ، أو مبطان بالكسر وهو من لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل .

٢ ـ انه منهوم بالطعام أى مولع به ، تقول : نهم ينهم نهما من باب ضرب اذا كثر أكله ، ونهم بالأكل بالبناء للمفعول اذا أولع به فهو منهوم،

وفى الحديث «منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم » .

أو يقال : انه نهم من باب فرح وهو من تفرط شهوته فى الطعام ، وقد نهم ينهم فهو نهم .

٣ ـ انه شره على الطعام ، تقول : شره فلان على الطعام شرها من باب طرب اذا حرص عليه أشد الحرص فهو شره كطرب .

٤ ـ انه فَيِّه" بفتح فياء مشددة مكسورة وزان كيس أى نهم شديد الأكل ، واستفاه استفاهة واستفاها أى اشتد أكله فهو مستفيه .

٥ ـ انه قشاش بصيغة المبالغة تقول : قش الرجل يقش قشوشا من باب دخل اذا أكل من هنا وها هنا ، ثم لف ما قدر عليه مما على الخوان كقشش .

٦ ـ هو جردبان بفتح الجيم وضمها ، أو هو جردبى بفتح الجيم مع ياء النسب ، أو مجردب بصيغة اسم الفاعل . تقول : جردب فلان اذا أكل ونهم ، ووضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو أكل بيمينه ومنع غيره بشماله ، وقيل ان جردبان معرب كرده بأن أى حافظ الرغيف ، أو الجردبان والجردبى الطفيلى .

٧ ـ هو قرون بفتح القاف وزان صبور ، وهو من يجمع بين لقمتين أو تمرتين فى الأكل .

٨ ـ هو جراف بضم الجيم وزان غراب أى أنه أكول جدا كجاروف ،

والجاروف هو المشئوم والنهم .

٩ ـ هو تلقام وتلقامة بكسر التاء فيهما ، أى عظيم اللقم واللقمة ، وتشدد قافهما .

١٠ـ هو ترهوط بضم التاء ، مأخوذ من الرهط والترهيط ومعناهما عظم اللقم وشدة الأكل .

أما من حرص على شدة الشرب أو الاكثار منه فيقال له : شربة وزان همزة ، وشريب بكسر الشين والراء المشددة وزان سكيت .

والقحف والقحاف بكسرهما شدة الشرب ، والقحف بفتح القاف شرب جميع مافى الاناء كالاقتحاف وفى المثل « اليوم قحاف وغدا نقاف » بكسرهما أى شرب ، وحرب .

ويقال : أمفد الرجل اذا أكثر من الشرب ، وقعر فلان الاناء اذا شرب كل ما فيه حتى انتهى الى قعره ، وكرع الولد فى الماء أو فى الاناء كمنع وسمع كرعا وكروعا اذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه أو باناء والكريع وزان أمير هو من يشرب من النهر بيديه اذا فقد الاناء .

وجرجر الخادم الشراب اذا جرعه جرعا متداركا حتى يسمع صوت جرعه ، والجرعة بالضم ما يجرع مرة واحدة جمعها جرع كغرفة وغرف ، وتجرع فلان الغصص مستعار منه ، وفى التنزيل « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » .

٤٨٠ ويقولون : عند هذا التاجر قماش ثمين تصنع منه أجود الثياب للرجال والنساء والأطفال ، هذا التعبير يشوبه الفساد البين ، لأن القماش ليس بثمين ، كما أنه لا تصنع منه ثياب ، وانما هو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء ، حتى يقال

لرذالة الناس قماش . تقول : طلبت من فلان معونة فما أعطانى الا قماشا أى أردأ ما وجده ، وقمش الرجل الشيء يقمشه من باب ضرب قمشا اذا جمعه من هنا وهناك ، وهذا الذى جمعه الرجل يسمى قماشا .

كما أنهم يقولون : تقمش فلان تقمشا فهو متقمش ، يعنون أنه لبس أحسن الثياب وأغلاها ، وهذا غير سليم ، والصواب أن معنى هذه العبارة أن هذا الرجل أكل ما وجد وان كان دونا .

والقميشة طعام يتخذ من اللبن وحب الحنظل ونحوه.

٤٨١ وينكر كثير من الخاصة أن يجمع النادى على نواد ويقولون ان جمعه أندية كما قال صاحب المصباح ، وهذا الجمع شاذ ، لأن أفعلة جمع للاسم المذكر الرباعى الممدود ثالثه ككساء وأكسية ،ورغيف وأرغفة ، وعمود وأعمدة ، قال ابن مالك :

لاسم مذكر رباعى بمد ثالث أفعلة عنهم اطرد

وقد جمعه ابن منظور فى لسان العرب على أنداء جمعا شاذا أيضا ، لأن أنداء جمع للندى بمعنى البلل والمطر ، كسبب وأسباب ، ورحى وأرحاء ، وقفا وأقفاء .

وفى حديث أبى سعيد « كنا أنداء فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم » فالأنداء فى هذا الحديث جمع النادى ، وهم القوم المجتمعون .

وقيل أراد كنا أهل أنداء فحذف المضاف

والنادى المجلس يندو اليه من حواليه ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله ، فاذا تفرقوا لم يكن ناديا، ولذا يقع على المجلس وأهله .

وقد ورد فى الشعر ما يدل على أنهم جمعوا أندية على أنديات كما فى قول كثير :

لهم أنديات بالعشى وبالضحى
بهاليل (١) يرجو الراغبون
وأنشد بعضهم :

رزان(٢) اذا شهدوا الأنديا
ت لم يستخفوا ولم يخزروا

والحق أن النوادى جمع صحيح للنادى ، وانما لم تذكره المعاجم اعتمادا على أنه قياس مطرد ، اذ أن فواعل يطرد فى كل اسم لغير عاقل بزنة فاعل ككاهل وكواهل ، وحافر وحوافر ، وعاتق

وعواتق ، وشارب
وشوارب قال ابن مالك :

فواعل لفوعل وفاعل
وفاعلاء مع نحو كاهل

مما عرضنا من النصوص وأقوال اللغويين استبان أنه يجوز أن يجمع النادى على أندية وعلى أندية جمعين شاذين سماعيين ، وانه يجمع على النوادى جمعا قياسيا ،

٤٨٢ واذا سألتهم عن مفرد محاسن أجابوا على الفور بقولهم ، مفرده محسن وزان مقعد ، وهذا غير سليم ، لأن لغتنا العربية فيها جموع وردت على غير قياس ، منها :

١ - محاسن ، فهو جمع حسن بضم فسكون ، ومعناه الجمال، تقول : انظر الى محاسن وجهه . قالت العرب : رجل حسن وامرأة حسنة ، وقالت :

امرأة حسناء ولم تقل رجل أحسن وهو اسم أنث من غير تذكير ، كما قالت غلام أمرد ولم تقل جارية مرداء فذكرت من غير تأنيث .

٢ - ملامح ، تقول : فى فلان لمحة من أبيه أى شبه ، وتجمع اللمحة على ملامح وهى مابدا من محاسن الوجه أو مساويه،

(١) البهاليل : جمع بهلول بالضم وهو السيد الجامع لصفات الخير
(٢) الابل التى شربت الشرب الأول مفردها ناهلة
(٣) رزان بالكسر : جمع رزين وهو الرجل الوقور
(٤) لم يخزروا : لم يقعوا فى بلية تذلهم وتهينهم

فيقال : فى فلان ملامح من أخيه .

٣ ـ مشابه ، تقول : فى فلان شبه من أخيه بفتح كل من الشين والباء ، ويجمع الشبه نادرا على مشابه فيقال : فى محمد مشابه من ابنه .

٤ ـ لواقح ، تقول ألقح الفحل الناقة فهو ملقح ، وألقحت الريح السحاب فهى ملقحة والجمع لواقح فيقال : الفحول لواقح ، والرياح لواقح ، ومن هذا قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » ولا تقل ملاقح ، لأن الملاقح هى الاناث التى فى بطونها أولادها ، ومفردها ملقحة بصيغة اسم المفعول .

والملاقيح ما فى بطن النوق من الاجنة الواحدة ملقوحة من قولهم لقحت بالبناء للمفعول كالمحمومة من حمت ، والمجنونة من جنت .

٥ ـ طوائح ، تقول طوحه تطويحا اذا توهه فى الأرض ، وطوحته الحمى اذا أتعبته وأذلته فهى مطوحة ، والحميات طوائح ، ولا تقل مطوحات قال ، لبيك يزيد ضارع (١) لخصومة

ومختبط (٢) مما تطيح الطوائح

ويقال : طوحته الطوائح أى قذفته القواذف .

٦ ، ٧ ـ حرائر ، ومرائر ، يقال : امرأة حرة ونسوة حرائر ، وثمرة مرة وثمرات مرائر ، قال السهيلى ولا نظير لهما ، لأن فعلة بضم فسكون يطرد جمعه على فعل بضم ففتح كغرفة وغرف ، ومدية ومدى ، وفرصة وفرص ، وانما جمعت حرة على حرائر لأنها بمعنى كريمة وعقيلة فجمعت مثلهما على فعائل ، وجمعت مرة على مرائر لأنها بمعنى خبيثة فجمعت جمعها .

(١) الضارع : المتذلل المستكين

(٢) المختبط بصيغة اسم المفعول : من ضرب ووطىء شديدا

٨ ــ وجمع ابن عرس ، وابن مخاض ، وابن لبون ، وابن آوى على بنات عرس ، وبنات مخاض ، وبنات لبون، وبنات آوى، وحكى الاخفش بنات عرس وبنو عرس ، وبنات مخاض وبنو مخاض ، وبنات آوى وبنو آوى ، والأفصح بنات فى كل منها .

٩ ــ وجمع ذكر بمعنى القرف جمعا غير قياس على مذاكير ، وقال الاخفش : هو من الجمع الذى ليس له واحد مثل العباديد والأبابيل .

١٠ ــ جمعت النفساء وهى المرأة التى وضعت ولدها حديثا على خمسة جموع كلها غير قياسى، هى نفاس بالكسر ، ونفاس بالضم ، ونفس بضمتين ، ونفس بضم فسكون ، ونوافس ، وجمعت جمع مؤنث سالما على نفساوات .

٤٨٣ يعتقد كثير من الخاصة أن كل فعل ثلاثى لا بد أن يتفق فى المعنى مع مزيده بالهمز ، وهذا اعتقاد خاطىء ، لأن لغتنا العربية فيها أفعال ثلاثية مجردة يستعمل كل منها لمعنى، ويستعمل مزيده بالهمز لضد هذا المعنى ، منها :

١ ــ قسط : تقول : قسط الحاكم اذا جار وحاد عن الحق فهو قاسط . وهم قاسطون . ومن هذا قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » وأقسط القاضى اذا عدل بين المتخاصمين فهو مقسط ، ومنه قوله سبحانه : « ان الله يحب المقسطين» ، ويقال : فلان قاسط غير مقسط أى جائر غير عادل ، والله يقبض ويبسط ، ويَقْسِطُ ولا يُقْسِطُ .

٢ ــ ضاف : تقول : ضفت الوزير ضيفا بالفتح وضيافة بالكسر اذا نزلت عنده ضيفا كتضيفته وأضفته اذا أنزلته عندك ضيفا ، وأضفته أيضا اضافة اذا لجأ اليك من خوف فأجرته .

ويقال : تضيفنى فضيفته أى طلب القرى (١) فقريته فهو متضيف ، قال الفرزدق :

ومنا خطيب لايعاب وقائل
ومن هو يرجو فضله المتضيف

٣ ـ نشط : تقول : نشطت الأنشوطة نشطا من باب ضرب اذا شددتها وعقدتها ، وأنشطتها اذا حللتها ، والأنشوطة بالضم ربطة يسهل انحلالها ، وأنشطت العقال حللته ، وأنشطت البعير من عقاله أطلقته ، ويقال : بئر أنشاط اذا كانت قريبة العمق تخرج منها الدلو بجذبة واحدة ، وبئر نشوط بالفتح اذا كانت تحتاج الى نشط كثير لبعد قعرها .

٤ ـ ترب : تقول : ترب الرجل من باب طرب تربا اذا افتقر واحتاج لصق بالتراب من شدة فقره ، وأترب أخوه اذا استغنى وأصبح ذا ثروة عظيمة كأنه صار له من المال قدر التراب .

٥ ـ فرى : تقول : فريت الجلد فريا من باب رمى اذا قطعته على وجه الاصلاح ، قال الكسائى يقال أفرى فلان الأديم اذا قطعه على جهة الافساد ، وفراه اذا قطعه على جهة الاصلاح ، ولذا يقال : لقد أفريت وما فريت ، أى أفسدت وما أصلحت .

٦ ـ خفى بفتحتين : تقول : خفيت الشىء خفيا من باب رمى اذا أظهرته وأبنته ومنه قول الشاعر :

خفاهن من أنفاقهن (٢) كانما
خفاهن ودق (٣) من سحاب مركب

فالشاعر هنا يصف فرسا يستخرج الفئران من جحورهن بشدة وطئه ، حتى كأن سيلا

(١) القرى بالكسر : ما يقدم للضيف من الطعام
(٢) الانفاق : جمع نفق وهو سرب له مخلص
(٣) الودق : المطر

دخل عليهن فأخرجهن وأظهرهن ، ولكننا اذا قلنا أخفينا الشيء كان المعنى أننا سترناه وغطيناه .

٧ ـ خفر : تقول خفرت فلانا وخفرته تخفيرا اذا حميته من طالبه وكنت له مجيرا وخفيرا يمنعه . قال :

(يخفرنى سيفى اذا لم أخفر)

ويقال : خفرت بعهده اذا وفيت به ، وأخفرته اذا نقضت عهده وغدرت به .

٨ ـ دلا : : تقول : أدليت دلوى اذا أرسلتها فى البئر لتستقى بها ، ودلوتها اذا نزعتها وأخرجتها .

ويقال : سقى الفلاح أرضه بالدالية والدوالى أى بالنواعير .

٤٨٤ ويقول علماء الجغرافيا وتلاميذهم : مناخ هذا البلد شديد الحرارة ومناخ هذه الدولة معتدل بفتح الميم فى المناخين ، يعنون جو البلد وجو الدولة ، وهذان التعبيران يتسمان بالفساد من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فان كلمة مناخ يجب ضم ميمها ولا يجوز فتحها لأنها اسم مكان من أناخ الرباعى ، واسم المكان والزمان والمصدر الميمى من أفعل يجب أن يكون على وزن مفعل بضم الميم وفتح العين على صيغة اسم المفعول .

وأما من جهة المعنى فلا صلة للمناخ بالحرارة ولا بالاعتدال ، وانما هو اسم للموضع الذى تبرك فيه الابل تقول انخت الابل ونوختها ولا يقال فى المطاوع فناخت وانما الفصيح أن يقال فبركت أو فاستناخت ، وفى الحديث « وان أنيخ على صخرة استناخ » .

ويقال : تنوخ الجمل الناقة اذا أبركها للسفاد كأناخها فاستناخت وتنوخت .

عباس أبو السعود

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : نسمع عن صلاة الشكر .. فما هو دليل شرعيتها وما كيفيتها ؟

ج : ذكن ابن قيّم الجوزيةرحمه الله فى كتابه زاد المعاد : «وكان من هديه صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه «سجود الشكر» عند تجدد نعمة تسر أو اندفاع نقمة كما فى المسند عن أبى بكرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أتاه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا لله» .

وذكر ابن ماجه عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم بشر بحاجة فخر لله ساجدا . وذكر البيهقى باسناد على شرط البخارى أن عليا رضى الله عنه لما كتب الى النبىصلى الله عليه وسلم باسلام همدان خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان . السلام على همدان ... الخ .

وفى المسند من حديث عبد الرحمن ابن عوف « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد شكرا لما جاءه البشرى من ربه أن من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه .. وفى سنن أبى داود من حديث سعد بن أبىوقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه فسأل الله ساعة ثم خر ساجدا ثلاث مرات ثم قال : انى سألت ربى وشفعت لأمتى فأعطانى ثلث أمتى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى الثلث الثانى . فخررت ساجدا شكرا لربى ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى الثلث الآخر فخررت ساجدا لربى .

وسجد كعب بن مالك لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه ، ذكره البخارى .

وذكر أحمد عن على عليه السلام أنه سجد حين وجد ذا الثدية فى قتلى الخوارج ، وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة . اهـ

وجاء فى سيل السلام بعد ذكر حديث أبى بكرة السابق .. « وهو دليل شرعيته ، وذهب الى شرعيته الهادوية والشافعية وأحمد خلافا لمالك . ورواية لأبى حنيفة بأنه لا كراهة فيه ولا ندب والحديث دليل للأولين .. ثم قال :

واعلم أنه قد اختلف هل يشترط لها الطهارة أم لا ؟ فقيل : يشترط قياسا على الصلاة ، وقيل : لا يشترط لأنها ليست بصلاة وهو الأقرب كما قدمناه ، وقال المهدى : انه يكبر لسجود الشكر ، وقال أبو طالب ويستقبل القبلة ، وقال الامام يحيى ولا يسجد للشكر فى الصلاة قولا واحدا ، اذ ليس من توابعها . وقيل ، ومقتضى شرعيته حدوث نعمة أو اندفاع مكروه فيفعل ذلك فى الصلاة ويكون كسجود التلاوة » . اهـ

وجاء فى كتاب الاقناع فى فقه الشافعية : « وسجدة الشكر لا تدخل صلاة ، وتسن لهجوم نعمة أو اندفاع نقمة أو رؤية مبتلى أو فاسق معلن ، ويظهرها للفاسق ان لم يخف ضرره لا للمبتلى لئلا يتأذى ، وهى كسجدة التلاوة .. وأركان سجدة التلاوة عندهم لغير مصل : تحرم وسجود وسلام . وشرطها كصلاة وألا يطول فصل عرق بينها وبين قراءة الآية وتتكرر بتكرر الآية ، ويسن مع سجدة الشكر ـ كما فى المجموع ـ الصدقة ، ولو تقرب الى الله بسجدة من غير سبب حرم » اهـ .

س : يذكر الناس فضائل كثيرة

لليلة النصف من شهر شعبان ويؤدون فيها صلاة بنية خاصة ، ويدعون بدعاء مشهور ، ويقولون : ان هذه الليلة هى الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم ، نرجو بيان الخطأ والصواب فى هذه الاعتقادات والأعمال !

ج : رغم أن العلماء المحققين يسلطون الأضواء على كثير من البدع الشائعة ويوضحون جانب الحق ، فما زال هناك كثير من العوام وأشباههم يتمسكون بهذه البدع وما زلنا نرى ونسمع هؤلاء الصبية الذين يروجون لدعاء النصف من شعبان فى الشوارع وشتى التجمعات ووسائل المواصلات واقبال البسطاء من الناس على هذه السلعة التى لا أصل لها فى الدين .

وللامام الراحل الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فتوى فى هذا المقام أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه نوردها فيمايلى :

الليلة المباركة فى القرآن

قال الله تعالى فى أول سورة الدخان : « انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمرا من عندنا انا كنا مرسلين ، رحمة من ربك انه هو السميع العليم » .

هذه احدى آيات ثلاث تتحدث عن انزاله وعن الزمن الذى أنزل فيه ، والآية الثانية هى قوله تعالى : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » والآية الثالثة قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

وهدف الآيات الثلاث تأكيد أن القرآن لم يكن ـ كما كان يزعم منكرو الرسالة ـ من صنع محمد ، وانما هو من عند الله ، أنزله بعلمه وحكمته هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

وقد وصفت الآية الأولى الليلة التى أنزل فيها بأنها « ليلة مباركة » وهى الصفة التى وصف بها القرآن فى قوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها » .

وسميت فى الآية الثانية « بليلة

القدر » وهو الشرف وعلو المكانة

وبينت الآية الثالثة أن شهر تلك الليلة هو شهر رمضان ، الذى فرض الله على المؤمنين صومه تذكيرا بنعمة انزال القرآن وشكرا لله عليها .

الروايات والآراء

ومع وضوح الاتساق بين هذه الآيات هكذا وتساندها ، وشد بعضها أزر بعض فى تقرير أن القرآن أنزله الله على الناس فى ليلة مباركة ، ذات قدر وشرف ، وأن رمضان هو شهر تلك الليلة ، مع وضوح هذا نرى الروايات والآراء خلقت فى كتب التسفير جوًا اصطرعت فيه اصطراعا أثار على الناظرين فى القرآن غبارا طمس عليهم محورها الذى تدور عليه ، وباعدت بينها فى الهدى الذى ترمى اليه .

وكان من ذلك ما قيل وذاع بين الناس أن « الليلة المباركة » فى الآية الأولى هى « ليلة النصف من شعبان » وأن الأمور الحكيمة التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار وسائر الأحداث الكونية التى يقدرها الله ، ثم يظهر ما يقع منها فى العام للمنفذين من الملائكة الكرام !!! ويمتد الكلام الى التفرقة بين التقدير الذى يحصل فى تلك الليلة ، والتقدير الذى يروى أيضا عن ليلة القدر ثم الى الفرق بين كل من هذين التقديرين اللذين يحصلان فى هاتين الليلتين « ليلة النصف وليلة القدر » وبين التقدير الأزلى لهذه الأحداث ، يمتد الكلام بين هذه التقديرات الثلاث بما أعتقد ويعتقد كل مؤمن أنه خوض فى أمر محجوب ، وهجوم على غيوب استأثر الله بعلمها ، ولم يرد بها نص قاطع من قبله .

الناس فى ليلة النصف

وكان منه أيضا ، اعتقاد العامة وأشباههم ، أن ليلة النصف من شعبان ليلة ذات مكانة خاصة عند الله ، وأن الاجتماع لاحيائها بالذكر والعبادة والدعاء ، والقراءة مشروع ومطلوب ، وتبع ذلك أن وضع لهم فى احيائها نظام خاص يجتمعون فى المسجد عقب صلاة المغرب ، ويصلون صلاة خاصة باسم « صلاة

النصف من شعبان » ثم يقرءون بصوت مرتفع سورة معينة هى « سورة يس » ، ثم يبتهلون كذلك بدعاء يعرف « بدعاء النصف من شعبان » يتلقنه بعضهم من بعض ويحفظونه على خلل فى التلقين ، وفساد فى المعنى . ويكررونه ثلاث مرات : احداها بنية طول العمر ، والثانية بنية دفع البلاء ، والثالثة بنية الاغناء عن الناس ، ويعتقد العامة أن التخلف عن المشاركة فى هذا الاجتماع نذير بقصر العمر وكثرة البلاء والحاجة الى الناس . وينتهز بعض تجار الكتب ليلة النصف فرصة ، يطبعون فيها سورة يس مع الدعاء ، ويكلفون الصبية توزيعها فى الطرقات والمركبات والمجتمعات .. منادين على سلعتهم « سورة يس ودعاءها بـ .. » ..

دعاء نصف شعبان

واذا كنت ممن لم يوفقوا الى قراءة هذا الدعاء أو سماعه ، فاعلم أنهم يطلبون فيه من الله محو ما كتبه فى أم الكتاب من الشقاوة وتبديلها سعادة ، والحرمان وتبديله عطاء ، والاقتار وتبديله غنى ،ويذكرون فى تبرير هذا الطلب وحيثياته أن الله قال فى كتابه : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وهو تحريف واضح للكتاب عن مواضعه ، فان هذه الآية سيقت لتقرير أن الله ينسخ من أحكام الشرائع السابقة ما لا يتفق واستعداد الامم اللاحقة وأن الاصول التى تحتاجها الانسانية العامة ـ كالتوحيد والبعث والرسالة ، وتحريم الفواحش ـ دائمة ثابتة ، وهى « أم الكتاب » الالهى الذى لا تغيير فيه ولا تبديل ، واذاً لا علاقة لآية المحو والاثبات بالأحداث الكونية حتى تحشر فى الدعاء وتذكر حيثيته .

شهر شعبان

والذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحفظت روايته عن أصحابه ، وتلقاه أهل العلم والتمحيص بالقبول ، انما هو فقط فضل شهر شعبان كله ، لا فرق بين ليلة وليلة وقد طلب فيه على وجه عام الاكثار من

العبادة ، وعمل الخير ، وطلب فيه الاكثار من الصوم على وجه خاص تدريبا للنفس على الصوم واعدادا لاستقبال رمضان ، حتى لا يفاجأ الناس فيه بتغيير مألوفهم فيشق عليهم .. وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : « أى الصوم أفضل بعد رمضان ؟ فقال : شعبان لتعظيم رمضان » وتعظيم رمضان انما يكون بحسن استقباله والاطمئنان اليه بالتدريب عليه وعدم البرم به .. أما بخصوص ليلة النصف .. والاجتماع لاحيائها ، وصلاتها ودعاؤها ، فانه لم يرد فيها شىء صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفها أحد من أهل الصدر الأول .

رأى الشيخ محمد عبده

ويجدر أن أسوق هنا ما كتبه الشيخ الامام عن « الليلة المباركة » فى تفسيره « جزء عم » قال أجزل الله ثوابه : « أما ما يقوله الكثير من الناس — من أن الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر — فهو من الجرأة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك ما لم يرد فيه خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ، لاضطراب الروايات وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد ، ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ،ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة ، فانه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين ، لعدم تواتر خبره عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه ، والا كنا من الذين قيل فيهم : « ان يتبعون الا الظن » نعوذ بالله ، وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله وَيُعَدُّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به العمل على فضيلة من

الفضائل ، فاحذر أن تقع فيه مثلهم » اهـ .

يحذرنا الأستاذ الامام أن ننزل فى عقائدنا على حكم الظن ، فان الظن لا ينبع من اليقين ، وان الظن لا يغنى عن الحق شيئا ، وان الاعتقاد بالظن قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم صنو الاثم والبغى عند الله .

وقد كان هذا هو منهج الامام فى العقائد ، ومنهجه فى تفسير كتاب الله : سير فى المحجة الواضحة واعتقاد بالحجة القاطعة ، وبُعْد بكتاب الله عن الظنون والأوهام .

ورحمة الله على الامام .

والسلام على من اتبع الهدى .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

من خطبة لسيدنا الحسن بن على بالكوفة

« ان الحلم زينة ، والوقار مروءة ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة أهل الفساق ريبة » .

من تعاليم أستاذ الحياة
عليه السلام

كتاب الشهر

مفهوم الموافقة والمخالفة

بين الإعمال والإهمال

د . محمد سعاد جلال

قال الحنفية : لا يصح العمل بمفهوم المخالفة .. وقال الشافعية : يتعين العمل به . ويتعلق بذلك قواعد .. ويتعين قبل ان ندخل فى التفصيل أن نبين مفهوم المخالفة ، وهو « أن يثبت الحكم فى المسكوت عنه على خلاف ما ثبت فى المنطوق به » .

ومثاله قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) . فيه شاهدان مما يسمى بمفهوم المخالفة :

الأول : فى قوله « ومن لم يستطع منكم طولا » ــ الآية ــ : علق جواز نكاح الأمة على عدم طول الحرة ، ومفهومه عدم جواز نكاحها عند طول الحرة وهو المسكوت عنه .

والثانى فى قوله : « من فتياتكم المؤمنات » أى الاماء المؤمنات : أباح المنطوق نكاح الاماء الموصوفات بالايمان ، ومفهومه عدم جواز نكاح الفتيات غير المؤمنات وهو المسكوت عنه .. وفى كل الموضوعين يجرى الخلاف بين الحنفية والشافعية .

٢ ــ شروط العمل بمفهوم المخالفة

وللعمل بمفهوم المخالفة جملة شروط :

أولها : ألا يكون الحكم فى المسكوت عنه أولى بالثبوت منه فى المنطوق به وألا يكون مساويا له .

ومثاله فى الصورة الأولى : قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف » فالحكم فى المنطوق به هنا ــ وهو لفظ « أف » ــ هو التحريم ، لاشتماله على أذية الوالدين فيثبت الحكم فى المسكوت عنه كالقتل والتحريق بعلة « الأذى » من باب أولى . ويسمى ثبوت الحكم فى المسكوت عنه على هذا الوجه « دلالة نص » « وفحوى الخطاب » .

ومثاله فى الصورة الثانية : أثبت النص وجوب الكفارة على

المفطر عمدا فى نهار رمضان بالوقاع فى حديث الأعرابى ، فوقف الشافعية عند أداء النص وقالوا : لا كفارة فى فطر نهار رمضان بغير سبب الوقاع • وألحق الحنفية الأكل والشرب عمدا بالوقاع باعتبار مساواتهما له فى نقض الصوم فقالوا بثبوت الكفارة فيهما •

ثانيها : ألا يخرج الوصف الموهم للتفرقة فى الحكم بين المنطوق والمسكوت مخرج الغالب والعادة كقوله » • وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » • هذه الجملة تقع جزءا من آية النص على النساء المحرمات ، ومفادها الظاهر اثبات أن بنت الزوجة ــ وتسمى ربيبة ــ محرمة على زوج أمها ما دامت فى حجره ، ومفهومه أن نكاحها جائز له ما لم تكن فى حجره ، لكن هذا المفهوم ملغى ، لأن القيد ــ وهو قوله : اللاتى فى حجوركم ــ خرج مخرج العادة ، فلا يدل على الاحتراز •

ثالثها ورابعها وخامسها :

ألا يقع المنطوق جوابا لسؤال معين ، أو لحادثة معينة • أو يقع بناء على علم المتكلم بأن السامع يجهل هذا الحكم المخصوص •

مثال الثالث : أن يسأل صاحب البيان : « هل فى الابل السائمة زكاة ؟ » ، فيجيب : « ليس فى الابل السائمة زكاة » •

ومثال الرابع أن تقع حادثة معينة بين يدى صاحب البيان تتطلب منه بيان الحكم فى الابل السائمة : فيقول : « ليس فى الابل السائمة زكاة » •

فوصف الابل بالسوم فى هذين المثالين لا يدل على نفى الزكاة عند انتفاء وصف السوم •

ومثال الخامس اذا كان صاحب البيان يعلم من أمر السامع جهله بخصوص حكم زكاة الابل السائمة •• فابتدأه بهذا القول : « ليس فى الابل السائمة زكاة » • فانه لا يدل على نفى الحكم بانتفاء وصف السوم وذلك لأن المقتضى

الراهن عند المتكلم بهذا القول من مطابقة الجواب للسؤال أو الحادثة أو ارادة التعليم ، قد استغرق فائدة القيد فلم يعد له عمل فى المسكوت عنه .

٣ ـ القواعد التى يشمل عليها مفهوم المخالفة

ويشتمل مفهوم المخالفة على عدة قواعد .

القاعدة الاولى :

وهى : « ان تخصيص الشىء بالوصف يدل على نفى الحكم عما عداه عند الشافعى ، خلافا للحنفية »

احتج الشافعى بالأدلة الآتية :

الدليل الأول :

قال : ان مقتضيات ذكر الوصف فى المنطوق منحصرة فى الأمور الأربعة التى ذكرناها . فاذا انتفى احتمال وجود أى واحد من تلك الامور الأربعة تبريرا لذكر الوصف فى المنطوق تعين أن يكون فائدة ذكر الوصف فى المنطوق هى نفى الحكم عما عداه ـ أى فى المسكوت عنه .

الدليل الثانى :

قال : ان العرف يشهد لنا ، فانه لو قال قائل : « الانسان الطويل لا يطير » . يتبادر منه للفهم أن الانسان غير الطويل يطير وهو أمر مستقبح ولهذا يستقبحه العقلاء : وليس مرجع استقباحهم له نفى الطيران عن الانسان الطويل ، فانه لو قال : الانسان الطويل وغير الطويل لا يطير لا يستقبح منه ذلك ، فلم يكن استقباحهم له الا من حيث كان قول ذلك المتكلم يثبت بمفهومه فى الضد حكما مستحيلا ، وهو أن الانسان القصير يطير فقد خرج قوله مخرج العبث .

الدليل الثالث :

قالوا : ان اثبات مفهوم المخالفة فى الكلام يقتضى تكثير الفائدة منه من حيث نقول أن تخصيص الشىء بالوصف يدل على اثبات الحكم فى المنطوق به كما يدل على نفى الحكم فيما عدا الموصوف بهذا الوصف فى المسكوت عنه ، فيكون ذكر الوصف فى المنطوق به بغير

افادة نفى فى الحكم المسكوت عنه غير مفيد .. ويعد ترجيحا لوجوده فى الكلام من غير مرجح ، لأن عدم وجوده مساو حينئذ لوجوده ، اذ لم يكن لوجوده فائدة أصلا ، وقد فرضنا أن ذكر الوصف هنا تعرى عن القصد به ، لواحد من الأمـــور الأربعة المبررات لذكره .

الدليل الرابع :

قال : ولأن مثل هذا الكلام يدل على « علية » الوصف مثل قوله : « فى الابل السائمة زكاة » فعـــدم الوصف يدل على عـــدم الحـــكم فى المسكوت عنه . لعدم «العلة» .

جواب الحنفية على أدلة الشافعى

وأجاب الحنفية عن هذه الحجج فقالوا :

أما عن الحجة الأولى فان معنى كلام الشافعى قائم على أن فائدة الوصف الموجـــود فى الـــكلام منحصرة فى شيئين اثنين .

أحدهما : الأمور الأربعة المشترط عدم ارادتها لصحة وجود مفهـــوم المخالفة ، التى هى ــ كما قلنا من قبل ــ عدم خروج الوصف مخرج العادة ، أو عدم كونه جوابا عـــن سؤال أو حادثة . أو علم المتـــكلم بأن السائل يجهل هذا الحكم .

وثانى الشيئين ــ الواقع الحصر بينهما هو ارادة نفى الحكم عمـــا عدا الموصوف به ، فاذا انتفت هذه الأمور الأربعة واحدا بعد واحـــد فى اظهار فائدة ذكـــر الوصف فى المنطوق به لم يكن له من فائدة الا نفى الحكم فيما عدا الموصوف به . هكذا قال . ولكن بناء الحصر على الأمور الأربعة المذكورة ، والقول بأن انعدامها بخصوصها كان لاثبات خلاف حكم الأصل فى المسكوت عنه ــ باطل ، لأن مبررات ذكـــر الوصف فى الكلام غيـــر منحصرة فى الأربعة المشار اليها ــ بل يوجد فى مقتضى أحـــوال الـــكلام ، وأساليب اللغة دواع أخرى لذكر الوصف مـــكفوفا عن العمـــل فى المسكوت عنه ، كقولهم : « أمس الدابر لا يعود » فهذا الوصـــف للتوكيد ولا يراد به نفى الحكم عما

عداه ، وكقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه » ، فان المراد بقوله فى « الأرض » وقوله «يطير بجناحيه» القصد لزيادة التعميم والاحاطة ولا يراد به نفى الحكم عما عداه • لأنه لا يتصور أن تكون الدابة فى غير الأرض ، ولا أن يكون الطائر بغير جناحين •

وكقولهم : « الجسم الطويل العريض العميق متحيز ، ومع ذلك لا يراد منه نفى الحكم عما عداه ، ولو أريد منه ذلك لزم أن يكون الجسم غير الطويل العريض العميق غير متحيز وهو مستحيل لأن الجسم لا يوجد بغير هذه الصفة أصلا ، وانما وصف كذلك تعريفا للجسم ، ولبيان أن علة التحيز هى هذا الوصف •

وكاستعمال ذكر الوصف فى المدح أو الذم كقوله : « ابو حنيفة الفقيه ، وابن حنبل الزاهد » اذ لا يراد بهما نفى الفقه والزهد عن غيرهما •

ففى جميع الأمثلة المذكورة ينهض الدليل على أن مقتضيات ذكر الوصف فى المنطوق غير منحصرة فى عدد معين كما يقول الشافعية• وأنها تفيض عن الأربعة المذكورة ، فحصرها فى الأربعة المذكورة أو ارادة نفى الحكم عما عدا المذكور الموصوف باطل •

وأما عن الحجة الثانية فقالوا : ان العقلاء لا يستقبحون قول القائل « الانسان الطويل لا يطير » من حيث أن الوصف اثبت فى الضد حكما مخالفا هو الانسان القصير يطير ، وانما يحمل استقباحهم على أن هذا الوصف ليس له فائدة أصلا • وهو ناب عن استعمالات العرب لأنه لو قال : « الانسان الطويل ، وغير الطويل لا يطير » لم يكن ذلك مستقبحا •

قال صدر الشريعة فى التوضيح : « على أن القاعدة لا تثبت بالمثال الواحد » •

وأما عن الحجة الثالثة : فقالوا : لا سبيل الى القطع بأن ذكر الوصف

معدوم الفائدة أصلا لكى يكون وجود ذكره مساويا لعدم وجود ذكره فى الكلام • بل لا بد له من فائدة تعنيها العرب فى لسانها ، لا يتعين أن تكون نفى الحكم فيما عدا الموصوف •

قلت وأقل من ذلك فائدة — كما لاحظنا من مقاصد بلاغة أهل اللسان — القصد الى توضيح صورة الشىء المعبر عنه لذهن المخاطب بما يطابق اعتياده لرؤيته فى الواقع ، فان مطابقة هذا الاعتياد يضع فى النفس اقتناعا وارتياحا لصورة التعبير ، وأظهر أمثلته ماسبق من قوله : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه » : فقد تعود المخاطب بعادة متمكنة أن يرى الدابة فى الأرض ، وأن يرى الطائر بجناحيه، فاذا ورد الخطاب على سمعه بالصورة التى ألفها بصره — غير ناقصة ولا مبتورة — كان ذلك أروح لنفسه وأرضى لوجدانه •

وليست اللغة والبلاغة نداء عقليا فقط ، ولكنها — أيضا — نداء وجدانى •• وكذلك كانت لغة العرب والقرآن : ولكن الأصوليين والفقهاء ربما نسوا هذه الحقيقة الواضحة المؤكدة : فنظروا الى لغة العرب والقرآن — التى هى أساس استشهادهم على تأسيس قواعدهم — على أنها عملية عقلية محضة تصاغ وتستعمل على مثال الأرقام الرياضية فى الدلالة الصلبة على المعانى المقصودة باستعمالها ، وكأنهم أرادوا أن يجروا لغة العرب، بما فيها من توسع ووجدان على منهج الأساليب العلمية التى يكتبون بها كتبهم •• ولغة العرب وأسلوب القرآن عن ذلك بمنأى بعيد •

وبناء عليه فلا يتعين القول بأن ذكر الوصف — اذا لم يفد نفى الحكم عما عدا الموصوف — يكون ذكره ترجيحا بغير مرجح لانعدام فائدته — لأنه لا يخلو قط من فائدته •• لأنه لايخلو قط من وجعلته من كلامها •• حتى ومع العجز عن معرفة الفائدة فان لكلام العرب وللقرآن فى المستوى الأعلى

من أسرار البلاغة وبعد الأغـراض ما يمنـع القطع بنفى الفائدة عن ترجيح اثبات الوصف المذكور .

وأما عن الحجة الرابعـة : وهى قولهـم ان الوصـف بمنزلة العلة للحكم فانعـدام الوصف يستلزم انعدام الحكم ـ الى آخره ـ فقد أجاب عنه الحنفية بجوابين .

أحـدهما : ان أقصى درجـات الوصف فى التأثير أن يكون «علة» وكونه كذلك لا يدل على أن عدمه يقتضى نفى الحكم فى الموصوف . لأن الحكم يثبت بعلل شتى .

وثانيهما : انا نوافـق على أن انعدام الوصـف يدل على عدم الحكم ـ وذلك بوجهة نظر تختلف عن وجهة نظر الشافعيـة . فانا نقول : ان مرجع عدم الحكم هـو عدم علة له أصـلا كانت تقتضى وجوده ، فهو عدم أصلى . كعدم أى شىء لأنه لم يحـدث له فى الوجود سبب يقتضى وجوده .

ووجهة الشافعية ان عدم الحكم هنا حـكم شرعى : لأن الوصف المذكور فى المنطوق اقتضى عندهم حـكمين : اثبـات الحـكم فى الموصوف به ، ونفى الحكم عما عداه : فانعدام الوصف يعد عندهم علة شرعية اقتضت عدم الحكم فكان عدمه حكما شرعيا لا عدما أصليـا وهو ما يمنعه الحنفية .

القاعدة الثانيـة : « التعليـق بالشرط يدل على عدم الحكم عند عدم الشرط عند الشافعى .

وقال الحنفية : التعليق بالشرط لا يدل على ذلك .

احتج الشـافعى بأن مـوجب التعليق بالشرط عدم حصول الحكم عند عدم الشرط ، اعمالا لشرطيته لأن الشرط ما يتوقف عليه غيره . وذلك كشرطية الوضوء للصلاة ، والثمن للبيع فانتفاء الشرط دال على عدم الحكم .

وقال الحنفية : ان الشرط يقال على أمرين : يقال على ما يتـوقف عليه الشىء ، ولا يتـرتب عليـه كالوضوء للصلاة : وقد يقال للمعلق

به ، وهو ما يترتب عليه الحكم ولا يتوقف عليه .

فالشرط بالمعنى الأول هو الذى يوجب عدم الحكم عند عدم الشرط ، لا بالمعنى الثانى : فينتفى المشروط عند انتفاء الشرط كانتفاء صحة الصلاة لعدم وجود الوضوء وليس انتفاء صحة الصلاة لعدم وجودالوضوء حكما شرعيا ، اذ لا شك فى كونه عدما أصليا لكنه مع ذلك يكون دالا على عدم صحة الصلاة لتوقفها عليه .

وأما الشرط بالمعنى الثانى ، فانه لا دلالة لانتفائه على انتفاء المشروط فقد ينتفى الشرط ولا ينتفى المشروط . نحو ان دخلت الدار فأنت طالق « فانه قد ينتفى الشرط ــ وهو دخولها الدار ، ولا يلزم منه انتفاء الحكم وهو عدم طلاقها ، بل قد يوجد طلاقهابسبب آخر غير دخولها الدار كغضبه عليها . أو رغبته فى زواج غيرها.

ومثال ذلك من أغراض الفقه : قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات » علق الشارع جواز نكاح الامة على شرط ــ هو العجز عن القدرة على نكاح الحرة ــ فاذا انتفى هذا الشرط ، لزم انتفاء المشروط : وهو جواز نكاح الامة ، فلا يجوز نكاح الامة للقادر على نكاح الحرة وهو مذهب الشافعى ــ وقد جعل هذا المفهوم مخصصا للعموم الوارد فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » .

ومذهب الحنفية جواز نكاح الامة مع طول الحرة . لأنهم كما بينا ــ لا يرون ان التعليق بالشرط يستلزم نفى الحكم عند عدمه ، فلا يصح هذا المفهوم مخصصا ولا ناسخا عندهم .

القاعدة الثالثة :

قال الشافعى : « المشروطيوجب حكمه بدون الشرط فيجب الحكم بالمشروط على جميع التقارير والشرط يقيده بتقدير معين.ويعدم غيره من سائر التقارير عند الشافعى

وقال الحنفية : « المشروط والشرط كلام واحد يوجب حكما واحدا على تقدير واحد » .

توضيحه : فى مثل قولك : « أنت طالق ان دخلت الدار » . فعلى قول الشافعى : أفاد « أنت طالق » اثبات الطلاق فى الحال على جميع التقارير ، لكن قولك : « ان دخلت الدار » شرط قيد المشروط بتقدير معين ، وهو دخول الدار ، اعدام اعتبار ما سواه من التقادير الأخرى فالشرط أثر فى اعدام الحكم بالنسبة للتقادير الأخرى .

وعند الحنفية ، المشروط ليس له دلالة على معناه بدون تزكية مع الشرط بحيث يعتبر أن كلاما واحدا يوجب الحكم على تقدير واحد . وهو ساكت عما عداه من سائر التقادير .

وينبنى على هذه القاعدة عند الطرفين مبدأ فرعى : هو :

ان المعلق بالشرط ينعقد سببا للحكم عند الشافعية من حيث انه يثبت حكمه بنفسه بمجرد حصوله بغير توقف على وجود الشرط . والتعليق يؤخر وقوع الحكم الى زمان حصول الشرط .

ففى قولك : « انت طالق ان دخلت الدار » انعقد المعلق سببا لوجود الطلاق على سائر التقادير . والتعليق آخر الحكم بعد انعقاد المعلق سببا الى زمان وقوع الشرط الذى يقيد المعلق بتقدير واحد هو دخول الدار ويعدم غيره من سائر التقادير .

وعند الحنفية لا ينعقد المعلق سببا للحكم قبل زمان الشرط . لأن السبب ما يكون طريقا الى الحكم . وقبل وجوب الشرط ، لا يعد المشروط سببا للحكم .

ففى المثال السابق يثبت موجب الشرط مع المشروط وهو السبب المنشىء للطلاق وقت حصول الشرط ــ لا قبله ــ دفعة واحدة على التقدير الذى أفاده الشرط .

وبناء على هذا المبدأ تختلف أحكام بعض المسائل الفقهية بين المذهبين :

المسألة الأولى : قال الشافعى : يمتنع التعليق بالملك : نحو قوله لامرأة أجنبية : « ان تزوجته فأنت طالق » وقوله لعبد غيره ان ملكتك فأنت حر ، فان قال مثل ذلك . فالطلاق لغو ، والاعتاق لغو : قال لأن المشروط وهو التطليق والاعتاق لا ينعقد سببا ، للطلاق والعتق ، الا فى حيز الملك . لأن الملك شرط لانعقاده سببا للحكم ــ وهو محل اتفاق بين الحنفية والشافعية ــ وفى هذه الصور عندما حصل المعلق ــ أعنى ايجاب الطلاق والعتق ــ كان ذلك قبل زمان الشرط . فلم يكون الملك موجودا .. فبطل التعليق لعدم تحقق شرطه ، وهو سبق الملك على التعليق .

والحنفية يجيزون التعليق بالملك . فيصححون الأمثلة المتقدمة : يحكمون بوقوع الطلاق وبعتق العبد .

قالوا : نعم لا بد من كون الملك شرطا لانعقاد المعلق سببا للحكم . ونحن لا نوقعه الا فى الملك . لكن مذهبنا ــ كما بينا ــ ان المعلق لا يقيد حكمه بدون الشرط فزمن حصول الشرط هو زمن حصول المعلق ،وزمن حصول الشرط فى المعلق بالملكية هو زمن الملكية . فوقوع المعلق « اذا وقع يكون فى حيز الملك ــ وهو الشرط المطلوب لصحة التعليق ــ فصح التعليق ».

المسألة الثانية : يجوّزا لشافعى التعجيل بالنذر المعلق بالشرط : لأن صيغة النذر توجب الحكم بغير انتظار الى زمان وجود الشرط عنده كما قدمنا وتعجيل الحكم على الشرط عند انعقاد السبب جائز اجماعا كتعجيل الزكاة قبل انتهاء الحول بعد وجود السبب وهو النصاب .

ومنع ذلك الحنفية بناء على قاعدتهم المذكورة : وهى أن المشروط لا ينعقد سببا قبل وجود الشرط لأن المشروط جزء من السبب كما أن المشروط مع الشرط كلام واجب ولا يكون جزء السبب سببا ، ولأن السبب ما كان طريقا للحكم مفضيا اليه ، وقد حال انعدام الشرط للحال دون وصول السبب

للحكم فلا يعدسببا ــ لأن الأسباب الشرعية موضوعة شرعا لبلوغ محالها فاذا لم تبلغ محالها لم تعتبر أسبابا كاملة.

المسألة الثالثة : جوز الشافعى فى الحنث فى اليمين تعجيل الكفارة المالية على الحنث : قال : لأن الواجب المالى ينفصل فيه الوجوب عن وجوب الأداء : وذلك كالثمن فان نفس الوجوب يثبت فى الذمة بالشراء ، واما وجوب الأداء فانه يثبت بالمطالبة بخلاف الواجب البدنى فلا ينفصل فيه نفس الوجوب عن اداء الوجوب قال : ثم أن اليمين سبب فى الكفارة وشرطها الحنث فاذا انعقدت اقتضت نفس الوجوب ــ لا وجوب الاداء المعلق على الحنث ، وهو الشرط ــ فجاز تقديم الكفارة المالية كتحرير الرقبة مثلا على الشرط وهو الحنث كتقديم الزكاة قبل نهاية الحول .

ورد الحنفية صحة هذه المسألة على الشافعى بطريقين :

أولاهما : ماتقرر من أن المشروط لا ينعقد سببا للحكم قبل زمان وجود الشرط الذى هو مذهبهم .

وثانيهما : ان اليمين ليست سببا للحنث . لأن اليمين موضوعة للبر ، لا ، للحنث ، والكفارة انما تجب على تقدير الحنث : فيكون الحنث هو سبب الكفارة ، واليمن شرط لها ، فاذا أصبح الحنث سببا فى الكفارة ، امتنع جواز تقديم الكفارة عليه ــ لأنه لا يجوز تقديم الحكم على السبب .

ودعوى الشافعى ثبوت التفرقة بين الحقوق المالية ، والبدنية بكون المالية ينفصل فيها الوجوب عن وجوب الأداء فينعقد السبب وهو اليمين وان لم يستوجب الأداء بخلاف الحقوق البدنية غير القابلة لهذا الانفصال غير صحيح فى هذا الموضوع لأن الحق الواجب لله تعالى على العباد انما هو العبادة التى هى فعل يباشره العبد على مضادة هوى نفسه ابتغاء رضوان الله عليه : فالمال لا يتصور أن يكون عين العبادة التى هى الواجب . بل يكون أداة لتحقيق هذا الواجب بمنزلة أعضاء البدن، فتصير الحقوق

المالية الثابتة لله حينئذ كالحقوق البدنية فى أن المقصود بالوجوب فيها هو وجوب الاداء سواء بسواء ، وتعليق وجوب الاداء يمنع تمام السببية فى كل من الكفارات البدنية والمالية .

٤ ـ استدراك من جهة الحنفية لتصحيح بعض مسائلهم

وحيث استمر الحنفية على القول بأن الشرط يدخل على السبب ويمنع انعقاده اعترض عليهم الشافعى : بأن العلاقة بين الشرط والمشروط كالعلاقة بين خيار الشرط فى البيع وعقد البيع ، والعلاقة بين تأجيل الثمن فى البيع ، والبيع : وفى هذين الموضعين لم يجعلوا خيار الشرط ، ولا تأجيل الثمن مانعا من انعقاد السبب . « قال : فلزمكم أن تقولوا بمثل ذلك فى العلاقة بين الشرط والمشروط وتحكموا بأن دخول الشرط على المشروط لا يمنع انعقاده سببا .

وأجاب الحنفية باثبات الفرق بين هذه الحالات الثلاث :

أما الأجل فانه داخل على الثمن ، فيقتضى تأخير المطالبة به، وليس داخلا على الحكم فيقتضى تأخير الحكم ، ولا هو داخل على السبب فيمنع انعقاد السبب ، ومن حيث لم يدخل على واحد منهما . ولا يكون من شأنه التأثير فى غير محل دخوله . فلا يؤثر فيهما ، لأن الشىء المؤثر لا يؤثر الا فى محل دخوله .

وأما شرط الخيار فانه قد ثبت فى البيع على غير القياس لأن البيع لا يقبل الخطر . وهو الشرط فانه بالشرط ينقلب قمارا فشرط الخيار فى البيع شرط ينافى عقد البيع ، وانما جاز شرط الخيار من أجل دفع ضرورة احتمال دخول الغبن على المشترى اذا كان لا يأمن الغبن على نفسه ، والضرورة تقدر بقدرها وقدر الضرورة أن نكتفى بادخال شرط الخيار على الحكم فى البيع، ولا ندخله على السبب تقليلا لمخالفة الأصل بالقدر الممكن .

وأما فى التطليق والاعتاق حيث يدخل الشرط على السبب فيمنع

انعقاده فيهما فذلك جائز لأنهما من قبيل الاسقاطات التى لا ينافيهما الخطر • ويتعين فيهما أن يدخل الشرط على السبب ، لأن دخوله على السبب هوا لأصل لفصل الحكم عن سببه وهو خلاف القاعدة : فلزم ادخاله على السبب بحكم الأصل لعدم الفصل ما لم يعترضه المانع » • كما فى خيار الشرط •

وبالله التوفيق •

دكتور
محمد سعاد جلال

كلمات فى التصوف

١ ــ من كلام محمد بن اسماعيل المغربى ، أعظم الناس ذلا ، فقير داهن غنيا أو تواضع له ، وأعظم الخلق عزا : غنى تذلل لفقير ، وحفظ عرضه .

بقدر لغات المرء يكثر نفعه
فتلك له عند الشدائد أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهدا
فكل لسان فى الحقيقة انسان

« صفى الدين الحلى »

فهـــــرس العـــــدد

صفحة

متى شرع الاعلام بالصلاة وكيف شرع الأذان
لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير ١٣٥١

المجتمع الفاضل كما يصوره النبى صلى الله عليه وسلم
للأستاذ عبد الحميد الفضالى ١٣٦١

صورة من حكمة الله ، النسخ والتدرج فى الحكم الشرعى
للأستاذ أحمـد حسين ١٣٧٥

المذهب الشيعى فى شعر الحميرى
للأستاذ سيد حسن قرون ١٣٨٧

رحلة مع كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم
للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى ١٤٠٣

احتياج العالم الى الله طبقا لقـوانين الفيزياء الحديثـة
للدكتور يحيى هاشم ١٤٢٧

الاسلام شـــريعة عالميـــة
للأستاذ زاهر عزب الزغبى ١٤٤٧

أصـول اللغـة العربيـة بين الثنائية والثلاثية
للدكتور توفيق محمد شاهين ١٤٦٦

الصوفية ووحـدة الوجـود
للشيخ موسى محمـد على ١٤٧٩

شبهات حـول السنة
للدكتور رءوف شلبى ١٤٩٠

وسائل الاعـلام فى عصـر النبـوة
للدكتور محمـد سيد محمـد ١٤٩٨

فى عبـــاب النـــور
للأستاذ محمد عادل سليمان ١٥١٥

الشريعة الاسلامية والقانون الانجليزى
المستشار حسن حسب الله ١٥١٩

شوقى ديوان العربيـــة
للدكتور سعد ظلام ١٥٢٨

الحـــرب فى الاسلام
عقيد شرطة عبد الحكيم عباس خالد ١٥٣٥

أخطـــاء شائعة
للأستاذ عباس أبو السعود ١٥٤١

الفتـــــاوى
للأستاذ عبد الحميد شاهين ١٥٦٠

كتاب الشهر . مفهوم الموافقة والمخالفة بين الاعمـــال والاهمـــال
للدكتور محمد سعاد جلال ١٥٦٧

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

الجزء السابع ـ السنة الحادية والخمسون ـ رمضان ١٣٩٩ هـ ـ أغسطس ١٩٧٩ م

هـ ١٢
عـ ٢٢٢٢٦
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم.

المستشرقون وموقفهم من السنة النبوية

للدكتور رءوف شلبي

المرضى بالأعصاب يحفظ لهم الطب السيكولوجي تصرفات خاصة وانفعالات ذات طابع معين منحرف عن السلوك السواء والمستشرقون هم أول المرضى بالأعصاب .

فقد كانت أوروبا الى جوار الأندلس المسلم صورة قاتمة من الفقر والجهل والمرض والعبودية والفوضى والطبقية والاحتكار والظلم . لقد كانت حياتها صورة قبيحة لحياة الجنس البشرى ، بينما كانت الحياة الاسلامية فى الأندلس تعيش حياة العلم الذى ارتفعت مناراته فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية ، ومع العلم الأمن والعدل والرخاء والاحترام ، والمجتمع

الفاضل الذى يعلم الناس أصول التعاشر الرفيع كأفضل ما تكون الحياة رفقا وعدلا وحنانا واخاء وايمانا .

كانت هذه الصورة لجارتين متجاورتين : أوربا الكافرة الجاهلة المنحطة ، والاندلس الاسلامى العالم المجيد .

لقد كان الاندلس مركز البعث الانسانى لأنه مسلم ، وكانت أوربا مركز الظلم والظلمات لأنها كافرة. ولهذا لم يكن الأندلس الاسلامى أنانيا فلم يضيق مساحات جامعاته ولم يقصرها على بنيه وأهله بل فتح جامعاته الاسلامية للعاشقين من شباب فرنسا وأوربا فى الثقافة والمعرفة فهرع الظامئون للعلم والحرية الى الأندلس ونهلوا من جامعات الاندلس الاسلامى علما غزيرا ولكنهم كانوا يحملون صفات خسيسة صفات المجتمع الرقيق فلم يحفظوا للاسلام جميلا بل قابلوا حسناته بجحافل من الكراهية والسيئات فكانت الحروب الصليبية وكان خروج الاسلام من الأندلس التى صارت دولة اسبانيا المسيحية اليوم .. ولم يكتف المسيحيون الأوربيون بذلك بل نظموا حملات حربية من نوع خاص تتمثل فى :

١ ــ التبشير .

٢ ــ الاستشراق .

والتبشير : يعنى التوجه الى الجماعة الاسلامية كأفراد ليحيلها الى أفراد مسيحيين .

والاستشراق : يتوجه الى الأفكار فى المجتمع الاسلامى ليشككها فى تاريخها وثقافتها ليوهى الفكرة الاسلامية حتى لا يجد المجتمع الاسلامى له قيادة تبصره فتسهل عملية التبشير الهادفة الى تحويل المجتمع الاسلامى الى مجتمع مظلم كافر .

وكان من أول المجالات التى يهاجمها مرضى الأعصاب المستشرقون : السنة الاسلامية ، وشيخ هؤلاء المرضى هو : جولد

زهير ، ولقد اعتمدت الحركة الصهيونية واليهودية من المال ما مكنه من نشر كل أحقاده وخبثه وتضليلاته وتشكيكاته وسمومه عن الاسلام والمسلمين .

وقد استطاع بخبثه ودهائه أن ينشر فى المجتمع المثقف أنه باحث نزيه وتلك واحدة من مفتريات المستشرقين عامة ومن شيخهم خاصة .

ان جولد زهير يهودى مسيحى فهو من سلالة خبيثة الأصل ، وينتحل دينا باطلا ، ولا تفتر جهوده لحظة عن تحطيم الاسلام ، وقد ركز هجومه على السنة فى نقاط أربع :

١ ــ القسم الأكبر من الحديث انما هو أثر من آثار المسلمين وضعوه فى عصر النضوج .

٢ ــ الدولة الأموية تدخلت فى وضع الحديث لتأييد وجهة نظرها السياسية وأنهم اضطهدوا العلماء وزادوا فى درجات المنبر على الثلاث .

٣ ــ الامام الزهرى من أمثلة العلماء الذين استغلهم العهد الاموى فى وضع الحديث .

٤ ــ يروى نصوصا تؤيد آراءه .

٥ ــ ادعاء أن الموطأ كتاب فقه .

مناقشة هذه النقاط

النقطة الاولى :

يدعى جولد زهير أن السنة وضعت بعد نضوج المسلمين وكلمة نضوج هذه كلمة براقة تخدع المسلمين كثيرا فى العصر الحاضر ، ويتغنى بها الأوربيون لأنهم عاشوا الحياة فى ذل وفقر .

واذا سألنا عن أسس النضوج وجدنا الأجابة كاملة فى ظل الدولة الاسلامية الأولى فوسائل النضوج هى :

دستور للدولة .
وقانون يضبط السلوك .
وجيش يحمى الذمار .
وحكومة تقيم العدل .

ومجتمع تقوم الروابط فيه على المحبة والاخوة والتعاون ولقد كان القرآن دستـــور الأمــة وكانت القوانين تشرعها السنة والعلماء فى ظل الخلافة الراشدة من بعد النبى صلى الله عليـــه وسلم ، وكان الجيش الإســلامى قد أنهى دولة الفرس فى معركة القادسية ودولة الروم فى معارك اليرمــوك وفتح مصر والاسكندرية وبرقة وتونس.

وكانت الحكومة الاسلامية تقيم العدل لغير المسلمين بينمــا كان المجتمع فى أوربا يقوم على الــذل والفقر والطبقية والجبروت والجهل والفحش والمرض .

وفى ظلال تلك الدولة التى تملك وسائل النضوج كانت السنة مدونة فى صحائف عبد الله بن عمرو، وأبو بكر وعلى ، وجلة من كبار رجــال الفكر الاسلامى حتى كان الزهرى فى عهد الخليفة الخامس عمر بــن عبد العزيز فجمـــع ما شاء الله من السنة ليهذبها من شوائب الفتنــة التى حلت بالأمة الاسلامية بعــد معارك الخلافة فيما بعد .

وجدير بالذكر أن نستشهد برأى رجل متعصب ضد الاسلام فيمــا يتعلق بنضــوج الأمة الاسلامية : يقول (جون جلوب) وقد أقامت معظم الدول الاسلامية منذ القرن السابع وفى مختلف العهود أنظمــة قضائية فعالة ونظمت فــرق الشرطة ٦٦٢ الفتوحات العربية .

ففى أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم امبراطورية عرفها العالم آنذاك ومن أعظــم الامبراطــوريات التى عرفها التاريخ ، ولم يسبــق لأية امبراطــورية بمثل هذه الضخامــة وذلك الاتساع أن أقيمت فى مثل هذا الــوقت القصـــير ــ ٦٥٥ الفتوحات العربية .

النقطة الثانية

يدعى شيخ المــرضى بالأعصاب جولد زهيــر أن الدولة الأمــوية تدخلت فى وضع الحديث لتأييــد وجهة نظرها السياسية وأن الدولة الأموية فى سبيل هــذا اضطهدت العلماء وأنه زاد فى درجات المنبــر على ثلاث .. وهذا جهــل فاضح

بحقائق التاريخ لأن معاوية بن أبى سفيان هو أول وال فى ظل خلافة سيدنا عثمان الذى نظم اسطولا بحريا لفتح بلاد شمال افريقيا والجزر الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط واستولى على مدينةقبرص وعاهد أهلها ثم عاد اليها عام ٦٥٣ م .

لقد كان رجال بنى أميةمشغولين بالفتوحات فأرسلوا الجيوش الى أفريقيا واوربا ليفتحوها للاسلام ورحلات الجيش الاسلامى فى عهد معاوية مدونة ، وفى عهد عبد الملك ابن مروان الى الأندلس وغرب أفريقيا وكان رجال بنى أمية على رأس هذه الحملات فلم يكنعندهم فراغ لمثل ما يدعيه جولد زهير .

أما الحرب التى شنها الأمويون على الشيعة والخوارج فليس ذلك من قبل اضطهاد العلماء فليس فى الاسلام تحزب ولا فرق .

« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فىشىء انما أمرهم الى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون » (١٥٩ الأنعام) .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (آل عمران ١٠٥) .

« منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم ٣١ : ٣٢) .

فالشيعة والخوارج أحزاب سياسية ولا تمثل جبهة العلماء التى يدعى جولد زهير انهم اضطهدوا فى عهد بنى أمية .

أما ما يدعيه من أن بنى أمية زادوا فى درجات المنبر على ثلاث كدليل على ما يدعيه أنهم وضعوا أحاديث لنصرة مذهبهمفتلكواحدة من العقليات اللاهوتية المسيحية اذ الزيادة أو النقص فى درجات المنبر لا ترتبط بمبدا اسلامى فليستحوائط المسجد وأبنيته جزءا من الصلاة أو شرطا لها كما هو فى المسيحية اذ تجعل الصلاة فى غير كنيستهم غير صحيحة فالكنيسة جزء من صلاة المسيحية .

وتلك فاضحة لعقلية جولد وواحدة من أدلة جهله بالفكرة الاسلامية .

النطقة الثالثة

يدعى جولد أن الدولة الأموية استغلت الزهرى فى وضع الحديث .

أما علماء الاسلام فقد كفونا الرد على هذا الافك .

يقول علماء الجرح والتعديل :

١ ــ كان الزهرى ثقة كثير العلم والحديث والرواية فقيها جامعا (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

٢ ــ الزهرى أحسن الناس حديثا وأجودهم اسنادا (ابن حنبل) .

٣ ــ أصح الأسانيد أربعة : أولها الزهرى عن سالم عن أبيه (أبو زرعة) .

٤ ــ كان الزهرى من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار وكان فقيها فاضلا (ابن حيان فى كتابه : الثقات) .

٥ ــ حدثنى أبى قال : الزهرى مدنى تابعى ثقة (صالح بن أحمد ابن حنبل) .

ومع هذا فالزهرى أمر بجمع السنة من أصلح خلفاء التابعين وهو عمر بن عبدالعزيز ، ولا يشك واحد من المؤرخين المتعصبين أو المتسامحين فى أن عمر بن عبد العزيز كان من أعدل الخلفاء وكان عهده سلاما وأمانا ورخاء : لقد خرجت الصدقات فيه ثم عادت الى خزائن الدولة لأنها لم تجد فقيرا ، فلأى سبب ولأية غاية يضع الزهرى لبنى أمية أحاديث وقد استقرت دولتهم بعد مقتل الحسين فى كربلا ؟

ومع هذا فلم يحفظ التاريخ لبنى أمية نشاطا مطلقا فى جمع الحديث حتى الصحائف التى جمعها الزهرى لم تصل الى عمر بن عبد العزيز لأنه مات قبل أن ينتهى الزهرى منها فليست هناك فرصة ولا مندوحة يمكن أن يتأتى منها اتهام أن الدولة الأموية استغلت الزهرى فى وضع الحديث .

النقطة الرابعة

النصوص التى رواها جولد تؤكد جهله وكذبه

يدعى جولد : ان وكيعا يطعن فى زياد بن عبد الله ويرميه بالكذب فينقل نصا ويحرفه عمدا ليصل الى كذبه وافتراه فيقول :

من قول وكيع عن زياد بن عبد الله من أنه كان مع شرفه فى الحديث كذابا •

ومع أن النص العربى يأباه فان نص العبارة كما وردت فى التاريخ للامام البخارى ص ٣٢٩ جـ ٢ القسم الأول •

وقال ابن عقبة الدوسى عن وكيع هو : أى زياد بن عبد الله أشرف من أن يكذب •

ولكن المستشرق اليهودى بما فيه من صفات الكذب والخسة يحرف النص ليصل الى هواه الدنىء •

وللأسف فان ثلة من مفكرى المسلمين يثقون فى علم المستشرقين المبنى على :

١ ــ النص المحرف •

٢ ــ الفهم الخطأ •

٣ ــ التخريب العمد لثقافة الاسلام •

٤ ــ الكراهية للمسلمين •

النقطة الخامسة

يدعى المستشرقون أن الموطأ كتاب فقه لا كتاب حديث وتلك واحدة أخرى من جهلهم مناهج التدوين للسنة فتدوين السنة له عدة مناهج :

١ ــ منهج الاسناد ، وهو المعروف اصطلاحيا بالمسانيد مثل مسند الامام احمد بن حنبل •

وهو أن يدون كل ما رواه راو واحد فى مسند واحد •

٢ ــ منهج التبويب ، حسب الموضوعات ، مثل كتاب الطهارة وكتاب الصلاة •

وهذا ما فعله مالك ثم تبعه بعد ذلك البخارى ومسلم •

غير أن هذا المنهج يتبع شخصية المدون • فان كان فقيها علق على كل حديث فيه حكم فقهى وذلك ما فعله مالك رضى الله عنه وأشغله

بالنص على عمل أهل المدينة فى أحاديث الأحاد ، وشروحه لبعض المفردات ولقد كان مالك محدثا وفقيها وكان الموطأ كتاب حديث لا كتاب فقه بدليل أن فيه اسنادا لأبى حنيفة ومحمد بن الحسن وأبو يوسف وهؤلاء أئمةمجتهدون والمجتهد لا ينقل عن مثله رأيا وانما ينقل حديثا .

والأوزاعى يروى عن مالك : والأوزاعى فقيه ومالك فقيه ، والرواية لا تكون فى الفقه انما تكون فى الحديث .

يقول الامام الشافعى : ما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك .

يقول ابن الصلاح : مقالة الشافعى قبل أن يظهر البخارى .

فالمقابلة دليل على أن الموطأ كتاب حديث لا كتاب فقه .

يقول سفيان بن عيينة : كان مالك لا يبلغ من الحديث الا صحيحا ولا يحدث الا عن ثقات الناس .

وقال يحيى بن سعيد : كان مالك اماما فى الحديث .

وهكذا ترون جهل المستشرقين وغباءهم وكذبهم ليوهوا ثقة المسلمين بثقافتهم وآراء علمائهم وصدق الله العلى العظيم .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (البقرة ١٠٩) .

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » (آل عمران ١٠٠) .

« ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (البقرة ١٠٥).

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » (آل عمران ١١٨) .

وبالله التوفيق .

دكتور رءوف شلبى

الإلحاد المادى .. والعبادة

بقلم: الدكتور يحيى هاشم

يقول الاستاذ اسماعيل مظهر :

لماذا حمل دكتور شبلى شميل على الأديان ؟

« حمل عليها متابعة لرأيه المادى جريا وراء غاية محدودة ، غايةسعى اليها كثير من ماديى القرن الثامن عشر .

وتنحصر تلك الغاية فى أن يتبدل الناس بدينهم دينا آخر .

وما هو ذلك الدين ؟

هو عبادة المادة .

أرادوا أن ينظروا اليها على أنها المصدر الأول للانسانوالعلة الأولى التىفطرته وانها التىتحبوه بأسلوب الحياة التى ينعم بها فوق هذه الأرض .

ناهيك بأن اليها مرده ومعاده..»

والتعبد للمادة ليس سنة الماديين المحدثين فحسب بل هو سمة اسلافهم أيضا . انظر ما يقوله الامبراطور مارك اويل انطونين أحدأعلام الرواقيين ، وهم ماديون :

(اننى انما أتكون من صورة ومادة ، كلاهما لا يمكن أن يعدم الى شىءأو يكون قد حدث من لا شىء .

كل ما يلائمك أيها الكون الفسيح يلائمنى .

وكل ما تنتجه أسبابك أيتها الطبيعة العظمى ثمرة شهية عندى.

منك كل شىء .

وفيك كل شىء .

واليك يعود كل شىء) (١) .

(٢) أما مادية هولباخ الدجماطيقية (القطعية) فتقوم على

(١) ملقى السبيل ص ٤٣ ، ص ١٥٥

تأليه المادة ، أو وصفها ببعض الأوصاف التى يختص بها الله وهى تقوم على الأسس التالية :

١ ــ تقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بأن المادة موجودة بذاتها ومن ثم فلا حاجة الى البحث عن قوة صانعة لها ، أو مدبرة لحركتها .

وسوف نبين فى خاتمة هذا البحث فى مناقشتنا لحقيقة الخلاف بين الماديين والمؤمنين حول المعبود ما تقع فيه المادية من قصور وتقصير، وتناقض لا يمكن تجنبه الا بالاعتقاد بوجود الله .

كما سنبين فى « نقائص العلم » عجزه بحسب طبيعته عن الامتداد فى الماضى الى حد يدرك فيه أصل الوجود ، وعن الامتداد فى المستقبل الى حد يدرك فيه غايته ، ومن هنا تصبح المادية فى حكمها على أصل الوجود ، بغير سند من العلم .

ب ــ وتقوم مادية هولباخ :

على ادعاء أن الايمان بالمادة « المعلومة » أولى من الايمان بغيرها من القوى المجهولة يقول :

«انه لأقرب الى الطبيعى والمعقول أن ننسب الى المادة كل شىء موجود ، لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ...

من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة » (١) .

وقد بينا فى مبحث « غيبيات المادة » سذاجة هذا الاعتقاد ، حيث آلت المادة الى شىء مجهول وسنبين فى عجز العلم عن ادراك حقيقة الأشياء أن الادراكات الحسية لا تشبه حقيقة المادة المدركة فى شىء .

حـ ــ وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بأن « العلم النيوتونى » يتضمن تفسيرا كاملا للكون ، ولا يحتاج لاضافة من أى نوع (٢) .

وقد تبين سذاجة هذا الاعتقاد حيث تداعى التصور النيوتونى للعالم ، وجاءت الفيزيقيا الحديثة ،

(١) تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٤٣٩

(٢) انظر تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٤٣٦

والنظرية التطورية بما يقلب هـذا التصور رأسا على عقب ، كما تبين ما استقر عليه الرأى مـن أن العلم التجريبى انما يقدم وصفا للوقائع ، ولا يقدم تفسيرا عنها ، الأمر الذى يحتم أن تكون هنـاك اضافة ، اضافة أساسية ، ترضى حاجـة العقل الى التفسير .

ولن تأتى هذه الاضافة الا من مصدر له علم بمـا وراء المادة ، وظواهرها ، اى من الوحى .

د ـ وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بحتمية القـوانين الطبيعية وأن هذا يبطل الاحتجاج بوجـود النظام فى الكـون على وجـود الله (١) .

وقد بينا بطلان هذا الاعتقاد فى مبحثينا عن لا حتميـة القـوانين الطبيعية ، وأن هذه الحتمية ـ على فرض ثبوتها ـ لا تلغى القـول بالارادة الالهية .

هـ ـ وتقوم مادية هولباخ على انكار القول بأن الكائنات الذكية تستمد ذكاءها من غير المادة ، فمن ثم تدل على علة ذكية قائمـة وراء المادة .

ينكر هولباخ ذلك ويرد الذكاء أو العقل أو الوعى الى المادةباعتباره ظاهرة من ظواهرها (٢) .

وقد بينا فساد هذا الاعتقاد .

وعلى فرض صحته ، فانه يجعل المادية تؤول حتما الى الدخول فى حظيرةاللاأدرية وذلك لأن هـذا الاعتقاد يجعـل « الوعى » اسمـا لحالة توافقية من حالات تشـكل المادة .

وهنا تصبح المعرفة الناتجة عن هذه الحالةالتوافقية ـ حالة عرضية مفتقرة الى أى مبرر يدعـونا الى اتخاذها حكما على حقيقة الوجود وكونه وجودا مـاديا . ومن ثم تصبح المادية بالرغم من أصحابهـا نوعا من اللاأدرية .

(١) المصدر السابق ص ٤٣٩
(٢) المصدر السابق ص ٤٤١

(٣) أما هربرت سبنسر فانه اذا كان قد ابتعد عن الديانة المسيحية فقد أخذ يتعبد لما سماه «المطلق» .

واذا كان المطلق عنده لا يمكن معرفته « فانه يصف هذه اللاأدرية بأنها : هى على التحقيق عند العقل البشرى الاتجاه الدينى نفسه » .

ويصف المطلق ــ مع ذلك ــ بأن له وجودا (يبلغ من سموه على العقل والارادة مبلغ سمو العقل والارادة على الحركة الميكانيكية) .

وهو يرتعد فرقا عندما يخلو الى نفسه ليتأمل هذا المطلق الذى هو كما يصرح هنا «المكان اللانهائى» .

يقول : «الأصل الكلى فكرة سابقة على كل خلق وكل تطور ، ويسمو عليهما الى غير نهاية » امتدادا وزمانا ، لأن كلا منهما ــ لكى يكون معقولا ــ يجب أن تكون له بداية ولا بدء للمكان (! !) .

ان فكرة هذه الصورة العارية عن الوجود (١) (!!) والتى يرتادها الخيال من جميع أطرافها تحتوى دائما على مناطق مجهولة لا حد لها بالاضافة الى الأجزاء التى ارتادها العقل . أن تمثل مكان يرد فيه نظامنا النجمى الهائل الى نقطة فى بحر لأمر رهيب يشق على العقل . وكلما تقدمت بى السن أحدث الشعور ــ الذى لا أعرف له أصلا ولا علة ــ بأن المكان اللانهائى قد أوجد ــ (!!) وينبغى أن يوجد دائما ، أحدث فى نفسى انفعالا يجعلنى أرتعد فرقا) (٢) .

وهنا يدافع هربرت سبنسر عن نفسه ضد من يرى أن هذه اللاأدرية تؤول الى «اللادينية » مقررا انها (على التحقيق هى عند العقل البشرى الاتجاه الدينى نفسه) . يقول :

« أولئك الذين يذهبون الى أن اللاأدرية ترادف اللادينية انما يقعون فى هذا الخطأ لاعتقادهم أن الاختيار هو بين القول بالشخصية، وبين صورة من الوجود أقل منها ،

(١) انظر قوله قبل ثلاثة سطور « ان له وجودا »

(٢) انظر العلم والدين ص ٨٩

فاذا قلنا بالمطلق باعتبار انه ليس شخصا فهذا بحسب رأيهم اثبات انه أقل من شخص .

لكن الحقيقة ليست كذلك .

ان الاختيار انما يقع بين « الشخصية » وبين المطلق الذى هو أسمى منها .

اذ أليس من الممكن وجود نوع من الوجود يبلغ من سموه على العقل والارادة والشخصية مبلغ سمو العقل والارادة والشخصيةعلى الحركة الميكانيكية » .

ويعلق أميل بوترو على هذا فيقول :

« ألا يحق لنا القول بأن مذهب الفيلسوف اللاأدرى يفصح فى هذا الموضع عن اتجاه روحى صوفى » (١) .

ونقول : زائغ ..

وبعد : ..

فاذا كان من المفروض أن سبنسر يذهب فى نظرته التجريدية « للمطلق » الى أعلى الدرجات « فانه لا يسعنا أن نرى فى نظرته اليه هنا على انه «المكان اللانهائى» الذى يرتاد الخيال أجزاء منه الا ارتكاسا فى المادية » .

وهنا نسجل عليه كما يقول أميل بوترو :

« الحق ــ كما يقول كثير من الفلاسفة المعاصرين ــ ليس الما لا يعرف عند هربرت سبنسر مبدأ علميا » (٢) .

لأن العلم عنده انما يقوم على الوقائع .. .

(فالوقائع هى الأصل الوحيد للمعرفة ، ولا ينبغى أن نسمى الوقائع وقائع الا ما ندركه او ما يمكن ادراكه كأشياء خارجية توضع فى مقابل الشخص المدرك) .

كما نسجل من ناحية أخرى أن هذا المالايعرف لا يصلح أن يكون دينا على أى وجه من الوجوه .

وكما يقول أميل بوتور « لن نستطيع مع مذهب سبنسر أن نضع

(١) العلم والدين ص ٨٨
(٢) العلم والدين ص ٩٣

الناس فى حضرة الموجـــود الذى يصدر عنه كل شىء لكى نقول لهم بعد ذلك : انهم لن يتمـكنوا من معرفة شىء عن هذا الموجـود أو توقع شىء منه » (١) .

وكما نقول نحن : يصبح الدين مسخا اذا خلا من الوحى .

(٤) وفى الفلسفة الوضعية التى قامـت على استبعـــاد الـــدين والميتافيزيقا انتهى زعيمها الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٧٥) الى اختراع ما سمـــاه « ديـن الانسانية » وفيه تكون «الانسانية» هى المعبود ، وابطالها هم موضـع التعظيم والتكـريم ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، حيث وضع لهـذا الدين الجديد معبدا حقيقيا ، تنصب فيه التماثيل ويصاغ فيه تمثال المعبود « الانسانية » على هيئـة انثى ، وتقام بجواره تماثيل نصفية لأبطال التاريخ .

انه فى يوم الجمعة ١٠ ابريـل ١٨٤٦ .. أى بعد وفاة معشوقته بخمسة أيام فقط .. نجد كونت ..

يبدأ فى تأسيس نظـــم « ديـن الوضعية » .

المعبد : شقتها الخاصـــة التى عاشت فيها .

قدس الأقداس : المقعد المكسو بالقطيفة الحمراء الذى جلست عليه عندما زارته لأول مرة وآخر مرة فى بيته .

رفات « ام البشرية » : خصلات من شعرها ، مناديلها ، رسائلها ، وشاحها قفازها ، صورتها الخ .

انجيل الوضعيـة : مجلد ضخم مكون من ٥٦٠ صفحة ويحتـوى على الألف رسالة حب التى كتبهـا لها خلال سنتين ابتداء من أول لقائه بها الى وفاتها .. وبعض رسائلها القليلة .

وها هى بعض طقـوس « دين الوضعية » كما عرفها أوجست كونت فى مؤلفه « الوصية » .

صلاح الصبح : فيها «الكاهن» اوجست كونت واتباعه من تلاميذه أمام محراب كلوتيلد .

(١) العلم والدين ص ٩٧ .

وتستهل الصلاة بهذه الكلمات : « من الأفضل أن يحب الانسان على أن يكون « محبوبا » أما آخر دعاء فيقال أمام الرفات : وداعا يا شريكة حياتى الدائمة .. وداعا يا زوجتى وابنتى وداعا يا أم البشرية » .

معابد أم البشرية :

والشيء العجيب أن ديانة الوضعية ما زالت لها معابدها حتى اليوم فى فرنسا .. أى فى عام ١٩٧٩ بعد الميلاد .. وما زال يحج اليها الوثنيون من اتباع الوضعية المتطرفة .. وأشهر هذه المعابد فى شارع « بايين » فى باريس حيث الشقة التى عاشت فيها كلوتيلد .

وفى شارع « مسيولى برنس » حيث الشقة التى عاش فيها اوجست كونت .. هذا غير عشرات المعابد الأخرى فى باريس .

والأعجب من هذا أن أكبر معبد لكلوتيلد « ام البشرية » مقام الآن فى ريو دى جانيرو فى البرازيل .

وأعجب العجب أن علم البرازيل يحمل شعار ديانة الوضعية كما تصوره (كونت) .

أما عن الفيلسوف العاشق فرغم حبه .. فقد ظل محتفظا بكامل قواه العقلية الفلسفية والعلمية .. فقد عاش بعد كلوتيلد أحد عشر عاما .. وكان يلقى فيها محاضراته فى الجامعة كما ألف ثلاثة كتب أخرى عن الوضعية أهمها : « السياسة الوضعية » (١)

واذا كان البعض قد يحلو له أن يدافع عن وضعية كونت باستبعاد هذا الدين بدعوى انه ــ أى هذا الدين ــ انما يعبر عن هلوسة عاشق ...

فاننا نجد من المؤرخين من يجد لهذا الدين مكانه فى البناء المنطقى للمذهب الوضعى عند كونت ، بالرغم من علاقة الحب تلك .

يقول أميل بوترو بعد أن يتساءل :

كيف تم ادماج هذا الدين فى المذهب الوضعى بأسره ؟

(١) انظر مجلة اكتوبر فى ١٣/١١/١٩٧٧

يقول : « حصل ذلك على أثر هوى كونت لكلوتيد دى فو وهذه واقعة لا سبيل الى الشك فيها ، ولكنها لا تنطوى بالضرورة على الدلالة التى ينسبها اليها الكثيرون.

ان ضآلة المحبوب ، بالاضافة الى مزاج كونت العاطفى يجعلان من هذه الحادثة سببا عارضا» (١).

ثم يقول أميل بوترو : « لا تتجه عبادة المذهب الوضعى الى ذكرى أبطال الانسانية فقط ، بل موضوعاتها الأساسية :

الموجود الاعظم أو الانسانية .

والمعبود الأعظم أو الأرض .

والبيئة العظمى أو المكان .

هذه الأقانيم الثلاثة تكون ثالوث المذهب الوضعى » (٢) .

واذن فان من حق النقاد أن يوجهوا سهامهم الى هذه الديانة الوضعية . ويبدو التناقض صارخا بين الوضعية من حيث هى احتجاج على الالوهية ، والميتافيزيقية معا . والانسانية من حيث هى كيان ميتافيزيقى غيبى .

يقول أميل بوترو :

« لئن اتخذنا الانسانية مقياسا للأشياء فلن نغلق باب عصر المباحث الميتافيزيقية والدينية الى الأبد، ولكننا نفتحه من جديد » (٣) .

ويقول وليم جيمس عن الديانة الوضعية :

« لقد أصبحت قوانين الطبيعة المادية فى هذه الايام أيام الفلسفة الوضعية موضوعات مستحقة للتمجيد الذى لا يكون الا لله »(٤).

ويقول عن جناح من أجنحة الوضعية المتشددة فى وضعيتها :

« لا يزال بعض رجال المذهب الوضعى ينادى اليوم قائلا :

هناك اله واحد مقدس ، يقف فى

(١) العلم والدين ص ٦٢
(٢) العلم والدين ص ٥٣
(٣) العلم والدين ص ٦٧
(٤) العلم والدين ص ٨٩

جلاله وعظمته بين انقاض كل اله غيره وكل وثن (!!) ــ وهــو الحقيقة العلميــة ــ وليس له الا أمر واحد ، وقول واحد وهو أن ليس لكم أن تؤمنــوا باله لأن الايمان بالآلهة ارضاء للميــول الذاتية » .

وهم فى ذلك مخدوعون ، انهم لم يفعلوا شيئا الا أنهم قد اختاروا من بين ميولهم المتعددة ، الميــول التى تنتج أبخس النتائج وأحطهــا قدرا ، بل وأكثرها اقحالا ، وأعنى بذلك : مجرد عالم ذرى ، وضحوا بكل ما عدا ذلك من الميول .

انهم يقولون : «دع العالم يفنى ليحيا العلم . كما قال أشباه لهــم دع العدل يتم ولو أفنى العالم » فهل تجدون وثنا صنــع فى كهف أجمل من هذا الوثن ؟ واذا أردنــا أن نقول بتطهير العالم من الخرافات فلندع الوثن من الالتزام الصارم نحو العلم يذهب مع بقية الخرافات وسيجد الناس فرصة طيبة ليفهــم بعضهم بعضا » (١) .

(٥) وفى الفلسفة الماركسية التى قامت على المــادية الــديالكتيكية (الجدلية) انتهــى التفــكير الى اضفاء صفات الالوهية على «المادة» فهى تتصف بأنها « أصل الوجود» وانها « باقية » لا تفنى ، وانهــا « لا نهائيــة » ، وان قانونهــا « الديالكتيك » يفرض نفسه على كل الأشياء ثم ذهبت هذه الماركسية أيضا خطوة أعمق فى طريقها الى جعل هذه الفلسفة « دينــا » ، حيث رأت ضرورة ادخالهــا فى عقول العمال وقلوبهم ، باعتبارها فلسفة « الشغيلة » التى يعتمد عليها وعليهم فى تغيير المجتمع وتثويره ، ومن أجل ذلك ادخل زعماؤهم فى اطار القــداسة التى تضفى على الأنبياء ، وكان لهم أصنام ومزارات يحج اليها الناس من أرجاء البلاد .

بل أن عبيد المادة هؤلاء عندمــا يجدون صعوبة فى التعبير عن الههم يعتذرون بمثل مايعتذر به المؤمنون من ضيق وعاء اللغة البشرية عــن استيعاب حقائق الالوهية .

(١) العقل والدين ص ٩٨

وهذا ما يعبر عنه مقال ديمترى ب. جورسكى عن « التمثيل العلمى للحقيقة وصعوباته » .

وهذا ما قاله لينين عن « الحركة » وصعوبة وصفها أو التعبير عنها . يقول : « نحن لا نستطيع أن نحقق الحركات أو أن نعبر عنها ، أو أن نمثلها بدون ان نعطل التيار المتصل ، وبدون أن نعمد الى تقسيمها وقتل الحساسية فيها .. » (١) . الخ .

وهذا يؤكد ما نقوله عن حلول المادة محل الاله فى الفكر المادى بما يكتنف هذا المحل من غيبية وتأب عن احاطة الفكر البشرى .

والماديون الملحدون يتناقضون مع أنفسهم هنا عندما يرفضون هذه الصعوبة فى مجال اللاهوت ويتقبلونها فى مجال المادة .

وهنا يبدو لنا واضحا بطلان الماركسية فى ذهابها الى أن جدلية المادة كافية فى تفسير حركتها وتطورها .

أولا : ان هذا القول يقوم على الاعتقاد بقدم المادة والحركة معا وانه لا مادة بغير حركة ولا حركة بغير مادة . وقدم المادة يعنى قدم الحركة فى نفس الوقت .

ونحن نناقش فى قدم الحركة فنقول :

ان قدم الحركة لا يستقيم الا بالقول بالحركة الكاملة . ولو كانت الحركة كاملة لما كان سكون .

لأن السكون نقص فى الحركة .

لكن السكون حاصل بالفعل .

لأن الحركة منها بطيئة ، ومنها سريعة .

ـ وهذا ثابت بالمشاهدة ـ والحركة البطيئة لا تكون كذلك الا لما يتخللها من سكونات ، وإذن فقد ثبت أن السكون حاصل بالفعل .

فبطل القول بالحركة الكاملة . وثبتت الحركة الناقصة .

(١) مجلة ديوجين العدد الثامن نوفمبر ١٩٦٨ ص ١٤٢

ونقصان الحركة يتنافى مع قدمها .

لأن الحركة الناقصة تعنى تخلل السكون لها كما قدمنا .

واذا تخلل السكون الحركة لم يكن أيهما ذاتيا للمادة ، ـ لقبولها كلا منهما . فلم يكن أيهما أولى بالأسبقية من صاحبه ، فاحتاج فى أسبقيته الى مرجح ، فكان لا بد أن يكون مسبوقا بالمرجح فلم يكن قديما .

واذن فقد ثبت أن الحركة التى للمادة لا تكون قديمة .

فثبت حدوث الحركة .

واذا أثبتنا حدوث الحركة .

فاما أن تثبت حدوث المادة ، على فرض تلازمهما كما هو مذهب المادية الجدلية وفى هذا نقض لها.

واما أن تثبت انها ـ أى الحركة ـ ليست ذاتية للمادة .

فاحتاجت المادة فى حركتها الى محرك قديم .

وهو الله .

(ب) ولا يفيد الخصم فى هذا المقام الاعتماد على قانون بقاء الطاقة .

أولا : لما ثبت من أنه قانون افتراضى يجرى حاليا ترقيعه بافتراضات أيضا كلما ظهر ما ينقضه من كشوف الذرة .

ثانيا : لأنه يتضمن التسليم بانتقال الحركة وتوزعها، وتخلل السكون لها ، وهنا يأتى ما ذكرناه .

(جـ) وقد يفيدنا نحن الاشارة الى نسبية الحركة كما ثبتت أخيرا فى النظرية النسبية. يذكر العلماء أن نيوتن كان قد (أقام برهانا يثبت به أن الحركة حول محور لا بد أن تكون مطلقة وليست نسبية ، وانه على الرغم من أن خصوم هذا الرأى لم يستطيعوا أن يجدو عليه ردا الا أنه كان لديهم البرهان على صحة الرأى المضاد . أى على أن كل حركة لا بد أن تكون نسبية ، وكان برهانهم يبدو على أقل تقدير مساويا للرأى الأول فى درجة الاقناع .

وظل هذا التضارب قائما بغير حل حتى أثبت اينشتين نسبية الحركة فى نظريته عن النسبية) (١) .

ثانيا : ويقدم العلم الحديث الدليل على أن جدلية المادة لا تكفى فى تفسير حركتها التطورية وذلك باكتشاف ما يسمى « الطاقة الضامة » .

ويقول العلماء عن هذه الطاقة : أنه لما كانت النيترونات عديمة الشحنة فانه يجب ألا تجذب البروتونات أو النيوترونات الأخرى ولكنها تجذبها فعلا ؟

ولما كانت الشحنات التى من نوع واحد تتنافر ، فان البروتونات الموجبة يجب أن يبتعد بعضها عن بعض ، ولكنها لا تفعل ذلك ، وبدلا من هذا يحدث العكس اذ يحتاج الأمر الى كمية هائلة من الذخيرة لفصل الحبيبات من النواة بعضها عن بعض أكثر مما يلزم لفصل الالكترونات عن البروتونات .

وتسمى القوة الشديدة التى تحفظ أجزاء النواة بعضها ببعض بالطاقة الضامة .

وهذا الاسم يبين ماتفعله هذه الطاقة ولكنه لا يوضح طريقة عملها (٢) .

وهذا فى رأيى له دلالة هامة، اذ يعنى أن جدلية الجزيئات (سالبة وموجبة) لا يكفى لتفسير تركيبها أو العلاقة بينها أو تطورها .

وهذا فى حد ذاته يكفى لنقض المادية الجدلية عند ماركس .

ثالثا : أما قدم المادة وهو من أسس المادية الجدلية ، فسوف نتعرض له بابطاله فى مقام لا يختص فيه الكلام بالمادية الجدلية لأنه من ركائز المذاهب المادية عموما .

وذلك فى البحث الخاص بمزاعم العلم ، عند الكلام عن « ان حتمية القوانين الطبيعية لا تلغى الارادة الالهية » . وعند الكلام فى اثبات

(١) فلسفتى لبرتراندرسل ص ٤٥

(٢) العالم من حولنا ص ٥٩ ـ ٦٠ وانظر بواتق وأنابيق ص ٥١٦

الحاجة الى العـــلة الأولى ، أو الارادة القديمـــة ، وفى كلامنـــا السابق عن احتياج العالم الى الله طبقا لقوانين الفيـــزياء الحديثة .

رابعا : انه فى البناء الماركسى يقوم الجـــانب العلمى عـــلى الجـــانب الاعتقادى ، لا كما يدعى أصحاب شعار « الاشتراكية العلمية » . ففى مقال نشرته البرافدا فى عام ١٩٤٩ يقول رئيس اكاديمية العلوم فى الاتحـــاد الســـوفيتى س. ا. فاينلوف تحت عنوان « لينيـــن والمسائل الفلسفية التى بالفيـــزياء الحديثة » :

(ان الفيـــزياء الســـوفيتية تبنى عملها على ما اعتنق العالم من المادية الديالكتيكية (وليس العكس..) تلك التى رفع من أمـــرها تآليف لينين وستالين ... ولكنا لا يمكن أن نغفل حقيقة واقعة تلك أن بعضا من فيزيائيينا ما زال عندهم بقايا من آراء من المذهب التصورى .

ان من أخطر الواجبات علينا أن نحارب هذه البقايا من ذلك المذهب المنقرض بالنقد الذى لا يرحم...)

وفى مقال نشرته المجلة الاسبوعية الانجليزية ناتشر فى مـــايو ١٩٥٠ جاءت هذه الكلمة لعضو من معهد علم الوراثة التابع لاكاديمية العلوم بموسكو يقول : (اننا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم ــ وكـــذا العلم السوفيتى ــ انما هو علم حزبى طبقى . ان الطبقات المتوسطة ومن يصوغون لها مذاهبها ــ سواء كانوا بيولوجيين أو غيـــر بيولوجيين ــ كانوا دائما فى خوف من أن يقروا صفة العلم الحزبية .

ويقول الدكتور جيمس كونانت معلقا على ذلك :

(ان معتنقى المادية الجدلية فى كل الأرض يضعون العلوم الفيزيائية من التقدير فى الموضـــع العالى ، ويتحدثون فى ذلاقة وفى ثقة عـــن المنهج العلمى .

ولكن عندما يؤخذ نص خاص من نصوص هذا المـــذهب الفلسفى فيحول الى مبدأ رسمى من مبادىء الحزب لا يأذن لذى رأى مخالف أن يقوم الى جانبه وعندئذ لا يمكن

أن يكون للعلم استقلال) (١) .

فهل نجد أدنى فرق بين موقف الماركسية هذا وبين موقف الكنيسة فى العصور الوسطى من العلم كما يصوره الاستاذ اسماعيل مظهر فى قوله :

(قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يصح أن يبشر فيه بأقل مخالفة لما جاءت به الاسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين ... وزاد الطين بلة أن اللاهوتيين ومن ورائهم الكنيسة وعلى رأسها البابوات المعصومون من الخطأ كانت قد زكت المذاهب اللاهوتية التى ذاعت فى تفسير الانجيل والتوراة باجازتها حينا بعد حين فأصبحت تلك التفاسير فى الواقع مقدسة كأصل المتون نفسها) (٢) .

(٤) أما ارنست هيكل (١٨٨٤ ــ ١٩١٩) فى محاربته للدين فهو يدعو الى وضع فلسفة علمية أو تأويل عقلى لنتائج العلم ــ تعالج فيها المسائل التى تركت من قبل للدين والميتافيزيقا .

وعنده أن الفلسفة المستخلصة من العلم تتلخص فى كلمتين الواحدية والتطورية ، فمن جهة الموجود واحد ، وجميع الموجودات ذات طبيعة واحدة ، وليس الخلاف بينها الا فى الدرجة ، أى كميا .

ومن جهة أخرى هذا الموجود ليس لا متحركا ، بل فيه مبدأ التغير ، وهذا التغير يعد فى ذاته ميكانيكيا بحتا خاضعا لقوانين ثابتة .

ولكى يتخلص أرنست هيكل من النقد الموجه الى المادية التى تفترض فيها المادة ــ فى أصلها ــ شيئا عديم الحركة ليست له هيئة معينة ، اذ يقال فى هذا النقد كيف أمكن أن يخرج من هذا العدم

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم لجيمس ب كونانت ترجمة أحمد زكى ص ٤٨٩ ، ٤٩٠

(٢) الاستاذ اسماعيل مظهر فى مقدمة ترجمة لكتاب بين الدين والعلم لاندروديكسون وايت ص ١٩ ، ص ٢٠

امكانيات مثل القوة والحركة والاحساس ؟

ولكى يتخلص من النقد الموجه الى التطورية ككلمة سحرية ، بمقتضاها تتسلسل الكائنات بالطبع بعضها من بعض ، بفعل الميكانيكية المنتظمة البسيط ، اذ يقال فى هذا النقد : ما أصل التطور نفسه وما غايته ، وهل يمكن تصوره بغير أن ننسبه لفعل فائق على الطبيعة ؟

لكى يتخلص هيكل من هذا كله قال :

(نحن نرى ان المادة لا يمكن أن توجد وتعمل بغير العقل) (١).

حسن ، لقد اضطر هيكل الى الرجوع ـ مؤقتا ـ الى قاعدة التأليه التى يقول بها الدين .

وهو يقول أيضا « المادة التى فرضناها لا تتنافى مع الله » .

لكنه ما لبث أن زاغ ، اذ يقول :

(بل هى ـ أى المادة ـ الله نفسه ، اله داخل الطبيعة متطابق معها) (٢) .

وهنا يصبح لهيكل دين خاص به ، واله يدعى انه استنبطه بالعلم ، وانه يرفضه اذا جاء من الوحى ، يقول :

(الأديان تقوم على الوحى ، والعلم لا يعرف الا التجربة ولا يمكن لصاحب عقل مستنير أن ينتمى لكليهما فى آن واحد ، بل يضطر الى الاختيار واليوم لا يملك الشخص الغريب عن الثقافة الحديثة ـ يقصد الفلسفة العلمية ـ من العقل الا مقدار ماكان يملكه أقاربنا من الثدييات كالقردة ، أو الكلاب أو الفيلة) (٣) .

والخلاصة ان هذا المتعالى على الدين ، الداعى الى ما يسميه الفلسفة العلمية او الواحدية ليست الواحدية عنده ـ فى حقيقتها ـ

(١) العلم والدين ص ١٠٨
(٢) العلم والدين ص ١١٠
(٣) العلم والدين ص ١١٦

الا نوعا من وحدة الوجود على أساس مادى .

ومع ذلك يقول أميل بوترو : (نحن اذا مضينا مع النتائج العلمية لهذه الفلسفة أفضت بنا الى العبادة الثلاثية للحق والخير والجمال ، وهو ثالوث واقعى يحل مكان الثالوث الوهمى للمسيحية ..) (١) .

وهكذا يستبدل هيكل دينا بدين .

بدين ، يستبدل الذى هو أدنى

وهو يعتقد ان الدين لم يبتدع لزهو رجال الدين ، بل لانه يهدف الى اشباع حاجات جوهرية عند الانسان ، ومن ثم فهو يبحث لثالوثه عن معبد. واذا كان يرى ــ مؤقتا ــ أن الكون بأسره هو معبد هذا الثالوث ، فهو لا يستبعد أن يحدث فى القريب (أن ينتقل عدد كبير من كنائس المسيحيين ، الى جماعات الواحديين) (٢) .

وهنا نسجل أن هذه الفلسفة العلمية التى يدعو اليها هيكل على انها « سلب للاديان ، وبديل عنها » تتنكر للمفهوم العلمى ، بل تتنكر للفلسفة العلمية ذاتها التى من المفروض عنده أن (تقوم خارج أى ميتافيزيقا) .

كما نسجل أن هذه الفلسفة تحول الصيغ التى يقرها العلم الى عقائد مفروضة علينا الى الأبد فهو ــ أى هيكل ــ يريد أن يكون لهذه القضايا المنتزعة من العلم يقين اكثر من اليقين العلمى (٣) .

انه اليقين الميتافيزيقى الخالص (٤) .

انه ينسب لمادته الواحدة ما لا يملك العلم أن ينسبه اليها : الأزلية ، والشمولية .

(١) المصدر السابق ص ١١٣
(٢) العلم والدين ص ١١٥
(٣) ولا يقين علمى هناك انظر مبحثنا عن لا حتمية القوانين .
(٤) انظر العلم والدين ص ١٢٠

وهو ينسب لقانونه عن التطور ما لا يملك العلم أن ينسبه اليه أيضا : الميكانيكية البحتة ، والتقدم الدائم .

يقول اميل بوترو : من المستحيل اذن اعتبار فلسفته مجرد امتداد للعلم .

ولقد كان هيكل واهما عندما اعتقد انه بوحدانيته هذه يهدم الاديان لثنائيتها ، ذلك أن الاديان تقوم أيضا على مذهب الوحدة ، وهو لم يفعل الا أن اقترح دينا زائفا يقوم على مذهب ميتافيزيقى ـ لا علمى ـ فى وحدة الوجود . ان هيكل هذا (يختتم تعاليمه من الواحدية بالابتهال الى « الله » : المبدأ المشترك للخير والجمال والحق . ويقول : ان الحق والجمال والخير هى الآلهة الثلاثة السامية التى نركع أمامها فى اخلاص . ولتمجيد هذا المثل الأعلى الله الواحد والثلاثة حقا (!!!) سيرفع القرن العشرون الهياكل) .

وتندق رقبة هيكل مرة ثانية فى قاع الوهم ، اذ ينصب لنا هذه القيم الثلاثة ـ الحق والخير والجمال ـ آلهة تعبد ، دون أن يكون لها أى مبرر من العلم : العلم بعجزه المقرر عن ارساء القيم (١) .

والخلاصة : ان هيكل أقام من العلم فلسفة ليطرد الأديان ، ثم أقام من فلسفته دينا لكى تحل محلها .

لكن هل يمكن أن تفوز بشىء من النجاح ؟

يقول وليم جيمس :

(اذا ما تمكن « الدين العلمى » المحض ، من خنق كل الرغبات الأخرى وازالتها من نفوس جماعة من الجماعات ، وتمكن من اقناع افرادها بأن القوانين المنطقية تقتضى تطهير الذهن من كل فكرة لا تمت الى التركيب العلمى بصلة ـ اذا ما تمكن العلم من ذلك ، فان تلك الجماعة ستسقط حتما الى الرغام ، وتصبح طعمة لجيرانها ، الذين هم

(١) انظر العلم والدين ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧

أكثر منها ثروة عقلية ، كما غدت فصيلة الحيوانات طعمة للانسان) (١) .

تعقيب على أوثان العلم ..

وأخيرا :

يقول هربرت‌سبنسر فى ترجمته الذاتية : (ان الدائرة التى تشغلها الاعتقادات الدينية من النفس لا تبقى خالية أبدا بل تشغلها المسائل الكبرى المتصلة بأنفسنا وبالعلم) (٢) .

ومن هنا نقول :

انه ليس بلازم أن تجرى المناقشة بين الالحاد والدين ، على أساس سوق الادلة على وجود الله .

وانما على أساس اجراء المقارنة بين المعبود هنا والمعبود هناك ، والمعتقدات هنا ، والمعتقدات هناك .

وصدق الله العظيم ، القائل :

«وما قدروا الله حق قدره...»

مقارنة المعبود : بين الالحاد المادى والايمان بالله ...

فى اعتقادنا أن الجانبين متفقان على أصل معبود ، مختلفان على الصفات التى يوصف بها « الأصل المعبود » .

الفريقان متفقان على أن :

ظواهر العالم متغيرة .

وكل متغير له أصل تغير عنه.

وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه .

هذا محل اجماع .

والكلام فى هذا الأصل ..

هل وجوده لغيره أو لذاته ؟

الاجماع منعقد على أن وجوده لذاته ..

هل له نهاية ينتهى اليها أو هو لا نهائى ؟

(١) انظر العقل والدين ص ٩٩

(٢) أنظر العلم والدين ص ٩٠

الاجماع منعقد على أنه يتصف باللانهائية واللامحدودية ، بالأبدية والأزلية والخلود .

والاجماع منعقد ـ أو يكاد ـ أيضا على كونه :

محدثا للحياة .

محدثا للعقل (١) .

والاجماع منعقد على كونه ذا سلطان حتمى تخضع له حركة الأشياء .

والاجماع منعقد على كونه محدثا للتطور والتقدم فى حركة الأشياء .

والاجماع منعقد على كونه ساعيا بحركة الأشياء نحو غاية أو غايات عليها .

أولا : لكن السؤال الذى يظهر عنده افتراق المذاهب ما بين مادى ملحد ومؤله مؤمن هو :

هل هذا الأصل من جنس العالم المادى الذى نعرفه أو ليس من جنسه ؟

يقول الماديون : انه المادة فهو من جنس هذا العالم المادى .

ويقول الالهيون : انه ليس من جنس هذا العالم مطلقا .

وهنا ينبغى أن تجرى المقارنة بين الاعتقادين .

انه على قول الماديين يحصل التناقض .

وينشأ التناقض من وصفهم اياه بما يناقض كونه أصلا .

وبما يناقض الصفات التى اقتضاها كونه أصلا :

١ ـ ذلك لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادى الذى نعرفه يقتضى كونه جزءا منه والقول بأنه

(١) يقول الدكتور توفيق الطويل (يذهب اتباع الواقعية المادية الى أن سبق المادة على العقل انما يكون فى الوجود وفى المرتبة معا . بمعنى ان المادة هى التى تملك وجودا مستقلا اما العقل أو الذات المدركة فليست الا مجرد مظهر من مظاهر المادة . انظر كتاب اسس الفلسفة ص ٢٦٤

أصل للعالم يقتضى كـــونه غيره ، وهذا تناقض .

٢ ــ ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادى الذى نعرفه يقتضى كونه ذا أول لأن ما هو من هــذا العالم له أول وقد قالوا بأبديته .

٣ ــ ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المــادى الذى نعــرفه يقتضى كونه فانيا (١) لأن ما هــو من هذا العالم يفنى ، وقــد قالوا بخلوده .

لا يقال : اننا نريد بالأصل الذى هو من جنس هذا العالم « المادة » من حيث هى مادة ، والمادة من حيث هى مادة هى عندنا واجبة الوجــود لا نهائية ، أبدية أزلية ، خالــدة ، فلم نقع فى التناقض .

لأنا نقول : ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العــالم المادى الذى نعرفه لأن ما نعرفه من هذا العالم المادى ، انما هو أفراد ، فنعــرفه ممكن الوجود ، منتهيا ، له أول ، له نهاية ، فكيف السبيل الى معرفة المادة المطلقة التى وصفتم ؟

وما هو الوجه الذى عــرفتم منها وهــو ليس للعالم المــادى الذى عرفناه ؟

فان لم يكن هذا الوجــه فانتم تقولون بشىء ليس من جنس هــذا العالم وان دل عليه هــذا العالم ، وتسميتكم اياه مــادة لا يدل على شىء .

ثانيا : والسؤال الثــانى الذى تفترق عنده المذاهب هو : هل هذا الأصل من جنس هــــذا العالم فى حالته الراهنة بعد أن حدثت الحياة، والعقل ؟

ام قبل أن تحــــدث الحيــاة والعقل ؟

يقول الماديون : انه من جنس هذا العالم قبل أن تحدث الحياة والعقل لأنه هو محدث الحياة والعقل ، أو لأن الحياة والعقل ظواهر حــدثت من بعد .

(١) أنظر مبحثنا فيما قرره العلم التجريبى الحديث من أن للعالم بداية ، ونهــاية .

وهذا تناقض أيضا :

لأنه يعنى انه يعطى الحيـاة من يفتقد الحياة .

ويعطى العقل من يفتقد العقل .

انه يعنى أن يعطى المفضـول (من لا يملك الحيـاة والعقـل) للفاضل : ما به الفضل (الحيـاة والعقل) .

يقـول شلنج فى كتابه مـاهية الحرية البشرية ١٨٠٩ م :

(ان الله ليس موجودا قط بل هو فى طور الصيرورة) .

ويقول أوكن تلميذه فى شرحه لهذه النقطة .. ان الله هو بالقوة فحسب انه عبـارة عن الصفر أو العدم) (١) ؟ ؟ ؟

وقد رد عليهما ف. هـ. ياكوبى فيما كتبه عام ١٨١٢ فى مقالة فى الأشياء وتجليها سجل فيها :

(ان فى المسـألة التى طـرحها شلنج ـ وتلميذه ـ أبعد تنـاقض فى فلسفة الدين بأسرها اذ انه لا يصدر شىء عن لا شىء ، ولا يولد الأدنى الأعلى ، ان فلسفة من طراز فلسفـة شلنج هى نقض صريح لقوانين المنطق) .

(أ) واذا كان شلنج يرد على ياكوبى بالاحتكام الى مشاهداتنا اليومية التى نجد فيها ظهور الاعلى من الأدنى :

(فالولد ينمو حتى يصبح رجلا، والجاهل حتى يصبح عالما) (٢).

فهو قد وقع بذلك بلا شك فى سذاجة تصورية ما أغرب صدورها عن عقل فيلسوف يتصدى لهـذه التحديات ، اذ ليس من العسير أن تعرف أن ظهور الأعلى فى هـذه الأمثلة ليس باستمداد من الأدنى ، وانما الأدنى أعطى شيئا مساويا أو أقل ، وما صار به الأعلى أعلى انما هو بانضمام عناصر أخرى ليست فى الأدنى ، وقد احتاج هذا الانضمام الى وجودات سابقة ، والى تنسيق ،

(١) سلسلة الوجود الكبرى ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩

(٢) سلسلة الوجود ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢

وعناية ليس عند الادنى منها شيء ، فما أحرى هذا المثل بأن يدل على صدق القول بأنه «لا يصدر شيء عن لا شيء » وأنه « لا يولد الأدنى الأعلى » وما أحراه بأن يدل على وجود الله سبحانه وتعالى ، الذى تستمد منه هذه الوجودات كلها ، وهذا التنسيق كله ، وهذه الرعاية كلها •

(ب) واذا كان شلنج يرد بتعميم أكبر بقوله (ان الطبيعة نفسها كما يعلم كل من له الملم كاف بالموضوع قد ارتقت تدريجيا من توليد المخلوقات الأضعف •• الى توليد الأرقى والأدق تكوينا منها) (١)•

فانه ما كان له أن يسخر وهو فى موضع السخرية ، اذ يرتكب مصادرة على المطلوب ، ذلك لأن ما يصفه من فعل الطبيعة ــ دون أن يفسره ــ هو القضية نفسها المحتوية على نفس الاستحالة المنطقية « وجود شيء من لا شيء » وهى الاستحالة التى قدمها الفيلسوف تحت وشاح رقيق لا يمكن أن يخفيها ، وهذه الاستحالة ــ فى تناقضها الداخلى من ناحية ، وتناقضها مع الواقع من ناحية لا تحل الا باستنتاج ضرورى : هو استنتاج وجود الله المتصف بوجوب الوجود ، وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال ، ومنها العلم والقدرة والارادة •

(حـ) واذ يحس شلنج بصدق الاتهام الموجه اليه بارتكاب تناقض منطقى نجده يتراجع الى حائط ورقى يستند اليه ، وذلك اذ يلجأ الى الاتهام التقليدى الموجه الى مبدأ الذاتية ، المنطقى (٢) من أنه مبدأ تحليلى ، أو تحصيل حاصل (٣) وهو هنا يجهل أو يتجاهل ، وينسى أو يتناسى أن القول بأن هذا المبدأ « تحليلى » لا يعنى عدم صحته ، أو انكاره ــ فهو صحيح طالما كنا نستعمل عقولنا ــ ولكنه يعنى عدم

(١) سلسلة الوجود ص ٤٧٢
(٢) هو أحد مبدأين يقوم عليهما المنطق مبدأ عدم التناقض ، ومبدأ الذاتية الذى يعنى (أن الشيء هو هو وليس هو غيره)
(٣) سلسلة الوجود الكبرى ص ٤٧٤

كفايته لتقدم العلم التجريبى ، وهذا شيء آخر ، لا نصدق أن الفيلسوف يجهله .

فكيف يقع الفيلسوف فى مثل ما ارتكبه هذا من مغالطة تارة ومصادرة على المطلوب تارة ، وتناقض تارة أخرى ؟

انها ارادة الالحاد لا غير ..

ثالثا : والماديون لا يقعون بهذا فى التناقض فيما يصفون به هذا الأصل فحسب ، ولكنهم يقعون فى التقصير .

فهم يكتفون بوصف أصلهم بالأوصاف الآتية :

كونه علة لذاته ، لا نهائيا ، أبديا ، أزليا ، خالدا ، محدثا للحركة ، محدثا للحياة ، محدثا للعقل ، ذا قانون حتمى ، ونظام ، وغاية .

ولا يصفونه ببقية الصفات التى يقتضيها ما تقدم .

فهم لا يصفونه بكونه مريدا وذلك يقتضيه كونه ذا نظام وغاية

وهم لا يصفونه بكونه خالقا وذلك يقتضيه كونه محدثا للحياة ، أو للعقل .

وهم لا يصفونه بكونه عالما ، وذلك يقتضيه كونه مريدا ، خالقا ، محدثا للعقل .

وهم لا يصفونه بكونه قديرا ، وذلك يقتضيه كونه خالقا ، عالما ، مريدا ، محدثا للحياة والعقل ..

وهم لا يصفونه بكونه مدبرا وذلك يقتضيه كونه محدثا للتطور والتقدم فى الأشياء .

وهم لا يصفونه بكونه حيا ، وذلك يقتضيه صحة وصفه بما تقدم (١) .

والنتيجة أن الماديين يقولون بأصل للعالم يتصف بالوجوب والقدم والخلود والسلطان ، واحداث الحياة والعقل ، والتقدم.

وهذا محل اتفاق .

ولكنهم يقعون فى تصورهم لهذا الأصل فى التناقض والقصور .

(١) ليس هذا نوعا من التشبيه كما يدعى الملاحدة ، انظر مناقشتنا لهذه النقطة فى موضع لاحق .

وهذا موضع المفاضلة بين الماديين والالهيين .

فالالهيون الذين يقولون بأصل للعالم يتصف بالوجوب ، والقدم ، والسلطان واحداث الحياة ، والعقل ، والتقدم .. يصفونه بكونه ، مريدا عالما ، خالقا ، مدبرا حيا ، قديرا ، سميعا ، بصيرا ..

والخلاصة انه لا مجال لطرح موضوع الخلاف حول المعبود على أنه بين من يثبت للعالم أصلا معبودا يرجع اليه يتصف بوجوب الوجود ، والخلود ، والأبدية والأزلية واللانهائية، محدثا للحركة والحياة ، والعقل ، والتطور ، والتقدم .. وبين من ينكر ذلك .

ولكنه بين من يعتقد أن معبوده « الله » يتصف بصفاته الواجبةله.

ويراه من غير جنس هذا العالم متعاليا عليه .

وبين من يعتقد أنه «مادة» ويراه من جنس هذا العالم المادى فىأحط درجات وجوده .

وهو بين من يصف معبوده بأوصاف يقتضيها كونه أصلا وبين من يصفه بأوصاف :

(أ) متناقضة مع كونه أصلا ، من ناحية .

(ب) ومتناقضة مع الأوصاف التى يقتضيها كونه أصلا من ناحية ثانية .

(حـ) ويمنع عنه أوصافا يقتضيها كونه أصلا من ناحية ثالثة .

فالخلاف فى حقيقته يرجع الى « صفات » هذا « الأصل المعبود » لا الى «وجوده » .

ومن هنا فالماديون ليسوا فى جوهرهم منكرين لوجود أصل معبود ، ولكنهم مشركون يصنعون آلهة من عندهم ، وينحطون بأصل الوجود وبمعبودهم الى أحط الدرجات .

وصدق الله العظيم القائل : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون) . صدق الله العظيم .

وبالله التوفيق

د . يحيى هاشم حسن فرغل

ذو القرنين وفتوحاته فى المشارق والمغارب

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال الله تعالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (٨٣) انا مكنـــا له فى الأرض وآتينـــاه من كل شىء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) (الآيات من سورة الكهف) .

البيـــــان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشا بعثوا الى أحبـار اليهـود بالمدينة ، يطلبون منهم ما يمتحنون به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتيـة ذهبـوا فى الدهـر لا يدرى ما صنعوا فنزلت سورة الكهف .

وروى أن أحبار اليهـود قالوا لقريش : سلوا محمـدا عن ثلاثة عن ذى القرنين وأصـحاب الكهف والروح فان أجـاب عن الأولـين وأبهم الثالث فهو نبى ، لأن الروح مبهم فى التوراة ، وان أجـاب عن الـكل أو سكت عن الـكل فليس بنبى ، فسـألوه فبـين لهم قصتى ذى القرنين وأصـحاب الكهف ، وأبهم الروح محيلا العلم بأمره على علام الغيوب سبحانه وتعالى .

والآية صريحة فى أنه صلى الله عليـه وسلم سئل عن ذى القرنين فأجاب عن بعض أمره ، ولم تحدد الآية من سـأله ، ولهـذا نرى من الحكمة عدم الالتزام بطائفة معينة سألته صـلى الله عليـه وسلم عن أمره ، ولا سيما أن العبرة لا تؤخذ من شخص السائلين وأعيـانهم ، وانما تؤخذ من القصـة العجيبـة المسئول عنهـا ، يرويهـا للسائلين — أيا كانوا — نبى أمى لم يقـرأ ولم يكتب «وما كنت تتلو من قبله

من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون (٤٨) بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (٤٩) من سورة العنكبوت .

من هو ذو القرنين ؟

أصح الأقوال فيه ـ كما قال النيسابورى ـ أنه هو الاسكندر ابن فيلقوس الرومى ، اذ لو كان غيره لانتشر خبره ولم يخف مكانه .

والاسكندر المذكور من أهل مقدونيا ، واجمال تاريخه أنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم على ملك واحد ، ثم قصد ملوك الغرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى الى المحيط الغربى (الاطلانطى) ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ، ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس ، وذبح فى مذبحه ، ثم اتجه الى أرمينية وباب الأبواب ، ودان له العبرانيون والقبط والبربر ، ثم توجه نحو دارا ملك الفرس وهزمه وقتله ، واستولى على ممالك الفرس ، ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع الى خراسان ، وبنى المدن الكثيرة ورجع الى العراق ، ومرض بشهرزور ، ومات بها .

وقال الآلوسى : قيل مات برومية المدائن ، ووضعوه فى تابوت من ذهب وحملوه الى الاسكندرية التى بناها بعد استيلائه على مصر ، تبعا لاستيلائه على الفرس ، لأنها كانت وقتئذ تحت حكم الفرس .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض كلها أو ما يقرب منها ، وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن الا الاسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر ثم قال : وفيه اشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاليس الحكيم ـ أى الفيلسوف ـ وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو وفلسفته حق ، وذلك مما لا سبيل اليه ، قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حسن ،

وترك منه ما لم يحسن ، انتهى كلام الرازى بتصرف يسير .

أقول : ويؤيد هذا الاستنتاج أن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له اجلالا وتعظيما فقال : لا يجوز السجود لغير مبدىء الكل سبحانه وتعالى ـ نقله الشهرستانى ـ ويلاحظ أن الاسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى بثلاثمائة سنة كما قاله الآلوسى .

وذكر أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه المسمى (بالآثار الباقية عن القرون الخالية) أن ذا القرنين هو أبو كرب بن عمير بن أفريقش الحميرى ، الذى رحل بجيوشه الى ساحل البحر الأبيض ، حيث المغرب العربى الآن وسميت القارة باسمه ، ذكره صاحب تفسير الجواهر :

وأبو كرب هذا هو الذى أفتخر به تُبَّع اليمانى حيث قال ملقبا اياه بذى القرنين .

قد كان ذو القرنين جدى مسلما (١)
ملكا علا فى الأرض غير مفند

بلغ المغارب والمشارق يبتغى
أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها
فى عين ذى خلد وتأطة حرمد (٢)

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نُواس وذى يزن ، واختار هذا القول كاتب جلبى ، وذكر أنه كان يعاصر ابراهيم عليه السلام وأنه اجتمع به فى مكة المكرمة وتعانقا ، وأن شهرة بلوغ الاسكندر اليونانى الغاية القصوى فى غزو الدنيا وملكها دون أبى كرب الحميرى ، انما هى

(١) يقصد من كونه مسلما أنه مؤمن بربه مستسلم له ، لا أنه على دين محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان قبل مبعثه .

(٢) عن ذى خلب : أى عين ماء ذى طين أسود ، والتأطة الحماة وهى الطين ، وكذا الحرمد .

لقرب زمان اليونانى ـ أى الاسكندر ـ بالنسبة الى أبى كرب الحميرى اليمنى ، فان بينهما نحو ألفى سنة ، وتواريخ هاتيك الأعصار لم يبق منها ما يعول عليه ويرجع فى حل المشكلات اليه ، ولعل اليهود انما طلبوا سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ، ليكون الامتحان أعظم ، لخفاء تاريخه • انتهى بتصرف يسير •

وقد ضربنا صفحا عن الخلافات العديدة فى اسمه وأمته وعصره ، واخترنا أرجح الأقوال والله أعلم •

لماذا لقب بذى القرنين ؟

سمى هذا الملك بذى القرنين ، لأنه بلغ ناحيتى مشرق الشمس ومغربها من الأرض ـ كما نص عليه القرآن الكريم ـ مأخوذ من قرن الشمس بمعنى ناصيتها ، وقيل كانت له ضفيرتان من شعره ، فسمى بهما ، ذكره الثعلبى وغيره ، والضفائر قرون الرأس ، ومنه قول الشاعر عمر بن أبى ربيعة :

فلثمت فاها آخذا بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج(١)

والوجه الأول فى علة التسمية أولى بالقبول ، فان وصف ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر ، لا يصلح أن يكون علامة مميزة له ، لأن ارسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعا •

ولقد أجمل الله سيرة هذا الفاتح قبل أن يفصلها فقال تعالى وتقدس :

« انا مكنّا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » •

وتمكينه فى الأرض معناه اعطاؤه القدرة على التصرف فيها ، من حيث التدبير والرأى والسلطان وكثرة الجنود والهيبة •

(١) النزيف المحموم أو السكران ويطلق على من جف لسانه من العطش ، والحشرج النقرة فى الجبل ، يجتمع فيها الماء فيصفو ، والكوز الصغير اللطيف أيضا .

وايتاؤه من كل شيء سببا معناه اعطاؤه من أجل كل شيء واراده سببا وطريقا يوصله اليه ، بحيث لا يعوقه عن مراده عائق . العلم والقدرة والجند والآلات

وطريقه الى تحقيق ما يريده هو المختلفة ، ومعنى فأتبع سببا (١) اقتفى طريقا يوصله الى نجاح رحلاته الثلاث التى تحدث القرآن عنها ، والقرآن العظيم يشير بذلك الى وجوب الأخذ بالأسباب لتحقيق المراد ، فان الغايات لا تنال بالقعود ولا بحلو التمنى فى جنة الأحلام .

رحلة ذى القرنين الى المغرب

لعلّ ذا القرنين بدأ برحلة المغرب لأنه كان أقرب اليه من المشرق ، أو لأن الأسباب المؤدية الى انتصاره على ملوكه وحكامه كانت وقتئذ أكثر منها بالنسبة الى حكام المشرق ، وعن هذه الرحلة يقول الله تعالى : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » .

أى أنه افتتح الممالك غربا حتى اذا وصل الى منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، وقف على شاطىء المحيط عند غروبها ، فتراءى له أنها تغرب فى عين ذات حمأة وهى الطين الأسود ، وقرىء « تغرب فى عين حامية » ومعناها أنه تراءى له أنها تغرب فى عين متقدة نارية ، وكلا الأمرين يحدث فى رأى العين ، فان المحيط لا تظهر له نهاية لمن وقف على شاطئه ، فيبدو له كأن الشمس تغرب فى عين طين أسود بسبب زرقة الماء الشديدة فى المدى البعيد .

لكنه اذا أخذ فى فكره حمرة الشمس وتوهجها وهى مرسلة أشعتها الحمراء على الماء عند غروبها ، تراءى له أنها تغرب فى عين متقدة ملتهبة ، ولما كان كلا الأمرين لا حقيقة له ، بل هو خيال خادع ، لهذا قال الله سبحانه « وجدها تغرب فى عين حمئة » أو « فى عين حامية » ولم يخبر أنها تغرب فى العين المذكورة فعلا

(١) اتبع واتبع قراءتان معناهما واحد كما قال الأخفش .

وحقيقة ، ومن خداع الخيال للنظر أن الشمس تبدو لمن هو على مسطح من الأرض بعيد المدى ، كأنها تطلع من الأرض حين تطلع ، وتغرب فى الأرض حين تغرب ، فتكون على الضد بالنسبة لمن بجوار البحر •

والحقيقة أن الشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، وأن الأرض تدور تحت أشعتها ، فتعم الشمس بعضها بضوئها — لأنها على شكل الكرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها ، والليل فى القسم الآخر ، وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخر تكشف للشمس ، فحل فيه النهار محل الليل •

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض ، هو البروز الكروى للأرض ، فهو الذى يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها ، بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مسطحة تماما وغير دائرة حول محورها ، لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارا دائما •

أما الشمس فانها لا تدور حول الأرض — كما يبدو للنظر — بل تدور حول نفسها وحول شىء لم يعرف الى الآن ، واذا كان أمر الشمس كذلك ، وجب حمل الآية الكريمة على ما بيناه ، اذ لا يعقل أنها وهى أضعاف الأرض تغيب فى عين حمئة منها •

سياسة ذى القرنين لأهل المغرب

يقول الله تعالى « ووجد عندها قوما » أى وجد شعبا وأمة عند العين الحمئة التى تراءى وخيل له أن الشمس تغرب فيها •

والمقصود أنه وجد هذه الأمة فى الجهة الغربية من الأرض عند المحيط ، حيث تراءت له الشمس غاربة فى العين المذكورة ، وقد فوض الله لهذا الملك أن يتخذ السياسة التى يراها مثمرة فيهم ؛ فاما أن يقتلهم لظلمهم ورفضهم دعوة الايمان ، واما أن يمهلهم

ويدعوهم الى الايمان ويرشدهم حتى يستجيبوا ، فيفعل من الأمرين ما يتفق مع الحكمة والسداد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا » .

واستدل بالآية من يقول بنبوة ذى القرنين ، فقد خاطبه الله بهذا التكليف كما يخاطب الأنبياء ، وأصحاب هذا الرأى يقولون ان خطاب الله له كان عن طريق ملك من ملائكته ، كشأنه تعالى مع الأنبياء .

أمّا من لم يقل بنبوته فانه يقول : ان خطاب الله كان عن طريق نبى فى ذلك العصر ، أو كان الهاما ، وقد ظهرت حكمة ذى القرنين فى فهم خطاب الله له وتكليفه اياه ، فقد قسم أهل المغرب فى المعاملة الى قسمين حسب موقفهم من دعوة الحق ، فمن ظلم نفسه بتماديه فى الظلم والكفر قتله ، ومن قبل دعوة الحق أحسن اليه ، ويحكى الله ذلك بقوله سبحانه « قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا » أى فأما من ظلم نفسه بتماديه فى الكفر فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله اليه فى الآخرة ، فيعذبه فيها عذابا منكرا فظيعا فى نار جهنم .

« وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا » . أى وأما من آمن بالله تعالى ، وعمل عملا صالحا بأداء حق ربه وحق عباده ، فله جزاء المثوبة الحسنى فى الدارين ، وسنقول له من أمرنا الذى نأمر به الناس من الزكاة والخراج قولا ذا يسر ليس فيه صعوبة ومشقة .

ثم حكى الله تعالى سفر ذى القرنين الى المشرق فقال : « ثم أتبع سببا » أى هيأ أسباباً تليق بسفر المشرق واقتفاها وأخذ بها بعد أن وطّد أمْرَه بالمغرب ، وللكلام بقية ، والله تعالى هو الموفق .

مصطفى محمد الحديدى الطير

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

— ٧ —

* أصحاب نظرية الثنائيـة ، يحلون المشاكل اللغوية ، دونمـا عناء ولا تعسف :

من المسلم فى أصول اللغـة ، أن هناك مناسبة بين اللفظ والمعنى تظهر للمتأمل الحصيف .

وأن المادة تدور حـول معنى واحد ، مثل : حدق ، وأحدق ، والحديقة ... بمعنى الاحاطة .

وأن معانى البناء الواحد تتلاقى مهما اختلفت أوضاع حـروفه ، مثـل : ركب ، وكرب وبرك ، وربك ، وبكر ، وكبر .. بمعنى عظم واشتد وأجهد .

وأن الألفاظ تتقارب لتقـارب المعانى : مثل : أز ، وهز .. بمعنى التحريك . وقد تنشأ مشاكل من اختلاف دلالة الثلاثى أحيـانا ، مثل : (نهـر) ، التى وردت فى جميـع الساميات عدا الحبشية ، بمعنى : (الجرى أو السيلان ، وبمعنى : الزجـر فى العربيـة ، وبمعنى النـور والضـياء) . فالمعـانى كما تبـدو متبـاعدة ، لا يربطها رابط . وهنـا تختلف النظرة لحل المشكل :

فالحل من منطـلق أصـحاب نظرية « الثلاثية » يدخل فى نطاق الفرض والتخمين والاحتمال .

فالدكتـور عبـد الصـبور شاهين (١) يشيد بمحاولة الأستاذ

(١) فى التطور اللغوى ١٢١ — ١٢٣ بتصرف

الدكتور ابراهيم أنيس (١) حين لخص العوامل التى تسبب تغير المعنى عند تعدد دلالات اللفظ ، فهى :

قد تكون بسبب الانتقال من الحقيقة الى المجاز .

أو بسبب سوء فهم المعنى ، كما يحدث للاطفال أحيانا فى البيئات المنعزلة .

أو بسبب استعارة اللغة لكلمة تماثل صورة لكلمة فيها ، مثل استعارة « البرج » بمعنى الحصن من (اليونانية) على حين ان مادة (برج) تفيد فى العربية : التزين أو صفة خاصة فى العين .

أو بسبب نسيان معنى الكلمة الأصلى القديم ، ثم استعمالها فى معنى جديد بمرور الزمن ، مثل : (الهجرس) بمعنى (القرد) فى الحجاز ، وبمعنى (الثعلب) عند بنى تميم .

أو بسبب تطور الصورة الصوتية فى لفظة ، حتى توافقت مع صورة صوتية أخرى ذات معنى مستقل ، كدلالة (التغب) بالتاء ، على معنيين هما : الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ويظهر أن دلالتها الأصلية هى (الوسخ والدرن) أما دلالتها على (الجوع) فناشئة عن تطور لفظة (السغب) فى بعض البيئات التى تقلب السين تاء ، كما يقول بعض أهل اليمن (النات) بدلا من (الناس) ، ثم جاء جامعو اللغة ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) وعدوها من المشترك اللفظى » . ويرى الدكتور أنيس بأن المعاجم فيها الكثير من ذلك .

أما أصحاب « الثنائية » فهم يرون : ان الثلاثى (نهر) ليس أصلا لهذه المعانى على نسق واحد ، بل كل واحد منها آت من مصدر خاص به ، وما الثلاثى الا بمثابة الحوض الذى تصب فيه مياه منبجسة من ثلاثة ينابيع ، فتتلاقى فيه ، فينشأ من ذلك لفظ واحد ذو ثلاثة معان » .

(١) فى اللهجات العربية ١٩٩ وما بعدها

وعلى حسب معرفة موقع الحرف الذى ثلث المادة « الثنائية » ـ تنويجا ، أو اقحاما أو تذليلا ـ نجد المعنى المناسب ، لأن المادة الثلاثية صادرة نسبة الى كل معنى من معانيها عن ثنائى خاص ، بينه وبين الثلاثى المشتق منه صلة معنوية ثابتة » كما يقرر الأب مرمرجى (١) ، مثلا :

الثنائى : (نه ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) بمعنى الزجر ، وقد وردت صورة الثنائى فى المضاعف (نهنه) .

(والثنائى : (هر) توج بالنون ... فصدر عنه (نهر) ، بمعنى الجرى أو السيلان ويشهد له (هرهر) لصوت الماء الكثير .

(والثنائى : (نر) أقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بفحوى أنار وأضاء . وجاء من الثلاثى الأجوف (نار) بمعنى أضاء ، ومنه لفظ (النار) للاشتعال ، و (النور) وهو الضياء) .

وأين هذا مما ذكره الدكتور أنيس من احتمالات وتقديرات وتأويلات ؟

وقس على هذا النمط فى الأضداد (طلع) بمعنى ظهر وغاب ، من الثنائى (طل) وذيل بالعين ، فصدر عنه طلع بمعنى ظهر . والثنائى (طع) اقحم فيه اللام ، فنجم عنه طلع ، بمدلول اطمأن ونزل ، وهو منحوت من (طل) و (طع) على طريقة (جورجى زيدان) ، وان كان لا يرتضى هذه الطريقة الأب مرمرجى .

وقس على ذلك أيضا (أمر) من (أم) و (حمر وخمر) من (حم وخم) ... (٢)

وتلك طريقة فيها من السهولة ما حل المشكل ، وأرضى الباحث ، وأوصله الى راحة فى خط يتسم بالدقة والطرافة ،وتعززه الشواهد .

(١) المعجمية ١٣٥ـ ١٤١ ، ومعجميات عربية ٢٠٠

(٢) السابق.

* معتل الأفعال فى العربية والساميات عموما ثنائى لا ثلاثى ، وبخاصة فى حالته الأولى :

فقد امتد خلاف العلماء فى ثنائية الأفعال المعتلة ، من العربية الى اخواتها فى السامية على نحو ما يروى عن (الأب هنرى فليش) فى دراسته للنحو السامى : فالبعض يفترض ثنائيتها منذ بدايتها ، وآخرون يقررون أنها نشأت ثلاثية .

ويقول المستشرق (ف.ر.بلاك) أن الموقف الأول ــ ونحن معه فى ذلك ــ طبيعى ، لأن المصوت الطويل فى الأفعال التى يكون الصامت الثانى من أصلها واواً أو ياء ، انما يأتى من اطالة المصوت القصير الداخلى فى الثنائى : (قَلَ Qala) فتصير (قال Qaala) وكذلك (قِلَ Qila) تصير (قيل Qiila) . و (يَقْلُ Yaqolo) تصير (يقول Yaqoolo) . وبهذا دخلت فى نظام الفعل الثلاثى .

بينما يؤيد الأب (هنرى فليش) انها كانت منذ البدائية ثلاثية ، اذ يلاحظ هذا الوضع الثلاثى لها فى الجغرية والتجرية من اللغات الحبشية ، ولأن المصوتات الطويلة انما هى نتيجة القلب أو الحذف » (١) .

ولكن اذا علمنا :

(أن الأب فليش يقرر أن فى العربية وفى أخواتها الساميات أصولا ثنائية .

وأن المستشرق (رينان الفرنسى) يقول ــ كما ذكرنا من قبل ــ بثنائية المعتل من الأفعال ، لأن اضافة حرف العلة ليس له تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، بل ويمتد عدم التأثير السابق الى الفعل الصحيح غالبا ، لأن أحد حروفه أضعف من الآخرين .

(١) العربية الفصحى ٢٥٠

واذا تذكرنا أن الشيخ العلايلى قال : ان المعتل من بقـايا العهود السحيقة ، وأنها أثرية وجدت قبل انتظام الوضع اللغوى ، وان اعتبار المعتل ثنائى هو اتجـاه سليم من الناحية الصوتية ، كما جاء (فى التطور اللغوى) .

اذا اعتبرنا ما سبق امـكننا أن نقرر وجهة نظر القائلين بأن معتل الأفعال ـ ولا سيما معتل العين ـ وضع ثنائى ، فى واقعه واستعماله ، وفى حالته الأولى .. فالمعتل ثنائى الحق بالثلاثيات وهو ثنائى لفظا ، وان بدا ثلاثيا خطا فى العربية .

أما حين تشير بعض تصـاريف الكلمـة الى الثلاثيـة ، فنبـادر بالقول : بأن ذلك طريق من طرق اكتناز البنية « الثنائية » ـ كمـا أسلفنا ـ فى العربية .

* * *

والمضـعف أصـله ثنـائى ، ولم يبد ثلاثيا الا فى الصـورة ، ولم تكن ثنائية خداع : فتضعيف الحرف ـ كما قلنا ـ طريق من طرق الاكتناز ، وصورة المضعف كان فى الأصـل ثنـائى المقطع ، نظرا الى الصورة الملفوظ بهـا ، دون التفـات الى الحرف المكرر بمثابة حـرفين ، يقـول ابن دريد : « والثنـائى الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثانى ثقيل (أى مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحـرف : اللفظ ثنـائى ، والمعنى ثلاثى ... » (١) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا ، على ذلك بقـوله : « واعتبـار المضعف الثلاثى من باب الثنـائى ليس غريبا عن علماء اللغـة قديما وحديثا ، خاصة وانهـم ينظرون الى اللغات السامية بمنظار واحد ـ كما فعل الأب مرمرجى ـ فقد عقد موازنات بين المضعف الثلاثى فى العربيـة ، وبين ما يقـابله فى السريانية ، فتبين انه لا يقابله فى السريانية الا حرفان ، مثل (مص) بتشديد الصـاد ، فيقابلهـا فى

(١) الجمهرة ١٣/١

السريانيـــة (مص) باســـكان الصـــاد ••• » (١) •

ولكن الدكتـــور رمضـــان عبـــد التـــواب ، يرى أن الأب مرمرجى ، قد « خدعه ما آل اليه المضعف الثلاثى فى بعض اللغـــات السامية ، بعد أن سكنت أواخر كلماتهـــا ، لسقوط الحـــركات الاعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها وصارت على حـــرفين ، فظن هذا هو الأصل فيهـــا ••• ونسى الأب مرمرجى : انه عنـــد اسناد المضاعف الى الضمائر فى العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف » (٢)

وأقول : ان الأمر ليس فيـــه خداع ، فالثنائية باقية للمادة وان ضعفت ، كما أن المضعف لا يفقد ثنائيته اذا ارتد الى معتل العين ، مثل : (كاع ، ذام ، زير ، مير) من (كع ، ذم ، زر ، مر) • (٣)

فالتضعيف حقق للكلمة العربية الانتقال من الثنائية الى الثلاثية فى أواخر الدور الثانى فى رأى الشيخ العلايلى •

يضاف الى ذلك أن الثلاثى حين تفرع عن ثنائى سابق ، انمـــا كان ذلك فى النشوء اللغوى قبـــل أن يكون فى الاشتقاق فقط • فـــاذا احتفظت وحفلت قواميسنا العربية ـــ وفى مقدمتها معجم مقاييس اللغة لابن فارس ـــ بالتضعيف ، وبـــدا الثنائى فى صورة الثلاثى ، فان مرد ذلك الى الانتقال من مـــرحلة الى أخرى •

* * *

الثنـــائى ليس بالقليـــل فى اللغة العربية :

فقد كانت الأحادية فى التعبـــير كافية فى المرحـــلة الأولى لانسان لا يرتفع عن النـــوع وليس له من مطـــالب حيـــاته المعيشية ســـوى الضروريات التى يحتـــاج للتعبيـــر عنهـــا •

(١) فقه اللغة العربية ٨٤ ، ٨٥
(٢) فصول فى فقه اللغة ٢٦٦
(٣) مقـــدمة العـــلايلى ١٣٢

وحين دعته الحاجةللتعبير سلك طريق الثنائية ، وذلك أمر مسلم به فى اختراع اللغة وتدرج الأشياء ، وله آثار فى كل لغة انسانية احتفظت بأصولها القديمة السحيقة . واذا بدت قليلة فهى — عند البدائيين — كافية .

وقد أتى من الأسماء والأدوات والحروف تنشىء الكثير أيضا ، مثل : أب ، أخ ، حم ، ابن ، يد ، دم ، شفة ، لثة ، رئة ... ومثل : كم ، وما (الموصولة)... ومثل : لو ، لا ، بل ، ما (النافية) ..

واذا اعتبرنا الثلاثى وما فوقه مخصبا من الثنائية ، كان عدد الأصول الثنائية كثيرا ويقرر الدكتور محمود حجازى : ان أكثر الكلمات الثنائية : « قد تطورت فى اتجاه الثلاثى لاحداث ضرب من التوازن ، ولكى تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية ، وهى الكلمات الثلاثية » (١) . فمنها ثنائى ، ومنها ثلاثى ، ولعل فى هذا ضرب من التوازن على هذا الرأى .

وليست نشأة اللغة فى أوليتها منطقية ، حتى تخضع للتقدير الكمى ، وقياس (الكومبيوتر) ، حتى تقبل بعض موادها ، ويرفض البعض الآخر ، اذ لم يكن هناك منطق ولا قياس ، وانما هناك تعبير يواكب فى تدرجه وتطوره تطور الكائن الحى الذى ينطق . فالقدر الضئيل من الثنائى — فى نظر بعض الباحثين المعاصرين — كان كافيا فى الفهم والافهام والتعبير والتغطية والاشباع والامتناع فى اعتبارات السذج وقتذاك .

* * *

فالثنائية ليست قليلة ، باعتبار معايشتها لفترة الانسان البدائى ، بل تذكر المعاجم طائفة كبيرة من المفردات ذات الصوتين الصحيحين، من الأسماء ، مثل : (عم ، فم ، هم ، دم —) ، ومثل : (مال ،

(١) علم اللغة العربية ٢٠٦

قال ، دعا ، سعى ...) من الأفعال .

وأيضا وجود طائفة أكبر من بنات الصحيحين المضعفة الثانى ، نحو : (أب ، أد ، مج ، حج ، مد ، شد ، هد ، من ، كف ، نم ...) وهى كلها ثنائيات جرى عليها بعض التغيير الصوتى عند الاسناد أو الاضافة ، لأسباب صوتية محضة .

وهناك بحث حديث قيم ، أثبت أن ما كتب بالخط المسمارى ، منذ أربعة آلاف سنة ، قبل الميلاد ، دلل على وجود صلات لغوية بينه ـ ما كتب بالخط المسمارى ـ وبين لغات الجزيرة الحية ، ولا سيما العربية .

وأن اللغة الأكدية (السامية) أول وأقدم لغة مدونة بقواعدها .. يغلب عليها البناء (الثنائى) المقطعى للكلمة ، ويعد هذا البناء الصورة الأولى لتشكيل الوحدات الدالة على المعانى ، والتى تكون الجذر أو النواة التى تدل على المعنى المطلق فى الأصل ، ثم تتطور من حيث الشكل بالتغيير الحركى الداخلى ، أو بالاضافة اليها ، لتدل على معانى جديدة ، تشترك مع الوحدة الأولى فى المعنى الكلى ، وتتميز عنها . بمعنى جزئى خاص . (١) .واللغة ترافق الانسان ، والانسان فى تغير دائم .

وذلك كله يدل على اتفاق لغات الجزيرة فى كثير من السمات ، وكثرة وجود الأبنية الثنائية المفردات ، ذات العلاقة الوثيقة المباشرة بالحياة الاجتماعية البدائية والوثيقة الصلة بشئون الحياة اليومية .

كما يؤكد الدلالة على أن المفردات الأولى للغة كانت ببساطة شئون الحياة ذاتها ، وتتعلق بالانسان وأعضاء جسمه ، مثل : (يد ، فم ، رأس ، سن ، كف ، دم ...) . أو تتعلق بذوى قرباه ، مثل : (أب ، أم ، أخ ،

(١) د. باكزه رفيق حلمى ، مجلة المجمع اللغوى الأردنى عدد ٢ مجلد /١ ص ٦٠ وما بعدها ، بتصرف .

عم ، بن ابن ، بنت ...) . أو تتعلق بأحداث الحياة البدائية ، مثل : (قام ، نام ، صال ، راح ، جاء شدّ ، يد ، عد ، هد ، كل ، خذ ...) . ثم جاءت الأبنية (الثلاثية) تحمل معانى حضارية ، تدل على الاستقرار واتساع الحياة والتأنق فى الصياغة ، والقصد الى الانتقاء .

فاذا جاء من أسلافنا على أن : « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف : على الثلاثى ، والرباعى والخماسى » . ثم يحكم بأن : « بنات الحرفين فى الكلام قليل » (١) .. قلنا : لا يمنعنا ذلك ـ كما لم يمنعهم ـ من الاعتراف بوجود البناء (الثنائى) مستقلا عن (الثلاثى) وليس منه ، وأنه نشأ فى المرحلة البدائية لنشوء اللغة .

كما سبق أن رددنا اعتبارهم الثنائى المعتل ثلاثيا سقط ثالثه لعلة ، لأن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل هى تغييرات صوتية محضة تطرأ عند الاسناد أو الاضافة لتغيير الدلالة الوضعية النحوية .

والميزان الصرفى ، انما هو وسيلة للكشف عن خفايا اللغة ، وأسرارها ، وتمييز أصناف مفرداتها ، وليس لتصنيع الأصول ، واخضاع جميع المفردات له .

وفى دراسة قيمة وجادة للدكتورة باكزة رفيق حلمى ، تشير ـ أيضا ـ الى أن الثنائية ليست قليلة فى الأصول اللغوية ، وانما هى كثيرة فى العربية وشقيقاتها (الساميات) بل وأكثر من ذلك فى جميع اللغات بعامة ، حين تنقل عن (Blood Field)

« ولو أجرينا دراسة دقيقة للمفردات وأبنيتها فى اللغة العربية ، وفى لغات الجزيرة العربية الأخرى لوجدنا أن بالامكان ارجاع معظم مفردات هذه اللغات الى البناء الثنائى ، وهو أبسط صورة لبناء

(١) الكتاب لسيبوية ١٩٦/٢ ، ومعجم العين للخليل ٥٦

الكلمة ، ليس فى لغات الجزيرة العربية فقط ، بل فى جميع اللغات ، فالوحدات اللغوية الوحيدة المقطع (Monosyllagic) ربما كانت هى الأصول الأولى التى نشأت منها وتطورت الوحدات المتعددة المقاطع : اما بتغيير الحركات الداخلية ، واما باضافة مقاطع خارجية الى صدورها ، أو أحشائها أو اعجازها .. » (٢) .

وذكرت الدكتورة باكزة جهود علماء النحو واللغة العرب ، فى استقصاء أصول الكلمة ، ومايجرى عليها من تغيير ، ومايعتريها من تطور بالاعلال والابدال والقلب والحذف والادغام ... حتى توصلوا الى نتائج طيبة ومذهلة فى أبواب التصريف والاشتقاق ، ساعد عليها سعة العربية ودقتها ومرونتها .

وذكرت ــ بحق ــ أن بعض نتائج علمائنا ، بحاجة الى اعادة النظر فيها وفق أسس علمية ، ساعدت الوسائل العلمية الحديثة على اكتشافها . وعذر الأقدمين فى ذلك أنهم لم يكونوا يملكون من وسائل الاختبار سوى الفكر والتجربة الذاتية فى نطق الحروف ، وتحديد مواقعها فى جهاز النطق ، وعلى الرغم من ذلك : فقد أصابوا فى الكثير من نتائج أبحاثهم .. الى أن وصلت الى قول الخليل ابن أحمد بأن « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف : على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى » وقالت :

« وأصاب فى ذكر الثنائى بأنه البناء الذى يتألف من صوتين صحيحين ، وذكر لذلك الأمثلة (قد ، هل ، لو ، بل) . ولكنه لم يصب ، اذ حدد هذه ، بأنها تكون فى حروف المعانى فقط .

أما الاسم والفعل فلا يردان على أقل من ثلاثة . وفاته أن الكلمات الاسمية : (أب ، أم ، أخ ، عم ، فم) لا تختلف من حيث البناء

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى عدد ٢ م /١ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

وعدد الأصوات الصحيحة عن بناء الأمثلة التى ذكرها ، وأساس البناء كما حدد هو الصوت الصحيح ، وربما كان السبب فى ذلك : هو خضوع المفردات الاسمية والفعلية للاعراب والاشتقاق والتصريف ، وجمود أبنية حروف المعانى فى حالة لا تقبل التغيير » .

فالخليل ــ فى نظر الدكتورة ــ مال الى الصناعة لا الى السليقة والطبيعة اللغوية ، التى يقضيها عهد الثنائية فى مفرداتها التى هى من مدخرات النشأة الأولى للغة ، فى عهد ما قبل التنبه للقياس ، ولذا يجب أن تعالج معالجة خاصة ، وفق منطق الواقع ، والتراث القديم . وقد كان الخليل ــ رحمه الله ــ يعتمد على ذواقه للأصوات : فقد كان يفتح فاه بالف ، ثم يظهر الحرف ، نحو : (أب ، أت ... الخ) .

وأشارت الدكتورة باكزه ، الى أن (الأكدية) ــ وهى من أقدم صور لغات الجزيرة العربية وقوية الصلة بالعربية ــ تلتزم بالاعراب فى جميع الحالات ، ونهايات الاسم ، تحمل علامات الاعراب بأصوات المد (و ، ى) وليس بالحركات كما فى العربية وضمت علامات الاعراب فى الأكدية عند الكتابة ، ومع ضم فهى ثنائية فى مثل : (طيب = Tabu

بعيد = Raku

رب = Rabu) ..

وعادت الدكتورة باكزة الى لغات الجزيرة العربية بعامة ، والعربية بخاصة ، وذكرت أن المقارنات أثبتت أنهاتتفق جميعا فى أن الصيغة الثنائية فيها ــ الاسمية والفعلية ــ تشمل طائفة كبيرة جدا من المفردات تكاد تفوق الثلاثيات عدا .

وأنها تنتظم الفئات الآتية :

١ ــ الأفعال الناقصة من حيث التصريف والوظيفة النحوية ، وعددها ــ كما ذكر النحاة ــ سبعة عشر ، منها أحد عشر فعلا ثنائيا ، هى : كان ، صار ، ظل ،

بات ، آض ، عاد ، خدا ، راح ، ما (برح) ، ما (دام) ، ما (زال) وليس (١) وفى الأكدية ما يماثل ذلك ، مثل (Kano) ، وكذا فى العبرية .

٢ ــ والأسماء المعروفة بالأسماء الستة ، من النحاة من يعربها بالحركات ، ومنهم من يعربها بالحروف ، وهى فى الحقيقة لا تخضع لأحكام الاعراب المعروفة ، لأنها من ذوات المقطع الواحد القصير ، ويتطلب الصاق اللواحق بها من مد حركاتها النهائية ، كما فى نحو : (أبوك وأخوك وفوك) .

وعند الافراد أن تعرب كما تعرب الأسماء الأخرى ، (جاء الأب ، ورأيت الأخ) . (٢) وفى الأكدية ما يقابلها ، نحو :
(Hamu, Anu, Abu)
وكذلك فى العبرية . ويلاحظ هنا أن بعض هذه الأسماء أحادية البناء فى اللغات الثلاث (الأكدية ، والعربية ، والعبرية) : أى انها تتألف من صوت صحيح واحد وحركة مد طويلة . وفى الأكدية والعبرية عدد وفير من هذه الكلمات الأحادية .

٣ ــ الأسماء الثنائية ، عدا الأسماء الستة ، الوحيدة المقطع ، وهى كثيرة فى جميع اللغات العربية .

وهى اما أن تكون وحيدة المقطع قصيرة الحركة ، وتكون على أصناف ، فمنها :

أ ــ ما يكون مفتوح الأول ، وهو الغالب ، نحو : (قد ، يم ، يد ، دم ، غم ، هم ، كف ، دف ، رف ، خد ، جد ، صف ، بط ، رب ، حج ، طب) .

ب ــ وما يكون مضموم الأول، نحو : (أم ، دب ، جب ، خف ، در ، مر ، حق ، بر) .

(١) الكافية (شرح الاسترابادى) ٢/٢٩٠
(٢) همع الهوامع السيوطى ١/٣٨

جـ ـ وما يكون مكسور الأول، نحو : (قط ، هر ، زق ، رق ، شص ، دن ، كن) •

وفى اللغات الأكدية ما يقابلها تماما •

٤ ـ الأسماء الثنائية ، ذات النهايات الحركية الممدودة ، نحو : (فتى ، صبا ، هوى ، نوى ، جوى ، عصا ، قفا ، مها ، علا ، سها ، ربا) •

٥ ـ الأفعال المعتلة ، وذكر النحاة ثلاثة أصناف منها : المثال ، نحو : وعد ، وهب • والأجوف ، نحو : قال ، مال • والناقص ، نحو : سعى وجرى ودعا •

ولو أمعنا النظر ، لوجدنا أن المثال الأول سالم وليس معتلا : فالواو فى (وعد) ليس صوتا حركيا أو حرف علة ، بل هو صوت صحيح ، مخرجه من بين الشفتين كالياء والميم ، واختفاؤها عند تغيير البناء ليس واجبا ، وانما هو ظاهرة حضارية ثبتت فى اللغة الكتابية فقط وتقيت فى لهجات الكلام ، فنحن نقول : (يوعد) ، ويوهب) • وهو بذلك ثلاثى صحيح •

أما المثالان الثانيان ـ فى الأجوف والناقص ـ فهما ثنائيان، وحرفا المد فيهما حركتان طويلتان •

وخلصت الدكتورة تاكزة من كل ما سبق ـ وأنا معها ـ الى أن :

« المفردات الثنائية تفوق فى العدد الثلاثيات ، وأن معظم الثلاثيات تطور من أصول ثنائية (١) •

وفى ختام دراستها القيمة ، تدعو الباحث الى ملاحظة الأحاديات فى لغات أخرى ، كالانجليزية ، فى نحو :
(Zoo, See, Do, Too, You, We
He, Se, Tea)

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى جـ ١ عدد ٢ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف •

وفى الفارسية ، نحو : (دو = اثنان ، شا = الملك العظيم ، مو = شعر ، سى = ثلاثون ، رو = وجه ، دو = غاية ، خو = عادة ، تا = صفحة ، با = قدم) .

وفى اللغة الكردية ، نحو : (دو = اثنان ، مو = شعر ، رو = وجه ، شو = زوج ، جو = شعير ، خو = عادة ، رى = طريق ، دى = قرية) .

وقد أطلنا فى هذا المقام ولنا عذرنا ، لأن الكثرة من الباحثين ، دأبت على القول السريع ، بأن الثنائية فى لغتنا قليلة .

* والبحث فى نظرية « الثنائية » ليس ترفا عقليا ، ولا أمرا هامشيا ، ولا يتقوقع فى دقة تخصصية :

فمن الاعتراضات الشكلية على بحث مشكلة « الثنائية » ما أثاره الأستاذ عبد القادر المغربى معترضا على آراء الأب مرمرجى ــ بقوله :

« واللغة العربية الى غير هذا ــ من الخدمات المتواضعة ــ أحوج ، والى نوع آخر من الغذاء الاصلاحى أنجع وأنضج » . (١)

وهذا فى رأيى الغاء فج للمسألة من أساسها ، وغلق لباب بحث تحتاجه العربية للتأصيل والوصول الى الحقيقة فى مسائل طال بحثها فى غير ما تكاتف وامعان ، فبقى الخلاف معلقا لها ، والضباب مخيما حولها .

ولذا يرد الأب مرمرجى على الأستاذ المغربى فى موضوعية مشوبة بالقسوة ، حين يصفه بأنه « من المتمسكين بالقديم ، وغير الواقفين على كنه (الثنائية والألسنية السامية) ، لجهله ــ ما عدا العربية ــ بقية الألسن السامية وقواعدياتها وأسرارها وتاريخها ، وما تفترض مقارنتها من المعلومات والأساليب التقنية ، وهذا مما يؤسف عليه ، فان الأستاذ ــ مع كونه اماما فى العربية ــ يعسر عليه المناقشة فى ذات الموضوع » .

(١) معجميات عربية سامية ١٠٨

ثم يسوق الكلام الى كل معارض للثنائية ، بقوله : « فكأنى بحضرات أئمتنا الأجلاء ، يؤثرون بقاء المعجمية على ما هى عليه من الاضطراب ، والتضارب ، والتنافر ، والتناقض فى اشتقاق الألفاظ وتطور معانيها ، على أن تنسق ويعلل سياقها ، فيتجلى فيها الانسجام والتساوق والمنطقية » .

ثم يعود الى الحدة ، والثورة على المألوف ، ويلتمس العذر للأقدمين بقوله :

« وذلك لأن الوسيلة المقترح استخدامها ، لبلوغ هذا الأرب ، هى : (الثنائية ، والألسنية) وهو ما لم يألفوه ، فلا تستمرئه ذهنيتهم التقليدية .ولا أغالى اذا جزمت بأن نفس اللغويين الأقدمين — الذين تفردوا بالذكاء والعبقرية — لو عاشوا فى زماننا ، وأتقنوا معرفة اللغات السامية ، ووقفوا على تقدم العلوم الألسنية فى الأصقاع الغربية ، لجحدوا كثيرا من نظرياتهم ، واعتنقوا المذاهب المستحدثة — على أن ما تعذر على القدماء عمله ، من الهين اليوم على شيوخ اللغة اجراؤه فى معاهدهم ، ولا سيما فى وسط المجامع اللغوية ، وبنوع أخص بين أعضاء لجان وضع المعاجم الحديثة » (١) .

ومن النقد الشكلى أيضا لنظرية « الثنائية » ، فى نقد كتاب « هل العربية منطقية » للأب مرمرجى . ما ذكره الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، اذ وصف مثل هذا البحث بأنه « بحث خاص ، يهم المشتغلين باللغة وأصولها واشتقاقها ، ويهم المجمع اللغوى (المصرى) بشكل خاص .

ويتساءل : هل اطلع المجمع اللغوى على البحث ؟ واتخذ قرارا بشأنه أم لا ؟

كما يصف الثنائية بأنها هدامة للثلاثية والرباعية ، ومقوضة لأركان المعاجم (٢) .

(١) السابق .
(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ٥٣١

ويرد الأب مرمرجى على شق الاعتراض الأول ، بأن المجمع حبذ عمله وأثنى عليه ، وأنه تلقى رسالتى استحسان من صاحب السعادة المرحوم محمد توفيق رفعت باشا ، رئيس المجمع ، ومن صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا • كما يتمنى المؤلف أن تتبنى المجامع اللغوية نظريته ، لتوافر الوسائل العلمية والتقنية والمادية ، ومؤازرة المخلصين •

ويرد على الشق الثانى بأن « الثنائية فى أعيننا غير هدامة الثلاثية ولا الرباعية ، ولا هى مقوضة أركان المعاجم ، انما هى وسيلة التأصيل السابق طور « التصريف » •فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثى والرباعى ويحصر عمله فى المعجمية •• وفى هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية من اللغة ، لكنه يرتئى بأنه : كما أن الرباعى يسوغ رده الى الثلاثى كذلك يمكن رد الثلاثى الى ثنائى ، مما ينجم عنه ان الثلاثى ليس بدء الاشتقاق ، بل الثنائى •

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية للمعجمية فوائد جمة ، منها تجلى الانسجام والتساوق والمنطقية فى تشعب الألفاظ بعضها عن بعض ، وتوسع المعانى وتطورها ، مما هو واضح الفقدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة • فمن ثم لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تنشىء فيها تنظيما معقولا منطقيا ، كما أن ترتيب المعاجم الحديثة مثل : محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستان ، لم يضر بالمعجمية ، بل نفعها ، وان خالف بالواقع تنظيم (القاموس المحيط واللسان ، والتاج) ، أو بالأحرى : قلة التنسيق فيها (١) •

غير أنى أبادر فأقول : ان بحث الثنائية ، سيضيف الى الأبحاث اللغوية فى العربية أعباء كبيرة ، تتطلب منا تضافر الجهود :

(١) معجميات ١١٣

فسيوجب علينا ذلك من جديد دراسة تاريخ العربية ووصفها وتطورها •

وسيوجب علينا : أن نعيد النظر فيما قعده اللغويون فى بابى الاعلال والادغام ، وما أرسوه من نظريات ، وما تخيلوه من تعليلات ، وماسلموا به من أوزان :

فوزان قطّ بالتشديد (فع) لأنها عين الكلمة لا فعل كما ذكروا على أنها لام الكلمة ، اذا قلنا : قطع بالتشديد على وزان فعل بالتشديد •

وسنعيد النظر فى سلاسل الاشتقاقات ، وخاصة غير القياسية منها ، لبعثها وبحثها والانتفاع بها ، للاثراء والتنمية اللغوية ، وجعلها مطردة ــ ولو على رأى الكوفيين ــ للاستفادة من مادتها فيما تمطرنا به محدثات العصر الحديث صباح مساء ، من مدلولات اجتماعية تختاج لألفاظ لغوية ، ويكاد هذا الجديد يصل كل يوم الى خمسين كلمة (كما ذكر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى)، وحين تقف العربية بكماء بلهاء أمام هذا الطوفان ، سيرميها أبناؤها ــ قبل أعدائها ــ بالعقم ، وليست العربية عقيمة ، وانما هى ولود مرنة مطواع •

وسنراجع النظرية من جديد فى الأصول الثلاثية غير السالمة (أى المضعفةوالمضاعفة والمهموزة والمعتلة بأقسامها : المثال ، والأجوف ، والناقص ، واللفيف المفروق والمقرون) وكذلك مشتقاتها ، ومعالجتها فى ضوء المبادىء الحديثة (للفونولوجيا : (Phonologie)

وسيلاقى وزن (فعلل) تحفظات جديدة ، اذ لا يصلح بشكله الحاضر لقياس الأصول الرباعية خاصة ومشتقاتها عامة ، بل اننا سنضطر الى أن نزن الرباعى المضعف ، مثل : وسوس ، على فعفع ، لا على فعلل ، اذ أنه مكرر من ثنائيين •

ولن تبقى حروف الزيادة محصورة فى حروف (سألتمونيها)

•• اذ أمكن تشديد كل الحروف الأبجدية فى العربية •

وستحتاج الثنائيات التى انتقلت الى ثلاثيات ـ وكذلك مشتقاتها بالشد والمد ـ الى أوزان خاصة بها ، وليست على وزان (فعل) •

ولا يخيف ذلك وغيره سدنة العربية وحماتها : فمتى صحت العزائم ، وعلت الهمم ، وقوى الدفع ، وخلص الاخلاص ، فستخدم لغتنا وفخرنا ، وسنبقى كما بنت أجدادنا ، ونفعل فوق ما فعلوا •

••••

وبعد :

فتاريخ اللغات السامية فى أكثر نواحيه غامض ، ورمال الجزيرة العربية ـ وهى موطن الساميين ـ لا تفصح عما يصف هذا التاريخ البعيد •

ولذلك سيظل الاختلاف بين الثنائيين والثلاثيين قائما بين أبناء العربية وغيرهم ، وسيجد كل فريق ما يبرر به القبول أو الرفض لهذه النظرية أو تلك • وسيبقى الأمر كما قال الأب (هنرى فليش) : « ان التحليل الداخلى للكلمة العربية أو السامية ، لتمييز الأصول الثنائية لما ينته الى نتيجة مرضية ، ولعله من المحال أن يحدث هذا • وخلاصة القول : أن مشكلة الثنائية لما تلق حلا » (١)

واذا كان علماء التاريخ ، وعلماء « الأنثربولوجيا » يتنازعون الرأى فيما بينهم أشد الاختلاف ، مع خبر يروى ، أو أثر يذكر ، أو شاهد يرجح ، أو حفريات تهدى •• فان باحثى اللغات أشد حيرة ، وأكثر اختلافا ، وأوسع متاهة •• حين يصمت التاريخ ، وينـدر الشاهد ، ويعز الأثر ، ويفتقد الدليل ، وتضيع الوثائق ••

(١) العربية الفصحى ٢٥١

غير أن قياس الغائب على الحاضر ، واعمال العقل فى المأثور على قلته باعتبار أن الظاهرة تشيع ••

وتقليب الفكر فيما سبق من سلسلة هذه المقالات ، يجعلنى أقرر وأنا مطمئن :

الى أن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية يرد الى أصول ثنائية الأصل •

وأن الجذور الثنائية أصيلة وثابتة فى لغتنا ، وغير قليلة •

ولعلى بذلك الجهد المتواضع أكون قد قدمت شمعة على طريق البحث ، تهدى السائرين ، وتحفز الباحثين على التنقيب عن الحقيقة ، حتى يرى الضوء من جوانب العربية ، بقى زمنا فى حجاب مستور ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •

د • توفيق محمد شاهين

دعـــاء

اللهم انى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم •

وأسألك الجنة ما قرب اليها من قول وعمل •

وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل •

وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم •

أم المؤمنين عائشة

الإمامة والشيعة

للأستاذ السيد حسن قرون

للجاحظ رسالة سماها « كتاب التربيع والتدوير » يقول فيها مداعبا (أحمد بن عبد الوهاب) « لو قتلت لهلكت الأمة ، لأنك رجل لا عقب لك . والامامة اليوم لا تصلح فى الاخوة ، ولو صلحت فى الاخوة كانت تصلح فى ابن العم ، ثم انها دنت فى الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح الا فى الولد وفى هذا القياس أنها بعد أعوام لا تصلح الا ببقاء الامام نفسه الى آخر الأبد ، وهذا هو علة المناسخة » والغريب من أمر الجاحظ أنه تنبأ بالأمر قبل حدوثه بناء على نظرة ثاقبة استنبطها من مجرى الأحداث فى زمانه ، فما قاله عن الامامة حصل بعد موته بعدة سنوات . مات الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، وقالت الشيعة : ان الامام الثانى عشر (محمد الحسن العسكرى) وهو المهدى دخل فى سرداب بدارهم فى (الحلّة) وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا .. » وكان اختفاؤه سنة ٢٦٠ هـ أى بعد وفاة الجاحظ بخمس سنوات . فمن الاثنا عشر من الأئمة الذين عناهم الرافضة ويفترقون عن الاسماعيلية أو الباطنية ؟ هم على الترتيب على بن أبى طالب ثم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ، ثم على زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم على الرضا (ولى عهد المأمون) ثم محمد التقى ، ثم على الهادى ثم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى امام الزمان عند شيعة ايران وهو المهدى المنتظر ويقتضينا هذا أن نوضح رأى

الجاحظ ونبسط القول فيه حتى يتبين لنا كيف صار الأمر كما ذكرت ؟ تاريخ طويل ، وجهاد مرير يجب أن تنفضه بين يديك ، وأحب أن أتناوله دون تعسف أو تفريعات لنبلغ المراد من أقصر طريق وأوضح دليل .

ما أشك فى أن زعامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين رضى الله عنه الى أخيه محمد بن الحنفية وان كان عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن جعفر يشاركانه فى تلك الزعامة، ومن ثَمَّ كان عبد الله بن الزبير يشن الغارة عليه قولا وفعلا ، فقد أنزل ابن الزبير من مكانة ابن الحنفية بقوله :« عذرت بنى الفواطم فما بال بنى حنيفة ؟ » لأن ابن الحنفية يخدش نسبه فى نظر خصمه أنه ليس من أبناء فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يسكت ابن الحنفية فقال له : « يابن رومان ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم اخوتى ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ (١) أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت فى بنى أسد عظما الا هشمته ، وان نالتنى فيه المصائب صبرت » فمحمد زعيم بنى هاشم ينافح عن حقه فى الامامة ولكن ابن الزبير قبض عليه وعلى خمسة عشر رجلا من قومه وأودعهم سجن (عارم) وانتهى الأمر بثورة الشيعة والافراج عن محمد وقومه من بنى هاشم ، وقد يكون عبد الله ابن عباس أصرح منه رأيا ، وأشد منه شكيمة فى عداوته لبنى أمية ، فلم يقبل مهادنة يزيد بن معاوية واتهمه بقتل الحسين على حين نفى ابن الحنفية أن يكون ليزيد علم بمصرع الحسين ، ولم يكن موقفه من ابن الزبير تأييدا لمروان وابنه فى الشام انما كان ينظر الى حق بنى هاشم فى الخلافة ، ولكن ابن عباس وافاه أجله بالطائف

(١) مخزومية انجبت عبد الله والد الرسول وابا طالب والزبير وخمس بنات لعبد المطلب .

سنة ٦٨ هـ وصلى عليه ابن الحنفية الذى بقى قائما بأمر أهله وأمر الشيعة .. ثم توفى بالمدينة وترك أمر الشيعة لابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد وكان رجلا قوى الجسم عالما بشئون السياسة ، ولم يكن ينظر الى الأمر على أنه لبنى على دون بنى هاشم ، بل يرى بنى عبد المطلب أسرة واحدة يتولى أمرها الصالح للعمل ، ولم يتوان حين أحس بدنو أجله من أن يجتمع بابن عمه من فرع العباس وهو محمد بن على بن عبد الله بن عباس ليسند اليه أمر الشيعة وأسرار الدعوة وقال له : ان الأمر صائر اليكم ، فاضطلع محمد العباس بالأمر ، واتجه بسياسته ، وأظن أنها من تعاليم أبى هاشم — الى خراسان . وقد بين سياسته لدعاته بقوله : « أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا الا القليل . وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها على وشيعته وليس بها من شيعتنا الا القليل . وأما الشام فشيعة مروان وآل أبى سفيان .. أما الجزيرة فحرورية شادة وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشرق فان هناك صدورا سليمة وقلوبا باسلة لم تفسدها الأهواء ، ولم تخامرها الأدواء ، ولم تعتقبها البدع وهم مغيظون موتورون ، وهناك العدد والعدة والعتاد والنجدة » ففرقة الشيعة العباسية هاشمية نسبة الى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، ومعنى هذا اننا الآن فى بدء القرن الثانى الهجرى ، والشيعة بعضهم مع بنى العباس وبعضهم مع أبناء على ، وأغلب الظن أن محمدا الامام العباسى كان رجلا داهية يعرف ما يدور فى العالم الاسلامى ويكتم أمره عن أقرب الناس اليه ، والدليل على ذلك أنه حدثت ثورات من العلويين كان اخوته وأبناؤه يشاركون فيها ويندمجون فى تياراتها ، ولو كانوا على علم بما يجرى بينه وبين أهل خراسان ما شاركوا فى تلك الثورات العلوية ، مات محمد هذا سنة ١٢٥ هـ فى العام الذى مات فيه هشام بن عبد الملك الخليفة

الأمـوى ، وانتقلت الامامـة الى ابنه (ابراهيم) الملقب بالامام وهو أخو السفاح وأبى جعفر المنصور ، وكان كأبيه أريبا لبيبا حازما وبه انتقلت الدعـوة من الكلام الى امتشـاق الحسام ، وكان مولاه أبو مسلم الخراسانى كفاء لتلك المسئولية ، وصـار عنـد الشيعة مقدسا ينفـذ أمره وتجبى اليـه أمـوال الخـراج فى مستقره فى (الحميمـة) من أرض الأردن .

وفى عهده ثار عبد الله بن معـاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتلك أجـزاء من الامبراطورية الاسلامية ، وعمل له أبو جعفـر المنصور فى احدى مقاطعاته ، ويظهر لك مركـز (ابراهيم الامام) من تلك الحادثة : قال الرواة (١) : ان عبد الله بن معاوية الطـالبى تزوج بالكوفة من بنى رياح أثناء زيارته لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فالتف اليه نفر من أهل الكوفة وقـالوا له : أُخْرج فأنت أحـق بهذا الأمر من بنى أمية فاستجاب لهم ، ودعا الناس الى بيعتـه على الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فبايعوه ، ولم يجتمع أهـل المصر كلهم عليه وقالوا له : مافينا بقية ، فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت ، وأشاروا عليه بقصـد فارس من نواحى الشرق . ومعنى هـذا أن أهـل الكوفة ضعضعتهم الحروب فى سبيل آل البيت على عهد الحسين وحفيده زيد ، وقـد تراخت أعصـابهم عن تحمـل المسئولية ، تركهم وجعـل وجهته الشرق فاستولى على مـاء الكوفة وماء البصرة وهمدان وقم وقومس والرى وأصبهان وفـارس ، وأقام بأصبهان ، وأخذ له البيعة (محارب ابن موسى مولى بنى يشكر) وولى اخـوته على الأقاليم ، وقصـدته بنو هاشم منهم السفاح والمنصور وعيسى بن على وعبـد الله بن على ، وقصدته وجوه قـريش من بنى أمية وغيرهم ، فمن قصده من بنى أمية سليمان بن هشام ، وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز

(١) الأغانى ـ أخبار عبد الله بن معاوية

ابن مردان ، وقلدهم الأعمال .. ثم جاءته جيوش مروان بن محمد ابن مروان (آخر خلفاء بنى أمية) فوجد نفسه لا قبل له بها فهرب الى خراسان ، وقد ظهر بها أبو مسلم — صاحب دعوة بنى العباس — ونفى عنها واليها (نصر بن سيار) فلما صار عبد الله بن معاوية فى بعض طريقه نزل على رجل ذى نعمة ومروءة وجاه — على حد تعبير الأغانى — فسأله معونته . فقال له ذلك الرجل : أنت من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا . قال : فأنت ابراهيم الامام الذى يدعى له بخراسان ؟ قال : لا . قال الرجل : لا حاجة لى فى نصرتك . ثم وقع فى يد أبى مسلم الخراسانى فحبسه عنده الى أن مات . ويتبين لنا من تلك الحادثة أن خراسان اتجهت الى ابراهيم الامام (العباسى) ولها ميول الى أبناء فاطمة رضى الله عنها ، وأبناء العباس بن عبد المطلب بما فيهم السفاح والمنصور لو كان عندهم علم بدعوتهم فى خراسان ، وأنها من القوة بحيث تجتاح الحكم الأموى لما تجشموا المشاق فى ظل عبد الله بن معاوية ، ولم يمض الا قليل حتى كان الأمر خالصا للسفاح بعد القبض على ابراهيم الامام الذى أوصى أن يكون الامام بعده (السفاح) وفضله على المنصور مع صغر سنه لأن أمه عربية .

فى هذا الوقت كان أبناء فاطمة فرقتين : فرقة تقول بامامة زيد ابن على زين العابدين ، وفرقة ترفضه لأنه لم يتبرأ من الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويتشيعون لجعفر الصادق بن محمد ابن على زين العابدين . وكان جعفر الصادق كأبيه (محمد الباقر) رجلا صواما قواما يعنى بآخرته أكثر بكثير من النظر الى دنياه ، ولم يعجبه ما يقوله الشيعة ، وكان يتبرأ مما يقولون ، ولكنها ماضية فى سبيلها ، ترفض من ترفض وتؤيد من تؤيد ، يغلب عليها الكلام ، وظهر فى سنة ١٤٥ هـ الأخوان : محمد (النفس الزكية) وابراهيم

ابن عبد الله من آل الحسن بن على ابن أبى طالب على مذهب الزيدية القائلين بأن الامامة تختار من أهل العقد والحل وليست وصية من الرسول الى أحد ، وانتهت ثورتهما بمصرعهما وفرار أخيهما ادريس الى المغرب ليؤسس مملكة عرفت فى تاريخ المغرب (بالادريسية) وفر الأخ الرابع الى الديلم وهو يحيى ابن عبد الله .

ومن كل ما تقدم ترى أن الشيعة كانت لبنى هاشم جميعا ، ثم أخذت تضيق وتضيق ، فلم يكن أبناء العباس منها ولا أبناء جعفر ابن أبى طالب منها ، ولا أبناء على من غير فاطمة ، بل حصرت فى أبناء فاطمة ثم حصروها فى أبناء الحسين ، ثم حصروها فى أبناء محمد الباقر ، ثم حصروها فى ابنه جعفر الصادق وحده مع أن له اخوة كثيرين . ولعبت الشيعة لعبتها فى أبناء جعفر الصادق فصيروها فرقتين : فرقة فى أبناء اسماعيل الذى مات فى عهد والده فرفضه بعض الشيعة وقالوا بامامة أخيه (موسى الكاظم) الذى ورث أباه ، ومن موسى الكاظم تناسل عدد من أولاده كانوا أئمة بالتعيين واحدا بعد الآخر حتى كان (محمد الحسن العسكرى) الذى وقف عنده الشيعة ولم يتعدوه وجعلوه متغيبا وسيظهر آخر الزمان .. أرأيت الى كاتبنا الجاحظ كيف هدته بصيرته الى أن يقول فى شأن تطور الامامة أنها فى الولد وغيره ثم «انها بعد أعوام لاتصلح الا ببقاء الامام نفسه الى آخر الأبد » .

وفرق كبير بين ما وصلت اليه الامامة وما كانت عليه أيام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، انظر الى شاعر الشيعة فى أيامه يقول والخطاب لبنى أمية ، والشاعر هو (الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب) :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا
لا تنتشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطعمو ان تهيئونا ونكرمكم
وان نكف الأذى عنكم وتؤذونا

مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا
سيروا رويدا كماكنتم تسيرونا

الله يعلم أنا لا نحبكم
ولا نلومكم أن لا تحبونا

كل له نعمة فى بغض صاحبه
بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وبين ما صارت اليه منذ القرن الثانى الهجرى ، فقد توزعت وتنوعت كما بينت سابقا من هاشمية وزيدية وطالبية واسماعيلية واثنا عشرية ، وفى أثناء كل عهد تظهر مقولات ما أنزل الله بها من سلطان ، وما من شك فى أن أصل كل ذلك وأساسه هو الخلافة وشهوة الحكم ، والتطلع الى زهرة الحياة الدنيا ، فاذا بلغت احدى هذه الفرق وأقبلت عليها الدنيا لاذت الأخرى الى العبادة والتقشف والنعى على الولاة ، والاغراق فى تصورات لايعرفها الدين الاسلامى ولا نهجه الحميد .

والأصل فى الخلافة أنها تقوم على الشورى ومبدأ الانتخاب ، ولكن السنة التى سنّها معاوية هى التى مالت بالعقول الى الحزبية المقيتة ، والتفكير السقيم ، والأساطير المضللة ، والروايات المفتعلة ، والمعروف لكل مسلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يأت بالدين الحنيف ليقيم عرشا لبنى هاشم ، أو ليكون لقريش مزية على العرب ، أو يكون للعرب فضيلة على سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، انما هو دين حنيف أرسل به الله رسوله للناس جميعا ، لكن أمية وهاشم وهما لعبد مناف اتخذوا من قرابتهم للرسول وسيلة الى السيادة وتولى أمور المسلمين ، كان بنو هاشم ينكرون على بنى أمية أن يجعلوها وراثة ويفارقوا منهج الخلفاء الراشدين ، فلما جاءتهم تجرر أذيالها قالوا : نحن ورثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو العباس يشعرون فى أنفسهم أنهم إنفردوا بالسلطان دون بنى عمومتهم من آل أبى طالب ، وموقف المأمون الخليفة العباسى من (على الرضا) يشف عما فى خلجات نفوسهم ، فقد جعله ولى العهد من بعده ، ولو عاش على الرضا لتم الأمر ، وان كان ابن خلدون لا يرى رأيى فعنده أن العصبية للبيت العباسى تمنع أن تكون الخلافة فى غيرهم ،

وكم دافع شعراء بنى العباس عن حقهم فى الخلافة ، بأن العباس جدهم هو العم الوحيد الذى عاش بعد وفاة رسول الله فهو أحق بالخلافة ، وجعلوا أبناء على محجوبين بالعم الى آخر ما سطروا واختلفوا ، وكان رد الشيعة أن فيء الرسول يجب أن يكون فى أبنائه ، وأن بنى أمية وبنى العباس مغتصبون .

ويجيء دعبل الخزاعى الشاعر ، فيقول فى تائيته كلاما موجعا ينبع من قلب حزين ، ونفس مكلومة ، وحيرة بالغة من مثل :

أرى فيئهم فى غيرهم متقسما
وأيديهم من فيئهم صفرات

فآل رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفل القصرات

بنات زياد فى القصور مصونة
وآل رسول الله فى الفلوات

اذا وتروا مدوا الى واتريهم
أكفا من الاوتار منقبضات

وهو كلام لا يرجع الى كتاب ولاسنة ، ولم يجيء رسول الله بالدين القويم من أجل الفيء ، وسيادة بنى بنته على سائر الناس ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ولو كان الأمر راجعا الى سلطان أو ولاية لولى عمه العباس احدى الولايات ولكنه لم يفعل مما يهديك الى سبيل الرشاد ، فقد كان يولى القادر على العمل دون نظر الى سابقة فى الاسلام أو فداء فى نشر الدعوة ، ومن الغريب أن (دعبل) حين أنشد هذه القصيدة لجعفر الصادق تأثر تأثرا بالغا ، فقد أغمى عليه حين سماعها ثلاث مرات فى كل مرة يبدأ الشاعر من أول القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات

فاذا بلغ فى انشاده الى :

اذا وتروا مدوا الى واتريهم
أكفا من الأوتار منقبضات

بكى حتى يغمى عليه . وأغرب من ذلك أنه يؤمن بالامام المنتظر يقول :

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد
لقطع قلبى اثرهم حسرات

خروج امام لا محالة خارج
يقوم مع اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل
ويجزى على النعماء والنقمات

وقد كان الخلفاء العباسيون من تلك الفرق المتشيعة فى هم ناصب ، وقلق متواكب يسمعون ما يقال فيهم وما يقال فى أعدائهم من بنى عمومتهم فيتحيرون ، فتارة يقسون ، وتارة يرقون فيبكون ، وكل ذلك يفت فى عضو الدولة ، ويؤخر النظر فى شئونها ومصالحها .. وكم غضب الرشيد من هجوم الشعراء على العلويين ، أنشده الشاعر (منصور النمرى) قصيدة مدحه بها وهجا آل على بن أبى طالب ، فضجر الرشيد ثم قال : يا بن اللخناء ، أتظن أنك تتقرب الى بهجاء قوم أبوهم أبى ، ونسبهم نسبى ، وأصلهم أصلى ، وفرعهم فرعى ؟ فقال : ما شهدنا الا بما علمنا فازداد غضب الرشيد ، وأمر مسرورا فوجأ فى عنقه ، وأخرج (١) .

ثم أدخل اليه يوما آخر ، فأنشده :

بنى حسن ورهط بنى حسين
عليكم بالسداد من الأمور

فقد ذقتم قراع بنى أبيكم
غداة الروع بالبيض الذكور

أحين شفوكم من كل وتر
وضموكم الى كنف وثير ؟

وجاءتكم على ظمأ شديد
سماء من نوالهم الغزير

فما كان العقوق لهم جزاء
بفعلهم وادراك الثئور (٢)

وانك حين تبلغهم أذاة
وان ظلموا لمحزون الضمير

فقال له : صدقت . والا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنا أذكر ذلك لأبين الحياة المضطربة ولواعج الأسى فيما صار اليه أمر الشيعة وأمر الحكومة القائمة ، ومع كثرة الثورات وخروج الخارجين من العلويين على العباسيين ارتاح الناس أوجلهم الى الحكومة القائمة ، فاذا ظهر فى الأفق اتفاق بين المتخاصمين فرح الشعب وعبر الشعر عن هذا الاتفاق .

(١) ضربه (٢) جمع ثأر

فى سنة ١٧٦ هـ ظهر يحيى ابن عبد الله العلوى فى الديلم وقويت شوكته فاغتنم الرشيد وندب اليه (الفضل بن يحيى البرمكى) فى خمسين ألف مقاتل ومعه صناديد القواد ، ولم يشأ الفضل أن يحارب فكاتب يحيى العلوى واستماله ، وصاله على أمان يقدمه الرشيد عليه مشهود الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ــ كما يقول الطبرى ــ وتم الصلح وقدم يحيى العلوى مع الفضل البرمكى الى بغداد فكانت فرحة عامة استقبل فيها الشاعر مروان ابن أبى حفصة الفضل يخاطبه بشعر جميل منه :

ظفرت فلا شلت يد برمكية
رتقت بها الفتق الذى ببن هاشم

على حين اعيا الراتقين التئامه
فكفوا وقالوا : ليس بالتلائم

وأنشد أبو ثمامة الخطيب لنفسه فيه :

للفضل يوم الطالقان وقبله
يوم أناخ به على خاقان
مامثل يوميه اللذين تواليا
فى غزوتين تولتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم
بعد الشتات فشعبها متوان
عصمت حكومته جماعة هاشم
من أن يجرد بينها سيفان

تلك الحكومة لا التى عن لبسها
عظم النبا ، وتفرق الحكمان

والبيت الأخير يشير الى التحكيم الذى جرى بين على ومعاوية ، وانتهى بأمر) عظم خطبه ، وتفرق الحكمان من غير أن ينيرا الطريق أو يحسما الأمر .. أما الفضل ابن يحيى البرمكى فقد رد ألفة بنى هاشم ، وحل السلام محل الخصام ، ولكن الأمور لم تجر كما أراد المخلصون فقد وشى الوشاة بيحيى العلوى فسجنه الرشيد ، وأمعن فى العداء حتى تخلص من البرامكة . ويئس الشيعة من العراق وفارس وخراسان فاتجهوا الى شمال افريقية فأسسوا خلافة فاطمية ، أما من يئس منهم فقدوقف عند المهدى المنتظر آملا فى رجعته ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . وقد تظن أن آل أبى طالب هم الذين قالوا ذلك أو أوحوا به ،

انهم أبرياء من تلك المذاهب الا الذين نالوا ملكا وأقاموا دولا ، فقد تكون السياسة لونت مبادئهم بما يستقيم مع حكمهم .

تعال معى ننظر فيما قاله أبناء الحسين فى الشيعة وأبناء الحسن، من أبناء الحسن (حسن بن حسن) ينقل عنه أبن سعد فى الطبقات عن الفضيل بن مرزوق . قال : سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل ممن يغلو فيهم : ويحكم ، أحبونا لله فان أطعنا الله فأحبونا وان عصينا الله فأبغضونا . فقال له رجل : انكم قرابة رسول الله وأهل بيته . فقال : ويحك ، لو كان الله مانعا بقرابة من رسول الله أحدا بغير طاعة الله لنفع بذلك من هو أقرب اليه منا أبا وأما ... ويلكم اتقوا الله وقولوا فينا الحق فانه أبلغ فيما تريدون ونحن نرضى به منكم . ثم قال : لقد أساء بنا آباؤنا ان كان هذا الذى تقولون من دون الله ثم لم يطلعونا عليه ، ولم يرغبونا فيه . فقال له الرافضى : ألم يقل رسول الله عليه السلام لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه ؟ فقال الحسن : أما والله أن لو يعنى بذلك الامرة والسلطان لأفصح لهم بذلك كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت ولقال لهم أيها الناس هذا وليكم من بعدى ، فان أنصح الناس كان للناس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان الأمر كما تقولون ان الله ورسوله اختار عليا لهذا الأمر والقيام بعد النبى عليه السلام ان كان لأعظم الناس فى ذلك خطيئة وجرما ، اذ ترك ما أمره به رسلل الله أن يقوم فيه كما أمره أو يعذر فيه الى الناس .

وأبو جعفر محمد بن على حفيد الحسين يقول فى أسئلة وجهت اليه : السائل أكان منكم ــ أهل البيت ــ أحد يزعم أن ذنبا من الذنوب شرك ؟ أجاب محمد بالنفى . قال : أكان منكم أهل البيت أحد يسب أبا بكر وعمر ؟ قال أبو جعفر محمد : لا . فأحبهما وتولهما واستغفر لهما . وكان لأبى جعفر أخ غير زيد بن على

اسمه عمر بن على سأله الفضيل ابن مرزوق • قال : سألت عمر ابن على وحسين بن على عمى جعفر ابن محمد (جعفر الصادق) قلت : هل فيكم ــ أهل البيت ــ انسان مفترضة طاعته تعرفون له ذلك ومن لم يعرف له ذلك فمات مات ميتة جاهلية ؟ فقالا : لا والله ما هذا فينا ، ومن قال هذا فينا فهو كذاب ، قال : فقلت لعمر : رحمك الله ، ان هذه منزلة تزعمون أنها كانت لعلى ، ان النبى صلى الله عليه وسلم أوصى اليه ، ثم كانت للحسن ، ان عليا أوصى اليه ، ثم كانت للحسين ان الحسن أوصى اليه ، ثم كانت لعلى ابن الحسين ان الحسين أوصى اليه ثم كانت لمحمد بن على ان عليا أوصى اليه • فقال : والله لمات أبى فما أوصى بحرفين • قاتلهم الله ، والله ان هؤلاء متأكلون بنا ، هذا خنيس •• قلت : المعلى بن خنيس • قال : نعم المعلى بن خنيس ، والله لفكرت على فراشى طويلا أتعجب من قوم لبس الله عقولهم حين أضلهم المعلى بن خنيس • فأبناء الحسن وأبناء الحسين يتبرءون ممن ألصق بهم تلك المقولات ، ولكنها مضت سافرة تجوب البلدان ، وتنتشر فى كل مكان ، ويتبعها بشر من غير بصر ولا نظر •• ثم أصبحت عقائد تقوم بها دول وتسقط دول ، ويرتفع بها عرش ويهوى بها عرش ، فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه فى عقيدته وأمامه كتاب الله وسنة نبيه الصحيحة فلينظر وليقطع فى أمر الدين وأوامره ونواهيه ، وليقرأ كتب التاريخ ببصيرته لا ببصره وبعقله لا بعاطفته هنالك يجد السبيل الواضح والنور المبين ، والله الهادى الى سواء السبيل •

السيد حسن قرون

حول إثبات أوائل الشهور العربية بالحساب الفلكى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المشد

اختلف فقهاء الشريعة فى ذلك ، فمنهم من أوجب الاعتماد فى اثبات الرؤية لهلال شهر رمضان ، والافطار ، وأهلة الشهور الأخرى على الرؤية البصرية فقط ، دون سواها من وسائل الاثبات ، ومنهم من أجاز الاعتماد على قول علماء النجوم والحساب عند الغيم ، للحاسب نفسه ، أو له ومن بلغه أو قلده ، ومنهم من أوجب الاعتماد على قولهم ، وقد ذهب أكثر فقهاء المذاهب الأربعة الى وجوب الاعتماد فى ذلك على الرؤية البصرية دون الاعتماد على الحساب الفلكى •

فمن الحنفية :

الكمال بن الهمام ، وأصحاب الفتاوى الهندية ، وبدائع الصنائع ، والشرنبلالية ، والسرخسى ، وقال ابن عابدين : لا عبرة بقول المنجمين ولو كانوا عدولا بالاجماع •

ومن الشافعية :

النووى ، وابن حجر ، والباجورى ، وابن قاسم الغزى والرملى الذى وضع رسالة فى الرد على السبكى ، وان أجاز الرملى للحاسب وحده أن يعمل بحسابه ، كما أجاز القسطلانى للحاسب أيضا أن يعمل بحسابه كالصلاة مستدلا بظاهر قوله تعالى : « وعلامات بالنجم هم يهتدون » •

ومن المالكية :

الامام القرافى وفرق بين اثبات الأهلة وبين أوقات الصلاة حيث منع فى الأولى وأجاز فى الثانية • وقال ابن عرفة :

لا أعرف لمالك اعتبار قول المنجم وكذلك الشيخ عليش فى كتابه :

« فتح العلى المالك » .

ومن الحنابلة :

ابن قدامة فى كتابه المغنى حيث يقول : من بنى على قول المنجمين والحساب لم يصح صومه وان كثرت اصابتهم لأنه ليس بدليل شرعى انما الدليل : قوله عليه الصلاة والسلام : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) . وقوله : (لا تصوموا حتى تروه ، ولا تفطروا حتى تروه) أى الهلال.

أدلة المانعين من الاثبات بالحساب الفلكى :

استدلوا :

١ ــ بما روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروه ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له » .

أخرجه أبو داود والدارقطنى ، قال جمهور الفقهاء :

معنى اقدروا له : اكمال عدته ثلاثين . قالوا :

ويؤكد هذا المعنى حديث «فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » قالوا : ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين لأن فيه تضييقا على الناس اذ لا يعرفه الا أفراد ، أما الرؤية البصرية فيستطيعها كل انسان .

وذهب الامام أحمد :

الى أن معنى : اقدروا له : ضيقوا له العدد بدليل قوله تعالى : (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق ، والتضييق هنا جعل شعبان تسعة وعشرين يوما .

أما ابن عمر :

فقد فسره بفعله فقد كان يصوم يوم الشك ، وقال :

معنى الحديث : ضيقوا للهلال عدد لياليه .

٢ ــ وبما روى ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا

وهكذا وعقد الابهام فى الثالثة أى تسعة وعشرون ، والشهر هكذا وهكذا يعنى تمام الثلاثين » أخرجه أحمد والشيخان .

٣ ــ حديث « من صدق كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد » .

قالوا : والمراد بالحساب هنا : حساب النجوم وتسييرها ، وأقل ما فى النهى : الزجر عن العمل بالحساب والتنجيم واتخاذهما أساسا لحكم شرعى .

القائلون بالاعتماد على الحساب الفلكى واتخاذه أساسا للأحكام الشرعية .

قال بذلك فريق من فقهاء الحنفية والشافعية ، غير أنهم اختلفوا .

فقال بعضهم :

يجوز العمل بالحساب الفلكى لمن عرفه ولمن قلده .

وقال بعضهم :

يجب العمل به لمن عرفه ولمن قلده .

واشترط بعضهم لجواز الاعتماد عليه شرطان : (١) بعد القمر عن مكان غروب الشمس . (٢) أن يكون بالأفق غيم بحيث لو زال المانع أمكن رؤية الهلال بالبصر .

وأجازه بعضهم مطلقا :

فأجاز ربطه بالحساب الفلكى سواء أكان القمر قريبا من مكان غروب الشمس أم بعيدا عنه ، وسواء أكان الأفق غائما أم صافيا. وممن أجاز من علماء الحنفية :

« صاحب الهداية » :

فى « مختارات النوازل » حيث قال : ان علم النجوم فى نفسه حسن غير مذموم ، وهو قسمان : حسابى ، وهو حسن نطق به القرآن وقال الله تعالى :

« والشمس والقمر بحسبان » (الرحمن ٥) ــ أى سيرهما بحسبان .

والاستدلال بسير النجوم ، وحركة الأفلاك على الحوادث جائز كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض الخ .

« صاحب القنية » :

روى فى هذا الحكم ثلاثة آراء :

(أ) القاضى عبد الجبار :

يرى أنه لا بأس بالاعتماد على قولهم ، وظاهره أن ذلك على الاطلاق لنفسه ولمن قلده ، وسواء أكان القمر قريبا أم بعيدا من مغرب الشمس .

(ب) ابن مقاتل الرازى ـ من أصحاب محمد بن الحسن :

نقل عنه أنه كان يسألهم ، ويعتمد على قولهم وقد اتفق عليه جماعة منهم .

(جـ) السرخسى :

وقد تقدم رأيه : بصدر هذا البحث .

(د) القشيرى : ويرى أنه اذا دل الحساب على أن الهلال قد طلع من الأفق على وجه يرى لولا وجود المانع كالغيم مثلا فهذا يقتضى الوجوب لوجود السبب الشرعى .

وليست حقيقة الرؤية مشروطة فى اللزوم ، فان الاتفاق معقود على أن المحبوس اذا علم بكمال العدد ـ أو الاجتهاد ـ أن اليوم من رمضان وجب عليه الصوم ، وان لم ير الهلال ، ولا أخبره من رآه .

وقد رأى المؤتمر الأخذ بهذا الرأى مع عدم الاعتداد باختلاف المطالع .

ومن علماء الشافعية :

« الامام السبكى » :

ذهب الى اعتماد الحساب فى اثبات الأهلة ومواقيت الصلاة بناء على أن الحساب قطعى الثبوت نظرا الى ما وصل اليه علم الحساب والفلك من الدقة والوثوق فى نتائجهما .

وقرر الامام السبكى : انه لو شهدت بينة برؤية الهلال ليلة الثلاثين من الشهر . وقال الحساب بعدم امكان الرؤية تلك الليلة عمل بقول أهل الحساب لأن الحساب قطعى والشهادة ظنية .

والسبكى يرى جواز الاعتماد على الحساب الفلكى لا وجوبه ، وربط الحكم الشرعى به اذا كان

القمر بعيدا عن مغـــرب الشمس بحيث يمكن رؤيته بصـريا لولا الغيم وهو فى هذا تابع لامام سابق من أئمة الشافعيـــة وهـــو ابن سريج .

ونقل السبكى عن فريق من أئمـــة الشافعية :

منهم : الرافعى ، والمـاوردى ، والرويانى أن الفقهاء قد أختلفوا فى جواز الاعتماد على الحساب وربط الحكم به مطلقا أى ســواء أكان القمر قريبا من مغرب الشمس ولا ــ يمكن رؤيته ــ أم بعيدا عنه بحيث يمكن رؤيته لولا المانع من غيـم أو نحوه .

ورجح السبكى أن خلاف الفقهاء فيما اذا كان القمر بعيدا عن مغرب الشمس ويمـكن رؤيتـــه لولا المانع ، بخلاف ما اذا كان القمـر قريبا من الشمس ، أو كان بعيدا يمكن رؤيته .

القائلون بوجوب العمل : ثم نقل السبكى من القفال ، والقاضى أبى الطيب من أئمة الشـافعية وعـن غيرهما من غير الشافعية القـول بوجوب العمـل بالحساب الفلكى لمن عرفه ولمن قلده .

وذهب طاووس ، وجماعة مـن الشيعـة الامـــامية الى أن علم الحساب والفلك من علوم الأنبياء.

فمن علمت اصابته منهم ، وعدم خطئه : أفاد قوله غلبة الظن وعمل بمقتضاه لأن الأحكام تبنى على غلبة الظن .

أدلة القائلين بالأخـذ بالحســاب الفلكى :

استدل القائلون بجواز الأخذ بالحساب الفلكى أو بوجوبه بأدلة بعضها عقلى وبعضها علمى، وبعضها شرعى .

١ ــ قالوا : ان الرؤية البصرية تتوقف على أمور متغيرة غير ثابتة كحالة الجو من صفاء واكفهرار ، ودقة الهلال وكبره ومقدار ضوئه ، وسلامة بصر الناظـر ومـرضه أو ضعفه ، وارتفاع مكانه وانخفاضه وغـير ذلك ممـــا يكون له أثر كبير فى وضوح الرؤية وخفائهـا

ولهذا كانت وسيلة طيبة فى اثبات ما تعلقت به من أحكام •

أما الحساب الفلكى ، فاذا كان قديما يقوم على الحدس والتخمين وكان بهذا خليقا أن يكون وسيلة ظنية ، وموضعا لاختلاف الفقهاء فى ربط الحكم الشرعى به لضعف آلاته الفلكية والحسابية ، فانه الآن موضع الثقة بعد أن أصبح علما يقوم على أساس من القوانين والبراهين التى لا تخطىء النتائج•

وأصبح يقوم بتحديد أوائل الشهور العربية على أساس ثابت وهو اجتماع الشمس بالقمر ، فاذا اجتمعا كانت أول ليلة يظهر فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر العربى ولو كانت مدة مكثه فى الأفق بعد غروب الشمس دقيقة واحدة •

ولكن نظرا لبقاء ضوء شفق الشمس بعد غروبها حوالى سبع دقائق مما يحول دون رؤية الهلال اذا كان قريبا من مغرب الشمس ، فانه لا يمكن للعين السليمة رؤية الهلال حتى مع الظروف المناسبة فى السماء الصافية •

واذا فالحساب العلمى الفلكى فى مثل هذه الحال يثبت مولد الهلال وابتداء الشهر العربى بما لا يدع مجالا للشك ، بينما الرؤية لا تثبته لدقة الهلال ، وقربه من من مكان غروب الشمس وضوء الشفق •

٢ ــ رجوع الفقهاء الى أهل الخبرة امتثالا لقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ٢١ : ٧ » •

فيأخذ الفقهاء بقول الطبيب فى مدى المرض الذى يسوّغ للمريض الافطار فى رمضان ، وبقول القومسيون الطبى ، وتسجيل الأصوات والوقائع وغير ذلك من وسائل الاثبات مما يكسب القاضى أو المفتى علما جازما أو ظنا راجحا يبنى عليه حكمه •

٣ ــ مقدمات حسابات الفلك قطعية يدل على ذلك حساب الفلكيين فى الكسوف والخسوف ، ومطابقة

هذا الحساب للواقع بدقة مع عدم التخلف .

٤ ــ بناؤه على أمور محسوسة ومشاهدة بمعرفة الأرصاد ، والآلات الفلكية الدقيقة .

٥ ــ من الأدلة الشرعية قول الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ٢ : ١٨٥ » .

فسرّ شهود الشهر بمعنيين :

أحدهما : الحضور فيه ، وعدم السفر ، فيجب على من حضر ولم يسافر الصوم .

المعنى الآخر : العلم بوجوده ، وهو الظاهر ، والمعنى عليه : كل من علم منكم بوجود الشهر وجب عليه صومه ، ووجود الشهر شرعا يكون بوجود هلاله بعد غروب الشمس بأى طريق من طرق العلم ، وانما نص على الرؤية باعتبارها احدى وسائل العلم بوجود الهلال .

كذلك استدلوا بحديث « فان غم عليكم فاقدروا له » .

حيث قالوا : ان التقدير له من معانيه معناه : حسابه بالفلك حيث لا تمكن الرؤية .

وعليه :

فمن علم بوجود هلال شهر رمضان بعد غروب شمس آخر يوم من شعبان بأى طريق من طرق الاثبات المؤدية الى القطع بوجوده ، أو الى الظن الغالب بوجوده ، سواء أعَلِمَ ذلك برؤية نفسه ، أم باخبار من يثق به ، أم بأمر القاضى ، أم بحساب فلكى معتمد : وجب عليه الصوم لأن الاسلام لا يرد حجة قطعية ، ولا يخص بالقبول نوعا من البينات على نوع آخر مساو له أو أقوى منه . حتى ولو خالف ذلك ظاهر النص : فقد نقل « ابن عابدين ج ٤ ص ١٨٧ » اعتبار العرف مطلقا وان خالف النص عند أبى يوسف ورجحه وعلل لذلك بقوله : لأن النص ما كان فى ذلك الوقت الا لأن العادة اذ ذاك كذلك ، وقد تبدلت فتبدل الحكم .

اختلاف المطالع

ج ٢ فتح القدير ص ٥٣

•• واذا ثبت الهلال فى مصر لزم سائر الناس ، فيلزم الصوم أهل المشرق برؤية أهل المغرب فى ظاهر المذهب •

وقيل يختلف الصوم باختلاف المطالع لأن سبب الصوم حضور الشهر • وانعقاد الصوم فى حق قوم بسبب الرؤية لا يستلزم انعقاده فى حقِ آخرين ــ مع اختلاف المطالع ــ وصار كما لو زالت الشمس أو غربت على قوم دون آخرين وجب على الأولين الظهر والمغرب دون أولئك الآخرين •

ودليل الأول ووجهه : عموم الخطاب فى قوله عليه السلام : « صوموا » فقد علق طلب الصيام على مطلق الرؤية فى قوله : « لرؤيته » ، وبرؤية أى قوم فى الشرق أو الغرب يثبت وجوب الصوم •

بخلاف الزوال والغروب فانه لم يثبت تعلق عموم الوجوب بمطلق مسماه فى خطاب الشارع كما فى الرؤية •

ونقل « الدين الخالص ج ٨ ص ٢٦١ » •

•• أن هذا رأى جمهور الحنفية ومالك وأحمد والليث وروى عن الشافعى واستدل بحديث أبى هريرة (صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته) أخرجه الشيخان لأنه خطاب عام لا يختص بأهل ناحية لأنه اذا رآه أهل بلد فقد رآه المسلمون فيلزم غيرهم مالزمهم اذا ثبتت عند الغير رؤية من رأى بطريق شرعى موجب للصيام وبما روى عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تصوموا حتى تروه ثم صوموا حتى تروه » ــ أى لا تصوموا رمضان حتى تروا هلاله ثم صوموا حتى تروا هلال شوال ــ فان حال دونه غمامة فأتموا العدة ثلاثين ثم أفطروا » أخرجه الثلاثة وقال الترمذى حسن صحيح •

وهو خطاب لكل من يصلح له من المسلمين •

واذا كان ابن عباس لم يعمل باختلاف المطالع فذلك منه اجتهاد

واجتهاده ليس حجة مع النص وان كان قد تابعه فى ذلك الشافعى فى المشهور عنه ، وصاحب التجريد وغيره من الحنفية .

* * *

وقد عدت توًّا من مؤتمر اسلامى عالمى انعقد فى استانبول لهذا الغرض فى الفترة من ٢٦ ذى الحجة الى ٢٩ ذى الحجة ١٣٩٨ هجرية وقد مثلت مصر فيه ضمن مندوبين عن الأقطار الاسلامية التالية :

ـ آسيا الوسطى وقازاقستان (الاتحاد السوفييتى) .
ـ أفغانستان .
ـ اندونيسيا .
ـ الباكستان .
ـ البحرين .
ـ بنغلادش .
ـ تركيا .
ـ تونس .
ـ الجزائر .
ـ دولة الامارات العربية (أبو ظبى) .
ـ دولة الكويت .
ـ السودان .
ـ العراق .
ـ قبرص .
ـ لبنان .
ـ ماليزيا .
ـ المملكة الأردنية الهاشمية .
ـ المملكة العربية السعودية .
ـ المملكة المغربية .

ومندوب عن كل من :

ـ رابطة العالم الاسلامى .
ـ المركز الاسلامى فى باريس .
ـ المركز الاسلامى فى بروكسل .

.. وقد جاء هذا المؤتمر على نسق المؤتمرات المشهورة السابقة التى انعقدت لنفس الغرض ، فكانت أشغاله مكملة لما وقع التوصل اليه بمؤتمر كوالالمبور بماليزيا ومؤتمر وزراء الأوقاف بالكويت .

وتناولت الوفود ـ المشاركة فى بحوثها المقدمة ـ الحالة المؤسفة التى يظهر بها المسلمون فى ابتداء

الصيام ونهايته ، وفى المواسم والأعياد من اختلاف .

.. وأجمع أعضاء المؤتمر وجوب معالجة هذه الحالة التى يأباها الشرع لأن المسلمين أمة واحدة بنص القرآن الكريم « ان هذه امتكم أمة واحدة » ولا يجوز لهم أن يختلفوا فى دينهم . وقد أمر الله تعالى بالوحدة فى قوله جل وعلا : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ٣ : ١٠٣ » .

وقد تشكلت لجنتان : لجنة شرعية ، ولجنة فلكية ، من العلماء الأعضاء كل فى اختصاصه لبحث التقارير المقدمة ودراستها . وبعد المناقشة الشاملة الدقيقة اتخذ المؤتمر فى جلسته الختامية القرارات التالية بالاجماع :

أولا ــ الأصل هو رؤية الهلال، سواء أتمت بالعين المجردة أم بطرق الرصد الحديثة .

ثانيا ــ لاعتبار حكم الحاسبين بدخول الشهر القمرى شرعيا يجب أن يبنوا حكمهم هذا على وجود الهلال فى الأفق بالفعل بعد مغيب الشمس بحيث يمكن أن يرى بالعين عند انتفاء الموانع وهذا ما يسمى بالرؤية الحكمية .

ثالثا ــ لامكان رؤية الهلال لا بد من توفر شرطين أساسيين هما :

(ا) ألا يقل البعد الزاوى بين الشمس والقمر عن ثمانى درجات بعد الاقتران ، مع العلم بأن بداية الرؤية تحصل بين سبع وثمانى درجات ، وانما اتفق على الأخذ بثمانى درجات على سبيل الاحتياط .

(ب) ألا تقل زاوية ارتفاع القمر عن الأفق عند غروب الشمس عن خمس درجات .

وعلى هذا الأساس وحده يمكن رؤية الهلال بالعين المجردة فى الأحوال العادية .

رابعا ــ لايشترط لامكان رؤية الهلال مكان خاص بل يصح الحكم بدخول الشهر اذا أمكنت رؤيته من مكان ما من سطح الأرض

ويينبغى أن يكون الاعلان عن الرؤية كما يقررها التقويم الهجرى الموحد المشار اليه فى البند التالى فى جميع أنحاء العالم بواسطة المرصد الفلكى بمكة المكرمه متى تم انجازه : جمعا لكلمة المسلمين وتحقيقا لوحدتهم.

خامسا ــ وجوب وضع تقويم فلكى لكل سنة قمرية من قبل علماء الشريعة والفلك والمراصد استنادا الى المقاييس السابق ذكرها فى القرارات الثانى والثالث والرابع ، وتجتمع دوريا مرة كل سنة ، ويكون الاجتماع الأول باستانبول فى شهر ربيع الثانى من سنة ١٣٩٩ هجرية الموافق مارس سنة ١٩٧٩ ميلادية .

سادسا ــ تتألف لجنة التقويم المشار اليها فى القرار السابق من الأقطار الآتية :

ــ أندونيسيا ــ بنجلاديش ــ تركيا ــ تونس ــ الجزائر ــ السعودية ــ العراق ــ قطر ــ الكويت ــ مصر ــ ولا يلزم لانعقادها حضور جميع الأعضاء .

سابعا ــ تقوم اللجنة المشار اليها سابقاً باعداد خرائط توضح عليها المناطق التى يمكن أن يرى فيها الهلال حسب المقاييس المبينة سابقاً وذلك بالنسبة الى شهر : رمضان ، وشوال ، وذى الحجة مما يسمح لكل من أراد أن يتأكد من الاستهلال أن يتحقق الرؤية ويقتنع بصحة الحساب اذا كان فى حالة تمكنه من ذلك عادة ، ويتيح لكل دولة أن ترصد الهلال بواسطة هيئة موثوق بها متخصصة معتمدة.

ثامنا ــ عرض هذه القرارات والتوصيات على الأمانة العامة لمؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى لتتولى بدورها عرضها فى الدورة القادمة لمؤتمر وزراء الخارجية الذى سينعقد فى الرباط من أجل اقرارها ووضعها موضع التنفيذ .

* * *

كما تقدم المؤتمر فى جلسته الختامية بالتوصيات التالية :

أولا ــ عقد مؤتمر خاص لبحث تحديد أوقات الصلاة والصيام فى المناطق التى يمتد فيها النهار أو

الليل امتداداً يختلف عماهو عليه فى المناطق المعتدلة •

ثانيا ــ ادخال مادة الفلك ضمن مناهج الدراسة فى التعليم العام وبصفة خاصة فى التعليم الدينى ، وانشاء أقسام تخصصية فى الفلك فى التعليم الجامعى •

ثالثا ــ مناشدة المسئولين فى العالم الاسلامى ، من الوزارات المختصة وادارات الشئون الدينية والاسلامية والهيئات الرسمية المهتمة بشئون المسلمين كالأزهر الشريف ، ورابطة العالم الاسلامى، أن يعملوا جميعا على وضع مقرراته موضع التنفيذ توحيدا لمناسباتهم وأعيادهم الدينية محققين بذلك وحدتهم التى يصبون اليها •

رابعا ــ دعوة الحكومات الاسلامية الى العناية بالمراصد وتعميمها فى البلدان الاسلامية وتبادل الخبرات والتنسيق بينها •

خامسا ــ دعوة رابطة العالم الاسلامى الى انجازالمرصد الفلكى بمكة الذى اقترحه مؤتمر وزراء الأوقاف والشئون الدينيةبالكويت وأقرته الرابطة وشرعت فى تأسيسه •

سادسا ــ مطالبة رئاسة الشئون الدينية بالجمهورية التركية بابلاغ هذه القرارات الى الحكومات الاسلامية كلها ، والى المنظمات والهيئات الاسلامية فى جميع بلدان العالم •

عبدالله المشد

قال أحدالشعراء فى الزهد :

يا نفس خافى الله واتئدى
واسعى لنفسك سعى مجتهد
من كان جمع المال همته
لم يخل من غم ومن كمد
يا طالب الدنيا ليجمعها
جمحت بك الآمال فاقتصد

الإسلام : شريعة عالمية

للأستاذ زاهر عزب الزغبى

— ٢ —

٤ ـ قانون الاحوال الشخصية

لقد اعتنى الإسلام بتقويم الفرد الانسانى وتربية شخصيته وارادته تربية صالحة تؤهله لكى يكون مواطنا صالحا فى مجتمع صالح باعتبار هذا الفرد الوجدة الحقيقية فى المجتمع الانسانى الواسع ، ولكن هذا الفرد وثيق الصلة بالخلية الاولى فى البنيان الانسانى الضخم ... وهذه الخلية الاجتماعية الأولى ليست سوى الأسرة ... ومن ثم كان الاهتمام الكبير الذى أولاه الاسلام للاسرة وتكوينها والعلاقات التى تربط بين أفرادها وأوضحت الشريعة الاسلامية ـ بتفصيل دقيق ـ الحقوق والواجبات لكل فرد من أعضائها ، والنظم والقواعد التى تنظم جميع الأوضاع التى يجب أن تسود حياة الأسرة والعلاقات بين أعضائها ... ومن مجموع هذه النظم والقواعد يتكون ما يسمى اليوم بقوانين الأحوال الشخصية .

الوضع الاجتماعى للمرأة :

وليس ثمة من شك فى أن الشريعة الاسلامية قد أتت بقواعد جديدة ردت للمرأة ـ لكونها ركنا أساسيا فى الأسرة ـ اعتبارها ومنحتها كافة حقوق الانسان باعتبارها عضوا فى المجتمع الانسانى تساهم بدور فعال فى تقدمه ونهضته ، كما أنها تشارك الرجل فى هذا المجتمع بنسبة عددية قد تزيد أحيانا على النصف .

وقد كانت المرأة قبل الاسلام فى وضع مهضوم ـ سواء فى

أسرتها أو فى مجتمعها ـ فقد اعتبرتها الشريعة الرومانية رقيقا أو تابعا ليست له حقوق مستقلة على الاطلاق ، أما الشريعة البرهمية فى الهند فقد اعتبرت المرأة متاعا ليست له قيمة حقيقية الا فى كونها أداة لمتعة الرجل ولانجاب الذرية ، وهى فى كلا الحالتين مرتبطة بحياة الرجل وارادته ، فاذا ما مات زوجها فانها تحرق حية على حدثه ، لأنها فى نظر البراهمة ليس لها ـ بدون رجلها ـ أى نفع أو غناء .

وكان قدماء المصريين يعتبرون المرأة قرين الشيطان وعلة الخطيئة وشرك الغواية والرذيلة ، فكانت فى نظرهم شيئا يتعين التعامل معه بحذر اذا لم يكن هناك مناص من تجنبه أو الاستغناء عنه .

أما اليهودية فانها كانت ـ حسب تشريعات العهد القديم ـ تبيح تعدد الزوجات بلا قيد أو ضمان وجاءت المسيحية فسارت على نهج الناموس الموسوى حتى حادت عنه فى زمن متأخر عندما أجمع زعماء الكهنوت المسيحى على أن المرأة حبالة الشيطان والأفضل للانسان تجنبها ، والاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبنة والتجرد لطاعة الله ... وطوال العصور الوسطى كانت الأمم المسيحية تكيف مركز المرأة الاجتماعى وفق نظم وقوانين استعيرت فى الأغلب من الشريعة الرومانية القديمة ، فلم يكن للمرأة آنذاك تشخص مدنى محدد كما لم تكن لها أهلية أو ارادة مدنية ، أو حقوق قانونية .

وفى الجزيرة العربية وبعض مناطق الشرق الأوسط كانت المرأة شيئا بغيضا ، فكانوا يتشاءمون بمولدها ، ولا يترددون فى وأدها حية مخافة العار أو تخفيفا بمؤونتها من أثقال المعيشة وتكاليف الحياة .

وجاءت الشريعة الاسلامية فرفعت مكانتها وجعلتها قرينة للرجل وندا له فى سائر الحقوق والأهليات ، الا فى القليل الذى تقتضيه العدالة ، اعتبارا لطبيعة الجنس ، وما يستلزمه من تفاوت

فى الكفاءة والقدرة وغير ذلك من الاعتبارات والملابسات .

وقد كانت المرأة قبل الاسلام متاعا يورث فمنحها الاسلام حق الارث ، كما منحها حق الحرية فى الزواج ، واختيار الزوج ، وأهلية الوصايا على أولادها أو غيرهم ، وحق ادارة أموالها واستثمارها ، بل وسائر التصرفات المدنية من غير ما سيطرة عليها من الرجل سواء أكان قريبا أو زوجا .

ولكون الرجل أقدر من المرأة وأقوم تدبيرا فقد احتفظت له الشريعة الاسلامية بالارادة العليا فى تدبير شئون الأسرة . ولكن بدون مساس بالحقوق الخاصة للزوجة .

وقد نظمت الشريعة الاسلامية سائر شئون الاسرة تنظيما دقيقا ووضعت لذلك قواعد جديدة مفصلة من غير ما تقيد بشىء من النظم العرفية التى كانت تسود حياة الأسرة من قبل ، وقد جاء هذا التنظيم لحقوق الأسرة فى الفقه الاسلامى وفق التبويب التالى :

أولا ــ الزواج ، ثانيا ــ الطلاق ثالثا ــ العدة ، رابعا ــ النفقة ، خامسا ــ الحضانة ، سادسا ــ الوصاية ، سابعا ــ الميراث .

وسأعرض لكل من هذه الأبواب وفق هذا الترتيب بايجاز غير مخل بالغرض من هذا الكتاب .

الزواج :

اهتمت الشريعة الاسلامية بالزواج اهتماما كبيرا باعتباره أساس بناء الأسرة وبه تتكون وتنمو تلك الأسرة التى ليست الا اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، كما أن الزواج أيضا فى واقعه اجراء حصيف لتنظيم وتهذيب أعتى غرائز الانسان وأقواها دافعا له على بقاء النوع واستمرار الحياة .. وغريزة الجنس تتساوى فى قوة الحاحها بالشهوة الجامحة لدى كل من الانسان وسائر أنواع الحيوان .. ولو لم ينظمها الانسان بالزواج لساوى الحيوان فى بهيميته ، ولقلت لديه روابط التكاتف والتعاون والألفة والمودة

والرحمة مع كل من قيبه فى أسرته ورفيقه فى مجتمعه .

(رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ..)

(سورة مريم ٤ ــ ٦)

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) .

(النحل ٧٢)

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) .

(بداية النساء)

وقد أوجبت الشريعة الاسلامية الزواج فى حال القدرة عليه ... واعتبرته فرضا يأثم المسلم بتركه كالصلاة اذا خيف الوقوع فى المحظور ــ تحت الحاح الشهوة ــ باقتراف الزنى .

.....

وينعقد الزواج وينتج جميع نتائجه بمجرد اتفاق ارادة الطرفين بمحضر شاهدين دون توقف على تدخل ثالث حتى ولو كان طرفا له صبغة دينية .. اذ أنه لا يوجد فى الاسلام ــ كما فى غيره من الاديان ــ طبقة من رجال الدين لهم سلطة دينية .. وفى شريعة الاسلام لا وساطة بين الله والناس ، حتى ان النبى نفسه كانت مهمته الرئيسية التبليغ لأحكام الدين وتطبيقها .

وعلى هذا فالزواج فى نظر الاسلام عقد مدنى محض كسائر العقود لا يتم الا بتسمية جعل مالى (هو المهر) يدفعه الرجل فى نظير تسليم المرأة نفسها .

(وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض

وأخذن منكم ميثاقا غليظا) .

(النساء ٢٠)

وعلى هـذا فالزواج عقد مدنى محض ، ولكن له آثاره الخطيرة .. من حيث انه يستلزم عشرة ينبغى أن تسودها وشائج الألفة والمودة والرحمة والحب .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) .

(الروم ٢١)

ولهذا فان الشريعة الاسلامية قد استحسنت أن يكون كل من الزوجين على معرفة بالآخر الى الحد المعقول قبل العقد ، والا فتتاح لهما فرصة التعارف فى نطاق الحدود المباحة . (قال صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأته : (أنظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما) ، ويستحسن أيضا أن يكون الاختيار على أساس يقوى من علاقة الألفة والتراحم والمودة بين الزوجين لا على دافع من بهرج زائف أو مطمع فى مال أو عرض زائل .

(قال عليه السلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصن نفسه بارك الله له فيها وبارك لها فيه) .

(وقال أيضا : عليك بذات الدين تربت يداك)

وحتى ينتج عقد الزواج آثاره الصالحة المبتغاة أحاطته الشريعة الاسلامية بضمانات تكفل استقرار الحياة الزوجية ودوامها من غير تعرض للقلائل والهزات التى يسببها فى الغالب عدم توفر العوامل والأجواء الطبيعية لحياة الأسرة ، فاشترطت صلاحية كل من الزوجين للزواج عند العقد وقيام الكفاءة بينهما .. ماليا واجتماعيا ... وأجازت للمرأة التى زوجت قاصرا بمباشرة وليها أو الوصى عليها من غير كفء لها أن تطلب حين بلوغها سن النضج النسائى فسخ العقد

وانفصام عقدة النكاح لعدم الكفاءة بينها وبين بعلها .. كما أتاحت للمرأة أيضا أن تطلب الطلاق اذا اتضح لها عيب مستور فى الزوج يجعله غير قادر بسبب صحى أو بأى سبب آخر على عدم الوفاء بواجباته الزوجية .

والواجبات التى يلتزم بها الرجل ازاء زوجته هى : القيام بأداء جميع حاجاتها من دواعى العصمة ونفقات معيشتها ومعيشة أولادها منه فى حدود المتعارف المألوف وعليها فى مقابل ذلك طاعته وصيانة ماله وعرضه .

(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) .

(البقرة ٢٢٨)

وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم بين ابنته فاطمةوزوجها الامام على رضى الله عنه فألزم ابنته بخدمة البيت ورعايته وألزم زوجها بما كان خارج البيت من عمل ويتعين على كل من الرجل والمرأة أن يحسن عشرة الآخر فان أساءت المرأة عشرة الرجل جاز له تأديبها بمقتضى ما له من حق القوامة عليها .

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا) .

(النساء ٣٤)

وقد قال الأستاذ محمد عزة دروزة بهذا الصدد فى كتابه (الدستور القرآنى فى شئون الحياة) انه من الجدير التنبيه على أن مظاهر التأديب المعنية فى الآية ليست ايجابا ، وانما هى على سبيل الاجازة والاباحة وقد احتاطت الآية فى وسيلة الضرب خاصة ــ وهو الذى يمكن أن يثير الكلام فى هذا الباب ــ فجعلته آخر الدواء وقدمت عليه العظة والهجران .

ولقد جاء بعد هذه الآية آية يمكن أن تقوم قرينة على أن التأديب هو بقصد الاصلاح والابقاء على الصلات الزوجية ، وليس بقصد الأذى والانتقام ، وهى هذه الآية :

(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا) ، (النساء ٣٥)

ومن الحق أن يكون التأديب حتى بالضرب سائغا اذا كان يتفادى به قطع رابطة الزوجية ، وانهيار الأسرة كما هو المتبادر ، على أن بعض الأئمة والعلماء ومنهم الامام الشافعى قد استحسنوا ترك الضرب .

وأيا ما كان فان مسألة الضرب هذه تكون لازمة لزوما حتميا فى بعض الحالات والظروف ، من حيث الوقائع أو فئات الناس ، كوسيلة وحيدة للردع والتأديب ولتفادى كارثة الطلاق أو ما هو شر منها .

وقد منعت الشريعة الاسلامية الزواج بسبب القرابة بشروط معينة ، أما القرابة المانعة للزواج بالنسبة للرجل فيمتنع عليه الزواج بأحد أصوله أو فروعه أو فروع أبويه (الاخوة وأولادهم) مطلقا ، وبالطبقة الأولى من فروع أجداده فيجوز له أن يبنى ببنت عمه وبنت خاله .

وبالنسبة الى أقارب أحد الزوجين فيمتنع على كل منهما التزوج بأحد أصول الآخر أو فروعه .

وأخيرا تأتى مسألة تعدد الزوجات .. وهى مسألة متشابكة الارتباطات والاعتبارات .. وقد اتخذت فيها الشريعة الاسلامية موقفا وسطا بين الاباحة المطلقة والمنع المطلق .. وقد أبيح ذلك ضمن حدود وشروط اعتبارا للأمر الواقع والضرورات الملجئة المتوقعة .

وقد وردت رخصة التعدد ضمن الآية الثالثة من سورة النساء التى تقول :

« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من

النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » . (تجوروا) .

والآية هنا تجيز التعدد الى أربع زوجات بشرط ضمان العدل وعدم الجور بينهن ، ولكن الآية التاسعة والعشرين بعد المائة قد أكدت صعوبة العدل .

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

وفى هذا ايحاء من الله سبحانه وتعالى لعباده بضرورة الاكتفاء بزوجة واحدة لصعوبة شرط التعدد المباح (وهو العدل) وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم حدود العدل حين نظم ليالى مبيته لدى زوجاته وساوى بينهن فيما يستطيعه من نفقات معيشتهن وقال : (اللهم هذا عدلى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك) .

وعلى أية حال فالانسان المنصف لا بد وأن يقدر الضرورات الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية الملجئة للتعدد ، اذ كيف يتصرف المرء فيما لو أصيبت زوجته بمرض مزمن أو بعقم مستديم ، أو فيما لو اضطر الى سفر طويل وهو شبق نهم الشهوة الجنسية .. ففى التعدد هنا حكمة يقتضيها المنطق والحكمة ونواميس الحياة .

الطلاق والعدة والنفقة :

واذا ما انفصمت أواصر الزواج بوفاة الزوج أو بالطلاق فاذا كان هذا قبل الدخول فلا ضير على المرأة من أن تبنى فورا بزوج آخر وعليها أن تعيد نصف مهرها الى زوجها السابق أو ورثته .. أما اذا كان ذلك بعد الدخول فيتعين استبراء رحمها بأن تمكث المرأة بلا زواج مدة معينة فى كل من حالتى الوفاة أو الطلاق وهذه المدة تسمى بالعدة ولها أن تتزوج بآخر بعد ذلك اذا لم يظهر انها حامل فاذا ظهر فيها الحمل امتدت عدتها حتى تضع حملها .. وعلى المطلق نفقة مطلقته مدة عدتها .

وقد أجازت الشريعة الاسلامية الطلاق باعتباره اجراء لا مفر منه وانهاء لنفرة وبغضاء بين زوجين

سادت بينهما الكراهية واستحكمت .. ففى اكراههما على استمرار حياتهما الزوجية استمرار العذاب لكليهما . وهذا شيء فظيع لا مبرر له ... على أن الشريعة الاسلامية قد جعلت الطلاق حلا أخيرا لا يجب اللجوءاليه الا اذا استفحل الشقاق وأصبح من المتعذر التوفيق بين الزوجين ، ومع هذا فقد اعتبرته اجراء كريها .

« أبغض الحلال الى الله الطلاق »

(حديث شريف)

ولهذا جعلت الشريعة الاسلامية الطلاق بيد الرجل لأنه أقدر على كظم الغيظ وكبت الغضب وعلى تقدير الظروف والعواقب فلا يلقى بيمين الطلاق جزافا أو بدافع من الهوى أو فى ثورة غضب .

وكذلك جعلت الطلاق على مراحل فأجازت للرجل اذا رجع الى نفسه وانفثأ غضبه أن يعيد زوجته الى عصمته أثناء عدتها من الطلاق الأول حتى بغير رضاها أما اذا تلكأ حتى انقضت عدتها فلا يجوز له أن يعيدها بمحض ارادته بل لابد من موافقتها ، وفى هذه الحالة يتعين أن يعقد عليها من جديد ويؤدى لها مهرا جديدا . وكذلك بعد الطلاق الثانى — أما اذا طلقها — بعد هاتين الطلقتين — مرة ثالثة فانه يكون من الواضح أن لا فائدة من الاستمرار لعشرتهما معا فقد اتيحت لهما من قبل فرصتان لمراجعة النفس واصلاح ذات البين ..

والطلاق فى جميع صوره ليس الا نوعا من اعطاء فسحة للزوجين يتدبران فيها أمرهما لعلهما يجدان ما يدفعهما الى استئناف الحياة الزوجية .. اما بكلمة المراجعة أو باجراء عقد جديد ، بعد أن تمثل لهما شبح الافتراق الدائم المستمر ومن ثم كان الطلاق الثالث هو خاتمة المطاف فلا يجوز بعده رجعة .. وحتى فى هذه الحالة كانت الشريعة الاسلامية رحيمة بكل من الرجل والمرأة فأتاحت لهما استئناف حياة زوجية جديدة اذا ما تزوجت المرأة برجل آخر وعاشرته ثم مات عنها أو طلقت منه .. ولعل فى اشتراط هذا القيد درسا

لكليهما . ففى رؤية الرجل لمن كانت زوجته تحت رجل آخر ما يجعله يعض بنان الندم ويشعر بالحسرة على تفريطه فيها اذا كان العيب من جانبه .. كما انه قد يكون فى معاشرتها لرجل آخر ـ وربما لم يحسن عشرتها ولم يراع اعزازها واسعادها كزوجها الأول ـ ما يجعلها تشعر بالحسرة والندم اذا كان العيب من جانبها .. فاذا ما ارتآى كلاهما استئناف حياة زوجية جديدة بعد خلاصها من الزوج الثانى كان من المأمول أن يصلح المعوج منهما من نفسه .

ومع أن الشريعة الاسلامية قد قصرت حق الطلاق على الرجل فانها أباحت للمرأة ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ان تطلب الطلاق للضرر .

وللرجل أن يطلق زوجته بنفسه أو أن يوكل غيره فى ذلك والزوجة أهل لأن يكل اليها زوجها أمر طلاق نفسها منه بصورة مطلقة أو مقيدة بشروط معينة .

وللمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها بمال اذا رفض طلاقها الا بمقابل وتعويض « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ، واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن

يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم ، واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة ٢٢٨/٢٣٢)

« يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

(الطلاق ١ ــ ٤)

فسبحان الله الذى جلت حكمته وصدقت كلمته .

الحضانة والولاية والوصاية :

وهذه راعت فيها الشريعة الاسلامية فى الأغلب مصلحة الصغير فاحتفظت للأم بحق حضانته بعد الطلاق أو وفاة الأب ما لم تتزوج بأجنبى ــ وحينئذ ينتقل حق الحضانة الى أكثر النساء قربا الى هذا الصغير ــ على أنه اذا تساوت القرابة بين امرأتين فضلت ما كانت قرابتها تمت اليه من ناحية الأم أما الولاية فقد عرفت فى القوانين الحديثة بأنها سلطة على

شخص الصغير القاصر لرعاية شئونه وتنشئته ... وقد قررت لها الشريعة نظاما خاصا بمقتضاه يتولاها الأقرب فالأقرب الى القاصر ... وبعض التشريعات الحديثة قصرت الولاية على الأب والجد وما عداهما يعامل معاملة الوصى من حيث تدخل السلطة القضائية فى تنصيبه ومحاسبته على تدبير شئون الصغير وحسن رعايته له .

أما الوصاية فهى سلطة ادارية على مال القاصر لحفظه وادارته واستثماره ، وهذه يرجح فيها أولا من يختاره الأب قبل وفاته وصيا ، فاذا مات الأب دون أن يوصى عاد الى القاضى حق تنصيب وصى على القاصرين وجميع الاوصياء مسئولون أمام القضاء عن كل تقصير أو خطأ فى ادارة أموال القاصرين وشئونهم .

الميراث

فرضت الشريعة الاسلامية الميراث بسبب القرابة أو الزوجية ونظمت ذلك بقواعد مضبوطة محكمة تحققت بها العدالة التى لا مطعن فيها ولا نقص ... وكانت نظم التوريث قبل الاسلام مبنية على أسس لم تستطع أبدا أن تدافع عن نفسها أمام الشكوى الدائمة من عدم تحقق العدالة فيها .

وقد جعلت الشريعة الاسلامية التوريث أمرا جبريا لا ارادة للمورث فيه وليس للمورث حق التصرف بحرمان وارث من حقه ، وتشددت فى ذلك حتى قصرت حقه فى التصرف فى ماله بالوصية على مقدار الثلث لا يجوز له أن يتعداه ، وذهبت فى هذا السبيل الى أن أبطلت تصرفه فى ماله بالهبة أثناء مرض موته ، وأبطلت طلاقه لزوجته فى مرض الموت واعتبرت ذلك منه اساءة لاستعمال حق الطلاق ودليلا على قصد التهرب من ارثها وأثبتت لها حق الارث شرعا .

وينفذ الأرث فى مال الميت الباقى بعد سداد ديونه ونفقات جنازته ثم تنفذ وصيته ـ ان وجدت ـ فى مقدار الثلث ، فان زاد ما أوصى به الميت على الثلث أو كانت الوصية

لأحد الورثة توقف ذلك على موافقة الورثة أصحاب الحقوق .

وقد وزعت الشريعة الأرث بين أصحاب الحقوق بنظام خاص روعى فيه درجة القرابة الى الميت فالأقرب يحجب الأبعد أو يقلل من نصيبه .. ولم يفصل أحد الأولاد على الآخر كما تفعل كثير من التشريعات الأوربية الحديثة التى تعطى للولد الأكبر كل التركة وتحرم الآخرين .

وللبنت نصيب يعادل نصف نصيب أخيها الذكر ـ وهذه المسألة كثيرا ما كانت موضع اساءة للفهم .. ولكن الشريعة هنا لم تغبن الانثى اطلاقا اذ أن هذا التوزيع مرتبط بنظام التكليف المالى فى الأسرة كما هو مرتبط أيضا بواقع الحياة الاجتماعية .

ومثل هذه المسائل جاءت اساءة الفهم فيها من النظر اليها نظرة جزئية سطحية .. وكثيرا ما ظلمت الشريعة الاسلامية حين النظر الى جزئياتها الفردية دون النظر اليها ككل ... فالشريعة الاسلامية حين كلفت الرجل بنفقة زوجته وجميع أفراد أسرته وحين تقتضيه واقع الحياة ان ينفق الكثير فى الواجبات الاجتماعية التى لا تتعرض لها المرأة فاذا أعطت البنت هنا نصف نصيب أخيها فى الميراث فان البنت تكون أوفر حظا منه .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشريعة الاسلامية فى مجال ضبط مسائل الأحوال الشخصية قد كفلت للانسانية عدالة لم تتوفر لها من قبل .. ونستطيع هنا أن نقرر جازمين انه حتى فى عصر النهضة والمدنية كانت محاولات الانسانفى الدول المتحضرة غير الاسلامية لانصاف نفسه بوضع التشريعات التى حسبها توفر له أقصى قدر من العدالة والمصلحة : كانت هذه المحاولات شيئا حقيرا لا يمكن أن ينافس الشريعة الاسلامية فى دقتها وقدرتها على تحقيق العدالة المطلقة .

زاهر عزب الزغبى

من القيم الخلقية في الشعر الجاهلي

للدكتور عبد الحليم حفني

يخطىء بعض الناس فيعممون وصف الجاهلية على كل جوانب حياة العرب السابقين للاسلام ،وعلى كل جوانب خلقهم وصفاتهم ، واصطدام وصف الجاهلية بالاسلام جعله غير قاصر على معنى الجهل المقابل للعلم ، وانما كساه مساوىء أخرى غير الجهل ، فاصبح لفظ الجاهلية فى هذا الفهم يعنى كثيرا من جوانب الجهل والشر والرذائل، ولا يعنى شيئا غير ذلك ، وفى هذا المفهوم الأخير يتركز خطأ الفهم لدى بعض الناس ، فاذا كانت الجاهلية تعنى حقا الكثير من جوانب الجهل والشر ، فليس من الحق أنها لم تشتمل على جوانب كثيرة من الخير، فان الجانب الوحيد الذى كان جهلا مطبقا دامس الظلام ، هو جانب الدين ، الذى كانوا يتخبطون خلاله فى عبادة الأصنام ، أما فيما عدا هذا الجانب من حياتهم ، فقد كانت لهم قيم خلقية يعتزون بها ويتفاخرون فى أنصبتهم منها ، وهذه القيم هى موضوع الحديث

والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينفى الخير عن الجاهلية ، وانما يثبته ويجعله أساسا فيما يتعلق بالوراثة الخلقية ، فى مثل قوله : (الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام) ففى الجاهلية اذن خير ، وهو وان لم يكن مجديا على اصحابه خيرا من الناحية الدينية التى تقطع بأنه لا ينفع مع الكفر خير ، الا أنه خير لذاته ، وبالقياس الى غيره فى الحياة الجاهلية ، ومن هذه الزاوية التى يلمح اليها الحديث الشريف ، ينبغى أن يصحح الفهم الجائر الذى ينفى عن العرب السابقين للاسلام كل خير .

فالعرب الجاهليون كانوا ــ فيما عدا الدين ــ يحملون مزايا يغبطهم على كثير منها أشد المجتمعات حضارة وتقدما ، ومن هذه المزايا الذكاء الحضارى ، أعنى ليس مجرد الذكاء الفطرى الذى يصاحب تكوين الفرد ، وانما الذكاء النابع أيضا من الخبرة بالحياة وشئونها فى مختلف وجوهها ، وليس من الغريب أن يقال ان القرآن الكريم نفسه شهد لهم بطريق غير مباشر بهذا الذكاء الحضارى ، فان الحرب التى أداروها ضد الاسلام ، والتى نقل القرآن الكريم لنا كثيرا من صورها، لم تكن تمثل الجهل الذى يوحيه لفظ الجاهلية ، وانما كانت تمثل أعمق وأحدث ما توصل اليه خبراء الحرب وعلماؤها ، فاذا كان خبراء الحرب يقولون : ان الحرب تعتمد على ثلاث شعب ، أو أنها تتمثل فى ثلاث صور ، الحرب النفسية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب العسكرية ، فان الجاهليين أداروا كل هذه الجوانب ضد الاسلام ببراعة ومهارة واضحين ، ولم تأت هذه الجوانب فى ادارتهم اياها عفوا أو تتابعا ، وانما قصدوها قصدا ، وقدروها تقديرا ، فكل ما كانوا يشيعونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه ، وعن دينه وعن القرآن ، انما كانوا يقصدون به حربا نفسية تنفر الناس وتصدهم عن هذا الدين ، ثم هذه الخطة التى دبروها فى مقاطعة قريش بنى هاشم، انما كانت حربا اقتصادية ضد الاسلام ، ثم الحروب العسكرية التى أداروها وتفننوا فى بعض خططها ، كل ذلك ينبىء عن أنهم كانوا على درجة عالية من الخبرة بالحياة فى مختلف شئونها ، ومن الأمثلة التى شهد القرآن الكريم لهم فيها صراحة وليس ضمنا بهذا الذكاء الحضارى ،مثل قوله تعالى عن بعض المشركين من سادة مكة : « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر » فالتفكير هو الذكاء الفطرى المصاحب للتكوين ، ولم يعن القرآن بحديثه كثيرا ، لأنه قدر مشترك بين كثير من الناس ، أما التقدير : فهو الذى يمثل الذكاء الحضارى ، فيما يعرف اليوم بالتخطيط ، وهو الذى عنى

القرآن بحديثه ، فساقه فى أسلوب التعجب (فقتل كيف قدر) ثم كرر هذا التعجب ، والمفسرون يصرحون بأن هذا الاسلوب تعجب من عمق تفكير هذا الزعيم وتقديره ، وليس يعنينا أن يكون شخصا بعينه كالوليد بن المغيرة أو غيره ، وانما يعنينا أنه كان من الجاهليين ، وأنه كان نموذجا للذين يديرون الحرب ضد الاسلام، وليس عجيبا أن يعترف القرآن لأعدائه بمزايا ، بل هذا هو الخلق الذى يدعو اليه القرآن ، فى مثل قوله « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .. » فالقرآن يأمر أتباعه أن يلتزموا العدل فى كل الأحوال ، ومع كل الناس ، ولا ينبغى أن تحملهم عداوتهم لأحد على أن يحيدوا عن العدل معه قيد شعرة .

والشعر الجاهلى أفاض فى الفخر والتغنى بالمزايا التى تحلوا بها ، ولكننا نختار من هذه المزايا ما يتعلق بالخلق والسلوك ، فمن أبرز ما تغنى به الشعر الجاهلى من جوانب الخلق والسلوك ما يأتى :

١ ـ العفة :

والمراد بها العفة فيما يتصل بالصلة النوعية بين الرجل والمرأة ، وقد كان الشعر الجاهلى فى هذا المجال قمة لم يبلغها الشعر الاسلامى فى عصر من عصوره ، وقد يبدو هذا غريبا فى ظاهر الأمر ، ولكن الحقيقة أن الفارق حينئذ ليس بين الجاهلية والاسلام ، وانما لأن الشعر فى الجاهلية لم يكن حرفة يتكسب بها صاحبها ، بل كان تعبيرا عما فى النفس ، وابرازا لمقدرة فنيه يحملها صاحبها بالفطرةوالتكوين ، وتتيجة لذلك كان كثير من السادة وذوى المكانة يعدون من الشعراء ، أما بعد الاسلام ، فكان الغالب على الشعراء أن يكونوا من المحترفين المتكسبين، فكان معظمهم دون شعراء الجاهلية مكانة وخلقا واحساسا بأهمية المروءة بين الناس ، وهذا الاحساس من شأنه أن يدفع صاحبه الى كسب الفضائل محافظة على منزلته فى مجتمعه ، وعلى تجنب ما يزرى بصاحبه تحاشيا لسوء القالة ، ودنو المنزلة ، ولذلك كان من المشهور عن كثير من سادة العرب حين يعف

عن الكذب فى موقف يمكن أن يجنى من وراء الكذب فيه ثمرات أن يقول معللا امتناعه عن الكذب : خشيت أن يروى عنى الكذب ، يعنى ولو بعد موته .

ولذلك كان حديث الشعر الجاهلى عن العفة وتجنب الفحش فيما يتعلق بالمرأة ، ولهم فى ذلك أشعار كثيرة ، كما يقول تأبط شرا فى عفته عن النظر الى جاراته :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مثواها

وكما يقول الشنفرى عن عفة جارته المقنعة ، التى تغض طرفها عن الريبة ، وتحمى بيتها مما يلام عليه ، أو يذم به :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها
اذا ما مشت ولا بذات تلفت

تحل بمنجاة من اللوم بيتها
اذا ما بيوت بالملامة حلت

ومن أجمل ما وصف به غض المرأة بصرها وحياؤها أثناء المشى ، قول الشنفرى : (كأن لها فى الأرض نسيا تقصه) فهى تخفض بصرها الى الارض بصفة دائمة حين تمشى ، كأنها تقص أثر شىء نسيته فسقط منها ، فهى تبحث عنه موجهة بصرها الى الأرض .

وكما يقول عنها قيس بن الحدادية ، مشهدا الله على عفتها رغم طول جوارها اياهم :

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة
فما نولت والله راء وسامع

وكما يقول مالك بن حريم الهمدانى ، حين يعدد خصالا من فضائله ، فيسوق لنا أربع صفات يحملها ويعتز بها، ومن هذه الصفات عفته عن جاراته ، فيقول عن الثالثة من صفاته

وثالثة ألا تقذع جارتى
اذا كان جار القوم فيهم مقذعا

ويؤكد أنه لم ينل من جارته مأربا ، رغم هيامه بها ، ورغم طول هذا الهيام :

أهيم بها لم أقض منها لبانة
وكنت بها فى سالف الدهر موزعا

فهى اذن عاطفة ، والعواطف لا سلطان لاحد عليها ، ولكنها عواطف

نقية طاهرة ، لم تدنسها ريبة ، ولم يقذعها مطمع .

وكما يقول السليك بن السلكة عن نفوره من المرأة المريبة ، التى لا تعتز بشرفها وعفتها ، ملزما نفسه ألا يتجه الا الى المرأة النفور من الريبة ، الممتنعة على الطامعين

يعاف وصال ذات البذل قلبى
ويتبع الممنعة النوارا

ويصف لنا السليك هذه المرأة فيقول :

من الخفرات لم تفضح أباها
ولم ترفع لاخوتها شنارا

ومثل هذا المنهج فى الشعر الجاهلى كثير ، وهو ينبىء فيما ينبىء عن أنهم رغم جاهليتهم لم يكونوا يعيشون حياة بهيمية متحللة من القيود والقيم ، وانما تحكم حياتهم تقاليد وقيم ، هى بالضرورة موجودة فى كل مجتمع مهما بلغ من التخلف والبداوة ، وليس من اللازم أن تكون هذه التقاليد متفقة أو موحدة بين هذه المجتمعات ، وانما تصاغ وتتدرج جيلا بعد جيل الى الأفضل أو الأسوأ حسب نصيب المجتمع من التقدم أو التخلف ، وليس من اللازم أيضا أن تكون شاملة لحاجات المجتمع السلوكية أو الاجتماعية ، وانما تتفاوت ايضا أنصبة المجتمعات منها حسبما يكون نصيب المجتمع من عوامل التقدم ، ووسائل الحضارة، وفى كل الأحوال لابد أن نجد لكل مجتمع مهما بلغ من البداوة نصيبا من التقاليد التى تعتبر بمثابة القانون الذى يحكم حياته ، وهذه التقاليد وان كان ينقصها غالبا الكثير من الدقة فى مراعاة التفاصيل ، وأيضا فى مراعاة الشمول لجوانب الحياة ، ولحاجات الأفراد ، الا أنها تكون بمثابة الأسس لحماية حقوق الأفراد والجماعات من العدوان عليها، وهذا المعنى هو الأساس فى نشوء التقاليد فى المجتمعات ، ولذلك كانت التقاليد الدينية فى المجتمعات البدائية أو القريبة من البداوة أشد تخلفا من التقاليد المنظمة للحقوق والسلوك ، لأن الحقوق تنال الاهتمام الأول ، والاعتداء عليها يثير أقصى مشاعر الفرد ، ومن هنا نبعت التقاليد المنظمة لحياة المجتمعات ، بينما الدين رغم أنه غريزة بشرية أساسية،

من حيث ان التكوين الفطرى للفرد يحمل احساسا ولو مجملا أو غامضا بالقوة الالهية المحيطة به ، ومع ذلك فالفرد العادى يضعه فى المرتبة ، التالية بعد حقوقه الدنيوية ، بدليل أنه كثيرا ما يضحى بالدين اذا اصطدم بهذه الحقوق وتعارض معها ، ومهمة الأديان السماوية تصحيح فهم الفرد للدين ولهذا الترتيب ، وللموازنة بين الدين والحقوق أو الواجبات الدنيوية .

ومن هنا يمكن أن نفهم عدم التعارض بين الخلل الدينى فى الحياة الجاهلية ، ووجوب جوانب كثيرة من الخير فى حياتهم ، تمثلها تقاليد متعارف عليها ، ويعبر عنها مثل هذا الشعر الذى يترنم به أصحابه مادحين أو مفاخرين بقيم خلقية يعتزون بها ، ويجدون فيها مثلا سامية يتنافس فيها كثير منهم ، كما رأينا فى هذه الامثلة عن العفة فيما يتصل بالاعراض ، وانما كان تركيز حديثهم عن الجارات ، لأن المفاسد انما تنشأ فى أغلب الأحيان فى الجوار ، ولئن قيل ان الفخر أو المدح بشىء لا يدل على أن هذا الشىء شائع أو ملتزم ، بل يدل على العكس ، يدل على أن هذا المفاخر أو الممدوح يتميز عن غيره بهذا الشىء ، ولولا تميزه عن غيره بهذا الشىء لما كان هناك داع للفخر أو المدح به ، واذن فهذا الشعر لا يدل على شيوع هذه القيم فى المجتمع الجاهلى ، فالجواب عن ذلك أن أساس الحديث ليس عن المجتمع نفسه ، وانما عن الشعر الجاهلى ، فيكفى أن هذا يتضمن اشادة بالقيم والفضائل أو دعوة اليها ، ومع ذلك فانه يدل على أن هذه الفضائل كانت موجودة فى المجتمع الجاهلى ، ولو فى نسبة محدودة منه .

٢ ـ التضامن الاجتماعى :

وهو أعمق وأوسع مدلولا من السخاء والجود بمعناهما المألوف ، فان السخاء أو الجود انما يعنى عادة صورا معينة تحدث فى مواقف محددة فى أغلب الأحيان ، كاكرام الضيف ، أو اجابة السائل الى سؤله ، أو اغاثة محتاج فى موقف معين ، أما التضامن الاجتماعى

فالقصد منه الى معنى شامل وعميق فى النفس ، يدفع صاحبه الى الاحساس الدائم بأنه فرد من مجتمع وأن باقى أفراد المجتمع لهم عليه حقوق يؤديها اليهم كما يؤدى الواجب ، لا كما يؤدى الاحسان والتفضل فى صوره الفردية المشار اليها ،وهذا المعنى الشامل هو جوهر تشريع الزكاة فى الاسلام ، وشعاره « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » فهذا التضامن التشريعى فى الزكاة حق واجب وليس تفضلا أو منة ، وهو أيضا معلوم ثابت ، فليس وليد ظرف أو مناسبة أو نحو ذلك.

فهذا المعنى من الشعور الثابت بالتضامن مع افراد المجتمع هو مدار هذا الحديث ، وواضح انه اسمى من مجرد الاتصاف بالجود ونحوه ،وبالتالى سيكون المتصفون به اقل عددا ، ومع ذلك فقد كان هذا المعنى موجودا ، وكان الشعر لايفتأ يشيد به ، ومن امثلة هذا الاتجاه مانجده فى اخبار واشعار كثيرين من الجاهليين ، ومن هؤلاء عروة بن الورد العبسى ، الذى كان رغم احترافه السطو والغارات وقطع الطريق مثالا عجيبا فى شعوره بالتضامن مع الفقراء وذوى الحاجة، وأخباره فى ذلك مستفيضة متنوعة، فقد عرف فى مجتمعه بأنه ملجأومأوى لكل ذى حاجة رغم أنه هو أيضا كان من الفقراء ، وانما كان يتكسب من غاراته على مختلف القبائل ،وكان من المألوف أنه كلما حدثت مجاعة ، أو أجدب الناس ، لجأ الضعفاء والعجزة والمحتاجون الى كنفه ، فيذهب فى غارات خطيرة محفوفة بالمهالك لا ليدخر منها شيئا ،و انما ليعول أمثال هؤلاء ، وكثيرا مايخرج من الغنيمة بأدنى نصيب ، أو بدون نصيب ، وكثيرا ما كانت تلومه زوجه على مخاطرته بحياته فى غير هدف تفيد من ورائه نفعا أو كسبا، وانما من أجل أناس لا ترى بينهم وبينه رباطا ، كما ينقل عنها فى مثل قوله :

أرى أم حسان الغداة تلومنى
تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا
يصادفه فى أهله المتخوف

ولكن عروة فى حواره معها ، ورده عليها ، يكشف عن نفسية كبيرة ،وشعور بالمسئولية الاجتماعية فوق الشعور المألوف فى مواقف الخير العادية ، انه يستنكر أن يرى ملمة تلم بالناس ، ولا يملك لهم عونا ، ويرى الموت خيرا من حياة لا يملك فيها مواساة لمنكوب ، أو ردا لقسوة النوازل حين تنزل ببعض الناس ، فيخاطبها بهذا المعنى الذى لا أعرف أسمى منه نبلا وتعبيرا عن مشاعر الانسانية الرفيعة التى تسمو فوق الانطواء على حاجات النفس ، ورغبات الذات ، الى الاحساس بآلام الناس ، وبمدى حاجتهم الى العون والمواساة وقت الشدة ، حيث يقول

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى
أفيد غنى فيه لذى الحق محمل

أليس عظيما أن تلم ملمة
وليس علينا فى الحقوق معول ؟

فان نحن لم نملك دفاعا بحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل

فهو يطوف فى البلاد ليستفيد الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لذوى الحقوق ، ويعنى بهم من لزمتهم ديات ومغارم من الديون ، فهو يحمل عنهم بغناه هذه الحقوق، واذا لم يستطع أن يعينهم فالموت فى رأيه خير من الحياة ، ولذلك اكتسب عروة رغم جاهليته حبا وتقديرا واضحين ، فهذا معاوية بن أبى سفيان يقول : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم، وعبد الملك بن مروان يعبر أيضا عن اعجابه بعروة فيقول : ما وددت أن أحدا من العرب كان أبا لى الا عروة بن الورد ، ويقول مرة أخرى من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد

ومن أمثلة التضامن الاجتماعى فى الشعر الجاهلى ، قول سعد بن ناشب عن حاله حينما يكون موسرا، وكيف أنه يرى يساره شركة بينه وبين الناس ، حيث يقول

ان تعذلينى تعذلى بى امرءا
كريم نثا الاعسار مشترك اليسر

وهذا ثابت بن جابر الفهمى الذى غلب عليه لقب تأبط شرا ، يتحدى لائميه فى الانفاق ، كما

تحداهم عروة بن الورد ، ويهددهم تأبط شرا بأن يهجرهم الى غير عودة ان لم يكفوا عن عذله ولومه، فيقول :

تقول أهلكت مالا لو قنعت به
من ثوب صدق ومن بزوأعلاق
عاذلتى ان بعض اللوم معنفة
وهل متاع وان أبقيته باق ؟
انى زعيم لئن لم تتركوا عذلى
أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
أن يسأل القوم عنى أهل معرفة
فلا يخبرهم عن ثابت لاق
سدد خلالك من مال تجمعه
حتى تلاقى الذى كل امرىء لاق

ومثل هذا المعنى كثير شائع فى الشعر الجاهلى

على أنهم كانوا يرون التضامن أوسع مدلولا وتطبيقا من مجرد الجود والسخاء ، فكل صور العون المادى والأدبى والنفسى تدخل فى نطاق التضامن ، ومن الصور البارزة للتضامن حماية الضعيف والمظلوم الذى يلتمس النصرة ، فضلا عن القبيلة والقرابة ، فان الاسراع الى اغاثة القريب حين يتعرض لظلم أو عدوان أمر تحتمه التقاليد ، بل ان الشعر يتجاوز هذا الى تلبية دعاء القرابة الى العون ولو دون معرفة السبب كما يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
فى النائبات على ما قال برهانا

ولكن السمو الحقيقى فى هذا المعنى هو ما يتعلق بنصرة الضعيف الذى يلتمس الحماية ، وفى هذا المجال نجد الشعر الجاهلى يتخذ من هذا السمو شعارا براقا بادى الصدق والتأثير ، كما يقول مالك ابن حريم الهمدانى عن أنه يأخذ للضعيف الذى يلجأ الى حماه من الظالم حقه ، مهما بلغ هذا الظالم من القوة والمنعة ، وأنه لا يتردد فى اعلان الحرب ، وقيادة الخيل حفاظا على حق هذا الضعيف اللاجىء الى حمايته :

وآخذ للمولى اذا ضيم حقه
من الأعيط الآبى اذا ما تمنعا
وانى لأعدى الخيل تقدع بالقنا
حفاظا على المولى الحريد ليمنعا

٣ ـ صفات الخير عامة :

وقد تغنى الشعر الجاهلى وأشاد بكثير من صفات الخير ، التى

تعارفوا على أنها من سمات السيادة والمروءة بين الناس ، كالشجاعة والجود وحب الخير للناس ، والتنافس فى المكارم ، وقد أقر الاسلام معظم هذه الصفات ، ولم يضف اليها الا أمرين عامين من حيث المبدأ ، أحدهما الدافع ، حيث يشترط الاسلام أن يكون الدافع الى أى عمل هو حب الخير والاتجاه به الى الله ، والآخر هو الاعتدال وعدم التطرف فى مزاولة أى صفة من صفات الخير ، كما يدعو القرآن الى الاعتدال فى الانفاق بقوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وكالاعتدال فى مزاولة الشجاعة بمثل قوله تعالى : «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» .

وقد أفاض الشعر الجاهلى فى هذا الميدان افاضة واسعة ، حيث انصبت معظم مفاخرهم ومدائحهم على هذه الصفات ، ومن أمثلتها قول مالك بن حريم الذى جمع أربعا من هذه الصفات يعتز بالتزامها فيقول :

فان يك شاب الرأس منى فاننى
أبيت على نفسى مناقب أربعا
فواحدة ألا أبيت بغرة
اذا ما سوام الحى حولى تضوعا
وثانية ألا أصمت كلبنا
اذا نزل الأضياف حرصا لنودعا
وثالثة ألا تقذع جارتى
اذا كان جار القوم فيهم مقذعا
ورابعة ألا أحجل قدرنا
على لحمها حين الشتاء لنشبعا

فهو أولا شديد اليقظة لا لمصلحته وحده ، وانما لحراسة سوائم الحى كله ، وثانيا لا يستخفى من الضيف لينصرف عنه ، وثالثا لا يكون سببا فى المساس بعرض جارته أو سيرتها ، ورابعا لا يخفى طعامه ، ولا يستر قدره بما تحوى من لحم عن جيرانه مهما اشتدت حاجته الى الطعام ، ومن هذا نرى كيف أن الشعر الجاهلى كان صوتا للدعوة الى قيم خلقية سامية ، وما أجدره أن يكون صوتا بارزا فى وسائل الاعلام لبعث المكارم العربية والمحافظة عليها

دكتور عبد الحليم حفنى

مع رسالة الأدب الصوفى

"الحكم العطائية"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

نشأ ابن عطاء الله السكندرى فى ظلال القرن السابع الهجرى ، حيث كان التصوف الاسلامى فى مصر وغيرها له قطوف دانية ، وله رجاله الأعلام الذين رسخت فى الطريق الصوفى أقدامهم ، من أمثال الأئمة الشاذلى والبدوى والدسوقى والمرسى وابن الفارض وابن عربى وغيرهم — رضوان الله عليهم —

والسكندرى ، هو الامام أحمد ابن محمد أبوالفضل تاج الدين ، من الاسكندرية مولدا ونشأة ، وقد تعلم فى مدرستها علوم الفقه والشريعة ، واللغة حتى بلغ مرتبة كبيرة ، وتتلمذ فى التصوف على شيخه أبى العباس المرسى الذى قال عنه شيخه أبوالحسن الشاذلى : انه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض ، كما قال عنه : هذا أبو العباس ، منذ عرف الله لم يحجب عنه ولو طلب الحجاب لم يجده .

بلغ ابن عطاء الله فى التصوف وعلومه شأوا بعيدا ، وكان ذلك تصديقا لفراسة شيخه المرسى فيه حين قال له يوما — على أثر تردد رواد قلبه — : الزم حتى تصير مفتيا فى المذهبين .

وكان لابن عطاء الله مؤلفات كثيرة من أبرزها كتاب الحكم ، الذى جمع خلاصة وافية لعلوم التصوف ، حتى قال عنه شيخه حين عرضه عليه : ان فيه جميع مقاصد الاحياء وزيادة .

ولقد ظفرت هذه الحكم بعناية فائقة ، ولكن عناية الصوفية بها كانت أجل وأعظم نظرا لما تحتوى عليه من خصائص فنية وأدبية ، الى جانب ما تحفل به من معارف الصوفية التى تتنوع بين الأحكام

الشرعية والمجاهدات النفسية والمعرفة وماهيتها وأدواتها ومناهجها وآداب المتحققين وما تتضمنه من آراء فى تفسير الوجود وصلة الانسان بالله وما تشير اليه من آداب السلوك العامة التى ينبغى أن يراعيها السالك فى مجاهداته ومقاماته وأحواله ومعرفته ــ على حد تعبير الدكتور أبى الوفا التفتازانى فى كتابه عن ابن عطاء الله .

عناية الصوفيين بها :

وقد عنى بشرح هذه الحكم وتدريسها كثير من العلماء والمحققين ، منهم العلامة الرندى ، والشيخ ابن عجيبة والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ على العدوى والشيخ زروق وغيرهم من العلماء الأجلاء . ويقرر الدكتور التفتازانى أن الحكم قد شرحت شروحا كثيرة فى أزمنة مختلفة وأقطار كثيرة وبلغات أجنبية أحيانا كالتركية والمالوية ، وقد تعشقها أرباب الذوق لما رق لهم من معانيها وراق ، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيرا ولا نكون مجانبين الحق اذا قلنا : انه لا يوجد أى مصنف صوفى حظى فى شروحه تمثل عدد شروح الحكم ، كما تقرر أيضا أن هذه الحكم كان لها تأثير بين الطوائف المسيحية التى تعنى بالتصوف مستشهدا على ذلك باهتمام المستشرق الأسبانى «أسين بلاثيوس » ويقول فى ذلك : وقد شعر بأهمية الحكم وشرح الرندى عليها المستشرق الأسبانى أسين بلاثيوس فترجم فقرات كثيرة منها مع شرح الرندى عليها فى بحث له عن هذا الأخير واحتمال تأثر الصوفى المسيحى الأسبانى القديس جان دى لاكروا بآرائه وآراء الشاذلية . وترجم فقرات قليلة منها كذلك المستشرق الانجليزى « أرثر جون ارپرى » ..

ويعرف الدكتور زكى مبارك بهذه الحكم فى كتابه « التصوف الاسلامى » قائلا فى مقدمة تعريفه « نحن مقبلون على التعرف الى سفر من أسفار الأدب العالمى ، هو مجموعة الحكم التى نظمها ابن عطاء الله السكندرى ، وكانت هذه المجموعة مما يدرسه كبار العلماء فى الأزهر الشريف وكان الشيخ محمد بخيت يدرسها للجمهور بعد

العصر فى رمضان فى مسجد الحسين (رضى الله عنه) وقد حضرت عليه طائفة من تلك الدروس وأنست بمعانى الحكم العطائية أشد الأنس. ثم يقول : واهتمام علماء الأزهر بدرس حكم ابن عطاء الله هو صورة جديدة للحفاوة بتلك الحكم واللآلىء النفيسة ، فقد اهتم الناس بها من قبل وظفرت بعدة شروح ، ولا تزال على كثرة ما لقيت من شروح ودرس تبعث فى قلوب المريدين أنواراً لم يتنورها الشارحون، وانما قلنا هذا الآن لأن الحكم العطائية نظمت نظما غنائيا روعى فيه أن تكون اشارات الى أحوال النفوس ، والنفوس تتغير وتتبدل وتعتورها ألوان الكدورة والصفاء ، فما يفهمه هذا قد لا يفهمه ذاك وما يرتضيه قوم قد يرفضه آخرون » .

وبعد أن يستعرض الدكتور زكى مبارك بعض فقرات من هذه الحكم ويعلق عليها ، يختم ذلك بقوله مذكراً رجال الأدب بواجبهم نحو هذه الذخيرة الفنية الرائعة « ولو أضفنا الى ذلك ما ظفرت به الحكم العطائية من الشروح والتفاسير وما أوحت به الى الناس من مختلف المعانى لرأينا كيف كانت قيمتها من الوجهة الأدبية والفلسفية ، ولا يغض من الحكم العطائية أنها ظلت مجهولة فى التاريخ الأدبى ، لأن مؤرخى الأدب غفلوا عن أمثال هذه الفرائد فلم يكن لها من عنايتهم نصيب .. وقد قلنا فى غير موطن من هذا الكتاب : ان رجال الأدب شغلوا بأسرى الحواس ولم يهتموا برجال القلوب . ولعل هذا الفصل يذكر رجال الأدب بعظمة ذلك الأديب المجهول فما تقل كلماته فى الأدب مع الله عن كلمات ابن المقفع فى الأدب مع السلاطين » .

والآن وبعد مضى أكثر من أربعين عاما على تأليف كتاب الدكتور زكى مبارك فما زالت كلمته لمؤرخى الأدب تحاول أن تجد صداها فى أسماعهم حتى الآن .

من شراح الحكم :

والحقيقة أن الأدباء لم يشغلوا أنفسهم بروائع فن الحكم كما شغل بها الصوفية ، فقد تعدد العلماء شراح الحكم ومنهم : محمد بن

ابراهيم عباد النفرى الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، وعلى بن محمد النفرى وهو ابن الرندى السابق ، وشهاب الدين أحمد بن محمد البرنسى المعروف بزروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ ، ويقول الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله عن الشيخ أحمد زروق ـ وقد حقق شرحه لهذه الحكم ـ : لقد افتتن الشيخ زروق بالحكم افتتانا كبيراً واستولت عليه جاذبيتها ولم تكن تفارقه فى سفر ولا اقامة ، وكان يشرحها فاذا ما انتهى من شرحها بدأ يشرحها من جديد ، وتفاوتت شروحه بين الايجاز والتطويل ، أما عدد هذه الشروح فلم يتيسر احصاؤها فى دقة دقيقة ، والمؤكد أنها وصلت الى أكثر من ثلاثين شرحا ، وهذا الشرح الذى بين أيدينا هو شرحها السابع عشر . اهـ .

ومن شراح الحكم أيضا : صفى الدين أبو المواهب الشاذلى ، وأبو الطيب ابراهيم بن محمود الأقصرائى المواهبى الشاذلى ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلى المتوفى سنة ٩٧١ هـ ، وعلى بن حسام الدين الهندى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ والشيخ عبد الرءوف المناوى المصرى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ ، وشهاب الدين أحمد بن علاء الصديقى الشافعى المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن بن زكرى المتوفى سنة ١١٢٤ هـ وغيرهم

وكما ظفرت هذه الحكم بشرح الشارحين : ظفرت كذلك بنظم الناظمين ، كما قام بترتيب أبوابها بعض الصوفية .

وهذا كله يؤيد علو منزلة هذه الحكم لا فى حدود مصر فحسب ولكنها تجاوزتها الى خارج الحدود فراجت فى بعض الأقطار الاسلامية ووجدت من يعتنى بها فى الهند والملايو وأسبانيا والمغرب العربى وتركيا والجزيرة العربية وبهذا أصبحت تراثا صوفيا حيا .

مضمون الحكم :

ويصدر ابن عجيبة الحسنى شرحه على الحكم بقوله : فعلم التصوف من أجل العلوم قدراً وأعظمها محلا وفخراً وأسناها شمسا وبدراً، وكيف لا ؟ وهو لباب

الشريعة ومنهاج الطريقة ومنه تشرق أنوار الحقيقة وكان أعظم ما صنف فيه الحكم العطائية .. ولقد سمعت شيخنا ومولانا العربى يقول : سمعت الفقيه البنانى يقول : كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيا ، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم .

ويبين ابن عجيبة مضمون كتاب الحكم قائلا : ومضمنه من علوم القوم أربعة ، الأول علم التذكير والوعظ وقد حاز منه أوفر نصيب وهو لمقام العوام ، وتستفاد مواده من كتب ابن الجوزى وبعض تآليف المحاسبى وصدر كتاب الاحياء والقوت وتحبير القشيرى وما جرى مجراها .

والثانى : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة وتطهيره من الأوصاف المذمومة ، وهذا خط المتوجهين الصادقين ، ومادة ذلك من كتب الغزالى والسهروردى ونحوهما .

الثالث : تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين ، وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه ، ومادته من مثل كتب الحاتمى فى المعاملات والبونى فى المنازلات .

الرابع : العلوم والمعارف الالهامية وفيه مالا يخفى لكن كتبه ملئت بشرحها لاسيما التنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب .

ويستطرد ابن عجيبة قائلا : وبالجملة فهو كتاب جامع لما فى كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ ، كما يقرر أن المسلك الذى سلك فيه مسلك توحيدى لا يسع أحد انكاره ولا الطعن فيه ولا يدع للمعتنى به صفة حميدة الا كساه اياها ، ولا صفة ذميمة الا أزالها عنه باذن الله .

وهذه شهادة لابن عطاء الله بسعة علمه وكثرة اطلاعه وقوة مشاهدته، فالذى يتمكن من أن يحيط بمضمون الكتب التى ذكرها ابن عجيبة ثم يبرز فى التأليف فى معانيها لا شك

أنه الى جانب قوة حجاه قد وصل الى مدى عظيم فى علوم المكاشفة التى لا تزال سرًا مغلقا على غير أربابها ، والتى ترمز عبارات الحكم الى الكثير منها .

وذلك أحد الأسباب الذى جعل الكثيرين من الشراح يتهيبون الاقدام على شرحها ـ كما يقرر ذلك الدكتور زكى مبارك ـ بقوله : ومن أجل هذا أضيفت حكم ابن عطاء الله الى الرمزيات وتهيبها الشراح فصرحوا بأن كلامهم ليس الا طوافا حول ذلك السر المكنون، وفى ذلك يقول الرندى : ولا قدرة لنا على استيفاء ما اشتمل عليه الكتاب وما تضمنه من لباب اللباب لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة وجواهر مكنونةولا يكشفها الا همولا تتبين حقائقها الا بالتلقى عنهم ، ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها والمناحى التى نعتمدها غير مدعين لشرح كلام القوم ، ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذهبهم حسبما يفعله كل مصنف ، فانا ان ادعينا ذلك كان منا اساءة أدب تئول بنا والعياذ بالله الى العطب ، وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر فى تعاطى مالا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى .

ولننظر الى هذا الكلام الرفيع القدر من العلامة الرندى الذىيزيد من رفعته ، فحلية العلم التواضع ومن تواضع لله رفعه ، وهذه كلمة نهديها الى كل مزهو بعلمه يحاول أن يحطم بما وصل اليه من قشور كل من فوقه ودونه على السواء .

فالرندى رضى الله عنه فى كلامه ذلك ملتزم جانب الحذر الذى يدعو اليه الأدب الكامل الذى يلزم صاحبه احترام من سبقوه ، ومازالت حرمة المشايخ أحد الأصول التى يعنى الصوفية باحترامها واكبارها.

يقول قائلهم فى ذلك : أصل التصوفملازمة الكتابوالسنةوترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم واستعمال الأخلاق الجميلة .

معنى الحكمة :

والحكمة فى اللغة قول صائب صدر عن روية وتفكير أو تجارب صحيحة فى الحياة ، يقال : حكمه : اذا منعه مما يريد ، ومنه حكمة الدابة ، لأنها تذللها لراكبها وتمنعها الجماح ، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من سيىء الأعمال والأخلاق .

ويمكن تطبيق هذا التعريف على حكم ابن عطاء الله الى حد كبير ، على اعتبار أن الهدف منها تصفية القلوب وتزكية النفوس وتصحيح الأعمال ومنع الناس من ارتكاب الأوزار ، وحثهم على ارتياد الفضائل

الخصائص الفنية لحكم ابن عطاء الله

ولحكم ابن عطاء الله خصائصها الفنية والأدبية التى ألخصها عن الدكتور أبى الوفا التفتازانى فى كتابه عن «ابن عطاء الله وتصوفه» .

ـ هى من عيون النثر الصوفى ، وهى أثر فنى لم يعن أحد من قبل بدرسه دراسة فنية أدبية تحليلية تظهر أهميته فى وضوح .

ـ وهى عبارة عن فقرات قصيرة ذات ألفاظ قليلة تتضمن المعانى الكثيرة .

ـ ويغلب عليها أسلوب الخطاب الذى يوجهه ابن عطاء الله الى السالكين والمريدين ، وهى لا تعنى بالترتيب المنطقى الذى يراعى وحدة الموضوع ، ولعل سبب ذلك يرجع الى أنها خطرات نفسية كانت تعرض له فيدونها دون تكلف أو تعمّل .

ـ والحكم تعنى باختيار الكلمات وجمال الأسلوب وتنسيق العبارة بحيث تؤثر فى نفس سامعها وقارئها كما أنها تحمل صدق عاطفة وقوة روح مما يجعل لها ذلك التأثير السريع فى النفوس والقلوب .

ـ وهى تجمع بين الأخيلة المختلفة كما أنها تعنى بالمحسنات اللفظية غير المتكلفة ، وتعتمد أحيانا على أسلوب الاستفهام التعجبى فى التعبير عن بعض مدلولاتها .

وبالمثال يتضح الحال كما يقولون فمصداق هذا القول السابق نلمسه من قراءة الحكم ومطالعتها ، فأسلوب

الخطاب نلمسه فى قوله : «اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك : دليل على انطماس البصيرة منك » وفى قوله : « أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك » وفى هاتين الحكمتين تظهر العناية بحسن اختيار الكلمات وتنسيق العبارة كما يظهر ذلك فى غيرهما من بقية الحكم .

وليس أجمل من الخيال فى قوله : « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها » فتشبيه العمل المخلص بالجسد الذى لاقوام له الا بروحه من روائع التشبيهات، وكما يموت الجسد اذا فارقته روحه كذلك تضيع قيمة العمل اذا فَقَدَ الاخلاص .

أما قوله « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » فهو من أجمل الصور الخيالية التى تصور أدق المعانى وأجمل الاشارات ، الى جانب ما تحمله من رقائق نفسية وآداب اجتماعية، ويعلل الدكتور زكى مبارك على هذه الحكمة بقوله : هى كلمة رائعة لم أشهد لها مثيلا فيما قرأت وفيها حيوية قوية ، كأن الكاتب ألقاها فى لحظة من اللحظات التى تتجمع فيها قوى النفس ثم تقذف بالمعنى فيخلد ــ لقوته ــ على وجه الزمان .

ويقصد بالخمول هنا العزوف عن الشهرة التى تودى بأصحابها الى البوار ، والصوفية دائما يحبون العمل فى صمت وينأون بأنفسهم عن العجب ، هم أبطال الايثار وأعداء الأثرة . وهذا ما يشير اليه ابن عطاء الله .

ومن أسلوب الاستفهام التعجبى قوله : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

والتعبير بالاستفهام من أدق الأسرار البلاغية ، واللجوء اليه ضرب من ضروب قوة التعبير التى تثير الشوق الى معرفة المعنى المقصود

وتترك لدى السامع والقارىء تطلعا الى استكناه المراد وتشوقا الى ادراك حقيقته .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله : « كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه اليك ؟»

ومن أمثلة المحسنات غير المتكلفة قوله : « ما كان ظاهر ذكر الا عن باطن شهود وفكر » ، « أشهدك من قبل أن أستشهدك فنطقت بالهيتك الظواهر وتحققت بأحاديتك القلوب والسرائر » ، «رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده » ، « من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الاشارة» .

وكل عبارات الحكم منتقاة تشهد لصاحبها بعلو كعبه فى البلاغة ووصوله الى أقصى درجات الفصاحة فلا توجد فيها لفظة مستهجنة أو زائدة عن حاجتها أو نابية فى موضعها وهذا يدل ـ الى جانب ما أوتيه من مقدرة ـ على الصفاء الروحى والالهام الذى يقوم بدور المصفاة التى تنقى الأسلوب فلا يخرج من خلالها الا الجيد المنتقى .

المفاجأة التى ذيلت بها الحكم :

وقد وصلت المناجاة التى اختتم بها ابن عطاء الله كتاب الحكم قمة البلاغة والفصاحة كما أنها تدل على أنها صادرة من روح شفاف وقلب عارف ويقين صادق ومعرفة ثاقبة ، وكأنه فى هذه المناجاة يقف على أعتاب ملك الملوك المطلع على خفايا النفوس وأسرار القلوب فلا غرابة أن يحدو صاحبها الاخلاص والصدق الذى تظهر سماته على تلك الكلمات الرقاق ، والاستشهاد فى ذلك يغنى عن الوصف ، لأن الوصف يغض من قيمتها ..

انظر اليه وقد وقف على باب مولاه مناجيا اياه متضرعا اليه هاتفا باسمه منشدا أعذب نغمة فى الوجود قائلا : الهى ..

«الهى ما ألطفك بى مع عظيم ذنبى رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا »

« الهى ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ »

« الهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ؟ »

« الهى أنا الجهول فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟ »

« الهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك » .

« الهى ان ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على ، وان ظهرت المساوىء منى فبعدلك ولك الحجة على »

« الهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى » .

« الهى ، أخرجنى من ذل نفسى وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى ، بك أستنصر وعليك أتوكل فلا تكلنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى عنك وببابك أقف فلا تطردنى ، واياك أسأل فلا تخيبنى » .. هذا وأرجو الله أن يوفق الى لقاء آخر مع هذه الدرر لعرض ما تشير اليه من حيث الموضوع .. رضى الله عن صاحب الحكم ، ورزقنا حسن الفهم والعمل انه سميع مجيب .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

مما يستحب للصائم

* تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب وقبل الصلاة .
* الدعاء عقب فطره بالمأثور وهو : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، وعليك توكلت وبك آمنت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر يا واسع الفضل اغفر لى : والحمد لله الذى أعاننى فصمت ورزقنى فأفطرت » .
* كف اللسان عن فضول الكلام ، والاكثار من الصدقة والاحسان .

نظرة متأنية فى كتاب الله

لفضيلة الشيخ عزت ابراهيم الدسوقى

قال عز وجل :

« أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » .

« قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الأخرى ان الله على كل شىء قدير »

١٩ ، ٢٠ سورة العنكبوت

« صدق الله العظيم »

لا مراء أن أولى الآيتين الكريمتين تحمل دليلا لا ينقض على قدرة الله على احياء الناس بعد موتهم . هذا الدليل هو خلق الانسان وتكوينه وهو أمر يتكرر فى كل أسرة ، ويباشر أسبابه الذكر والانثى فى كل مجتمع ، وكان عدم الايمان بالبعث من الذين يرون كيف يبدىء الله خلقهم أمرا عجبا يثير الدهشة . لذا كانت الآية مصدرة بالاستفهام الانكارى فكأنهم حين أنكروا البعث عموا فلم يروا كيف يبتدىء الله خلق الانسان . ولو أنهم أمعنوا النظر فى ذلك لآمنوا بالبعث فان القادر على البدء قادر على الاعادة فالله خلق الانسان ثم يعيده ان ذلك على الله يسير .

وأما الآية التالية لها وهى قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » الآية . فمن اللائق أن نلقى نظرة على ما قاله السادة المفسرون فى تفسيرها ثم نناقش تفسيرهم ونعقب عليه بما يفتح الله علينا وهو خير الفاتحين .

جمهور المفسرين على أن المراد بالخلق هنا هو خلق الامم السابقة .

قال الجلال فى تفسيره : « كيف بدأ الخلق لمن كان قبلكم وأماتهم» .

وقال العلامة أبو السعود :

« فانظروا كيف بدأ الخلق » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى اهـ .

وحتى يربط أبو السعود مناسبة بين السير فى الأرض وبين النظر فى بدء الخلق قال :

« فان ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها » .

وقال الألوسى مثل قول أبى السعود .

وأما الفخر الرازى فبعد أن وافق جمهور المفسرين قال : ويمكن أن نعتبر هذه الآية اشارة الى قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

يعنى أن المراد بالخلق هنا هو خلق السموات والأرض .

وفى الحق أن المتأمل فى الآية الكريمة يرى أن ارادة خلق الأمم السابقة منها أمر بعيد الاحتمال لما يأتى :

أولا :

الأمم السابقة ليست بدعا من الخلق ولا عجبا فى التكوين فهى من ذرية آدم أبى البشر .

وخلق الفرد الواحد وهو الدعامة فى تكوين الأمم والجماعات لا يختلف فى أمة عن أمة ولا فى جماعة عن جماعة ولا فى جيل عن جيل وليس ثمة خلاف الا فى اللون واللهجة . قال تعالى فى سورة الروم : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين » (آية ٢٢) .

والخلق والاماتة أمران شاهدان محسان فلا داعى للسير فى الأرض لرؤية شىء يرى فى كل مجتمع انسانى وتجمع بشرى .

ثانيا :

لا علاقة بين السير فى الأرض

وبين معرفةكيف بدأ الله خلق الأمم السابقة ، لأن سنة الله فىالكونأن الانسان اذا مات تحلل وصار رمادا أو ترابا •

ولذا قال الكفار مستكبرين الاعادة ومنكرين للبعث : « أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد » (سورة السجدة ١٠)

« يقولون ائنا لمردودون فى الحافرة » (١٠) •

« أئذا كنا عظاما نخرة » (سورة النازعات ١١) •

ولم ينكر القرآن الكريم ضلال الانسان فى الأرض وتحوله الى عظام نخرة • وانما أنكر عليهم أن لم يستدلوا بالخلق الأول على الاعادة والحشر ، ولم يهتدوا بآثار قدرة الله فى الكون علىقدرته على البعث والنشور ،

واذا حاول المفسران الجليلان أبو السعود والألوسى — رحمهما الله — الربط بين السير فى الأرض وبين النظر فى بدء الخلق بأن السير فى الأرضمؤذنبتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين بها نقول : ان أحوال الناس وتنوعهم شىء آخر غير بدء الخلق المطلوبمعرفته فى الآية الكريمة •

ثالثا :

ان خلق الأمم السابقة الذى يزعمونه مرارا من قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » قد ذكر فى الآية السابقة مباشرة دون فاصل قريب أو بعيد فى قوله تعالى : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » •

فالمفسرون مجمعون على أن المراد بالخلق هنا هو خلق الانسان• والانسان لم يتغير لا فى الأجيال السابقة ولا فى الحاضرة فخلقه هو هو ومعرفتنا لخلق الانسان المعاصر وتكوينه معرفة بالضرورة لخلق الامم السابقة وتكوينها فتكون الآية الثانية تكرارا لمعنى الآية السابقة عليها دون زيادة ودون تغيير •

وقد حاول الامامالفخر أن يوجد فرقا بين الآيتين ونوعا من التغاير

بينهما فقال كما نقله عنه الجمل فى حاشيته :

« أبرز اسم الله فى الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدىء الله الخلق) وأضمره عند الاعادة .

وفى هذه الآية وهى قوله : « فانظروا كيف بدأ الخلق » أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال : « ثم الله ينشىء النشأة » لأنه فى الآية الأولى لم يسبق ذكر الله حتى يسند اليه البدء فقال « يبدىء الله » ثم قال « يعيده » وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله تعالى فاكتفى به ، وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قال : « ثم الله ينشىء النشأة فليقع فى ذهن السامع كمال قدرته وعلمه وارادته ، ولم يقل يعيده بل قال ينشىء للتنبيه على أن البدء يسمى نشأة كالاعادة والتغاير بينهما بالوصف حيث قالوا : نشأة أولى ونشأة أخرى ، انتهى كلام الفخر .

وهو — كما ترى — يجعل البدء فى الآيتين واحدا ، ويجعل الاعادة واحدة يقعان على الانسان ومقتضى هذا انه جعل الآيتين بمعنى واحد يحملان دليلا واحدا بيد أنه جاء بأسلوب مختلف فالتغاير فى اللفظ لا فى الموضوع وفى المبنى لا فى المعنى ، والهدف من التعبير بينشىء بدل يعيد — كما يقول الفخر — هو التنبيه على أن البدء يسمى نشأة ! !

اذن فلا فرق الا فى الألفاظ . وهذا أمر عجيب . فالترادف بهذا الأسلوب غير مألوف فى كتاب الله تبارك وتعالى . بل ليس فى كتاب الله — فيما أعلم — ترادف مما يقصده البلاغيون بحيث لا يزيد أحد المترادفين عن الآخر فى شىء ما فى موضعين منفصلين فضلا عن أن يكون فى جملتين متصلتين أو آيتين متصلتين .

فلا مندوحة من التماس نوع من التميز فى كل آية يخرج عن حد التميز اللفظى الى التميز الموضوعى ضرورة أن الآيتين متجاورتان ولا بد أن تتميز كل آية بمعنى خاص يؤازر معنى الآية الأخرى .

والذى يبدو لى أن لفظ الخلق وان ورد معرفا فى كل من الآيتين الا أنه يتغاير باعتبار متعلقه أو باعتبار المخلوق • فأل فى كلمة الخلق عوض عن المضاف اليه ، ويؤخذ المضاف اليه من الآية نفسها •

ففى قوله سبحانه : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » يعنى خلقهم فأخذ المضاف اليه من الضمير فى « أو لم يروا » وهذا محل اجماع من المفسرين من أن المراد بالمخلوق فى هذه الآية هو الانسان •

وفى قوله سبحانه : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » يعنى خلق الأرض • واذا شاء الله فسنعود الى مزيد من الايضاح •

ولما كان خلق الانسان يتكرر دائما وبصورة مستمرة فى كل مجتمع كان التعبير فى هذه الآية : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » بالفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار والتجدد •

ولما كان خلق الأرض قد تم وصار أمرا مقضيا كان التعبير فى الآية الثانية بالفعل الماضى الدال على الانتهاء وقل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق •

وعلى هذا فكل من الآيتين تحمل دليلا على البعث غير ما تحمله الآية الأخرى • وليس ثمة ما يدعو الى التماس التغاير فى اللفظ فالتغاير فى المعنى والموضوع •

شرح قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »

واذ فرغنا بجهد المقل من شرح قوله تعالى :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » •

وكنا فى هذا الشرح متفقين كل الاتفاق مع سادتنا المفسرين الأوائل •

ننتقل الى شرح قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا

كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شىء قدير » •

وقبل البدء فى الشرح نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا للفهم الصحيح لهذه الآية الكريمة ولغيرها من كتاب الله ، وأن يجنبنا الخطأ والزيغ والاعجاب بالرأى فهو الهادى الى الحق والى صراط مستقيم •

ألفاظ هذه الآية الكريمة من الوضوح والجلاء والسهولة بحيث لا نحتاج الى كتب اللغة لفهم المراد منها ، فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يأمر البشر بالسير فى الأرض ويرتب على هذا الأمر أمرا آخر وهو النظر والاطلاع على جانب من جوانب قدرة الله تعالى الماثلة فى الكيفية العجيبة فى بدء الخلق وحين يفرغ البشر من هذا النظر يعلمون يقينا لا تشوبه شائبة من الشك أن الله الذى خلق هذا الكون قادر على أن يحيى الموتى ؟ ، ان الله على كل شىء قدير •

هذا هو التفسير الاجمالى لهذه الآية الكريمة •

ولنعد الى مناقشتها مناقشة تفصيلية •

ما المراد بالسير فى هذه الآية ؟

لو كان المراد بقوله تعالى : « سيروا فى الأرض » السير المعتاد والتنقل من مكان لآخر على وجه الأرض لما تعلق به الجار الدال على الظرفية ومجروره • أما وقد جاء فى هذه الآية بلفظ (فى) متعلقة مع مجرورها بالسير فلا بد من تعلق هذا الجار بما يتلاءم مع الظرفية ، والمتعلق به اما أن يكون حالا مقدرة من دار الجماعة ويكون المراد — والله أعلم — سيروا حال كونكم باحثين فى الأرض ، واما أن نلجأ الى تضمين لفظ سيروا معنى ابحثوا وسواء لجأنا الى تقدير الحال ، أو الى التضمين فان لفظ — فى — هنا يقتضى البحث والتنقيب والدراسة •

الهدف من السير فى الارض

يرتب النظم الكريم على الأمر

بالسير فى الأرض أمرا آخر مرتبطا كل الارتباط بالأمر الأول وهو الأمر بالنظر لمعرفة كيف بدأ الخلق.

ويترتب على هذا الهدف والغرض أمور ، منها :

أولا :

ان المراد بالسير هنا هو البحث والدراسة كما قدمنا اذ لا علاقة للسير العادى بمعرفة هذه الكيفية العجيبة .

ثانيا :

المراد بالنظر هنا هو العلم والمعرفة لا النظر بالعين المجردة لأن النظر المجرد فى هذا الموضع كان ولا يزال مستحيلا ، لعدم وجود المأمورين بالسير والنظر عند بدء الخلق « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض » وبدء الخلق بل وخلق الكون كله كان قبل خلق الناس المأمورين بالسير والنظر .

ثالثا :

ترتب النظر والمعرفة على البحث والسير فى الأرض يستلزم أن يكون فى الأرض من العلامات والدلائل ما يوصل الباحثين الى النظر والمعرفة ، والا لما كان للأمر بالسير والنظر معنى .

وعلى هذا فاذا خرج علينا الباحثون فى الأرض بمعلومة لا تتعارض مع صريح القرآن الكريم ولا مع مفهومه لا يصح أن نسارع الى اتهامهم ولنا أن نقبل هذا أو نرفضه بعد الدراسة الجادة والمناقشة الهادئة الهادفة ، ولنضع فى اعتبارنا ما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من أن الله تعالى أودع الأرض ما يستدل به العلماء على معرفة كيفية بدء الخلق .

رابعا :

المراد بالخلق هنا ليس خلق الأمم السابقة ولا الأمم الحالية اذ لا علاقة ولا ارتباط بين بدء خلق الناس وبين البحث والنظر فى الأرض ، بل المراد بالخلق هنا هو خلق الكون بصفة عامة ، وخلق الأرض بصفة خاصة ، لأنها هى موضع البحث والنظر المرادين من الآية .

وتكون أل فى الخلق هنا عوضا عن المضاف اليه وتقديره الأرض ، أو الكون .

وبهذا التفسير وهذا الفهم يأتى الرد على التساؤلات الآتية :

(أ) لم كان قوله تعالى :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » مصدرا بالاستفهام الانكارى ولم يكن هذا الانكار موجودا فى قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟ » .

والجواب ، هو أن الآية الأولى مصدرة بالاستفهام الانكارى ، لأنها تنعى على منكرى البعث تجاهلهم وتعاميهم لدليل واضح ملموس ، يقع أمام أعينهم ويباشرون أسبابه بأنفسهم ويتحقق وقوعه فى كل تجمع بشرى يلتقى فيه الزوجان فاذا لم يستدلوا ببدء خلق الانسان وتطوره فى بطن أمه ، حتى يخرج الى الدنيا بشرا سويا . على قدرة الله على البعث كانوا فى غمرة من الجهالة والعمى حتى كأنهم لم يروا كيف يبدىء الله الخلق فاستحقوا بذلك اللوم والتعنيف والانكار .

ولم تصدر الآية التالية بالاستفهام فضلا عن أن يكون انكاريا لأن هذا الدليل خفى الدلالة على عامة الناس ، لا يدركه الا نوعية خاصة من البشر ، امتازت بالبحث والعلم فاقتصرت الآية على لفت الانظار وتوجيه البصائر ، والأفهام الى الاستنباط والاستدلال .

(ب) لم جاء بالفعل فى الآية الأولى مضارعا وهو (يبدىء) .

وجاء بالفعل فى الآية الثانية ماضيا وهو (بدأ) ؟

والجواب :

ان الآية الأولى تتعلق بخلق الانسان وتطور هذا الخلق وهو أمر يتكرر فى كل مجتمع وبكثرة حتى قيل : ان مصر ترزق بمولود فى كل ثانية فكان من المناسب أن يأتى بالفعل الدال على التجدد والاستمرار وهو يبدىء .

والآية الثانية تتعلق بخلق الكون

وهو أمر قد تحقق ، وجرت به المشيئة والقدرة قبل خلق الناس فجاء بالفعل الماضى (بدأ) وهو يدل على نفاذ الفعل ومضائه .

(ح) لم ذكر فى الآية الأولى الضمير عند ذكر الاعادة فى قوله تعالى (ثم يعيده) ولم يذكر الضمير فى الآية الثانية بل ذكر النشأة مجردة عن كل ضمير ؟

والجواب :

ذكر الضمير فى الآية الأولى لأن الاعادة تقع على الخلق المذكور فيها فوجب بلاغه الاكتفاء بذكر الضمير لتقدم ذكر ما يعود عليه الضمير .

وفى الآية الثانية لا تقع النشأة الأخرى على الخلق المذكور فيها لأن المراد به خلق الكون والنشأة الأخرى تقع على الانسان والناس ولم يتقدم ذكر لهم فى نفس الآية فامتنع ذكر الضمير لأنه لا يعود على مذكور فيها .

وليس صحيحا ما قاله الامام الفخر الرازى من أنه عدل عن ذكر الاعادة الى النشأة الأخرى ليبين أن الاعادة تسمى نشأة والمغايرة انما هى بالوصف فيقال : نشأة أولى ، ونشأة أخرى .

هذا . ولو جرينا على ما قاله المفسرون من أن المراد بالخلق فى الآية الثانية هو خلق الأمم السابقة ومعرفة طبائعهم وعاداتهم لما كان هناك كبير فائدة فى ذكر هذه الآية بل كانت هى عين الآية الأولى فى معناها ومبناها ، وليست هناك مغايرة الا فى بعض الالفاظ . وهو (يعيده) وينشىء النشأة الأخرى .

ولما كان هذا أمرا لا يبرر التكرار لمعنى واحد فى موضع واحد كان أقرب الى الحق والصواب أن يقول الامام الفخر الرازى :

« ويمكن أن يقال : ان هذه الآية من قبيل قوله تعالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

الفائدة المترتبة على القول بالمغايرة بين المعنى المخلق فى كل من الآيتين

ينبنى على القول بأن الخلق المراد فى الاية الأولى غير الخلق المذكور فى الآية الثانية فائدةعظمى ومعنى جديد فتكون كل أية تحمل دليلا متميزا على وقوع البعث وقدرة الله على احياء الموتى وهو ما يمارى فيه الكفار اشد المراء وأعنفه .

فالاية الأولى تحمل دليلا واضحا كل الوضوح يشاهده العام والخاص وهو خلق الناس أول مرة، والقادر على الخلق أول مرة قادر بسهولة على اعادة هذا الخلق وهو أهون عليه ، ولله المثل الأعلى .وجاء التنزيل فى هذه الآية مشيرا الى هذا اليسر وهذه السهولة فقال سبحانه :

« ان ذلك على الله يسير » .

وكون خلق الانسان دليلا على امكان البعث ووقوعه تكرر فى القرآن الكريم فى مواضع مختلفة وبأساليب غاية فى البلاغة والاقناع نقتصر هنا على موضع واحد فقد قال تعالى فى آخر سورة القيامة :

« أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين . الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

أما الآية الثانية فتحمل دليلا مغايرا لدليل الآية الأولى ومؤيدا له وهذا الدليل هو الاستدلال بخلق الكونعلى قدرة الله تعالى على البعث .

وجاء هذا الاستدلال فى مواضع كثيرة وبأساليب فى منتهى القوة والاقناع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ونجتزىء هنا أيضا على دليل واحد لمجرد الاستشهاد . قال تعالى فى سورة الأحقاف فى الآية رقم ٣٣ :

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولميعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى ، انه على كل شىء قدير » .

ونفس التذييل الذى جاء فى آية الأحقاف جاء فى الآية التى فسرناها من سورة العنكبوت مما

يؤكد وحدة المعنى وأن المراد بالخلق فيما هو خلق الكون .

اقرأ معى مرة ثانية :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شىء قدير » .

دليل آخر على صحة ماذهبنا اليه :

ومما يؤيد صحة ما ذهبت اليه من أن المراد بالخلق فى الآية الثانية هو خلق الكون وليس خلق البشر وان هذه الآية تستلزم حتما أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أودع الأرض والكون يستدل بها على كيفية الخلق . قوله تعالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

ولست الآن بصدد شرح هذه الآية الكريمة فلذلك مقال آخر ان شاء الله تعالى . وانما اقتصر هنا على بيان وجه الاستدلال باختصار .

فالآية تنكر على الكافرين أنهم لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله .

وتوجيه الانكار بهذه الصورة يوحى بالآتى :

أولا :

انه موجه الى الذين كفروا وعلى هذا فمن المستبعد أن يكون سبيلهم الى هذه الرؤية الوحى السماوى أو الكتب المنزلة لأنهم لا يؤمنون بشىء من ذلك .

ثانيا :

ان هذه الرؤية بالقطع ليست رؤية بصرية بل هى بالتأكيد رؤية بصيرية عقلية ضرورة أن أحدا من البشر كافرا أو مؤمنا لم يكن موجودا حين كانت السموات والأرض رتقا ففتقهما الله .

لأن الحياة الانسانية فى ذلك الوقت لم تكن موجودة .

ثالثا :

ان العلم بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله أمر ممكن بل كان عدم وقوعه موضع انكار ومؤاخذة .

رابعا : وهو كالنتيجة لما تقدم :

ما دام هذا العلم ممكنا وأن

سبيله ليس الوحى وليست المشاهدة البصرية فما هو سبيل هذا العلم اذن ؟

لا مفر من القول بأن سبيله هو البحث فما ذرأ الله فى الكون من آيات ودلائل يعلمون عن طريقها آن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله .

قال تعالى :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

مثال يبين تفاق علماء طبقات الارض على نتيجة أيدها القرآن الكريم :

نسوق فى ختام هذا البحث ما يدل على أن الله أودع الأرض دلائل وعلامات استدل بها الباحثون وعرفوا عن طريقها كيف بدأ الله الخلق .

فقد أجمع الباحثون فى طبقات الأرض على أن الأرض حينما خلقت كانت كرة من اللهب استمرت ملايين من السنين حتى بردت قشرتها وجرت فيها وسائل الحياة فتعالوا نتل آية من سورة النمل وهى الآية رقم ٦١ :

« أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا . وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

فمادة جعل تفيد التحويل والتصيير الى شىء لم يكن من قبل فلم تكن الأرض أولا قرارا أى مكان استقرار للحياة فجعلها الله قرارا ، ولم تكن بها أنهار فجعل الله خلالها أنهارا ، ولم تكن بها رواسى فجعل الله لها رواسى وفضل الله بقدرته بين الماء العذب والبحر الملح .

ويتكرر هذا المعنى بصورة أخرى فى سورة المرسلات :

« ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ويل يومئذ للمكذبين » .

« صدق الله العظيم »

وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين والسلام عليكم ورحمة الله .

عزت ابراهيم الدسوقى

من ذكريات رمضان المعظم

للأستاذ أحمد على منصور

اذا طلع هلال رمضان المعظم فى صفحة السماء ، من كل عام هجرى ، حمل الى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، ثلاث ذكريات عاطرات ، كان لها أبعد الآثار وأروعها ، فى تاريخ الاسلام والمسلمين .

الذكرى الأولى : غزوة بدر ، وانتصار المسلمين مع قلة عددهم وعتادهم الحربى ، على أعدائهم من الكفار والمشركين ، مع كثرة عددهم ، ووفرة أسلحتهم ، وآلات قتالهم ، فان الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقاتل أحدا ليقهره على الدخول فى الاسلام ، ولكنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان يدعو الى هذا الدين العظيم ، بالبراهين الساطعة ، والحجج القوية القاطعة ، امتثالا لأمر العلى القدير له ، فى أواخر سورة النحل الكريمة : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) ، ففى هذا النص الكريم ، من القرآن العظيم ، يأمر الله العزيز الحكيم ، نبينا ـ عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ـ بأن يدعو الى الاسلام ، بالمقالة الصحيحة المحكمة ، المدعمة بالدليل الواضح المبين للحق ، المزيل للشبهة ، كما يدعوهم اليه بالموعظة الحسنة ، التى لا يخفى عليهم ، أنه يناصحهم بها ، ويقصد نفعهم من ورائها ، وأن يجادلهم بالطريقة القويمة ، التى هى أحسن طرق المجادلة ، القائمة على الرفق واللين ، ويأخذهم بما يوقظ

القلوب ، وعظ النفوس ، ويجلو العقول ، وربنا من قبل ومن بعد ، أعلم بمن ضل عن طريق الحق والرشاد ، وهو أعلم بالمهتدين ، فمن كان فيه خير ، كفاه الوعظ القليل ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل — ولكن القرشيين كانوا معاندين ، آذوا الرسول الكريم ، واضطهدوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم ، وقعدوا لامام الهدى ، وللمؤمنين به كل مرصد ، فأذن الله عز وجل للصادق الأمين بقتالهم ، وقتال كل معتد ، وصاد عن سبيل الله .

وذات يوم أخبر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أصحابه بأن أبا سفيان بن حرب ، سيقدم من الشام بعير لقريش ، فيها أموالهم وتجارتهم ، ودعاهم للخروج اليها ، لعلهم يصيبون منها بعض ما أخذه الكفار منهم فى مكة ، وحتى يحس القرشيون بقوة المسلمين ، ويخافوا على تجارتهم أن تبور ، وعلى قوافلهم أن تنقطع بها الطرق ، ويعملوا من جانبهم على ازالة ما بينهم وبين المسلمين من احن وبغضاء ، ويتمكن أشرف الورى من نشر الدين ، ويعيش الجميع فى أمن وسلام . وكان أبو سفيان يتسمع الأنباء ، وما أن علم بما عقد عليه المسلمون العزم حتى أخذ طريق الساحل ، ونجا بالعير والتجارة .

وكان قد أخذ للأمر عدته ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وأرسله الى مكة ليدعو القرشيين لتخليص عيرهم وتجارتهم فأقبلوا بخيلهم ورجلهم ، وفى نحو ألف مقاتل من أبطالهم ، تحت قيادة أبى جهل ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فى نحو ثلث الألف من أصحابه ، ومعهم فرسان وسبعون من الأبل ، يتعاقبون عليها ، ولما فر أبو سفيان بالتجارة ، أرسل الى القرشيين يأمرهم بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، ونقيم به ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمور ، وتعزف علينا القيان ، ويسمع بنا المسلمون، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، وساروا

حتى نزلوا بالعدوة القصوى من بدر .

ولما علم المصطفى أن الأمر قد تغير ، وأن أبا سفيان هرب بالعير من طريق الساحل ، وأنه صار أمام أعداء جبارين ، لا بد أن يشتبك معهم فى حرب ، ويلتقى فى قتال ، استشار أصحابه فيما يفعل ، فلمس منهم الصمود دفاعا عن الحق وأهله ، وقضاء على الباطل وأعوانه ، فتهلل وجهه الشريف ، وقال لهم سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين العير أو النفير ، والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم فى بدر ، وساروا حتى نزلوا بالعدوة الدنيا منه .

وفى اليوم السابع عشر من رمضان المعظم ، دارت رحى الحرب ، ووقف النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين المجاهدين المسلمين ، يقوى عزمهم ، ويشد أزرهم ، ويبشرهم بنصر الله لهم ، ويقول ما سجلته كتب السيرة النبوية الشريفة :

« والذى نفس محمد بيده : لا يقاتل المشركين اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة » ثم أخذ حفنة من الحصى ، ورمى بها فى وجوه الكافرين ، وقال : « شاهت الوجوه ، اللهم ان يهلك المسلمون اليوم لا تعبد فى الأرض ، اللهم أنجز ما وعدت » واشتد القتال ، وثار النقع والغبار ، وأمد الله المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة المكرمين ليقاتلوا فى صفوفهم ، وليزدادوا يقينا بهم وكان يوما مشهودا نصر الله فيه المسلمين ، وهزم الكفار والمشركين ، وانجلت المعركة عن قتل أكثر من سبعين من صناديدهم ، واستشهاد ثلاثة عشر من المؤمنين ، أمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدفنهم ، وبالقاء قتلى القرشيين فى بدر ، ثم وقف عليهم يخاطبهم قائلا :

« بئست العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، وانى

وجدت ما وعدنى ربى حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فقال له فريق من أصحابه : يارسول الله أتنادى قوما جيفوا ؟ فقال لهم ــ عليه الصلاة والسلام : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون الجواب » وولى أهل مكة الأدبار ، مفعمة بالأحزان قلوبهم ، خشعا من الخزى والعار أبصارهم ، وانصرف المسلمون الى الغنائم يجمعونها ، وهم بنصر الله فرحون ، ولنعمته شاكرون .

الذكرى الثانية ، من ذكريات رمضان المعظم ، فتح مكة المكرمة ، فقد كان يوما مشهودا ذلك اليوم العظيم ، الذى أخبر فيه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين ، فامتلأت بالسرور أفئدتهم ، لأنهم سيصبحون قاب قوسين أو أدنى من بلدهم الكريم ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويسعون بين الصفا والمروة ، وينتشر الدين الحنيف هنا وهناك .

ثم أمرهم النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بالتجهز للسير صوب البلد الحرام ، فساقوا بدنا تسيل بأعناقها البطاح ، ولكنهم فجأة رأوا القصواء ناقة أشرف الورى تقف فى عرض الطريق ، وتمتنع عن السير ، ويحبسها حابس الفيل عن متابعة السير نحو البلد الأمين ، وهنا جاءت رسل القرشيين ، يأمرون الرسول وأصحابه بالرجوع فى هذا العام ، على أن يدخل مكة فى العام القابل معتمرا ، ويتركها له القرشيون ثلاثة أيام .

فأرسل سيد الأولين والآخرين اليهم عثمان بن عفان ، ليخبرهم عن مقصده ، وأنه لم يجىء محاربا ، ولكن قدم مع أصحابه معتمرين ، وللبيت معظمين ، وبه طائفين وذهب اليهم عثمان فأشيع بين المسلمين أنه قتل ، فأقسموا أنهم لا يبرحون مكانهم حتى يحاربوا القوم ، ويأخذوا بثأرهم ، وبايعوا

الرسول الكريم تحت الشجرة على ذلك ، وبعد مدة قدم عثمان حيا مع رسل قريش ، واتفق الجميع على أن يرجع الرسول وأصحابه دون عمرة فى هذه السنة ، ويعود لمكة مع أصحابه فى السنة المقبلة وكتبوا صحيفة بالصلح بينهم ، ولكن قريشا نقضت شروطها ، وخافت العاقبة فأرسلت أبا سفيان الى المدينة ، ليوثق العهد مع النبى الكريم ، حتى لا يأمر بمحاربة القرشيين فى عقر دورهم .

وقدم أبو سفيان الى بيت الرسول ، ويتحدث الى بنته أم حبيبة أم المؤمنين ، فتغلظ له فى القول ، ويلتقى بأشرف الخلائق أجمعين ، بعدها فما يلمس منه الا سخطا واعراضا ، ويرجو الشفاعة عند كبار أصحابه ، فلا يظفر لديهم برجاء ، فيعود الى مكة منذرا بالويل والهلاك .

وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أصحابه بالاستعداد ، وقال لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليشهد رمضان بالمدينة » .

والتأم جيش المسلمين فى جمع لم تشهد الصحراء مثله ، وأمرهم الرسول الأعظم بحفظ أسرارهم ، وساروا نحو البلد الحرام ، تكلؤهم عناية الله العلى العظيم . وطلع عليهم بالطريق العباس بن عبد المطلب ، عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقال يا رسول الله : لقد أسلمت من عهد ، ولكننى لم أجهر بالأيمان ، ولم أصبر على الكتمان ، وقد خرجت مهاجرا الى الله واليك بنفسى ، وهاهم أولاء زوجى وولدى . فقال له الرسول الكريم : « مرحبا بك يا عم ، لينهك الاسلام ، وليبارك الله لك فى الأيمان ، أرسل الى المدينة أهلك وولدك ، وارجع معنا الى مكة تشهد ما يكون بيننا وبين قريش » .

ورمى العباس ببصره فى جيش المسلمين ، فرأى قوما ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة الله لقريش ، ان دخل

هذا الجيش الكبير مكة عنوة ، فانه لا يبقى من قريش طفلا ولا كهلا ولا امرأة ولا رجلا ، ثم تسلل من بين الصفوف ، يلتمس انسانا يحمله رسالة للقرشيين حتى يحضر رؤساؤهم للنبى الكريم ،ليحقنوا دماءهم ، ويعاهدوه على تسليم حرمهم . ولمح تحت الظلام أبا سفيان ، فسأله : ما أتى بك ها هنا ..؟

فقال هم العشيرة ، وأفداح القبيلة ، وأرزاء الزمان ، ولأتحسس خبر ابن أخيك ، ومن معه من المسلمين فقد توقعت الشر ، من يوم أن نقضنا العهد ، وفجرنا فى اليمين.وشاهد المسلمون أبا سفيان يركب خلف العباس على بغلته ، ويشاهد جنود المسلمين كعدد الحصى والرمل ، وقدم به على امام الهدى فقال له : « ويحك يا أبا سفيان ، أما آن لك أن تعلم أن لا اله الا الله ؟ » فقال بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لو كان معه اله غيره لأغنى شيئا .

فقال له « ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » فقال بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس منها شىء . فقال العباس يا أبا سفيان : لقد وضح الصبح لذى عينين ، فان كانت على عينيك غمامة فارفعها ، وان كانت على قلبك غشاوة فمزقها ، وأسلم ابقاء على حياتك ، وحرصا على دنياك وآخرتك ، وما لبث أن قال أبو سفيان : شهدت أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وابتهج الرسول الأعظم ، وظهر البشر والسرور فى وجه العباس ، وعلمه الوضوء والصلاة ، وأحكام الاسلام ، وصرح للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بأن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا يتمشى مع هواه ، ويصير به فى ظلال الايمان أثبت قدما ، وأكثر يقينا . فقال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « نعم من دخل دار أبى سفيان بمكة فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو

آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

وهنا ينطلق أبو سفيان فى عرصات مكة ، ويقول يا معشر قريش : لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، ومن دخل دارى فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . وقد نصحتكم ، وما أردت الا حقن دمائكم ، وحفظ أرواحكم . وهنا ارتاع القوم ، وقالوا ويحك وما تغنى عنا دارك ؟ وهرعوا الى المسجد الحرام ، ودخلوا دورهم وأغلقوها عليهم .

وفى العشرين من شهر رمضان المعظم ، دخل جيش المسلمين مكة ظافرا منصورا ، وقدم اليها امام الهدى حانيا ظهره شكرا ، غاضا بصره حمدا ، ثم دخل المسجد الحرام وطاف بالبيت ، واستلم الركن وازدحم الناس فى المسجد وخارجه ليروا ما يفعل أشرف الورى . فقال « يا معشر قريش ما تظنونه أنى فاعل بكم ؟ فقالوا خيرا يا رسول الله ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال « وأنا فى هذا اليوم لا أقول لكم الا ما قال يوسف لاخوته ، لاتثريب عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء » وكان يوما عظيما ، دخل الناس فيه فى دين الله أفواجا . فسبحان من أدب نبيه فأحسن تأديبه ، وسبحان من طبعه على الخلق العظيم ، وسبحان من أرسله رحمة للعالمين .

الذكرى الثالثة ، من ذكريات رمضان المعظم ، ليلة القدر المباركة العظيمة ، التى جعلها الله تعالى خيرا من ألف شهر ، وينزل فيها ملائكته المقربين ، وأمين الوحى جبريل ، باذن ربهم من كل أمر ، وجعلها سلاما حتى مطلع الفجر . وأنزل فيها القرآن الحكيم جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ فى السماء السابعة ، الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم نزل به رئيس الملائكة جبريل ، على نبينا العظيم ، مفرقا حسب الوقائع والمناسبات ، فى ثلاث وعشرين سنة ، وجعله مولانا

المعجزة الخالدة على وجه الزمان لحبيبه ومصطفاه ، وضمنه من القواعد والأحكام ما فيه سعادة الناس فى الأولى والآخرة .

ولقد سلكت الأنسانية فى سبيل الوصول الى الحكم الصالح طرقا شتى ، وما زالت فى كفاحها عبر الدهور والعصور ، تنشد النظام بلا ريب ، هو ما نادت به النظام الذى يتحقق فيه العدل والانصاف بأروع صورهما وذلك آيات التنزيل الحكم ، وسعد به المسلمون الأولون فحكموا حكم العادلين ، وفتحوا فتوح الجبارين ، وعاشوا عيشة الزاهدين ، وعملوا أعمال الصالحين وكانوا من قبل ومن بعد سادة للناس أجمعين .

ونضرع الى الله العلى القدير ، أن يوفق المسلمين بالمشارق والمغارب ، الى التأدب بآداب كتابهم ، وتطبيق نصوصه فى عباداتهم ومعاملاتهم ، والتمسك بأحكام دينهم ، والسير فى طريق رسولهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، ويجعل التوفيق حليفهم ، وبلوغ المقصود رائدهم ، حتى يستردوا مجد آبائهم ، وعز أجدادهم ، الذى يتغنى به المؤرخون هنا وهناك ، كلما قلبوا صفحات التاريخ ، فى أيامه النضرات ، وعصوره الزاهرات (والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل) .

أحمد على منصور

« دعاء »

اللهم هب لى حقك ، وأرض عنى خلقك ، وهب لى الاصلاح فى الولد ، والأمن فى البلد والعافية فى الجسد انك سميع مجيب .

الصناعة الحربية فى ضوء الإسلام

لواء محمد جمال الدين محفوظ

من العلوم التى نوه القرآن الكريم بخطرها وأشاد بقيمة المهارة فيها ، العلوم العسكرية والصناعات الحربية وجملة الفنون التى تحتاج اليها الأمة فى الدفاع عن وجودها وحقوقها .

ولقد جعل القرآن العناية بالصناعة الحربية آية على صدق الايمان وحسن الجهاد ، قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز» (الحديد ٢٥) .

أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع وغيرها من أسلحة الحرب القوية التى تردع المعتدى وتقهره ، وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم وصناعاتهم ومختلف شئون حياتهم .

« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى انما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم .

وختم الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين (قوى عزيز) اشارة الى أن الله يحب لعباده القوة والعزة ، وان كل ما يوفر ذلك نظريا وتطبيقيا هو من وسائل التقرب اليه ومن دلائل تقواه جل شأنه .

ولقد أثنى الله على عدد من أنبيائه الكرام وعباده الصالحين فذكر تفوقهم فى علوم الصناعة وجهودهم فى تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه فقال جل شأنه يصف داود : «وألنا

له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » (سبأ ١٠) .

والانة الحديد هى المهارة فى ايجاد شتى الآلات منه والوصول بصناعاته الى حد الاتقان دون اعياء أو قصور ، وذلك لحسن الخبرة وطول الدربة .

وقد أمر الله داود بتقدير السرد أى كلفه باحكام النسج للدروع السوابغ التى ينتجها حتى تخرج فى أعلى مستوى مستطاع .

وفى موضع آخر يصف الله تعالى داود بنوعين من العبادة والعلم ، أولهما : طول الذكر والتسبيح ، والآخر : اجادة المعدات الحربية .

قال تعالى :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » (الأنبياء ٧٩ ــ ٨٠) .

وعباد الله الصالحون أثبت القرآن صلاحهم وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة وخبرة بشئونها :

فهذا ذو القرنين يقول للذين منوه بالمكافأة اذا بنى لهم سدا يحميهم من أعدائهم : « ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » (الكهف ٩٥) .

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع فيحول منطقة عمله الى مصانع يصهر فيها النحاس وتغلى المواقد ويقطع الحديد وتمهد الأرض وتسوى جوانب الجبل ويؤدى الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذى يحمى الضعاف ويصون الحق ويعلى شأن الايمان .

« آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » (الكهف ٩٦ ــ ٩٧) .

وأفتى العلماء باتفاق أن اقامة الحرف والصناعات فريضة على

المجتمع كله يأثم بتركها ، وعلى الأفراد الصالحين لهذه الفنون بمواهبهم وقدراتهم أن يجودوافيها ويخدموا أمتهم ورسالتهم بها .

وصحيح أن العرب طلعوا على العالم بالاسلام ، وكان الناس فقراء الى العلم به والدخول فيه لكن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من الناس أنواع الخبرة التى تنقصهم والتى لم تهدهم اليها مطالب الصحراء ومجامع البادية :

* ففى عصر النبوة عنى النبى صلى الله عليه وسلم بملاحقة التطور فى أسلحة القتال ، وكان حريصا على تزويد جيش المسلمين بالاسلحة المعاصرة التى لم يألفوها من قبل ، وعلى تدريبهم عليها والقتال بها ، فأرسل عليه الصلاة والسلام بعثة من اثنين من المسلمين هما عروة ابن مسعود وغيلان بن سلمة الى جرش (١) ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات (٢) وكلها من أسلحة القتال التى يألفها المسلمون من قبل .

وقد استخدم الرسول عليه السلام المنجنيق والدبابات فى حصار الطائف ، كما روى أنه نصب المنجنيق فى حصار خيبر للتهديد ولكنه لم يرم به فعلا ، فقد روى ابن خلدون « ان الرسول هم بنصب المنجنيق على خيبر ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح » .

وقد برع المسلمون بعد ذلك فى استخدام هذه الأسلحة الجديدة وطوروها وأدخلوا عليها كثيرا من التحسينات والتهذيب وكثر حصارهم بها للمدن المحصنة ذات

(١) جرش مدينة تقع شرقى جبل السودان من أرض البلقاء وحوران من أعمال دمشق ولما كانت دمشق ذلك الوقت تحت حكم البيزنطيين ، فمن الجائز أن يكون العرب هناك نقلوا هذه الأسلحة عنهم .

(٢) المنجنيق من آلات القذف الثقيلة يستخدم فى الحصار وهدم الحصون والأبراج والعرادات نوع منه مصغر ، أما الدبابات فتستخدم فى نقب الأسوار وفى معاونة المنجنيق فى عمليات تدمير الحصون واقتحامها .

الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر (١) .

* ومن أبرز الأدلة على عناية المسلمين بالصناعة الحربية بعد عصر النبوة أنهم صنعوا السفن الحربية واتقنوا قيادة الأساطيل وحرب البحار .

فمن أين لأبناء الرمال صناعة السفن البحرية ؟ .. لقد رأوا ـ دون انتظار لنص موجه ـ أن كتابهم لا يعلو فى عالم يجهلون فيه شئونه البحرية ، فعبدوا الله بالسيطرة على الأمواج . يقول ابن خلدون : ـ كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم ، صارت أمم العجم تحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته . فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرا من هؤلاء ، وأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا .

ومن أعظم الأمجاد التى يسجلها التاريخ الحربى للعسكرية الاسلامية أن الأساطيل الاسلامية استطاعت أن تقهر أعظم الأساطيل البحرية فى زمانها (أسطول بيزنطة) وأن تزيل عن البحر الأبيض المتوسط تلك الصفة التى لصقت به طويلا وهى « بحر الروم » ، حتى أصبح حريا به أن يدعى « بحر المسلمين »

ويقول ابن خلدون : ان المسلمين تغلبوا على لجة « بحر الروم » وان أساطيلهم سارت فيه خائفة وذاهبة من صقلية الى تونس ،

(١) ادهش المسلمون الفرس والروم بما أدخلوه على الأسلحة من تحسين وتطوير حتى اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى « ليو » ـ مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين ـ فقد نقل عنه فون كريمر فى كتابه « الشرق تحت حكم الخلفاء » أنه قال : « ان الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح » .

والرومان والصقالية والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت (١) عليهم كضراء الأسد على فريسته .

وأسلحة القتال فى كل عصر فيها الخفيف والثقيل ، فمن الأسلحة الخفيفة قديما السيف والرمح والسهم ، ومن الثقيلة المنجنيق ، أما فى عصرنا فمن الاسلحة الخفيفة البندقية والرشاشات ومن الثقيلة الدبابات والمدافع والطائرات والسفن الحربية .

والواقع أن القدرة الحقيقية للأمة على الصناعات الحربية لا تقاس بقدرتها على انتاج الاسلحة الخفيفة ، وانما تقاس بقدرتها على صناعة الأسلحة الثقيلة ، وهذه القدرة ــ لو تأملنا أحوال الامم ــ فى عالمنا المعاصر ــ لا تتوفر الا لدى عدد محدود من الدول ، حتى لقد أصبح السعى لبلوغ تلك القدرة مجالا لصراعات دولية عنيفة ، وسببا من أسباب اندلاع الحروب والمنازعات .

والمعروف لدى رجال الاقتصاد والصناعة أن صناعة « الأسلحة الثقيلة » لا تتوفر الا اذا كان لدى الدولة القدرة على « الصناعة الثقيلة » وهذه الصناعة الثقيلة هى الأخرى لا تقوم الا على أساس صناعة فى غاية الأهمية هى « صناعة الحديد والصلب » فماذا نستخلص من ذلك ؟

ان على الامة الاسلامية لكى يكون لديها صناعة حربية حقيقية ، أن تعمل بالتوجيه القرآنى حول الحديد نحو ما يلى :

أولا : اقامة البنيان الاقتصادى أصلا على « الصناعة » أساسا ، لأن الزراعة ــ كما هو معروف لدى رجال الاقتصاد ــ لا تستطيع وحدها تحقيق التنمية أو بناء قوة الأمة أو تقدمها .

ثانيا : اقامة « الصناعة الثقيلة » أى لا تكتفى بالصناعات «الخفيفة»

(١) ضرى (بفتح الضاد وكسر الراء) عليه : أى لزمه ، و ولع به .

بل لا بد من أن تتجه الأمة الى « الصناعة الثقيلة » أو «التصنيع الثقيل » • لأنه بدونها لا يمكن صناعة الأسلحة الثقيلة كما قدمنا•

ثالثا : اقامة « صناعة الحديد والصلب » باعتبارها تشكل الأساس لقيام الصناعة الثقيلة •

ذلك هو المدخل الصحيح لبناء القوة الحقيقية ونستطيع أن نستوحى معالم هذه القوة من الآية الكريمة حول الحديد :

١ ــ فهو أساس القوة الحربية فى مجال الحرب « فيه بأس شديد » •

٢ ــ وهو أساس التنمية الاقتصادية وتقدم الأمة عامة « ومنافع للناس »•

وطريق الأمة الاسلامية نحو تحقيق هذه الغاية ليس مفروشا بالورود ، لكنه طريق صعب فى عصر التكتلات والصراعات الذى نعيش فيه كما قدمنا ، ولا سبيل ــ فى رأينا ــ لتخطى هذه الصعاب الا باتباع ما يلى :

أولا : التكامل الاقتصادى ••

فلا مناص من أن يقوم النظام الاقتصادى للأمة الاسلامية على أساس التكامل ، فهو مطلب حيوى لبناء القوة المنشودة ، وهو السبيل العملى لتحقيق مستوى من الاكتفاء الذاتى الذى لا يجعل الأمة فى مهب التقلبات السياسية والمصالح الاستراتيجية الدولية أو تحت رحمة الاحتكارات الدولية •

ثانيا : العناية الفائقة بالبحث والتطوير ••

فكما أن اعتماد الأمة على مواردها وحشدها وحسن استغلالها فى اطار التكامل يحقق قدرا من الاكتفاء الذاتى ، فان عناية الامة بالبحث العلمى والتطوير تشحذ همة علمائها وخبرائها ، وتستخرج من قرائحهم من الاختراعات والمبتكرات مايدعم قوة الأمة ويدفع تقدمها •

فقل رب وفق للعظائم أمتى
وزين لها الأفعال والعزمات(١)

لواء محمد جمال الدين محفوظ

(١) من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى

الصيام في القرآن

الاستاذ عبد الحميد الفضالي

انها كلمة تدور حول الصيام ، كعبادة لها وزنها وخطرها بين سائر العبادات .. وفيها اشارة خفيفة لبعض آثار العبادات فى سلوك المكلفين بأدائها ، فى حياتهم ، وعاقبة أمرهم ، بعد مماتهم .. كما أن بها القاء بعض الأضواء على أن القيام بالواجبات ، فى أداء العبادات ، واجتناب المنهيات ، وطاعة الله ـ انما هو لمصلحة الخلق ، لا لمصلحة الخالق ... سبحانه ..

وقد يكون فى هذا الذى ذكرت .. وفى غيره مما سأذكره ـ استحضار لقلوب بعض القارئين لموضوع « الصيام فى القرآن » ـ قبل أن أتحدث لهم عما جاء فى آيات الكتاب الكريم ، عن الصيام بخاصة .. وعن بعض ما ترشد اليه هذه الآيات وتدل عليه ، مما قد تشتد حاجة القارىء اليه ، وتزيد به فائدته ، أو افادته ـ فى ايجاز يحتمله المقام ، بقدر المستطاع ، وبمشيئة الله .

ان الصيام عبادة شرعها الله للمؤمنين من أمة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما شرعها الله للمؤمنين من قبلهم .. وقد نصت على ذلك آية فى كتاب الله .

وكان الصيام فى الاسلام ركنا من أركانه الخمسة التى يقوم عليها بناؤه ، ويتم رواؤه ، وتتلألأ أضواؤه ، فتستنير بها ظلمات الحياة ، وتتضح معالم الطريق الى الله ، الحق الذى جاء من عند الله .. فيهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات

الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم •• صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض• ألا الى الله تصير الامور •

هذه الأركان التى قام عليها بناء الاسلام ، هى ما نص عليه الحديث الشريف :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله •• واقام الصلاة •• وايتاء الزكاة •• وصوم رمضان•• وحج البيت من استطاع اليه سبيلا •• » • وانه لبناء شامخ لا يطاوله بناء ، فى كماله وتمامه ، وفى نقائه وصفائه ، وفى رسوخه وبقائه •• حتى يرث الله الارض ومن عليها ••

وحسبك أنك ترى فيه التوحيد الخالص الذى لا يخالطه شرك • والعبادات الشاملة الصادقة التى لا يعتريها قصور ، ولا يشوبها كذب •• والمعاملة الأمينة الكريمة التى لا يدنسها لؤم ، ولا يشوه جمالها غرض ، أو يقبح صورتها نفاق •

وانه لكنز ثمين وتراث عظيم ، حرص عليه المسلمون الأوائل ، وفهموه حق الفهم ، وطبقوه خير تطبيق ، على ضوء ما بينه وجلاه — كتاب الله ، وهدى رسول الله ، فكتب الله لهم السيادة والعزة والخير العميم فى جنبات الحياة •• وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله •

والصيام يقصد به ، كما يقصد بسائر العبادات — تربية المسلم ، وتهذيب نفسه ، واصلاح شأنه ، واصحاح بدنه ، واضاءة شأنه ، وتطهير لسانه ، وترقيق مشاعره ، والارتفاع بها عن الدنايا ، والارتقاء بها الى السمو ومكارم الأخلاق •• فيبذل المسلم — عن طيب خاطر — من خير الله ، على من حوله من عباد الله ، ويكف أذاه عمن سواه ، وعما سواه •• من كل ما يحيط به، من الناس ، والدواب ، والأنعام ، والطير ، والشجر والزروع••وفى كل ما ينبغى صيانته ورعايته••وفى

كل أمانة توكل اليه ، أو عمل يسند اليه .. فيكون أداؤه له متقنا ، لا خلل فيه ولا نقص ، بقدر ما يتسع له الجهد .. فان الله يحب اذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه .. كما ورد فى حديث شريف لرسول الله..

وبهذا لا تجد فى المجتمع الاسلامى الصادق ـ قويا تطغيه قوته .. أو غنيا يفسده غناه .. أو محتاجا يريق ماء وجهه بالسؤال ، أو يمد الى الناس يده ، أو فقيرا يحقد على من حوله من الأغنياء ..

فالجميع فى مجتمع الاسلام الصحيح ـ أسرة واحدة ، متعاونة ، متكافلة .. مجتمع يؤمن بالله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب ، وبالجنة والنار ـ ايمانا لا يزعزعه شك ، فلا تغره حياة الدنيا ، ولا يظلم الناس شيئا ، ولا ينسى الموت أبدا ، فقد يجيئه بغتة ، وهو على أتم ما يكون صحة وشبابا ، فلا يصده عنه مال وثراء ، أو جاه وسلطان ، فكل ذلك عارية مستردة ، لا دوام لها ولا أمان .. ولذا يقول الله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» .فنحن مستخلفون فى هذه الأموال ، فهى فى أيدينا اليوم ، وغدا فى يد غيرنا..وليس للانسان من ماله الا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى . كما يقول سيدنا رسول الله .. فالحياة فى الدنيا أيام معدودة ، وساعات محدودة ، عند انقضائها تلف أعمال الانسان ويطوى سجله ، ويحال بينه وبين هذه الدار ، ويؤخذ به الى دار القرار.. فاما دار انس وبهجة ، واما دار شقاء ووحشة .. انه قد وضع فى صحراء مقفرة لا أنيس بها ولا جليس ، بل يتركه الناس وحده ، حتى أقرب الناس اليه ، وأحبهم لديه . يتركونه وقد أظلم عليه الليل ودنت منه الوحوش ، واختلط بلحمه الديدان ..

فمن يا ترى ينجيه من بأس الله ، ويؤنسه فى دار غربته ، ويخفف من كربته ؟!

اللهم لا شىء الا عمل صالح قدمه فى دنياه ، فهو أنيسه فى قبره وأخراه ..

ولذا يقول الله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ويخوفنا رسول الله عاقبة أمرنا فى دنيانا وآخرتنا ، فيقول : « البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان » .. ويقول الشاعر العربى الزاهد :

صاح شمر ولا تزل ذاكر المو
ت فنسيانه ضلال مبين ! !

ليس لله فى عبادته مصلحة :

وأحب أن يكون مفهوما ان الله سبحانه وتعالى — ليست له مصلحة فى حمل الناس على الصيام ، ولا على غيره من سائر العبادات والتشريعات التى شرعها لخلقه .. لأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من اطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه . وانما الخير كله يعود على عباده الذين خلقهم ، وهو أعلم بهم ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، فهو سبحانه ، فى أوامره ونواهيه ، وتشريعاته للناس ، وتكليفهم بعبادته على ضوئها ، ودعوتهم الى الالتزام بها ، فى أعمالهم ومعاملاتهم وسلوكهم — انما يضع لهم صمامات أمن لهم ، تقيهم ما يضرهم ولا ينفعهم ، وتجعلهم صالحين لخلافته فى الأرض ، يقيمون الحق والعدل ، وينشرون الخير ، ويحاربون الشر فى نفوسهم ، ومجتمعاتهم ، فى كل زمان ومكان ، ما وسعهم ذلك . حتى يرث الله الأرض ومن عليها ..

ان الخير كله فى طاعة الله فيما ارتضاه .. والشر كله فى عصيانه فيما شرع صياما ، أو غير صيام .. وان ذلك الخير وذلك الشر — من المؤكد أنه يصيبنا فى عاجلنا وآجلنا ، فى حياتنا وبعد مماتنا . أليس الله سبحانه وتعالى يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون» . ويقول: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » .

ولن يخلف الله وعده . قال

تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ،وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا .. » . فالعمل الصالح ينفعنا فى حياتنا ، وينفعنا بعد موتنا .. بل ينفع ذريتنا من بعدنا .. قال تعالى : «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » .

ولذا ، فان الله سبحانه وهو العليم الخبير ـ حرصا علينا ، ورأفة بنا ـ يرغبنا دائما فى طاعته، وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتزام شريعته ، فى كل آية يكون فيها أمر ، أو نهى ، أو تشريع ، أو استجابة لما تدعو اليه . لأن ذلك يحقق لنا الخير والسعادة ، والفلاح، والتقوى التى هى القوة والعصمة والأمن والوقاية من كل سوء ..

ولذلك نجد فى ختام تلك الآيات ـ الروائع من هذه العبارات :

« لعلكم تتقون » .

« لعلهم يتقون » .

« لعلكم تشكرون » .

« لعلكم تفلحون » .

« وذلك هو الفوز العظيم » .

« ان الله كان عليما حكيما » .

« والله عليم حليم » .

« والله بكل شىء عليم » .

« ان الله كان بكم رحيما » .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

« لعلكم ترحمون » .

« وما ربك بظلام للعبيد » .

« فأولئك هم الفائزون » .

« ان الله عنده أجر عظيم » .

.. الخ .

كما يبين سبحانه وتعالى أنه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .. فيخوفنا عاقبة

ظلمنا لأنفسنا ، بمخالفتنا لشرعه ، وعصياننا لأمره ونهيه ، وسيرنا وفق أهوائنا ، واستعباد شهواتنا لنا . ولذلك نراه سبحانه ينذر العاصين بقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ».

ويقول فى ختام آيات المخالفة والعصيان :

« نصله جهنم وساءت مصيرا».

« وله عذاب مقيم » .

« وله عذاب أليم » .

« انه لا يفلح الظالمون » .

« أولئك هم الخاسرون » .

« انه لا يحب المعتدين » .

« فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

« ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » .

« واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

الصيام أبعد العبادات عن نفاق الخلق :

ان الصوم هو العبادة الوحيدة التى لا يمكن أن يتقرب بها عبد لعبد .. وانما يتقرب بها الى الله وحده لا شريك له .. فهى عبادة خالصة له من دون الناس .. عبادة لا ترضى مطامع الطامعين من البشر ، ولا تشبع شهوات ذوى الشهوات الدنيا من بنى الانسان.

أما غير الصيام من العبادات.. فقد تستخدم فى غير ما خلقت له. فى مجالات النفاق .. وفى تحقيق مآرب دنيوية .. لا تجلب نفعا ، ولا تطيل عمرا ، ولا تنجى من عذاب الله.. « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » . . « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

فالزكاة مثلا ، وهى شرعا اخراج المال لله وفى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ــ قد يخرجها انسان ، اكتسابا لشهرة ، أو طلبا لحماية ، أو حصولا على مغنم ، أو وصولا

الى منصب .. أو ابتغاء لثنـــاء الناس عليه .. وفى كل ذلك لا ثواب له فيها ، وانما يلقى بها فى النار ، لأنه قصد بها وجه الشيطان، ولم يقصد بها وجه الله .

ومن ذلك الضـــلال المبين ــ ما يخرجه أصحاب الأموال مـــن أموالهـــم ، تقـــربا لعظيم .. أو اعلانا لولائه لرئيس أو مـــلك ــ انتظارا لوسام يحصل عليه ، أو وزارة تسند اليه .

ولكننا لم نر أحدا من النـــاس يصوم لأحد من الناس .

وذلك بعض مفهوم قول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به » .

والصلاة ، وهى الصلة بين العباد وربهم ــ المفروض لقبـــولها أن تكون خالصة لله وحده ، خشـــوعا وخضوعا ، واحناء جباه ، وركوعا وسجودا ، ودعاء وتسبيحـــا ، وتكبيرا واستغفارا ، واستغـــراقا مع الله ، لا يشغل المصلى ســـواه ، ولا يبعده عن الحق هواه .

ولكننا نرى بين النـــاس الذين يحنون جباههـــم وهاماتهـــم فى الصلاة ــ من يحنى هامته لغير الله، من عباد الله الذين لا يملكون لـــه نفعا ولاضرا ، ولاموتا ولا حياة ــ نفاقا لهم أو خوفا منهم ، أو طمعـــا فى دنيا يصيبها من ورائهـــم .. وكثيرا ما نراه يركع لهم ، ويسجد فى لقائهم واستقبالهم .. ويلقى على مسامعهم من الكلمات ما لا ينبغى أن يقال الا لله .. كأن يقـــول لأحدهم : أنا عبـــدك .. أو أنت القاهـــر لغيـــرك .. أو أنت المعز المذل .. أو القادر على كل شىء فأنت الذى أغنيتنى بعد فقـــر ، وشفيتنى بعد مـــرض ، وأحييتنى بعد موت .. مع أن الذى يملك ذلك كله ، وفوق ذلك كله ــ هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وكذلك الأمر فى عبادة الحج : فكثيرا ما يكون الهدف منه ، أو الدافع اليه ــ المباهاة والافتخار.. أو المناداة بلقب (الحاج) .. أو

استغلال هذا اللقب فى أن يكتب قبل كتابة اسمه ، فى بطاقته وعلى لافتته فيخدع الناس بحجه•• وما أكثر ضحاياه من المتعاملين معه • فهل يتقبل الله حج هؤلاء وأمثالهم ؟ ! !

❋❋❋

الصيام نشاط وعمل وتوبة ومجاهدة :

ان الصيام ليس نوما وكسلا ، ولا راحة واسترخاء ، وليس اجازة يستريح فيها الصائمون ــ (سواء أكان الصيام فريضة ، أم واجبا فى أداء كفارة ، أو تطوعا ونافلة ••)ــ وانما هو عبادةورياضة ، ومجاهدة، وعمل وانتاج ، وتدريب سليم محكم ، للامتناع (عما أحل الله) ، من الطعام والشراب والنساء ، ليكون بعد فترة ، تطولأو تقصر ، مؤهلا للامتناع (عما حرم الله) طوال العام ــ من باب أولى •• فتقوى به ارادة المؤمن ، ويتحرر من عبوديته لأهوائه ونزعاته ، وللشيطان الرجيم ــ وقانا الله شره ، وشر نفوسنا • اللهم آمين •

ان المؤمن الذى يروض نفسه على الابتعاد عما أحل الله أثناء صومه ، وتحقق له النجاح فى رياضتها وفطامها ــ انما يرتقى بها الى أعلى درجات الامتثال لأمر الله واجتناب ما حرم الله •• فيعيش فى أمن وأمان ، ما دام على قيد الحياة •

وان الذين يسهرون ليلهم فى عبث ولهو ، ثم ينامون نهارهم ، وهم قادرون على العملوالانتاج ــ لا ثواب لهم منصيامهم •• فالرسول وهو الاسوة الحسنة ، وكذلك الراشدون من صحابته •• كانوا رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار •• فقد غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ غزوة بدر الكبرى فى رمضان •• وفتح مكة كذلك فى شهر رمضان• وانتصارنا فى (حطين) كان فى رمضان •• وانتصارنا على اسرائيل كان فى رمضان •

هذا ...

وان كلمة الصيام يراد بها فى اللغة مطلق الامساك .

فالممسك عن الطعام صائم ، وعن الماء صائم ، وعن الكلام صائم ، وعن الكتابة صائم ، وعن القراءة صائم ،وعن النكاح صائم ..

وجاء فى القرآن الكريم : « انى نذرت للرحمن صوما » .

قال ابن عباس : أى صمتا .. فالصمت صيام ، لأنه امساك عن الكلام ..

ومن طريف ماقرأت أن (رمضان) اسم من أسماء الله تعالى ذكره.. ومن هنا لا يجوز أن يقال رمضان مجردة ، اذا اريد بها الدلالة على الشهر ، وانما يقال : شهر رمضان، أى شهر الله ..

جاء ذلك فى كتاب : « مروج الذهب للمسعودى » .

ولست أدرى من أين جاء بهذا الكلام ؟!

أما الصيام شرعا .. فهو امساك مخصوص ، كما جاء فى كتب اللغة .

وأوضح ذلك الفقهاء فقالوا : انه امساك عن الطعام والشراب والرغبات الجنسية .. من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

ثم أعود ...

ثم أعود الى عنوان المقال : « الصيام فى القرآن) فأقول :

ان الصيام ورد ذكره فى القرآن الكريم فى ستسور فقط من سوره البالغ عددها (مائة وأربع عشرة سورة) .

وهذه السور الست هى : سورة البقرة ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة مريم ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة .

أما الآيات التى ورد فيها لفظ الصيام أو ما اشتق منه .. فعددها احدى عشرة آية فقط ، من آيات القرآن الكريم ..وعددها (ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية ».

وهذه الآيات الاحدى عشرة موزعة كالآتى :

خمس آيات فى سورة البقرة • وأرقامها : (١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ثم ١٨٧ ، ١٩٦) •

وآية واحدة فى سورة النساء هى الآية (رقم ٩٢) •

وآيتان فى سورة المائدة ، هما الآيتان : (رقم ٧٩ ، ٩٥) •

وآية واحدة فى سورة مريم ، هى الآية : (رقم ٢٦) •

وآية واحدة فى سورة الأحزاب ، هى الآية : (رقم ٣٥) •

وآية واحدة فى سورة المجادلة ، هى الآية : (رقم ٤) •

وأرى من الخير تدوين هذه الآيات ، بنصوصها ، كما وردت فى كتاب الله — تيسيرا على القارىء ، فى متابعة المعانى وتفهمها ، وتحقيقا للفائدة المرجوة ، بقدر المستطاع ، فى سهولة ويسر •

أما من ناحيتى فسأحاول بتوفيق الله — تفهم الآيات بوجه عام ، وفقه ما تدل عليه وترشد اليه •• وعرض ما تشتد الحاجة اليه ، ويسهل تقبله ، رجاء الاهتداء به ، والافادة منه • وعملا بالحكمة القائلة : « ما لا يدرك جله لا يترك كله » •

وأرجو أن يرزقنا الله جميعا اخلاص النية ، وسلامة الطوية •• واخلاص العمل ، فيما نأتى وندع وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم •• انه نعم المولى ونعم النصير •

نصوص الآيات :

أولا :

قال تعالى فى سورة البقرة :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » •

« أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ان

كنتم تعلمون • شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » •

(وهى الآيات : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥) من سورة البقرة •

ثم يقول سبحانه :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » •

(الآية ١٨٧ » من البقرة •

ويقول سبحانه :

« وأتموا الحج والعمرة لله ، فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ، ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله شديد العقاب » •

(الآية ١٩٦) من البقرة •

ثانيا :

أما آية سورة النساء ، فقوله تعالى :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ،

فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

(الآية ٩٢) من سورة النساء .

ثالثا :

وأما آيتا سورة المائدة فهما كما يلى :

قال تعالى :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ، ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الايمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » .

(الآية ٨٩) من سورة المائدة.

ويقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مسكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » .

(الآية ٩٥) من المائدة .

رابعا :

وأما آية سورة مريم ، فهى قوله تعالى مخاطبا مريم عليها السلام :

« فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » .

(الآية ٢٦) من سورة مريم .

خامسا :

وأما آية سورة الأحزاب ، فقوله تعالى :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات،

والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

(الآية ٣٥) من سورة الأحزاب.

سادسا :

وأما آية سورة المجادلة ، فهى قوله تعالى :

« فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » .

(الآية ٤) من سورة المجادلة .

العون من الله :

واستعين بالله ، فاقتطف من ثمرات هذه الآيات .. ومن أزهارها ذات الأريج العبق الفياح. ما أنا شاعر بشدة الحاجة اليه ، غذاء شافيا ، ودواء ناجعا ، لكثير من أمراضنا وعللنا .. وبخاصة ما توحى به الآيات فى مجالات الصيام .. وما يتصل بها .. ووضعها بالنسبة لما حولها .. وكل ما أرى فيه اتماما للفائدة ، بمشيئة الله .

صيام الفريضة :

تكلمت فى الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة — وفق تدوينها السابق . وسألتزم فى الكلام عنه بما جاء فى النص القرآنى — احتراما لعنوان المقال .. الا فيما يتعلق بتوضيح بعض الحقائق .. أو تصحيح بعض المفاهيم .. كما أشرت الى ذلك من قبل ..

والمراد بصيام الفريضة — صيام شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .. وهو ركن من أركان الاسلام التى قام عليها بناؤه .. كما نص على ذلك حديث « بنى الاسلام على خمس .. » .

وقد أوضحت الآيات هـذه الفرضية ، فى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام » أى فرض .

وحددت مدته وزمنه ، فى قوله : « أياما معدودات » وقوله : « شهر رمضان ... » الى قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .. فالمفروض صيام أيام شهر رمضان .

والمراد بشهود الشهر ، أن يكون المكلف مقيما غير مسافر فى الشهر .

أما المسافر ، فقد رخص له بالأفطار ، اذا شاء ، وعليه القضاء .

كذلك المريض الذى يرجى برؤه ، يفطر وعليه القضاء .. بدليل قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام أخر .. » .

أما الذى يطيق الصيام ، أى يتحمله بمشقة ، فله أن يفطر ، ويقدم فدية ، اطعام مسكين عن كل يوم يفطره .. وله أن يصوم ، وصيامه خير له من الافطار .. بدليل قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية » .. الى قوله : « وأن تصوموا خير لكم » .

أما زمن الصيام ووقته ، فهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس . جاء ذلك فى قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل » .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود ، بياض النهار وسواد الليل ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم — لعدى بن حاتم .. وقد عمد الى عقالين أبيض وأسود ، وجعلهما تحت وسادته ، وكان يقوم من الليل فينظر اليهما ، فلا يتبين له الأبيض من الأسود .. فلما أصبح ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان منه ... فضحك صلى الله عليه وسلم وقال له : « انك لعريض القفا ، انما ذلك بياض النهار وسواد الليل » .

(وعريض القفا ، كناية عن بلاهة الرجل وقلة فطنته » .

فكلمة « من الفجر » تشعر بأن المراد بياض النهار وسواد الليل ، لأنهما بيان للخيط الأبيض .. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثانى .. لكن طاقة عدى بن حاتم من الفهم لم تكن تحتمل هذا الادراك .. « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها» .

ان الخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود.. والخيط الأسود ما يمتد من غبش الليل .. شبها بخيطين أبيض واسود .

ثم آية : «أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » : أباحت مباشرة الرجال لنسائهم . فى ليالى رمضان .. وكانت المباشرة من قبل الاباحة مستقبحة حدوثها من الصائمين .

ومع اباحتها عبر القرآن عنها (بالرفث) وهو الفحش للاشعار بأنها عمل حيوانى لا يستأهل أن يقصده الصائمون لذاته .. يؤكد هذا الفهم قوله تعالى : « وابتغوا ما كتب الله لكم » ، أى لا تجعلوا المباشرة لقضاء الشهوة وحدها هدفكم ، ولكن لابتغاء ما وضع له النكاح من التناسل .. فذلك هو الأليق بالمؤمنين ، فى رمضان وفى غير رمضان .

وقد ذكرت الآيات المفطرات الحسية التى يبطل بها الصيام فى نهار رمضان ، وهى الأكل والشرب، ومباشرة النساء.. فقد أباحتها لنا فى الليل ، وحرمتها علينا فى النهار (من طلوع الفجر ، الى غروب الشمس) .. الا من أكل أو شرب ناسيا ، فانه لا يبطل صيامه .. لأنه رزق ساقه الله اليه ، كما أخبرنا بذلك سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فهل هذه المفطرات الحسية هى وحدها التى يفسد بها الصيام ويبطل ؟ ! ان للصوم مفطرات معنوية يغفل عنها كثير من الناس. ومن ذلك ما جاء فى قول الرسول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» اذن منها قول الزور، والعمل به .. وتأكد هذا المعنى فى

قوله الشريف : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش» .

ان هناك من المعاصى ما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التلبس به مع الصيام ، وبالغ فى شأنه . حتى عده من المفطرات ، تهويلا لشأنه ، واشارة الى أنه لا يناسب حال الصائم الذى يرجو رحمة ربه ، ويخشى غضبه وانتقامه . وقد بينها رسول الرحمة والرأفة فى حديثه الشريف حتى لا نقربها ، وأملا فى أن يتقبل الله منا صيامنا ، فلا ينقص أجرنا منه .. أو ابقاء على صيامنا سليما مبرأ مما يسخط الرب فهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين .. وهو طيب لا يقبل الا طيبا .. وانما يتقبل الله من المتقين .

ولذا فان رسول الله يقول : « خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس ، والنظرة الفاجرة أو الآثمة » ..

ولعل من الخير الوقوف حيالها بعض الوقت :

ان الكذب يفطر الصائم ، لأنه خلق وضيع خسيس لا يليق بانسان ، ولأنه يتعارض مع حقائق الايمان . فقد سئل رسول الله : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : قد يكون .. وسئل : أيكون جبانا ؟ قال : قد يكون .. ولكن لما سئل صلى الله عليه وسلم : أيكون كذابا ؟ قال : لا .. ولما سئل : أيكون خائنا أو غدارا ؟ قال : لا ... ذلك ان الاسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة تتطلب الصدق .. والشريعة تتطلب أمانة التنفيذ .

فالكذب يفسد من غير شك صيام الصائمين .. وبخاصة أولئك الذين لا ينبعث صيامهم عن ايمان به ، أو رغبة صادقة فيه .. اذ لو صادقين فى صيامهم ما كذبوا أو لو كانوا مؤمنين حقا ما كذبوا ..

ولذا يقول الرسول فى حديث شريف : « واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار .. وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والغيبة : وهى ذكر أخاك بما يكره فى غيبته بما هو فيه ـ تفطر الصائم .. فما بالك لو ذكر أخاه المسلم بما يكره بغير ما هو فيه.. انه من باب أولى يفطر الصائم ، لأنه أضاف الى اغتيابه بهتانا .. والبهتان أشنع ألوان الكذب .. فهو كذب يحمل فى طياته ارادة الفضيحة للمكذوب عليه .. فيكون من يتظاهر بالصيام ـ قد جمع بين ظاهرتين قبيحتين ، تبطل كل واحدة منهما صيام الصائم (كذب ، وغيبة) فما بالك باجتماعهما فى انسان يتظاهر بالصيام ، وهو كذاب ومغتاب ..

ان بطلان صيامه من باب أولى. ان الرسول قد سئل فى الغيبة عمن يذكر أخاه بما ليس فيه .. فكان جوابه صلى الله عليه وسلم : ان ذكرته بغير ما فيه فقد بهته ، أى كذبت عليه وفضحته بما ليس فيه. وليس هذا من خلق الاسلام والمسلمين .. فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ..

وشهادة الزور : تفطر الصائم، أو تضيع ثواب الصيام .. فهى تقلب الحق باطلا ، والباطل حقا.. وتختل بها موازين الحق والعدل.

ان شاهد الزور مصيبته كبرى ، فقد بلغت به القحة والخسة والسفاهة ـ أنه يكذب على نفسه ، فيغشها ويتبع هواها ، ولا يبالى بما يحملها من آثام.. ويكذب على القاضى ويضلله ليحكم بغير الحق .. ويكذب على المشهود عليه فيظلمه ويضيع حقه .. فهل مثل هذا يقبل الله صيامه ؟ !

ان رسول الله حين سئل عن أكبر الكبائر قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، وأخذ يقول : وشهادة الزور .. ألا وقول الزور.. وأخذ يرددها حتى قالت الصحابة : ليتنا ما سألناه .. شفقة به صلى الله عليه وسلم .

واليمين الغموس : تضيع ثواب الصيام .. أو هى من مفطرات الصائم .. وسميت غموسا ، لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم .. كالذى يقسم بالله على شىء هو

يعلم أنه كاذب •• انه يحلف بالله وهو متعمد الكذب ••كأنه لايبالى بربه ، ولا يخاف بأسه ، ولا يخشى عذابه •• هذه اليمين يضج لها عرش الرحمن جل جلاله •• من هولها •• ومن جرأة الذين لا يخشون الله فيحلفون باسمه كذبا ••

يقولون ان الحسين رضى الله عنه كان له درع عند رجل•• أو سيف •• فلما راح يطلبه منه أنكره •• فتقاضيا •• وطلب الحسين من الرجل أن يحلف اليمين •• فأراد الرجل أن يثنى على الله أثناءالحلف فمنعه الحسين •• وطلب منه أن يقسم القسم المجرد •• فما كاد الرجل يحلف بالله وهو كاذب ، حتى خر ميتا •• فسأله القاضى عن السر فى هذا ••

فقال له الحسين : خفت أن يثنى على الله فيرحمه •• وأردت أن يقسم القسم المجرد وهو كاذب لينتقم الله منه •• وقد كان •• انتقم الله منه وسقط ميتا •• لكنها كرامة الحسين •• وأين نحن من هذه الكرامة ••

ان اليمين الغموس لا غرابة فى أنها تفطر الصائم ••

والنظرة الفاجرة أو الآثمة :

انها تفطر الصائم •• أو تضيع ثواب الصوم •

وهى التى أشار الى مثلها الخليفة عمر ، أو عثمان •• حين دخل عليه جماعة ، وفيهم من نظر الى امرأة بشهوة فى الطريق •• فقال : يدخل على أحدكم وأثر الزنى باد فى عينيه ••

فقيل له : أوحى بعد رسول الله ؟ ! فقال : لا فراسة المؤمن الذى يرى بنور الله • •

اذن هى النظرة الزانية •• يقول الرسول : « وزنى العين النظر » •

ويقول الرسول كرم الله وجهه : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فالأولى لك والثانية عليك » •••

ويقول الله فى الحديث القدسى :

القلوب ، يعظ النفوس ، ويجلو العقول ، وربنا من قبل ومن بعد ، أبدلته ايمانا يجد حلاوته فى قلبه » .

فهل نحن نعى هذه الامور المعنوية ، ونعنى بها عنايتنا بالمفطرات الحسية ..

ألا ما أكثر المفطرين فى نهار رمضان .. وهم لا يشعرون .

ثم ماذا ؟

ثم يختم الله هذه الآيات بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» ..ألا ما أشد علاقة الصوم بالتقوى للصائمين حقا .. فهو جنة ووقاية .. وهو امتثال صادق لأمر الله بالامتناع عما ألفته النفس من حياة .. فتقوى ارادتها فى مرضاة الله .. وتعيش بالحق وللحق قوة لا تقهر ، وعزة لا تذل وهداية لن تضل ، وحياة باقية لا تبلى ولا تفنى .. وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون .

صيام الفدية ، أو كفارة التحلل من الاحرام :

أما الآية الباقية من آيات سورة البقرة الوارد فيها الصيام ، فهى الآية المبدوءة بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله .. الخ » .

فالصيام الوارد فيها جاء مرتين : مرة أولى ، فى قوله تعالى : « فمن كان مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » .

ومرة ثانية ، فى قوله : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة » .

فالصيام فى المرة الاولى — هو صيام ثلاثة أيام ، كفدية يقدمها المحرم الذى تحلل من احرامه ، بحلق شعر رأسه ، بسبب المرض أو الأذى الذى أصابه ، من قمل أو جراحة .

وهو صيام على التخيير ، وليس لازما .. فمن حقه أن يفدى

بصدقة يتصدق بها على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر .. أو يفدى بنسك وهو شاة .

وذلك الفداء خاص بمن تحلل من احرامه ، وكان محصرا ، أى منعه أمر من خوف ، أو مرض ، أو عجز .

وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لعلك أذاك هوامك ؟ قال : نعم يا رسول الله ـ قال : « احلق رأسك ، وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو أنسك شاة » .. وكان كعب يقول : فى نزلت هذه الآية .

أما الصيام فى المرة الثانية ، وهو صيام عشرة أيام (ثلاثة فى فى الحج ، وسبعة اذا رجع) ، فهو فدية ، أو كفارة ، لمن كان آمنا الاحصار .. أى كان فى حالة أمن وسعة ، ولكنه رغب فى أن يستمتع بالعمرة الى الحج .. أى استمتاعه بالعمرة الى وقت الحج .. وهو انتفاعه بالتقرب بها الى الله تعالى قبل الانتفاع بتقربه بالحج .

وقيل ان المعنى انه اذا حل من عمرته انتفع باستباحة ماكان محرما عليه الى أن يحرم بالحج ـ فعليه هدى المتعة ، وهو نسك عند أبى حنيفة ، ويأكل منه .. وعند الشافعى يجرى مجرى الجنايات ولا يأكل منه ..

أما ذبح الهدى ، فوقته يوم النحر .. ويجوز ذبحه اذا أحرم بحجه ..

فمن لم يجد الهدى ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج ، أى فى وقته وأيامه ، ما بين الاحرامين : احرام العمرة ، واحرام الحج .. وهو مذهب أبى حنيفة .. والأفضل أن يصوم يوم التروية ، وعرفة ، ويوما قبلهما .. فاذا مضى الوقت لم يجزئه الا الدم .

وعند الشافعى : لا تصام الأيام الثلاثة المطلوب صيامها بالحج ، الا بعد الاحرام بالحج ، تمسكا بظاهر قوله تعالى « فى الحج » .. وأما صيام الأيام السبعة الواردة فى قوله تعالى : « وسبعة اذا رجعتم » ، فالمراد بقوله « اذا

رجعتم » أى اذا فرغتم من أفعال الحج ، عند أبى حنيفة .. لكن الشافعى يرى أن المراد بالرجوع : هو الرجوع الى الأهل .

وهذا الصيام (صيام الأيام العشرة) ، ليس صياما على التخيير ، كالذى كان فى حالة الاحصار .. لكنه صيام واجب الأداء ، على من لم يجد الهدى ، فى مقابل تحلله واستمتاعه بما كان محرما عليه فى حالة الأمن .

فالهدى هنا مقدم على الصيام فى تقديم الفداء .. ولا يلجأ الى الصيام الا فى حالة عجزه عن تقديم الهدى .

هذا ، والصيام فى كلا الحالين (حالة الاحصار .. وحالة الامن) ـ عبادة لله تعالى تحمل معنى شكره سبحانه ، فى مقابل ما وسع الله على المتحلل من احرامه واباحته له أن يستمتع بما كان محرما عليه .. وشكر الله مطلوب دائما من المؤمنين الصادقين .

صيام التوبة ، أو القبول والرحمة :

فى آية سورة النساء المبدوءة بقوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ..» ـ يقرر الحق تبارك وتعالى أن من شأن المؤمن ألا يكون منه قتل لمؤمن أبدا ، الا اذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن يرمى كافرا فيصيب مسلما ، أو يرمى شخصا على أنه كافر فاذا هو مسلم .

والآية تبين أن كفارة هذا القتل الخطأ ، تختلف باختلاف حال قوم من وقع عليه القتل .

فان كان من قوم مؤمنين ، فكفارة هذا القتل شيئان لا بد منهما :

(عتق رقبة مؤمنة .. ودية تسلم الى أهله) .

وان كان المقتول من قوم كافرين معادين للمؤمنين ، فكفارته شىء واحد :

(هو عتق رقبة مؤمنة) .

أما ان كان القتيل من قوم بيننا وبينهم ميثاق ، أى كفرة لهم ذمة عندنا وعهد ، كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين ، وأهل الذمة من الكتابيين ..فحكمه حكم مسلم من مسلمين .. أى كفارته :

دية تسلم الى أهله .. وعتق رقبة مؤمنة) ..ولكن الآية الكريمة زادت فى هذه الحالة شيئا بديلا لمن لا يملك تحرير الرقبة ، وهو أن يصوم القاتل شهرين متتابعين.

وقد يبدو صيام الشهرين المتتابعين أمرا شاقا . .لكنه أمر ألله العليم الخبير بالعلاج المناسب لقبول توبة القاتل التائب وتربيته وايقاظه من غفلته ، حتى لا يقع مرة أخرى فى مثل هذا الخطأ .. فالمؤمن كيس فطن .. أو ينبغى أن يكون كذلك بتعهده واعداده وعلاجه .. حتى يكون جديرا بانتسابه الى الايمان، وحسبانه فى عداد المؤمنين .

صيام كفارة اليمين :

وذلك فى الآية الأولى من آيتى سورة المائدة..وهى التى مطلعها : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان » ..

وفيها يقرر الحق تبارك وتعالى، أن كفارة اليمين التى عقدها صاحبها ، أى وثقها وأكدها بالقصد والنية ، ونكث فيها .. هى :

اطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة ــ على التخيير فيها .. فمن لم يجد احداها .. فصيام ثلاثة أيام متتابعات .

وليس لكفارة اليمين غير ماذكر الله تعالى فى كتابه الكريم .

ومن هنا .. يظهر خطأ الذين يسارعون بالافتاء لمن يحنث فى يمينه ، بأن يصوم ثلاثة أيام .. ابتداء .. فى حين يملك الحانث أن يطعم عشرة مساكين أو كسوتهم .. وقد يملك عتق الرقبة .. فصيام ثلاثة ايام ــ لا تكون الا لمن لا يملك الا طعام ، ولا يستطيع أن يكسو .. ولا يقدر على عتق الرقبة .

ان الآية أوضح من الوضوح فى هذا الأمر ، والخير كل الخير فى أن نلتزم بما جاءنا من عند الله.

ثم ان الكسوة المطلوبة ــ ثوب يغطى العورة ــ أو ما يعد كسوة فى العرف .. فمن زاد كان خيرا. وأن تصدقوا خير لكم .

والشافعى يشترط فى الرقبة المحررة أن تكون مؤمنة قياسا على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة .

وينبغى أن يكون معلوما أن التكفير قبل الحنث ، لا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه .

ويجوز عند الشافعى ، تقديم كفارة بغير صوم .. أى يجيز أن يقدم الكفارة اذا كانت اطعاما أو كسوة ، أو تحرير رقبة .. أما الصيام فلا يقدم .

وانى أميل الى أن نبر بايماننا ، ولا نحنث فيها .. وخاصة اذا كان فى الحنث معصية ، وفى عدمه طاعة .. أما اذا كان العكس فالتكفير أولى .

ولذا ورد فى الحديث الشريف « من حلف على معصية ، فليحنث فى يمينه وليكفر » .

وورد أن « من حلف على شىء ورأى غيره خيرا منه ، فليكفر عن يمينه وليأت بالذى هو خير » .

ولذا ، قال الله : « واحفظوا ايمانكم » ، أى اذا حلفتم بها، فلا تنسوها تهاونا بها . ولأن التهاون فى الحقيقة ــ تهاون بالمحلوف به وهو الله سبحانه ، أو باسم من أسمائه ، أو صفة من صفات ذاته ــ وهى الأمور التىلايصح الحلف الا بها .. والتهاون من شأنه أن يجر الى ما لا تحمد عقباه .

فلنتق الله القائل : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » .

واذا كان الله ينهانا عن أن نجعل الله عرضة لأيماننا فيما هو بر ، وتقوى ، واصلاح ــ ففى غيره

أولى .. صيانة لاسم الله ، وتعظيما واجلالا لشأنه جل جلاله .

صيام الكفارة فى قتل الصيد :

وذلك فى الآية الثانية من آيتى سورة المائدة .

وهى الآية التى يقول الله فيها « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما » .

والتعمد ، أن يقتل الصيد وهو ذاكر لاحرامه ، أو عالم أن مايقتله مما يحرم عليه قتله .. فان قتله وهو ناس لاحرامه ، أو رمى صيدا وهو يظن أنه ليس بصيد ، فاذا هو صيد ، أو قصد برميه غير صيد ، فعدل السهم عن رميته فأصاب صيدا ، فهو مخطىء .

والآية فى ظاهرها تفيد أن قتل الصيد عمدا من محرم هو الذى يعتبر ذنبا تجب فيه الكفارة . أما القتل الخطأ فلا شىء فيه .. أخذ بذلك الصحابى سعيد بن جبير .. فهو يقول : لاأرى فى الخطأ شيئا ، أخذا باشتراط العمد فى الآية .

ويقول الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنة بالخطأ .. فكلاهما مؤاخذ به .

وعن الحسن روايتان : رواية تتفق مع ما ذهب اليه سعيد بن جبير .. ورواية أخرى توافق ما ذهب اليه الزهرى .

وأغلب الفقهاء على المؤاخذة على قتل الصيد عمدا أو غير عمد. أخذا بما حدث فى عهد الرسول وصحابته .

ولأن الأصل فعل العمد ، والخطأ لاحق به للتغليظ .. ويدل عليه قوله تعالى : « ليذوق وبال أمره ، ومن عاد فينتقم الله منه » .

والمهم بيان الجزاء ، لنصل الى كفارة الصيام .

فالآية جاء فيها : « فجزاء مثل ما قتل من النعم » أى فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد ..

وهو عند ابى حنيفة قيمة المصيد .. يقوم حيث صيد ، فان بلغت قيمته ثمن الهدى ، يخير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشترى بقيمته طعاما ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر ، أو صاعا من غيره . وان شاء صام عن طعام كل مسكين يوما .. فان فضل ما لا يبلغ طعام مسكين ، صام عنه يوما ، أو تصدق به .

واذن فالجزاء على التخيير بين الهدى ، أو الاطعام بقيمته ، أو أن يصوم يوما عن طعام كل مسكين .

وعند الشافعى ومحمد ــ مثله ، أى نظيره من النعم .. فان لم يكن له نظير من النعم ــ عدل الى قول أبى حنيفة .

وقوله : « يحكم به ذوا عدل منكم » تفيد أن الذى يحكم بمثل ما قتل ــ حكمان عادلان من المسلمين ..

وفيه دليل على أن المثل القيمة ، لأن التقويم مما يحتاج الى النظر والاجتهاد ، دون الأشياء المشاهدة .

وفى قوله : « أو عدل ذلك صياما » ، اشارة الى الطعام ، وصياما تمييز للعدل .. والخيار فى ذلك الى قاتل الصيد عند أبى حنيفة وأبى يوسف .. وعند محمد الى الحكمين .

هذا ، ومعرفة هذه الأحكام شىء واجب ، وتنفيذها أوجب ، على كل مؤمن حريص على العلم بأحكام الله ، والسير على هداها ، ما وسعه ذلك ، حتى لا تزل به القدم ، أو ينحرف عن سواء السبيل ، فيستفحل الخطر .. ومعظم النار من مستصغر الشرر .

صيام الصمت :

يتجلى ذلك فى الآية التى خاطب الله بها السيدة مريم فى قوله تعالى : « فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » .

فالله يأمر السيدة مريم اذا مارأت أحدا من البشر أن تقول : « انى

نذرت للرحمن صوما» أى صمتا.. وفى مصحف عبد الله (صمتا)..
وعن أنس بن مالك مثله.. وقيل : صياما .. الا أنهم كانو لا يتكلمون فى صيامهم .. وقد نهى سيدنا رسول الله عن صوم الصمت، لأنه نسخ فى أمته .

وأمر الله السيدة مريم بأن تنذر الصوم ، لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها فى الكلام .. ولأمور ذات معان :

أولها : أن عيسى عليه السلام سيكفيها الكلام بما يبرىء ساحتها .

وثانيها : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم ، لأن من يجادلهم ينزل بنفسه الى مستواهم ويكون مثلهم .

وثالثها : أن السكوت عن السفيه واجب يوجبه احترام الانسان لنفسه .

ورابعها : ثبت أن من أذل الناس ـ سفيها لم يجد مسافها . فكيف أخبرتهم بأنها صائمة ؟

قيل ان الله تعالى سوغ لها النطق بذلك .

وقيل : انها أخبرتهم بالاشارة بما يفيد أنها نذرت الصوم .

وهذا الصيام الذى كلفت به مريم وامتثلت له ـ كان فيه الخير والبركة ، والانتصار على النفس ، وعلى السفهاء من أعدائها .

وانه لمن الخير أن نصمت حين يجب الكلام .

وانه لمن الخير أن نصمت حين يحسن الصمت .. وأن تتكلم حين يجب الكلام .

الصيام من صفات الكمال :

انه لو تمثلت معانى الصيام وحدها فى الناس سلوكا وعملا ومعاملة ، لكدنا أن نرى أنفسنا أمام ملائكة تمشى على الأرض ، ورسل تنطق بالحق ، وتقيم موازين العدل ، وتنشر الخير فى كل مكان .. فما بالنا لو تجمعت فى انسان كل صفات الكمال التى ذكرتها الآية الكريمة من سورة الأحزاب ؟ .

ان الآية تقول :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

فهل مثل هذه الصفات التى هى جماع مكام الأخلاق ، والتى هى عنوان على خير دين جاء به من عند الله ، الرحمة المهداة ، محمد بن عبد الله ـ ندعهما بدون تعليق .

ان من الخير الذى لا شك فيه ، اتماما للفائدة ـ أن نشير اليها بشىء من البيان .. وبخاصة فان بينها صفة الصيام .. وذلك بعد اشارة خفيفة الى ما قيل من أسباب نزولها .

يروى أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يا رسول الله : ذكر الله الرجال فى القرآن بخير .. أفما فينا خير نذكر به ؟ .. انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة .. وقيل ان السائلة هى السيدة أم سلمة رضى الله عنها .

وروى أنه لما نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل فى آية « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا .. . قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شىء .. فنزلت « ان المسلمين والمسلمات .. الخ » .

فمن المسلم ؟

المسلم هو المنقاد للحق الذى لا يعاند ولا يشاغب .. والمسلم هو المفوض أمره الى الله المتوكل عليه ، مأخوذ من « أسلم وجهه الى الله » .

والمسلم هو الداخل فى السلم بعد الحرب .. فالاسلام سلام ، وليس فيه أبدا عدوان .. وان حروبه كلها كانت لرد العدوان ،

والدفاع عن كلمة الحق ، وحريتها، وصيانتها من الذين يريدون وأدها فى مهدها ، واسكات صوتها الندى الداعى الى البر والخير والعدالة والمساواة ، وحرية العقيدة والرأى « لا اكراه فى الدين » •• أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير »••وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع البصير » •

ومن المؤمن ؟

والمؤمن هو المصدق بالله ورسوله ، وبما يجب أن يصدق به، من رسل الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، والمؤمن بالقدر خيره وشره ، وبالجنة والنار ، والبعث والحساب والعقاب والثواب « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم»• « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » •

ومن الصادق ؟

الصادق الذى يصدق فى نيته قوله وعمله •• يقول الرسول : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » • والصدق من صفات الأنبياء المكرمين ، قال تعالى : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » ، « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » •

ومن الصابر ؟

هو من يصبر على الطاعات ، فلا يملها ولا يضيق بها ، مهما بذل فى سبيلها •• ويصبر عن المعاصى،

فلا يضعف أمامها ، ولا ينقاد لها .

ومن الخاشع ؟

هو المتواضع لله بقلبه وجوارحه .. يعرف قدر نفسه ، وقدر ربه ، فلا يغفل عن ذكره ، ويقر دائما بعجزه أمام قدرة خالقه ورازقه ، ومعينه وراحمه ، ومحييه ومميته .

ومن المتصدق ؟

هو الذى يزكى ماله ، ويؤدى واجباته ، ولا يخل بالنوافل.. فهو يؤدى الفريضة لا يقف عند أدائها بل يزيد عليها ويزيد ، ويعطى المزيد ، ويتطوع بالبذل والعطاء فى كل مجالات الخير ، ما دام قادرا. « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .. والزكاة دائما بركة ونماء ، وعلاج ودواء.. « داووا مرضاكم بالصدقة » .

وقيل : « من تصدق فى اسبوع بدرهم فهو من المتصدقين .. ومن صام البعض من كل شهر فهو من الصائمين » . « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ومن الصائم ؟

تكلمت فيه كثيرا .. وحسبى أن أقول هنا فى ايجاز .. انه الذى يصوم عن جميع المفطرات حسية ومعنوية ، ويكف عن كل ما نهى الله عنه .. ولا يقول الزور ولا يعمل به .. ويعطى للصيام قداسته واحترامه .. فلا يكذب ولا يغتاب ، ولا يشهد الزور ، ولا يحلف بالله كذبا ، ولا يزنى بعينيه ... ثم هو الذى راض نفسه على الصبر والمجاهدة واحتمال المشقات وأداء الواجبات ، وانصرف بحق عن كل ما يغضب الله .. وهو الذى صامت جوارحه عن الأذى.. وتنزه سمعه عن سماع الفاحشة ، وصان لسانه عن قالة السوء ، ويده عن البطش بها ، ورجله عن السعى بها الى معصية ، وقلبه عن الحسد والحقد والضغينة .. الخ الخ .

وحفظ الفرج :

صيانته عن الحرام .. والابقاء على طهارته رغم الشيطان .. ولذا يقول الرسول : « من يحفظ لى ما بين فكيه ، وما بين فخذيه ،

أضمن له الجنة » ، وما بين الفكين هو اللسان •• وما بين الفخذين هو الفرج •• ويطلق على الذكر والأنثى فيقال للرجل فرج ، وللمرأة فرج •

وان أمة تصان فروج أبنائها وبناتها ، لهى خير أمة أخرجت للناس •

والذاكرين الله كثيرا :

الذاكر كثيرا ، هو من لا يغفل عن ذكر الله أبدا •• فى كل أحواله •• فى يقظته ومنامه •• فى شدته ورخائه •• فى أعماله ومعاملاته •• فى عبادته وصلواته •• بقلبهأو لسانه ، أو بهما معا•• وقراءة القرآن ذكر •• والاشتغال بالعلم ذكر •• والدعاء ذكر •• والصلاة فريضة ونافلة ذكر •• ولا شك ان خير ألوان الذكر الصلاة وقراءة القرآن •• وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يناجى فزع الى الصلاة•• واذا أراد أن يناجيه ربه تلا كلام الله •• فقد جمع الخير كله •• من دعاء واستغفار وتسبيح وتكبير وتحميد وتذكير وتفكير ، وخضوع وخشوع وتسليم واستسلام لله رب العالمين ، وعلم وتعليم ••

ثم يقول الرسول : «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته ، فصليا جميعا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ••

ويقول : « ركعتان فى جوف الليل خير من الدنيا وما فيها » •

هذا ، وما ينطبق على الذكور ينطبق على الاناث فى هذهالصفات كلها •

فالآية الكريمة سوت بينهما فى العمل ، وفى الأجر والمثوبة التى يمنحها الله للعاملين والعاملات على سواء •• « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » • •من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » •

وأخيرا صيام كفارة الظهار :

وقد بينته الآية الرابعةمن سورة المجادلة •

والظهار ، أن يحرم الرجل زوجته على نفسه ، بقوله لها : أنت على كظهر أمى .. فتصير بهذه العبارة المنكرة محرمة عليه مطلقة منه .. وهى عادة جاهلية مستقبحة ، أنكرها الاسلام وأبطلها ، واعتبرها منكرا من القول وزورا .. وعملا لا يليق بالأطهار من المسلمين الأبرار .

والاسلام جعل كفارة الظهار واجبة الأداء على من يريد تطهير نفسه ، ويريد العودة الى امرأته التى ظاهر منها .. وليكون له بعد ذلك حق ملامستها والاستمتاع بها كزوجة ..

والكفارة وردت فى الآية الكريمة منسقة ومرتبة على الوجه الآتى :

ـ تحرير رقبة من قبل أن يتماسا .

ـ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

ـ فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا .

فترتيب صيام الشهرين المتتابعين ـ جاء وسطا بين تحرير الرقبة ، واطعام ستين مسكينا .. ولا بأس من الكلام عن هذه الكفارة بشىء من البيان اتماما للفائدة .

فأى رقبة تجزىء فى كفارة الظهار ؟

ان عتق الرقبة أو تحريرها ، جاءت فى الآية مطلقة ، فتجزىء المسلمة والكافرة على سواء ، عملا بظاهر النص الذى لم يقيد الرقبة بوصف الايمان .

وان كان الشافعى (رحمه الله) لا تجزىء عنده الا الرقبة المؤمنة ، لقوله تعالى فى كفارة القتل : « فتحرير رقبة مؤمنة » ، فكأنه (رحمه الله » يحمل المطلق على المقيد .

على أن الرقبة قل وجودها ، أو لا وجود لها فى هذه الأيام .. بعد أن بذل الاسلام كثيرا .. وأدى واجبه كاملا فى تحرير الرقاب ، على مدى أربعة عشر قرنا .. وليس عند المسلمين الآن ـ والحمد لله ـ أرقاء .

وهذا لا يغير من الحكم ، لأن أحكام الاسلام عامة شـــاملة ، وصالحة لكل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد تلاحظ أن كفارة الظهـار بالصيام ــ تبـــدو ظاهـــرها قاسية ، لأنها صيام شهرين كاملين متتابعين .. لكن المشرع الحـكيم العليم الخبير ، وقد حكم بها ــ لا بد أنها العلاج الناجع فى اصلاح النفس وتطهيـرها مما ترتكب من أخطاء الظهار ، وتخليصها من عيشها فى جاهليتهـا الأولى .. على أن عندنا فى جاهليتنا الحديثة ــ من يطلق امرأته طلاقا بدعيا ، يحتال به على اذلالها ، وتعذيبها ، واضاعة حقها ، والانتقام منها .. وهو يعلم أو لا يعلم أن أبغض الحلال الى الله الطلاق .. وعندنا من يعلق أمرأته ويمسكها ضرارا ليعتدى ..

ومع ذلك ، فقد أعطى الله مـن لم يستطع الصيام رخصـة اطعام ستين مسكينا .. بـأن يعطى كل مسكين (مـــدا) من طعام بلده الذى يقتات منه ، عند الشافعى .. ويعطيه عند أبى حنيفة (نصـف صاع من بر ، أو صاعا من غيره) .. وفى ذلك تخفيف من الله ورحمة .

وقد أعجبنى رأى للأحنـاف ، فيه التيسير على الناس .. يحكمون فيه العرف ، فى موضوع الكسوة (اذا كان فى الـكفارة كسـوة ، ككفارة اليمن ..) ، وفى موضوع الاطعام .. فكل ما يعتبره العرف اطعاما ــ سـواء كان وجبـة أو وجبتين مطهيتين ، فهو اطعـام مسكين .

وكل ما يعتبره العرف كسوة ، فهو الكسوة المطلوبة .. والمهم أن يراعى فى الأحكام كل ما هو فى صالح المساكين ، وأنفع لهم ، بقدر الامكان ، فى شـأن الكسـوة والاطعام .. « وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » .

وليس من شك فى أن مـراعاة العرف فيه الراحة للطرفين (المطعم والمطعم ..) ، وقد يكون فيـه الحل لمشكلة (نصـف الصـاع والصاع .. والمد ..) عند من لا يتعاملون بهما .. كما هو الشأن

فى اخراج زكاة الفطر نقـــودا واباحة ذلك اذا مـــا كانت أنفـــع للفقير ..

ورحم الله من قال :

والعرف فى الشرع له اعتبار
لذا عليه الحـــكم قد يـــدار

وقد لفت نظرى شىء آخر ــ هو أن كفارة الصيـــام فى الظهار ، تتفق مع كفارة قتل مؤمن خطأ ، وكان من قوم بيننا وبينهم ميثاق ، وعجز القاتل عن تحـــرير رقبة ــ فانه يستبدل بها أن يصوم شهرين متتابعين .. وهو مدة الصيام فى الظهار .. فمـــا السر فى هـــذا الاتفاق ؟ !

لعل مـــن السر ــ والله أعلم ــ هو تشابه الجريمتين فى العدوان.

فكلتاهما جريمة قتـــل .. ففى الظهار قتل رجل لامرأته قتلا نفسيا ومعنويا ، وهى ما تزال على قيـــد الحياة .. وفى قتل مؤمن لمؤمـــن خطأ ــ قتل حسى فيه انهاء لحياة المقتول .. ثم ان القتل فى كلتـــا الحالتين ــ قد ارتكب عن حمـــاقة وغفلة واشباع غريزة شهوة ــ ولم يحكم كل من القاتلين عقله وأناته وتثبته وحلمه وفطنتـــه .. وهى أشكل بالمؤمنين المنتستين بحـــق الى الحق والايمان .. و « المؤمن كيس فطن » أى عاقل ذكى .

فالمظاهر من أجل شهوة طاغية استبدت به ، لم يقم لصاحبته وزنا ، ولم يرحم ضعفهـــا ، ووفاءهـــا واخلاصها وطول عشرتها وألقى بها فى الطـــريق وهى أم لأولاده الصغار .. وقاتل المؤمن خطأ أشبه بالمظاهر فى اندفاعـــه وحماقتـــه وطيشه .

فكان الواجـــب ايقاظهما من نومهما وغفلتيهمـــا ، واعطائهما دروسا فى الأناة والصبـــر والحلم والتثبيت ، وتربيتهما عن طـــريق الصيام وفيه هذه المعـــانى ، فوق ما فيه من تطهير النفوس وترقيـــق القلوب ، وترقية المشاعر .

ولعل فى هذا شيئـــا ــ ولـــو قليـــلا ــ عن سر صيام شهـــرين كاملين متتابعين ــ توبة ورحمـــة

من الله ــ فى كفارة القتل الخطأ ، وكفارة الظهار .

رحم الله المجادلة :

رحم الله خولة بنت ثعلبة ، امرأة أوس بن الصامت ، أخى عبادة بن الصامت ، (وشتان ما بين الأخوين ..) ــ حين قالت لرسول الله وهى تجادله فى أمر أوس زوجها الذى رآها تصلى ــ وكانت حسنة الجسم ــ فراودها ، فأبت ، فغضب ، وكان به خفة ولمم ــ فظاهر منها .. رحمها الله حين قالت لرسول الله فيما قالت : ان لى منه صبية صغارا ان ضممتهم اليه ضاعوا وان صممتهم الى جاعوا .. ثم قالت : أشكو الى الله فاقتى ووجدى .. حين قال لها رسول الله : « ما عندى فى أمرك شىء .. أو حرمت عليه وان لم يذكر طلاقا » ولكن الله سمع لها ، وفرج عنها ، وغضبت السماء من أجلها ، وأنزل سبحانه آيات توبيخ للعرب ، وتهجين لعاداتهم فى الظهار ، وأنزل الحكم بالكفارة .. والحكم بالكفارة دليل ارتكاب الجناية .

وقانا الله شر ارتكاب الجنايات ، وعصمنا من الزلل والانحرافات .

اللهم آمين

عبد الحميد الفضالى

سيد الشهور

قال صلى الله عليه وسلم : « رمضان سيد الشهور تم شهر الله المحرم ، ثم رجب ، ثم ذو القعدة ، ثم شعبان تم باقى الشهور » .

حافظ إبراهيم

شخصيته وخلقه

دكتور سعد ظلام

— ١ —

كان شاعر النيل حافظ ابراهيم مديد القامة فارع الطول ، أسمر الوجه عريض المنكبين ، وكان ملولا قلقا غير مستقر وغير مطمئن ضجرا سريع الضجر ، قليل الثقة بالناس ، وكان ذلك أثرا من آثار الحياة السياسية ، كما كان له أثر كبير فى حياته وآرائه .

بدأ حياته ضابطا بالجيش ، ولعله التحق بالجيش أملا فى أن تنصفه الأقدار فيكون رب السيف والقلم كالبارودى رائد الشعر الحديث ، وكان صيت البارودى آنذاك يملأ الأسماع ، ودنيا النغم والتغريد وأرجاء الوادى ثورة ونداء وهتافا بالحرية ، وقد نفى الى سيلان ، ولكن لم تزل ثورته وشاعريته ملء الأفئدة والقلوب ، الا أنه سرعان ما تبرم بحياة الجندية تحت سيطرة الانجليز ، وخصوصا بعد ما رأى من خيبة الأمل ، وبعد ما شاهد من تأخر المصريين واستطالة الانجليز عليهم ، مما لا ترضاه النفوس الأبية التى طبعت على العزة والحرية ، وأبت الخضوع للذلة والاستكانة والهوان .

وظلت حياته القلقة تسيطر عليه ، فكان لا يبقى فى الجيش حتى يخرج منه محالا الى الاستيداع لتمرده على حالة المصريين فى الجيش ، ومرة أخرى لتأليبه الانجليز فى السودان الذى قضى فيه شطرا من حياته .

وكانت انجلترا قد انفردت بحكم مصر ، وبرغم الثورات الأهلية ضد هذا الحكم المغتصب ، الا أنه أطبق حكمه عليها بوسائله التى برع فيها براعة شديدة .

وقد تكونت فى مصر ثلاثة أحزاب ، الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ، وهو يطالب باستقلال مصر ولكنه لا يعادى الدولة العثمانية ، ويعارض القصر والسلطة الانجليزية ، وحزب الاصلاح بزعامة الشيخ على يوسف يؤيده الخديوى ولا يطمئن الانجليز اليه ، وحزب الأمة وهو تابع للانجليز ضعيف هزيل ، وبعد ثورة ١٩١٩ قامت أحزاب أخرى كحزب الوفد بزعامة سعد زغلول ، وحزب الأحرار الدستوريين بزعامة عدلى يكن ، وحزب الاتحاد لمناصرة القصر وحمايته .

وكان من الطبيعى أن يتأثر حافظ بكل هذه الأصوات ويعمل حسابها ، ويصغى اليها ويرسل شعره فى الكثير منها ، وكان لا بد أن ينصت الى الأحداث السياسية والاجتماعية التى تحدث بمصر والسودان وبتركيا وبكل أرض عربية وأن يتأثر بها .

ويمكن أن نربط بين عثراته السياسية وبين قلقه وعدم استقراره فهو حين يرى « سعد زغلول » و « عدلى يكن » يتنازعان مصر ، ينظر الى مصر ، ولا يعطى اعتبارا للرجلين فيقول : « مسكينة هذه الأمة وقعت بين اثنين ، واحد لا يسكت أبدا ، وواحد لا يتكلم أبدا » وكان سعد كثير الخطابة ، وكان عدلى لا يسمع خطيبا الا قليلا (١) .

وكان لاضطرابه ، أو لاضطراب الحياة السياسية أثر كبير فى حياته العامة وسلوكه الاجتماعى

(٢)

كان مع قامته الفارعة المديدة مهيبا ، ومن رآه حسب أن بين جنبيه نفسا شجاعة واثقة لا تهاب ولا تخشى ، ولكنه ـ يرحمه

(١) حافظ ابراهيم لأحمد طاهر ـ معهد الدراسات العربية

الله ــ كان لا يخاف الرجال وانما يخشى الأهوال والمخبآت والفواجع الداهمة ، ويعمل لها ألف حساب وحساب ، لأن الظروف السياسية غير الآمنة طبعته بطابعها غير الآمن وغير المستقر .

وكان مع فقره الشديد وشعوره بالحرمان الطويل متلافا مسرفا ، فهو حين تسمح أحواله فى سخاء حتى لا يكاد يبقى لغده شيئا ، يقول عن نفسه : « أمَّا أنا فلم أقتصد شيئا ، ولم أقتن شيئا ، وانى لأقول كما قال أرسطو : القُنْيَة مصدر الخوف والأحزان ولذلك قلت :

يقولون مالك لا تقتنى
من المال ذخرا يفيد الغنى
فقلت وأفحمتهم فى الجوا
ب لكيلا أخاف ولا أحزنا (١)

وكأنه لطول عهده بالفقر والحرمان يقتنص من الفقر ، أو يسخر منه أو يهزأ به فيمد مائدة عظيمة فى ردهة داره لطعام الافطار فى رمضان كل ليلة ، ويصف حولها أربعة عشر كرسيا ، يرتب الجالسين عليها بحسب أسبقية حضورهم ، وكأنه يحاكى عظماء القوم ، ووجهاءهم أو يتشبه بهم .

(٣)

كان حافظ يهاب الأهوال ويؤثر العافية والسلامة ، لأن الأحوال السياسية وظروفه الخاصة كانت تستدعى ذلك ، وكان يخاف الفقر لسابق عهده به وملازمته له ، وكان يخاف على منزلته الشعرية ، ويخشى النقد ، ويكره أن يفضل عليه شوقى ، أو تعقد مقارنة بينهما ، ولعل منشأ ذلك احساسه بالفارق الثقافى الهائل بينه وبين أمير الشعراء ، والفارق فى الموهبة البيانية ، والقريحة الشعرية .

(٤)

وكان مع بؤسه وتعاسة أحواله يستطيع أن يملأ المجالس أنسا وبشرا ، لأن النفس المؤرقة المهمومة ، الكابية المحزونة تلتمس فى الطرفة والندرة وفى الفكاهة والتظرف مسلاة من المضايق ،

(١) شوقى وحافظ للطناحى ص ١٢٤

وملتمسا من المكاره التى تطرأ عليها أو تنتابها ، فراح يسرى عن نفسه بالفكاهة والتندر ، ويشيع الأنس والمسرة ويعطر الحياة ويندى المجالس ويجعلها تفيض بشرا وطلاقة وانطلاقا وائتلافا .

ومع ذلك كان لا يحب أن يؤثر عنه شعر فكاهى ، اما لأنه يؤثر الوقار ، ويحب أن يؤثر عنه ذلك ، وقد كان يحاول ألا تخرجه الفكاهة عن وقاره ، واما لأن شعر الفكاهة عادة لا يتأنق فيه الشاعر ، وهو يخشى سهام الناقدين ، لا سيما ، والشعر الفكاهى تمليه طبيعة الموقف ولا يطلب فيه الا حضور البديهة وسرعة الخاطرة .

(٥)

كانت شخصية حافظ تُحَبَّ ، ومجالسه لا تمل ، وكان فيه ود ووفاء ، وكان صادق الود ، وكان صادق الوفاء ، وكانت نفسيته الصافية الشفافة تبلغ به من وفائه لأصدقائه مبلغا عظيما ، فكان اذا أحب انسانا أنزله من روحه منزلا قريبا ، ويبذل روحه من أجله ، ويدافع عنه ، واذا أصاب حبيبا له مكروه ، أو ألمت بصديق له ملمة ، أو انتابه ما يؤلم ، أو اخترمته المنية أحس بوقع ذلك كله على نفسه وقلبه ، وأحس بأن كل ما نال من أحبابه ينال منه ، فهو رجل رهيف الحس ، قوى العاطفة ، ينفعل — لأنه شاعر — لأهون الأحداث ، وتؤثر فيه أقل والعواطف .

(٦)

وكان لقربه من حياة العامة وانخراطه فى غمارها أصدق الأثر فى شعره الاجتماعى ، فكان أصدق الشعراء تصويرا للحياة المصرية الصميمة ، ووصف ما ينتابها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء ، واضطراب وأمن ، وما ترجوه من آمال وأحلام ، لأنه كان يحس بها احساسا قريبا قويا وصادقا .

وهذا الجانب هو أغنى جوانب حياته الشعرية وأصدقها وأحفلها بالصدق والثراء العاطفى ، وهو فيه

يتفوق على شعراء جيله من الشعراء .

وهو يعبر بشعره عن هموم ذاته . يشكو ويتألم ، ويعبر عن خلجات نفسه ، ومكنون عواطفه ، وهو يهنىء ويمدح ، ويتقرب ويتباعد ، ولكنه فى الوقت نفسه يحمل شعلة قومية وشحنة وطنية تربطه بكل أحداث الوطن العربى وخلجاته وأحلامه ، وله قدرة عظيمة فى هذه المزاوجة الهائلة بين طابعه الشخصى وخلجات قومه ، وطموح أمته وكفاحها من أجل الحياة الكريمة ، وهو فى هذا التزاوج مقرر افراد العلم ، متميز تميز الجبل على الوديان .

وما أجمل قول الدكتور طه حسين فيه : « كان حافظ شاعر الناس ، وكانت تمتاز نفسه بحس قوى وخلق رضى كريم ، وصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة ، وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه ومثله العليا ، ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه وشعبه كحافظ رحمه الله ، فالذين يقرأون شعره الآن يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح ، صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل وصورة حافظ وما يحس من بأس أو رجاء » (١) .

(٧)

وحتى فى المديح الذى يمكن أن تذوب فيه شخصيةالشاعر المادح نرى شخصية حافظ واثبة ثابتة فحافظ يمثل أمته فى مديحه كما يمثلها فى قصائده الاجتماعية ، فهو مديح يدل على مراحل الأدب والحرية القومية فى الأمة المصرية مرحلة بعد مرحلة ، وبهذه الخصلة كان حافظ منفردا من شعراء جيله قليل النظير » (٢) .

ذلك لأن مديح حافظ كان من ذلك الطراز الذىيضطر معهالشاعر أحيانا فى القصيدة الواحدة الى الخروج عن طبعه وسجيته ارضاء

(١) حافظ وشوقى ص ١٥٣ ، ٢١١

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ، ص ١٨ — ٢٠

للممدوح ، أو استدرارا لعطفه ، ولكنه لا يثبت على هذا ، فلا يلتث أن يحول مديحه الى مديح متسم بالروح القومى ، ينزع فيه الشاعر الى امتداح خلال اجتماعية أو ميزات قومية ، أو أعمال وطنية ، أو آمال شعبية تتعلق بالممدوح ، أو تبرز فيه ، أو تدعو له مناسبة، وبذلك يخرج حافظ عن زمرة المادحين القدامى الذين كان أكثر همهم اذابة شخصياتهم فى مقابلة أكياس الدنانير أو التقرب من مجالس السلاطين والحظوة لديهم ، ومدح الرجل بالشجاعة والقوة وكرم الضيافة وسعة الجود ، وقد لا يكون له فيها أقل نصيب .

ومن يقرأ شعر حافظ يقرأ فيه أمل الشعب ، وافصاحه الذكى المتبصر عن أمانيه وأحلامه وكفاحه ، وثورته ، وتربصه الواثق بالغد ، والتطلع الى حياة الحرية والكرامة، أو توجيهه ولفت نظره ، وتبصيره بمراشد الأمور .

كانت مصر لديه كل شىء ، وكان الشعب قريبا منه وكان قريبا من الشعب ، أليس هو القائل :

لعمرك ما أرقت لغير مصر
ومالى دونها أمل يرام

« من تعاليم أستاذ الحياة »
عليه السلام

* **ماكرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك اذا خلوت .**
* **شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع .**
* **خالقوا الناس بأخلاقهم .**
* **الصبر عند الصدمة الأولى .**

اللغة والمجتمع

للدكتور عبد الغفار حامد هلال

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه ، بل هى صورة له نابضة بالحياة ، وهى تنشأ تلبية لحاجته الاجتماعية ، ووفقا لظروفه فهى تمثله حضاريا ، وثقافيا ، وفكريا .

ثم ان ألفاظها المعبرة عن مقصود المجتمع تأخذ الطابع المميز لتلك الجماعة الانسانية ، فتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعرض لهم من ظروف ، قد تطرأ عليهم فى انقساماتهم الاجتماعية داخل المنطقة التى يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصالهم بالشعوب الأخرى ، للتجارة ، أو الهجرة ، أو الحرب ، أو غيرها من وسائل الاتصال المتعددة .

ولما لكل ذلك من آثار فى اللغة وددت أن أوضح الجوانب التى تؤثر تأثيرا فعالا فى السلوك اللغوى .

وحديثى — هنا — يتناول منطلقين أساسيين :

الأول : يتناول بيان الصلة بين اللغة والمجتمع ، وأهمية ادراكها فى الكشف عن خصائص الجماعات البشرية .

والثانى : يلقى الضوء على العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومدى ارتباطهما باللغة تأثرا وتأثيرا .

ولبيان أهمية الصلة بين اللغة والمجتمع نقول :

الانسان مدنى بطبعه — كما يقول علماء الاجتماع — فهو يميل الى الانتماء الى طائفة من بنى جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسمات ، التى تميز جماعة من غيرها ، ومبعث ذلك الغريزةالتى ركب عليها الانسان ، والتى تدفعه الى تكوين هيئة اجتماعية ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض

الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيهما اذا عاشا معا مدة طويلة ، كفرنسى ، وفارسى أو عربى وانجليزى مثلا (١) .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيراً الجنس البشرى (٢) .

وهذا الانتماء يأخذ أشكالا متعددة ، فهو أحيانا ـ سياسى ، أو جغرافى أو جنسى ، أو لغوى وقد تعددت المصطلحات السياسية التى تطلق على تلك الجماعات (٣) .

بيد أننا نعنى ـ هنا ـ جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هى ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهى : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر الى الكبر ، فهى تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

(١) فندريس : اللغة ص ٣٠٢

(٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢

(٣) من هذه المصطلحات :(الشعب) و (الدولة) و (الأمة) فالشعب : جماعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسى وقانونى يشير الى الوحدة السياسية التى تضم اركانا ثلاثة هى : (شعب وأقليم وسلطة سياسية) .

والأمة :جماعة من الناس يرتبطون بأهداف مشتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقائهم فى عدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ ..

وقد تسمى احدى الجماعات (شعبا ودولة وأمة) ، وقد تسمى (شعبا ودولة) لا (أمة) كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ولا يعنى هذا فناء الأمة البولونية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربى أمة ، وان توزعت السلطة فيه انظر : د . أحمد كمال أبو المجد : دراسات فى المجتمع العربى والوحدة العربية ص ٢٤ ـ ٢٩

ولا يهمنا كثيرا الاختلاف السياسى أو الدينى اذا توفر الاشتراك اللغوى (١) .

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة الى وحدات صغيرة ، وننظر الى كل وحدة فى اطار اللغة التى تتحدث بها ، فى القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة من المتعلمين والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والاشقياء وغيرهم .

« وتلعب اللغة (دورا ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية) مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التى تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهى ــ على الدوام ــ رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آله أفعل من اللغة فى توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمروتنها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم الى بعض (٢) .

وبديهى أن اللغة هى الأداة التى يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهى قانون من قوانين هذه الجماعة ، يُعَدّ الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجا ، ومؤديا الى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها (٣) .

« وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الانسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة .. وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة كما نلاحظ ذلك فى كل مجتمع معروف » (٤)

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٢ .
(٢) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) د . تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١١٢ نقلا عن ادوارد سابير .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلات بالمجتمع الذى تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله الذى لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الانسانية ، وادراك حقائق الظواهر الاجتماعية لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يهتدى على اثر هذا الادراك الى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا للغات وتاريخها ، وتطوراتها .

وهنا نأتى الى المنطلق الثانى وهو الحديث عن علاقة الفرد والمجتمع باللغة فتقول : « اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة » (١) .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فالفرد يرتبط بجماعته ويقدس ما يقدسون ، ويأتى من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وان خالف اعتقاده (٢) . واذا سلمنا « بوجود الفرد والمجتمع ، باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فان من الممكن من الجانب اللغوى أيضا ، أن نتكلم عن اللغة الفردية ، واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر » (٣) .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عند الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتم بالبحث فى الجانب الفردى ، والجانب الجماعى ، وان كان علماء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم : أن التعرف على الفرد يؤدى الى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها الى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموع

(١) فندريس : اللغة ص ٣٠٦

(٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢

(٣) نفسه ص ٥

الظـــواهر المشتركة بين جميـع الأفـراد .

ويقول أوجست كونت « ليس من الضرورى أن نعـرف ما هـو الانسان حتى نعرف ما هى الانسانية ولكن من الضرورى أن نعرف ماهى الانسانية حتى نعـــرف ما هـو الانسان ؟

فالتعرف على الجماعة يؤدى الى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد » (١) .

وقد دار نقـاش ، وجـدل بين الباحثين حـول اللغـة والكلام ، وصلتهما بالعقل الفردى ، والعقل الجمعى .

فيرى دى سوسير (٢) أن اللغة غير الكلام ، فاللغـــة مجمـوعة محدودة من المفردات ، والتراكيب، توجد فى كتب القواعد والقواميس، وتختزن فى عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردى ، يختلف من فرد الى آخر ، من أبناء الجماعة اللغـوية الواحـدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ، ولا يملك التدخل فى اختيـــار مفرداتهـــا أو تنظيم قـواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فان لكل منهما علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقـد قال بالى (تلميـذ دى سوسير) : ان الـكلام نشـاط لغوى فردى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحـده الذى يعبر عن الواقعية ، والعاطفيـة ، بعكس اللغـة التى ليست سوى امكانيات تعبيرية .

ومن هنا فان دى سوسير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفـراد ، واذا صح أن يكون هناك عقل فردى ، فهناك كذلك عقل جمعى .

(١) جسبرين : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢ .
(٢) عالم لغوى سويسرى .

وقد اعترض جسبرسن (١) على هذا التفريق ، وقال : ان العقل خاصة يوجد للفرد ، لا للجماعة والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التى تمر به ، ولا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية ، فقد تأثرت بظروف ودوافع متشابهة ، وليست أدرى لماذا يقول دىسوسير (العقل الجمعى) ولا يقول (البطن الجمعى) والرجل الجمعى والأنف الجمعى ، اذن ليست لذلك فائدة .

فاللغة ليست القاعدة ، وليست الألفاظ ذاتها ، بل هى شىء آخر يتمثل فى الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، فى نفوس أفراد الجماعة ، لا فى العقل الجمعى ، ويقرب من ذلك قول دى سوسير فى عبارة أخرى « اللغة هى مجموعة من صور الألفاظ مختزنة فى نفوس أفراد الجماعة اللغوية » (٢) .

وينتهى جسبرسن — بعد الرد على دى سوسير — الى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هى الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظرتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة ، والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الانسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلاعلامات لغوية ، أى كلمات ، فالتفكير بلا كلمات عائم (٣) . « والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها » (٤) وما يسميه النحاة أقسام

(١) عالم لغوى دانيمركى .
(٢) جسبرسن : اللغة بين والمجتمع ص ١٥ — ٢٣
(٣) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤
(٤) نفسه ص ٣٩

الكلام ــ وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ــ ليس فى الواقع الا أقسام اللغة ، فقول صاحب الألفية : الكلام وما يتألف منه ، يجب أن يصير الى : اللغة وما تتألف منه (١) . فالكلام الذى هو نشاط انسانى قطعى نتيجة لارادة المتكلم (٢) . يُعدّ الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها فى طوايا العقل ، أو المعاجم ، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد فى القواميس أو تختزن فى عقول الجماعة الانسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ، ويراعونها فى استعمالهم من ناحية النظام الصوتى ، والصرفى ، والنحوى ، واللغة بهذا الوصف تسمى بـ « اللغة المعنية » (٣) التى هى نتاج جماعى يستعمله الأفراد ، وللكلام علاقة باللغة المعنية ، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العملى منها (٤) .

ومن المتعارف عليه بين دارسى العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية (٥) .

والمدرسة اللغوية الانجليزية ، وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية ، تهتم بالشخص والشخصية ، ولكن لا تنظر اليه باعتباره « مستقلا » أو تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة (٦) .

ولا ريب أن جوانب التأثير فى اللغة كثيرة بعضها ينشأ عن الأفراد، وبعضها يرجع الى المجتمع .

(١) نفسه ص ٤٠ .
(٢) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤
(٣) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٤) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢ ــ ٣٥ .
(٥) جسبرسن : **اللغة بين الفرد** والمجتمع ص ٢٠ ، ٢١ .
(٦) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٥ ــ ٣١ .

وللتأثير الفردى مظاهر عدة فهو يتناول : الاصوات ، والمفردات ، والتراكيب .

١ ـ أثر الفرد فى الاصوات

تبدأ الممارسة اللغوية للانسان منذ طفولته ، فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقى اللغة ـ أية اللغة ـ اذ لا توجد لدى أى طفل فى أى مكان لغة فطرية (١) . وهو يتعلم لغة المجتمع الذى يعيش فيه ، فاللغة ليست وراثية ، بل انه يتلقاها ممن يخالطهم ، ولذا فان طفلا عربيا لو نشأ فى بيئة انجليزية تعلم لغة الانجليز ، والعكس صحيح أيضا (٢) « بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة لأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والدببة ، وحتى الخرفان، وتعلموا أنواعا من اللغة الحيوانية ، فعووا كالذئاب ، وثغوا كالخرفان ، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الانسانية (٣) .

فالأطفال يتعلمون لغة الجماعة التى يولدون ويعيشون فيها بنفس السرعة التى يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أهلها الأصليون (٤) .

وقد توصلت طائفة من اللغويين الى بعض الملاحظات المهمة التى تتعلق بلغة الطفل ، وأهمها التقسيم

(١) كندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩١ .

(٢) فندريس : اللغة ص ٢٩٨

(٣) كندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٤) فاللغة « مكتسبة » ولكن أثمة دخل للوراثة فى قدرة الأطفال على اكتساب اللغة ؟ وهل للوراثة شأن ـ اكتساب طفل لغته أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة ان الاجابة عن هذا السؤال ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة ، وعلم الاعصاب وعلم الحياة العام (الاحياء : البيولوجيا) اذ البحث فيها لما يصل الى الغاية المنشودة ، وينتظر أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها ..
انظر : د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٧ ، ٣٤ .

الثلاثى الذى ارتضاه جسبرسن ، وهو أن النمو اللغوى للطفل يمر بثلاث مراحل •

١ ــ مرحلة الصياح ••

٢ ــ مرحلة البأبأة ••

٣ ــ مرحلة الكلام ••

المرحلة الأولى (الصياح) :

فالطفل يصرخ منذ يولد ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقى ليس كلاما ، ولا يتعلم الطفل به أية لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية •

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدى ــ فى أوله ــ غرضا ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل فى التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم •

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتى على الكلام فينتقل الى المرحلة الثانية •

المرحلة الثانية (البابأة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ أ ــ م م ــ ب ب ــ ت ت ــ دد الخ •

وتكون فى أولها نشاطا عضليا خالصا ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئا فشيئا فى التدريب عليها ، والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذى يريده •

ويأخذ الطفل ــ بعد ذلك ــ فى تدريب عضلاته الصوتية على النطق بهذه الأصوات التى يستمتع بها هو ومن حوله •

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (لَ ــ رِ ــ تُ الخ) « وتعد الصوامت الشفوية التى يرمز اليها بـ **P.B.M.** (ب ، ب ، م) من الصوامت الأولى التى ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق » وفى هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع

الأبجدية التى تستعملها جماعته مثل (P , V) عند طفل عربى مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالى نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين .

أ ـ فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذى يقلده ، كأن يقول الطفل المصرى (مم) بدلا من (الأكل) و (أمبو) بدلا من (ميه) و (ب) بدلا من (عيش) مثلا .

وقد سمعت ابنى فى تلك المرحلة يقول (مكن) بدلا من (مطبخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتا طويلا حتى يصير كلامه مثل الكبار ..

ولا شك أن الطفل فى تلك المرحلة يحرف كثيرا من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية ..

فيقول مثلا (ستينة) مكان (سكينة) و (تتاب) مكان (كتاب) ..

وقد لاحظت أن ابنى فى أول هذه المرحلة ـ يميل الى قلب بعض الكامات فيقول (تعبل) مكان (تعلب) و (لاه أكلب) مكان (الله أكبر) ..

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه الا فى مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين فى بعض الأحيان ..

وكثيرا ما يكتفى الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابنى يقول (كب) مكان (كلب) و (بايه) مكان (كبايه) ونحوها .

ويستطيع الطفل فى هذه المرحلة أن يميز الكلام الذى يوجه اليه بحب وعطف من ذلك الذى يوجه اليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثانى ..

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وانما يتعلم الجانب الصوتى للكلمات مرتبطا بالمعانى ..

وعادة ما يدرك معانى الكلمات التى تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ، وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا .

وللطفل قياسه اللغوى فى النواحى الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب الى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء ـ كما هى العادة الشائعة . فيطبق ذلك على بعض الكلمات التى لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فاذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : (أخضرة) و (أحمر) قال (أحمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينمتون الى جماعته الكلامية وان كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا (١) .

واذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لأخطائه أثر فى أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد ـ بصفة عامة ـ صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون فى نسبة التغيير الصوتى الى الأفراد .

فينفى جوشات أن يكون للطفل أى أثر فى التطور الصوتى للغة

(١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٣٤ ـ ٥٤ ، د . وافى : علم اللغة ط ٤ ص ١١٠ ـ ١٥٥ ، د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ٦٨ ، ٦٩ وكندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩٠ ـ ١٩٣

فهو يقول : « ان كل لغة تتهيأ تهيئا خاصا بين جيل وجيل يمكّن للتطور فى أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين ــ دون الأطفال ــ للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوى ولا أكثر، وعندما يخطىء الطفل فى نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور فى أصوات اللغة التى يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين ، وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أى عندما يتجاوز دور الطفولة » (١) .

وينفى جوشات ــ كذلك ــ أن يكون للفرد ــ صغيرا أو كبيرا ــ أى أثر فى التطور الصوتى فيقول : « ليس للفرد أى دخل فى التطور الصوتى » وقد اعتمد فى حكمه هذا على النتائج التى توصل اليها فى بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التى تقيم فى المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بولّ) BULLE فى مقاطعة فريبورج لبيان تأثير الفرد فى اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها ..

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة فى طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل الى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التى وجدها بين أفراد الجزء الأول ، وكذلك كان الحال فى الجزء الذى يليه ، والذى يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة فى جزء ما من الاقليم تختلف عنها فى جزء آخر ،

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٤٥ .

بل انها كانت فروقا زمنيـة ، أى فروقا بين جيـل وجيـل ، وأن الاختلاف اللغوى بين أبناء جيلين مختلفين فى جزء واحد أكثر مما بين أبنـاء جيـل واحـد ، فى جزئين مختلفين ..

وبين أن المقارنة بين لغتى اثنين من الشـيوخ ـ ينتمى أحدهمـا لجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجـزء الذى ينتمى اليه الآخـر ـ تثبت تحقق التشابه فى مخارج الحروف لديهمـا أكثر ممـا بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذى ينتمى اليه ولهـذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام ..

١ ـ المعمرون

وهم بين الستين والتسـعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمـة كثـيرا ما تبـدو غريبـة لسواهم ..

٢ ـ المحدثون

وهم دون الثـلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة ..

٣ ـ المتوسطون

وهم بين الثـلاثين والستين ، وهؤلاء يكـوّنون فى نطقهم حداً أوسط بين المعمرين والمحـدثين ، ولقـد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القـديمة الى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم فى اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كمـا لاحظ أنهم يلتزمون فى بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفى بعضها الآخر طريقة النطق القديم ..

أما النساء فقد كن أكثر ميـلا لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقـرر أن دور المرأة فى التطور الصوتى أكبر خطرا من دور الرجل ..

وقـد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر فى التطور الصوتى ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغـة فردية لأبناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثـل هـذا التأثير الفردى فى تطور اللغة التى يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية ..

وينسب جوشات التغير الصوتى الى الجماعة لا الى الأفراد فيقول ان التغير أمر حتمى طبيعى وليس أمرا خاضعا لارادة فرد متميز أو غير متميز ، ومعنى أنه أمر حتمى طبيعى أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص فى مكان ما ثم يقلد وينطقه فى نفس الوقت شخص ثان فى مكان ثان ، وثالث ورابع فى مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا (١) ..

ويتفق فندريس — ومثله مييه — مع جوشات فى هذه الوجهة التى تمنع أثر الفرد فى الأصوات فيقول : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتى انما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن الا تغيرا فرديا ، ثم عم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس فى وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شىء ، فان النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام السخرية منه » (٢) .

ويرى جسبرسن أن نفى التأثير الصوتى للأفراد غير مسلم ، وأن البحث الذى أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد فى التطور الصوتى ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لاثبات أثر الفرد فى الأصوات (٣) .

ولعل الدافع الى انكار أثر الفرد فى التطور الصوتى هو

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) فندريس : اللغة ص ٦٩
(٣) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ — ٤٤ .

الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس « ان العالم اللغوى لا يعرف الى أى مدى يحدد دراسته والى أنه يبقى مترددا بين الاعتبار الفردى والاعتبار الجنسى بأسره » (١) . ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الانسان أن يقول عند أى حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن نفطن الى التغيرات التى تأخذ مجراها الآن على غير وعى منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما اذا كان تغير" ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ، ولا يستطاع نسبته الى فرد معين منهم) (٢) .

والحقيقة التى لا يمكن انكارها أن التطور الصوتى يعود فى بعض نواحيه الى الافراد ، وان لم يتعين الفرد الذى تابعه غيره ، فمن الحق الذى لا ريب فيه — كما يقول فندريس — « أن كل فرد يدخل فى اللغة جزءا من التجديد خاصا به » (٣) .

ومن المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق .. واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتى (٤) وان الفرد كما يقول الدكتور تمام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتى يختلف عنه (٥) .

فلا شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتى تعمم ، فالجانب الفردى ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير الى الجماعة أن ينفيه مطلقا .

(١) فندريس : اللغة ص ٢٩٦
(٢) د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٤
(٣) فندريس : اللغة ص ٢٩٥ ، ٢٩٦
(٤) د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٢
(٥) ففى العربية الفصحى أصوات تحتاج الى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذى تحول على لسان غير

٢ ــ أثر الفرد فى المفردات والتراكب :

أما أثر الفرد فى المفردات والتراكيب فهو واقع لغوى يعترف به الباحثون ، فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، ان الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله ــ ولو كانوا مثله سنا ــ كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل (١) .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ ــ كما يحدث فى المجامع اللغوية أو أن يرتكب خطأ فى نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردى فى اللغة مغيرا للأمر الواقع الذى هو أن الفرد ــ وليست الجماعة ــ هو السبب فى التغير اللغوى (٢) .

المثقفين بالعربية الى (كاف) والذال تحولت فى العامية الى زاى أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدى الى التطور الصوتى ، فظاهرة التفخيم أدت ــ مخالفة للفصحى ــ الى نطق كلمة (درب) : (ضرب) فى العامية ــ بتحويل (الدال الى (ضاد) .

(١) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٤٧ ، وانظر : جسبرسن اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٣ ــ وقد أثبتت التجارب أن الأطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع كثيرا منهم يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة .
انظر : د . أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٨٧ ــ ٨٩ واحمد الاسكندرى : فقه اللغة ص ٣٠ .

(٢) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال فى اللغة العربية ، فالعربى الفصيح كان يخترع الفاظا ويشتق أخرى أو يقيسها متبعا طرق التجديد فى ذلك ، ويروى عن رؤبة وأبيه انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها . والباحث

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة الا فى محيط الأسرة .

ومما يبتكره الفرد فى مجال اللغة ، نقل الألفاظ الى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف فى أسلوب المجاز ..

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ الى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو (الطاغوت) اسما لوالد مستبد ، و (القط) لطفل مدلل فى الأسرة و (شعبة) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما يستعمل فى نطاق محدود . وهو نوع من ابتكار المعانى ونقل استعمالات الألفاظ ..

والفرد — حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ، مقيد

فى العربية يعثر فى بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنها انها مصنوعة ، وقد أورد السيوطى فى المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة، وقد روى فى بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا . وفى كتب النحاة مايرشدنا الى اعترافهم بالارتجال فى أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه الى منقول ومرتجل .

وفى العامية كثير من الألفاظ التى لا أصل لها فى اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهى ترجع الى اختراع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور أبراهيم أنيس انهم كانوا يقولون — على سبيل الاختراع — وهم طلبة مثل :

ومدعشر بالعشلمين تفنطحت سلفا قناة كبز فرع القنظل

انظر : ابن جنى : الخصائص ٢/٢١ — ٢٨ ومواضع أخرى منها ٣/٢٩٨ ، والسيوطى : المزهر ١/٥٢ — ٥٦ ، ٦٣ — ٦٧ ، ٩٠ وغيرها ، والأصفهانى : الأغانى ٣/٦٢ والمسعودى : مروج الذهب ٤/٤٣ والأشمونى ١/١٣١ ، د . أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٩٠ — ٩٢.

بالعرف اللغوى المتعلق بالدلالة ، فمن المسلم به فى دراستنا للدلالة اللغوية أن مخالفة الأساليب العربية تزيد من صعوبة المعنى ، ولو نطقنا ـ فى العامية ـ (قلم احمد على معاه) بدل (على معاه قلم أحمد) لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوى .

ولذا يشترط فى ابتكار الفرد عنصر الافهام لدى الجماعة اللغوية ، اللهم الا فى لغة الطفل أو (رغائه) فانها تفقد هذا العنصر ، وكذلك محاولة ارسال بعض الأصوات لمجرد اللهو والهوى ، وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد فى كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة (١) .

ولنا لقاء قريب فى المقال القادم ان شاء الله تعالى .

د . عبد الغفار حامد هلال

(١) جسبرسن :اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣ ، ٤٣ .

« هل تعلم ..؟! »

* ان شهر رمضان هو الشهر الوحيد الذى ذكر فى القرآن ذكرا صريحا ،ولم يذكر شهر سواه .
* أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .
* أن للصائم دعوة عند فطره لا ترد .
* أن للصائم فرحتان يفرحهما ـ فرحة عند فطره ـ وفرحة عند لقاء ربه .
* ان لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم .
* ان من صام رمضان ايمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

رسالة من السودان
إلى السيد صلاح حافظ

أنا وأنت يا سيدى فى قفص الاتهام ! ومعنا عبد اللطيف غزالى • وسأروى لك أولا قصة قاطع الطريق اليونانى بروكست :

كان بروكست يسلب المسافرين ثم يمددهم على سرير من حديد فمن ناف طوله هذا السرير قطع له هذا الطول •

ومن قصر شده حتى يصير على طول السرير •

وبالتالى فنحن نريد أن نقص شريعة الله لتتناسب مع العصر •

لماذا لا نسأل ذواتنا أولا عن ماهية العصر ؟

يجب أن نعترف يا سيدى أن هذا العصر ليس من صنعنا •• انه من صنع الغرب •• صنعه من عرق الشعوب ودمها بعد أن أعلن أن الله قد مات !

والذى يعلن موت الخالق لا يحترم كرامة المخلوق !

وبالتالى فان قوانين العصر ليست المثل الذى يحتذى • انها قوانين وشعارات مصنوعة لابتزاز دم البشرية لأجل رفاهية الغرب •

ولو سايرت الشريعة الاسلامية العصر كما نردد •••

لباتت شريعة غير عادلة !

أنت يا سيدى أكثر ثقافة منى دون شك •

وتعلم أن الامم المتحدة •• وحقوق الانسان •• هى مجرد شعارات •

ان مكاتب الامم المتحدة تحت رحمة مخابرات الغرب •

من هـو المشرف على البنـك الدولى الآن ؟

وما هى علاقته بحرب فيتنام ؟

هل ننسى أن الامم المتحـدة اشتركت فى قتل الزعيم لومبا .. وغيره ؟

نحن نعيش عصر ، دم الانسان فيه مباح لمن يمتلك السلاح ! ..

عصر بدون قيم !

أهان المـرأة فى أعـز شىء تملكه ...

أهانها فى أنوثتها .

وسمح للرجـال بالزواج مـن الرجال !

عصر الغش والخداع ..

الدكتور البريطانى جون يودكن يقول :

ان خمسين فى المائة من ميزانيات العلاج فى أفريقيا تدفع مقابل أدوية أوقـف استعمالهـا وتداولها فى الغرب ...

نحن فى عصر لا يستحـق أن يكون مثلا يا سيدى ..

عالم النفس الامـريكى اريك فروم فى كتابه « ثورة الأمـل » يقول :

« لو كان البشر يعرفون الطريق المحتمل للمجتمع الامـريكى اذن لتولاهم الرعب جميعهم تقريبا !

الى حد أنهـم يتخـذون الاجـراءات الوافية لكى يغيـروا اتجاههم .

فان لم يع البشر الجهـة التى يمضون فيها فانهـم سيستيقظون متأخرين جدا عندمايكون مصيرهم قد كرس نهائيا .

الا انهم للأسـف فى أغلبيتهـم العظمى لا يعرفـون الى أين هم سائرون » .

شريعة الاسلام عدل يا سيدى.

ولا بد أن تكون فى اتجاه مضاد لقوانين العصر .

الاسلام نزل ليقود ! لا ليقاد .

نزل ليقود البشرية الى الخير..

ان الشعوب الاسـلامية تعيش

مأساة بسبب التخلى عن شرائع الاسلام .

بسبب انها تردد ما يقوله الأسياد .

حال الاسلام فى بلادنا يشبه حال سمكة أخرجها الصياد من الماء ...

ووضعها على الشاطىء ..

ثم سأل نفسه فى غباء ..

لماذا لا تسبح هذه السمكة فى الهواء ؟

ونحن وضعنا الاسلام على هامش الحياة ونسأل فى غباء :

لماذا بقينا على هذا الحال ؟

الاسلام منهج حياة متكامل بالنسبة للانسان يمثل قطرة الدم التى تؤثر فى كل خلية من جسده .

الاسلام لا بد وأن يكون فى المنزل وفى الشارع وفى المدرسة..

يكون فى المزرعة وفى المصنع .

عندئذ يتغير سلوك الانسان ويتبدل فكره

نحن نتشدق بكلمة الاسلام ..

فى حين أنه بيننا وبينه بعد المشرقين !

الواقع يقول اننا نعيش مرحلة التيه !

نشبه الملاكم الذى بات يترنح على الحلقة بعد أن فقد التحكم فى السيطرة على ذاته من أثر اللكلمات الخطافية من اليمين ومن اليسار !

ما لم تكن لنا أرض ياسيدى نثبت أقدامنا فوقها !

فلا أمل هناك !

لا بد أن نحاول أن نستعيد قوانا من ذواتنا .

الفكر الخلاق ليس حكرا على جنس من الأجناس ...

لا بد أن نحاول لمس الأرض بأقدامنا ...

فى اسطورة انتيه اليونانية :

عندما تبين للبطل أثناء صراعه مع الغول ،

انه كان يستعيد قواه كلما مس الأرض بقدمه ، فانه رفعه ..

فتوصل هكذا الى خنقه .

والحقيقة يا سيدى ..

ان الغرب استطاع ان يرفعنا بعيدا عن الأرض !

وما زال يعمل جاهدا على أن نظل هكذا !

نحن يا سيدى بكل صراحة نحيا بلا عقيدة !

لا نملك أرضا !

ما نعرفه عن «بمبةكشر»خريجة شارع محمد على أكثر مما نعرف عن محمد رسول الله ..

أعطنى الأرض !

أعطنى عقيدتى !

قل لى من هو محمد رسول الله ...

وسترى ماذا سيحدث بعدها !!!

اذا كانت كلاب الروم داست أرض القمر !

فلا بد وأن تكون الشمس تحت قدمى !!!

الشريعة ليست فى حاجة الى تطوير !

أنا وأنت فى أمس الحاجة الى التطوير !

ما زلنا قردة ..

نردد ما يقوله الأسياد !!!

المهندس
حسن أبو رحمة
الرى المصرى بالرصيرص
جمهورية السودان

هـــلال رمضـــان

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يستقبل رمضان يدعو الله فيقول : « اللهم أهله علينا باليمن والايمان .. والسلامة والاسلام ، والعافية ودفاع الأسقام ، والعون على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن » .

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٤٨٥ ويقول العامة وكثير من الخاصة : اجتمع قائد الجيش مع جنوده ، فيوهمون فى قولهم ، والفصيح أن يقال : اجتمع قائد الجيش هو وجنوده لان لفظ اجتمع بزنة افتعل ومثله اختصم واقتتل ، وما كان كذلك على وزن تفاعل مثل تفاهم وتخاصم وتضافر يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد ، فمتى أسند الى أحد الفاعلين لزم أن يعطف عليه الآخر بالواو لا غير ، وانما اختصت الواو بالدخول فى هذا الموطن ، لأن هاتين الصيغتين تقتضيان وقوع الفعل من اثنين فصاعدا ، ومعنى الواو يدل على الاشتراك فى الفعل أيضا ، فلما تجانسا فى هذا الوجه وتناسب معناهما استعملت الواو فقط فى هذا الموضع ، ولم يجز فيه استعمال لفظ مع ، لأن معناها المصاحبة ، وخاصيتها أن تقع فى المواطن التى يقع الفعل فيها من واحد، والمراد من ذكرها الابانة عن المصاحبة التى لو لم تذكر لما عرفت ، كما فى قوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » وقوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا » .

٤٨٦ وينكرون أن يقول صاحب المنزل لمن قرع بابه : خش أى ادخل ، ويصرون على أن خش كلمة عامية والحق أنها عربية سليمة ، تقول : خش الولد فى الحجرة يخش وانخش اذا دخل ، وقال الأصمعى خششت فى الشىء دخلت ، وقال : زهير : (فخش بها خلال الفدفد) أى دخل بها .

وانخش الرجل فى القوم انخشاشا دخل فيهم ، وفى حديث عبد الله بن أنيس « فخرج رجل يمشى حتى خش فيهم » أى دخل ومنه يقال لما يدخل فى أنف البعير خشاش ، ومن المجاز : جعل الخشاش فى أنفه وقاده الى الطاعة بعنفه والخشخشة الدخول فى الشىء كالانخشاش وتخشخش فى الشجر دخل فيه وغاب .

والمخش بكسر الميم الجرىء على العمل فى الليل، تقول : فلان مخش ليل اذا كان دخالا فى ظلمته .

٤٨٧ وينكرون أن يقول القائل : سألت صديقى بعلمه ومعروفه بتعدية الفعل بالباء ، يعنى أنه سأله عن علمه ومعروفه ، ويصرون على أن هذا الفعل دائم التعدى بنفسه الى مفعولين مستأنسين بقوله عز شأنه : « قل لا أسألكم عليه أجرا » وقوله : « لا نسألك رزقا نحن نرزقك » وقوله : « واذا سألتموهن متاعا » والحق أن التعبير الذى أنكروه سليم وبيان ذلك أن الفعل المذكور قد يتعدى بنفسه الى مفعولين كما فى الآيات السابقة ، وقد يتعدى بنفسه الى مفعول واحد والى الثانى بعن كما فى قوله تعالى «يسألك الناس عن الساعة » وقوله : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » وقد يتعدى الى مفعول واحد بعن كما فى قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم » وقد يتعدى الى مفعول واحد بالباء كما فى قوله سبحانه : «سأل سائل(١)

(١) قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » معناه انه سخر فطلب وقوع العذاب متحديا ليصدق أن الله حق ، والسائل هو النضر ابن الحارث الذى قال : ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ، أو هو ابو جهل الذى قال : فأسقط علينا كسفا من السماء .

بعذاب واقع » وقد يتعدى بنفسه الى مفعول واحد والى الثانى بالباء كما فى قول الشاعر :

فان تسألونى بالنساء فاننى
بصير بأدواء النساء طبيب

أى فان تسألونى عن النساء ، قال الاخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان ، وبفلان .

وقد يجر المفعول الثانى بمن الزائدة كما فى قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر » أى ما أسألكم عليه أجرا ، بدليل قوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا » وقوله : « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا » .

يقال : سأله يسأله سؤالا ، ومسألة ، وتسآلا .

والسؤل والسئولة بضمهما هو ما يسأل ، تقول : أصبت سؤلى أو سؤلتى أى طلبتى فعل بمعنى مفعول كعرف ونكر ، ومنه قوله تعالى : « قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

ومثلهما السألة بالفتح ، تقول : هو سألتى من الدنيا . واللهم أعطنا سألاتنا ، قال :

وناديت يا رباه أول سألتى
اليك سليمى ثم أنت حسيبها

والأمر من سأل اسأل ، تقول لمن أذنب اسأل الله المغفرة ، ومنه قوله تعالى : « واسألوا ما أنفقتم » .

ويقال سال يسال بدون همز كخاف يخاف والأمر منه سل ومنه « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » واسم الفاعل من الفعلين سائل ، وللمبالغة سآل وسئول بفتحها وجمع السائل سألة ككتبة وسؤال ككتاب ويقال لكثير السؤال سؤلة كهمزة .

٤٨٨ ولقد شاع على ألسنة كثير من الأدباء والمثقفين وأسلات أقلامهم قولهم لأبنائهم ينبغى عليكم أن تجتهدوا فى دروسكم لتنجحوا فى الامتحان ، يعنون وجوب الاجتهاد .

وهذا خطأ وضلال بعيد ، لأن كلمة على لا تستعمل مع ينبغى ، وانما تستعمل مع هذا الفعل اللام فيقال : ينبغى لكم أن تجتهدوا ، اذ أن معنى هذا التعبير يندب لكم ندبا مؤكدا لا يحسن تركه أن تجتهدوا ، ويؤيد هذا الرأى قوله تعالى « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر » وقوله : « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » وقوله : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وقوله « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » وقوله « قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » وقول اللغويين ماينبغى أن يكون كذا معناه ما يتيسر وما يحسن .

ويقال : بغيت الشيء أبغيه بغاء ، وبغى ، وبغية بضمهن ، وبغية بكسر الباء أى طلبته ، والبغية بتشديد الياء وزان رضية الشيء المبتغى كالبغية بكسر الباء وضمها ، والباغى الطالب جمعه بغاة وبغيان بضم كل كل منهما .

تقول : ابغنى ضالتى أى اطلبها لى أو أعنى على طلبها ، قال رؤبة :

(واذكر بخير وابغنى ما يبتغى) أى اصنع بى ما يجب أن يصنع .

وقال ابو نواس فى هذا المعنى :

قال ابغنى المصباح قلت له اتئد
حسبى وحسبك ضوءها مصباحا

ويقال : بغى فلان على الناس بغيا من باب رمى اذا ظلمهم واعتدى عليهم وعدل عن الحق ومن هذا قوله تعالى : « يأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » وقوله : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

ومن المجاز قولك : بغى الجرح اذا ترامى الى الفساد ،

وبغت السماء اذا ألح مطرها وبغى فلان فى مشيته اذا اختال وأسرع فيها .

ويقال للفرس : انه لذو بغى فى عدوه أى ذو مرح .

ويقال : بغت المرأة بغاء بكسر الباء اذا كانت طلوبا للرجال فاجرة ، ومن هذاقوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » .

والبغى بتشديد الباء وزان غبى وصف خاص بالمرأة ولا يقالللرجل ، ومنه قوله سبحانه على لسان مريم عليها السلام : « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » .

وقوله على لسان قومها : « يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » .

٤٨٩ ويقولون : جريدة الأهرام أصدق الجرائد قولا ، وفى هذا التعبير غلطتان .

احداهما : كلمة جريدة ، لأنها ليست محلا لكتابة الأخبار وغيرها ، وانما هى سعفة من سعف النخل جرد عنها الخوص وقشر .

والأخرى : كلمة جرائد ، فهى — وانكانتجمعا قياسيا لجريدة كسبيكة وسبائك ، وشريكة وشرائك ولم تستعملها العرب بهذا المعنى ، وانما قالت : ان الجريدة بمعناها الحقيقى واحدة الجريد اسم جنس جمعى يتميز واحده بالتاء كتمرة وتمر ، وشجرة وشجر وكلمة وكلم والجريد معناه السعف الذى يجرد عنه الخوص ، ولا يسمى جريدا ما دام عليه الخوص .

والصواب أن يقال : صحيفة الأهرام أصدق الصحف قولا .

والصحيفة قطعة من جلد أو قرطاس يكتبفيه ، جمعها صحف وصحائف ، يقال

صحـــائف الكتب خير من صحاف الذهب ، ومن المجاز قولك لغيرك : صن صحيفـة وجهك أى بشرته والجـرادة بضم الجيم ما قشر عن الشىء كالخوص ونحوه ، تقول : جردت الشىء جردا من باب نصر اذا أزلت ما عليه •

والتجريد التعرية ، تقول : جردت فلانا من ثيابه بالتثقيل اذا نزعتها عنه وعريته فتجرد هو وانجـرد ، ومن المجـاز قولك : جردت السيف مـن غمده اذا سللته فهـو سيف مجرد •

ويقال رجل أجـرد اذا لم يكن على جسده شعـر وفى الحديث « أهل الجنة جـرد مرد مكحلون » وفـرس أجرد اذا كان قصير الشعـر رقيقـه ، والأجـرد السباق ومضى عليهم عام أجرد وجريد اذا لم يكن فيه خير ، ورجل جارود أى مشئوم يجـرد الخير بشؤمه ، ومـا رأيت فلانا مذ أجردان وجـريدان أى منذ يومين أو شهرين •

يقال : تجرد فلان لأمر كـذا اذا جد فيه ، وتجـرد لعبادة الله تعالى ، وتجردت السنبلة اذا خرجت من لفائفها ، وثوب جرد بفتح فسكـون اذا كان خلقا باليا ، وما أنت بمنجرد السلك اذا لم يكن مشهورا ، وتنق ابلا جريدة أى خيارا ، والجـراد بصيغة المبالغـة هو جلاء آنية الصفر •

٤٩٠ ويقول الواحـد منهـم : تكبدت فى هذا الأمر كثيرا من المشاق ، وكبدتنى هـذه القضية دراهم لا حصر لهـا وهذا خطـأ ، والفصيح أن يقال فى المعنى الأول : كابدت فى هذا الأمـر كثيـرا من المشاق مـكابدة أى قاسيته مقاساة ، وأصابنى منـه قدر كبير من المعاناة •

وأن يقال فى المعنى الثانى : بهظتنى هـذه القضية ، أو حملتنى ، أو جشمتنى ، أو

كابدت فيها باهظ النفقات حتى أثقلت كاهلى ، وقد قيل : المسافر يكابد الليل اذا ركب هوله وصعوبته .

أما كبد وتكبد فهما عربيتان سليمتان ولكن فى غير هذا المعنى اذ تقول تكبدت الشمس السماء اذا صارت فى كبيدائها وهو وسطها ، وكبدت الشمس تكبيداً اذا صارت فى وسط السماء .

ويقال : تكبد اللبن اذا خثر وذهب صفوه وبقيت خثارته أى عكارته ووسخه .

٤٩١ ويقولون فى تحية الضيف : على الرحب والسعة بفتح الراء ، والصواب أن يقال على الرحب بضمهما وذلك لأن مضموم الراء هو المصدر ، تقول : رحب المكان رحبا كحسن حسنا اذا اتسع ، ومثله رحب رحابة بفتح الراء كفصح فصاحة ، ففى الأساس : ضاقت على الأرض برحبها بضم الراء أى باتساعها وبسعا رحبت ، وانزل فى الرحب والسعة ، وفى القاموس ورحب به ترحيبا دعاه الى الرحب ، وفى المختار الرحب بالضم السعة ، والرحب بالفتح الواسع وكذا الرحيب ومنه قولك فلان رحيب الصدر ، وفى المصباح رحب المكان رحبا من باب قرب فهو رحب ورحيب بفتحهما .

ومن المجاز قولك : فلان رحب الذراع بهذا الأمر اذا كان مطيقا له ، ورحب الباع والذراع ورحيبهما اذا كان سخيا .

مما عرضنا من أقوال أصحاب المعجمات استبان أن مضموم الراء مصدر ومعناه الاتساع وهو المناسب للسعة ، أما مفتوحها فهو صفة مشبهة ومعناه واسع ، وتقول رحب فهو رحب أى واسع كضخم فهو ضخم ، ومثله رحيب كشرف فهو شريف .

وهذا الفعل يتعدى بالحرف فيقال رحب بك المكان ، ثم كثر حتى تعدى بنفسه فقالوا رحبتكم الدار ورحبكم الدخول فى طاعة الأمير أى وسعكم ، وهذا شاذ فى القياس ، فانه لا يوجد فعل بضم العين الا لازما مثل شرف وكرم غير أن أبا على حكى عن هذيل تعدية هذا الفعل .

ويقال فى هذا المعنى : مرحبا وأهلا أى أتيت سعة وأهلا فاستأنس ولا تستوحش ومرحبا ومسهلا أى صادفت سعة ومكانا سهلا ، ومرحبك ومسهلك ، ومرحبا بك الله ومسهلا ، قال الجعدى :

ومستأذن يبتغى نائلا (١)
أذنت له ثم لم يحجب
فآب (٢) بصالح ما يبتغى
وقلت له ادخل ففى المرحب

٤٩٢ ويسمون ما يضرب به النجاد القطن ليرق وينتفش قوسا ، والأفصح أن يسمى مندفا ، ومندفة وكربالا بكسر أوائلهن ، تقول : قطن مندوف ، ونديف ، ومندف بتشديد الدال مفتوحة .

وقيل : المندف هو الخشبة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن ، ووتر المندف يسمى المشوار بالكسر والهبرية وزان شرذمة ما طار من زغب القطن أو من الريش .

وانما قلنا الأفصح لأننا نميل دائما الى التخصيص ، اذ للقوس ألوان عدة ، ولا بد أن تضاف الى ما يخصصها فيقال :

١ ــ قوس ندف وهى التى تعنينا ها هنا .

٢ ــ قوس نبل وهى العربية المعروفة .

٣ ــ قوس جلاهق بضم الجيم وهو البندق الذى يرمى به ، وأصله بالفارسية (جله) وزان صرد .

(١) النائل : العطاء

(٢) آب : رجع

٤ ــ قوس النشــاب وهى الفارسية .

٥ ــ قوس الحسبان بضم الحاء وهى السهام الصغار ، واحدتها حسبانه بالهاء .

وفى المثل «رموهم عــن قوس واحدة » ويضرب فى الاتفاق .

٤٩٣ ويقولون : كتبنـــا أسماء الفائزين فى لوحة علقناها على جدار فى فنـــاء المدرسة ، ويجمعونهــا على لوحــات ، وكل من المفرد والجمع خطأ ، لأن التاء الفارقة بين المذكــر والمؤنث لا تلحق اطرادا لا الصفات كصائم وصائمــة ، ومحروم ومحرومة ، وجرىء وجريئة ، ولكنها لا تلحق من الأسماء الا عــددا قليـــلا مسموعا ، منــه : سبـــع وسبعــة ، وذئب وذئبــه ، وأسد وأسدة ، ونمر ونمرة ، ورجل ورجلة ، وقيل ان عائشة رضى الله تعــالى عنها كانت رجلة الرأى ، ولهذا لا يقال فى لوح لوحة .

ولاصلاح عبارتهــم يجب أن يقال :كتبنا أسماء الفائزين فى لوح وجمعه ألواح . كما فى قوله جل شأنه : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وقوله : « وكتبنـــا له فى الألواح » وقوله : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » .

واللوح كل صفيحة عريضة خشبا كانت أو عظما ، وجمع الجمع تلاويح .

ويقال : نظرت الى ألواح فلان أى الى ظواهره ، قال يصف امرأة :

تمسى كألواح السلاح وتضـ حى كالمهاة صبيحة القطـــر

ومن المجاز قولك للمهزول لم يبق منك الا الألواح أى العظام العراض .

٤٩٤ ويقولون : انفقنا فى رحلتنـــا الى انجلترا خمسة آلاف جنيه

اذا كان طعامنـــا يكلفنا فى اليوم خمسين جنيها ، وهذا الكلام يشـوبه الخطأ ، لأن كلمة جنيه عامية •

والفصيح أن يستبدل بها لفظ دينار فيقـال : أنفقنـا خمسة آلاف دينار ، وأصل الدينار دنار بتشديد النون، أبدل من احداهما ياء للتخفيف حتى لا يلتبس بالمصادر مـن نحو كذاب فى قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا » والدليـل على صحة ذلك أنها ترد فى الجمع الى أصلها فيقال دنانير •

وبعضهم يقول : هو فيعال، وهذا القول مردود بأنه لو كان كذلك لوجدت الياء فى الجمع كما ثبتت فى جمـع ديماس وهو الحمام على ديامیس ، وفى جمع ديباج على ديابيج ويشبه الوجه فى وضـاءته واشراقه بالدينـار فيقـال : وجـه فـلانة كأنه الدينـار الهرقلى •

كأن دنانيرا على قسماتهـــا
وان كان قد شـف الوجوه لقاء

ويقال : ذهب مـدنر اذا كان مضروبا ، وكلمت فلانا فدنر وجهه تدنيرا اذا تلألأ ، ودنر الأمير بالبناء للمجهول فهو مدنر اذا كثرت دنانيره•

ومن المجاز قولك : ثوب مدنر أى أن وشيه كالدينار، قال ابن المفرغ :

وبرود مدنرات وقـــز
وملاء من أعتـق الكتان

٤٩٥ ويجمعون أعجف بمعنى هزيل وكذا مؤنثه عجفاء على عجف بضم فسكون ، وحجتهـم فى هذا أن أفعل الذى مؤنته فعلاء ،وفعلاء التى مذكـرها أفعل يطرد جمعها على فعـل كأحمر وحمـراء وحمـر ، وأخضر وخضراء وخضـر ، وكذلك يجمع على فعل أفعل الذى ليس له فعلاء لمانع فى الخلقة كأكمر لعظيم الكمرة وهى حشفة الذكـر ، وآدر

لعظيم الخصيـــة ، يقال فى جمعها كمر وأدر ، ويجمع على هذا الوزن أيضا فعلاء التى ليس لها أفعل لمانـع خلقى كرتقاء وهى التى ليس لهـا خرق الا المبال ، وكذا عفلاء وهى المرأة التى يخـرج من قبلها شىء كالأدرة ، فيقـال فى جمعها رتق وعفل .

أما أعجف وعجفاء فكلاهمـا شذ من هذه القاعـــدة ولا يجمع الا على عجـاف بكسر العين ، كما فى قوله تعالى : « انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » وانمـا جمعت عجفاء على عجاف اما حملا لهذا الجمع على ضـده وهو سمان ، لأن العرب قد تحمل الشىء على ضده ، كما قالت عدوة حمـلا لها على صديقة ، وفعول بمعنى فاعل لا تدخـــله الهـاء اذا كان للمؤنث تقول امرأة صبـور وشكور وغفور ، واما حملا له على نظيره وهو ضعاف .

ومما شذ من هذه القاعدة أيضا فلم يجمع على فعل كلمتا أبطح وبطحـاء ، وكلتاهما معناها مسيل واسـع فيـه دقاق الحصى فقد جمعتا على بطـاح بالكسر ، وبطـائح وأباطح .

وهناك ألفاظ جمعت قياسا على فعل ، وشذوذا على فعال بالكسر منها :

١ ــ أجرب وجرباء ، فقد جمعتا قياسـا على جـرب ، وشذوذا على جراب بالكسر وجربى بالفتح .

٢ ــ أعصل وهو المعـوج فى صلابة ومؤنثه عصلاء ، فقد جمعتا قياسا على عصـل تقول : سهم أعصل ، وناب عصلاء ، وسهام وأنياب عصل ، وشـــذوذا على عصـــال بالكسر .

٤٩٦ ويقولون : تواجد الغلمان فى الملعب فهم متواجـــدون ، ولا بد من تواجدهم فيه كل

صباح ليؤدوا ما يقويهم من التمرينات الرياضية ، ومن لم يتواجد منهم فى الموعد المحدود حرم المكافأة ، وكل هذه التعبيرات خطأ ، لأن التفاعل من الوجود لم يرد عن العرب وكذا كل ما يشتق منه والصواب أن يقال : وجد المدرب غلمانه فى الملعب فهم موجودون ، اذ أنه لا بد من وجودهم فيه كل صباح ، ليؤدوا تمريناتهم الرياضية ، ومن لم يوجد فى الموعد المحدود حرم المكافأة .

ولك أن تقول : أوجد المدرب غلمانه فى الملعب صباحا فهم موجودون ، كما يقال أوجده الله فهو موجود ، ولا يقال : فهو موجد .

ومثل ذلك قولهم أجنه الله فهو مجنون ، ولا يقال مجن ، وأسله فهو مسلول ولا يقال مسل .

٤٩٧ ويقولون : ألزمه القاضى بالحق فالتزم به ، وفى هذا التعبير غلطتان :

احداهما : أنهم جعلوا الفعل ألزم متعديا لمفعول به واحد ، والفصيح أنه ينصب مفعولين بدليل قوله تعالى : «وألزمهم كلمة التقوى » وقوله : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، وقوله : « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .

فكان عليهم أن يقولوا : ألزمه القاضى الحق .

والغلطة الأخرى : أنهم جعلوا مطاوع هذا الفعل لازما ، مع أن مطاوع الفعل المتعدى لاثنين يجب أن يتعدى لواحد ، تقول : ألزمته الشىء فالتزمه .

فكان عليهم أن يقولوا : ألزمه القاضى الحق فالتزمه ، لا فالتزم به أما الفعل الثلاثى فتارة يكون قاصرا كما فى

قولك : لزم الشيء لزومـــا بالضم ولزاما بالكسر اذا ثبت ودام ، وتارة ثانيـــة يكون متعديا لواحد كمـــا فى قولك لزم الولد أباه لزما ولزوما ، ولزاما ،كلازمه ملازمةولزاما، وهو لزمة كهمزة أى اذا لزم شيئا لا يفارقه ، وتارة ثالثة يكون متعديا بالبـــاء كما فى قولك لزم الولد بأبيـــه أى تعلق به .

ومن معانى اللـــزام بكسر اللام العذاب ، فقوله تعالى : « قل ما يعبأ بكم ربى لـــولا دعاؤكم فقد كذبتم فســـوف يكون لزاما » معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعـــاؤه اياكم الىالاسلام فقد كذبتمفسوف يكون لزاما ، أى عذابا لازما لكم .

أنشد أبو عبيدة لصخـــــر القمى :

فاما ينجوامنحتف(١)أرض

فقد لقيا حتوفهما لزامـــا

قوله جل شـــأنه : « ولـــولا كلمة سبقت مـــن ربك لكان لزاما » معناهلكان العـــذاب لازما لهم، ولكنه أخرهم الى يوم القيامة .

ومن معـــانى الالتـــزام الاعتناق ، تقول : التزم فلان الاسلام اذا اعتنقه فالاسلام ملتزم بصيغة اسم المفعول ، ومنه يقال لما بين باب الكعبة المشرفة والحجـــر الأســـود الملتزم ، لأن الناس يعتنقون أى يضمونه الى صدورهم ، ويقال للشيء الثابت : صار هذا الشيء ضربة لازم ، كما قالوا : ضربة لازب وضربة اللازب أفصحمن ضربة اللازم كما رأى صاحب المختار لأن فيها لصوقا .

وفى التنزيل : « انا خلقناهم من طين لازب» أىلازق . قال كثير فى محمد بن الحنفية

(١) الحتف : الموت جمعه حتوف

وهو فى حبس ابن الزبير :
فما ورق (١) الدنيا بباق لأهله
وما شدة البلوى بضربة لازم

٤٩٨ ويقولون : أوقفت الحكومة فلانا عن عمله بالفعل المزيد بالهمزة ، يعنون أنها منعته منه ، وهذا خطأ صراح .

والصواب أن يؤدى هذا المعنى بالفعل الثلاثى فيقال : وقفته عن عمله وقفا من باب وعد ، كما يقال : وقف الأب ابنه على ذنبه اذا أطلعه عليه ليقلع عنه ، ووقف الرجل داره للمساكين وقفا اذا حبسها فى سبيل الله .

ويقال : وقفت الدابة تقف وقفا ووقوفا اذا سكنت ، ووقفتها أنا يتعدى ويلزم ، وشىء موقوف ووقف تسمية بالمصدر ، جمعه أوقاف كثوب وأثواب .

أما قولهم أوقف فلان داره بالألف فلغة رديئة ، ولذا أنكرها الأصمعى .

وقال : اللغة الفصحى أن يقال وقفت الشىء بغير ألف .

أما أوقف بالألف فلا يستعمل الا فى قولك أوقفت عن الكلام اذا أقلعت عنه ، وقولك كلمنى فلان فأوقفت أى أمسكت عن الحجة عيا .

وعن أبى عمرو والكسائى انه يقال للواقف : ما اوقفك ها هنا ؟ أى أى شىء صيرك الى الوقوف فى هذا المكان ، وأفصح منه قولك : من وقفك بغير ألف .

ويقال : وقفت الأمر على حضور فلان أى علقت الحكم فيه بحضوره ، ووقفت قسمة الميراث الى أن تضع ربة البيت مولودها ، أى أخرتها حتى تضع .

(٢) الورق وزان كبد : الدراهم المضروبة

ويقال : وقفت القارىء على الكلمة وقوفا ، ووقفته توقيفا اذا علمته مواضع الوقوف .

ووقفت ابنتى توقيفا اذا جعلت فى يديها الوقف بزنة الوعد ، وهو سوار من عاج ونحوه .

والميقف والميقاف بكسر ميميها عود يحرك به القدر ، ويسكن به غليانها .

٤٩٩ ويقولون : تنازل فلان لاخوته عن حقه فى الميراث ، يعنون انه تركه لهم محبة واكراما ، وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن التنازل لاصلة له بمعناهم هذا ، وانما معناه النزال والمنازلة ، تقول نازله فى الحرب منازلة ونزالا ، وتنازل تنازلا اذا نزل كل منهما عن جمله وامتطى فرسه ثم أخذا يتضاربان ويتناجزان .

والفصيح ـ لتأدية المعنى المبتغى ـ أن يقال : نزل لاخوته عن حقه ، كما يقال نزل فلان لصديقه عما له عنده من دين ، ونزل الأنصارى عن واحدة من زوجاته لأحد من المهاجرين ليتزوجها بعده ، وتقول للشاعر انزل لى عن هذه الأبيات كى أنسبها الى نفسى .

أو يقال : هضم لاخوته حقه فى الميراث ، كما يقال هضمت المرأة من مهرها لزوجها بعضه اذا وهبته له .

وتقول لأخيك : هضمت لك من حقى كذا اذا تركته وأسقطته .

ويقال : نزلهم ، وبهم ، وعليهم ، اذا حل فهو نزيل جمعه نزلاء ، قال :

نزيل القوم أعظمهم حقوقا
وحق الله فى حق النزيل

ومن المجاز قولك كنا فى نزالة فلان بكسر النون أى فى ضيافته فهو من الكرم بمنزل ومن اللؤم بمعزل .

والنزل بضمتين المنزل كالنزل بسكون الزاى وما هيىء للضيف أن ينزل عليه ، وكذلك هو طعام النزيل ، وفى التنزيل « هذا نزلهم يوم الدين » ومن معانيه أيضا الفضل ، تقول فلان ذو نزل أى ذو فضل .

٥٠٠ أنكرت مجلة المجمع اللغوى استعمال ساهم فلان أخاه بمعنى شاركه ، واكتفت لهذا المعنى بأسهمه وسهمه ، وجرى وراء رأيها كثير من رجال اللغة مستندين الى أن المعاجم لم تذكر المساهمة الا بمعنى المقارعة ، وأن ذلك ورد فى قوله تعالى : « وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين » أى قارع أهل الفلك فكان من المغلوبين .

والحق أن استعمال المساهمة بمعنى المشاركة صحيح للأدلة الآتية :

الأول : أن من يقارع لا بد أن يكون له أسهم يشترك بها بالقرعة .

والثانى : أن الزمخشرى قال : تساهموا الشىء أى تقاسموه .

وأنشد الأصمعى لحكم الخضرى :

تساهم تسويا هافى الدرع(١)
رأدة(٢)
وفى المرط(٣) لفاوان(٤)
ردفهما عبل(٥)

فالشاعر يريد أن يقول : ان ثوبيها اشتركا فى ستر

(١) درع المرأة قميصها
(٢) الرأدة : الشابة الحسنة الناعمة
(٣) المرط : كساء من صوف أو خز يؤتزر به
(٤) اللفاوان مثنى لفاء وهى الفخذ الضخمة
(٥) عبل : ضخم

جسمها ، فقميصهـــا غطى نعومتها ومرطها أخفى فخذيها وعجيزتها المتسمة بالضخامة ، ولقد عبر فى هذا البيت عن المشاركة بالتساهم ، ولا فرق فى المعنى بين ساهم وتساهم لأن كلا من فاعل وتفاعـــل موضوع لمعنى المشاركة كقاتل وتقاتل ، ونافس وتنـافس ، وحارب وتحارب .

والثالث : أن مـــن الآثار الأدبية التى تؤيد صحة هذا المعنى قول ابراهيم بن العباس الصولى حينما قسم أخـوه عبد الله ماله ثلاثة أقســـام ووهب له ثلثا ولأخته ثلثـا وأبقى لنفسه الثلث الأخيـر ليكون مساويا لهما .

ولكن عبد الله لما حـوى الغنى
وصار له من دون اخوته مـال
رأى خله (١) منهم تسد بمـال
فساهم حتى استوت بهم الحال

والرابع : أننا نستطيع أن نستخلص من المعـــاجم ان المساهمة معناها المشاركة :

ا ــ قال ابن الأثير فى مادة (أسا) والمواساة المشـاركة والمساهمة .

ب ــ وقال المصبـاح فى مادة (ناب) وناوبته مناوبة بمعنى ساهمتـــه مساهمـة وتنـاوبوا عليـه تداولـوه بينهم .

ج ــ وقال القامـوس فى هذه المادة : تناوبوا على الماء أى تقاسموه .

فنص ابن الاثيـر يشيـر بصراحة الى أن المساهمة هى المشاركة والنصـان الآخران يشيران الى معنى المشـاركة رمزا وايحـــاء ، اذ أن فى المنـــاوبة التى هى بمعنى المساهمـــة تداولا وتقاسما واشتراكا وأن كل المتناوبين لا بد أن يكون لهم أسهم فيما تناوبوا عليه .

(١) الخلة : الحاجة والفقر

مما عرضنا من الأدلة اتضح أنه يجوز أن يقال : ساهمت فلانا فى انشاء هذه المدرسة أى شاركته وقاسمته ، وأن يقال : أسهمت أو سهمت فى بناء المدرسة بكذا ، غير أن ساهم متعد وأسهم وسهم لازمان ، فاذا قال قائل : ساهمت فى انشاء المدرسة كان الفعل متعديا محذوف المفعول أى ساهمت فلانا أو ساهمت القوم ، كما حذف المفعول فى قوله تعالى : « فكشفت عن ساقيها » أى فكشفت الثوب عن ساقيها ، وكما حذف فى قوله : « وأما من أعطى واتقى » فقد حذف من أعطى مفعولان ، ومن اتقى مفعول ، وكما حذف من قوله : «فساهم فكان من المدحضين » أى فساهم أهل الفلك .

٥٠١ ويقولون : منعت الحكومة التجول ليلا فى الشوارع ، وهذا التعبير غير سليم ، لأن كلمة التجول بزنة التحول لم ترد عن العرب ، والصواب أن يقال : منعت التجوال أو التطواف بفتح كل منهما ، تقول: جول فلان فى البلاد تجوالا وطوف فيها تطوافا ، وتطوف بالبيت واطوف به على البدل والادغام ، ومن هذ قوله تعالى : « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف » ، وقوله : « وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

ويقال : جال المقاتل فى الحرب جولا من باب قال ، وجولا بالضم أيضا ، وجولانا بالتحريك ، قال الفراء : اذا كان الفعل فى معنى الذهاب والمجىء مضطربا فلا تهابن فى مصدره الفعلان كفاض النيل فيضانا ، وخفق القلب خفقانا ، وغلت القدر غليانا. ويقال فى قلبه جولان الهموم وهو ما يجول فيه ، قال :

أقاذف جولان الهموم كأننى
شبوب أصابته حبالة صياد
وتجاول الجيشان أى جال بعضهما على بعض ، وبينهما مجاولات ، قال العباس بن مرداس :
بكل الحجاز قد ضربنا كتيبة
تجاولنا عن أرضها ونجيلها
وقال النابغة:
والخيل تعلم أنا فى تجاولنا
يوم الحفاظ أولو بؤس وانعام
ويقال : اجتالتهم الشياطين اذا حولتهم عن قصدهم وصرفتهم عن هداهم الى ضلالها ، وفى الحديث : «خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين » .

والجول بالضم العقل والعزم ، ومن المجاز قولك : ماله جول ولا معقول أى ماله رأى ولاتماسك وكذلك هو الناحية ، جمعه أجوال كقفل وأقفال ، تقول : قطع الفرس أجوال الميدان أى جوانبه ونواحيه .

٥٠٢ ويقولون للجذعة من الغنم بفتح كل من الجيم والذال : عبورة ، والفصيح أن يقال لها عبور بغير هاء ، جمعها عبائر كعجوز وعجائز ، وحكى عن اللحيانى قوله : لى نعجتان وثلاث عبائر .

والجذعة من الغنم هى التى تكون فوق الفطيم وقبل الثنى ، جمعها جذعات كقصبة وقصبات ، وجذاع أيضا بكسر الجيم .

والفطيم هى التى فصلت عن الرضاع فى سنتها الأولى ، تقول : فطمت بالبناء للمفعول فهى فاطم ، ومفطومة ، وفطيم ، أما الثنى وزان نبى فهى التى صارت فى السنة الثانية تقول : أثنى البعير اذا صار ثنيا .

والجذعة هى الصغيرة من أولاد النعجة ، وفى الحديث : « أسلم والله أبو بكر وأنا جذعة » وأصلها جذعة زيدت فيها المميم .

عباس ابو السعود

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« العدل فى أسمى معانيه »

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

« صدق الله العظيم »

سرقت امرأة من بنى مخزوم حليا ومتاعا ، ورفع أمرها الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فاعترفت بالسرقة ، فخشى قومها أن ينفذ فيها العقوبة .. فوسطوا أسامة بن زيد وأبيه ليشفعا لها عنده .. فغضب عليه السلام وقال : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال : « أيها الناس .. انما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه .. واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »

« الايمان طمأنينة »

مر ابراهيم بن أدهم على رجل ينطق وجهه بالهم والحزن ، فقال له : « أيها الرجل انى سائلك عن ثلاث ، فأجبنى عنها ؟ فقال الرجل : نعم قال : أيجرى فى هذا الكون شىء لا يريده الله ؟ قال : كلا . قال : أفينقص من رزقك شىء قدره الله لك ؟ قال : كلا . قال : أينقص من أجلك لحظة كتبها الله لك فى الحياة ؟ قال : كلا . قال ابراهيم فعلام الهم اذن ؟! »

« أجير أو أمير »

دخل أبو مسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال :

السلام عليك أيها الأجير فاستنكر ذلك جلساء الخليفة ، وقالوا له : قل السلام عليك أيها الأمير ، فأعاد : السلام عليك أيها الأجير ، قالوا : بل قل أيها الأمير ، فأصر على قوله وهنا فطن معاوية الى قصده ، وقال دعوا أبا مسلم فانه أعلم بما يقول ..

فقال أبو مسلم : انما أنت أجير استأجرك رب هذه الأمة لرعايتها فان أنت داويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدها أجرك ، وان أنت لم تفعل عاقبك سيدك .

« فصاحة القرآن الكريم »

سمع الأصمعى جارية صغيرة السن تقول كلاما بليغا ، فقال لها ما أفصحك ، فقالت أو تعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فقد اشتملت على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

« مداومة قراءة القرآن الكريم »

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : ان أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحر ، والهدى من الضلالة ، فداوموا على قراءة القرآن الكريم ، فانه كلام الرحمن وحصن حصين من الشيطان ، ورجحان فى الميزان .

« اتق الله يا عمر »

قال رجل لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : اتق الله يا عمر ، وأكثر عليه فقال له قائل : اسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين . فقال له عمر : دعه ، لا خير فيهم ان لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا ان لم نتقبل .

« جزاء المعروف »

وهب رجل لاعرابى شيئا فقال : « جعل الله للمعروف اليك سبيلا وللخير عليك دليلا ، وجعل عندك وفدا جزيلا ، وأبقاك طويلا وأبلاك جميلا » .

« اله عمر يعلم »

نهى عمربن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى خلافته عن مذق اللبن بالماء (١) ، فخرج ذات ليلة فى حواشى المدينة ، فاذا بامرأة تقول لابنة لها : الا تمذقين لبنك فقد أصبحت ؟ فقالت الجارية : كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق !

فقالت : قد مذق الناس فامذقى فما يدرى أمير المؤمنين . فقالت : ان كان عمر لا يعلم فاله عمر يعلم ، ما كنت لافعله وقد نهى عنه .

فوقعت مقالتها من عمر ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه ، فقال : يا بنى ، اذهب الى موضع كذا وكذا ، فاسأل عن الجارية فذهب عاصم فاذا جارية من بنى هلال : فقال له عمر : اذهب يا بنى فتزوجها ، فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب ، فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز ابن مروان ، فأتت بعمر بن عبد العزيز !

« دعانى من هو خير منك »

حج الحجاج ، فنزل ببعض

(١) المذق : الخلط .

المياه ، ودعا بالغداء ، فقال لحاجبه : انظر من يتغدى معى واسأله عن بعض الأمر ! فنظر الحاجب فاذا هو بأعرابى نائم بين شملتين (١) من شعر فضربه برجله ، وقال : أنت الأمير ..

فأتاه فقال له الحجاج : اغسل يديك وتغد معى ، قال : انه دعانى من هو خير منك فأجبته ، فقال الحجاج : من الذى دعاك ؟ قال : الله تعالى دعانى للصوم فصمت ، قال فى هذا اليوم الحار ! قال نعم: صمت ليوم أحر منه ، قال : فأفطر وتصوم غدا ، قال ان ضمنت لى البقاء الى الغد ! قال : ليس ذلك الى . قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل لا تقدر عليه ؟ قال : انه طعام طيب قال : انك لم تطيبه ولا الخباز ، ولكن طيبته العافية .

« الله موجود »

١ ــ قال بعض الأعراب ، وقد سئل عن الدليل على وجود الرب ، فقال : « يا سبحان الله ! ان البعر ليدل على البعير ، وان أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج، الا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!! »

٢ ــ وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

٣ ــ وقال ابن المعتز :

فياعجبا كيف يعصى الاله
أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية
تدل على أنه واحد

« شروط السؤدد عند العرب »

قال الجاحظ : كانت العرب تسود على أشياء : أما مضر فتسود ذا رأيها ، وأما ربيعة فمن اطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب وكان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان .

« من عيون الشعر »

دع الأيام تفعل ما تشاء
وطب نفسا اذا نزل البلاء
ولا تجزع لحادثة الليالى
فما لحوادث الدنيا بقاء
اذا ما كنت ذا قلب قنوع
فانت ومالك الدنيا سواء

« فما يدرى أحدكم من أبوه ؟ »

سئل عدى بن حاتم ، مالك لا تشرب الخمر ؟ قال : معاذ الله

(١) الشملة : كساء يشتمل به .

أن أصبح حليم القوم وأمسى سفيههم .

وسقى قوم امرأة حتى سكرت ، فلما أفاقت ، سألت أيشرب نساؤكم الخمر هذا ؟

قالوا : نعم ، قالت فما يدرى أحدكم من أبوه ..!

« القول اللين »

قال رجل لهارون الرشيد : « انى أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها » .

قال الرشيد : « كلا ! ان الله أمر من هو خير منك بالانة القول لمن هو شر منى ، قال لنبيه موسى عليه السلام اذ أرسله الى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

« انا وانت فى الجنة »

نظرت امرأة عمران بن حطان فى المرآة يوما ، وكانت جميلة ، وكان عمران دميما ، فقالت له : انا وانت فى الجنة قال : ولم ؟ قالت : لانك رزقتنى فشكرت وأنا ابتليت بك فصبرت ، والصابر والشاكر فى الجنة .

« ان من الشعر لحكمة »

اذا أعسرت لم يعلم شقيقى
واستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى
ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى
لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقال آخر :

ان الكريم ليخفى عنك عسرته
حتى تراه غنيا وهو مجهود

« سبعة لا يشاورون »

سبعة لا ينبغى لذى لب أن يشاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ومراء ، وجبان ، وبخيل ، وذوهوى فان الجاهل يضل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة ، والمرائى واقف على رضا الناس ، والجبان من دأبه الهرب ، والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له فى غيره ، وذو الهوى أسير هواه لا يقدر على مخالفته .

« أبو يوسف الفقيه »

تغير الرشيد يوما على زبيدة ، فقال لها : أنت طالق ثلاثا ان بت الليلة فى مملكتى فاستفتوا فى ذلك القاضى أبا يوسف ، فقال : تبيت فى بعض المساجد . فان المساجد لله ، فولاه القضاء بجميع مملكته .

« دعاء »

« اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : متى ، وكيف شرع الصيام ؟

ج : جاء فى بحث نفيس لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر — رحمه الله ما يلى .

سار الاسلام فى شريعة الصيام على طريقته فى التدرج بالأحكام ، ففرض صوم رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، فى شهر شعبان منها ، قبل غزوة بدر ، واقتضت حكمة الله أن تكون فرضيته هكذا متأخرة بعض الشىء عن بدء ظهور الاسلام . وعن مشرعية غيره من الصلاة وبعض الأحكام . وذلك لأن فطم النفس ، ومنعها عن مألوفاتها ومشتهياتها جهاد ومشقة، لا يصبر عليه الا من تمكنت عقيدة التوحيد فى قلبه ومرن على الصلاة ، وحب طاعة الله ، وحسن الاستماع لأوامره ، وقبول أحكامه والتأثر الكامل والانتفاع العظيم بآيات الذكر الحكيم ...

وهذا هو أحكم الطرق فى التشريع ، واحسن مثل يحتذى فى النصح والهدى والارشاد ، أن يؤخذ الناس بالتدرج فى الموعظة، يبدأ معهم بما يخف على نفوسهم ، وما يكونون أحسن قبولا له وطاعة فيه ، ثم يستعان بذلك على الانتقال بهم الى غيره ،مما يكون فيه نوع مجاهدة ومشقة.وهكذا تربى فيهم الفضائل والملكات الطيبة . وبهذا تتكون الأمة الصالحة ، وبه وحده يمكن أن يجتمع الناس على الخير، وعلى التعاون فى البر والعمل النافع .

ولقد كان من التدرج فى الصيام الذى أتى به الاسلام أنه فرض على الناس — قبل أن يفرض صوم رمضان — أن يصوموا يوم

عاشوراء ، وهو يوم معظم له فضله وشرفه ، ثبت تعظيمه وصومه فى الديانات السابقة على الاسلام ، وحفظت آثار هذا التعظيم ومظاهره ، عند قريش فى الجاهلية ، فقد كانوا يحتفلون بهذا اليوم ، ويكسون فيه الكعبة . وقد وجد الرسول صلى الله عليه وسلم مظاهر هذا التعظيم باقية فى يهود المدينة بعد الهجرة .

ففى الصحيحين من حديث عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصيامه حتى فرض رمضان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن عاشوراء : « من شاء فليصمه ومن شاء أفطره » .

وفى الصحيحين أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال . ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . قال :فأنا أحق بموسى منكم ، فصام وأمر بصيامه » .

فيوم عاشوراء كان يصام فى الجاهلية ، وصامه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم فرض صيامه على الناس قبل أن ينزل القرآن بفرض الصيام ، وقد انتهت فرضيته بفرض صيام رمضان ذلك الشهر العظيم ، لكن صوم عاشوراء قد استمر شيئا مندوبا اليه ، ويستحب أن يصام قبله يوم التاسع ، كما نبه الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لئن عشت الى قابل لأصومن التاسع » .

س : هل يجب تبييت نية الصيام فى كل ليلة من ليالى رمضان أم يكفى نية صيام الشهر فى أول ليلة من لياليه ؟

ج : ذكر الشيخ سيد سابق فى رسالة الصيام : أن النية من أركان الصوم لقوله تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، وقوله صلى الله عليه

وسلم : « انما الأعمال بالنيـات ، وانما لكل امرىء ما نوى » .

ولا بد أن تكون قبل الفجر من كل ليلة من ليالى شهر رمضان . لحديث حفصة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له » رواه أحمد وأصحاب السنن . وصححه ابن خزيمة وابن حيان .. (ويجمع من الاجماع وهو احكام النية والعزيمة) وتصح فى أى جزء من أجزاء الليل، ولا يشترط التلفظ بها ، فانها عمل قلبى لا دخل للسان فيه ، فان حقيقتها القصد الى الفعل امتثالا لأمر الله تعـالى ، وطلبـا لوجهه الكريم .

فمن تسحر بالليل قاصدا الصيام تقربا الى الله بهذا الامساك ، فهـو ناو . ومن عزم على الكف عـن المفطرات أثناء النهار مخلصا لله ، فهو ناو كذلك وان لم يتسحر .

وقال كثير من الفقهاء : ان نية صيام التطوع تجزىء من النهار ان لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : « دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : « هل عندكم شىء ؟ » قلنا : لا . قال : « فانى صائم » رواه مسلم وأبو داود .

واشترط الأحناف أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو المشهور من قول الشافعى . وظاهـر قول ابن مسعود، وأحمد : أنها تجزىء قبل الزوال وبعده على السواء .

هذا وقد تضمن شرح « سبـل السلام » لحـديث حفصة المذكور ولفظه فيه : « من لم يبيت الصيام قبل الفجر فلا صيام له » بعد أن ذكر أنه يدل على أنه لا يصح الصيام الا بتبييت النية وهو أن ينوى الصيام فى أى جزء من الليل ، وأول وقتها الغروب ، وتشترط النية لكل يوم على انفراد ، وهـذا مشهـور من مذهب أحمد .

وله قول : أنه اذا نوى من أول الشهر تجزئه ، وقوى هذا القول ابن عقيل بأنه صلى الله عليه وسلم قال : « لكل امرىء مـا نوى » وهذا قد نوى جميع الشهر ، ولأن

رمضان بمنزلة العبادة الواحدة ، لأن الفطر فى لياليه عبادة أيضا يستعان بها على صوم نهاره .

س : يحرص كثير من المسلمين على صوم رمضان ، وان كانوا يتركون الصلاة ، فما حكم الصوم مع ترك الصلاة ؟

ج ــ أجاب عن هذا السؤال فضيلة الشيخ الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت فقال :

الصوم فريضة مستقلة :

صلاة الخمس فى اليوم والليلة ، وصوم رمضان ، كلاهما فريضة من فرائض الاسلام الأولى ، وكلاهما ركن من أركانه الخمس التى بنى عليها ، وجعلت فى حكم الله عمده التى يقوم عليها ، وهما ركنان بدنيان : فالصلاة يستحضر بها المسلم عظمة مولاه ، عن طريق الوقوف بين يديه ، ومناجاته ربه ، وتعظم مراقبته اياه ، وبالصوم تطهر نفسه من بواعث الشهوة ، وتخلص من مكدرات الروح شهرا كاملا فى السنة كلها ، ويتكرر درس التصفية والرياضة كلما حل رمضان كل عام ، وهما وان اشتركا فى الغاية والهدف ، وكونا غذاء قويا للايمان ، الا أن كلا منهما فريضة مستقلة ــ فى الطلب والتكليف والجزاء ــ عن الأخرى ، ولا يكمل الايمان الا بهما مضموما اليهما الزكاة والحج ، فمن صام وصلى وزكى وحج فقد كمل ايمانه ومن تركها فقد فقد جميع الشعائر الدالة على صدق الايمان ، وكان ايمانه مجرد دعوى لا يقام لها عند الله ولا عند الناس وزن ، ومن أتى بواحدة منها ، أو ترك واحدة منها ، كان مقوضا من عمد الاسلام بقدر ما ترك ، وسقط عنه التكليف الدنيوى بما أتى به .

مكانة الصلاة بين الفرائض :

وللصلاة بين أركان الاسلام خصائص : فهى أول ركن فرض بعد الايمان ، وهى الدرس المتكرر فى كل يوم ، وهى الشعار الخاص الفارق بين الايمان والكفر ، وهى لا تسقط عن المسلم الا اذا خرج عن أهلية التكليف .

فهى تؤدى من قيام للقادر ، ومن قعود أو ايماء للعاجز ، وفى السفر وفى الحضر ، وفى الأمن وفى الخوف ، وفى الصحة وفى المرض !!! ولا كذلك الصوم الذى يسقط ببذل القضاء أو الفدية ، وقد تكرر طلب القرآن للصلاة مقترنة بالايمان فى معظم موارده.

أما الصوم فلم يعرض له القرآن الا فى آياته الخاصة الواردة فى سورة البقرة ، وقد ربط بالصلاة ـ من الثمرات الروحية وطهر الجوارح ـ ما لم يصرح بمثله فى الصوم .

دل كل هذا على مكانة الصلاة عند الله من بين فرائض الاسلام ، وعليه فمن صام وترك الصلاة ، فقد ترك الأهم فى تقويم الاسلام ، فاذا لم يكن مؤمنا بما ترك كان خارجا عن الاسلام ولا ينفعه صوم ولا زكاة ، وان كان مؤمنا بما ترك كان فاسقا عن أمر ربه ، وكان صومه مع ترك الصلاة قرينة واضحة على أنه لم يصم امتثالا لأمر الله ، والا لما ترك الواجب الأول ، مكتفيا بما دونه فى الفرضية والتكليف ، وكان باقتصاره على مافعل كالمستظهر على الله فيما فرض على عباده ، واذن لا يكون صومه الا مجاراة لعادة تقلدها من بيئته ، أو ورثها عن آبائه ، أو زعما منه ـ كما يظن بعض الناس ـ أن الصوم يكفر الذنوب كلها ، وكلا الأمرين ينافى الايمان وما يقتضيه ، وكان ايمانه محل شك وتردد .

كيف وقد وردت أحاديث كثيرة تدل بظاهرها على كفر تارك الصلاة ؟ وكان فى اقتران الصلاة بالايمان ـ فى كثير من الآيات ـ مقويا لرأى الجمهور فى كفر تارك الصلاة واستحقاقه القتل ! ! ، وان كان بعضهم يرى أن القتل ليس كفرا ، وانما هو حد شأن الزانى والقاتل .

هذان رأيان فى حكم تارك الصلاة ، والرأى الثالث أنه لا يخرج عن الاسلام ما دام مؤمنا بفرضيتها ولا يحد بالقتل ، وانما يعزر بالضرب والحبس حتى يصلى ، ولا نعرف فى تارك الصوم سوى التعزير

والتشهير به فى الأسواق والمجتمعات .

وبعد : فهل لهؤلاء الذين يصومون مع تركهم الصلاة أن يفهموا وضع الصلاة فى الاسلام ، وأن الواجبات الدينيةعند اللهوحدة لا تتجزأ يشد بعضها أزر بعض ،

ولا تحوز واحدة منها درجة القبول عند الله الا مقترنة فى سجل صاحبها بسائر أخواتها ؟ هل لهم أن يفهموا أن العبادة بحكم العادة والشهوة مردودة على صاحبها ، وأن صاحبها لا يؤدى بها حق الله ، ولا يمتثل بها أمره ، وانما يؤدى بها حق بيئته أو أمر شهوته ؟

أرجو أن يفهموا ذلك ، ويثوبوا الى رشدهم ، ويجمعوا بين الصلاة والصوم ، امتثالا لأمر الله وطلبا لرضوانه ، وتحقيقا لواجب الايمان .

س : أيهما أفضل صلاة العيدين فى المسجد أم اجتماع الناس للصلاة فى الصحراء أو أحد الميادين ؟

ج : ذكر الامام الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين عند الكلام على صلاة العيدين « المستحب الخروج الى الصحراء الا بمكة وبيت المقدس ، فان كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة فى المسجد ، ويجوز فى يوم الصحو أن يأمر الامام رجلا يصلى بالضعفة فى المسجد ، ويخرج بالأقوياء مكبرين » .

وقال الشيخ سيد سابق : صلاة العيد يجوز أن تؤدى فى المسجد ، ولكن أداءها فى المصلى خارج البلد أفضل — ما عدا مكة فان صلاة العيد فى المسجد الحرام أفضل — ما لم يكن هناك عذر ، كمطر ونحوه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العيدين فى المصلى (موضع بباب المدينة الشرقى) ولم يصل العيد بمسجده الا مرة لعذر المطر .

فعن أبى هريرة : أنهم أصابهم مطر فى يوم عيد فصلى بهم النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العيد فى المسجد . رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم وفى اسناده مجهول ،

قال الحافظ فى « التلخيص » : اسناده ضعيف ، وقال الذهبى : هذا حديث منكر .

ويشرع خروج الصبيان والنساء فى العيدين للمصلى ، من غير فرق بين البكر والثيب ، والشابة والعجوز والحائض .

لحديث أم عطية قالت : « أمرنا أن نخرج العواتق والحيض فى العيدين ، يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، ويعتزل الحيض المصلى» متفق عليه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج نساءه وبناته فى العيدين » . رواه ابن ماجة والبيهقى ، وعن ابن عباس قال : « خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم (وكان يومئذ صغيرا) يوم فطر أو أضحى ، فصلى ثم خطب ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة » رواه البخارى .

والله أعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

قال عز وجل :

أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شىء قدير .

« صدق الله العظيم »

الى السادة راغبى الاشتراكات فى مجلة الازهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة ـ القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنويا

أولا : جمهورية مصر العربية

١ر٥٠٠ (جنيه وخمسمائة مليم)

ثانيا : دول اتحاد البريد العربى ـ الافريقى

٢ر٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثا : بقية دول العالم :

٨ر٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ (ثلاثة عشر دولارا) .

تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقدا أو بشيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم .

تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية والدول الاجنبية بشيك مصر فى مسحوب على احد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة اخبار اليوم

المراسلة على هذا العنوان :

توزيع الاخبار ٣ (أ) شارع الصحافة ـ القاهرة

فهـــــرس العـــــدد

الموضـــــــوع	صفحة
المستشرقون وموقفهم من السنة للدكتور رءوف شلبى	١٥٨٣
فى مواجهـة الالحـاد المعـاصر للدكتور يحيى هاشم	١٥٩١
ذو القرنين وفتوحاته فى المشارق والمغـارب فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير	١٦١٥
اصول اللغـــة العربيـة للدكتور توفيق شاهين	١٦٢٢
الامامـة والشيعة الأستاذ السيد قرون	١٦٤١
حول اثبات أوائل الشهور العربية فضيلة الشيخ عبد الله المشد	١٦٥٣
الاسلام شريعـــة عالميـــة الأستاذ زاهر عزب الزغبى	١٦٦٥
من القيم الخلقية فى الشعر الجاهلى للدكتور عبد الحليم حفنى	١٦٧٨
مع رسالة الأدب الصوفى الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى	١٦٨٨
نظـــرة متأنيـــة فى كتـاب الله الشيخ عزت الدسوقى	١٦٩٨
من ذكريات رمضـــان المعظم الأستاذ أحمـد على منصور	١٧١٠

الموضـــــوع	صفحة

الصناعة الحربية فى ضوء الاسلام
لواء محمد جمال الدين محفوظ ١٧١٨

الصـــيام فى القـــرآن الـكريم
الأستاذ عبد الحميد الفضالى ١٧٢٤

حافظ ابراهيم شخصيته وخلقه
للدكتور سعد ظـلام ١٧٥٨

اللغـــــة والمجتمـع
للدكتور عبد الغفار حامد ١٧٦٤

رسالة من السودان
للأستاذ حسن أبو رحمة ١٧٨٢

أخطـــاء شـــائعة
للأستاذ عبـــاس أبو السعود ١٧٨٦

حـكم ... وطـرائف
اعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ١٨٠٥

الفتـــــاوى
الأستاذ عبد الحميد شاهين ١٨٠٩

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثامن ـ السنة الحادية والخمسون ـ شوال ١٣٩٩ هـ سبتمبر ١٩٧٩ م

١٤ هـ
عم ٢٢٢٢٦
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

عزة العلماء

الدكتور عبد الودود شلبى

اذا صلح العالِم ٠٠ صلح العالَم ٠

كلمة سمعتها من رجل بسيط من أبناء هذا الشعب ، فالمسلم بفطرته يحكم بميزان هذه الفطرة فى شئون القلب ، ويقيم من نفسه حاكما على ما يقع عليه عيناه فى دنيا الخلق ٠

ولقد كان للأزهر الشريف فى دنيا الاسلام مقام قلما يدانيه فيه معهد من معاهد العلم ، وكان لعلمائه سلطان على القلوب والنفوس دونه سلطان الملوك ورجال الحكم ٠

ومن نعم الله على مصر أن قام الأزهر الشريف فى رحابها الطاهر يوجه ويرشد ، ويقوم ويصلح ، ويتصدى علماؤه العاملون لمقاومة الطغيان والبغى ، ويقودون بتقواهم وصلاحهم قوافل الحرية والاصلاح دون رهبة أو خوف ، ويصححون مسيرة الحياة العابثة حين تنحرف وتعوج .

كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم
حرم الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعة زاخر
ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

يقول مقاتل بن سليمان :

دخلت على « حماد بن سلمة » فاذا ليس فى البيت الا حصير وهو جالس وفى يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ــ أى كتبه ــ ومطهرة يتوضأ منها . فبينا أنا جالس اذ دق الباب فقال : يا حبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ فقالت رسول محمد بن سليمان (أى الحاكم) . فاذن له فدخل .

فقال : أما بعد : فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها . فقال : يا حبيبة هلم الدواة ، ثم قال لى : اقلب الكتاب واكتب : أما بعد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، انا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا ، فان وقعت لك مسألة فاتنا وسل ما بدالك ، وان أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح الا نفسى والسلام .

فبينما أنا جالس اذ دق الباب . فقال : يا حبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ قالت : محمد بن سليمان (أى الحاكم) .

قال : قولى له : يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه .

ثم ابتدأ فقال : مالى اذا نظرت اليك امتلأت رعبا ؟ !

قال حماد : حدثنى ثابت البنانى قال : سمعت أنسا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان العالم اذا اراد بعلمه

وجه الله هابه كل شيء ..واذا أراد أن يكنز الكنـــوز هاب من كل شيء ! ! ! » . .

فانظر ــ رحمنى الله واياك ــ الى هذا الميـــزان الدقيق الذى أقامه المصطفى ، صلى الله عليـه وسلم ، اذا أراد العالم بعلمه وجه الله ... هابه كل شيء .. فاذا أراد به دنيا فانيـة أو عرضـا تافها من أعراضها الزائلة كان مثالا للخوف الذى ترتعـد به مفاصـله ، وكان ترجمـانا للزيف الذى ينطق به لسانه ، وكان فتنة فى الدين تنتهى بالناس الى ضلالة مضلة ، وفتنة فى الدنيـا تهوى بهم الى درك المهانة والذلة .

ورحم الله العز بن عبد السلام .

خـرج يوما الى الأزهـر فرأى موكبـا تنخلع من جـلاله القلوب وانكفأت الخلائق كلها وراء هـذا الموكب حتى وصل الأزهر ، وملأ الناس صحنه الـرحيب وساحته الفسيحة ، والطرق من حـولـه ، وانكشف الغبار عن الملك الصـالح أيوب ، وقد انحنـت له الرءوس ، وخشعت له الأصـوات ، وحبست الأنفاس ، واذا بصوت جهـورى يخرج من صف المشايخ ينادى الملك باسمه ويقول :

ــ يا أيوب ! يا أيوب !

ويتلفت الملك واذا بالمتـكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

قال يا أيوب ما حجتك عند الله ان قال لك ألم أبوىء لك مصر ثم تبيح الخمور ؟

قال : وهل جرى ذلك ؟

قال نعم : الحانة الفـلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ؟ !

قال : هذا أنا ما عملته ، هـذا من زمان أبى !

قال : أأنت ممن يقـولون : « انا وجدنا آباءنا على أمة . وانا على آثارهم مقتدون » .

فأمر الملك برفعها .

وانقضى الموكب ومـا للنـاس حديث الا حديث الشيخ . ولمـا رجع الشيخ الى بيته قال له تلميذ من تلامذته :

ـ يا سيدى ما هـذا الـذى صنعت ؟

قال : رأيت السلطـان فى تلك العظمة فخفت عليه الهـلاك من الكبر ، فأردت أن أصـغر عليـه نفسه وأعينه عليهـا ، ولا يكون العالم عالما يا ولدى الا اذا علم أنه كالطبيب فالطبيب تزداد الحـاجة اليه كلما اشتد على الناس مـرض الجسم ، والعالم يحتاج اليه كلما قوى فى الملوك مرض النفس !

قال : وما مرض النفس ؟

قال : العظمة يا ولدى .. فمن لم ينصح الملك يوم يشتد سلطانه وتقوى نفسه ، ويبين له طريق الحق لئلا يجانبه ، وسبيل الخير لئـلا يعدل عنه .لا يكون عالما . بل غاشا وخادعا .

قال تلميذه : لكن أما خفته ؟

قال الشيخ : يا بنى استحضرت هيبة الله .. فصار السلطان قدامى كالقط !!!

ويرى الامـام الغـزالى ـ أن التبعة الكبرى فى هـذا الفسـاد الشامل ، والضعـف فى الدين ، والانحلال فى الأخـلاق ـ تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول فى فساد هذه الأوضـاع ، لأنهم ملح الأمـة ، واذا فسد الملح فما الذى يصلحه ؟

ثم يذكر الامام الغـزالى كيف مرضت القلوب ، واشتدت الغفـلة عن المعاد ويذكر من أسبـاب ذلك مـرض العلمـاء واعتـلالهم وهم الأطباء ، فان الأطباء هم العلمـاء ، وقـد اسـتولى عليهم المـرض ، فالطبيب المـريض قلمـا يلتفت الى علاج نفسه ، فلهذا صـار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمـال ظاهـرها عبـادات ، وباطنهـا عـادات ومراءات !!!

وبالجملة انمـا فسدت الرعيـة بفساد الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السـوء ، والعلماء السوء لقل فساد الملوك !!

وعنـدما وقعت الحرب بين مصر والحبشة فى عهـد الخـديوى

اسماعيل أشار عليه بعض رجـال حاشيته ، أن يجمع علماء الأزهـر على قراءة البخـارى طـوال أيام هذه الحرب ، حتى يضمن لجيشه النصر •

ــ ورصد الخديوى لهذه المهمة ألوف الجنيهات ينفق منهـا على العلماء والقراء المتفـرغين لهـذا الأمر •• وانتظر الخـديوى قدوم البشريات بالانتصار والفتح ، فجاء الامر على عكس ما كان يأمـل ويتوقع فى هذه الحرب • فجمـع العلماء ثم صاح فيهم غـاضبا : اما انكم لستم بعلماء أو أن الذى تقرءونه ليس هو « البخارى » •

فقـام من بينهم شيخ وصـاح فى وجه الخديوى قائلا :

ــ يا اسماعيل •• اننـا مهمـا دعونا وقرأنا فلن تنتصر فى هـذه الحرب !

وفوجىء الخديوى بهذا الرد • ثم وجه بعد ذلك سؤاله الى هذا الشيخ :

ــ ولم لا أنتصر فى هذه الحرب أيها الشيخ ؟

فقال الشيخ :

ــ السبب فيـك يا اسماعيل ، فقد رأيناك تظلم وتفسد فى الأرض ولم يرتفع منا صوت يقول لك : قف عند هـذا الحـد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنـكر ، أو ليسلطن الله عليـكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خيـاركم فـلا يستجاب لهم !!! » •

وأما الآن ــ كما يقول الامـام الغزالى ــ فقد قيـدت الأطماع ألسن العلماء فسكتـوا ، وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ،وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقـدر على محاسبة الارذال ، فكيف بمواجهة الملوك والحكام ؟!

د• عبد الودود شلبى

بشرية رسول الله هى التى جعلته أعظم العظماء وجعلت الإسلام دين الإنسانية الخالد

بقلم الأستاذ أحمد حسين

جرى البشر قديما وحديثا على تأليه الأبطال ، بمعنى جعلهم آلهة أو على أقل تقدير « أنصاف آلهة » كما كان الشأن عند الاغريق •

وقد بدأ البشر بعبادة الآباء والأجداد ، وعبادة الملوك والقياصرة •

ثم تركز الأمر فى عبادة الأبطال وعلى الجملة ، فان عبادة البشر لأنماط من بنى الانسان ، كان وسوف يظل أحد مظاهر الحياة الانسانية قديما وحديثا •

وعلى سبيل المثال فثالوث مصر القديمة « اوزوريس وايزيس وحورس » ليسوا الا ملوك مصر القديمة جدا ، وقد تحولوا الى آلهة ، وكل فراعنة مصر كانوا أبناء حوريس فهم سلالة الآلهة ، أى آلهة بذواتهم •

وقد يتصور البعض ، ان اليهود قد انفردوا من بين قدامى البشر فى عدم تأليههم لموسى ، وحقا هم فعلوا ذلك اكتفاء منهم باعتبار أنفسهم أبناء الله ، وجعلوا أنفسهم ، شعب الله ، وأنهم فوق العالمين ، فهم أبناء الله ، ولا تزال هذه عقيدة الصهيونية ، ودين اسرائيل الرسمى عليه يحيون ويموتون وقصة المسيحية معروفة ومشهورة ، فقد أصبح سيدنا عيسى *الها* بعبد باعتباره ابن الله « مولود غير مخلوق » •

وبوذا وكونفشيوس ••

ومن كلمات بوذا الذائعة والتى يحفظها كل بوذى « لست أعرف

شيئا عن الله ولكنى أعرف الكثير عن بؤس الانسان » ومع ذلك فقد اعتبر بوذا بعد موته الها ، والمعابد البوذية تقوم على تمثال بوذا حيث تقدم الضحايا والقرابين ، وتقام باسمه الصلوات .

ومرة أخرى لا يتصورن متصور أن ذلك الانحراف والضلال وقف على القدامى ، ففى مجتمع عصرى ، عصرى جدا ، قامت عصريته على انكار الألوهية والتدين من أساسه ، فقد جعل هذا المجتمع من مؤسسه القريب الها معبودا يحج اليه ، ويقف المؤمنون به الساعات الطوال تحت وابل المطر والثلج لينعموا بالقاء نظرة على جسد الرجل الذى مات منذ عشرات السنين ، ويعالجونه بمختلف وسائل العلم ، ليمكنوا المؤمنين به من القاء نظرة عليه .

فالأبطال قد تحولوا ، وبدون استثناء الى آلهة أو شبه آلهة ، أو يعاملون معاملة الآلهة .

وانفرد سيدنا محمد وأنفرد الاسلام .

عن هذه القاعدة الانسانية . من تحويل الأبطال الى آلهة ، تجد استثناءها الوحيد ، وأكرر (الوحيد) بالنسبة لشخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ظل أتباعه المسلمون يعتبرونه انسانا ، حتى لتسمع عن قيام فرق اسلامية ، ألهت هذا الشخص أو ذاك ، ولكنك لن تجد فى كل تاريخ الاسلام من عبد سيدنا محمدا باعتباره الها ، لأنه لو فعل ذلك ، لسقطت عنه صفة الاسلام على الفور ، وهنا تكمن عظمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التى تجعله عظيما ، فوق من عرفت البشرية من عظماء بما فيهم رسل الله وأنبياؤه ، فكلهم ألهوا بعد موتهم ، ووصل الأمر بتأليه بعض أتباعهم ابان حياتهم ، كما هو الشأن بالنسبة ، لأحبار اليهود وباباوات كنيسة روما .

نجاح الاسلام حيث فشل الآخرون :

ذلك أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، جعل محور العقيدة

الاسلامية تقوم على التوحيد المطلق ، فليس ثمة الا اله واحد ، وكل ما فى الكون بعد ذلك ، مخلوق له ، وكل البشر وبدون استثناء ، عبيد له ، باعتبارهم بعض مخلوقاته ، والاسلام هنا ، يختلف عما قالت به بعض الاديان كالهندوكية ، وسرى منهم الى بعض المسيحيين وبعض من نسبوا أنفسهم للاسلام ، وهو القول بوحدة الوجود ، فليس هناك خالق ومخلوق ، وانما هو اله واحد فاض منه هذا الوجود ، فأنت ومن حولك ، وهذا الكون بكل موجوداته ، هو الله فى مجموعه . لا ، ليس هذا هو التوحيد الاسلامى فالخالق غير مخلوقاته ، أجل هو فى كل مكان ، بقدرته وعلمه .

ويبقى الانسان هو الانسان ، الانسان المخلوق ، فيه كأى شىء آخر سر من اسرار الله ، ولكنه لا يمكن بل يستحيل ، ان يكون هو الله الخالق ، أو بعض هذا الله ، فالانسان من ماء وطين ، حتى لقد كفر الشيطان ، عند ما أمره الله أن يسجد لهذا الانسان الذى شاءت ارادته ان يخلفه على الأرض ، وكانت حجة الشيطان ، كيف يسجد الشيطان المخلوق من النار للانسان المخلوق من الطين .

وهكذا غرس القرآن الكريم فى نفس الانسان المسلم المؤمن ، انه عظيم ما عظم الانسان فهو من التراب والى التراب يعود ، وان ليس ثمة الا اله واحد نيس كمثله شىء ، ويبدأ الاسلام بالنطق بالشهادتين ، الأولى بتوحيد الألوهية ، والثانية بأن سيدنا محمدا « عبده » ورسوله ، ونعى القرآن على كل من أله الرسل ، وركز على المسيحية بالذات ، وادعاء المسيحيين بألوهية المسيح ، واعتبار ذلك كفرا صراحا ، وقال على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى » فلم يكتف بقوله انه بشر ، بل واضاف « مثلكم » وأصبح للفارق بينه

وبين أى انسان آخر انه يوحى اليه فدل ذلك على أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، قد انفرد عن البشر بالوحى فلم يعد لانسان كائن من أن يزعم لنفسه انه لا يخطىء ، أو انه لا ينسى ، أو يضعف ، فضلا عن أن يمرض ، ثم يموت فى خاتمة المطاف ذلك أن الانسان خلق « بنص القرآن » ضعيفا ، وهلوعا والموت نهايته فى خاتمة المطاف .

حياة سيدنا محمد :

وقد حرص القرآن الكريم ، ان يعمق هذه الحقيقة فى نفوس المسلمين ، فجعل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ينسى (يسهو فى الصلاة) لكى يعلم البشر (وكلهم يسهون) كيف يتصرفون عند السهو ، وجعل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام يجتهد فى بعض التصرفات (خارج دائرة الوحى) فينزل القرآن منددا ، أو مصححا ، أو معاتبا للرسول على فعل ما فعل ، من مثل قوله تعالى :

ـ « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى » .

ـ « عفا الله عنك لم أذنت لهم» .

ـ « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

الى غير ذلك من الآيات التى أراد الله بها سبحانه وتعالى ، ان يثبت للمسلمين ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام خارج دائرة الوحى ، فهو بشر كبقية البشر . ولم يحاول سيدنا محمد أن يشعر من حوله بأنه غير ذلك فكان يستشير صحابته ، ويعدل عن رأيه الى آرائهم ، وكان القرآن الكريم ينزل أحيانا مؤيدا للرأى الآخر الذى عمل الرسول على خلافه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب فى أمور ، فلا يقدم عليها الا أن ينزل عليه وحى السماء .

وعندما دنت نهاية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كان شديد الرغبة فى أن يكون سيدنا أبو بكر

الصديق ، خليفة له ، فكان يومىء ويلمح حتى وصل الأمر به الى حد أن صلى وراءه « مأموما » ولكنه لما كان وهو الصادق الأمين ، لم يؤذن له من السماء فلم يصرح أبدا ، وكان من آخر ما قال :

« مروا أبا بكر فليصل بالناس » والخلاصة انه لا القرآن الكريم ، فضلا عن تصرفات رسول الله الشخصية حاولا أن ينزعا عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام صفته كانسان .

عظمة سيدنا محمد في صعود الى ابد الآبدين ..

وعندنا ، أن هذه الصفة ونعنى بها « بشريته » هى السر فى جعله أعظم عظماء بنى البشر ، وجعلت عظمته فى صعود وعلو الى أبد الآبدين ، حقا قد تتوقف ، كما حدث فى القرن الماضى ومستهل هذا القرن ، ولكنها لا تتراجع بمعنى أن تهبط أو تنقص أبدا ، فالذين يؤلهون ، يوجد دائما من ينكر عليهم ذلك ، وجدت تعاليمهم عشرات الملايين ، وفترت حماسة مئات الملايين ، وذلك كله بعكس من اهتدوا بنور سيدنا محمد حيث يزدادون دائما أبدا ، ويقر بعظمته من كان منكرا لها من قبل ، فكل من يطالع سيرته ، يبهره اتضاع سيدنا محمد كلما زاده الله رفعة ، حتى وصل الأمر به الى انه وهو يستعرض جيش المسلمين قبيل غزوة بدر ، ويعد الجيش للقتال ، حدث أن شكا أحد الصحابة أن رسول الله أوجعه فى بطنه (بدون وجه حق طبعا) وطلب من رسول الله ، ان يمكنه من نفسه ، ليوجعه فى بطنه كما أوجعه الرسول ، فلم يتردد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أن يكشف عن بطنه ليمكن الصحابى من أن يوجعه كما أوجعه ، فما كان من الصحابى الا أن يعانق بطن رسول الله ، وان يقول : انما أردت أن يلامس جلدى جلدك بأبى وأمى أنت يا رسول الله .

وما يهمنا من القصة ، وهى ليست الوحيدة أو الفريدة فى سيرة الرسول ، انه عليه الصلاة

والسلام قد أصبح فى المدينة شبه حاكم ، وهو هنا فى هذا الموقف فى ميدان القتال فله ألف شاغل وشاغل ، ولكنه لم يتردد لحظة ، فى أن يمكن انسانا ، من أن يقتص منه غير متعلل بخطورة الموقف فضلا عن مكانته .

سيظل نجم الاسلام فى علو بهذه التعاليم :

وهذا هو سر عظمة الاسلام وتمكنه فى النفوس فلا يكاد يستقر فيها حتى لا يمكن نزعه أبدا ، ومن هنا ينتشر الاسلام ، قد يتوقف ولكنه لا يتراجع أبدا ، وهو دين المستقبل بلا مراء فالله واحد أحد وهو متميز عن خلقه تحل قدرته فى كل شىء ، دون أن يكون هو هذا الشىء ، وقد أوجز القرآن ذلك كله بقوله : « ليس كمثله شىء » وقرر الأصوليون قوله حق بقولهم : « كل ما دار فى ذهنك على انه الله ، فالله بخلاف ذلك » « كما قال الأصوليون » .

« ان الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار » ولما كان الانسان من لحم ودم وله كيان يحس ويلمس ويدرك ، فمن المستحيل أن يكون هو الله أو شبيها من الله وما جاء فى كتاب اليهود « من ان الله خلق الانسان على صورته » فهو من تخرصات الوثنية ، والتى جعلت البعض يؤلهون أفرادا من البشر ، أنبياء ورسلا حينا ، وملوكا حينا آخر وبرىء الاسلام من هذه الضلالة .

ونحن الذين امتد بنا العمر فقد رأينا مصداق ذلك ، حيث يكبر أشخاص ويعظمون ، حتى ليتصوروا ان قوة الله قد حلت فيهم ، ان لم يكونوا هم الله بذاته وقد تجسد على الأرض وقد رأينا من هذا النموذج أفرادا فى العالم سواء فى خارج مصر أو فى داخلها ، وكلهم وبدون استثناء انتهوا الى نهاية سيئة أسوأ من السوء نفسه ، ليثبت الله للبشر ، ان الانسان هو الانسان ، والله هو الله ، فرأينا هتلر يمتلك أوروبا وتصبح اشارته فضلا عن كلمته كما لو كانت قدرا ، ثم لا يبقى له من هذا الكون ،

الا الوقت الكافى كى ينتحر وتحرق جثته ، ولم يصل الى هـذا المصير الا بعد أن رأى جثة استاذه الذى حلم بدوره بسيادة الدنيا ونعنى به موسولينى سيد ايطاليا ، وهو يذبح ويعلق من قدميه كما لو كان شاة فى حانوت جزار ، وفى مصر رأينـا مثـل ذلك من حيث سوء النتيجة وبشاعتها لكل من تصور أن لم يعد فى الـكون سـواه ، وان الكلمة هى كلمته ولا معقب عليها ، وأن سائر البشر مسئولون أمامه ، حيث لا يسأل هو عن شىء ، وهى صفة الألوهية ادعاها لنفسه فريق من البشر على مر العصور ،ابتداء من فراعنة مصر ومرورا بالأكاسرة والقيـاصرة ، وملوك أوروبا فى العصـور الوسـطى ،وانتهـاء بالديكتاتوريين ، مهمـا تواضعوا وادعوا من صفات .

وهذه هى عظمة الاسلام ..

ومن هنـا كان نجـاح الاسلام وتفوقه وما يجعله دين المستقبل ، فقد برىء من تقديس الانسان ، أى انسان وضرب القرآن للناس مثل سـيدنا محمـد صـلى الله عليـه وسلم وهو أكرم خلق الله ، ومـع ذلك فقد جعل الله منه نمـوذجا للبشر ، يأكل ويلبس ويسـير فى الأسواق ويتزوج ويرزق البنـين والبنات ، يموت منهم من يموت ويعيش من يعيش ، وأذاقـه طعم النصر والهزيمة الى آخـر ما اشتملت عليه السيرة .

فالاسلام لا يعرف انسانا كائنـا ما كان يفترق عن بقية الناس حتى ولو كان الحاكم نفسه ، وجعل الله سبحانه وتعـالى ينفـرد بكونه « لا يسأل عن شىء وهم يسألون »

أحمد حسين

الغـرانـيق والمسـتشـرقـون

دكتور رءوف شـلبى

الغرنيق هو الشـاب الأبيض الجميل الذى يدل بعوده الفـارع وبدنه القوى وتقاسيمه الوسيمة •

وصاحبنا السير وليم موير أحد رجال الفكر الاستشراقى الـذين يتصدون للدراسات العليا وهـو أحد رجال الغرانيق فيما مضى أيام شبابه ، وهو من ذوى القد والقدر فى الجمـال والافهـام • وهـذا الغرنيق وليم مـوير • واحـد من المفكرين الغـربيين الذين يتلمسون الهنات للطعن فى الاسلام مستخدما ادعاء البحث العلمى •

ان غاية البحث العلمى فى أصل ذاته وأسس منهجه هى الوصـول الى الحـق •• مقـدمات تبحث وتناقش وتجرب وتعاد تجاربهـا وتختبر من أجل أن تسلم عنـد الاستنباط منها نتيجة مسلمة عند الحق فى ذاته ، وعند النـاس •• وعند الفكر •

وقد ادعـوا أنهم لهذه الغايـة السامية فى البحث العلمى يشترطون الحيدة عند البحث : يتجرد الباحث من كل عاطفـة خاصـة ، من كل مؤثر على الفكر نفسى أو اجتماعى أو ثقافى ليبحث حرا فى جو متعادل الزوايا والاتجاهات لتسلم المقدمات وتصح النتائج •

ادعوا هذا وخالفوه عندما بحثوا بعضا من مسائل الحياة الاسلامية ومن ذلك مثلا :

قصة الغرانيق ••

نعم : أورد ابن سعد فى طبقاته الكبرى ، والطبـرى فى تـاريخ الرسل والملوك وكـذلك المفسرون حديث الغرانيق •

وأوردوه ومحصوه من نواح :

١ ــ مستوى الرواة .

٢ ــ المفهوم اللغوى لمعنى (تمنى)

٣ ــ المعنى فى السياق العام .

٤ ــ تكامل النصوص وتضافرها فى حلقة البحث الاسلامى عن وجوب العصمة للأنبياء جميعا .

وانتهوا الى أن الرواية ضعيفة وأن الحادثة منكرة وأن الآيات لها جو دينى عام بعيد عن هذه الفرضية المدعاة ..

يقول القرطبى فى افتتاحية هذه المسألة :

الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية .. ليس منها شىء يصح (١)

ثم ينقل بعد ذلك أقوال العلماء:

١ ــ قال النحاس ، وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم فيصف الحديث بأنه منقطع وأنه يحمل بهتانا عظيما ..

٢ ــ ويروى عنه كذلك :

قال النحاس ، وهذا حديث منكر منقطع (٢) .

٣ ــ قال ابن عطية :

وهذا الحديث الذى فيه : هى الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ولم يخرج البخارى ولا مسلم ولا ذكره عالم مصنف مشهور (٣) .

٤ ــ قال القاضى عياض :

أما المأخذ الأول : فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة وانما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون الولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

قال أبو بكر البراز : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره (٤) .

٥ ــ وكذلك فعل ابن كثير لقد أنكر كل رواية وردت فى مستهل

(١) ص ٤٤٧٢ جـ ١ الشعب
(٢) ص ٤٤٧٣ جـ ١ الشعب القرطبى
(٣) المرجع نفسه .
(٤) ص ٤٤٧٤ المرجع نفسه .

حديثه عن هذا الأمر العظيم الذى افتراه السوقه فقال :

ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم (١) .

ومع هذا فأن السير وليم موير يحاول أن يضيف الى الروايات الضعيفة الواهية السند ، حجة يراها فى نظره مقوية لشبهته .

تلك الحجه هى ، أن عودة المهاجرين من الحبشة بعد ثلاثة أشهر كانت نتيجة لما سمعوه من خبر الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش عندما تلا سورة النجم وقرأ الآيات أفرايتم اللات والعزى .. ثم ألقى الشيطان عبارته : تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترجى ثم سجدوا جميعا ومعهم المشركون لانهم سمعوا ثناء على آلهتهم بعد أن كانوا يساءون بسبها وتسفيهها ، فحدث اللقاء بين الاسلام والمسلمين من جانب وبين الشرك والمشركين من جانب آخر .

هكذا شفى سير وليم موير غيظه بهذه الطعنة الخيالية للاسلام .

وسؤالان يوجهان اليه :

الأول : ما هو رأيكم يا جماعة الغرانيق من المستشرقين فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هل تقبلونها بالاطلاق ؟ هل ترونها مرفوعة الى النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ؟ أو أنها من عمل المسلمين بعد نضوجهم الفكرى ؟

لقد ادعى المستشرقون أن السنة وضعت فى عصر النضوج الاسلامى ويريدون بذلك أن يقطعوا سند السنة المتصل ويوهوا عروتها الوثيقة المرتبطة بنبيها عليه أفضل الصلاة والسلام تلك السنة المطهرة التى ورثها الى الأمة بألفاظها وأحاديثها ورجالها .

وحملها من بعده العدول الثقات المخلصون

فلم يا مستر وليم موير قبلت حديثا لم يرتضه علماء الاسلام بل أنكروه وضعفوه وردوه .. ؟ ألا يجوز فى احتمالات العقل أن مثل

(١) ابن كثير مجلد ٣ ص ٣٢٨ .

هذا الحديث المكذوب المردود وضع فى عصر النضوج على حد ادعاءاتكم؟

ولم يكن احتمال عودة المهاجرين هو هذا السبب فقط ؟

ألم يكن فى عالم الدعوة حدث أكبر خطرا من هذا .

حادث اسلام عمر بن الخطاب الذى حول الحياة الاسلامية فى مكة من الاستخفاء الى التظاهر بموكب يقوده النبى صلى الله عليه وسلم الى ظلال الكعبة المشرفة .. وعلى طرفيه يمينا وشمالا عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ..

ألا يكون هذا الحادث كافيا فى شعور المهاجرين بالعودة ليكثروا سواد المسلمين فى مكة ؟.

السؤال الثانى : نسلم لك جدلا بصحة الحادثة ؟

فلم لم ينته الخلاف بين الاسلام والشرك فى مكة ؟

لم كانت قطيعة قريش لبنى هاشم فى شعبهم ثلاث سنوات ؟

ثم لم كانت الهجرة من مكة الى المدينة ؟

ثم لم كانت بدر وأحد والخندق .. الخ .. ؟

أنى سأعلمك يا مستر وليم موير كيف تفهم البحث فى قضايا الحياة الاسلامية ..

أولا : ترتكز قصة الغرانيق هذه على تفسير كلمة (تمنى)

وعلى صحة سند الرواية لهذا التفسير .

وعلى تعدد الروايات الواردة فى تصوير القصة .

ثانيا : ارتباط الروايات بالنصوص الاسلامية الأخرى المتعلقة بهذا الجزء .

ثالثا : المستوى الذى يرضى به الطرفان معا فيما يستقبل من العلاقات الدينية بينهما .

اولا : أما فيما يتعلق بتفسير كلمة تمنى فان اشكال الغرانيق يتأتى لو كان معناها قرأ فقط .

وقد قال صاحب الابريز : ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والأحقية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس فى نسخة عن على بن أبى طلحة عن

ابن عباس ورواها على بن صالح ، وقد علم ما للناس فى ابن أبى صالح وأن المحققين على تضعيفه واذن فتفسير التمنى بالقراءة فاسد الرواية لضعف الراوى •

ثم هناك معنى اخر لكلمة تمنى وهو حدث نفسه

قال القرطبى :

وقد قيل : أن معنى تمنى حدث لا تلا ، وروى عن على بن ابى طلحه عن ابن عباس فى قوله عز وجل « الا اذا تمنى » قال : الا اذا حدث •• وهذا التفسير سليم السند والرجال فهو أولى بالقبول ويكون المعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم يتمنى لقومه أن يشرح الله لهم صدورهم ويود أن يجرهم سريعا الى رحاب الايمان ويريد الشيطان أن يوئسه فيبطل الله هذا الوسواس •

واذن فاختيار تفسير تمنى بقرأ أو تلا تمحك يخالف منهج البحث المحايد ويفسده ضعف الطريق والسند ورد العلماء له •

واما عن الروايات المصورة للحادثة فقد تعددت تعددا يردها لقد قالوا فيها :

تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترجى

الغرانيق العلا أن شفاعتهم ترتجى

أن شفاعتهن ترتجى — دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق •

وانها لهى الغرانيق العلا

وانهن لهن الغرانيق العلا وان شفاعتهن لهى التى ترتجى (١)

وأما الذى سجد على التراب : فرواية تقول هو :

الوليد بن المغيرة •

واخرى تقول هو :

امية بن خلف (٢)

وعدم الاتفاق فى الرواية يردها

ذلك منهج عندنا يا مستر وليم

(١) ص ١٦٥ حياة محمد هيكل باشا .

(٢) ٤٤٧٣ جـ ١ الشعب القرطبى .

موير وعليك أن تقبلـــه .. فرب الدار ادرى بما فيها ..

ثانيا : أما فيما يتعلق بالنصوص الاخرى

فان الموقف فيما يتصل بالمساومة من أجل الحل النصفى قد رفض منذ اللحظة الاولى .

لقد جاء القوم الى النبى صلى الله عليه وسلم وعرضـوا عليه المال والجاه والرياسة والعلاج فرفضـها جميعا وقال :

والله لو وضعوا الشـمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه .

والقرآن الكريم نفسه يسـجل هـذا العرض فى سورة أطلق عليها اسم « الكافرون » .

قل يا أيهـا الكافرون لا أعبـد ما تعبدون الآيات

فما قيمة حادث الغرانيق لو صح بالنسبة لهـذه النصوص المتعلقـة بأسس الدعوة (توحيد الله) .

وهـل بالمرسلات يا وليم موير نقبل عندنا فى الاحكام والقوانين حتى نسلم بها فى العقـائد؟

ان الباحث فى نظـر الشريعـة الاسلامية لاعليه أن يرفض الأحاديث المرسلة فى الأحكام فكيف تقبل فى مسألة العقيدة التى تحددت بمئات من الآيات الواضحة الصريحة .

أبعـــد .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » تكون هناك مساومة ؟

أبعد : « فاعلم أنه لا اله الا الله تكون هناك مصالحة؟؟

ثالثا : أما فيما يتعلق بالمستوى الذى يرضى به الطرفان فقد صورته آية سورة الأنعام

قل أى شىء أكبر شهادة ؟

قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، ائنكم لتشهدون أن مع الله الهة أخرى ؟

قل : لا أشهد .

قل : انما هو اله واحد .

وانتى برىء مما تشركون .

وبعـــد :

فان العربية لم تعرف اطلاق هذا الاسم الغرانيق على الأصنام لا من

قبيل الاسم ولم يتداوله العرب فى شعرهم ولا فى نثرهم،وكل مايحمله القاموس لهذه الكلمة « الغرنيق » انه اسم طائر الماء الطويل العنق وقد يطلق على الشاب الأبيض الجميل ولذلك دعوتك به يا سير وليم موير لأنك أبيض وجميل فهل بقى لديك شيء عن الغرانيق ؟

أ ــ بقى أن نقول : لهذا يرى ابن اسحق وقد سئل عنها يقول : هى من وضع الزنادقة ويقول الامام أبو بكر بن العربى : أن جميع ما ورد فى هذه القصة لا أصل له على أن آية الحج التى تعمد عليها فى الاستدلال على قصة الغرانيق لم تسعف الباحثين لمتلفقى الهنات المتربصين بالطعنات للحياة الاسلامية .

ان هذه الآية نزلت أيام الهجرة بين مكة والمدينة ، وسورة النجم من أوائل السور التى نزلت قبل الهجرة فهى فى الترتيب للسور المكية مكانها الثالث والعشرون من ست وثمانين سورة مكية هى مجموع ما نزل بمكة وسورة الحج مدنية ومكانها السابع عشر من السور المدنية التى نزلت بالمدينة وعددها ثمانية وعشرون .

فأى علاقة بين ما يدعيه الغرانيق المستشرقون فى سورة النجم وحقيقة عامة فى كل الرسالات فى سورة الحج وبين نزولها سنوات طويلة؟؟؟

ب ــ على أنك يا غرنيق سير وليم موير وأصحابك تستعملون دائما مع المسلمين منهج المباغته تهاجمون أحداث الحياة الاسلامية بتضليل مفضوح فليس فى النص ذاته ما يشير الى وجود حادثة فردية حتى يتمحل لها كل هذا الافك .

فالنص يقرر أن هذه قاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم:

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » فلابد أن يكون المقصود أمرا عاما يستند الى صفة الفطرة مشتركة بين الرسل جميعا بوصفهم من البشر مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

ان الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة الى الناس يكون أحب شيء الى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاءوهم به عند الله فتبعوه .. ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثير ، والرسل بشر محدودو الأجل وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو ..

يجذبون الناس الى دعوتهم بأسرع طريق ..

يودون مثلا لو هاودوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا الى الهدى ، فاذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة. ويودون مثلا لو جاروهم فى شيء يسير من الرغبات وجاء استدراجهم الى العقيدة على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة ..

يودون .. يودون .. على حين يريد الله جل شأنه أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة التى قدرها وحدد موازينها الدقيقة ، ثم بعد ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فالكسب الحقيقى للدعوة فى تقديرها البانى الكامل هو أن تمضى الدعوة على اصولها وفق الموازين الالهية التى قدرت لها ولو خسرت اشخاصا فى أول الطريق ففى نهاية المطاف اذا استقامت الدعوة على أصولها فسوف ينثنى هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم الى أصول الدعوة .

وتبقى الدعوة سليمة لا تخدش من عوج أو انحناء .

ولكن الشيطان يريد أن يكيد للدعوة بما يجد من تلك الرغبات البشرية ومن تصرفات يترجم عنها لتحويلها عن قواعدها والقاء الشبهات حولها ولكن الله يحول دون كيد الشيطان وكيد أعوانه .

وكفى بربك هاديا ونصيرا .

فأين غرانيقك يا مستر موير من هذه القاعدة العامة ، ولو صحت

عندك فقد طعنت بها دينك وكل دين قبل ومن بعد ..

وصدق الله العلى العظيم ..

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا » انها ليست غرانيق الشيطان فحسب تلك التى تشوش على دعوة الله .

ولكنها مع ذلك غرانيق المفترين والمستشرقين جميعا ..

ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم .

وملخص الموضوع :

أن المستشرقين اعتمدوا على حديث مردود عند علماء الاسلام ، وهو مغالطة علمية يرفضها البحث الاسلامى وأنهم تصوروا خيالا واسعا فجعلوها فى مشهد عام فتكون لها صفةالتواتر عند الراوية مع أن الأحاديث المروية ليست كذلك .

ان معنى « تمنى » ليس قرأ ولا تلا على القطع بأحد المعنيين فهناك احتمال لغوى رابع بمعنى حدث نفسه ، وهذا المعنى الأخير يتفق مع السنة العاملة الحالة الأنبياء وهم يدعون أقوامهم : انهم يحاولون هداية أقوامهم ويحاول الشيطان أن يصدهم عن تلك الهداية والله يصور ذلك فى حياة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام « لعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

على أن آية الحج ليست مكية وهى الآية التى يعتمد على تأويلها الفكر الاستشراقى بل هى مدنية نزلت يوم الهجرة بين مكة والمدينة والحادثة المدعاة وقعت ادعاء فى مكة فكيف يستدل بآية نزلت بعد الهجرة على واقعة يدعى أنها وقعت أمام جمهرة بمكة المكرمة ؟

لعل الفكر الاسلامى المعاصر يستيقظ ويعى ويلتزم ويستمسك بالذى أوحى اليه من عند ربه ، فالعاقبة للمتقين .

هذا .. وبالله التوفيق .

د. رءوف شلبى

موقف الفلسفة الإلحادية المعاصرة من غيبيات المادة

بقلم الدكتور يحيى هاشم

بين المادة والعقل

أخذ العلم التجريبى أخيرا يدفع المفكرين الى تخوم العقل والروح .. يقول الأستاذ ارثر كومستلر :

(ان افتقار النيوترون الى الخصائص الفزيائية العيانية فضلا عن طبيعتها شبه الأثيرية كل هذا شجع التفكير النظرى بشأن امكان وجود جزيئات أخرى تكشف لنا عن الحلقة المفقودة بين المادة والعقل)

وهكذا نجد عالم الفلك المرموق ف . أ فيرسوف يفترض أن العقل كان كيانا شاملا كليا أو تفاعلا من نفس المرتبة مثل الكهرباء أو الجاذبية وأنه لابد من وجود معامل للتحول يماثل معادلة اينشتين الشهيرة ط = (ك س ٢) . ومن ثم فان « مادة العقل » قد تعادل كيانات أخرى فى العالم الفيزيائى .

وذهب الى أكثر من ذلك حين افترض امكان وجود جزيئات أولية من « مادة العقل » اقترح تسميتها ذرات عقلية ذات خصائص تشبه الى حد ما خصائص النيوترون . (١)

(ويقول الدكتور جون كيمنى :

(يمكن لنا أن نقسم الأجوبة الفلسفية المعتادة عن العلاقة بين المادة والعقل الى :

زمرتين رئيسيتين (١) الأجوبة التى لا تقول بوجود اختلاف

(١) العلم والظواهر الخارقة ص ١٠

أساسى بين العقل والمادة أى الأجوبة الوحدانية (٢) الأجوبة التى تؤكد وجود تمييز أساسى بينهما أى الأجوبة الازدواجية .

ولننظر بادىء الأمر فى الحلول الوحدانية ، فاذا كان العقل والمادة لا يختلفان بالفعل فان العقل عندئذ يكون أحد الأشكال الخاصة للمادة « كمادة دقيقة التنظيم مثلا تتصرف بشكل معين » .

أو تكون المادة تتاجا ثانويا للعقل .

أو يكون ثمة مادة أساسية يشكل العقل والمادة مظهرين مختلفين من مظاهرها ويرى برتراندراسل هذا الرأى الأخير مؤكدا أن الحوادث تبدو مادية اذا نظرنا اليها من زاوية معينة وعقلية اذا نظرنا اليها من زاوية أخرى .

أما اذا كان المرء من دعاةالفلسفة الازدواجية فانه يقول بأن العقل والمادة شيئان مختلفان تماما .

مع العلم بأنه قد تكون ثمة علاقة بين الاثنين عن طريق روابط سببية، أو قد يكون الاثنان منفصلين بشكل واضح ، الا أنهما متواقتان كتواقت ساعتين مختلفتين .

ويؤدى بنا كل هذا الى وجهات نظر خمس ــ اثنتان منهما ثنائيتان وثلاث وحدانية هى المادية والمثالية والوحدانية المحايدة .

وغنى عن القول أن كلاً من هذه المواقف الخمسة قد وجد من يدافع عنه فى حين أو فى آخر . وظنى أنه بالامكان مع شىء من العناية أن يصار الى تصنيف جميع الفلاسفة فى احدى هذه المدارس الخمس ــ وان كان أكثرهم يعترض على ذلك نظراً للاختلافات الدقيقة التى تميزهم عن جميع المفكرين الآخرين ..

واذا نحن ذهبنا الآن الى المعالجة العلمية لمشكلة العقل نلاحظ أنه يجب على الموقف المادى أن ينظر الى العقل على أنه آلة شديدة التعقيد ، ويقر أن أى آلة معقدة الى الحد المطلوب قادرة على التفكير .

فلنتحر اذن هذه الفرضية فى الآلات المفكرة •

ربما كان أكثر العوامل مغزًى فى تطورات الانسان الأخيرة ظهور أولى الآلات المفكرة الجيدة لقد صممت هذه الآلات للقيام بالعمليات الحسابية المعقدة الا أنها وصلت الى مرحلة غدت معها أكثر بكثير من مجرد آلات حاسبة •

وهذه الآلات الآن تهيأ لآلاف المهام التى تفوق أعز أمانى الذين قاموا بتصميمها • من الصعب علينا أن ننكر أن كثيرا من هذه المهام يمكن أن يسمى تفكيراً وعلى مستوى رفيع ، حين يقوم بها بنو البشر •

اذا كان لابد من أساس عقلانى لتفوقنا على الآلات فيجب أن يستند الى امكاننا القيام بتصرفات معينة ليس بمستطاع الآلات أن تقوم بها ، ولدينا فى الوقت الحاضر على الاقل ، متسع كبير لهذا الادعاء ••

وهكذا يترك لنا ـ كلية ـ مجال الحدس والتبصر والتكهن الملهم ••

وللكائنات البشرية القدرة على حل المشاكل بواسطة عمليات مختصرة لا يستطاع تفسير طبيعتها ! ؟

ان امكان تعليم الآلات هذا الطراز من التكهن أمر فيه جدل ؟•

أما هل هذه المرحلة ممكنة البلوغ ، فأمر يجب ترك باب البحث مفتوحا فيه •• هذه هى الحقائق ، فما هو الاستنتاج الفلسفى الذى يمكن لنا استخلاصه منها ؟

النتيجة الأولى هى القول بأننا فى الواقع نختلف اختلافا أساسيا عن الآلات • (١)

* * *

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر : برتراند راسل :

١) الفيلسوف والعلم ص ٣١٤ ـ ٣٢٤

يقول الفيلسوف الملحد (١) المعاصر برتراند راسل معبرا عن زوال المفهوم المادى للمادة :

(أخذت المادة تشف تدريجيا كقطة تشيشاير حتى لم يبق منها الا الابتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لا يزالون يظنون أنها موجودة) .

ويقول :

(أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين . وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية .

والحقيقة بالطبع أن العقل والمادة كليهما وهم ؟ وهو مايكتشفه علماء الطبيعة بدراسة المادة ويكتشفه علماء النفس بدراسة العقل) (٢) .

ثم يقرر راسل أن عالم المادة الذى يعترف به علم الطبيعة الحديث أصبح شيئا آخر يختلف عن عالم المادة كما تدركه حواسنا ! ؟

وأنه أى عالم المادة فى الفيزيقا الحديثة يدرك بالاستنتاج .

وأنه من ثم واقع تحت الشك .

يقول راسل :

(١) يقول راسل فى مقدمة كتابه (فلسفتى كيف تطورت ص ٤) ـ :

« أما فيما يختص بالدين فقد انتهى بى الأمر الى أن كفرت أولا بحرية الارادة ثم بخلود الروح ، وأخيرا بالله) .

وهذا الاعتراف يكفى لأن نحكم على مضمونه بأنه ـ على أقل تقدير ـ (لايصح الاصغاء اليه) لا لشىء الا لانه صادر عنه بغير ارادته بحكم كفره بحرية الارادة فهو مقسور عليه ، وماهى القوة التى قسرته ؟ ليست هى الروح ، أو الله ، لانهما غير واردين بحكم كفره بهما ، وما عدا ذلك ؟ نحن لا نعلم ـ على أقل تقدير ـ شيئا عمن يتحدث الينا هذا الحديث : انه ليس هو راسل ، وليس هو الروح ، وليس هو الشيطان ..

فمن القائل ؟

والى من نستمع ؟

والى من نصغى ؟

الى مضغة اللحم والدم والافرازات ؟ أم الى الكترونات ونيوترونات هى التى ـ فى اصطلاح العلم ـ تتمتع بالحرية ؟

وماالقيمة الفلسفية لما يقول فى ظل هذه الاحتمالات ؟؟؟

(٢) العقل والمادة ١٩٧

(علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينها يؤكدان لى أن الكرسى القائم هناك مستقلا عن ابصارى شيء لا يشبه مطلقا ما تصورته .

بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهربيات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية . وعلاقتى بهذا الشيء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها الا بالاستنتاج .

فهى توجب أن تميز بين العالم المادى لعلم الطبيعة والعالم المادى المتمثل فى خبرتنا اليومية .

فأما العالم المادى لعلم الطبيعة فهو موجود مستقل عن حياتى العقلية بفرض صحة علم الطبيعة . أما العالم المادى فى خبرتنا اليومية فهو على العكس جزء من حياتى العقلية .

ومن ناحية أخرى فان خبرة رؤية الكرسى ليست بالخبرة التى أستطيع أن استبعدها بالتعليل فقد حدثت لى هذه الخبرة بكل تأكيد حتى ولو كنت أحلم .

أما كرسى علم الطبيعة فانه وان كان مستقلا عن حياتى العقلية الا أنه ربما كان غير موجود . اذ يكون غير موجود ان كنت أحلم ، وربما لم يكن موجودا حتى وأنا متيقظ اذ كانت هناك مهام للخطأ فى بعض أنواع الاستنتاج أنا معرض لها وان لم يكن عليها دليل) . (١)

ويأخذ راسل فى تحليله للمادة ، وقصرها على « سلسلة من الوقائع » فيقول :

(كل ما اعلمه عن المادة هو ما يمكننى استنتاجه بمساعدة بعض المسلمات المجردة من الصفات المنطقية المحضة لتحيزها الزمانى المكانى وهذه لا تدلنى لأول وهلة على أى شيء كائنا ما كان عن خصائصها الأخرى . وفوق هذا ، فان الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الذات فى حالة العقل هى بعينها الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الجوهر فى حالة المادة . لقد أنزلنا عقل ديكارت الى سلسلة من الوقائع ،

(١) العقل والمادة ١٩٧ .

وهذا ما يجب أن نفعله بجسمه أيضا ، فان قطعة المادة سلسلة وقائع تربط فيما بينها قوانين طبيعية معينة .

وهى قوانين تقريبية وغير دقيقة .

والشخصية التى تحتفظ بها الجزيئات المادية فى علم الطبيعة العتيق تختفى فى علم الطبيعةالكمية الحديث .

ولكن حتى قبل ظهور علم الطبيعة الكمية ، كانت الجزيئات فكرة بالية لأنها كانت تؤدى الى فكرة الجوهر .

وحتى من أيام ذرة « رذرفورد بوهر » ظل من الممكن التمسك بهذه لان ذرة رذرفورد بوهرتتكون من عدد معين من الكهربيات والبروتونات .

وكانت الكهربيات تتصرف كالبراغيث تزحف حينا ثم تقفز ، والكهرب لا يزال يمكن التعرف عليه بعد قفزاته على أنه الكهرب نفسه الذى كان يزحف من قبل

ولكن الذرة للأسف قد شقيت بتحطيم الذرة .

وكل ما أصبحنا نعلمه عنها حتى على فرض أكثر الفروض تفاؤلا هو أنها كَمٌّ من الطاقة تخضع لمختلف التقلبات المفاجئة ، ولا سبيل الى دليل الا على هذه التقلبات) .

وبيَّن راسل أنه ظل الفيزيقيا الحديثة أصبح من المستحيل معرفة شىء عن الذرة فى حالة السكون .

وكل ما نعرفه عنها الآن انما هو حالة التقلب .

يقول :

(كنا فى الأيام السعيدة التى شهدت طفولة بوهر نفترض أننا نعلم ما يجرى فى لحظات السكون، فقد كانت هناك كهيربات تدور حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس ، أما الآن فقد وجب علينا أن نعترف بالجهل التام المطلق الذى لا استئصال له أبد الدهر بما تفعله الذرة فى لحظاتها الساكنة . لكأنها مسكونة بطائفة من المراسلين الصحفيين الذين لا يعتقدون أن الخبر يستحق ان يذكر الا أن يكون

ثورة أو انقلابا فيظل ما يحدث فى غير زمن الثورات مغلقا فى الأستار والأسرار وعلى هذا الأساس اختفت تماما فكرة « النفسية »)

يقصد الشىء نفسه ، أو الشىء فى ذاته .

ويدلل على ذلك فيقول :

(الواقع أن أصغر قطعة من الكرسى تفقد شخصيتها فى مايقرب من جزء من مائة ألف جزء من الثانية) .

واذا كان هذا هو جهلنا بالمادة فان راسل يقرر أن جهلنا بمخ الانسان أشد !؟

يقول :

(اننا لم نتعود بعد الكلام عن المخ الانسانى بدقة لغة علم الطبيعة والكيمياء وأهم ما يتعلق من أسرار هذه النظرية بمشكلتنا هو ما تبديه لنا من قلة مانعرفه عن المادة ولاسيما مخ الانسان .

فما يزال بعض علماء وظائف الأعضاء يتخيلون أنهم قادرون على رؤية الأنسجة المخية خلال المجهر . وهذا ــ ولا شك ــ وهم متفائل فانك حين تنظر الى كرسى لا ترى التحولات الكمية بل تحصل على خبرة ذات اتصال عِلّى طويل محكم بالكرسى المادى وهو اتصال ينتقل خلال الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومخروط الضوء والعصب البصرى الى المخ .

وما يصدق هنا يصدق على المخ الذى يعتقد عالم وظائف الأعضاء أنه يراه فان لديه خبرة لها اتصال عِلّى بعيد بالمخ الذى يظن أنه يراه ولكن ما يستطيع أن يعلمه بصدد هذا المخ لا يعدو عناصر تكوينه التى ستنطبع فى حسه البصرى أما عن الخصائص الأخرى غير خصائص التركيب فلا سبيل الى معرفتها) .

وهنا يود راسل أن يمحو الفصل التام بين كل من المادة والعقل وأن يوحد بينهما فيما يسميه « سلسلة أحداث » . يقول :

(أحب أن أقترح نظرية : فقد اتفقنا على أن العقل والمادة كليهما سلاسل أحداث واتفقنا كذلك أننا لا نعلم شيئا عن الأحداث التى تكون المادة الا من كيانها الزمانى

المكانى ، والذى أقترحه هو أن الأحداث التى تكـوّن المخ الحى هى نفسها التى تكـوّن العقـل المناظر له) .

ثم يقول :

(فاذا صح قولى فالخلاف بين العقل والمخ لا يكون فى المادة الخام التى صنعا منهـا ولكن يكون فى طريقة تجميعها ، فالعقل وقطعـة المادة يتشابهان فى أنهما مجموعات أحـداث أو على الأصح سلاسل مجموعات أحـداث) .

ثم يحاول أن يزيد نظرته وضوحا فيقول :

(ان الاختلاف بين المخ والعقل ليس اختلافا فى الكيف ولكنـه اختلاف فى التصنيف يشبه الاختلاف بين تصنيف الناس تصنيفا جغرافيا، وتصنيفهم حسب الحروف الأبجدية وكلا التصنيفين معمول به فى دليل البريد فالناس فى هذا التصنيف هم الناس فى ذلك ولكن السـياق يختلف .

واذا صحت هذه النظرية فلامهرب من بعض أنواع الاتصال بين العقل والمخ فلابد مثلا أن يحدث فى المخ بعض التعديل المادى بما يقابـل الذاكرة ولابد أن تتصل الحيـاة العقلية بالخصائص المادية للأنسجة المخية ، والواقع أن القضايا المادية والنفسية سينظر اليها ، لو أن لنا مزيدا من المعرفة ، على أنها مجرد اختلاف فى طريقـة النص على مضمون واحد . وهكذا تنكمش المسألة القديمة فى اعتمـاد العقل على المخ أو المخ على العقـل حتى تصير مجرد راحة لغوية فيريحنـا أن نرى العقـل معتمدا على المخ حيث يزيد علمنا بالمخ ، على علمنـا بالعقل ويريحنا أن نرى المخ معتمدا على العقل حيث يزيد علمنا بالعقل على علمنا بالمخ .

وفى كل من الحالتين تظل الحقائق الجوهرية هى هى ويظل الاختلاف اختلافا فى درجة علمنا ولا زيادة .

ولا أظن ان صـح ما تقـدم أن تطلق القول اطلاقا بأنه لا وجـود لعقل غير مجسد فمثلا هذا العقل اللا متجسد قد يوجد ، اذا اجتمعت أحداث بحسب قوانين السيكولوجيا ولا يبدو أن ثمة سببا تلقائيا قبليـا يمنع حـدوث العكس ، وكل مـا يمكننا أن نقوله هو أنه لا يـوجد

شاهد تجريبى عليه ، ولا حق لنا فى أن نزيد) • (١)

ويأخذ راسل بعد ذلك فى تلخيص نظريته هذه فى نقاط أهمها :

أولا : أن العالم مكون من أحداث لا من أشياء ذوات حالات تختلف أو على الأصح أن كل مالنا من الحق فى وصف العالم به يمكن أن ينص عليه على افتراض أنهناك أحداثا لا أشياء فالأشياء بمعزل عن الأحداث ، فرض لا ضرورة له •

وثانيا : أن موضوعات الحس كما نحسها مباشرة أجزاء من عقولنا وليس ما نراه هو العالم المادى ولا بعضه ، وهذا أيضا قال به من قبل بركلى (٢) وأيده فيه هيوم ، وان اختلفت الحجج ••

ثالثا : ينبغى أن اعترف بأنه قد لا يوجد شىء يسمى عالم المادة متميز عن خبراتى •

رابعا : أن هناك نوعين من المكان :

أحدهما ما يعرف بالخبرة ، والآخر مكان علم الطبيعة الذى لا يعرف الا استنتاجا وهو الذى يترابط بقوانين العِليَّة ••

خامسا : ان قطعة من المادة هى فى حقيقتها مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عِلِّيَّة هى القوانين العِلَّية الطبيعية •

بينما العقل مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عليَّة هىهى القوانين العليَّة النفسية • واذن فلا يصح وصف حادثة ما بأنها عقلية أو بأنها مادية لصفة فى كيانها بل توصف بهذا أو بذاك حسب سياقها العِلّى، فانه من الممكن كل الامكان للحادثة أن تنسق فى كلا السياقين العليين، السياق الذى تختص به الطبيعة ، والسياق الذى تختص به السيكولوجيا ، وفى هذه الحالة

(١) العقل والمادة ص ٢٠٠ الى ٢٠٥ وانظر فلسفة برتراند راسل للدكتور محمد مهران ص ٩٥ ، ٩٦

(٢) بيشوب بركلى ١٦٨٥ ــ ١٧٥٣ فيلسوف ايرلندى يرى الوجود هو الادراك .

تكون الحادثة عقلية ومادية فى وقت معا ..

ويحسب راسل أن هذه النظرية قد أزالت الغموض فيقول :

(أهم ما يقال فى صالح هذه النظرية التى أدعو اليها أنها تزيل غموضا ، والغموض على الدوام يضايق .. لقد ظلت علاقة العقل بالمادة تحير الناس ردحا طويلا من الزمن فاذا صح رأيى فلا حيرة فى أمرهما بعد الآن ..) (١) وأقول :

مع أن ما يعنينا نحن من فلسفة راسل هذه ــ وهو على قمة الالحاد المعاصر ــ أنها تحطم المفهوم المادى للمادة ، الا أننا لا نرى أن نظريته أزالت الغموض فى العلاقة بين المادة والعقل . وانما زادته .

ذلك لأن تفسير كل من العقل والمادة بأنه مجموعة أحداث يدفعنا الى التساؤل : أحداث ماذا ؟

أن الاحداث لابد أن تتعلق بأشياء ، والا وقعت كلمة ، أحداث فى نفس الغموض الذى وقعت فيه كلمة « عقل » وكلمة « مادة » وتكون النتيجة هى ضم كلمة الى قاموس الألفاظ الغامضة .

ان الأحداث لابد أنها تتعلق بأشياء ، فما هى هذه الأشياء ؟ حاول الأقدمون تصنيفها الى عقل ومادة ، أو روح وجسم . والآن فى علم الطبيعة الحديث أصبحت التفرقة بين هذين الأمرين واهية حقا !؟

وانهيار هذه التفرقة القديمة لا يزيل الغموض كما توهم راسل ، وانما هو يزيده بالتأكيد ، ولابد من الرجوع الى فلسفة كانت حيث يثبت « الشىء فى ذاته »

وليس أدل على ذلك من أن راسل نفسه يذهب الى أنه لا يمكن الاستدلال على الأحداث التى تقع بشكل مستقل عن الادراك .

(١) العقل والمادة ص ٢٠٥ ــ ٢٠٩
ويرى الدكتور زكى نجيب محمود ان هذه آخر مراحل تطور فلسفة برتراند راسل ..
انظر كتاب فلسفتى وكيف تطورت لبرتراند رسل والمقدمة .

وهذا ما جعله يقرر أن التسليم بها أمر ضرورى من الناحية العلمية

(اذ لو لم نسلم بهذه الأحداث لانهارت كل الأسس العلمية التى يمكن بها تبرير اعتقادنا فى وجود الموضوعات الفيزيقية واستمرارها، كما تنهار أيضا امكانية تبرير الفيزيقا) .

وبذلك لايقر راسل بالشك الكلى ويراه من الناحية العملية مجدبا (١)

ولعل الحصيلة النهائية لنظرة راسل الى كل من العقل والمادة هى مالحظه فى أحد كتبه بقوله :

(أن العقل والروح ــ شأن المادة ليست سوى رموز أشياء غير معروفة) (٢)

* * *

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر فتجنشتين : (٣)

يرى فتجنشتين أن العالم ينحل الى « وقائع » وأن الأشياء هى المكونات المباشرة التى تتكون منها الوقائع ، (والأشياء) عند فتجنشتين :

١ ــ بسيطة ، لا تنقسم .

هى بسيطة فى غاية البساطة وهى لا تتصف بأى صفة من الصفات التى يمكن ملاحظتها انما تتصف بهذه الصفة أو تلك أثناء وجودها فى واقعة ما ، لأن الصفات المادية ــ تنشأ أول ما تنشأ نتيجة لتشكل الأشياء فى واقعة ما .

٢ ــ ويترتب على ذلك أن الأشياء ثابتة لا تتغير . يقول فتجنشتين :

« الشىء وهو الثابت ، وهو الموجود ، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء ، والتركيبة التى قوامها أشياء هى التى تشكل الواقعة الذرية »

(١) فلسفة برتراند راسل للدكتور محمد مهران ص ٩٩ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣

(٢) مجموعة « عالمنا المجنون » ص ٩٧

(٣) لودفيج فيتجنشتين فيلسوف المنطقية الوضعية المنمساوى ١٨٨٩ ــ ١٩٥١

٣ ــ ويترتب على ذلك أن الأشياء باقيــة الى الأبد ، لأنهــا بسيطة لا تنقسم الى أجزاء وما ينقسم الى أجزاء هو ما يمكن فساده ، أما مالا ينقسم فهو باق على حاله ثابت لا يتغير ولا يزول .

٤ ــ ويترتب على ذلك أن الأشياء هى الأساس الأول الذى يقوم عليه العالم أو هى كما عبر فتجنشــتين تكــوّن « جوهن العالم » .

ولكن ما المقصود بمعنى الجوهر هنا ؟

معناه « الثابت وراء كل تغير ، والحامل الذى يحمل كل الصفات المتغيرة المتتابعة فى الوجود أو هو « الشىء الموجود بذاته ، الثــابت الذى لا يتغير وبالتالى فهو الذى يعد مبدأ أو أصــلا لجميع الأشياء الموجودة » .

الايمان بالشىء ضرورة منطقية :

ويبرر فتجنشــــتين فكرته عن الجوهر ، على الرغم مما فيها من معنى ميتافيزيقى يتناقض مع اتجاهه التحليلى اللاميتافيزيقى :

بقوله « انه اذا لم يكن للعــالم جوهر فان القول عن قضية ما أنها ذات معنى سيتوقف عندئذ على أن قضية أخرى تكون صادقة » .

أى أن معنى قضية ما فى حالــة وجود جوهر ثابت للعالم الخارجى انما يتوقف على المطابقة بين القضية من جهة ، وذلك الجوهر الثابت من جهة أخرى ، فيتحدد المعنى أما اذا لم يكن هناك جوهر « ثابت يحدد لنا معنى قضية معينة » . فلن يكون أمامنا عندئذ الا أن نشتق معنــاها من قضية صادقة أخرى .

وهذه من ثالثة ، وتلك من رابعة و .. الخ ..

وبذلك ننحصر فى دائــرة من القضايا يسند بعضها بعضا .. وعلى ذلك فوجود « الجوهر » الثــابت أو الأشياء الثابتة هو المطلب الذى يبرر لنا الاستخدام الصحيح للغة ، اذ أن ترابط الأشياء على نحــو أو آخر فى واقعة ما هو ما يبرر لنا الحكم بصدق قضــــية أو كذب أخرى .

اذن ما هو هذا الشىء البسيط عند فتجنشتين وكيف يكون ؟ . ان فتجنشتين لا يعطينا أمثلة له ولا

يوضح المقصود منه فى هذاالصدد يقول مالكوم : « ذات مرة كنا نناقش » ــ « فتجنشتين وويلز دونى وانا » رسالة فتجنشتين المنطقية الفلسفية وقد سألت فتجنشتين عما اذا كان ــ أثناء « كتابة « الرسالة » قد فكر فى وجود شيء كمثل «للشيء البسيط» وكانت اجابته بأن تفكيره فى ذلك الوقت لم يكن الا تفكيراً منطقيا .

ولذا فان ذلك الأمر لم يكن يعنيه كرجل منطقى أى أن يقرر ما اذا كان هذا الشيء أو ذاك ، هو شيء بسيط أو شيء مركب ــ اذ أن ذلك عمل تجريبى محض وعلى ذلك فهذه الأشياء عند فتجنشتين لم تكن الا الأشياء بالمعنى المنطقى أو هى بسائط منطقية . وقد عبر راسل عن ذلك فى مقدمة الرسالة لفتجنشتين بقوله :

(ان فتجنشتين لم يذهب الى أننا يمكننا أن نقول فعلا ما هو بسيط أو أن نعرفه معرفة تجريبية لأنه ضرورة منطقية تتطلبها النظرية مثل الالكترون) ولوتعمقنا فى ذلك لوجدنا أنها ضرورة عملية يقصد بها انقاذ هيكل القضايا من الوقوع فى حلقة مفرغة ويفقد من ثم مايبرر الحكم بصدق قضية ما أو كذبها (١) .

واذن فهذه البسائط (الأشياء) ليست هى المفردات الجزئية التى ندركها تجريبيا فى الواقع الخارجى

انها ليست كذلك لأن الأشياء التى تقع فى خبرتنا فى العالم الخارجى ليست بسيطة بل هى مما يمكن تحليله الى أجزاء أصغر منها .

وهنا يقول فتجنشتين (لايسعنى أزاء الأشياء الا أن أسميها..وبهذا لا يسعنى الا أن أتحدث عنها دون أن أستطيع تقرير وجودها) .

انها كما يقول الدكتور عزمى اسلام فى تلخيصه للنقد الذى وجه الى فيتجنشتين (مجرد افتراضات ميتافيزيقية) (٢)

(١) لودفيج فتجنشتين للدكتور عزمى اسلام ص ١٢٢ ــ ١٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٣١ .

المادة عندها نزريشباخ :

يقول هانز ريشنباخ ــ وهو ملحد .. ــ (فالسؤال : مالمادة ؟) أصبح الآن لا يمكن الاجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها .

وانما يحتاج الى تحليل فلسفى للفيزياء .. ذلك لأن الاجابة عنه تتوقف على السؤال : ما المعرفة ؟ ففى خلال القرن التاسع عشر استعيض عن التفكير الفلسفى الذى كان موجودا فى مهد المذهب الذرى بالتحليل التجريبى ولكن البحث وصل آخر الأمر الى مرحلة من التعقيد تقتضى العودة الى البحث الفلسفى ..) ولكن ــ حسب رأيه ــ بمعاينة البحث الفيزيائى (١)

ويقول (لقد اتضح أن مفهوم الجوهر الجسمى المشابه للجوهر الملموس كما يظهر فى الأجسام التى نتعامل معها فى بيئتنا اليومية هو فكرة مقحمة من مجال التجربة الحسية وأن التجارب التى تتيحها الظواهر الذرية لتحتم التخلى عن فكرة الجوهر الجسمى ، وتقتضى اعادة النظر فى طريقة الوصف التى نصور بها الواقع الفيزيائى . وباختفاء الجوهر الجسمى يختفى طابع اللغة المرتكز على قيمتين (٢) ، ويتضح أن أسس المنطق ــ واللغة ــ انما هى تتاج للتكيف مع البيئة البسيطة التى ولد فيها البشر . والحق أن الفلسفة التأملية ذاتها لم تكشف أبدا عن قدرة على التخيل مماثلة لذلك العمق الذى أبدته الفلسفة العلمية) (٣)

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٨ .

(٢) يعنى فى مجالنا هذا الموجات ، والجزئيات ويقترح أمرا ثالثا « اللامحدد » الخ ، انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٦٩ .

(٣) السابق ص ١٧٠

العلم التجريبى

يرغم الالحاد المعاصر على التخلى عن « المادية » •• لكن الى ••• أين ••• ؟

يلخص كارل بيرسن رأيه فى التغيير الشامل الذى طرأ على علم الفيزياء بقوله : (على حين أنه خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر كان مفهوم (المادة) هو الذى يعد أساسيا فى علم الفيزياء ، وكانت لهذه المادة خاصية غير مألوفة تسمى بالكهرباء فانه يبدو اليوم أن الكهرباء ينبغى أن تعد أهم من المادة ، بمعنى أن ما كنا نعده مادة أساسية ينبغى أن يتصور الآن على أنه شكل من أشكال جواهر كهربائية عظيمة التعقيد) •

ان بيرسن وجد فى هذه التطورات الفيزيائية الحديثة تأييدا لرأيه القائل : ان العلم لا يهتم الا باختراع أنموذج تصورى يصف به مجرى انطباعاتنا الحسية ولا شأن له بتقديم تفسير للعالم المدرك حسيا بالفعل • ففكرة الالكترون ، التى أصبحت هى الفكرة الأساسية فى الفيزياء فى ذلك العهد ، ما هى الا تركيب ذهنى يستحيل أن يكون موضوعا مباشراً للادراك الحسى ، شأنها شأن سائر المفاهيم التى أدخلتها الكشوف الحديثة على علم الفيزياء •

ان بيرسن ينظر الى المادة على أنها بدورها مفهوم تصورى أو ذهنى ، يستخدم فى وصف انطباعاتنا الحسية ، ولا يطابقه وجود فعلى فى الخارج •

أما المادة التى يشيع وصفها بأنها علة الانطباعات الحسية فهى فى رأيه كيان ميتافيزيقى مرفوض ، ومن الشائع أن توصف المادة بأنها صلبة وغير قابلة للاختراق • وهاتان بالفعل صفتان تتميز بهما مجموعة كبيرة من الانطباعات الحسية المسماه بالمادية ، غير أنهما لاتنتميان

بالضرورة الى كل أفراد هذه الفئة :

فالصلابة وعدم القابلية للاختراق أمران نسبيان ، ولا يدلان على صفة مطلقة تنتمى الى عالم الواقع •

أما القول بأن المادة تتميز بالدوام والبقاء ، فهو فى رأى بيرسن قد يكون راجعا الى استمرار الانطباعات الحسية لا الى استمرار شىء غير مدرك من وراء هذه الانطباعات • وهو يضرب فى هذا الصدد مثلا بالموجة :

فعندما نرى الموجة تتحرك فى البحر ، تتكون لدينا عنها انطباعات حسية متماثلة ومستمرة ، بحيث يبدو لنا أن « نفس » الموجة هى التى تتحرك ، وهى التى تقترب منا ، ومع ذلك فلو ألقينا فيها قطعة من الفلين لارتفعت وانخفضت فى نفس الموقع عندما تمر الموجة بها ، ولما أنتقلت معها ، مما يثبت أن الموجة ليست هى نفسها التى تتحرك • وهكذا قد تظل الموجة محتفظة بشكلها ، وتتكون لدينا عنها نفس المجموعة من الانطباعات الحسية ، ومع ذلك يكون أساسها أو مادتها متغيرا على الدوام • وبعبارة أخرى فان تماثل الانطباعات الحسية لا فى كل الأحوال تماثل المادة الأساسية المكونة لها • ومن العجيب أن بيرمسن يحاول هنا أن يعزل العلم التجريبى عن المذهب المادى بعد أن تحالفا زمنا طويلا ، لا لشىء الا لما بدا من أن هذا التحالف لو استمر بعد ظهور الفيزياء الحديثة فسوف يقدم دعما علميا للنظر الى المادة على أنها — كما يقول بيرسن — (كيان ميتافيزيقى) وهو أمر مرفوض عنده •

واذا كانت هذه النظرة الميتافيزيقية لا تزعج العلماء التجريبيين ، ولا تزعج — أو لاينبغى أن تزعج — الماديين الملتزمين « بالعلم التجريبى » فهى من غير شك تزعج أولئك الذين وجدوا فى تحالف العلم مع المادية دعما لنزعتهم الالحادية ، أما وقد صار هذا التحالف خطرا على الالحاد — بعد الفيزياء الحديثة — فان اخلاصهم « للالحاد » — وهو

يأتى فى المقام الأول لكونه « ارادة » محضة ـ يجعلهم ـ كما فعل بيرسن ـ يفضلون « العلم » عن « المادية » ـ المادية فى وضعها الذى اضطرها العلم اليه ـ فيهاجمونها لأنها فى رأى بيرسن (تسيرفى نفس الطريق الذى تسير فيه المذاهب الميتافيزيقية واللاهوتية ..) مدعين أنها بذلك تصبح (مضادة للروح العلمية السليمة ..) (١)

وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نقول لبيرسن وأمثاله :

انه اذاً أنفصل العلم التجريبى عن المادية .

وانفصل فى نفس الوقت عن الروحية ، أو عن الدين ، فماذا يبقى له الا أن يكون هلوسة ذاتية ، لا صلة لها بالواقع على أى وجه يكون ؟

وهذا ما جعل الدكتور فؤاد زكريا ، يقول فى تعليقه على بيرسن :

(ان مذهبه يرتكز على المذهب الظاهرى القائل بأن الموضوعات الأولية المؤكدة للمعرفة هى « الانطباعات » المباشرة فى التجربة الحسية الخارجية ، أو فى التجربة الاستبطانية الداخلية ، أما ما نسميه بالأشياء أو الجواهر فما هى الا اضافات ميتافيزيقية لا تبررها تجاربنا ...) .

ويقول : (ولا سبيل لأصحاب هذا المذهب ـ مهما بذلوا من محاولات ـ الى أن يتخلصوا من شبح الذات الوحيدة الذى يهددهم على الدوام .. والحق أن بيرسن ـ على خلاف كثير من القائلين بهذا النوع ـ من المذهب الظاهرى لم يحاول أن ينفى عن نفسه شبهة الذاتية المطلقة) .

وهكذا وكما يقول الدكتور فؤاد زكريا يتردى فى المثالية الذاتية هؤلاء المفكرون ... (الذين يتصورون فى بداية الأمر أنهم هم القادرون على محاربة المثالية ...) (١)

(١) تراث الانسانية العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٧

وهذا بلا شك يرتكس بالعلم وبالمادية الى نوع من اللا أدرية..

أما عن العلم فيقول السير شارلس شرنجتون ـ أعظم فسيولوجى ظهر فى القرن العشرين :

(اننى عاجز عن فهم معنى العقل برده الى المخ) .

ويقول : (اننى من بعض النواحى مستبطن متصوف لأن كل تفسير مادى للعقل يفلت منى ويروغ) (١) .

ويقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(ان العقل الذى اتجه الى الشك ... يقبل الآن بدون تردد الانقلاب الذى حصل فى النظريات الفيزيائية ...

فهو يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الالكترونات ... ويعترف بأن هذا الالكترون ما هو الا موجة احتمال ...

ويعترف بوجود جزيئات كالنيترونات ...

ويعترف بوجود الانتينترونات التى افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة .. (٢)

ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهريا ...

ولكنه يرفض باصرار أن يتقبل وجود قوة خارقة خلاقة ، بدونها لا يمكن أن ندرك كبريات المسائل العلمية ، لمجرد أن القواعد التى زودته بها خبرته محدودة ... الا أنه فى الحقيقة ليس هناك شىء غير معقول ، أكثر من انسان هو عقليا غير معقول (٣) .

د . يحيى هاشم حسن فرغل

(١) انظر الأساس الجسمانى للشخصية ص ٢١٦ ، ص ٢٣٧ للدكتور ف. هـ. مترام .

(٢) ذكرنا من قبل أنه تم افتراض هذا الانتينترون لا لشىء الا لانقاذ فرضية قانون تكافؤ الطاقة والمادة وعدم انعدامهما

(٣) مصيرالبشرية ص ١١٢ .

الطب الإسلامي

أو

الطب النبوي

للأستاذ الدكتور على مطاوع

ورد فى صحيح البخارى ومسلم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شفاء أمتى فى ثلاث : شربة عسل ــ وشرطة محجم ــ والكى •• وما أحب أن أكتوى » •

واذا أمعنا النظر وأعملنا الفكر فى هذا الحديث نجد أن هذه الخطوط الثلاثة فيها الشفاء لكل ما ينتاب الانسان من أمراض •

هذا من الناحية العلاجية ــ أما من الناحية الوقائية فالاسلام لم يغفل هذه الناحية بل أولاها الكثير من العناية والرعاية ــ فالصحة النفسية اهتم بها الاسلام اهتماما كبيرا وأوصى بكل ما يمنع القلق النفسى فالعقائد : الايمان بالله وقدره وأن الله وحده هو الفعال فى كل شىء وأن الجن والانس لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لن يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف وجرى القلم بما هو كائن ، تبعث فى الانسان الأمن والأمان النفسى ــ هذا من الناحية النفسية • أما من الناحية الجسدية فان العبادات كلها وما يلزم لها من تحضير مثل النظافة : نظافة البدن والثياب فى الصلاة وما يمارس فيها من حركات بدنية فى الركوع والسجود والقيام وتدبير الأكل والحج والعمرة كلها تعمل فى ناحية منها على سلامة البدن ووقايته من الأمراض •

فاذا أهمل الانسان وأصابه المرض ــ فهناك وسائل الشفاء

الثلاث ، ويجب على المسلمين العاملين فى الحقل الطبى بحث خطوط الشفاء الثلاثة التى ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه السابق وبيان الوسائل التى بها يتحقق قول الرسول صلى الله عليه وسلم توضيحا لقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » • وتطبيقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى • ولقول الله عز وجل : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » •

واذا قال الله تعالى عن عسل النحل : « فيه شفاء للناس » بدون تحديد لطريقة الاستعمال وبدون تحديد للأمراض التى يشفيها • بل أطلق ذلك • فان هذا يعنى أن فى العسل شفاء للأمراض على اطلاقها بما فى ذلك مرض السرطان •

وبالاطلاع على ماكتب عن عسل النحل فى بعض المراجع وبالبحث والتجربة وجد أنه استعمل بنجاح فى شفاء أمراض الجلد وأمراض العين واستعمل للغيار على الجروح حتى السرطانية ومنها الغرغرينة التى تصيب الأقدام أو الأيدى فى مرض السكر والتى أوصى الجراحون ببترها وكانت النتائج فوق ما كنا نتصور لأن بعض الحالات كان الالتهاب قد أصاب عظام القدم أو عظام اليد •

واستعمل العسل كغيار على الثآليل المزمنة فى باطن القدم « عين السمكة » مع الأشعة فشفيت فى ثلاثة أسابيع بعد أن كانت تشفى فى ستة الى ثمانية أسابيع — وبعلاج واحدة فقط منها يمكن علاج غيرها من الثآليل مهما كان عددها • وشفاء الثآليل بهذه الصورة يدل على أن بالعسل مادة مضادة للفيروسات • وبهذا يكون عسل النحل هو المادة الوحيدة للآن التى بها مضاد للفيروسات يمكن للانسان أن يتعاطاه • وهذا يفسر استعمال العسل للوقاية من مرض شلل الأطفال •

واستعمل العسل فى عـــلاج أمراض الجهاز التنفسى وخصوصا الرشح والحساسية والتهاب الجيوب الأنفية والربو وغيره من الأمراض •

واستعمل العسل فى عـــلاج أمراض المعدة والأمعاء وفى أوراق البردى الخاصـــة بالطب وأوصى قدماء المصريين باستعمال العســل فى علاج الجروح وفى ادرار البول ولاراحة الأمعاء •

وفى الطب الهندى القــديم كان الدواء الذى يجلب السعادة ويحفظ الشباب مصنوع أغلبه من العسل وكانوا يوصون بوجبة معينة لاطالة العمر أهم عناصرها العسل واللبن • وكان ابقـــراط يأكل العســـل باستمرار ويستعمله فى طبه كعلاج لكثيـــر من الأمـــراض • وكتب ديوســـكوريدس الاغـــريقى : أن العسل يستعمل بنجـــاح فى عـــلاج أمراض الامعاء والجروح المتقيحة والبواسير •

وكان جالينوس الأغريقى يصفه لعلاج حالات التسمم المختلفة فى أمراض القناة الهضمية •

وكان ابن سينا يقول اذا أردت أن تحتفظ بشبابك فاطعم العسل• وكان يوصى من جاوزوا الخامسة والاربعين أن يأكلوا العسل بانتظام وخصوصا مع عين الجمل المسحوق لأنه غنى بالزيوت •

وجاء القرآن الكريم يقول عن عسل النحل ان فيه شفاء للناس •

ويقول رسولنا صلى الله عليـــه وســـلم : شـــفاء أمتى فى ثلاث : أولها شربة عسل • ولفهم خصائص العسل العلاجية يجب أولا معـــرفة نتائج تحليل العسل وما به مـــن مواد •

ـــ ويحتوى العسل على :

١ ـــ سكر الجليكوز ٤٠ ٪

٢ ـــ سكر الفركتوز (الليفيلوز) ٤٠ ٪

٣ ـــ الخمائر

دياستيز

انفرتيز

كاتاليز

بيروكسيديز

ليبز

٤ ــ المواد المعدنية

الكالسيوم
الصوديوم
البوتاسيوم
المغنسيوم
الحديد
الكلور
الفسفور
الكبريت
اليود

وبعض أنواع العسل يحتوى على مواد مشعة •

وبالتحليل الطيفى وجد أنه يحتوى على :

المنجنيز ــ السليكون ــ الالومنيوم ــ البورون ــ الكروم ــ النحاس ــ اليثيوم ــ النيكل ــ الرصاص ــ القصدير ــ الثيتان ــ الخارصين ــ الآزميوم •

والاملاح المعدنية مهمة جدا للجسم • وقد عملت تجارب معملية على الحيوانات فأعطيت طعاما يحتوى على الزلاليات والنشويات والدهنيات والفيتامينات وخاليا من الاملاح المعدنية فماتت الحيوانات بينما استمرت مثيلاتها التى أعطيت نفس الغذاء مضافا اليه الأملاح المعدنية على قيد الحياة •

ويصح أن نقف هنا وقفة تأمل •

لقد خلق الله الانسان من تراب الأرض والماء • والتراب يحتوى معظم العناصر الموجودة فى الكون وباضافة الماء يصير جسم الانسان محتويا على جميع العناصر المعروفة بنسب متفاوتة تبعا للوظيفة التى يؤديها كل عنصر فى الجسم ــ فالصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والحديد والفوسفور والكبريت واليود والكربون والاكسجين والايدروجين تشكل الكميات الكبيرة من العناصر • أما باقى العناصر فهى موجودة بكميات ضئيلة • ولذلك تسمى العناصر النادرة ولكن وجودها فى الجسم ضرورى لعمل بعض الخمائر الموجودة فى الجسم •

ويحتفظ الجسم بهذه العناصر فى حدود معلومة لو زادت عنها أو نقصت عنها لأدى ذلك الى اختلال فى الجسم وظهرت العلل والأمراض

التى تختفى لو عادت نسبة هـذه العناصر الى مقاديرها الطبيعية التى فطر الله الانسان عليها •

ونسبة هذه العناصر فى الجسم فى تغير مستمر ما قامت الحيـاة ، فاذا انقصت فان الجسم يعـوض النقص من الغـذاء الذى يتناوله الانسان وهو اما أن يكـون من أصل حيوانى أو نباتى • والحيوان يتغذى على حيوان آخر أو نبات• أى أن مصدر العناصر الموجودة فى جسم الانسان ترجع فى النهاية الى النباتات التى تتغذى من الأرض والماء •

وقد وجد أن النباتات تختلف• فيما تحتويه من عناصر كما ونوعا •

فهناك النباتات التى تحتوى على نسبة عالية من الحديد والتى تحتوى على نسبة عاليـة من الـكالسيوم والتى تحتوى على نسبة عاليـة من اليود والتى تحتوى على نسبة عالية من الكبريت وهكذا • وقد وجد أن هنـاك نبـات يختـزن عنصر الذهب ، ولله فى خلقه شئون •

والعبرة من هذا أن تنـاول الانسان لهـذه النبـاتات يعوض ما ينتـاب الجسم من نقص فيهـا فيظل سليما معافى •

ومن حكمة الله أن الانسان قد لا يستطيع أن يأكل من كل النباتات التى تحتـوى على ما يلزمـه من العناصر النادرة التى يحتاج اليها جسمه ، فسـخر له نحـل العسل وأوحى اليهـا أن « كلى من كل الثمـرات واسلـكى سـبل ربك ذللا • يخـرج من بطونهـا شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »•

٥ ــ والعسل يحتوى على بعض الأحماض العضوية مثل التفاحيك والترتريك والليمونيك واللبنيـك والاوكساليك كمـا يحتـوى على قليل من الزلاليات والفيتامينات •

والفيتامينـات الموجـودة فى العسل هى ب٢ ، ب٦ ، هـ ، ك ، ج ، وغيرها • وقد دلت الابحاث على أن العسل يحوى كميات كبيرة من الريبـوفلافين (ب٢) يعـادل الموجـود منـه فى لحم الدجـاج وخمسة اضعاف الموجـود منه فى

الجبن القليل الدسم ــ وفيتامين (ب٣) حمض الباتنوثنيك •

وهو عامل مهم ضد التهابات الجلد •

وفيتامين هـ (بيوتين) وهو يمنع انتشار الاكزيما والقوبا والدمامل والصدفية •

وفيتامين ب٢ (حمض الفوليك) يستعمل بنجاح فى علاج فقر الدم (الانيميا الخبيثة) •

وفيتامين ك يستعمل فى حالات النزيف •

وفيتامين ج يزيد مناعة الجسم ضد العدوى ويساهم فى عمليات التأكسد والاختزال والتكوين العادى للدم •

ولو أن الفيتامينات الموجودة فى العسل بكميات صغيرة ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها متحدة مع مواد أخرى من الأحماض العضوية والكاربوهيدرات والأملاح المعدنية •• وهى مختلطة بحبوب اللقاح • وترشيح العسل لتخليصه من حبوب اللقاح يفقده ما به من الفيتامينات •

وكمية الفيتامينات الموجودة فى كيلوجرام من العسل هى كالآتى :

فيتامين ب٢ (ريبوفلافين) حوالى ٥ر١ ملليجرام

« ب٢ (انيورين) حوالى ١ر ملليجرام

« ب٣ (حمض الباتنوثينيك) حوالى ــر٢ ملليجرام

« ب٥ (حمض النيكوثينيك) حوالى ــر١ ملليجرام

« ب٦ (بيريدوكسين) حوالى ــر٥ ملليجرام

« ج (حمض الاسخريوط) حوالى ــر٣٠ الى ــر٥٤

٦ ــ مضادات حيوية غالبا نتيجة نشاط افرازى فى النحلة الشغالة •

وقد غسلت مزارع ميكروبية مختلفة عمرها ٢٤ ساعة فى ١ سم٣ محلول ملحى فسيولوجى ثم أخذت نقطتان من المستحلب واضيفت الى ٣ سم٣ من العسل وتم مزجها بعناية ثم وضعت فى فرن عند درجة ٣٧° مئوية ثم عمل مزارع منها يوميا فكانت النتيجة كالآتى :

الميكروب السبحى (ستربيتوكوكس) : ماتت كل البكتريات بعد اليوم الثالث .

الميكروب العنقودى (ستافيلوكوكس » : ماتت كل البكتريات بعد اليوم الثالث .

ميكروب التيفود والباراتيفود
وبكتيريا كولاى
وميكروب جارتنر
وميكروب شيجا
ماتت كل البكتريات بعد يومين .

وقد أثبتت التجارب أن البكتريا تنمو بعد دور الحضانة فى وسط عالى التركيز من السكر يحتوى على ٤٠ ٪ جليكوز ، و ٣٠ ٪ فركتوز و٠٫٠٢ ٪ حمض النحليك .

ولا يمنع العسل نمو البكتريا فقط ولكنه يمنع نمو الفطريات كذلك . ويمكن حفظ قطعة من اللحم فى العسل لمدة عام محتفظة بكل خصائصها وطعمها . وقد أثبتت التجارب أن قتل البكتريا والفطريات لا يرجع الى النسبة العالية للمواد السكرية الموجودة بالعسل ولكن الى مضادات حيوية يفرزها النحل الشغالة . وقد أوضحت التجارب أن العسل كلما خفف كان تأثيره القاتل أكبر .

٧ ــ يحتوى العسل على مادة تمنع انقسام الخلايا اذ تقوم النحل الشغالة بافراز مادة تمنع نمو حبوب اللقاح بمنع انقسام خلاياها .

٨ ــ يحتوى عسل النحل على مادة مضادة للفيروسات . وبذلك يكون العسل هو الدواء الوحيد فى العالم الذى يحتوى على هذه المادة التى يمكن للانسان أن يتعاطاها حيث ان المادة الوحيدة التى يعرفها العلماء المضادة للفيروسات هى « الانترفيرون » وهى مادة سامة للانسان لا يمكنه تعاطيها .

ولقد قمت شخصيا بعلاج الثآليل التى يسببها فيروس معروف بجلسات الأشعة مع الغيار بالعسل على واحدة فقط من الثآليل فشفيت كل الثآليل فى أقل من الوقت المعتاد اذا لم يستعمل العسل بعد الأشعة .

ومن الحقائق المعروفة عن سكر الفركتوز الموجودة فى العسل أنه أحلى من سكر الجليكوز وأنه يدخل الخلايا ويتم احتراقه فيها بدون احتياج الى وجود الأنسولين، كما هو الحال فى سكر الجليكوز وهو لذلك مفيد لمرضى السكر اذ يمنع التسمم الخلونى اذا استعمله المريض بالسكر فى احتياجاته اليومية بدل السكر العادى (سكر القصب) •• كما أن الكبد يختزن من السكر الفركتوز ثلاثة أمثال ما يختزنه من سكر الجليكوز على صورة جليكوجين • ومعروف أن الكبد الذى يختزن كمية كبيرة من السكر أقدر على أداء وظائفه من الكبد الذى يختزن أقل • ومن وظائف الكبد الأساسية تخليص الجسم من السموم •

ومن هذا تتبين قيمة العسل لمرضى السكر وقيمته فى مقاومة السموم •

٩ ــ هذا ولا يزال هناك ٧ر٣ ٪ من محتويات العسل لم تعرف طبيعتها بعد •

وهكذا يتبين لنا قيمة العسل كغذاء وكدواء ويتبين لنا أن العسل باستعماله مفردا أو مع غيره من العناصر أو المواد يمكن أن يكون دواء شافيا لكثير من الأمراض التى تصيب الانسان •

لقد استخدمته مع فوق أكسيد الأيدروجين (يوريا بيروكسيد) كدهان لعلاج سرطان الجلد وكانت النتائج مذهلة • وطبعا ما ينطبق على الجلد ينطبق على الأماكن التى يسهل الوصول اليها مثل تجويف الفم وعنق الرحم •

ولقد قمت بالقاء محاضرة عن هذا الموضوع فى ندوة دولية لعلاج سرطان الرحم والمثانة فى مارس سنة ١٩٧٩ م • بمعهد التغذية بينت فيها أسباب التحول السرطانى للخلايا وعلى أساس هذه الفكرة استخدام العسل والاكسوجين فى العلاج • وكانت النتائج فوق ما أتصور • وفى هذه الطريقة لا نرمى الى قتل الخلايا السرطانية وانما الى اعادتها الى حالتها الطبيعية

بامدادها بما يلزمها من الاكسوجين والغذاء (الفركتوز) •

هذا بخصوص العسل وهو أحد وسائل الشفاء الثلاثة التى قال عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

أما بخصوص الحجامة (أى التشريط) فلها أساس علمى معروف وهو أن الأحشاء الداخلية تشترك مع أجزاء معينة من جلد الانسان فى مكان دخول الأعصاب المغذية لها فى النخاع الشوكى أو النخاع المستطيل أو قنطرة فارول أو فى المخ المتوسط •

وبمقتضى هذا الاشتراك فان أى تنبيه للجلد فى منطقة ما من الجسم يؤثر على الأحشاء الداخلية المقابلة لهذا الجزء من الجلد •

وهى نفس النظرية التى على أساسها تستخدم الابر الصينية فى علاج الأمراض وتصريف الآلام • ولقد شاهدت بنفسى تجربة على استعمال الابر الصينية فى علاج المغص الكلوى وآلام البطن أثناء نزول العادة عند بعض السيدات فكانت النتيجة زوال الآلام •

وأما بخصوص الكى فهو نوعان : كى طبى وكى جراحى •

أما الكى الطبى فهو يعمل على نفس نظرية الحجامة • ولقد شاهدت بنفسى تجربتين احداهما فى علاج الالتهاب الرئوى بالكى بين الأضلاع والأخرى فى علاج الاسهال والمغص البطنى بالكى على الكعبين • وانى أشهد بأن النتائج كانت فوق ما كنت أتصور وارتاح المريض بعد الكى مباشرة وكأنه ليس به مرض •

الكى الجراحى تفنن فيه الأطباء الجراحون العرب أمثال أبو القاسم الزهراوى الذى صنف فيه أبوابا فى كتابه عن الجراحة تستحق الدراسة والتجربة •

وختاما :

أرى لزاما علينا أن نفيق من غفلتنا وان نبحث فى تراثنا وان نفيد مما لا يزال يطبق فى عالمنا من هذه الوسائل لانها أسرع فى

الشفاء وليس لهـا مضـار أو آثار جانبية ، كمـا أنهـا أرخص فى التكلفة .

لقد صدق فينا قول الرسـول صـلى الله عليـه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحـر ضب لدخلتموه وراءهم .

لقد آن الأوان أن نعـود الى ديننا والى كتـاب ربنا وقـول رسولنا فنذكر قول الله تعالى :

« ما فرطنا فى الكتاب مـن شىء » .

ونذكر قول الرسول صـلى الله عليه وسلم « لقـد تركت فيـكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى » .

ونبحث فى قوله صلى الله عليـه وسلم : « شفاء أمتى فى ثلاث :

ـ شربة عسل .
ـ وشرطة محجم .
ـ والكى .

... وما أحب أن أكتوى .

أسأل الله العلى القـدير أن يجعل من هذه الصيحة دافعا وحافزا الى الاخـوة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربهـا الى البحث فى الطب الاسلامى بفروعه المختلفة .

والوقائى والعلاجى .

والنفسى والجسدى .

وأخيرا : الطب بالقرآن .

« وننزل من القـرآن ما هـو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا » .

وأن يقوم مجمـع البحـوث الاسـلامية بنشر ما يرد اليـه من البحوث تعميما للفائدة .

والله المستعان .

د. على محمد مطاوع

من أعلام الدعوة الإسلامية

الشيخ صالح الجعفرى

داعية الجامع الأزهر الشريف

للدكتور محمد رجب البيومى

انتقل الى رحمة الله داعية الجامع الأزهر الشريف المغفور له الشيخ صالح الجعفرى ، فترك فى مجال الدعوة الاسلامية فراغا كبيرا ، وكنت ودعته بكلمة موجزة فى جريدة الأخبار اليومية لم تشف ما فى نفسى ، لأن خواطرى عنه وعن دعاة الأزهر فى بلاد الاسلام تزدحم وتجيش ، وتتطلب تنفيسا فى مجال يتسع بعض الشىء للاشادة بقوم دعوا الى الله على بصيرة ، ورحلوا الى جوار ربهم دون أن يقوم مؤرخ منصف بتسجيل آثارهم ، على حين نرى مؤلفات متعددة عن مطرب أو مطربة أفسدا الجيل بأكثر ما خلفاه من مبتذلات ! ولكن أجر الله أجل وأوفى فى الدار الآخرة لمن وفى بعهده ، ودعا الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، أولئك يجزون أجرهم بغير حساب .

شهد الأزهر على مر عصوره أعلاما من أبنائه يجوبون مشارق الأرض ومغاربها ، رافعين راية الاسلام وفى زماننا الأخير أنشأ الأزهر طائفة ممتازة من رجال الوعظ ، حملوا راية الدعوة الاسلامية كتّابا وخطباء ومحاضرين ، ومدرسين فى أقسام الدعوة والوعظ ، ولا زلنا نذكر جهود الأساتذة الكبار على محفوظ ومحمود خليفة وعبد ربه مفتاح ومحمد أحمد العدوى وزكى الدين سند وعلى الجربى ، ممن سبقوا الى رحمة الله كما نذكر اليوم الشيخ صالح الجعفرى خاتمة لهذا العهد الحافل بالجهاد ، ولا أعنى أنه خاتمة رجال الدعوة فلا زال لها بحمد الله

أعلامها المخلصون ، وما منهم الا له مقام معلوم .

وفد الشيخ صالح الجعفرى الى الأزهر منذ خمسين عاما ، وقد حكى عن نفسه فى مقدمة كتابه (السيرة النبوية المحمدية) أنه تأثر بالأساتذة الأعلام محمد حبيب الله الشنقيطى ، ومحمد بخيت المطيعى ، ومحمد ابراهيم السمالوطى ويوسف الدجوى والغنيمى من كبار علماء الأزهر ، وأبناء الجيل الحاضر لا يعرفون أن هؤلاء الأعلام الكبار ، وفيهم من أخذ مكانه عن جدارة فى جماعة كبار العلماء — كانوا يلزمون أنفسهم بدروس يومية عند جماعة وأسبوعية عند جماعة آخرين بمساجد القاهرة الكبرى حسبة لوجه الله ، بعيدا عن مجالهم الوظيفى فى الفتوى والقضاء والتدريس المنتظم بالقسم العالى بالجامع الأزهر ، وذلك تقليد كريم يجب أن يعاد ، فتعمر مساجد القاهرة بكبار العلماء ، ليعطوا العلم خالصا لمن يريد ! كان الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى يقرأ صحيح مسلم بشروحه فى الجامع الأزهر بالقاهرة وفى مسجد الخازندار بشبرا ، وكان الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى مفتى الديار المصرية يشرح حكم ابن عطاء الله السكندرى بعد صلاة العصر بمسجد الامام الحسين فى كل رمضان وفى أيام الجمع فى غير رمضان ، وكان الشيخ محمد ابراهيم السمالوطى يقرأ صحيح البخارى عصرا فى مسجد الحسين ، وسحرا فى مسجد السيدة زينب ، أما الشيخ الغنيمى الذى ذكره الشيخ صالح فلا أدرى من هو ولعل أحد عارفيه يكتب عنه ، وما أظنه المرحوم الأستاذ محمد الغنيمى التفتازانى لأنه كان صغير السن من ناحية ، ولم يكن يدرس فى حلقة علمية جامعة من ناحية ثانية ، وأما الشيخ يوسف الدجوى فكان يقرأ كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالى بمسجدى الأزهر والحسين ، وقد وفد الشاب صالح الجعفرى الى القاهرة فوجد هذه الحلقات العامرة بعلمائها المخلصين فأخذ يترصدها فى كل وقت ،

ويعد نفسه ليكون مدرس حلقة وداعية جماعة ، وقد التحق بالدروس المنتظمة فى الجامع الأزهر لتكون بابه الواسع الى الهداية والارشاد ، وثابر وجالد حتى نال شهادة العالمية الأهلية ، وأخذ شهادة مماثلة من كلية الشريعة الاسلامية ، وهو لا يفكر فى منصب ، حتى ساقه الله عفوا دون سعى ، وكأن الله قد حقق له رغبته حين هيأ له أن يكون مدرسا بالجامع الأزهر للعامة فأصبح كما يبتغى داعية هاتفا بشريعة الاسلام ، وشارحا مجيدا لأخلاق السلف وقدوة ممتازة فى السلوك الاسلامى النبيل .

نشأ الشيخ فى أسرة متصوفة ذات نسب شريف ، فشب كما يشب أبناء التصوف الحقيقى ممن يرون فيه جهادا داخليا للنفس حتى تطهر من شوائب الشهوات ، وحتى تستعلى على غرائزها الهابطة ، ناشدة مثلا رفيعة ذات ملذات وجدانية تقوم مقام الرغبات الدنيوية الشائعة ، كما يرون فيه جهادا خارجيا لانقاذ من تورطوا فى الاستجابة الى الرغبات الوضعية حين سيطرت عليهم غرائز السوء فقادتهم الى ضروب من الأنانية والطمع والكيد والنهم ، مع الانغماس فى ملذات تتجدد وتتكرر دون سأم ، ويظل صاحبها أسيرا لحاجاتها القاهرة ، وفيها ما ينهك الجسم ، ويشرد الأمن ، ويقلق البال ! نشأ الشيخ هذه النشأة التى هدته الى قراءة كتب الطبقات لأعلام النابهين من رجال الفضل فى الاسلام ، ومع أنه كان مالكى المذهب ، قد عشق الامام أحمد بن حنبل عشقا بلغ به مبلغ الكلف ، ورأى فى زهده وترفعه عن الرغبات أكبر مثل يحتذيه ، وصدع بالحق كما صدع ، فكم من مسائل شائكة تتعلق بالسياسة المتربصة سئل عنها الشيخ صالح فى حلقات الدرس ، حين عُذِّب المجاهدون فى سبيل الله وتقاذفتهم المنافى السحيقة لا لشىء الا أن يقولوا ربنا الله ! كم سُئِل الشيخ عن هؤلاء المجاهدين وفيهم تلاميذه وأصدقاؤه فصدع بكلمة الحق ، وخلع عمامته وتوجه الى السماء رافعا كفيه أن ينصر حماة دينه ،

وقد انتقل بالدروس ذات عشية لهذه المناسبة من موضوعه الأصلى ــ وكان فى الزكاة ــ الى تفسير قول الله عزوجل (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) حيث أفاض الله على لسانه ساعتئذ من روائع المعانى ونفائس الحكم ما أعتقد أنه كان فوق مستواه ، وأن مددا روحيا قد تدفق على لسانه مرتفعا من زواخر قلبه المتلاطمة ، وكم للشيخ فى ساحات درسه من وثبات وجدانية لا ندرى من أين جاءت ! فقد قرأنا ما يقرأ الناس من كتب التفسير ، وصحائف الحديث ، ولكننا لم نر هذا الشرح المتدفق النابض لأحد من سابقيه فى هذه الآية الكبرى وقد رزق الشيخ حلاوة فى الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقى تصدح لا أمام انسان يتكلم ، والصوت الندى الصبيح اذا استلهم القلب العاطفى المتقد جاء ببدع من فنون البيان يبحث عن تأثيرها أساتذة فن الالقاء فلا يهتدون الى أصولها الحقيقية ذات الولوج الناشب فى مطاوى الأفئدة ولفائف الأحشاء والكبود .

والحديث عن أثر هذه النشأة فى حياته الزاهدة يعرفه كل من اتصل به ، وقد عبر عنه تلميذه الأستاذ أحمد الأسوانى حين قال عنه فى جريدة الأهرام يوم ١٩٧٩/٤/٢٧ .

« عاش الشيخ حياته كلها فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالأزهر الشريف اذ قضى به خمسين عاما من عمره الذى لم يكمل السبعين ، فكان يحرص رغم مكانته العلمية على مشاركة خدم الجامع الشريف فى أعمال النظافة ويحيا حياة البساطة والشظف فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز » هذا ما قاله الأستاذ الأسوانى وأزيد فأقول : كان للشيخ أتباع من كبار الموسرين يعرضون عليه الاقامة فى الشقق الفاخرة ، ويرون فى تنوع

مجرى حياته وسيلة الى استبقاء صحته ، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سببا الى موعظة حسنة فى الدرس اذ يشرح حياة الرسول وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم ،ثم ينتقل الى سير الصحابة الأعلام فيفيض فى زهد عمر وعلى ويقرأ فى صوت خاشع وفى تمثيل مؤثر حى نابض قول الامام على كرم الله وجهه : « يا دنيا غُرِّى غيرى ! ألى تعرضت ؟ أم الى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثا ، لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وأثرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » !

وكان أتباعه من عشرات المسلمين فى شتى ممالك الاسلام يرسلون اليه الهدايا الصوفية الثمينة فى كل موسم ، فكان يدفع بها الى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة ، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى وأن يستبدل به أقمشة متواضعة متينة من الكستور أو الدبلان ويعلمه عن عدد الأمتار ، فاذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من رواد درسه ، وعشاق موعظته ، ليعطى كلا منهم كوبونا ممهورا باسمه ، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من اجابة مريده الفقير عن عدد أسرته ، وصفتهم من الأنوثة والذكورة ، ثم يبعث به الى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدخر ، وقد جاءه مال وفير فدفعه الى أحد مريديه من المقاولين ليقوم بتعمير بعض المساجد المتهدمة فى هذا الحى الاسلامى من قاهرة المعز ، ووجه الشيخ يفيض بالنور ، ويتلألأ بالبشر حين يجيئه صديقه المقاول فيخبره أن البناء قد تم على أحسن نظام ، فيسرع مع أتباعه الى مشاهدة المسجد فرحا مستبشرا ، وكأنه يستعرض قصرا ملكيا أهدى اليه ، ثم ينهض الى أداء تحية المسجد ، وخلفه صفوف من مريديه ، فاذا تمت الصلاة بدأت الموعظة ، واذا انتهت الموعظة بدأ الذكر واذا انتهى الذكر بدأ الشيخ يقرأ السيرة النبوية بصوته الطروب ، فاذا قلت لك ان المغرب

يتصل بالعشاء وان العشاء يشارف السَّحر ، والنـاس مع الشيخ فى تواجد حنان ، وفى طرب مياد ، وفى أنس لا انقطاع لبهجته ، فاعلم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

نعم كان النـاس مع الشيخ فى تواجد وانجذاب فقد أوسع لهم من نفسه ما لم يجـدوه لدى سواه ! يجيئه المصاب فى ولده باكيا متفجعا ويظن أن السموات قد انطبقت على الأرض لفقـد حبيبـه ، فيبتسم الشيخ فى هدوء ، ويقول له : أبشر يا بنى فان الله قد اختارك لابتلائه والكرام مرزءون ! ان رسـول الله وهو أحب خلق الله اليه جميعا قـد ابتلى بفقد أولاده فى حياته ما عدا فاطمة ! وما كان الله ليبتليه بذلك الا وهو يدخر له أعظم المثـوبة فى جنات الرضوان . ويجيئه المحزون لمعصية ارتكبها فيسر اليه بخطئه ، فيقول له الشيخ قم واغتسل وقص شعرك وأظـافرك وعد وسأخبرك فاذا أتم المذنب ما أشار به عليـه خف الى الشـيخ فتهلل للقـائه ، وقال له أبشر هذه توبة لن تكـون مقبولة لدى الله اذا عدت الى فعلتك السابقة ، ها أنت ذا قد نزعت كل أثر فى جسمك للمعصية حين تطهرت وحلقت ونظفت ، لقـد ولدت من جديد ، وسيعفو الله عما سلف ، واياك ثم اياك ، ثم يقرأ قول الله : (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسـهم ذكـروا الله فاسـتغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا عـلى ما فعـلوا وهم يعلمون ، أولئـك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـا ، ونعم أجر العاملين) فيستمع المذنب مستبشرا ويخرج عازما على الطاعة نادما على الزلة ، وخيـال الشيخ الكبير فى خاطره يراوحـه ويغـاديه ، فهـو يعتقـد أن الشيخ موضع سره ، وأنه سـنده فى النائبـات ، وحين كنا نشيع جنـازته بالأزهر وقـد ماجت الحشـود المتراصـة خلف نعشه ، رأينا عشرات البـاكين من المواطنـين البسطاء ، الذين قـد وسعتهم نفس الشيخ فأغدق عليهم من مدده النفسى ما كان نعم الزاد لهم فى رحلة الحيـاة ، وفيهم من ندّ عنه صوابه فأخذ يقول : كنت

سارقا وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول : كنت سكيرا وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول لقد تعرضت أسرتى للتشريد لولا عزيمة الشيخ صالح ! وقد انتهت الجنازة ، وخواطرى توحى الى أن من الضرورى الحتم للناس أن يكون لهم من العلماء الصادقين بلاسم شفاء ، ومراوح نسيم تقيهم لفحات الحياة عند الزلل ، وقد كان الشيخ صالح شجرة وارفة ذات ظل ، تسقط الثمر وتحمى من القيظ وتؤذن بالاسعاد ! فهل من بديل ؟

كان الشيخ صالح قريب الدمعة يخيل اليك حين تسمع وعظه أن غديرا من الدموع يحتبس وراء حنجرته ، بل انك حين تنظر الى عينه تجد صفاء نديا كأن خيالا يُرى للماء يكاد يتقاطر من المحاجر، وهذه النظرات العذبة الصافية تلهم رائيها خشوعا لا يكاد ينجو من تأثيره دون جهد جهيد ، ومن مواقفه التى بلغ التأثير فيها روعته الخالية ، موقفه فى رثاء أستاذه الكبير الشيخ يوسف الدجوى رضى الله عنه ، فقد كنا طلابا فى كلية اللغة العربية ، ونادى الناعى منذرا بوفاة الشيخ الكبير ،ومحددا ميعاد الجنازة ، فسارعت الى توديعه ، وكان المشهد مؤثرا تتقدمه جماعه كبار العلماء برئاسة أستاذهم الأكبر مصطفى عبد الرازق ، وحين بلغ الموكب نهايته عند القبر ، انتفض الشيخ الصالح خطيبا يرثى أستاذه فبدأ مرثيته مستشهدا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبضه العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) ، ثم أفاض فى ايضاح منزلة العالم الفقيد ، وأشاد ببعض مواقفه الجريئة أمام المبتدعة والملاحدة ، وكان جلال الموقف ، ورهبة المناسبة، واحتشاد الجموع مما جعل نفس الراثى ممتدا يتسع ويتدفق ويجيش ، وكان لصوته الحزين هزة تحرك النفوس وتعصف بالألباب ، وما انتهى الخطيب من مرثاته حتى سأل عنه الأستاذ الأكبر

معجبا ثم بادر بتعيينه مدرسا فى الجامع الأزهر ، فأضفى عليه تعيينه الرسمى رسوخا أخرس ألسنة من كانوا يضيقون بسلفية الشيخ لحاجة فى نفوسهم ، ويرونه يتجاوز الوضع المناسب لمثله حين يتصدر للوعظ يوميا دون ملال ، وهم قلة قليلة عرفت خطأها المتحامل فاستكانت الى الحق بعد جموح .

حفظ الشيخ كثيرا من أشعار المتصوفة فجرى لسانه بقصائد عبد الرحيم البرعى وعبد الغنى النابلسى وعمر بن الفارض ويوسف النبهانى ، وكان للامام البوصيرى لديه منزلة أى منزلة حيث عارض كثيرا من قصائده النبوية ، ولا أكتم حقيقة واضحة هى أن الشيخ قد نظم الشعر محاكيا فحسب ، فمدح الامامين الحسن والحسين بقصيدة حاكى بها قصيدة البوصيرى الشهيرة ، وقد تابعه متابعة صارخة حتى ليكاد ينقل كثيرا من ألفاظ البيت الأصلى عند المحاكاة ، وكادت مدحته أن ترد الى أصلها التى صدرت عنه فى كل فقرة ، والشيخ لا يعاب فى ذلك لأنه لم يدع الشاعرية المبتكرة ، ولكن حبه دفعه الى النظم على طريقة شاعر أعجب به ، وأراد أن يسير فى ضوئه ، وهو بعد يكتب للعامة شعره ، ولا يهمه غير أن تجيش نفوسهم بحب الرسول وآل بيته سواء أتى ذلك الحب عن طريق شعره أو عن طريق سواه ، ونقدم للقارىء مثالا من بردة الشيخ الحاكية :

ظلمت نفسى اذا لم تأت زائرة
ضريح أهل الهدى والنور والهمم
وشد جدهمو أحشاءه وطوى
على الطوى مهجة مملوءة الحكم
وراودتهم ملوك الأرض عن ذهب
كيما يكونوا لهم طوعا لأمرهم
فالصبر فى حسن والحلم شيمته
يكفيك ماقد جرى من صلح جيشهم
فاق الخليقة فى أيامه فغدا
كأنه حيدر فى الناس كلهم
دع أنه مرسل وانسب له شرفا
وقل له يا بن خير الخلق والأمم
فانه بحر علم طاب مورده
كم جاد للناس من علم ومن كرم

وأذكر أنى منذ أكثر من عشرين عاما حاولت أن أقترح على الشيخ قراءة دواوين الشعراء الكبار من أمثال أبى تمام والشريف الرضى

والمتنبى لأرتفع بمعانيه عن المحاكاة المحتذية حيث تمده دواوين الفحول بروح جديدة ، ولكنى وجدت منه اعراضا نافرا اذ يعتقد أن شعر المتصوفة وحده هو الشعر ، وقد قلت له ذات مرة : ان شعر أبى تمام يحفل بكثير مما يبتغى من روائع الاستشهاد المنبرى فى مواقف الوعظ ، فسألنى مستطلعا ، مثل : ماذا ، قلت : مثل قوله فى الحنين :

وقوله :

وانجدتمو من بعد اتهام داركم
فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

ومما هيج البرحاء انى
شكوت فما شكوت الى رحيم

فصاح : أعد البيت الأول فأعدته فأخذ يردده بصوته المغرد ويبكى ، ويقول هذا نفس عال ، هذا نفس عال : ألديه كثير من مثل هذا ؟ ثم سمعته فى اليوم نفسه يردد البيت فى عظة العشاء ، والغريب أنه رفض البيت الثانى بحسه الدينى ، وقال ان الرحيم جل جلاله حى موجود ، والشكوى له وحده واجبة ومن وضة فكيف يزل الشاعر فى قوله ، وهو نقد لا يصدر مثله الا من مثله .

وقد كتب قصة للمولد النبوى يحاكى بها الذائع من الموالد النبوية على نحو ما قال البرعى والبرزنجى والمناوى فلاقت رواجا لدى مريديه ، وان كانت لا ترتفع فى نظرى الى ما أنشد من مثال ، وبخاصة وقدكتبها الشيخ بعد أن أصدر الأستاذ عبد الله عفيفى (المولد النبوى المختار) فى عبارة أدبية مختارة ، وفى سلاسة بيانية ترتفع بهذا اللون الأدبى الى مستوى الأصلاء من البلغاء ! وكل ميسر لما خلق له ، فالشيخ قد خلق واعظا أداته اللسان ، وموقفه المنبر ، والخطباء فى كل زمان يسمعون ولا يقرءون ، وكم سمعنا من خطبة رنانة هزت الأعطاف حين كان للخطابة فى مصر عهد مزدهر فى الأربعينيات وما فوقها ، ثم قرأناها مكتوبة فى الصحف السيارة فلم نجد بها من البريق الخاطف ما أحسسنا به لدى السماع ، ولا يعيب الداعية ألا يكون كاتبا

أو شاعرا ، وحسبه أن يجيد فى ميدانه المختار .

آثر الشيخ الخلوة فى أخريات أيامه فكان لا يقابل الناس الا عند الصلوات وفى مجالس الوعظ ، وقد كرمه الله بمواصلة الحج أعواما متتالية حيث كانت الرحلة الحجازية تذهب اسقامه وتجدد نشاطه ، ثم جاءت الرحلة الخاتمة الى رحاب الله، فالتاعت وراءه قلوب ، ودمعت من خلفه عيون ، وتدافعت الجموع مسرعة لوداعه ، وهى جموع متلاطمة لم يدفعها سائق ، ولم يغلظ عليها مناشد ، ولم تهيأ لها أجور معلومة كى ترائى الناس بالتشييع فى الموقف الأخير ، وهو موقف الحق الذى لا باطل فيه ، وانا الى ربنا لمنقلبون .

د . محمد رجب البيومى

نعمة البلاء

يقول عمر ـ رضى الله عنه ـ : ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم :

النعمة الأولى : أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى .

النعمة الثانية ان البلاء لم يقع أكبر مما وقع .

النعمة الثالثة : ان الله تعالى صبرنى عليه فاحتملته .

النعمة الرابعة : ان الله تعالى ادخر لى ثواب الصبر عليه .

الحج أشهرٌ معلومات

فضيلة الشيخ أحمد على منصور

ان الدين الاسلامى العظيم ، الذى جاءنا به سيد الأولين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أعظم الأديان السماوية ، وأشدها ملاءمة للطبائع البشرية ، وانه ليدعو الى الحضارة والمدنية ، ويهدف الى اسعاد الانسانية ، ولقد قام على خمسة أركان أساسية ، بمثابة الأساس المتين ، للبناء القوى ، والصرح الأشم العتيد •

أولها : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله — وثانيها : اقام الصلاة ، والتشرف بالوقوف بين يدى أحكم الحاكمين ، خمس مرات فى اليوم والليلة ، يناجى المصلى فيها ربه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه — وثالثها : اعطاء الزكاة ، واخراجها لمستحقيها ، رحمة بهم ، وعطفا عليهم ، حتى يتماسك بناء المؤمنين ، ويصيروا فى توادهم ، وتراحمهم وتعاطفهم ، كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر •

ورابعها : صوم شهر رمضان ، الذى تفتح لقدومه الجنان ، وتغلق النيران ، وتسلسل الشياطين ، وتضاعف فيه الحسنات للصائمين ، القائمين المخلصين — وخامسها : حج بيت الله الحرام ، لمن استطاع اليه سبيلا ، لأداء أعمال معينة ، فى زمان ومكان معينين ، على وجه معين ، ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وطلبا لثوابه عز وجل •

ويؤدى الحج فى أشهر معلومات معروفات عند الناس ، لا يشكلن عليهم ، وقد أشار الله جلت حكمته

اليها ، فى الآية السابعة والتسعين بعد المائة ، من سورة البقرة الشريفة ، بقوله عز علاه : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

وقد اتفق العلماء على أن شوال وذا القعدة ، من أشهر الحج المعينات ، واختلفوا فى ذى الحجة ، هل هو بتمامه من أشهر الحج ؟ أو عشر منه ؟ فذهب ابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبو حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، الى الرأى الثانى ، وعلى هذا فاشهر الحج عندهم شوال ، وذوالقعدة ، والعشر الأولى من ذى الحجة ، وجمعت الأشهر فى الآية الكريمة ، لوجود بعض الشهر الثالث ، فقام فى اللفظ مقام الكل ، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ماوراء الواحد ، وذهب مالك الى الرأى الأرل ، وأن أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة بكماله ، ورجح ذلك ابن حزم ، رحمه الله ، لورود الأشهر مجموعة فى الآية الشريفة ، ولا يطلق على شهرين وبعض آخر أشهر ، ولأن رمى الجمار ، وهو من أعمال الحج ، يعمل بعد اليوم العاشر من ذى الحجة ، وكذلك طواف الافاضة وهو من أركان الحج ، يصح أداؤه فى ذى الحجة كله بلا خلاف بينهم ، فصح أن أشهر الحج ثلاثة كوامل .

وتظهر ثمرة الخلاف فيما يفعل من أعمال الحج ، بعد العيد الأكبر ويوم النحر ، فمن رأى أن ذا الحجة بتمامه من أشهر الحج ، لا يلزم فاعله بدم التأخير ، ومن رأى أن العشر الأولى من ذى الحجة فقط هى تمام أشهره المعلومات ، ألزمه بدم التأخير .

وفى هذه الآية العزيزة : يأمر الله جل جلاله ، المحرمين بالحج فى هذه الأشهر ، بالابتعاد عن الرفث وهو الجماع ، أو ذكره عند النساء ، أو الكلام الفاحش ، كما أمرهم

بالابتعاد عن الفسوق ، وهو المعاصى ، أو السباب ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سباب المؤمن فسوق » أو التنابذ بالألقاب ، لقوله تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » ودعاهم سبحانه وتعالى الى ترك الجدال فى الحج ، وهو المراء مع الرفقاء والخدم والمكارين وغيرهم.

وانما أمر مولانا باجتناب الرفث والفسوق والجدال فى الحج ، وهى واجبة الاجتناب فى كل حال ، لأنها مع الحج أشنع ، كلبس الحرير فى الصلاة ، والتغنى فى قراءة التنزيل الحكيم ، والمراد بنفى هذه الأمور فى الآية الكريمة وجوب انتفائها ، وعدم حصولها ، وبيان أنها حقيقة وجديرة بأن لا تكون .

ثم حث تبارك وتعالى ، على الخير ، عقب النهى عن الشر ، وأن يتسعملوا الحسن من الكلام ، مكان القبيح منه ، والبر والتقوى موضع الفسوق ، والوفاق والأخلاق الجميلة ، بدلا من الجدال ، فقال جل جلاله : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » فهو سبحانه عالم به ، وسيجازيكم عليه ، لأنه عز علاه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وكان أهل اليمن لا يتزودون للحج ، ويقولون : نحن متوكلون على الله ، ويعيشون مدته كلا وعالة على الناس ، فأنزل الله تعالى فيهم بختام هذه الآية الكريمة : «وتزودوا فان خير الزاد التقوى» أى خذوا معكم ما يكفيكم من الزاد ، فان أحسن ما تتقون به الاستطعام ، وتبتعدون به عن الأبرام ، والتثقيل على الناس ، أو تتزودوا للميعاد والحساب ، باتقاء المعاصى والسيئات والمحظورات ، فانخير الزاد ، اتقاء هذه المهلكات، ثم أمر مولانا أرباب العقول السليمة بتقواه ، فقال جل علاه : « واتقون يا أولى الألباب » أى خافوا عقابى ، يا ذوى العقول المستنيرة ، فان من لم يخف عقابى فكأنه لا لب عنده ، ولا عقل لديه ، وأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

والصحيح عند جمهور العلماء ، من السلف والخلف ، أن الحج فرض على المستطيعين ، فى السنة السادسة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، من مكة المكرمة ، الى المدينة المنورة ، لأنه نزلت فى هذه السنة الآية السادسة والتسعون بعد المائة ، من سورة البقرة ، وفيها يقول الحق جل علاه :

« وأتموا الحج والعمرة لله ، فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ، ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا ، أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام ، أو صدقة ، أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

فقد أمر الله تعالى عباده المستطيعين ، بأداء الحج والعمرة تامين ، بشرائطهما وفرائضهما ، لوجهه عز علاه بلا توان ولا نقصان ، باحرام المحرم بهما من دويرة أهله ، أو بأن يفرد لكل واحد منهما سفرا ، وبأن ينفق فيهما حلالا ، وبأن لا يتجر معهما ، فاذا منعتم من المضى الى اتمام المناسك وأنتم محرمون بالحج أو العمرة ، بمرض أو خوف ، أو عجز وأردتم التحلل ، فيلزمكم ما تيسر من الهدى ، من بعير أو بقرة أو شاة .

ولا تحلوا بحلق الرأس ، حتى تعلموا أن الهدى الذى بعثتموه الى الحرم ، بلغ مكانه الذى يجب نحره فيه وهو الحرم ، فمن كان منكم به مرض يحوجه الى الحلق ، أو به أذى من رأسه ، وهو حشرات الشعر أو الجراحة ، فعليه فدية من صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة على ستة مساكين ، لكل واحد منهم نصف صاع من بر ، أو نسك بذبح شاة ، فاذا لم تحصروا وكنتم فى حال أمن وسعة ، فمن تمتع بالعمرة الى الحج ، وانتفع بالتقرب بها الى

الله تعالى ، قبل انتفاعه بالتقرب الى الحج ، أو تمتع بعد الفراغ من أعمال العمرة ، وانتفع باستباحة ما كان محرما عليه ، الى أن يحرم بالحج ، فما تيسر من الهدى للمتعة ، وهو نسك يذبح يوم النحر ، ويؤكل منه .

فمن لم يجد الهدى ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى أشهر الحج ، ما بين الاحرامين ، احرام العمرة واحرام الحج ، وسبعة اذا رجع لأهله ، بعد فراغه من أعمال الحج ، تلك عشرة كاملة ، فى وقوعها بدلا عن الهدى ، أو فى الأجر والثواب ، وهذا بالنسبة لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، وهم أهل المواقيت المكانية ، فمن دونها الى مكة ، لأنه لا تمتع ولا قران لهم ، واتقوا الله فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فى الحج وغيره ، واعلموا أنه تبارك وتعالى ، شديد العقاب لمن لم يتقه .

والحج أفضل الأعمال ، بعد الايمان بالله ورسوله ، والجهاد لاعلاء كلمة العلى القدير ، والمبرور منه وهو الذى لا يخالطه اثم ، ليس له جزاء الا الجنة . وفى السنة النبوية الشريفة :

ان جهاد الكبير ، والضعيف ، والمرأة ، الحج . وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله تعالى عنها أنها قالت ، قلت يارسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لكن أفضل الجهاد ، حج مبرور » وروى عنها : رضوان الله عليها ، أنها قالت : قلت يا رسول الله ، ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لكن أحسن الجهاد وأجمله ، الحج المبرور » قالت عائشة رضى الله عنها وعن والديها ، فلا أدع الحج بعد اذ سمعت هذا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

والحجاج والمعتمرون وفود الله تعالى ، ان دعوه سبحانه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم ، والعمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، ومن خرج من بيته ليحج أو يعتمر ، فقد

ضمن العلى العظيم له ، اذا توفاه أن يدخله الجنة ، واذا رده لأهله أن يرده تبارك وتعالى بأجر وغنيمة • والنفقة فى الحج والعمرة كالنفقة فى سبيل الله تعالى : الدرهم بسبعمائة ضعف •

ولا يجب الحج فى العمر الا مرة واحدة ، فان نذره البالغ العاقل المستطيع على نفسه ، وجب عليه الوفاء بنذره ، وما زاد على ذلك فهو سنة وتطوع • فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عبد الرحمن بن صخر ، رضى الله تعالى عنه ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، فقال :

« أيها الناس : ان الله تعالى قد كتب عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم ولم يجبه ، حتى قالها ثلاثا ، ثم قال صلوات الله وسلامه عليه : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ذرونى ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشىء فاتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شىء فدعوه » ويرى الامام الشافعى ، والثورى ، والأوزاعى ، ومحمد بن الحسن من أصحاب أبى حنيفة ، أن وجوب الحج على التراخى ، فيؤدى عندهم فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره ، متى أداه قبل الوفاة ، لأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، أخر الحج الى السنة العاشرة من هجرته ، صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، مع أن فرض الحج كان فى السنة السادسة من الهجرة النبوية الغراء ، فلو كان الحج واجبا على الفور ، لما أخره صلى الله عليه وسلم ، من السنة السادسة ، الى السنة العاشرة •

ويرى أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد ، وأبو يوسف ، وبعض أصحاب الامام الشافعى ، أن وجوب الحج على الفور ، فاذا أخره من وجب عليه أثم بتأخيره ، واستدلوا

على ذلك بما رواه أحمد ، والبيهقى وابن ماجة ، عن عبدالله بن عباس ، رضى الله تعالى عنهما ، قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد الحج فليعجل ، فانه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة »

وفى رواية عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : تعجلوا الحج ـ يعنى المفروض ـ فان أحدكم لا يدرى ما يعرض له » وحمل الأولون ذلك على الندب ، وانه يستحب تعجيله ، والمبادرة به ، متى استطاع المكلف أداءه .

ويشترط لوجوب الحج : الاسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، فلا يفرض على الكافر والصبى غير البالغ ، والمجنون غير العاقل ، والعبد والرقيق ، وغير المستطيع ، ولا تتحقق الاستطاعة ، الا اذا كان المكلف صحيح البدن ، مالكا للزاد والراحلة والنفقة ، آمنا على نفسه فى ذهابه ، واقامته ، وايابه ، فان كان عاجزا لمرض أو شيخوخة ، وكان له مال ، أناب غيره ليحج عنه ، وان وجد ما يشترى به الزاد والراحلة وتوفرت لديه النفقة ، ولكنه كان محتاجا لذلك ، لدين عليه ، لم يلزمه الحج حالا كان الدين أو مؤجلا ، لأن الدين الحال على الفور ، والحج على التراخى ، فقدم سداد الدين عليه ، والدين المؤجل يحل عليه ، فاذا صرف ما معه فى الحج ، لم يجد ما يقضى به الدين عند حلوله .

وان احتاج لذلك ، لمسكن لابد منه ، أو خادم يحتاج اليه ، لم يلزمه . وان احتاج اليه لنكاح ، وهو ممن يخشى الوقوع فى الزنى ، قدم النكاح ، لأن الحاجة اليه على الفور ، وان احتاج الى ذلك ، فى شراء بضاعة يتجر فيها ، ويحصل منها على قوته ، وقوت من تلزمه نفقته ، لا يلزمه الحج . ولو أعطاه رجل راحلة من غير ثمن لم يلزمه قبولها ، ان كان المعطى أجنبيا ، لما يتبع ذلك من المنة ، وفى تحملها مشقة ، فان أعطاه ابنه ما يتمكن به من الحج لزمه ، لأنه أمكنه أداء

الفريضة من غير منة • وان خاف المكلف على نفسه من قطاع الطريق أو وباء محقق ، أو خاف على ماله أن يسلب منه ، أو خاف بطش حاكم جائر ، يظلم الحجاج ، ويحول بينهم وبين أداء الفريضة ، لم يلزمه الحج وكان ممن لم يستطع اليه سبيلا •

واذا حج الصبى قبل البلوغ ، لم يجزه ذلك عن حجة الاسلام ، بل يجب عليه أن يحج بعد البلوغ اذا كان قادرا ، ثم ان كان الصبى مميزا أحرم بنفسه ، وأدى مناسك الحج ، والمختار لدى جمهور العلماء : أن الصبى يثاب على طاعته ، وتكتب له حسناته ، ولا تدون عليه سيئات ، لأن القلم مرفوع عنه ، حتى يبلغ • وان كان الصبى غير مميز ، أحرم عنه وليه ، ولبى بدلا منه ، وطاف به وسعى ، ووقف به بعرفة ، ورمى عنه • فان بلغ الصبى قبل الوقوف بعرفة ، أو أثناءه فيرى بعض العلماء ، أنه يتم نسكه ، ويكفيه ذلك عن حجة الاسلام ، وذهب الامام مالك وابن المنذر الى أنه لا يكفيه عن الحج المفروض ، لأن احرامه بالحج وقع سنة وتطوعا ، فلا ينقلب فرضا •

واذا حج العبد قبل أن يعتق ، أثيب على فعله ، ولا يجزئه ذلك عن حجة الاسلام ، بل يجب عليه أن يحج حجة أخرى • واذا أعتق قبل الوقوف بعرفة ، أو فى أثنائه ، فهو كالصبى ، فبعض العلماء يرى أنه يتم نسكه ، ويغنيه ذلك عن حجة الاسلام ، ويرى مالك وابن المنذر ، ومن وافقهما ، أن هذا لا يجزئه عن حجة الفريضة ، وعليه أن يحج مرة أخرى ، لأن احرامه فى بدء المناسك انعقد سنة وتطوعا فلا يصير فرضا •

ويجب الحج على المرأة ، اذا تحققت فيها شروط الوجوب السابقة ، ويزاد عليها فى حقها أن أن يصحبها زوج أو محرم ، لايحل له التزوج بها على التأبيد ، أو نسوة ثقات تسافر معهن ، وتكفى واحدة ثقة ، ويرى بعض العلماء : أنه لا مانع من سفرها وحدها ، اذا كان الطريق آمنا •

ومن السنة فى حقها ، أن تستأذن زوجها ، فى الذهاب لحجة الفريضة فان اذن لها خرجت ، وان لم يأذن لها خرجت بغير اذنه ، وليس له أن يمنعها من ذلك ، لأن حجة الفريضة عبادة واجبة عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق • ولها أن تعجل بحجة الفريضة لتبرىء ذمتها ، كما يحق لها أن تصلى أول الوقت ، وليس له منعها ، وفى معنى حجة الفريضة الحج المنذور ، لأنه بالنذر وجب عليها الوفاء به ، كحجة الاسلام •

وأما حج السنة والتطوع ، فللزوج أن يمنع زوجته منه ، ولا تذهب لأدائه الا باذنه ، ودليل المشترطين وجود الزوج أو المحرم مع المرأة عند حجها : ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذى محرم » فقام رجل وقال يا رسول الله : ان امرأتى خرجت حاجة ، وقد كتبت فى الغزو ، فقال صلى الله عليه وسلم : « انطلق فحج مع امرأتك » رواه الشيخان واللفظ لمسلم •

واستدل المجيزون لسفر المرأة من غير زوج ولا محرم ، اذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمنا بما رواه الامام البخارى رضوان الله عليه ، عن عدى بن حاتم قال : بينا انا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل ، فقال : « يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ » فقلت : لم أرها ولكنى أنبئت عنها • فقال عليه الصلاة والسلام : « فان طالت بك حياة لترين الظعينة ــ المرأة فى الهودج ــ ترحل من الحيرة ، حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف الا الله » •

أحمد على منصور

جمهورية إسلامية !! وكيف ؟؟

للأستاذ محمد كمال السيد

لكلمتى «الجمهورية الاسلامية» بريق تنجذب اليه الأبصار • ورنين تخفق له القلوب • وصور مشرقة تتداعى لها الخواطر والأفكار • ومن الذكريات المجيدة للفتوحات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى • وكيف تتابعت الحكومات فى الدول الاسلامية المختلفة تنشر الحضارة الاسلامية فى العلوم والفنون • وخاصة التشريعات الفقهية بالقيم الانسانية الرفيعة التى تحفظ كرامة الانسان وترسم له ضوابط علاقته بأخيه الانسان وبالمجتمع الذى يعيش فيه من سلوك ومعاملات بما يحقق السعادة للجميع •

ولا جدال أن تشريع المولى عز وجل هو أسمى التشريعات ــ سواء فى العبادات أو المعاملات لتكوين مجتمع قوى سليم مترابط • نواته الجد والعمل فى صدق وتراحم وأمانة •

وأول ما يتبادر الى الذهن من هذا التعبير ــ الجمهورية الاسلامية ــ هو اقامة الحدود التى نص عليها القرآن الكريم والسنة الشريفة • مثل قتل القاتل • ورجم الزانية والزانى المحصنين • وجلد غير المحصنين منهما • وقطع يد السارق • والجلد فى جريمتى القذف وشرب الخمر • وما لم يرد عنه نص بحد معين فالأمر متروك لولى الأمر أو من ينوب عنه •• ويسمى المحتسب ــ فى توقيع العقوبات المناسبة لكل جريمة • وهو ما يسمى بالتعزير •

واذا كانت اقامة الجمهورية

الاسلامية لا تعنى فى نظر البعض غير هذه النظرة الضيقة لهان الأمر . ففى التشريع المصرى : القاتل يقتل اذا توفر ركن العمد مع سبق الاصرار أو الترصد . كما أن الجرائم التى عقوبتها التعزير المتروكة تقديرها لولى الأمر أو المحتسب . فقد وضع المشرع المصرى العقوبات المختلفة المحددة لكل جريمة بعينها . مثل عدم مراعاة الآداب العامة ، وسلامة المكاييل والموازين ، واشغال الطريق . وغيرها من كل ما فيه اضرار بالغير . كما وضع العقوبات لجرائم الخيانة العظمى والتجسس والرشوة واثارة الفتن وغيرها مما يضر بسلامة المجتمع .

ويبقى أمامنا أربع جرائم مما نص عليه بحدود معينة فى الفقه الاسلامى . وهى السرقة . والقذف . والزنى . وشرب الخمر .

أما عن قطع يد السارق فقد قرأت فى احصائية من سنوات عن تطبيق هذا الحد فى المملكة السعودية أنه خلال أربعين عاما تقريبا لم يطبق هذا الحد الا فى ٥٧ حالة . مما يدل على أن هذه العقوبة أكثر ردعا من عقوبة الحبس . تصديقا للآية الشريفة (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) . ومع ذلك فقد أحيط تطبيق هذا الحد بضمانات . مثل متى يعتبر المال مسروقا يعاقب عليه بقطع اليد ؟ فمن سرق من جيب ظاهر غير من يسرق من جيب داخلى فالأول لا يُحد . ولا حد لمن يسرق الثمر من على الشجر . وغير ذلك . ومثل الحد الأدنى لنصاب السرقة الذى يستوجب هذه العقوبة . وهو ربع دينار ذهب . وهذا يحتاج الى ترجمة بالنسبة للعملات الحاضرة . وأيضا الاعفاءات المختلفة مثل سرقة الأب من ابنه . والعبد من سيده . وسرقة المأكول فى عام مجاعة ... الخ وهناك تفصيلات عن حالة العود . واذا كان السارق ذا يد واحدة أو يده الأخرى شلاء وغير ذلك مما يضيق عنه المقام .

والمحاربة ـ أى قطع الطريق ـ أشد اجراما من السرقة . وعقوبتها

فى الشريعة الاسلامية قطع اليد والرجل من خلاف والنفى • أو القتل أو الصلب • ولا شك أن الحد الشرعى أكثر ردعا من عقوبة السجن الحالية • ومن المحاربة السرقة بالأكراه فى المواصلات العامة •

وأعتقد أن نسبة اللصوص الذين يجوز تطبيق الحد عليهم لا يمكن أن تزيد على واحد فى الألف من عدد السكان • فمصر ليس فيها أربعين ألف لص بالمعانى المذكورة •

كذلك عقوبة القذف فى الشريعة ــ وهى الجلد ــ أكثر ردعا من عقوبة الحبس الحالية •

أما جريمة الزنى فالفرق كبير بين نظرة التشريع المصرى الحالى ــ وهو يستمد من التشريع الفرنسى ــ وبين الشريعة الاسلامية فى تقييم هذه الجريمة •

فالمشرع المصرى يعتبر هذه الجريمة واقعة على الزوجية • فلا تقام الدعوى العمومية على الزوجة الزانية الا اذا طلب الزوج • وله الحق فى العفو عنها حتى قبل صدور الحكم النهائى عليها • ولا تقام الدعوى ضد الزوج الزانى الا اذا وقعت منه هذه الجريمة أكثر من مرة وفى منزل الزوجية ولا جريمة زنى بين غير المتزوجين بالغى الرشد •

أما النظرة الاسلامية لهذه الجريمة فهى أنها تقع على المجتمع • وفرقت فى العقوبة بين الرجل المحصن • أى له زوجة أو اماء • والمرأة المحصنة أى المتزوجة • وبين غير المحصنين من الرجال والنساء • فعقوبة المحصنين أشد وهى الرجم • وعقوبة غير المحصنين الجلد •

ولكن لخطر هذه الجريمة على كيان الأسرة والأنساب والمجتمع • ولأنها تمس الأغراض مباشرة • وبفرض الستر بقدر الأمكان لحساسيتها • فقد أحاط اثباتها بعدة ضمانات تجعله أقرب للمستحيل • فهى لا تثبت الا بالاقرار أو شهادة الشهود • فمن الأقرار يجب أن يقر المجرم بجريمته أربع مرات • وله أن يعدل عن

اقرار • فاذا عدل فلا يطبق عليه الحد •

أما عن شهادة الشهود • فيجب أن يشهد أربعة رجال بأنهم شاهدوا الفعل نفسه • مع التحقق من شخصية الزانية والزانى • فاذا لم يتكامل عدد الأربعة شهود بأن شهد ثلاثة فقط جُلدوا بحد القذف • ولا تقبل شهادة ثمان نساء أو ست نساء ورجل •

ولصعوبة الاثبات • وخوف المبلغ ألا يتكامل عدد الشهود فلم تطبق عقوبة الرجم الا فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام •

ويذكر لنا التاريخ أنه فى سنة ١٧ هـ فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان المغيرة ابن شعبة واليا على البصرة • وكان يقيم فى دار فيها غرفة بها كوة — أى فتحة صغيرة فى الحائط — وكانت هناك دار تقابل دار المغيرة فيها غرفة بها كوة أيضا • ويفصل بين الدارين الطريق • والكوتان متقابلتان وأعلى فى مستوى النظر • وكان بهذه الدار المجاورة أربعة رجال من المسلمين يتسامرون • ومنهم زياد بن أبيه — وهو الذى استلحقه معاوية فى النسب الى أبيه أبى سفيان بن حرب •

وهبت ريح • ففتحت بابى الكوتين • فقام أحدهم وتحامل على شىء ليوصد باب كوتهم • فرأى المغيرة بين رجلى امرأة • فدعا أصحابه فشاهدوا المنظر • فقال أشهدوا • فقالوا من هذه ؟ فقال هى أم جميل • وكانت من بنى هلال وزوجها من ثقيف • وكانت تنش الأمراء والاشراف • وقال الطبرى : (تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٠٧) : وكان بعض النساء يفعلن ذلك فى زمانها • فقالوا انما رأينا أعجازا ولا ندرى ما الوجه • ثم أنهم صمموا على شخصها حين قامت • فأبلغوا أمير المؤمنين عمر بالمدينة فعزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى • واستقدم عمر المغيرة ومُتهميه •

فلما قدموا سأل المغيرة • فقال انه كان مع امرأته • وكانت تشبه أم جميل • وشهد ثلاثة بأنهم رأوهما بالفعل نفسه وتحققوا من

شخصيتهما • أما زياد فقال انه رأى المغيرة بين رجلى امرأة • ولم يشاهد الفعل نفسه • ولم يتحقق من المرأة وان كان يشبهها • وبذلك لم يتحقق الاثبات • فلم يوقع الحد على المغيرة • وجلد الثلاثة بحد القذف •

ولم يحدثنا التاريخ بعد ذلك عن توقيع عقوبة الرجم ــ وهذا على قدر اطلاعى ــ حتى سنة ١٩١٩ هـ (١٥١٣ م) فى سلطنة السلطان الغورى فى مصر •

فقد ذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن أحد نواب القضاء الحنفى يقال له غرس الدين خليل كان متزوجا امرأة جميلة • وكانت تهوى أحد نواب القضاء الشافعى اسمه نور الدين مشالى •

وصادف أن علمت أن زوجها سيبيت ذات ليلة فى مقام الامام الليث • فأرسلت لعشيقها تخبره أن الجو مهيأ لاجتماعهما • فأرسل لها ما يلزم من المأكول والمشروب والمشموم • وذهب اليها فى المساء • وكان لها جار اسمه شميس معجب بها • وكان راودها عن نفسها فرفضت • فلما رأى نور الدين داخلا عندها ذهب الى خليل فى مقام الليث وأخبره بالقصة • فحضر الزوج وفاجأهما فى الفراش متعانقين تحت غطاء واحد •

واسترحماه ألا يفضحهما فأبى •وأغلق عليهما الباب • وأتى الى دار حاجب الحجاب وأبلغه • فأرسل بالقبض عليهما • وأقر مشالى بالزنى كتابة • ووقع على الاقرار • وشاهد على الاقرار حاجب الحجاب وأحد قضاة الشافعية •

وأمر حاجب الحجاب بضرب الرجل والمرأة ضربا مبرحا • وأركبهما حمارين • وقلبوا وجهيهما الى خلفى الحمارين • وطافوا بهما فى القاهرة الفاطمية والصليبة وقناطر السباع (السيدة زينب) للتشهير بهما • ثم قرروا على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب • فقالت أموالى جميعها تحت يد زوجى • فطلبوا من الزوج المبلغ من أموال زوجته فرفض • فقبضوا عليه حتى يدفع !! وكان للزوج

ولد صغير يقرأ مع المقرئين عند السلطان • فلما قبضوا على أبيه أبلغ السلطان •

فطلب السلطان المحضر الذى به اقرار مشالى • وأحضر القاضى الشافعى الذى شهد فيه • فقال القاضى : أنا ثبت عندى رجمهما • وقال ابن اياس : (فانضاع السلطان لهذا الكلام ، وقصد بذلك اظهار العدل حتى يكتب فى تاريخه أنه رجم من زنى فى أيامه كما وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لماعز وزينب اللذين أمر النبى برجمهما) •• فقال السلطان : احكم برجمهما • فقال : حتى ينفذ لى قاضى القضاة الشافعى • الذى أقر الحكم • فتقرر رجمهما • ولكن تأخر تنفيذ الحكم حيث صادف ذلك اليوم الاحتفال بخروج المحمل بالحجاج الى الحجاز •

وتعصب لمشالى أحد نواب القضاء الشافعى اسمه الزنكلونى • فاستكتب بعض العلماء فتوى بأنه اذا رجع المقر بالزنى عن اقراره سقط الحد • وأرسل الى مشالى بالعدول عن اقراره •

وأنكر السلطان هذا الموقف • فلم يقبل عقله أن شخصا يضبط متلبسا ويقر بجريمته كتابة • ثم يعدل عن اقراره فتسقط عنه العقوبة • فأمر بمجلس يضم قضاة القضاة من المذاهب الأربعة الحاليين والسابقين • وبعض العلماء المشهورين وقتذاك • فأجمعوا جميعهم على أن العدول عن الاقرار يسقط الحد • فاغتاظ السلطان • فأمر بفصل قضاة القضاة الأربعة فى يوم واحد • وهى واقعة ليس لها مثيل فى التاريخ • وظل القضاء معطلا أياما حتى عين غيرهم • ثم بعد أيام من هذا المجلس أمر السلطان بشنق الرجل والمرأة • وهذا وان كان من حق السلطان ولكنه غير حد الرجم • كما أمر بضرب الزنكلونى الذى دار على العلماء بالفتوى • وأمر بنفيه الى الواح • وقيل انه مات من شدة الضرب •

كما بينت المذاهب المختلفة قواعد الاثبات والحدود فى أنواع الشذوذ الجنسى • وهى لا تختلف

كثيرا عما ذكرنا بتفصيل ليس هنا مكانه .

أما الخمر فهى أم الكبائر . ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل كيمائية عما هو خمر محرم أو غير محرم . فالقاعدة الشرعية أن ما كثيره يسكر فقليلة حرام . وحد شارب الخمر ثمانون جلدة . ويجب على الدولة تحريمها تحريما مطلقا صناعة وتجارة واستعمالا . دون نظر للاعتبارات الاقتصادية أو السياحية . كما فعلت بالقمار بأن حرمته فى أماكن وأباحته فى أماكن أخرى .

هذه لمحة سريعة عن الجريمة والعقاب فى الشريعة الاسلامية . وبالمقارنة نجد أن هذه الجرائم ـ ما عدا الزنا وشرب الخمر ـ معاقب عليها فى التشريع الحالى ولكن بدلا من الحدود الشرعية من قطع وجلد فالعقاب الحبس أو السجن . والحدود الشرعية أكثر ردعا . كما أنه بدلا من التعزير عن الجرائم المختلفة التى لم ترد عنها حدود معينة فى القرآن أو السنة . فقد وضعت عقوبات مجددة يلتزمها القاضى . وهذا أكثر ضبطا . كما وضعت عقوبات لجرائم لم تكن معروفة فى المجتمع البسيط فى صدر الاسلام مثل تزييف الأوراق المالية والمحررات العرفية والرسمية وغير ذلك من الجرائم .

وعلى كل حال فالمجرمون بالنسبة للمجتمع أقلية ضئيلة والشرفاء أكثرية كبيرة . ولكن ما يجب أن تقوم عليه الجمهورية الاسلامية هى المعاملات بين الناس . فكل انسان يتعامل مع الغير فى المجتمع فى تجارة أو صناعة أو عمل أو بيع أو شراء أو ايجار أو غيرها من صور المعاملات . وقد جدت أنواع من المعاملات نريد أن نعرف موقف الاسلام منها . لنعرف ما هو الحلال وما هو الحرام من هذه المعاملات ؟

ونذكر على سبيل المثال المصارف .. ودورها كبير ولازم فى العلاقات التجارية بين الأفراد فى الدول المختلفة وبين الدول وبعضها .. وتتقاضى عمولات أو فوائد عن هذه العمليات . وعما تمد به

البعض من قروض • فهل ينطبق عملها على تحريم الربا ؟ وهل المقترض بفائدة لضرورة حتمية من علاج أو وفاة أو زواج الأولاد أو غير ذلك يعتبر مخالفا للشريعة ؟ وكذلك الأسهم والسندات فى الشركات المختلفة • وأعتقد أن هناك رأيا أن الأسهم حلال بحكم أنها رأس مال شريك يتعرض للربح والخسارة ويختلف ربحه من سنة لأخرى • فكأنه من أعمال التجارة • أما السند فحرام لأنه رأس مال دائن بفائدة محددة لا تختلف سواء ربحت الشركة أو خسرت • وفى حالة خسارة الشركة وتصفيتها يسترد صاحب السند مبلغه بالكامل • ثم يوزع الباقى على أصحاب الأسهم • وهذا رأى معقول •

ومن الصور الحديثة فى المعاملات الفوائد التى تدفعها صناديق التوفير بالبريد أو المصارف • تشجيعا للادخار • ولتستغل أموال المودعين فى أعمال مختلفة تعود بربح أكثر من الفائدة التى تدفعها • ثم تزيد هذه الجهات فى التشجيع فتعمل يا نصيب ذا جوائز كبيرة • وأبرز هذه الصور الآن سندات الادخار والاستثمار بأنواعها المختلفة التى يصدرها البنك الأهلى لصالح الدولة •

وكذلك اليانصيب التى تصدره بعض الجمعيات الخيرية مساعدة لها فى أعمالها • فمشترى ورقة اليانصيب يساهم بقروشه القليلة فى هذه الأعمال الخيرية • مع أمل ــ ولو ضئيل ــ فى ربح جائزة كبيرة اذا كسبت الورقة •

وكذلك التأمين على الحياة • وعلى عروض التجارة والعقارات وكل ماهو قابل للتأمين عليه • وهو نظام يجمع بشكل عام بين الفوائد الربوية وبين المقامرة ولو فى أضيق الحدود من جهة شركات التأمين • وما نظام التأمينات الاجتماعية التى تقوم به الدولة الا نوع من التأمين على الحياة للمؤمن وأسرته •

ولا زلنا فى الزكاة ــ وهى من أركان الاسلام الخمسة ــ تتكلم عن الناقة والجمل والبقرة والشاة •

ولا نفهم لماذا يختلف نصاب الزكاة فى الذهب عنه فى الفضة • وما هو هذا النصاب بالنسبة للعملات الحاضرة • ولماذا الذهب والفضة دون المجوهرات والأحجار النفيسة • ودون ما تزخر به كثير من الدور من سجاد فاخر ونجف كريستال ولوحات زيتية وتحف نادرة مما تقدر قيمته بعشرات بل مئات الآلاف من الجنيهات • وما يملكه البعض فى أنحاء العالم من مناجم تقدر قيمتها بالملايين • وما علاقة الزكاة بما تتقاضاه الدولة من أموال أميرية عن الأطيان وعوائد المبانى • وضرائب على المهن التجارية وغير التجارية ورءوس الاموال المنقولة وضريبة الايراد العام وغير ذلك من أنواع النشاط المختلفة ؟

هذه بعض الصور من المعاملات الحديثة • وغيرها كثير • ويمارس أكثرها جل الناس ان لم يكن كلهم ونريد منهجا اسلاميا واضحا عنها وعن غيرها • ولا تفيدنا كتب التراث من الفقه كثيرا • فهى صور لم تكن معروفة فى العصور الاسلامية الماضية • ولا يبقى أمامنا الا القياس أو الاجتهاد أو الاجماع •

ونقرأ فى الكتب والصحف • أو نرى ونسمع فى التليفزيون والاذاعة أحيانا آراء لعلماء جليلين واسعى الاطلاع • ولكن مع احترامنا وتقديرنا لهم فهى آراء فردية قابلة للمناقشة وغير ملزمة ويجب أن تتشكل لجان فى المؤتمر الاسلامى • أو فى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر — وهو بتكوينه يمثل كل الشعوب الاسلامية • وتختص كل لجنة بدراسة احدى أو بعض هذه الصور • وابداء الرأى فيها • وعرضه على المؤتمر أو المجمع لاصدار قراره • ليكون هذا القرار شاملا وملزما لكل الدول الاسلامية •

ويبقى بعد ذلك طلب الجواب عن سؤال الساعة • وهو هل يجوز لدولة اسلامية أن تتحالف أو تتعامل مع دولة ملحدة لا تؤمن بالله ولا بالأديان السماوية ؟؟

نسأله تعالى الهداية والتوفيق •

محمد كمال السيد

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية

بقلم الدكتور محمد شامه

(٢)

قسم المؤلف كتابه (١) الى أحد عشر بابا هى :

١) حياة العرب قبل الاسلام

٢) حياة محمد (صلى الله عليه وسلم)

٣) القرآن الكريم

٤) آثار محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥) الانطلاق السياسى للشعوب الاسلامية

٦) اسهام الاسلام فى الحضارة العالمية

٧) الفن الاسلامى

٨) الفلسفة والتصوف

٩) مفاهيم دينية فى الاسلام وفى أديان الشرق الأقصى

١٠) الاسلام والمسيحية

١١) مستقبل الاسلام

وسوف نعرض ملخصا لأفكاره فى كل باب على حدة ، مع مناقشته فيما وقع فيه من أخطاء من وجهة النظر الاسلامية :

(١) وهو كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » وهذا هو المقال الثانى حول هذا الكتاب ، أما الأول فقد نشر فى العدد التذكارى الذى صدر فى أبريل سنة ١٩٧٩ .

الباب الأول

حياة العرب قبل الاسلام

تناول فى هذا الباب بحث نقاط عدة :

١ ــ البيئة الطبيعية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية ــ من ناحية المساحة ــ أكبر شبه جزيرة فى العالم ، اذ تبلغ مساحتها ٣١ مليون متر مربع • وتوحى الينا تضاريس منطقة عمان بأنها كانت متصلة بايران ، فانفصلت فجأة فى عصور ما قبل التاريخ بامتداد مياه المحيط الهندى مكونة الخليج • كذلك انفصلت هذه المنطقة عن افريقيا ، عندما تدفقت مياه المحيط نحو الشمال ، فتكون الحاجز الطبيعى الذى يعرف الآن بالبحر الأحمر ، ويمتد على شاطئه الشرقى سلسلة جبال تعرف فى الشمال باسم الحجاز ، أما فى الجنوب ــ أى فى اليمن فيطلق عليها جبل النبى شعيب حيث يبلغ ارتفاعها ٣١٤ مترا عن سطح البحر •

تنتشر الواحات فى صحراء شبه الجزيرة الواسعة ، وتتركز فى المناطق التى تتجمع فيها مياه الأمطار ، مكونة مساحات خصبة صالحة للزراعة• ومن أهم تلك المناطق الخصبة : يثرب (المدينة المنورة) ، فقد ساعد موقعها الجغرافى على انشاء حضارة زراعية بها ، أما منطقة اليمن ــ حيث تهب الرياح الموسمية ــ فقد احتفظت منذ القدم بازدهار التجارة فيها ، كما قامت فيها دولة ، فهى تعتبر منطقة المملكة العربية القديمة •

٢ ــ تاريخ الحياة السياسية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية ــ بوجه عام ــ الوطن الأول

للساميين ، على الرغم من عدم قيام دليل قاطع على ذلك حتى اليوم ، فقد باعدت الصحراء منذ ما قبل التاريخ بين أبنائها ، وفرقت بينهم بمساحات صحراوية شاسعة ، ومن هنا انتشرت بينهم عقائد أسطورية ، منها أن أسلاف الساميين الذين أستوطنوا بلاد ما وراء النهرين فى الألف الثانية قبل الميلاد كانوا من العرب الرحل ، وعلى الرغم من عدم وجود مصادر عربية تثبت هذه العلاقة (لأن المصادر الموجودة لا تتعدى الألف الأول قبل الميلاد) ، فليس لدينا ما ينفى أن الكنعانيين والآراميين رحلوا من البلاد العربية فى ذلك التاريخ ، واستمرت هجرات مجموعات بدوية الى منطقة الهلال الخصيب ، حتى وصلت الى الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، فاستقر بعضها فى فلسطين وسوريا ولبنان .. واشتغل فريق منهم بالزراعة ، بينما استوطن البعض الآخر المدن .

ويقال ان البدو غزوا — بعد الألف الثالثة قبل الميلاد — مدن السومريين — وأسسوا أول مملكة بابلية ، كذلك كان من بين الهكسوس الذين غزوا مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد قبائل عربية .

ألم تكن أرض الفينقيين أيضا عربية ؟ :

لم يكن للمنطقة العربية قبل الاسلام شىء يذكر فى سجل التاريخ العالمى ، فلم تشغل فيه سوى حيز بسيط على هامشه ، لأن الحياة داخل الصحراء كانت حياة بدوية ، متفرقة ، متنافرة ، فلم يكن بين القبائل منافع مشتركة تقوم على أساسها دولة ، حتى الطقوس الدينية فى مكة — حيث كانوا يفدون اليها للحج — لم تجمعهم على طريق واحد ، أو توجههم نحو هدف مشترك . ولذا كانت الحياة مضطربة وغير مستقرة ، مظهرها العام حل وترحال ، ونزاع وقتال .

نعم !! وجدت حياة مستقرة نوعا ما فى الواحات ، كما أقيمت مراكز للتجارة على طول طريق

القوافل ، الا أنها لم تبلغ درجة تكوين دولة هذا باستثناء ما قام فى الشمال والجنوب من امارات وممالك ، ففى المناطق المتاخمة للدول ذات الحضارة نشأت مراكز للتجارة ، ساعدت على قيام نوع من نظم الحكم المستقرة ، ففى جنوب فلسطين أسس النبطيون ــ وهم عرب ــ مملكة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ، الا أن الامبراطور « تراجان » قضى عليها فى عام ١٠٦ ق . م كما ظلت مملكة « باميرا » قائمة فى صحراء سوريا حتى عام ٢٧٢ م . وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين قامت مملكة صغيرة على نهر الفرات تدعى « مملكة اللخميين » فى الحيرة ، وكانت متحالفة مع فارس ، وفى منطقة الحدود بين سوريا وفلسطين أقام الغساسنة مملكة تحالفت مع البيزنطيين ، فكانت محمية رومانية .

أما فى داخل شبه الجزيرة فقد تطورت الواحات ــ خيبر ، فدك ، يثرب (المدينة المنورة) ــ الى مراكز تجارية ، كانت المحور الحضارى للمنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة حتى القرن السابع الميلادى .

وفى منطقة جنوب شبه الجزيرة الخصبة ، نشأت حضارة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، كانت دعائمها ترتكز على الزراعة والتجارة ، فقد كشفت عمليات التنقيب فى تلك المنطقة عن بقايا مدن ، وسدود على مجارى الأنهار ، ومعابد توحى بالشعور الجماعى ، والنشاط فى المجال الاقتصادى ، والغريزة الدينية لشعب هذه المنطقة .. ثم يستعرض أحوال الدولة ، التى قامت فى اليمن منذ القدم ، مبينا الأسر التى تعاقبت على حكمه وعلاقتها بالحبشة ، وبالدولة البيزنطية والدولة الفارسية ، حتى وصل الى حملة « أبرهة » على مكة ، فأرجع هزيمته الى انتشار الطاعون فى جيشه .

حقيقة الأمر فى هذه المسألة ان الله أخبرنا بها فى كتابه العزيز

فقال : (١) ، « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

ومفهوم جمهور علماء المسلمين لهذه الآيات : أن جيش الحبشة قدم مكة لهدم الكعبة المشرفة بقيادة « أبرهة » الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ومعه الفيل ، فسلط الله عليهم طيرا جاءتهم من جهة السماء جماعات متتابعة بعضها فى اثر بعض هبت عليهم من كل اتجاه ، فرمتهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

غير أن بعض الباحثين يرى أن الذى أصاب جيش « أبرهة » ، انما هو وباء الجدرى ، تفشى بالجيش ، وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا ، لم يعهد من قبل قط . واعتمدوا فى ذلك على رواية لابن اسحاق :

« حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام (أى عام الفيل) » .

وعلى رواية عن ابن عباس :

« كان الحجر اذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجدرى » .

وعن عكرمة :

« كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة . فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى ، وكان أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب » .

ويفسر أصحاب هذا الرأى — معتمدين فى ذلك على جزء من الرواية ، وهو ظهور الجدرى ، متجاهلين الجزء الآخر ، وهو رمى الطير الحجارة على جيش « أبرهة » — ظاهرة الفتك بجيش « أبرهة » .

(١) سنكتب تعليقنا على آراء المؤلف بخط مميز .

بأن جراثيم الجدرى جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى « أبرهة » نفسه فأخذه الروع ، وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلونه على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب ، وبلغ « أبرهة » صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ، فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه !!.

وهذه الدعوة تشتمل على عنصرين :

١ ــ ما نزل بجيش « أبرهة » هو وباء الجدرى .

٢ ــ أن الريح حملت هذا الوباء من ناحية البحر .

والعنصر الثانى ليس مقبولا .

لا نقلا :

لأن القرآن الكريم أخبرنا بأن الطير رمتهم بحجارة من سجيل فوقع لهم ما وقع .

ولا واقعا :

لأن الريح اذا كانت قد هبت على المنطقة حاملة الوباء ، فلم أصاب جيش « أبرهة » ولم يصب قريشا مع أنهم كانوا فى مهب الريح أيضا ؟

وما قيل من أن الأعراض التى ظهرت فى جيش « أبرهة » ــ من تساقط الجسم وظهور القيح والدم ــ هى أعراض الجدرى ، لا يصلح دليلا على أن الريح هى التى حملت الوباء ، وليس الطير . لأن مرض الجدرى ــ اذا سلمنا بأنه هو الذى أصاب جيش « أبرهة » ــ ينتقل الى الشخص بالملامسة ، فالطير رمت الأحجار التى تحمل الوباء على الجيش ، فانتقلت العدوى الى الشخص بمجرد أن مس الحجر جسمه ، ولما كانت قريش بعيدة عن مرمى أحجار الطير ، ولم تقترب من جيش « أبرهة » فقد سلمت من الوباء .

وبهذا يتبين أن من يذهب الى أن سبب هزيمة جيش « أبرهة » هو الجدرى فقط ، دون أن يبين مصدره ، أو يرجع مصدره الى الريح التى حملت الوباء ، دون ذكر الطير التى تحدث عنها القرآن الكريم .

فان كان غير مسلم .

فمصدر ثقافته عن الاسلام مؤسسات تربوية فى مجتمع يتخذ من الاسلام موقف المعارض أو المناوىء أو اغفال كل ما يدل على أن القرآن الكريم من عند الله ، وهذا هو حال مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » ، كما شرحنا ذلك سابقا .

وان كان مسلما :

فهو يردد ما يقوله المستشرقون دون بحث أو تمحيص ، وذلك ما نقرؤه لبعض المعاصرين .

٣ ــ السكان :

يمثل العرب طبقا للفصيلة الدموية ــ ما هية أصلية بين الأجناس الشرقية غير أن اتصالهم بجيرانهم الآسيويين منذ خمسة آلاف سنة ــ ذلك الاتصال الذى حدث نتيجة للهجرة بسبب الجفاف الذى كان يصيب مناطق تجمعهم ــ طبع أجسامهم وملامحهم بطابع آسيوى ، والشىء الوحيد الذى لم يؤثر فيه هذا الاتصال فلم يتغير : هو اللغة .

ثم تحدث عن عادات وتقاليد العرب فى حياتهم الصحراوية ــ سواء ما تعلق منها بالأسرة ، أو العشيرة ، أو القبيلة ، والتزام الأفراد بها ولو كلفهم ذلك حياتهم ، وأردف ذلك بقوله : فمن المهد الى اللحد يملى قانون الأجداد عليهم أسلوب حياتهم ؟ .

ــ كان هناك الثأر ونصرة الأخ ولو كان ظالما ، والخضوع الكامل لرئيس القبيلة .

ــ كما كان هناك الالتزام بما يمليه حق الجوار ، والكرم ، والشجاعة ، والفخر بالتحلى بالفضائل التى تعارفوا عليها .

ذهب الى أن العرب لم يكن لديهم الوعى بالشعور العام ، الذى يربطهم جميعا برباط واحد وما أطلقه اليونانيون عليهم بأنهم : « الشرقيون » لا يدل على أن هناك شعورا عاما يجمعهم نحو هدف واحد فى الحياة ، بل ربما لا يتعدى معنى هذه الكلمة ــ من الناحية العملية آنذاك ــ الاحساس بالانتماء الى جنس واحد فى مقابل

الاجناس المجاورة لهم • ثم ركز على أن اخلاص العربى للقبيلة ــ والدفاع عنها تحول فيما بعد الى الانتماء للاسلام والدفاع عنه •

يبدو من الفقرة السابقة أن المؤلف قصد بها افهام القارىء أن الاسلام لم يغرس فى العرب التفانى فى الدفاع عنه ، فقد كانت غريزة الدفاع عن المعتقدات ــ أيا كان مصدرها ودرجتها بين الأديان ــ موجودة عنده ، وان ما فعله الاسلام لم يخرج عن تحويل هذه الغريزة من الدفاع عن عقائد الجاهلية الى الدفاع عن الدين الجديد) •

وهذا فهم غير صحيح ، بدليل أن هناك شعوبا لم تشتهر بهذا الجانب مثل ما اشتهر العرب ، ومع ذلك عندما اعتنقت الاسلام دافعت عنه دفاعا لا يقل عن دفاع العرب ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الاسلام هو الذى غرس فيهم حب التضحية فى سبيل اعلاء كلمة الله •

تناول المؤلف توزيع الثروة ، فذكر أن بعض الأفراد عاشت عيشة رغدة بما ملكته من مصادر الثروة الممثلة فى التجارة والأنعام والثمار (ثمار النخيل والتين والبرتقال والليمون) والتوابل • أما السواد الأعظم فعاش فقيرا محروما من الاستمتاع بهذه الخيرات التى كان يراها أمام عينيه •

جمعت أخلاق البدوى وصفاته بين الشىء ونقيضه :

فهو يتصف بالصبر والتحمل ، كما يتصف بالحساسية البالغة وسرعة الغضب •

كان جسمه ضئيلا ، ولكنه شديد التماسك وقوى •

يكفيه فى الصحراء بضع تمرات وقليل من الماء ، بينما يتعب النبيذ الذى يصنعه بيده اذا أتيحت له الفرصة •

ثم تحدث عن الحرب والاغارة والصعلكة والسلب والنهب والاغتصاب عند البدوى ، كما تحدث عن الصيد والحب ، فذكر

أن جمال المرأة كان يثير العاطفة عنده ، غير أن هذه الاثارة كانت وقتية ، فلم تدم طويلا ، وذلك راجع الى طبيعة الطقس الذى يعيش فيه • ولم ينس فى هذه الفقرة أن يتحدث عن وأد البنات عند العرب صغارا واستيلاء الآباء على ما يقدمه لهن راغبو الزواج كبارا •

٤ ــ الدين :

كانت أهمية الدين عند العربى أقل بكثير من عادات وتقاليد القبيلة ، فطقوسه ما زالت فى دائرة الشعوذة داخل اطار تعظيم الأصنام ، صورتها البدائية : أشجار وأحجار يتوسل بها الى كائن آلهى ، أو تعبد للوقاية من ضرر الكائنات المؤذية ، ولذا قدمت لها الضحايا للوقاية من الأخطار المتوقع حدوثها •

استعرض كثرة الأصنام وتنوعها بين القبائل ، واختصاص كل قبيلة بصنم مخصوص ، ثم بين أن الطقوس الدينية كانت بسيطة بوجه عام •• تناول أهمية الكعبة ، فذكر قصة بنائها وتعظيم العرب لها وشدهم الرحال اليها كل عام ، وتحريم القتال فى أشهر الحج مما يتيح لهم اللقاء فى جو أخوى بعيد عن المشاحنات والمناوشات • وفى هذا الصدد تحدث عن قصة التقاء آدم بحواء على جبل عرفات بعد هبوطهما من الجنة ، وعن الحجر الأسود ، وعن مكانة ابراهيم عليه السلام بين الشعوب السامية ، اذ هم يعتبرونه الأب الأكبر ، ففى كل مكان من عالم الساميين القديم توجد دلائل على تعظيمه ، ففى دمشق يعتبر أول الملوك ومؤسس المدينة ، وكان الأدوميون الوثنيون فى شمال مدينة حبرون (الخليل) يعبدونه ، والصابئون عبدوا الاله « ابو روم ABU-ROM » وعندهم فى مدينتهم « حران » ــ مكان اقامة ابراهيم ــ معبد أسود ، مكسو بقماش أسود ، وفيه حجر أسود يتوجهون اليه فى صلاتهم •

لعل قارىء الكتاب يفهم من هذا ــ وهو ما قصده المؤلف

بالتأكيد ــ أن انتشار بعض معالم الكعبة بين الشعوب السامية ــ ومنهم وثنيون ــ يدل على أنها ظاهرة بشرية ، لا علاقة لها بالوحى السماوى ، •• خضعت لقانون التطور ــ ذلك الذى سيطر على العقلية الأوربية فى العصر الحديث ، وحاول بعض العلماء تطبيقه فى مجال الأديان أيضا •

والدليل على خطأ هذا الرأى أن الانتشار وحده ليس دليلا قاطعا على صحته ، لاحتمال أن هذه الشعوب كانت واقعة تحت التأثير الروحى للكعبة ، لمكانتها بين العرب قاطبة ، فدفعهم هذا الى محاكاتها فى أقاليمهم ، فاذا أضيف اليهما أخبر به الوحى عن تحديد البقعة الطاهرة لابراهيم لاقامة البيت ، رجح أن الكعبة وما حولها •• وما يقام فيها من شعائر ، هو تحديد من السماء ، غير العرب فيه قبل الاسلام ثم جاء القرآن الكريم فصحح ما غير ، فاستقام الدين كله لله •

كان « الاله هبل » سيد الكعبة فى مكة ، فقد احتل هذه المكانة نتيجة اعتقاد العرب فى اله أكبر يلتف حوله آلهة أصغر منه ، ينفذون أوامره ، وهكذا نما عدد الآلهة المساعدين • ويرجع انتشار تأليه الأصنام بين العرب الى ما قبل ظهور محمد بزمن طويل • ذلك أنهم اعتقدوا فى وجود الله • وأنه فى مكان سام لا يمكن الوصول اليه ، ولا توجد صلة تربطهم به • ولذا فقد وجب البحث عن وسيط ، فوجدوه فى هذه الأصنام • ثم تحدث عن اعتقاد العرب فى أن الأصنام تحميهم وترشدهم وأن حمايتها تعم الجميع ، حتى الذين ينزلون ضيوفا عندهم •

كلما زادت سطحية الطقوس الدينية حول الأصنام وضوحا عند العربى ، ازداد قربا من الايمان بوحدانية الله ، ذلك الايمان الذى كان يريحه نفسيا ، نما الاعتقاد بالواحد الأحد بجانب عبادة الأصنام ، وعندما أتى محمد كان العربى على استعداد لاعتناق مبدأ التوحيد •

يبدو للقارىء أن المؤلف واقع تحت سيطرة مؤثرات فكرية سادت فى بيئته ، فهو يحاول تطبيق مناهج البحث الحديثة فى أدلته ، ولكنه لا يستطيع التخلص من رواسب الماضى الثقافية فى مجتمعه تجاه الاسلام ، فيقع فى الخطأ ، ذلك أنه أراد أن يشرح الظواهر العقيدية فى المجتمع الجاهلى فى ضوء نظريات تحول المجتمعات التى سيطرت على جميع مجالات البحث فى العصر الحديث ، اذ من المسلم به عند العلماء أن الظواهر الاجتماعية الجديدة تنمو ـ اذا هيئت لها الظروف ـ شيئا فشيئا ، الى أن تسود بعد أن تقضى على ما سبقها من ظواهر ، وقد ذهب المؤلف طبقا لهذه القاعدة الى أن عقيدة التوحيد نمت فى العصر الجاهلى ، وازداد نموها فى العصر السابق لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة .. الى أن صدع بدعوته ، فوجد الجو مهيأ لفرض هذه العقيدة على الجميع .. أى أن الاسلام ظاهرة اجتماعية ، أكملت سلسلة من التغيرات فى هذا المجال .

وغاب عنه فى هذا القياس :

ـ أن الحنفاء كانوا أفرادا يعدون على أصابع اليد الواحدة ، فهم لم يمثلوا ظاهرة .

ـ أن عقيدتهم لم تكن واضحة المعالم ، والاسلام جامع شامل لكل عناصر التوحيد ، فهو ليس سلسلة لا حقة بنيت على سابقتها .

ـ أن الغالبية العظمى من العرب تمسكت بالأصنام ، ودافعت عنها حتى الموت ، مما يدل على أن الحنفاء لم يكن لهم أثر يذكر فى المجتمع .

ـ أن من طبيعة الظواهر الاجتماعية التكرار على امتداد التاريخ زمنا ، أو على اتساع رقعة البسيطة مكانا ، وقد حدثنا التاريخ عن وجود هذا التكرار فى مجال الحضارة والمدنية ، أما فى مجال العقيدة

فلم توجد ظاهرة ــ بالمعنى المفهوم عند علماء الاجتماع ــ تشبه الاسلام لا فى القديم ، ولا فى الحديث . وهذا يدل على أنه وحى سماوى أنزله الله على محمد ، كما أنزل على موسى وعيسى والنبيين من قبله .

كل هذه العناصر :

تنفى :

أن يكون الاسلام مرحلة فى سلسلة الظواهر الاجتماعية .

وتثبت :

أنه وحى من السماء ، اشتمل على نظام كامل لاصلاح المجتمع الانسانى ، نظام لم يؤسس على ما سبقه من عادات وتقاليد المجتمع الجاهلى ، ولم يكن تطورا لما سبقه ، بل أنزله العليم الخبير .

تناول حديثه عن الأديان الأخرى فى الجزيرة العربية اليهودية والنصرانية ، فذكر أن اليهود الذين عاشوا بين العرب كانوا يتحدثون اللغة العربية ، واستقروا فى مناطق ، فلم يكونوا رحلا مثل العرب ، واشتغلوا بالتجارة والزراعة ، وصناعة الحلى . هذا الاستقرار بالاضافة الى التمسك الشديد بالعقيدة ، جعل اليهود منعزلين عن العرب ، فلم يفكر أحد من البدو أن يعتنق اليهودية . وذلك يخالف الوضع بالنسبةللنصرانية ، فقد اعتنقها بعض العرب فى الشمال ، ولو لم يظهر الاسلام لانتشرت فى الجزيرة العربية . أما المبشرون فقد جابوا المنطقة ــ العراق وسوريا والحبشة واليمن ــ يدعون الناس الى الدخول فى المسيحية ، وقد أحسن الاستماع اليهم بعض القبائل ، فكانوا يعظون فى الأسواق دون أن يمنعهم أحد .. ثم أعطى صورة مفصلة عن الأديرة والكنائس التى أقيمت فى الصحراء ، وذكر أن تأثير النصرانية على الحنفاء كان كبيرا ، غير أنه مال الى أن تأثيرها على الاسلام لم يكن مصدره اتصال العرب بالمناطق المسيحية المجاورة ــ عن طريق التجارة ــ فقط ، بل يرجع أيضا الى الحنفاء الذين كانوا يقرأون كتبها .

يفهم المرء عندما يقرأ هذه الفقرة أن المؤلف يعتقد أن المسيحية ـ وكذلك اليهودية ـ كانت من المصادر ، التى أمدت محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعقيدة التوحيد . ولا يخفى خطأ هذا الرأى على من عنده الملم بسيط بمفهوم التوحيد فى الأديان الثلاثة ، اذ بينما يقرر الاسلام أن الله واحد فى ذاته وصفاته ، ليس كمثله شيء ، نرى المسيحية تقول : ان الله ثالث ثلاثة . واليهود يصفون الله فى الكتاب المتداول بينهم بأوصاف لا تليق به سبحانه وتعالى . فماذا أخذ الاسلام منها ؟ هل أخذ التثليث ..؟ القرآن ينكره ، بل يهدد من يعتنقه بالعذاب الأليم :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (١) .

وهل وصف الله فى القرآن الكريم بمثل ما جاء فى توراة اليهود ـ المتداولة بينهم ـ من أن الله عز وجل تصارع مع يعقوب ، فضرب به يعقوب الأرض (٢) . ان التوحيد الذى دعا اليه الاسلام لا نظير له ، لا بين العرب ، ولا عند اليهود والنصارى فى كتبهم المقدسة ، فكيف يعقل أن تكون المسيحية ـ أو اليهودية ـ مصدرا من مصادر الاسلام !!!!

٥ ـ الشعر :

كان الشعر هو القاسم المشترك بين العرب جميعا ، لأنه صيغ بلغة تفهمها كل القبائل ، مهما اختلفت لهجاتها ، ولذا كان بمثابة الرباط بينها حيث غاب الدين الذى يربط بين الناس ، كما كان سجلا لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهو وعاء حفظ تاريخهم .

حلل أخلاق الشعراء وصنف رحلاتهم بين القبائل منشدين بالمدح

(١) المائدة : ٧٣

(٢) سفر التكوين ٣٢ : ٢٤ ـ ٣٠

تارة وبالذم تارة أخرى ، كما تناول موضوعات الشعر بالتحليل مثل : الفخر الذاتى (الشجاعة ، الشرف ، الوفاء ، الحب) مدح القبائل (الاشادة بالشجاعة ، الثأر من الأعداء ، الكرم) والتغنى بالمعارك التاريخية .. و.. و.. الخ .. ثم بين مركز القبيلة حين يظهر فيها شاعر ، ومدى احتياج العرب الى هذا النوع من الثقافة ، نظرا لأن الغالبية العظمى أمية ، لا تعرف القراءة والكتابة ، فان أول كتاب ظهر بين العرب هو القرآن الكريم .

الباب الثانى
سيرة الرسول (١)
صلى الله عليه وسلم

يشتمل هذا الباب على :

١ ــ مشاكل السيرة :

ان التقاليد الأوربية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة (محمد صلى الله عليه وسلم) ، فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا ، لدرجة لا تمكننا من الفصل بين حياته ، وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن ــ الذى هو دستور الحياة للمسلمين ــ أقل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك افهام الأوربيين أن من تكون حياته على هذا النحو ، لا يمكن أن يكون جادا فى دعوته الناس الى دين صحيح .

ساد هذا الرأى ــ ولا زال ــ بين كثيرين ، بل وصل الأمر الى أكثر من هذا ، فقد وصفوه صراحة ــ دون تورية ولا تكنية ــ بأنه محتال وسفاح وشهوانى . فالحقد السياسى ــ الذى نتج عن انتشار الاسلام ، وسيطرته على كثير من مناطق العالم ــ والتعصب الدينى

(١) عنوان الباب فى الكتاب : « حياة محمد » .

دفعا هؤلاء الكتاب الى البحث عن الجوانب المظلمة لاستخدامها فى وقف المد الاسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاستخدموها ـ كدليل على أن الاسلام لا يصلح لشىء ـ للتنفير منه .

ولكن : ألا يتعارض هذا الموقف تعارضا مباشرا مع الحقائق المقررة لمفهوم الحياة المسيحية ؟ اذ يعتقد البعض ـ اعتقادا جازما مستندا الى نصوص عقدية ـ فى صك غفران فى يده ، ويستغنى بذلك عن العقيدة الحية ، التى تبعث الحياة فى كل شىء !!!

فلكى نصل الى الحقيقة فى حياة محمد ورسالته ، ينبغى أن نقبل على البحث بعقل متفتح ، وقلب صاف ، معرضين عن الزعم الباطل المسبق ، والوهم الذى لا أساس له ، مدققين فى الروايات التى تروى عنه ، حذرين فى تقييم كل ما يعرض علينا . قد يكون من غير الممكن على الغربى المسيحى تحقيق هذه المثالية ، ولكن الجهد الصادق فى هذا المجال سوف يكون خطوة أولى على الطريق ، تتلوها خطوات ، خاصة وأن جو البحث فى عصرنا هذا ـ حيث تقاربت المسافات ـ أنسب وأسهل مما كان عليه الوضع فى القرون الوسطى ، اذ يعيش بيننا كثير من المسلمين ، مما يجعلنا لا نعتمد على الأبحاث المسيحية فقط ، بل تتصل بالمسلمين مباشرة ، فنسألهم ونناقشهم ، فيما يتعلق بدينهم ونبيهم ، وأعتقد أننا بهذا سوف نمزق أساطير ألف ليلة وليلة ـ التى حيكت طول الاسلام ـ ونسلط الأضواء على الحقائق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . وينبغى ألا ننسى أيضا أن كثيرا من المسلمين يبالغون فى تعظيم نبيهم ، فيدفعهم ذلك الى تصوير حياته تصويرا يقرب من الخيال الموجود فى قصص الف ليلة وليلة ، على الرغم من أنه أكد أكثر من مرة أنه بشر ، لا يستطيع أن يأتى بكل ما يطلبون من معجزات .

اذا كان المؤمن بالمسيحية يهتم

بالطريقة التى خرج بها الجزء الناسوتى لعيسى من عالم الأحياء ، لأنه يؤمن بالعهد الجديد ، ويعتقد فى مخلصه !!! فانه سوف يهتم أكثر ــ اذا أتيحت له الفرصة ــ بحياة محمد الخاصة .

ولما كان فى هذه الحالة لا يشعر برباط يربطه به ــ فربما تكون رغبته منصبة على معرفة ما اذا كان محمد قد عاش متدينا مثل عيسى ــ فسوف تكون هذه المقابلة خاطئة ، لأنه يؤمن بعيسى ، وينفذ ما ورد عنه دون اعتراض ، بينما يشك فيما يسمعه من أخبار محمد المتعلقة بالوحى ، على الرغم من أن الانجيل اعترف بوجود أنبياء آخرين . وهذا هو مصدر كثير من الأحكام الخاطئة عن الاسلام .

هناك خطر آخر على عدم التحيز فى البحث ، ألا وهو : عدم التعمق ، فقد شاعت أحكام كثيرة بنيت على أدلة غير كافية ــ على الرغم من سهولة الوصول الى كل المصادر الموجودة فى عصرنا الحاضر ــ مما جعل الفهم الخاطىء يسود جبهة عريضة فى مجتمعنا ، فشاع سوء التفاهم الذى ينمى التناقضات الظاهرية بيننا وبين المجتمعات الاسلامية . وليس من السهل على الباحث الذى يشعر بالمسئولية أن يتصدى لهذا التيار ويوقفه ، لأن المهتمين بنتائج هذه الابحاث قلة قليلة من الناس . ولكن ما يعزينا ويدفعنا الى الاستمرار فى هذا الطريق ، هو أن المعرفة القائمة على أساس متين ، سوف تنتشر بمرور السنين شيئا فشيئا ، الى أن تصبح من المسلمات التى يؤمن بها الناس .

٢ ــ طفولة وشباب :

تتصل حياة محمد بالمجتمع القبلى العربى القديم ، هذه حقيقة ، ينبغى على المرء أن يضعها نصب عينيه ، حتى يتجنب أى خطأ فى الحكم ، فلم تكن الحياة هناك ذاتية فردية ، بل احتل الفرد مكانا معينا فى الأسرة والعشيرة والقبيلة .

ثم تناول المؤلف قريشا ومكانتها بين القبائل ، وبنى هاشم ووضعهم فى قريش واستعرض أحداث

السيرة النبوية ، ابتداء من الحديث عن عبد المطلب وعن عبد الله وآمنة .. مارا بموتهم وكفالة أبى طالب له ، ورعى النبى الغنم لأهل مكة ، ورحلتـــه الى الشام ، وزواجـه بالسيدة خديجة رضى الله عنهـــا وأولاده منها ، فلم يخرج فى هذا عما جاء فى كتب السيرة ، غير أن هناك ثلاث مسائل ينبغى الوقوف عندها لتتضح الحقيقة .

المسألة الألى :

حادثة شق الصـــدر :

ذكر المؤلف هذه الحادثة كمـا وردت فى كتب الســيرة ، غير أنه ذهب الى أنها أسطورة ، والى أن الدافع الى ظهـورها فى المجتمـع الاســلامى ، هى الآيـات الأربع الأولى من سورة الانشراح .

ونحن المسلمين لا نوافقـه على أنها أسطورة ، لأن كتب الســيرة كلهـا ذكرتهـا ، فمن المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على الباس أسطورة لباس الحقيقة ، وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يروون من أخبار .

وانكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهـذه الحادثة ، اســتنادا الى أن ما ورد فى كتب التاريخ لا يعد من الحقائق العلمية المؤكدة ــ وهو ما دفع المؤلف الى اعتبـارها أسطورة ــ لا يعـد مطعنا يدخل منه أعـداء الاسلام للهجوم عليه ، لأنهـا لا تتعـلق بعقيدة ، وليس لها صلة بتعـاليم الاسلام المفروضة .

أما ادعـاؤه بأن الدافـع الى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة الانشراح ، فلا يقوم على دليل مستوفى الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه الا على ما يذكـر فى الكتب المعتمدة ، لا على ما كتب فى عصور الانحطاط الفـكرى فى المجتمـع الاسلامى ، ولا على ما كتبـه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الاديـان . ولم يـربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى :

« ألم نشرح لك صـــدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ورفعنـا لك ذكرك » . وبين

فى تفسيرهم لهـذه الآيات على أن حادثة شق الصـدر ، بل أجمعوا الله منّ على محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

بأنه أزال الحقد من نفسه وأودع فيها هدى ومعرفة وايمانا وفضائل وعلوما وحكما .

وبأنه خلصه من دنس الجاهلية وفسادها فى نشأته .

وبأنه خفف عنه ما أثقل ظهـره من أعبـاء النبـوة والرسالة حتى يقوم بها ويبلغ رسالة ربه .

وبأنه رفع شـأنه باختيـاره للرسالة .

وهى نعم تدل على أن الرعـاية الالهيـة ستصاحبه .

ولا نجد ربطا بين هـذه الآية وبين الحـادثة الا فى كتب لا وزن لها ، ولا يعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة ، وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هـذه الكتب لا قيمـة لهـا فى نظـر البـاحث المدقق .

المسألة الثانية :

زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

فقـد روى المؤلف أن السـيدة خـديجة سقت أباها خمـرا حتى أسكرته لتنتزع منه الموافقـة على زواجها بمحمد بن عبد الله .

وأمانة البحث العلمى تحتم عليه ألا يقتصر على رواية واحدة فيمـا وردت فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خـويلدا (والد السـيدة خديجة) أبرم هذا الزواج وهـو سكران ، فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز من أهل مكة :

لا تزهدى خديج فى محمـد
نجم يضىء كاضـاء الفـرقد

كمـا ذكرت رواية أخـرى أن خويلدا كان اذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجة رضى الله عنهـا هو عمهـا عمرو بن أسد ، كمـا يقال أيضا : أن الذى انكحها هو أخوها عمرو بن خويلد (١) .

(١) راجع : السيرة النبـوية لابن هشـام « تحقيق : مصطفى السقا وآخرين » الطبعة الثانية ١٩٥٥ م ص ١٩٠ .

فليس فى الرواية الأولى ما يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها سقت والدها الخمر لتنتزع منه الموافقة كما ذهب الى ذلك المؤلف ، ومن المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال ، ولا شك أن خطبتها مناسبة تدعو الى الشرب ، فأكثر والدها منه ، الى أن جاءت لحظة الموافقة الروتينية بعد القاء كلمات الخطبة ، كانت الخمر قد أسكرته ، فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن .

هذا اذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا اذا التزمنا بمبادىء البحث العلمى لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتين أخريين ، تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمداً بن عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى . برمتها ، وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الاسلام المروق منها للطعن بأى كيفية . فان وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى ، مهما كان نوع النتيجة التى يوصل اليها ، فيجب أن يلزموا الصمت ازاء هذه الحادثة ، فلا يتخذونها مادة للتشهير .

المسألة الثالثة :

أمية محمد صلى الله عليه وسلم :

من المسلم به أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل الى ربه ، غير أن المؤلف ذكر أن بعض المستشرقين المحدثين يرون أنه تعلم القراءة والكتابة ، وهو كبير ، عندما اشتغل بالتجارة ، الا أنه لم يعرف لغة أجنبية ، ومن هنا فقد أخطأ فى النقل عن الأديان الأخرى .

هذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الاسلامية المتخصصة لأهملناه :

فمن القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى الى دليل .

فأين دليل هؤلاء المستشرقين ؟

ان قالوا : مصادر اسلامية .. فقد افتروا كذبا . اذ لا يوجد البتة مصدر واحد ـ مهما كانت قيمته ومركزه فى مجال البحث العلمى ـ يمكن أن نجد فيه أدنى اشارة الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، بل العكس هو الثابت ، اذ أجمعت المصادر كلها على أنه ظل أميا طول حياته وأكدت ذلك .

وان قالوا : مصادر غير اسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول الى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟

الثانية : لم يذكر المؤلف تلك المصادر التى أعتمد عليها هؤلاء المستشرقون حتى نقيمها ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء ، باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقون ، اعتمادا على افتراضات ، وهى لا تؤدى الى حقيقة علمية ، بل الى تخيلات يظنها الباحث المغرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى .

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل من المسيحية واليهودية ، فيكفى للرد عليه أن الانسان الذى لم ينل حظا وافرا من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ذلك أن النظام المنقول ـ فى جميع فروع النشاط الانسانى ـ لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول عنه ، مهما عدل فيه وغير ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الاسلام ؟

لقد أنفرد الاسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة وخالف ما ورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى .

ففيما يتعلق بالاله يقول أحد العلماء الأوربيين :

« الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا ، أو ما الى ذلك من الاشكال .

أما المسيحية فان لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، الى لحية بيضاء مرسلة مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون الى زمر الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة .

كذلك « يا هو » الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف « الفاتيكان » وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما « الله » فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته أزميله ، ذلك لأن الله لم يخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد » (١) .

وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ، ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم .. فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقال : انه صحح دين الله الذى حرفوه ، وبين شريعته التى بدلوها وغيروها (٢) .

(١) أوربا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ـ المكتبة العصرية ص ٧٧

(٢) المزيد من معرفة الأحكام ،التى خالف فيها الاسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين أيديهم ، اقرأ كتاب : « بين الاسلام والمسيحية » . تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة ـ الناشر : مكتبة وهبة .

٣ ــ النبوة :

هيأ قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة الوقت لمحمد للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه الى عبادة الله وحده • وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك ، منها ما كان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث عن الحق ، ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى المدينة •

لم يثبت تاريخيا أن محمدا تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنين ــ فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة ــ ولا يعقل أبدا أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلا عن أعقد شىء فيه وهو التوحيد ، كذلك لم يثبت أن محمدا كانت له صلة بالحنفاء ، أو كان يجلس اليهم ، انما الحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ورقة ــ عندما قال له ورقة : ليتنى حيا اذ يخرجك قومك ! ــ : « أو مخرجى هم » (١) • أنه لم يكن يعرف شيئا من سيرة الأنبياء السابقين ، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم حين دعوهم الى عبادة الله • وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئا عن هذا اطلاقا ، لا من اليهود ولا من الحنفاء •

(١) عندما نزل جبريل بالوحى لأول مرة على محمد بن عبد الله فى غار حراء ، رجع الى خديجة وأخبرها الخبر ، فانطلقت به الى ورقة ابن نوفل لتسأله عما حدث لمحمد ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ... ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أومخرجى هم ؟ فأجاب ورقة : نعم لم يأت أحد بمثل ما أوتيت الا عودى ، وأن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا » .

لم يكن جو مكة مساعدا على التأمل والنظر ، اذ كان يسيطر عليه النشاط التجارى الذى دفع الناس الى الجرى وراء السلطة والثروة ، فملئت حياتهم بالحقد والحسد والثأر ، وتعددت آلهتهم التى نصبوها حول الكعبة ، فوصلت الى أكثر من ثلاثمائة صنم .

ترك محمد هذا الجو وذهب الى غار حراء متأملا يفكر فى أمر قومه ، ويتمنى أن ينقذهم مما هم فيه من ضلال ، ولم يكن يأمل الا فى ردهم الى دين أبيهم ابراهيم عليه السلام الى أن جاءه الوحى وهو فى الغار ... ثم يسرد تفاصيل نزول الوحى على النبى ، وذهابه الى خديجة خائفا ، وحديثها مع ورقة بن نوفل .. الخ .. وفى معرض حديثه عن الوحى والقرآن يذكر أن بعض الغربيين يعتقد أن ما كان يصيب محمداً أثناء تلقيه الوحى ، ما هو الا نوبات صرع ، ولكن هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

أن المصروع لا يتذكر شيئا مما حل به أثناء نوبة الصرع لأن ـ هكذا يقول المؤلف ـ حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمدا أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه .

وأن الذى تنتابه نوبات الصرع بهذه الكثرة ، تضعف قواه بمرور الأيام ولكن محمدا ظل محتفظا بها حتى آخر حياته ، مما يدل على أنها لم تكن نوبات صرع .

٤ ـ مكة تكفر بالدعوة :

لو بدأ محمد دعوته أهل مكة باظهار معجزات حسية لهم ، لكانت معارضتهم له أخف ، ولكنه كان يكرر دائما أنه بشر ، ويدعوهم الى الايمان بالله وباليوم الآخر ويطالبهم بتحرير العبيد ، وبأن يحسنوا معاملة النساء والأرامل واليتامى ، ثم حرم وأد البنات .

استنكر أهل مكة هذه التعاليم لأنها كانت غريبة عليهم ، فعارضوه واشتدوا فى معارضته ... استعرض المؤلف أحداث مقاومة قريش للدعوة ، وتطورها من معارضة فردية الى معارضة جماعية ، تلك التى تمثلت فى مقاطعة قريش لبنى هاشم وفى ثنايا سرده للأحداث تناول :

ـ أخبار من أسلم من وجهاء قريش مثل عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب .. و .. الخ .. ودفاعهم عنه بجانب الدرع ذى الجناحين الواقيين له ، وهما زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها ، وعمه أبو طالب .

ـ وهجرة المسلمين الى الحبشة .

ـ وحديث الاسراء والمعراج الى أن وصل الى التجهيز للهجرة الى يثرب . وفى هذا الباب تتوقف عند نقطتين .

الأولى : قصة الغرانيق .

يتذكر المؤلف أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه ، نزل الوحى بأن الله اعترف ببنوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ويستدل على ذلك بنصوص اسلامية .

قد يقال : ان المؤلف لم يأت بدءا من القول ، فالقصة رويت فى كتب اسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماما بالغا ، وعليه فمن الطبيعى أن يردد أوربى لم يدرس الاسلام فى معاهد اسلامية مثل هذه القصة ، اذ ليس لديه الروح الاسلامية التى تدفعه الى محاولة تنقية التاريخ الاسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الاسلامى ، أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هذا المؤلف ، فهو ليس مسلما ، ولا يعيش فى مجتمع اسلامى ، بل يسمع من المستشرقين دون أن

يصحح له أحد ، ويقرأ كتبهم ، وليس فى متناول يده المراجع الأخرى التى تصحح هذه المفاهيم البعيدة عن الصواب .

والموقف يقتضينا أن نذكر ردا بسيطا ، يقتنع به كل قارىء ، مهما كانت درجة ثقافته ، ألا وهو : ـ أن هذه الرواية التى ذكرت

تلك القصة مشكوك فى صحتها ، واذا تطرق الشك الى دليل فقد حجيته .

زد على ذلك أن المرء اذا قرأ الآيات التى أوحت بهذه القصة وهى :

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ..

ثم أضاف اليها النص الذى أحدث البلبلة وهو :

« تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » ..

ما استقام المعنى اطلاقا ، اذ عقب هذا مباشرة ـ على فرض صحة النص ـ جاء قوله تعالى :

« ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذاً قسمة ضيزى » .

فكيف يستقيم المعنى ، لو أقحم النص المفترى بين تلك الآيات ؟

لا يستقيم ! لا فى عقل سقيم !!!

الثانية : رحلته الى الطائف :

أرجع المؤلف رفض أهل الطائف دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الى خوفهم على مصالحهم التجارية ، فقد كانت تربطهم بأهل مكة معاملات تجارية ، كانت ستتأثر لو اتخذت قريش منهم موقفا عدائيا ان هم أسلموا .

هذه قضية صحيحة الى حد ما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لرفضهم الاسلام ، بدليل أنهم رفضوه بعد أن أسلمت قريش وسلمت للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن الانسان مثل النبات ، مربوط فى مجتمعه بعدة جذور ثقافية واجتماعية وعقدية ـ وهى

المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد ـ وعند التحول فى أى ميدان من ميادين الحياة ـ الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ـ لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هذه الجذور ليتحولوا الى الاتجاه الجديد ، فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الآخر يبطىء .. الى أن يصل الأمر الى اكراه بعض الأفراد على التحول (قد تكون وسيلة الاكراه معنوية ، وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد ـ أو مع قلة قليلة ـ المتمسك بالقديم) ، وموقف العرب من الاسلام لم يخرج عن هذه القاعدة ، تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب بالتحول الى الدين الجديد ، وهذا هو ما يعبر عنه قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » .

٥ ـ الهجرة :

لما أشتد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم جاءه الفرج من ناحية المدينة ، فقد استمع اليه نفر من أهلها أثناء موسم الحج ، فآمنوا به ، وكانوا رسل الدعوة الى مدينتهم .. ثم حدثت بيعة العقبة الأولى والثانية التى اتخذ فيها قرار الهجرة ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن الهجرة ، فيذكر أن « التكتيك » السليم المحكم ، هو الذى أنقذ محمدا من أهل مكة الذين خرجوا يتعقبونه ، ومن مراحل هذا « التكتيك » لجوؤه الى غار يقع على عكس طريق المدينة ، ثم يتحدث عن لقاء أهل المدينة له ، وحرص كل واحد أن يستضيفه ، فكان قراره الحكيم ، وهو أن تترك الناقة وشأنها فحيث تبرك يحط رحاله .. وقد قرر عمر بن الخطاب بعد سبعة عشر عاما من الهجرة اتخاذها بداية التاريخ العربى .

لم يذكر المؤلف المعجزات التى وقعت أثناء الهجرة ، من نسج

العنكبوت وتعشيش اليمامة على باب الغار ، وما كان من أمر سراقة ، وخبر أم معبد ، وغير ذلك من الأخبار التى وردت فى كتب السيرة ، ومن المستبعد عدم اطلاعه على هذه الأخبار ، وهو الذى سرد فى كتابه أخبارا تنبىء عن المامه بما جاء فى كتب السيرة كلها ، وعليه فمن المؤكد أنه أغفلها عمدا ، ولا يعد هذا نقصا أو تقليلا من قيمة البحث ، لأن العقل الأوربى فى العصر الحديث لا يتقبل بسهولة أحداثا لا يعرف أسبابها المادية ، ـ والمعجزات من هذا النوع ـ لذلك آثر المؤلف أن يتجنبها حتى يصل الى هدفه ، وهو تعريف القارىء الأوربى بالاسلام ، دون أن يفقد اهتمامه بما يعرض عليه ودون أن يفقد ثقته •

وهذا أسلوب ينبغى على الدعاة أن يلتزموا به ، اذا خاطبوا المجتمعات الواقعة تحت تأثير التيارات المادية •

كذلك ينبغى عليهم أن يثبتوا لغير المسلمين ـ وللمسلمين أيضا فى بعض المواقف ـ أن الاسلام دين مبادىء وقيم لا ترتبط بالاشخاص ، ولو كان النبى نفسه ، وقد فهم ذلك المسلمون الأوائل ، فربطوا التاريخ بحادثة تتعلق بأمور الدعوة لا بشخص النبى ، فلم يجعلوا ميلاده بدايةللتاريخ كما حدث فى الأديان الأخرى ، بل أخذوا بدايته هجرة الدعوة من المدينة ، التى اضطهدت فيها الى مدينة أخرى فتحت لها ذراعيها ، وأحاطتها بالرعاية والحنان ، ودافعت عنها بالروح والمال •

٦ ـ النبى فى المدينة :

وصف المؤلف موقع المدينة الجغرافى ، وطبيعة أرضها وغلاتها ، ثم تناول تركيب المجتمع ، فذكر أنه كان يتألف من قبيلتين عربيتين كبيرتين ، هما الأوس والخزرج ـ وكانتا فى صراع دائم ـ يحوط بهما ثلاث مجموعات يهودية هى : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع •

أراد النبى أن يجمع شتات هذه المجموعات المتنافرة ، فدعا الى

عقد حلف دفاعى عن المدينة ، يدخل فيه الجميع بما فى ذلك اليهود ، ولم يجبر أحدا على الدخول فى الاسلام بمقتضى الدخول فى هذا الحلف الدفاعى ، بل حرم على اليهود ألا يبدءوا بشن حرب على أحد من تلقاء أنفسهم ، وانما يساعدون فقط فى الدفاع عن المدينة ، ومن المسلم به أنه لم يكن يسمح لأحد بأن يعقد حلفا مع أهل مكة .

اختفت الطبقية فى المجتمع الاسلامى الجديد ، لأن الاسلام آخى بينهم ومحا كل تفاضل قائم على العرق أو النسب أو الوضع الاجتماعى كما تلاشت غريزة الأخذ بالثأر من نفوس العرب فى المدينة ، وحلت محلها غريزةالدفاع ضد من يحاربون الدعوة . وكان التسامح هو طابع العلاقات بين سكان المدينة ، وهو من الانجازات الضخمة التى يحق للاسلام أن يفخربها على مر العصور .

ازدادت قوة الاسلام بعد معركة بدر ، كما اتسعت هوة الشقاق بين المسلمين والكافرين عاما بعد عام ، فنشأ فى المجتمع الاسلامى مجموعة آمنت بالاسلام فى الظاهر وكفرت به فى الباطن ، وهم الذين أطلق عليهم « المنافقون » .. ثم حلل سلوكهم فى المجتمع ودسائسهم وميلهم الى أهل مكة ، كما ذكر أن الأيام أظهرت أن طبيعة علاقة اليهود بالمسلمين لم تختلف عن طبيعة المنافقين ، اذ كانوا يتحينون الفرصة للنيل من الاسلام ، وفصل القول فى الصراع الذى اندفع بينهم وبين المسلمين — ذلك الصراع الذى أدى الى قتل البعض وطرد الآخرين من الجزيرة العربية .

سرد المؤلف ما حدث بعد الهجرة من تشريعات ، وغزوات كما جاءت فى كتب السيرة ، الا أنه أخطأ فى بعض تحليلاته ، وسنبين رأيه فيها ثم نرد عليه :

أ — تحويل القبلة :

يرى المؤلف أن اليهود عندما قلبوا ظهر المجن لمحمد ، فاتهموه ، وأنكروا نبوته ، تحول محمد عن

سياسته الرامية الى التقرب منهم ، فحول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة .

يخطىء من يعتقد أن الله فرض التوجه الى بيت المقدس فى الصلاة ثم حول القبلة الى الكعبة فى مكة ، ذلك أن التوجه الى بيت المقدس لم يكن سوى اجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن أمامه سوى الكعبة وبيت المقدس ، والكعبة تحيط بها الاصنام ، ويقيم المشركون حولها طقوس عبادتهم ، فاختار بيت المقدس قبلة ، لأنه لا زالت له صلة ــ وان كانت واهية ــ بمنبع التوحيد ، ثم جاء الوحى مبلغا أن الكعبة ــ رغم ما حولها ــ هى قبلة المسلمين ، لأن الله علم أنها ستتطهر من هذا الرجس عما قريب .

وعليه فلم يغير محمد القبلة ، لأنه وقع فى نزاع مع اليهود ــ كما يدعى المستشرقون ــ ولم ينسخ فريضة التوجه الى بيت المقدس بتحويل القبلة الى مكة كما يفهم ذلك بعض المسلمين .

ب ــ صيام رمضان :

كذلك حول الصيام من أيام متفرقة الى فرض صيام شهر رمضان مخالفا بذلك اليهود .

والرد عليه فى هذه النقطة لا يختلف عن جوهر الرد فى النقطة السابقة ، فالصيام كان اجتهادا ، ثم فرض صوم رمضان ، ولا يعد هذا مطعنا على الاسلام ، لأن الفروض لم ينزل بها الوحى دفعة واحدة ، فكان من عادة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، فاذا جاء الوحى جب كل اجتهاد سبقه .

جـ ــ غزوة بنى قريظة :

زعم المؤلف أن تسامح محمد مع اليهود تحول الى ثورة عليهم أدت الى قتل رجالهم واتخاذ نسائهم وأطفالهم عبيدا .

يركز المستشرقون على غزوة بنى قريظة .. ويتخذون من أحداثها مادة للهجوم على الاسلام ، وأحب أن أسألهم ــ ومن يدور فى فلكهم ــ هذه الأسئلة :

ـ كيف يتصرف مسئول فى أرقى دولة حضارية ، لو ثبت أن مجموعة من الطوائف التى يتكون منها شعبه تآمرت مع العدو للقضاء على جيش الدولة وكيانها بأكمله ؟

ـ وماذا فعل الحلفاء ـ فى العصر الحديث ، الذى يتغنون فيه برعاية حقوق الانسان ـ بمجرمى الحرب فى محاكمة « نورنبرج » ؟

قد يقال انهم ارتكبوا جرائم قتل جماعية .. فاقتص منهم !!

فهل اقتص المجتمع الدولى من قتل المسالمين ـ حتى الاطفال والنساء ـ فى دير ياسين ؟

ان ما حدث فى غزوة بنى قريظة لم يكن سوى حكم محكمة ، اختار المتهمون فيها قاضيهم ، فحكم عليهم بما يجب أن يكون ، ولا تختلف هذه المحاكمة عن محاكمة « نورنبرج » بل تفضلها فى أن المتهمين هم الذين أختاروا القاضى ، أما فى « نورنبرج » فكان الحكم فيها هو الخصم .

لو تدبرتم الأمر فنظرتم الى المسألة دون تحيز ، لأدركتم أن ما حدث فى غزوة بنى قريظة ، هو اجراء لازم تتخذه كل دولة تجد نفسها فى مثل هذه الظروف ، ولا يوجه اليها النقد الا من المغرضين أو الغافلين .

د ـ التعرض لعير أبى سفيان :

أدعى المؤلف أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة ٢٠٠ أسرة اليها ، فاضطر ذلك محمدا الى اتخاذ اجراء للخروج من هذا المأزق ، فوجه المسلمين الى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان .

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة .

ـ فمن أين أستقى المؤلف هذه المعلومات ..؟

لا شك أنها آستنتاج من تصورات خيالية فى ذهن المستشرقين .. ذلك التصور خيل

لهم أن التعرض للقافلة ــ هو للاستيلاء عليها ــ والدافع اليه هو احتياج أهل المدينة لما تحمله ... و ... و ... الخ ... وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى ، الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة ، زد على ذلك أن القرآن الكريم قد بين أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو احقاق الحق ، أى كسب اعتراف « دولى » بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن ادراكهم للخطر الذى تتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم الى المصالحة والتخلى عن الوقوف فى طريق الدعاة .. ومن يقرأ قوله تعالى :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

يدرك هذا المعنى .. اللهم الا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم الى طريق العداوة للاسلام ، حيث يكون هدفهم الهجوم عليه والكيد له .

ختم المؤلف هذا الباب بالحديث عن عمرة القضاء .. فذكر أن مظاهر التقوى التى بدت على وجوه المسلمين ، والتزامهم النظام ، أثر على سكان مكة تأثيرا نفسيا كبيرا ، فأدركوا القوة الروحية والفكرية للتعاليم الجديدة ، كما لمسوا مدى القوة التى تنبع منها . وعلى اثرها ــ أى عمرة القضاء ــ دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد فى الاسلام وصارا من أكبر قواد المسلمين .

٧ ــ الخاتمة :

لم تلتزم قريش بمعاهدة الصلح التى عقدتها مع النبى ، فجهز جيشا ضخما لفتح مكة .. ويمضى المؤلف فى سرده لأحداث غزوة الفتح ، ويركز على العفو العام الذى منحه النبى لأهل مكة بعد أن أصبحوا فى يديه يتصرف فيهم كيف يشاء ، دون معارضة ، وهنا تغلب عليه

جانب الصفح فعفا عنهم ، ثم يتحدث عن الأحداث التى تلت غزوة الفتح حتى جاءته المنية ، ففارق أصحابه دون أن يعين خليفة له .

وعن الدولة الاسلامية يقول :

« لم يعرف المسلمون فى الصدر الأول الفصل بين الدين والدولة وكانت المساواة بين الجميع فى الدولة الاسلامية سدا يمنع المشاحنات واراقة الدماء ، فقد نص فى سورة الحجرات على أن أفضل الناس عند الله أتقاهم . « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لكن المسلمين سرعان ما نسوا هذه الوصية بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ، اذ عادت العنصرية القبلية تطل برأسها ، وكانت سببا فى انهيار الدولة العربية .

دكتور : محمد شامه

« كلمات لأمراء المؤمنين »

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله عدى بن أرطاه : أما بعد : فقد أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك .

وقال المنصور لولده المهدى ، وقد تولى الخلافة بعده : لا ترم أمرا حتى تفكر فيه ، فان فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته ، واعلم أن الخليفة لا يصلحه الا التقوى ، والسلطان لا يصلحه الا الطاعة ، والرعية لا يصلحها الا العدل واولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

هوامش إسلامية

رجولة المسلم .. والحرّية

الدكتور ابراهيم أبو الخشب

كلمة رجل من الكلمات الضخمة التى يكون لها طنينها ورنينها حينما تجرى على الألسنة أو تدور عليها رحى الحديث ، الا أن اختلاف وجهة النظر تجعلها أشبه بما يطلق عليه عند علماء المنطق لأ من مقولة التشكيك » **لأنها تختلف** باختلاف الأوساط والبيئات ، فهى عند اللصوص وقطاع الطريق بمعنى غير هذا المعنى الذى يقصد اليه سواهم من الناس • وان كانت اللغة لا تعنى به الا أنه مقابل المرأة • وربما جعلت الذى يقطع المسافة فى الطريق ماشيا على قدميه راجلا • وفى القرآن الكريم « فرجالا أو ركبانا » وقد رأينا الأسلوب الذى جرى عليه كتاب الله سبحانه وتعالى اذا أراد أن يخلع على الذكر من بنى آدم لباسا من الضخامة والفخامة • والتقدير والاحترام ، والمهابة والاجلال ، اذ يكون الحديث عنه ، أو الخطاب له ، مقترنا بكلمة رجل ، يجىء بها محوطة بهالة من أوصاف الكمال الانسانى الذى يتناسب مع ما تنشده الأوساط المهذبة المؤدبة والجماعات التى نضج فيها الوعى الحضارى ، ونما فيها الذوق العام ، وتقدمت لديها الادراكات والأحاسيس • والشعور والوجدان ، وأصبحت تنكر ما هو خارج عن ذلك كله ، من سمات الانحدار ، وخلال الاسفاف • وأوصاف التهافت ، والنزول الى مستوى السوقة من الناس ، فهو يقول مثلا « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ،

ويعطى بهذا النص للرجل وساما من الكبرياء والعظمة ، والاعتزاز والفخر ، والارتفاع به الى مستوى من التعالى والخيلاء ، يجعله فى مكانة من الفضل • اذا نظرت اليها المرأة ازداد اعجابها به ، وحبها له ، واطمئنانها الى أنها قد ظفرت بانسان تطول هامتها حين تتحدث زميلاتها عن أزواجهن ، لأن الله سبحانه وتعالى الذى جمله بالعقل ، وكمله بالرأى ، وخصه بجعل الزمام فى يده ، أسعفه بالمال الذى يلبيه عند الحاجة ، والثروة التى ينفق منها عند الطلب ، فلا ينالها امتهان ، ولا يطاردها فقر ، ولا يرغم أنفها خصاصة ، والرجل هو هذا الذى يكد ويجد • ويعمل ويسعى • ويتحمل المتاعب ، ويلاقى الهوان ليوفر لامرأته السعادة كلها ، ولا يستحق شيئا من هذا العنوان اذا قصر فى وظيفته ، أو تخلى عن واجبه ، وهكذا كان قوله جل وعلا « الرجال قوامون على النساء » ، ويقول فى موضع آخر « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فيحيط هذه الرجولة بوصفين من أجل ما تكون **الأوصاف** ، وأحسن ما تكون النعوت ، وأنبل ما تكون الخلال أو الخصال ، الايمان وصدق العهد ، وهل يملأ انسان ثيابه **اعتزازا بانسانيته** ، وفخرا بآدميته، وتعاليا بنفسه ، وثقة بمكانه الذى يتحيزه فى البيئة التى يعيش فيها ، أكثر من كونه مؤمنا صادق العهد ، وهما المعنيان اللذان يجعلانه واقفا على أرض صلبة لا تهتز تحت قدميه ، ولا تدور به ، ولا تشيع فى قلبه الشك فى جدارته بالحياة ، واستحقاقه للعيش ، وكفايته للآدمية الكريمة •• وفى نصاب الشهادة يجعل الدين الحنيف الواحد من الذكور عدل امرأتين اثنتين فيقول : « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » وهو تقدير له ، **واعتراف بأن** خصائصه ومزاياه تسلط عليه الأضواء ، وتبرز به فى ميدان الاعتبار والاحترام ، ولا يدور بخلد أحد أن الرجولة هى الرجولة فى الدين وفى غيره لأن

اللغة لا تفرق بين الذكر من بنى آدم فى حالاته المتنوعة ، أو أوقاته المتباينة ، وانما هو رجل فى قواميسها ومعاجمها سواء اشرأبت اليه الأعناق ، وأكبرته النفوس • ولهجت بذكره الألسنة ، أمكان من هؤلاء الذين تختنق بهم الأجواء ، وتلفظهم الأمكنة ،وتتبرأ منهم الانسانية • ولا تطمئن بهم الأرض •• وربما كان هذا صادقا الى حد ما لو أننا كنا نبحث الكلمة أو ندور معها عند اللغويين • أما وهى « رجولة المسلم » فان لها اعتبارا آخر من غير شك ، لأن الاسلام هذب الألفاظ ، وخصص المعانى ،وجاء للناس بمفاهيم جديدة أضافها الى الحقائق ، وأدخلها على الأشياء ، وحينما كانت الجاهلية ترى الرجولة فى العضلات المفتولة ، والسواعد القوية ، واقتحام الغارات ، والانتصار فى الحروب ، والفتك كل الفتك بالأعداء ، كان لها عذرها فى ذلك ، وكان احاطتها للرجولة بتلك المواصفات مقبول على العين والرأس • لأنهم كانوا يباهون بالشجاعة والاقدام • وسفك الدماء وازهاق الأرواح • ومناعة الكلأ ، وحماية الوحوش ، فاذا استرعى فى أرضهم دخيل ، أو اصطاد من صحرائهم غريب ، عدوا ذلك كله تطاولا عليهم ، واستباحة لذمارهم ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بذلك ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بدينه الذى جاء به ، وكتابه الذى جعله فى يمنه ، كانت الرجولة عنده طرازا آخر يتنافى مع حياة الأدغال والوحوش ، والعدوان الظالم ، والاغتصاب القبيح • والفتك المرذول ، وتجاوز الحدود تجاوزا يخرج بصاحبه عن حدود اللياقة والذوق ،ولهذا كان فى استقبالهم له مشوبا بالاحترام والاجلال ، ولم يشكو بعضا من الشك فى أنه مصلح اجتماعى من نسق لم يدر الا فى خيال الشعراء وأوهام الفلاسفة • ومن ذا الذى ينكر عليه تلك الوقفة النبيلة ، والصيحة الكريمة ، والدعوة المثلى ، وهنا ينادى هذه الأمة ذلك النداء العظيم الذى يضعها فى قمة الانسانية من الصواب

والحق ، والانصاف والعدل ، والاعتدال فى الرأى ، والتزام الجادة الصحيحة فى المعاملة « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » والرجولة تعتمد على الحق . وتقوى فى أجواء العدالة ، وبيئات الانصاف ، والله جل جلاله خلق السماوات والأرض بالحق ، وجعل عمارة الدنيا بالحق ، وسمى نفسه الحق ، وليس هنالك مكرمة من المكارم للرجولة اليها انتساب . الا وأنت واجد الحق عمادها الذى تعتمد عليه .. وعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وهو أبرز مثل للرجولة فى الاسلام لم يكن فى سلوكه اسفاف . ولا فى تصرفه هوى . ولا فى خلقه ضعف ، ولا فى حكومته جنف ، ولا فى سياسته التواء ، ولا فى معاملته ما ينفر الناس منه .. وربما كانت اللغة تطلق كلمة الفسولة على ما يقابل الرجولة ، لأنها تجمع فى ثناياها اللؤم والخسة .. وخصال الشر كله ، فعادم الشرف ، وفاقد المروءة ، وناقص الذوق ، وبليد الحس ، وخائن العهد ، وملوث العرض ، لا يمكن أن يكون رجلا . الا اذا تبدلت الأوضاع . واتكست المعايير ، وفسد المنطق ، وخربت الذمم ، وأصبح الناس يخافون سلطان الباطل .. وكلمة انسان تقوم مقام كلمة رجل فى بعض الأوقات الا أن الفرق بينهما دقيق ، لأن الانسانية رقيقة على طول الخط . لا تسلك سبيل الجفوة ، ولا تنحو منحى الشدة . ولا تستعين بسوط الجلاد أبدا ، وانما هى رحمة كلها حتى مع الخصوم الدين يحاربون دعوتها . أو ينقمون عليها ، وليست كذلك الرجولة التى قد تأخذ بالشدة ، وتلتجىء الى العنف ، وتجعل فى احدى يديها العصا ، لأنها قد تقف موقف المؤدب أو المربى ، وعلى كل حال لم تكن الرجولة فى وقت من الأوقات ناعمة نعومة الحرير وأصحابها قد يحملون أنفسهم على المكروه ،ويأخذون طباعهم بالعنف ، ويلزمون جوارحهم بالشدة ، ويتحملون فى سبيل مبادئهم

الأذى ، وهى معاناة وجهاد على طول الخط ، ونسبها بعد هذا وهذا يلتقى مع الانسانية ويمتزج بها امتزاج الدم بهيكل الانسان ، والرجل الحق أو الرجل كل الرجل هو هذا الذى يضيف الى رجولته انسانية حلوة يحتل بها نفوس الأخيار الذين تفيض ألسنتهم بالدعاء له ، والثناء عليه ، لأن الرجولة أقصى ما تناله من المعاصرين اعجاب وتقدير ، واجلال واحترام ، لكن الانسانية معنى آخر يشبه المعانى الملائكية التى تطغى فيها الروح على العقل ، ويسيطر فيها الوجدان على الفكر ، وقد يعجب الانسان اعجاب اكبار وتقدير لشىء يبغضه أو يكرهه ، ولكنه لا يدعو أو يتمنى التمنيات الطيبة الا للشىء الذى يطغى فيه الجانب الانسانى على ماعداه وهذا هو فرق ما بين الرجولة والانسانية .

الحرية

الحر : هو الذى لايكون مملوكا لأحد ، ويقابله العبد وهو الذى يكون مملوكا لسيد يتصرف فيه بالبيع والشراء والهبة والوصية والرهن ، وما شاكل ذلك من أنواع المعاملات التى يملكها صاحب السلعة المنقولة أو غير المنقولة . ومن معانى الحر — كذلك — الخالص الذى لم يدخل فى حقيقة تكوينه . أو عناصر تركيبه ، عنصر أجنبى غير عنصره الأصلى .. ولعل كلمة حر فى الانسان — فى بادىء الأمر — كانت تعنى ما فى داخله من الطاقة الحرارية التى تحمله على أن يثور على الأوضاع الباطلة ، والأمور الشاذة ، وكل ما يتنافى مع ما تتطلبه الآدمية من الكرامةوالعزة ، والاباء والشمم ، وعدم الاستجابة الى ما من شأنه أن ينزل به عن المستوى اللائق بالانسان الذى يتطلع الى أن يأخذ مكانه فى الوجود علىقدم المساواة مع غيره من أبناء آدم وبنات حواء دون ما شىء من العنف أو الشدة ، وعلى هذا يظهر جليا معنى الكلمة ، وتتضح قيمتها فى موازين الألفاظ ذات الاعتبار والتقدير ، وصراع البشرية فى كثير من الأزمنة والأمكنة قديكون السبب الباعث

عليه • أو المحرك له ، هو طلب الحرية للذين يفقدونها ، أو الدفاع عنها ، والقتال دونها عند من يجدونها أو الذين حصلوا عليها ، وذاقوا حلاوتها ، وربما رأينا ذلك المعنى نفسه — معنى الطلب أو الدفاع — فى الحيوانات الأخرى التى تقاوم الضغط ، وتثور لتحديد الاقامة ، ونصرخ اذا أعوزتها الحيلة فى فك قيودها ، وتحطيم أغلالها ، وتهيئة الجو الطليق الذى تنشده • والانسان الأول الذى كان يعيش فى الأدغال والأحراش مع الحيوانات لم تكن تقيده قيود فى حله وترحاله ، أو صحوه ونومه • فلما تطور به العيش ، وتقدمت به الحياة • وطغى سعار الأنانية ، كان لا بد من تهذيب هذا الانطلاق الأهوج ، والتحلل الطائش ، وهنالك وقفت فى وجهه القوانين ، وحدت من نزواته الدساتير ، وهذبت طموحه الشرائع ، وقومت عوجة النظم ، الا أنها — مع هذا كله — لم تبلغ درجة تسلب فيها اختياره ، وتقضى على ارادته ، وتجعله سلعة فى رأس مال أجنبى ، أو نفوذ طارىء ، أو سلطان مفروض ، أو قدرة تسيطر على قدرته ، وتهدر حقوق آدميته ••• وأنت ترى اذا نظرت الى هذا النزوع فى الحيوان أو الانسان أن هذا المعنى فطرى — لا محالة — يميل اليه الطبع ، ويهفو اليه دائما أبدا الاستعداد ، ولهذا فان مهمة الشرائع أو القوانين بالنسبة اليه لم تكن أكثر من التهذيب أو التوجيه حتى لا تكون هذه الحرية مغتصبة من الغير ، أو طغيانا على حقوق الآخرين ، ولابد أن يعلم من ينشدون الحرية ، ويقطعون من أجلها المسيرة الطويلة ، أو يتحملون الجهد الشاق ، أنها تشبه السيف فى يد الجندى فى الميدان الذى لا يحمله اعتباطا ، وانما يكون ذلك بعد أن يتعلم كيف يستطيع أن ينال به مقاتل عدوه ، ويذود عن حياض أوطانه ، ويكسب به لنفسه ثم لأمته شرف الجندية الكريمة التى تجعله لبنة طيبة فى بناء مجد شامخ لهذا الشعب العظيم الذى

ينتسب اليه ، وتعلم الأمة أبناءها مختلف أنواع العلوم الصناعية والزراعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لتكون تلك الحرية فى أيديهم سلاحا يذودون به شرور الغاصب ، ومطامع المستعمر ، وكيد الأجنبى .. ونرى الآباء لا يمنحون هذا الحق لأبنائهم وهم فى سن الطفولة ، وغرارة الصبا ، وطيش المراهقة ، فاذا ما شبوا عن الطوق ، وأطمأنوا الى رشدهم . وأنسوا الى تمام وعيهم وادراكهم .. وحسن تصرفهم منحوهم اياها فى ثقة وأمل ، وارتياح ورغبة ، طامعين فى أن يكون لهم من نضوج العقل ، واكتمال السن ، وكثرة التجارب ، شفيع الى هذا الصنيع معهم ، أو باعث على المنهج السليم ، والقصد الصحيح ، ولقد عرف العربى دون غيره من شعوب العالم بتطلعه للحرية ، وطلبه لها ، ورغبته فيها ، وجهاده من أجلها ، واراقته الدماء فى سبيل الوصول اليها .. والرق الذى جاء الاسلام فوجده هنالك كان طارئا من البلاد المجاورة لهم الداخلة فى نفوذ الفرس أو الرومان . ولهذا لم يلبث أن قضى عليه ، وقاومه بالأساليب المختلفة ، ولعل فى كلمة عمر بن الخطاب ـ المشهورة ـ « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ما يؤيد ذلك .. واذا كان النحل ضروريا للعسل يحرسه من العدوان ، ويذود عنه الشر . ويدفع الواغل ، ويرد المغير ، فان الحرية تحتاج الى من يحرسها من قوى الشر ، وعصابة السوء ، لأنها لا تعطى عفوا ، أو تمنح اعتباطا ، أو تبذل بذلا رخيصا ، وانما هى للمكافحين المجاهدين الذين يضعون أرواحهم على أيديهم . ولذا فقد اشتهر على الألسنة قولهم « الحرية الحمراء » كناية عن كونها لا تتحقق الا للذين جاهدوا لها ، وكافحوا من أجلها ، وكأن ذلك الدم الذى أريق فى سبيلها ، وسفك للحصول عليها ، وأية أمة من الأمم لا تزعم لنفسها ولا للناس أنها وقد حصلت عليها أو تفيأت ظلالها ، كانت نسبتها المئوية منها مئة فى المئة ، وانما هى الى جانب ما تنعم به منها

تعانى ـ كذلك ـ كبتا وضغطا وتحديدا للحركة والسكون أو القول والفعل ، ومن المسلم به أن الاسلام الذى رفع لواءها ، وأعلى منارتها ، وغالى بقيمتها قد ضيق نطاقها فى بعض الأحوال ، وجعل الأفراد مقيدين بما الزمهم به من التكاليف ، وربطهم به من الأوامر والنواهى . والرجل لا يسرف فى ماله ولا ببذره ، ولا يوصى منه بما يزيد على الثلث ، ثم هو ينحى عن التصرف فيه ان كان غير رشيد ، بل ان الأكثر من ذلك كله أن رجال القانون يقولون : ان الملكية وظيفة لا حق ويرتبون على ذلك أن صاحب المال اذا لم يحركه على وجه يفيد المجتمع ، ويعود عليه بالمغانم ، يعزل عنه ، ومثل ذلك الأرض الزراعية اذا تعطلت عن الاستغلال ، ووقفت عن العطاء ، وليس بحد هذا القول موضع لشك فى أننا ـ كما يقول علماء العقيدة ـ مجبورون باطنا وان كنا مختارين ظاهرا ، وعلى ذلك فنحن ننتهى من هذا الحديث الذى قدمناه الى الاعتراف بأن الانسان حر من عبوديته للناس ، وربما كان غير حر لأنه يرسف فى قيود وأغلال تحد من تصرفه وسلوكه ، وقوله وفعله ، وماينال الفرد أو الجماعة من الضرر والأذى الناجمين عنه أو الحاصلين منه .. ومن هنا كان لابد من أن نقول ان الحرية تحتاج من الذين يتطلعون اليها ، ويحاولون الحصول عليها ، الى تربية خاصة . تقوم على ثقافة وعلم ، ورأى وفكر ، وأدب وذوق .. وادراك ووعى ، يجعلهم أهلا لها ، وهى كالسيف الذى لا يكفى له أن يكون ماضيا صقيلا ما لم تكن اليد التى تقبض عليه قوية ، والعين التى ترسله ذات بصر حصيف يصرفه فى مقاتل العدو ، والا فهو قطعة من الحديد ، يعلوها الصدأ ، وتقتحمه الأعين ، وتدوسه الأقدام ... والطفل الذى يربيه والده ، أو يرعاه أستاذه ، لا يمكن أن تبذل له الحرية جزافا ، أو تمنح له عن سخاء وأريحية ، دون أن يسبق ذلك ضغط وقسر . وحرمان ومنع . حتى اذا ما أطمأن

أهله أنه شب عن الطوق • وآنسوا منه الرشد ، وتجاوز سن الرعاية والحيطة ، أجازوا له أن يتصرف ، وأذنوا له فى الانطلاق من القيود والأغلال ، وجعلوه فى عداد الرجال الذين ارتفعت عنهم الوصاية ••• والثورات التى تقوم على ظلم وطغيان • واستعمار واستغلال • وما يشبه ذلك من العبودية والعسف ، والقهر والسيطرة ، لا تمكن للحرية كل التمكن ، الا بعد أن تجتاز مرحلة من الحكم الاستبدادى ، تخضع به الفوضى وتكبح به جماح الطيش • وتساعدها على أن تقلم أظافر العدو ، وحينئذ تبنى الجيش ، وتصحح الأوضاع ، وتقف على الأرض الصلبة التى لا تميد بها ، أو تتزلزل من تحت أقدامها ، ثم ترخى بعد ذلك كله فى العنان بقدر ما ، من غير أن يكون فى ذلك ضرر ولا ضرار ، وربما أعطى انسان نصيبه منها وحرم آخر اقتضت المصلحة العامة حرمانه •• وكثيرا ما أشفق العقلاء والفلاسفة على هؤلاء الذين ينادون بالحرية • أو يتحدثون عنها أن ينسيهم بريق الكلمة ماوراء ذلك من خطر سوء الاستعمال ، أو اعطائها لغير أهلها ، فان الخير لا يكون خيرا الا اذا أعطى للذى يستحقه ، ويحسن التصرف فيه ، والانتفاع به •

د • ابراهيم على أبو الخشب

من قضاة الاسلام

أبو عبد الله بن الأزرق

الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد

صنع الاسلام قضاة أضاءوا بعدلهم المشرق والمغرب بل الدنيا كلها ،واسهموا بعلم ينتفع به من بعدهم ، ومنهم من نال الذكر فى حياته وبعد مماته ، ومنهم من طوى الموت ذكره الى أن شاء الله أن يظهر بعض تراثه فبان مكانه من الدين الدنيا ، من هؤلاء : الامام أبو عبد الله بن الأزرق •

معالم حياته :

* ولد أبو عبد الله بن الأزرق « وكامل اسمه محمد بن على بن محمد بن على بن قاسم بن الأزرق الأصبحى » فى ٨٣٢ هـ ــ ١٤٢٧ م بمالقة «مدينة بالأندلس المفقود» من أسرة يبدو لنا انها لم تكن من أهل العلم ولم تحظ بالشهرة ، وشغلتها أعباء الرزق عن طلب العلم ، فمراجع المكتبة الأندلسية وكتب التراجم التى بين أيدينا لا تعيننا على القاء الضوء على تلك الأسرة بيد أن هذه الأسرة بغير شك تغاير أسرة الأزرق التى أشتهرت فى المشرق بالدراية بعلم الحديث وأخبار التاريخ فلم يثبت لدينا انتقال أى أفرادها الى الأندلس أو المغرب • ويبدو لنا أن الأزرق لصفة جسدية فيه أو فى أحد أصوله •

* استظهر ابن الأزرق ، منذ الصغر القرآن الكريم ووعى تفسيره وخاصة تفسير الامام ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) الذى يعد من أطيب التفاسير وأكثرها اشارة الى ما ينقله مؤلفه من مصادر ، واعتمادا على البيان القرآنى بالقرآن وصحيح السنة والتعويل على رأى أهل السلف ،

وقد تلا ابن الأزرق هذا التفسير على ابن اسحاق ابراهيم بن احمد البدرى وفقا لما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع • كما حفظ ابن الأزرق كثيرا من أشعار العرب • وتفقه فى النحو والمنطق والفقه على يد معلمه الكبير الذى كان له أثره الكبير فيه ، وكثر انتفاعه من علمه وهو مفتى غرناطة أبو اسحق ابراهيم ابن أحمد بن فتوح (المتوفى سنة ٨٦٧ هـ) وقد كان هذا الأستاذ العظيم يعود تلاميذه على الرجوع الى المصادر وان يعمل الطالب فيها عقله وفكره بالتحليل والتحقيق ليصل الى وجه الحق فى المسألة المعروضة بالدليل وليكون للباحث لديه شخصية مستقلة • يقول لنا المقرى فى نفح الطيب عنه : «كان يفسح لصاحب البحث مجالا رحبا ، ويوسع المراجع له رحبا وقبولا بل يطالب بذلك ويقتضيه• ويختار طريق التعليم به ويرتضيه توفيقا على ما خلص له وتحقيقه ، ووضح له فى معيار الاختيار توفيقه ••• » ، كما زاد تفقه ابن الأزرق فى الفقه المالكى على أحفظ الناس لمذهب مالك فى عصره وهو الامام محمد بن محمد السرقسطى المتوفى عام ٨٦٥ هـ ودرس الأدب على يد الامام محمد بن زكريا بن الجبير الحصيبى الذى كان يعد من أهل السنة والجماعة وشديد الانتقاد للمعتزلة عامة وللزمخشرى خاصة •

* عندما بلغ ابن الأزرق أشده واستوى على العلم بالفقه وشهد له بالورع عين قاضيا لغرب مالقه وكان عمره قرابة السابع والثلاثين هجرية ، وظل ينتقل فى عمله القضائى ويرتقى فيه حتى وصل الى قاضى القضاة بغرناطة • ومكث فى القضاء بالأندلس المفقود قرابة عشرين عاما مشتهرا عنه أنه من قضاة العدل والانصاف • وكان سلطان بنى نصر يؤثره بسره ويستشيره فيما يلم به من المعضلات لما تلمس فيه من فقه للواقع وذكاء وقدرة على وضع الامور فى نصابها ، وكثيرا ما بعثه رسولا عنه

لحل مشاكله مع الملوك النصريين بيد أن الخلاف والقتال بينهم وقد وصل مداه ، مكن لطاغية الأسبان من دخولها • وقد حدا ذلك بابن الأزرق أن يتوجه الى المشرق ليحث ملوك الاسلام وامراءهم على نجدة صاحب غرناطة يقول لنا المقرى عنه تلك الفترة « واستنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس فكان كمن يطلب بيض الأنوق » فقد كان السلطان مشغولا بقتال سلطان الروم فتوجه ابن الأزرق الى مكة المكرمة وجاور فيها مدة وزار النبى صلى الله عليه وسلم •

* رجع ابن الأزرق الى مصر فى سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وأصبح فى حاجة الى أن يسند اليه عمل يكتسب به رزقاو قد نفذت موارده المالية ، فاسند اليه ما هو أهل له من تولى قضاء المالكية بالقدس الشريف فى رابع رمضان تلك السنة فوصل القدس فى سادس عشر من شوال سنة ست وتسعين ، وأقام نحو شهر ينزل الأحكام على مقتضى الشرع بعفة ونزاهة ••• ثم مرض واستمر الى أن توفى فى يوم الجمعة بعد فراغ الصلاة سابع عشر ذى الحجة الحرام سنة ست وتسعين وثمانمائة وصلى عليه فى يومه بعد صلاة العصر بالمسجد الأقصى •

وكثر أسف الناس على فقده •

ابن الأزوق والقضاء أ

لم نقف على نماذج من أحكام ابن الأزرق القضائية لنقوم بتحليلها ولكن ما كتبه ابن الأزرق عن القضاء والعدل يعين على فهم الرجل وبيان آرائه القضائية :

* فهو يرى أن القضاء من أجل المناصب ، لأنه دخول بين الخالق والمخلوق ليؤدى فيهم أوامره وأحكامه بواسطة الكتاب والسنة ، وبه يقمع الظالم وينصر المظلوم ، ويحفظ النظام ويدفع الضرر العام • وأنه واجب أن يكون بين الناس قضاء وقضاة ، وان على الامام « رئيس الدولة » اختيار القضاة من الكفاة من أهل العلم

والورع ، وان يوسع عليهم أرزاقهم من بيت مال المسلمين ، وأن يتفقد أحوالهم ، ومن غلب جوره وكان فى بقائه مفسدة عزله ، بيد انه لا يعزل لمجرد الشكوى بل عليه ان يتثبت ويستقصى حتى لا يفسد أمر القضاء والقضاة .

* ويقول ان غاية القضاء والحكم تحقيق العدل بين الناس ، والعدل أساس الشريعة به يتولى الأمناء والأكفاء فى كافة الولايات وتحفظ الأنفس والأموال والأعراض .

* ويحث القضاة على بذل الجهد وتحقيق العدل وان المسابقة فيه تقرب صاحبه من التقوى ومحبة الله له باجابة دعائه ، ويتحقق له الأمن والطمأنينة النفسية ويملك به سرائر الناس ويدوم به الملك والرخاء .

* ويؤخذ برأى ابن القيم الجوزية الحنبلى فى شأن تحديد اختصاصات القضاء وموضوعاته بأنها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وتستفاد بما جرت به العادة واقتضاء العرف فى كل قطر .

آثار ابن الأزرق :

* لم يظهر من مصنفات ابن الأزرق حتى الآن سوى كتابه « بدائع السلك فى طبائع الملك » وهو كتاب فى علم الاجتماع السياسى يدل على أصالة ابن الأزرق العلمية وسعة ثقافته ، وقد قام بتحقيق الكتاب الأستاذ الدكتور على سامى النشار استاذ الفلسفة الاسلامية المصرى والذى يشارك بجهده العلمى بجامعة الرباط بالمغرب حاليا ، ويقع الكتاب فى قرابة ألف صفحة ويحتوى على مقدمتين وأربعة كتب على النحو التالى :

الكتاب الأول : فى حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرئاسة .

والكتاب الثانى : فى أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا .

والكتاب الثالث : فيما يطالب به السلطان تشييدا لأركان المملكة .

والكتاب الرابع : فى عوائد الملك وعوارضه .

ويرى المقرى فى نفح الطيب ان هذا الكتاب لخص فيه ابن الأزرق كلام ابن خلدون وأضاف اليه زيادات كثيرة . وكلمة زيادات كثيرة تعادل فى عصرنا أنه قدم جديدا للعلم يسند اليه ويحتج له به . فان كان ابن الأزرق يتفق مع ابن خلدون فى اتخاذ المنهج الاستقرائى الاصولى فى تفسير الظواهر الاجتماعية بتحليل الواقع فقد كانت غاية ابن خلدون تفسير التاريخ واستخلاص المبادىء التى تحكمه وقد تعرض من خلاله الى أطوار الدولة وانتهى فيها الى حتمية اطوارها بينما غاية ابن الأزرق بيان اخلاقية الحاكم وأخلاقية المحكوم ويرى ابن الأزرق أن الدولة تعيش ابدا اذا تحققت القيم بين الحاكم والمحكوم ولم يحدث النزاع والصراع بينهما ولذلك يتعرض فى كتاب بدائع السلك لمسئولية الحاكم اتجاه رعيته واتجاه جنده وان فساد المجتمع الذى عاصره راجع الى ما أصابه من فساد خلقى ومادى وانحلال اقتصادى لانعدام الثقة بين الحاكم والمحكوم .

ويتميز ابن الأزرق عن ابن خلدون بأنه قد أشار فى كتابه الى غالب مصادر من سبقه على عكس ابن خلدون الذى كان يخفى جل مصادر مادته العلمية . وهو بذلك قد ألقى الضوء على المصادر التى استقى منها ابن خلدون مادته العلمية . بل ان تنوع مصادر ابن الأزرق ظاهرة جديرة بالاعجاب فقد فاق ابن خلدون ومعظم كتاب الفكر الاسلامى فاستند الى كتب متنوعة : فى علم السياسة الخالص، والبعض فى التاريخ والآخر فى الجغرافيا وفى كتب الرحلات ، وكتب الأدب ، وكتب الفقه واصوله ولم يكن يفعل هذا لبحث الموضوعات الجزئية لهذه العلوم المختلفة فى ذاتها بل لتدعيم نظريته ورؤيته فى الاجتماع السياسى ويدل هذا الكتاب بوضوح على أن ابن الأزرق استوعب ثقافة سابقيه

ومعاصريه واستطاع منها أن يقدم جديدا للعلم .

* حقيقة كتاب الابريز المسبوك فى كيفية آداب سير الملوك :

أشار خير الدين الزركلى فى كتابه الاعلام عند ترجمة ابن الأزرق أن له كتابا باسم « الابريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » وان الكتاب ما زال مخطوطا ، وقد استقى ذلك من المستشرق الالمانى بروكلمان فى ذيله على تاريخ الأدب العربى ، وقد تابع بروكلمان جورجى زيدان فى تاريخ الآداب العربية ، وقد كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان مقالا بعنوان : « كتب تأثرت بابن خلدون » فى مجلة العربى الكويتية فى يناير ١٩٧٤ أشار فيه الى أن كتاب « الابريز المسبوك » تأثر بابن حلدون وان ابن الأزرق ، ألف هذا الكتاب قبل كتاب « بدائع السلك » .

وأنكر الدكتور النشار وجود هذا الكتاب واستند الى أنه لم يعثر عليه وان ابن الأزرق لم يشر الى كتاب « الابريز المسبوك » فى كتابه بدائع السلك .

وقد أتاحت لنا فرصة الأعارة للتدريس بالجامعات الجزائرية منذ بضع سنوات أن نقف على مخطوطة لابن الأزرق بعنوان « الابريز المسبوك فى كيفية آداب سير الملوك » بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة وقد أتيح لنا فرصة الاطلاع عليها وتصوير أجزاء منها وقد تبين لنا من الاطلاع على هذه المخطوطة انها ناقصة من البداية وكتب فى أولها « الحمد لله ، هذا أول ما وجد من هذا التأليف الجليل المسمى بالأبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك ،للامام الأعلى القاضى الأكمل العلامة الأجل : أبو عبد الله ابن محمد بن على بن قاسم بن الأزرق الأصبحى . وافتتحه بالكلام عن الجباية ، وأنها حبس توزع على القبائل وذوى العصبية .. ثم تكلم بعد ذلك عن الركن الخامس : وهو تكثير العمارة والسادس : اقامة العدل ، والسابع : تولية الخطط الدينية من امامة الصلاة ـ

والفتيا والتدريس والقضاء والعدالة والحسبة والسكة والركن الثامن : ترتيب المراتب السلطانية وهى الحجابة والكتابة وديوان العمل والحجابة والشرطة .

والركن التاسع : رعاية السياسة والعاشر : مشورة ذوى الرأى والتجربة ، والحادى عشر : بذل النصيحة ، والثانى عشر : أحكام التدبير ، والثالث عشر : تقديم الولاة والعمال ، والرابع عشر : اتخاذ البطانة أهل البساط ، والخامس عشر : تنظيم المجلس وعوائده ، السادس عشر ، تقرير الظهور والاحتجاب والركن السابع عشر : رعاية الخاصة والبطانة ، والثامن عشر : ظهور العناية بمن له حق أو فيه منفعة ، والركن التاسع عشر : مكافأة ذوى السوابق ، والعشرون : تخليد مفاخر الملك ومآثره . ثم تعرض للباب الثانى : فى الصفات التى تصدر بها تلك الأفعال على أفضل نظام وهى : العقل ، العلم ، الشجاعة ، العفة والسخاء والجود ، الحلم ، كظم الغيظ والغضب ، العفو ، الرفق ، اللين ، الوفاء بالوعد ، الصدق ، كتم السر ، الحزم ، الدهاء والتغافل ، التواضع ، سلامة الصدر من الحقد والحسد ، الصبر ، الشكر .

ثم تعرض الكتاب الثالث لمقدمة فى التحذير من محظورات تخل بذلك المطلوب شرعيا فى بابين الأول : فى جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان ومن يليه . والثانى : فى واجبات يلزم السلطان سياسة القيام بها وفاء بعهدة ما تحمله .

وتكلم فى الكتاب الرابع عن عوائق الملك وعوارضه فى بابين. الأول : فى عوائق الملك المانعة من دوامه . والثانى فى عوارض الملك اللاحقة لطبيعة وجوده ويشير فى الباب الثانى انه أتى بها ملخصة من كلام ابن خلدون رحمه الله .

وتعرض لخاتمة فى سياستى المعيشة والناس .

وانتهى الكتاب بقول للامام على بن أبى طالب رضى الله عنه

ناعت له (أى الرسول) لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم .

ويبدو لنا ان ابن الأزرق أهدى الكتاب لسلطان بنى نصر فالثابت انه سماه « الأبريز المسبوك فى كيفية أدب سير الملوك » .

واستمحنته لهذا المقام العلى نصرا بتخليد الأثر الحميد وافيا وللصدور على الدوام من تعاقب الشهور والاعوام شافيا ثم يدعو له بقوله : « اللهم افتح له فتحا مبينا واره نور الهدايات لنهاية البدايات مستبينا ، اللهم أصلح برعايتك أحواله ، وسدد باهتدائه العالم اقتداءه أفعاله وأقواله ، اللهم حقق به صلاح العباد والبلاد ، وأيده على طغاة الكفار بسيوفه المضية الشفار فى مواقف الطعن والجهاد . اللهم كن له ناصرا ومعينا ، وشرع به للملك الحميد الخلال موارد عذبة الذلل معينا . اللهم أجعل ذكره على مر الدهر باقيا وسعده الى أرفع معارج الظهور راقيا واللهم خص وزيره الحميد المذاهب المخصوص بمواهب الكمال وكمال المذاهب بتوفيق يسود آراءه وينجحها .

وثابت ان ابن الأزرق انتهى من تبييض الكتاب فى يوم الأحد السابع لرجب عام ثلاثة وثمانيين وثمانمائة . وكان الفراغ من تصنيفه يوم السبت الرابع عشر من محرم العام المذكور وذلك بمدينة واد آش المحروسة وتبين من المقارنة بين مخطوطه لأ الابريز المسبوك فى كيفية أدب سير الملوك » وكتاب بدائع السلك فى طبائع الملك أن الأول هو الأصل الذى أهداه الى حاكم عصره فى سنة ٨٨٣ هـ .

* كتاب روضة الأعلام بمنزلة العربية من اعلام الاسلام :

يقول المقرى فى هذا الكتاب انه : « مجلد ضخم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف فى فنه مثله ، وأنه قد وقف عليه — المقرى — بتلمسان » وتوجد أكثر من نسخة له مخطوطة بمكتبات المغرب .

والكتاب موسوعة أدبية كبيرة

تتضمن موضوعات شتى من التراث العربى الاسلامى وهو يشابه كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينورى .

ولقد تعمدنا أن نعرض لرؤوس الموضوعات وعناوين الكتاب ليتسنى للمقارن بين كتاب « الابريز المسبوك » و « بدائع السلك »

ان يصل الى أنهما كتاب واحد ، ولا يعدوان أن يكون العنوان الأول هو النسخة المهداة من ابن الأزرق لحاكم عصره سلطان بنى نصر ، وتتميز هذه المخطوطة عن المخطوطات التى حقق عليها الدكتور النشار بدائع السلك بمايلى :

أولا ــ كشفت عن تاريخ تصنيف الكتاب « بدائع السلك » أو « الابريز المسبوك » .

فالثابت من نهاية مخطوطة ابن الأزرق فرغ منها فى ١٤ من المحرم سنة ٨٨٣ هـ بمدينة وادى آش ، أى أن سن ابن الازرق كان قد جاوز الخمسين من عمره وهى فترة تمام النضوج وكماله .

ثانيا ــ يبين من الدعاء لحاكم عصره أنه فى حالة حرب وجهاد مع الأعداء ، كما تتضح الظروف التى كتب فيها الكتاب والحالة التى كانت عليها الاندلس وقتذاك .

والأمل المعقود فى ذلك الحاكم فهو يقول : « واستمحنته » ..

* كتاب شفاء الغليل شرح مختصر الخليل :

وهو فى شرح الفقه المالكى يقول فيه صاحب نفح الطيب انه رأى ثلاثة أسفار منه وقد قرأ خطبة الكتاب) وقد أتى فيها ابن الأزرق بالعجاب) فيقول : « هذا الشرح لم يؤلف على مختصر الخليل مثله : اقناعا ونقلا وفهما ، وقد رأيت منه نحو الأسفار الثلاثة ، ولا أدرى هل أتمه أم لا وتمامه يكون فى نحو العشرين سفرا . وقد كتب بتلمسان خطبة فى كراسة وقد أتى فيها بالعجاب » .

تناول فى هذه المقدمة أهمية مختصر الخليل فى الفقه المالكى ، وتصدى لبيان أصول المذهب

المالكى ، وبيان منهجه ومصادره فى شرح هذا المختصر .

ويوجد مخطوطات لهذا الشرح بالمغرب .

ونختتم مقالتنا بثناء أئمة التقوا بابن الأزرق وعاصروه فيقول السخاوى المؤرخ الثقة فيه وقد التقى به فى مصر (رأيته من رجال الدهر) أى أن ابن الأزرق فى نظره كان عبقريا .

ويقول قاضى القضاة أبو اليمن العليمى (الحنبلى) فى الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل فيه : « كان من أهل العلم والصلاح حسن الشكل ، منور الشيبة عليه الأبهة والوقار .. من قضاة العدل .. باشر الحكم .. بعفة وتقوى وسيرة محمودة ثم لحق بالله سبحانه والناس عنه راضون» .

ولا يسعنا الا أن نقول رحم الله ابن الأزرق بما قدم من علم ينتفع به ووفق المهتمين بابراز التراث الاسلامى الى تحقيق ونشر باقى تراثه — والله الموفق — والحمد لله رب العالمين .

فؤاد عبد المنعم احمد

دعـــــاء

يا قهار يا حكيم ... نعوذ بك من شر ما خلقت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت واردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك عز الدنيا والآخرة .

اللهم انا نسألك أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وجرى به قلمك وأحاط به علمك ، وأكمل ديننا ، وأتمم علينا نعمتك .. وهب لنا الحكمة البالغة والحياة الطيبة والموتة المطهرة . يا سميع يا مجيب .. يا الله .

أبو الحسن الشاذلى

الشريعة والحقيقة

لفضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين وبعد أ

فقد أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال : يا محمد ، أخبرنى عن الاسلام ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا •

قال : صدقت ، قال : فعجبنا يسأله ويصدقه •

قال : فأخبرنى عن الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت •

قال : فأخبرنى عن الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه ، فانه يراك •

قال : فأخبرنى عن الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن أمارتها ؟

قال : أن تلد الأمة ربتهـــا ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمـــر ، أتدرى مـــن الســـائل ؟ قلت : الله ورســـوله أعلم . .

قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » اهـ .

بهذا الهدى النبوى المعصوم ، وبهذا الحديث الرائـع الشريف ، جاء تقسيم الدين الى أركان ثلاثة، لذا قال سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لسيدنا عمر :

« فانه جبريل أتاكم يعلمـــكم دينكم » .

ركن الاسلام ، وهو الجـــانب العملى ، الذى يتحقق بالعبادات ، والمعاملات والامـــور التعبـــدية ، على وجه التمام ..

ومحله الأعضـــاء الجسمانيـــة الظـــاهرة ، واصطلح العلمـــاء على تسميتـــه بالشريعـــة ، واختص بدراسته والقيام بتحصيله : السادة الفقهاء ..

ركن الايمان ــ وهو الجـــانب الاعتقاد القلبى : مـــن ايمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والقضـــاء والقدر ــ خيرهمـــا وشرهمـــا ــ واختص بدراسة هذا الركن السادة علماء التوحيد .

ركن الاحسان ، وهـــو الجانب الروحى القلبى ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ..

وعبادتك لله كأنك تراه ، تجعلك لم تترك شيئا مما تقدر عليه من الخشوع والخضوع ، وحســـن السمت واجتماعك بباطنك وظاهرك على الاعتناء بتتميمها على أحســـن وجوهها وما ينتج عن ذلك مـــن أحوال وأذواق وجدانية ، ومقامات ومشاهدات عـــرفانية ، وعلوم وهبية .

وهذا الركن اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة ، واختص ببحثه السادة الصوفية .

ولكى نبين الصلة القائمة بين الحقيقة والشريعة ، نورد مثلا ، وهو الصلاة ..

فاتيان الانسان بحركات الصلاة، وقيامه بأعمالها الظاهرة ، والزامه بأركانها ، وشروطها يمثل ذلك كله جانب الشريعة ، وهو جسد الصلاة ..

وحضور القلب مع الله تعالى والخشوع له سبحانه فيها ، يمثل جانب الحقيقة ، الذى هو روحها.

فالأعمال البدنية جسدها ، والخشوع وحضور القلب روحها ، وكيف تتأتى فائدة الجسد بلا روح ؟

وكما أن الروح تحتاج الى جسد تقوم وتحل فيه ، فكذلك الجسد يحتاج ايضا الى روح يقوم بها ، ولهذا جاء تعبير القرآن الكريم واضحا بقول الله تعالى :

« أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

ولا تكون الاقامة الا بجسد وروح ، ولذا قال : أقيموا الصلاة ولم يقل سبحانه أوجدوا الصلاة ، لندرك التلازم القائم الوثيق بين الشريعة والحقيقة ولندرك التلازم القائم بين الروح والجسد .

والمؤمن الكامل ، هو الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو توجيه الصوفية للناس ، مقتفين بذلك أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثر الصحابة الأجلاء من بعده رضوان الله تعالى عليهم .

وللوصول الى هذا المقام الرفيع، مقام الايمان الكامل ، لا بد من سلوك الطريقة ، وهى مجاهدة النفس ، والأخذ بيدها من صفات التخلى الى صفات التحلى ، حتى ترقى الى مقامات الكمال بصحبة المرشدين ..

وبذلك تكون الشريعة هى الأساس ، والطريقة هى الوسيلة ، والحقيقة هى الثمرة ، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة ، لاتناقض بينها ولا تضاد .

فمن تمسك بالشريعة ، سلك الطريقة ، ووصل الى الحقيقة ، وليس بين الشريعة والحقيقة تعارض ولا تناقض على ضوء ما أوضحنا .

ومن هنا قال السادة الصوفية فى قواعدهم المشهورة :

« كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة » .

ويقول الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه :

« لا تصوف الا بفقه ، اذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة الا منه، ولا فقه الا بتصوف اذ لا عمل الا بصدق وتوجه لله تعالى ..

ولا هما : الا بايمان ، اذ لا يصح واحد منهما دونه ، فتلازم الجمع لتلازمها فى الحكم ، كتلازم الأجسام للأرواح ، ولا وجود لها الا فيها ،كما لا حياة لها الا بها» اهـ .

فكيف اذن تخالف ، الحقيقة الشريعة ، وهى ناتجة من تطبيقها ؟

يقول الامام مالك رضى الله تعالى عنه :

« من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » .

تزندق الأول : لأنه نظر الى الحقيقة مجردة عن الشريعة ، ولم يعمل بأحكامها ، فكأنه قال بالجبر ، وأن الانسان لا خيار له فى أمر من الامور ، فعطل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها ، وأبطل حكمتها والنظر اليها ...

وتفسق الثانى : لأنه لم يدخل نور الايمان قلبه ، ولم يغمر سر الاخلاص فؤاده ، ولم ينشرح صدره لطريقة المحاسبة ، حتى يحجب نفسه ، عن المعصية ، ويتمسك بأهداب السنة .

وتحقق الثالث : لأنه جمع كل أركان الدين : الاسلام ، الايمان ، الاحسان ، التى اجتمعت فى حديث جبريل عليه السلام ، الذى بدأنا به .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك حفظ علمـــاء التصوف آدابها وروحها ، وكمـا أبيح لعلماء الظاهر الاجتهـاد فى استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع ، والحـــكم بالتحليـل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آدابا ومناهج لتربية المريدين ، وتهذيب أخلاق السالكين .

وسلفنا الصالح ، والصـــوفية الصـــادقون ــ رضى الله عنهم ــ تحققوا بالعبودية الحقة ، والاسلام الصحيح ، حتى جمعوا بين الشريعة والطريقـة والحقيقـــة ، فكانوا مشرعين متحققين ، يهدون الناس الى صراط الله تعـالى المستقيم ، وهديه القويم .

فالدين ان خلا من حقيقته جفت أصوله ، وذبلت أغصانه ، وفسدت ثمرته .

أما هـؤلاء المعترضـــون على السادة الصوفية :

فان كانوا ينكرون هذا التقسيم الى : شريعة ، وطريقة ، وحقيقة ، على النحو الذى بيناه فهم يريدون بذلك لا شك أن يفصلـوا روح الاسلام عن جسده ، وأن يهدموا ركنا هاما من أركان الدين الثلاثة الموضحة فى حديث جبريل عليـه السلام وكبار فقهائه .

يقول ابن عابدين ــ رحمـه الله تعالى ــ فى حاشيته المشهورة برد المحتار :

« الطريقة : هى السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل ، والترقى فى المقامات » .

« والحقيقـة : هى مشـاهدة الربوبية بالقلب ، ويقال : هى سر معنوى لا حد له ولا جهة ، وهى الطريقة والشريعـة متلازمة ، لأن الطريق الى الله تعالى لها ظاهـر وباطن ، فظاهرها الشريعة والطريقة ، وباطنها الحقيقـــة ، والمـراد من الشريعة ، والطـريقة ، والحقيقـة اقامة العبودية لله سبحانه وتعـالى على الوجه المراد من العبد » .

ويقول الشيخ عبـدالله اليافعى ــ رحمه الله تعالى ــ :

« ان الحقيقة هى مشاهـــدة أسرار الربوبية ولها طريقة هىعزائم الشريعة ، فمن سلك الطريقة وصل الى الحقيقة •

فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، ونهاية الشىء غيـر مخـالفة له ، فالحقيقة غيـــر مخالفة لعـزائم الشريعة •

وقال صاحب كشف الظنون :

علم التصـوف علم الحقيقـــة أيضا ، وهو علم الطريقة أى تزكية النفس عن الأخلاق الردية وتصفية القلب عن الأغراض الدنية •

وعلم الشريعة بلا علم الحقيقـة عاطل ، وعلم الحقيقـــة بلا علم الشريعة باطل •

ثم قال : وعلم الشريعة ومـــا يتعلق باصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج ، وعلم الطريقة ومـا يتعلق باصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل ، وعقبات الطريق ••

فكما أن مجرد اللوازم ، ومجـرد علم المنازل لا يكفيـان فى الحج الصورى بدون اعـــداد اللوازم وسلوك المنازل ، كذلك مجـــرد العلم بأحكام الشريعـــة وآداب الطـريقة لا يـــكفيان فى الحج المعنوى ، بدون العمل بواجبيهما •

والتعبيـر بكلمـة : الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، تعبيـر درج عليه العلماء ، وجرى عليه الفقهاء، وهو اصطلاح من الاصطلاحـات التى لا مشاحة فيها •

فمن أنكر ذلك ، فالواقع أنـه ينكر الأحـوال القلبية ، والأذواق الوجدانية ، والعلوم الوهبية ، والله سبحانه وتعـالى ، وهـو الكريم الجواد ، يكرم سبحانه عبـــاده المخلصين وأحبابه الصادقين ، ولا حجر على قدرته الالهية :

«وما كان عطاء ربك محظورا» •

أخرج أبو نعيم فى الحلية عـن أنس بن مالك رضى الله عنـه أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

كيف أصبحت يا معاذ ؟

قال : أصبحتمؤمنا بالله تعالى•

قال : ان لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟

قال : يا نبى الله : ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أنى لا أمسى، وما أمسيت مساء قط الا ظننت أنى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة الا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر الى كل أمة جاثيةتدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله وكأنى أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة . قال : « عرفت فالزم » .

والصالحون ــ رضوان الله عليهم ــ لم يصلوا الى هذه الكشوفات والمعارف الا بتمسكهم بالكتاب الكريم والسنة الشريفة واقتفائهم أثر الرسول الأعظم وأصحابه الكرام ، ومجاهدتهم لأنفسهم من صيام وقيام ، وزهدهم فى هذه الدنيا الفانية ، كما أكرم الله تعالى معاذا رضى الله عنه بهذا الكشف الذى أقره عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : عرفت فالزم » .

وقد كان علماء السلف الصالح ــ رضى الله عنهم ــ يعملون على وجه الاخلاص لله تعالى ، حتى استنارت قلوبهم ، وخلصت أعمالهم ، فلما ذهبوا وخلف من بعدهم أقوام لا يعتنون بالاخلاص فى علمهم ولا فى عملهم اظلمت قلوبهم ، وحجبت عن أحوال القوم فأنكروها .

وهناك مغرضون يتحاملون على الصوفية مستشهدين بكلام ابن تيمية وغيره ، ويتهمونهم زورا وبهتانا ، بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ، ويهملون جانب الشريعة ، وأنهم يعتمدون على كشفهم ومفاهيمهم ولو خالفت الشريعة ، فهذا كله افتراء باطل ، يشهد على بطلانه كلام ابن تيمية نفسه ، فقد تحدث ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة فى قسم علم السلوك فتاويه فقال : « والشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى من أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهى ومن أعظم المشايخ كذلك أمرا بترك الهوى

والارادة النفسيـــة فان الخطـأ فى الارادة من حيث هى ارادة انما تقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له ارادة مـــن جهتـــه هو أصـــلا ، بل يريد مـــا يريد الله عز وجل ، اما ارادة شرعية تبين له ذلك ، والا جـــرى مع الارادة القدرية ، فهو اما مع أمر الله واما مع خلقه .

وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وهذه طريقة شرعية صحيحة ..

وهذه نبذة يسيرة من أقـــوال أئمة السادة الصوفية وتوجيهاتهم تشهد على تمســـكهم بالكتاب والسنة .

قال الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى :

« كل حقيقة لا تشهـد لهـــا الشريعة فهى زندقة » .

ثم قال أيضا :

« طِرْ الى الحق عز وجـــل بجناحى الكتاب والسنة ، ثم ادخل عليه ويدك فى يد الرســـول صلى الله عليه وسلم » .

وقال رضى الله عنه ، منكرا على من يعتقد أن التـــكاليف الشرعيـــة تسقط عن السالك فى حـــال مـــن الأحوال :

« ترك العبـــادات المفـــروضة زندقـــة ، وارتكاب المحظـــورات معصية ، لا تسقط الفـــرائض عن أحد فى حال من الأحوال » .

ولكن مع كل هذا نجد الحاقدين على التصوف اذا سمعوا بشىء من أخلاق القوم قالوا :

« هذا منزع صوفى ، لاشرعى ، فيتوهم السامع أن التصوف أمـــر خارج عن أصل الشريعة والحـــال أنه لب الشريعة كما أوضحنـــا . ومن يطلع على كتب القوم السليمة من الدس ، مثل كتاب الحلية لأبى نعيم ، والرسالة القشيرية ، وكتاب التعرف لمذهب أهل التصـــوف للكلاباذى ، واللمع للطـــوسى ، والاحياء للغزالى ، وطبقات الصوفية للسلمى ، والرعاية لحقـــوق الله للمحاسبى والوصايا للشيخ محيى الدين بن عربى ، وغير ذلك مـــن

كتب الصوفية ، لا يكاد يجد فيها ما يخالف الشريعة أبدا ، لكثرة محاسبة الصوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم ، فان حقيقة طريق القوم علم وعمل ، بل شريعة وحقيقة .

وبعد :

فلقد كان علماء الشريعة الاسلامية من الفقهاء والمحدثين يسيرون على أثر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيجمعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة ويؤدون العبادات العلمية متحققين بسر الاخلاص فيها ، متذوقين حلاوتها ، مدركين أسرارها ، وقد كانت لهم مجاهدات لتهذيب نفوسهم واصلاح قلوبهم .

ولما تحلوا به من صلاح وتقوى ومعرفة نالوا هذه المراتب العلمية ، بعلومهم على مر السنين والأيام ، فكأنهم أحياء بآثارهم الخالدة وجهودهم العلمية المباركة .

نفعنا الله بهم وبعلمهم وجزاهم الله عما قدموا لنا من تراث علمى نافع خير الجزاء وبالله التوفيق .

موسى محمد على

سئل سيدنا على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه بم عرفت ربك ؟

قال : عرفته بما عرفنى به نفسه ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شىء ، ولا يقال عنه شىء ، أمام كل شىء ، ولا يقال أمامه شىء ، وهو فى كل شىء ، لا كشىء فى شىء ، فسبحان من هو كهذا ولا كهذا غيره .

دفاع عن السنة

لفضيلة الشيخ عبد المهيمن الفقى

نشر الاستاذ أحمد بهجت مقالا بجريدة الأهرام يقول فيه :

من المشهور الذائع عند عامة المسلمين وبعض علمائهم ، ان الله تعالى فرض على النبى صلى الله عليه وسلم خمسين صلاة فى ليلة الاسراء والمعراج ، فنزل النبى فلقى موسى فسأله عن عدد الصلوات التى فرضها الله على أمته ، فحدثه أنها خمسين ، فقال موسى : ان أمتك لن تطيق فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنهم ، وعاد النبى الى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ، وعاد النبى الى موسى ، سأله موسى عن القدر الذى خففه الله عز وجل ، فلما أنبأه الرسول عاد يحذره أن الأمة الاسلامية لن تطيق ، وأن عليه أن يعود الى الله سائلا اياه التخفيف ، وعاد الرسول الى الله ، ثم عاد الى موسى ، حتى انتهى الأمر بالصلوات الخمسين الى خمس صلوات ، وللخمس ثواب الخمسين •

ورغم ورود هذه القصة فى كتب محترمة من كتب الأقدمين ، الا انها بلا سند يشفع لتصديقها لأكثر من أمر ••

* الأول : ان لقاء الحق عز وجل ، والوقوف فى الحضرة الالهية له من الجلال والهيبة ما يمنع النبى اذا انصرف أن يعود •

* الثانى : يثير الشك فى اعتبار هذه القصة من الاسرائيليات المقحمة على الدين الاسلامى ، اختيار موسى عليه السلام من بين جميع الأنبياء ، ليكون هو النبى الذى يقترح التخفيف عن أمة محمد،

ويكون هو النبى الذى أدرك ما لم يدركه محمد ، وبذلك ترتب له القصة لونا من ألوان الاشراف .

* الثالث : فى القصة لون من ألوان الفصال التجارى الذى يقوى الظن فى نسبة القصة الى اليهود الذين أسلموا ـ دون اخلاص النية ـ وملأوا كتب الأحاديث بالخرافات المنسوبة الى الرسول أو الصحابة .

* الرابع : يحمل البناء الداخلى لتركيب هذه القصة وجوه شبه مع بناء قصة مفاوضة اليهود مع موسى حين أمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة ، ما يوحى أن مؤلف هذه القصة من أحفاد المفاوضين ذوى اللجاجة القديمة .. أسباب كثيرة تدعونا لرفض تصديق القصة ، ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلته ـ غير ماأشار اليه القرآن ـ مستبعد هو الآخر ، فقد كان الموقف مزيجا من الجلال والرهبة والمهابة والرحمة ، وقد شاهد الرسول من آيات ربه الكبرى ، وهى آيات يعجز اللسان عن التعبير عنها ، ويعجز العقل عن الاحاطة بها ، وقد تجاوز السياق القرآنى ـ عامدا ـ ما رآه النبى، لأنه سر بين النبى وربه ، ومعجزة خاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وتكريم لشخصه ، وبيان لدرجته ، تجاوز السياق هذا ليؤكد انه رأى من آيات ربه الكبرى .. هكذا فرضت الصلوات الخمس على الرسول فى ليلة الاسراء والمعراج .

السيد الاستاذ / أحمد بهجت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد

فقد نشرتم فى صحيفة الاهرام فى ١٩٧٩/٦/٢٨ م ، فى كلمتكم « بصندوق الدنيا » تحت عنوان اسرائيليات . عن فرض الصلوات الخمس . وتعرضتم الى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا موسى وطلبه من الرسول « صلى الله عليه وسلم » أن يراجع ربه فى عددها وقلتم « ورغم ورود هذه القصة فى كتب محترمة

من كتب الأقـــدمين الا انها بلا سند يشفع لتصديقها لاكثر مـن أمـــر • ورجحت انهـــا من الاسرائيليات •

وذكرت من هـذه الامـور أن القصـة لون من ألوان الفصـال التجـارى وأن فيها اختيار موسى عليه السلام من بين الأنبياء وأنها أشبه فى بنائها بقصة مفاوضة اليهود مع موسى فى ذبح البقرة الى آخر ما كتب •

وفى الحق ان لك كتابات طيبـة هى محل ثناء وتقـدير وبودى لو سلكت نهجك وسرت على طريقتك فى التثبت فيمـا تكتب حتى تؤدى واجبك كاملا وتحتفظ بثقة قرائك • فـان لك قـراء يأخـذون عنـك ويطمئنون اليك • وتكون فيمـا كتبت قد قمت بواجب الامـانة العلمية •

تضع كل أمر فى موضعه أمـا أنك أو غيرك يرفض تصديق القصة ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى صلى الله عليه وسلم • فى رحلته غير ما أشار اليه القـرآن الكريم •

فنقول لسيادتك على أى أساس بنيت رفضك لهذه القصة ؟ • وعلى أى أساس أيضا بنيت رفض معظم ما جاءت به هذه الكتب فى حيـن أنك لم ترفض كل ما جاء بها ؟•

ان هذا الحديث الذى تعرضت له ورميته بما رميته به هـو من أحاديث الامام البخـارى والامام مسلم فى صحيحهما وهمـا أصح الكتب بعـد القـرآن الكريم وقد أجمـع علمـاء الاسـلام فى كل العصـور على صحـة صحيحى البخارى ومسلم وتلقيهمـا بالقبول وأنه ليس فيهما مطلقا حـديث ضعيف فضـلا عـن أن يكون موضوعا •

ومن واجبنا أن نعلم أن هـذا الأمر له المتخصصون أهـل الذكر وقد قالوا : كلمتهم قبـل أن أكتب وتكتب أنت ويكتب غيرك فالأمر ليس أمر هوى يتبـع أو مـزاجا شـخصيا أو ما يسمى بالعقـل لأن العقـول تتفـاوت وتختلف

والوحى جاء ينظم مسارها ويهديها الى سواء السبيل .

ان انكار السنة والنيل منها يهدم الدين لأن الاسلام يقوم على القرآن والسنة معا . قال تعالى :

« ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ويقول تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« الا وانى أوتيت القرآن ومثله معه » .

ويقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كما يقول : « خذوا عنى مناسككم » .

هذا وحديث فرض الصلاة مذكور فى صحيح البخارى فى كتاب الصلاة .

وفقنا الله واياكم لما يحبه ويرضاه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم عقب الاستاذ أحمد بهجت قائلا :

حدود العقل

العقل هو الهبة التى منحها الله لعباده من البشر ، والعقل أداة الانسان للخلافة فى الأرض ، وهو مناط التكاليف فاذا ذهب العقل بالجنون أو بالمرض سقطت التكاليف عن الانسان ، ورغم أهمية العقل وكونه أمنا للانسان ، فاننا نراه مطية اذا تعلق الأمر بالوحى ، اذ قال الله تعالى : « ان البحر قد انشق أو أن العصا تحولت الى ثعبان أو أن عيسى أحيا الموتى » صدقنا على الفور وقلنا لعقلنا :

ـ العقل فى حضور الوحى طفل يؤمر فيطيع ،لا عليه أن يفهم مشيئة الله وكيف تجرى فى الكون ، وانما عليه التصديق والطاعة .. وهذا جوهر الايمان ، ونحن نقف بعقولنا عند حدودها اذا تكلم الوحى ، سواء كان ذلك قرآنا أم سنة نبينا ، أما القرآن الكريم فقد حفظه

الله تعالى لقوله : « انا نحن نزلنا الذكر وانا لحافظون » ، اما السنة الشريفة فقد دونت كتبها الصحاح فى القرن الهجرى الثالث ، أى بعد أكثر من مائتى سنة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت سنة ٤٠ من الهجرة — كما يقول المرحوم الشيخ مصطفى السباعى : هى الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوها من الكذب والوضع ، وبين التزيد فيها والاضافة اليها واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية ، ويقول المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف « بقيت السنة بعد تدوينها فيها مجال للاختلاف ، واليها منفذ الوضع والافتراء . ويختلف الأئمة فى طريق الوثوق بالسنة والميزان الذى ترجح به رواية على رواية ، لأن الوثوق بالسنة مبنى على الوثوق برواتها وكيفية روايتها وقد نشأ علم الحديث وهو العلم الذى يميز بين الجواهر الحقيقية التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأقوال التى نسبت اليه ، وهو علم قيم له أهميته البالغة .. ورغم أن كتاب البخارى من الكتب الستة الصحاح الا أنه قد تعرض لنقد علماء الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية ، يقول كتاب مجمع البحوث الاسلامية لمؤلفه الشيخ الدكتور محمد محمد ابو شهبة : « انتقد بعض الحفاظ على البخارى أحاديث ذكرها فى صحيحه ، وليست على المستوى والدرجة العالية التى التزمها فى صحيحه ، وعدة الأحاديث المنتقدة على البخارى مائة وعشرة أحاديث » وفى كتاب المجلس الاعلى للشئون الاسلامية للدكتور النعمان القاضى يقول : « ورغم ما لكتاب البخارى من منزلة رفيعة بين كتب الحديث فقد تعقبه علماء الحديث فى رجاله وأحاديثه وطريقة تأليفه وأخذوا عليه بعض المآخذ ، أما الرجال فضعفوا منهم نحو ٨٠ رجلا ، أما الأحاديث فضعفوا منها نحو مائة ، عابوها بشذوذها ، وما فيها من علل وقف أو قطع » .

ويورد البخارى حديثا مفاده « أن يهوديا سحر النبى صلى الله عليه وسلم فكان الرسول يخيل اليه

انه يفعل الشيء وما فعله » وهذا حديث كذبه كثير من العلماء المعاصرين : (محمد عبده ــ الشيخ محمد الحديدى ــ مصطفى الطير ــ الشيخ محمد محمود حجازى صاحب كتاب التفسير الواضح) ، أى أن علماءنا الأجلاء نقدوا كثيرا من أحاديث البخارى ، وليس صحيحا هذا الاجماع عليه ، وعند المسلمين كتاب واحد مقدس هو الذى يقول وعلينا السمع والطاعة وذلك هو القرآن الكريم ، وما عداه من كتب يؤخذ منها ويرد عليها فهم رجال ونحن رجال .

هذه واحدة .. أما الثانية فهى :

نظرة جديدة

القرآن الكريم هو المصدر التشريعى الأول عند المسلمين ، والسنة الشريفة هى المصدر الثانى، وفى السنة ما هو متفق عليه وثابت وروده عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا تجب له الطاعة ، وفيها ما هو موضوع أو منسوب بغير حق للرسول ، واستبعاد هذا فرض على المسلمين ، وهناك علم كامل يبحث فى تمييز أقوال الرسول عن غيرها ، وقديما كان هذا العلم يهتم بالسند أو الراوى ، فيعرف من هو ومدى قربه من الرسول والصحابة ، وعمن سمع، وعن أخلاقه وصفاته وسلوكه ، وهل يكذب ، وما مصلحته فى الرواية الى آخر ذلك ، ثم مرت الايام وبعد العهد بالرسول والصحابة والتابعين ، وتغير هذا العلم بعد ذهاب مصادره فتكامل بتحوله من علم للرواية الى علم للدراية ، وعلم الدراية هو الذى يبحث فى « المتن » أى مضمون الحديث ذاته ..

وللعلماء طرق فى معرفة الوضع فى المتن ،منها ركاكة اللفظ ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم والحكمة والبلاغة ، ومنها فساد المعنى بحيث يكون الحديث مخالفا لبديهيات العقول ، ومنها مخالفته لصريح القرآن أو حقائق التاريخ المعروفة أو المبالغة أو اشتماله على مذهب الراوى .

وعلم الحديث اليوم لا يجد فرسانا كثيرين ، فقد تناقص عدد علمائه ، وصاروا فى ندرة الجواهر واكتسبت كتب القدماء قداسة لا يعرفها الاسلام ، وصار يكفى أن يكون الحديث موصولا بالرسول ليصدقه الناس ، رغم أن اختيار مجموعة من الصحابة والتابعين ونسبة ما لم يقولوه اليهم ونسبته بعد ذلك للرسول ، وطبعه فى كتاب مسألة ليست صعبة ، لقد طبع كتاب البخارى وغيره من كتب الصحاح آلاف الطبعات على امتداد القرون ، وكانت معظم هذه الكتب فى أصلها أوراقا قليلة ، فكيف صارت اليوم مجلدات ضخمة ، وأعداء الله الذين طبعوا من القرآن طبعات محرفة لا يعجزهم أن يدسوا فى السنة ما ليس منها بعد سبكه ، والاسرائيليات خير شاهد ودليل . ولا خلاف بين المسلمين على أن علم الحديث هو سلاح المسلمين فى تنقية السنة وحفظها ، ولكن الخلاف على كتب السنة الستة الصحاح ، وهل تحتاج لنظرة أخرى أم لا ؟

يرى الشيخ عبدالمهيمن — ايمانا منه — أن كتب السنة الصحيحة قد قامت بالمهمة ، ونرى نحن — اجتهادا منا — انها فى حاجة الى نظرة يقوم بها علماء الحديث فى مصر والعالم الاسلامى ،ولو تكونت لجنة ونظرت فى هذه الكتب ودققت وبحثت بغرض تنقية هذه الكتب من أحاديث تعارض نصوص القرآن أوتعارض بديهيات العقل لاطمأن قلب المسلمين ، ورغم أن معظم كتب الصحاح صحيحة ، الا أن فيها أحاديث عن سحر الرسول وضرب موسى عليه السلام لملك الموت على عينه ففقأها ، وفيها خرافات واسرائيليات من واجب علماء المسلمين تنقيتها وتطهيرها ، وجمع السنة الصحيحة فى كتاب جديد ، وهذا الواجب ، وهو النظر فى تنقية السنة مما شابها هو مهمة علمية بقدر ما هو فريضة دينية ، ولا يشفع للمسلمين أن يتقاعسوا عن هذه المهمة ، لأن

اتمامها يعنى انجـاز واجب دينى وعلمى خطير ..

ان حب الرسول صلى الله عليـه وسلم لا يكون بتقديس مـا روى عنه دون تثبت أو مناقشة ، وانما يكون بفقه أحاديثـه وتنقية كتب الأحاديث مما دس عليها من خرافة واسرائيليات .

أحمد بهجت

ردا على تعقيب الاستاذ أحمـد بهجت وأرسل الى جريدة الأهـرام بتاريخ ١٩٧٩/٧/١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم الاستاذ / أحمد بهجت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

فلقـد أطلعت على ما كتبـت بتاريخ ١٩٧٩/٧/٨ ، ١٩٧٩/٩/٩ فى صحيفة الأهرام تحت عنـوان « حدود العقل » و « نظرة جديدة » وذكرت أمورا لى عليها تعليق هى :

ان السنة قـد دونت كتبهـا الصحاح فى القرن الثالث الهجرى وهذا ما نسلم به ولكن ليس معنى ذلك أنها كتبت من فراغ بل لقـد بدأ تدوين السنة كتابة فى عهـده صلى الله عليه وسلم باذنه الصريح لبعض الصحابة أن يكتب للصحابى اليمنى « ابى شاه » بعد أن التمس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال صـلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لأبى شاه » .

وحدث أن بعض الصحابة شكا الى رسول الله أنه يعجبه الحـديث ولا يحفظـه ، فقـال له الرسول : « استعن بيمينك » وأومأ بيده الى الخط . هذا فضلا عما هو معروف من صحيفة سيدنا « على » كرم الله وجهه الذى كان فيها العقل وفكاك الاسير .. الخ .. وما ثبت أيضـا من أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب فى صـحيفته المسماه بالصادقة وهو لا يكتب الا اذا اذن له الرسـول ،بل ان بعض العلماء أعتبر اذن رسول الله بكتابة الحديث بعـد نهيـه عن ذلك أعتبره وعده نسخا اذ النهى كان فى مبدأ الأمر خشية اختلاط السنة بالقرآن .

وصار الحديث يدون ويتسع تدوينه الى أن أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز العلماء فى مختلف الأمصار بجمع السنة وتدوينها وذلك فى نهاية المائة الأولى من الهجرة ، ومن كل هذا يتبين لنا أن تدوين السنة بدأ مبكرا فى عهده صلى الله عليه وسلم واستمر يتزايد حتى أمر به الخليفة عمر بن عبد العزيز • هذا بالاضافة الى أن حفظ السنة بالدرجة الأولى شأنها فى ذلك شأن القرآن فى العصر الاول ــ كان بالحفظ فى الصدور الأمر الذى امتازت به الامة الاسلامية فى حرصها على مصادر الاسلام اقامة لشريعة الله وتطبيقا لها •

أما أن السنة النبوية قد استهدفت للوضع ، فهذا ما نسلم به ولكن صحيح البخارى ومسلم ليس فيهما شىء من الأحاديث غير الصحيحة بل كل ما فيهما صحيح كما حققه علماء الحديث المتخصصون • وأما ادعاء من لا يعد من رجال الحديث من أن فى الصحيحين أو أحدهما أحاديث موضوعة فهى دعوى باطلة لا تقوم على دليل صحيح ولا سند يطمأن اليه وانما قامات على شبهة لا تلبث أن تزول أمام البحث العلمى الصحيح أما ما عزى الى المرحومين الامام محمد عبده والشيخ محمد حجازى من أنهما كذبا حديث السحر فأقول : أن كلا منهما ليس من رجال الحديث فشأنهما فى ذلك شأن الزمخشرى صاحب مدرسة التفسير وأستاذ كثير من المفسرين فقد قال عنه العلماء أنه ليس من رجال الحديث •

أما فضيلة الشيخ مصطفى الحديدى الطير ــ أمد الله فى عمره ــ فقد قال بصحة هذا الحديث ، ومنهجه فى هذا منهج الأئمة والعلماء الذين قالوا : أن الحديث اذا صح فهو مذهبهم ويؤيد فضيلة الشيخ الطير كلامه هذا بقوله فى كتابه « هادى الأرواح » ص ٧٧ ما نصه : « والشافعية اعترضوا على القتل مطلقا بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل اليهودى الذى سحره » •

أما من قيل عنهم أنهم علماء ونقدوا البخارى فهم ليسوا علماء درجة من العلم تؤهلهم لذلك . وقد رد عليهم العلماء المتخصصون ... وأفحموهم ومما يؤسف له حقا أن هؤلاء يرددون أقوال المستشرقين وأعداء الاسلام .

أما ما ذكرته من نقد للامام البخارى من فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبى شهبة وغيره من العلماء المتخصصين فهو موجه الى أحاديث معدودة يبلغ عددها مائة حديث وعشرة أحاديث من جملة أحاديث صحيح البخارى التى تبلغ أربعة آلاف حديث والنقد الموجه الى هذه الأحاديث لم يوجه الى سندها أو متنها وانما كان النقد موجها الى أن الامام البخارى قد التزم الا يذكر فى صحيحه الا الحديث الصحيح من المرتبة الاولى فى الصحة فنزل فى هذه الأحاديث الى المرتبة الثانية فى الصحة وذلك لأمور رأى أنها تؤدى الى نفع وخير ولم يخرج فى صحيحه عن الصحة قط وكذلك شأن الامام مسلم فى صحيحه .

ونقرأ معا ما قاله الاستاذ الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ وهو علم من أعلام علم الحديث المعاصرين وذلك فى تعليقه على كتاب ـ الباعث الحقيقى لأبن كثير ص ٢٢ .

« الحق الذى لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين وممن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ليس فى واحد منهما مطعن أو ضعف » .

وانما انتقد الدارقطنى وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ فى الصحة الدرجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه .وأما صحة الحديث فى نفسه فلم يخالف أحد فيهما » .

أما قولك : « وعند المسلمين كتاب واحد مقدس هو الذى يقول وعلينا السمع والطاعة وذلك هو القرآن الكريم وما عداه من كتب يؤخذ منها ويرد عليها فهم رجال

ونحن رجال فأقول لسيادتكم من هذا الذى يأخذ من كتب السنة ويرد عليها ؟ أيترك أمر كهذا له منزلته ومكانته لغير المتخصص ؟

ان من القواعد المسلم بها أن لكل علم رجاله الذين تخصصوا وبرعوا فيه وعرفوا أصيله من زيفه وصحيحه من فاسده واليهم يرجع غير المتخصصين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم .

ان ترك العلوم لغير المتخصصين وبخاصة فى عصر التخصص يصيب العلم بنكسة وردة وان أمة لا يسند فيها الامر الى ذويه توغل فى التأخر والتخلف . ان كل علم له ضوابطه وقواعده فلا يستقيم ولا يصح أن يدخل فيه من ليس من أهله واننا ــ والله ــ لا نريد من وراء هذا حجرا على أحد ولا أن يستأثر به أحد .

وحادثة السحر الوارد فيها الحديث الذى أوردته ليس فيها ما يطعن فى عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم فتأثير السحر كان فى جسده الشريف ، فالسحر أشبه بالمرض العادى الذى كان يلم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل أحد أن ذلك ينال من عصمته فالله قد عصمه من الناس فى كل ما يتصل بالرسالة . وهذا هو الذى رآه العلامة المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وهو تلميذ الامام محمد عبده وقد خالف استاذه الامام فى ذلك .

أما من يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الناس بعامه فان ما حدث له من اعتداء المشركين فى الطائف وفى مكة وفى غزوة « أحد » وغيرها ينفى هذا الزعم والحديث والحمد لله صحيح لا يلحقه أى ضعف .

أما حديث الاسراء والمعراج الذى نحن بصدده فقد رواه مايزيد على العشرين من الصحابة رضوان الله عليهم ليس فيهم أحد من أهل الكتاب الذين دخلوا فى الاسلام .

أما قولك : هناك علم كامل يبحث فى تمييز أقوال الرسول عن غيرها ، وقديما كان هذا العلم

يهتم بالسند أو الراوى الخ ما قلت .

فأقول : ان مدرسة الحديث قد عنيت بالحديث رواية ودراية سندا ومتنا عناية تامة وأنها وفت كلا منهما حقه ، وأن المتن قد درس دراسة فائقة فحكم رجال هذا العلم على أحاديث بالوضع والاضطراب والشذوذ ، والتعليل والنكارة من طريق النظر فى المتن فحسب كما وضعوا أمارات وعلامات يستدل بها على كذب الحديث ، أبعد هذا يقال ان متن الحديث يحتاج الى بحث وتدقيق وتنقية ؟

أما قولك بأن كتب الحديث قد طبعت آلاف الطبعات ، وكانت معظم هذه الكتب فى أصلها أوراقا قليلة فكيف صارت اليوم مجلدات ضخمة .

فأقول : ان قولك هذا ان أردت به أن كتب السنة كالبخارى ومسلم وغيرها قد زيد فيها وأضيف اليها ما لم يقله رسول الله فهذا لم يقل به أحد من المسلمين الذين يتورعون فى دينهم ويتثبتون من أقوالهم وان أردت انها قد تضاعفت شرحا وتعليقا واستنباطا لأحكامها وبيانا لما فيها من فقه وتشريع وأخلاق ومواعظ وبلاغة وأدب رفيع وجوامع كلم فهذا صدق وحق والمكتبة الاسلامية زاخرة وغنية بالمجلدات والموسوعات والشروح لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزداد وتتسع على يد من يوفقه الله لهذا العمل الجليل .

وان السنة الشريفة قد سخر الله لها ــ كما سخر لكتابه العزيز ــ من قام بفهرستها وهو عمل كبير استغرق وقتا طويلا وأنفق فيه مال كثير (وما يعلم جنود ربك الا هو) .

أما ما يتصل بحديث موسى عليه السلام مع ملك الموت وأنه فقأعينه فهو حديث صحيح ولا مطعن عليه ممن يعرف السنة فسيدنا موسى لم يكن يعلم أنه ملك الموت وانما ضربه دفاعا عن نفسه ظنا منه أنه يريده بسوء وعندما جاءه فى المرة

الثانية وعرف أنه ملك الموت وأن الله سبحانه خير سيدنا موسى بين طول الحياة والانتقال الى جوار ربه فاختار عليه السلام ــ جوار ربه •

وكلمة أخيرة أقولها ــ ان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلمت من أى دخيل بعد أن أبان رجالها كل حديث نسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعوه فى مكانه ومرتبته ولكن السنة دائما وفى كل عصر تنال بالطعن والغمز واللمز بالباطل من أعداء الاسلام والخارجين عليه وأظنك تذكر ما تعرضت له السنة فى مصر على يد صاحب كتاب « أضواء على السنة » وما كتب عنها بيد كاتب « كبير » فى مجلةالعربى وتركيزه على التهوين من شأن « صحيح البخارى » بخاصة ــ غفر الله لهما ــ أما فى هذه الأيام فاننا نرى أن الهجوم قد جاءها من حاكم من حكام احدى الدول العربية ينكرها جملة وتفصيلا ، وما انكار السنة أو النيل منها بالباطل الا طريق من الطرق التى يلجأ اليها أعداء الاسلام رغبة فى القضاء عليه •

« يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » •

هذا واننا جميعا نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وندعو أنفسنا وغيرنا ألا نقول فى حديثه بغير علم وأن تتثبت مما نقوله فان هذا هو أمارة الحبوعلامة الصدق فى الاتباع • وقد امرنا الله تعالى الا تتبع ما ليس لنا به علم فقال جل ثناؤه :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا » •

صدق الله العظيم •

تحريرا فى ٢٢ من شعبان سنة ١٣٩٩ هـ

الموافق ١٧ من يوليو سنة ١٩٧٩ م

عبد المهيمن محمد الفقى

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« لا عز الا فى التقوى »

١ ــ قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

٢ ــ وفى هذا المعنى يقول على ابن أبى طالب ، رضى الله عنه : من سره الغنى بلا مال ، والعز بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من معصية الله الى طاعته ، فانه واجد ذلك كله .

٣ ــ وقال المنتصر العباسى ، والله ماعز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه .

« بنت حاتم الطائى »

قال على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ : يا سبحان الله ! ما أزهد كثيرا من الناس فى الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ! فلو كنا لا نرجو جنة ولا نخاف نارا ، ولا ننتظر ثوابا ، ولا نخشى عقابا لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فانها تدل على سبيل النجاة .

فقام اليه رجل فقال : فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؟ قال : نعم ، وما هو خير منه ، لما أوتينا بسبايا طيىء كانت فى النساء جارية حماء (١) ، حوراء العينين (٢) لعساء (٣) ، لمياء (٤) ، عيطاء (٥) ، شماء الأنف ، معتدلة القامة .

فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لأطلبنها الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليجعلها من فيئى (٦) فلما تكلمت أنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها ، قالت : يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى ، فلا تشمت بى أحياء العرب ! فانى بنت سيد

(١) حماء : سوداء
(٢) الحور : سواد العين كلها .
(٣) جارية لعساء : فى لونها أو فى سودا ، مشربة بحمرة .
(٤) اللمى : سمرة فى الأنف .
(٥) امرأة عيطاء : طويلة العنق .
(٦) الفىء : الغنيمة .

قومى ، كان أبى يفك العانى ، ويحمى الزمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيىء ، فقال لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : ــ يا جارية ، هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك اسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق !

« سماحة الاسلام »

روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : جاء رجل الى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : هلكت يا رسول الله ، قال وما أهلكك ؟ قال : وقعت على أمرأتى فى رمضان ، فقال : هل تجد ما تعتق به رقبة ؟ قال : لا ، قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم به ستين مسكينا ؟ قال : لا ... ثم جلس .

فأتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتمر ، فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على أفقر منا ، ليس هناك أهل بيت أحوج اليه منا .

فضحك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى بدت نواجذه ، وقال : أذهب فأطعمه أهلك .

« اللعب بالألفاظ »

دخل شريك بن الأعور على معاوية ابن أبى سفيان ، وكان شريك دميما ، فقال له معاوية : انك لدميم ، والجميل خير من الدميم . وانك لشريك ، وما لله من شريك ، وان أباك الأعور ، والصحيح خير من الأعور . فكيف سدت قومك ؟

فقال له : انك معاوية وما معاوية ، الا كلبة عوت ، فاستعوت الكلاب وانك ابن صخر ، والسهل خير من الصخر . وانك ابن حرب ، والسلم خير من الحرب . وانك ابن أمية ، وما أمية الا أمة صغرت فكيف صرت امير المؤمنين ؟

ثم خرج وهو يقول :

أيشتمنى معاوية بن حرب
وسيفى صارم ومعى لسانى ؟

وحولى من ذوى يزن ليوث
ضراغمة تهش الى الطعان

يعير بالدمامة من سفاه
وربات الحجال من الغوانى

« هجر القرآن »

هجر القرآن أنواع : أحدها هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه ، والثانى هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وان قراه وآمن به ، والثالث هجر تحكيمه والتحاكم اليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد انه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه . والخامس هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ، وبهجر التداوى به وكل هذا داخل فى قوله : « وقال الرسول يارب أن قومى أتخذوا هذا القرآن مهجورا » وان كان بعض الهجر أهون من بعض .

« المحبة مفتاح كل خير »

دعا المنصور بالربيع (١) فقال : سلنى ما تريد ! فقد سكت حتى نطقت ، وخففت حتى ثقلت ، واقللت حتى اكثرت !

فقال يا امير المؤمنين ، ما ارهب بخلك ، ولا استصغر فضلك ، ولا اغتنم مالك ، وان يومى بفضلك على احسن من امس ، وغدك فى تأميلى احسن من يومى ! ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد .

قال : صدقت ، علمى بهذا منك احلك هذا المحل ، فسلنى ماشئت .

قال : أسألك أن تقرب عبدك الفضل (٢) ، وتؤثره وتحبه ! قال : يا ربيع ، ان الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وانما تؤكده الأسباب .

قال : فاجعل له طريقا اليه بالتفضل عليه !

قال : صدقت وقد وصلته بألف درهم ! ولم أصل بها أحدا غير عمومتى ، لتعلم ما له عندى : فيكون منه ما يستدعى به محبتى .

ثم قال : فكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ومغلاق كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه !

قال : صدقت .

« حقيقة الدنيا »

ان الانسان اذا تأمل بفكره فى الحياة الدنيا ، وتصور ما فيها من مرض بعد صحة ، وفقر بعد غنى ، وذل بعد عز ، وهبوط بعد صعود ، وتأخر بعد تقدم ، وموت بعد حياة .

اذا تأمل الانسان فى ذلك كله ، لحكم على الدنيا بأنها دار جردت من السعادة والهناءة .

حقا ان الدنيا دار هم وغم وتعب وبلاء ، وعناء ووصب فمن طلب الراحة فيها طلب المحال .

تعب كلها الحياة فما أعـ
ـجب من راغب فى ازديـاد

دار حفت بالكوارث والنكبات ، وامتلأت بالقوارع والآفات ، من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب . فكيف يطمئن الناس اليها وقد علموا الا بقاء فيها . وانما هى كما قال الشاعر :

هب الدنيا تساق اليك عفوا
أليس مصير ذاك الى انتقال

وما دنياك الا مثل فىء
أظلك ثم آذن بالزوال

(١) هو الربيع بن يونس ، خدم المنصور ثم تدرج فى المناصب عنده الى ان استوزره ، وكان جليلا نبيلا عارفا بخدمة الخلفاء ولابنه الامين .

(٢) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة .

« الامام الشافعى فى ساعته الأخيرة »

دخل رجل على الامام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ وهو فى ساعته الاخيرة ، فقال له : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت من الدنيا راحلا ، ولاخوتى مفارقا ، وبكاس المنيه شاربا ، ولا أدرى الى الجنة تصير روحى فأهنيها ، أم الى النار فأعزيها » .

وانشأ يقول :

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى
جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته
بعفوك ربى كان عفوك أعظما

« بلال يؤذن »

لما تولى الخلافة أمير المؤمنين ، عمر ـ رضى الله عنه ـ ، وفتحت جيوش المسلمين أرض الشام تقدم اليه مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلال بن رباح الحبشى ـ رضى الله عنه ـ يستأذنه أن يقيم بالشام ، فأذن له عمر .

وبينما هو مقيم بها ، رأى فى منامه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول له : « ما هذا الجفوة يا بلال ؟! أما آن لك أن تزورنى يا بلال » ؟

وانتبه بلال من نومه خائفا وجلا ، وركب من يومه راحلته قاصدا مدينة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار الى أن دخل المدينة المنورة ، وأتى قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وانكب عليه يبكى ويمرغ وجهه عليه ، ثم طلب منه الناس أن يؤذن فى المدينة ، ولما أخذ فى الأذان ارتجت المدينة بالبكاء ، وتذكر الناس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فما رؤى يوم أكثر باكيا بالمدينة من ذلك اليوم .

« من كنت أباه فهو يتيم »

كتب المنصور الى زياد بن عبد الله الحارثى أن يقسم ما لا بين القواعد والعميان والايتام . فدخل عليه أبو زياد التميمى ، فقال أصلحك الله ، اكتبنى فى القواعد ، فقال له : عافاك الله ، القواعد من النساء اللاتى قعدن عن أزواجهن ، فقال اكتبنى فى العميان . قال أكتبوه فيهم فان الله تعالى يقول : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

قال أبو زياد : واكتب ابنتى فى الأيتام .

قال : نعم من كنت أباه فهو يتيم .

« لا أبيع الدين بالتين »

كان مالك بن دينار يمشى فى سوق البصرة فرأى التين فاشتهاه ولم يكن معه نقود يشترى بها فخلع نعله وأعطاه لبائع التين ، فقال لا يساوى شيئا ، فأخذ مالك نعله وانصرف فقيل للرجل : انه مالك ابن دينار ، فملأ الرجل طبقا من التين وأعطاه لغلامه ، ثم قال له : الحق بمالك بن دينار ، فان قبله منك فأنت حر فعدا الغلام وراءه فلما أدركه ، قال له : أقبل منى فأبى ، فقال : أقبل فان فيه تحريرى ، فقال مالك : ان كان فيه

تحريرك ، فان فيه تعذيبى فألح الغلام عليه ، فقال : حلفت أن لا أبيع الدين بالتين . ولا آكل التين الى يوم الدين .

« الصبر جميل »

أصابت عروة بن الزبير — رضى الله عنه — [الاكلة] (١) فى رجلة فاشاروا عليه بقطعها .

قالوا : نسقيك المرقد .

فقال : انى لأكره أن أفارق عضوا من أعضائى ، وأنا لا أجد الما لفراق ذلك العضو .

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال : ما هؤلاء ؟! قالوا : يمسكونك .

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى .

ومد رجله وجىء بالسكين ، فقطع اللحم ، وبالمنشار فنشر به العظم ، وأغلى الزيت فى مغارف الحديد وحسم به الدم . كل ذلك ، ولم يقبض وجهه ، ولم يتحرك ، وفى أثناء ذلك دخل عليه رجل يعزيه ، فقال : ان كنت تعزينى فى رجلى ، فقد احتسبتها !.

قال : بل أعزيك فى ولدك محمد !

قال : ماله ؟!.

قال : سقط الساعة فى اسطبل دواب الوليد ، فرفسته بقوائمها حتى قتلته .

فما زاد على أن قال : « اللهم أخذت ابنا وأبقيت أبناء ، وأخذت عضوا ، وابقيت اعضاء » .

« اللهم ان كنت أخذت فقد أبقيت ، وان كنت ابتليت فقد عافيت » .

(١) السرطان .

« وصية »

أوصى الامام على ولده الحسن — رضى الله عنهما — فقال : يابنى احذر من الأمور ثلاثا ، ووافق ثلاثا ، واستح من ثلاث وافزع الى ثلاث ، واهرب من ثلاث ، وخالف ثلاثا ، وخف ثلاثا ، وارج ثلاثا . فقال الحسن : فصلها يا أبى ، فقال :

احذر من الكبر والغضب والحرص المذموم ، ووافق كتاب الله وسنة رسوله والصالحين من عباده ، وليكن حياؤك من الله ومن الملائكة ومن الصالحين ، وليكن فزعك خوفا من المعصية وفزعك الى التوبة وفزعك الى طلب العلم واهرب يا بنى من الكذب والخيانة والظلم ، واجتنب الشر وأهله والنفاق وأهله والحمق وأهله ، وخف الله وممن لا يخاف الله ومن لدغات لسانك ، وارج الله فى غفران ذنوبك وفى قبول أعمالك ، وفى شفاعة نبيك .

« ابتهالات »

١ — حج أعرابى فقال : اللهم ان كان رزقى فى السماء فأنزله ، وان كان فى الارض فأخرجه ، وان كان نائيا فقربه ، وان كان قريبا فيسره .

٢ — ودعا آخر فقال : اللهم لا تخيبنى وأنا أرجوك ، ولا تعذبنى وأنا أدعوك ، فقد دعوتك كما امرتنى ، فأجبنى كما وعدتنى .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : نرى فى المساجد يوم الجمعة وغيرها مظاهر لتصرفات سيئة لا تليق بجلال المسجد نرجو الكتابة عن الآداب التى يجب أن يرعاها المسلمون حين يدخلون بيوت الله .

ج ـ لا شك أن كثيرا من المسلمين الغيورين على دينهم يزعجهم ويؤلمهم ما يشاهدون من مخالفات فى مساجدهم ناشئة عن جهل أو تعمد أوضحها ذلك الصخب الذى ينبعث عندما يكون هناك قارىء يتلو القرآن أو يلقى بعض التواشيح رغم كثرة تنبيههم الى التزام الصمت والسكينة ، الى غير ذلك من المخالفات التى ترتكب فى المسجد ... ولفضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت فتوى فى هذا الموضوع نوردها فيمايلى لعل فيها تذكيرا وتنبيه لتلك القلوب الغافلة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

يقول رحمه الله : قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (١) .

وهكذا يجمع الله للمؤمنين بين الدنيا والدين ، بين عبادة ربهم والسعى على رزقهم ، ولا يتركهم للدين يأخذهم من الدنيا ، ولا للدنيا

(١) الآيتان ٩ و ١٠ من سورة الجمعة .

تأخـذهم مـن الدين ، بل يكلفهم الأمرين معـا ، ويجعلهمـا سبيل فلاحهم وسعادتهم ويجعل دعوتهم وشعارهم « ربنا آتنـا فى الدنيـا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنـا عذاب النار » (١) .

مكانة الجمعة فى الاسلام :

والجمعـة هى تلكم الفريضـة الأسبوعية التى يجتمع لها المؤمنون بشعور واحد فى زمن واحد يخلعون أنفسهم ساعة من دنياهم ، يفرغون فيها لربهم ، فيناجونه ويستحضرون عظمتـه ، ويلتمسون منـه العفو والرضـا ، ويستمطرونه الحـول والقـوة ، ثم يسـمعون المواعظ المرققة للقلوب المهـذبة للنفوس ، المرشـدة الى وجـوه السعادة فى الدنيا والآخرة « ولو أنهم فعـلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ، واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيمـا ، ولهـديناهم صراطـا مستقيما » (٢) .

وقد تضافرت كثرة من أحاديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعـد نزول القرآن فيهـا والأمر بالسعى اليها ، والتخلى لأجلها عن شئون الدنيا ـ على التحـذير من تركها والتهـاون فى شأنها ، وكان منها قوله عليه الصلاة والسلام ـ قوم يتخلفون عنها : « لقد هممت أن آمر رجـلا يصـلى بالنـاس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعـة بيوتهم » . وقوله فيمن يتركها بغير عذر شرعى : « من ترك الجمعة ثلاثا من غير ضرورة طبع الله على قلبه » .

شعار الرابطة الاسلامية :

وقـد اعتبر الاسلام فى صـحة الجمعـة وحـدة الزمن والمكان ، ليكون الاجتماع لهـا وسيلة من وسائل التعارف والتعاون والاتحاد

(١) الآية ٢٠١ من سورة البقرة .
(٢) الآيات ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ من سورة النساء .

وجمع الكلمة ، وهى أول عبادة وضعها الاسلام فى شعار الرابطة الاسلامية والأخوة الدينية ، وهى كذلك أول ما وضعه من الشعائر العملية لمبدأ المساواة الذى قرره بين معتنقيه ، وألغى به التفاضل بينهم الا بالتقوى والعمل الصالح ، وكان من شعار الرابطة والمساواة أيضا فيما طلب من عبادات على وجه أعم ونطاق أوسع ، صلاة العيدين ، واجتماع الحجيج فى بيت الله الحرام وعرفة من كل عام .

أما المسجد فهو ذلكم المكان الذى أعد لهذا الاجتماع ، وقد كان انشاؤه أول ما اتجهت اليه عناية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد وصوله الى المدينة ، وأنشأ مسجده الجامع ليضم شتات المسلمين ، ولتقام فيه الصلوات فى صورة جماعية رائعة ، وقد درج المسلمون بعده على سنة بناء المساجد والعناية بها .

وقد نوه الله بشأنها وأضافها الى نفسه ، تشريفا وتكريما ، وجعله بيته ، خاصا به ، لا يذكر فيها أحد سواه ، ورفع قدرها بما أعدت له من عبادته وتقديسه « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » (١) .

ثم ربط القلوب بها وبآثاره الطيبة التى يجب أن يحرص عليها المسلمون ضمانا لروابطهم وحسن عباداتهم « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (٢) . « وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا (٣) .

(١) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة النور .
(٢) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١٨ من سورة الجن .

هـذا هو المسجد ، وهـذه هى الجمعة ، واحترامهـا والحمـد لله لا يزال باقيا فى نفوس المسلمين ، يتوارثونه الجيـل بعد الجيـل ، والأبناء بعد الآباء ، وليسوا فيما نرى بحاجة الى ما يبعث فى قلوبهم ذلك الاحتـرام الذى نرى آثاره بادية على وجـوه من لا يعـرفون المسجد ، ولا يهتمون بصلاة الجمعة الا فى مناسبات خاصة !!!

أدب المسجد والجمعة :

وقـد كان المسـجد وصـلاة الجمعـة بهـذا الوضع من أقوى ما يعد النفوس لتلقى الالهـامات الروحيـة ، التى تضىء للمؤمنـين سبيل الهـداية والتوفيق ، غير أن بعض المظـاهر كثيرا ما نشاهدها تحـدث فى المسجد ، وفى صـلاة الجمعة على وجه خاص ، وأخشى أن يكون لهـا تأثير سيىء فيمـا يرجون من اخلاص العبادة لله ، والتوجه اليه سبحانه وحده •

ومن هنـا أوجب الاسـلام أن يسود فى المساجد مظهـر الخشوع والسكينة ، والبعـد عمـا يكدر صفو الروحية التى يسعون اليها ، ويلتمسونها بالصلاة الجامعة •

مظاهر لا تليق بجلال المسجد :

وحرصا على هذا الأدب لا ينبغى أن يتخذ منهـا مسرح للتسول ، وبيع المجـلات والكتب ، يخترقن بهـا الصفوف وتوزع على المصلين أوراق التسول والمجلات والاعلانات التجارية والطبية ، ثم تجمع وينتقل بهـا من صف الى صف ، وهكذا يشغل المصلون بهذه الحركات عن حسن توجيههم الى الله حتى اقامة الصـلاة •

ولا ينبغى أن تنطـلق فيهـا الأصـوات المزعجة المقـرفة للقلب عقب الصلاة ، بحـذاء فقـد ، أو مسبحة سقطت ، أو منـديل ضاع ، أو قراءة فاتحة لصـاحب الضريح أو غير ذلك ، مما يصرف الناس عن تسمم طمأنينة الصلاة ، أو آداب سنتها أو ختمها كما ورد بالتسبيح والتحميـد والتكبير ، وصح عن ــ النبى صلى الله عليه

وسلم ـ أنه حذر من التماس الضالة فى المساجد « والضالة الشىء المفقود » وأمر بالدعاء على من يلتمسها قولوا له : « لا ردها الله عليك » فان المساجد لم تبن لهذا .

ولا ينبغى أن تتخذ منها ميدانا للجدل الصاخب ، يثيره متفيهق ثرثار فى شأن لا تعرف مشروعيته أو عدم مشروعيته الا من رجال النظر والاختصاص فى الفقه وشئون العبادة .

ومن أمثلة ذلك ما كتب الى بعض المقيمين فى القرى ويقول : « قد أخذت الناس فيه عاصفة حادة من الجدل وصلت بهم الى المعارك المادية فى بيت الله وحرمة الصلاة » وكان من تلك المسائل : « صلاة الظهر ينفرد باقامتها بعض المصلين عقب سلام الامام من صلاة الجمعة مباشرة » . ومنها : « الأذان الذى يفعل بين يدى الخطيب داخل المسجد بعد صعود المنبر » . ومنها : « قراءة سورة الكهف بصوت مرتفع قبل الصلاة » ، وخاصة اذا كانت من قارىء يعمد فى قراءته الى تطريب النغم ، فترتفع الأصوات بكلمات الاستحسان ، الى حد يتخيل مستمعوا المذياع أنها أصوات تنبعث من أحد الملاهى ، أو احدى حفلات السمر ، وما هى الا فى بيت الله ، ومجتمع المناجاة ، وبقراءة القرآن الكريم ؟؟

ولا ينبغى أن يهرع المصلون عقب السلام مباشرة الى حمل أحذيتهم ، متزاحمين على باب المسجد ، متدافعين متسابقين الى الخروج ، شأن الفارين من سجن طالت اقامتهم فيه ، وضاقت بهم سبل التخلص منه ، ثم جاءهم الفرج ، وفاجأتهم ساعة الخروج ، وهم ما كانوا الا فى المناجاة ، وتطمئن القلوب بذكر الله .

وقد كان من وصايا الرسول فى ذلك أن طلب من المؤمنين الاغتسال ليوم الجمعة . وجعل أكل الثوم مثلا لكل من به رائحة كريهة مؤذية ، وحذره من قربان المسجد وشهود الجماعة ، وصح عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت :

(كان الناس ينتابون (يأتون) يوم الجمعة من منازلهم ومن العوالى (القرى) فى العباء ، فيصيبهم الغبار والعرق فتخرج منهم الريح ، فأتى النبى انسان منهم وهو عندى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا » ؟) .

واذا كان المسجد هو مكان الاجتماع الاسلامى ، فان ما يطلب فيه من التطهر والطيب شأن كل مجتمع فاضل فى نظر الاسلام .

وكان من وصاياه عليه الصلاة والسلام فى الجمعة ومثلها كل جماعة . التخدير من تخطى الرقاب ومن وصاياه الخاصة بالخطباء التحذير من اطالة الخطبة .

الطمانينة القلبية :

وبعد .. فليس من شك فى أن الطمأنينة القلبية التى يلتمسها المسلم من صلاته ومن حضوره المسجد ، لا سبيل لها الى القلوب الا فى جو الهدوء والسكينة ، وخلوص الفكر لله وانفعال النفس بجلاله وعظمته ، وليس من شك أيضا فى أن كل ما يؤذى ، رائحة ، أو صوتا ، أو حركة ، أو منظرا ، مما يعوق سيرها الى القلوب ، ويجعل الصلاة وحضور المسجد مجرد شأن تقليدى ، لاحظ للروح فيه ، والمؤمن يجب أن يكون فاقها بعبادته ، جادا فى عمله حريصا على خيره ، ملتمسا رضا ربه .

« قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » .

والله اعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

حوار بين السيد رئيس الجمهورية
والعلماء والمفكرين المسلمين

التقى الرئيس السادات فى الاسماعيلية بعلماء الدين الاسلامى .. حضر المقابلة حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور عبد الرحمن بيصار شيخ الازهر وحسن التهامى نائب رئيس الوزراء برئاسة الجمهورية والدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب ومنصور حسن وزير الدولة لرئاسة الجمهورية وعدد كبير من علماء الازهر الشريف والكتاب والمفكرين الاسلاميين ، وفيما يلى النص الكامل لكلمة الرئيس وكلمات القيادات الدينية والمناقشات التى دارت عقب انتهاء الرئيس من كلمته :

بسم الله ..

فضيلة الامام الأكبر .. الاخوة الاجلاء وعلماءنا الفضلاء . دعوتكم هذه الليلة لكى نتذاكر فى أمر اعادة بناء مصر بعد أن فتح الله سبحانه وتعالى علينا بلدنا .. فأصبحت لنا لا قرار فيها غير قرارنا ولا ارادة فيها غير ارادتنا وسمعتم اخوتكم وأخواتكم الذين تحدثوا من قبل فى مختلف فروع التخصصات وفى الحلول والمشاكل التى نواجهها والتى نعمل جميعا من أجل أن نصل الى الحلول فيها .

ومشاكلنا معقدة لأنه مضت فترة طويلة أهملت فيها أمور كثيرة ، ثم فوجئنا وتعداد السكان يزيد بمعدل مليون كل سنة .. فوجئنا بهذه المشاكل تجتمع مرة واحدة لتواجهنا وسمعتم اخوانكم وأخواتكم فى توصيفهم لهذه المشاكل وللحلول ولعلها المرة الأولى التى نجلس فيها جميعا كعائلة واحدة لا فرق بين حاكم ومحكوم . كما تقضى شريعتنا السمحة لنتذاكر ولنطبق قول الله سبحانه وتعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

فى هذه المرحلة لن يصح أمرنا الا بما صح به أمر الأوائل المكافحين من آبائنا وأجدادنا . من أن تجتمع كلمتنا جميعا على كلمة سواء .. وأن نشترك جميعا فى توصيفها نواجهه وفى ايجاد العلاج والطرق لمواجهة هذه

المشاكل كلها . وتتذكرون أننى فى بداية هذه اللقاءات تحدثت الى الشباب وكان أول لقاء لى هو مع الشباب .. لماذا ..؟

اعداد الشباب للمستقبل

لأن الشباب هو الجيل الذى لابد أن يتسلم المسئولية منا .. الذى علينا أن نعده ونسلحه بكل ما نستطيع من أسلحة وعدة لكى يواجه الحياة ولكى يبنى مصر .. مصرنا الخالدة ولكى نجنبه أيضا ما وقعنا فيه من أخطاء وعبر أكثر من ألفى سنة قبل ثورة ٢٣ يوليو كما سمعتمونى أقول كان الحاكم أجنبيا فى مصر .. ولم تحكم مصر بأبنائها الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو .

سمعتمونى أيضا أقول ان ما عنيناه لم يكن فقط مصدره الاستعمار الذى كان يجثم على صدر البلاد الاستعمار البريطانى .. ولم يكن مصدره الملك المتعنت الاجنبى عن هذا الشعب والذى يريد أن ينطلق بشهواته .. ولم يكن أيضا الزعماء السياسيون فيما بعد سنة ١٩٢٢ الى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذين جعلوا من مصر مزرعة لهم ولمصالحهم واحتكروا الحكم كأنهم هم مبعوثو العناية الالهية لحكم مصر أما نحن الفلاحين والعمال الكادحين والعاملين فليس علينا الا السمع والطاعة لهم .

خانوا عرابى قمة المأساة

لم يكن هذا وحده ما أصابنا ولكننا فى الحقبة التى تلت ثورة عرابى ثم ثورة سنة ١٩١٩ فى هذه الحقبة بدأنا نخرج على الطريق الذى كما قلت لن ننصلح الا اذا سرنا فيه .. بعد ثورة عرابى كما تعلمون قام نفر من أبناء مصر بخيانة عرابى وتمكن الاستعمار البريطانى .. من هذا المكان بعد أن دحر فى كفر الدوار والاسكندرية جاء الى القناة ومن هذا المكان زحف ووجد للأسف بعض الخونة من المصريين لكى يسيروا أمام الجيش البريطانى كأوامر الخديوى لهم .

وتبلغ المأساة قمتها حينما يحتفل الخديوى فى ميدان عابدين باستعراض قوات الجيش البريطانى

التى دخلت لتضرب وتستعرض مصر .. فى ثورة سنة ١٩ كان الحال أسوأ قام الشعب بثورة ١٩ لكى يقول فى وضوح وجلاء نريد الديمقراطية والدستور وحقوق الشعب .. واجتمعت كلمة الشعب كله فى هذه الثورة لدرجة أن السلطان فى ذلك الوقت كان قد سمى نفسه سلطان بدلا من خديوى .. حاول أن يجد من يشكل الحكومة فرفض كل أولئك الحكام خوفا من غضبة الشعب .. لجأت بريطانيا الى حيلة أصدرت بها فى ٢٨ فبراير ما سمى بتصريح ٢٨ فبراير يعطى مصر استقلالا منقدصا .

أخطاء السياسيين القدامى

وكان الأجدر بأولئك الذين تعرضوا لقيادة العمل السياسى فى ذلك الوقت أن يفرضوا أيضا هذا الأمر كما رفض الشعب فى ثورته كل ألوان الخداع .. ولكنهم قبلوا هذا التصريح وأوعز الانجليز الى الملك فى ذلك الوقت تحول السلطان الى ملك .. ليصدر ما سمى بدستور ٢٣ يوليو وبدأه بكلمة أنه منحة من الملك ووقع أيضا أولئك الذين يعملون العمل السياسى فى الخطأ الفادح حين قبلوا الاستقلال المنقوص ثم منحة الملك وانتقلت معركة الصراع بدلا من أن تكون معركة حصول الشعب على حقوقه كاملة بالتخلص من الاستعمار الأجنبى ومن العائلة المالكة الأجنبية .. حول زعماؤنا سامحهم الله الأمر الى صراع سياسى داخلى شغلوا به الشعب بأشخاصهم ومصالحهم ووضعوا أسوأ التقاليد لا ممارسة سياسية أو حزبية أو ديمقراطية كما كانوا يقولون عنها فى ذلك الوقت لأنه بدلا من أن يكون الهدف من أى عمل سياسى كما هو الحال فى العالم الذى بنى ويبنى الآن .. وبنى حضارات وبنى دولا .

بدلا من أن يكون الهدف كما هو عندهم رفاهية الشعب المصرى وحريته وكرامته وسيادته على قراره وعلى أرضه . استبدلوها بأشخاصهم ودفعوا الشعب الى التحزب للأشخاص حتى وصل

الأمر لذلك الشعار المؤسف الذى أستغلوا فيه سماحة هـذا الشعب وطيبته يوم أن قالوا الاحتلال على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلى .

معـــركة الزعامة

لم يصبح الأمـر حـرية مصر أو بنـاء مصر أو كرامـة الانسان المصرى لكى يعيش كما يعيش كل انسان عزيز على أرضه . وانمـا أصبحت المعـركة والمشكلة سعد وعدلى والنحاس وبقيـة الزعمـاء الآخرين . فى ثورة ١٩ ومن قبلها فى الثورة التى قامت بهـا مدينة القاهرة ضد الاستعمار الفرنسى .. كان الأزهر هو المكان الذى تنطلق منه الدعـوة السليمة .. دعـوة الكفاح والجهـاد .. دعوة الحرية .. دعوة الموت فى سبيل مصر .. دعوة الأحرار على أن ينال الشعب حقوقه وتألف فى ذلك الوقت عنصرا الأمـة .

وكان فى داخل الجـامع الأزهر يقف الشـيخ المعمم الى جـانب القسيس ينادون جميعا بحق مصر .. بحرية مصر .. ينادون جميعـا بأن تكون مصر للمصريين حقـا وقرارا وارادة عبر كل تلك المعارك مع الاستعمار سواء كان فرنسـيا أو بريطانيـا .. شعبنا فى هـذه المنطقة نحمد الله على أن الايمان يجرى فى دمائه .. هذا من فضل الله علينا جميعا .

هكذا أراد الله لنا .. أن يكون الايمان هـو أول وأرسخ مقـوم لشـخصية الانسـان على هـذه الأرض . ما قبل ذلك .

الأزهر والاسـلام

لابد لنا أن نذكر .. أن الأزهر لألف سنة كاملة كان هـو المدافع عن الاسـلام ولولاه ولولا معاركه معارك الأزهـر .. ليس فى مصر فقط وانما فى جميع انحـاء العالم الاسلامى .. لولاه لمـا استطاع الاسـلام أن ينتصر على الهجمـة الشرسـة من الاسـتعمار الأوربى على منطقتنا سواء هـذه الهجمة على صورة استعمار أوربى تسلل الى آسيا وأفريقيا ومنطقتنا العربية محـاولا ضرب الاسـلام .. لأن

الأسلام كان ولا يزال وسيظل ثورة .. ثورة بكل ما فى كلمة الثورة من أبعاد .. نحن نفخر بهذا .. ويجب أن نفخر به .

قصة مؤتمر المغرب

يوم أن جلس المؤتمرون فى المغرب منذ شهور .. فى مؤتمر اسلامى دعوت أنا له .. لعلكم لا تعرفون هذا .. لقد كانت الدعوة الى المؤتمر الاسلامى الذى تم منذ شهر أو شهرين فى المغرب أساسا موجهة منى الى ملك المغرب أن يطلب عقد مؤتمر اسلامى فى المغرب من أجل القدس ولا يستطيع ملك المغرب أن ينكر هذا ولا يستطيع السعوديون أن ينكروا هذا .. الدعوة أساسا من مصر وطلبت من ملك المغرب فى خطاب رسمى أطالب بنشرة فورا على الملأ لكى يدعو الى المؤتمر الاسلامى من أجل القدس .. ما الذى حدث .. حدث أنهم أجتمعوا فى المغرب وزراء الخارجية وفيما نحن نعد لارسال الوفد المصرى يتآمر ملك المغرب مع وزير خارجيته مع السعودية مع عناصر الرفض لكى يمنعوا وفد مصر من حضور هذا المؤتمر .

خافوا من وجود وفد مصر لكى يرد عليهم ولكى يقول لهم ان هذا المؤتمر نحن أصحابه ونحن الذين دعونا اليه .. ليس ملك المغرب وليست السعودية وليس أى بلد آخر .. تآمروا وانتهى الأمر بما سمعناه عن تعليق عضوية مصر فى المؤتمر الاسلامى فى غيبة مصر .. تارة بالرشوة من السعودية لبعض الدول العربية .. وتارة أخرى باستخدام الضغط مجاملة للسعودية ، ولكن كانت الدول الاسلامية الأفريقية حريصة على أن تشجب هذا الأمر ، وأثبتت فى محاضر الاجتماع شجبها لهذا الأمر وعدم موافقتها عليه .

هل تعليق عضوية مصر .. يحجب مسئولية مصر الاسلامية أبدا .. هل تعليق عضوية مصر يلغى ما قام به الأزهر حفاظا على الاسلام من أقصى العالم الى أقصاه لألف سنة ضد الهجمات

الاستعمارية الشرسة .. هل يلغى تعليق عضوية مصر هذا الدور أبدا .. هل يلغى تعليق عضوية مصر وكونها قبلة بعد مكة لكل مسلم فى جميع أنحاء الأرض أبدا لا يلغيها .

المسئولية

أردت أن أذكر هذا لكم لكى نعرف أية مسئولية نواجهها اليوم معكم أنا لا أتحدث عن الأمن الغذائى ولا عن مشكلة الاسكان ولا عن البنية الأساسية وما نعانيه لأن هذا الأمر يجرى اعداد الخطط له من المتخصصين وستعرض عليكم وعلى الشعب كله بوصفكم لستم مسئولين فقط عن الاسلام ولكنكم مسئولون أيضا عن كل ما يخص وطنكم وشعبكم وأجيالكم المقبلة .. أما مسئولياتكم الأولى فى الاسلام والدعوة ومن أجل هذا أنا أتحدث اليكم وأبدأ بهذا .. وأذكر هذا لكى نقول للعالم كله اننا نعرف مسئولياتنا الاسلامية ودورنا الاسلامى ونعييه ويعييه معنا كل الشعوب الاسلامية فى أفريقيا وفى آسيا وشعوب عربية كثيرة لم ترض عن تصرف حكامها وزعمائها . الذى حدث لا لشىء الا حقدا على مصر وعلى مكانة مصر وما بلغته مصر .

الاسلام الصحيح هنا

نحن فى حاجة الى أن نتذكر هذا وأذكره فى مستهل حديثى لكم لأنه يترتب عليه انى أطلب منكم أن تقولوا رأيكم فى هذا وما الذى أدخل الدور مصر الاسلامى فى مثل هذه السخائف التى لجأت اليها السعودية ومن جاراها أو صار من خلفها وهى المغرب أريدكم أن تقولوا رأيكم فى هذا .. يقولون ان الاسلام فى مصر فى خطر وأنتم جميعا رجال الدعوة الاسلامية .

وعلى مسمع من العالم كله أقول أننا نفخر أن الاسلام الصحيح هنا فى مصر .. ان مصر جزيرة الحرية والديمقراطية وكرامة الانسان كما أرادها الاسلام ليس فى مصر حاكم يأخذ ٨ ملايين جنيه راتب من فلوس المسلمين ليس فى مصر حاكم يصرف على موائد القمار والمسلمون فى

بقاع كثيرة فى هذا العالم يعانون .. ليس فى مصر حاكم يصرف من نقود المسلمين على التآمر والرشوة والخسة لمجرد أن يبنى زعامة وهمية .. أبدا .. نحن فى مصر .. نعرف الحدود تماما .. كل الذين تحدثوا اليوم أمامى ماذا طالبوا مزيدا من التمسك بالاسلام .. مزيدا من تطبيق الشريعة .. ومزيدا من التمسك بالعقيدة .. ولكنى أسأل ما هو حال الشعوب أولئك الحكام .. ليست فقط الشعوب الاسلامية فى أقاصى الأرض التى تحتاج للمعونة بل شعوب أولئك الحكام ما هو حال شعوبهم .. هل هم يستمتعون فعلا بكرامة المواطن المسلم فى بلده .. لا أستثنى بلدا واحدا منهم أبدا .. لا يتمتع المسلم هناك كما يتمتع المسلم هنا بكل كرامة المسلم .. بكل كرامة الانسان .. بكل الديمقراطية بكل السماحة التى نادى بها الاسلام .

معركة التحدى

لدينا مشاكل كثيرة كما قلت لكم .. مشاكل مادية .. الطعام .. والاسكان والبنية الأساسية ومستوى معيشة لائق لكل مواطن .. نحن نعمل على هذا .. نعمل لكى يتم هذا ، ولكن أولا وقبل كل شىء لن نستطيع أبدا .. أن ننتصر فى معركة التحدى التى نواجهها اليوم الا ببناء جديد للمواطن والمواطنة على أرض مصر ..

لا .. هو ليس بناء جديدا ولكن لأننا مررنا فى فترة ماضية بظروف تعرضت فيها كرامة الانسان وتعرض فيها الانسان المصرى بغير حق لأمور كان لا يجب أن يتعرض لها وانتهت بحمد الله ومن يوم أن قمت بثورة ١٥ مايو وصممت وأعددت الأوضاع كاملة أنا أقول نحن الآن فى معركة تحدى والذى سيصنع من مصر وطنا كريما عزيزا كما كان عبر كل عصور التاريخ .. والذى سيصنع هذا هو الانسان المصرى ولا أقول الجديد وانما الانسان المصرى بالمقومات التى لفترة من الزمن اذا أهملنا فيها الآن نعود اليها .

يوم أن يكون الشباب المصرى والفتاة المصرية مملوءا بالثقة ، قوة الايمان .. علما بالحدود التى وضعتها لنا شريعتنا .. سنبنى البناء الذى نريد لأننا جربنا أنفسنا فيما قبل ونجحنا الى أبعد ما يكون النجاح لأن أبلغ ما حصل وأبلغ مثل تتحدث به وأما بنعمة ربك فحدث .. و معركة رمضان سنة ١٩٧٣ .

الايمان

فى معركة رمضان ١٩٧٣ كانت أسلحتنا متخلفة ٢٠ خطوة عن السلاح الاسرائيلى .. ما الذى عوض هذه العشرين خطوة وأنطلق الى أن يكون سلاحنا متقدما أيضا على سلاح أعدائنا فى ذلك الوقت .. كلمة واحدة .. الايمان ، على هذه الشواطىء من بورسعيد الى السويس ١٨٠ كيلومترا .. على هذه الشواطىء من بورسعيد الى السويس شاطىء القناة وفى يوم ١٠ رمضان وفى الساعة الثانية ظهرا حينما عبر الطيران المصرى لم ينتظر أبناؤنا الأمر بالعبور بل أنطلقت الجحافل على مسافة ١٨٠ كيلومترا من بورسعيد الى السويس تهتف بنداء واحد الله أكبر .. الأمر جد وليس رواية نرويها لكى تكون موع محسنات الكلام أو لكى ندعو فيها لشىء لم يحدث أبدا هذا حدث ونحن عشرين خطوة وراء اسرائيل فى السلام سبقنا بالايمان ٢٠ خطوة .

الشباب اولا

من هنا كان كلامى للشباب وفى أول لقاء تذكرون قبل أن ألتقى فى رمضان بقطاعات الشباب ألتقيت بالشباب وقلت لهم قبل كل شىء قبل العلوم الجامعية .. قبل الدكتوراة .. قبل التكنولوجيا .. وقبل كل شىء فلنتسلح أولا ونسلح شبابنا من الداخل بالايمان . بعد ذلك العلم سهل كل شىء سيدخل بعد ذلك .. سيستطيعون أن يواجهوا الحياة .. وأخطر معركة نواجهها اليوم هى أن نبنى مصر بأحدث ما فى العصر .. لن نبدأ حيث بدأ الآخرون أبدا سنبدأ والآن نبدأ من حيث انتهى الآخرون لأن هذه هى مصر صاحبة سبعة آلاف

سنة التى أعطت العالم أول حضارة يوم كان العالم يسكن الكهوف ويقتات ورق الشجر .. وكان هنا مدنية وعلوم وفلك وبناء دولة وحكومة . هذه هى رسالتكم .. أن يبدأ الشاب والشابة المصريين نبنيهم من الداخل ومن أجل ذلك طلبت أن يكون الدين مادة أساسية .. مادة نجاح ورسوب ابتداء من العام الدراسى المقبل وطلبت أيضا أن ندرس الدين من المرحلة الابتدائية الى المرحلة الجامعية ولا مهادنة فى ذلك كل ما أطلبه أن تتطور فى أساليبنا سمعت من بناتى وهن يدرسن آيات قرآنية طلبت من هن أن يحفظنها .. أقول لكم أحمد الله اليوم .. لست فقط أحتفل بالاجتماع بكم من أجل أن نطبق مبدأ الشورى وتبدأ مرحلة جديدة بدولة جديدة تماما .. وانما أحمد الله أننى ختمت اليوم القرآن .. عندنا فى الفلاحين تعودنا يوم خاتمة القرآن نحتفل .. كما نحتفل تماما بأى عيد .. بأى مناسبة دينية .. بل يبكون الاحتفال أكبر .

خاتمة القرآن

أحمد الله ختمت اليوم .. أحمد الله سبحانه وتعالى على أن يسر لى أن أقرأ القرآن وأن أختم القرآن وأن أبدأ ثقافتى وحياتى بحفظ القرآن من أجل ذلك أقول لكم : أخترت يوم أن عرض على بناتى الآيات المطلوب منهن أن يحفظنها .. وهى من أصعب الآيات التى أقرأها فى القرآن ـ لماذا ـ أنا أذكر وكنا فى سنة ١٩٢٧ ولن أنساها أبدا كنت فى عام ١٩٢٧ وفى مستهل التعليم الابتدائى وماكدت أن أنتهى من الروضة ونقلت الى الابتدائى . كان تدريس القرآن لنا يبدأ بقصص الأنبياء فى يسر وسهولة هذا القصص من طبيعته مع الطفل أن يفتح أمامه آفاق الخيال .. الطفل كله خيال فى هذه المرحلة فلنضع له ما يغذى هذا الخيال وفى الوقت ذاته يعطيه أول الذاد نحو طريق التعليم الدينى السليم فى المستقبل لن ننسى أبدا الى هذه اللحظة اليوم الذى حكى لنا فيه مدرسنا عن يوم أن شقت

الملائكة صدر النبى عليه الصلاة والسلام يوم أن رعى الغنم وأخرجت منه الشيطان وغسلته .. قد يحاول بعض المتفرنجين أو ممن يسمون أنفسهم بالعقلانيين أو المتفلسفين أو الملحدين أن يشككوا فى هذا ولكن تبقى حقيقة هى أنه من هذه الرواية وأنا طفل فى السنوات الأولى من عمرى عرفت أن هناك خيرا وشرا وأن هناك شيطانا يكمن فى صدر الانسان عليه أن يتخلص منه أو أن يراعى فى حياته أن لا يسيطر هذا الشيطان على تصرفاته من هنا أنا بطلب أن يكون تدريس الدين من أول المراحل من الابتدائى بقصص الأنبياء ولدى أساتذتنا من أساتذة التربية الأفاضل ما يستطيعون أن يفعلوه فى هذا الاتجاه بأحسن مما أقول به أو بأكمل ما يمكن أن يحقق هذا الغرض وقد لا أكون على بينة منه ولكن أردت أن أضرب لكم المثل فقط .

الدين مادة اساسية

ابتداء من العام الدراسى القادم سيدرس شبابنا أبناؤنا الدين كمادة أساسية .. وكما قلت يبدأ من الابتدائى الى أن يصل الى المرحلة الأخيرة فى الجامعة سأطلب أيضا دراسة المقومات الأساسية فى التاريخ القومى بدءا من المرحلة الابتدائية أيضا وأقصد بالمقومات الأساسية تلك العلامات التى ندرسها فى هذه النفوس الغضة لكى تستطيع أن تواجه الحياة بعد ذلك كأن يعلم أن الانسان من عقل وجسم وروح ، أن العقل له غذاء والجسم له غذاء ، والروح لها غذاء وأن يعرف أن الاختلال فى أى غذاء لأحد من هؤلاء يخل بتكوين الانسان فى أسلوب سهل سلس بسيط .. من هذه المقومات أيضا أن نعلم أبناءنا ما هى القوة .. هل القوة هى فى العضلات أو الصوت العالى أو فى التنكر للقيم .. لا .. القوة شىء آخر .. القوة تأتى من أن يحس الانسان أنه على حق بينه وبين ربه .. وبين نفسه .. هذه هى القوة .. تجعله أقوى الأقوياء ويواجه كل ما تأتى به الحياة .. وقد جربتها فى حياتى وأحمد الله أنه ما فى مرة من المرات فشلت .

الاسلام الصحيح

• علينا أيضا فى المقومات الأساسية أن نعلم أبناءنا أن الله سبحانه وتعالى حق ، الخير حق ، العدل كل ما يجعل الحياة شريفة حقا .. أن تقديس الوالدين فى الأسرة حق .. لا تتصوروا كم أنزعجت بعد ١٨ ، ١٩ يناير يوم دعوت اتحاد طلبة الجامعات وكان فيهم شاب أطلق لحيته أمامنا فى أن يقول أنه بلغ قمة التدين وتذكرون أنه كان فظا بذيئا ــ هل الاسلام هو الفظاظة أو البذاءة اذ لم يتعلم الاسلام الحب والكلمة الحلوة والايمان الذى يجعل الانسان فى كل حياته متوازنا مفتوح القلب والوجدان للناس ولكل شىء .. هذا هو الاسلام ليست البذاءة للأسف ده طالب متخرج من اللى أطلقوا لحاهم واللى كانوا من زعماء الجمعيات الدينية اللى بيقولوا عليهم فى الجامعات •

هل هذا هو الاسلام

تقديس الأب والأم القيم .. القيم ربنا سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم .. وكلكم أساتذتى وأفضل منى .. وامامنا الأكبر الى جانبى .. « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا .. » ده بيقول كده .. فى نفس الوقت اللى قال فيه الله لا يغفر أن يشرك به ده حكم قطعى .. أبدا يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .. حتى فى الاسراف لا تيأسوا .. ولكن فيه حد قطعى هو لا يغفر أن يشرك به .. ذلك .. مع الأب والام .. بيقوله لا .. ماتسمعش كلامهم لكن اتكلم كويس معاهم ..

عتاب لعمر التلمسانى :

هذا هو البناء اللى احنا عاوزينه وليس البناء الذى يلجأ له البعض فى الجماعات الدينية وهنا انتقل لأعتب كان لعمر التلمسانى عتب .. ولى أيضا عتب عليه .. عمر التلمسانى لعل عتبك .. محمود عواقبه .. ضحك وتصفيق من الحاضرين • الرئيس السادات : أرسلت جماعة الاخوان المسلمين

بواسطة محاميها لرئيس الوزراء السابق ممدوح سالم انذارا أو اعلانا بأن قرار حل الجمعية بواسطة مجلس قيادة الثورة أنها لا تعترف به وأنه غير قائم .. أنا لا أعلم بهذا أبدا الا بعد أن استقال ممدوح ولو علمت لقلت آسف .. ولا .. القرار قائم وحقيقى أقولها أمامكم جميعا وأصدرت الجمعية الصحيفة التى تصدرها ويكتب افتتاحيتها الاستاذ عمر على أساس أن الجمعية المسجلة فى الشئون الاجتماعية نعم مسجلة ولكن قرار الغائها قائم ومع ذلك انى أرسلت اليكم ووضعتكم فى المعتقل من أجل هذا يزيد الامر مرارا فى نفسى يوم أن يكتب لشبابنا الذى أتحدث عن تكوينه ليقابل هذا التحدى من حولنا ليقابل تحدى أولئك الذين يظنون أن المال هو كل شىء السعوديين وغيرهم والذين يحاولون لأن يعلقوا عضوية مصر فى العالم الاسلامى بكل بذاءة وبكل وقاحة .

مصلحة من هذا ؟

يخرج عمر التلمسانى وفى صدر المجلة بالمقال من خطاب وصله أن الحكومة الامريكية أو المخابرات الأمريكية أن ممدوح سالم ليقول له فيه : أوعوا .. خذوا بالكم ان الجماعات الاسلامية أن هؤلاء خطر جدا وأضربوهم واخلصوا منهم هل هذا صحيح .. حزنى أنه .. هذا الأسلوب لابد وأن ينتهى بعد كل ما جرى يا عمر فى الماضى كما تحدثت أنت تماما وفتحت السجون والمعتقلات وأعدت لكم كل اعتباركم أعطيت سيادة القانون وحرية كاملة بدليل أنه تذكر مجلة فلا يعترض اليك أحد مع أن اصدارها قائم على أساس غير قانونى ولابد أن نوقف فى الحال أبدا لكن لمصلحة من ؟ الشباب اللى أنا بقوله لازم أقبل التحدى وندى مصر البناء الاسلامى الكبير البناء الاسلامى أوله أن الانسان لا قوة ولا سلطان عليه أبدا الا الله سبحانه وتعالى كيف أقول له ان أمريكا بعتت تخوف .. كيف أصور حكومة مصر التى

أعطت كل هذا انها حكومة تأخذ من حكومة أمريكا أو غيرها ليقول لها حوش الجماعات الاسلامية تخريب تخريب للشباب لأن شبابنا سوف يتصور ان هذا الكلام فيه حقيقة للأسف الا تذكر يوم أن كانت هناك شبه تدخل سوفيتى وقبل أن أعمل معركتى وأنا فى مسيس الحاجة ومخنوق والاتحاد السوفيتى لكى يعطينى السلاح لأعمل معركتى وعلاقتى مع أمريكا مقطوعة وأهاجمها بكل عنف فى ذلك الوقت ما كانت هناك شبه أنهم يريدون أن يتدخلوا أمرت ١٧ ألف خبير سوفيتى أن يغادروا مصر فى اسبوع وحددت الموعد وقبل أن يحل الموعد بـ ٢٤ ساعة نفذوا الامر أريد أن نبنى شبابنا على الحق وعلى القوة والأصالة ليس أبدا على الاشاعات وأريد أيضا ألا يكون سبيل جمعية الاخوان هو السبيل الماضى الذى حدث قبل ٢٣ يوليو .

لم لم يتعرض لكم أحد :

أنا شاهد وأنت تعلم والجميع يعلمون والشيخ عبد الرحمن يعلم أن يدى كانت فى يد الشيخ البنا الله يرحمه والتنظيم السرى أمامى وبأشخاصه وما كان فيه من أسلحة أمامى ولكن ماذا فعلن أنا برغم كل هذا لم يتعرض لكم أحد ولم أقفل الجريدة ولكن أرسلت لوزير الداخلية لكى يقول لك عيب وقال لك بالفعل كل ما أريده هو أن تتآخى ونحن نبنى أبنائنا بالذاد الذى هو فوق العلم وفوق كل شىء الايمان يأتى قبل كل شىء وفوق كل شىء بالايمان يستطيع الانسان المصرى رجل أو فتاة أن يدخل النار ويخرج سالم أريد ونحن نبنى هذا أن الدين على صدق وعلى خير وأننى لست لى اطلاقا سلطة لفرض سلطة أو فتح معتقلات أو الانتقام أو الحقد كما تحدث عمر بالذات . وفى النفس المسلمة لا يكون الحقد ولا يعيش الحقد أبد وأحمد الله لا يعيش الحقد فى صدرى أبدا وخاصة اننى أعلم حدودى أمام

ربى سبحانه وتعالى وأننى مسئول عن أقصى حبة رمل فى مصر من شرقها الى غربها من شمالها والى جنوبها وأعلم أننى سأحاسب عليها .

لا يتكرر ذلك :

من هنا أريد أن يكون هذا سلوك كل واحد منا يتعرض للدين ولدراسة الدين لأجيالنا المقبلة نتيجة هذا نتيجة المسار القديم اللى أنا بطلب ألا يتكرر لأنى سأوقفه أمام الشعب وأنا لا أعمل شيئا من وراء الحجرات .. أنا بأعمل كل شىء فى العلن من نتيجة هذا جماعة الفنية العسكرية اللى أنتم سمعتم عنها أولاد صغيرين يهجموا على الفنية اللى أنتم سمعتم عليها وقاموا بذبح الحراس كما تذبح الشاه باسم الدين باسم الدين كانوا اخوان المسلمين كانوا فرعا من الذين خرجوا من الاخوان المسلمين شكرى مصطفى الذى قتل الدكتور الذهبى من منا لم يستنكر ما حدث للدكتور الذهبى . عيب شكرى مصطفى أصله اخوان مسلمين أنا انتهز هذه الفرصة لأتكلم أمامكم بصراحة بماذا لأننى كولى للأمر لست رئيس للجمهورية الآن رئيس الجمهورية عليه أن يلغى جماعة الأخوان وأن ألغى جريدتها الى أن يسجلوا نفسهم من جديد لأنه لا وجود قانونى لهم . أنا لست رئيس جمهورية بأعمل هذا لا أنا كبير العائلة ومن ولانى الله سبحانه وتعالى عليكم لا أسأل عما أفعل مع كل واحد فيكم .

الجماعة الاسلامية

من أجل هذا أقولها بصراحة.. واليوم بدأ البعض .. فيما يسمى بالجماعات الاسلامية أيضا تحت دعاوى تضليل لأبنائنا لمصلحة من نضلل ؟ اذ كنا نريد أن تعطى لأبنائنا دروس من التاريخ فلنعطى لهم الدروس الكاملة .. غير منقوصة ولا يلجأ البعض الى الشباب الغض اللى الاثارة فيه سهلة لأنه بطبيعته مادة ملتهبة الشباب عشان يثيروا ضد ده أو ده.. لقد وصل الأمر فى الجماعات الاسلامية أن واحدا ذهب لوالده يقول له ان الفلوس التى تأخذها

من الدولة حـرام .. مش عـاوز فلوسك وبعد ذلك رست العمليـة انه اجرام سمعتمونى فى المنيـا واسيوط باحكى انه يطلعوا يروحوا « حارقين » كشك وبيروحـوا داخلين طلبة ويروح داخل بعضهم على أسـتاذ فى المـدرج ويخـرج الاستاذ من غرفة المحاضرات عشان يوقفوا الدراسة .. هل هذا هـو اسلام .. يخلوا راجـل ماشى فى المنيا مع ابنته ويقـولون لهم ازاى تمشى مع بنت ويرد هذه ابنتى ، فيطلبون منه شهادة الميلاد . ياأخى دا ربنا سبحانه وتعالى قال لمحمد عليه الصلاة والسلام : « لسـت عليهم بمسـيطر » ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة .

أنا أنتهـز الفرصـة لكى أقول لكم كل ما فى قلبى علشان بعـد ذلك . والله لن أرحم ـ أبـدا ـ بالاسلام وبالدين .. لأن مصلحة المجموع ومصلحة مصر لا يمكن أبدا أن أضعها فى ميزان يتلاعب به أمثال هؤلاء .. الذين يدفعـون دفعا ـ وولد من المنيا من الجماعات الاسلامية يطبع منشـورات فى القاهرة يقبض عليه ونجد معـه ٨٠٠ جنيه ومنشورات كلها ضرب فى النظام وفى الدولة .. أقولهـا وقد حكيت لكم ما نواجهه مـن تحدى .. سواء من الداخل او من الخارج .. فى الداخـل علينا ان نحل مشـاكلنا المستعصية وفى الخارج علينا أن نواجه ـ للاسف ـ أخوة لنـا وأن نضعهم مكانهم وأن نعلمهم من هى مصر .. اذ علينا أولا أن نصلح من أمر أنفسنا من داخلنا .

لا دين فى السياسة

ومن أجل هذا انا ناديت وقلت لا دين فى السياسة .. ولا سياسة فى الدين .. لجـأ البعض الى محاولة استغلال هذا الكلام أقوله وأكـرره .. لا دين فى السياسـة ولا سياسة فى الدين .. الـذى يريد أن يشتغل فى العمل السياسى والاحزاب موجودة .. اتفضـل ويمارس حقه كامـلا . .أما أن يستغل الدين للوثوب على الدولة ..أو لمهاجمـة الدولة ـ لا ـ

عيب ـ من نتيجة هذا .. انهناك بعض الائمة وبعضهم يا عمر اخوان .. وبعضهم أنصار للاخوان يستخدمون المساجد للهجوم على الدولة .

الدولة لن تتسامح :

ألا فليعلموا جميعا أن الدولة لم تتسامح مع أى انسان بعد الآن ـ لكم على النصيحة وقد قلتها ولكم على أن أعطى فرصة وقد أعطيتها ولكم ما يجابهنا من مسئوليات كما قلت لكم فى الداخل والخارج يحتم علينا أن نضرب هذا الانحراف .. نضربه .. وأطلب منكم أن تضربوه .. لا بد أن تضربوه أنتم بسلوككم أولا ثم بتعليم أبنائنا الحقائق السليمة عن تاريخنا وعن ديننا وعن نشاطنا وعن عملنا .

منذ ٩ سنوات .. أغلقت المعتقلات نهائيا ولم تفتح أبدا .. أعدكم فى وقتى لن تفتح أبدا وعليكم أنتم فى الوقت الذى يأتى بعدى عليكم أن تقولوا هذا الامر لكن فى وقتى لن تفتح باذن الله المعتقلات أبدا وفى وقتى لم استخدم الاحكام العرفية الى هذه اللحظة مع أنها موجودة .

فى وقتى الامن والأمان .. الحرية الكاملة ولكن ـ محاولة استغلال الحرية لا .. لا الدولة كريمة على نفسها وعزيزة على نفسها ... وقد آن الأوان لكى يعلم الكل ان الدولة فوق كل هذا الصغار ومن يقبل تحت أى شعار والمصيبة الكبرى ان يكون الدين هذا الشعار ـ لا ـ ..

الاخوان والشيوعية :

عندما قلت لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين كان سببها أيه .. أنا أرسلت لك يا عمر أيضا .. فى معركة نقيب من النقباء المهنية تصادف شيئا غريب جدا .. فوجئت بأن الأخوان .. الشيوعيين .. الوفديين القداما .. الانتهازيين جميعا بيتكتلوا وراء مرشح معين لأنه يشتم فى الدولة ..

وقد أرسلت لعمر .. وقلت يا عمر عيب ليه هو الدين ننتخب

من يشتم الدولة أو ننتخب من كل مؤهلاته البذاءة كل مؤهلات ذلك الرجل كانت البذاءة على الحكم وعلى .. طيب على أنا أتتم عارفين أننى أتسامح فيما يخصنى لأنى هكذا أراد لى الله أن أكون فى هذا المكان والكاظمين الغيظ ـ حافظ ـ القرآن وأقرأه ـ واختمه وأمرنى أن أكظم الغيظ .

وهنا قال عمر التلمسانى أليس من حقى أن أرد وقال الرئيس أكمل يا عمر وعاد الرئيس يقول هل يعقل أن يكون فى مركبنا واحد من الاخوان والشيوعيين والغد الجديد اللى حطم الفساد القديم كله اللى قبل ٢٣ يوليو على الانتهازيين .. يبقى هذا كله مع بعضه أنا أضع هذه الحقائق لأول مرة أمامكم ولم أحكها قبل الآن ولكن أحكيها الآن لأننا مقبلون فى المرحلة الجاية .. لابد أن نقف كلنا كعائلة واحدة وكرجل واحد لنقابل التحدى .. لحل مشاكل فى الداخل ومواجهة الصغار والأقزام فى الخارج ونعلمهم حجمهم ومكانهم ولكن شيئا واحد بس..أرجو من جماعتنا الدينية ألا تقبل أموال من أولئك الأقزام لأن عندنا البيان .. واذا كان الأمر مقصودا به خدمة الاسلام على العين والرأس وان يكون علنا أما بالأساليب الأخرى لا ..

ان عمر يريد أن يدافع وله الحق .. لأنه أنا يمكن ركزت عليه شوية .. وهو كان طالب مقابلتى وأنا رفضت الى أن قابلته اليوم لكى تتكلم أمام الشعب .. لأن هذا هو أسلوبى .. لن أتكلم الا أمام الشعب ليعرف الشعب الحقيقة كاملة فليس لى حقد مع أحد والا كنت اتخذت اجراءات من يومها وخلصت .

الرئيس السادات ـ موجها حديثه الى عمر التلمسانى اتفضل يا عمر .

لسنا مع الشيوعيين :

عمر التلمسانى .. أرسل لى زعماء الحزب الشيوعى أكثر من مرة يدعوننى لحضور ندوات

عندهم فكنت أرفض فى كل مرة لأنى أعلم ما بين الاسلام وما بين الشيوعيين من عداء وأن الاثنين لا يمكن أن يجتمعا فى ركب واحد أو يسيرا فى ركب واحد .. وأنا أعلم تماما أنهم أرسلوا الى أن أحضر ندوات لا لأنهم يتعاونون ويريدون أن يشاركوا فى اتجاه انما يريدون أن ينشروا عمر التلمسانى جالس مع زعماء الشيوعيين ويصدر هذا للشعب ويقال ان الأخوان والشيوعيين مع بعض ولا يكون الاخوان والشيوعيون فى يوم من الايام مع بعضهم .

وأرسل الى من الأحزاب اللى تحدثت سيادتك عنها للزيارة .. قلت من جهة الزيارة للسلام أو للتحية والسؤال عن الامور العادية أهلا وسهلا . اذا كانت الزيارة للكلام فى السياسة فى جبهات الاخوان المسلمين لن يسيروا فى جبهة مع أحد أبدا لأن تاريخهم اسلامى ومعروف .

السفارة الانجليزية :

سيادة الرئيس أرسلت لى السفارة الانجليزية بخطاب تخطرنى أن أحد رجال وزرة الخارجية سيزور مصر وسيزورنى يوم ٢٢ / ٦ الساعة ١٢ وأرسلت الخطاب الى وزير الداخلية وأرسلت الخطاب بتاعى وقلت أنا لن أسمح بزيارة الا اذا استأذنت ثم ان كانت الزيارة الى معالم صحافية أهلا وسهلا وان كانت سياسية أنا لن أتحدث لأجنبى فى سياسة مصر لو أن غيرك أتهمنى لكنت أرفع الأمر اليك انما اليوم الى من أرفعه .. أرفع أمرى الى الله .. أنا برىء من كل ما قلت ــ أنا طاهر من كل ما قلت أنا نظيف ــ أنا مسلم ــ أنا مخلص غاية الاخلاص ويسمعنى الكثيرون .. اننى دعوت الله أن يديم حكم السادات الى أطول عهد ممكن .. اننا نستمتع فيه بحريتنا .. وان كان هذا جزائى عند أنور السادات . الحمد لله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

قمة الحوار الديمقراطى :

الرئيس السادات : أخشى أنك

عايز تطلعنى أننى أستغليت موقعى ووجهت لك هذا الكلام يا عمر ـ لا ـ أنت استدعاك وزير الداخلية كم مرة يا عمر ..

عمر التلمسانى : تعلم سيادتكم أن فترة الانتخابات كنت فى السعودية .. وأبلغ ذلك أحد الأخوان لأحد كبار الوزراء كنت أحج .

الرئيس : لا .. الانتخابات بتاعت النقابة .

عمر التلمسانى : انتخاباتأحمد الخواجة والشوربجى .. طلع فى الجرايد أسماء اخوان محامين وذهلت وسألت أحدهم وأجيبه لسيادتكم يزورك ويقولك قال لى هؤلاء كتبوا أسماءنا وهؤلاء كتبوا أسماءنا بغير اذن وهذه شئون انتخابية ولا دخل لنا مع هؤلاء أو هؤلاء ، واذا قال انسان اننى أمرت أو كلفت بأن فلانيؤيد فلان أنا أستحق كل ما قلته عنى .

الرئيس السادات : يا عمر علشان نجلوا الامر وحتى لا أكون متجنيا .. أخبرك وزير الداخلية بهذا وأخبرك وزير الداخلية أيضا فى شأن المقال طيب اذا أنا لم أذكر وقائع تجنيت فيها عليك لم تحدث ولم أتخذ اجراء ولن أتخذ اجراء والا كان ما يكنشى السبيل هو الكلام اللى احنا بنقوله النهارده اذن لا حق لك فى يعنى شكوتى الى الله لأنى أنا أخافه أخافه فعلا لقد أرسلت لك وقد حكيت ما حدث فعلا أنا أحكى وأقول يا عمر لو أن هناك نية مسبقة أو رأى كونته ما تركت مجلتك تسير على أساس غير قانونى ولا جمعية الاخوان تقوم على أساس غير قانونى وهى قائمة الى اليوم على أساس غير قانونى لو أننى كنت لاتخذت الاجراءات والقانون معى لا أنا .. أكلمك اليوم كبير العائلة الذى أراد الله له أن يجلس فى هذا الكرسى .

ويعلم الله اننى أريد انأستريح ومن كل هذا .. حقيقة والله ولكنى فضلت أن أؤجل وهذا الكلام بقاله شهور الى أن نلتقى وكان اللقاء اليوم ولعلك لا تذكر أو لا

تعرف اننى كلفت منصور عـاوز عمـــر ييجى لأنه لم يكـــن فى التخطيط أنك حـاتيجى قلت له أنا عايز عمر ييجى للمعنى الى أنا بقوله وهو أننـا كعائلة واحـدة نقعـد وتتناقش بمنتهى الصراحة وبعـد ذلك يبقى اللى يخطأ عليه أنيتحمل تبعته ولو أننى كونت رأى مسبقا أو ادانة مسبقة لاتخـذت الاجراء ولما كان هناك داعى أن تأتى اليوم الى هنا .

وعليه اسحب شكواك أمـــام الله .. ضحـــك وتصفيق مـن الحاضرين .

عمر التلمسانى : المـــــدعى الاشتراكى أرسل لى وحقـق معى ومضى على هذا التحقيق شهـــور مايو ويونيـو ويوليو وأغسطس ولا أدرى ماذا تم ولو كنت أعتقد أن هناك خطأ أو اســاءة ما كان المدعى الاشتراكى يتأخر عن اقامة الدعوى أو اتخاذ اجراء قانونى لم يحدث هذا .. وأنا على استعداد كامل أن أقدم بعلم محمد انـور السادات رئيس جمهـــورية مصر العربية الرجل المسلم انه لا يمكن لعمر التلمسانى لا خلقا ولا دينـا ولا تربيـة ولا منشئا أن يتـآمر أن يكذب أن يشتم والله أبدا .. ما حـدث فى لسانى أنا كنت فى المعتقل وأوقظت الساعة ١١ قيـل لى أن فـلان توفى الى رحمـة الله أول كلمة خرجت من لسانى بعد أن أمضيت ١٧ سنة فى السجـــن الله يرحمه .. لم يصدر من لسانى كلمة سباب لأحد بعد ١٧ سنـة سجن كانت الكلمة الأولى الله يرحمه مش أنا اللى أتآمـر أو أكذب أو أسب لقد بلغت من العمر المدى الذى لا يسمح لى أن أسيـر فى هـذا .

عفوا أنت الآن يا سيادةالرئيس ستجعلنى ألازم فراشى أشـهر .. لأن هذا الذى وجـه الى آذانى نفسيا ومعنويا وأسأل الله أن يلطف بى فى هـــذه الســن وألا ألازم الفراش وأن أغادر الدنيـــا فورا خير من أن ألزم الفراش مريضا .

وأنا اذ شـكوت الى الله فاننى أشكو لعادل وان كنت انا قـــد

تجنيت سيعلم الله .. ألا أشكو الى ظالم .. أشكو الى عادل بيده الحكم واليه المصير بدل ما اسحب الشكوى بتاعتى .. سيادتك اتخذ طريق تعالج به التعب الذى نالنى الآن .

نبدأ من جديد :

الرئيس السادات : أحسن طريق لهذا هو انه كل ما تحدثنا عنه .. مضى وفات وعلينا أن نبدأ جميعا أيدينا فى أيدى بعض لنقيم البناء.

عمر التلمسانى : أنا عاوز جلسة خاصة من سيادتك وأنا عندى كلام كثير عايز أقوله لك ، ومش قادر أقوله الآن .

الرئيس السادات : أنا آسف عطلتكم والجلسة طالت .. همى كله أن أضع أمامكم صورة برغم العملية مع عمر .. هو هدفى منها أنى عاوز أسىء الى عمر .

أنا لا أسىء الى الاخوان.. أو الى جماعة الاخوان .. وهم يعلمون أنى فى يوم من الأيام كانت يدى فى يد الشيخ البنا ونحن نكافح ضد عدو مشترك الانجليز والملك والاحزاب .

مجلس اسلامى أعلى :

أعتقد أنه نوفر الوقت عليكم واقترح أن فضيلة الامام الأكبر مع اخواننا منكم ننتهز هذه الفرصة لنشكل مجلس اسلامى أعلى يضم جميع الجمعيات ممثلة فيه وكذلك جميع النشاطات الاسلامية تمثل فيه ويكون مجلس عائلة اذا استجد أى شىء نقعد ونتناقش ونضع كل شىء وكل الصراحة والاخوة والود وكل ما علمه الاسلام من سماحة وصدق ويقين وادعو الله لهم جميعا بالتوفيق أيضا فى أن يجتاز هذه المحنة وشكرا .

وكان الرئيس السادات قد بدأ حواره مع رجال الدين الاسلامى فى التاسعة والنصف مساء وحضر الحوار حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور عبد الرحمن بيصار الامام الاكبر وشيخ الجامع الازهر وحسن التهامى نائب رئيس الوزراء والدكتور عبد المنعم النمر

وزير الاوقاف والشيخ جاد الحق مفتى الديار المصرية وصوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب والسيد منصور حسن وزير شئون رئاسة الجمهورية ورؤساء طوائف الدين الاسلامى وجمعية تحفيظ القرآن . نص الكلمات :

وقد بدأت جلسة الحوار بكلمة الدكتور أحمد الحوفى رئيس لجنة الشئون الدينية بالحزب الوطنى قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : سيادة الرئيس أنور السادات رب الأسرة وكبير العائلة المصرية نحن هنا لنتبادل الرأى فيما ينبغى أن تصنعه الأسرة فى غدها ومستقبلها . ونحن اذا حاولنا أن نحصر محامدك وأمجادك العديدة يا سيادة الرئيس لطال بنا الوقت وقد عرفناك منذ الشباب تكتب المقالات وتؤم الناس فى الصلوات وعرفناك رئيس للجمهورية أكثر تدينا تتقى ربك قولا وعملا ونحن سدنة التربية الدينية نريد أن نغرس فى نفوس أبنائنا ذلك التدين السهل لأن الاسلام عقيدة تقوم على اليسر والسهولة . أما من يتشددون ويتعصبون فيحرمون ما أحل الله فهذا ليس من الدين فى شىء ونحن نريد أن نبنى التربية الدينية على أساس سليم ونحن نريد أن نحدثك يا سيادة الرئيس عن أثر دينكم فى نصر مصر فى سنة ١٩٧٣ لم يكن مرجعه الى البطولة وحدها أو السلاح وحده بل الى تقوى الله قبل ذلك كله وكلنا يعرف صدرك وعدلك ومسالمتك ومرحمتك على الشعب كله . ومن هنا كان الاسلام . والحرب فى الاسلام ضرورة والسلام هو الأصل « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله» ونحن نقول لك انَ الشعب من ورائك يساندك ويعضدك فى موقفك ممن يعترضون على السلام ونحن رجال الدين وسدنة الدين معك ومن حولك نساندك ونعضدك وندعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظك لمصر لكى تحقق لنا كل منال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ألقى الشيخ محمد السطوحى شيخ مشايخ الطرق الصوفية كلمة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : الرئيس المؤمن وكبير العائلة ان لقاء سيادتكم تأكيدا لمبدأ الشورى وان شاء الله سيتم على أيديكم بناء مصر الانسانى والحضارى .. ان بلدا شعاره العلم والايمان وبه الأزهر سيظل رائدا للعالم الاسلامى ونحن الصوفيين فى كل مكان محصنون ضد الالحاد والشيوعية المتعصبين ونحن نطلب تعاونا أكبر من الاوقاف والازهر لدعم رسالتنا والدين اساسا والدين محبة والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والبناء يحتاج الى عناء ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه . سيادة الرئيس ان لنا مطلبا وهو دعم جماعتنا لأنهاتتكلف ما قدره ستة آلاف جنيه فى نشر مجلتها والله يوفقكم والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم ألقى محمد عوضين كلمة قال فيها : نحن الشباب ليس لنا مطالب الا مصر أولا وأخيرا وكبير العائلة أولا وأخيرا وكبير العائلة يجلس يجلس مع أبناء الشعب وهناك نقطة بدء هى أهم مسألة فى تعديل الدستور بل فى حياتنا أو استمرار بقائنا وهو الحكم بما أنزل الله وقد تحدث عنها الكثيرون حتى يمكن أو يقال انه ليس هناك من شىء اتفقت عليه جميع الاطراف الا الحكم بما أنزل الله . وكانت آخر الكلمات لمحمد عبد المقصود رئيس الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم .. سيادة رئيس الجمهورية .. الحمد لله أحكم الحاكمين الذى جمعنا هنا على الخير .. اننا فى حاجة ماسة الى أمن روحى بجوار الأمن الغذائى والأمن الفكرى والاجتماعى .. يسعدنى باسم القرآن الكريم وباسم الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم أن أبسط أمامكم بعض التوصيات التى انتهت اليها الجمعية :

ـ نقترح تشكيل لجنة عليا متخصصة تتولى تنقيةمصادر الفكر الاسلامى من المفتريات التى دست على الاسلام • وتتولى ترجمةمعانى القرآن الكريم الى كافة اللغات ونشرها بين المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها •

ـ العمل بالتدريج على توحيد النبع الثقافى فى التعليم وتوجيهه توجيها قرآنيا •

ـ يجب أن تهتم الدولة بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم وأن تسير الدراسات القرآنية والدينية فى خط متواز مع الدراسات العلمية •

ـ اقامة دار طباعة على أحدث النظم لطبع المصحف الشريف برسمه المختلف • حتى نطمئن الى أن المصحف أصبح بعيدا عن كل تحريف يقع عند الطبع أو عند التجميع •

ـ ثم قدم عبد المقصود هدية للرئيس السادات عبارة عن درع النصر والسلام وأخرى درع القرآن الكريم لاهدائها الى سيدة مصر الاولى وخمسة عشر مصحفا شريفا للرئيس وأسرته • ثم ألقى عمر التلمسانى رئيس تحرير مجلة الدعوة كلمة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ـ سيادة الرئيس •• يتابع المواطنون هذه اللقاءات باهتمام ويسألون الله أن تنتج عنها الخير ويعود منها النفع الكبير على الوطن وهم فى هذا محقون لولا عتب يسير على الذين حضروا هذه اللقاءات السابقة فى أن يطلبوا طلباتخاصة بهذه اللقاءات ليست فى مصلحة فئة بل انها من أجل الأمة كلها لذلك لن تسمع سيادتكم حملة الدعوة الاسلامية طلبا خاصا • سيادة الرئيس جئت الى الحكم وقد كانت السجون والمعتقلات تعج بالاغلال ففتحت أبواب السجون وأبحث أن تقام الاحفال والندوات وأن يتحدث فيها بملأ الحرية والانطلاق وأبحث للصحف أن تجترىء وتنقض •

وقد انطلق الذين خرجوا من السجون برسالة السلام الى هذه

الأمة ناشرين الحب والوئام وهما قبل كل قانون وما دامت القلوب مرتبطة فهى التى تحمى وتحرس وتؤيد وكان من فضل الله أن انطلقت الألسنة وتحدث الناس بهذا .

بقى أن نقول ان كل من يحضر يطالب باصلاح الاذاعة والشارع وكل شيء فى هذا البلد وقد كنا جميعا فى غنى عن هذه التفصيلات وأن نطبق شرع الله وينطلق الناس فى كل مكان مقيدين بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله وفى هذا الأمان والأمن . ويوم أن تربط قلوبنا بالله وتدعو أن حى على الجهاد ستجد الكل وراءك يا من تنادى بالجهاد . وبهذا نكون جميعا قلبا واحدا ليس فينا من يحمل حقدا لأحد فى قلبه وأن المؤمن الذى يعمر قلبه بالايمان ويسلم لله وجهه ويخلص له الاتجاه لا يحمل لأحد حقدا أبدا . أن المسلم يريد للناس الخير فكيف يكون الداعية لله بالخير يحقد على الناس وكلنا نريد لك الخير والله يرعاكم لهذا البلد تقومون فيها شرع الله وكلمةواحدة ترى قلوب الناس تتفانى وراء محمد أنور السادات ، خذنا بكتاب الله وسترى منا ما يرضيك نحن نحب ولا نكره وتتمنى لك كل الخير وتتمنى من الله سبحانه وتعالى لك كل خير سر على بركة الله والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم ألقى عبد الرحمن البناشقيق الشيخ حسن البنا كلمة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم .. سيادة الرئيس .. دعوتنا الى الاسلام وكان من حقك أن نجيب دعوتك وكان من حق الناس علينا أن نبينه للناس شرعا وعدلا وحكما فاصلا ففى الحديث الشريف « ان أحبكم الى أحاسنكم أخلاقا الموطأون اكنافا الذين يألفون ويألفون » . وقد كان أستاذنا الشيخ حسن البنا رحمه الله كان يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فعلى الشباب أن يعلموا ذلك ، ومن كان هذا خلقه فكذلك تكون دعوته هينة لينة ، لا خوف فيها ولا ارهاب « ولا

تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . اننا نطلب يا سيادة الرئيس أن نلزم كتاب الله فى كل ما نشرع ونقنن

ولك منى دعاء : اللهم افتح قلبه لهدى كتابك وافتح له أبواب رحمتك واحفظه من بين يديه ومن خلفه . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فهرس العـــدد

عزة العلمـــاء — **صـــفحة**

الدكتور عبد الودود شلبى ١٨١٩

بشرية رسول الله هى التى جعلته اعظم العظماء وجعلت الاسلام دين الانسانية الخالد

بقلم الاستاذ احمد حسين ١٨٢٤

الفرانيق والمستشرقون

دكتور رؤوف شلبى ١٨٣١

موقف الفلسفة الالحادية المعاصرة من غيبيات المادة

بقلم الدكتور يحيى هاشم ١٨٤٠

الطب الاسلامى او الطب النبوى

للاستاذ الدكتور على مطاوع ١٨٥٨

الشيخ صالح الجعفرى (داعية الجامع الازهر الشريف)

للدكتور محمـــد رجب البيومى ١٨٦٨

الحج اشـــهر معلومات

فضيلة الشيخ أحمـــد على منصور ١٨٧٨

جمهورية اسلامية ؟! وكيف ؟؟

للاستاذ محمد كمال السيد ١٨٨٧

الاسلام فى الفكر الاوروبى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية بقلم الدكتور محمد شامه ... ١٨٩٦

هواتف اسلامية (رجولة المسلم .. والحرية)

الدكتور ابراهيم أبو الخشب ١٩٢٨

من قضاة الاسلام (أبو عبد الله بن الازرق)
الدكتور فؤاد عبد المنعم احمد ١٩٣٧

الشريعة والحقيقة
لفضيلة الشيخ موسى محمد على ١٩٤٧

دفاع عن السنة
لفضيلة الشيخ عبد المهيمن الفقى ١٩٥٦

حكم ... وطرائف
اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ١٩٦٩

باب الفتاوى
للاستاذ عبد الحميد شاهين ١٩٧٤

حوار بين السيد رئيس الجمهورية والعلماء
والمفكرين المسلمين ١٩٨١

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

مدير المجلة ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء التاسع ـ السنة الحادية والخمسون ـ ذي القعدة ١٩٣٩ هـ ـ اكتوبر ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة الندوى يؤذن بالخطر!!

دكتور عبد الودود شلبي

لقد عشت فى الخليج العربى.. أو الفارسى .. أو الاسلامى .. سمه بأى الأسماء تحب .. !

عشت سنوات فى هذه المنطقة أرصد رياح الخطر ، وأعاصير الدمار والموت.. وفحيح الكراهية والحقد على الاسلام وشعوبه فى هذه الارض .

تآمر وكيد تجاوزا حدود الحكمة والعقل ، منظمات ظاهرة وخفية تنخر عظام كيان الوجود الاسلامى المزعزع .. سلبية بلهاء تقابل تحركات هذه الأخطار والأهوال ببلادة أيأس من اليأس ، وأوهى من خيوط العنكبوت فى مواجهة السيف ..!

ولن أنسى للرجل النبيل المجاهد الشيخ عبد الله بن على المحمود ـ رجل الاسلام الأول ـ فى دولة الامارات ـ لن أنسى مواقفه فى مواجهة الخطر الذى تصدى له بقوة وعنف ، وكشف جيوبه وأوكاره فى الامارات السبع ، فقد وجه منذ سنوات خطابا الى أمراء هذه المنطقة ضمنه كل ما يعرف عن هذه المنظمات والأشخاص الذين بدءوا يخططون لتدمير الوجود الاسلامى فى هذه الدولة ، وتحويلها الى « كميونات » حمراء فى حظيرة الشيوعية ..

لقد تحمل الرجل الوقور أمانة النصح ، وعرض نفسه للكثير من المتاعب رغم تقدم السن والعمر ، وحرم نفسه من مغانم الترف التى يسيل لعاب غيره من الأدعياء لبريقها الزائف فى ديوان الحكم.

ولقد زار العلامة « أبو الحسن الندوى » هذه المنطقة منذ ست سنوات ، وألقى فى امارة « الشارقة » محاضرة ضافية حذر فيها من الخطر الذى يتهدد كل الامارات .

ولا يتسع المقام هنا لذكر هذه « التيارات » ، و « المؤامرات » التى تحدق بالخليج من أوله الى آخره .. فليس خفيا ما نسمعه هذه الأيام عن الاضطرابات التى أقلقت حكومة الكويت ، ولا التهديدات التى توجه الى البحرين، ولا الانقسامات التى تغلغلت فى أعماق دولة الاتحاد ، ولا المخاطر التى تحدق بسلطنة عمان ولا الصراعات بين « يمن » الجنوب و « يمن » الشمال .. لقد اتسع الخرق على الراقع كما يقول المثل ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر فى النفوس والذمم !

ومأساة المآسى فى هذه المأساة التى يعيشها العالم الاسلامى أنه غريب بين الشرق والغرب . لم تعد له دولة مرهوبة ، ولا علم مرتفع يلتف حوله ومذ سقط حكم آل عثمان ، وتوارت من الوجود دولة الخلافة وتسلط على المسلمين أمثال أتاتورك ، وزيف التاريخ لصالح الشيوعية والغرب ، والمسلمون تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ..

أيتام على مآدب اللئام..وغثاء كغثاء السيل فوق تلال الرمال ..!

فى الحيـاة لا تعرف للمسلمين نظاما للسلوك يتميزون به .. وفى الحكم أمشاج قـوانين وأخـلاط نظم .

وفى القوانين والتشريعات مزيج من الايمان والكفر وفى الاقتصاد تصطدم مشاعرك بلون أحمر فاقع يقشعر منه البدن ، ولون قاتم يحرم فيه الانسان من الأسودين المـاء والتمر ، وترف داعـر يشرق فيه السادرون بالغواية والخمر .

انهم لا يقرءون التاريخ .. بل لا يستعملون حـاستى السمـع والبصر ... تحسبهم أيقاظا وهم رقود .. جميعا وقلوبهم شتى .. تماما كما حدث فى أخـريات دولة بنى العباس فى بغـداد .. وكمـا حدث للأمويين فى بلاد الأندلس .. وكما حدث لملوك المغول فى بلاد الهند .. وكما حـدث لملوك الاسلام وسلاطينه فى هذا العصر.

انهم لا يقرءون التاريخ كمـا قلت .. على قلوبهـم أكنـة أن يفقهوه .. وفى آذانهـم وقر .. وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها.. حتى اذا أزفت الآزفة .. وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم فجأة .. قالوا : يا ليتنا نرد .. يقـولون ذلك بعد فوات الوقت ..!

ولقد طـوفت فى أكثـر بلاد الاسلام .. أقمت فى بعضهـا كثيرا من الوقت ، وزرت بعضهـا فى مؤتمرات كثيرة العدد واختلطت بشعوبها وزعمائها فى كثير مـن المناسبات والفـرص .. فرأيت الخطر محدقا بهذه الشعوب من كل جانب ، وأيقنت بالمصير الذى لن يفلت منه غوىٌّ ولا راشد .

وقليل هم العلمـاء الذين يتصدرون لمـواجهة هذا الخطـر بالتحـذير والنصح ، والارشاد والوعظ ، والمجاهـرة القـوية المخلصة بكلمة الحق .. والاستاذ العلامة أبو الحسن الندوى مـن هـذه القلة النـادرة من العلماء المخلصين فى هذا العصر فقد زار مصر منذ ثلاثيـن عاما فقال فى رسالة له :

« اسمعى يا مصر » .. وزار المغـرب وايران فقال لهما مـا قال لمصر ، وزار جزيرة العرب فأمرها أن تستمع اليه كما استمعت اليـه قبل ذلك شعوب الاسلام فى الشرق والغرب .

وفى هذه المرة يمسك العلامـة الأمين بيده ناقوس الخطر ويتكلم بصراحة ووضـوح الى ملوك وأمراء المسلمين فى جزيرة العرب .

والذى يعنينى كمسلم يغار على مقدسات دينه ، ويفدى الحـرمين الشريفين بروحه ونفسه .. الذى يعنينى من هذه الرسـائل رسـالة وجهها سماحة الشيخ الى المرحوم جلالة الملك فيصل ، لأن ما يصيب هذه المملكة الاسـلامية يصيب الاسلام فى مقتل . ولأن صـلاح الأمور واستقرارها حول الحرمين الشريفين أمنية مقدسـة عند كل مسلم .

قال أبو الحسن :

حضرة صاحب الجـلالة الملك فيصل ..

السلام عليـكم ورحمـة الله وبركاته ، وبعد ..

...

...

...

فقـد بدأت الفتـن تتقدم الى الجزيرة العربية والى آخر حصـن من حصون الاسلام ، والاستقرار والسلام ، فاغرة أفواها مكشرة عن أنيابها ، وهى لا تعرف الرحمـة ولا الهوادة ، ولا الاستثناء ، ولا التسامح ، فقد بدأ كل بلد عربى ، بل اسلامى الا النادر القليـل .. يجـرب الشيوعية أو الاشتراكية ، وأصبح تحت رحمـة الحـكام العسكريين والقادة الثـوريين ، والزعماء الأنانيـين ، وأصبحت الشعوب فى براثن هؤلاء الثـوار كعصفور بين أنياب الصقـور القاسيـة الضـارية ، لا تملك من أمـرها شيئا ، وقـد بدأت الشيوعية تزحف الى هذه المملكة من أربـع جهـات . من الجهة الشمالية ، ومن الجهة الجنوبية ، ومن جهة الغرب ، ومن جهة الشرق . هذا ما عدا أنصـارهم وروادهم الذين يعملون فى الخفاء ، ويهيئون

العقول والنفوس لقبول هذه الفلسفات الهدامة فى مجال التربية والثقافة ، والكتابة والتأليف والاعلام والاذاعة .

وقد أخفقت كل تجربة لتلهية الشعب بالترفيه والتسلية وفيض من آلات الرخاء واطلاق العنان فى ارضاء الغرائز ، وتحقيق المطالب، وامدادها بأكبر قسط من التمتع ورفع مستوى الحياة من عهد بنى أمية .. فالعهد العباسى الى هذا العهد فى كل بلد من بلاد المملكة الاسلامية الواسعة ، وفى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى الطويل فلم تحمل هذه السياسة ـ المعتمدة على توجيه طبيعة القلق والطموح المودعة فى الانسان ، من التفكير فى القضايا العامة ، والأوضاع السياسية ، الى التفكير فى التهام الملذات ، وانتهاب المسرات ، وانتهاز فرصة الحياة ـ لم تحمل هذه السياسة الشعوب على الشكر والامتنان ، والتقدير والاحترام ، بل كانت هذه الشعوب التى أغدقت عليها النعم ، وعاشت بين روح وريحان ، وأطراب وألحان من أسبق الأمم الى جحود النعمة ، ونكران الجميل ، وأكثرها كنودا وقسوة على الأسر الحاكمة الرحيمة السخية ، والحكومات المتسامحة ، فانتهزت أول فرصة للثورة عليها ، وقلب الأوضاع فيها ، وعاملت المحسنين شر معاملة عرفها التاريخ ، وهذه طبيعة المادية الانتهازية الأبيقورية التى لا تعرف المفاهيم الدينية ، والقيم الخلقية ، ولا تعرف الميعاد والحساب ، وهى حكاية مطردة ، وتمثيلية متكررة فى جميع أدوار التاريخ . كذلك فى آخر دور الأمويين ، وفى نهاية الخلافة العباسية ، وعندما بلغت المدنية ذروتها فى حكومات الشرق والغرب ، وكذلك كان فى مصر وسوريا ، وفى العراق بالأمس ، وفى السودان قبل أيام . فلم تنفع هذه الفرصة السخية المتاحة للشعب وهذه الفيضانات من أسباب الترف والتسلى والتمتع والتلهى ، فرحبت هذه الأمم بكل ناعق وانتهزت أول فرصة للانقلاب .

وقد تحقق أن الايمان العميق ، والاستقامة الخلقية والاقتصادية فى

الحياة ، والتقشف ، والقناعة فى المعيشة وباختصار وصراحة • ان تقوى الله ، وخشية الحساب ، والحياء والوفاء والأمانة بالمعنى الواسع ، هى الخلال التى تمنع عن الجحود والكنود ، والقلق الدائم، والغدر والخيانة وعبادة القوة أينما وجدت ، والترحيب بكل جديد وارد ، وزاحف مارد •

وأعتقد ــ والاشفاق والتألم يملآن جوانحى ــ أن فرصة العلاج الحقيقى الحاسم ، وفرصة صيانة هذه المملكة بما فيها من مقدسات وحصون للاسلام من هذه الموجة الطاغية التى بدأت تمتد اليها حانقة ثائرة ، ومن وقوع هذه الجزيرة فريسة سائغة لهؤلاء الثوريين الأنانيين • الذين يهلكون الحرث والنسل ، ويجردون البلاد من كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة • فرصة محدودة قصيرة جدا ، وأرجو عدم المؤاخذة ، اذا قلت : انها آخر فرصة ، وعاهل هذه المملكة الذكى الألمعى هو خير من يعرف قصر هذه الفرصة ، وشدة هذا الخطر، والأوضاع غير عادية ، فلا تقاوم بطرق سياسية عادية مما جربتها جميع الحكومات التى وقعت فريسة هذه الثورات ، وهى أساليب تقليدية لم يعد الله لها بالنصر ولم تمنع من حدوث أى انقلاب فى أى بلد ، وانما تنفع فى هذا الوقت الرهيب خطوات جريئة حاسمة وتغييرات جذرية . وعهود ومواثيق صادقة مع الله فليسمح لى جلالة الملك أن أقول : ان مثلنا كمثل قوم « يونس » الذين أروا الله الصدق والاخلاص ، والانابة والاخبات فى آخر ساعة ، وغيروا ما بهم فغير الله ما بهم •

وهنا أسجل بغاية الاختصار بعض النقط الرئيسية التى لا بد من الضغط عليها :

أولا ــ الصدق والاخلاص ، والعزم على اخضاع كل ما يجرى فى هذه البلاد ، من أمور ادارية حكومية مما يتصل بالاعلام والتربية وكل ما يؤثر فى الرأى العام ، وفى عقلية الشعب وأخلاقه ، ومستقبل البلاد ــ للمقاصد التى بنيت لها الكعبة ، واختيرت لها هذه الأرض لتكون مركزا للاسلام ، ومصدر

اشعاع عالمى ، وللحكمة التى نبه عليها القرآن بقوله :

« ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » .

ثانيا ــ ازالة التناقض بين ما يعلنه الملك ، ويتزعمه بحق ، ويدعو اليه ، من الدين الخالص ، والاسلام الصريح ، وتحكيم الكتاب والسنة ، والتمسك بالتعاليم الاسلامية ، والقيم الخلقية ، والتضامن الاسلامى الذى أصبح جلالة الملك داعيه الأكبر فى هذا العصر ، وبين كل ما ينافيه فى مجال الاعلام والتربية ، والمظاهر الاجتماعية ، واتجاهات الشعب من اندفاع متهور الى الترفيه والتسلية ، والأغانى والملاهى ، والقصص المثيرة والبرامج المستوردة الرقيعة التى أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء ، والتى لا يحتفظ معها أى شعب بالبقية الباقية من الشعور الدينى ، والحصانة الخلقية ، ولا يستعد للطوارىء والمفاجآت ، ولا يتحمل أقل صدمة أو خطر من الخارج .

ثالثا ــ اتخاذ الحياة الاسلامية ــ الحياة التى يرضاها الله ويباركها وينصر عليها ــ والحرص على ازالة جميع المنكرات ، وأسباب السخط ودواعى الخذلان ، والفشل فى المجال الادارى ، والأخلاق الاجتماعية والفردية ، وتتبعها تتبعا دقيقا ، والحد من الثراء الفاحش وتكدسه فى عدد محدود ، وطبقة معينة وتقييد التجارة ، وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب وفى مصلحة عدد محدود جدا وطبقة معينة ، خصوصا اذا كان ذلك من طبقة الأمراء والأثرياء ، ورجال الحكومة ، فان كل ذلك مما يمهد الأرض ، ويفتح الطريق أمام الشيوعية المتطرفة ، والاشتراكية المقنعة ، والحيلولة بين الحكومة والتجارة بقدر الامكان ، والى أقصى الحدود ، فان ذلك مما يجحف بالشعب ، ويجنى على الأخلاق ، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شبه مستحيل ، وقد نبه نابغة العرب ، وفيلسوف المؤرخين «ابن خلدون» على ضرره وسوء أثره فى الحياة .

رابعا ــ عدم الثقة بقادة العرب الأنانيين الذين لا يعرفون غير مصلحتهم ، والذين وصفهم القرآن بقوله : « لا يرقبون فى مؤمن الاً ولا ذمة » • « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » •

والذين ينتهزون أول فرصة فى بلاد أصدقائهم لقلب الحكومات ، واحداث الثورات ، والذين لا شىء اليهم أبغض من وجود الاستقرار والرخاء فى بلد ، وقد يكون اليهود أحب اليهم من المسلمين والعرب ، والذين ينتهزون أول فرصة لشفاء النفوس من هؤلاء الأبرياء الذين أسعفوهم بالأموال فى الساعات العصيبة ، وأنقذوا الوضع ، وينتهزون أول فرصة لتوجيه اذاعاتهم وصحفهم الى نهش لحومكم والولوغ فى دمائكم « كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة » •

وبالعكس من ذلك الاعتماد على الصادقين المخلصين فى داخل البلاد وخارجها ، الذين تربطهم بكم رابطة العقيدة والعاطفة والذين يدينون بالوفاء والولاء ، ويؤمنون بمبدأ الحب فى الله والبغض فى الله • تقربا الى الله ، واعزازا لدين الله من غير مقابل مادى ، أو طمع دنيوى ، أومصلحة فردية أو سياسية فأولئك هم « الكنانة » و«الجُنَّة» فى الخطوب ، وموضع الثقة والأمانة ، ولا يكون هذا الاخلاص الا عن ايمان عميق ، ودين متين ، ورابطة روحية ونزاهة لا ترتقى اليها شبهة ، ووجود أمثال هؤلاء فى الحكومة والجهاز الادارى والاعتماد عليهم فى السياسة الخارجية والداخلية اكبر حارس للحكومة والبلاد ، بخلاف الانتهازيين والعلمانيين الذين لا يدينون بدين ، ولا يزعهم وازغ من خلق أو مبدأ ، ولا يرون لهذه البلاد قدسا ولا شرفا ، انما ينساقون وراء الرغبات والمصالح ، وينفذون أوامر قادتهم فى الخارج•

هذا ما أملاه الاخلاص والحب لهذه البلاد ، ولمن اختاره الله لحراستها وخدمتها ، والحرص على سلامة هذه البلاد من الأخطار

التى قد وصلت الى أسوارها ، وبدأت تدق أبوابها ، وفى اطلاع جلالة الملك الواسع ، ما يغنى عن التطويل والتفصيل ، والشرح والتعليل ، والله المستعان

الداعى المخلص

أبو الحسن الندوى

انتهى كلام العلامة « أبو الحسن » • وهو كلام لا يصدر عفوا من مثل هذا الرجل •

انه خلاصة تجربة لمسلم يدرك بعقله حقيقة الأوضاع المتردية فى عالم الاسلام ، ويرى بنور بصيرته مخاطر الغد التى تتجمع غيومها فى أوكار الظلام •

ان المسلمين مطالبون اليوم بالوقوف جنبا الى جنب فى وجه هذه الهجمات الشرسة التى تتهدد ديار الاسلام فى كل قطر ، ومطالبون بتجلية مبادىء الاسلام وقيمه فى الحياة والواقع ، ومطالبون بالتضحية والتجرد أمام هذا الغزو الذى يوشك أن يقتلع جذورهم من الأرض ، ومطالبون قبل ذلك وبعده بالصدق مع الله فى القول والفعل •

* * *

منذ عامين •• وفى ملهى «البلاى بوى» بلندن (Play boy) أمر رئيس الخدم الانجليزى خادما هنديا مسلما بتقديم زجاجة من الخمر الى مائدة يجلس حولها مجموعة من عرب النفط •• وحين وصل الخادم الهندى المسلم الى المائدة سقطت من يده الزجاجة ، وهرول عائدا الى رئيسه قائلا :

مستحيل •• مستحيل أن يشرب هؤلاء الخمر ! ! ! لقد أصيب الخادم المسلم بصدمة ، وترك عمله فى هذا النادى المشبوه الى غير رجعة •

فعلى العرب المسلمين أن يستقيموا ، فان لم يستقيموا قوموا فان عجزوا عن الاستقامة ، ولم يوجد من يقيمهم على طريق الجادة• فليمحوا أسماءهم من سجل العرب وليتكلموا عن أى دين غير دين الاسلام !!!

الدكتور عبد الودود شلبى

في مواجهة الالحاد المعاصر :

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(١)

عجز العلم عن ادراك حقائق الأشياء :

ان العلم التجريبى فى بحثه الدءوب عن « المادة » لم يستطع انكار الغيبيات ، كما أنه لم يستطع ادراك حقيقتها •

ومع ذلك فقد حاول ــ فى جبهة الالحاد ــ التشويش على مبدأ الغيبيات ، بوضع أسماء لها ــ أى لغيبيات المادة ــ أسماء توهم عند البعض أنها كافية لتفسير الأمر كله •

لقد وضعوا أسماء ، ثم ألقوا أقلامهم ، وفروا هاربين ••

وسنعرض فيما يلى هذه الحلول « الاسمية » فى أهم المشاكل المتعلقة بعالم الفيزياء :

الزمان ، المكان ، المادة •

يذهب كارل بيرسن ــ ١٨٥٧ ــ ١٩٣٦ •

ــ استاذ الهندسة النظرية بالكلية الجامعية بلندن واستاذ كرسى الرياضة التطبيقية والميكانيكا بنفس الكلية ــ فى تصوره للزمان والمكان والحركة ، الى افراغها من محتواها الخارجى ، واعتبارها أسماء لخاصية ذهنية •

فهو بالنسبة للمكان يقرر أنه « ترتيب » الظواهر الممكنة الموجودة معا •

ومن الواضح أن فكرة الترتيب لا علاقة لها بوجود الظواهر ذاتها • اذ أن من الممكن تصور هذه الظواهر بترتيب مخالف ، وعلى ذلك فالترتيب انما ينتمى عنده الى طريقة الذهن فى ادراك الظواهر ،

فمن الواجب عنده أن نتخلى عن النظر الى المكان على انه فراغ هائل وضعت فيه الأشياء •

وما يقال عنده عن المكان يقال كثير منه عن الزمان • فهما معا طريقتان تميز بهما الملكة الادراكية موضوعات ادراكها •

وكل ما فى الأمر ان المكان يدل على وجود ادراكاتنا معا فى زمان واحد •• والزمان يدل على تلاحق ادراكاتنا فى موقع واحد من المكان •

أما عن الحركة :

فهى عنده « التصور الجامع بين الزمان والمكان • أى تغير المكان مع تغير الزمان » ••

فعلم هندسة الحركة هو بدوره وصف ذهنى أو تصورى لما يحدث فى عالم المدركات الحسية من تغيرات ••

واذن فان ما يطلق عليه اسم حركة الاجسام ليس حقيقة من حقائق الادراك الحسى وانما هو طريقة ذهنية أو تصورية نصف بها التغيرات التى تطرأ على مجموعة الانطباعات •• الحسية ••

ولكن هانز رايشنباخ يخطو خطوة أعمق فى اظهار الدلالة الاسمية لكل من الزمان والمكان ، ويظهر الصعوبات التى تصل الى درجة الاستحالة والتى تمنع من تقديم مفهوم موضوعى لكل منهما ، بل تمنع ــ وهذا هو الأخطر ــ من اصطناع مقاييس من كل منهما تتصف بالصدق الموضوعى •

يتناول رايشنباخ مشكلة المكان ، فيقرر أن مشكلة التطابق (١) تهدد معرفتنا الموضوعية للجسم والمكان ذلك لأنه لا سبيل الى أختبار التطابق والتحقق منه والمخرج الوحيد من هذه المشكلة ــ فى رأيه ــ هو ألا ننظر الى المشكلة من ناحيتها الموضوعية وانما يكفينا النظر اليها من الناحية التعريفية

(١) لنفرض أن كل الاشياء المادية ومن ضمنها أجسامنا قد تضاعف حجمها عشر مرات أثناء نومنا فى الليل ، فعندما نستيقظ فى الصباح لا تكون فى وضع يسمح لنا باختبار هذا الفرض ولن نتمكن أبدا من التحقق منه ــ انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٢٢ •

أو الاصطلاحية فليس هناك سبيل لمعرفة ما اذا كان الجسمان متساويين بالفعل ، ولكن يكفى أن نقول : اننا نسميهما متساويين ، ثم يتناول مشكلة الزمان مع مشكلة المكان فيقول :

(ليس الزمان والمكان كيانا مثاليا أو فكريا له وجود يدرك بنوع من التبصر كما اعتقد أفلاطون .

وليس نوعا ذاتيا من الترتيب يفرضه الملاحظ البشرى على العالم كما اعتقد كانت .

فالترتيب الزمنى ـ عنده ـ يمثل صفة عامة للكون الذى نعيش فيه والزمان حقيقى بنفس المعنى الذى يكون به المكان حقيقيا ، ومعرفتنا للزمان ليست أولية وانما هى تجريبية ...)

ثم يقول :

(ان ما تشعر بأنه تدفق للزمان هو ذاته : الصيرورة السببية أو العملية السببية التى تكون هذا العالم) (١)

وقديبدو الى هذا الحد وكأنه متردد فى الاقرار بوجود موضوعى للزمان ، لكنه يتراجع بعد ذلك مبديا استحالة ادراكه واستحالة اصطناع مقاييس موضوعية منه . فيقرر أنه :

لكى نعرف الزمان المتجانس المطرد (موضوعيا ـ المتعلق معرفته بحركة الأفلاك .. الخ) يتعين علينا أن نستوثق من مقاييسنا بمعرفة قوانين الميكانيكا التى تحدد لنا التعرف على هذه الحركة .

(ولكى نعرف قوانين الميكانيكا يتعين علينا أن نعرف الزمان المتجانس) .

يقول هانز رايشنباخ ..

(وليس لهذه الحلقة المفرغة الا مخرج واحد ..

هو أن ننظر الى مسألة الزمان المتجانس لا على انها مسألة معرفة ـ أى معرفة لواقع خارج عنا ـ بل على انها مسألة تعريف ـ أى اصطلاح ـ فعلينا الا تتساءل ان

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٤٠ ، ١٤١

كان من الصحيح ان زمان الفلكى متجانس وانما ينبغى ان نقول ان زمان الفلكى يُعرِّف الزمان المتجانس ، فليس ثمة تجانس فعلى ، وانما نحن نصف تدفقا معينا للزمان بأنه متجانس لكى يكون لدينا معيار نرد اليه أنواع التدفق الزمانى الأخرى) (١) .

انه (لكى تحدد أن كان حادث معين أسبق من حادث آخر ؟ لابد أن يكون الترتيب الزمنى واحدا بالنسبة لمختلف مقاييس الزمان .

ولما كان هذا غير صحيح ، فان علاقة الترتيب الزمنى ينبغى أن تكون خاضعة لتعريف مستقل عن قياس الزمان .

ويمكن أن ترد علاقة الترتيب الزمنى الى علاقة السبب والنتيجة .. باعتبار أن السبب أسبق من النتيجة ..

غير أن ما ينبغى علينا هنا هو معرفة كيفية التمييز بين السبب والنتيجة .

واذن فلن يساعدنا على هذا التمييز أن نقول ان السبب هو أسبق الحادثتين المرتبطتين ، : لأننا نود تعريف الترتيب الزمنى على أساس الترتيب السببى .

فلابد اذن أن يكون لدينا معيار مستقل لتمييز السبب من النتيجة (٢) .

هنا يقدم رايشنباخ اقتراحا لحل هذه المشكلة ــ أعتقد أنه قائم على حكم العادة لا غير ــ وذلك هو (أن نحكم على الترتيب الزمنى على أساس العمليات الفيزيائية غير القابلة للانعكاس) (٣) .

مثل حالتين : بيت مبنى ، ونفس هذا البيت متهدم ، فالأولى أسبق ، لأنه فيزيائيا لا يمكن انعكاس المتهدم الى مبنى .. الخ .

ويعترف رايشنباخ ان هذا الحل ليس مبنيا على ضرورة منطقية اذ يقول : (ليس وجود هذا الترتيب المتسلسل ضرورة منطقية) . ويمكن أن نضيف الى ذلك انه ليس

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٤ ، يعنى بدافع الضرورة العملية .
(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٥
(٣) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٦

مبنيا على ضرورة فيزيائية ــ اذا تجاوزنا عالمنا الخاص ــ لما تم اكتشافه من حركة بعض الصغيرات الى عكس اتجاه حركتنا فى الزمان .. الخ .

ثم يتناول مشكلة التزامن ، فيقول :

نحن نسمى الحادثين متزامنتين اذا لم يكن أحدهما سابقا أو لاحقا للآخر .. وتظهر المشكلة عند المقارنة بين حادثين فى مكانين مختلفين .

ويتضح ظهورها كلما بعدت المسافة بين المكانين .

فلكى نعرف زمن انبثاق الضوء من كوكب أو من نجم مثلا ومقارنته بزمن رؤيتنا له على هذه الأرض يجب أن نأخذ فى اعتبارنا الوقت الذى يستغرقه الشعاع الضوئى لكى ينتقل من النجم الينا .

ولمعرفة هذا الوقت يجب أن نعرف سرعة الضوء والمسافة التى قطعها لكن ما هى كيفية قياس سرعة الضوء ؟

ذلك يستدعى معرفة الوقت الذى استغرقه الضوء فى الانتقال .

واذن فنحن ندور فى حلقة مفرغة .

فلكى نعرف الوقت الذى استغرقه الضوء فى الانتقال يجب أن نعرف السرعة .

ولكى نعرف السرعة يجب أن نعرف الوقت ... أو بعبارة أخرى لكى نعرف التزامن يجب أن نعرف سرعة الضوء ، ولكى نعرف سرعة الضوء يجب أن نعرف التزامن (١)

ومع هذا فان هناك حدودا تنتهى عندها مشكلة التزامن ..

ذلك انه اذا أرسلنا ضوءا الى المريخ مثلا الساعة ١٢ وعاد الينا منعكسا فى الساعة ١٢ر٢٠ فان المقارنة بين لحظة الارسال ولحظة الوصول تتراوح بين ١٢ ، ١٢ر٢٠ ولا يمكن أن يكون فى المقارنة الزمن الذى قبل ذلك أو بعده .

وهنا نصل الى ما يسميه اينشتين « بنسبة التزامن » .

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٧

وهكذا يتبين لنا أن الفلسفة العالمية انتهت فى بحثها لمشكلة الزمان والمكان ، الى وضع حلول « اسمية » لا فيما يتعلق بجوهرها فحسب ، بل فيما يتعلق بالمقاييس التى تستند اليهما .

وهكذا الأمر جرى فى مشكلة المادة ..

فها هو برتراند رسل ــ على سبيل المثال ــ

يقرر أن لا علاقة بين كلمة الكترون وبين ما تدل عليه أكثر من العلاقة القائمة بين كلمة لندن ، وبين المدينة التى تدل عليها الكلمة .

ويقول (فكلمة لندن ، كلمة مريحة فى الاستعمال بيد أن كل « واقعة » نخبر عنها باستعمال هذه الكلمة يمكننا أن نخبر عنها بدونها ، وان كان هذا بطريقة أكثر التواء) .

بل ان رسل يقرر أن علاقة كلمة الكترون بما تدل عليه أضعف ، يقول (هناك اختلاف ، وهو اننا نستطيع أن نرى مختلف الأجزاء التى تتكون منها مدينة لندن ، بل نحن فى الحقيقة نعرف الأجزاء بصورة أكثر مباشرة مما نعرف الكل الذى تؤلفه ، أما فى حالة الالكترون فاننا لا ندركه ولا ندرك أى شىء مما نعرف أنه مقوم من مقوماته ، فنحن لا نعرفه الا بوضعه كائنا افتراضيا ، يحقق أغراضا نظرية بعينها ، وبقدر ما يتعلق الأمر بالفيزياء النظرية فان أى شىء يحقق هذه الأغراض يمكن أن يسمى الكترونا (١) .

ويقول رسل عن العقل والمادة .

(انها ليست الا رموزا لأشياء غير معروفة) (٢) .

ويقول فتجشتين عن الأشياء (لا يسعنى ازاء الأشياء الا أن أسميها) (٣) .

ويقول رتشارد هونجسوالد عن الفلسفة المادية :

(١) فلسفتى ص ١٦ : ١٧

(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٧

(٣) لودفيج فتجنشتين ص ٣٣١

(هى فى الواقع لم تقدم غير أسم « المادة » تخفى وراءه الروح) (١) .

هؤلاء فلاسفة وماذا عند علماء العلم التجريبى ؟

ما هو البروتون ؟ تسمية معناها « الأول » مشتقة من أصل لاتينى !

وما هو النيوترون ؟

تسمية معناها المحايد أو المتعادل مشتقة من كلمة لاتينية أيضا .

وهذه التسمية مأخوذة من كون النيوترون لا يحمل شحنة موجبة كالبروتون ـ ولا سالبة كالالكترون (٢) .

وكما يقول الدكتور جون كيمنى : (نجد كثيرين من العلماء قد أخذوا بما قد تحقق من تقدم فى حين أن كل ما قد حصل لا يعدو وضع مجموعة جديدة من التعاريف) (٣) .

ويقول الأستاذ وحيد خان :

(انه مهما كانت التجربة أو المشاهدة مباشرة الا انها لا تعدو أن تكون مظهرا خارجيا لحقيقة الواقعة ، لأن تلك التجربة ليست هى الحقيقة نفسها . ومثال ذلك أن رقم التليفون مرتبط بصاحبه ، الا أن هذا الرقم ليس هو بعينه صاحب التليفون ... فواقع الارتباط بين ضغط الزر واضاءة اللمبة يؤكد وجود علاقة خاصة مباشرة بين العمليتين ، ولكن على الرغم من هذا المظهر تبقى العلاقة الأصلية غير المرئية) (٤) .

يقول الشاعر جوته فى تعليقه على الفلوجستون وغرابته :

(كم من اسماء كبيرة ضخمة يبتدعها الناس ، فيسمون بها الأشياء التى لا تجوز عقلا ، ليسهل فى العقل تجويزها) (٥) .

(١) فلسفة القرن العشرين ص ٥٦
(٢) انتصارات العلم الحديث ص ١١٩
(٣) الفيلسوف والعلم ص ٢٠٢
(٤) الدين فى مواجهة العلم ص ١٤
(٥) بواتق وأنابيب ص ٥١

وكمثال على ما تسببه التسميات من تضليل نذكر الحكاية الطريفة الآتية :

عندما كشف الكوكب بلوتو عام ١٩٣٠ سألت سيدة أحد علماء الفلك قائلة :

« ولكن عندما أكتشفتم أنتم رجال الفلك الكوكب الجديد كيف عرفتم أن هذا الكوكب هو حقيقة بلوتو وليس كوكبا آخر غيره ؟ » (١) .

وأخيرا نقول :

ليس للالحاد المادى تفوق فى ايمانه بهذه الغيبيات على ايمان المؤمن بالغيبيات الالهية ، من حيث يدعى انه يؤمن بغيبياته لما لها من آثار محسوسة أو ضرورة منطقية ، لأن ايمان المؤمن بالله قائم على نفس هذا الاساس :

أى لآثاره المحسوسة ، وضرورته المنطقية ..

ان اقرار العلم التجريبى بهذه الكائنات « الغيبية » لا يختلف ـ من الناحية المنهجية ـ عن اقرار المؤمن بوجود الله ...

أعنى أن هذا الاقرار ليس قائما على الادراك المباشر ولكن على « الاستنتاج » المستخلص من الوقائع .

يقول الفيلسوف الملحد برتراندراسل :

(العالم الذى كنا نتحدث عنه ـ أى العالم الفيزيقى ـ حتى الآن عالم مستدل عليه بأكمله . اذ نحن لا ندرك نوع الكائنات التى تتحدث عنها الفيزياء ادراكا مباشرا) (٢) .

ويقول عن معرفته للكرسى القائم أمامه على سبيل المثال : (علاقتى بهذا الشىء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها الا بالاستنتاج) (٣) .

(١) فن الاقناع ص ٣٢
(٢) فلسفتى ص ١٦
(٣) العقل والمادة ص ١٩٧

ويقول : (اننى أرى بالفعل أن هناك صورا من الاستدلال المحتمل (١)٠لابد أن نقبلها وان لم يكن من الممكن أن نثبتها بالخبرة) (٢) ٠

انه اذا كانت المادة صورة تجريدية أو فرضية فماذا يدعو الى « الايمان » بها عند رسل الملحد ؟ وماذا يقدمه من مبررات لذلك ولا يمكن تقديمه للايمان : بالميتافزيقا أو الدين ؟

الصور التى يقدمها رسل للعالم المادى هى ــ كما يقول ــ صورة فرضية ٠ الا أن هذا العالم بهذه الصورة « يمكن » فى اعتقاده ــ أن يكون هو العالم الفعلى ــ ، لأن هذا العالم يتلاءم مع جميع الوقائع ، وليس هناك دليل تجريبى ضده ، كما أنه عالم متحرر من الاستحالات المنطقية ٠

ان ما يبرر الايمان « بالعالم : بالمادة » بالرغم من تجريديته عند رسل هو أنه « يمكن » أن يتلاءم مع الوقائع ، أولا وانه لا دليل تجريبى ضده ، ثانيا وانه متحرر من الاستحالات المنطقية ثالثا ٠

وهل هناك شىء من هذه الامور يقف حائلا دون الايمان بالله ؟

ولا يقف حائلا دون الايمان بالمادة ٠٠؟ كلا ٠٠

يقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(ان الانسان الشريف الذى يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمى لا يحتاج الى « رؤية » الله بأكثر من حاجة الفيزيائى الى « رؤية » الالكترون ٠

وكل محاولة فى كلتا الحالتين باطلة ، ولا قيمة لها ٠

فالألكترون لا يمكن ادراكه ماديا ٠ ومع ذلك فهو معروف تماما بآثارة أكثر من معرفتنا للكرسى الذى نجلس عليه (٣) ٠

ويقول فى موضع آخر :

اننا نؤمن بهذه الصغيرات لأننا نثق فى الفيزيائيين الذين

(١) هناك نوعان من الاحتمال : الاحصاء والشك . أنظر فلسفتى ... ص ٢٣٤

(٢) فلسفتى ص ١٦٠

(٣) مصير البشرية ص ١١١ ، ص ١٣٧

يؤكدون وجودها كما كنا نثق فى رجال الدين القدماء) .

(ولأن هؤلاء الفيزيائيين يؤكدون انه بدون هذه الصغيرات تصبح الأشياء المادية والقوى التى نستعملها ، غير متماسكة ولا يمكن فهمها) .

ثم يقول : (وكذلك فان الكون الحى المنظم يغدو غير مفهوم بدون قبول فرضية وجود الله) (١) .

وفى هذا المعنى يقول كروزيار :

(اذا كانت القواعد الأولية التى تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا يجب أن يعتقد بها ولو لم يكن فى مستطاع العلم أن يعرفها ، فان أقوى برهان يقيمه كونت فى وجه الاعتقاد بوجود الله ــ اذ يقول بأنه لا يمكن اثباته بالعلم ــ ينهار من أساسه) .

ويقرر كروزيار أن التسليم بوجود الله لا يقل فى نظر العقل عن التسليم بوجود العالم يقول :

(اننى أعرف أو أعلم أن للخالق وجودا حقيقيا بمثل ما أعلم أو أعرف أن للعالم الخارجى المحيط بى وجودا حقيقيا) .

بل انه لينبغى القول بأننا ملزمون بالاقرار بوجود العالم الخارجى بنفس القدر الذى يلزمنا بالاقرار باستمرار وجودنا الشخصى .. يقول رسل فى تحليله لهذه النقطة (اذا أراد الفيلسوف المؤمن بنظرية انحصار الذات فى نفسها أن يبلغ السلامة المنطقية التى يسعى اليها فعليه أن يحصر نفسه فيما ادعوه « انعزال الذات للحظة الراهنة وحدها » فليس عليه أن يقول فقط ــ « لست أعرف ما اذا كان العالم الفيزيقى موجودا ، أم ما اذا كانت هناك عقول غير عقلى ، لكن عليه أن يمضى الى ما هو أبعد من ذلك فيقول لست أعرف ما اذا كان لى ماض أو ما اذا كان لى مستقبل ، لأن هذه الأشياء مدعاة للشك مثلها مثل وجود الآخرين ، أو وجود العالم الفيزيقى .

(١) ملقى السبيل ص ٦٦ ، ص ٨٣

لكن فيلسوفا من أنصار انحصار الذات فى نفسها لم يذهب الى هذا الحد ومن ثمة فكل فيلسوف من هذا القبيل لم يكن متسقا مع نفسه عندما قبل استدلالات عن نفسه ليس عليها ضمان أفضل مما لديه من ضمان على الاستدلالات التى تدور حول الآخرين والأشياء الفيزيقية » (١).

نقول :

واذن فقياسا على منهج استدلاله على ذاته ــ فى غير اللحظة الراهنة ــ يلزمه ــ منهجيا ــ الاستدلال على وجود الآخرين ، وقياسا على استدلاله على وجود الآخرين يلزمه ــ منهجيا ــ الاستدلال ــ وفقا لما ذكره كروزيار ــ على وجود الله .

ولنا أن نقول أيضا : ان استدلاله على ذاته ــ فى غير اللحظة الراهنة ــ الذى رجعنا منه الى اثبات معرفتنا بالعالم وبالله ، انما تم على أساس ما نسميه الضرورة العملية وهذا ما نزيده توضيحا فى موضع آخر .

والخلاصة : ان الالحاد الحديث عندما يقطع علل الوجود وأسبابه عن الله .. ويسلم بغيبيات أخرى ترغمه عليها الضرورات المنطقية ، أو العلمية أو العملية ..

عندما يفعل ذلك فانه انما يقع فى صورة حديثة من صور الاشراك التى أشارت اليها الآية الكريمة :

« ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

« صدق الله العظيم »

(٢)

عجز العلم عن ادراك « المطلق » :

لا يهدأ العقل البشرى دون التطلع الى المطلق ومحاولة ادراكه واذا كان المنهج العلمى يقوم أساسا على « النسبية » فهو لا يمكنه أن يستبعد « المطلق » من مجال المعرفة ، مكتفيا باعلان عجزه عن ادراكه .

ونسبية العلم هى فى حد ذاتها اعتراف « بالمطلق » .

(١) فلسفتى ص ٢٣٨

(١) يرى هاملتون (فيلسوف انجليزى ١٧٨٨ ــ ١٨٥٦) ان المعرفة نسبية وذلك من ثلاثة وجوه • فانها تقوم فى نسبة بين حدين يجمع بينهما فى الحكم ونسبة بين ذات عارفة وموضوع معروف يحد أحدهما الآخر ، ونسبة بين جوهر وعرض فيدرك الجوهر بالعرض ويدرك العرض بالجوهر •

هذه النسب قوام التفكير ، اذا حاولنا رفعها محونا كل معرفة ووقعنا فى الوحدة المطلقة فكل ما هو مدرك مشروط أى نسبى ، واللا مشروط أو المطلق لا مدرك سواء أكان كلا أو جزءا ••

فان أى كل هو بالنسبة لنا جزء لكل أكبر ، وان أى جزء يمكن أن يتصور قابلا للقسمة فيكون من ثمة كلا •

بيد أن هاملتون يجد بابا للولوج منه الى الاقرار بوجود المطلق وان كنا لا ندرى عنه شيئا وذلك لأن أى موضوع معروف فهو جزء من حيث انه مشروط ، ومن ثمة فهو مردود الى لا مشروط وهذه النسبة تخرجنا من حدود معرفتنا وتجعلنا نثبت وجود المطلق ••

(٢) ويستند « منسل » وقد كان فيلسوفا ، و«أستاذا بأكسفورد وكبير قساوسة كنيسة سنت بول (١٨٢٠ ــ ١٨٧١) الى قول أستاذه هاملتون ان معرفتنا العقلية لا تبلغ الى المطلق ، ويرتب عليه امتناع اللاهوت العقلى لكنه يذهب فى نفس الوقت الى أن العلم الانسانى ما دام نسبيا فهو لا يملك الاعتراض على الوحى ، وان الصعوبات والمتناقضات ليست ناشئة من الوحى بل من حدود العقل الذى يزعم الخوض فى المطلق على حين أن حدوده تدل على أن شيئا قد يوجد ويكون فوق متناوله (١) •

(٣) ويقرر هربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) فى كتابه « المبادىء الأولى » استحالة وصول العقل الى معرفة مطلقة » • وان كل محاولة يقوم بها العقل من أجل تصور المطلق أو اللامتناهى لا بد

(١) تاريخ الفلسفة الحديث ليوسف كرم ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦

أن تنتهى الى تعيينه أو تحديده ، وبالتالى فانها لابد من أن تحوله الى نسبى أو متنـاه • وذلك لأن كل فعل من أفعال العقل لا يمكن أن يكون واضحا الا اذا توافـرت له عناصر ثلاثة هى :

التمايز ، والعلاقة ، والتشابه ، ومعنى هذا انه اذا أريد لأية حالة ذهنيـة أن تستحيل الى فـكرة أو معرفة ، فانه ليس يكفى لهـذه الحالة الذهنية أن تصبح منفصـلة أو متميزة عن كل ما عـداها مـن حالات ذهنية سابقة ، وانما لابد لها أيضـا من أن تكون شـبيهة أو مماثلة لبعض الحالات الذهنيـة التى سبق لنا ادراكها من قبـل • وبعبارة أخرى يمكن القول بأننـا لا نعرف الشىء معرفة واضـحة الا اذا كان فى وسـعنا أن نشبهه (من بعض الوجوه أو كلها) بشىء أو أشياء أخرى سبق لنا ادراكهـا وأما اذا لم تكن للشىء أية صفة مشتركة تجمع بينـه وبين أى شىء آخر سبق لنا ادراكه ، فان مثل هذا الشىء لابد من أن يظـل لغـزا منيعا •• أو مجهولا ، يخرج تماما عن حدود المعرفة ، كذلك فان كل فعل من أفعال المعرفة انما هو علاقة تنشأ فى الشعور بين بعض الحالات الذاتية من جهة ، وبعض القـوى الموضوعية من جهة أخرى •

وقصارى القول عنده انه لما كان الفكر يتضمن بالضرورة العلاقة ، والتميز ، والتشـابه فانه لا سبيل لنا مطلقـا الى تعقـل اللا متناهى أو المطلق أو اللا مشروط •

لكن سبنسر مع هذا لا يرى أن المطلق غير موجود ، بل انه لا يرى اننا لا يمكننا أن نعرف ما اذا كان المطلق موجودا أو غير موجود •

وانما يرى اننا حينما نقـرر أنه ليس فى وسعنا أن تتصـور المطلق بعقولنا فاننا نحكم بعقولنا أيضـا بأنه موجود • انه يعنى أن فى صميم انكارنا لقدرة العقل على تصـور المطـلق يوجـد اعتراف ضـمنى بوجـوده ذلك لأن المطلق الذى حكمنا بعجـزنا عن معرفتـه كان ماثلا أمام أذهاننـا ، لا باعتبـاره عدما ، بل باعتباره « شيئا » وذلك لأن تفكيرنا بطبيعتـه يقـوم على العلاقات لذا فان « النسبى » نفسه

سرعان ما يصبح غير قابل للتصور ان لم تتصور وجود علاقة بينه وبين حد آخر غير نسبى ، أى « مطلق » .

وخلاصة القول انه لابد من افتراض وجود شىء ثابت يكمن خلف شتى الاعراض المتغيرة دون أن يكون من الضرورى لعقولنا أن تقدر على تحديده .

وهكذا يخلص سبنسر الى القول بأن قوانين الفكر التى تحظر علينا تكوين تصور عن « الموجود المطلق » هى بعينها التى توجب علينا التسليم بوجوده ..

وهنا تنحل عقدة من العقد تحول بين العلم والدين . وفى هذا يقول سبنسر (اذا كان كل من الدين والعلم يسلم بوجود « مبدأ مطلق » هيهات لنا أن نسبر غوره أو « حقيقة عليا » يستحيل علينا أن نزيح النقاب عن أسرارها ، فمن أين نشأ اذن ذلك التعارض بين الدين والعلم ..؟

الحق أن الدين قد أدى ولا زال يؤدى دورا فى حياة البشر ، لأنه قد حال بينهم ــ ولا يزال يحول ــ وبين الاستغراق التام فى « النسبى » أو المباشر ، فالدين قد أيقظ شعور البشر ، وجعلهم يحسون بوجود شىء ، فيما وراء الادراك الحسى المباشر) .

ويقول سبنسر :

ان تطور العلم قد دنا به من فكرة « الحقيقة المطلقة » التى يقول بها الدين ومن هنا يصبح العلم نصيرا للدين ، وعاملا هاما فى المحافظة على نقاء العقيدة الدينية الكبرى من شوائب التشبيه أو التخصيص .

(٤) ويتساءل أميل بوترو عن حدود العلم قائلا :

(هل هذه الحدود تمثل سلبا خالصا ، سلبا مطلقا يمنعنا العلم حقا ــ فيما وراء ذلك ــ أن نبحث شيئا أو تتصور شيئا ؟

أو أن هذه الحدود ليست الا سلبا نسبيا أى فقدان شىء مطلوب ولابد منه ، ويستلزمه نفس الشىء الذى نملكه ؟

(١) مجلة تراث الانسانية

ويجيب أميل بوترو على هـذا التساؤل بأن :

(بعض العلماء يرى أن حـدود العلم تمثل حقـا بالنسبة للعقـل البشرى عدم معرفة ، ليس منها بد ، لتجعل من علمنا معرفة تامة •

والعـلم يعـرف من هـذا انه لا يكفى نفسـه ، لأن مبـادئه تصورات سلبية غير محدودة فيمـا يختص بمضمونها ، ويستحيل على العقل البشرى الا يتساءل عن الشىء ما هو ؟ اذا قيل له انه ليس هـذا أو ذاك •

فالعـلم نفسه ••• هـو الذى يشير بامكان المعرفة الأعلى ، المعرفة الأعلى من المعرفة العلمية) (١)

(٣)

عجز العلم عن الوصول الى اليقين :

يقول رالف • ت• فلو ولنج فى بحثه عن الفلسفة الشخصانية :

(كانت المادية العلمية منذ جيل واحد فى موقع حصين لا سبيل الى النيل منه • ولعل كبـار العلمـاء كان يساورهم بعض الشك فى أمـر هذه المادية العلمية ، ولكن هـذا الشك لم يتسرب مطلقا الى عقـول الشعوب ، بل ولا الى عقول كتاب العلم العاديين والصحفيين •

وبينما المادية العلمية فى موقعها الحصـين ، اذ دهمتهـا الكشوف الثورية :

أشعة رونتجن •

ونسبية المكان والزمان •

ونظرية الكم والطاقة الذرية •

ونظرية اعتبار الواقع حدثا من الأحـداث المتصـلة فى المـكان والزمان ••

ومبدأ عدم اليقين ••

ومهما يكن حظ هذه الكشوف من اقبال الناس فقـد كانت ايذانا بانتهاء عصر المادية العلمية التى كان لها القدح المعلى خلال قرن ونصف قرن من الزمان دون القيم العليا •• فقد انتقلنا فى خـلال ثلاثين سنة تقريبا من القول بأن أشد الأمور الواقعة يقينا هو الذرة الى عكس

(١) العلم والدين ص ٢٠٥ : ٢٠٦

هذا اذ صرنا نعد الشيء اليقينى هو مبدأ اللا يقين ...) (١) .

الآن يعترف أرباب المنهج العلمى التجريبى انهم لا يشترطون اليقين .. ولا يمكنهم أن يحققوه .

ويقول الدكتور محمد مهران فى بحثه عن برتراندراسل :

(ان راسل كان يهدف من اعادة بناء المادة والموضوعات المادية ردها الى مكوناتها اليقينية أو ــ اذا أردنا مؤقتا الابتعاد عن لفظ (الرد) ــ كان يهدف الى التعبير عما هو موضوع موضع الشك بما لا يكون موضع شك ، سواء كان هذا الأخير المعطيات الحسية أو الأحداث .

ان السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو هل استطاع راسل أن يحقق مثل هذا الهدف بالنسبة للموضوعات المادية ؟

لعل الاجابة الواضحة لراسل على هذا السؤال الأخير هى اجابة النفى ، وبذلك لم يستطع راسل أن يجد المعرفة اليقينية التى كانت مطلبه طوال حياته الفلسفية فجاء فى أعماله الأخيرة ليقيم فلسفته على « مصادرات (٢) .ويلجأ الى النتائج العملية التى لا يمكن تبريرها بأى نوع من المعايير النقدية التى قال بها فى فلسفته المتقدمة ..

ان بناء راسل للعقل والمادة لم يحقق الغرض المرجو منه . فقد كان الهدف من « البناء » ــ التعبير عما يمكن أن يكون موضع شك (الموضوعات المادية والعقول) بما لا يكون موضع شك (المعطيات الحسية أو الاحداث) (٣) . لكن لقد أنتهى راسل الى أن كل معرفتنا الانسانية غير يقينية وغير دقيقة ولذا فان البناء قد أصبح بمثابة التعبير عما هو غير يقينى بما هو غير يقينى . وفقد بذلك المبرر للجوء اليه ، ويكون فى اعتقادنا ــ قد أخفق فى تحقيق الغرض الذى من أجله وضع) (٤) .

(١) بحث الفلسفة الشخصيائية فى كتاب فلسفة القرن العشرين ص ١٠٩

(٢) أنظر ما ذكرناه من « مسلمات » راسل فى مبحث الايمان الاولى فى مبحث سابق

(٣) أنظر ما ذكرناه عن موقف راسل من غيبيات المادة فى مبحث سابق

(٤) فلسفة برتراند راسل للدكتور محمد مهران ص ١١٢، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨

وهل يستمد العلم الحديث يقينا من احتمائه بالرياضة ؟

يقول راسل بعد أن استغرق فى دراسته للرياضة (فيما يختص بأسس الرياضة فانى لم أهتد فيها الى شىء ، وبالرغم من ميلى الشديد الى الفلسفة التجريبية لم أستطع أن أقتنع بأن القضية :

« اثنان زائد أثنين تساوى أربعة » .

ليست سوى تعميم استقرائى حصلناه بالخبرة لكننى ظللت فى شك من كل ما يتجاوز هذه النتيجة السالبة المحضة) (١) .

ويقول (ان الرياضة تتألف من تحصيلات حاصل وانى لأخشى أن الرياضة بأسرها قد تبدو لعقل على قدر كاف من القوة تافه تفاهة العبارة التى تقول ان حيوانا ذا أقدام أربع حيوان .

وأعتقد أن ما تتصف به الرياضة من لا زمانية ليس له من السمو بمثل ما بدت لى به فى يوم من الأيام .

وماقوام هذه اللازمانيا الا كون الرياضى لا يتحدث عن الزمان ..

واليقين البديع الذى كنت آمل دائما أن أبلغه فى الرياضة قد فقدته فى متاهة محيرة .

لقد فقدت شيئا ، وان كنت قد ربحت شيئا أيضا . فاما ما فقدت فهو أن أجد الكمال والنهائية واليقين .

أما ما ربحت فهو تسليم ببعض الحقائق التى كانت تبدو لى باعثة على النفور) (٢) .

ويقول هانز رايشنباخ فى « فلسفته العلمية » : « عن احتمالية الواقع » .

(اننا عندما نحلم لا نعلم اننا نحلم وانما نعرف ان حلمنا كان حلما فيما بعد ، أى عندما نستيقظ فقط . فكيف ندعى اذن ان تجاربنا الحالية يمكن الاعتماد عليها أكثر من الحلم ؟ ان كون هذه التجارب

(١) فلسفتى كيف تطورت ص ٤

(٢) فلسفتى ... ص ٢٦١ وقد ذكرنا فى مبحث « الايمان الاولى » مسلمات رسل هذه .

مقترنة بشىء من الواقعية لا يجعلها أكثر قابلية للاعتماد عليها • اذ أن هذا الشعور ذاته يكون لدينا فى الحلم فليس فى وسعنا ان نستبعد تماما احتمال أن التجارب التالية ستثبت اننا نحلم الآن) (١) •

ان هانز رايشنباخ يذهب الى أن (وجود العالم الفيزيائى أمر مرجح فحسب وأن احتمال كون الواقع حلما قائم على الدوام ، ويحول بيننا وبين تأكيد ذلك الواقع على نحو مطلق) •

يقول الدكتور فؤاد زكريا (ينطوى ذلك ضمنا على عناصر مثالية لا تقل قوة عن تلك التى كرس معظم كتابه لمحاربتها) • (٢)

ويقول أميل بوترو :

(هل يمكن أن يقدم العلم ــ على الأقل حين يكون صالحا ــ للعقل يقينا صحيحا ؟

كان العلم الى أيامه الأخيرة ــ أو أراد أن يكون ــ دجماطيقيا واعتبر أن بعض أجزائه قد تكونت نهائيا ، وتطلع الى بلوغ مثل هذا الكمال فى البعض الآخر ، وكانت المدرسية مثله الأعلى •

لكن لا يوجد أى علم فى الوقت الحاضر ــ ولا حتى العلوم الرياضية يرضى أن يكون مدرسيا •

فالعلم مهما تكن الصورة التى يتخذها ••• هو استقراء يتجه الى غير حد نحو الكمال ، وسيظل كذلك (٣) •

ويقول :

(لا ينبغى أن نخلط بين التقارب المتزايد من الحقيقة ، وبين العجز التام عن بلوغها •

فالعلم لم يعد يفكر فى منح العقل نسخة تشبه الأشياء الخارجية التى من الواضح أنها غير موجودة كما نفترضها ، ولكنه يكشف « علاقات » تتحقق التجربة من صحتها •• وفى هذا القدر كفاية لأن تكون صحيحة بالمعنى الانسانى لهذه الكلمة) (٤) •

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ٣٧ : ٣٨

(٢) الفلسفة العلمية لريشنباخ ص ٩

(٣) العلم والدين ص ١٩٢

(٤) المصدر السابق ١٩٤ •

ويقول الأستاذ ليكونت دى نوى : (ليست هناك حقيقة علمية بالمعنى المطلق والقول المعروف « السير نحو الحقيقة بواسطة العلم » قول باطل ، فهناك فقط مجموعات من الاحساسات التى وجدنا بالتجربة أنها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتى ندعى أنها ستتوالى على نفس النمط فى فترة مستقبلة محدودة تلك هى روح الحقيقة العلمية) (١)

بل ان المرء ليأخذه العجب ويتساءل :

هل المنهج العلمى هو مجرد تبرير للجهل ؟

أليس هذا ما نخرج به من قول رايشنباخ ــ رغما عنه ــ :

(ان صورة المنهج العلمى كما ترسمها الفلسفة الحديثة مختلفة كل الاختلاف عن المفاهيم القديمة ..

لقد أتضح أن أحداث الطبيعة أشبه برمى الزهر منها بدوران النجوم فى أفلاكها ، فهى خاضعة للقوانين الاحتمالية ، لا للعلية ، أما العالم فهو أشبه بالمقامر منه بالنبى ، فهو لا يستطيع أن ينبئك الا بأفضل ترجيحاته ، ولكنه لا يعرف مقدما أبدا ان كانت هذه الترجيحات ستتحقق ، مع ذلك فهو مقامر أفضل من ذلك الذى يجلس الى المائدة الخضراء لأن مناهجه الاحصائية أفضل ، والهدف الذى يسعى اليه أسمى بكثير ، وهو التنبؤ برميات الزهر الكونية ...) (٢)

واذا كان العلم عاجزا عن الوصول الى اليقين فان هذا يمثل نقصا خطيرا فى امكانيات العلم بالنسبة للعقل البشرى ، الذى لا يهدأ دون الوصول الى اليقين .

ان هذا العجز المتنوع للعلم الذى نذكره فى هذا الباب ، وعلى قمته عجزه عن الوصول الى اليقين

(١) مصير البشرية ص ١٦

(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ٢١٨

من ناحية ، والاقتصار على هـذا العلم من ناحية أخرى ، هو الذى أفرز طائفة من المفكرين اللاأدريين ، يعكسـون قلقهم وريبتهم عـلى المجتمـع الذى يعيشـون فيـه ، ويقدمون أنفسهم فى صـورة مـن التمـزق الشعورى ، والتنـاقض الفكرى فى آن واحـد .

ان برتراندراسـل وهـو مـن اللاادريين ، لا تمنعه لا أدريته من اتخاذ القرارات الجازمة فى ما يتعلق بالعقائد الدينية .

انه يجزم بمعتقداته الآتية :

(ان الانسان نتاج علل لم يكن لها أى علم بالغـاية التى ستدركها وان أصله ونموه وآماله ومخاوفه وحبه واعتقاداته نتيجة تركيبـات عرضية بين الذرات ، وانه لا تستطيع النار ولا البطولة ولا قوة الفـكر والشعور أن تحفظ حياة فرد وراء القبـر ، وان جهـاد العصـور والاخـلاص والوحى واشراق نور العبقرية البشرية كل ذلك مقـدر له الفناء عند موت النظام الشمسى الواسع ، وانه لا مفر للهيكل الذى بنتـه مآثر الانسـان من ان يدفن تحت انقاض كون سيهدم) .

ان برتراندراسل الملحد اللاأدرى لم تمنعه لا ادريته من أن يقرر هذه الأمور بصيغة الجزم ، قائلا :

(تلك أمور ان لم نقل بأنهـا غير قابلة للجدل فانها تكاد تكون أكيدة بحيث أن أية فلسفة ترفضها لا تستطيع أن تثبت ، ولن يمكن بعد اليوم بناء مسكن للنفس الا ضمن هذه الحقـائق فقط ، وعلى أسـاس متـين من اليـأس الذى لا يتراجع) (١) .

ومن العجيب أن راسل لا يمتنع عن هذا الهراء بالرغم من أننا نجده فى موضع آخر يرى أن حـركة الفـلك ونظـامه ينبىء عن غاية يتحرك نحوها اذ يقول (فى مملكة الكواكب عمليـات تنطـوى على خصائص غائبة) (٢) .

(١) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٢٨٤

(٢) برتراند رسل للدكتور محمد مهران ص ١٣٥

وها هو اللورد بلفور من زعماء اللادرية يقدم لنا فى كلماته التالية نموذج اللادرى المتعجرف الذى يعترف فى سياق حديثه بجهله التام للاسباب التى أدت الى ظهور الانسان على الارض ومع ذلك يصب جام غضبه على الكون والانسان ويقرر أن نهاية الانسان هى العدم المطلق :

يقول أولا :

(ان الأسباب التى اتحدت بادىء ذى بدء فحولت مركبا عضويا ميتا الى حياة تحدد منها الانسان لا يعرف العلم فى الحقيقة عنها شيئا حتى الآن) .

ومع هذا الاعتراف بالجهل ، واعلان اللادريه يجرؤ فيقول بعد ذلك :

(يكفى القول بأنه قد نشأ على التدريج وبعد كفاح طويل من بدايات كالجوع والمرض والقتل المتقابل وهى كلها المرضعات التى نهل منها أسياد الخليفة المقبلين — نشأ جنس له من الضمير ما يكفى لأن يجعله يحس بأنه منحط ، وذكاء يكفى لأن يجعله يعرف انه تافه لا أهمية له . فاذا استعرضنا الماضى وجدنا أن تاريخه قد جبل بالدماء والدموع ، والأخطاء التى لا حيلة فيها ، والثورات المتوحشة والاستسلام الأبله ، والآمال القارغة ، واذا حاولنا أن نستشف المستقبل علمنا انه بعد مقدار من الزمن — طويل اذا قورن بالحياة الفردية ، ولكنه قصير بالحقيقة اذا قورن بتقسيمات الزمن الذى ندرسه فى أبحاثنا — فان قوى نظامنا ستتدهور ومجد الشمس سيخبو وتقف الأرض قائمة جامدة فلا تحتمل ذلك الجنس الذى أزعج وحدتها خلال لحظة عابرة ، ولابد للانسان من أن يوارى فى الحفرة وتمحى كل أفكاره ، والوعى القلق الذى قطع السكون السائد فوق الكون فى هذه الزاوية المظلمة سيسكن ولن تعرف المادة ذاتها بعد ذلك .

أما « الصروح الشامخة التى لا تفنى » و « الاعمال الخالدة » والموت ذاته ، والحب الذى هو أقوى من الموت فستكون كأنها لم تكن قط ، ولن يكون أى شىء

من الوجود أفضل أو أسوأ بالرغم من الكفاح والعبقرية والاخلاص والآلام التى بذلها الانسان خلال أجيال لا حصر لها ...) (١) .

فأى تناقض بعد ذلك ؟

هذا هو المصير الذى يريد هؤلاء الملاحدة المتناقضون مع أنفسهم المعلنون بكل صراحة جهلهم العميق لحقائق الغيب والمادة على السواء ..

هذا هو المصير الذى يريدون أن يدفعوا اليه الانسان المعاصر .

ان تناقض هؤلاء الملاحدة لا يعنى انهم يتركون لا أدريتهم بقدر ما يعنى ان هذه اللاادرية من شأنها أن تقذف بهم الى مستنقع الألم ، فاذا هم يصرخون ، واذا صرخاتهم تبدو دجماطيقية قاطعة بالدمار والضياع ، واذا هم ـ لعجرفتهم وتكبرهم ـ لا يكتفون بأن تكون آلامهم لهم .. وانما للانسانية كلها .

وسر ذلك فيما يقوله وليم جيمس (لقد تجاهل كثير من الكتاب ـ أو المفكرين ـ دوام حصول المستقبل فى الذهن واشتغاله به ، ولكن ذلك تجاهل للحقيقة الواقعة ..) ويقول :

(دع الشعور بالمستقبل يفقد أهميته وقيمته ، أو دعه يكون بلا موضوع وستجد أن العقل قد أصبح فى الحال غير هادىء وغير مطمئن . ويصبح الجديد مصدرا للمتاعب العقلية) (٢) .

واذا كان هؤلاء اللاادريون لا يدرون ـ بحكم لا ادريتهم ـ شيئا عن المستقبل فيوقعهم ذلك فى الألم الذى يدفعهم الى النظرة التشاؤمية ، فان هذه النظرة التشاؤمية ـ بما انها لا تنسجم مع رغباتهم الطبيعية تورطهم فى آلام مضاعفة . يقول وليم جيمس (ان عدم انسجام المستقبل مع رغبات الناس وميولهم الفعالة يسبب لهم فى الحقيقة من القلق

(١) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٢٨٢ : ٢٨٤

(٢) العقل والدين ص ٤٨

والتعب ما يزيد على التعب الذى ينشأ من عدم التيقن بالمستقبل) (١) .

وهكذا ينتقل اللادرى من حلقة من الألم الى حلقة أخرى ويدور من الآلام فى سلسلة مفرغة ... ، ان أى فلسفة ــ كما يقول وليم جيمس (اذا تركت المستقبل عرضة للاحتمالات ــ واللادريه ــ فانها تسبب عدم طمأنينة للعقل ، وتورثه تعبا وألما (٢) ومن ثم فاننا نقول : ان هؤلاء فى حقيقة الأمر لا يحتاجون الى من يدرس فلسفاتهم المتهرئة ولكن الى من يدرس أعماق نفوسهم ليظهر فيها آلامهم العميقة ، هذه الدوافع التى أثرت أن تلبس مسوح الفكر دوافعهم العدوانية النابعة من والعلم ، وقد كان أجدر بها أن تلبسهم أقنعة القتلة : قتلة الضمائر والعقول .

الدكتور يحيى هاشم

ولا خير فى ود امرىء متلون
اذا الريح مالت مال حيث تميل
جواد اذا استغنيت عن أخد ماله
وعند احتمال الفقر عنك بخيل
فما أكثر الاخوان حين تعدهم
ولكنهم فى النائبات قليل
(على بن ابى طالب)

(٣) العقل والدين ص ٥٢
(١) العقل والدين ص ٥٠

دراسات قرآنية :

ذو القرنين يفتح المشرق ويبنى سَدّ يأجوج ومأجوج

فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

— ٢ —

« حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا »

(الآيات من سورة الكهف)

ذكرنا فى المقال الأول أن ذا القرنين عند المحققين هو الاسكندر بن فيلقوس الرومى ، فانه هو الذى بلغت فتوحاته مشارق الأرض ومغاربها ، وجعلها تستظل بملكه وسلطانه ، وقلنا انه كان قبل ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ثلثمائة وثلاثين سنة ، وكان من أهل مقدونيا •

وقد أجملنا تاريخه وبينا سبب تسميته بذى القرنين ، وتحدثنا تفصيلا عن رحلته الى المغرب وسياسته فى أهله ، فارجع اليه لتصل ما جاء فيه بما نذكره اليوم عن رحلته الى المشرق والى بلاد يأجوج ومأجوج ، والله تعالى هو الموفق والمعين •

رحلة الى الشرق

بعد أن أتم ذو القرنين رحلته الى ما عرف عماره من جهة المغرب ، فقفل راجعا متجها بفتوحاته الى المشرق ، وقد كان الناس وقتئذ يعتقدون أن الأرض مسطحة ولها مشرق واحد هو بداية الأرض من جهة شروق الشمس عليها ، ومغرب واحد هو نهايتها من ناحية غروب الشمس — بحسب رأى العين — ولم يكونوا قد عرفوا أن الأرض كروية ، ودائرة تحت أشعة الشمس والوقت الذى يكون مغربا لقوم

قد يكون مشرقا لآخرين ، والذى يكون مشرقا لقوم قد يكون مغربا لآخرين .

وقد حكى القرآن فتوحات ذى القرنين حسبما عرفه الناس ، حتى لا يفاجئهم بمعلومات يجهلونها ، فيعظم انكارهم لها وللقرآن الذى جاء بها ، فلذا قال : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس » أى موضع طلوعها أولا فى رأى العين ، وهو غاية الأرض المعمورة شرقا حسبما بلغه علم الانسان : « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا» .

وقد أجمل الله فى هذه الآية حال سكان هذه المنطقة بأنهم بدائيون لم يرتقوا صناعيا حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابا تسترهم وتحميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تؤويهم وتقيهم حرارتها .

وجائز أن تكون هذه الجهة فى المنطقة القطبية التى قد يمكث النهار فيها أياما متتالية بدون ليل ، كما قد يمكث الليل فيها فترة بدون نهار ، وانه انتهى الى هذه الجهة وقتما كان الزمن نهارا بدون ليل ، والشمس طالعة فوقهم باستمرار ، وليس لهم ليل وقتئذ يسترهم منها ، وان ذلك هو معنى أنه تعالى لم يجعل لهم من دونها سترا .

وقد أجمل الله استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة البعيدة المدى، وعظم أمره وفخمه بقوله : « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا » أى هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين كان أمره فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علما بما لديه من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربا ومشرقا مثل أدوات النقل البرى والبحرى والجنود وآلات الحرب ، وحسن التدبير والسياسة التى يسرت له فتوحاته البعيدة المدى .

يأجوج ومأجوج

لما أتم ذو القرنين رحلته الى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقا ثالثا لم يكن سلكه من قبل ، ليخضع لحكمه قوما لم يخضعهم بعد .

وفى ذلك يقول الله تعالى « ثم أتبع سببا » وأتبع هنا بمعنى اتبع، أى اتبع سببا يوصله الى فتح جديد ، بأن سلك سبيلا آخر « حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » والسدان هما الجبلان ، قال صاحب القاموس : السد هو الجبل وقد يطلق على الحاجز . اهـ . وسنتحدث عن موضع السدين ان شاء الله تعالى .

وقد وجد ذو القرنين من دون السدين ــ أى قريبا منهما ــ وجد أمة من الناس لا يكادون يفهمون ما يقوله لهم هو أو أتباعه ، لقلة فطنتهم ، فان الذكى المخالف لك فى لغتك يستطيع أن يفهم بعض ما تقوله له بالقرائن .

وكان هو ورجاله يفهمون منهم ما يقولونه ــ وان لم يعرفوا لغتهم ــ فلهذا شكوا اليه قائلين : « يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » .

ويأجوج ومأجوج ترجمة عربية لصفتهما ، مأخوذة من أج الظليم اذا أسرع ، أو من أجيج النار وهو ضوءها وشررها ، وهذا المأخذ يشير الى شرهم وضررهم فيمن عداهم ، فهم مثل النار لا جيرة لهم .

والمقصود منهما المغول والتتار على ما يظهر ، لما سنحدثك به عنهم ، وهم من ولد يافث بن نوح، وقيل ان الترك منهم ، لما أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، من طريق السدى من أثر قوى « الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج . خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد ، فبقوا خارجين عنه » وفى رواية لعبد الرازق أن هذه السرية كانت خارجة للغزو .

موضعهم وفسادهم

كان هؤلاء المفسدون خلف جبلين ، وكانوا ينحدرون من بينهما للافساد فى الأرض ، والجبلان المذكوران بين سمرقند والهند ، وهؤلاء هم المغول والتتار كما تقدم ، وتمتد بلادهم من التبت

والصين ، الى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا الى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت بلادهم فى هضبان آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين ، من خطوط العرض الشمالية .

وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثا وعشرين درجة ، كما نقله صاحب الجواهر عن فاكهة الخلفاء وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ورسائل اخوان الصفا .

وهذه الامم معروفة تاريخيا أنها كانت تغير قديما على الامم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز افسادهم الى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى الى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التى بعث فيها الأنبياء ، وكان الأنبياء يحذرون أقوامهم منهم ، وسنتحدث عن افسادهم فى عهد الاسلام .

بناء السد

لما وصل ذو القرنين الى الوادى القريب من الجبلين اللذين يختفى وراءهما يأجوج ومأجوج ، وجد سكان هذا الوادى فى غاية الشقاء بسبب غارات يأجوج ومأجوج عليهم ، منحدرين من بين الجبلين اللذين حددنا سابقا موضعهما ، وقد طلبوا منه أن يقيم سدا بين الجبلين ، يمنعهم من غزوهم اياهم ويحميهم من شرهم ، وأظهروا استعدادهم لدفع تكاليفه بقولهم له على سبيل السؤال : « فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ولكن ذا القرنين « قال » معتذرا عن أخذ مال منهم : « ما مكنى فيه ربى » من الملك والسلطان والمال وسائر الأسباب « خير » من المال الذى تريدون دفعه الى ، فلا حاجة لى به « فأعينونى بقوة » أى فساعدونى بما يتقوى به من أسباب البناء ، كالأحجار والعمال « أجعل بينكم وبينهم ردما » أى حاجزا حصينا وهو أقوى من السد وأوثق ، وهو مأخوذ من قولهم (سحاب مردم) أى متكاثف .

بعضه فوق بعض ، وقيل هو والسد بمعنى واحد .

« آتونى زبر الحديد » أى أحضروا لى قطع الحديد لأبنى بها السد ، والزبر جمع زبرة كغرف جمع غرفة ، والزبرة هى القطعة ، ولا بد أنها كانت قريبة المنال منهم ، بأن كانوا قريبين من منجم حديد ، ويجوز أن يكون مراده : اجمعوا لى قطع الحديد من دوركم ، فان جمعوها أعطاهم ثمنها ، لأنه امتنع أن يأخذ منهم مالا فى مقابل بنائه ، وهكذا يكون الحكام المصلحون .

ثم أمر بالحجارة فوضعت بين الصدفين أى الجبلين ، ولعله أذاب حجارة الحديد التى جمعوها ، وصبها فى قوالب متساوية ، ليكون البناء مستقيما متناسبا شديد التماسك « حتى اذا ساوى بين الصدفين » بأن جعل الردم فى ارتفاعهما « قال » للعمال بعد أن أوقدوا النار بين قطع الحديد « انفخوا » النار بالكيران لتزداد اتقادا ، وتعم جميع ما بين قطع الحديد رغبة فى انصهاره « حتى اذا جعله » أى جعل الحديد « نارا » أى كالنار « قال » للذين يتولون اذابة المعادن « آتونى أفرغ عليه قطرا » أى نحاسا أو رصاصا مصهورا ، فأتوه به ، فأمر بافراغه على الحديد المصهور فى السد ، فأفرغوه بطرق فنية تضمن لهم السلامة ، ولحجارة السد قوة الالتحام ، وسد ما عسى أن يكون من فراغ بينها .

وقد أسند البناء والمساواة بين الصدفين وافراغ القطر الى ذى القرنين ، مع أن العمال هم الذين قاموا بذلك ، لأنه مشرف عليهم وموجه لهم ، فكأنه هو الذى قام بذلك .

فلما برد السد أصبح أملس « فما استطاعوا أن يظهروه » أى فما قدروا أن يرتفعوا فوقه لملاسته وارتفاعه « وما استطاعوا له نقبا » لشدته وصلابته « قال » ذو القرنين « هذا » السد القوى المنيع « رحمة من ربى » على عباده ، لأنه يحميهم من شر هؤلاء المفسدين

« فاذا جاء وعد ربى » أى فاذا حضر الوقت الذى وعد ربى بخروجهم فيه « جعله دكاء » أى جعل السد أرضا مستوية « وكان وعد ربى حقا • وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض» أى جعلنا بعض الناس يوم يأتى وعدنابخروج يأجوج ومأجوج من وراء السد يموج فى بعض ، أى يختلطون اختلاط الموج بعضه ببعض ، فيختلط يأجوج ومأجوج بغيرهم ، كما سنحدثك •

ولعل ذا القرنين قد علم بأن السد سوف يدك ويخرج منه يأجوج ومأجوج من نبى كان يعاصره أو باجتهاد منه ، أو أنه اطلع على ذلك من كتاب نبى الله حزقيال • ففيه الاخبار بمجيئهم فى آخر الزمان وافسادهم ، وقصدهم بيت المقدس وهلاكهم عن آخرهم فى برية بأنواع من العذاب ، وكان حزقيال قبل الاسكندر غالب الشاه (دارا) فاذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون علم ذلك من كتابه •

اسم السد ومكانه

يسمى هذا السد « سد باب الحديد » وراء جيحون فى عمالة بلخ على مقربة من مدينة ترند ، وقد أقامه ذو القرنين بين الجبلين الواقعين بين سمرقند والهند ــ كما قدمنا ــ وقد دك هذا السدكماوعد الله تعالى ، واجتازه تيمور لنك بجيشه ، ومر به « شاه روح » وكان فى خدمة الألمانى (سيلد برجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك (قشتالة) بالأندلس الى تيمور لنك •

آراء اخرى فى موطنهم

هذا وقد قيل ان يأجوج ومأجوج يسكنون قريبا من خط عرض ٩٠ (تسعين)من جهة الشمال، وهو المراد بآخر الجربياء فى كتاب حزقيال ، وقيل ان جبليهم هما جبلا أرمينيةوأذربيجان ، ومن زعم

ذلك يزعم أن سد ذى القرنين هو السد المشهور بباب الأبواب ، وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والتزك ، وهذا خلاف ما عليه المؤرخون ، فان بانى سد باب الأبواب هو كسرى أنو شروان .

وحدد آخرون السد فى أماكن أخرى ، وقال بعض أهل العلم انه بموضع من الارض لا يعلمه الا الله تعالى ، وكم فيها من أمور مجهولة ؟ ولعله قد حال بيننا وبين ذلك السد وجبليه مياه عظيمة ، ودعوى استقراء الأراضى والبحار غير مسلمة ـ هكذا قيل . والله أعلم .

حقيقة يأجوج ومأجوج

هم ناس مثل سائر الخلق ، ولكنهم غلب عليهم الشر ، وهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام وهذا هو الراجح ، وقد أحيطت قصتهم وصورتهم بأكاذيب لا يصح تصديقها ، ومن عجب أن بعض رواتها وضعوا أحاديث كاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤيد مزاعمهم ، ومن ذلك انهم رووا عنه صلى الله عليه وسلم : انهم امتان ، كل امة اربعمائة ألف أمة ، لا يعلم عددها الا الله تعالى ، ولا يموت أحدهم حتى يعقب ألف ذكر من صلبه ، كل واحد قد حمل السلاح وأن بعضهم فى طول شجر الارز ـ أى الصنوبر ـ الذى يطول الى مائة وعشرين ذراعا ، الى غير ذلك من الاكاذيب الموضوعة التى لا أصل لها ولا يليق عزوها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، كقول بعضهم ان طائفة منهم طول أحدهم ذراع وعرضه كذلك ، وطائفة أخرى يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى ، وكل ذلك وأمثاله من الضلالات المقطوع بوضعها وكذبها .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا ان سدهم تخرب وانهم خرجوا فى غزوات تخريبية ، وذلك مصداق لوعده تعالى ، ومن جرائمهم بعد دك السد وتخريبه ، ما حدث منهم فى أوائل القرن

السابع الهجرى ، اذ أغاروا بقيادة ملكهم جنكيز خان على بلاد المسلمين، فاجتاحوا مملكةالسلطان قطب الدين السلجوقى ملك التركستان والفرس ، وملكوها بعد حرب امتدت عشر سنين ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء وفعلوا كل منكر ، ولقد أحصى من قتل فى خوارزم وحدها ، فخص كل جندى من جنود جنكيز خان أربعة وعشرين قتيلا من المسلمين ، وأحرقوا المدينة بعد ما جرت الدماء أنهارا ، وذلك غير ما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما ، وأفنوا أهل نيسابور عن آخرهم .

وكان قتلى مرو مليونا وثلثمائة ألف ، وأخضعوا بلاد الهند ، ومات هذا الطاغية بعد رجوعه من الهند، وأغار ابن أخيه هولاكو بجنوده على مقر الخلافة فى بغداد فى عهد الخليفة المعتصم بالله ، وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته فى ذنب حصان ، وأباحوا المدينة سبعة أيام سالت فيها الدماء انهارا ، وطرحت كتب العلم فى نهر دجلة ، وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم .

ولما استولت اسرة جنكيز خان على آسيا كلها ، وأوروبا الشرقية ، اقتسموا الفتوحات بينهم ، وكانت القرى وبلاد الخلافة حتى الشام من نصيب هولاكو — لعنه الله — ثم أذن الله بالنصر فى عهد السلطان الملك المظفر عز الدين قطز ملك مصر ، فقد حاربهم وهزمهم وأخرجهم من بلاد المسلمين ، فى معركة مرج دابق الشهيرة .

وفى شأنهم هذا روى الامام البخارى بسنده عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول : « لا اله الا الله•ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها ، قالت زينب بنت جش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم اذا كثر الخبث » .

وتحليق النبى صلى الله عليه وسلم باصبعه الابهام والتى تليها

كناية عن بداية صغيرة لشرهم ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا .

موجة عارمة من شرهم

فى آخر الزمان تكون لهم موجة أخرى يدمرون بها العالم تدميرا ، فانهم بعد اختلاطهم بالمسلمين فترة طويلة أثر استيلائهم عليهم وفتكهم بهم ، تنام فتنتهم زمنا مديدا ، ثم تستيقظ آخر الزمان بعد أن يكونوا قد فقدوا القيم الخلقية والدينية التى استفادوها من مخاليطهم من أهل الاسلام ، فيكفرون بعد ايمان ، ويعصون بعد استقامة ، ويعودون الى التدمير كما كان أسلافهم ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم بسنده عن النواس بن سمعان ، بعد ذكر هلاك الدجال بباب لـُد « ثم يأتى عيسى قوما قد عصمهم الله من الدجال ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هم كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى : انى قد خرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ، ويبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، ويضمون اليهم مواشيهم ، فيشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا ، حتى ان من يمر من بعدهم ، ليمر من ذلك النهر فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، ويحصر عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيرا من مائة دينار » .

وفى رواية لمسلم وغيره «فيقولون لقد قتلنا من الأرض هلم نقتل من السماء ، فيرمون نشابهم الى السماء ، فيردها الله مخضوبة دما للبلاء والفتنة ، فيرغب نبى الله وأصحابه الى الله تعالى ، فيرسل عليهم النغف فى رقابهم ، فيصبحون فرسى » .

والنغف نوع من الدود ، وفرسى بمعنى قتلى ، جمع فريس بالفاء أى قتيل ، والحديث المذكور يؤذن

بكثرتهم وعظم فسادهم ، وتسببهم فى تعطيل مرافق الرى ، حتى يقل الماء فى الأنهار فلا يكفيهم هم وغيرهم .

ويجوز أن الله تعالى يجعل الماء وقتئذ قليلا فتنة وبلاء (١) ، فاذا نزلوا بجوار ماء شربوه ولم يبقوا لغيرهم منه شيئا لكثرتهم وقلة الماء، كما يدل الحديث أيضا على أن الله تعالى هو الذى يفنيهم ، اذ لا قبل للامم بقتالهم .

واعلم أن أولئك المغول والتتار باختلاطهم بالمسلمين بعد أن قهروهم فى معركة (مرج دابق) انتشر فيهم الاسلام ، حتى كونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وآسيا ، فكما ورثوا أرضهم ورثوا دينهم ، لكن هؤلاء سيرتدون عن الاسلام كما علم من هذا الحديث الشريف ، ولعل من أشراط ذلك اعتناقهم الشيوعية المنكرة لكل دين ، وحملهم الناس على الايمان بالمادة والكفر بالله ، ومحاربتهم لكل القيم الروحية ، والفضائل الدينية وبذاءتهم على الله تعالى بعبارات فاجرة ، ولقد أزالوا معالم الاسلام أو كادوا فى الأقاليم الاسلامية التى كانت تحت حكم الروس البيض ، ومنعوا تدريس الدين فى مدارسهم .

وآخر مصائبهم استيلاؤهم على افغانستان ، وحكمهم لأهلها بالحديد والنار ومحاربة الاسلام وقتل المسلمين والعلماء بأسلوب الابادة ، نسأل الله السلامة .

الشيخ مصطفى محمد الطير

(١) ومثل هذا حدث فى السنين السبع العجاف فى عهد يوسف عليه السلام .

الرسم العثمانى واجب شرعى طريقه الإجماع

دكتور رءوف شلبى

النقاط التى تندرج تحت هذا الموضوع أربع :

١ ــ ارتباط الرسم العثمانى بجمع القرآن الكريم •

٢ ــ مفهوم الرسم العثمانى •

٣ ــ هل يجوز الخروج على الرسم العثمانى فى طبع القرآن الكريم ؟

٤ ــ متى بدأ نشر القرآن وطبعه بالرسم العثمانى •• وما هى جهود الأزهر فى ذلك ؟

أولا ــ ارتباط الرسم العثمانى بجمع القرآن الكريم

عرفنا أن النبع الوحيد الذى كان يستقى منه الرعيل الأول ثقافتهم هو القرآن الكريم وكان ذلك عن قصد من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان كذلك عن قصد من الصحابة رضوان الله عليهم •

ولقد قصد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يوظف العهد النبوى كله لجمع القرآن الكريم جمعا فى الصدور ، وجمعا فى السطور •

فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » •

فلم يسمح النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة الأجلاء بكتابة شىء عنه غير القرآن وذلك حتى يتفرغ المسلمون والزمن الذى يعيش فيه النبى صلى الله عليه وسلم لجمع القرآن بالمعنيين :

١ ــ جمع بالحفظ فى الصدور.

٢ ــ وجمع بالكتابة فى السطور .

أما فيما يتعلق بالفقرة الأولى لمعنى الجمع : فان الصحابةرضوان الله عليهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى حفظه فى صدورهم ويعلمونه لأبنائهم ونسائهم ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمر عليهم ليلا فيسمع لهم بالقرآن دويا كدوى النحل ، وقد أخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لو رأيتنى البارحة وأنا أسمع لقراءتك ؟ لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود » .

وفى رواية مسلم . فقلت :

« لو علمت والله يا رسول الله انك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا » .

وفى الشيخين : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« انى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن ، وانكنت لم أر منازلهم بالنهار » .

لقد اشتهر عصر النبوة بكثرة الحافظين للقرآن الكريم حفظا متينا فى الصدور وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكى فيهم هذه العناية وكان يبعثهم الى المدن والقرى يعلمون الناس تحفيظ القرآن الكريم ، قال عبادة بن الصامت : « كان الرجل اذا هاجر دفعه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى رجل منا يعلمه القرآن الكريم ، وكان يسمع لمسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

ومعروف فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سيدنا مصعب بن عمير رضى الله عنه الى المدينة المنورة قبل الهجرة وبعد بيعة العقبة الأولى ليعلم الناس هناك القرآن ، كما بعث بعد الهجرة من المدينة سيدنا معاذ بن جبل

رضى الله عنه ليعلم الناس فى اليمن القرآن الكريم .

ومن هنا فان الحفاظ فى العهد النبوى لا يحصون فكل مسلم يحفظ ويسارع الى الحفظ فأنوار النبوة يشرح الله بها الصدرويضفى بها على الصدور بشاشة ورقة ورأفة ويفتح الله بها المعارف فيقبل الناس بهذه البركة العامة على القرآن الكريم ، وقد يسره الله للذكر وهداهم لحفظه فكثر الحفاظ وانتشروا فى المدن والأمصار والقرى البعيدة ، ويدلك على هذه الكثرة أن الجيش العسكرى المحارب فى سبيل الله قد استشهد منه فى معركة واحدة تسمى : (معركة اليمامة) عدد يزيد على السبعين وكلهم من كبار الحفاظ ، كما قتل مثل هذا العدد فى موقعة (بئر معونة) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القرطبى : قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل فى عهد رسول الله ببئر معونة مثل هذا العدد .

فكانت أسمى خصائص هذا الرعيل أن جمع القرآن فى صدره وحفظه فى قلبه ووعاه بوجدانه تصديقا لوعده جل شأنه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

وأما فيما يتعلق بالفقرة الثانية من معنى الجمع ، فقد جهز سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكرتارية كافية لتدوين ما يترى به الوحى وسميت هذه السكرتارية بالاصلاح العلمى : كتاب الوحى : فكان كلما نزل شىء من القرآن الكريم أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابته وعين لهم السورة والموضع الذى تكتب فيها الآية الجديدة .

وكان من مشاهير الكتاب ما رواه الشيخان عن أنس رضى الله تعالى عنه : جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قيل لأنس : من أبو زيد ؟ قال أحد عمومتى .

ومع هذه السكرتارية الخاصة كان هناك كتاب للوحى لذواتهم خاصة مثل سيدنا على بن أبى طالب

رضى الله عنه ، وعبد لله بن مسعود رضى الله عنه ، والسيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

وبهذا يتضح أن معنى جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ طريقتين :

الأولى : طريق الحفظ فى الصدور .

الثانية : طريق الكتابة فى السطور (١) الصحف :

ولقد كان العزم مخلصا وأكيدا فى تسخير كل مادة تصلح صحيفة يكتب عليها القرآن الكريم .

لقد كتبوا على العُسُب : جريد النخل ، الجزء العريض من الأسفل .

وكانوا يكتبون على اللخاف : الحجارة الرقيقة . قال الخطابى : وتسمى صفائح الحجارة .

وكانوا يكتبون على الرقاع : وهى قطع من جلد أو ورق .

وكذلك كانوا يكتبون على الأديم : الجلد .

وكذلك كانوا يكتبون على الأكتاف : وهو العظم الذى للبعير أو الشاة .

وكانوا يكتبون على الأقتاب : الخشب الذى يوضع على ظهر البعير .

وكذلك الكرانيف : وهى أصول السعف الغلاظ .

يقول زيد بن ثابت رضى الله عنه : «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » رواه الحاكم بسنده على شرط الشيخين .

وكانت هذه الكتابة فى صحف مفرقة ذلك لأن القرآن ما دام للنبى صلى الله عليه وسلم حياة فهو يترى وكلما نزلت آية كتبت فى الموضع الذى أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد اكتمل فى هذه الصحف كل ما نزل فقد كان جبريل عليه السلام يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة فى ليالى رمضان. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظا وكتابة .. حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن

(١) راجع مجلة الازهر رجب ١٣٩٩ هـ ص ١٣٤٥ حول هذا الموضوع ..

كامل محفوظ فى الصدور محفوظ فى السطور •

ويسمى هذا الجمع : الجمع بالحفظ ، والجمع بالكتابة ،

الجمع الأول : أن جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم • •وحتى هذا الحين فالقرآن وهو كامل موجود فى اللخاف والأكتاف والرقاع فى صحف مطهرة لا يجمعها مصحف فهى صحف مصونة عند أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم المؤمنين رضى الله عنها السيدة عائشة بنت أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

الجمع الثانى : فى عهد سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه :

واجهت الخلافة الراشدة الاولى حركة تمرد على العدل الاجتماعى الذى جعلت الزكاة وهى عماده أصلا من أصول الايمان ومع شهرة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بالهدوء واللين والحنان والرأفة فان الخليفة الأول لم يجد من عقيدته الا أن يكون جلدا مغوارا أمام هذا التمرد المنافق الذى يريد أن يفتح على المسلمين بلاء بعد رحيل النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام • فجهز الخليفة الأول جيشا لحروب الردة وكانت موقعة اليمامة واستشهد فيها عدد كبير من كبار الحفاظ للقرآن الكريم ، والحفاظ على القرآن له طريقان : طريق الحفظ فى الصدور ، وطريق الحفظ فى السطور •• فكان استشهاد جمهرة من كبار الحفاظ مثار يقظة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأشار على سيدنا أبى بكر أن يجوز جمع القرآن الكريم فى مصحف واحد حتى ينتقل القرآن الكريم الى الأجيال المتعاقبة وهو محفوظ التواتر لعدد سوره وآياته على نحو ما حفظه المسلمون وكتبوه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وبعد مناقشات حول الموضوع شرح الله صدر الخليفة الأول ووافق على جمع القرآن فى مصحف واحد ، روى الامام البخارى :

حدثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب

عن عبيد بن السباق : أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل الى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : ان عمر أتانى فقال : ان القتال قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن • وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر •

قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب ، عاقل ، لا تتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كانوا كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما •

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره — « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » — حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه •

منهج الكتابة :

١ — يروى أبو داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد ، اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه •

٢ — والمراد من الشاهدين الحفظ والكتابة ، قال السخاوى فى كتابه « جمال القراء » المراد انهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٣ ــ قال أبو شـــامة : وكان غرضهم أن لا يكتب الا من عيـــن ما كتب بين يدى النبى صـــلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ •

فاذا لاحظنا :

ــ قيمة عمر الاجتماعية ورهبته فى صدور القوم •

ــ وقيمة زيد الثقافية حيث هو كاتب الوحى •

ــ وقيمته الرسمية عند الخليفة حيث هو لا يتهم •

ــ وحالته الدينية حيث هـــو واحد من المختارين لكتابة الوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بمعنى أن الله قد رضى عنه كاتبا للوحى الكريم •

واذا لاحظنا مـــع ذلك شروط الشهادة من عدليـــن معهما قرآن محفوظ فى الصدور ومكتوب فى الصحف مثل الذى جاء به الصحابى الذى يمليه على سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه أدركنا أن القـــرآن الكريم قد جمع فى عهد كامـــل : الدولة كلهـــا شاهدة على صـــدق وكمال ووحدة ما دونه سيدنا زيد ابن ثابت فى عهـــد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وأنه هو هو القرآن الذى دونه سيدنا زيد بن ثابت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم •

وجمع القرآن فى هذا العهـــد كذلك بنفس الوســـائل التى كان يسمح بها العصر ذاته من اللخاف والأكتاف •• الخ • وبقيت هـــذه الصـــحف مرتبـــة كمصحف عنـــد سيدنا أبى بكر حتى وفاته ثم نقلت الى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ويسمى هذا الجمع : الجمع الثانى :

الجمع الثـــالث :

أو الرسم العثمانى :

لقد طفنا طويلا لنصل الى بيت القصيد حتى ندرك مسألتين :

الأولى ــ وهى الأصـــل ارتباط الرسم العثمـــانى بجمـــع القرآن الكريم •

الثانية ــ وهى ثانوية ولكنهـــا مهمة وهى : ابراز جهود المسلمين : دولة وعلماء وشعبا فى الحفاظ على القرآن الكريم بمقدار ما يملكون حسب ظروف البيئة والعصر الذى كانوا يعيشون فيه فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه كان

الله جل شأنه قد فتح للمسلمين بلادا واسعة وكان الصحابة بعد سيدنا عمر قد انتشروا فى الأمصار ولكل مصحفه الخاص وقراءته الخاصة :

ـ أبو موسى الأشعرى وله مزمار من مزامير داود صوت رخيم ندى حلو النغم جيد الترتيل له قراءة .

ـ وسيدنا عبد الله بن مسعود فقيه عالم سابق بالاسلام مقرىء للقرآن متحد به جحافل قريش منذ الفجر الاول للدعوة له مصحف وقراءة .

والصحابة كلهم كالنجوم بأيهم اقتدى الناس اهتدوا انتشروا فى الأمصار كالثريات فى جنبات السماء وكانت الرقعة للدولة الاسلامية قد اتسعت فاختلطت الألسن .

ـ لقد قرأ أهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود .

ـ وقرأ أهل الشام بقراءة أبى ابن كعب .

ـ وقرأ أناس كثيرون بقراءة أبى موسى الأشعرى .

ـ فاختلف الناس فى القراءة ، وكان لا بأس بهذا الاختلاف لو أنهم عرفوا أن القرآن نزل على سبعة أحرف (١) وأنه لا تضاد ولا تنافر ولكن القوم ـ على عادة الشعب الاسلامى فى ادراكه للمشاكل ـ كفروا بعضهم بعضا ، وتضاربوا وأصبحت صورة المجتمع الاسلامى صورة موحشة ليست هى أصوات دوى النحل التى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا هى مزامير داود التى تحلى بها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وصادف أن سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان غازيا فى موقعة أذربيجان ، وأرمينية من أرض الشام فرأى ذلك الاختلاف والتكفير والتضارب فحزن كثيرا أن يصير حال الشعب الاسلامى الى هذه الحالة ويعود القرآن وهو هدى للناس مثار فتنة بينهم ففزع الى الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فشكى له ووضح له البلاء . وكان الخليفة الورع الطيب قد علم بنبأ ذلك

(١) راجع بحث : القرآن والاحرف السبعة مجلة الازهر فى عددى رجب وشعبان سنة ١٣٩٨ هـ .

ففى المصاحف لأبى داود من طريق أبى قلابة أنه قال :

« لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك الى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال :

« أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا »•

فالتقى بيان سيدنا حذيفة رضى الله عنه بالمعرفة التى عند الخليفة الثالث فجمع سيدنا عثمان وجهاء القوم وأهل الحل والعقد وكان على رأسهم سيدنا على رضى الله تعالى عنه وعرض عليهم حالة القوم فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها الى الأمصار يعتمدون عليها فى القراءة ويحرق ما سواها حتى يرأب الصدع ويجبر الكسر وتعود الأمة الى قرآنها بأصوات كمزامير داود •• والامام البخارى يؤرخ القصة حديثيا فيروى: «حدثنا موسى حدثنا ابراهيم حدثنا ابن شهاب : أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحب، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » (١) •

(١) البخارى فتح البارى ص ١٠ ص ٣٩٠/٣٩٥

وأخذت اللجنة الرباعية برياسة سيدنا زيد بن ثابت كاتب الوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتب القرآن على عهد سيدنا أبى بكر فهو هو الذى كتب الصحف التى جاءت من عند السيدة حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ونسخوا القرآن الذى فيها بلسان يتفق مع قراءة كل قطر، وأرسل الى كل قطر المصحف الذى يتفق مع وجوه قراءته وكان هدف نسخ القرآن من الصحف التى كانت عند أم المؤمنين السيدة حفصة رضى الله عنها محاولة توحيد الأمة الاسلامية وانهاء الخلاف بينها فيما يتعلق بالقراءة مع الحفاظ على امتياز القرآن بنزوله على الأحرف السبعة فالكلمات التى تدل على قراءات متعددة ويمكن كتابتها بطريقة تصلح لكل الأمصار كتبت بهذه الطريقة التى تؤدى الغرض وترفع الخلاف مثال ذلك :

« ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »، فيها قراءتان :

« فتبينوا »

« فتثبتوا »

كتبت بلا نقط هكذا « فسوا » فأمكن قراءتها على الوجهين .

وكذلك « وانظر الى العظام كيف ننشزها » .

فيها قراءتان :

« ننشزها »

« وننشرها »

كتبت بغير نقط هكذا :

« نسرها » .

أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة فكتبت فى مصحف المصر الخاص بهذه القراءة مثل : «ووصى بها ابرهيم بنيه ويعقوب ، فيها قراءة أخرى لمصر آخر وأوصى فهى تكتب فى مصحف وأوصى ، وفى مصحف آخر ووصى حسب قراءة المصر التى سيرسل اليها المصحف .

وملخص الموضوع :

١ ــ أن اللفظ الذى لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يكتبونه برسم واحد يُمكِّن من القراءات كلها .

٢ ــ وان كان اللفظ لا يمكن رسمه لعدم احتماله وجوه القراءات

رسموه فى مصحف بشكل خاص ثم رسموه فى مصحف آخر بشكل آخر .

واذن فالرسم العثمانى مرتبط بجمع القرآن الكريم من ناحيتين :

الأولى : أنه هو نفس القرآن الذى جمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

الثانية : أنه رسم بطريقة خاصة ترفع الخلاف الذى وقع فيه القراء وأحدث بين الناس شغبا .

ولهذا أمر سيدنا عثمان رضى الله عنه باحراق جميع المصاحف التى تخالف الرسم الذى كتبه سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه حسبما وافقت اللجنة على ذلك .

عن سويد بن غفلة قال : قال على ــ كرم الله وجهه ورضى الله عنه ــ لا تقولوا فى عثمان الا خيرا فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف الا عن ملأ منا ، قال ما تقولون فى هذه القراءة ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول : ان قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرا ، قلنا فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا : فنعم ما رأيت » . أخرجه أبو داود .

وهكذا أحرق عثمان جميع الصحف الا الصحف التى كانت عند السيدة حفصة رضى الله عنها لأنها المصدر العلمى الأساسى للرسم العثمانى .

وما زالت الصحف عندها حتى توفيت فبعث مروان بن الحكم وكان « غفيرا على المدينة المنورة » فى طلب الصحف فأرسلها اليه عبد الله بن عمر فأمر بها فشققت .. أقول ويا ليته لم يفعل فما من وراء ذلك ضير لو بقيت حتى الآن .. فوالله لهى نور وبركة من آثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الحكومة الأموية كان لها عقل مترف بالكبرياء .. ولكم كانت تعارضه السيدة حفصة حين حياتها أن يفعل ذلك (١) .

(١) راجع مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٣٢/٢٥٤ فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٨٣/٣٩٦ مباحث فى علوم القرآن لمناع ص ١٠٣ / ١١٨ التبيان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٥٥ / ٦٨ مباحث فى علوم القرآن دكتور الصالح ص ٦٧ / ٩٥ .

ثانيا : مفهوم الرسم العثمانى :

بعد هذا العرض يفهم أن المراد من الرسم العثمانى كاصطلاح علمى فى علوم القرآن هو :

طريقة الكتابة التى أوصى بها سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ونفذها سيدنا زيد بن ثابت باتفاق اللجنة القرشية والتىأجمعت عليها الأمة من أول أكابرها حتى ذاك الحين .

وان هذه الكتابة هى التى يقرأ بها المسلمون اليوم بعد ادخال تحسينات عليها « بالشكل » تسهيلا على الناس فى قراءة القرآن .

لقد كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل وذلك اعتمادا على السليقة التى كان يتميز بها الناس آنذاك أو لأن العرف كان يعتاد ذلك فلما طال العهد بالناس وصعب على الناس قراءة القرآن برسمه العثمانى من غير شكل اجتهد العلماء الذين لديهم غيرة على كتاب الله فى تسهيل قراءة القرآن للناس بوضع علامات مع المحافظة على الرسم الذى أجمع عليه الصحابة فى عهد سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه .

وقد اختلف الكاتبون فى أول من قام بهذا المجهود ولا يهمنا فى هذه الدراسة أن نجهد أنفسنا لترجيح رأى لنعرف من هو أول مجاهد فلكل ثوابه والأولية ليست بذات قيمة ما دام القصد هو اخلاص النية لله ففى الحديث ما معناه : طوبى لعبد يأتى يوم القيامة أشعث الرأس مغبرة قدماه آخذ بلجام فرسه فى سبيل الله ان كان فى الساقة كان فى الساقة وان كان فى المقدمة كان فى المقدمة ... » .

فالمهم هنا معرفة جهود العلماء فى تحسين الرسم العثمانى أما أيهم الأول ... فهى عند الله وميزانها « انما الأعمال بالنيات» .

١ ـ الدور الأول :

١ ـ يروى بعض العلماء أن « أبو الأسود الدؤلى » نقط القرآن بأمر عبد الملك بن مروان ، والدكتور صبحى الصالح لا يرتاب

قط فى أن لأبى الأسود الدؤلى دورا لا ينكر ولكنه لا يتأكد من الباعث الذى دفعه الى ذلك .

على حين ان الاستاذ مناع القطان يرى أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئا يقرأ « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بجر اللام فأفزعه هذا اللحن وذهب الى والى البصرة « زياد » وأجابه الى ما كان قد طلبه منه أن يضع للقرآن نقطا وشكلا .

فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف .

وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله .

وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف .

وجعل علامة السكون نقطتين .

ويميل الشيخ الزرقانى الى هذا الرأى (١) .

وهناك روايات ينقلها ويضعفها الدكتور صبحى الصالح ان أول من نقط المصحف هو يحيى بن يعمر نقلا عن كتاب المصاحف لابن أبى داود .

وأن نصر بن عاصم الليثى لا يستبعد ان يكون عمله فى نقط القرآن مواصلة لعمل أستاذه أبو الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر .

وهذه مرحلة من مراحل تحسين الرسم العثمانى يذكر فيها العلماء أسماء ثلاثة من العلماء :

١ ــ يحيى بن يعمر

٢ ــ أبو الأسود الدؤلى .

٣ ــ نصر بن عاصم الليثى

أيهم الأول ؟ ليس مهما ولكن كان لهؤلاء جميعا دور فى خدمة تيسير قراءة القرآن على الناس .

٢ ــ الدور الثانى :

وكلما يتقادم العهد بالاصطلاحات يحتاج الناس الى تيسير أيسر وأسهل فوضع العالم العلامة الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى ضوابط للشكل والتشديد والروم والاشمام

(١) راجع مناهل العرفان جـ ١ ص ٤٠١ مباحث فى علوم القرآن دكتور صبحى ص ١١٧ مناع القطان مباحث فى علوم القرآن ص ١٣١

فالفتحة شكلة مستطيلة فوق الحرف •

والكسرة شكلة مستطيلة تحت الحرف

والضمة واو صغرى فوق الحرف •

والتنوين زيادة مثلها •• الى آخر ما شرحه الامام السيوطى فى الاتقان •

والروم بتشديد الراء وسكون الواو هو :

الاتيان ببعض الحركة بصوت يسمعه القريب دون البعيد ويكون فى المرفوع والمجرور •

والاشمام : ضم الشفتين بعد الاسكان بحيث تدع بينهما انفراجا ليخرج النفس بغير صوت ولا يكون الا فى المرفوع •

وذلك هو ما ورثه المسلمون من علمائهم الأجلاء مع المحافظة على الرسم العثمانى وهو الخط الذى كتبه سيدنا زيد بن ثابت ووافق عليه اجماع الصحابة وارتضاه الناس فى جميع الأمصار •

ثالثا ـ هل يجوز الخروج على الرسم العثمانى ؟

الحفاظ على القرآن الكريم هو مهمة الشرفاء من العلماء والممتازين من حكام المسلمين •

وقد وضح لنا فى العرض السالف كيف التقت جهود العلماء والحكام فى تقديم خدمة للقرآن الكريم تيسره على الناس دون مساس بما ورثه المسلمون من الجمع الاخير وهو الرسم العثمانى وقد طرح العلماء فى علوم القرآن مبحثا ما كان لهم الحق علميا أن يبحثوه من الزاوية التى طرحوها للبحث وهو : هل الرسم العثمانى توقيفى أو توفيقى ؟

ان مجرد الاضافة : الرسم الى العثمانى تمنع طرح هذا الموضوع من هذه الزاوية لأنه لو كان توقيفيا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صحت نسبته لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم •

هذا من جانب ومن جانب آخر ففى البخارى عن الزهرى قال : أخبرنى أنس بن مالك قال : فأمر

عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ان ينسخوها فى المصاحف وقال لهم :

« اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فان القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا » (١) .

قال ابن شهاب فاختلفوا يومئذ فى التابوت والتابوه فقال القرشيون التابوت وقال زيد التابوه فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : أكتبوه التابوت فانه نزل بلسان قريش (٢) .

فدل ذلك أن موضوع ارتباط الرسم العثمانى باصطلاح التوقيف أو التوفيق ليس بذى وزن لأنه لو كان توقيفيا لما وقع خلاف ولما أشار عليهم سيدنا عثمان اكتبوه بلسان قريش فقد نزل بلغتهم .

ـ اذن مبحث الرسم العثمانى توقيفى أو توفيقى ليس بالجيد علميا لوقوع هذا الخلاف ، وليس معنى هذا أننى أميل الى الرأى القائل بأنه توفيقى كلا فأنا أمنع المسألتين معا وأقول انه اصطلاح **أجمع عليه كبار الصحابة وارتضته الامة الاسلامية كلها وورثته تركة عن اكابر الصحابة وهم الاعرف بكتاب الله الذين شاهدوا الوحى والنبى وعاشوا حياة النور والهدى والله يصل السماء بالأرض بحبله المقدس فهو اجماع فريد فى نوعه.**

لقد أجمع عليه أهل الحل والعقد الذى جمعهم سيدنا عثمان للشورى .

ـ وأجمع عليه كتاب الوحى واللجنة التى نسخت الصحف .

ـ وأجمعت عليه السيدة أم المؤمنين عائشة وحفصة .

ـ وأجمع عليه المسلمون جميعا حتى صار الرسم العثمانى خاصية من خصائص القرآن الكريم وأصبح مألوفا للناس جميعا وميسرا سهلا يقرؤه الناس جميعا والمسلمون فى جنوب شرقى آسيا : فى

(١) راجع فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٨٣ .
(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٤

اندونيسيا وسنغافورة والفليبين وتايلاند وماليزيا وهم لا يعرفون العربية ولكنهم يجودون القرآن ترتيلا وقراءة دون صعوبة أو تعذر .. ذلك لأنهم تمرنوا وتدربوا على الرسم العثمانى كصفة خاصة للقرآن الكريم ، والمحافظة على القرآن الكريم فى هذا العصر مهمة جدا حتى على كل نقطة فيه ورثها المسلمون من أسلافهم الصالحين ذلك لأن الأعداء العالميين للاسلام يريدون أن يغيروا فى القرآن الكريم . فاذا ما تساهل العلماء فى الرسم العثمانى فقد انفتح باب للشر المستطير لن تسلم منه الأمة فى الدنيا ولا فى الآخرة أعود فأقول : الرسم العثمانى اجماع شرعى على رسم المصحف لا يجوز الخروج عليه مطلقا ، ومهما حسنت النيات فانه ــ يجب على المسلمين أن يحافظوا على الرسم العثمانى لأنه ميراث من السلف الصالح وخاصية مشهورة للقرآن الكريم . ولقد أخطأ خطأ كبيرا القاضى ابو بكر الباقلانى اذ قال فى كتابه : الانتصار .. « اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى اجماع الأمة » . لقد أخطأ يوم أن قال : ولا فى اجماع الأمة لأن الأمة قد أجمعت على ذلك ونقل عن الأئمة الفقهاء عدم جواز كتابة القرآن بغير الرسم العثمانى .

١ ــ قال الامام أحمد بن حنبل - تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو باء أو غير ذلك .

٢ ــ قال مالك عندما سئل : أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : لا أرى ذلك ولكن يكتب على الكتبة الأولى (١) .

(١) راجع الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٣ راجع البرهان جـ ١ ص ٣٧٦
راجع مباحثات علوم القرآن للقطان ص ١٢٨ ــ ١٢٩

٣ ــ والشافعية والحنفيةيقولون بهذا كذلك .

٤ ــ وقد أصدر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف فى مؤتمره الرابع قرارا بعدم صحة طبع القرآن الكريم بغير الرسم العثمانى اللهم الا اذا كانت آية يستشهد بها فى التأليف والبحث العلمى الذى ليست له صفة المصحف المستقل .

وبهذا ينتهى الرأى فيما يتعلق بالرسم العثمانى :

١ ــ ليس توقيفيا وليس توفيقيا .

٢ ــ ولكنه اصطلاح مجمع عليه من الصحابة فهو حكم شرعى طريق ثبوته بالاجماع .

٣ ــ انه لا يجوز مخالفته أبدا لأن مخالفته تؤدى الى الخروج على الاجماع .

وعلى هذا فانه لا ينبغى طبع القرآن الا برسمه المشهور به حفاظا على خاصية القرآن الكريم .

رابعا : متى بدأ نشر القرآن وطبعه

كل ما سلف من جهود المسلمين فهو تدوين أو رسم للقرآن باليد ، وكان آخر هذه الجهود فى تحسين كتابة القرآنالكريم بالرسم العثمانى المصحف الذى كتبه بخط يده خالد بن أبى الهياج الذى كان مشهورا بخطه الجميل وذلك فى خلافة الوليد بين عام ٨٦ هـ الى ٩٦ هـ .

ثم شاء الله أن ينتشر كتابه فى الآفاق بواسطة الطباعة الحديثة .

١ ــ ولكن هذه المرحلة مرت كذلك بدرجات ومما يؤسف المسلمين جميعا أن أول طبعة للقرآن الكريم كانت فى بيئة مسيحية عام ١٥٣٠ فى مدينة البندقية وليس من الغريب أن تصدر السلطاتالكنسية أمرها باعدام طبعة القرآن حال ظهورها .

٢ ــ ثم قام بعد ذلك هنكلمان (Hink clamann) عام ١٦٩٤ . بطبع القرآن فى مدينة هانبورغ (Hambourg)

٣ ــ ثم قام من بعده مراكى (Marracci) عام ١٦٩٨ بطبع القرآن فى مدينة بادو (Padoue)

غير أن هذه الطبعات الثلاث لم يكن لها أثر فى العالم الاسلامى، ولعل التفسير الواضح لذلك أن هذه الجهود قامت اثر نهضة أوربا بعد الحروب الصليبية التى اغتصبت فيها علوم الاسلام ونفائس انتاج علمائه ثم نشرتها فى أوربا • بينما المسلمون كان قد أصابهم المرض بعد الحروب الصليبية وعمت فيهم الجهالة والضعف وما زالوا حتى اليوم فى نوم أو يقظة خلاف عنيد •

أول طبعة اسلامية للقرآن الكريم

٤ ــ ثم ظهرت فى سانت بترسبورغ Saint Petersbourg فى روسيا سنة ١٧٨٧ م طباعة هى الطبعة التى قام بها مولاى عثمان وظهر مثلها فى قازان •

٥ ــ وطهران تقوم بطبعتين حجريتين فى عام ١٢٤٨ هـ ، ١٨٢٨ م والأخرى فى تبريز عام ١٢٤٨ هـ •

٦ ــ وفى تركيا ــ بلد الخلافة الاسلامية آنذاك تعنى الآستانة عام ١٨٧٧ م فتطبع القرآن الكريم بعد أن تحرك المخلصون وطبعوا القرآن الكريم •

٧ ــ ثم تستقر الجهود الاسلامية عندما ألفت لجنة فى الازهر الشريف للمحافظة على الرسم العثمانى وظهرت أول طبعة رسمية فى عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م وقد كتب هذا المصحف وضبط على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم ، وكان من كبار هذه اللجنة فضيلة الشيخ خلف الحسينى ، ثم كان من بعده العالم الحجة الشيخ على عامر الذى ما زال حيا وله تلميذ مباشر أخذ عنه فى ماليزيا هو الشيخ توان حسن اسماعيل شيخ معهد القراءات بمسجد تكارا •

جهود الأزهر الشريف :

ولقد أفنى الأزهر حياته فى الحفاظ على الرسم العثمانى ، فألف لجنة دائمة تابعة لمراقبة البحوث والنشر لمراجعة جميع طبعات المصحف التى تقوم بها جميع دور النشر فى العالم كله •• ولقد أدت هذه اللجنة

خدمة جليلة فى المحافظة على الرسم العثمانى •

فلما كانت الامانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية تحت ادارة المرحوم فضيلة الاستاذ الجليل الدكتور عبد الحليم محمود كون لجنة من كبار علماء القراءات وعلماء التفسير ورجال الطباعة الذين لهم دراسة فى الأزهر قديما وراجعت جميع طبعات المصحف الشريف ثم وضعت طبعة خاصة باسم الأزهر لتكون وحدها المرجع الرسمى للرسم العثمانى للمصحف الشريف •

ولما تولى المرحوم الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود مشيخة الأزهر فى أبريل سنة ١٩٧٣ م جاهد لاخراج عمل هذه اللجنة وطبع مصحف الازهر حتى يمتلك المسلمون رسميا الرسم العثمانى الذى ورثوه عن السلف الصالح فلا تستطيع قوة بعد ذلك أن تحرف فى الطباعة أو أن تضلل فى الرسم •

ولقد منح الله التوفيق للازهر الشريف وصدرت أول طبعة من المصحف الرسمى للازهر فى عام ١٣٩٦ هـ الموافق ١٩٧٦ م وتوالت الطبعات حتى الطبعة الثالثة بأحجام متعددة ، بل صار للمصحف الشريف فى الأزهر مطبعة خاصة تكلف شراؤها نصف مليون جنيه استرلينى •

وهكذا يجيش الله لحماية كتابه العزيز الجهود المخلصة حتى يستمر السند المتصل فى الرسم العثمانى موصولا بالوحى الأمين •

جزى الله كل من حفظ على المصحف الشريف رسمه العثمانى خيرا فى الدنيا وفى الآخرة وتقبل أعماله فى الصالحين •

والحمد لله رب العالمين •

الدكتور رءوف شلبى

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية

بقلم الدكتور محمد شامه

(٣)

الباب الثالث

القرآن الكريم

ويتضمن هذا الباب :

(١) مكانته عند المسلمين

شرح المؤلف كلمة « قرآن » وبين علاقتها بكلمة « قرأ » محاولا ربطها بفعل الأمر « اقرأ » فى أول آية نزلت على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، ثم ذهب الى أن معنى كلمة « اقرأ » فى اللغة العربية هو نفس معنى كلمة « قارا » فى اللغة العبرية .

وعن شمول موضوعاته لما يحتاجه المجتمع ، يعبر عنه ما روى عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ وان كانت هذه الرواية مشكوكا فى نسبتها اليه ــ من أنه قال ــ حين حرقت مكتبة الاسكندرية :

« ان كانت هذه الكتب قد احتوت على شىء يخالف ما فى القرآن ، فهو ضار ، ويجب اعدامها ، وان كان ما فيها مطابقا لما ورد فيه ، فلا فائدة فيها ، ويجب أيضا التخلص منها » .

فهذه الكلمات تبين أن القرآن الكريم مقدم عند المسلمين على كل ما عداه من كتب . ثم تحدث عن أن بعض الفرق الاسلامية ترى أنه قديم وليس حادثا ، ولذا فهو مقدس ، الا أنهم لم يعتقدوا انه جزء من الاله ــ كما هو الحال عند المسيحيين عندما اعتقدوا أن

كلمة الله صـارت جسدا ، فآمنوا ببنوة عيسى ـ عليـه السلام ـ فلا ينبغى تعظيمـه على أنه صورة الله ، بل على انه كتـاب لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى أن ما فيه صالح لكل زمان .

حظى القرآن الكريم بعنـاية ، لم ينلهـا أى كتـاب على وجـه الأرض ، اذ يبذل المسلمون جهـدا كبيرا فى المحافظـة على رسمه ، فلا يجوز التهـاون فى شىء مهمـا بلغت ضآلة هذا الشىء ، وينـال التلميذ أسمى آيات التكريم عندما يحفظ القرآن كله . كذلك لا يقرأ فى الصلاة ـ فى أى بقعة من بقاع العالم ـ الا باللغة العـربية (١) . ويتلوه المسلمون تعبـدا ، سواء فهموا معنـاه أم لا ، فلا يجـوز ترجمته الا للعبادة فقط .

وهو جامع لكل شىء :

« ما فرطنـا فى الـكتاب مـن شىء » (٢) .

فهو كتاب عبادة ، كمـا هـو تشريع لما يحتـاجه المجتمـع من قوانين ، وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ من التغيير والتبـديل ، اذ الكتب السماوية الأخرى محـرفة ومتناقضة فى نظر المسلمين . ولكن القرآن سلم من هذا كله ، ولذا فهو الفيصـل فى بيـان العقيـدة الالهية والشريعة السماوية .

فهو الوحى المنزل من الله ،الذى يهـدى الى طـريق الحـق وسط الضلالات البشرية . يجـد المسلم فيـه ارادة الخـالق ، نزلت مـن السماء فى صـورة وحى ، فاليـه يتجه ، وفيه يبحث عمـا يريد ، لأنه كلام الله نفسه . وهو الدليـل الوحيد ـ ولا شىء غيره ـ على نبوة محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فلا يجوز لمسلم أن يشك فى هذا لحظة .

ولا يحتوى القرآن على نصوص العقيدة ، والتعـاليم الدينيـة فقط

(١) أجاز بعض الفقهاء قراءة ما عدا الفاتحة فى الصلاة بغير اللغة العربية .
(٢) سورة الانعام الاية : ٣٨

بل على كل ما هو لازم للحياة ، على ما يتعلق بالدولة من حقوق وواجبات ، وما يلزم المجتمع من سلوك وأخلاق ، ولذا يرسم المسلم حياته طبقا لتعاليمه .

مضى على القرآن اليوم أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولم يوجه أحد أى نقد الى نصه — وان تعددت المفاهيم فى تفسيره واختلفت الآراء فى مفهومه — لأنه بالنسبة للمسلم ليس من تأليف البشر ، بل هو وحى الله الذى فوق كل ما فى الكون من حقائق .

تحدث عن وحدة القرآن مع الكتب المقدسة الأخرى فى الطابع الدينى ، ولكنه استدرك مبينا أنه يختلف عنها فى المضمون ، فهو — على سبيل المثال — لا يحتوى على نصوص مبهمة ، كما هو الحال فى الكتب المقدسة ، وان كان بعض المفسرين مالوا فى تفسيرهم الى الابهام .

ثم ختم هذا الباب بقوله :

« تختلف الشعوب الاسلامية مرارا وتكرارا حول المسائل الدنيوية ، ولكنهم يلزمون الصمت أمام ما يمليه القرآن عليهم ، فهو يعتبر — على الرغم من اختلاف المفسرين فى فهمه — الرباط الذى يربطهم جميعا ، والمرجع الوحيد لكل فرد فى المجتمع الاسلامى ... فالاسلام يعلن دائما على الملأ ، أن كتابه هو وثيقة الوحى السماوى المنزل على رجل واحد ، اختاره الله من بين البشر ... وفى هذا الكتاب أيضا يجد الباحث وثائق تاريخية نادرة » ..

ذكر المؤلف أن الكتب السماوية السابقة — والمقصود بها هنا : التوراة والانجيل — هى فى نظر المسلمين محرفة ومتناقضة ، ويبدو من تعبيره : « فى نظر المسلمين » .. أن غير المسلمين لا يعدونها محرفة ، وهذا حكم غير دقيق من الوجهة العلمية ، فقد بين كثير من العلماء غير المسلمين انها محرفة ومتناقضة ، ومنهم — على سبيل المثال : ابراهيم ابن عزرا (١٠٩٢ — ١١٦٧) ،

وبـاروخ سـبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) •• (١) •

(٢) جمع القـرآن :

سرد المؤلف تحت هذا العنوان قصة جمع القرآن فى عهد الخليفـة الأول أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وبين أن المهمـة التى ألقيت على كاهـل زيد بن حارثة كانت شاقة ، فلم يقتصر عمله على الجمـع فقط ، بل كان من واجبه تمييز القـرآن عن غـيره ، حتى لا يضيع شىء منه ، ولا يدخل فيه ما ليس منه • ولم يكن أحد يقدر على هذا العمل سـواه ، لأنه كان كاتب الوحى ، فهو أعـرف به من غيره •

ثم شرح الدوافـع التى دفعت عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ الى أن يكلف زيدا بنسـخ أربع نسخ من الأصل الذى جمع فى عهد أبى بكر ، وتوزيعها على أربع مدن هى : المدينـة ودمشق والبصرة والكوفة ، وأمره باعدام ما عداها من نسخ وبقيت هـذه النسـخة بالرسم العثمانى حتى الآن كمـا هى ، وان اختلف القراء فى قراءتها على سبع طـرق ، متبعـين فى ذلك أيضا حديثا ورد عن رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخبر بأن القرآن نزل على سبعة أحرف •

ولما لم يخرج فى هذا الفصل عن السرد التاريخى لجمـع القـرآن ونسخه فى عهدى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهمـا ــ وان تضمنت تعبـيراته بعض الهنـات ، التى لا تستحق التعليق ــ رأينا الايجاز فيه أنسب •

(٣) المضمون :

ذكر أن زيد بن حارثة قام بعملين جليلين :

الأول : تدوين كلام الله كمـا نطق به محمـد ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

الثانى : كتابتـه على الطريقـة الصحيحة للاجيال الاسلامية •

(١) عن التحريف راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ١٠٩ ــ ١٢٤ وعن التناقض راجع نفس المصدر ص ١٧٤ ــ ١٩٢

ثم تحدث عن سور القرآن الكريم المكية والمدنية ، والفرق بين المكى والمدنى فى الأسلوب وفى المضمون ، مبينا أن القرآن لم يتحدث عن حياة محمد الشخصية ، كما هو الحال فى الكتب المقدسة السابقة ، اذ لم يذكر منها الا القليل ، مثل :

ما حدث بينه وبين زوجاته ، وتهديده لهن بالطلاق ، ان اردن متاع الحياة الدنيا .

وزواجه بزينب بنت جحش .

وحديث الافك .

وما عدا هذا فلا نجد شيئا عن حياة النبى الخاصة ، أما الحديث فقد امتلأ بهذا النوع من الأخبار . بينما يرى الغربيون أن فى القرآن آيات متعارضة ، ويبنون شكهم فيه على هذا التعارض ، يرى المسلمون فى هذه الظاهرة دليلا على تدرج التشريع والقرآن نفسه يعلل وجود هذه الظاهرة فيه ، فيقول :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ..

يحتوى القرآن على كل ما يحتاجه الفرد فى حياته من المهد الى اللحد ، سواء كان دينيا أم اخلاقيا ، ولذا فحياة المسلم كلها تخضع لتعاليم القرآن ، فالأصول الخمسة منصوص عليها فيه ، وكذلك العبادات والمعاملات بجميع أنواعها .. حتى أسماء الله الحسنى الـ ٩٩ مستخلصة من آياته .

وبجانب هذا يتحدث القرآن الكريم عن أحداث تاريخية فيما يوازى ربعه تقريبا ، بعضها يتناول أحداثا ذكرت فى الكتب الدينية التى بأيدى اليهود والنصارى ، والبعض الآخر يقص ما حدث فى البيئة العربية .

وعلى الرغم من أضطهاد الاسلام لليهود ، فقد اشتمل القرآن على كثير مما فى كتبهم ، فالله ــ أو كما يطلق عليه اليهود « يهوه » ــ رحيم جبار فى كلا الديانتين ، وقضية التوحيد متشابهة عندهما . وفى القرآن كثير من العبادات والوصايا كما هى عند اليهود

تقريبا ، فالوضوء والصلاة ، وتحريم أكل الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به ، حتى الصوم يشبه الى حد ما ما عنـد اليهود .

ولما كانت المسيحية غير معروفة فى الجـزيرة العربية الا عن طـريق المذهب النسـطورى الفـارسى ، فقد وقع الخطأ فيما نقـل عنهـا ، فمثلا : أخبر القرآن عن مريم بأنها أخت هـــارون ، أى أنهـا أخت موسى ، وبينهما فاصل زمنى كبير ، لا يتصور معه انها أخته ، كما أنكر بنوة عيسى وصلبه ، فذهب الى أنه نبى الله ورسوله ، وانه لم يصلب ، بل وقع الصلب على شبيه له ، اذ يخاطب القرآن النصارى قائلا :

« يا أهـل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقـاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » (١) .

ثم ختم الباب بقوله :

« رغم كل ما يوجه الى القرآن ، فهو دستور الاسلام فى العـالم ، فقـد ضـاعت المملكة العـربية الكبرى ، وبقى سلطانه على نفوس المسلمين ، وما زال يقنع أناسا غير مسلمين فلا يملكون الا الدخول فى الاسلام » .

وتعليقنا على هذا الفصل يتناول عدة نقـاط :

(١) خلو القـرآن الـكريم من الحديث عن حياة محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

تعتبر هذه الظاهرة دليـلا على صدق محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى أنه رسول من عند الله ، وفى أنه لم يبلغ الا ما أمر بتبليغه ، ذلك أن النفس البشرية تميـل الى الحـديث عن الذات ، بل تحـاول ـ ان أمكنها ـ أن ترسم بنفسها

(١) النساء الاية : ١٧١

أو توحى الى من حولها من الأتباع أن ترسم صورة وردية ، يضاف اليها من الصفات الحميدة ما احتوت قواميس اللغة فى هذا المجال ، ونظرة فاحصة الى تاريخ الجماعات البشرية تنبئنا عن حمى مدح الزعماء والرؤساء بما لم يعرفوه ولم يباشروه من فضائل ، بل بنقيض ما يباشرونه فى حياتهم الخاصة والعامة تقربا اليهم ولزمى ان صدرت من أتباعهم ، وتفاخرا وتعاظما ، وخداعا للجماهير أن تحدثوا هم عن أنفسهم ، لأنهم يشعرون بالنقص فى ذواتهم أو بتفاهة ما يدعون اليه ، وعدم نفعه لشعوبهم ، فيحاولون سد هذا النقص بالمديح الشخصى والدعاية الذاتية .

أما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهو الكامل لا شك فى هذا ، وسلوكه يتفق مع تعاليم السماء ، فهو لا يحتاج الى دعاية يغطى بها ما يرتكبه من أعمال ، لا يجب أن يراها أتباعه . وهو مكلف بأن يبلغ ما أمر به ، لا ما تميل اليه النفس كانسان (لأن كل انسان يحب الحديث عن نفسه قل هذا أو كثر ، صدقا أو تحريفا للحقائق) والاسلام لا يتعلق بشخصه ، بل بالعليم الحكيم رب كل شىء ، ولم يكن دور محمد سوى وسيط مبلغ وسوف ينتهى هذا الدور بمجرد اتمام المهمة التى كلف بها ، أما الله فهو الباقى الحى ، الذى يتوجه اليه الخلق ويتقربون بواسطة التعاليم التى أنزلها فى كتابه الحكيم ، ولذا لم يكن من الحكمة أن يتحدث عن شخص هالك الا فى حدود التشريع فقط ، وهذا هو ما يراه القرآن الكريم . وهذا أيضا هو أسلوب الوحى فى كل زمان ومكان ، أما ما نقرؤه فى الكتب المقدسة السابقة ، فليس وحيا بل هو تاريخ دونه أتباع الأنبياء السابقين ، ولو كان وحيا ما ذكر فيه قصص الأنبياء لأن الوحى يعبر عن قيم ومبادىء ، ولا يسرد تاريخ الأشخاص الا فى حدود الموعظة .

(٢) تعارض الآيات فى القرآن الكريم :

وذكر المؤلف أن فى القرآن

الكريم آيات متعارضة ، اتخذهـا الغربيون سببا فى الهجـوم عليه ، بينما فسرها المسلمون بأنها تدرج فى التشريع ، ثم ساق آية : « مـا ننسخ من آية أو ننسها..الخ ».. على أنها اعتراف بهذا التعارض ، مع بيان سبب وجوده بأن بعضها نسخ البعض الآخر .

ان ما يبـدو للبـاحث الاوربى متعارضا ، لدليل على صدق محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، لأنه لو طـرح عنـد البحث تعصبه ، وتحامله على الاسلام ، وأقبل على الدراسة بروح محايدة ، لتبين له أن هذا الأسلوب فى التشريع ليس من صنع بشر ولا يمكن أن يهتدى اليه العقل البشرى من تلقاء نفسه أبدا ، ذلك أن التدرج فى التشريع بطريقـة لا يلغى اللاحـق فيهـا السابق ، من الأمور التى تعجـز عنها عقول البشر ، ولنأخذ ــ على سبيل المثال ــ قضية تحريم الخمر ، لقـد نزلت فيهـا ثلاث آيات : الأولى : « يا أيهـا الذين آمنـوا لا تقربوا الصـلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (١) .

فالنهى عن تأدية الصلاة فى حالة السكر يحد من الزمن المسموح فيه بالشرب .

اذ يحاول المسلم الامتنـاع عن الشرب قبل الصلاة حتى لا يؤديها وهو سكران فهـذا تحـريم جزئى زمنـا .

الثانية : « يسـألونك عن الخمـر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنـافع للنـاس ، واثمهمـا أكبـر مـن نفعهما » (٢) .

فبينت هـذه الآية أن فيها اثما ومنافـع ، وان اثمها أكبـر مـن نفعها ، والغرض من ذلك الايعاز الى المسلم بأن يفكر فيها قبـل أن يشرب ، فاذا تذكـر أن اثمها أكبر من نفعها ، فينبغى عليه أن يحـاول الامتناع عن الشرب مدة أكبر من المدة التى التزم بها فى الآية السابقة .

(١) النساء : ٤٣
(٢) البقرة : ٢١٩

وربما يهديه تفكيره الى الامتناع عنها كلية .

الثالثة : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (١) .

وهذا تحريم عام فى كل الأوقات . فاذا نظرنا الى الآيات الثلاث لوجدنا انه ليس بينها ناسخ ومنسوخ ، اذ العام لا ينسخ الخاص ، لأن الخاص مندرج تحت العام ، فما زال أداء الصلاة محرما على المسلم ، وما زال فى الخمر بعض المنافع لأنها تستعمل للتداوى ، اذ تدخل مشتقاتها فى تركيب بعض الأدوية .

هذا الأسلوب فى التشريع لا يرقى اليه بشر ، فهو من صنع العليم الحكيم وقس على ذلك كل الآيات التى يظن الاوربيون انها متعارضة ويرى بعض المسلمين فيها أن بينها ناسخا ومنسوخا .

(٣) مخالفة القرآن الكريم للكتب المقدسة فى رواية الأحداث التاريخية

ذهب المؤلف الى أن القرآن الكريم روى أحداثا تاريخية على نحو يخالف ما جاء فى الكتب المقدسة السابقة ، وزعم — أى المؤلف — ان النقل فى هذا الموضوع عن هذه الكتب كان خاطئا .

ولو سار المؤلف فى بحثه على طريق مستقيم ، بعيد عن المؤثرات المعادية للاسلام ، ما وقع فى هذا الخطأ ، فهو حين تستولى عليه رغبة البحث المحايد ، يعترف بأن القرآن فى أسلوبه فوق طاقة البشر ، أى أنه ليس من تأليف انسان ، ولكنه حين تستجيب حواسه لما حوله من أصوات معادية للاسلام ، ينكص على عقبيه ، فيدعى أن محمدا قد نقل الأحداث التاريخية من الكتب المقدسة خطأ ولا شك أن هذين الحكمين متناقضان ، اذ يلزم من الحكم على

(١) المائدة : ٩٠

القرآن بأنه ليس من صنع البشر.. أى انه وحى الله ــ الاعتراف بأن كل ما فيــه صــحيح ، وان خالف الكتب المقدسة السابقة ، اذ المخالفة ليست دليلا على النقل ، فضلا عن تحريفه ومن الثابت علميا وتاريخيا ان تدوين الــكتب المقدســة جاء متأخرا بزمن طويل عن عصر الأنبياء المنسوبة اليهــم ، ولم يعرف حتى الآن كاتبها بالضبط ، ولم يحــدد العصر الذى دونت فيــه تحــديدا قاطعا ، فكيف يعتقــد ــ والحــال هذه ــ ان ما فيهــا من الاخبــار التاريخية صحيح ، وما عداه فهو نقل خطأ عنها .. لا .. بل العكس هو الصحيح ، فقد حــرف كاتبها المجهــول أخبــارها وجاء الكتاب الذى اعتــرفت ضمنا بأنه وحى ، فصحح هذا التحريف ، وعليه فيجب عليك التسليم بأن القرآن الكريم هــو المرجــع الصــحيح لهــذه الاحداث التاريخية .

(٤) اتفاق الاسلام واليهودية فى بعض الأحكام :

سرد المؤلف عددا من الأحــكام الاسلامية مثل : تحريم أكل الميتــة .. ولحم الخنزير .. و .. و الخ . مبينا أن حكمها فى الاسلام هــو حكمها عند اليهود وعلل ذلك بأن الاسلام تأثر فيها باليهودية لقربهــا منه ، حيث أن الجاليات اليهــودية كانت تقيم بالقرب من المدينة .

وأخطأ فى هــذا ، لأن منبــع الدينيين واحد ، وهــو وحى الله الذى أنزل على مــوسى ، ومحمد عليهما الســلام .. لكن اليهــود حرفوا دين الله ، فجاء القــرآن مصححا هذا التحريف ، وعندمــا نقول : حرفوا فلا ينبغى أن يفهــم من هذا أنهم حرفوا كل ما جاءهم من ألفه الى يائه ، بــل يكفى أدنى تحريف ليصبح الحكم عليهم بأنهم حرفوا ، فعنــدما نزل القــرآن الكريم ليصحح هــذا التحريف ، لم يكن من المقبول أن يبطــل كل ما عنــد السابقين ، ويأتى بمــا يقابله ، حتى ولو لم يدخله تحريف ، لأن ذلك هو أســلوب الثــورات البشرية ، التى تقضى على كل عمل

ينسب للنظام الذى ثارت عليه حتى ولو كان نافعا للمجتمع ، لأن الغرض عندها محو معالم من سبقها لينساه الشعب ، ويتعلق بالثوار الجدد .

أما وحى الله ، أما الرسالات السماوية فالهدف منها اقامة العدل بين الناس ، وتدعيم الفضيلة والقيم الاخلاقية فى نفوس الناس ، ولذا تبقى على ما يساعد لبلوغ هذا الهدف مهما كان منبعه ، وتدعو الى نبذ ما يضر الفرد فى المجتمع ، ولو زعم السابقون ان الله أوحى به الى الأنبياء السابقين ، فاذا ماصادف أن حكما طابق ما عند اليهود ـ أو غيرهم ـ فلا يعتبر دليلا على انه مأخوذ منهم ، بل هو حجة واضحة على أنه وحى الله أنزله على رسوله ليصحح ما حرف ويثبت ما سلم من التحريف (اذ لو لم يكن وحيا ، لحرص على ابطال معالم السابقين عليه ، كما هو معروف فى تاريخ الثورات) ليكون القرآن الكريم هو المرجع المعتمد ـ لأنه سلم من التبديل والتغيير ، وهى قضية مسلم بها حتى عند اعداء الاسلام ـ لتصحيح المسيرة الدينية التى حرفها السابقون ، وصدق من قال : « شرع من قبلنا شرع لنا ، ان لم يرد فى شرعنا ما ينسخه » .. أى ان لم يرد فى شرعنا ما يصححه من التحريف الذى أصابه من البشر .

(٥) انكاره لنبوة عيسى عليه السلام :

زعم المؤلف أن بعد النصارى عن موطن الاسلام الأول جعل تأثير النصرانية عليه ضعيفا ، فهو لم يتصل الا بالنسطوريين ولذا تأثر برأيهم فى المسيح (١) فأنكر عقيدة النبوة الالهية التى يدين بها المسيحيون .

ان قضية التأثير والتأثر بين الاسلام وغيره من الأديان والعقائد

(١) كان نسطور يذهب مذهب أريوس فى انكار أن عيسى ابن الله ومسأوله ، كما أنكر ذلك أيضا بوطينوس وبولس الشمشاطى ، فكانا يقولان « ان الاله واحد ، وان المسيح ابدأ من مريم عليهما السلام وانه عبد صالح مخلوق ، الا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته ، وسماه ابنا على التبنى لا على الولادة والاتحاد » الشهرستانى ج ١ ص ٢٢٥

السابقة التى أثارهـا المستشرقون ــ ولا زال بعضـهم يضرب عـلى وترها ــ قد ثبت بطلانها علميا ، فالاسلام لم يأخذ شيئا من غيره ، وان وافقت بعض تعاليمه ما عنـد الآخرين ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يقتبس شيئا من العقائد الأخرى ، لأنه كان أميـا فلم يعـرف ما عنـد الآخـرين ، بالاضـافة الى مـا ثبت مـن أن ما أخبر به وحى ، بدليل انه خارج عن قدرة البشر العقلية • فاذا قيل بعد ذلك انه تأثر بهـذا أو بـذاك فليس الا ادعاء يفتقـر الى الدليل العلمى •

ومـن العجيب أن يدعى باحث انه عارض عقيـدة النبـوة عنـد المسـيحيين لأنه لم يتصـل الا بالمنكرين لهـا ، وكان الأولى به أن يقول :

ان دين الله هو التوحيد من لدن آدم الى محمد ــ صلى الله عليـه وسلم ــ وعيسى نفسـه لم يـدع قومه الا الى توحيد الله ، اذ يخبرنا الوحى الصادق بقوله :

« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنـاس اتخذونى وامى الهين من دون الله ، قال سبحـانك ما يكون لى أن أقـول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقـد علمته ، تعلم مـا فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيـوب ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن اعبـدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلمـا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » (١) •

غير أن أتباعه حرفوا دعـوته ، فاعتقدوا فى ألوهيته ، ثم اضطهدوا من آمن منهم بنبوته وبشريته حتى قضوا عليهم ، ولم يبق سوى من حاد عن طـريق التوحيـد وسلك سبيل التثليث وورثوا هذه العقيدة لمن جاء بعدهم جيـلا بعد جيـل ، وطبيعى ألا تعرف الأجيال اللاحقة شيئا عن هـذا الصراع العقـدى

(١) المائدة : ١١٦/١١٧

فتظل مؤمنة بأنها العقيدة المسيحية الموحى بها من الله ، اللهم الا من هداه الله فأنكرها لتنافرها مع الطبيعة البشرية ، أو من جد فى البحث فى تاريخ الصراع العقدى بين الطوائف المسيحية (١) .

(٦) انكاره الصلب للمسيح :

نفى القرآن الكريم ادعاء اليهود بأنهم صلبوا المسيح عليه السلام ، فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (٢) .

ويتضمن هذا النفى تكذيب ما ورد فى أناجيل المسيحيين حول قصة محاكمة المسيح وصلبه . وقد أيدت الدراسات العلمية ما جاء فى القرآن الكريم ، واقتنع به أصحاب الاتجاه العقلى فى مجال البحوث الدينية المقارنة (٣) . ولذا فينبغى على من يريد المقارنة بين اخبار القرآن الكريم بنفى صلب عيسى عليه السلام وبين ما دونه كتاب الأناجيل ، فعليه أن يطالع نتائج هذه الدراسات أولا ، والا فمن المحتمل أن يضل الطريق — بل الواقع يشهد بأن كثيرا منهم تخبط فى هذا البحث ، فلم يصل الى نتيجة علمية صحيحة — فى الوصول الى حقيقة ما حدث ، حين حاول اليهود قتل عيسى عليه السلام .

الباب الرابع

ماخلفة محمد صلى الله عليه وسلم :

وقد تناول فى هذا الباب النقاط التالية :

(١) تعظيم النبى وتبجيله :

لم يكن الموت عند العرب ظاهرة مفجعة ، فنسبة الوفيات كانت عالية ، فمن كان بدنه قادرا على قسوة الطبيعة ، هو الذى امتدت حياته ، أما ضعفاء البنية فسقطوا صرعى المرض . كذلك شاعت ظاهرة وأد البنات بعد ميلادهن ، ولم يكن عدد ضحايا الحروب ضئيلا ..

(١) راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ٦٨ — ٧٢

(٢) النساء : ١٥٧

(٣) راجع بين الاسلام والمسيحية ص ١٩٢ — ٢١٥

وهكذا كان المـوت عمليـة غيـر مزعجـة ، اللهم الا اذا كان الميت ابنا ذكرا لأب لا عقب له .

تبدلت طبيعة العـربى ازاء هذه الظاهرة رأسا على عقب ، عنـدما أذيع خبر وفاة النبى ــ صـلى الله عليه وسلم ــ ، اذ وقع الخبر على بعض المسلمين كالصاعقة فأصيبوا بالفـزع والهلع ، لدرجـة انكار الخبر ، والتهديد بقتل من يقول : انه مـات ، فقـد روى أن عمـر ابن الخطاب ــ وهو من أكبر عباقرة المسلمين ــ قال حين سمع الخبر : « ان رجالا من المنافقـين يزعمون ان رسـول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ قد توفى ، ولكن رسول الله ــ صلى الله عليـه وسـلم ــ ما مات ، ولكنه ذهـب الى ربه ، كما ذهب مـوسى بن عمـران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيـل : انه مـات . ووالله ليرجعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهـم زعموا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مات » (٢) .

فاضطرب القـوم بين مصـدق ومكذب ، حتى جاء أبو بكر فقال قولته المشهورة :

« يا أيها الناس .. من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فانالله حىلا يموت ، ثم تلا هذه الآية : « وما محمـد الا رسـول قـد خلت من قبـله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقـابكم ، ومن ينقـلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (٣) .

فقال عمر : « والله ما هو الا ان سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (٣) . حتى وقعت الى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ــ صلىالله عليه وسلم ــ قد مات(٤) .

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٥

(٢) آل عمران : ١٤٤

(٣) عقرت : دهشت . يقال : عقر الرجل اذا تحير ودهش .

(٤) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٦

تأكد المسلمون من موته ، فهدأ اضطرابهم ، ولكن الشعور بالضياع سيطر على نفوسهم ، اذ كان جل اعتمادهم عليه فى شئون دينهم ودنياهم ، وفجأة شعروا بأنهم أصبحوا فى مهب الريح العاتية ، بلا قائد أو هكذا تخيلت أذهانهم ، فهو لم يعين خليفة له ، فكيف تستمر الأمور فى سيرها نحو المستقبل ؟

اختلط الحزن بالارتباك والحيرة •• لدرجة انهم انصرفوا عن دفنه الى محاولة الخروج من هذا المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وتركوا على بن أبى طالب مع بعض الصحابة يعدون العدة لغسله وتجهيزه للدفن ، ثم اختلفوا على المكان الذى يدفن فيه ، الى أن حسم أبو بكر الخلاف حين روى عنه — صلى الله عليه وسلم — انه قال : ما قبض نبى الا دفن حيث قبض (١) •

جالت خواطر المسلمين هنا وهناك وكان من أهم ما أزعجهم أن وحى السماء قد انقطع عنهم ، فلن يسمعوا كلمة منه بعد اليوم ، ودارت بخلدهم هذه الأسئلة :

« هل انقطع وحى السماء حقيقة ، فلم يعد ينزل بعد اليوم ؟ هل من الممكن أن يموت نبى الله كما يموت بقية البشر ؟ أليس من المحتم أن تقوم الساعة الآن ••؟ أيقظ الخوف فى نفوس من تركهم محمد — صلى الله عليه وسلم — الأمل فى حدوث معجزة ، فالله قادر على كل شىء ، وهنا ينفصل طريق التعاليم الدينية عن اعتقادات العامة ، فالقرآن والأحاديث النبوية الصحيحة تؤكد أن محمدا بشر ، يموت كما يموت غيره من الناس ، بينما يميل عامة الشعب الى رفع محمد عن درجة الانسان العادى وانزاله مكانا خاصا قريبا من الله • صال الخيال وجال فى هذا المجال ، فنسبوا اليه أشياء نسبتها الاساطير الى الأنبياء السابقين ، ففى حياته لم يترك العنان لخيال المؤمنين ، ولكن بعد موته بدأت الأخبار

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦٣

تترى عن نواح ، لم يتحدث عنها القرآن الكريم ولم تنقلها الأحاديث الصحيحة ، ألم يسطع نور النبى من بدء الخلق حتى الآن ؟ لقد ظل النور ينتقل من جيل الى جيل ــ هكذا اعتقد العامة ــ حتى استقر فى قبيلة محمد ، ثم ظهر فيه ، فأنار جميع العالم ، لقد طهره هذا النور من كل الذنوب ، وجعله معصوما حتى فى فترة ما قبل البعثة .. و .. و .. الخ .. وهكذا لم تتوقف القصص الشعبية فى هذا المجال ، وظلت تنسب الى النبى كل ما من شأنه أن يرفعه عن عالم البشر ، ونسبت اليه كثيرا من المعجزات الحسية ، فقد شفى المرضى وكلمته الحيوانات ، وتحركت لنظراته الاحجار ، وبكى الجماد لفراقه ... الخ . ثم سرد المؤلف حديث الاسراء والمعراج ، وبين ان ما علق بها من المعجزات ، لم يرد له ذكر فى القرآن الكريم .

ذكر المؤلف ان الذين عاصروا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كانوا يعرفون كل كبيرة وصغيرة فى حياته ، لكن أحداث الوحى وانشغالهم بترقب ما ينزل من السماء لم يترك لهم مجالا للحديث عن حياة محمد أثناء وجوده بينهم . فقد نصب اهتمامهم على معرفة التعاليم الدينية ، التى تنظم حياتهم ، وتضمن لهم الجنة .. لأنها الهدف الذى تكرس كل الجهود للوصول اليه وان كان المسلم يعتقد أنه لن يصله الا برحمة من الله ورضوان ، فاذا قورن هذا الشعور بالمغفرة المسيحية ، لرجح ــ كما يعتقد المسلمون ــ اطمئنان المسلم فى هذا المجال ، الا انهم يؤمنون بأن القلم قد حدد فى اللوح المحفوظ ، من سيدخل الجنة .. ومن سيحرم من دخولها .. ولكن من يعلم هذا ؟ لا أحد .. دام النقاش بين العلماء حول هذا الموضوع مئات السنين ، فصنفوا الناس حسب أعمالهم وايمانهم ولم يقتصر هذا التصنيف على المسلمين فقط ، بل تعداه الى وضع غير المسلمين بالنسبة للمسلمين فى الحياة الآخرة .

هذه هى بعض ملامح التيارات

الفكرية ، التى شاعت فى المجتمع الاسلامى بعد موت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى أدت الى اختلاف الآراء داخل الأسر التى شهدت عصر الخليفة الأول .

(٢) الجهاد :

ينبغى التأكيد مرارا وتكرارا على أن ظهور محمد بدعوته فى أوائل القرن السابع الميلادى كان خيرا وبركة للشعب العربى ، فقد منح الاسلام العرب شيئا لم يملكوه حتى ذلك التاريخ : منحهم دستورا ربطهم جميعا برباط واحد ، لأن تأثيره عليهم تغلب على جميع المنازعات السياسية والقبلية ، فانهى عهدا لم يعرف له دستور ، وقضى على غريزة الثأر ، التى كانت تجرى فى دماء العرب . لكن هذا التماسك لم يلبث أن تفكك بعد موت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهبطت هذه المثالية ـ التى دعا محمد قومه الى التحلى بها ـ من عليائها الى حضيض العالم الدنيوى حين تنازعوا على السلطة ، فشنوا الحروب للوصول اليها ، تلك الحروب التى مزقت الوحدة الدينية فانشغل الكبار بالسلطة والصغار بالمسائل الدينية ، ان فريق الكبار حصر جهده فى السياسة ، وانصرف اهتمام الصغار الى المسائل الدينية ، ومن الطبيعى أن هذا التقسيم لم يكن عاما ، فقد كان هناك خلفاء لم تشغلهم المسائل السياسية عن الاهتمام بالاحكام الفقهية ، فضلا عن انهم كانوا على درجة كبيرة من الورع والتقوى .

ارتبطت السلطة بالعقيدة فى بداية الدولة الاسلامية فى المدينة ، وتدل هذه الظاهرة على ان الاسلام يرى انه : دين السياسة ، أو بتعبير آخر : عقيدة السياسة الدينية ، اذ أخذت المسائل الدينية طابعا سياسيا ، فقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا ورسولا ، وفى الوقت نفسه كان سياسيا ، فلم تعرف الدولة فصلا بين الدين والسياسة .

شرح المؤلف علاقة الدين بالسياسة فى جميع المجالات ، وجهود الفقهاء فى استباط القواعد الفقهية ، وارتباط النشاط

السياسى بقواعد الدين ، متخذين السنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون مثـالا لهم • ثم بين أن نظرية المسلمين فى دعوتهم الشعوب الأخرى الى الدخول فى الاسلام تتلخص فى أن الانسان مفطور على العقيدة التى ربطت بينه وبين أخيه الانسان ، ولكن بارتكابه المعصية تقطعت وشائج الاتصال بين البشر فانقسم الناس الى فريقين : فريق تمسك بالتعاليم الدينية التى نزلت على رسلهم ، وآخر تنكر لها ، غير أن الفريق الأول عجـز — بمرور السنين — عن فهم الوحى لبعده عن زمن الرسـل الذين بلغـوا هـذا الوحى ، فحـرف فيـه بالتغيير والتبديل والمحو والزيادة •• الخ • ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليدعـو الفـريقين الى الاعتراف بوحدانية الله ، لتكوين الجمـاعة المؤمنة ، التى تؤسس الدولة ذات الطابع السياسى والدينى • ولهذا فرض على أتباعه الجهـاد لتحقيق هذه الغاية ، ومن هنا انقسم العالم فى نظر المسلمين الى قسمين :

الأول : المسلمون حيث تقـوم الدولة الاسـلامية وعلى رأسـها الخليفـة •

الثانى : الكفار الذين يجب عليهم الدخول فى الاسلام •

وهـؤلاء ينقسمون بدورهم الى قسمين :

الأول : المشركون ويجب على المسلمين قتالهم حتى يسلمـوا •

الثانى : أهل الكتاب ، وهؤلاء ينبغى قتـالهم حتى يسـلموا ، أو يخضـعوا للدولة الاسـلامية فيعطوا الجزية • وفى مقابل هـذا تحميهم الدولة ، ويـندرج تحت هذه الحمـاية : المحـافظة على أملاكهـم وضـمان حـرية اقامة شعائرهم الدينيـة ولكن لا تدق أجـراس كنائسهم ، ولا يشيدون كنائس جديدة •

يشترط فى الخليفـة أن يكون قادرا على قيادة الدولة سياسيـا وعسكريا ، وأن يكون تقيا ورعا ، اذ من واجبه حفظ الدين ، والجهاد ضد أعداء الله وأن يسود الدولة طبقـا للكتاب والسـنة ، فان وقع خـلاف فى التفسير فان الكلمـة

الأخيرة له ، لأنه المسئول وحده عن رعاية الدولة ، وبيده مقاليد الأمور فى جميع نواحيها • غير أن سلطانه ليس مطلقا ــ كما هو الحال فى بعض النظم الحديثة ــ فوضعه لا يختلف عن وضع أى مسلم عادى فى الدولة ، بالنسبة للالتزام بما هو مقرر فى القرآن الكريم ، ويزيد عليه من ناحية الواجبات الملقاة على عاتقه كخليفة للمسلمين ، ومن أول واجباته ــ كخليفة ــ دعوة الناس الى الدخول فى الاسلام ، فان أبوا ، فشن حرب مقدسة ضدهم يديرها بنفسه • تجاوز النبى صلى الله عليه وسلم مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ، لأن الدعوة بالكلمة لم يعد لها تأثير فى اقناع الناس ، وعلى خلفائه أن يتخذوه أسوة فيستعملوا القوة لحمل الناس على الدخول فى الاسلام ، وسوف يظل الجهاد طابع الدولة الاسلامية ، مادام هناك مجتمعات لا تدين بالاسلام •

فصل المؤلف القول فى توزيع الفيء والغنائم ، وأكد على أن ظاهرة الرق فى الاسلام لم تكن من الظواهر الدائمة ، فهى مترتبة على نتائج الحروب ، فاذا مادخلت المجتمعات يوما ما فى الاسلام ، فسوف تختفى هذه الظاهرة من تلقاء نفسها ، ثم عاد الى الحديث عن علاقة الأمور الدنيوية بالتعاليم الدينية ، وختمها بقوله :

« فلم يفرق محمد صلى الله عليه وسلم بين قانون مدنى وآخر دينى ، فبلغ كل ما أوحى اليه على انه وحى الله دون تمييز بين دينى دنيوى وبهذا يختلف القانون الاسلامى ــ حتى اليوم ــ فى جملته وتفصيله عما عندنا نحن المسيحيين من متراكمات تركزت فى جانب واحد » •

أخذت فريضة الجهاد فى الاسلام حيزا كبيرا فى مؤلفات الغربيين التى كتبوها عن الاسلام ، ولم يكونوا موضوعيين فى كتابتهم عن هذه الفريضة ، اذ أجمعوا ــ كلهم تقريبا ــ على أن الاسلام انتشر بالسيف ، بينما دعت المسيحية الى المحبة ، ونبذ البغضاء والقتال وقد رد عليهم المسلمون مبينين أن الغزوات الاسلامية لم تكن هجوما

بل ردا لاعتـــداء وقـع عـلى المسلمين ، أى أنهم كانوا فى موقف دفاع ، وأود أن أنقل هنا كلمـة كتبتهـا فى تحقيق لكتـاب « بين الاســلام والمسيحية » (١) حـول المقارنة بين الدينين فى مسألة قتـال المعارضين :

يردد أعداء الأسلام منـذ بدء فترة الدفاع المسلح عن العقيـدة الى اليـوم ، أن الاسـلام انتشر بالسيف ، اذ ما زلنـا نسمع من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم من ضـعاف النفـوس ، أن المسيحية تنكر القتال ، بينمـا دعا الاسلام الى الحـرب ، والى الجهـاد فى سبيل الله ، أى الى اكراه الناس بالسـيف عـلى الدخـول فى الاسلام ... وهـذا هو التعصب بعينه ، وغاب عن هؤلاء الحقـائق التالية :

أولا : نص القـرآن الكريم فى مواضـع عدة على أنه لا اكراه فى الدين ..

يقول الله تعالى : « لا اكراه فى الدين قـد تبـين الرشـد مـن الغى » (٢) .

ويقول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تـكره النـاس حتى يـكونوا مؤمنين » (٣) .

ويقول : « فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » (٤) .

ويقول : « فذكـر انمـا أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٥)

فالاسلام لا يجيز لأحد ــ ولو كان النبى نفسه ــ أن يجبر انسانا على الدخول فى الاسلام .

ثانيا : يمتاز الانسان عن الحيوان بالقدرة على التفكير ومن خصائص هـذا التفكير ميـل الانسان الى الحـرية فى التعبير عن آرائه وفى

(١) ص : ١٤١ ــ ١٤٣ .
(٢) البقرة ٢٥٦ .
(٣) يونس : ٩٩
(٤) الكهف : ٢٩
(٥) الغاشية : ٢١/٢٢

اعتناق ما يراه موافقا لطبيعته فاذا ما منع من هذا بقوة السلاح ، فان من الطبيعى أن يدافع عن رأيه بالوسائل التى يقاتله بها من يريدون كبت حريته ، فان أراد أحد أن يفتن آخر عن عقيدته مستعملا الدعاية والمنطق ، دون اللجوء الى حمله على ترك عقيدته بالقوة ، لم يكن للمؤمن أن يدافع عن عقيدته الا بالحق والمنطق ، أما اذا أجبر بقوة السلاح ، لم يكن من سبيل الا حمل السلاح أيضا ، للدفاع عن عقيدته ، لأنها أثمن شيء عند من يفهمون معنى الانسانية ، فهى أثمن من المال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها وقد أدرك هذا المسلمون الأولون ، فدفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن عقيدتهم ، وتلك سنة الله فى خلقه .

: « ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (١) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (٢) .

ولو لم يقاتل المسلمون لحكم عليهم التاريخ بأنهم : اذلوا ، وأهينوا فرضوا بالذل ، والهوان ، وتلك سبة تأباها الطبيعة الانسانية ، ولما كان الاسلام موافقا — فى تعاليمه وشرائعه — لهذه الطبيعة ، لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة .. وعليه ، فلم يحمل المسلمون السلاح لاجبار أحد على الدخول فى دينهم بل كان للدفاع عن أثمن شيء لديهم ، الا وهى ممارسة ما تمليه عليهم عقيدتهم .

ثالثا : يعقد أعداء الاسلام مقارنة بين محمد وعيسى عليهما السلام ، مدعين أن عيسى لم يقاتل أحدا ، بينما قاد محمد معارك كثيرة ، ضد من وقفوا فى سبيل دعوته ، وينسى هؤلاء أن عيسى استمر ثلاث سنوات فقط ، يدعو الى دينه بدون قتال ومكث محمد ثلاث عشرة سنة يتلقى أذى قريش،

(١) البقرة : ٢٥١
(٢) الحج : ٤٠

دون أن يحمل السلاح ، فأى المدتين أطول ؟

أضف الى ذلك أن عيسى قال أثناء هذه المدة القصيرة :

« ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » (١) :

بينما لم يذكر محمد فى العهد المكى ـ وهو ثلاث عشرة سنة ـ شيئا عن القتال • فأيهما كان ـ بصرف النظر عن كون ما يتلقيانه وحيا ـ أشد ميلا الى السلم •

كان يمكن أن تكون المقارنة صحيحه ، لو أن عيسى استمر فى دعوته مدة أطول من المدة التى مكثها محمد فى مكة داعيا الى الله ، ولم يقاتل ، بينما قاتل محمد ••

فاذا تركنا العهد النبوى لكل منهما ، وتصفحنا تاريخ كلتا الديانتين لرأينا أن المسيحية لم تعرف سلاما قط ، فقد حمل المسيحيون الناس حملا على اعتناقها واجروا الدماء انهارا فى سبيل اكراه الناس على الدخول فيها ، ومن يقرأ التاريخ يجد أن المسيحيين لم يعتنقوا مبدأ السلام فى واقعهم العملى حتى اليوم ، الا خوفا من الدمار الشامل ، الذى يتوقع أن يحل بهم ان هم استمروا فى هذا الطريق الوعر •

(٣) معالم الدعوة :

اعتبر اختيار محمد للرسالة ، ليبلغ مالم يبعث فيهم رسول من قبل فضلا من الله ورضوانا على العرب ، وفهمت دعوته فى أول الأمر على انها دعوة خاصة لقومه قياسا على الأنبياء السابقين ، فقد بعث كل نبى الى قومه خاصة ، غير ان جوهر الاسلام يتضمن طابعا عالميا ، ويكمن ذلك فى الاعتقاد بأن محمدا هو آخر الأنبياء ، والقرآن هو آخر وحى ينزل من السماء لاصلاح ما فى البشرية من فساد ، فلن يأتى كتاب بعده أبدا ، ولن يرسل رسول بعد محمد ، على الاطلاق ، وبناء عليه يكون الاسلام دينا عالميا لجميع البشر •

(١) متى ١٠ : ٣٤

يتفق الاسلام مع الأديان الأخرى ذات الطابع العالمى فى نقطة الانطلاق فقد ساد فى زمن ظهوره حالة من اليأس والفراغ الروحى ، من جراء الفساد ، الذى ساد فى المجتمع وحاول كثير من الراغبين فى الاصلاح محاربته ، ولكنهم لم يتمكنوا من عمل شىء ، اذ عجزوا عن اصلاح ما بين القبائل من نزاعات ومشاجرات سالت فيها الدماء انهارا ، ولم يقدروا على تنقية الحياة مما أصابها من الانهيار الاخلاقى ، فسيطرت غريزة اللامبالاة على النفوس ، وتمكنت الرذيلة . فى هذا الوقت دعا محمد قومه الى الخروج من هذا الوضع المؤلم ، وبين لهم طريق الخلاص مما هم فيه فكان أول شىء دعاهم اليه هو الاعتراف بوحدانية الله ، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأوثان والاصنام فلا يجوز أن يتخذ معه اله غيره ، والا فالعقاب الصارم يوم القيامة .

تحدث المؤلف عما يثاب عليه المرء أو يعاقب يوم القيامة ، وعلاقة ذلك بما يصيب الانسان فى الدنيا من كوارث وبما يناله من خيرات ، فى ضوء العدالة الالهية فقاده هذا الى تناول مسألة الجبر والاختيار وآراء المدارس الكلامية فيها . ثم تناول الاخلاق فى الاسلام ، فذكر الاحسان الى الوالدين والوصية بذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ولكن بدون اسراف .. ففى القرآن : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » (١) .كما حرم وأد البنات وارتكاب الفواحش من زنا وغيره ، وحرم قتل الأنفس الا فى حالتين : فى حالة الدفاع عن النفس ، وفى الحرب ضد أعداء الله ، كما حرم أيضا أكل أموال اليتامى والضعفاء ، وفى مجال الأسرة أباح الزواج بأربعة الا ان عجز الرجل عن الوفاء بحقوقهن فيجب الاقتصار على واحدة .ثم ذكر المؤلف حقوق الأيامى ووضعهن عندما يصبحن

(١) الاسراء : ٢٧

« أم ولد » ووضع أبنائهن فى الحرية وعدمها ، وأكد أن محمدا حث المسلمين فى أكثر من مناسبة على تحرير العبيد ومكاتبتهم ، غير أن هذه الظاهرة لم تختف لأن كثيرا من المسلمين لم ينفذوا وصية نبيهم نصا وروحا ، فبقيت تردد فى المجالس العلمية دون أن تحقق الغرض الذى أراده محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الواقع الاجتماعى .

بين فى مجال العبادة كيفية فرض الصلاة وشروطها ، واركانها وعدد ركعاتها وتحويل القبلة ، ثم عقب على ذلك بقوله : « ان المسلمين أكثر حرصا على تأدية الصلاة من التزامهم بالمبادىء الأخلاقية ، التى دعا اليها الاسلام » .

ومما قاله المؤلف فى ختام هذا الباب قوله :

« ان الناقد الأجنبى (عن الاسلام) لا يملك الا أن يصف محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما يتطرق الحديث الى تقييم ما دعا اليه ، وما انجزه ــ بأنه كان طاقة هائلة دفعت عجلة التاريخ الى الامام ، فقد تطور التمرد ضد البربارية التى كانت فى عصره الى نصر للأفكار الدينية والروحية والى قوة أخلاقية بناءة ، ومن الافتراء على الله الادعاء بأن الدين كان بالنسبة لمحمد وسيلة لغاية ، فعلى الرغم من هذا ومن ادعاءات أخرى فقد كان محمد مفطورا على الدين ، ووحد شعبا كانت أوصاله متقطعة فى صحراء جرداء قاحلة .

فاذا ما انتقص أعداؤه من قيمة عمله فى جانب من الجوانب ، ارتفعت قيمته عالية فى دعوته ــ الصارمة والمستمرة ــ الى وحدانية خالصة ، وفى عمله الدءوب فى خدمة دعوته ، فهو لم يخلص شعبه فقط من الظلمات الحالكة التى كان فيها ، بل حدد فى موكب التاريخ مصير الانسانية جمعاء تحديدا فاصلا .

وأخيرا انتشر نور عقيدته .. فغطى جوانب الطبيعة الانسانية » .

(للحديث بقية)

دكتور محمد شامة

دراسات لغوية :

نظرة إلى الجديد فى علوم اللغة

للدكتور توفيق محمد شاهين

(١)

موضوع علم اللغة

يدرس علم اللغة (Linguistics) اللغة بصورة عامة لأنها أساس لجميع العلوم الانسانية ، وظاهرة اجتماعية لها أوثق العلاقات بما فى الكون ، ومع امتداد تاريخ البحث فيه من لدن البراهمة ، والاغريق ، والعرب وغيرهم ،لبراعتهم فى علوم اللغة ، الا أن أمره ظل حينا فى دائرة ضيقة ومحدودة ، لأن بعض العلماء نظر اليه كشىء كمالى ، لا علاقة له بالحياة ، كما نظر الى اللغة كوسيلة لا غاية .

وكان من نتائج تطبيق الأسلوب العلمى فى الطبيعة ، الذى أدى الى اكتشافات هائلة..أثر كبير فى ترقية الأبحاث اللغوية والعناية بها ، وتطبيق الاسلوب العلمى عليها ، باعتبارها كأى شىء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للتجربة .. ففتحت آفاقه الواسعة ، ونال العناية الكافية ، وعسى أن نلحق نحن بها .

يحدث التاريخ أن الاشوريين ، وكذلك الأمة الصينية واليابانية والبراهمة ابان نهضتهم ــ قد اهتموا بلغاتهم من قديم :

فقد عنى البراهمة باللغة السنسكريتية نحوا ، وصرفا ، واشتقاقا وتدوينا قبل الميلاد .

كما يذكر المؤرخون أن معجم (شوفان) لمؤلفه (هو شن) طبع سنة ١٥٠ ق.م . ومعجم (يوبيان) لمؤلفه (كوبى وانج) طبع سنة ٥٣٠ م ، وهما يعدان أساسا للمعاجم الصينية اليابانية .

وجاء فى مقدمة معجم (فيشر) أننا : « اذا استثنينا الصين

لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها ، حسب أصول وقواعد غير العرب » .

ويحكى السيوطى فى المزهر ١/٢ أن بعض الملوك فى المغرب سأل الصاحب بن عباد أن يقدم عليه ، فقال له : « أحتاج الى ستين جملا أنقل عليها كتب اللغة التى عندى » .

وبداية الدرس اللغوى عند العرب ، كانت نحوية ، ثم صرفية ، وجمالية فى علوم البلاغة ، وأدبية نقدية فى علوم الأدب ونقده ، والعروض والقافية ، كما اهتموا بعلوم القرآن وقراءاته وتفسيره لغويا ومعنويا ، ونشطوا فى جمع الألفاظ وتدوينها لصنع المعاجم الدقيقة حتى تحفظ اللغة من الضياع .

وعنى الخليل بن أحمد بدراسة الناحية الصوتية والحروف معتمدا على الناحية الذواقية عنده والجهد الشخصى ، كما أبرز سيبويه هذه الجوانب فى كتابه ، ومن الغريب أن دراسة العلوم اللغوية الحديثة بوسائلها التقنية وامكاناتها المعينة ، لم تناقض ما قرره أسلافنا ، ولكن اختلفت معهم قليلا فى بعض الجزئيات .

ولذا يعتبر القدامى من علمائنا ـ بحق ـ أساتذة لعلماء الغرب ـ ابان نهضتهم ـ فى هذا الجانب اللغوى ، كما هم أساتذتهم فى الجوانب الحضارية والثقافية الأخرى .

ومن المستشرقين من أهدانا الرائع من ثمار أبحاثهم الحديثة ، فى ضوء مناهج البحث العلمى ، وامكاناته المتاحة .

وعسى أن تتفتح عيوننا فى صحوتنا على ثورة ثقافية ونهضة علمية ، تعيد الينا ماضينا المشرف ، ومستقبلنا الوضىء الذى نرنو اليه .

ولم تبرز عناية العرب بفروع الدراسات اللغوية التى بحثوها بصورة شاملة ، ومنهج أدق وأوفى ، وأدخل فى علوم اللغة الا ابان القرن الرابع الهجرى ، حين ظهرت

آراء الفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس وغيرهم ..

وقام الدرس اللغوى فى الغرب على غرار صنع العرب ، فاحتذوا حذوهم ، وساروا على نمطهم زمنا كما سنذكر ذلك . الا أن علماء الغرب ـ فى نهضتهم الحديثة ـ خطوا خطوات أوسع ، وفتحوا ميادين جديدة ، وطرقوا أبوابا لم يطرقها العرب .

فاعتنوا بعلم اللغة التاريخى ، والجغرافى ، وألموا بالحقل النظرى والتطبيقى واعتنوا بعلم اللغة المقارن ، وعلاقة اللغة بغيرها من العلوم ، وبيان المؤثرات التى يخضع لها التفكير اللغوى ... واهتمت جامعاتهم الكبرى بانشاء دوائر خاصة لعلم (الفونتيك) وحشدوا الأساتذة واهتموا بالمختبرات ، والمسجلات والمصورات ، والأشعة الخاصة كمختبرات الفيزياء وغيرها من العلوم .. فتوصلت الى نتائج باهرة ، فأمها الطلاب ، وأرسلت اليها البعوث ، واهتمت جامعاتهم بنشر أبحاثهم ... وفى ايجاز يحدثنا الدكتور محمد اسماعيل صينى ـ فى مجلة الفيصل ـ عن النظرة الجديدة فى علوم اللغة ، يقول :

موضوع علم اللغة :

يدرس علم اللغة بفروعه كل ما يتعلق باللغة من أصوات منطوقة أو مسموعة ، أو ألفاظ أو تراكيب أو دلالة ، والعوامل المؤثرة فى هذه الظواهر اللغوية : فسيولوجية كانت أو نفسية أو بيولوجية أو اجتماعية ، ويتبع فى ذلك الأساليب العلمية المعروفة من جمع وملاحظة واستقراء واستنتاج القواعد ، ثم النظريات العامة من الحالات المختلفة . ويستعين فى سبيل تحقيق ذلك بالعلوم الأخرى ، مثل : الرياضيات والمنطق (لتقديم النتائج والوصول اليها أحيانا) ، وعلم وظائف الأعضاء والطبيعة (فى دراسة نطق الأصوات وسماعها) وعلم النفس والاجتماع والتربية (فى دراسة تعلم اللغة واستيعابها وآثارها على الفرد والمجتمع ، كما يحدث فى علم اللغة التطبيقى مثلا) ويستعين علماء

اللغة ببعض الآلات ،ووسائل التقنيةالمختلفة أمثال الأشعة السينية والمطايف (Spectograph) والحاسب (الالكترونى) الى جانب أجهزة تسجيل الصوت المعروفة .

من كل هذا يتضح لنا أن مايعرف بعلم اللغة (Linguistics) هو فى واقع الأمر مجموعة من العلوم يجمعها هدف واحد هو دراسة الظواهر اللغوية لدى « الانسان » .

الفروع الرئيسية لعلم اللغة :

اتفق علماء اللغة على تقسيم علم اللغة الى شعبتين رئيسيتين هما :

١ ــ علم اللغة النظرى أو العام .

٢ ــ علم اللغة التطبيقى .

وهناك من يرى اضافة شعبة ثالثة هى :

٣ ــ علم الأصوات .

لكننا نرى أن علم الأصوات بهذا المفهوم يمكن ادراجه تحت مفهوم علم اللغة النظرى أو العام ، حيث أن الأصوات جزء من الظواهر والنشاط اللغوى لدى الانسان ، وكثيرا ما تتشابك دراسة الأصوات بالدراسات الصرفية والنحوية ، خصوصا فى المدارس الحديثة مثل المدرسة التوليدية (Generative) Grammar)

على الرغم من هذا الاتفاق العام على التقسيم ، فانه ليس من السهولة بمكان تحديد معالم أى من الشعبتين تحديدا دقيقا ، لأن ما يعتبره البعض نظريا يراه آخرون تطبيقيا والعكس بالعكس. ولذلك فان ما سنذكره فى السطور التالية هو مفهوم شخصى : قد يتفق مع آراء الدارسين لعلم اللغة فى أجزاء منه ويختلف معهم فى أجزاء أخرى ، حيث أن الظاهرة اللغوية الواحدة قد تتم دراستها بأسلوبين مختلفين : أحدهما نظرى ، والآخر تطبيقى ، بل وربما بأسلوب ثالث « بين بين » فدراسة الألفاظ مثلا قد تكون موضوع دراسة الصرف : (Morphology) أو المعانى : (Semantics) وهما دراستان نظريتان فتسمى علم الألفاظ : (Lexicology) وقد تكون موضوع دراسة المعاجم

وصناعتها ، وهى دراسة تطبيقية فتسمى صناعة المعاجم : (Lexicography) وفى أغلب الحالات تتداخل الدراستان فتكمل احداهما الأخرى ، وخصوصا اذا علمنا أن الدراسة التطبيقية لابد وأن تعتمد على أساس نظرى سليم .

علم اللغة النظرى :
(Theoretical Linguistics)

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة من المعارف المتعلقة باللغة أهمها مايلى :

١ ــ علم الأصوات بفروعه مثل (علم الأصوات النطقى) :
(Articulatory Phonetics)
الذى يدرس مخارج الحروف وأعضاء النطق (وعلم الأصوات السمعى) : (Acoustic Phonetics) الذى يعنى بدراسة موجات الصوت وكيفية انتقاله فى الهواء ، ووصوله الى السمع والعوامل المؤثرة فى كل ذلك ، وعلم وظائف الأصوات فى اللغات : (Phonology) وغيرها .

٢ ــ علم القواعد
(Grammar) ويدخل تحت هذا المسمى :

(أ) علم الصرف :
(Morphology) الذى يعنى بدراسة بنية الكلمة أو بتعبير أدق دراسة الوحدات الناقلة للمعنى : (Morphemes) مثل الكلمة وأجزائها وتصريفها .

(ب) علم النحو : (Synitax)
وهو الفرع الذى يدرس بنية الجملة وشبه الجملة وأنواعها ، أى انه يدرس نظم الكلام .

٣ ــ علم اللغة التاريخى :
(Historical Linguistics)
ويدرس هذا الفرع من علم اللغة تطور اللغات والأسر اللغوية ، وارتباط اللغات المتقاربة النسب بعضها ببعض ، وأوجه الشبه والاختلاف بينها .

٤ ــ علم الدلالة :
(Semantics) .
وهو يدرس العلاقة بين الرمز اللغوى ودلالته أو دلالاته ، كما يدرس تطور معانى الألفاظ من الناحية التاريخية بما فى ذلك تأثير

المجـــاز اللغـــوى ، من كناية واستعارة ••• الخ ••

علم اللغة التطبيقى :
(Applied Linguistics)

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة أخرى من علوم اللغة أهمها :

١ ــ علم اللغة النفسى :
(Physico Linguistics)

ومـــن أهم مواضيع دراســـته بالنسبة لعـــالم اللغـــة هو اكتساب اللغة الأصيلة (عند الأطفال بوجه خـــاص والبـــالغين بشكل عام) ، والعوامل المؤثرة فى ذلك بيولوجية كانت أو نفسية أو اجتماعية،ثم تعلم اللغات الأجنبية ، والعوامل المؤثرة فى ذلك داخلية كانت أو خارجية ، مساعدة كانت أو مثبطة ، كما يعنى بدراسة عيوب النطق والكلام •

٣ ــ علم اللغة الاجتماعى :
(Socio linguistics)

ويعنى هذا الفرع بتأثير المجتمع على اللغة ، واللغـــة على المجتمع ، كمـــا يدرس مشكلة اللهجـــات الجغرافية (فى مناطق مختلفـــة) والطبقية (أفراد المجتمع فى طبقاته الثقافية أو الاقتصادية) ، والازدواج اللغوى وما شابه ذلك ، ومن أهم مجـــالات هـــذا العـــلم التخطيط اللغوى الذى يعالج قضايا كثيرة ، مثل : تقرير نظام الكتابة واختيار اللغات الرسمية وأساليب المحافظة عليها وتطويرها •

٣ ــ علم اللغة الآلى :
(Computational)
(Linguistics)

وهو الفرع الذى يعنى بدراسة اللغة لتطويع المادة اللغوية للحاسب الالكترونى والاستفادة من الحاسب الالكترونى فى الدراسات اللغوية ومن أبرز مواضيع هذه الدراسات هـــو الترجمـــة الآليـــة :
(Machine Translation)

وتخـــزين المعلومات واســـتعادتها من ذاكـــرة الدماغ الالكترونى :
(Information retrieves)

٤ ــ صـــناعة المعـــاجم :
(Lexicography)

ويدرس هذا الفرع من علم اللغة التطبيقى : الأمور المتعلقـــة باعداد المعاجم أحادية اللغة • (مثل لسان العرب والمعجم الوسيط) ، وثنائية اللغة (عربى ــ انجليزى مثلا) ، أو متعددة اللغات (مثـــل عربى ــ انكليزى ــ ألمانى) بمـــا فى ذلك

جمع المواد اللغوية وتنسيقها وأساليب عرضها .. الخ ..

٥ ـ تعليم اللغات :
(Language Teaching)

يعتبر هذا الفرع من أهم فروع علم اللغة التطبيقى ، ان لم يكن هو أهمها على الاطلاق ، مما حدا بكثير من علماء اللغة الى استعمال اصطلاح علم اللغة التطبيقى مرادفا لتعليم اللغات (الاجنبية على وجه الخصوص) . وهذا الفرع يعنى بكل ما له صلة بتعليم اللغات من أمور نفسية واجتماعية وتربوية بما فى ذلك الاتجاهات والطرائق المختلفة والوسائل المعينة ، من اعداد للمدارس والمناهج والمواد التعليمية والاشراف عليها .

هذا وتوجد الى جانب تعليم اللغات دراسات أخرى وثيقة الصلة بها ، مثل :

(أ) التقابل اللغوى وتحليل الأخطاء :
(Contrastive and Error Analysis)

الذى يقوم بمقارنة اللغات المختلفة ، ودراسة نقاط الاختلاف بينها ، للتعرف على النقاط التى قد تكون عقبة فى طريق دارسى تلك اللغات من الأجانب ، كما يدرس هذا الفرع بأسلوب علمى الأخطاء التى يرتكبها دارسو اللغة ، ومحاولة التعرف على أسباب تلك الأخطاء لمعالجتها .

(ب) ـ تصميم اختبارات اللغة :
(Language Testing)

وموضوع هذا الفرع من الدراسة هو تصميم اختبارات اللغة أصلية كانت أم أجنبية ، وتطوير الوسائل اللازمة لتحسين هذه الاختبارات من ناحية المحتوى والناحية الفنية والعملية ، للوصول بها الى أعلى درجة ممكنة من الصدق : Validity)
والثبات : (Reliability)
والتمييز : (discrimination)
وسهولة التطبيق : (Practically)

(جـ) ـ بالاضافة الى ما سبق ذكره نجد بعضا من الجامعات الغربية التى تقوم بتدريس طرائق محو الأمية : (Literary)
بوصفه فرعا من فروع علم اللغة التطبيقى .

« للحديث بقية »

الدكتور توفيق شاهين

ابن خلدون
بين اللغة .. وعلم الاجتماع

الأستاذ محمد عادل سليمان

لن أكتب تاريخا حتى أفرد للتعريف بالرجل فصلا أو سطورا أفرغ فيها وقتا مضيعا وجهدا مبعثرا ، فأنا أحرص على الوقت المخصب حتى أفرغ الجهد فى الصميم .

وابن خلدون ـ ذلك الاسم الممتد فى ضمير التاريخ فكرا موسوعيا ، والموصول فى كيان علوم الانسان مادة دفوقة العطاء ـ عرفه الناس من خلال كتابه الرائد « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر » وهو اشارة الدخول فى ثبت التاريخ ذى المنهج الاجتماعى.

ومقدمة هذا الكتاب استقلت عنه فى وحدة ذاتية حتى صارت ـ وحدها ـ علم ابن خلدون ، وهجر الناس ـ الى المقدمة ـ الكتاب وأصبحت مجالا خصيبا للدراسات والبحوث .

وكانت المقارنات بين « ابن خلدون» رائد علم الاجتماع ، وبين من جاء بعده من علماء الاجتماع فى أوروبا أمثال « دوركهايم » .

ـ وان يكن بعض المتمرسين بتجربة الدراسات الاجتماعية يعزو قهر المواكب الغازية لتراب الامة العربية الى علماء الاجتماع وعلم الاجتماع ، ورأوا انه علم « ابتدع فى بيئة الحقد الصليبى للتعرف على مواطن الوهن العربى حتى يمكن لأعداء الاسلام الانقضاض على المسلمين ، فانه ـ بلا شك ـ لم يكن وسيلة ابن خلدون لهذه الغاية الصليبية .. بل كان لديه وسيلة لدراسة التاريخ وأحوال الامم والعمران ، ومحاولة تقعيد هذه

الدراسة على أسس اجتماعيـة ، وهذا منهجه .

وليس من اهتمامـاتنا المنهج الاجتماعى فى التاريخ عنـد « ابن خلدون» ، فلهذا المجال متخصصون فوق كل منهم بسـهمه فى اتجـاه ولكن اهتمـام البحث « البـلاغة العربية.. فى تصور ابن خلدون» .

ومن خلال استقطاب المتناثرات عن هذا التصور ـ فى المقدمة ـ حول قطب دائرة هذا التصور يمكن أن أقرر فى البداية : أن « ابن خلدون » لم يستطع أن يخرج من التركيبـة الحـاصرة له فى المساحة الاجتماعية حتى وهو يكتب عـن علوم اللسان .

ثم ان كتاباته عن « البلاغة » ما كانت عن رؤية مستقلة مستوعبة ذات تخصـص أفـرغ لـه الوقت والجهد ، بقدر ما كانت تثارا بديدا فى صفحات مقدمته ، مما يوحى أنه لم يقصد الى البلاغة لذاتهـا ، بل جاء حديثه عنها عرضا ألجـأته اليه ضرورة الحـديث عن اللسان العربى فى سياق الجانب الاجتماعى لهذا اللسان .

واعتقد .. أن هذا سر اجمـال الحـديث عن « البـلاغة » دون الابحار الى مرافئها القصية .

ومن هنا .. فان حديث « ابن خلدون » عن « اللغة » فى مقدمته لا ينقله من ريادة «علم الاجتماع» الى مجال الريادة فى « علم اللغة» وأقرر ـ كذلك ـ أن اخضاعـه جميع العناصر الفكرية فى مؤلفاته للمنهج الاجتماعى كان سبب ذيوع شهرته وريادته فى «علم الاجتماع» ومصدريته لمن جاء بعده أو نهل من نبعه وعطائه .

اذن .. فحديث « ابن خلدون » فى « عـلم الاجتمـاع » حـديث تأصيل التاريخ على منهج غيـر سردى أو تسجيلى ، ولكن .. على منهج العلل الاجتماعيـة والطبائع العمرانية فى التزام دقيق وحـاذق عند كتابته للتاريخ ، وهذا مجـال « ابن خلدون » ، وأسـلوبه فى بناء فكره .

وحديثه عن « اللغة » حديث التتبع لعلوم اللسان فى البيئة العربية باعتبارها حاضنة المجتمع العربى .

ولم يحاول « ابن خلدون » عند حديثه عن « علوم اللسان » أو عن « اللغة » ــ باعتبارها أحد علوم اللسان ــ أن يخوض فى تفريعاتها الجزئية ، بل أشار اليها فى المامة كلية مضغوطة .

فاللسان العربى ــ لديه ــ « أركانه أربعة : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب » (١) . ولعلنا نرى من هذا التقسيم لعلوم اللسان العربى ــ عند ابن خلدون ــ انه يدرج « علوم البلاغة » فى « البيان » .. ربما لأنه المقصود الأهم والأشرف من جهة التصوير فى التشبيه والاستعارة ، وربما لأنه يرى أن « البلاغة » بجميع فروعها وجزيئاتها تهدف الى « البيان » ، لا بمعنى البيان الاصطلاحى فى « البلاغة » .. لكن بمعناه اللغوى العام « الظهور والايضاح » ، ووضعه « البيان » عنوانا وركنا فى علوم اللسان يعبر به عن « البلاغة » يحتمل المعنيين معا : أنه الأهم ، وأنه الأعم .

وحين تحدث « ابن خلدون » عن « أركان اللسان » لم يضعها بترتيب الأهم ذلك لأنه جعل علم « النحو » أهم هذه الأركان الأربعة « والذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ، اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة ، فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أخل الافادة » (٢) . ولهذا .. تحدث عنه أولا برغم أنه ذكره بعد « علم اللغة » عندما حدد أركان اللسان العربى الأربعة .

ولم يترك الرجل مجالا لمعترض بعلم اللغة كيف لا يتقدم وهو الأصل لأن علم النحو يبحث فى الكلمات ، والكلمات موضوعة قبل

(١) مقدمة ابن خلدون .. الجزء الرابع ــ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، نشر لجنة البيان العربى ، مطبعة الرسالة ١٩٦٨ ص ١٣٧٤ السطر ١

(٢) المصدر نفسه .. ص ١٣٧٤ السطران ٥ ، ٦

النحو ، وهى موضوع علم اللغة ، ولولا كلمات اللغة ما وجد علم النحو أصلا .

ولهذا .. تفطن الى امكان ورود هذا الاعتراض « وكان من حق علم اللغة أن يتقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير ، بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه (١) ، فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر ، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، اذ فى جهله الاخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق » (٢) .

وقد بدأ الكلام عن «علم اللغة» بتعريف موجز « هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية » (٣) ، وهو تعريف تحدث بعده عن « الملكة » وأنها حين فسدت فى ضبط الكلمات ، ثم استمر هذا الفساد وسرى الى موضوعات الالفاظ كان لا بد من حفظ الموضوعات اللغوية بالتدوين « لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب ، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد الى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب (٤) ، والتدوين خشية الدروس (٥) ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، شمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين » (٦) .

(١) يقصد بالاسناد والمسند والمسند اليه منزلتها فى علم النحو لا فى علم البلاغة ـ

(٢) مقدمة ابن خلدون ـ الجزء الرابع ص ١٣٧٤ الاسطر ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

(٣) المصدر السابق .. ص ١٣٧٨ السطر ٥

(٤) يقصد بالكتاب : الكتابة ـ

(٥) يقصد بالدروس : طول العهد والاندثار بالتقدم ـ

(٦) المقدمة ـ الجزء الرابع ص ١٣٧٨ الاسطر من ٥ ـ

وهنا .. تتبين أنه بنى حديثه فى علم اللغة على أساس عمرانى وفكر اجتماعى .. اذ تناول جانب اختلاط المجتمع العربى ذى الملكة الاصيلة بالمجتمع العجمى ، وجعل هذا الاختلاط أساس فساد ملكة اللسان العربى فى اللغة العربية .

وهذا حق .. غير اننا لا نستطيع — برغم حديثه عن اللغة هذا الحديث الهام الموجز — أن نعد ابن خلدون من رواد علم اللغة .

ابن خلدون

ومنهجه فى المقدمة

ومن هذه الرؤية لمنهج ابن خلدون نقرر أن المعايش — من أول الطريق — لابن خلدون فى كتابه « العبر .. وديوان المبتدأ والخبر » وفى « المقدمة » يرى انه جعل همه الانسان ، وهو — حين جعل همه الانسان — فليس للجوانب الانسانية فى الانسان ، بل لأنه حركة الفكر ونبض المجتمع .

فهو — فى المقدمة — لا يخرج عن اطار علم الاجتماع ، بل يحاول أن يدخل جميع ما يتناوله فى دوائر هذا العلم الذى يعتبر « ابن خلدون » رائده فى جدارة وشموخ .

ذلك انه كثيرا ما يقول : « ولا ينبغى للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه » (١) .

وكذلك : « ينبغى لك ألا تطول على المتعلم فى الفن الواحد» (٢) ثم يتابع حديثه بعد : « واعلم أيها المتعلم أنى اتحفك بفائدة .. » (٣) ولا يقتصر على ذلك .. بل يفتح لنا منهجه فى وضوح مبين : « وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ، ونال منها العسف ، واعتبره فى كل ما يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، وتجد ذلك فيهم استقراء ، وانظره فى اليهود وما حصل بذلك من خلق السوء حتى

(١) المقدمة — الجزء الرابع ص ١٣٥٤ السطر ٧
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٥٤ السطر ١٥
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥٥ السطر ٦

أنهم يوصفون به فى كل أفق وعصر بالحرج ، ومعناه فى الاصطلاح المشهور التخابث والكيد » (٤) .

ومن هنا .. نرى : أنه اتخذ الانسان محورا يدور فى دائرته على نظام اجتماعى وسلوكى ، واذا كانت الدائرة أوسع من المحور ، فان « ابن خلدون » جال فى هذا المجال الاجتماعى « الدائرة الكبرى » فى تتبع وملاحظة ، وكان فى رصده للحركات الاجتماعية فى حالة حضور ذكى .

ومن ذلك نقرر : أنه اخضع كل شىء فى كتبه لفكره الاجتماعى . حتى حديثه عن علوم اللسان العربى تناوله باعتباره جزءا من الانسان الذى هو جزء من المجتمع وحركة العمران .

لكنى لا أظلم الرجل ، ولا أغمطه شيئا من حقه .. فقد جعل الدائرة الكبرى « المجال الاجتماعى » فى كتاباته فى خدمة المحور « الانسان » ذلك .. لأنه يلاحظ ، ويرصد ، ويتتبع حركات المجتمعات فى دقة بالغة وذكاء لماح ، ثم يعطى النتيجة من هذا الرصد المفتوح ـ بعد تجاربه السياحة ، وخبرته الطويلة ـ للانسان .

منزلة علوم اللسان عند ابن خلدون

وحين تحدث عن منزلة علوم اللسان تحدث عنها باعتبارها الوسيلة الوحيدة لمعرفة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والقرآن والسنة هما الغاية العليا للانسان المسلم ، ذلك أنهما مصدر دينه ، ومناط عقيدته ، منهما تنبع الشريعة ، وتمتد أحكامها ، والدين ـ عقيدة وتطبيقا ـ فى أوامره ونواهيه تكاليف الهية تعبد الله بها الناس ، فهى رباط الأرض بالسماء ، وهى نور الله للانسان ، ومن هنا كان الكتاب والسنة هما الغاية العليا للانسان المسلم .

والقرآن والسنة ـ وهما مصدر الأحكام الشرعية ـ بلغة العرب ، ولهذا .. يرى « ابن خلدون »

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٦٤ الاسطر ٣ ـ ٧

أن منزلة علوم اللسان تأتى من منزلة القرآن والسنة فى المجتمع الاسلامى كله من جهةكونهما أصل العقيدة الايمانية .

فبعد أن جعل أركان اللسان العربى أربعة قال عن هذه الأركان « ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » (١) .

هذا .. عن علوم اللسان ـ جملة ـ ومنزلتها عند « ابن خلدون » وهو حق على الحقيقة ، ثم هو يتناول منزلة كل علم من سائر العلوم ـ على حدة ـ

فالنحو ـ لديه ـ الأهم المقدم ، وقد تقدم ذلك (٢) ، اذ النحو تأتى منزلته من معرفة الفاعل والمفعول ، والمبتدأ والخبر بالاعراب وما يدل عليه من حركات الاعراب، ومن معرفة الاسناد والمسند والمسند اليه ، ولولا ذلك العلم « النحو » لجهل أصل الافادة ، وفى الجهل اخلال بالتفاهم ـ كما يرى ابن خلدون ـ

ثم هو يرى أن « علم اللغة » يأتى فى المنزلة الثانية بعد « علم النحو » ، وان كانت علة تدوينهما واحدة ، وهى الاختلاط بين العرب والعجم ، وطغيان عجمة الموالى ، مما أخل بالضبط فى الاعراب ، فدعا ذلك الى تدوين «علم النحو» واخل بموضوعات الألفاظ بسبب هجنة المتعربين المخالفة لصريح العربية فألح على كتابة المعاجم اللغوية .

وان كان « علم البيان » أداة لمعرفة اعجاز القرآن ووجوه الاعجاز ـ فهو لهذا جليل الخطر والفائدة ـ الا ان« ابن خلدون » اعتبره بعد « علم اللغة » فى

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٧٤ الاسطر ١ ـ ٤
(٢) ص ٨

المنزلة .. لأنه « علم حادث فى الملة بعد علم العربية (١) واللغة » (٢)، والرأى ما أرى ، لأن « البيان » لا يكون الا بعد معرفة « النحو » لتصحيح الضبط ، ومعرفة « علم اللغة » لسلامة اللفظ وبراءة الكلمة فى النطق .

ثم الأدب ــ عنده ــ علم ، ويبدو أنه لا يحاول أن يدخل فى حوار صميمى بين العلم والفن فتجوز فى كلمة « علم » وأطلقها على الفن مثلما يطلقها على العلم ذى الضوابط والقوانين ، فأعطاها ــ بذلك ــ صفة الشمول .

ولذلك .. فالأدب ــ عنده ــ « علم لا موضوع له ينظر فى اثبات عوارضه أو نفيها » (٣) .

والمعروف .. أن العلم ذو موضوع دائما .. لكنه حين جعل الأدب علما بلا موضوع أو لا موضوع له فانما يقصد أنه بلا قواعد ولا قوانين ، ولهذا .. عرف الأدب بثمرته ومقصوده « وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » (٤) .

ثم أراد أن يشير الى طريق الاجادة فى الشعر والنثر ، فذكر أن الطريق هو حفظ الكثير من أشعار العرب وكلامهم ، ومن هذا الاستظهار تحصل الملكة « فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة » (٥) .

واذا كانت علوم اللسان قد دونت فانها دونت لحفظ التراث ،

(١) يقصد : علم النحو

(٢) المقدمة : الجزء الرابع ص ١٣٨٣ السطر الاول

(٣) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٧ السطر ٣

(٤) المصدر السابق ص ١٣٨٧ الاسطر ٤ ، ٥

(٥) المصدر السابق ص ١٣٨٧ الاسطر ٥ ــ ٧

ودقة الضبط ، وذلك لخدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة .

واذا عرفنا أن علوم اللسان العربى من نحو ولغة وبلاغة وأدب انما هى فروع لعلوم القرآن والسنة .. عرفنا منزلة علوم اللسان ، وقيمة الضغط الشديد الملح على ضرورة « علوم اللسان » عند « ابن خلدون » .

البلاغة العربية فى تصور ابن خلدون

واذا كانت علوم اللسان كلها مجالها البحث فى اللفظ وما يفيده من حقيقة لغوية ، أو يضبط به من حركة اعراب ، فان « ابن خلدون » جعل « علم البيان » أصلا ذا ثلاثة أصناف : ما يبحث عن المطابقة لمقتضى الحال ، وما يبحث عن اللازم اللفظى وملزومه، وما يبحث عن تزيين الكلام .

ونجد أنه جعل « البيان » رأسا ورمزا لعلوم البلاغة الثلاثة ، وقد بين هو ذلك ، ووضح سببه ، وأنه ليس من وضعه وحده ، ولم يكن بدعا منه أنه جعل البيان عنوانا لعلوم البلاغة ، ولكنه مسبوق بمن قبله الذين أطلقوا اسم « البيان » على فنون البلاغة الثلاثة ، وأشار هو الى سبب اطلاقهم اسم « البيان » على هذه الفنون بأن الأقدمين أول ما تكلموا فى « البيان » .

« وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ، وهو اسم الصنف الثانى لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه » (١) .

وعد « ابن خلدون » علم البيان من علوم اللسان ، وجعل تعلقه بالالفاظ « علم البيان » هذا العلم حادث فى الملة بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم « اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى » (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٥ السطر ١ ، ٢

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨٣ السطر ١ ، ٢

وأخذ بعد ذلك يبدأ فى التقسيم « الامور التى يقصد بها افادة السامع مع كلامه هى : اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ، ويفضى بعضها الى بعض ، والدالة على هذه المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، واما تمييز المسندات من المسند اليها ، والأزمنة ويدل عليها بتغيير الحركات وهو الاعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها صناعة النحو .

ويبقى من الأمور المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج الى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة واذا حصلت للتمكلم فقد بلغ غاية الافادة فى كلامه » (١) .

ويستطرد « ابن خلدون » فى بيان هذا المعنى ، وان لكل مقام مقالا يختص به ، وأن قولهم « زيد جاءنى » مغاير لقولهم « جاءنى زيد » وهذا مدخل التقديم والتأخير بين المسند والمسند اليه ، وان التقديم هنا للاهتمام .

ويرى « ابن خلدون » أن الكلام العارى عن التأكيد انما يفيد خالى الذهن وأن المؤكد يفيد المتردد ، وزيادة التأكيد انما تكون للمنكر .

ويدخل مجال الخبر والانشاء فى الجملة الاسنادية « ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية ، وهى التى لها خارج تطابقه أولا ، وهى التى لا خارج لها كالطلب وأنواعه »(٢) .

وفى تتابع وانسياب يتحدث عن الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، ولكنه حين يتحدث عن التشبيه الذى تعارف أهل البلاغة على أنه « تشبيه بليغ » يعده من فن « الاستعارة » كما تقول : « زيد أسد » فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه ، وانما تريد شجاعته اللازمة ، وتسندها الى « زيد » وتسمى هذه « استعارة » (٣) .

(١) المصدر السابق ص ١٣٨٣ الاسطر من ٣ — ١٠

(٢) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٣ السطر الاخير ، ص ١٣٨٤ السطر الاول

(٣) نفس المصدر ص ١٣٨٤ السطر ٦ ، ٧

ثم انتقل من ذلك الى « الكناية » وبين أن « هذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب ، وانما هى هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيآت فى الألفاظ ، كل بحسب ما يقتضيه مقاومة ، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التى للهيآت »(١) .

ومن هذه المقولة نرى أن «ابن خلدون » يجعل الكلام فى « علم النحو » من الاعراب والبناء ، وبيان الفاعل والمفعول وغير ذلك ــ مما هو مجال علم « النحو » ــ دلالات زائدة على دلالة الألفاظ .

فقولنا « محمد كريم » مثلا لها دلالة لفظية ودلالة اعرابية ، فدلالة اللفظ فى « محمد » ذات انسانية مسماة بهذا الاسم ، مخبر عنها بصفة معينة هى الكرم ، ودلالة الاعراب حركة الضم على الحرف الأخير من الاسم ، ونرى ــ مع ابن خلدون ــ أن حركة الضم على آخر الاسم دلالة زائدة على دلالة اللفظ ذاته ، وينسحب هذا على « علم النحو » .

وكذلك .. يجعل الكلام فى « علم اللغة » ــ معرفة نطق الكلمات وضبط اللفظ ــ دلالة زائدة عن دلالة اللفظ ، لكنه يجعل الكلام فى « زيد أسد » دلالة استعارية وهى زائدة كذلك عن دلالة اللفظ بمعنى أن كلمة «أسد» حين أستعيرت « لزيد » أعارته صفة زائدة عليه هو جاءته من اضافة صفة الأسدية عليه وهى دلالة زائدة على ذات اللفظ المعار ــ باعتباره أعير لما ليس له ــ لا على حقيقة ما وضع له اللفظ أصلا .

وفى « الكناية » دلالة زائدة عن دلالة اللفظ لأنها دلالة اللازم اللفظى لا دلالة الوضع اللغوى .

وكذلك « البديع » دلالة زائدة عن دلالة اللفظ لأنه من ترف الزينة وبهرجة الترصيع والتجنيس .

(١) نفس المصدر ص ١٣٨٤ الاسطر من ٣ ــ ١٠

اذن .. لم يبق لديه مما تتطابق فيه الدلالتان « اللفظية والمعنوية » أو « اللفظية وحال المخاطب » غير « البلاغة » ــ علم المعانى ــ .

فهو يجعل الكلام فى علم « البيان » « البلاغة » البحث فى دلالة التراكيب دلالة مطابقة غير زائدة ، ويقصد بالمطابقة هنا .. مطابقة الكلام والتراكيب مقتضى الحال ، وليس كذلك علم النحو ، فلا يشترط فيه المطابقة لمقتضى الحال ولا علم اللغة لأنه يبحث فى الألفاظ المجردة لا فى التراكيب ، ودلالة التراكيب هى ــ وحدها ــ التى يمكن فيها التطابق وعدمه ، وليست كذلك الألفاظ المجردة ، وليس كذلك « التشبيه والاستعارة والكناية » كما سبق .

ونظرة خاطفة على هذا التقسيم عند « ابن خلدون » تتبين أنه جعل « علم البيان » مبحثه الاستعارة والكناية ، ولكن « علم البلاغة » عنده بهذه الصورة وباعتباره يبحث فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال من تقديم وتأخير ، واسناد ، وايجاز واطناب ومساواة ، وفصل ووصل ، وخبر وانشاء ، وتعريف وتنكير ، وتأكيد وعطف الى غير ذلك ، انما يدخل ــ عندالمتأخرين والمحدثين ــ تحت اسم «المعانى» .

ومعنى هذا..أن « ابن خلدون» جعل « علم البلاغة » هو مباحث « علم المعانى » ، فالعلم ــ لديه فى هذا المجال ــ بيان وبلاغة وبديع ، وهو ما صنف عند المتأخرين والمحدثين « البيان ، والمعانى ، والبديع » .

لكن .. هل يقصد « ابن خلدون » بعلم البلاغة هنا الاقتصار على مباحث المعانى ؟ أم هو يقصد المعنى العام ؟

لا شك فى أنه ..لو كان يقصد المعنى الأول من مطابقة الكلام لمقتضى الحال فقط لاكتفى من الموضوع كله بما يدور حول هذا المعنى وحده ، ولما تحدث عن البيان وجعله رأس الباب ، ولما تحدث عن البديع وموضوعاته ولكنه اذ تحدث عن البيان ومباحثه ، والبديع

وما فيه من سجع وتجنيس وترصيع وتورية ، فانما يقصد المدلول الشمولى لما نقصده ـ الآن ـ بكلمة « البلاغة » ، وهو ما كان يقصده الأقدمون بكلمة «البيان» .

بعد هذا التقسيم .. بدأ ينشد الى مجاله الفريد « علم الاجتماع العمرانى » وعناية أهل المشرق بالبيان ، وانهم أقدر عليه من أهل المغرب ، وارجع سبب ذلك الى أن « علم البيان » كمالى فى العلوم اللسانية « والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم منه أكثر من غيره ، وبالجملة .. فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه ـ والله أعلم ـ أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع ، الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه » (١) .

غير أنه عاد فذكر سببا آخر ، قد يظنه الباحث مغايرا مغايرة تامة للأول ، لكنه ـ مع بعد الرؤية ـ يمكن أن يمتزج بالأول ، فيشكلا ـ معا ـ سببا واحدا .

« أو نقول .. لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير « الزمخشرى » وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله ، وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه « علم البديع » خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا ، وعددوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وزعموا انهم أحصوها من لسان العرب ، وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما ، وغموض معانيهما ، فتجافوا عنها » (٢) .

بعد هذا .. يوضح الغاية من هذا الفن ، وأنه ليس قوانين تحفظ ، ولا ضوابط تلملم أطراف هذا الفن ، ولا قواعد تجمع شتاته .

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٥ الاسطر من ١١ ـ ١٣

(٢) المصدر ذاته : ذيل ص ١٣٨٥ ، وأوائل ص ١٣٨٦

بل الغاية منه ما كان ـ فى البداية ـ سبب تعلمه ، وسر تدوينه ، وذلك هو « القرآن الكريم والسنة المطهرة » ، اذ فن « البلاغة » لمسة الدخول الى معرفة سر الاعجاز ـ فى دلالة التراكيب القرآنية ـ « ثمرة هذا الفن انما هى فهم الاعجاز من القرآن » (١).

ولعلنا نستطيع أن نقرر هنا ـ ما سبق أن قررناه ـ أن «ابن خلدون » لا يقصد انحصار كلمة « البلاغة » فى دائرة مفهومها الضيق ـ حدود علم المعانى ـ مثلما يبدو من تقسيمه ، بل يقصد المفهوم الأرحب لجميع فنون البلاغة بالمعنى الاصطلاحى الحديث « البيان والمعانى والبديع » ، اذ بهذه الفنون ـ جميعا ـ يمكن التعرف على سر اعجاز القرآن الكريم فى « المنهج البلاغى » .

الاستاذ محمد عادل سليمان

« من برىء من ثلاث نال ثلاثا »

من برىء من الشر نال العز ، ومن برىء من البخل نال الشرف ، ومن برىء من الكبر نال الكرامة .

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٦ السطر ٦ .

الأزهـــر جامعًا وجامعة
أومصـــر فى ألف عـــام

للأستاذ محمد كمال السيد

(٩)

الازهر بعد خروج الفرنسيين :

لم يكن خـروج الفرنسيين من مصر نهاية لآلام الشعب المصرى • بل شهدت مصر بعدهم أربع سنوات من الفتن والاضطـرابات والظلم أكثـر ممـا شـهدته فى عهـد الفرنسيين • وقامت القـاهرة خـلالها بثـلاث ثورات •

فقد كانت عناصر السلطـة التى ملأت الفراغ بعد الفرنسيين ثلاثة عناصر متضاربة الأهواء والأغراض هى : الانجليـز والعثمانيـــون والمماليك •

وكان الانجـــليز يقصـــدون الاستيلاء على مصر•ولكن لم تكن قد تهيأت لهم الأسباب بعد بالكامل• وقد اتفق فى المعاهـدة المعـروفة بمعاهدة اميـان فى ١٨٠٢/٣/٢٧ على جلاء الفرنسيين والانجليز معاً عن مصر • وكانت أسس هـــذه المعاهدة قد تم الاتفاق عليهـا فى اكتوبر سنة ١٨٠١ قبل أن تصـل لأوربا أخبار اتفاقى جلاء الفرنسيين عن مصر •

وفعلا فى المحرم سنة ١٢١٧ هـ (مايو سنة ١٨٠٢) جلا الانجليز ــ بعد مماطلة وتلكؤ ــ عن الجيزة حيث كان معسكرهم• ولكنهم بقوا فى الاسكندرية حتى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٣/٣/١٦) أى مكثوا فى مصر بعد خـــروج الفرنسيين أكثر من سنة ونصف •

أما العثمانيون فقد كانت قيادتهم فى مصر بيد يوسف باشا ضيـا الصدر الأعظم وبيـد حسين باشا قبطان فى ناحيـــة « أبو قير » والاسكندرية •

وكان المماليك ـ كما كانوا قبل الحملةالفرنسية ـ فرقتين : الأولى الابراهيمية بقيادة ابراهيم بك • والثانية المرادية أتباع مراد بك • وقد آلت زعامة المرادية بعد وفاة مراد بك الى محمد بك الألفى • وينافسه فى هذه الزعامة عثمان بك البرديسى • وكان جانب المرادية هو الأقوى • ولكن نظرا لكبر سن ابراهيم بك فقد كان محل احترام الجميع وكانت له الرياسة بينهم •

وكان الألفى شخصية ممتازة بالدهاء والذكاء والجرأة والاقدام • وكانت قواته وأتباعه يقدرون بنصف قوات المماليك مجتمعة•وله تأثير غريب على العربان فيأتمرون بأمره • ولذلك كان محل غيرة وحسد من زملائه خاصة عثمان بك البرديسى •

ورأى العثمانيون الفرصة سانحة لاسترجاع نفوذ تركيا كاملا على مصر • وللقضاء على المماليك الذين بقوتهم كانوا قد جعلوا السيادة التركية على مصر كأنها سيادة اسمية •

فتظاهر الزعيمان التركيان ـ يوسف ضيا والقبطان ـ بالتودد الى المماليك والتقرب اليهم • فعين يوسف ضيا الصدر الأعظم محمد بك الألفى أميرا على الصعيد كما كان مراد بك فى عهد الفرنسيين • وعين ابراهيم بك شيخا للبلد وهو المنصب الذى كان يشغله زعيم المماليك قبل الفرنسيين •

واطمأن المماليكواعتقدوا بعودة نفوذهم • وأنه عما قريب يخرج العثمانيون وينفردون بالأمر •

ولكن دبر الزعيمان التركيان بينهما مؤامرة فى جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ (اكتوبر سنة ١٨٠١)ـ أى بعد خروج الفرنسيين بأقل من شهرين • فدعا حسين باشا قبطان « فى أبو قير » من فى جهته من المماليك الى وليمة • وغدر بهم • فقتل بعضهم وأسر الباقين •

وللاستطراد نذكر أنه كان من ضمن القتلى ابراهيم كتخدا السنارى • نذكره لأن بيته فى جهة السيدة زينب أصبح الآن متحف السنارى المعروف بمتحف نابليون

بحارة مونج خلف المدرسة السنية للبنات • ومونج كان أحد علمـاء الحملة الفرنسية • وكان ابراهيم السنارى أصلا من برابرة دنقلة • وكان بوابا بمدينة المنصـورة •• فتداخل مع الأمراء بما يدعيـه من كتابة الأحجبة وضرب الرمل • وتقرب الى مراد بك فأحبه • فعينه وكيله • ونما أمره وعظم ثـراؤه • وبنى داره المذكورة •

وفى نفس الوقت دعا يوسـف باشا ضيا ابراهيـم بك ومن كان بالقـاهرة من أمراء المماليـك الى وليمـة • ولـكنه اكتفى بالقبض عليهم • وأمـر بالقبض على باقى المماليك الذين لم يحضروا الوليمة • فهرب الـكثيرون والتجـأوا الى الانجـليز بالجيزة • فحمـوهم • وطلب هتشنسون القائد الانجليزى مـن يوسف باشـا الافـراج عن الأسرى • وهدده بالحرب • فاضطر يوسف باشا الى الافراج عن ابراهيم بك والآخرين •

وهكذا أصبح المماليك محسوبى الانجليز • وانكشفت لهـم نوايا العثمانيين • فانحازوا الى الأقاليم • وخاصة الى الصعيد كعادتهـم فى الأزمان السابقة • وخـرج حسين باشـا قبطـان من « أبو قير » فى ديسمبر سنة ١٨٠١ • وحضر محمد باشا خسرو الوالى العثمانى الجديد فى يناير سنة ١٨٠٢ • وخـرج يوسف باشا ضيا فى فبراير سنـة ١٨٠٢ •

وكان الجيش العثمانى فى مصر مكونا من أخلاط الجنود من أنحاء الامبراطورية العثمانية • وأهـم الفـرق فيـه اثنتـان : الأولى الانكشارية أو الينكجرية • وهى عدة السلطنة التى تعتمد عليها فى المهمـات • والثانية الأرنؤود أو الألبان • ويرأس الأخيرة طاهـر باشا ومحمد على •

وهذا التقسيم بوجـه عام •• ولكن ليس معنـاه أن كل فرقة تتماسك مع بعضها • فكثيرا ماانضم بعض الانكشارية الى الأرنؤود • أو العكس وكثيرا أيضـا ما انضم بعض المماليك الى العثمانييـن مفارقين اخوانهم • أو انضم بعض

رجال الجيش العثمانى الى المماليك وحاربوا معهم وذلك تبعا للأهواء والمصالح الخاصة .

وأصل الانكشارية نظام أنشأه السلطان مـــراد الأول (٧٦١ ــ ٧٩١ هـ = ١٣٥٩ ــ ١٣٨٨ م) بأن يأخذ كل عام عددا من صبيان أسرى النصارى فى الحـروب . فيلقنهم الاسلام . ويعلمهم الفنون العســكرية وأســاليب القتــال . ويصبحون قوة خاصة للسلطان . وكانوا بحكم تدريبهـــم وعناية السلاطين بهم متفوقين عسكريا . ولكن اختل نظامهـــم فيما بعد . فأصبحوا منبع الفتن والمشاغبات فى الدولة حتى قضى عليهـــم سنـة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) السـلطان محمود الثانى المعاصر لمحمد على. وقيل أصل الكلمة ينى تشرى أى العسكر الجديد . فحـرفت الى الينكجرية ثم الى الانكشارية .

ولما دخل الجنود العثمانيـــون مصر أخرجوا الناس من مساكنهم. وحلوا محلهـم . واستباحـــوا الحرمات . ونهبوا الأمـــوال . وقتلوا الأنفس . وخطفوا النســاء والغلمان من الطرقات . وسلبـوا ملابس ونقود من ينفـردون به . وكأنهـم اعتبـروا مصر دار فتح أموالها وأهلها غنيمة لهم . واذا شكا الأهالى قيـــل لهـم : ألا تتحملونهم وقد جاهدوا من أجلكم لاخراج الكفار !!

وخرب الجنـــد المنـازل التى ينزلونها . فيحـــرقون أخشابهـا ونجـارتها للوقيـد . ويملأونهـا بقاذوراتهم . فاذا تمخرابها انتقلوا منها الى مساكن أخـرى . فزادت المدينة خرابا فوق حرائق وتخريب الفرنسيين لها .

وتوالى فـــرض الضرائب على الأهالى والتجار بحجـــة تكاليف الجيش ومحاربة المماليك . وكان المعتاد عند الجنـود اذا تأخـرت مرتباتهم أو نفقاتهـــم « وكانوا يسمون الأولى الجامكية والثانيـة العلوفة » عاثوا فى المدينة نهبـــا وفسادا .

وتفنن الجنـــود فى استلاب الأهالى . فيقصون من العملـــة

الفضية أو الذهبية جانبا ويطلبون من الصيارف صرفهـا بالكامل . فلا يستطيعون الامتناع . ويفرض بعضـهم الاتاوات عـلى المقـاهى والمحلات التجارية بحجة حمايتها . فاذا دفعت الاتاوة وضع الجنـدى شارته على المحل وقاسم فى ايراده وأرباحه . ويركبون حمير المكارية « الحمارة » ويخرجـون بها الى الخلاء . فيقتلون المكارى ويبيعون الحمار فى سوق الحمير .. وغير ذلك من ضروب النهب والايذاء .

وتعدوا الى القرى المجـاورة للقاهرة . فهرب أكثر أهليها ولجأوا للقاهرة فازدادت تعاسة وازدحاما . ووقفوا فى مداخل المدينة يخطفون ما يحضره الفلاحون من سمن وجبن وبيض وخضروات وغيرها . فـلا يصل للأهالى منها شىء . ثم يبيعونها لهم بأغلى الأسعار .

واستولى المماليـك على أغلب الصعيد والبحيرة . يعيثون نهبـا وفسادا . ويصادرون المراكب بما عليها من غلال وبضائع فلا تصل الى القـاهرة . وحاربهم العثمـانيون مرارا . وكان المماليـك دائمـا ينتصرون . فانتصروا على العثمانيين عند نجع حمادى فى سبتمبر سنـة ١٨٠٢ . وهزمهم الألفى هزيمـة كبرى عند دمنهور فى نوفمبر سنة ١٨٠٢ . كما انهزم العثمانيـون أيضا عنـد المنيـا فى أبريل سنة ١٨٠٣ . وغير هذا من التفاصيـل التى تبعدنا عن موضوعنا الأصلى .

وكان الحال بالريف لا يقل سوءا عنـه فى العاصمـة . فالمماليك عصابات . اذا نزلت عصـابة منهم قرية رعت زراعاتهـا بخيولهـا . ونهبت ما فى أجرانها من المحاصيل ، وما فى مراعيها من أغنام ومواشى . وفرضوا على القرية الغـرامات والتكاليف . وتأتى عصـابة أخرى فيتكرر نفس الشىء .

ويأتى العثمانيون فى محاربتهم للمماليك فيزداد الأمر شناعة بالنهب والتعدى على الأعراض . حتى ترك الاهالى قراهم وخربت القـرى والبلاد . وزاد الأمـر فسـادا بالعربان الذين انضموا الى المماليك فقطعوا الطرق برا وبحرا . واختلت

المواصلات • واضطرب الأمن • وانقطعت موارد المؤونة من الغلال وغيرها عن العاصمة •

وكان الوالى محمد باشا خسرو سخيف الرأى فاسد التدبير • بدأ أولا بداية حسنة بالتشديد فى مراقبة الأسعار والمكاييل والموازين • ولكنه أكثر من فرض الضرائب • وعجز عن كبح جماح الجنود • أو كان هذا على هواه • ثم انهمك أخيرا فى عمارة أجراها فى سكنه بالأزبكية • وهو قصر الألفى الذى نزله القواد الفرنسيون أثناء وجودهم • وكانت الفتن قد خربت أجزاء منه • كما تخربت مجاوراته • فأخذ فى تجديده • وأنشأ بجواره مبانى عديدة سموها بالقشلة « جمعها قشلات • بكسر القاف • وهى محل اقامة العسكر • وقال الجبرتى فى تاريخه طبعة الشعب ص ٩٥١ ان معناها المكان الشتوى لأن الشتاء بالتركية معناها قش » لتكون لحرس خاص به أنشأه من العبيد السود على النظام الجديد مثل الفرنسيين • وزود هذه القشلة بالمدافع وأدوات الحرب • وأنشأ فيها المقاهى والمحلات التجارية • واستنفدت مباشرة هذه العمارة جل وقته وكل اهتمامه •

وكان الجنود يطالبون الباشا بمرتباتهم ونفقاتهم فيقول : انكم لا تستحقون شيئا فقد توالت هزائمكم • وكان هذا التعنت من الباشا ضد الأرنؤود خاصة •

وفى أوائل المحرم سنة ١٢١٨ (أواخر ابريل سنة ١٨٠٣) شدد الأرنؤود فى الطلب فأحالهم على الدفتردار • وكان يقيم فى جهة الازبكية أيضا • وليس فى خزينته مال • فأرسل للباشا أن الجنود مجتمعون عنده يهددون بالثورة ، فما كان من الباشا الا أن أطلق مدافعه على منزل الدفتردار • وبدأت الحرب بين الفريقين •

وانتصر جنود الباشا أولا • ثم شغلوا بالسلب والنهب • فكر عليهم الأرنؤود فغلبوهم • واستولى طاهر باشا على القلعة • واطلق منها المدافع على منزل الباشا • وزحفوا جهة الازبكية • واستولوا على

بولاق وجهة القصر العينى • وكان بالقصر طائفة من عبيـــد الباشـا فأخذوهم أسرى • ونهبـوا بيـت السيد أحمد المحروقى وهـو بيت البكرى القديم • وبجواره المنـزل الذى به حريم الباشا فنهبوه أيضا • وكان الباشا قد أرسل فأخـــرج الحريم بما عليهن من ثياب فقط • واخترق بيت الباشا وما أنشأه حوله من المبانى • واضطر للفـــرار الى جزيرة بدران ومنها الى القليـوبية ثم الى دمياط •

وأصبح طاهـــر باشا سيـــد الموقف •

وكان طاهر باشا قد أرسل الى أمراء المماليك أن يحضروا قريبا من القاهرة ليستعين بهم اذا تطـــور الموقف مـــع خسرو باشا • وكان محمد بك الالفى قد خرج مـــع الانجليز فى مـــارس سنة ١٨٠٣ ليسعى فى لندن أن يحكم المماليك مصر تحت الحمـاية البريطانية • وأناب عنه فى رياسة مماليكه أحد صناجقه المسمى بشتـك • وكان يطلق عليه الألفى الصغير • وكان أمراء المماليك لا يكفون يرسلون فى طلب الصلح باعطائهم مساحات معينة يعيشـــون فيها ويدفعـون ضرائبها وخراجها ويخضعون لأوامر الدولة • ويوسطـون فى هـــذا العلماء • ولكنهم كانوا يبالغـون فى طلباتهم فلم يتم أى اتفاق •

العلماء يعينون طاهر باشا قائمقاما

وبعد ستة أيام من بدء هـــذه الفتنة التى انتهت بهرب خسرو باشا اجتمع العلماء فى بيت القاضى فى ١٤ المحـرم سنة ١٢١٨ (٦/٥/ ١٨٠٣) وذهبوا الى منزل طـاهر باشا بغيط العدة (بالقرب من باب الخلق) وعينوه قائمقـاما لحـين ورود الأوامـــر من استانبول • وأرسلوا للدولة هناك بذلك •

وفى تعيين العلماء لطاهر باشـا مظهر من مظاهر المركز القوى الذى كان يتمتع به علماء الأزهر وان كان هذا شكليا أو ظاهريا • فطـاهر باشا وصل الى مـــركزه بحـــد السيف •

وفى أثناء المعركة كان طاهرباشا يمر فى المدينة يطمئن الأهالى أن هذه معركة بين الجنود ولا دخل للرعية فيها •

وشمخت أنوف الأرنؤود بعد فرار خسرو • وتعالى طاهر باشا وأخذ فى الانتقام من الانكشارية ومن الموالين لخسرو فصادر الكثيرين وفرض الغرامات الكبيرة على آخرين • وأرسل حملة وراء خسرو باشا بقيادة أخيه حسن بك •

مقتل طاهر باشا :

وكانت هناك طائفة من الانكشارية معدة للسفر للحجاز لحرب الوهابيين•وكانوا معسكرين بجامع الظاهر بجهة الحسينية بأول العباسية • وكان الفرنسيون قد حولوه الى قلعة باسم سلكوسكى Sulkouski أحد قوادهم الذين قتلوا فى ثورة القاهرة (الأولى) • وكان الانكشارية عندما يطالبون بمرتباتهم المتأخرة يقول لهم طاهر باشا : ليس لكم عندى الا من تاريخ ولايتى • وما قبل ذلك اذهبوا وطالبوا خسرو •

وحضرت طائفة منهم فى (١٨٠٣/٥/٢٦) الى منزل طاهر باشا مطالبين • فلما اشتد الجدل بينهم أخرج أحدهم سيفه وطوح به رأس طاهر باشا ورماها من الشباك• ونهبوا الدار وما حولها من الدور بغيط العدة والحبانية حتى درب الجماميز • وازدادت الفتنة بين الأرنؤود والانكشارية •

ولم يمكث طاهر باشا فى حكمه غير عشرين يوما •

وكان بالقاهرة أحد الباشوات اسمه أحمد باشا معينا لولاية المدينة المنورة • ورغب الانكشارية فى تعيينه واليا على مصر • فاستدعى المشايخ وطلب منهم مخاطبة محمد على فى ذلك • وكانت لمحمد على زعامة الأرنؤود بعد مقتل طاهر باشا • فرفض محمد على بحجة أن أحمد باشا والى المدينة ولا علاقة له بمصر • وراسل محمد على أمراء المماليك وكانوا قد وصلوا الى الجيزة • فأرسل ابراهيم بك الى أحمد باشا يطلب منه تسليم قاتلى طاهر باشا •وحدد له مهلة ساعات • فاضمحل أمر

أحمد باشا • وخرج من القاهرة• والتجأ الى قلعـــة الظاهـــر مع الانكشارية •

وركب المشـــايخ والأعيان الى الجيزة • فسلموا على ابراهيم بك وامراء المماليك • ودخل الأمـــراء القاهرة ولم يدم حكم أحمد باشـــا غير يوم وليلة •

ونزل الأرنؤود من القلعـــة • واستلمها المماليك • وأخرجـــوا الانكشارية من المدينة ثم أخرجوا من كان منهم بقلعة الظاهر مـــع أحمد باشا وكان عددهم ٢٥٠٠ •

وكتب العلمـــاء للـــدولة فى استانبول بملخص ما حصـــل فى القاهرة بين طاهـــر باشا وخسرو باشا • ثم قتل الانكشارية لطاهـــر باشـــا • ونهبهم للمدينـــة ولولا وجود المماليك بقربها ودخولهم فيها لتم خرابها • وعندما نقول العلماء أو المشايخ نعنى الظـــاهرين منهم المشتغلين بالنـــواحى السياسية • وغالبا كان باقى العلماء يوافقون على قرارهم •

وخرجت حملة وراء خسرو باشا يرأسها محمد على وعثمان البرديسى وأمكنها هزيمته عنـــد دمياط • وأرسلوه أسيرا الى القاهرة فأنزلوه بدار البرديسى التى محلهـــا الآن المدرسة السنية بالسيدة زينب •• أما محمد على والبرديسى فقداتجها بعد ذلك الى جهة رشيد •

وارتكب الجنـــود والمماليك فى هذه المطاردة الكثير من الشناعات• سواء جنود خسرو باشا الذى كان فى طريقه الى دمياط يفرض على القرى والبلاد الضرائب والغرامات، أو جنود حسن بك أخى طاهر باشا فقد ارتكبوا فى فارسكور الكثير مـــن النهب والحـــريق والفســـق بالنساء • أو جنود محمـــد على والبرديسى فقد قال عنهم الجبرتى : « ونهبوا دمياط • وأسروا النساء • وافتضوا الأبكار • وأخذوهـــن أسرى • صاروا يبيعوهن لبعضهم • وأخذوا مما على أجساد الناس من الثياب • ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أسباب التجار • وما فى المراكب •• الخ • والأمـــر لله وحده » اهـ•

العلماء يعينون
ابراهيم بك قائمقام

واجتمع العلماء والقاضى ببيت بنت ابراهيم بك بدرب الجماميز فى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢١٨ (١٨٠٣/٧/٧) وعينوا ابراهيم بك قائمقاما • وهكذا نرى العلماء يقررون ثانية مركز السيادة فى مصر •

ولم تكن الدولة فى استانبول قد علمت بمقتل طاهر باشا•فوصل منها خطاب (أخفاه الأمراء ولم يعلنوه) فيه تعيين خسرو باشا واليا على سلانيك • واستقرار طاهر باشا محافظا حتى يصل من تعينه واليا على مصر • ولم تعين طاهر باشا لأن سياسة الدولة كانت عدم تعيين الأرنؤود ولاة •

وعينت الدولة من يدعى على باشا الطرابلسى • ووصل الاسكندرية فى ١٨٠٣/٧/١٠ فأرسل الى أمراء المماليك يستميلهم الى جانبه بمعسول الألفاظ •وأنه لا يليق دخولهم القاهرة بدون اذن الدولة ويطلب خروجهم منها فأجابوه بمثل قوله • وأنه لولا وجودهم لخربت المدينة • وأنهم أرسلوا للسلطان يطلبون العفو وينتظرون الجواب •

ونادى والى القاهرة (وهى وظيفة غير والى مصر العثمانى) بخروج الأتراك والأغراب من الشوام وغيرهم فى ظرف ثلاثة أيام • فخرجوا .فى أسوأ حال بعد أن باعوا ثيابهم ومتاعهم •

وفى رشيد انتصر البرديسى ومحمد على ، على السيد على باشا قبطان المتولى عليها من قبل أخيه على باشا الطرابلسى • وأرسلاه أسيرا الى القاهرة فأنزلوه فى احدى الدور وأعطوه سرية بيضاء ، وجارية حبشية وجاريتين سوداوين للخدمة ورتبوا له ما يليق !! وظل أسيرا حتى خرج من مصر فى أبريل سنة ١٨٠٤ بعد التغلب على أخيه •

وذهب محمد على والبرديسى الى دمنهور ليذهبا منها للاسكندرية لقتال على باشا الطرابلسى • وفرضا على رشيد ودمنهور ومجاوراتهما من

البلاد المبالغ الكبيرة حتى خرب اقليم البحيرة عن آخره كما ذكر الجبرتى • ولكن لم يذهبا للاسكندرية لما تبين لهما من صعوبة الاستيلاء عليها • ولألحاح الجنود فى مرتباتهم المتأخرة • أما ما حصلوا عليه من النهب والسلب فلا يدخل فى الحساب •

ومما يروى فى هذا الصدد بما يدل على نفسية الحاكمين وقتذاك• أنه قد انحطت مياه النيل فى سبتمبر سنة ١٨٠٣ فاختفت الغلال• وأخذ الأمراء يستولون على ما يرد منها فى المراكب لأنفسهم فلا يصل منها الى الأسواق الا القليل • ويعرض لمدة ساعتين تقريبا يوميا• ولا يستطيع الغنى أن يشترى أكثر من أردب والفقير أكثر من ويبة (الويبة كيلتان) •

واجتمع العلماء وتشاوروا فى الاستسقاء بالخروج الى الخلاء والدعاء لله تعالى بنزول المطر أو زيادة ماء النيل • فذهبوا الى ابراهيم بك فقال : وأنا أحب هذا• قالوا : ولكن من شروط الاستسقاء رفع المظالم وردها والتوبة عنها • فقال : ان هذا لا يمكن • ولا يتصور • ولا أقدر عليه ولا أحكم الا على نفسى • فقالوا : اذن نهاجر من مصر • قال : وأنا معكم • وانصرفوا بدون نتيجة •

ووصل البرديسى ومحمد على الى القاهرة فى أواخر سبتمبر سنة ١٨٠٣ • ودخل البرديسى الى منزله بعد أن نقلوا منه خسرو باشا الى منزل صغير آخر بجواره •

وتشاور الامراء فى مرتبات الجند فقرروا مبلغا اختصوا أنفسهم بجانب يسير منه • ووزعوا الباقى على أصحاب العقارات والتجار والحرفيين وغيرهم حتى ضج الناس •

وكان على باشا الطرابلسى فى الاسكندرية قد جمع علماء المدينة هناك • وأراد أن يستكتبهم تقريرا للدولة يذكر فيه الأحوال على غير حقيقتها • فلم يوافقوه • وكان المتصدر لهذا الامتناع الشيخ محمد المسيرى •

والمذكور كان أحد علماء الاسكندرية • وكان نابليون عينه

ضمن الديوان الذى شكله هناك بمجرد وصوله من سبعة أعضاء برياسة السيد محمد كريم . والمسيرى نسبة الى مسير من بلاد كفر الشيخ . وذكر على باشا مبارك فى ترجمته (جـ ١٥ ص ٤٤) أنه أرسل فى أكتوبر ١٨٠٢ تقريرا الى نابليون عن الحالة فى مصر ويافا وعكا ودمشق والحجاز وغيرها اهـ . مما يدل على ولائه للفرنسيين ، وأن هذا الولاء استمر بعد خروجهم من مصر . ولعل هذا كراهة فى العثمانيين .

وفى القاهرة استكتب الأمراء العلماء مكتوبا لعلى باشا الطرابلسى أن يحضر للقاهرة لتبطل الحروب وتمتنع الغرامات التى تفرض بسببها . وأن تأخير حضوره يضر بالأمن . وربما أدى الى تعطيل الحج .

وبدا على المدينة نوع من الاطمئنان . فقد خرج منها أغلب الجند ولم يبق الا الأرنؤود وبعض الانكشارية ، فأخذ الناس يعمرون الدور التى خربها الفرنسيون والعثمانيون .. وأتم عثمان بك البرديسى عمارة منزله المذكور بأول الناصرية . وعمل فيه أبراجا نصب فيها المدافع حتى أصبح قلعة حصينة . كما حصن القلعة التى كانت للفرنسيين فوق تل العقارب (بحى المنيرة حوالى كلية دار العلوم) .

وكان محمد على حصيف الرأى . يمهد لنفسه فى بطء وأناة . فاتحد مع المماليك . وخاصة مع عثمان بك البرديسى فهو أقواهم لغياب محمد بك الألفى فى انجلترا . وهذا ليتحمل المماليك وزر الضرائب المتكررة على الأهالى وفى نفس الوقت كان محمد على يتقرب للعلماء وللشعب متظاهرا بالعدل والاعتدال والتعفف عن الرياسة .

وحضر خطاب من على باشا الطرابلسى بأن الدولة أرسلت له بالعفو عن أمراء بشفاعته وشفاعة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا . وبترتيب مقررات لكل أمير منهم . فابتهج الأمراء وأطلقوا المدافع . وأرسلوا للباشا بطلب حضوره .

وحمل هذه الرسالة ثلاثة يمثلون الواقع فى القاهرة • كتخدا ــ أى وكيل ــ ابراهيم بك كأنه عن المماليك• وباشجاويش الانكشارية كأنه عن الجنود • والسيد محمد الدواخلى عن الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر كأنه عن العلماء • والدواخلى أحد أعضاء الديوان الخصوصى الأول والديوان العمومى الثانى فى عهد الفرنسيين• وسنجد له دورا فى عزل السيد عمر مكرم من نقابة الاشراف كما سنذكر باذن الله •

واشترط الأمراء على الباشا أن يحضر عن طريق البر • وكانوا قد ضبطوا مراسلات منه الى محمد على الأرنؤود يستميلهم اليه ويطلب تأييدهم فى القضاء على المماليك • كما ضبطوا مراسلة الى الجند بالصعيد • وأطلعهم محمد على ، على خطاب على باشا • واتفق معهم على مسايرته حتى يتم الايقاع به فقرروا الغدر به •

ولما وصل الباشا الى شلقان (فى محافظة القليوبية) عسكر أمامه الألفى الصغير • وخرج البرديسى فعسكر بجوار الألفى • ولا نطيل فقد تغلبوا عليه • وسلم نفسه للأمراء • فأمروا جنده بالخروج من مصر من الجهة الشرقية • فلماوصلواالى الصالحية بالقرب من بلبيس انقطع خبرهم• والأرجح أنهم أبادوهم • وكان عددهم ٢٥٠٠ جندى •

وبعد ثلاثة أيام أمروه بالخروج • وأرسلوا معه قوة من المماليك • وعند القرين قتلوه • ووصل الخبر بذلك للقاهرة فى ١٨٠٤/٢/٢ من المماليك المرافقين له وبأنه أراد مباغتتهم ليلا فحاربوه • وقتل أثناء المعركة عفوا بدون قصد (والليل ليس له صاحب ، وكان ذلك مقدورا • وفى الكتاب مسطورا)!!

واستقر الأمر للمماليك ثانية فى مصر • واعتقدوا أن الحال يدوم • ولكن لله فى تدبيره شؤون •

عودة الألفى والمؤامرة عليه وتدهور حال المماليك :

وعاد محمد بك الألفى من انجلترا ووصل رشيد فى فبراير

سنة ١٨٠٤ • فتحركت عوامل الغيرة والحسد فى نفوس الأمراء بالقاهرة • وأزكى محمد على هذا الشعـور بإيحائه • فاستقر رأيهم على اغتياله فى طريقه الى القاهرة • وخـرج البرديسى وطائفة من الأمراء لعمل كميـن له • ولـكن أحس الألفى أخيرا بالمؤامرة • فأمكنه الهـرب والاختفاء فى أحد نجوع العـرب فى الشرقية • بعد أن نهبوا قافلته وما فيها من التحف والذخائر التى عاد بها من انجلترا • وأخـذوا يقتلون من يستطيعـون قتله من أنصاره ومماليكه • وهرب الباقون وعلى رأسهم الألفى الصغيـر الى الصعيد • وكالمعتاد فـرضوا فى طريقهم الغرامات على القـرى • والقـرية التى تعصى أو تتوانى تنهب وتحرق •

وكان هذا الانقسام بين المماليك بدء تدهورهم • وموافقا لأغراض محمد على • فقـد كان يحسب حساب الألفى من دونهم جميعا • لما له من الشخصية والدهاء والذكاء فضلا عن كثرة مماليكه وأتباعه •

وخرجت قوات المماليك بالقاهرة يبحثون عن الألفى الـكبير فى القليوبية والشرقية • وأرسلوا الى أعوانهم فى الصعيد بمحاربة الألفى الصغير •

وطـالب الجنـد بمرتبـاتهم • واجتمعوا بمنزل محمـد على • وهددوا بنهب المدينة • فقـرروا مبالغ على كتبة الأقباط • ولم يكتف الجند بهذا • وأرادوا الاستيـلاء على القلعة وبها المماليك فلم يتمكنوا ونزلوا المدينـة فأغلقت الحوانيت وتعطلت الأسواق • فاضطروا الى فرض ضرائب جديدة • وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر الجمل كما يقولون • فلم يقبلها الأهـالى الذين وصلوا الى حالة بالغة مـن الضنك •

ثورة القاهرة الأولى :

وقامت القاهرة بثورتهـا الأولى ضد المماليك فى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ (٧/٣/١٨٠٤ م) ومشى الناس فى مظاهرات • وخـرجت النساء وقـد صبغن أيديهن بالنيلة وبها الدفوف يندبن بالدعـاء على

المماليك ويصرخن : « ايش تأخـذ من تفليسى يا برديسى » • وأغلقت الحوانيت • وذهب النـــاس الى العلماء بالجامع الأزهر •

وخـاف الجنـد من الأهـالى فأخذوا يذكرون لهم أنهـــم فقط يطالبون بمرتباتهم وهى على الأمراء وليست على الشعب • وغضـب البرديسى لعدم تنفيـذ أوامـــره بالنسبة للضرائب • ولتحـــدى الأهالى وشغب الجند ، فأرسل الى أمراء المماليك بالأرياف بالحضور لمساندته مقـاومة الجنـد وشـعر الأمراء بذلك فاجتمعوا بالأزبكية •• وزحفـوا على منزل البرديسى بالناصرية • فخاف وهرب •فنهبوا داره وتتبعوا دور الأمراء بالنهـب والحريق • وهـــرب ابراهيم بك وباقى الأمـراء • واستلم الجنـد القلعة • وطلع محمد على اليها •

ومر محمد على بالأسواق ومعه الوالى السابق محمد باشا خسرو ، ــ بعـد أن ظـل معتقـلا ثمانية شهور ــ وأمامهما المنـادى ينادى بالأمان • وبالنـــداء التقليدى : حسبما « رسم » محمـــد باشا « خسرو » ومحمد على • وذهـب المشايخ الى محمـــد باشا خسرو يهنئون بالسلامة وبالولاية !!

وكان خروج الأمراء فجائيا•فلم يستطيعوا أخذ شىء يذكـــر من أموالهم •• ونهب الجند بيوتهم • وسبوا حريمهم وجواريهم•وخربوا الدور • واستـــولوا على ما كان بحواصـلهم من الغـلال وأنواع المؤونة • وقال الجبـرتى : ولولا انشغال الجند بالنهب لما نجا أحـد من الأمراء • وكمـا كان خروجهم فجائيا • فقد كان هذه المرة نهائيا • فلم يعودوا ثانية الى القـاهرة الا تابعين أذلاء • وأخذ شأنهـم فى الاضمحلال •

ورأى محمد على أن وقتـه لم يكن قد آن أوانه بعد • كما رأى أن فى ولاية خسرو باشا خطـــر انقسام الجند • فأخوه طاهر باشا لايرضون عنه لما سبق من الحوادث التى أدت لقتل أخيهم • فأخرجـه الى استانبول بعد اسبوع •

وأرسل محمد على والعلماء الى أحمـــد باشـا خورشـيد والى

الاسكندرية (كان العثمانيون بعد خروج الفرنسيين قد خصوا الاسكندرية بوال خاص غير والى مصر » ليتولى ولاية مصر حتى يرد تقرير الدولة بما تراه • ووصل خورشيد باشا الى بولاق فى ٢٦ مارس ووصل التقرير بولايته فى ١٨٠٤/٥/٣ •

وبدأ عهد جديد :

وخرج محمد على لمحاربة المماليك • وكان الألفى الكبير قد ظهر • ولكن لم يستطع المماليك توحيد صفوفهم • بل ظل الشقاق والتنافر بينهم لما أراده الله من القضاء عليهم • وطالت الحروب بين عسكر الباشا والمماليك • ذاقت البلاد فى هذه الحروب الأمرين • من النهب والسلب والحريق والتعدى على الأعراض • وكان المماليك يتقدمون تارة حتى يصلوا الى مشارف القاهرة • ثم ينسحبون ثانية أمام الجند • وفى كل خطوة من الفريقين الدمار والخراب •

وفى القاهرة استمر فرض الضرائب والمصادرات • وشره الباشا فى جمع المال • حتى انه قبض على الست نفيسة أرملة مراد بك • وكانت ذات مقام معتبر احترمها الفرنسيون ومن تبعهم من الولاة • وتعد السيدة الاولى فى القاهرة • وادعى أن جاريتها اتصلت بالمماليك • وكانت تهمة باطلة المقصود منها تقرير مبلغ عليها •

وشاع الخبر فذهب القاضى والشيخ السادات والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ محمد الأمير أحد كبار العلماء • وكلموا الباشا فى أمرها فقال : انها اتصلت ببعض الجند وعرضت عليهم القيام بدفع علوفاتهم (نفقاتهم) نظير مساعدتهم للمماليك ومادامت تستطيع ذلك فيجب عليها دفع العلوفات • فعارضوه ببطلان التهمة فلا مصلحة خاصة لها مع المماليك • فليس لها فيهم زوج أو أخ أو قريب • وأن مالها قد نضب معينه بما توالى عليها من الغرامات • وقال الشيخ الأمير للترجمان ــ وكان الوالى لا يتكلم العربية كأغلب الولاة ــ ان هذا التصرف يترتب عليه فساد الأمور • وأن

المشايخ يتحملون اللوم أمـام الله والشعب • فان كان كذلك فنحـن لا علاقة لنا بأى شىء ونخرج من هذه البلـدة • وقام غـاضبا • فاستمهلوه • وتقرر أخيرا نزولهـا فى بيت السادات • وهذا التهديد من الشيخ الأمير فى مواجهة الوالى يدل أيضا على مكانة العلماء •

ثورة القاهرة الثانية :

وفـرضت الضرائب فى أواخـر مـايو سنة ١٨٠٤ عـلى أرباب الحرف والصنائع • فثار الناس فى ٢٧ منه • وأغلقوا الحـوانيت • وذهبوا بجموعهـم الى الجامـع الأزهر•وصعدوا الى مناراته يدعون ويصرخون • وأرسل خورشيد باشا الى السيد عمر مكرم بطلب تهدئة الحال • وقال الرسول انهم رفعوا الضرائب عن الفقراء • فقال النقيب ان أصحاب الحرف أيضا فقراء بعد ما قاسوه من القحـط والكساد واضطراب الأحوال •

ومر والى القاهرة بالمدينة يطلب فتح الدكاكين • فلم يستجب له أحد • فاضطروا أخيرا الى الغـاء الضريبة بعد يومين•ونادى المنادى بذلك • ونجحت الثورة •

وهى لم تكن ثورة بقدر ما هى مظاهرة • ولكـن أمثال هـذه الحركات أكسبت الشعب ثقـة فى نفسه وفيما يستطيع أن يفعله •

وفكر الباشا فى الخروج بنفسه ومعه العلماء لحـرب المماليك • فاعترضوا بأنه لو هزم وهم معـه فمن يسوس الشعب ؟ وربما كان هذا السبب صحيحا • أو حجـة لاقتناعهم أنه لا معنى لاشتراكهـم فى هذه الحروب •

ولا نطيل فى وصف ما جرى • فالأرياف خراب بما تعانيه مـن حروب وسلب ونهب • فقد ذكـر الجبرتى عن اقليم القليـوبية مثلا (لم تبـق به الا خمس وعشرون قرية بها بعض السكان والبـاقى خراب ليس بها ديار ولا نافـخ نار) أما العاصمة فمهددة بالمجاعة لنقص ما يردها من الأقـوات • وانعدم فيها الاطمئنان والاستقرار بكثرة الضرائب وتعـدى الجند • فلم يترك الباشا طائفـة دون أن

يفرض عليها الضرائب • ففضلا عن أصحاب العقارات والحرفيين والتجار • فقد فرض الضرائب على اليهود وكتبة الأقباط وتجار البن وكل من تتوسم فيه القدرة على الدفع •

وجرت مراسلات بين الباشا والمماليك دون نتيجة • ووعد الباشا الألفى بولاية خرجا والجهات القبلية فلم يقبل بحجة انهم تعرضوا لحريم المماليك بالقاهرة وتوالت الرسائل من المماليك الى المشايخ يوسطونهم فى الصلح •

وعين الباشا محمد على لولاية جرجا • ووقعت عدة حروب بينه وبين المماليك• تارة له وتارة عليه• وكان كثير منها بمشارف القاهرة عند شبرا وأبى زعبل والخانكة وطرا • واستقدم خورشيد باشا عساكر جدد يتقوى بهم ضد المماليك من ناحية • وضد محمد على الذى كان يتخوف منه من ناحية أخرى •

وكان من ضمن العسكر الجدد طائفة تسمى الدلاة • قيل عددهم ١٢٠٠٠ جندى وهم من المتطوعين — أى فرق غير نظامية — وأصلهم غالبا من أكراد سوريا • وعرفوا بالشجاعة والتهور • فالمعنى اللفظى لكلمة ديلى (مفرد دلاة) هو المجنون • فلما وصل الدلاة الى الصالحية طالبوا بالنفقات والذخيرة، ففرضت الضرائب لذلك • ثم لما نزلوا بالقاهرة أخرجوا الناس من مساكنهم بمصر القديمة وبولاق وبركة الفيل • وسكنوا فى الدور يخربونها كما سبق ذكره عن العثمانيين • وانبثوا فى الأسواق ينهبون ويسلبون ويفسقون •

الثورة الثالثة للقاهرة ومقدماتها

وأنزل الباشا قوة منهم جنوبى البساتين قرب المعادى لتسدالطريق على محمد على فى عودته • وعلم محمد على بما يدبره الباشا له فعاد من الصعيد ومعه حسن باشا أخو طاهر باشا • وأمكنه اختراق هذا الحصار • فقد لاطف العسكر بأنه وجنوده حضروا للمطالبة بعلوفاتهم المتأخرة • فأفسحوا لهم الطريق • فهم يقتنعون بحق هذه المطالبة • ولو منعوهم هذا الحق لجاء دور غيرهم فى منعهم أيضا •

وعقد الباشا اجتماعا من العلماء ونقيب الاشراف ورؤساء الجنـد وكبار الموظفين • وقال لهم ان محمد على وحسن باشا رجعا من الصعيد بغير اذن • فامـا أن يعـودا اليه أو يخرجا بقواتهما من مصر • وأن عنده التفـويض من الدولة أن يعطيهما المناصب والولايات خارج مصر • وقال للمشـايخ : أنتم تكونون معى وتقيمون عنـدى • فقال النقيب ان المشايخ الشرقاوى والمهدى والبكرى غائبون • فقال نرسل باحضارهم • وتقرر أن يبيت عنده بالقلعة كل ليلة اثنـان من المشايخ •

و حضر أهالى مصر القديمـة يشكون للمشـايخ أفعال الدلاة بدورهم وأمـوالهم ونسائهم • فكلموا الباشا فأمـرهم بالكف وترك المنازل لأربابها • فلم يمتثلوا فكرر المشايخ عليه الموضوع•فقال هم خارجـون بعد ثلاثة أيام • فأضرب العلماء عن اعطاء الدروس • وأغلقت الحوانيت• وزاد الضجيج بالشوارع والطرقات •

وكان خورشيد باشـا قد سعى لتعيين محمد على واليا على جـدة ليتخلص منه•ووصل القرار بذلك• وطلب حضوره للقلعة ليخلع عليه خلعة الولاية • ولكن محمـد على بحرصه رفض ذلك • وأخيـرا اتفقوا أن يلبسه الخلعة فى بيـت أحد كبراء العسكر بالمدينة •

وازدادت حركة التذمر اتساعا• وظهرت كراهية الشعب لحـكم خورشيد باشا • واجتمـع المشايخ ونقيب الأشراف وذهبوا الى بيت القاضى (المحكمة العليـا تقريبا) وطلبوا حضـور رجال الدولة الى مجلس الشرع ــ أى لمحاكمتهم • وحددوا شكواهم بتعدى العسكر على الناس • وايذائهم واخراجهـم من بيوتهم • وازدياد الضرائب • ومصادرة الاموال • وغيرها مـن الأسباب • فطلب الباشا مـن القاضى والمشايخ حضورهم عنده• ولكنهم رفضوا •

العلماء يعينون محمد على واليا

وفى عصر اليوم التالى • أى فى يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ

(١٣/٥/١٠٥ م) ذهب المشايخ الى بيت محمدعلى وأبلغوه قرارهم بعزل خورشيد باشا • فسألهم : ومن ترغبون أن يكونواليا مكانه• فقالوا : « لا نرضى الا بك — بشروطنا — لما تتوسمه فيك من العدالة والخير — الجبرتى ص ٦٢٨ — من طبعة الشعب » • فقبل بعد تمنع •

وقام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم فألبساه كركا وقفطانا ونادى المنادى فى المدينة بعزل أحمد باشا خورشيد وولاية محمد على •

ورفض خورشيد هذا القرار لأنه معين من السلطان فلا يعزل من الفلاحين •

وسنرى فى المقال التالى باذن الله كيف تطورت الامور حتى استقرت أخيرا لمحمد على بدون منازع •

محمد كمال السيد

افضل الاصحاب

قيل للنبى عليه السلام : اى العمل افضل ؟
قال : اجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطبا بذكر الله .
قيل : أى الاصحاب افضل ؟
قال : الذى اذا ذكرت اعانك واذا نسيت ذكرك .
قيل : اى الناس شر ؟
قال : العلماء اذا فسدوا .

بـــردة جديـــدة

للأستاذ السيد حسن قرون

طلعت علينا الأهرام فى « الفكر الدينى » فى صبيحة الجمعة ١٩٧٩/٦/٢٢ بقصيدة « محمد رسول الله » للدكتور حسن ابراهيم أستاذ الجراحة بكلية الطب ، وعضو المجمع اللغوى • وهى قصيدة تضاف الى المدائح النبوية و « بردة جديدة » تنتهج الصورة التى اتخذها الشاعر الصوفى (البوصيرى ٦٠٨ — ٦٩٥) هـ من وزن وقافية ، وبردة البوصيرى حالفها التوفيق فجاءت حبيبة الى النفوس ، قريبة من القلوب ، والذين جاءوا بعده حاكوه وجعلوه امامهم ، وبعضهم اتخذ منها سبيله الى نظم البديع ، كل بيت يحمل نوعا منه وصفة من صفات الرسول وتسمى تلك القصائد « البديعيات » تشتمل على حياة الرسول وما أداه للبشرية من تشريع وما رسمه من مكارم الأخلاق ، ولكن البردة بقيت لها اشراقاتها وعطاؤها حتى جاء العصر الحديث فعاد بها الى نهجها الأول وهو مدح الرسول ، وذكر مولده وصباه وتحنثه وبعثته ودعوته ، وجهاده فى مكة والمدينة حيث الغزوات والتشريع لكل مناحى الحياة وشئون الحكم ، ولم ينس أحد منهم معجزته الكبرى « القرآن الكريم » •

تجد ذلك عند البارودى كما تجده عند شوقى ، والتاريخ يذكر أن مدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نوعان : نوع قيل فى حياته من شعرائه وعلى رأسهم حسان بن ثابت ، ومنهم كعب بن زهير صاحب قصيدة « بانت سعاد » ونوع جاء بعد دهر

طويل حين نشأ التصوف ، وغلبت على النفوس الناحية الروحيـــة ، بالتقرب الى الله والتشفع برسوله. أما ما قيل بعد وفاته مباشرة فهـو من باب الرثاء .

وبعض النقاد يرى أن هذا النوع من الشعر أساسه « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وهـو رأى لا يدفع ولكن ما روى من شعر على الصورة التى نعهدها فى البردة من الاتفاق فى الوزن والقافية الميميـة المكسورة يدعونا الى أن نقول : ان شعـراء كثيـرين سبقـوا البوصيرى الى تلك الصـورة . يقول الدكتور زكى مبارك ــ رحمه الله ــ « أغلب الظـن عندى أن البوصيرى استأنس فى نظمهـا بميمية ابن الفارض ، ودليـل ذلك تشابه المطلعين ، فان مطلع قصيدة ابن الفارض :

هـل نار ليلى بدت ليلا بـذى سـلم
أم بارق لاح فـى الـزوراء فالعلم
ارواح نعمـان هـلا نسـمة سحرا
ومـاء وجبـرة هلا نهلـة بفـم

ومطلع قصيدة البوصيرى :

أمن تذكـر جيـران بـذى سـلم
مزجت دمعـا جرى من مقلة بدم ؟
أم هبت الـريح من تلقـاء كاظمـة
وأومض البـرق فى الظلماء من اضم ؟

فذو سلم ، وهبـوب الريح ، وايماض البرق مما اشترك فيـه الشاعران مع وحدة الوزن والقافية ، فليس عجيبا أن يجىء شعراؤنـا فى العصر الحديث ، ويسيروا على هذا النهج من اتخـاذ الشـكل والمضمون ، ورائد الشعر الحديث (البارودى) لم يفته أن ينظم بردة واز سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وجعلها بمطلع فيـه العلم وذو سلم ورائـد البـرق قال :

يا رائـد البرق يمم دارة العـلـم
واحـد الغمـام الى حى بذى سلم

وعلى هذا الدرب قال أحمـد شـوقى فى « نهج البـردة » مبتدئا :

ريم عـلى القاع بين البان والعـلـم
احـل سـفك دمى فى الاشهر الحرم

ولكن صاحب البردة الجـديدة الدكتور حسن ابراهيم نزع منزعا آخر تجلى فيه التخلى عن الغـزل

ولواعج الحب ، ونفى عنه هـــذا الاتجاه ، ومع نفيه للغـزل الذى نعده مصنـوعا الا أن العلم وذا سلم وما يتصل بهما جاءا فى مطلع مدحته أو بردته • قال :

ماذبت شـوقا لجيـــران بذى ســـلم ولاارقت لذكـــر البـان والعلـم ومابحت لـــريم القـاع ســـفك دمى فى الاشهر الحل او فى الاشهر الحرم

وزاد على ذلك فأومأ الى مطلع « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وان اتفقت فى الوزن واختلفت فى القافية

وماســـــعاد اذا بـــانت بمتبلـــــة منى الفـؤاد فـان القلب فـى شـبم

لأن كعب بن زهيـر يقول فى مطلع « بانت سعاد » وهى فى مدح الرسول مباشرة أنشدها بين يديه فى مسجد المدينة سنة ثمـــان من الهجرة بعد فتح مكة • قال :

بانت سـعاد فقلبى اليـــوم متبـول متيم اثرهـــا لـــم يفـــد مكبـول

وصاحب البردة الجديدة جمع كل المطالع ، وان نفى الغـزل والتغنى بالأماكن التى جاءت فى قصائد من سبقوه ، وهذه الأماكن حبيبة الى النفس يتشوف اليها المسلم وعلى ذكرها يشتاق ، وكم كنت أود لو أن باحثـــا ــ ولو من ســـكان الحجاز ــ يرسم لنا «خريطة» يبين لنا فيها تلك الأماكن التى ذكـرت حبا فى الرسول وكلفا ببيئته التى نعمت به ظاعنا ومقيما • فحين نقرأ شعر الشعراء الذين تغنـوا بهـا ووصلوها بقلوبهم وآدائهم يجذبنا الشوق لرؤيتها والتعـرف عليها • ألم يهم الشعراء بها ؟ ألم يفتنـوا فى عرضها ؟

وأكبر ظنى أن ابن الفـــارض والبوصيرى يعرفانها أو يعـرفان معظمها ، فقد جاور ابن الفارض فى مكة سنين ، وحج البوصيرى وزار تلك الأماكن ، وقد تحدث عن ذلك فى قصائد شتى ، وعـزوف الدكتور حسن ابراهيم عن الحديث عنها والشوق اليها لا يخليه مـن حبه اياها ، والحنين الى رؤياها ،

لقد ذكرها وان نفى شوقه اليها ، ولذا جاء نفيه داعيا الى الابتسام ، مشيرا الى طبيعة المصرى من خفة الظل ، ولطف الظرف وحلو التناول. فأين اتجه اذن ؟ صرح وأعلن :

انى اتجهت بقلبى نحو بارئه
من مطلع الفجر حتى غيهب الظلم
وسيدى المصطفى ارجو شفاعته
وهو الشفيع لنا من زلة القدم
ان الشبيب علانى فاتعظت به
وكم ارقت لوذرى عبرة الندم
محمد عرك الدنيا بما حفلت
من الصقاوة والنعمى ومن غمم

وكنت أود لو استغنى عن بيت الشيب ، لأنه أقحم فى حديثه عن محمد صلى الله عليه سلم حتى تتلاحم المعانى وتتعانق الأفكار ، والشيب كان واعظا لجميع من صنعوا المدائح النبوية . وبعد فما عناصر تلك البردة الجديدة ؟ وماذا فيها من جديد يشير الى قائلها ويضعه فى هالة بين هؤلاء الذين يقولون زلفى الى الله وحبا فى رسوله ؟ ان العناصر التى حفلت بها لم تخرج عما قاله من سبقوه ، ففيها مولد الرسول وطفولته وأعماله فى شبابه ، ثم بعثته ومعجزته وجهاده ، وفضله على البشرية من حيث العقيدة والشريعة. ونقص عنهم ما قالوه فى الغزل وحديث النفس والهوى ، وان ألمع الى خطته بترك ذلك المنزع .

ولئن قلت هذا فله فيها اجادات لا بد من التنويه بها والكشف عن مزاياها ، لأن الشاعر حالفه التوفيق فجاء ما صاغه كأنه جديد . أجاد فى حدثيه عن العقيدة وموقف الرسول منها وأثر الاسلام فيها ، ففى حديثه عن محمد وموقفه وتحنثه فى غار حراء يقول :

فما تعبد فى يوم الى وثن
ولم يشارك بقربان ولم يهم
بل راح للغار يصفو فى تأمله
وكم تغيب نجم وهو لم ينم
تأمل الفجر يبدو والحياة معا
وكيف تحيا موات الأرض بالديم ؟
وتشرق الشمس للاحياء جالبة
دفء الحياة ويسرى البدر فى الغمم
وهذه الشمس من آرسى دعائمها
فزاحمت شهب الافلاك من شمم ؟
من خالق الروح والانسان هل خلقا
سدى ؟ وماذا وراء الموت من حكم ؟
(جاء الجواب) بجنح الليل فاختجلت
له العروش وكان الفجر للامم

(١) اهتزت

فهذا العرض للكائنات ومحمد يتأملها وحده فى غار حراء ساهدا ساهرا ثم المفاجأة الباهرة « جاء الجواب » أعطى للمنظر مذاقا سائغا يفتح الذهن للتفكير فى ملكوت الله ، واستحضار شخصية الرسول الذى غادر داره ليعيش فى وحشة رغبة فى الوصول الى البينة ، والبينة هى الرسالة بها يستريح فؤاده وتقر عينه ويدفعك هذا المنظر الفريد الى التأمل والاستغراق ومتابعة الشاعر فى ترفقه أو انطلاقه وتدفقه .

ومن الاجادة حديثه عن محمد وقد مات عمه وزوجه ، وهجر أصحابه مكة ليحلوا باذن الله على الأنصار فى المدينة وتعرضه للأذى والتآمر عليه ، تجد فيه قلب شاعر يسيل شعورا لا شعرا . يقول :

فهاجر القوم تترى من ديارهم
يبغون يثرب فى مأوى ومعتصم
ماتت خديجة والاعمام وارتحلوا
واوحشت مكة من بعد فقدهم
ولم يعد لرسول الله من احد
يجيره من عتاة الكفر والنقم

ألست معى أن هذا الشعر يقطر رقة وحنانا ، واشفاقا وارتعاشا أن يصاب النبى بسوء ؟ ان الشعر جمع لك كل ما يملأ قلب الانسان أسى وتفجعا ، ماتت الزوجة والأعمام ، وارتحل الأحباب والأصحاب وبقى وحده يقاوم أئمة الكفر وطغيان الظلم ، هنا شاعرية لا تنكر ، ونبضات لا تغيض ، وصدق يحس ويلمس ويرى .

ومما أجاد فيه أيضا موقف الرسول ممن عادوه وأخرجوه وحاربوه وضربوه وصدوه عن أداء رسالته ، وقد فتح الله عليه مكة ، ونصره نصرا عزيزا ، ووقفت قريش أمامه فى الأسر تنتظر كلمة منه ، وكان المنتظر أن ينتقم ويمزقهم كل ممزق جزاء وفاقا على تنكرهم لقرابته وحربهم له داخل مكة وخارجها ولكنه .

ماجاء مكة تنكيلا بمن كفروا
بل جاء بالهدى والغفران والحرم
مفتال حمزة غدرا نال مغفرة
وهند اكلة الاكباد لم تسم
حتى الغريم ابو سفيان كرمه
وصار منزله فى الامن كالحرم

انها أحاسيس شاعر راعه الموقف النبيل ، فرأى الرسول ارتفع عن مغريات النفس وعما ألفه الناس قديما وحديثا من حب الفتك والبطش بالأعداء ، وهل هناك أشد عداوة من وحشى (١) يغتال أسد الله حمزة عم الرسول وهل هناك وحشية تماثل وحشية هند بنت عتبة وزوج أبى سفيان تلوك كبد حمزة بعد أن بقرت بطنه وشوهت جسمه ؟ وهل ينسى ماقام به أبو سفيان من شن الغارات فى غزوة أحد وغزوة الأحزاب ؟ لكن الرسول عفا عن كل هؤلاء ، بل جعل دار أبى سفيان مأمنا لمن دخلها فسوى بينها وبين المسجد الحرام ، نهاية فى العمل الجميل ، لقد قال لقريش : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهنا يحسن الاقتداء فكانت من الشاعر دفقة شعورية لها أثرها فى القلوب كما كان لفعل الرسول أثره فى اسلام هؤلاء وقيامهم بعده على نشر الرسالة وافتدائها بالمال والأرواح .

وبجانب هذه الاجادات وقعات خانه الأداء فيها ، وقد عالج النظم منذ الصغر ، ولكن القافية أحيانا تكد الشاعر وتوقعه فى المخاطر ، وقد يفعل الوزن ما تفعله القافية فسيضطر الشاعر الى مخالفة النحو والصرف وللنحويين كلام جميل فى تساهلهم مع الشعراء ، فيقولون يباح للشاعر ما لا يباح للناثر ، ولكن للاباحة حدودا ، فليس المباح مباحا فى كل تعبير ، فاذا أخلت الاباحة بالمعنى كانت رزية على فن القول ، وناظم البردة الجديدة ألجأته القافية أن يقول عن طفولة محمد صلوات الله عليه :

جاء الحياة يتيما قبل مولده
وفى الطفولة عانى شقوة اللطم

الشطر الأول معنى صحيح يؤيده التاريخ ، أما الشطر الثانى فهو يباين ما جاء فى كتب السيرة والتاريخ ، فقد كان مولده مصحوبا بالبشرى والبهجة فى البيت الهاشمى ، وكيف لا يكون كذلك وقد كان جده يتحرق شوقا الى

(١) وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم

وليد لابنه عبد الله الذى مـــات شابا ودفـــن فى يثرب ؟ وأنـت تعلم أنه كان موضع العناية مـن عبد المطلب جده الذى لا يدنو من مجلسه فى ظل الكعبة غير حفيـده محمد ، وأنت تعلم حب أبى طالب له وعنايته به حتى أنه كان يفضله على أولاده ، وعمه الزبير بن عبد المطلب كان يضعه فى حجره ويغنى له شعرا فيه اسمـــه والتفـاؤل بمستقبله يقول :

محمـــد بن عبـــدم
عشـت بعيش انعـــم
ودولـــة ومغنـــم
فى فرع عز اســـنم
مكـــرم معظـــم
دام سجيس الازلـــم

والقرآن يقول : « ألم يجدك يتيما فآوى • ووجـــدك ضـالا فهدى • ووجـدك عائلا فأغنى » فمتى لطم ذلك الوليد ؟ أحيـــن يطلب له المراضع أم عندما أخذته أمه الى يثـــرب ؟ أم حين شب وصحب عمه الى الشام ؟ لقد فعلت القافية فعلتها فحادت بالشاعر عن الحقيقة ومسالك الواقـــع ، فاذا أضفنا الى كل أولئك عناية قريش باليتامى فى الجاهلية والاســـلام وقفنا على الحقيقة من أقصر طريق. فلم يلطم محمد ولم ينله الحرمان•

وكنت أود أن ينافس شوقى فى قوله :

ونودى (اقرا) تعـالى الله قائلهـــا
لـم تتصـل قبـل من قيلت له بفـم

فاذا به يقـــول ويقصر عـن المأمول :

جبريل فى الغار قال (اقـرأ) مـدوية
فقال : كيف وما علمت بالقـــلم ؟

ففى بيت شوقى نداء وأمر ، وأمر من الله تعالى ، والأمر بكلمة « اقرأ » التى لم تتصل الا بفـم محمد موكب من الجمال والجلال، والبردة الجديدة ، تقول : جبريل فى الغار دوى آمرا بالقراءة • وهو معنى تاريخى مقبول وكان المنتظر أن يأتى الشاعر بشىء جـديد فى الشطر الثانى لكنه حـكى ما قاله التاريخ بنصه ، شوقى لم يخالف

(١) أبد الدهر

التاريخ ولكنه انفعل به وصوره من خلال وجدانه فجاء رائعا بارعا تقرؤه أو تغنيه أو تصغى اليه .

والوزن أوقعه فى فك ادغام مؤتم فجعله « مؤتمم » وجعله يضم ما قبل واو الجماعة فى الفعل المعتل الآخر بالألف مثل « رأوا » ومثل « ألقوا » فقد ضم ما قبل الواو ، وكانت له مندوحة فى أفعال أخرى ، وأنا لا أقسو على الشاعر حين آخذ عليه تلك الهفوات ، وانما انظر الى عمله نظرة الاكبار ولأن تلك القصيدة ستأخذ مكانها بين المدائح النبوية ولا بد للنقد أن يقول كلمته ، وقد يعاود الشاعر اصلاحها بعد أن يقرأ نقدها ، فقديما أصلح اليثربيون الأقوياء للنابغة الذبيانى ، فلم يغض هذا من مكانته وزعامته ، وما خلق النقد الا للبناء والتقويم .

وقد جاءت تلك البردة فى (١٢٤ بيتا) وقد كان فى مكنته أن يمد فى معانيها لتبلغ مبلغ البردة للبوصيرى أو نهج البردة لشوقى ، فيستلهم معانى أخر تناسب عصره ، أو يكشف أمرا لم يتناوله من سبقه حتى الحكمة عنده جاءت قديمة ، فمن حكمه :

ان الافاعى قد تنوس قاتلة
طى الجحود اذا لم تؤذ بالشرم(١)

على أنه معنى لا يؤدى الى استئصال الشرك أو توهين حدته ، وكان له من ابتكارات العصر مطارح لاقتناص الحكم .

ومع كل ما قلناه فهذه المدحة الجديدة أو البردة الجديدة اضافة مجيدة تدل على ايمان قائلها وحبه لسيد الخلق ، وتصوفه فى اتباعه وطرائق تعبده ، وتدفع الشعراء الى أن يقبلوا على السيرة النبوية ويستوحوا منها ما يزكى شاعريتهم ويعطونا منها صورا روحية تعمق الايمان ، وترقق الوجدان ، وتضع القدوة نصب العيون منظورة ، ومن ناحية أخرى تعيد للعمود

(١) خلع الانياب

الشعرى مكانته ، فقد كدنا ننأى عنه ، ونفر منه ، ونجعل الشعر مقطوعات أو سطورا مقفيات ، أو غير مقفيات بل يعود الى القصائد الطويلة التى تتخذ الوزن الموحد والقافية الموحدة ، والفن أساسه القيد فاذا تحلل طلبا للحرية كانت الفوضى والانحراف.

ان الشاعر نظمها ابتغاء رضوان الله وحبا فى رسوله ، ورجاء لشفاعته ، فلتكن فى ميزانه يوم تبلى السرائر ، ونقول معه فى خطاب ربه :

سألتك العفو ربى اننى بشر
جم الذنوب وأنت الواسع الكرم

الاستاذ السيد حسن قرون

والسنن الاسلامية التى ربت عائشة واسماء وسكينة ونفيسة ، لاتزال قادرة على أن تربى مثلهن اذا اقيم على قواعدها السماوية نظام البيت ومنهاج المدرسة وشريعة الوطن . ان المسلم الحق قد ينزل عن طبقته فيشكر ، وقد يخرج من جنسيته فيعذر ، ولكنه ابدا لايفسق عن أمر ربه ، وفى قلبه نور وفى ضميره حياة .

من كتاب وحى الرسالة للمرحوم احمد حسن الزيات

بمناسبة الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري :

ماذا قدم الأزهر والأزهريون للعلم والدين ؟

بقلم : الدكتور محيي الدين الألوائي

... ماذا قدم الأزهر والأزهريون للعلم والدين ؟

... وما هى مكانته فى العالم الاسلامى ؟

... وماذا كانت غايته فى تاريخه المديد ؟

... وما هى الخطوات التى اتخذها فى سبيل خدمة الدعوة الاسلامية ؟

هذه أسئلة تشغل اليوم ذهن كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وان المسلمين جميعا ـ على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعاداتهم وثقافاتهم ـ يتطلعون الى هذه الجامعة التى هى أكبر وأقدم جامعة اسلامية على وجه الأرض ، ولها سجل تاريخى وضاح الجبين مشرق الغرة فى نشر أشعة العلم والعرفان فى أقطار العالم ، وحفظ اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى عصر التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربى على الأقطار الاسلامية ، وفى مقاومة شتى تيارات الالحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة ودعاة الفوضى وانحلال .

وهى الجامعة التى عالجت علوم الدين والآداب العربية عبر القرون ، ويسرت سبلها وأكثرت كتبها وخرجت فطاحل علماء الاسلام والأدب العربى ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها وفيّة بأماناتها ، وأمدت العالم الاسلامى فى الشرق والغرب بما هو فى حاجة اليه ، فاتجهت

اليها أنظار المسلمين جميعا ، خصوصا بعد سقوط بغداد واتلاف كتبها وذخائر مكاتبها العلمية ، فبدأ طلاب النور والعرفان يفدون الى حظيرة الأزهر من كل فج عميق • وهو الآن ملتقى آلاف الطلاب من أنحاء العالم ، كما أنه مصدر آلاف العلماء الى مختلف القارات ، ومركز الدعوة الاسلامية الى شتى الأمم والشعوب •

واذا زرت كليات جامعة الأزهر ومعاهده وأروقته تجد هناك مظهرا عاما لثقافات عديدة ولغات مختلفة وأجناس شتى ، وترى فيها مظهرا عاما أيضا للعالم الاسلامى كله • فانه لمصداق بين للمبدأ الذى يتخذه الأزهر رمزا لرسالته هو :

« العلم رحم بين أهله »

وما كانت غاية الأزهر فى تاريخه الطويل الا أن يكون دائرة فى مجال تبليغ رسالة الاسلام ، وهذه الرسالة هى أجل ما تتطلع الانسانية فى كل مكان الى بلوغه والانتفاع بثمراته ، وتلخص هذه الرسالة فى أمور ثلاثة :

الأمر الأول : مطاردة الشك والحيرة والزعزعة فى المجتمع الانسانى ، فمهد الأزهر للناس طريق الطمأنينة النفسية والاستقرار •• وأزاح عن كواهلهم أعباء الحيرة والقلق بطريق نشر عقيدة الاسلام الفطرية فى سماحتها وبساطتها ويسرها •

الأمر الثانى : الدعوة للناس الى أن يتحرروا من أثراتهم ونزواتهم ليكون لهم أن يتحرروا من قاهريهم ومستعبديهم ، فحمل الأزهر راية الحرية الحقيقية والكرامة الانسانية ، حتى كان ملاذا لعامة الشعب يهرعون اليه فى الأزمات ، ملتمسين من علمائه الارشادية والتوجيه ، وكثير ما كان علماء الأزهر يقفون فى وجه الطغاة والمستبدين من الحكام الأجانب الباطشين ، وكان دافعا قويا فى المجتمع الانسانى الى أن يتحرر المستعبدون وأن يستردوا كرامتهم الانسانية فى جميع المجالات •

الأمر الثالث : دعوة الناس لأن يحتقروا عصبيات اللون والجنس ، فان الناس جميعا لآدم وآدم من تراب • واذا كان لابد للناس أن يتفاضلوا ، فعليهم أن يتفاضلوا بما يقومون به من جليل العمل ، وما يقدمونه للانسانية من الخِدم ، وان الأزهر كان دائب الهتاف بالناس أن يستمعوا الى قوله تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » •

ولهذا كان الأزهر موطن الأمل ومعقد الرجاء للشعوب الاسلامية فى مختلف الأقطار ، وان جميع المخلصين يتطلعون فى ثقة وايمان الى هذه الجامعة الخالدة ، لأن تقدر على خدمة الاسلام والمسلمين ، بل والانسانية جمعاء ، وأن تعد المسلمين لاسترداد أمجادهم العظيمة والاستعداد للدور القيادى الكبير الذى أعدهم له ، محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

والثورة المصرية ، قد امتدت يدها الى الأزهر ، فأزالت من طريقه العقبات ، ومهدت أمامه السبل ومنحته الامكانيات بفضل القانون الثورى الصادر برقم ١٠٣ لعام ١٩٦١ الذى فتح أمامه أبواب المستقبل المجيد الجدير بهذه الجامعة العريقة ورسالتها العالمية الخالدة •

ولهذا سأقوم بتطواف سريع حول هذه الجامعة الاسلامية الكبرى ومكانتها فى العالم الاسلامى ورسالتها وخدماتها وموقف علمائها من القضايا التى تهم الاسلام والمسلمين ، بل والمجتمع الانسانى كله فى كل زمان ومكان ، ليكون نبراسا لكل من يريد الوقوف على الغاية الشريفة التى تسعى الى تحقيقها هذه الجامعة • ودحضا وتفنيدا لأباطيل وأهواء جاحدى الحق ومنكرى الفضل ، والحاقدين على جلائل الخدم التى بها أخرجت هذه الجامعة بشرا كثيرا من ظلمة الى نور ، واستنقذتهم من شر الى خير • وبعثت الموتى أحياء وردت

العبيد أحرارا • فما أكرم ثمرها وأتم نعمها ! وأبين نفعها !

ان تاريخ الأزهر هو تاريخ الثقافة الاسلامية منذ القرن الرابع الهجرى الى اليوم • واذا كانت مصر قد وضعتها الأقدار فى هذا الموقع الخطير على خريطة العالم ، حيث تقع مركز اتصال بين القارات ، ترسل أشعتها الثقافية والحضارية الى شتى أنحاء العالم ، شرقيه وغربيه ، فان الأزهر قد لعب فى هذا المكان ــ ولا يزال يلعب ــ دورا رائعا عظيم الأثر فى الفكر الاسلامى ، بل والفكر الانسانى ، يرسل دعاته وأفكاره فى كل اتجاه ينشر العلم والمعرفة • وقد وقف الأزهر ألف سنة أو تزيد ، يصارع الحوادث ويناضل الأحداث ، وقد أصبح الأزهر بحق ممثلا للفكر الاسلامى ولتاريخ المسلمين • واتسع نشاطه فشمل السياسة ووقف حارسا أمينا يدافع عن استقلال الشعوب ويصرخ فى وجوه المعتدين على حرمات الانسانية •

وضع أساس الجامع الأزهر فى ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧١ م) تحت اشراف جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، وتم بناؤه فى سنتين ، وفتح الجامع الأزهر للصلاة لأول مرة فى رمضان سنة ٣٦١ هـ • فلم يلبث أن تحول الأزهر الى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعصرية ، ويجتمع فيها طلاب العلوم من كافة الأقطار • وكان الخلفاء الفاطميون حريصين على الاهتمام بهذا المعهد الكبير وتزويده بكثير من الكتب ، وتخصيص موارد باهظة للانفاق على طلابه والوافدين عليه ، وبقى الأزهر منذ انشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى وكان الخليفة بنفسه يؤم الناس فى صلاة الجمعة ، وعيدى الفطر والأضحى ، التى تقام فيه • وقام الأزهر بدور كبير فى اذكاء الحركات القومية فى مصر فى العصور القديمة والحديثة • وقد تجلت زعامته الشعبية بأروع مظاهرها أيام الاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨ م ــ ١٨٠١ م) حيث

تولى شيوخه وطلابه قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها • وقد احتمل الأزهر خلال تلك الحوادث العصيبة أعظم التضحيات •

وكان الأزهر ورجاله يغذون كل الثورات الوطنية بخطبهم وكتاباتهم • ويتركون أثرا فعالا فى تكوين شخصيات ثورية ، مثل « أحمد عرابى » قائد الثورة العرابية الذى تلقى علومه فى الجامع الأزهر أربع سنين، والسيد «عمر مكرم»، والشيخ « محمد عبده » وغيرهم من الذين مهدوا للثورة فى نفوس الناس ، وأثاروا العقول لمحاربة الجهل والظلم والعدوان •

وجدير بالذكر أن الزعيم الشهير « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ المصرية كان من رجال الأزهر ، وقد تخرج من الأزهر قبل دراسته الحقوق ، ويعتبر « سعد زغلول » من المكافحين الذين حاولوا اعادة العزة والكرامة لطبقات عامة الشعب •

ومنذ عام ١٩٦١ دخل الأزهر فى دور فعال جبار فى المجال العلمى والعملى ، حيث جرى تطوير الأزهر تطويرا يتهيأ به لأبناء المسلمين جميعا من العلم والمعرفة ، ويضيف الى الخير التالد فى رسالة الأزهر العلمية خيرا جديدا فى رسالته العملية ، لكى يعالج شئون الدين والدنيا ، ويخدم الانسان بمعنييه جميعا ، روحه وجسده • لأن الاسلام له جانبان جانب روحى وجانب مادى ، فالأول يخدم الناحية الروحية فى الانسان ، والثانى يخدم الجانب المادى فيه ، من النواحى الاجتماعية والصحية والزراعية والهندسية والاقتصادية وغيرها •

ومن أكبر ما اهتم به هذا التطوير انشاء « جامعة الأزهر الحديثة » وفتح الكليات العملية بها وكلية خاصة للبنات بشعبها المختلفة من علوم اسلامية وطب وأدب وفلسفة وعلوم • وجامعة الأزهر لن تختلف غايتها عن غاية الأزهر الشريف فى تاريخه المديد الا من تغيير الخطط وتعديل الوسائل بقدر ما تتطلبه الحياة المتطورة ، ولن ينحرف طريقها عن

طريق أبيها الجليل « الجامع الأزهر » . فان التاريخ الصحيح يقول : ان الأزهر كانت تدرس فيه ، فى أبهائه وصحونه ، الى جانب التفسير والحديث والفقه والأدب ، علوم الفلك والهيئة والميقات والطب والرياضة والحساب . وكانت تعقد فيه حلقات العلم للنساء . ويذكر التاريخ أن سيدة فضلى تقدمت فعلا لنيل شهادة « العالمية » الأزهرية .

وأما تطوير الأزهر فخطوة جديدة تتهيأ له بها دراسة الطب والهندسة والزراعة والتجارة ، وغيرها من العلوم الكونية والفنون العملية ، كما أنه يهيىء الفرصة للبنات من العلم والمعرفة ما قد تهيأ للبنين . كلية البنات الأزهرية ، نواة لجامعة اسلامية للبنات ، لكى يقدر الأزهر بمختلف هيئاته ومعاهده وكلياته على اسداء الخير النافع العام الى العالم الاسلامى كله ، والى الانسانية جمعاء .

والأزهر جزء بارز فى كيان المجتمع الاسلامى ، وهو تراث مجيد يعتز به كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يجاهد فى ميادين العلم والدين والاصلاح الاجتماعى والخلقى ، والسياسة فى العالم العربى والاسلامى ، ولولاه لجف الأمل وانطفأ النور فى ميدان العلم والمعرفة فى هذا العالم ، فى عصر الظلمات والركود ، وأما جمهورية مصر العربية ، فمدينة للأزهر ، فأصبحت بفضله منبرا تفيض منه أسمى الأبحاث الاسلامية والفكرية ، وقاعدة للاشعاع الثقافى الاسلامى ، وقد أسرعت مصر الفتية التى اعترفت بمكانة الأزهر فى العالم الاسلامى وجهوده فى سبيل العلم والأدب ، فمدت يدها بالعون له بكل الوسائل الممكنة ليقوم برسالته على أحسن وجه حتى يتبوأ مكانته اللائقة به كمبعث حضارة روحية ومادية ، وقلعة حصينة للعروبة والاسلام ، ومصدر رجال الفكر وزعماء الاصلاح يحملون أمانة

الرسالة الاسلامية ، ويكونون ورثة الأنبياء .

وأما دور الأزهر القيادى فى عشرة قرون ، فقد حمى العالم الاسلامى من الانهيار أمام جحافل الصليبيين وأمام طغاة الحكام وعدوان المستعمرين ، كما انفرد به عن جامعات العالم الأخرى بخصائص لم تتيسر لغيره من ميزات تربوية وثروات فكرية عالمية وأساليب علمية لغرس حب البحث والدرس للطلاب وتعويدهم على الجد فى طلب الكمال . هذا بالاضافة الى مابذل علماؤه وطلابه من جهود فى سبيل اعلاء منار الاسلام والمحافظة على تراثه المجيد . وقد ظل الأزهر — وسيظل — يؤدى رسالته على أكمل وجه ، ويقوم بأجل الخدمات للعالم الاسلامى فى جميع العصور ، ويرسل أشعة العلم والعرفان فى أقطار العالم ، ويبقى مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الاسلامية من مختلف الأمم والشعوب .

ان الأزهر هو الهيئة الاسلامية العامة الكبرى فى العالم ، تقوم على حفظ التراث الاسلامى ودراسته ونشره ، وتحمل أمانة الرسالة الاسلامية الى مختلف الأمم والشعوب فى وجه الأرض ، وتعمل على بعث الحضارة العربية وتقدم الآداب والعلوم والفنون المختلفة ، وكذلك تزود العالم بعلماء الشريعة الاسلامية واللغة العربية الذين يعملون فى سبيل نشر القيم الروحية والأهداف الانسانية القويمة فى الجنس البشرى . وفى عام ١٩٦١ صدر قانون تطوير الأزهر المعروف بقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وقد مكن هذا القانون الأزهر من القيام بدور عظيم فى تاريخ الاسلام ، وفى تاريخ العلم وفى تاريخ الجهاد ضد الاستعباد والاستغلال والاستعمار . وقد أصبح الأزهر بفضل هذا القانون مشعل نور الاسلام فى بلاد كثيرة من أفريقيا ومن آسيا ومن أوربا ومن أمريكا . وقد انفسح مداه واتسع نطاقه .

ويبدو مدى الاصلاح الجذرى الشامل الذى ناله الأزهر بفضل هذا القانون الاصلاحى من المبادىء

التى يقوم عليها هـذا القانون ، وهذه هى المبادىء الرئيسية :

١ ــ أن يبقى الأزهـــر وأن يدعم ، ليظـل أكبـر جامعـة اسلامية ، وأقدم جامعة فى الشرق والغرب .

٢ ــ أن يظـل كما كان منـذ ألف سنة حصنا للدين والعـروبة يرتقى به الاسلام ويتجدد ويتجلى فى جوهره الأصيل ، ويتصل نطاق العـلم به فى كل مستوى وفى كل بيئة ويذاد عنه كل ما يشوبه وكل ما يرمى به .

٣ ــ أن يخرج علماء قد حصلوا كل ما يمـكن تحصـيله من علوم الدين وتهيئوا بكل ما يمكن من أسـباب العـلم والخبرة للعمـل والانتاج فى كل مجال من مجالات العمل والانتاج .

٤ ــ أن تتحطـم الحـــواجز والسـدود بينه وبين الجامعـات ومعاهـد التعليم الأخـرى وتزول الفـوارق بين خريجيـه وسـائر الخريجين فى كل مستوى وتتكافأ فرصهم جميعا فى مجالات العلم ومجالات العمل .

٥ ــ أن يتحقق قدر مشترك من المعـرفة والخبرة بين المتعـلمين فى جامعة الأزهر والمعـاهد الأزهرية وبين سائر المتعلمين فى الجامعـات والمدارس الأخرى ــ مع الحرص على الدراسات الدينية والعربيـة التى يمتاز بها الأزهر منذ كان ــ لتتحقق لخريجى الأزهر الحـديث وحـدة فكرية ونفسية بين أبنـاء العالم العربى والاسلامى ، ويتحقق بهم نوع من الخـريجين مؤهـل للقيادة فى كل مجال من المجـالات الروحية والعلمية .

وعلى أسـاس هـذه المبـادىء احتفظ قانون التطـوير الجـديد لهذا المعهد العظيم بكيانه وصنعته وخصـائصه العلميـة ، وقـد قام الأزهر بدور عظيم قرونا طويلة فى مكافحة كل المحاولات الاستعمارية لتلوين أفكار المسلمين وعقائدهم ، ووضـع موازين جـديدة وقيمـا جديدة فى نفوسهم ، يمـكن أن تبـاعد بينهم وبين الاسلام ، ولكن طبيعة المقاومة فى نفوس المسلمين ، والتزام الأزهر الوقوف فى وجـه كل محاولات العدوان ، قـد رد

كيد الكائدين ، وحفظ التراث الاسلامى والعربى ، وشع من الأزهر ثورة فى بلاد كثيرة ، وقد اكتسب المنتسبون اليه احتراما ، واتجهت قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى هذه الجامعة الاسلامية الكبرى للتزود من أسباب المعرفة .

ولم يكن دور الأزهر مقصورا على العلوم الدينية واللغوية كما يظن البعض ، فان الاسلام لايفرق بين المعارف والعلوم ، بل هو يجمع بين الدنيا والدين ، وبينَ الأرض والسماء ، وبين المطالب المادية والسبحات الروحية ، ويقرر أن طلب العلم على اطلاقه فريضة على كل مسلم ومسلمة . ولهذا كان علماء المسلمين فى عصر ازدهار الاسلام يدرسون جميع أنواع العلوم والفنون ، فكان منهم الفقيه والطبيب والفلكى والمهندس ، والعالم الطبيعى والكيميائى والجغرافى ، والمؤرخ والرحالة ، والرياضى ، وكان هذا يتجلى فى علماء الأزهر على نطاق يختلف قلة أو كثرة بحسب اختلاف العصور ، وكانوا يسمون علم الفلك ، بعلم الهيئة ، ويسمون علوم الأحياء « بعلم المواليد » والكيمياء « بعلم التركيب » . وظل علماء الأزهر يحرصون على دراسة هذه العلوم حتى فى أشد عهود التدهور والجمود .

ولا يخفى على من تتبع تاريخ الأزهر ، أن علماءه قد اسهموا فى جميع المعارف والعلوم بالدرس والبحث والتأليف ، سواء فى العلوم الدينية واللغوية ، وكذلك فى المنطق والحساب والهندسة والجبر والفلك . ولما بدأت النهضة العلمية فى مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعا الا فى رحاب الأزهر ، فقد كان معظم المبعوثين من مصر — مثلا — الى أوربا من رجال الأزهر ، وقد عادوا بعد أن تخصصوا فى مختلف العلوم والفنون ، فوضعت أسس النهضة العلمية والفنية والثقافية فى هذه البلاد ، وكان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا أساس النهضة الحديثة فى مصر ، وأساتذة جامعة القاهرة وبقية الجامعات

ومدرسة الألسن ومدرسة القضاء الشرعى وكلية دار العلوم وغيرها من مراكز الثقافات ودور العلم التى تفرعت من دوحة الأزهر الشريف .

وان الاستعمار ـ بأساليبه العديدة ووسائله المختلفة ـ قد نجح الى حد كبير ـ فى أن يفوق حركة الأزهر المطردة واستطاع أن يحدث فجوة بين العلوم الدينية واللغوية ، وبين العلوم الأخرى ، وكاد الانعزال يتم بين علماء الأزهر ، وعلماء الجامعات الأخرى ، فنادى زعماء الاصلاح فى العصر الحديث بعلاج هذه الحال ، فان الغرب يعرف ، كما يعرف أبناؤه ، أن العلوم الحديثة العصرية اسلامية فى نشأتها وتقدمها ، وأن الغرب استعارها من المسلمين ، وتقدم كثير من المصلحين فى هذا الميدان ، وتوالت الصيحات فى كل مكان ، وقد تكررت محاولات لتجديد الأزهر وتطويره بحيث يتفق ومكانته وأثره فى العالم العربى والاسلامى ، مع الاحتفاظ بطابعه وخصائصه وصفته التى استحق بها أن يبقى مسيطرا على تاريخ العرب والمسلمين أكثر من ألف سنة ، ولكن هذه المحاولات المبذولة منذ أكثر من نصف قرن لم تنفذ الى صميم المشكلة ، ولم تحاول علاجها جذريا . وأما القانون الخاص باصلاح الأزهر فوضع على أساس تقرير المبادىء اللازمة لكل اصلاح جذرى شامل .. وبناء على هذا القانون ظهرت الهيئات الخمس الأزهرية للنور ، وهى :

١ ـ المجلس الأعلى للأزهر .

٢ ـ مجمع البحوث الاسلامية

٣ ـ جامعة الأزهر .

٤ ـ ادارة الثقافة والبعوث الاسلامية .

٥ ـ المعاهد الأزهرية .

وجدير بنا أن نورد بعض المعلومات عن كل من هذه الهيئات الأزهرية المتفرعة من الجامع الأزهر الشريف ، الذى له يد طولى فى خدمة الاسلام والمسلمين ، واحتضان العلوم الاسلامية واللغة

العربيـة ، منـذ أكثـر من ألف سنة .

فأمـا المجلس الأعلى للأزهـر ـ فهو الهيئة التى تقوم بتخطيط سياسة شئون الأزهر فى هيئـاته المختلفة ويشترك فى عضويتها الى جانب شيخ الأزهر ، كبار العلماء المتخصصـين فى التعـليم وفى الادارة .

وأما مجمع البحوث الاسلامية ، فهو الهيئة العليا للبحوث الاسلامية .. ويقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقـافة الاسلامية وبيـان الرأى فيما يجد من مشكلات فقهيـة ، كما يقوم المجمـع بنشر التـراث الاسلامى ، وايفاد المبعـوثين الى مختلف أنحاء العالم للمحـاولة فى توجيـه الدراسـات الاسلاميـة والعربية فيها .

وأما ادارة الثقـافة والبعـوث الاسلامية ، فهى تحمل مسئوليات البعـوث الاسـلامية الوافدة من الخارج ، كما تقـوم بتهيئة أسباب البحث والدراسة فى الموضـوعات التى تتصـل باختصاصات مجمع البحوث الاسلامية ، ثم تضع نتائج هذه البحوث والدراسات موضع الانتفـاع العـام .

وأما المعاهد الأزهـرية ، فهى المعاهد الابتدائية والثـانوية التى تسير على نظام دراسات أزهـرية يتهيـأ فيهـا الطـلاب الى جانب دراساتهم الدينية والعربية للحصول على الشهادات الاعدادية والثانوية بأنواعها المختلفة . وهذه المعـاهد منتشرة فى جميع محافظات جمهورية مصر العربية ، كمـا تجـرى الآن الاجراءات اللازمة لفتح مثيلاتهـا فى أنحاء العالم العربى والاسلامى ، لكى يعد لكليات جامعة الأزهـر ـ على اختلافها ـ طلاب مزودون بحظ من الثقافة الاسلامية والعربية الى جانب المعارف والخبرات التى تتيح لهم الاستمرار فى الدراسات الجامعية . ومن هنـا نستطيع أن نقول ان نظام المعاهد الأزهـرية ، أو ما يعادلهـا هو نواة لجامعـة الأزهر الكبرى .

وأبرز هيئات أزهرية ظهرت الى حيز الوجود بفضل هـذا القانون

« جامعة الأزهر » الحديثة مع كلياتها الجديدة ومعاهدها العديدة ومبانيها وتجهيزاتها الضخمة ، فقد وضع مشروع جامعة الأزهر على أساس تحقيق المبادىء الآتية :

١ ــ الاهتمام ببعث التراث العلمى والفكرى والروحى للشعوب الاسلامية والعربية .

٢ ــ العمل على تزويد العالم بالعلماء الذين يجمعون الى التفقه فى الشريعة الاسلامية ولغة القرآن كفاية علمية وعملية ومهنية تؤهلهم للمشاركة فى كل أنواع النشاط والانتاج والزيادة والدعوة الى سبيل الله .

٣ ــ الاعتناء بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية والاسلامية والعربية والأجنبية .

وبغية تحقيق هذه الغايات المنشودة قد نص قانون تطوير الأزهر على ضرورة انشاء الكليات التالية فورا ، مع جواز انشاء كليات أخرى كلما دعت الحاجة ، وقد فتحت فعلا ــ الى جانب الكليات الأزهرية القديمة ، كلية أصول الدين ، وكلية الدراسات العربية ، وكلية الشريعة ، ــ كليات الطب والزراعة والهندسة ، والادارة والمعاملات ، وكلية البنات الاسلامية .

وجدير بالذكر أن كليات جامعة الأزهر تمتاز عن مثيلاتها فى الجامعات الأخرى ، بميزات عديدة لا تتحقق الا فيها ، لأن كليات الجامعة الأزهرية تحقق للطالب الى جانب الثقافة المهنية والدراسة الفنية التى يحصلها نظراؤه فى الكليات المماثلة فى الجامعات الأخرى ، ثقافة دينية عميقة والماما بمواد الدراسات الاسلامية واللغة العربية ، فاذن تحقق للطالب الأزهرى مع الصفة الجامعية العامة ، صفة خاصة بجامعة الأزهر . وليس هذا النظام مستحدثا فى تاريخ الأزهر والجامعات الاسلامية ، فان أعظم علماء الطب والكيمياء والرياضة فى الماضى . كانوا علماء فى الدين ، ومنهم ابن سينا والفارابى وابن الهيثم وآخرون .

ونظرا لمكانة جامعة الأزهر كجامعة للمسلمين جميعا ، ورعاية للميزة الخاصة التى تمتاز بها عن الجامعات الأخرى فى العالم ، أصبحت تابعة لرياسة الجمهورية مباشرة ، مستقلة عن الجامعات الأخرى .

ان قانون تطوير الأزهر ومذكرته الايضاحية هما وثيقتان هامتان فى تاريخ جامعة الأزهر ، وقد ورد فى مادة ٣٣ من القانون : تختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالى فى الأزهر وبالبحوث التى تتصل بهذا التعليم أو تترتب عليه أو تقوم على حفظ التراث الاسلامى ودراسته وتجليته ونشره . وتؤدى رسالة الاسلام الى الناس وتعمل على اظهار حقيقته وأثره فى تقدم البشر وكفالة السعادة له فى الدنيا والآخرة ، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى والروحى للأمة العربية ، كما تعنى بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الاسلامية والعربية والأجنبية .

وتقول مادة ٣٧ من القانون : « اللغة العربية هى لغة التعليم فى جامعة الأزهر ، ما لم يقرر مجلس الجامعة فى أحوال خاصة استعمال لغة أخرى ، وتتساوى فرص القبول للتعليم بالمجان فى كليات الجامعة ومعاهدها المختلفة للطلاب المسلمين من كل جنس وكل بلد .

وتنظم الدراسات الخاصة لطلاب البعوث من غير مواطنى جمهورية مصر العربية ، ليتأهلوا لمتابعة الدراسة فى الكليات والمعاهد مع نظرائهم من الطلاب العرب .

وبموجب هذا القانون خطت جامعة الأزهر خطوات جليلة تتهيأ لها بها دراسات الطب والهندسة والزراعة والتجارة والمعاملات وغيرها من العلوم العملية التى كان الأزهر يهتم بها حين انتقلت الى أروقته وصحونه حلقات الفقه والأدب الى جانب علوم الفلك والهيئة والميقات والطب والمواليد والرياضة والحساب . وكانت التقاليد العلمية(١) فى بلاد الدنيا كلها

(١) فى الازهر أساسا للنظام الجامعى والتقاليد الجامعية ..

ـ ولكن الثقافة الاستعمارية التى حاولت أن تباعد بين المسلمين وبين تعاليم الاسلام الحقة ، وأن تضع فى نفوسهم موازين جديدة تخرجهم عن دينهم الحنيف ، فأوقعت تلك الثقافة الاستعمارية الماكرة فى أذهان كثير منهم ، أن الاسلام عبادة وقربى الى الله وفناء فى الله ، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض معه ، فلم يكن الأزهر فى مَنجاة تامة من هذه الحبائل الاستعمارية ، فأريد له ـ أيضا ـ أن ينصرف عن العناية بالجانب المادى للانسان ، لكى ينصرف الى العناية بالجانب الروحى فقط ، مع أن الأزهر اذ يبلغ رسالة الاسلام ، كان دائب الهتاف بالناس أن الله تعالى خلق الانسان لحما ودما ، ثم نفسا وروحا ، لكل منهما خصائص ومطالب ، فالاسلام له جانبان : جانب روحى وجانب مادى ، والأول يخدم الناحية الروحية فى الانسان ، والثانى يخدم الجانب المادى للانسان من النواحى الاجتماعية والزراعية والصحية والهندسية وغيرها .

وعلى هذا فالاسلام فى حقيقته الأصيلة لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا ، لأنه دين اجتماعى ينظم سلوك الناس فى جميع مرافق الحياة البشرية ، وهو يفرض على كل مسلم أن يكون رجل دين ورجل دنيا فى وقت معا ، ولكن المتآمرين على الاسلام والمسلمين أرادوا للعالم الاسلامى رجال دين ، لا يكادون يتصلون بعلوم الدنيا اتصال النفع والانتفاع ، وكانوا يستهدفون من وراء ذلك ايجاد الفرقة بين صفوف المسلمين ، وخلق صورة الانعزال بين رجال الدين وبين المجتمع الذى يعيشون فيه ، فنشأت مشكلات كبيرة وعديدة فى نفوس خريجى المعاهد الدينية ـ على حد تعبيرهم ـ وبين خريجى المعاهد العلمية العصرية ، وكانت لها آثار كبيرة فى نفوس هؤلاء وأولئك ، فمثلا ان خريج الأزهر حين لم يتهيأ لعمل من أعمال الخبرة والانتاج والصناعة والتجارة يوهم

المستعمر المجتمع ، أن عالم الدين مآله التعطل والانعزال عن الدولة والمجتمع ، فيكون سوء ظن بعض المسلمين ببعض ، ويتكون بعض صور الانقسام بين المجتمع الاسلامى .

وقد تضاعف هذا الضرر بانصراف الأزهر نفسه عن العناية بالعلوم الكونية والفنون المعملية ، فانه وجد نفسه معزولا ـ أو شبه معزول ـ عن المجتمع ، أو منعزلا عنه ، لا يشارك من قريب أو بعيد فى زراعة أو صناعة أو تجارة أو شىء مما يتصل بتصرف الانسان على هذه الأرض من أجل معاشه ، واذن فلم يكن بد من تطوير الأزهر تطويرا يتهيأ به للمسلمين جميعا من العلم والمعرفة فى المجالات النظرية والمعملية ، وبذلك يكون له أن يؤدى رسالته فى المجال المادى وفى المجال الروحى ، كما يكون له أن يعالج شئون الدين بروح الدنيا ، وشئون الدنيا بروح الدين ، وأن يقوم بخدمة الانسان بروحه وجسده .

وهكذا صدر قانون انشاء جامعة الأزهر فى عام ١٩٦١ محققا لكل ما يرجوه المجتمع الاسلامى المتطور من احتياجات ومطالب النهضة العلمية والفنية والمعملية .. الخ .. وبعد أن ظهرت جامعة الأزهر للنور مع كلياتها الجديدة ارتفع شأنها وعم نفعها وزادت ميزانيتها زيادة مستمرة سنة بعد أخرى نظرا للتوسعات الكبيرة فى انشاءات الجامعة استكمالا لمبانيها ولجهازها العلمى والادارى والفنى .. وقد وضع حجر الاساس لمبانى الجامعة الجديدة ، فى أرض الجامعة بمدينة نصر بالعباسية ، على بعد خمسة أميال من مقر الجامع الأزهر الشريف التليد فى مارس ١٩٦٤ بحضور كبار العلماء والزعماء المسلمين يمثلون العالم الاسلامى فى أنحاء الدنيا الذين حضروا الى مصر للاشتراك فى المؤتمر الأول العام لمجمع البحوث الاسلامية للازهر .

ويقوم الأزهر اليوم بتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والانتاج والزيادة والقدرة

الطبية ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ...

وفى ضوء هذه الغاية المنشودة ظهرت جامعة الأزهر للنور مع كلياتها الجديدة للطب والهندسة والادارة والمعاملات والتجارة ـ وكلية خاصة للبنات الى جانب كليات أصول الدين والشريعة والقانون والدراسات العربية . وسنفرد لكل من هذه الكليات كلمة خاصة :

كلية أصول الدين : تهدف هذه الكلية الى تخريج علماء متمكنين فى العقيدة الاسلامية وأصولها والقرآن الكريم وعلومه وتفسير القرآن وطرائقه ، ويدرس فيها أيضا الحديث وعلومه وعلم الكلام والفلسفة ، وعلوم الدعوة والارشاد وطرقها ، وما يتصل بها من علوم الاجتماع والأخلاق والنفس والخطابة العلمية والعملية .

كلية الشريعة والقانون : وتهتم هذه الكلية بدراسة الفقه الاسلامى وتاريخه ، وأصول الفقه والاستنباط الفقهى ، وأصول الشريعة الاسلامية ، كما تهتم بدراسة القوانين الوضعية والمقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية .

كلية الدراسات العربية : وتضم هذه الكلية أكبر نسبة من الطلاب المصريين الوافدين فى كليات الجامع الأزهر وتدرس فيها قواعد اللغة العربية ، ونحوها وصرفها وفقهها وبلاغتها ، كما تدرس فيها آداب اللغة العربية قديمها وحديثها والأدب المقارن ، هذا الى جانب اللغات الشرقية والغربية .

كلية الطب : ان الغرض من انشاء هذه الكلية تخريج أطباء يهتمون بالنواحى النفسية والانسانية والروحية بالاضافة الى اهتمامهم بالعلاج البدنى ، فان رسالة طبيب الأزهر ، رسالة مزدوجة ـ كما قال أول عميد لكلية طب الأزهر ، الدكتور على مطاوع ، مفتتحا الدراسة لأول مرة فى هذه الكلية ـ لأنه بجانب رسالته الانسانية فى تخفيف آلام المرضى ومكافحة الأمراض والعمل

على زيادة الانتـاج بتوفير الأيدى العاملة وتقليل عدد الغـائبين عن العمل لأسباب مرضية وتقصير مدة غيابهم ما أمكن ، واعطاء العاملين الراحة النفسية والاطمئنان ،كما أن له رسالة أخرى هى الدعوة الى الله والى الخُلق الـكريم ، والتمسك بأهداف الفضيلة ، وسلوك الطريق المستقيم ، وهـو بذلك يساعد فى بناء الأمة ونهضـتها على أساس متـين من الدين والخـلق والجسم السليم .

وتجمع هذه الكلية بين الدراسات الطبيـة من الكيميـاء والفيـزياء والنبـات والحيـوان والطبيعـة والتشريح وغيرها الى جانب اللغة الانجـليزية ، والمجتمـع العـربى والدراسات الاسـلامية وهى أول كلية بدأ فيها ـ لأول مرة فى تاريخ الأزهـر ـ تدريس العـلوم الاسلامية باللغة الانجليزية ، وان الهدف من هذا تمكين الطالب من الدراسـات الاسـلامية واللغـة الانجليزية فى وقت واحـد ليتمكن من أداء رسالة الاسلام ـ أى رسالة الأزهر ـ فى البلاد الناطقة باللغـة الانجـليزية ـ وليتسلح المبعـوث الأزهرى بثقافة اسلامية ، وبالتمكن من شرحها باللغة الانجليزية .

كلية الهندسـة : والغـرض من انشائها تخـريج مهندسين يجمعون الى ثقـافتهم الاسلامية ، ثقـافة هندسية تتمشى مع أحـدث النظم الهندسية فى العالم ، ويكون فيهـا علاوة على الأقسام الموجودة حاليـا بكليات الهندسة الأخـرى ، أقسام لهندسـة الغزل والنسج وهندسة التعدين والبترول وكيمياء الألوان والصباغة .

كلية الزراعة : تدرس فى هـذه الكلية العلوم الزراعيـة الانسانية والتكنولوجية . وتقوم بتخـريج زراعيـين خبـراء يجمعـون بين الثقافتين الزراعية الهندسـية وبين الثقافة الروحية التى تحتاج البـلاد الى فئة من هؤلاء الفنيين ليخدموا الأمة والوطن فى ميادين الثقـافات الهندسـية الصـناعية والزراعيـة والدينية .

كلية المعاملات والادارة : وتهتم بدراسـة العـلوم الاقتصـادية

المعاصرة ، مقارنة بالاقتصاد الاسلامى ، وبالعلوم الدينية التى تتصل بالمعاملات الى جانب المواد الثقافية التجارية ومواد الاعلام والمحاسبة والمراجعة .

كلية البنات الاسلامية : أنشئت هذه الكلية فى سنة ١٩٦٢ بمنطقة المعادى فى ضواحى القاهرة ، وقد روعى فى انشاء هذه الكلية أن تنهض الفتاة المسلمة برسالة الدين ، واللغة بجانب نهضتها بالعلوم الأخرى . وهى تهدف الى تخريج عالمات متفقهات فى الدين الى جانب الثقافات المختلفة من شتى فنون المعرفة . وقد بدأت الكلية على أربع شعب وهى :

١ ــ شعبة الدراسات الاسلامية

٢ ــ شعبة الدراسات العربية

٣ ــ شعبة الدراسات الاجتماعية

٤ ــ شعبة المعاملات والادارة

ثم فتحت فيها شعب معملية مختلفة مثل الطب والهندسة والزراعة لتتاح الفرصة أمام العالمة الأزهرية فى الجمع بين هذه الدراسات والثقافة الدينية ، سواء أكانت من جمهورية مصر العربية أو من البلدان الأخرى.وان الكلية على الرغم من حداثة عهدها تضم عددا كبيرا من الفتيات الوافدات ، وقد هيأت الكلية للمغتربات المسكن والمأكل ، كما أعدت سيارات خاصة لنقل الطالبات من بين مختلف المناطق الى مقر الكلية . وتهتم الكلية بأن ترتدى الطالبات زيا خاصا يراعى فيه الحشمة والوقار ، فان الأزهر يهدف الى أن تتجاوب الفتاة المسلمة مع تيارات العلم واللغة والتوعية والتوجيه فى اطار العقيدة الاسلامية ، وتقاليد المجتمع الاسلامى الصحيحة المجردة عن الخرافات والبدع والمتميزة بروح الاسلام والعلم والفكر السليم .

وتهتم الكلية بالنشاط الرياضى والاجتماعى والفنى والثقافى ، كما تقوم برحلات مختلفة ، وجميع ألوان الهوايات النافعة ، وهى بمثابة نواة لجامعة اسلامية كبرى للفتيات .

ومن روافد الجامعة الأزهرية : معهد الاعداد والتوجيه والمعهد العالى للتربية ، والقسم العالى

للدراسات الاسلامية والعربية •

ومنها معهد الفتيات الذى أنشىء سـنة ١٩٦٢ وتشـتمل خطط الدراسة فيه على أقسام تمثل مراحل التعليم الثلاث بالمعاهد الأزهـرية ويعـد الناجحات من تلميذاته لمثل الأغراض التى تعـد لهـا المعـاهد الأزهرية تلاميذها ، والهـدف من انشائه هو تخريج فتيات مؤمنـات صالحات للمجتمع ، لتربية جيـل جديد ويجـوز لهن دخـول كلية البنات الاسـلامية على اخـتلاف شعبها ، ويعتبر معهـد الفتيـات من أهم روافد الجامعة الأزهرية ، الذى يعد طالبات يحملن المؤهلات اللازمة للالتحـاق بكليـة البنات الأزهرية ، ويعقـد للوافـدات من الأقطار الأخرى حلقـات خاصـة لدراسـة اللغـة العربيـة والعلوم الاسلامية •

ومنها معهـد القـراءات الذى يحرص على تخـريج طائفـة ممن يتقنـون تلاوة القـرآن الـكريم وترتيله ، طبقا للقـراءات الصحيحة المتواترة •

ومعهـد البعـوث الاسلامية ، لاستقبال الطـلاب الوافـدين من الأقطار الاسلامية وغيرها ، ويضم المعهـد بين جـدرانه مختـلف الجنسيات التى تبلغ زهاء ٥٤ دولة معظمها من أفريقيا وآسيا ، وتليها الدول الأوروبية وأمريكا اللاتينية •

وان الأزهر أول جامعة فى العالم تتبنى أكثر من خمسة آلاف طالب وافد من البلدان الأخرى ، وتوفر لهـم المسـكن والمـأكل وسـائر المصاريف اللازمة مجانا الى جانب الرعاية الطبية والسكنية والصحية والتربية الكاملة •

الدكتور محيى الدين الالوائى

الأستاذ بالجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

وبجامعة الأزهر سابقا

تربية الطفل المسلم

دكتور محمد عبد المنعم خفاجى

اذا صنعنا الطفل ، صنعنا الانسان ، وصنعنا المجتمع وصنعنا الأمة ، وصنعنا الحضارة .

أعنى أننا اذا ربينا الطفل على المبادىء الفاضلة فقد ربينا الشاب والرجل ، وربينا الفتاة ، والمرأة ، وربينا الجيل الصالح ، والمجتمع السليم ، والأمة العاملة من أجل الطموح والعزة والسيادة ، ونكون بذلك قد أسهمنا اسهاما حقيقيا فى بناء الحضارة ، وبناء السلام والرفاهية والأمان والايمان فى الأرض .

الطفل فى الأمة هو الهدف الذى يتجه اليه العلماء والمفكرون والمربون ، لاخراج جيل جديد صالح لقيادة الأمة والوطن ، فى مجال الخير والشرف والعزة والكرامة الانسانية .

ومن أجل ذلك تعنى الدول المتحضرة بالطفل وتربيته عناية كبيرة ، تفوق كل عناية ، وتحشد له كل الخبراء والمتخصصين فى مجالات التربية والتعليم ، سواء لوضع المناهج الملائمة له ، أو الكتب الصالحة لأن تكون بين يديه ، أو الثقافة التى يمكن أن تقدم له زادا قويا يبنى عقله وفكره وروحه .

والاسلام الكريم يولى الطفل عناية كبيرة ويخصه بالرعاية والحنان والعطف والايثار ، ويعمل من أجل تهذيبه وتثقيفه وتوجيهه كل ما يستطيع وبكل ما يكون فى يدى المربى من قوة وامكان . وفى تنشئة الله عز وجل لنبيه يوسف يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم : « وكذلك يجتبيك

ربك ، ويعلمـك مـن تأويـل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك » ، ويقول تعالى : « وكذلك مكنـا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحـاديث » • وحينمـا استحصدت ثقافة يوسف وعلمـه ، قال لفرعون مصر : « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » • وهنا تظهـر التربيـة الاسلامية فى تعليم الطفل وتقوية شخصيته على أساس قوى من الايمان والعقيدة ، وفى ذلك يقول يوسف عليه السلام لصاحبى السجن : « ذلكما ممـا علمنى ربى ، انى تركت ملة قـوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون » •

وفى تربية المسلم الصغير والكبير على الأخلاق الفاضلة يقـول الله عز وجل لرسوله الكريم : « وانك لعلى خلق عظيم » •

وفى تربية الله عز وجـل لنبيـه عيسى يقـول الله تعالى : « ويعلمه الـكتاب والحـكمة والتـوراة والانجيل » •

واحاطة الطفل بالحنان والحب والعطف والرعاية فى الاسلام أمر واضـح ، حتى ان الخضر عليـه السلام هو وموسى سلام الله عليه ليجدان ـ فى أثنـاء تطوافهمـا ـ جدارا مهدما فيبنيانه ، ولا يعـلم موسى الحكمة من بنـائه ، فيسأل الخضر ، فيقول له : « وأما الجدار فكان لغـلامين يتيمين فى المدينـة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صـالحا ، فأراد ربك أن يبلغـا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ،وما فعلته عن أمرى » •

وفى تربية الله لنبيه موسى عليه السلام وهو فى مرحـلة طفولتـه وشبابه يقول الله عز وجل : « ولما بلغ أشده واستوى ، آتيناه حكما وعلمـا » •

ولا تقتصر عنـاية الاسـلام بالطفولة على ذلك فحسب ، بل لقد أمر ديننـا الآباء والأمهـات بتعويدهم على الطاعة والأخـلاق الفاضـلة والصـدق وأداء شعائر الدين منـذ بلوغهم سـن التمييز والادراك الصـحيح ، حتى يشب على حب دينه وآدابه وشرائعه •

يبـدأ المنهج الاسلامى للطفـل المسلم ، عنـدما يبلغ هـذا الطفل

السابعة من عمره ، فيأخذه أبوه الى المعلم ليحفظ القرآن الكريم ، ويأخذه بشرائع الدين ، فيجب اليه الذهاب الى المسجد وأداء الصلاة ، والتحلى بالصدق والشرف ، وتجنب الرذائل والموبقات والمعاصى ، ما ظهر منها وما بطن ، وبأداء الطاعات ، والحرص على التحلى بأحسن الأخلاق والآداب والفضائل ، ويحاط بالقدوة الصالحة ، لتكون هى النموذج الأمثل فى الأرض .

ولقد كان أساس التربية الاسلامية هو كتاب الله عز وجل حفظا وقراءة ، والقرآن الكريم ، هو الذى طبع الألسنة العربية على سلامة النطق ، وصحة اللهجة ، وفصاحة اللغة ، وبلاغة الكلمة ، وهو الذى ربى الشباب المسلم على الايمان والأخلاق الفاضلة ، وعلى الطاعات والامتثال لأمر الله .. وعلى الشعور بالواجب ، وتحمل المسئولية ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق فى القول ، وحسن المعاملة للناس ، وعلى الرحمة والاحسان والبر والايثار .

وكان (الكُتّاب) فى حياة الطفل المسلم ، هو المدرسة الأولى التى يربى فيها ، ويتلقى منها التوجيه والتهذيب والتربية والتعليم . فلما استبدل الكُتّاب بالمدرسة ، خرج الطفل منها أميا جاهلا لحّانة ، لا يستطيع أن ينطق بكلمة صحيحة .

كان الكُتّاب يربى الطفل على البلاغة وتذوق الأدب ، وعلى الفصاحة والبيان ، وسلامة الملكة ، وصحة اللهجة ، ونصاعة الأسلوب وبلاغة الأداء .. أما اليوم ، وبعد أن هجرنا الكُتّاب ومحونا تعاليمه من نفوسنا ، واقتصرنا على « طريقة شرشر » فقد خرج الطفل المسلم ألكن ، وجاهلا ، وبعيدا عن تذوق اللغة وبلاغتها ، والأساليب وفصاحتها .. فلنعد الى الكُتّاب والى القرآن العظيم ، الذى أنزله الله رحمة للعالمين .

وليس (الكُتّاب) بضرورى أن يكون بناء مستقلا بنفسه ، بل ان الكُتّاب فى الامكان أن يكون فى بيوت الله ، حيث يعلم فيها الطفل المسلم القراءة والكتابة ،

وحيث يحفظ القرآن الكريم ، ففى الصباح أو بعد العصر يجتمع الأطفال فى مسجد الحى ، ويحفظهم المعلم كتاب الله .. وفى ذلك الخير كل الخير للأمة والوطن .

ان أساس تربية الطفل المسلم هو حفظه لكتاب الله ، وتلاوته اياه تلاوة جيدة ، وفى أثناء ذلك يتلقى عن المعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب والاملاء ..

وذلك المنهج هو أصلح المناهج لتعليم أبنائنا منذ صغرهم ..

فمتى يقوم الموجهون للشباب وللطفولة ، والمخططون للتربية ، والجماعات الاسلامية ، والأغنياء ببناء الكتاتيب واقامتها ، من أجل هذه الغاية الشريفة النبيلة ، التى يقصد بها وجه الله عز وجل ، والتى تعود على الأمة والوطن ، وعلى الأطفال والشباب والجيل كله بالخير العميم ، والنفع الجزيل ، والفائدة المرجوة .

لعلنا نعود الى الكتاب والى الكُتّاب من جديد ، حتى تستقيم حياتنا الثقافية ، وحياة الطفل المسلم نفسه الروحية والخلقية والتربوية ، استقامة كاملة .

ان الخطر الدائم والداهم هو فى بعد الأطفال والشباب عن القرآن الكريم ، فعندئذ لا تؤمن العاقبة ، ولا تحمد الغاية .

واتصال أطفالنا وشبابنا بكتاب الله هو العروة الوثقى التى يؤمن معها على الطفولة والشباب ، بل على الجيل كله ، وبدون ذلك ستعم اللكنة والعى والعجز والحصر ، وستشيع الفهاهة بين الشباب ، وتنعدم روح البلاغة فى قلوبهم ، ويفقدون كل شخصية مستقلة فى الحياة ..

ان تربية الطفل المسلم ، فى أساسها الأول ، لا يصح أن تعتمد الا على القرآن الكريم ، فهو الزاد العظيم ، والذخر الكبير ، وهو سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الذى يملأ القلوب أدبا وحكمة ، وبلاغة ، ويملأ الألسنة فصاحة وبيانا واجادة للتعبير ، وفهما للنصوص وتذوقا للأساليب ، وادراكا لخصائص الأداء ، ولمرامى الكلام .

وللقـدوة الصـالحة أثرهـا فى قلوب الأطفـال ، فلنكن قـدوة صالحة لهم فى حياتهم ، ونمـاذج طيبة طاهرة كريمة يقتدون بهـا ، ولنكن لأطفالنـا النور الهـادى ، والقلب الرؤوم ، والصدر الحنون ، واللسان العف العذب الذى لاينطق بالفحش ، ولا يتفوه الا بالصواب والحكمة والحسنى من الكلام .

ويهولنا اليـوم أن تنقلب لغـة الأطفال والشباب الى شتائم للآباء والأمهـات ، وسباب لكل شيء ؛ وعدم مبـالاة بأى شيء .. وهـذا ما يجب أن نعمـل على تلافيـه : لكبح جماح الألسنة البذيئـة ، والتوجيـه الفاسـد ، والتـربية المشوهة المقلوبة الأوضاع .

اننـا اذا أردنا أن نعـلم حالة الأمة ومدى رقيها ، فلننظـر الى الطفولة وما فيهـا ، فحيث نراهـا سعيدة ومهذبة وموجهة توجيهـا صـالحا ، نرى من ذلك نهضـة للأمة ، ومجـدا للوطن ، وحسن تربية وتهذيب وتوجيه للطفـولة والشباب .

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

(رءوس النعم)

قبل رءوس النعم ثلاثة :
اولها ـ نعمة الاسلام التى لاتتم النعم الا بهـا .
ثانيها ـ نعمة العافية التى لاتطيب الحياة الا بهـا .
ثالثها ـ نعمة الغنى التى لايتم العيش الا بها .

مع رسالة الأدب الصوفى

"الحكم العطائية"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

— ٢ —

تعرضت فى المقال السابق — على ضوء نماذج من حكم ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله — للخصائص الفنية والأدبية لهذه الحكم .

ونحن الآن على موعد مع التحدث عن موضوعاتها التى تشير اليها . وابن عطاء الله صوفى ذائق عارف، جاءت حكمه خلاصة تجربة صادقة وترجمة امينة للمعارف الصوفية الخالصة من شوائب الفلسفة التى اصطبغت بها بعض المفاهيم الصوفية .

انه تصوف مبنى على قواعد متينة من الكتاب والسنة ، فاض على قلب مشرق مستجيب لله ورسوله ، عرف الحب الخالص ، وعبد الله على ضوئه فأثمر ثماره اليانعة ودانت له قطوفه الدانية ، مبتدئا فى ذلك بمعرفة شيخه المرسى الذى تحدث عنه قائلا : « كنت لأمره أولا من المنكرين ، لا لشىء سمعته منه ولا لشىء صح نقله ، ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه ، فقلت فيهم قولا عظيما ، ثم قلت فى نفسى : دعنى أذهب أنظر هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه فأتيت مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس ومسألة درجات السالكين الى الله ومدى معرفتهم به وقربهم منه ، فقال : الأول اسلام وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة ، وثانيها الايمان وهو مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية، وثالثها الاحسان وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب . وان شئت

قلت الأول عبادة والثانى عبودية والثالث عبودة وان شئت قلت الأول شريعة والثانى حقيقة والثالث تحقق • فما زال يقول وان شئت قلت وان شئت قلت الى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل انما يغترف من فيض بحر الهى ومدد ربانى فاذهب الله ما كان عندى » •

والشيخ عند الصوفية عليه مدار كبير فى الوصول الى حضرة الحق ، فهو الطبيب الذى يداوى النفوس لأنه أدرى بعللها وأمراضها ، ومتى كان الشيخ عارفا بصيرا استطاع أن يأخذ بيد تلميذه النابه الى غايات الكمال •

ولم يكن ابن عطاء الله سهلا فى انقياده لشيخه ، ولكنه كان صعب المراس ، فقد أقبل عليه بعد معارضة ومشاكسة ، يدل على ذلك العبارة المتقدمة ثم قوله : « جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة — قبل صحبتى اياه — وقلت لذلك الرجل ليس الا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظيمة وظاهر الشرع يأباها » ولكن لم يلبث ابن عطاء الله بعد تعرفه على الشيخ واختلاطه به أن تيقن أن ظاهرة كباطنه وليس هناك شىء ينكره عليه ، ويقول فى ذلك : «ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاما فما سمعت منه شيئا ينكره ظاهر الشرع من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى » •

وأخذ أبو العباس بيد تلميذه النجيب ، وأثمر لقاؤه الأول معه عن توجيه نظره الى التفكر وهو أول درجات اليقين ، فهو يقول : « لقد وجدت — بعد لقائى معه — معنى غريبا ما أدرى ما هو ، فانفردت فى مكان أنظر الى السماء والى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملنى ذلك الى العود اليه مرة أخرى ، فأتيت فاستؤذن لى ، فلما دخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة واقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك ، فكان أول ما قلت له : يا سيدى ، أنا والله أحبك ، فقال أحبك الله كما أحببتنى ، ثم شكوت اليه ما أجد من هموم وأحزان ، فقال : أحوال

العبد أربعة لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، فان كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وان كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وان كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة ، وان كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.قال : فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبا نزعته . قال : ثم سألنى بعد ذلك بمدة كيف حالك ؟ فقال : أفتش عن الهم فلا أجده . فقال :

ليلى بوجهك مشرق
وظلامه فى الناس ساري
والناس فى سدف الظلا
م ونحن فى ضوء النهار

وكما استطاع أبو العباس أن ينزع عن ابن عطاء الله أحزانه وهمومه بحسن توجيهه اياه استطاع كذلك أن يجعله يتغلب على وسواس كان يراوده فى طهارته عن طريق تقوية الثقة فى نفسه فقد قال له : ان هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بها . وكان ابو العباس يلقن للوسواس : سبحان الملك القدوس الخلاق الفعال ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز .

وهكذا سلح المرسى تلميذه بالثقة فى الله والقدرة على مغالبة هواجس النفس ووساوس الشيطان ، واذا استعان العالم بذلك انفتحت امامه مغاليق الحكمة وتفجرت من قلبه ينابيع المعرفة ودانت له قطوف العلم يانعة شهية ، وهذا ما نجده فى حكم ابن عطاء الله .

معارف الحكم : سبق الاشارة الى أن الحكم تدور حول الموضوعات الآتية كما فصلها الامام ابن عجيبة فى شرحه على الحكم :

التذكير والوعظ ، وتصفية الأعمال وتصحيح الأحوال ، وتحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الذوق والمنازلات ، والعلوم والمعارف الالهامية .

أما التذكير والوعظ ، فهو جانب مهم يلائم أحوال المسلمين عامة والصوفية بخاصة ، وهو يجعل الانسان فى حالة يقظة دائمة ومراعاة مستمرة ، والمولى جل

وعلا يقول : وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين • وهذا الموضوع طالما طرقه الصوفية وتحدثوا فيه ، بل ان بعضهم وقف نفسه على الكتابة فيه ، وكتاب احياء علوم الدين للغزالى يدور أغلبه حول ذلك وكتاب قوت القلوب للمكى والرسالة القشيرية فيها موارد كثيرة لذلك •

ومن أمثلة الوعظ والتذكير الواردة فى الحكم قوله منبها على وجوب الاخلاص فى العبادات والأعمال : « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها » • وقد أمرنا الله بالاخلاص فى العبادة فقال جل من قائل : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة وذلك دين القيمة » •

وهذه الحكمة تناسب كل انسان فى موقعه وفى عمله الذى يقوم به دينيا كان أو دنيويا وهى تنبه على أن الاخلاص هو الذى يحيى العمل ويتمه بدونه يصبح العمل عبثا لا قيمة له ولا أثر له • قال الشيخ عبد الله الشرقاوى فى تعليقه على هذه الحكمة : « والاخلاص يختلف باختلاف الناس ، فاخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلى والخفى وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل الا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل اليهم والاعتمادعليه فى تحصيل ما ذكر ، واخلاص المحبين هو العمل لله اجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب •

ولذلك قالت رابعة العدوية : ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك ، فنسبت العبادة اليها ، واخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم فى ذلك حولا ولا قوة ، فلا يعملون العمل الا بالله لا بحولهم ولا قوتهم وهذا أرفع مما قبله •

أما الذى يعين على الاخلاص فهو قوله : « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » وفى هذا تذكير للناس بوجوب العزوف عن الشهرة

الزائفة والبعد عن الرياء وطلب السمعة ووجوب التحلى بالايثار والرغبة الخالصة فى أن يكون العمل مقصودا به وجه الله فقط لا طمعا فى ثناء أحد من الناس عليه أو رغبة فى مدح أو عطاء أو مكافأة. وقد انتفع ابن عطاء الله فى هذه الحكمة بتوجيه شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه الذى يقول: « من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه » .

وفى الواقع ان كثيرا من الأمراض الاجتماعية مردها الى هذه الصفات المذمومة : الرياء وطلب السمعة والأثرة والأنانية — ولذلك كان الصوفية واقعيين فى علاجهم النفسى عن طريق تحطيم هذه الأدواء فيها ، وهم فى ذلك مستنيرون بأدب النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان دأبه التواضع والزهد. روى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « ان يسيرا من الرياء شرك ، وان من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وان الله يحب الأتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا واذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

وفى وجوب أداء الأعمال فى وقتها يذكر ابن عطاء الله الناس بقوله : « احالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس » ويعلق الرندى على هذه الحكمة قائلا : « اذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل الى فراغه من تلك الأشغال وقال : اذا تفرغت عملت فذلك من رعونة نفسه وحماقة من وجوه : الأول ايثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب الله منه قال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » والثانى تسويفه بالعمل الى أوان فراغه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها بعضا كما قيل :

فما قضى أحـــد منها لبانته
ولا انتهى أرب الا الى أرب

والثالث : أن يفـــرغ منها الى الذى لا يرضيه من تبدل عزمـــه وضعف نيته •

وهذه الحكمة الى جانب ما فيها من الأدب الصوفى العـالى فيهـا أدب اجتماعى رفيع ، فهى تنظـم للانسـان وقتـه وتجعـله يحسن الانتفاع به ، وكم أضاع الانسان أوقاته سدى فى الوقت الذى يقول فيه الحكماء الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ، وقد تنبه الأدباء الى قيمة الوقت وضرورة انجاز الأعمال فى أوقاتها فقال ابن المقفع فى ذلك اذا تراكمت عليـــك الأعمال فلا تلتمس الروغ منها فانه لا راحـة لك الا فى انجازها ــ أمـا أديب عصرنا شوقى فيقول فى بيت سار مسير الحكمة :

دقات قلب المـــرء قائلة له
ان الحيـــاة دقائق وثوان

ومن أمثلة ما تتضمنه الحكم من وجوب تصفية الأعمال وتصحيـح الأحوال ، ما تدعو اليه من وجوب تحلية الباطن بالأخـلاق المحمـودة وتطهيره من الأوصاف المذمومة ــ وهذا النوع كما يقول ابن عجيبـة يناسب حال المؤمنين الصادقين الذين يقبلون على الله بهمة وعزم ــ من أمثلة ذلك قوله : « لا تطلب من الله أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير اخراج » •

ويشرح الشـيخ زروق هـذه الحكمة بقوله ملخصـا : قم فيمـا أقامك الله فيه طالبا الاستقامة من غير زائد على ذلك ، وانمـا أمرت بذلك لثلاثة أوجه • أحدها القيـام بحق العبودية فيما أنت فيه بالرضا ــ الثانى لتجد الراحة بالاستسلام فتسلم مـن نكد التـدبير وأكدار التغيير ــ الثالث لئلا تعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه ، فقد حكى أن رجلا كان يسأل الله تعالى كل يوم رغيفين ويتفرغ للعبادة فسجن وكان يؤتى كل يوم برغيفين ، ففكر فى أمره فقيل له : انك سألت الرغيفين والعبادة ولم تســأل العافية ، فاستغفر واخرج لوقته • اهـ •

وقد علق ابن عطاء نفسه على هذه الحكمة بقوله فى التنوير : فتأدب يأيها المؤمن ولا تطلب من الله أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه اذا كان ما أقمت فيه مما يوافق أبواب العلم ، فان ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه فرب تارك شيئا وداخل فى غيره ليجد الراحة فتعب وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار .

فهو فى هذه الحكمة يطالب المريدين بالتحلى بفضيلة الرضا بما قسم الله والصبر على ما قضاه والانتظار لفرج الله والتبرى من الحول والقوة فلا حول ولا قوة الا بالله وهذه فضائل لا يصبر عليها الا الفحول من الرجال .

ثم هو يحارب الركون الى ما يجده المريد فى طريقه من ألوان الفيوضات التى تحول بينه وبين الوصول الى أعظم الغايات فيقول فى حكمة أخرى : « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها الا نادته هواتف الحقيقة ، الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادتك حقائقها انما نحن فتنة فلا تكفر » .

وأجمل ما يتفق مع مضمون هذه الحكمة النيرة قول الشيخ أبى الحسن التسترى فيما يرويه الرندى :

ولا تلتفت فى السير غيرا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه انه حجاب فجد السير واستنجد العون
ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها جلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

ويتعرض ابن عطاء الله فى هذا اللون من الحكم لآداب الطريق وما ينبغى للمريد عمله وسلوكه من التزام بالصدق ولجوء الى التوبة وقيام بحق الشكر وتخلق بمداومة الذكر الى غير ذلك مما يجب على السالك القيام به حتى يحقق أمله ويصل الى غايته .

ومن أمثلة الحكم التى تدور حول المضمون الثالث وهو تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات قوله : « كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى

طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته » .

هذا هو حال الأنس يشير اليه ابن عطاء الله فى حكمته ، والأنس مصطلح صوفى معناه غلبة الرجاء على الخوف ، أو فرح القلب بالمحبوب ، أو الاستئناس بالذكر فيغيب به عن رؤية الاغيار . يقول « رويم » البغدادى فى ذلك فيما يرويه عنه كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف :

شغلت قلبى بما لديك فما ينفك طول الحياة عن فكرى
آنستنى منك بالوداد وقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيث ما كنت يا مدى همى فأنت منى بموضع النظر

ومما سمعته من شيخنا الأقدمى رضى الله عنه فى ذلك :

وقمت من حضرتى والأنس يجمعنا وقد تولى رسول الله تأديبى

والحال كما يعرفه المعنيون بعلوم التصوف يطلق على المعنى الذى يرد على القلب بلا تصنع ولا اكتساب .

والمقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ويتوصل اليه بنوع تصرف ومقاسات وتكلف .

والأحوال والمقامات يتداخل بعضها فى بعض ، فالمتحقق بمقام من المقامات لا يخلو من ورود الأحوال عليه ، وكذلك صاحب الحال قد يرسخ فيه بمجاهداته فيصير الحال مقاما له . واذن فالحال يغلب عليه أصلا عدم الثبوت أما المقام كما يدل عليه اسمه فيغلب عليه الرسوخ والثبوت .

وتختلف الأحوال والمقامات على حسب الذوق والشهود فبعض المقامات أحوال عند بعض الصوفية وبعض الأحوال مقامات عند بعضهم ، مما هو مفصل فى كتبهم .

ولكن ابن عطاء الله لم يعن فى كتابه بتقنين قواعد ولكنه أشار اشارات تنم عن ذوقه وشهوده كما يظهر فى الحكمة السابقة ، وكما يظهر أيضا فى قوله : « متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك » .

فهو يشير فى ذلك الى الأحوال التى تنتاب العبد بين القبض والبسط والحزن والفرح .

ومن الحكم التى تشير الى المقامات قوله عن مقام الزهد « ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب» ويعلل الرندى لذلك بقوله : « وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى اخلاصهم من مراءات الناس والتصنع لهم وطلب الأعواض الدنيويةعليها منهم لأنهم زهدوا فيها فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر ، والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم الفادحة فى اخلاصهم بسبب رغبتهم فى الدنيا فلا تقبل منهم فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها » .

ومما يشير الى مقام التفويض قوله « ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه » .

ومما يشير الى مقام الشكر قوله : « من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها ، وقوله : « لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فان ذلك مما يحط من وجود قدرك » .

ومما يشير الى مقام الصبر قوله «لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت الا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها » وقد استجاب الشاعر الحكيم لهذه الحكمة بقوله :

ان الأمور اذا انسدت مسالكها
فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبة
اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
خلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته
ومد من القرع للأبواب أن يلجأ

وبقى القسم الرابع الذى تناولته الحكم وهو قسم العلوم والمعارف الالهامية وفى الحكم ما لا يحصى منه ، وقد جاء ذلك نتيجة للمجاهدة والعمل . وثمرة للتفكر والتأمل ، وفى الأثر الشريف من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . ويدخل فى نطاق ذلك ألوان المناجاة التى تناثرت فى فصول الحكم وما اختتمت بها ، وهى تدل على صدق فى الشهود ورسوخ فى المعرفة واليقين ، وكلامه فى ذلك

يدل على توحيد خالص وتنزيه كامل لحضرة الحق جل وعلا وهو يسير على خطا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة الغراء الكاملة . وهذه النماذج القليلة القادمة كافية لاثبات ما وصل اليه هذا الرجل العظيم من معرفة والهام :

ـ من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .

ـ ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر .

ـ شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه . المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول اليه ، والا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل اليه .

ـ تشوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب .

ـ اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا .

ـ شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك .

ـ الهى ان رجائى لا ينقطع عنك وان عصيتك ، كما ان خوفى لا يزايلنى وان اطعتك .

ـ الهى اطلبنى برحمتك حتى أصل اليك واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك .

ـ أنت الذاكر من قبل الذاكرين وأنت البادى بالاحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين .

هذه لمحات من نور هذا السفر الجليل الذى يجل شرحه ويعلو قدره . نرجو الله سبحانه أن ينفعنا به وأن يفتح أمامنا مغاليق فهمه لنستضىء بنوره ، ونعرف قدر صاحبه رضى الله عنه وأرضاه .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

قضايا قرآنية

للدكتور عبد الغنى الراجحى

أحب أن أقرر قاعدة قرآنية تفسيرية أجمع على صحتها كل الدارسين والمفسرين والمشتغلين بالقضايا القرآنية • تتلخص هذه القاعدة فى أن الأقوال التى حكاها القرآن عن السابقين من الأنبياء والمرسلين وغيرهم لم تكن حين صدورها منهم باللغة العربية والألفاظ العربية ، وانما كانت بلغات أخرى تختلف من عهد آدم الى نوح الى ابراهيم الى موسى الى عيسى • فالقرآن حين يقص قصص هؤلاء ويحكى عنهم أقوالهم انما يحكيها بالمعنى كترجمة معنوية الى اللغة العربية ضرورة أنها كانت بالألفاظ غير العربية فحكاها القرآن بالألفاظ العربية والأساليب العربية لأن المقصود هو ذكر المعانى دون التقيد بخصوص الألفاظ •

والقرآن كما وصف نفسه فى أكثر من موضع عربى مبين وبلسان عربى مبين • والقرآن فى هذا الصنيع لا يكون كاذبا ولا متقولا على من حكى عنهم أقوالهم غير العربية بلغة عربية ولسان عربى مبين لأن المقصود حكاية المعانى ولأن القرآن قد كسا هذه المعانى وهذه الحكايات أثوابا براقة من الاعجاز والبلاغة والفصاحة لا يستطيع التأتى لها من حكيت عنهم هذه المحكيات من الأقوال • ضرورة أنهم كانوا عن مستوى الاعجاز القرآنى والبلاغة القرآنية بمعزل حتى ولو كانوا قد نطقوا بالعربية فما بالنا وهم لم يعرفوا أصل العربية والله تعالى يقول فى محكم كتابه « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » سورة ابراهيم • فاذا ما قال القرآن أن

عيسى فى المهد قال لليهود كما حكت قصته فى سورة مريم « انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبـارا شقيا والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيـا » فانه يكون لم ينطق بحـرف واحد من هذه الحـروف ولا بفعل من هذه الأفعال ماضيا كان أو مضارعا أو أمرا وانما ذلك كله عمل الأساليب العربية والبلاغة العربية التى تقـرر هى الأخـرى قواعد يتفق عليها جميع علماء الملة والدين مـن البلاغيـين والمفسرين وغيرهم ، ومن هذه القـواعد أن الشىء المستقبل قد يعبر عنه بالفعل الماضى الدال على الحصول بالفعل • لأن المضـارع المسـتقبل اذا كان متحقق الوقوع لا سيما اذا كان من أفعال الله كان كأنه قد وقع بالفعل وصار أمراً حاصلا فيسوغ التعبير عنه بالفعـل الماضى تظـرا لتحقق وقوعه ، فينزل تحقق وقوعـه فى المستقبل منـزلة وقـوعه فعـلا • كمـا كان الأمـر عليـه فى قوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعـالى عمـا يشركون » أول سورة النحل ، وأمر الله هـو البعث والقيامة وهو عنـد نزول هذه الآية لم يكن قد حصـل • لكنه عبر عنه بالماضى نظرا لتحقق وقوعه • كمـا أنه قـد يعبر عن الماضى بالمضارع استحضارا للحال الماضية وعلماء البلاغة يذكـرون لذلك أمثلة وشواهد تستعصى على الحصر (١) •• وهـكذا سـاغ للقرآن أن يحـكى عن عيسى أنه قال بصيغة الماضى عن ربه أنه آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مبـاركا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا والبر بوالدته ثم ان عيسى قبـل أن يولد برسـالاته وآياته وبركاته وكل ما يتعلق به كان أمرا مقضيا فى علم الغيب فيما قضاه الله وكتبـه كما قالت الملائكة لمريم لما تعجبت مـريم وقالت « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » فردت عليهـا الملائكة قائلة لهـا : « كذلك قال ربك هو علىَّ هين

(١) لايجوز ان يفسر القرآن من لم يتبحر فى علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع)

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » سورة مريم ، فيجوز أن يكون الايتاء والجعل والوصية بالصلاة والزكاة كل ذلك ماضيا باعتبار انه المكتوب المقدر لعيسى والذى سيكون مستقبلا عندما يكون نبيا رسولا فى عمر الثلاثين ، وكان ذلك ايذانا واعلاما وانذارا لليهود من عيسى فى مهده بأن الأمر سوف يكون كذلك وأنه تم قضاؤه فكأنما تم هو نفسه لا سيما وأن هذا الاشعار لليهود من عيسى يعتبر كالقضية التى تحمل معها دليل صدقها فهو كلام من وليد فى مهده بالرسالات والنبوات لا يكون الا من جهة الله تعالى .

هكذا يستقيم المعنى ويتبين المراد دون اللجوء الى ما قاله الأستاذ مصطفى محمود من أن الآية تدل على أن عيسى كان له وجود قبل هذا الوجود آتاه الله فيه الكتاب وجعله نبيا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا . كأنما كان اليهود على علم سابق ومعرفة بهذا الوجود والالتقاء بعيسى فيه حتى يحدثهم عما عرفوه واعترفوا به . نعم ما الفائدة فى تحديثهم عن شىء لم يعرفوه ولم يكلفوه ولم يشعروا به اطلاقا ..؟ ثم كيف كان هذا الوجود السابق مشحونا بكل هذه الأمور : الكتاب والنبوة والصلاة والزكاة والبر بالوالدة ؟! هل كان الوجود السابق على نمط هذا الوجود حتى فى الكفر والايمان والكتب السماوية والصلاة والزكاة والوالدة وبرها وجميع ما جاءت به الشرائع السماوية ؟ ولم اذن لا يكون هذا الوجود السابق هو الآخر مسبوقا بوجود سابق عليه حتى يتسلسل الأمر أو يدور وتصير قصة الوجود حلقة مفرغة لا يدرى لها أول من آخر ؟ ثم ما الفائدة من هذا الوجود السابق اذا كان التكليف والحساب والتقييم والديانات والرسل والكتب السماوية وعلاقة الانسانية بخالقها انما هو كله فى هذا الوجود الذى نعيشه ونعانيه . هذا الوجود الذى هو الوجود على الحقيقة وهو بيت القصيد ومربط الفرس ودار التكليف وأرض

الخلافة الانسانية ومناط الثواب والعقاب ومقدمة الدار الآخرة والدنيا مزرعة الآخرة والآخرة حصاد الدنيا ولا تعرف الانسانية حتى اليوم وجودا قبل هذا الوجود أو تسمع عنه الا من شطحات فلسفية كشطحة أفلاطون فى قوله بنظرية المثل التى لم يستطع أحد أن يقنع بها أحدا .

لقد كان غريبا وعجيبا من الدكتور مصطفى محمود وهو يرد على الدكتور النمر فيقول له فى أهرام ٧٩/٨/٢١ « ألم يقل عيسى وهو فى المهد انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » سورة مريم متى آتاه الله الكتاب وجعله نبيا مباركا ومتى أوصاه وهو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد . ثم يقول هذا كلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق سبق ، والمتكلم هو عيسى من البشر فاذا قال بالماضى فهو ماض لا شك فيه ، واذا قال ان الله أوصانى فان المعنى المباشر والبسيط يجب أن يفهم منه أنه أوصاه فى الماضى قبل مولده وآتاه الكتاب فى الماضى قبل مولده ثم يختم كلامه بقوله هذا هو مدلول اللفظ العربى ونحن لا نتجنى على الألفاظ ولا نلويها عن مدلولاتها كما يقول الدكتور النمر ، ونسى الدكتور مصطفى أو تناسى أن مدلولات الألفاظ ووجوه الدلالة تتعدد وتختلف بين الحقيقة والمجاز وبين مقتضى الظاهر والخروج عن مقتضى الظاهر وبين المعنى المقبول الذى تقره الشواهد والقواعد الدينية واللغوية والمعنى الغريب الشاذ الذى لا تعززه الشواهد . وهذه أمور تلتبس على كثير من الناس فى تفسير آيات القرآن الكريم فيخطئون مدعين أنهم على حق وأنهم أحرار فى فهم القرآن ما داموا متمسكين بمدلولات الألفاظ . وان النظر فى القرآن وتدبره على أى شكل كان عبادة مأمور بها ، والباطنية وبعض الصوفية والاشاريون والمغالطون فى فهم نصوص القرآن أكثر بضاعتهم من هذا القبيل ويؤكدون أنهم يتدبرون القرآن وأنهم خشع

ركوع حول نصوصه . كما يقول الدكتور مصطفى محمود تماما .

ومما يدل دلالة واضحة على أن الماضى فى قول عيسى آتانى الكتاب وجعلنى نبيا لا يراد به الماضى فى وجود قبل هذا الوجود بل يراد به الماضى فى سابق علم الله وتقديره أو يراد به المضارع المستقبل ، المؤكد حصوله أن هذا المعنى نفسه جاء فى سورة آل عمران بصريح المضارع المستقبل ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ويحمل بعضه على بعض وذلك حينما تحدثت السورة عن أن مريم لما بشرتها الملائكة بعيسى تعجبت وقالت « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر » فردت الملائكة قائلة لها « كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » ثم قالت لها : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » هكذا بصيغة المضارع المستقبل ، ثم تممت الملائكة حديثها فقالت « ورسولا الى بنى اسرائيل » والتقدير ويرسله أو يجعله رسولا الى بنى اسرائيل ، يقول لهم : « انى جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وابرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله » .. الى أن قال : « ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة » الى أن يقول لهم : « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » الى أن ذكرت الآيات أنهم كفروا فقالت « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله .. » الآيات . فلما كان هذا كنه فى هذا الوجود لا يختلف فى ذلك اثنان وجب حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورة آل عمران بجعل ايتاء الكتاب والنبوة والرسالة وسائر مقولاتها وأحوالها كلها كائنة فى هذا الوجود عند بعثه الى بنى اسرائيل .

ويتكرر المعنى نفسه مرة ثالثة فى سورة المائدة بأسلوب قوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا . واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ

فيها فيكون طيرا باذنى • وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى • واذ تخرج الموتى باذنى • واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » فتعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل جاء فى ركب ورتل طويل من الأمور التى وقعت فى هذا الوجود بين عيسى وأمه وقومه ومعجزاته المسرودة المعددة من المهد والطين والطير والأكمه والأبرص واحياء الموتى وكف الله لبنى اسرائيل عنه لما كفروا فكذلك تعليم الكتاب وايتاء الكتاب يجب أن يكون منظوما فى خيط واحد مع هذه الأمور وواحدا فى ركبها وكلها فى هذا الوجود ، لا فى وجود قبل هذا الوجود هل من المعقول أن يذكر الله رسوله بشىء فى وجود لا يعرفه ويستحيل أن يتذكر شيئا فيه ؟ انه يكون هو التكليف بالمحال وبما لا يطاق وهو لا يقع من الحكيم العليم ، كما أجمع على ذلك علماء الأصول تنزيها لله عن السفه والعبث •

ولو أن الدكتور مصطفى درس القصة والقضية دراسة موضوعية يجمع فيها نصوص القصة من مواطنها الثلاثة فى سورة مريم وآل عمران ، والمائدة يقارن الآيات بعضها ببعض ويفسر بعضها ببعض ويحمل بعضها على بعض لما تسنى له أن يقول ما قال لأنه سيكون مضطراً الى حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورتى آل عمران والمائدة ، لأن ما فيه خفاء ولو عند بعض الناس يحمل على ما فيه وضوح وجلاء عند كل الناس •

ان ايتاء الكتاب وتعليمه والنبوة والرسالة لعيسى ورد ذكره فى ثلاثة مواطن من كتاب الله وسوره فى كلام عيسى فى مهده كبشارة وارهاص وانذار وتبرئة لأمه من تهمة اليهود لها بالفاحشة • والثانى فى كلام الملائكة لأم عيسى وتبشيرها بأنه سيعطى الكتاب والحكمة والنبوة والتوراة والانجيل ، والثالث من كلامه تعالى فى مقام تذكير عيسى بنعمه تعالى عليه وعلى رأسها تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل والآيات البينات حين أرسله الى بنى اسرائيل ، ولا شك أن هذا كله انما كان فى

وجودنا هذا لا فى وجود سابق عليه . والا . فهل جعل لوجودنا هذا وجود سابق عليه كأنه بروفة أو نموذج له فكان فيه الأنبياء والمرسلون والكتب السماوية والمعجزات والكفرة والمسلمون والصراعات وسائر مظاهر العمران البشرى ؟! لقد قال الدكتور النمر انه ترف عقلى لا تؤيده الشواهد ولا تعززه الأدلة ، فقال له الدكتور مصطفى ليس ترفا يا سيادة الوزير .. والجواب نعم ليس ترفا ، ولكنه شطح وهوس .

ومن منطلق التفسير الموضوعى .. وجمع الآيات الواردة فى المعنى الواحد والموضوع الواحد لتلقى الأضواء بعضها على بعض نقول لو أن الدكتور مصطفى فعل ذلك فى تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » لما تسنى له أن يقول ان هذا الخلق كان فى وجود قبل هذا الوجود ، فان الآيات الأخرى الواردة فى القرآن فى نفس هذا الموضوع تبين أجلى بيان أن المراد هو هذا الخلق فى هذا الوجود ، فان الله تعالى يخاطب انسان هذا الوجود فيقول له : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » سورة الانفطار . فالشق الأول من الآيات هو الخلق فى أحسن تقويم ، والشق الثانى بعد كلمة « كلا » هو الرد أسفل سافلين ، ثم يقول الله فى موضع ثالث مخاطبا أهل هذا الوجود « الله الذى جعل الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » سورة غافر . فأحسن التصوير وأى صورة ما شاء ركبك وأحسن تقويم كله بمعنى واحد وفى وجود واحد . الهيئة الجميلة والحالة اللطيفة معنوية وحسية التى خلق عليها انسان هذا الوجود من الفطرة البريئة الطاهرة ، وكل مولود يولد على الفطرة والصورة الخلقية الجميلة التى خلق الله عليها الانسان وقال فيها : « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين .. الى أن قال : « ثم كان من الذين

آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » ، سورة البلد • جمال التقويم والصورة والهيئة معنوية وحسية • وفى حالة الرد أسفل سافلين تقول الآيات فى نفس هذه السورة وهذا السياق « الذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب المشئمة عليهم نار مؤصدة » ان الله استثنى فى سورة التين من الرد أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون • وقضية هذا الاستثناء انهم من المخلوقين فى أحسن تقويم غير المردودين الى أسفل سافلين وكل ذلك فى هذا الوجود ، فان الله خلق الانسان فى هذا الوجود معززا مكرما وجعل فيه من الطاقات والكمالات والخصائص ما لأجله أسجد له ملائكته وجعله خليفة فى أرضه « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » سورة الاسراء •• وان الله خلق آدم يوم خلقه على هيئته بأن أودع فيه من الكمالات الربانية الشىء الكثير ، وفلاسفة الاسلام يعرفون الحكمة بأنها التشبه بالكمالات الربانية على قدر الطاقة البشرية ، وفى الحديث القدسى جعلت عبادى حنفاء ، ولكن الشياطين اجتالتهم ، فالشق الأول من الحديث هو أحسن تقويم • والشق الثانى هو أسفل سافلين ، أحسن التقويم وأحسن التصوير والفطرة السليمة السوية ، ثم الرد أسفل سافلين لمن فسدت فيهم الفطرة وتخطفتهم الشياطين فارتدوا من ملائكية الطاعة الى بهيمية المعصية • كل ذلك فى هذا الوجود •

وأخشى بالنسبة للدكتور مصطفى محمود أن يضمه الرأى العام الى خبراء ماسبيرو الذين يفسرون القرآن بالعلمانية فيدخلون فى معانيه ما ليس منها ويحملون الألفاظ ما لا تطيقه ولا تتحمله ويجرجرون كتاب الله الى مجالات لم ينزل من أجلها ولا يثبت النظر فيها على رأى واحد ، مدعين انه الاعجاز العلمى للقرآن ، أو التفسير العلمى للقرآن ، أو الدلالات العلمية فى آيات القرآن •والله يعلم أنها فوضى التفسير للقرآن •

دكتور عبد الغنى الراجحى

مع آيات من سورة النساء فى ليلة من رمضان

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

رغبت فى شهر رمضان ، فى أن أخطو الى الأمام خطوة أعمق ، فى مرضاة الحق تبارك وتعالى .. فاجتهدت ، فى حدود طاقتى ـ فى توثيق صلتى بربى .. وبالمسلمين من حولى.. فيمايتعلق بالعبادة ، والقراءة والصلاة .. وفيما يتصل بالمعاملات ، والسلوك والأخلاق ..!!

فالانسان صالح للتغيير والتبديل ، ومستعد للخير والشر ـ ما دام على قيد الحياة ، ومادام فيه قلب ينبض ، ونفس يتردد ، وتمييز وشعور ، ونزوع وارادة ، واحساس ووجدان .. وقلت فى نفسى : عسى الله أن يغفر لى ذنبى ، ويستر عيبى ويفرج كربى ، وأن يعوضنى بعض ما فاتنى من الخير فى سالف عمرى ، وفيما بقى من أجلى .. وما فاتنى من الخير كثير .. وما بقى من عمرى قليل .. لكن الرجاء فى الله كبير.. والطمع فى غفرانه وفير .. فلمحة من رضاه تملأ القلب ريا .. ونفحة من ضياه تجعل الفاسق تقيا .. بل تحيل الكافر وليا ..!!!

واذن فلا يأس عندى من روح الله أو رحمته .. ولا قنوط من أفضاله ورأفته .. انه لا ييأس من روح الله الا القوم الخاسرون .. ونعوذ بالله أن نكون من الخاسرين .. اللهم آمين .

ومن هنا رغبت فى قيام ليلة مع القرآن الكريم .. فى قراءة آيات من سورة النساء .. قصدت بها أن أعيش فيها ، كما يعيش المتعبدون ناسكا متعبدا ، مستلهما هديها ، مستقرئا وحيها ، مستعينا

بموحيها ، حاضر القلب والذهن فى شتى نواحيهـا ، ما استطعت الى ذلك سبيلا .. طـامعا فى كرم الله وعـونه ، وفى عطـاء قرآنه الذى لا ينفد له عطـاء ، ولا يحرم من خيره راغب فيـه .. « انه لقرآن كريم » ..!!

وقد عشت ليلتى فى الربع الأول من السورة .. وفى بضـع آيات من الربع الثـانى .. أى عشت موضوعا كبيـرا رحبا ، واسعـا ضخما .. متنقـلا بين أجـزائه وعناصره .. مستروحا فى أجوائه وذخائره .. بالوقوف بعض الوقت حيال كلماته ودلالتها وايحائها .. فقد رأيت أن ذلك أليق باحتمالى، وأيسر لى ، من أن أعيش الليل كله فى آية واحدة ، أقف حيالها مستغرقا خاشعا ، سابحـا فى جنباتها ، غواصا فى أعماقها ـ كمـا كان يعيش الرجـال الـكبار الاطهار ، من الصـحابة والتابعين وتابعيهم باحسان .. اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلقد قام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة مع الله ، فى خشوع واستغراق تامين كاملين يليقان بمقامـه الكـريم ، فى قوله تعالى : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنـت العزيز الحـكيم » ..وقلت فى نفسى : ان ذلك فوق طاقتى ، وفوق احتمالى .. فأين انا من هـؤلاء الأبطال الكرام الأوفياء ..؟!!

ان أفقى لأضيق من آفاقهم .. وان ايمانى لا يقاس بايمانهم .. وان استعدادى لدون استعدادهم !!

انهم ـ رضى الله عنهـم ـ فى السماء كانوا يعيشون .. فتتنزل عليهم فى سمائهم الرحمـات .. وتنهـال عليهـم فى سـموهم ـ الفيوضات .. وتستغرقهم وتتسع لهم الآية الواحـدة من الآيات .. تملأ فراغهم ، وتحيط بهم ، وتحيى ليلهم .. أما أنا ، فمـا ازال على الأرض أعيش . .أرجـو من الله غفران ذنوبى .. وستر عيوبى .. وأن يمنحنى رضاه . .وعسـاه يرضى عنى ، وقد وقفت ببـابه ، محبا لكتابه ، متمسحـا فى ركابه ـ فيجعل كل ما يصدر منى ابتغاء مرضـاته ، وخالصـا لوجهـه الكريم ..!!

ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .. والاعتراف بالحق فضيلة .. فما أضرنا ، وأذلنا ، وأتعبنا ـ الا عدم وقوفنا عند حدودنا ..!!!

ألا فليقف كل منا عند حده لا يتجاوزه ولا يعدوه ...!

ان عبادة الله فى قرآنه ، لأعظم بكيثر مما يظن الظانون ، أو يتوهم الواهمون ..!

انها ليست من السهولة بمكان .. انها لتتمايز فيها المقامات .. وتتفاوت فيها الطاقات والاحتمالات وتختلف فيها العلاوات والدرجات .. وكل ميسر لما خلق له .. والله فوق الكل فى عليائه ..ولا حول ولا قوة الا به ...!!

فالى مكانى من آيات سورة النساء :

استعرضتها أول الأمر استعراضا عاما ، فى تلاوة خاشعة متأنية متفهمة .. فبدت الآيات كأنها فى موضوعات متباينة .. ولكن بمعاودة النظر اليها والاستماع اليها ـ مرات ، ومرات ـ ظهر أن فيها رباطا جامعا ، ينادى بوحدة الموضوع .. يدل عليه المشار اليه ، فى قوله تعالى فى الختام : « تلك حدود الله .. الخ » ..

فباستعراض هذه الحدود والتشريعات ، التى احتوتها الآيات ـ ظهر أنه وضعت لاحقاق الحق وابطال الباطل .. وضعت لانصاف اليتامى « ذكورا واناثا » ، بحفظ الأموال ، وصيانة الأعراض ، ورفع الجور ، فى نكاح اليتيمات ، بالزواج من غيرهن .. فى حدود العدد الذى أباحه الله فى شرعه الحكيم . مع مراعاة العدل بين الأزواج .. والا فواحدة .. وضعت لتعديل نظام الميراث ، واقامته على أساس القرابة التى بينهم ، واعالة أغنيائهم لفقرائهم .. وذلك لتوريث المحرومين من الصغار والنساء .. وضعت لانصاف المرأة بوجه عام ، ورد اعتبارها ـ بنتا ، وأختا ، وزوجة ، وأما ..!!

واذن فالموضوع ـ موضوع واحد متكامل مترابط ، لرفع الظلم والجور عن هؤلاء المستضعفين فى الأرض بغير الحق ، واتقاء الله

فيهم ، برد حقوقهم كاملة اليهم ، على ضوء ما حدد « الشـــارع » من حدود ، وبين من تشريع ، ليسعد الجميع أقوياء وضعفاء ..

والا ، فمن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين ..!!

ثم رأيت الله فى الآية الأولى :

رأيت الله تبارك وتعالى ، وهو الرب المربى لعباده سبحـــانه .. يهيئهم لقبول توجيهه وارشـــاده ، تفضلا منه ورحمـــــة ــ فى الآية الأولى من السورة .. حيث يناديهم فى اشفاق عليهم وعناية بهـــم ، فى قوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة .. الخ الآية » .. وهو سلوك تربوى قويم اختاره رب العالميـــن ــ يجب أن يحتذى من المربين .. فى تربية الأولاد وفلذات الأكباد ، لايقاظهم وترقيق قلوبهم ، وتحقيق الخيـــر والفلاح لهم ..!!

ان الله تبارك وتعـــالى بنادى عباده .. والنداء مـــــن شأنه أن يوقظ النائمين ، وينبه الغافلين ..

فاذا كان من الرب ، فهـــو نداء من أجل تربيتهم ، وتحقيق الخيـــر والسعادة لهم ، فى دنياهم وآخرتهم لأنهم عباده .. وأنه بعباده لرءوف رحيم ..!

ثم انه سبحانه يناديهم بوصفهم ناسا ، وذلك ليشعرهم بالوصـــف الجامع لهم ، ويذكرهم بأنهم جنس واحد ، لا فرق بينهم ، ولا تمييـــز لأحد من بينهم .. فكلهم ناس ، من الانس المكلفين من خلقه .. وهو خطاب كذلك للمعنى الانسانى الذى ينتظمهم جميعا ويؤلف بينهم ، ويميز جنسهم عن سائر الكائنـــات الحية ..!

ثم هو سبحانه يأمر بالتقوى ، التى هى اتخـــاذ الوقاية التى تقى الناس من عذاب الله وتحفظهم من غضبه وسخطه .. والتى أساسها : الخوف من الجليـــل .. والعمـــل بالتنزيل .. والاستعداد ليـــــوم الرحيل .. !!!

ويصف معمولها بالرب « اتقوا ربكم » ، لينبههم الى أنه سبحانه

وحده ــ هو ربهم الذى خلقهم بقدرته ، فليس لهم رب سواه ..!!

وهو بذلك يدعوهم لخشية المستحق للخشية القادر على كل شىء .. ومن قدرته أنه خلقهم من نفس واحدة ، هى آدم ، خلقها من الطين..وخلق منها زوجها حواء.. ثم كان خلقهم منهما بالتناسل ، « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» .. وفى ذلك اشعار لهم بوحدة الأصل ، بعد أن أشعرهم بوحدة الرب الخالق القادر على خلقهم من نفس واحدة ..!

.. وفى قوله «من نفس واحدة» اشعار لهم أيضا بأن النفس الانسانية هى أعمق ما فى هذا الكيان البشرى .. فهى مكمن المشاعر والصلات والروابط التى لا تنقطع وشائجها ولا تبلى روابطها .. انها وشائج اللحم والدم والروح فى كيان الانسان ..!! وذلك مما يقوى عمق الصلة ويوثقها بين الزوجين ــ آدم وحواء ــ وكل زوجين من ذريتهما .. فبين الجميع آصرة واحدة ورابطة متجانسة ، تجمعهم رحم واحدة .. وذلك من شأنه أن يستوجب تآلفهم وتفاهمهم وتعاونهم .. ويستنكر تناكرهم وتباغضهم وتنافرهم .. فهل من مدكر ؟!!

... ان القلوب حين تتقى الله ترق وتلين ، وتستيقظ فيها أنبل المشاعر ، فتسارع الى طاعة الله ، وتلبية ندائه فى الخيرات باذنه ، عن حب لها ورغبة فيها واقبال عليها ..!!

ولذا يكرر الله الأمر بالتقوى التى هى دائما صمام الأمن للمتقين .. ويجمع فى الأمر بها للمرة الثانية ــ بين دعوتهم لتقوى الله ، ودعوتهم لتقوى الأرحام .. ولكن بأسلوب يحيى موات القلوب .. حيث يذكرهم بواقعهم ، اذا ما اشتدت بهم الكروب .. فيقول سبحانه : «اتقوا الله الذى تساءلون به .. والأرحام » التى تساءلون بها .. انه سبحانه يذكرهم بلجوئهم اليه ، واستعانتهم به ، حين تتأزم أمورهم ، وتشتد احتياجاتهم : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا ،

أو قائمـــا ..» .. كما يذكرهم بسؤال بعضهم بعضا بالله ، وبالرحم حين يقول بعضهم لبعض : أسألك بالله الا أغثتنى ، أو عـــاونتنى .. وأسألك بالـــرحم التى تجمعنـــا وتربطنـــا ، الا رحمتنى ، والا فعلت كذا وكذا ..!!!

فكأن الله يقول لعباده : اننى أنا الله الذى تذكرونه حين يشتـــد الكرب ، وتستغيثون به أن يغيثكم ولا مغيث سواه .. فاتقوا الله .. اتقون يا أولى الألبـــاب لعلـــكم تفلحون .. واتقوا هذه الرحم التى تذكرونها ، وتستدرون العطف بها فيما بينـــكم ، فى شـــدائدكم ومتاعبكم .. فلا تأكلوا حقهـــا ، ولا تمسوها بسوء .. وتوقـــوا ايذاءها ، أو تجريحها أو اغضابها .. فهى أولى منكم بالتوقير والاحترام والعيش بها ، ومعها فى سلام ..!!

.. ثم يختم الله الآية الكـــريمة بقوله : « ان الله كان عليـــــكم رقيبا » ، ليشعرهم بأنهم جميعـــا تحت رقابته القادرة ، التى لاتخفى عليهـــا خافية ، والمحيطة بكل شىء علما ..!!

والرقابة : هى أقصى درجـــات الملاحظة .. والله هنا هـــو الذى يراقب ، فلن يفلت من رقابته أحد ، لأنه يعلم السر وأخفى .. فـــكأنه يقول : أنا فى انتظار ما تفعلون ، وأنا العليم بكل ما يصدر عنكم أو يكون منـــكم .. وسأجـــازى بالاحسان احســـانا ، وبالســـوء سوءا .. جـــزاء وفاقا ، لأننى أنا الله الذى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .. فهى عبارة تحمل فى طياتها أعمـــق دلالات الترغيب والتـــرهيب .. الترغيب فى طاعة الله ، وامتثال أوامره .. والترهيب من عصيانه ، وارتكاب ما نهى عنـــه .. ســـبحانه ، سبحانه ..!!

وهكذا تكون التربية السليمـــة المثمرة : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ..

فمن الخير اذن ، للمصلحيـــن والدعاة الى الخير ، أن يتخذوا من أسلوب القرآن منهجا فى التربيـــة النفسية والـــروحية والسلوكية والأخلاقية .. وأساسا فى تهيئـــة الناس لتلقى ما ينفعهم بقبـــول

حسن .. والا فقد أعذر من أنذر .. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ...!!!

ورايت عناية الاسلام باليتامى فى الآية الثانية !

واليتامى جمع يشمل الذكور والاناث ..

وليس أقسى من اليتم ، ولا أشد من وقعه على النفوس .. ففقد الآباء غالبا ما يكون كارثة على أبنائهم وبناتهم ، وبخاصة اذا كانوا صغارا ضعافا ، ولم يجدوا منصفا .. !

والآباء بطبيعتهم يحبون أولادهم ويرجون الخير والأمان لهم .. ولذلك نجد الله بعد ذلك فى آية أخرى ، يستغل هذا الحب الطبيعى الفطرى فى الآباء جميعا ، فيدلهم على صمام الامان لأولادهم اذا ما خافوا عليهم بعد موتهم — وهو أمر ميسور لهم وسهل عليهم : ان يتقوا الله فى أولاد الغير ، فيعدلوا معهم ، ويحسنوا اليهم ، وأن يقولوا بشأنهم كلمة الحق والعدل والخير ، وألا يسيئوا اليهم حتى بالكلمة ..

جاء ذلك فى قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » .

ولذلك نرى الله تبارك وتعالى بعد أن هيأ النفوس لخشيته وتقواه فى الآية الأولى — يلقى تعليماته فى الآية الثانية ، للأوصياء على اليتامى .. فيأمرهم بأن يردوا الى اليتامى أموالهم كاملة غير منقوصة ، فهى أمانة تحت أيديهم — وذلك اذا ما بلغوا رشدهم ، وصاروا قادرين على رعاية أموالهم ... وحذرهم من ظلم اليتامى ، فنهاهم عن أخذ أموالهم الجيدة ، وأعطائهم بدلا منها أموالا رديئة .. كأخذهم ابلا صحيحة ، أو ماشية سليمة ، واعطائهم بدلا منها ابلا مريضة ، وماشية هزيلة عليلة .. أو أخذهم الجيد من الأرض ، واعطائهم الردىء منها .. أو أخذهم من المحصول جيده واعطائهم رديئه .. وهكذا فى أى نوع من أنواع المال يكون فيه الجيد وفيه الردىء .. كما نهاهم عن أكل أموال اليتامى

بضمها الى اموالهم كلها أو بعضها .. وبين لهم أن ذلك الأكل لمال اليتيم ـ ذنب كبير وظلم خطير ، حيث قال : « انه كان حوباكبيرا» أى ذنبا عظيما ..!!

هذا ، وليس أبغض الى الله من الظلم فى جميع صوره وأشكاله !!

ولذا فقد حرم الله الظلم على نفسه ، حيث قال : « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلاتظالموا» .. ومن شدة بغض الله للظلم أنه سبحانه ينصر الدولة الكافرة اذا كانت عادلة ، ولا ينصر الدولة المؤمنة اذا كانت ظالمة : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ..

ومن شدة بغض الله للظلم أنه لا يرد دعوة المظلوم ، ولو كان كافرا ، حين يدعو على ظالمه وان كان مؤمنا : « اتقوا دعوةالمظلوم، فانه ليس بينها وبين الله حجاب ».

ومن بشاعة الظلم أن الله قد اعتبر الشرك به نوعا من الظلم .. ولم يعتبر الظلم نوعا من الشرك.. قال تعالى : « ان الشرك لظلم عظيم » ..

وما جلب على البيوت خرابها الا ظلم أصحابها للناس ، قال تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بماظلموا».

وكذلك ما يصيب الدول من تفكك وانهيار ودمار ، انما هو من جراء انتشار الظلم فيها : « وتلك القرى أهلكناهم بما ظلموا » ..

والكلام فى الظلم يطول .. وحسبنا أن نعلم أنه سبحانه لا يتسامح فى حق عبد من عباده ، وان تسامح فى حق نفسه ، سبحانه جل شأنه .. ولن يفلت من عقابه ظالم أبدا ، فقد قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم : « ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » .

وقال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » ..

عناية أخرى باليتيمات اللائى تحت الوصاية :

فى قوله تعالى : « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة .. »..

وتلك ظاهرة خاصة باليتيمات عن طريق الزواج .. وفيها قد فتح الله باب الزواج واسعا ، تحاشيا لظلم اليتيمات .. مع مراعاة العدل فى الزواج بغيرهن .. والا فواحدة .. !

وذلك اجمال يحتاج الى بيان

** فبعد أن طالب الله الأوصياء بأن يعدلوا مع اليتامى يرد أموالهم اليهم سالمة كاملة متى بلغوا رشدهم ـ طالب الأوصياء مرة أخرى ، لشدة عنايته باليتيمات ـ بالابتعاد عن زواج اليتيمات القاصرات ، ان كان الزواج بهن مظنة ظلم لهن ، أو خوف عدم العدل معهن .. ومن باب أولى اذا كان الدافع على الزواج منهن ـ الطمع فى أموالهن ، أو هضم حقوقهن ، فى مهر أمثالهن ، أو انقاص حقوقهم المادية والأدبية كأترابهن .

فالآية تقول :

ان خفتم ألا تقسطوا فى يتامى النساء ، أى ألا تعدلوا معهن ، فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من غيرهن ، تحاشيا لظلم اليتيمات، وبعدا عن الجور معهن .. لأن من يستغل ضعف الضعيف فيظلمه هو انسان خسيس .. فما بالك بمن يظلم يتيمة ضعيفة ؟!!

** وليس معنى هذا اباحة ظلم غيرهن من الأزواج ، كما سيأتى بيانه ...

** ان القوة ليست بدائمة ، بل هى عارية مستردة .. وسرعان ما يصاب الأقوياء بالأمراض والعلل التى لا علاج لها ، حتى يدركهم الموت ، وهم نادمون ـ بعد فوات الأوان ـ على ما ارتكبوا من ظلم وبغى ، وفساد وافساد .. فهل من معتبر ؟!!

** وانما يحدث الطغيان عادة ، فى غياب الايمان ..!!

فلو آمن هؤلاء الطغاة ، فخافوا الله ، أو فتذكروا أن قوة الله فوق قوتهم ، وأنه للباغين بالمرصاد ـ لما كانوا حيوانات مفترسة ، ولا حشرات مؤذية !! ..

وما أحسن القول المشهور : اذا دعتك قدرتك الى ظلم الناس ، فتذكر قدرة الله عليك ..!!

ثم أعود الى الآية مرة أخرى :

** جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

ـ لما نزلت آية اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير ، أى الذنب العظيم ، خاف الأولياء ، أو خاف الأوصياء أن يلحقهم الحوب بترك الاقساط والعدل فى حقوق اليتامى ... وأخذوا يتحرجون من ولايتهم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج ، والثمان ، والست ـ قبل أن يتحدد العدد بأربع ـ فلا يقوم بحقوقهن ، ولا بالعدل بينهن .. فقيل لهن : ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى ، فتحرجتم منها ، فخافوا ، أيضا ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد المنكوحات، لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله ، فهو غير متحرج ، ولا تائب ، لأنه انما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه ، والقبح قائم فى كل ذنب .. !!!

** وقيل : كانوا لايتحرجون من الزنا ، وهم يتحرجون من ولاية اليتامى .. فقيل : ان خفتم الجور فى حق اليتامى ، فخافوا الزنا ، فانكحوا ما حل لكم من النساء ، ولا تحوموا حول المحرمات .. فتكون الآية معه لبيان حكم اليتيمات ، وتحذيرا من التورط فى الجور عليهن ، وأمرا بالاحتياط ، وفى غيرهن متسع الى الأربع .. بشرط مراعاة العدل واعطاء كل ذات حق حقها ..

** وقيل أيضا : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال ، ويكون وليها ، فيتزوجها ، ضنا بها عن غيره .. فربما اجتمعت عنده عشر منهن ، فيخاف لضعفهن ، وفقد من يعصبهن أن يظلمهن حقوقهن ، ويفرط فيما يجب لهن

•• فقيـــل لهم : ان خفتم أن لا تقسطوا فى يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طـالب لكم ، بشرط اعطاء كل ذات حق حقها فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة •

ويؤيد هذا قوله تعالى : « فان خفتم ألا تعـدلوا » بين هـــذه الأعداد « ثنتين ، أو ثلاثة ، أو أربعة » فى المعاملة والحقـــوق الظاهرة ، كما خفتم ترك العـدل فيما فوقها ــ قبل تحديد العـدد بأربع ــ «فواحدة» أى فالزموا ، أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع رأسا •• فان الأمر كله يدور مـع العدل •• فأينما وجدتم العـــدل فعليكم به •

وليس من شك فى أن التحديد بواحدة أقرب الى اجتنـاب الظلم والجور ــ وبخاصـة اذا لم تكن هناك ضرورة موجبةللزواج بأخرى ــ بدليل قوله تعالى بعـد ذلك : « ذلك أدنى ألا تعـولوا » أى أقرب الى عدم الجور ••

ان الظلم حرام ، فالوسيلة اليه حرام •• وان اجتنـــاب الظلم واجب ، فالوسـيلة الى اجتنـابه واجبة •• واذا كانت الوسيلة الى الظلم هى التعـدد ، فالوسيلة الى اجتنابه هى التوحد •

تعدد الزوجات :

فى قوله تعـالى : « مثنى ، وثلاث ، ورباع » •

بيان لما أباحه الله تبارك وتعالى للراغب فى الزواج ــ بعد تحديد العـدد بأربع ــ من الجمـع بين ثنتين ، أو ثلاث ، أو أربع •

وانه ليدور لغط حـاقد عـلى الاسلام ، من أولئك المتعصبيـن ضده تعصبا أعمى ــ حـول اباحة الاسلام للزواج بأربع نساء •

ولو أنصف هؤلاء ، وأحبـوا الطهر والنقاء ، لحمدوا للاسـلام هذا الصنيع ••!!

ــ ان عليهم أن يعلموا ، ان كانوا لا يعلمون ، أن التعدد كان موجودا قبل الاسلام فى الجاهليـة ، بدون قيود ولا حدود •• حتى ان الرجل منهم يكون تحتـــه من النســاء العشرات •• وكذلك كـان تحت بعضهم العـديد من النساء بعـد

الاسلام ــ قبل أن تنزل آية تحديد العدد بأربع ــ فكان التحديد من الله العليم الخبير هو التشريع الأمثل والاصلاح الأكمل ، لأنه سبحانه هو وحده العليم بما يصلح وما لا يصلح ، وما يضرهم وما ينفعهم ، وما كان وما سيكون منهم ..

« ألا يعلم من خلق » ؟!!

ــ وقد ثبت من واقع الحياة وواقع الأمم أن ما شرعه الله هو الخير للبشرية ، ما دامت حريصة على طهارتها ونقائها ..

ــ فقد ثبت أن تعدد الزوجات قد يكون ضرورة لحياة الجماعة وأمنها ووقاية لها فى حالات كثيرة ..

ــ منها ما يكون فى أعقاب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الاناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور ..

وما أخبار الحرب العالمية الثانية ببعيدة .. وان ما حدث فى ألمانيا ، وفى غير ألمانيا من زيادة أعداد النساء على أعداد الرجال لا يخفى .. !!!

وانها لتؤيد الزيادة المضاعفة للنساء على الرجال ، بما هو أكثر من ثلاثة الأمثال .. !

ــ ومنها ما يكون فى حالات مرض الزوجة أو عقمها ، ورغبة الزوج فى الابقاء عليها ، أوحاجتها هى اليه ، مع شدة حاجته الى زوجة أخرى يضمها الى عصمته ، ويحافظ على طهارته ..

ــ ويجب أن يكون معلوما أيضا ، أن الاسلام لا يعرف الخليلات للرجال ، ولايقر الخيانات الزوجية المنتشرة بين الأزواج والزوجات فى أوروبا ، ولا يستبيحها لمسلم يؤمن بالله ، ولا لمسلمة تؤمن بالله ..!!! بل يحاسب عليها اذا ثبتت بالقتل رجما ..

ــ ان الرجل هناك (عند من ينتقدون شريعة الاسلام فى تعدد الزوجات) فى أوربا ــ مطلق الحرية فى أن يخالل من النساء المتزوجات من غيره ما يشاء .. وللمرأة كذلك أن تخالل من الرجال من تشاء .. وذلك ليس بعيب

عندهم فى أغلب الأسر .. وقل أن تجد فيهم من يغار على عرضه ..

وهل بعد التصاق الأجسام بالأجسام فى رقصهم المشترك ، بين النساء والرجال ـ ما يشجع على صيانة العرض .. أو يرغب فى نقاء النسل ، أو يحقق صدق انتسابهم الى آبائهم وأمهاتهم ؟!!!

ولذلك ، فان الغيورين على شرفهم ـ فى تلك البلاد ، وقليل ما هم يشيدون بنظام الاسلام ، ويشهدون بعظمته ، فى شريعته ، التى تكفل للمسلمين الخير والأمن والسعادة والعزة والشرف ، وكل أسباب الهناء والبقاء ـ لو عملوا بمقتضاها ، وساروا على هداها ..

فهل يعمل بشريعتهم ـ المسلمون ؟!! نرجو من الله أن يكون العمل قريبا ..!!!

شبهة اخرى يجب ان تزول :

يظن الجاهلون ، كما يظن الحاقدون على الاسلام ورسوله ، أن رسول الله ـ صلى لله عليه وسلم ـ قد أباح لنفسه أن يجمع فى عصمته بين تسع من النساء .. فى حين لم يبح لأحد من أمته أن يزيد على أربع ..!!!

وهؤلاء جميعا ، قد غاب عنهم أن الاسلام حين جاء ،كان اطلاق العدد فى الزواج مباحا عند العرب فى جاهليتهم .. يتزوج الواحد منهم من النساء ما يشاء غير مقيد بعدد .. وقد كان فيهم من تحته عشرات النساء .. وظل الأمر كذلك فترة فى الاسلام .. قبل تحديد العدد بأربع .. لقد كان فى المسلمين من فى عصمته الثمانية والعشرة وأكثر ، من النساء !! ..

فلما جاء أمر الله بتحديد العدد بأربع ، صادف أن كان من عصمة الرسول تسع.. فاذا سرح الرسول منهن خمسا ، لكان فى تسريحهن جناية عليهن ، بحرمانهن من حق الزواج ، لأنهن من امهات المؤمنين .. وامهات المؤمنين يحرم الزواج منهن ، فلا يحل لمسلم أن يتزوج بأمه ، باعتبارها كانت زوجة لرسول الله .. ولذا فرحمة بهن ـ جاء أمر الله بالابقاء عليهن زوجات فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم..

كما حرم الله على رسوله الزواج بعد هذا التحديد العام .. جاء جاء ذلك فى قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن » ..!

أما المسلمون ، فقد استجابوا لأمر الله بتحديد العدد بأربع ، وسرحوا ما زاد عليه ، لأن فى تسريحهن عدم الاضرار بهن ، فمن حقهن الزواج بعد ذلك من غير أزواجهن السابقين ..

ثم انه يجب أن يكون معلوما أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن فى زواجه يختار لنفسه ، وانما كان الله هو الذى يختار له . لحكم يعلمها الله .. قد يكون منها ـ التشريع ، كما حدث فى زواج الرسول (بزينب بنت جحش) التى كانت زوجة لابنه بالتبنى (زيد بن حارثة) .. وكان هذا محرما من قبل ، فأباحه الاسلام .. قال تعالى : « وامرأة زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » .. وقد يكون منها تحقيق سياسات انسانية واسلامية رشيدة ، فى سائر من أراد الله أن يكن زوجات لرسول الله ...

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن الدافع الى زواجه ، شهوة جنسية هابطة ، كتلك التى قد تكون عند غيره من الناس .. فهو وان كان من البشر لكنه بشر رسول ..!!

وقد يقوم دليلا على ذلك ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ، لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها ، طوال حياتها ، وكانت تكبره فى السن بخمسة عشر عاما .. وظلت مع رسول الله حتى جاوزت الخامسة والستين من عمرها ..!!

وفى ذلك الدليل على أن قناعة الرسول ، وعفته ، ووفاءه ، وانسانيته ، ومروءته ، وترفعه عن الدنايا ، ورحمته .. كان فيها الرسول ، وفى غيرها من الفضائل والمكارم ـ المثل الأعلى ، فى هذا الوجود ..!!! صلى الله عليك وسلم يا سيدى يا رسول الله ..

واخيرا ، وليس آخرا ..

ان تعدد الزوجات ــ فى حدود ما أباحه الاسلام ــ فى أصله رخصة .. وهى غير ملزمة لأحد.

ولكنها رخصة ، قد تكون ضرورة لحياة الجماعة وأمنها وأمانها ، ووقاية لها من التخبط والزلل والانحرافات .. فى حالات كثيرة .. سبقت الاشارة الى بعضها .

والذى لا شك فيه أن البشرية لم تجد حتى الآن ، ولن تجد بعد الآن ــ تنظيما أفضل ولا أكمل من تنظيم الاسلام ، فى كل ما جاء به من حدود وتشريعات .. ومنها : الزواج ، وبناء الأسرة ، وصيانة الأمة أفرادا وجماعات ، وكرامة المرأة ، بنتا ، وأختا ، وزوجة ، وأما .. كما أقر بذلك المصلحون من غير أبناء الاسلام ــ والفضل ما شهدت به الأعداء .. انهم قالوا لقومهم : اذا لم تتخذوا الاسلام دينا ، فاتخذوا شرعه القويم دستورا ، فهو كفيل بسعادة الناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ..!

لكن أهله للأسف لا يعملون به ، ولا يحيون فى نوره .. انهم فى غفلاتهم ساهون ، وفى شهواتهم غارقون ، وفى ملذاتهم سادرون.. ألم يكفهم ما كان منهم .. ومما حل بهم ، من تخلف وتمزق ومذلة وهوان ؟!! فمتى يستيقظون ، ويعودون الى الحق بعد ما تبين ، قبل فوات الأوان ؟ !!

ان شاعرا قال ، وكأنه فيما قال يصور أحوال المسلمين الغافلين :

والناس فى غفلاتهم
ورحى المنية تطحن
والحديث موصول

عبد الحميد الفضالى

قبل مجيئه تحدث عنه أسفار الأنبياء

المستشار محمد عزت الطهطاوى

نشرت احدى الصحف الأسبوعية والتى تصدر فى مدينة القاهرة مقالا للقس برسوم شحاته أورد فيه بعضا من البشارات التى وردت بأسفار الأنبياء من بعد موسى عليه السلام وانتهى فى مقاله الى انها تتعلق بالمسيح عليه السلام .

وهذه البشارات التى أوردها ذلك القس هى :

أولا : ما عبر عنه حجى النبى بقوله (مشتهى كل الأمم) وذلك فى الاصحاح الثانى عدد ٧ من السفر المسمى باسمه وهو سفر حجى والمذكور ضمن أسفار العهد القديم فى الكتاب المقدس .

ثانيا : قوله (ولقد عرف الأقدمون أن مسيا ـ الملك المخلص العظيم هو وحده الذى سيخلص الانسان من كبوته وعثرته .

ثالثا : وفى روح النبوة تكلم الله عن (شيلون) الذى سيظهر فى آخر الأيام من سبط (يهوذا) وهو السبط الملكى وليس سبط (لاوى) ـ فانه واضح أن السيد المسيح قد خرج من سبط يهوذا .

وفى ردنا على ما أورده ذلك القس نسجل بداءة احترامنا وتقديرنا وايماننا برسالة ونبوة السيد المسيح عليه السلام وكذلك احترامنا لأمة السيدة مريم بنت عمران لأن ايماننا نحن المسلمين قد وسع كل من أرسله الله من الأنبياء والمرسلين ـ قال تعالى « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » سورة البقرة ٢٨٥ .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة كريمة نقية للسيدة مريم والدة السيد المسيح عليه السلام اذ وصفها بأنها كانت صديقة وفى زمانها فضلها على نساء العالمين .

قال تعالى « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » . سورة المائدة ٧٥ ، كما قال جلت كلماته فيما تحدثت به الملائكة الكرام الى السيدة مريم « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » . سورة آل عمران ٤٢ .

لكن مع ذلك وخدمة للحقيقة والبحث لا نوافق القس المذكور على تلك التفسيرات التى حررها وعلى تلك التأويلات التى فرضها على تلك النصوص طبقا لمايلى :

أولا : اذا رجعنا الى النص الذى عبر عنه حجى النبى فى سفره والوارد بالاصحاح الثانى عدد ٧ المتضمن لعبارة « مشتهى كل الأمم » نجده بنصه هو « وازلزل كل الأمم ويأتى مشتهى كل الأمم فأملا هذا البيت مجدا قال رب الجنود ... » ثم يستكمل باقى النص فى قوله التالى فى عدد ٩ « مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود وفى هذا المكان أعطى السلام بقول رب الجنود » .

ولفظ « مشتهى كل الأمم » لا تعنى الا رسولا يأتى وتنتظره كل الأمم وعبر عن ذلك الانتظار بلفظ مشتهى كل الأمم بمعنى أنه يخرج من غير العبرانيين أو الاسرائيليين والذين يطلقون على أنفسهم حتى وقتنا هذا لقب شعب الله المختار والخاص . كما لا يكون مرسلا اليهم خاصة بل الى جميع أمم الأرض لأن هؤلاء العبرانيين أو الاسرائيليين يذكرون من عداهم من الناس بتعبير الأمم .

فكيف اذن تنطبق هذه البشارة عن « منتهى كل الأمم » كما يدعى القس برسوم شحاته على المسيح عليه السلام وقد خرج هو ووالدته من شعب الاسرائيليين أو العبرانيين هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فان ما هو وارد بالأناجيل المتداولة على لسان السيد المسيح يفيد أنه لم يأت لالقاء السلام أو اعطاء السلام على الأرض بل أتى لالقاء السيف والنار على الأرض .

فقد ورد بانجيل متى بالاصحاح العاشر عدد ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ قوله على لسان السيد المسيح « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض ـ ما جئت لألقى سلاما بل سيفا فانى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والأبنة ضد أمها والكنه ضد حماتها ـ وأعداء الانسان أهل بيته » .

كما ورد بانجيل لوقا بالاصحاح الثانى عشر عدد ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ قوله على لسان المسيح « جئت لألقى نارا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت »،« أتظنون أنى جئت لاعطى سلاما على الأرض كلا أقول لكم بل انقساما لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة ـ ينقسم الأب على الابن والابن على الأب ـ والأم على البنت والبنت على الأم ـ والحماة على كنتها ولكنه على حماتها » .

وشبيه بهذا أيضا ما ورد بذلك الانجيل فى الاصحاح الرابع عشر عدد ٢٥ ، ٢٦ قوله على لسان المسيح « وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » .

فكيف يستقيم القول بالنصوص السابقة المنسوبة الى السيد المسيح وهى كلها ضد السلام على الأرض مع النص الوارد فى سفر حجى النبى والذى يبشر بكلامه عن أن « مشتهى كل الأمم » يعطى السلام على الأرض خصوصا فى هذا المكان وهى الأرض المقدسة أرض فلسطين التى كانت موطن السيد المسيح ودائرة دعوته منذ ظهوره وحتى ذهابه عن العالم .

أما عن رسالة السيد المسيح عليه السلام فان المتتبع للاناجيل المتداولة حاليا بين النصارى يجد

أنها كانت دعوة خاصة وقاصرة على شعب بنى اسرائيل فقط فهذا انجيل متى فى اصحاحه الثانى عدد ٦ يذكر القول المنسوب الى الله فيقول « وانت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل » كما ورد بأنجيل لوقا فى اصحاحه الأول عدد ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ قوله عن السيدة مريم بنت عمران والدة ـ المسيح وبشارة الملاك لها بحمل السيد المسيح ـ « فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ـ وها أنت ستحملين وتلدين ابنا وتسميه يسوع ـ هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب الى الأبد » .

ولما بدأ المسيح عليه السلام فى الدعوة الى الايمان برسالته أعلن على الملأ انها قاصرة على شعب بنى اسرائيل ولا تمتد الى غيرهم لذلك نراه بانجيل متى فى اصحاحه الخامس عشر عدد ٢٤ يقول « فأجاب وقال لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » ولقد نبه السيد المسيح الى مقدار احترامه لشريعة التوراة وانه ما جاء الا ليكملها لا لازالتها فتراه كما يحكى عنه انجيل لوقا فى الاصحاح السادس عشر عدد ١٧ يقول « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس » ويقصد به شريعة التوراة .

وقد اختار السيد المسيح اثنى عشر تلميذا ليكونوا تلاميذه وأحباءه ، ومساعديه فى نشر دعوته وكان اختياره لهم من بين الاسرائيليين أنفسهم وينقل ذلك انجيل متى فى محاورة بين المسيح وبين أحد تلاميذه وهو بطرس ، وذلك فى الاصحاح ١٩ عدد ٢٧ ، ٢٨ فيقول « فأجاب بطرس حينئذ وقال له ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع الحق أقول لكم انكم انتم الذين تبعتمونى فى التجديد ـ متى جلس ابن الانسان (ويقصد المسيح نفسه بذلك) ، على كرسى مجده تجلسون أنتم

أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر » فهنا قال لهم السيد المسيح انهم يدينون أسباط اسرائيل فقط ــ ولم يقل لهم انهم يدينون أهل الدنيا أو شعوب العالم وفى هذا اشارة الى أن رسالته ــ وهم من بعده على نهجه ــ قاصرة على شعب اسرائيل المتفرع من أسباط اسرائيل الاثنى عشر ــ بل ان المسيح عليه السلام عندما أرسل تلاميذه المذكورين لينشروا دعوته ويبشوا تعاليمه بين الاسرائيليين كرر لهم الوصية بأن يقصروا الدعوة عليهم وحذرهم من دخول مدن الأمم والشعوب الأخرى ولو كانوا جيرانا للاسرائيليين ووارد كل ذلك بانجيل متى فى الاصحاح العاشر عدد ٥ ، ٦ فيقول : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا الى طريق أمم لا تمضوا الى مدينة للسامريين لا تدخلوا ــ بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة » ، بل ان انجيل متى ينسب الى المسيح عليه السلام انه قال عن الاسرائيليين انهم البنون وغيرهم من الأمم بأنهم الكلاب وكل ذلك وارد فى الاصحاح الخامس عشر من انجيل متى ــ عدد ٢٦ فى قوله « وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » .

وقد كرر انجيل يوحنا بأن المسيح ما جاء الا الى خاصته وما خاصته الا شعب بنى اسرائيل « الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله » انظر انجيل يوحنا فى الاصحاح الأول عدد ١١ وبعد ذهاب المسيح عن العالم يؤكد خليفته بطرس أن يسوع المسيح ما جاء الا لخلاص الاسرائيليين وغفران خطاياهم وذلك كما هو مذكور فى سفر أعمال الرسل بالاصحاح ١٠ عدد ٢٨ ، عدد ٣٦ « الكلمة التى أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام يسوع المسيح » .

ويقول دين انج أحد كتاب النصرانية فى بلاد الغرب « أن المسيح كان نبيا لمعاصريه من اليهود ــ الاسرائيليين ــ ولم يحاول قط أن ينشىء فرعا خاصا به من بين هؤلاء المعاصرين أو ينشىء

له كنيسة خاصة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم » كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية (أن أسبق حواريى المسيح ظلوا يوجهون اهتمامهم الى جعل المسيحية دينا لليهود وجعل المسيح أحد أنبياء بنى اسرائيل الى بنى اسرائيل) .

ويؤكد هذا المعنى الكاتب المسيحى وليم ياثون فيقول : « ان الذى يقرأ رسائل بولس يرى انه لم يورد دليلا واحدا ولا كلمة واحدة تنسب الى المسيح عن عالمية المسيحية وانما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره لأن بولس هذا هو أول من قال بعالمية المسيحية رغم انه لم ير المسيح عليه السلام ولم يتتلمذ على يديه بل انه كان حربا على تلاميذ المسيح وعلى تعاليمه ثم زعم أنه دخل فى دعوة النصرانية بعد ذهاب المسيح عن العالم بحيلة زعم فيها أنه رأى المسيح وعندما قبله حواريو المسيح واطمأنوا اليه خرج عليهم بتعاليم مضادة لما تعلموه من المسيح وذكر ذلك فى رسالته الى غلاطبه بالاصحاح الأول عدد ١ فى قوله « وأعرفكم أيها الاخوة أن الانجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب انسان لأنى لم أقبله من عند انسان ولا علمته — بل باعلان يسوع » — ويسوع تعنى اسم المسيح .

وكلامه يشهد عليه بالكذب لأنه لم يجتمع بالسيد المسيح حتى يتلقى عنه بل ولم يجتمع بالحواريين تلاميذ وأصحاب المسيح الا بعد ثلاث سنين ليتعرف بهم ومكث خمسة عشر يوما اتصل فيها ببطرس والحوارى يعقوب فقط — وبعد أربعة عشر سنة لما ذاعت تعاليمه المغايرة لتعاليم السيد المسيح عليه السلام دعوه ليحاجوه ليقضوا على الفتنة فى مهدها فحضر مع الحوارى برنابا ثم تشاجر معه وندد بجميع الحواريين وكذبهم ووارد كل ذلك فى رسالته الى غلاطبه بالاصحاح الثانى عدد ٥ فى قوله « الذين لم تذعن لهم بالخضوع ولا ساعة » ثم تابع تهجمه على الحواريين فى عدد ٦ — ٨ من تلك الرسالة فقال « وأما المعتبرون انهم شىء أى أنهم تلاميذ المسيح — مهما كانوا لا فرق

عنـدى فان الذى عمل فى بطرس لرسالة الختان عمل فى أيضـا للأمم » فزعم بولس هنا أنه يقوم بتبليغ رسالة المسيح الى الأمم رغم اقراره بأن تعـاليم بطرس تلميذ المسيح هى الى أهـل الختـان فقط أى الى الاسرائيليين فقط .

اذن على من تصدق البشارة السابقة « مشتهى كل الأمم » :

ان هذه البشارة لا تنطبق الا على النبى محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فقد أرسله الله من غير الاسرائيليين أى من الأميين وبتعبير أولئك الاسرائيليين كان من الأميين أى من غـير الاسرائيليـين وكانت دعوته صـلى الله عليـه وسلم الى العالم أجمع والى النـاس جميعـا الأبيض والأسـود والأحمـر والأصفر .

قال تعالى مخاطبا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . سورة سبأ ٢٨ .

وقال جلت كلماته « قل يا أيها النـاس انى رسـول الله اليـكم جميعا » . سورة الأعراف ١٨٥ واذا رجعنا الى الأصل العبرانى لكلمة (مشتهى) كل الأمم نجد أنهـا (حمدوت) الأمم أى محمود الأمم واسم محمـود هـو ضمن أسماء النبى (١) محمـد صلى الله عليـه وسلم فضلا عن ذلك فانه صلى الله عليـه وسلم أسرى به الى بيت المقدس قبل الهجرة فزاد ذلك شرف بيت المقدس مما يوافق عبارة املاء هذا البيت مجدا أعظم من مجـده الأول أى من قبل تمام اسراء النبى اليه ـ وبعد وفاته صلى الله عليه وسـلم قام المسلمون بفتـح بيت المقـدس وحـرروه من الرومان ـ فنعمت المدينة المقدسة بالسلام لأن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنـه أعطى السلام والامان لسكان بيت المقدس وذلك بعقد المعـاهدة وتوثيـق شروط الصلح مع أهـل تلك المدينة ولم تنعم المدينة منـذ تلك البشارة بهذا السلام الحقيقى

(١) وهذا ما حققه الاب عبد الاحد داود الاشورى العراقى مطران مدينتى الموصـل وديار بكر فى القرن الماضى وذلك فى أبحاثه التى ضمنها كتابه (الانجيل والصليب) فى الباب الثالث والمحفوظ حاليا بدار الكتب المصرية .

الأعلى يد ذلك الخليفة المسلم العادل وهذا يوائم عجز النص المشار اليه فى قوله « وفى هـذا المكان أعطى السلام يقول رب الجنود » .

ثانيا : ان لفظ (مسيا) كان يعنى عند الاسرائيليين معنى (رسول يأتى من عنـد الله) وهـذا ما وضـحه الأسـتاذ عوض سمعان البـاحث النصرانى القبطى فى كتابه (الله طرق اعلانه عن ذاته) وفيـه يقـرر أن اليهود ومنهم تلاميذ المسيح كانوا ينتظـرون (المسيا) وان هـذا (المسيا) بالنسبة الى أفكارهم التى توارثوها عن أجـدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتيهم من عند الله ــ وليس هو ذات الله .

ونفس هـذا المعنى أشار اليـه برنابا فى انجيـله عن مناقشـة بين امرأة سامرية وبين المسيح عليـه السلام اذ يقول فى الفصل الثـانى والثمانين أجابت المرأة اننا ننتظـر (مسيا) فمتى جاء يعلمنـا أجاب يسوع (وتعنى هـذه الكلمة اسم المسـيح كمـا ذكـرنا سابقا) ــ أتعلمين أيتها المـرأة أن مسيا لابد أن يأتى أجابت نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع وقال يلوح لى أيتهـا المرأة انك مؤمنة فاعلمى اذن أنه بالايمـان بمسـيا سـيخلص كل مختارى الله ــ اذن وجب أن تعرفى مجىء مسيا ــ قالت المـرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد أجاب يسوع انى حقا أرسلت الى بيت اسرائيـل نبى خـلاص لكن سيأتى بعـدى مسيا المرسل من الله لكل العالم) .

من هـذا النص ومـن النص السابق عليه فى سـفر حجى النبى يتضح أن المسيح عليه السلام لم يكن هو المسيا كما يدعى النصارى خصوصا وأن النصارى تغـالوا فى المسيح فرفعـوه من مرتبـة النبوة والرسالة الى مرتبة الألوهية وجعلوه أحد الاقانيم الثلاثة المقدسة المكونة للثالوث الالهى على حد اعتقـادهم رغم أنه كثـيرا ما كان يعبـر عن نفسه كما سبق أن قدمنا بأنه ابن الانسان طبقا لمـا هـو مذكور فى الأناجيل المتداولة ورغم أن تلميذه بطرس يقرر فى الاصحاح الثـانى من سفر أعمال الرسـل عـدد ٢٢ بنفس هـذا المعنى بقوله (يسوع

الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون) .

ويذكر برنابا فى انجيله ان الاسرائيليين طلبوا من المسيح عليه السلام أن يبين لهم اسم هذا النبى الذى لقبوه بمسيا أى (برسول الله) فيقول فى الباب السابع والتسعين (فقال حينئذ الكاهن ماذا يسمى مسيا وما هى العلاقة التى تعلن مجيئه أجاب يسوع أن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه) ثم يقول : (ان من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن ايمانك لا يهن أبدا ان اسمه المبارك محمد حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين يا الله أرسل لنا رسولك يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم) وشبيه بذلك ما ورد بانجيل يوحنا فى اصحاحه الرابع عدد ١٥ ، ١٦ ، ١٧ فى قوله عن المسيح « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مميزا آخر ليمكث معكم الى الأبد روح الحق » كما ورد فى الاصحاح السادس عشر من نفس الانجيل عدد ١٣ قوله (واما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية) ويعلق العالم الفرنسى الدكتور موريس بوكاى فى كتابه (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) عن النصوص السابق الاشارة اليها والواردة فى انجيل يوحنا بقوله ان المسيح يبشر بأن الله سيرسل الى البشر وسيطا آخر كما كان هو وسيطا لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض وأن هذا الوسيط هو الـ (Paraclet) مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام فهو نبى من البشر يسمع كلام الله ويكرر على مسامع البشر رسالته فهو اعلان بمجىء نبى بعد المسيح وقد بينا فى أحد مقالاتنا الماضية والسابق نشره بمجلة الأزهر (فى الجزء الرابع

من السنة الخمسين والذى صدر فى شعبان ١٣٩٨ هـ ان ما تعنيه عبارة المعزى باللغة اليونانية وهى أساس ترجمة انجيل يوحنا الى كل لغات العالم هو لفظ (Hepikhatoz) وقد ترجمت الى باقى اللغات الأوربية (Pericletos) ورسمت باللغة العربية (البارقليط) وذلك فى طبعات الكتاب المقدس القديمة ــ وتعنى هذه العبارة فى معناها الحرفى (أحمد) الذى هو من أسماء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

كما ذكرنا ما يؤيد ذلك بشهادة بعض علماء النصرانية المحققين خصوصا المستشرق الايطالى الدكتور (كارلونيلنو) عندما سأله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار عن العبارة المذكورة فقال ان معناها (الذى له حمد كثير) وهو ما يوافق أفعل التفضيل فى اسم أحمد ويتفق مع ما ذكره القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام فى البشارة به الى قومه من الاسرائيليين فى قوله « واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » سورة الصف آية ٦ .

أما القول بأن المسيح عليه السلام كان ملكا فلا أساس له من الحقيقة ولا ظل له من التاريخ والمتتبع لحال الاسرائيليين خلال قراءة الأناجيل المتداولة والمعترف بها بين النصارى يرى أن الاسرائيليين فرحوا أولا بالمسيح لأنه كان فى اعتقادهم آتيا ليخلصهم من عبودية الرومان وليخضع الأمم والشعوب لسلطانهم فأخذوا يعدون العدة للمناداة به قائدا لهم وزعيما ثم تنصيبه ملكا عليهم ليقوم بتنظيم صفوفهم وقيادتهم فى حربهم التحريرية ضد الرومان ــ وكانوا يناودنه كثيرا ملك اليهود حتى أنه عند دخوله فى مدينة القدس والتى كانت تدعى سابقا (أورشليم) واستقبالهم له قبل عيد الفصح اليهودى فرشوا له ملابسهم فى طريق موكبه وأخذوا يلوحون له

بالرياحين والأغصان مرددين قولهم (السلام يا ملك اليهود تبارك الآتى باسم الرب) ولما عزم اليهود على تنصيب المسيح رسميا ملكا عليهم رفض العرض وفر الى الجبل هاربا منهم ومن احتفالهم ، وقد صرح بذلك انجيل يوحنا فى الاصحاح السادس عدد ١٤ ، ١٥ فى قوله « فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم .. وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف الى الجبل وحده » وعندئذ تحطمت آمال اليهود فى المسيح وتبخرت أحلامهم فى الخلاص على يديه وفى استعادة مجدهم الضائع وكانت هذه الصدمة الكبيرة فيه كافية لتحويل حبهم له الى كراهية طاغية فكان ما كان من أمر تفكيرهم فى قتله والتخلص منه .

ثالثا : أما عن شيلون فان النص كما هو مذكور بسفر التكوين فى الاصحاح التاسع والأربعين عدد ١٠ قوله « لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

والشعوب المختلفة لم تخضع الا لشريعة الاسلام مما يشير بأن شيلون هذا مقصود به النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومما يؤيد هذا المعنى أن النص المذكور عن نسخة لندن فى ترجمته هو (حتى يجىء الذى له الكل واياه تنتظر الأمم) مما يتفق مع النص الوارد بسفر حجى النبى السابق مناقشته والمتضمن البشارة بمشتهى كل الأمم .

وفى زمن السلطان بايزيد العثمانى سلطان تركيا اعتنق حبر من أحبار الاسرائيليين الدين الاسلامى وسمى نفسه عبد السلام وكان ماهرا فى اللغة العبرانية مجيدا لدراسة التوراة خبيرا بتفسيرات نصوصها وتوضيح ماخفى منها من كلام الأنبياء الذى كان أكثره رموزا انطوت على مقاصد خفية لا يمكن ادراكها الا عند حدوث ما تشير اليه ـ

ولذلك ألف كتابا أسماه بالرسالة الهادية يوضح فيها ما غمض على بنى قومه السابقين من الاسرائيليين وقد أورد فى تلك الرسالة كلام جد بنى اسرائيل الذى سلفت الاشارة اليه وترجمها من لغة التوراة العبرانية الى اللغة العربية كالآتى : (لا يزول الحكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجىء الذى له واليه تجتمع الشعوب) ، وقال عنها المراد من الحاكم من يهوذا هو موسى عليه السلام لأنه بعد يعقوب ما جاء صاحب شريعة الاموسى وأن المراد من الراسم هو المسيح عليه السلام لأنه بعد موسى ما جاء صاحب شريعة الا المسيح (وان كانت شريعته مكملة لشريعة التوراة) وبعدهما ما جاء صاحب شريعة الا النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك كان هو المراد من كلام يعقوب فى آخر الأيام ويؤكده بقوله (حتى يجىء الذى له) أى الذى له الحكم ـ وأما قوله واليه تجتمع الشعوب فهى دلالة واضحة وعلامة صريحة على نبى الاسلام لأن الشعوب ما اجتمعت الا اليه وكان دينا عالميا الى الناس والشعوب جميعا بوصفه رسولا بشيرا ونذيرا للعالم أجمع .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن ما ذكره القس برسوم شحاته من أن المسيح عليه السلام كان من سبط يهوذا هو قول غير سليم لأنه طبقا لما ذكره انجيل متى فى اصحاحه الأول وما ذكره انجيل لوقا فى آخر الاصحاح الثالث فان يوسف النجار هو الذى كان من سبط يهوذا ولا يوجد أى ارتباط نسبى بين المسيح وبين يوسف النجار هذا اللهم الا اذا طعن فى شرف أمه بأنه جاء نتيجة اتصال غير شرعى قبل الزواج من خطيبها يوسف النجار كما يزعم الاسرائيليون ذلك (معاذ الله) لذلك كان نسب السيد المسيح من جهة أمه السيدة مريم حيث كانت من نسل هارون عليه السلام أى أنه كان من سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام وهو

جد النبى هارون وليس من سبط يهوذا كما ذكر ذلك القس . والخلاصة التى ننتهى اليها مما ذكرناه آنفا أن بشارات الأنبياء السابق الالماع اليها عن (مشتهى كل الأمم) وعن (المسيا) وعن (شيلون) انما تشير الى النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس الى أحد سواه . هذا هو الحق ولا داعى لانكاره أو اخفائه أو تلبيسه بالباطل ، وصدق الله العظيم اذ يقول « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » . سورة آل عمران ٧١ .

المستشار محمد عزت الطهطاوى

« القوى والضعيف »

« قال على ـ كرم الله وجهه : من قوى فليقو على طاعة الله ، ومن ضعف فليضعف عن محارم الله » .

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٥٠٣ قالت الاهرام : الصين تهاجم موسكو وواشنطن لموقفيهما من الشرق الأوسط ، وهذا خطأ لأن كلمة تهاجم لم ترد عن العرب ، وانما الذى ورد عنها من هذه المادة الفعل الثلاثى المجرد ، والثلاثى المزيد بالهمز ، فمن الأولى تقول : هجمت على الأعداء هجوما اذا أتيتهم بغتة ، وهجمنا عليهم الخيل ، والريح تهجم التراب على الدار أى تلقيه عليها ، يتعدى ويلزم ، ومن الثانى تقول : أهجم القوم ابلهم اذا أراحوها . وأهجم الله المرض عن فلان اذا جعله يقلع ويفتر وقد يجتمع الثلاثى والمزيد كما فى قولك . اهجم ابلك واهجمها أى احلبها وأرحها .

٥٠٤ ينكر كثير من الأدباء جمع باسل على بواسل استنادا منهم الى القاعدة المعروفة ، والى أن معاجم اللغة قصرت جمعه على بسل بضم فسكون وبسلاء ، قال ابن مالك فى ألفيته :

فواعل لفوعل وفاعل

وفاعلاء مع نحو كاهل وحائض وصاهل وفاعله وشذ فى الفارس مع ماثله

أى أن فاعلاء وصفا لمذكر عاقل لا يجمع على كواعل الا اذا سمع عن العرب ، وقد مثل النحويون للمسموع بفوارس وسوابق ، ودواجن بمعنى مقيمين ، وهوالك ، ونواكس بمعنى مطأطئى رءوسهم ، وخوالف بمعنى قاعدين

متخلفين ، ونواكص عن الأمر بمعنى محجمين عنه ، وزاد البغدادى فى خزانة الادب جزء ١ ص ١٤١ عند التكلم على قول الفرزدق :

واذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم
خضع الرقاب نواكس الأبصار

جموعا هى : غائب وغوائب عن عتبة بن الحارث ، وشاهد وشواهد عن جزء بن سعد .

وفى شرح أدب الكاتب للجواليقى حارس وحوارس، وحاجب وحواجب من الحجابة عن ابن الأعرابى . ومن ذلك ما جاء فى المثل «مع الخواطىء سهم صائب» جمع خاطىء ، وقولهم : أنا وحواج بيت الله ودواجه بتشديد الجيم جمع حاج ، وداج ، والدواج هم الأجراء والحمالون والأعوان من دج دجيجا اذا دب دبيبا ، وحكى المفضل : رافد وروافد بمعنى باذلى العطاء .

ولكنهم لم يذكروا بواسل لعدم وقوعهم عليه .

والواقع أن هذا الجمع نقل عن العرب وورد فى شعر عربى قديم ، قال باعث بن حريم ابن أسد اليشكرى فى ديوان الحماسة جزء ٢ ص ٨٠١ فى مناسبة انتقامية من بنى أسيد لأنهم قتلوا أخاه وائل بن ضريم :

سائل أسيد (١) هل ثأرت (٢) بوائل
أم هل شفيت النفس من بلبالها (٣)
وكتيبة سُفْع (٤) الوجوه بواسل
كالأسد حين تذب عن أشبالها (٥)

وقد قال التبريزى شارح الديوان عند الكلام على بواسل : وفواعل فى صفة

(١) أسيد بضم الهمزة وتشديد الياء اسم قبيلته
(٢) ثأرت : أدركت تأرك وهو المطالبة بالدم
(٣) البلبال : الهم والوسواس فى الصدور لاهتمامهم بطلب الثأر
(٤) سفع الوجوه : أى أن وجوههم تغيرت فاسودت من لفح الشمس
(٥) تذب عن أشبالها : تمنع وتدفع عنها الضرر .

الرجال قليل ، يقال : فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخارج وخوارج .

وقد ذكر الشيخ محمد على الفيومى شارح شواهد شذور الذهب عند شرح بيت الفرزدق السابق (بواسل) .

مما تقدم استبان أن هذا الجمع سليم ولا حرج على من يستعمله .

٥٠٥ ويقولون فى جمع حبيب : أحباب ، وحبايب ، وكلا هذين الجمعين خطأ فى هذا المعنى ، والصواب أن يجمع الحبيب قياسا على أحبة ، كطبيب وأطبة وعلى أحباء كطبيب وأطباء ، وخليل وأخلاء : ومنه قوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » .

أما أحباب فجمع لمفردين : أحدهما الحب بكسر الحاء بمعنى المحب كزر وأزرار ، والآخر الحب بضم الحاء وهو الجرة العظيمة كبر وأبرار وهو القمح .

وقد قالوا فى التحية : حبة وكرامة ، والحبة بالضم معناها الحب ، كما قالوا : حبا وكرامة ، يعنون بالحب الجرة ، وبالكرامة غطاء الجرة .

ويجمع الحب أيضا بمعنى الجرة على حببة كدب ودببة ودرج ودرجة ، ، وعلى حباب بكسر الحاء كجب وجباب بمعنى الآبار .

وأما حبايب فعامى صوابه حبائب بالهمز جمع حبيبة ككريمة وكرائم .

٥٠٦ ويقولون : ضحك البائع على المشترى ، يعنون أنه سخر منه وغبنه ، وهذا التعبير يشوبه الفساد ، لأن الحرف على لا يستعمل مع هذا الفعل : وانما يستعمل معه (١) من أو الباء فيقال : ضحك

(١) ومن ذلك قوله تعالى « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

منه أو ضحـك به يضحـك ضحكا بزنة لعب ، وضحـكا بزنة علم ، وضحكا بزنةفهم، وضحكا بكسرتين ، فهـو ضاحك ، وضحاك مبالغـة ، ويقـال رجـل ضحكة وزان رطبة اذا كان يكثر الضحـك من الناس ، وضحـكه وزان غرفة اذا كان الناس يكثرون الضحك منه .

والضاحك والضاحـكة ما تقـدم مـن الأسنان ، والجمع ضواحك ، تقول افتر فلان عن ضاحكة وضواحك، ومن المجاز قولك ، ضحكت الأرض عـن النبـات اذا أظهرته ، وكذا ضحـكت الرياض عن الزهر ، وتبسـم الطلع وضحـك اذا تفلق ، وضحك السحاب اذا برق ، والغدير يضحك فى الروضة أى يتلألأ ، والنور يضاحك الشمس ، قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مـؤزر بعميم النبت مكتهـل

ويقال : ضحـكت الأرنب اذا حاضت ، قيل ومنه قوله تعالى : « وامرأته قائمـة فضـحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » .

٥٠٧ وينكرون أن يقول القائل : قبلت عن صـديقى سديد رأيه ، ويصرون على أنه يجب أن يستبدل بعن الحرف من فيقال : قبلت من صديقى كذا محتجين بقوله تعالى : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا » .

وقوله : « ولا يقبل منهـا شفاعة » . والحق أن التعبير الذى أنكروه سليم لا غبـار عليه ، وبيان ذلك أن عن تأتى مرادفة (١) لمن بدليل قـوله تعالى : « وهو الذى يقبـل التوبة عن عباده » وقوله ،

(١) وتأتى أيضا مرادفة للباء كما فى قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » ومرادفة لبعد كما فى قوله « عما قليل ليصبحن نادمين » .

« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا » .

٥٠٨ وينكرون أن يقال : أوجبت الحكومة غلق باب المتجر اذا لم يراع صاحبه التسعير ، معتمدين على أن معاجم اللغة تقول : غلق الباب يغلقه غلقا من باب ضرب لغة رديئة متروكة ، حكاها ابن دريد عن أبى زيد ، ويصرون على أن اللغة الفصيحة توجب أن يقال : أوجبت الحكومة اغلاق باب المتجر .

والحق أن التعبير الذى أنكروه سليم ، لأن الغلق فيه ليس مصدرا للفعل الثلاثى ، وانما هو اسم مصدر من الاغلاق ناب عن المصدر ، كما أن الطاعة اسم من الاطاعة نابت عنه فى قوله تعالى : «طاعة وقول معروف»

وكما أن الطاقة اسم من الاطاقة نابت عنه فى قوله سبحانه : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قول صاحب القاموس : الاغلاق ضد الفتح والاسم الغلق وفى الوصف يقال : باب غلق بضمتين أى مغلق : كما يقال باب فتح أى مفتوح .

أما قولهم : اهاب مغلوق فمعناه أنه دبغ بالغلقة وهى شجرة مرة بالحجاز وتهامة يدبغ بها ، وقولهم رجل غلق ، أو جمل غلق معناه انه كبير أعجف أى هزيل وأما الغلق بالتحريك فهو المغلاق الذى يغلق به الباب ويفتح بالمفتاح كالغلاق بالكسر ومن المجاز قولهم : كان فلان مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، وأغلق القاتل فى يد الوالى أى أسلم يصنع به ما يشاء ، وتقول : أمر الوالى بالقاتل أن يغلق ، وبالأسير أن يطلق .

٥٠٩ ولقد فشا على ألسنة عدد وافر من الخاصة قولهم : السفر فى الصحراء ليلا شديد الخطورة ، يعنون أنه يسبب للمسافرين فيها أخطاراً جمة ويوقعهم فى المهالك ، وهذا التعبير يشوبه خطأ ، لأن للخطورة معنى لا يمت بأى صلة للهلاك وخوف التلف ، وانما معناها ارتفاع القدر وعلو المنزلة ، تقول : فلان خطير اذا كان ذا قدر ومكانة مرموقة ، وقد خطر خطورة من باب سهل سهولة أى ارتفعت منزلته وصار عظيما .

ولاصلاح تعبيرهم ليؤدى المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : السفر فى الصحراء ليلا شديد الخطر بالتحريك أى شديد الهلك والهلكة ، أو يقال شديد الأخطار أى المهالك .

وللخطر المحرك عدة معان زيادة على المعنى السابق .

١ ــ فهو السبق يتراهن عليه ، تقول : وضع القوم للمتراهنين خطرا أى غرضا يوضع فى النضال فمن سبق أخذه ، ولذا يقال : أحرز فلان الخطر .

٢ ــ وهو أيضا الحظ والنصيب ، ومنه حديث عمر رضى الله عنه فى قسمة وادى القرى قال : وكان لعثمان فيه خطر ، ولعبد الرحمن خطر أى نصيب .

ومنه أيضا قول الشاعر : فى ظل عيش هنى ما له خطر ، أى ما له نصيب .

٣ ــ وكذلك هو المثل والعدل ، تقول لصديقك : لا تجعل نفسك خطرا لفلان وأنت أوزن منه ، أى لاتجعل نفسك مثله وأنت خير منه وزنا .

٥١٠ وينكرون أن يقال : أريد لأعدل بين المتقاضين ، . وأن يقال : أمرت لأحسن معاملة

الناس ، ويصفون القائل بأنه مخطىء ، ويرغمونه على أن يقول : أريد أن أعدل بين المتقاضين ، وأمرت أنأحسن معاملة الناس بدون لام فيهما والحق أن التعبيرين اللذين أنكروهما فصيحان ولا فساد فيهما بدليل قوله تعالى : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » وقوله : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وقوله : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم » وقول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقوله جل شأنه : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » وقوله : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين »•

اللام فى هذه التعبيرات كلها قيل انها زائدة ، وقيل انها للتعليل • ثم اختلف هؤلاء ، فقيل المفعول محذوف ، والتقدير ، يريد الله التبيين ليبين لكم ويهديكم أى ليجمع لكمبين الأمرين ، وأمرنا بما أمرنا به لنسلم وفى البيت أريد السلو لأنسى ذكرها •

وقال الخليل وسيبويه ومن تابعهما : الفعل فى ذلك كله مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء ، واللام وما بعدها خبر •

أى ارادة الله للتبيين ، وأمرنا للاسلام ، وعلى هذا فلا مفعول للفعل •

٥١١ حينما سمى المرحوم محمد حافظ ابراهيم كتابه بالبؤساء شن كثير من علماء النحو ضده غارة شعواء ، محرمين استعمال هذا الجمع ، ورأوا أن يستبدلوا بهالجمع السالم، لأن معاجم اللغة لم تذكر جمع التكسير ، والواقع انها لم تعرض له لأنه قياس مطرد لبائس وبئيس ، فقد جاء فى

الصحاح : بئس الرجل بؤسا اذا افتقر واشتدت حاجته فهو بائس وبئيس . ومما يطرد فيه جمع فعلاء .

١ ــ فعيل بمعنى فاعل وصف لمذكر عاقل غير مضعف ولا معتل اللام ــ ككريم ، وبخيل ، وحليم ، ورحيم ، ولئيم وخبيث ، ومثلها بئيس قال ابن مالك فى ألفيته :

ولكريم وبخيل فعلا
كذا لما ضاهاهما قد جعلا

٢ ــ فاعل اذا كان وصفا دالا على غريزة وسجية وأمر فطرى غير مكتسب غالبا كعاقل وعقلاء ونابه ونبهاء ، وشاعر وشعراء ، وجاهل وجهلاء ، أو كان وصفا دالا على ما يشبه الغريزة فى الدوام وطول البقاء كصالح وصلحاء ، وفاسق وفسقاء ، ولاعب ولعباء (١) ، وبائس وبؤساء ، وقد جاء فى التصريح ما نصه : أكثر فعلاء على فاعل اذا كان دالا على معنى غير مكتسب كالغريزة وهى الطبيعة التى طبع الانسان عليها كعاقل وعقلاء ، وصالح وصلحاء ، وشاعر وشعراء ، فان العقل والصلاح والشعر من الأوصاف الشبيهة بالأوصاف الغريزية كالكرم والبخل ، ومثل هذا ورد فى الهمع ص ١٧٨ من الجزء الثانى

٥١٢ ويقولون : تخرج من الكليات والمعاهد فى هذا العام عدد وافر من الطلاب .

وهذا القول يشوبه الخطأ ، لأن التخرج ليس معناه الخروج المعروف حتى تستعمل معه من وانما معناه التعلم والتأدب ، ولا تستعمل معه الا فى ، تقول : تخرج

(١) من هذا قول ابن الرومى يمدح أبا القاسم التوزى الشطرنجى .
غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء

الطالب فى المعهد وتأدب فيه ، كما تقول : تعلم فى المعهد وتأدب فيه .

ومن هذا يقال : خرج الأستاذ تلميذه اذا علمه وأدبه فصار خريجه وزان سكين ، قال زهير يصف خيلا :

وخرجها صوارخ (١) كل يوم
فقد جعلت عرائكها تلين (٢)

أما الخروج فله معنيان : أحدهما الخروج من الباب ومن البيت ونحوهما وهو ضد الدخول وهذا هو الذى تستعمل معه من ، والآخر معناه النبوغ وحسن التصرف ، تقول : خرج فلان فى العلم أو الأدب أو الصناعة اذا نبغ وأحسن التصرف فى كل منها .

٥٢٣ كتبت صحيفة الأهرام عنوانا قالت فيه :

«وزير الاسكان والتعمير، ومحافظ الاسكندرية يفتتحان محطة مياه المنشية » وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأن كلمة التعمير لا تمت بأى صلة الى الاسكان والبناء ، وانما معناها اطالة العمر .

تقول : عمر الله نوحا عليه السلام تعميرا ، أى طول عمره فالله معمر بصيغة اسم الفاعل ، ونوح معمر بصيغة اسم المفعول .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قوله تعالى : «وما يعمر من معمر» وقوله : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » .

وكما يقال : رجل معمر يقال : رجل عامر من قولهم : عمر الرجل يعمر من باب فهم عمرا بالفتح وعمرا بالضم اذا عاش زمانا طويلا .

(١) الصوارخ : جمع صارخ وهو المغيث
(٢) العرائك : جمع عريكة وهى الطبيعة أى انها سلسة محنكة .

ولتـــأدية المعنى المبتغى ينبغى أن يقـال : وزيـــر الاسكان والعمارة من قولهم عمر المنزل أصحابه عمارة من باب كتب اذا سكنوه فهـو معمور ، ومن هذا قوله عـز وجل : « والبيت المعمـور والسقف المرفوع » • ومما يدل على أن العمارة اسـم مصدر قـوله سبحـانه : « أجعلتم سقـاية الحـاج وعمارة المسجد الحرام » •

أو يقال : وزير الاسـكان والاعمار ، ففى القاموس : وعمر الله منـــزلك عمـارة وأعمـره أعمـارا ، أى جعله آهلا بسكانه •

أو يقال : وزير الاسـكان والعمر بفتح فسكون ، ففى المصباح وعمرت الدار عمـرا بنيتها والاسم العمارة • مما عرضنا استبان أن التعميـر هو اطالة العمر لا عمـــارة الصحراء والمنـازل والخراب وغيرها ، وأن هذه الأشيـاء اذا عمرت كان مصدرها هذا الفعـل العمر وزان العـدل واسم المصدر عمارة بالكسر، والعمارة أيضا أصغر مـن القبيلة •

٥١٤ ويقـــولون : قلمنا أظافـر الأعداء ، يعنون أنهم غلبوهم، وانتصروا عليهم ، وهذا خطأ، لأن كلمة أظـافر لا وجـود لها فى العربية •

والصواب أن يقال : قلمنا أظفار الأعداء ، الواحد ظفر بالضم وبضـمتين ، وهـو بضمتين أفصح ، وبه قـرأ السبعة قوله تعالى : «وحرمنا كل ذى ظفر » •

أو يقـال : قلمنـا أظافير الأعداء ، واحـدها أظفـور بضم الهمـــزة كأســبوع وأسابيع قال :

مابين لقمتها الأولى اذا انحدرت
وبين أخرى تليهـا قيس أظفور

وقد يجمع الطفـر بالضم على أظفر كركن وأركن •

والأظفر الطـويل الأظفار العريضها ، كما يقال رجـل أشعر اذا كان طويل الشعر • ويقال فلان مقلوم الظفـر اذا كان قليل الأذى ، وفلان كليل الظفر اذا كان مهينـا والظفر بالتحريك معناه الفوز بالمطلوب ، تقول : ظفر فلان بعـدوه ، وظفـر عليـه ، وظفره ، كما تقول لحقـه ولحق به •

ويقال : رجل مظفر وزان معظم ، وظفر وزان طـرب ، وظفير وزان كريم ، وظفير وزان سـكيت لمـن كان لا يحاول أمـرا الا ظفر به وفاز •

ومن المجاز قولك : أردت كذا فظفرته وأصبتـه ولم يفتنى ، وقولك لمن لا يطلب شيئا الا أصـابه وفاز به : فلان ظفر وزان فرح ، قال :

هو الظفر الميمون ان راح أو غدا
به الركب والتلعـابة المتحبب

٥١٥ ويصفـون من استـدفأ فيقولون : رجـل دفىء ، وامـرأة دفيئـة وزان كريم وكريمة •

والصـواب أن يكون وصفها بالدفء من باب فرح فيقال : رجل دفىء ، وامرأة دفئة كفرح وفرحة أو يقال : رجل دفئان ، وامرأة دفـأى كغضبان وغضبى وعطشـان وعطشى •

أمـا الدفء والدفيئـة فـلا يوصف بهمـا (١) الأناسى ، وانما يقال من باب ظرف دفؤ يومنـا فهـو دفىء ، ودفؤت ليلتنا فهى دفيئة •

وللدفء معان عدة :

١ ــ فهو نتاج الابل وألبانها وما ينتفع به منهـا كمـا فى

(١) مما يدل على ذلك قول صاحب المصـباح : دفىء البيت يدفأ من باب تعب قالوا ولا يقال فى اسم الفاعل دفىء وزان كريم بل دفىء وزان تعب .

قوله تعالى : « ولكم فيهـا دفء » . وفى الحـــديث : « لنـا من دفئهم ما سـلموا بالميثاق » .

٢ ــ وهو السخونة اسم من دفىء الرجـل من بابى سلم وطرب دفاءة ودفأ .

٣ ــ وهو ما يستدفأ بـه من الوبر والصوف والشعر لأنه يتخـذ منهـا الأكسـية والأخبية ، تقول :

ما على فلان دفء أى ثوب يدفئه .

٤ ــ وهو العطية عـلى سبيل المجاز كما فى قولك : أدفأت فلانا ودفأته اذا أجزلت عطاءه قال :

وأعطيته دفءا كثيرا .

قال :

ودفء مـروان ودفء ابن أمه يعيش به شرق البلاد وغـربها

٥١٦ وهم يخطئون حين يقولون : صام الولد شهر رمضان بينا أو بينما أفطر أبـوه ، وكان ينبغى لهم أن يقولوا : بينا أو بينما صام الولد شهـر رمضان أفطر أبوه ، والمعنى أفطر الأب بين أوقات صوم الولد ، رذلك لأن بينا وبينما ظرفان تجب لهما الصدارة ، وهذا هو الفرق بينهما وبين (بين) ويمكن اصـــلاح عبارتهـــم بأن يقال : صام الولد على حين أو فى حين أفطر أبوه . وكثـيرا ما يأتى بعدهما اذ أو اذا الفجائيتان ، فمن الاولى قـول بعض بنى عذرة :

استقدر (١) الله خيراً وارضين به
فبينما العسر اذ دارت مياسير (٢)
وبينما المرء فى الأحياء مغتبط (٣)
اذ صـــار فى الرمس (٤) تعفـوه الاعاصير (٥)

(١) استقدر الله خيرا : سله أن يقدره لك
(٢) المياسير : جمع موسر وهو ضد المعسر .
(٣) مغتبط : حسن الحال مسرور .
(٤) الرمس : القبر .
(٥) تعفو الاعاصير : تذهبه الرياح الشديدة .

وفى الحديث : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل شديد بياض الثياب » ومن الثانية قول الحرقة بنت النعمان :

بينا نسوس الناس والامر أمرنا
اذا نحن فيهم سوقة نتنصف

ويرى الأصمعى أن يجر الاسم الذى يأتى بعد بينا اذا صلح موضعه بين كما فى قول الشاعر :

بينا تعنقه الكماة وروغة
يوما أتيح له جرىء سلفع

ويرى غيره رفع ما بعدها على الابتداء والخبر كما فى قول بعض بنى عذرة السابق .

وبين قد يجر وهو ظرف على سبيل الاتساع كما فى قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما » أصله وان خفتم شقاقا بينهما .

وذلك شبيه بقوله تعالى : « بل مكر الليل والنهار » اذ أصله بل مكر فى الليل والنهار .

ومن هذا أيضا قوله تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » أى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه .

وقوله سبحانه : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » أى وأصلحوا ما بينكم من الأحوال .

(١) نسوس الناس : نرعى شئونهم فنأمرهم وننهاهم .
(٢) السوقة : الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث وقد يجمع على سوق كصرد .
(٣) التعنق : الاعتناق .
(٤) نتنصف : نخدم .
(٥) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع المدجج بالسلاح
(٦) الروغ : الذهاب يمنة ويسرة فى سرعة خادعة
(٧) أتيح له : هيىء له .
(٨) السلفع بفتحتين بينهما سكون : الشجاع الواسع الصدر .

وقول صخر أخى الخنساء :

وذى اخـــــوة قطعت أقوان بينهم
كما تركونى واحدا لا أخا ليا

٥١٧ ويقولون : هذه امرأة غيورة على شرفها ، شكورة لمن قدم لها العطاء ، فخورة بالآبـاء والأبناء ، صبورة على ما نزل بها من البلاء .

واختيار هذه الصفـــات وأمثالها مختومة بالتاء خطـأ صراح ، قال ابن مالك :

ولا تلى فارقة فعولا أصلا

أى أن التاء التى تفـرق بين المذكر والمـؤنث لا تلى صفة بزنة فعول بمعنى فاعل والصواب أن توصف المـرأة بأنها غيـور ، وشـكور ، وفخور ، وصبور ، بغير تاء كما يوصف المذكر .

كما انهم يجمعون هـــذه الصـفات وما يشبهها جمـع تصحيح ، فيقولون فى جمعها للمذكـر هم غيـــورون ، وشكورون ، وفخـورون ، وصبورون .

ويقـولون فى جمعهـــا للمؤنث : هـــن غيورات ، وشكورات ، وفخـورات ، وصبورات ، وهـذا خطـأ أيضا .

والفصـيح أن تجمـــع للمذكر والمؤنث جمع تكسير على فعل بضم كل من الفـاء والعين فيقال : هم وهن غير على الشرف ، شكر لمن قـدم العطاء ، فخر بالآباء والأبناء، صبر على اللأواء .

٥١٨ ويقولون : لقد آخذ الرجل ابنه على كثرة لعبه وعـدم اهتمـامه بدروسه ، وهـذا خطأ ، لأن على لا تستعمـل مع هذا الفعل ، وانما تستعمل معه الباء ، فيقال آخذ الرجل ابنه بكثرة لعبـه مؤاخـذة ويؤيد هذا قوله تعـالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكـن يؤاخـذكم بما عقدتم الأيمان » وقوله : « ولو يؤاخـذ الله النـاس

(١) الأقران : الحبال واحدها قرن بفتحتين . يقال أعطاه بعيرين فى قرن أو فى قران اى فى حبل يقرنان به .

بظلمهم ماترك عليها من دابة » وقوله : « لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » وقوله : « قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » وقوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وكما تستعمل الباء مع الرباعى تستعمل أيضا مع الثلاثى فيقول القائل لمن أراد أن ينصح له : لو كنت منا لأخذت باخذنا بكسر الهمزة ، أى لأخذت بطريقتنا وشكلنا .

٥١٩ ويقولون : نبه الأستاذ تلاميذه تنبيها الى الاهتمام بكثرة الاطلاع ، وهذا الفعل لا تستعمل معه الى ، وانما له استعمالان : أحدهما : أن تستعمل معه على ، فيقال : نبه الأستاذ تلاميذه على الاطلاع اذا وقفهم عليه توقيفا تستعمل معه الباء ، تقول : فتنبهوا هم عليه ، والآخر أن نبهت باسم أستاذى تنبيها اذا نوهت به ورفعت ذكره .

أما الثلاثى فتستعمل معه اللام ، تقول : سمعت كلاما فما نبهت له أى ما فطنت له ويقال : نبه فلان من باب ظرف نباهة اذا شرف واشتهر فهو نبيه ، ونابه ، ونبه بفتحتين وقوم نبه أيضا .

٥٢٠ ويقول الواحد منهم : أحب أستاذى وأحترمه ، لأنه بمثابة أبى ، يعنى أن أستاذه فى منزلة أبيه ومكانته .

وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن للمثابة معنيين لا يمت كل منهما بأية صلة الى المنزلة والمكانة .

أحدهما : الموضع الذى يثاب اليه ويرجع مرة بعد أخرى ، ومنه قوله تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » ولهذا سمى البيت مثابة ، تقول : ثاب الرجل الى بيته يثوب ثوبا من باب قال وثوبانا أيضا اذا رجع

اليه ، وثاب اليه جسمه اذا سمن بعد الهزال ، وثاب اليه ماله اذا كثر واجتمع .

ومثاب الحـوض وسطـه الذى يثـــوب اليه المـــاء ويرجع .

والآخر : الثـواب وجـزاء الطاعـة كالمثوبة ، تقـول : أثابك الله مثابة وجزاك المثوبة الحسنى .

ومن هـذا قوله سبحانه : « ولو أنهم آمنوا واتقـوا لمثوبة من عند الله خير » .

ولتأدية المعنى الذى يريده القائل ينبغى أن يقال : أحب استاذى وأحترمه كما أحب أبى وأحترمه لأنهما يتفقـان فى كريم الخلال ، فكل منهما أريب ، حصيف ، أريحى ، بصير بكل شىء صادق الظن ، جيد الحدس .

٥٢١ ويقولون : لفلان عند جاره مظلمته وزان مـــرحمته ، والصـواب أن يقال مظلمـة بفتح الميم وكسر اللام .

قال سيبـويه : المظلمـة اسم ما أخذ منك وتطلبه عند الظالم كالظلامة بضـم الظاء والظلَـمة بفتحهـــا وفى التهذيب المظلِمة بكسر اللام كالظُلامة بضم الظاء ، وهى التى تطلبها عنـد الظالم . جمعها مظالم ، أنشـد ابن برى :

متى تجمع القلب الذكى وصارما
وأنفا حميـا تجتنبك المظالم

تقول : عند فلان ظلامتى، ومظلِمتى بكسر اللام ، أى حقى الذى ظُلمته .

وأصل المظلمة والظُلامـة من الظلم ، وهو وضع الشىء فى غير موضعه ، ومن أمثال العربية فى الشبه : « من أشبه أباه فما ظلم » قال الأصمعى : ما ظلم أى ما وضـع الشبه فى غير موضعه ، وفى المثل « من استرعى الذئب فقـد ظلم » أى ظلم نفســه ، لأنه وضع الـــرعاية فى غيـــر موضعها .

د. عباس أبو السعود

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« ما عند الله خير وأبقى »

قال سليمان بن عبد الملك ، لأبى حازم وكان من العلماء العاملين ، مابالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم ، وخربتم اخرتكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب ، قال : فما قدومنا على الدار الآخرة ؟ قال : يختلف باختلاف العبيد ، فالعارف بالله ، المخلص لمولاه ، يكون قدومه على الدار الآخرة ، كقدوم الطفل الوحيد على أمه ، يعود اليها بعد طول غياب ، وأما المفرط فى جنب الله فيكون قدومه على الآخرة ، كما يقدم العبد الآبق من سيده ، يجىء اليه وهو موثق بالأغلال . قال سليمان : فما لنا عند الله ؟ قال : اعرض نفسك على كتاب الله ، قال : فى أى موضع أصيب ذلك ؟ قال : اقرأ قوله تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم ، وأن الفجار لفى جحيم » قال سليمان : يا أباحازم أقم عندنا فنصيب منك ، قال : أخاف أن أركن الى الذين ظلموا فتمسنى النار ، قال سليمان : خذ هذا المال ، فقال أبو حازم : مالى خير من مالكم ، قال سليمان . وما مالك ؟ قال : الثقة بالله ، والاعتماد على الله ، والرضا بما عند الله .

« خير الأمور الوسط »

سأل اعرابى ابن عباس فقال : ان العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط . هل هذا موجود فى القرآن ؟ قال ابن عباس : نعم . فى أربعة مواضع ، فى قوله تعالى فى وصف بقرة قوم موسى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » أى وسط بين الكبر والصغر ، وفى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » أى فتوسط بين الأمرين ، وفى قوله تعالى : «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » هذا السبيل ، هو الوسط ، وفى قوله تعالى فى مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

« البادى أظلم »

التقى شداد الحارثى بأسود فقال له : « لمن انت يا أسود ؟ » قال : « لسيد الحى يا أصلع ! » ، قال : « مـــا أغضبك من الحق الست أسود ؟ قال : « وما أغضبك أنت الست أصلع ؟ » !

« أعيـانا فرارا »

لقى ابو جعفر المنصـــور سفيان الثـورى فى الطـواف ، وسـفيان لا يعرفه ، فضرب بيده على عاتقـه وقال : « أتعرفنى ؟ »

قال سفيان : « لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار » .

قال ابو جعفـر : « عظنى أبا عبد الله »

قال سفيان : « وماذا عملت بمـا علمت ، فأعظك فيما جهلت ؟! »

قال أبو جعفر : « فما يمنعـك أن تأتينا ؟ »

قال سفيان : ان الله نهى عنكم ، فقال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » »

فمسح أبو جعفـــر يده بـه ، ثم التفت الى أصحابه ، وقال : « ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا ، الا ما كان من سفيان ، فقد أعيـانا قرارا » .

« من أين لك هذا ؟ »

خرج عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يوما من بيته ــ فقابله ابنه عبد الله ، وكان فى يده قطعة نقد برونزية ، فسأل عمر ابنه من أين لك هذا ؟ وليس فى جيب أبيك ولا فى بيته مثله ، فقال : عبد الله : هى من ابى موسى الأشـــعرى ، وكان ابو موسى فى ذلك الحين ، عاملا على بيت مال المسلمين ، فأخذ عمر بيد ابنه ، وقصد أبا موسى ، وصاح قـائلا : أحقـــا أبا موسى أنت أعطيت ابنى هذه القطعة ، فقال أبو موسى : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال عمار غاضبا : ولماذا ؟ قال أبو موسى : أحصيت مال المسلمين ، فوجدته ذهبا وفضة ، وليس فيه من البرونز سوى هذه القطعة ، فلم أشأ أن أحرر بها قائمة منفردة ، فأعطيتها عبد الله ، ففضب عمـر وصاح يا أبا موسى : ابحثت فى أولاد المسلمين ، فما وجد غلاما أفقر من ابن عمر ؟ أطفت فى بيوت المدينة بيتا بيتا ، فما وجدت بيتا يقبـــل الحرام ويتعامل به الا بيت عمر ؟ أما وجدت فى أبنـــاء المسلمين من يستحق الصدقة الا ابن عمر ؟

ثم أخذ عمر القطعة من يد ابنه ، ورمى بها الى أبى موسى ، وهـو يقول : ان الجندى فى الميدان يقاتل الرومان لأحق بها يا أبا موسى .

« هب لى »

أغار قوم على طى ، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحـــه ، ونادى فى عشـيرته ، ولقى القـــوم فهزمهم وتبعهم .

فقال له كبيرهم : يا حاتم هبنى رمحك .

فرمى به اليه .

فقيل لحاتم : عرضت نفسك للهلاك ، ولو عطف عليك لقتلك ،

فقال : قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب من يقول هب لى ؟

« العجلة أم الندامة »

قال بعض الحكماء : اياك والعجلة فان العرب كانت تكنيها أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويقطع قبل أن يقدر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ويذم قبل أن يخبر ، ولن يصحب هذه الصفة أحد الا صحب الندامة ، واعتزل السلامة .

« الناس ثلاثة »

قال أيوب بن القرية : الناس ثلاثة : عاقه ، واحمق ، وفاجر : فالعاقل الدين شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته، ان سئل أجاب ، وان نطق أصاب ، وان سمع العلم وعى ، وان حدث رو ى، وأما الأحمق فانتكلم عجل ، وان حدث وهل (١) ، وان استنزل عن رأيه نزل ، فان حمل على القبيح حمل ، واما الفاجر فان ائتمنته خانك ، وان وثقت به لم يرعك ، وان استكتم لم يكتم ، وان علم لم يعلم ، وان حدث لم يفهم ، وان فقه لم يفقه .

(١) غلط ونسى .

« المزاح »

قال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تكره المزاح ، وتنهى عنه ، فقال : المزاح من أدنى منزلته الى اقصاها عشرة ابواب : المزاح أوله فرح ، وآخره ترح ، المزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق ، والمزاح يبدى السرائر ، لانه يظهر المعاير ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدى الخنى ، لم يجر المزح خيرا ، وكثيرا ماجر شرا ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلب الشتم صغيره والحرب كبيرة ، وليس بعد الحرب الا عفو بعد قدرة .

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خير من عفو معه قدرة .

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : ينشق أحدكم اخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، ويرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : انما كنت امزح !

وفى هذا المعنى يقول الشاعر محمود بن الحسين الوراق :

نلفى الفتى يلقى اخاه وخدنه
فى لحن منطقه بما لا يغفر
ويقول : كنت ممازحا وملاعبا
هيهات نارك فى الحشى تتسعر !
او ما علمت وكان جهلك غالبا
ان المزاح هو السباب الأصغر

المزاحة تذهب بالمهابة ، وتورث الضغينة ، الافراط فى المزاح مجون ، والاقتصاد فيه ظرف ، والتقصير عنه ندامة ، أوكد أسباب القطيعة المراء والمزاح .

وقال ابن المقتر : من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه .

وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة ، وقال بعض البلغاء : من قل عقله كثر هزله .. وقال سعيد بن العاص لأبنه : اقتصد فى مزاحك ، فان الافراط فيه يذهب البهاء ، ويجرىء عليك السفهاء ، وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين .

« أربع كلمات طيبات »

خرج الزهرى يوما من عند هشام ابن عبدالملك فقال : مارايت كاليوم ، ولا سمعت كأربع تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، أحفظ عنى أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك ، واستقامة رعيتك .. قال : هاتهن ! قال : لاتعدن عدة لا تثق من نفسك بانجازها ، ولا يغرنك المرتقى وان كان سهلا اذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وان للأمور بغتات فكن على حذر .

قال عيسى بن داب : فحدثت بهذا الحديث الهادى وفى يده لقمة قد رفعها الى فيه فأمسكها ، وقال : ويحك أعد على ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسغ لقمتك ، فقال : حديثك أحب الى .

« من تواضع الرشيد »

قال ابن السماك للرشيد : ياأمير المؤمنين ، تواضعك فى شرفك أفضل من شرفك ، ان رجلا أتاه الله مالا وجمالا وحسبا ، فواسى فى ماله وعف فى جماله ، وتواضع فى شرفه ، كتب فى ديوان الله عز وجل .

« ثلاثة عيوب »

ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى ، قال تعالى : « يأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » .

والمكر قال سبحانه : « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » .

والنكث قال عزمن قائل : « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » .

« طلب الحوائج »

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها ، فان الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالقضاء .

وقال : مفتاح نجاح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها ، وقد جاء ذلك فى الشعر فقال شاعر :

انى رأيت وفى الأيام تجربة
للصبر عاقبة محمودة الاثر
وقل من جد فى أمر يحاوله
فاستصحب الصبر الا فازبالظفر

وقال حكيم : لا تطلب حاجتك من كذاب ، فانه يقربها بالقول ويبعدها بالفعل ، ولا من أحمق ، فانه يريد نفعك فيضرك .

« لا تصنع المعروف فى غير اهله »

قال بعض الحكماء : المعروف الى الكرام يعقب خيرا ، والى اللئام يعقب شرا ، ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا ، وتشرب منه الأفاعى فيعقب سما .

وقال سفيان : وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام وقال أثار جماعة من الأعراب ضبعا فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا : أخرجها ، فقال : ما كنت لأفعل وقد استجارت بى فانصرفوا ، وقدكانت هزيلا ، فجعل يرعاها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته ، فقال شاعرهم فى ذلك :

ومن يصنع المعروف مع غير أهله
يلاقى الذى لاقى مجير أم عامر

أقام لها لما أناخت ببابه
لتسمن البان اللقاح الدرائر

فأسمنها حتى اذا ما تمكنت
فرته بأنياب لها وأظافر

فقل لذوى المعروف هذا جزاء من
يجود باحسان الى غير شاكر

« الزمان »

قال الشيبانى : أتانا أبو مياس الشاعر ونحن فى جماعة ، فقال : ما أنتم فيه ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده قال : كلا ، الزمان وعاء وما القى فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حللا تصان على رجال
وأخلاقا تزال ولا تصان

يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا وما فسد الزمان

« عز التقوى »

لما قدم الامام الشافعى مصر ، قال له عبد الله بن الحكم : اذا أردت أن تسكن البلد ، فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به .

فقال له الامام الشافعى ، ـ رضى الله عنه ـ : يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له .. ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط .

« دعاء »

اللهم أجزنى على حسن عبادتك ، ووفقنى لاستفتاح أبواب رحمتك .

اللهم سلمنا ولا تسلمنا ، وأمنحنا ولا تمتحنا .

اللهم أجعلنا فى ضمانك وأمانك واحسانك .

اللهم وفر حظى من صنعك ولطفك الخفى .

اللهم حسبى من سؤالى علمك بحالى .

اللهم اغفر لى كل ذنب ، واحفظنى من كل جنب ، وفرج عنى كل كرب .

اللهم أعنى على الموت وكربته ، والقبر وغمته والصراط وزلته ، ويوم القيامة وروعته .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم الخطيب

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : ما حكم الصوم يوم عرفة والأيام العشر من ذى الحجة ؟

ج : ذكر الشيخ سيد سابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغب فى صوم عشر ذى الحجة وأكد على صوم يوم عرفة لغير الحجاج .

فعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صوم يوم عرفه يكفر سنتين ، ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية » رواه الجماعة الا البخارى والترمذى .

وعن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صيام عاشوراء والعشر (١) وثلاثة أيام من كل شهر والركعتين قبل الغداة » رواه أحمد والنسائى .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام هى أيام أكل وشرب » رواه الخمسة الا ابن ماجة وصححه الترمذى .

وعن أبى هريرة قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عرفة بعرفات » رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة الا بعرفة .

(١) اى من ذى الحجة .

وعن أم الفضل : « انهم شكوا فى صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فأرسلت اليه بلبن فشرب وهو يخطب الناس بعرفة» متفق عليه : اهـ .

وجاء فى زاد المعاد : وقد ذكر لفطره بعرفة عدة حكم منها أنه أقوى على الدعاء ، ومنها أن الفطر فى السفر أفضل من فرض الصوم فكيف بنفله ، ومنها أن ذلك اليوم كان يوم جمعة .

وقد نهى عن أفراده بالصوم فأحب أن يرى الناس فطره فيه تأكيدا لنهيه عن تخصيصه بالصوم وان كان صومه لكونه يوم عرفة لا يوم جمعة . وكان شيخنا رضى الله عنه يسلك مسلكا آخر وهو أنه يوم عيد لأهل عرفة لاجتماعهم فيه كاجتماع الناس يوم العيد ، وهذا الاجتماع يختص بمن فى عرفة دون أهل الآفاق . اهـ .

س : هل يحاسب الحيوان يوم القيامة ومنه ما له قسط معقول من الذكاء ؟

ج : اتفقت الرسالات السماوية على أن بعث الانسان يوم القيامة حق ، وان محاسبته على أعماله فى الدنيا حق ، ولا خلاف فيه لأحد من المؤمنين .

أما بعث الحيوانات من البهائم والطيور ، ومحاسبتها على ما ارتكبت فى دنياها فقد ذهب اليه جماعة من العلماء قرروا بعثها من قبورها يوم القيامة كالانسان ، وقرروا سؤالها عما فعلت كالانسان، واستندوا فى بعثها الى مثل قوله تعالى فى سورة التكوير : « واذا الوحوش حشرت » (٢) وقوله تعالى فى سورة الانعام : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون » (٣) .

(٢) الآية ٥ من سورة التكوير .
(٣) الآية ٣٨ من سورة الانعام

ويستندون فى محاسبتها الى ما فهموه من قوله عليه الصلاة والسلام : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » والجماء : التى لا قرن لها تدفع به اعتداء ذات القرن عليها • ويقول هؤلاء : ان الله بعد أن يحقق هذه العدالة العامة فى خلقه على هذا النحو يقول لها : موتى فتموت ، وليس لها جنة ولا نار •

المحاسبة والمسئولية للانسان المكلف

وترى طائفة أخرى ــ ذات نظر أعمق ــ أن البعث خاص بالانسان المكلف • وأن المحاسبة والمسئولية خاصان به ، والآخرة دار جزاء ، ولا محاسبة الا حيث التكليف ، ولا تكليف لغير الثقلين : الانس والجن ، واذن فلا محاسبة للحيوانات ولا بعث •

أما قوله : « واذا الوحوش حشرت » فالحشر ليس هو حشر الآخرة ، وانما هو جمعها لاستيلاء الرعب عليها وقت الاضطراب العام وانحلال النواميس الكونية ، وقد ذكر هذا الحشر فى حوادث الاضطراب التى تحدث قبل البعث • بدليل ما قبلها « اذا الشمس كور ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت » ، وما جاء بعدها : « واذا البحار سجرت » وكل هذه من حوادث الاضطراب العام الذى يقع قبل يوم القيامة •

أما البعث فقد ذكر بعد ذلك فى السورة نفسها بقوله تعالى : « واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » الى قوله : « علمت نفس ما أحضرت » •

أما الحشر فى آية الأنعام فهو يرجع الى المكذبين لرسالة الرسول المذكورين قبل الآية وبعدها ، أو أن معناه : الهلاك والموت ــ وهو عام لكل المخلوقات ، ومن ذلك قول العرب فى السنة المجدبة : « حشرت الناس • يريدون : أهلكتهم » •

هذا وقـد قال الألوسى فى تفسيره : « وليس فى الباب «يريد مسألة بعث الحيوانات » نص من كتاب أو سنة يعول عليه ، يدل على حشر غير الثقلين من الوحوش والطيور • ثم قال : « ومن القريب جدا أن يكون الحـديث الذى ذكروه كناية عن تمام العـدل ، بدليل ما جـاء فى بعض الروايات من الاقتصاص من الحجر اذا وقع على الحجر » •

ذكاء بعض الحيوانات لا ارادة معه :

هذا ما قاله العلماء فى هـذه المسألة ، ونحن مـع أرباب الرأى الثانى ، وهـو أنه لا بعث ولا محاسبة الا على من ثبت تكليفه لا لمن لا يفهم الشرائع والخطاب بخاصة نفسه وطبيعته ، كيف وقد خلقها الله مسخرة للانسان فيما تنفعه من أكل وحمل وحـرث وسـائر مـا يحتاج منها ؟ أمـا ما يرى من ذكاء بعض الحيوانات فهو ذكاء لا ارادة معه • ولا يعدو نواحى خاصـة لا تتصل بفهـم الخطاب ولا مقتضيـات التكليف الالهى •

س : هل لمس المـرأة ينقض الوضوء ؟

ج : يقول الله تعالى فى بيـان الطهارة التى تجب على المؤمن اذا أراد القيام الى الصلاة : « يأيهـا الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجـوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحـوا برءوسـكم وأرجلكم الى الكعبيـن • وان كنتم جنبـا فاطهروا . وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحـد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيـدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (١) •

(١) الآية ٦ من سورة المائدة .

وفى معنى قـوله تعـالى : « أو لامستم النساء » فسر بعض الأئمة الملامسة فى الآية بمس اليـد أو نحوها ، وعليه يكون مس المـرأة ناقضا للوضوء ، وفسرها آخرون بالمخالطة الخاصة ، وعليه لا يكون المس باليد ومنه المصافحة ناقضـا للوضوع هذا الذى نختاره .

أولا : لأن القرآن استعمل المس فى المخـالطة « ولم يمسسنى بشر » (١) ، « ثم طلقتموهـن من قبل أن تمسوهن » (٢) . كمـا استعمل فيها المبـاشرة « ولا تباشروهن وأنتم عاكفـون فى المساجد » .

والملامسة كالمباشرة والمس .

ثانيا : أنه بتفسيـر الملامسـة بالمخـالطة الخاصـة تكون الآية استوعبت جميـع أنواع الطهـارة الواجبة بالنسبة لأسبابها : فبينت طهارة الوضوء بقوله : « فاغسلوا وجوهكم الخ » وبينت طهـارة الغسل بقوله : « وان كنتم جنبا فاطهروا » .

ثم بينت الطهارة بالتيمم حيـن العذر عن استعمال المـاء : بدلا عن الوضوء بقوله : « أو جـاء أحد منكم من الغائط » وبدلا من الغسل بقـوله « أو لامستـم النساء » .

ثالثا : قد صحت الأحاديث الدالة على بقاء الوضوء بعد المس باليد ونحوها .

رابعا : أن عدم نقض الوضوء بالمصافحة هو مـا يقضى به اليسر الذى بنيت عليه الشريعـة وختمت به آية الطهارة « ما يريد الله ليجعل عليكم من حـرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٣) .

والله أعلم

الاستاذ عبد الحميد شاهين

(١) الآيتان ٤٧ من سورة آل عمران ، ٢٠ من سورة مريم .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الاحزاب .

(٣) الاجابة عن السؤالين الاخيرين من فتاوى الشيخ محمود شلتوت رحمه الله.

فهـــــرس العـــــدد

الموضـــــــوع	صفحة
العلامة الندوى يؤذن بالخطر !! دكتور عبد الودود شلبى	٢٠٠٩
فى مواجهة الالحاد المعاصر : عدم كفاية العلم فى مجـال المعـرفة للدكتـــور يحيى هاشم	٢٠١٨
ذو القرنين يفتح المشرق ويبنى سد ياجوج وماجوج فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير	٢٠٤١
الرسم العثمانى واجب شرعى طريقه الاجمـاع دكتور رءوف شلبى	٢٠٥١
الاسلام فى الفـكر الأوربى عرض وتحليل لمؤلفات أوربية بقلم الدكتور محمد شامه ...	٢٠٧٠
نظرة الى الجديد فى علوم اللغة للدكتور توفيق محمد شاهين	٢٠٩٤
ابن خلدون بين اللغة .. وعلم الاجتمـاع الاستاذ محمـد عادل سليمان	٢١٠١
الازهر جامعا وجامعة (او مصـر فى الف عام) للاستاذ محمـد كمـال السيد	٢١١٥
بردة جـــديدة للاستاذ السيد حسن قرون	٢١٣٥
ماذا قدم الازهر والازهريون للعلم والدين ؟ بقلم : الدكتور محيى الدين الالوائى	٢١٤٤
تربيـــة الطفـــل المسلم دكتور محمد عبد المنعم خفاجى	٢١٦٣
مع رسالة الادب الصوفى « الحكم العطائية » للاستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى	٢١٦٨
قضـــــايا قرآنيـــــة للدكتور عبد الغنى الراجحى	٢١٧٨
مع آيات من سورة النساء فى ليلة قدر رمضان بقلم الاستاذ عبد الرحمن الفضالى	٢١٨٦
قبل مجيئه تحـدثت عنه اسفار الانبياء المستشار محمد عزت الطهطاوى	٢٢٠١
أخطـــاء شـــائعة للاستاذ عبـاس أبو السعود	٢٢١٤
حـــكم ... وطـــرائف	٢٢٣٠
باب الفتـــــاوى الاستاذ عبد الحميد شاهين	٢٢٣٥

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء العاشر ـ السنة الحادية والخمسون ـ ذو الحجة ١٣٩٩هـ ـ نوفمبر ١٩٧٩ م

م ١٢
٢٢٢٢٦
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة المودودى فى ذمة الله!!

دكتور عبد الودود شلبى

تعرفت على المرحوم العلامة « أبو الأعلى المودودى » من خلال مؤلفاته التى ظهرت فى مصر مترجمة الى العربية ضمن سلسلة لجنة « الشباب المسلم » فى أواخر الأربعينيات .. كانت أول حلقة فى هذه السلسلة باسم « الدين القيم » ثم تلتها عدة رسائل أخرى عن الاسلام والاقتصاد ، والجهاد فى سبيل الله ، وعن منهج الانقلاب أو التغيير الذى يجب أن يتم فى دنيا الاسلام .

كان منهجه فى هذه الرسالة الأخيرة « منهاج الانقلاب » . ان ذلك لا يتم الا من خلال التربية الاسلامية الصحيحة .. وان الانقلاب أو التغيير بالاسلوب العسكرى المعروف فى أكثر دول العالم الثالث لا يمكن أن يبنى

أمـة أو يقيـم على سطح هذه الأرض بناء يتحمل أول صدمة .

فالتغيير أو الانقـلاب الحقيقى يجب أن يأتى من داخل النفس .. ذلك لأن مفهـوم الأمـانة بمعناها الاسـلامى الحقيقى ليسـت ألا تسرق خوفا من الشرطة . بل لا تسرق خوفا من الله .

ان القوة الغاشمة لا يمكن أن تشكل فكرا يصلح للبناء .. القوة تحيل اكثر النـاس الى منافقيـن جبناء أو تحيلهم الى يائسين يتمنون الخلاص ولو عن طريق الدماء .. وحين تصبح القـوة الغاشمة أو السلطة الحاكمة سيفا مصلتا على الرقاب ويشعر المواطنون أنهم فى بلدهم غرباء .. يتحول كيان الدولة الى نسج من خيوط العنكبوت ، والى بيت من الشعر تمزقه مخالب الاخطبوط ! !..

ولقد عانينا الكثير من أهـوال هذه السلطة الغاشمة فى سنوات الهوان واليأس . وكانت تجربتنا فى حرب الأيام الستة دليـلا على صدق هذا المقال الذى يكتب فى جو من الأمان والحرية يختلف عما كنا عليه بالأمس .

كان هذا هو رأى «المودودى» فى منهاج الانقلاب والتغيير ، ولا زلت عنـد رأيه الذى يجب أن يتدبره كل مصلح أو مسلم غيور .. البناء من الداخـل .. صياغـة الانسان المسلم صيـاغة تتفـق ومبادىء الاسـلام فى الحيـاة والواقع .

وفى أوائل الستينيات .. حضر العلامة « المودودى » الى القاهرة فى رحلة استكشـاف لمواقـع الأحداث والقصص التى وردت فى القرآن الكريم . وقـد التقيت به عرضا فى مكتبة « دار العروبة » وسلمت عليه سلاما عابرا على أمل اللقاء فى أقرب فرصة . ثم شاء الله أن يحتفل به شيخ الاسلام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، وأن أكون ضمن من حضروا هذا اللقاء الممتع الوقور واستمتع بمـا دار فيه من مناقشات دينية تتسم بسعة الأفق والشمول .

وأيقنت منذ ذلك الوقت . ان العلامة « المودودى » نمط فريد

فى السلوك والفهم ، ونموذج نادر فى الثقافة وغزارة العلم .

وتعاقبت السنون سراعا بعد هذا اللقـاء .. كانت سنوات كسنى « يوسف » عاشها العالم الاسلامى فى جفاف روحى وقحط فـكرى . فقد استحال الحكم فى أكثـر بلاد الاسـلام الى اداة مـن ادوات الشيوعية التى لا ترقب فى مؤمـن الا ولا ذمـة ، وعلقت المشـانق للمجاهـدين والشهـداء الذين تساقطوا شهيدا بعد شهيد فى حركة رفض للالحاد والهمجيـة ، ولم يتوقف طوفان الدماء الا بعـد أن غرق « فرعون » فى حميم الهزيمة . وانكشاف الغطـاء عـن « المسيخ الدجال » فى دنيـا الاسـلام والعروبة .

ولقـد التقيت بالعلامـة « المودودى » بعد ذلك أكثر مـن مرة .. ففى باكستان أقمت مـدة طويلة .. وفى اول زيارة لهـذه الدولة الاسلامية الغالية . حرصت على ركوب القطار من «كراتشى» عاصمـة ولاية « السنـد » الى « لاهـور » عاصمـة ولاية « البنجاب » . كنـت تواقا الى رؤية باكستان من خـلال هذه الرحلة التى استغرقت ثلاثا وعشرين ساعة .. وقبيل أذان فجـر اليوم التالى من هذه الرحلة توقف القطار فى مدينة « حيدر أباد السند » .. وفوجئت برجل يشاركنى الحجـرة الخاصة فى عـربة القطار .. ألقى التحية .. ثم جلس صامتا لا ينطق ببنت شفة .. وحين سمعت صوت الأذان يشـق أجـواء الفضـاء والسكون فى هـذه المنطقة قمت لأتوضأ ، فاذا بالرجـل الصـامت تنفرج أساريره ، وتعلو وجهـه ابتسامة عريضـة تنطق بفرحـه وسروره .. اذن فأنت مسـلم ! قالها الرجل معتذرا عـن الصمت الذى عقل لسانه عـن الحديث ، وجعله يتحفظ معى فى الكلام خشية التورط فيما لا يليق بأحد قـواد الجيش ! .

كان الرجـل جنرالا كبيـرا .. وكأنما رأى فى الصـلاة ضمانا لسره .. ومفتاحا سحريا لأسـاريره قلبه فصليت .. ثم صلى . وبدأ الحديث عن الوطن واللغة وماكاد

يعرف اننى « أزهرى » من مصر ومسلم تجيش حنـــاياه بالعاطفة الصادقة لكل المسلمين فى أى قطر. حتى زال التحفـظ والصمـت . وانطلق الرجل يحدثنى عن رجالات باكستان من العلماء وأئمة الفكر.

قلت له : وما رأيك فى مـولانا مودودى .. ؟ قلتهـا ببساطة .. فاذا بالرجل يتحرك من مقعده ، ويقبل على بروحه وعقله وقلبه .. مـــولانا مودودى .. مـــولانا مودودى .. كم أتمنى أن أكـون خادما له.. ولولا الجيش وقوانينه الصارمـــة .. لجعلت من نفسى حارسا كظله .. وتابعا يسير خلفه ولا يفارقه ..!!

وهأنذا فى لاهـور .. المدينـة التى اختارها « المودودى » لتكون مـركز حركته ودعوته .. فى حى اچهره ICHERA وفى شـارع زيلـدار بـــارك Zaildar Park كان يقيم العالم المجـاهد فى بيت متواضع لا ترى فيه أية مسحـــة للرخاء والترف .. كان يمكن أن يعيش كملك من دخل مؤلفاته على الأقل .. ولكن الرجل «القدوة» الذى قضى الكثير من عمـره فى غيابة السجن ، وحكم عليه بالاعدام دفاعا على العقيدة والرأى.. هذا الرجل العظيم كان متقشفا فى كل مظاهر الحياة المادية زهدا .. مقلا من رغبات النفس وتطلعاتها ورعا.. مكتفيا بالقليـل من الطعام والزاد عن قناعة ورضا .. وكأنى به يتمثل بقول « اقبال » حين يصف علماء هذا الزمان :

ما أكثرهم عند الطمع ...

قلوب خاوية من صدفة الايمان .. وعقـــول فارغة من العقـل والحكمة .

وبطون تمتلىء بملذات العيش ، وأطايب الطعام حرصا على غـريزة البقاء فى دنيا الهوان والطمع .

لم تعد لهم تلك الأيادى البيضاء التى تنير للمسلمين طريق الحياة .

اسماك بركة .. وضفـــادع بئر ..

فمن لى بهذا العالم الذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة ربه ..

ويخرج من بيته بعد أن يكتب وصيته لأهله وولده ..

وفى شهر رمضـــان الماضى . فوجئت بزيارة مفاجئة من صفيـه وتلميذه الاستاذ خليل الحامدى ، مدير دار العـــروبة للدعـــوة الاسلامية .كان قادما من الولايات المتحدة بعد أن أدخل الشيخ الامام احدى المستشفيات لعلاجه . وقد حضر الاستاذ خليل الحامدى من أمريكا فى جولة قصيرة الى العالم العربى .. لم أكن أعرف سر هذه الزيارة .. ولم أفهـــم لماذا ترك التلميذ الحوارى شيخـــه ، حتى علمت أن العلامة المرحوم « أبو الاعلى المودودى » رفض أن يعالج على حساب الدولة أو على حساب أية هيئـة .. حتى « الجماعـة الاسلامية»التى وهبها حياته وماله ، وتبرع لها بقيمة جائـــزة الملك فيصل التى منحت له . رفض أى مليم ينفق منها على علاجه ، وأصر على أن يكون هذا العلاج مـن دخل مؤلفاته .. ولكن ممن .. ؟ ان أكثر الناشرين فى العالم العربى أثروا على حسابه .ولم يتقدم غير اثنين من هؤلاء لدفع عشر معشار ما يستحق من كتبه ومؤلفاته .. !

لقد مات الرجل .. أستغفر الله .. بل انتقـل الى مقعد صـدق .. هناك فى جنة عرضها السموات والأرض..واذا كان لـ «باكستان» مؤسسان همـا محمـد اقبـال ، ومحمد على جناح .. فان العلامة المودودى هو المؤسس الثـالث الذى اكتملت بجهـوده وجهـاده حركة التأسيس والاصلاح ..

رحمه الله رحمـــة واسعـة ، وجزاه خيـــرا بما قدم لدينـــه وأمته .

عبد الودود شلبى

أبو الأعلى المودودى

فى سطور

ـ ولد فى مدينة أورنج ابـاد فى جنوبى الهند فى ٢٥ ديسمبـر (كانون الأول ١٩٠٣) .

ـ فى ١٩٢٠ م توفى والـده فاعتمد على نفسـه .. التحـق بجريدة « المدينة » الاسبوعية التى كانت تصدر من مدينة « بجنور » وبعد ذلك تولى مهام ادارة تحرير جريدة « تـاج » اليـومية فى مدينة « جبلبور » .

ـ فى ١٩٢١ م أصبح رئيـس تحرير جريدة « مسلم » الاسبوعية التى كانت تصدر من العاصمة .

ـ فى ١٩٢٤ م التحق بجـريدة « الجمعية » اليـومية رئيسـا لتحريرها .

ـ فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٦ م ، قتل مؤسس حركة اكراه المسلميـن على اعتنـاق الديـانة الهندوسية على يد شاب مسلم ، وأدى هذا الحادث الى سوء التفاهم تجـاه الاسلام والمسلمين . فكتب المودودى مقـالات فى موضـوع « الجهاد فى الاسلام » كان لهـا أثرها فى تكوين أوضاع المسلمين فيما بعد .

ـ فى ١٩٣٠ م ألـف كتـابه المعروف « مبادىء الاسـلام » .

ـ فى ١٩٣٢ م بدأ اصدار مجلة « ترجمان القرآن » الشهرية التى أصبحت الوسيلة الرئيسية لهـداية وتوجيه مسلمى شبه القارة الهندية وكانت بمثابة رمز ليقظة المسلمين ومصدرا لهداية وارشـاد البشرية على نطاق واسع .

ـ فى ١٩٣٨ م استجابة للدعوة الموجهة اليه من الشاعر الفيلسوف (محمـد اقبال » انتقل المودودى من (حيدر آباد) الى (البنجاب) ليجعل منهـا منطلق رسـالته فى الحياة .

ـ فى مارس (آذار) ١٩٤٠ م اتخذ حزب (الرابطة الاسلامية) قرارا باقامة دولة باكستان وشكلت لجنة لاعداد خطة للحكم الاسلامى وتم اختيار المودودى لعضـوية اللجنة .

ـ فى ١٢ سبتمبـر (أيلول) ١٩٤٠ م كان المودودى دائم الكتابة والتعـريف بنظام الاسـلام ، وقد حاول أن يجعل من أى تجمع أو حزب قائم داعية الى الاسلام على نمط عهود الخلفاء الراشدين ، وقد دعا المثقفين المسلمين على صفحات مجلته للتفكير فى حقيقة الدعـوة الاسـلامية ، وتكريس جهـودهم وطاقاتهم لتنفيذ نظام الحيـاة فى الاسلام ليس فقط فى حياتهـم الخاصة وانما فى المجال السياسى والاقتصـادى والاجتمـاعى والحضارى ، فلقى استجابة من كل أرجاء الهند وأعلن عن موعد لعقد مؤتمر واخراج برنامجه الى حيـز الوجود ومن ثم نشأت (الجماعـة الاسلامية) فى مدينة لاهور عام ١٩٤١ ، ووضع لها قانونا وانتخب المـودودى أول رئيس للجماعة . وقد تعرضت الجماعة الاسـلامية للهجوم من القـوى البريطانيـة المسيطرة منذ أول ظهورها .

ـ فى ١٩٤٣ م بدأ العمل فى تفسير القرآن الكريم وأخذ ينشره فى مجلة « ترجمان القرآن » تحت عنوان « تفهم القرآن » .

ـ فى ١٩٤٧ بعد تقسيم الهنـد هاجر الى باكستان وتـولى مهـام رئاسة الجماعة الاسلامية فى البلد الجديد .

ـ فى يناير (كانون الثانى) ١٩٤٨ م بدأ مساعيه لتنفيذ النظام الاسلامى فى باكستان وقد طالب بذلك من خـلال خطبـه الاذاعيه وكتاباته .

ـ فى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨ م نتيجة لمطالباته ولمعارضته ضد الحكومة ألقى القبض عليـه وعلى زمـلائه وزج بهـم فى السجن .

ـ فى ١٢ مـارس (آذار) ١٩٤٩ م استسلاما لضغط الشعب وخـوفا من المظاهـرات أعلنت الحكومة عن (قرار الأهداف) الذى مهد الطريق لتنفيذ الحكم الاسلامى فى البلد .

ـ فى يونيو (حزيران) ١٩٥٠، أطلق سراحه وزمـلاؤه بعد حبس دام عشرين شهرا .

ـ فى ١٩٥٢ م قدم المودودى المطالبة المشهورة المحتـــوية على تسعة بنـود لنفـــاذ الدستـور الاسلامى .

فى ١٩٥٣ م تآمرت الحـكومة ضـد هـذه المسـاعى واستغلت خصوصا مساعيه المبـــذولة ضد القاديانية لتحقيق أهدافها فشجعت بعض عملائها على اثارة موجـات العنف وخلق جو الفوضى واعتقلت المودودى وزمـلاءه بتهمـة اثارة العنف .

ـ ١١ مايو (أيار) ١٩٥٣ صدر الحكم باعدام المودودى فأثار هذا الحكم موجة من الاحتجاجات فى جميع أنحاء العـــالم الاسـلامى اضطرت معه الحكومة الى تغييـر حكمها الى الحبس مدى الحياة .

ـ فى ٢٩ ابريل (نيسـان) ١٩٥٤ أطلق سراحه نتيجة حـكم صدر من المحكمة العليا .

ـ فى مارس (آذار) ١٩٥٦ م لقيت مساعيه نجاحا جزئيا وأعلنت الحكومة دستورا شبه اسلامىوفى هذا العام ســافر الى البـــلاد الاسلامية وناشـــد المسلمين من خلال خطبه الى توحيد صفوفهـم والجمع بين كلمتهم ـ وبعد عودته من سفره الى الخارج وجه مطالبه الى الحكومة بأن تسعى لانشـاء كتلة اسلامية .

ـ فى ٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ م فرض الحظر على الجماعة الاسلامية وزج بالمودودى وأعضاء مجلس الشـورى للجمـــاعة فى السجن .

ـ فى ٢٥ سبتمبـر (أيلول) أصدرت المحـكمة العليا حـكما باطلاق سراح المودودى وزمـلائه وسحب الحظـــر على الجماعـة الاسلامية .

ـ فى ابريل (نيسان) ١٩٦٦ م سافر المودودى لأداء فريضة الحج والمشـــاركة فى جلسات رابطـة العالم الاسلامى وخلال وجوده فى مكة المكرمة وزع كتيبا حـــول مشكلة كشمير (باللغات العـربية والانجليزية والفرنسية) .

ـ فى ١٥ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٦ م ألقى محاضرة حول حركة

الاتحاد بين الحـكومة الاسلامية فى اجتماع عقده مؤتمـــر العالم الاسلامى فى مدينة لاهور •

ـ فى ١٥ ديسمبـر (كانون الاول) ١٩٦٨ م أقام المسلمـون البريطانيـــون حفـــلا تكريما للمودودى ألقى فيه محـاضرة فى موضوع الاسلام فى مواجهـــة تحدى العصر الحاضر •

ـ فى ٤ مـــارس (آذار) ١٩٦٩ م أجرى التليفزيون الايطالى الحـكومى مقابلة شخصيـة مـع المودودى حول موضوع «الاسلام فى العالم » •

ـ فى ١٣ ـ ٢٦ سبتمبـــر (ايلول) ١٩٦٩ م شـــارك فى جلسات المجلس التأسيسى للجماعة الاسلامية فى المغرب وأسهـم فى انشاء جمعية الجماعات الاسلامية كمنظمة دائمة •

ـ فى ١٩٧٢ م استقال مـــن رياسة الجماعـة الاسـلامية نظرا لسوء حالته الصحية وكرس وقته فى التأليف واستمـــر فى تأليف تفسيره الذى استكمله فى ٧ يونيو (حزيران) من نفس العـــام ـ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٨ م بعد انهـــاء التفسيـر بدا العمـل فى تأليف السيرة النبـــوية ، واستكمـل المجلدين الأوليـن اللذين تضمنـا حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة •

ـ فى العام الماضى منح جـائزة الملك فيصل العالمية تقديرا لجهوده وتضحياته فى خدمة الاسلام •

أبو الأعلى المودودى
ومكانته فى الدعوة الإسلامية
دكتور رءوف شلبى

منيت الدعوة الاسلامية فى القارة الهندية بعدة بلايا شاقة من أولها :

* ان الملوك الذين استقر بهم المقام فى بعض مقاطعات القارة الهندية استراحوا لما وصلوا اليه من عز وجاه فوجهوا الحكم الى صالحهم وحدهم وتركوا نشر الاسلام وسط القارة الفسيحة ،

* وأن العلماء الذين اشتغلوا بنشر الدعوة قد تركوا تعليم القرآن الكريم وتحفيظه ، وتدريس السنة وحفظ الحديث ، واشتغلوا بعلم الكلام وفلسفة اليونان ، وارتبكوا فى الخلافات والخلافيات التى ازدحمت بها كتب المتأخرين من بعد السلف الصالح الرضى الذى انطلق ينشر الدعوة بالقرآن وبالحديث وبالسلوك القويم والقدوة الحسنة .

* ومن البلايا الشاقة ثانيا : انحراف الملوك الاسلاميين الى درجة تعطيل المبادىء الاسلامية ارضاء للوثنيين ، وارضاء لشهوتهم ومحاولة خلق دين جديد يواجه الاسلام ذاته ، وقد كانت هذه الحقبة المظلمة فى عهد الملك (اكبر) من ٩٦٢ هـ الى ١٠١٤ هـ .

* هذه الأحوال جعلت سير الدعوة الاسلامية مضطربا مقلقلا وعلى سنة الله دائما فى الحفاظ على دينه فقد هيأ جل جلاله الثقات من العلماء للدفاع عنه وكان فى مقدمة هذه المعركة « الشيخ احمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندى الملقب بمجدد الألف الثانى للهجرة وأخذ الشيخ طريق الجهاد وكان

له أثره المحمود فى ابطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية ، وعودة الملك الى حظيرة السلوك الاسلامى .

* ثم خلفه من بعده الشيخ عبد الحق الدهلوى ٩٥٨ ــ ١٠٥٢ هـ ولطف الله وقدر وهيأ الملك زيب ١٠٦٨ ــ ١١١٨ هـ الى أن يأخذ بيد الدعوة الى الامام فسار شوطا طويلا فحارب كل ما فعله جده الملك « أكبر » ولهذا فان المستشرقين عندما يكتبون عن الدعوة فى الهند يمتدحون الملك «أكبر الضلالى» الضليل الزنديق ويعرضون بالملك زيب حفيده لأنه أنهى كل خرافة ضالة ابتدعها جده الماجن .

* لقد ألغى الملك زيب المسلم العادل ما فعله جده فى البلاط الملكى من التقويم الالهى ، والرقص والاحتفال بالسنة الشمسية ، ووزن الأجساد بالذهب للأسرة المالكة .. الخ ، ومنع القمار والبغاء وحرم التنجيم والخمر و .. الخ .

* لكن بعد وفاته ضعفت الحالة الدينية وتذبذبت الأمور وحاول الهنادكة السيطرة على بلاد المسلمين فقيض الله الامام ولى الله الدهلوى ١١١٤ ــ ١١٧٦ هـ الذى حمل لواء الاصلاح ووفقه الله لوضع تصور كامل للبيئة الهندية عن الاسلام بعد اللجاج الذى أصيبت به الدعوة الاسلامية من جراء ما حدث من خرافات وخزعبلات . أدخلها المعجبون بالتصوف البراهمانى وبدع الملوك فتوجه الدهلوى الى تربية قيادة فكرية تفهم الاسلام أولا وتطبيقه ثانيا ، ثم تدعو اليه ثالثا وكان من آثاره :

أ ــ أن منبع الشريعة فى علم الحديث والفقه لا فى علم الكلام .

ب ــ أن القرآن الكريم هو الأصل الذى يعتمد عليه فى فهم الاسلام ولذا فقد وضع لهم ترجمة تقرب لهم ادراك المعانى عند تلاوته بألفاظه العربية .

حـ ــ جدد لهـم أسلوب الفقـه الحنفى بما وضعـه من كتـاب : حجة الله البالغة ، وكتاب الانصاف فى بيان سبب الاختلاف .. الخ.

د ــ بذل أقصى الجهـــد فى تعميم علوم السنة فى الهند .

هـ ــ تخريج جيل مـن العلماء الأفذاذ مثل الشاه عبدالعزيز ورفيع الدين ، والشاه عبد القادر والشاه محمد اسحق ، وحفيده اساعيل .

وقد استمرت مدرسة الدهلوى تؤدى رسالتها عن طـريق حفديه : السيد احمد ولد عرفان بن ولى الله الدهلوى .

والسيد اسماعيـل عبـد الغنى ابن ولى الله الدهلوى .

لقد قام السيد أحمد بالدعـوة داخل الهند للعـــودة الى كنف الشريعـة واجتثـــاث البـــدع والمنكرات ، والانسلاخ من عادات الوثنية ومراسم الشرك والجاهلية وكان ذلك خلال الفترة من ١٢٣١/ ١٢٣٦ هـ . ثم توجه الى مقاومة السيك تلك الطائفة التى انحرفت عن طريق التصـوف المسالم الى الوحشية الكاسرة فقتلوا أطفـال المسلمين وشيوخهم وأغلقوا المساجد فى اقليم البنجـاب فدعا الشيـخ احمد الى الجهاد المقـدس ودارت معركة حامية فى جمادى الآخـرة ١٢٤٢ هـ الموافق يناير ١٨٢٧ م ، واستمرت هذه الحرب زهاء أربع سنوات استولوا فيها على مدينـة بيشاور وأقاموا فيها حدود الشريعة الاسلامية ، ثم فعلت الفتنة أفاعيلها ولعبت الخيانة دورا انقلب ظهـر المجـن واستشهـــد الامامان ، الجليلان : السيـد احمـــد بن عرفان ، والسيد اسماعيل بن عبد الغنى وذلك فى يوم الجمعـة ٢٤ من ذى القعدة ١٢٤٦ هـ .

* ولم تكن الثـــورة على الانجليـز عام ١٨٥٧ م الا نكبـة على الاهالى ولا سيما المسلمـون لأنهم طليعة الثوار ضد الاستعمار فى كل مـكان فتحـولت سياسة الانجليـز الى مـلاحقة الحـركة الاسلامية فوضعوا الفتنة بيـــن المسلمين باشاعة ادعـــاءات كاذبة

وفرضوا نظاما من التعليم يختلف مع مبادىء الاسلام فوقع المسلمون بين مخالب الاستعمار الانجليزى من ناحية والجبروت الهندوكى والسيخ أو السيك من ناحية أخرى .

وفى الأفق البعيد وفى ظلال التثقيف الاستعمارى وضعف المسلمين وقلة حيلتهم ظهر السيد أحمد خان وكانت مهمته ترقيع الثقوب والتقريب بين الحكومة والمسلمين وركز فى أسلوبه على التربية والتعليم غير أنه أخطأ فى تعصبه للحضارة الغربية ومحاولته تفسير الاسلام وقضاياه على نحو يرضى عنه أصحاب العلوم الحديثة فى أوربا بينما كانت هذه العلوم فى دور النشور والارتقاء. ولذا فقد أصاب هذه الحركة ضعف .

وضعف حركة السيد أحمد خان يرجع الى افتتانها بأوربا فلم يستطع أن يملأ الفراغ الهائل فى قيادة الدعوة الاسلامية . ولكن كان له ثمار على كل حال .

ومن ثمار جهاده كلية عليكرة التى تأسست عام ١٢٩٣ هـ ، وصارت الآن جامعة مشهورة فى الهند .

* وفى المواجهة حيث لم يقبل العلماء أسلوب أحمد خان فقد قامت مدارس اسلامية ترفض الحضارة الاوربية ولا تثق فيها وفى مقدمة هذه الحركة حركة السيد أكبر حسين ذلك العابد الورع ١٢٦٢ / ١٣٤٠ هـ ، وكذلك كان فى المواجهة تأسيس مدارس « ديونيد » التى حافظت على التعليم الاسلامى بصورته الأثرية القديمة فحدث بين الفكرتين الاسلاميتين فى النزعة جدل وخصام وافتراق فأثر ذلك فى حياة الدعوة الاسلامية من جديد .. فكان لا بد لها من قائد وخطة وتفكير جديد فتكونت ندوة العلماء لمحاولة التخلص من الصراع بين التعصب للحضارة الأوربية المحضة ، والتعصب للأسلوب الأثرى فى التعليم الاسلامى ، فأخذت بكلا النظامين ورفعت

ندوة العلماء راية الـوئام بيـــن الطـوائف الاســلامية ودعت الى الاستمساك بتوجيه الله ورســالة خاتم الأنبياء ومضاعفة الجهـــود لاصلاح ذات بيـــن المسلمين ، واستمرت الحال هكذا الى العقد الثالث من القـــرن الرابـع عشر الهجرى ذلك القرن الذى شهـد انفجارات عديدة فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى وبخاصة فى شمال أفريقيا الاسلامى فقامت فى الهند عدة مظاهرات اسلامية تســاند الاخوة المسلمين فى العالم العربى ولكن بعد الحرب العالميــة الأولى تجزأت البلاد الاسلامية بعد الغاء الخـــلافة الاســـلامية ونقضت بريطانيا عهودها فقامت فى الهنـد حركة اسلامية عنيفة قادها المفكـر الاسلامى محمد اقبـال وملخص الحركة : الاعتزاز بالاسلام دينا ، والاستمساك بالتـراث الاســلامى حضارة ومقاومة القاديانية الضـالة وكان مع هذا الرائد المخلص رواد آخرون منهم مولانا محمد على .. وظلت الحركة الاسلامية السياسية تعمل لمساندة مســـلمى طرابلس الغرب ومواساة منـكوبى البلقان ومؤازرة بقاء الخلافة الاسلاميـة ولكن بالغاء الخلافة الاســـلامية تبدلت الأحوال وصارت الأهـوال تهدد الحياة الاسلامية فتحول ملك الافغان الى مـراقص أوربا ، كما تحول أتاتورك كذلك الى باراتهـا وقبعاتها وظهر فى الهند نغم منكرى الحـديث الشريف .. فأدى ذلك الى استعار المعركة حتى ظهرت دعوة اسلامية خالصـــة عام ١٣٥٢ هـ ١٩٢٣ م قام بها رجل مؤمن عالم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مطلع على ملابســات عصره عارف بنزعات قومه بصيـر بأســاليب عمـل الدعوة ذلكم هو الامام العارف بالله الزاهد المجاهد التقى الطاهـر النقى مـولانا أبو الأعلى المودودى رحمه الله رحمـة واسعة وقد أخذت دعوته هذه عدة مراحل :

المرحلة الأولى : ١٣٥٢ هـ / ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٣٣ م /١٩٤١ م .
توضيح الحقيقة الاسلامية

فى هذه المرحلة عنى الاستاذ الامام أبو الأعلى المودودى بتكوين الفكرة الصادقة السليمة للاسلام ونظمه ، واهتم فى السنى الأولى من بدء مهمته بتنقية الفكرة الاسلامية من شوائب الآراء الزائفة والنزعات الجائحة ، وكشف عن مواطن الضعف وسوء القصد فى التصورات المنحرفة التى تدعى نسبتها الى الفكرة الاسلامية .

وفى هذه الفترة انقطع فيها للتحصيل والمطالعة والكتابة وثابر الليل والنهار على اعتكافه وهو يجهد نفسه للقيام بحركة شاملة لاحياء الروح الاسلامى فى أرض وطنه ، وأسس لهذا الغرض مجلة « ترجمان القرآن » وفى هذه المجلة كشف للمسلمين الدور الخطير الذى يقوم به حزب المؤتمر الوطنى الهندى للقضاء على الاسلام والمسلمين . واستمر عرضه للموضوع زهاء ثلاثة أعوام استعرض فيها :

أ ـ تاريخ المسلمين فى القارة الهندية ، وبين مواطن الضعف فيما سلف من العمر والسياسةالتى أدت الى الانحطاط ثم حمل فىنهاية هذا الشوط على لادينية حزب المؤتمر الوطنى الهندى .

ب ـ فضيحة القومية الهندية والجمهورية اللادينية وخطورتها على الحركة الاسلامية وعلى وجود المسلمين فى القارة الهندية ، وان المسلمين اذا وافقوا على هذا سيكونون كمن حكم على نفسه بالاعدام ، وأبان عن دور الاستعمار الانجليزى فى هذا المخطط .. وبهذا اتضحت شخصية الرابطة الاسلامية لمسلمى الهند وارتفع شأنها واشتد ساعدها .

حـ ـ أدان الفهم العنصرى فى الرابطة الاسلامية لأنه كان يعلمأن أصحاب هذا الصوت يختفون وراء الاسلام ليبرروا مخططهم العلمانى الغربى فشرح للأمة المسلمة فى الهند فى سيل من مقالاته أن نعرة القومية الاقليمية منهج غربى وأن المستترين وراء الاسلام يفضحهم

التبرج الذى يرى فى مجالسهم والاباحية التى تتفشى فى صفوفهم، أما الدولة الاسلامية التى يراد بناؤها فليس سبيلها الدعوة الى العنصرية لأن الاسلام لا يعرف مثل هذا المبدأ أو مثل هذه الروح .

ولأن قيام دولة عنصرية سوف تقضى عليه الهندوكية التى تناصف المسلمين فى عدد السكان فى الاقاليم المزمع جعلها دولة اسلامية عنصرية ومنذ نشأتها سوف تتلاطمها أمواج الفتن ويعود المسلمون الى المسكنة والضعف والغربة داخل دولة تحمل اسم الاسلام وهى ليست من الاسلام فى شىء .

ولهذا الدور أهمية فى ابراز فكرة الامام الشيخ أبو الأعلى المودودى فى دعوته العامة الى التحرر من قيود القومية ، والعنصرية فان الاسلام لم ينتشر بقوم ولا بأهل وطن وانما نشر بالعلم والتقوى والقدوة الصالحة والعلم النافع والبراهين الساطعة والحجج القوية ، ووضحت فكرة المودودى : أن المسلمين ليسوا أمة فحسب مثل سائر الأمم مثل ألمانيا ، وانجلترا ، والهنود ، بل هم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فهم بهذا لهم صلة بالله ورسوله وبالقرآن ، لا بالقومية ولا بالوطنية ولا بالعربية والاقليمية لأن العدل لا يعرف نزعة معينة ولا أرضا معينة ولا نسبا معينا وانما العدل الذى ينشده الاسلام يعرف المصدر الأعلى والوحى المعصوم ، والبنوة الخاتمة .

وانتهى دور هذا البنيان للفكرة الاسلامية التى قام بالدعوة اليها الامام الراحل المودودى فى عام ١٩٣٩ م .

* وكان الشيخ أبو الأعلى المودودى يهدف الى استمرار كفاح المسلمين فى الهند كلها دون فصل جزء منها لبناء دولة مستقلة .. وقد بينت الأحداث صدق رأيه .. ولكن المغالين فى فهم القوميات وصفوا الاسلام بأنه قومية فى

مواجهة الهندية واتخذوا من باكستان مقرا للقومية الاسلامية وكان ذلك شعورا فياضا فى نفوس الأغلبية الساحقة للمسلمين .. فوجد المودودى نفسه أمام أمرين كلاهما أمر من الآخر :

الأول : اذا خسر المسلمون دعاة القومية ولم يحصلوا على دولة اسلامية مستقلة فقد خسرت الامة الاسلامية كلها وضاع الكفاح هباء وتعقدت الامور واندحرت الامة الاسلامية لأنها ستكون قومية منهزمة أمام قومية منتصرة ؟ .

الثانى : اذا نجح المسلمون فى اقامة دولة وانقسمت البلاد فماذا يبقى لنا من وسع وأسلوب لنشر تعاليم الاسلام وسط القارة الهندية والتى سوف تتميز فيها القوميتان : كل قومية فى دولة فما سبيلنا الى نشر الاسلام داخل دولة الهند ؟

بل اذا تأسست باكستان كدولة اسلامية تحت زعامة ذلك الصنف العلمانى فما هو السبيل يومئذ لتحويلها الى دولة اسلامية حقيقية ؟

ومن هنا برزت فكرة الجماعة الاسلامية وفى شهر شعبان ١٣٦٠هـ أغسطس ١٩٤١ م اجتمع خمسة وسبعون رجلا من مختلف أنحاء الأمة واتفقت كلمتهم على تأسيس الجماعة الاسلامية للنهوض بدعوة الاسلام واعلاء كلمة الله فى أرضه ، وانتخب السيد الامام أبو الأعلى المودودى أميرا لهذه الجماعة .

المرحلة الثانية : ١٣٦٠هـ/١٣٦٦هـ - ١٩٤١ م / ١٩٤٧ م .

بناء الجماعة الاسلامية :

يعتبر قيام الجماعة الاسلامية أول طريق المرحلة الثانية من كفاح الشيخ المودودى فقد شرعت الجماعة فى أداء مهمتها نحو تربية جيل من الشبان والأساتذة فى الجامعات تتعلق بمحاسن الاسلام وامتيازاته بأسلوب عصرى يتلاءم مع الذوق العام لهذه الطائفة من الناس كما عنيت الجماعة بتربية أعضائها الذين ينضمون اليها وتنشئتهم على الأخلاق الحميدة الفاضلة والسجايا الكريمة والطباع النبيلة ، وكان الاتباع لهذه الجماعة ينقسمون الى قسمين :

ـ عضو ركن : وهو من يقبل تعاليم الجماعة نظريا وعمليا .

ـ عضو متفـــق أو أنصار : وهو من يقبـــل تعاليم الجماعـــة ويساعدها نظـــريا ولا يطبقهـــا عمليا .

وقد اتخذت الجماعة لهـــذه التربية أماكن خاصة سمحت لهـــم بحرية النقد من أجل البناء الوجدانى للفرد المسلم وعـــوّدتهم على تطبيق النظام الاسلامى من الآداب الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وعلمتهـــم أسلوب تبليغ الدعوة .

فكان على كل عضو :

أ ـ أن يعرض تفاصيل الدعوة الى الله على كل مـــن يلوذ به من المسلمين وغير المسلمين .

ب ـ وان يواظـــب على نشر تعاليم الاسلام بواسطة الدراســة والمطالعة والاخـــلاق وحسن المنطق وتحمل الأذى ودعوة الناس كافـــة الى خيرها والرشاد اليها .

حـ ـ أن يتحلى كل عضـــو بصفات المسلم الصـــادق ويروض نفسه على الاستمساك بهـــا فى المنشط والمكره .

د ـ المحافظة على نظام الجماعة وادراك أنها قامت من أجـــل احياء الدين نظاما كاملا شاملا .

المرحلة الثالثة : ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م

فى لحظة بناء الجماعة الاسلامية لجيل من الشباب الاسلامى فوجئت بالحدث الخطير وهو فصل باكستان واعـــلان أنها دولة للمسلميـــن ولسوف يكون المسلمون آنذاك فى العالم كله قد هللوا وكبروا لهذا الحدث ولكن الآلام التى صاحبته وقتل آلاف المسلميـــن وسوقهم ســـوقا الى الدمـــار ليخـــرجوا من الهند لا الى باكستـــان بل الى الموت والتشرد والجـــوع كانت صورة رهيبة قابلها زعمـــاء تلك السياسة بالبرود الانجليزى الذى مهد لكل هذه الاحـــداث ليخرج الاسلام من القارة الهندية ، وليسام المسلمـــون الخســـف فى دولة باكستان تحت زعامة علمانية لاتقل فى كراهيتها للاسلام عن زعمـــاء الهندوكية والاستعمار أنفسهم ..

وهذا هو الذى حذر منه الامام الراحل أبو الاعلى المودودى فى المرحلة الأولى من كفاحه وهو يوضح للمسلمين الحقيقة الاسلامية .

فوجئت الجماعة الاسلامية بهذا الحدث وهى بعد لما تستكمل برامج تربيتها .. وكانت تتمنى أن لو تأخر هذا الحدث بضع سنوات . لتستطيع الجماعة مواجهته وتحويل الزعامة فى الدولة الجديدة الى حقيقة الاسلام .

فوجئت الجماعة الاسلامية بهذا الحدث الذى فصلها الى شطرين بعد قيام دولة باكستان فلم تعد الجماعة واحدة لكل القارة الهندية بل صار شطرها فى الهند لمن بقى من المستضعفين من مسلمى الهند ، وشطرها الآخر فى باكستان يواجه جحافل الظلم وعقابيل المشكلات .

وكان امتحانا قاسيا للجماعة الاسلامية فى كلا الشطرين :

* أما فى هندوستان فقد نظمت الجماعة نفسها بسرعة وأسسوا مركزهم فى مدينة (رامبور) وانتخبوا الاستاذ أبا الليث الندوى أميرا لهم ، وقدموا خدمات للمنكوبين من الامة الاسلامية حتى أرهقوا ماليا وصحيا ، وحتى ان تاريخ الجماعة الحديث ليشهد لأمير الجماعة أبى الليث الندوى وأصحابه انهم كانوا السلوى الوحيدة للشعب المسلم فى الهند المضطهد من بنى جنسه وجيش الاستعمار على السواء .. وكان عدد الجماعة الاسلامية فى الهند آنذاك ٢٤٠ شخصا رجلا وامرأة .

* وأما الجماعة فى باكستان فقد شمرت عن ساعد الجد وأعلنت الكفاح وعممت الدعوة الى الامة كلها ودعت الى احياء النظام الاسلامى واقامة الدين بالكامل ووضحت للأمة عدة امور :

الأول : أن المجتمع الباكستانى على قدر ما به من شوق لاحياء النظام الاسلامى فان زعماء هذه الحركة لم يعرفوا عن حقيقة الاسلام شيئا لأن زعماء الحركة انشغلوا فى المناوشات السياسية

مع الهنـادك لفصـل باكستان ولم يشغلوا أنفسهم بمعرفة حقيقـة النظام الاسـلامى ، وكذلك أبناء الشعب نفسـه انشغلوا بالحياة وبالعمل السياسى ولم يفطنوا الى معنى اقامة دولة اسلامية .

الثانى : ان سلوك قادة الدولة الجديدة لا يتفق مع الاسـلام لأنهم أوربيون فى النـزعة والأخـلاق والسلوك .

الثالث : ان تصرفات القادة مع اللاجئين المسلمين كانت خارجة على المشاعر الكريمة فقد فشـت فيهـم الرشوة لحظة الجفاء والقسوة التى كان يعيشها المهاجرون وفى مواجهة البنادق والسيوف المصلتة عليهـم من قبل الهنادك والسيك .

الرابع : أن نهب الأموال وهتك الأعراض من ساعة الهجرة من الهند الى باكستان قد خلف شعبا فقيرا معدما بائسا حزينا .

أخذت الجماعة تعمل على معالجة كل هذه الامور ، وتخفف مـن ويلات العوز والفاقة وتبصر الناس بعواقب الأمور ، وراحت تجـوب البلاد فى باكستـان شرقا وغربا تحمـل دعـوة الله الى النـاس وتبصرهم بشئون دينهـم ودنياهم عن طريق النشر والمحاضرة والدرس والندوة والـزيارة وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ م وكان عـدد أعضاء الجماعـة ٣٣٥ شخصـا ثم نشرت الجماعة بيانهـا الذى طالبت فيـه الحكومة باقامة النظام الاسلامى، وقد أعلن هـذه المطالب الامـام الراحل الشيخ المودودى فى كلية الحقوق بلاهور فى ١٩ فبراير سنة ١٩٤٨ وهى عبـارة عـن أربـع نقاط :

١ ــ أن الحاكمية فى باكستان لله العلى الأحد .

٢ ــ آن الشريعة الاسلامية هى القانون الأساسى لباكستان .

٣ ــ يلغى كل مـا يعـارض الشريعة الاسلامية من قوانين .

٤ ــ لا تتصرف حكومة باكستان فى شئون الـدولة الا فى اطار الحـدود التى رسمتها الشريعـة الاسلامية .

وتلقت الامة الاسلامية هذه المطالب بالقبول والترحاب وتناولوها بالمحاضرات والندوات والحفلات والمقالات •

وأحس العلمانيون تلاميذ الاستعمار الانجليزى بخطورة المطالب فعمدوا الى الأسلوب الانجليزى فى مواجهة الأمور وذلك بدس اشاعات كاذبة فأشاعوا أن المودودى يقول بعدم مشروعية الجهاد فى كشمير •• ليحولوا حماس الجماهيرنحو مسألة خارجة عن المطالب الأربعة •• واعتقلت السلطات العلمانية الامام الراحل الشيخ أبو الأعلى المودودى وبعض أفراد الجماعة وذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨ م وعطلت صحف الجماعة بل والمجلات الأخرى التى تساعدها وتسير فى خطها الاسلامى •• ولم يفت ذلك فى عضد الجماعة ولا الشعب المسلم فى باكستان فارتجت المدن ارتجاجا لهذا الصنيع وقامت المظاهرات فى شتى انحاء البلاد حتى اضطرت الجمعية التأسيسية فى مارس ١٩٤٩ الى اعلان قرار تاريخى عرف بقرار المبادىء •

وقد أعلن فى هذا القرار : أن الحكم فى هذا الكون لله وحده وأن الدولة مسئولة عن وضع دستور يؤهل به المسلمون لأن ينظموا حياتهم الفردية والجماعية حسب تعاليم الاسلام •

وقد أقر المودودى وهو فى السجن هذا البيان غير أن العلمانيين فى السياسة يأخذون الاسلام كمهدىء للأعصاب ومسكن للفورات فاذا ما سكن الشعب وهدأ نام كل شىء فلقد نام ذلك القرار •• وراحت الحكومة فى باكستان تستخدم قانون ١٩٣٥ الهندى الانجليزى النزعة والنظام• فبدأت المعركة من جديد واستمرت المعركة من حالة الى حالة الى أن جاء الحاكم المعاصر القائم على شأن باكستان ضياء الحق وأعلن أنه يريد اقامة الحكم الاسلامى فى باكستان •

ونعود فنقول ان حركة الجماعة الاسلامية تسعى الى :

١ ــ أن تقـــوم الدولة على أسس اســـلامية وأن تحمى من هجمات التيارات المعادية للاسلام.

٢ ــ أن تبذل الجهود لاصلاح شأن المجتمع ورقيه الخلقى والعقلى والاجتماعى .

٣ ــ ألا يعود نظام جاهلى الى الدولة بأسلوب أو بآخر .

٤ ــ أن تستبدل زعامة راشدة بالزعامة الحاضرة الفاسدة .

لقد كان المودودى رحمه الله أمة فى التفكر ، والعمل ، والدعوة ، والجهاد وقد لقى من خالص عمـله ما يلقاه المجاهدون من صبر عـلى البلاء وشكر يرطب اللسان ، وعلم ينفع العباد ، وقلب مطمئـن سليم يلقى به ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

قيمة المودودى فى نظر العلماء :

قال الشيخ الندوى :

« للأستاذ أبو الأعلى المودودى صفات عديدة ترشحـه للزعامـة الفكرية فى شبه قارة الهند منها : صفاء الفكر ، والاطلاع على مناهج الفكر الحديثة والثقة بفضل التعاليم الاسلامية ، وجـدارتهـا للبقاء والانتشار ، والاعتـداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعـة والقلم البليغ السيال والأسلوب القوى الدافق وقد كان لبحوثه العلمية الأولى التى كتبها فى الهند التى كان يتكلم فيها عـن مستوى عال وقوة وثقة ، ولمقالاته ورسائله دوى عظيم فى الأوساط الاسلامية التى كانت تعانى قلقا فكريا وجلبت اليه عددا وجيها من عشاق الفكرة الاسلامية وهـواة المجد الأسلامى » .

هذا رأى عالم فذ من الأفـذاذ فى الدين والعلم والدعـوة هـو الشيخ أبو الحسـن على الحسينى النـدوى وهى شهادة يعتز بهـا العاملون فى حقل الدعوة الاسلامية لأنها تبرز مكان الامام الراحـل الشيخ المودودى انه قائد فكـرى اسلامى ، ورائد اجتمـاعى مسلم ومصلح اسلامى كبيـر ، وسياسى بارع فى ادراك الاحداث وعواقب الامور .

الأنتاج العلمى للمودودى :

تكاد البلاد الاسلامية كلها تكون قد عرفت الثروة الحية الممتعة التى خلفها الامام الراحل فهى تعطر مكتبة كثير من شبان العالم الاسلامى التى حرص على طباعتها ونشرها وقراءتها ومن انتاجه العلمى :

١ ــ تفسير سورة النور •
٢ ــ الحجاب •
٣ ــ الربا •
٤ ــ الجهاد •
٥ ــ الاسلام والجاهلية •
٦ ــ مبادىء الاسلام •
٧ ــ الدين القيم •
٨ ــ نظرية الاسلام السياسية•
٩ ــ معضلات الاقتصاد وحلها•
١٠ ــ المسألة القاديانية •
١١ ــ نحو دستور اسلامى •
١٢ ــ دور الطلبة فى مستقبل العالم الاسلامى •
١٣ ــ منهج الانقلاب الاسلامى •
١٤ ــ المصطلحات الأربعة فى القرآن الكريم •
١٥ ــ نظرية الاسلام الخلقية •
١٦ ــ نظام الحياة فى الاسلام•
١٧ ــ الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية •
١٨ ــ واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم •
١٩ ــ مسألة ملكية الأرض فى الاسلام •
٢٠ ــ المسلمون ومعضلات السياسة الحاضرة •
٢١ ــ التفهيمات •
٢٢ ــ التنقيحات •
٢٣ ــ الخطب •
٢٤ ــ القانون الاسلامى •
٢٥ ــ شهادة حق •
٢٦ ــ الحضارة الاسلامية ومبادؤها •
٢٧ ــ تحديد النسل •

لقد كان المودودى رحمه الله ورضى الله عنه ثالث ثلاثة هم غرة القرن الرابع عشر الهجرى جعلهم الله فيه حماية للفكرة الاسلامية من

الضياع ، وغوثا للأمـــة الاسلامية عندما يتكأكأ الظلم عليها ، ونبراسا للشباب عندما يكون الليل حالكا.. وهؤلاء الثلاثة هم :

* الشيخ حسن البـــنا : الذى بدأ فى ايقاظ الأمة الاسلامية نحو الوحدة وفض الخلافات ، ومحاربة الاستعمار ، وعمـــل على اعـــادة الخلافة الاسلامية .

* الشيخ عبد الحليم محمود : الذى وضع الأزهـــر على طـــريق الرسالة فنشر المعاهـــد ، ووســـع جامعة الأزهـــر ، ووجـــه السلوك والأخلاق فى لحظة النكســـة الى الطريق المستقيم .

* الشيخ أبو الأعلى المودودى : الذى عمر ديار مـــا وراء النهـــر بالحقيقة الاسلامية ، وبناء الدولة الاســـــلامية . وراد الشباب الى طريق قويم .

* ان هؤلاء الثلاثة هم أعـــلام على طريق الكفاح للدعاة من علمهم الذى اتفقوا عليه يستقى المخلصون شرابا طهـــورا للفهـــم والورع والتقوى ومـــن كفاحهـــم المستقيم يرسمون خطى الجهاد الصحيح ، ومن سيرتهم العطـــرة يستنشقـــون عطر الصلاح ورائحة الجنة .

ألا ففى ذمة الله يا شيخنا وعنـــد مليك مقتدر مقعـــدك الى يوم أن تبعث مـــرضيا عنـــك مع النبييـــن والصـــديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك لك ولأمثالك رفيقا.

دكتور رؤوف شلبى

« الدنيا دار بلاء ، ومنزل قلعة وعناء ، أسعد النـــاس فيها أرغبهم عنها وأشقاهم بها أرغبهم فيها ، فهى الغاشـــة لمن انتصحها ، المهلكة لمن اطمأن اليها ، طوبى لعبد أطاع فيها ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وأخر شهوته » .

(على بن ابى طالب)

في مواجهة الإلحاد المعاصر:

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(٤)

عجز العلم عن ادراك أصل الوجود وغايته ..

يرى هربرت سبنسر اننا نعجز عن تصور ارتقاء المادة سلم التطور العام لو اننا ذهبنا الى أنها وجدت ابتداء في حالة الانتشار العام .

(فاذا وجهنا أبصارنا نحو المستقبل فلن نعرف كيف نعين تتابع الظواهر التى تجرى أمامنا ..

ومن جهة أخرى :

اذا نظر الانسان فى نفسه وجد أن طرفى الشعور ــ بدايته ونهايته ــ يخرجان عن امكان ادراكه لهما .. فهو لا يستطيع أن يدرك بداية حالة من حالات الشعور الا بعد حرياتها .

وكذلك يفوته ادراك تلاشى الشعور ..

فجوهر الأشياء وتكونها ونهايتها خافية علينا ، وينتهى سائر علمنا الى الغيب) . (١) .

ويقول أميل بوترو :

(مهما نفترض امتداد التجربة فانها لا يمكن أن تبلغ الأصول الأولى ولا الغايات الأخيرة .

فهى لا تستطيع قط ولن تستطيع أبدا أن تبلغ فى الزمان ظاهرة أولى أو أخيرة .

(١) العلم والدين ص ٧٦

والمسألة هى معرفة الى أى حد يكفى التتابع الدائم الداخـل فى مدى التجـربة فى تفسير ظهـور الظواهر .

فالكائن لا يجرى تبعا لقـوانين الا لوجود طبيعة معينة فيه .

فما هى هذه الطبيعة ؟

أهى ثابتـة ...؟

ولم كانت محـددة على هـذا النحو أو ذاك ؟

وبأى شىء سابق نصلها لنعطى عنها تفسيرا تجريبيا ؟

هذه الأسئلة تنطـوى بالنسبة للعلم على حلقة مفرغة .

ولذلك كانت ـ بالضرورة ـ مما يتجاوز العلم .

فالتجـربة تقـرر القـوانين أو العلاقات الدائمة بين الظواهر .

ولكن ليس للتجربة سبيل الى معـرفة : أهـذه القوانين مجـرد وقـائع ، أم انهـا ترتبط بطبيعـة ما ثابته تهيمن على الوقائع) . (١)

وبهذا ينهـدم تمـاما كل سند علمى للمادية فى ادعائها بأن المادة أصل الوجود .

ويقـول الأسـتاذ ليـكونت دى نوى ـ رئيس قسم الفلسفة بالسوربون ، ورئيس قسم الفيزياء فى معهد باستور ـ فى تحليله لفكرة السبب من وجهـة نظر العلم ـ وضرورة رجوعهـا الى السبب الأول :

(لنأخذ رصاصة البندقية مثالا على ذلك :

فهـل نقـول : ان انطـلاقة الرصاصة قد تسبب عن الكبسولة ؟

أو عن حركة يد الجنـدى التى ضغطت على الزناد ، أو عن شحنة البارود التى تحملها الرصاصـة ؟ أو عـن العمـال الذين صـنعوا المسحوق ، أو المهندسين الكيمائيين الذين أخترعوه ، أو البنائين الذين شـيدوا المصنـع ؟ أو أصحـاب رءوس الأموال الذين مولوا بناءه ، أو آبائهم أو أجدادهم ؟

(١) العلم والدين ص ١٨٩ : ١٩٠ .

ان كلا من هـؤلاء وجميع من ساهم فى بناء المدفع يتحمـل جزءا من المسئولية تقل بالتـدريج دون أن تتلاشى كليـة الى أن نصـل الى ...

بداية العالم

وهكذا نصل بصورة آلية الى السبب الأول .

وتنتقل المسألة فجأة ـ ولا بد من أن تنتقل ـ من العالم المادى الى العالم العقائدى الفلسفى .

وليس من الممكن تجنب الانتقال من العـالم المادى الى العـالم غير المـادى عنـد بحث « الأسباب » لأنه يجب أن نشير الى : الأسباب النفسـية التى قـادت الى صـنع البندقية ، والبـارود الى اطـلاق النـار ، فلولا هـذه الأسباب لما كانت هنـاك قذائف ولا مـدافع ولا شـحنات ولا كبســول ، ولا مطلقون ، ولا مجهود يتواصل ويترابط بقصد اطلاق الرصاص .

فمن الوجهة المادية البحتة نجد أنفسنا مضـطرين الى أن نرجـع السببية الى مجرد الوجود ـ فكل حادثة تحدث أو يجـرى التفكير فيها وتجـرى قبـل حادثة أخرى يمـكن أن تكون سببا وليس فى المسألة أكثر من تتابع فى الزمن .

اننا لا نستطيع عندئذ أن نبحث عن سبب ابتـدائى ما لم نتـرك مجـال العلم وندخـل فى عـالم العقائد) . (١) .

ووجود السبب الكافى ـ أو العلة التـامة ـ هـو وحـده الذى يجوز ـ بـل ينبغى ـ التـوقف عنده ، لأنه هو الضرورة المطلقـة لوجود الأشياء ، وهو « علة كونها ما هى وأساسه ـ كما نجـد ذلك فى الأشكال الهنـدسية ـ فينبغى ضرورة ـ اذن ـ أن تتوقف عنـد هذا الأساس وهـذه العلة ، أمـا السؤال عما هى علة العلة التى هى أقصى العلل جميعا فمتناقض » (٢).

لكن البحث فى ذلك ـ أى فى العلة التامة ـ يخرج عن نطـاق

(١) مصير البشرية لـ ليكونت دى نوى

(٢) نظر سلسلة الوجود لأرثر لفجوى مقتبسا ذلك من احد كتاب القرن الثامن عشر ص ٢٣٠.

العـلم كمـا قلنـا ، ونظرا لأن سماسرة الالحـاد العـلمى سجنوا أنفسهم فى هـذا النطـاق ، فقـد وجـدوا أنفسهم أمـام أمرين فى كليهما خـروج عن نطاق العلم ، القـول بوجـود هـذه العـلة ، أو القاء الأمر على عاتق الصدفة ، فاختـاروا الأمر الذى يتفـق مع « ارادة الالحـاد » وان رغم أنف العـلم : اختـاروا القـول « بالصـدفة » .

(٥)

عجز العـلم الالحـادى عن تجنب القول بالمصادفة :

من المحتم أن يلجأ الملحـدون العلميون ـ نتيجة لعجزهم ... الى القول بالصدفة رغم مناقضتها لأسسهم العلمية .

وما ذلك الا لكراهتهم للقـول بالارادة الالهية ..

وهى كراهة لا ترجع الى منطق أو علم ، وانما هى تقـوم بالرغم من المنطق وبالرغم من العلم .

ان الصدفة لا محـل لهـا فى التفكير العلمى أساسا :

يقول الدكتور ايزنك :

(ان العـالم ـ سـواء كان فيزيائيـا ، أو بيولوجيـا أو سيكولوجيا ـ يجب أن ينطلق فى دراسـاته من افتـراض أن ما يدرسه محتوم وخاضع للقانون العلمى . وان افتراضاته الأساسية تهزم بقدر ما يفشل فى اقامة هـذه القوانين) . (١)

ومع ذلك فان الالحـاد المتشح برداء العلم اذا اضطر الى القـول بالارادة الالهية لا يجد مهربا الا فى القول بالصدفة .

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر :

(اذا سألتهم أو تساءلت كيف وجد ذلك السديم أصلا ؟

وأية قوة حركته ..؟

وما الذى أحكم تلك التغايرات بحيـث انتهـت بذلك النظـام البديع ..؟

١) الحقيقة والـوهم فى علم النفس للدكتور ايزنك ص ٢٨٤ .

لم يجدوا مخـرجا الا بالركون الى القول (بالمصادفة) (١) .

ان العلم الحـديث يضطـر الى القول بالمصادفة فى أخطر المسائل ، ومن أخطرها ظهور الحياة .

وظهور الانسان .

وسنناقش القول بالمصـادفة فى هذين الأمرين ، وفقـا للمقررات العلميـة ، آخـذين فى الاعتبـار ما يقـولونه من أن للمصـــادفة قانونا علميا .

يقـولون :

« ان المصادفة تخضع للتحليـل الـــرياضى وعلى سبيل المثـــال والتوضيح فان فرصة ظهور وجـه الستة عنـد طـرحك لزهـر النرد هى ١ : ٦ أى واحـد الى سـتة أما مصادفتك وجـه الستة مـرتين متواليتين فهى ١ : $٦^{٢}$ ، أى واحد الى ستة وثلاثين ، أما مصـادفتك وجـه الستة ست مرات متواليـة فهى : ١ : $٦^{٦}$ أى واحد الى سبعة وأربعين ألفا ، وهكذا ، على أنه يجب أن نوضح هنا ــ وكما يقرر برتراند رسل نفسه ــ ان حساب الاحتمالات (٢) هذا الذى يتمسح به قانون المصادفة انما هو تصور رياضى (يتصـف بما تتصـف به الرياضة من ضبط ويقين طالمـا لم يطبق ، وينشأ عـدم اليقين عنـد التطبيق ...)

ويقول رسل (لقد انتهيت الى نتيجـــة ... هى أن الجـوانب الرياضية من الاحتمال ذات شأن فى الاستدلال العـلمى أقـل ممـا نعتقد) (٣) .

ويقول الدكتـور جـون كيمنى (ان القوانين الاحتمالية تدخـل الى العلم بسبب ؟

١ ــ اخفـاق جميـع الوسائل الأخرى .

٢ ــ وعندمـا نضطـــر الى الاعتراف بجهلنا الـكامل » (٤) .

(١) ملقى السبيل ص ١٦٦ .
(٢) يستعمل الاحتمال بمعنيين : الشك ، والاحصاء
(٣) فلسفتى ص ٢٣٥ : ٢٣٦ .
(٤) الفيلسوف والعلم ص ١١٨ .

ومما يؤكد القـول بأن درجة الاحتمال انما هى نتاج للعقل فى حـالة جهـله بالأسبـاب اننى اذا القيت قطعـة نقـود فهل ستظهر الصورة أو الكتابة ؟ هـذا أمـر لا أعلم عنه أى شىء ، وليس لدى من الأسـباب ما يجعـلنى أومن باحدى النتيجتين دون الأخـرى ، لذلك أنظر الى الامكانين على انهما متساويان فى درجـة احتمالهمـا واعزو الى كل منهمـا احتمـالا مقداره نصف .

وهكذا فان الجهـل بالأسباب هـو السبب فى افتراض تساوى الاحتمالات أو فيما يعـرف بمبدأ السوية .

فالقول بأن درجـة الاحتمـال نصـف ، لا يعنى أى شىء عـن المستقبل ، وانما يعبر فقط عن أن معرفتنا عن وقوع هـذا الحادث لا تزيد عن معرفتنـا عن وقـوع الحادث المضاد .

وهذا ان يكـن تبريرا للحـكم الاحتمالى لكنه يجعله غير صالح لأن يكون مرشـدا عن السلوك ، أو عما يقـع فى المستقبل ويكذب هانزريشنباخ عنـدما يدعى أن هذه الاحتمالات محسوبة لا طبقا لتحليلات تأمليـة ، ولكن طبقـا (لترددات لوحظت بالفعـل فى الماضى وتنطوى على افتراض أن نفس الترددات سوف تسرى تقريبا الى المستقبل) (١) . لاجئا بذلك الى الاستشهاد بما يسميه « قواعد المراهنة » قائلا (ان نسبة خمسين فى المـائة ـ بالنسـبة لوجهى العملة ـ تعنى ان استخدام هذه القاعدة سيؤدى فى المدى الطويل الى أن يتساوى الطرفان المتراهنان فى الفـوز ..) . (ويوغـل ريشنباخ فى تمويهه وكذبه فى هذه النقطة عندما يقول : (لو لم نكن قد لاحظنا اننا نصل بمضى الوقت عند رمى قطعة العمـلة الى تردد

(١) نشأة الفلسفة والعمية ص ٢٠٨ .

متساو للوجهين لما تحدثنا عن احتمالات متساوية) (١) .

لأن حقيقة الأمر وواقعه ان هذه ليست قواعد تجريبية للمراهنة ويعرف كل مراهن انها عند التجربة ليست الا مغالطات يغالط بها المراهن نفسه أو يغالط بها غريمه ليستمر فى مراهنات لا جدوى من ورائها . (٢)

ومع أن هذا كاف فى ابطال الاحتجاج بهذه القوانين ضد القول بعلة أولى أو ارادة الهية .

فان البحث يثبت أن قوانين المصادفة هذه غير صالحة للتطبيق فى ظهور الحياة والانسان وفقا لمقررات هذه القوانين نفسها .

فلنطبق هذا القانون « قانون المصادفة » :

على ظهور البروتين ــ الذى هو الأساس الطبيعى المادى للحياة من المادة الميتة .

يقولون : ان البروتين تكون من الاجتماع العرضى بفعل المصادفة لعناصر الكربون والهيدروجين والنيتروجين والاكسوجين والفوسفور والكبريت . ولابد لهذه العناصر من أن تتركب فى جزئيات صغيرة تسمى الاحماض الأمينية ، ولابد لهذه الجزئيات من أن تترتب على وجه معين ترتيبا دقيقا ، وان أدنى انحراف عن هذا الترتيب يجعل البروتينات اما غير صالحة كأساس لظهور الحياة ، واما أن تصبح سما زعافا ، والمعروف من هذه الأحماض اثنان وعشرون حامضا ، ومن البروتينات ما يحتوى على مائه حامض أمينى أو ما يزيد على ذلك كثيرا .

والسؤال الآن هو : كم من الزمان يحتاج تركب البروتين على الوجه المذكور ، وفقا لقانون المصادفة ذاك ؟

أو بعبارة أخرى : ما هى الاحتمالات اللازمة ــ وفقا لقانون المصادفة ــ لكى تتحقق فرصة تركب البروتين ؟

(١) السابق ص ٢٠٨ (٢) انظر شرحا وافيا لما يسمى مغالطة المقامر فى فن الاقناع لليونيل روبى ص٢٥٦.

يوضح الدكتور ف٠هـ٠ مترام أنه وفقا للدراسة التى أجراها العلماء تحتاج هذه الاحتمالات من ناحية الزمن الى $١٠^{٢٤٣}$ من السنين وبما أن المدة التى انقضت منذ أصبحت الأرض صالحة لظهور الحياة فيها الى العصر الذى تثبت الحفريات وجود الحياة فيه لا تعدو ألف مليون سنة ، والمدة التى انقضت من عمر كوكبنا ــ على أقصى التقديرات التى وضعت ــ لا تزيد على ستة آلاف مليون سنة ...

وبما أن هذه الاحتمالات من ناحية المكان تحتاج الى حجم كرة يحتاج الضوء لكى يقطع نصف قطرها الى $١٠^{٨٢}$ سنة أى يفوق حجم الكون المعروف بأجمعه ..

فان ظهور البروتين فى المدة التى ظهر فيها بالفعل وفى حجم هذه الارض فحسب ، يصبح عملا مستحيلا (لا تستطيعه الا قدرة الخالق) .

هذا كله لكى يتكون جزىء بروتينى واحد ، وهو مادة ميتة (١) .

أما لكى يتكون البروتوبلازم الذى يعتبر أدنى صورة من صور الحياة ؟

اما لكى تظهر الصور المعقدة للحياة من النبات ؟

اما لكى تظهر الصور الأكثر تعقيدا من الحيوان ؟

اما لكى يظر الانسان ؟

ويقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(يجب ألا ننسى انه مهما كانت الفرصة ضئيلة فانه لا يمكننا أن نثبت بأن الفرص الضئيلة سوف تتحقق حتى فى نهاية بليون بليون قرن . فقد تتحقق ذرة واحدة منذ البداية ثم لا تعود ثانية على الاطلاق . وذرة واحدة لا تفيد بل مئات الملايين من الذرات ... وتزداد استحالة حدوث ذلك مع

(١) انظر الأساس الجسمانى للشخصية ص ١٩٨ ــ ٢٠٤ .

كل ذرة جديدة ... وتزداد مع كل مجموعة متشابهة .

فاذا وصلنا الى الخلية وأردنا التعبير رياضيا عن ظهورها تصبح الأرقام السابقة غير ذات قيمة) .

ثم يقول : (اننا نصل الى نتيجة هامة ، وهى أنه من المستحيل تماما تفسير جميع الحوادث التى تتعلق بالحياة وبتطورها وبتقدمها بواسطة العلم) .

ويقول : (انه لا يمكن تفسيرها الا بكونها معجزة أو بتدخل قوة تفوق العلم) . (١)

وهكذا قد يستطيع الماركسى أن يقول كما يقول أنجلز :

« الحياة هى أسلوب العمل والتفاعل فى المواد الزلالية أو البروتينات » .

بيد أنه مما لا شك فيه أن عالم الأحياء سوف يسخر من هذا القول كثيرا ، لما تقدم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن هذا الأسلوب ليس الا وظيفة أو صفة للحياة ، لا تلقى أى ضوء على ماهية الحياة ، ولا على تفسير ظهورها (٢)

هذا ما نقوله عن المصادفة بالنسبة لظهور الحياة .

أما عن ظهور الانسان باسم قانون المصادفة ...

فأصحاب هذا الرأى ــ من العلماء ــ يقولون :

ان الكائنات الحية من خصائصها أن تنسخ صورا من نفسها (ولكنها ــ كما يقول دكتور جوليان هكسلى عام ١٩٥١ ــ تتعرض فى بعض الأحيان لشىء من عدم الدقة أو الخطأ فى النسخ ، وقد يعرض هذا الخطأ لأجزاء مختلفة من الكيان الوراثى يتعمق حتى يصل الى مانسميه « الجينات » وهنا تأتى الطفرات ، فالطفرات اذن هى عجز هذه الجينات عن أن تحتفظ ببعض

١) مصير البشرية ص ٣٣ : ٣٤

٢) الأساس الجسمانى للشخصية للدكتور ف. هـ. مترام ص ٢٠٥ .

الدقائق والتفاصيل ... وهـكذا يصبح ما كان طفرات فى الأصـل سلالة من الجينات الطافرة ، وهى المصدر الذى يمد الأحيـاء بكل ما يحـدث فيهـا من تنوعات) ، وهكذا تظهر الأنواع الجـديدة ، أى يظهر الانسان ، نتيجة طفرة أى نتيجة خطأ ...

هكذا ترتكب هذه المفارقات ، لكى تتفـادى القول بالارادة ، ولنقول بالمصادفة .

وبالرغم مما فى هذا القول من مناقضة لفكرة التطور التقدمى ، اذ لا يتصـور أن يكون نتيجـة طفرات هى أخطاء ، الا أننا نقتصر هنـا على مناقشـة تطبيق قانون المصادفة ، على هذه الطفرات ..

هنا يلفت الدكتـور ف.هـ. مترام النظـر الى مثالين يقدمهمـا لنا التـاريخ الطبيعى لا يمـكن تصورهما مع القول بهذه الطفرات المصـادفية .

الحيـوانات البحـرية المسماة « شقائق النعمان » أو انيمونيات البحر لها خلايا لاسعة فى أذرعها ، وعند أخف لمسة لهـذه اللوامس تنطلق تلك الخلايا فى قوة وسرعة فتغمد فى جسم الحيوان المتحرش بهـا .

ومن الغريب أن بعض الحيوانات البحـرية الرخـوة المعـروفة « بالبزاقات » مسلحة بمثل هـذه الخلايا اللاسعة مع أن هذا النوع من حيوانات البحـر لا يمت بأية صـلة من صـلات القـرابة الى الأنيمونيات .

لكن الحقيقـة هى أن البزاقات تستولى على الخلايا اللاسعة التى تتميز بها الأنيمونيات وتتغذى . دون أن تنفجـر هـذه الخـلايا فيها عند التهامها للأنيمـونى ... فاذا التهمتها تنحدر الخلايا اللاسعة من معدة البزاقة سالـكة قنوات مبطنـة بأغشية ذوات أهـداب ، أو تحملها بعض الخـلايا المتجـولة فى جسمها حتى تأوى الى جيوب خاصة موجودة مباشرة تحت غطاء زوائد زاهيـة الألوان فى الوجـه العلوى للحيوان .

وهنـاك تترتب ترتيبـا دقيقـا متخذة أوضاعا صحيحة تعدها لأن

تنفجر فى وجه العدو الذى يهاجم البزاقة •

فاذا لم تتمكن البزاقة من التهام بعض الأنيمونيات فلن تحصل على ذخيرتها من الخلايا اللاسعة ، واذا اقتصرت على نوع واحـد مـن الأنيمونيات فانها تحصل على نوع معين من هذه الخلايا ، واذا أكلت نوعا غيره أحرزت أيضا نوعا آخر من الخلايا اللاسعة ، واذا حصلت على كفايتها من الخلايا اللاسعة كفت عن التهـام ـ الأنيمونيات حتى لو كانت جائعة •

وهنا نستخلص ثلاث ظواهر :

١ ـ ان الزاقة تجرد الأنيمونى من سلاحه •

٢ ـ انها تستولى على خـلاياه « أسلحته » وتستخدمها فى الدفاع عن نفسها •

٣ ـ انها مزودة بجهـاز خاص لنقـل الخـلايا من معـدتها الى « أبـراج ضرب النـــار » فى جسمها •

وكل واحدة من هذه الظواهر الثلاث تحتاج فى تكوينها ـ وفقا للنظرية الداروينية الحديثة ـ الى طفرة خاصـة على الأقل ، ان لم تكن تحتاج الى أكثر من واحـدة منها • ويجب أن تبقى هذه الطفرة أو الطفرات ويحتفظ بهـا وفقـا لقانون الانتخاب الطبيعى •

يقول الدكتور مترام :

(ان تصور حدوث مثل هـذه الطفرات على هذا النحـو فوق ما يستطيع العقل التسليم به •

وان من يسلم بمثل هذا جدير بأن يسلم بكل ما يقال) •

أما المثال الثانى الذى يتعـذر فهمه على ضـوء أية نظـرية من نظـريات الطفرات فهـو تعـاون نبات اليوكا Yucca « ابرة آدم » وفراشـة اليـوكا Pronuba ، وتبادلهمـا العمل على تكاثر كل منهما تكاثرا ناجحا •

فان نبات اليوكا وان كان ينمو جيدا ويزهر فى أوربا لكنه لا ينتج بذورا قط كما ينتجها فى موطنـه الأصلى ـ أمريكا •

ذلك لأنه فى أوربا يفتقد فراشة اليوكا ، ولا تتفتح زهرة اليـوكا سوى ليلة واحدة تأتى فى أثنائها الفراشة وتجرف منهـا جميع مادة اللقاح اللزجة ، وتشكلها فى صورة كرة صغيرة مستخدمة فى حملهـا والامساك بها زائدة معدة اعدادا خاصا لهذه العملية • ثم هى بعد ذلك تضع ثلاث أو أربع بيضات فى مبيض الزهرة ، ثم تطير الى ميسم الزهـرة وتدفـع بكـرة اللقاح داخل كأس صـغير معـد لذلك وما تلبث أن تنبت أنابيب من خصوب اللقاح ، ثم تنمو الى أسـفل مارة خـلال الميسم لكى تصل الى المبيض وتخصب البذور الموجودة فيه •

وكذلك تفقس بيضات الفراش ، وتعيش اليرقات الناشئة على البذور الناميـــة ، ولكنهـا لا تستنفد منها الا مـا يقرب من نصفها فقط بينما البقيـة الباقيـة من البذور تأخذ فى نموها الطبيعى ، وتكفل بقاء نوع نبات اليوكا •

أما يرقات الفراشة فانه اذا ماتم نموها تغادر مبيض النبات خـلال ثقـوب تحدثهـا به ثم تهبط الى الأرض متـدلية على خيط مـن الحـرير تصنعه هى لهـذه الغاية أيضـا ، ثم تصنع لنفسها شرنقـة تظل عذراء فى داخلها الى أن يحل فصل الصيف ، وهنـاك تأخـذ الدورة فى التكرار مـرة أخـرى وهكذا •أما اذا اتفق أن نبـات اليوكا لم يزهر فى أحـد المواسم السنوية ، فان العـذارى تستمر كامنـة فى انتظـار حلول الموسم التـالى •

ولهـذه العمليـة المذهـلة من التعاون بين نبات اليوكا وفراشـة اليوكا أشباه فى التاريخ الطبيعى لا تعـد ولا تحصى ، لا يمـكن تفسيرها مطلقا على ضوء مبـدأ الطفرات القائم على الصدفة •

يقول الدكتور مترام (على من يريد أن يكون داروينيا حديثا أن يحل لنا أسرار هـذه التعـاونات بافتراض أنهـا من آثار طفـرات حدثت ثم أبقاها قانون الانتخـاب الطبيعى وأقل ما يقـال هـو أن ضبط التوقيت وتنسيق الخطى بين

هذه الظفـرات أمر لا يتصـوره العقل) • (١)

وهكذا يتبين لنا نحن أن الهرب من القـول بالارادة الالهيـة الى القول بالمصادفة فى تفسير هـذه الظواهر لا يمكن أن يكون نتيجة نظر عقلى أو علمى ، وانمـا هو كما يقول بسـكال نتيجة ارادة ، ارادة مصممة على الالحاد مهمـا يكن من أمر •

ويقـول الدكتـور ليكونت دى نوى :

(نكرر القول بأنه لا توجـد حقيقة واحدة أو نظرية واحدة فى يومنا هذا تقدم تفسيرا قاطعا لمولد الحياة وتطور الطبيعة •

ولقـد درسنا مسـألة أصـل الحياة ، فوجدنا أننـا مضطرون الى أن نقبـل فكرة تدخـل قوة سامية يدعوها العلماء أيضا « الله » وهى عكس الصدفة) • (٢)

ومن العجيب المدهش كما يذكر الدكتور ليـكونت دى نوى أن بعض الملحـدين ، يجيز استعمال كلمة « ضـد الصدفة » بدلا من كلمة « الله » ويقترح حذف هذه مـن المعـاجم ووضـع تلك مكانها (٣)

جاهلا أنه بذلك يهـدد صرح العلم كله بالانهيار لارتكازه على « حساب الاحتمالات » (٤)

ويسـتطرد دى نوى مستثنيا قائلا : (الا اذا قبلنـا فكرة ان الحياة تتبـع فى بعض نواحيهـا قوانين غريبة عن عالمنا الفيزيائى ، تخضع فيها لقبول تأثير غير عقلى ، ـ ما ورائى ـ وهنا يصبح الاسم الذى نعطيه لهذا التأثير ليس هـو جوهر الموضوع) •

وهكذا يتبين لنا حـيرة العلم الالحـادى أو الالحـاد العلمى ،

١) الاساس الجسمانى للشخصية ص ٢٠٧ : ٢١٣
٢) مصير البشرية ١١٠
٣) المصدر السابق ص ١٣٨ •
٤) مصير البشرية ١٣٨ •

وتخبطه اللا نهائى ، كلما أشـاح بوجهه عن طريق الله .

ويتحدث السير آرثر طومسون عن مظاهر الروعة فى العالم كمـا يكشف عنها العـلم الحـديث فى صـورة لا تتفـق مـع القـول بالمصـادفة .. بادئا بمـا يسميه « الروعـة فى وفـرة القـوة فى العالم » فيقول :

(تلك القوة التى تبقى أرضنا الدوارة متماسكة فى دورانها حول الشمس والتى تبقى مجموعتنـا الشمسية بعضـها مـع بعض فى رحلاتها خلال الفضاء بسرعة ١٢ ميلا فى الثانية فى اتجـاه نقطة فى السماء ـ قريبة من النجم البراق فيجـا ـ تسمى (منتهى طـريق الشمس) كمـا أنه توجـد على النقيض الآخر قـوة فى دنيا شرسة فى داخـل الذرة المعقـدة تنطلق طاقاتها الحبيسة تعمل على استمرار الطـاقات التى تشعهـا الشمس والنجوم . ومن هذين الطرفين من الضخامة اللانهائية والدقة اللانهائية توجد قوى الحياة ـ القوة التى تعمل على تشغيل الساعد ، وقوة السمكة بما لهـا من محـركات أحسن مـن محـركات البـاخرة موريتانيا ، وقوة الحياة فى تكرار نفسها بحيث انه فى ساعات قليـلة قد يصبح ميـكروب غـير مرئى ملايين الميكروبات الفتاكة) .

ثم يتحـدث عن الروعـة التى يمكن أن نجدها فيما فى الكون من ضخامة .

فيقـول :

يستغرق الضوء ٨ دقائق ليصل الينا من الشمس على الرغم من أنه ينتقل بسرعة قصوى تبلغ حوالى ١٨٦٣٠٠ ميل فى الثانية . ونحن نرى أقرب نجم الينا من خـلال الضوء الذى يشع منه منذ أربع سنوات ، وضوء فيجا فى الصورة التى كان عليها منذ سبعة وعشرين عاما مضت . كما أن معظم النجوم التى نراها دون تلسكوب تبدو لنا كما كانت عنـدما درسها جاليليو فى أوائل القرن السابع عشر .

ثم يتحدث عن : (الروعـة فى تعقيد الأشياء وتشابكها) .

فيقول :

(هنـاك ما يدل على مصـادر لا نهـائية فى نشوء الاختـلافات الفردية) .

فقد على أرسطـو ـ منذ أكثر من ألفى سنة مضت ـ بوجـود حـوالى خمسـمائة نوع مـن الحيوانات المختلفـة . ولكن تبلغ الآن قائمـة الحيـوانات المسماة والمعـروفة خمسـة وعشرين ألف نوع مختـلف مـن الحيـوانات الفقارية ، كمـا يصر البعض على حد أدنى يبلغ نصف مليـون نوع مختلف من الحيوانات اللافقارية . كمـا أن أنـواع اللحم ليست متشابهة ، ولكن هناك نوعا واحدا من اللحم فى الانسـان ، وآخـر للوحوش ، وآخـر للاسمـاك ، ثم آخـر للطيـور . ويختلف دم الحصان عن دم الحمـار . كمـا أنه يمكننا معرفة الطائر من ريشة واحدة والسمكة من بضع قشور . وربما لا يسر الفرد كثيرا للحقيقة التى تقـول أن الشخص العـادى عنده خمسة وعشرون بليون كرة دموية حمـراء تنقـل الاكسجين والتى اذا مـارصت فانهـا تغطى مسـاحة قـدرها ٣٣٠٠ ياردة مربعة . الا أن هناك دلالة للارقام التى توضح انه يوجـد فى قشرة المخ ـ وهى المسـئولة عـن كل العمليات العقلية العليا ـ ما يقرب من تسـعة آلاف مليـون خليـة عصبية . بمعنى أن هـذا الرقم يزيد على عدد سكان العالم حاليا خمس مرات ، وبكل تأكيـد أكثر مما يستطيع المخ حاليا الاستفادة منـه .

ولا بد أن نسلم بأننا نتاج خلق رائـع ، فأجسـامنا تتـكون من ملايين الخـلايا ، الا أن هنـاك البساطة بين طيات تلك الضخامة ، اذ أن لكل خليـة نفس الأساس التركيبى . وبين ثنـايا محتـوى الخلية الغرورى تطفو النواة التى تحتـوى عـلى ٤٧ كروموسوما (وفى المرأة ٤٨) كل واحد منها فى شكل عقـد من الكيرموسومات الأصغر ، وهكذا ، وهكذا ..

وكذلك المحتمـل وجـودها ، فاننا نعـلم أن العنـاصر تختلف بعضـها عن بعض فقط فى عـدد وتوزيع الالكترونات والبروتونات التى تشكل تركيبات ذرية • فأى قـدرة خالقـة تلك التى شكلت نسيج هذا الكون العظيم التنوع من نوعيـن اثنيـن من الخيوط الفيزيائية ، هذا بالاضافة بطبيعـة الحـال الى العقـل الذى يقـوم دائمـا بالبحث فى أسرار النـول الذى يقوم بهذا النسيج) •

(ثم يتحـدث عن الروعـة فى (نظام ودقة الطبيعة) فيقول :

اننـا نعيش فى عالم غـاية فى الدقـة يخضـع لجميـع أسس التعليل • وكلما تقدم العلم زادت قدرة الانسان على التنبؤ بمـا قد يحدث من أحداث • فقـد تنبـأ عالمان من علماء الفلك بوجـود نبتون قبل اكتشافه كمـا تنبـأ الكيمـائيون باكتشاف عنـاصر جـديدة ويستطيع عالم الأحيـاء ليس فقط احصاء الدجاج قبـل فقسه ، ولكن التنبـؤ بصـفاته فنظام الكون أعظم دقة ، ويوضح لنـا أعـلام الفيزياء انه لا يمكن التفكير فى أن هذه الدقة وليـدة المصادفة •

ثم يتحـدث عـن الروعـة الجمالية :

(وهى الاساس الخامس الذى يتعلق بالنـاحية العـاطفية مـن شخصياتنا) •

فيقـول :

(لقد كان لوتز على حق عندما نادى بأنه من الأشـياء العظيمـة القيمة أن ننظر الى الجمال لا على انه شىء غـريب عن الدنيـا التى نعيش فيها أو انه شىء عفـوى لظاهـرة معينـة ، ولكـن على أنه كشف لذلك الأساس الذى يتخلل الواقع بكل ظواهره الحية) •

ثم يتحـدث عن الروعـة (فى الخصـائص الأساسية للـكائنات الحيـة) •

فيقـول :

(فيجب علينـا أن نتفهم بعمق ما يكشفه لنا علم الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية • ويجب علينا أن نحاول فهم كل ما يمكن أن

يشكل فى شكل غـروى وهكـذا وعنـدما يتكشف كل هذا فانـه تتبقى ظاهرة تتكشف فى الكائنات الحية وتوضح اعمـاقا جـديدة للطبيعة • فالحياة مستمرة ناميـة متكاثرة متنوعة وفوق كل هذا متطورة) •

ثم يتحـدث عـن الروعة فى « التطور » فيقول :

(ليس الأمـر مقصـورا على مجـرد انسياب « الأشيـاء » الى أعلى بل « الحيـاة » نفسها هى التى تنساب الى أعلى • ففى خضم هـذا الفيضان الذى لا يتـوقف لا يقتصر الأمـر على الابقاء عليها وانمـا يتعـداه الى تحسينها) • والتغيرات ليست مشـاهد متغيرة ومختلفة الالوان ولكن عبارة عن « لحن دائم التقدم » • فخـلال الاجيال الطويلة الغابرة أصبحت الأرض مهـدا للحيـاة ، وظهرت كائنات أكثر نبلا ورقيـا وازداد تفوق الحياة على الأشياء والعقـل على الجسم الى أن ظهر الانسان فى النهاية ، الذى توج أروع شىء فى الحيـاة ، اذ أنه أعطى لـكل شىء آخر قيمة عظيمة وعميقة • وبينما يجب أن نعتبر الانسان فى ضـوء التطـور كقمـة للطـاقة الفكرية ، فانه يواجهنـا أمر أكثر تعقيدا وهو التفكير فى التطور فى ضـوء الانسان • انهـا حقيقـة بديهية فلسفية ، ولكن لابد للعلماء أن يتساءلوا (من الذى يستطيع أن يقول هذه هى نهايتـك أيهـا التطور) (١) •

وهكذا يقدم لنا نماذج الروعة التى تتحدث عن القصد والتدبير فى نظام العالم •

بل ان العنـاية الالهيـة لتبـدو باهرة الضوء فى لمساتها الحانيـة على حالات الضعف والنقصـان ، يقول الاستاذ آشلى مونتاجيو :

(ان العته الطفولى المصحوب بالعمى من الحالات التى تستأصل نفسها من الجماعات الكبيرة عن طـريق موت ضـحاياها فى سن مبكرة) (٢) •

(١) العلم اسراره وخفاياه جـ ١
(٢) الوراثة البشرية ٤٣٥ ـ ٤٣٩ •

ويقـول :

(وناقصو العقول لا يتكاثرون بطريقة فعالة .

فمعـدل الوفاة بين المعتـوهين الذين ينتمـون الى أدنى مرتبـة مـن مـراتب ضـعف العقـل ولا يستطيعـون عمـل أى شيء لأنفسهم .. يزيد أكثر من خمسة أضعاف عنه بين السكان عامة .

أما معدل الوفاة بين المعتوهـين الذين يستطيعون تعلم الاعمـال اليـدوية البسيطة فيزيد حـوالى الضعف عنه فى السكان عامة .

وكلما ازدادت درجـة ضعـف العقل بين ناقصى العقول انخفضت قدرتهم على التكاثر وبذلك يعمل مـؤثر ... عـلى الحـد مـن تضاعفهم) . (١)

(أما الأشخاص الذين هم عند حـافة النقص العقلى فان قـدرة الاخصاب لديهم أكبر من القـدرة المتوسطة ، ولكن هـذه القـدرة الاكبـر نفسـها مفيـدة للجنس البشرى . فهـؤلاء الأشـخاص يحملون من الجينات ما يؤدى الى انتاج قدرة عقليـة أكبر ولذلك فان أطفالهم يعملون على تعويض النقص الناتج عن القدرة الاخصابية المنخفضة فى ذوى العقـول فـوق المتوسطة) (٢) .

فمـا أعجب أن يقول داروين بعد ذلك ، متجـاهلا كل هـذه الدلائل عـلى العنـاية والقصـد والتدبير وذلك فى كتـابه أصـل الأنواع :

(تنشأ التغيرات بتأثير الطبيعة المطلقة .

وغالبا مانسبنا حدوثها للمصادفة العمياء ، على أن كلمـة مصـادفة هنا اصطلاح خطأ محض يدل على اعترافنـا بالجهـل وقصورنا عن معرفة السبب فى حدوث كل تغير معين يطرأ على الأحياء) (٣) .

وهنا يدافع اسماعيل مظهـر عن داروين حيث يعلـن أنه ليس كل القائلين بالمصادفة ملاحدة (٤) .

(١) الوراثة البشرية ٤٣٥ : ٤٣٩ .
(٢) الوراثة البشرية ص ٤٣٥
(٣) ملقى السبيل ص ١٦٥
(٤) ملقى السبيل ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .

وهذا دفاع غريب حين يكون القائلون بالمصادفة يودون بها منبع القول بالارادة الالهية انه عندما تنتهى الأسباب الطبيعية الى حالة لا تظهر علتها فى الطبيعة تكون فى موقف اما أن نقول فيه بالارادة الالهية ،واما أن نقول بالمصادفة ، ولا يمكن الجمع بينهما ، ومن هنا يتبين أن القول بالمصادفة مجرد رفض للقول بالارادة الالهية ، فكيف لا يكون هذا الحادا .

ومن العجيب أن الماديين يبدأون السير فى بحثهم منطلقين من القول بأن القول بالارادة الالهية انما هو محض عجز من الانسان عن معرفة الأسباب وأن معرفة الأسباب تلغى القول بالارادة الالهية .

وها هم فى نهاية الشوط اذ يعلنون العجز عن معرفة السبب تسود وجوههم فى متجه القول بالارادة الالهية ، ويقفون وقفة حمر الوحش ناخرين من أنوفهم قولتهم الوبيئة « المصادفة » .

يقول رسل ــ وهو ملحد :

(اننا نجد حتى فى مملكة الكواكب عمليات تنطوى على خصائص غائبة لا تختلف اختلافا جوهريا عن ملامح السلوك الغرضى فى الحيوانات العليا) (١) فكيف يتأتى القول بالمصادفة اذن ..

انه اذا كان الماديون يقولون بالصدفة « كتفسير لوجود المادة وحركتها ونظامها » فهم يلتزمون أيضا بالتدبير والقصد (لاعترافهم بالوعى والعقل كحالة راقية من أحوال المادة) وهنا نسألهم عن وجود العالم وتقدمه أهو أجدر أن يعزى الى الصدفة أو أجدر أن يعزى الى التدبير والقصد ؟

وكما يقول سقراط (أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها ما هو خفى المنفعة ومنها ما له منفعة ظاهرة وحكمة فى الوجود

(١) ص ١٣٥ برتراند رسل للدكتور محمد مهران

باهرة ، فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفـاق ، أو من نتائج العقل والحكمة) (١) .

ان الاتجاه الالحادى فى العـلم نظرا لأنه يمتنع ــ مبدئيا واعتقاديا عن القول بالارادة الالهيـة يعجز عن تجنب القول بالمصادفة ، التى يقوم كيانه أساسا على انكارها ..

فيا للتناقض ، والعجب ...

يقـول الله سبحانه وتعـالى فى القرآن الكريم :

(ان فى خـلق السـماوات والأرض

واختلاف الليل والنهـار

والفلك التى تجـرى فى البحر بما ينفع الناس .

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها .

وبث فيها من كل دابة .

وتصريف الرياح .

والسـحاب المسـخر بين السماء والأرض .

لآيات لقوم يعقلون) .

١٦٤ البقرة

ويقول تعالى :

(والأرض مددناها ، والقينـا فيها رواسى وأنبتنا فيهـا من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيهـا معايش ومن لستم له برازقيـن ، وان من شىء الا عندنا خزائنـه ومـا ننزله الا بقـدر معـلوم ، وأرسـلنا الرياح لواقح فأنزلنـا مـن السماء مـاء فأسقيناكمـوه وما أنتم له بخازنين ، وانا لنحن نحيى ونميت ، ونحن الوارثون) .

١٩ ــ ٢٣ الحجر

ويقـول تعـالى : (خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفـة فاذا هـو خصيم مبـين . والانعام خلقهـا لكم فيهـا دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمـال حـين تريحـون وحـين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيـه الا بشق

١) انظر بقية الحوار بين سقراط وتلميذه المنكر لوجود الله « الاسـلام فى عصر العلم » لمحمـد فريد وجدى ص ١٦٣

الانفس ان ربكم لرءوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون • وعلى الله قصـد السبيل ومنهـا جائر ولو شاء لهداكم أجمعين • هـو الذى أنزل من السمـاء مـاء لكم منـه شراب ومنـه شـجر فيـه تسيمون • ينبت لكم به الـزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفـكرون • وسخر لكم الليـل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومـا ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منـه لحمـا طريا ، وتستخرجوا منـه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضـله ولعلكم تشـكرون • وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعـلامات وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمـن لا يخلق أفلا تذكرون •) ٣ : ١٨ النحل •

ويقول تعالى :

(والله جعـل لكم من بيوتكم سـكنا وجعـل لـكم من جلود الانعـام بيـوتا تستخفـونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتـاعا الى حين • والله جعـل لكم ممـا خلق ظـلالا ، وجعـل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمتـه عليـكم لعلكم تسلمون • فان تولوا فانمـا عليك البلاغ المبين • يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) •

٨٠ ــ ٨٣ النحل

دكتور يحيى هاشم

مناقشة هادئة :

دفع افتراء صارخ

حول شيخ الإسلام سليم البشري

للدكتور محمد رجب البيومى

أول ما عرفت الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله ، كان عن طريق شاعر النيل حافظ ابراهيم اذ قرأت ديوانه فى سن مبكرة ، ووقفت كثيرا عند مرثيته الصادقة فى الشيخ الأكبر ، وقد أحسن تصوير اللوعة على العلامة الراحل حين قال فى مطلع القصيدة :

أيدرى المسلمون بمن أصيبوا
وقد واروا سليما فى التراب
هوى ركن الحديث فاى ركن
لطلاب الحقيقة والصواب ؟
موطأ مالك عز البخارى !
ودع لله تعزية الكتاب !
فما فى الناطقين فم يوفى
عزاء الدين فى هذا المصاب !

والرثاء حار تسوقه عاطفة صادقة مخلصة ، واشادة الشاعر بمكان الراحل فى علوم القرآن والحديث قد جاءت فى صورة مجسمة حية ، اذ تصور شاعر النيل موطأ مالك انسانا عاقلا أحس بالحسرة على امام من أئمة الحديث فهرع الى صحيح البخارى يبادله العزاء ! أما كتاب الله فلن يوفى بعزائه غير من أنزله على رسوله هداية للناس، اذ ليس فى الناطقين بالضاد من يقدر على القيام بهذا العزاء ، ولئن جهل قارىء مكانة الاستاذ الأكبر، وتاريخه الحافل فى ساحة العلم وميدان الدعوة والارشاد ، ثم قرأ قصيدة حافظ وحدها لكانت تاريخا حيا يضع العلامة الكبير موضعه الكريم ، فقد كان الشيخ سليم بقية من بقايا السلف العالم ، الذين لزموا التدريس الدينى طلابا وأساتذة ملازمة استغرقت مدى الحياة ، وقد قطع الرجل فى ساحة الزمن تسعين عاما ،فاذا كان قد التحق بالأزهر فى سن الخامسة

عشرة بعد أن حفظ كتاب الله ، فقد خلص للعلم هذا المدى الطويل حتى بلغ من ثماره المشتهاة ما هيأه لمشيخة الأزهر أكثر من مرة ، وقد كان طلابه يكتبون عنه تقريراته العلمية حين كان يشرح لهم الكتب العالية فى الاصول والفقه والحديث والمنطق والبلاغة ، اذ كانت العادة المتبعة حينئذ أن يختار عالم الأزهر حاشية من الحواشى العلمية ليقرأها على الطلاب ، فاذا كان هذا العالم رأسا من رءوس العلماء ، فدرسه أوسع مدى ، وحاشيته أعوص تفكيرا ، وطلابه أرقى مستوى ، وهم ناقلون عنه خير ما ينتظرون ! على أن الشيخ رحمه الله قد اشترك فى مناظرات علمية مع الامام الشنقيطى على صفحات المؤيد ، كما قام بمناظرات جدلية مع الامام الخالصى رأس الشيعة فى عصره ، محاولا أن يمحو أوجه الخلاف بين طائفتين كبيرتين من طوائف المسلمين وقد جمعت هذه المناظرات فى كتاب حافل ، وهى ان دلت على علم الاستاذ وفضله ، فقد دلت على بعد نظره ، وشدة غيرته على المسلمين جميعا أن يصبح بأسهم بينهم شديدا ، وكان فى تضافر الجهود ما يعلى كلمة الاسلام ، بعيدا عما اصطنعه المغرضون من بواعث الخلاف .

فوق هذا كله ، لنرد على فرية ظالمة رددها الدكتور زكى مبارك فى كتبه أكثر من مرة ، اذ تحدث عنها فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » ثم فى كتاب « الأسمار والأحاديث » كما أعلنها على صفحات البلاغ فهاجت ثائرة أنجال الشيخ ، وهم علماء بارزون ، وكنا ظننا أن شطط الدكتور مبارك سيصادف اغضاء من الذين يزنون القول وزنا دقيقا ليذهب الزبد جفاء ، ولايبقى غير ماينفع الناس ، ولكن أحد الذين كتبوا دراسة علمية نال بها درجة الماجستير فى أدب الاستاذ عبد العزيز البشرى نجل الشيخ الأكبر ، قد صدّق هذه الفرية دون نقاش ، واعتمد كلام الدكتور زكى مبارك اعتمادا تاما ، وكأنه حق لا مرية فيه ، وكان عليه

وهو فى مجال التمحيص العلمى أن يناقش الأحكام الأدبيـة مناقشـة دقيقة ، فلا يأخذ أحاديث المتسرعين مأخذ التسليم ، واذا أعـوزه أن يفعل ذلك ، فلا بد أن نكشـف النقاب عن خطـل هذا الافتـراء الصريح كيـلا يأتى باحث آخـر فيحذو حذو سابقه دون تنقيب .

لقد نظم أمير الشعراء أحمـد شوقى قصيدة نهج البردة ، وعرض على الاستاذ الأكبر سـليم البشرى أن يقوم بشرحها للناس ، ليعـرف المسلمون تفصيل ما تضمنته مـن شمائل الرسول ومواقفه الشجـاعة فى سبيل الله ، ولكبار العلمـاء سوابق فى ذلك ،حيث شرح ابن هشام الانصارى قصيدة كعب بـن زهير رضى الله عنه .

بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرهـا لم يفـد مكبـول

شرحها فى كتاب خـاص نال سيرورة وشهرة ، كما شرح شيخ الاسلام ابراهيم الباجورى قصيدة البوصيرى .

امن تذكر جيران بـذى سـلم
مزجت دمعـا جرى من مقلة بدم

وهو الأصـل الذى احتـذاه شوقى، وفى هامش شرح الباجورى شرح آخر مختصر للبـردة كتبه الشيخ خالد الأزهرى فجاء موجـزا مفيدا ، لقد رأى شوقى اذن أن ينهج شيخ الاسلام فى عصره نهج سابقيه فيكشف معانى قصيدته لملأ يعرف مـكانه الاستاذ الأكبـر ، ويتلهف على قراءة ما يبدع مـن تفسير ، ولم يشأ العالم الكبيـر رحمه الله أن يحرم عارفيه من فضل يشتهونه متعجلين ، فنهض بكتابه شرح النهـج ، وقابله القـراء بالابتهاج ، وأفاض نفر من الكتاب فى تقريظه ، وقدمه أكبـر كتاب عصره السيد محمد المويلحى بـك بمقدمة رائعة قال فى ختامهـا : « وان قصيـدة تقال فى مـدح الرسـول ، وتوضـع تذكارا لحج المليك ، ويكـون شيخ الاسـلام شارحها ، وشاعر الأمير قائلها .

من الـلاتى أمـد بهن طبع
وهـذبهن فكر وانتقـاد

لهى جـديرة بـأن تستضىء بنورها البصـائر ، وتعقـد على نفاستها الخناصر ، وتشغف بهـا

القلوب فتضمهـــا فى الشغـاف وتنطوى الصـــدور على حفظها طى الغلاف » .

وشاع الشرح (١) وذاع ، ولكن الدكتور زكى مبارك جاء بعـــد عشرين عاما من طبعه وذيوعه ، ينشر فى الناس أن الذى كتـب الشرح هو الأديب الأزهرى الناشىء عبـد العزيز البشرى نجل الشيخ الأكبر ، اذ كان حينئذ يكتب فى الصحـف ويسير الخطوات الاولى فى ميدان مجده الأدبى الذى تم له فيما بعد عن موهبة واستحقـاق ، وقد ثـار الشيخ عبـد العـــزيز ورد على الدكتور مكذبا فى جريدة البلاغ، ولكن زكى مبارك أعاد القول فى كتابه « الموازنة بين الشعـراء » وفى كتابه « الأسمار والأحاديث » وكان على الذين يصدقون الدكتور مبارك أن يرجعـــوا الى الشرح المتهم ، فيعرفوا من منهجه العلمى من الذى قام به ! ؟ أهـو نتـاج شيخ أزهرى موضوعى ذى فقـه ونحو ولغة وبلاغة وحـديث ، أم هو نتاج أديب ذاتى ذى عـــذوبة وتأنق واستشفاف ! وحينذ نضـع الفرية موضعها الصحيح ، كان على الباحث الجامعى أن يفعـل ذلك ، فليست رسائل الدراسات العليـا فى الجامعة حشـدا للأقوال دون فحص ، ولكنها سبـــر وتمحيص ومناقشة ودفاع ، ومن يتجرأ على اتهام شيخ الاسلام فى خلقه وعلمه لا بد أن يجـــد من يحقق هـذا الاتهام !

كان الشيخ سليم محدثا يحفظ الموطأ وصحيح البخارى بالأسانيد، وكانت دروسـه فى التفسيـــر والحديث تحمـــل الطابع العلمى للأزهر اذ يتعرض الاستاذ لمسائل النحو والبلاغة واللغـة بافاضة ، تاركا ما يتعلق بالأسلوب الأدبى ، والنسج الشعرى الى غيره مـن متذوقى النقاد ، ومن يقرأ شرح شيخ الاسلام الباجورى للبردة ، وشرح الشيخ سليم البشرى لنهج البردة يجد الطابع العلمى لدروس الأزهر القديم واضحـا متمثلا ،

(١) سمى شوقى قصيدته نهج البردة ، وسمى شرح الشيخ سليم (وضح النهج) وهو ذائع متداول .

فيجزم جزما أكيدا أن شرح النهج قد كتبه شيخ عالم لا شـاب أديب كتبه فقيه عالم محدث ذو حـذر ويقين ، ومن دلائل ذلك ما نوجزه فى هذه النقاط :

أولا ــ نجد أول ما نجـد من خصائص شرح النهـج ، هـذا الاعتماد الكثيـر على الأحـاديث النبوية ، وروايتهـا باسنادها ، فقد يذكر الشيخ سليم البشرى فى الحادثة الواحدة عدة أحـاديث ينقلها فى سهولة يسيرة ، ومـا فطن الأديب الشاب عبد العزيز يهتم فى الشرح الأدبى بتسجيل عدة أحاديث فى موضوع واحد ، اذ ليست لديه روح المحدث المستقصى فاذا تعرض الى شرح قول شوقى مثلا :

لمادعا الصحب يستسقون من ظما
فاضت يداك من التسنيم بالسنم(١)

قال الشيـخ الأكبـر : ان الأحاديث الواردة فى نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة ، وأخذ يسرد ما رواه أنس بن مالك عـن رسول الله حين حانت ساعة صلاة العصر ، والتمس النـاس الوضوء فلم يجدوه فأتى النبى بماء ووضع فيه يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا فنبع الماء من بين أصـابعه ، ثم ما رواه عبد الله بن مسعـود فى مقام آخر حين أعوز الماء أصحاب رسول الله فأتى بمـاء فصبـه فى اناء ثم وضع كفه فيه فتدفق الماء ، ثم ما رواه جـابر بن عبد الله عن عطش الناس يوم الحديبية حيـن توضأ الرسـول من ركـوته فقال المسلمون ليس عندنا ماء غير ما فى ركوتك فوضع الرسول كفه بهـا وتدفق الماء وينتقل الشيخ الى كلام القاضى عياض بشأن تأكيد هـذه الأحاديث فينقله بنصه على عـادة العلماء من كتـاب الشفـاء دون تعليق ، لأن النقـل عنـده وثيق مضبوط ، وفيه ما يكفى .

ثانيا ــ نجد الاستطراد الطويل فى مناسبات كثيرة ، وهو ما لا يقره الشارح الأدبى ، ويرتضيـه المفسر العلمى ، فاذا قال شـوقى رحمه الله ــ مثلا ــ :

قد اخطأ النجم ما نالت أبوتـه
من سؤدد باذخ فى مظهر سنم(٢)

(١) وضح النهج ص ٤٢

(٢) وضح النهج ص ٢٨

فاننا نجد الشيخ سليم البشرى يفرد عدة صفحات لايضاح سلسلة النسب الشريف الى معد بن عدنان، فيبدأ بذكر عبد الله والد الرسول ويتحدث عن شمائله كما رواهـــا الزهرى فاذا بلغ من ذلك ما أراد، تحدث عن شيبة الحمد عبد المطلب فعرض لأوصافه الجسمية والنفسية ، ووضح سيادته فى قومه ، ومقابلته لأبرهة الأشرم وما تم فيها بشأن البيت والابل وعلا الى هاشم فذكر اسمه ووازن بينـــه وبيـــن أخيـــه عبد شمس ، وتحـــدث عن كـــرمه الزائد ، وهشمه الثريد لقومه وقيامه على السقاية بعد أبيه عبد مناف ، وهكذا يتسلسل الحـــديث عن عبد مناف وقصى وحكيم ومرة وكعب ولؤى وغالب وفهر حتى يصل الى عدنان فى صفحات تتجـــاوز العشر ابتـــداء مـــن ٢٦ الى ص ٣٧ ، ويتكرر هـــذا الاستطـــراد فى مناسبات أخرى كأن يقول شوقى فى غزوة بدر :

بـــدر تطلع فى بـــدر ففرتـــه
كفرة النصر تجلو داجى الظلم(١)

فيأتى الشيخ الى مـــا رواه ابن هشام عن الغزوة المباركة فيلخصه فى عشر صفحـــات ! ومـــا كان لغزوة بدر أن تفصـــل هكذا لدى شارح أدبى ، ولكن الأساتذة من طراز الشيخ سليم البشرى يحبون أن يفيدوا القـــارىء لأدنى مناسبة وكلمة أدنى مناسبة تتردد كثيرا فى حواشى العلمـــاء ! فأين ذلك كله مما يرتضى ولده عبد العزيز ؟

ثالثا ــ نجد الاستعانة بقـــواعد النحو والصرف والبلاغة فى ايضاح المعانى واضحة دائمة وكأنها الأصل وهذا ديدن ابن هشام والباجورى والأزهرى مـــن مفسرى المدائح النبوية ، كما هو ديدن القدماء من شارحى دواوين الشعراء أمثـــال العكبرى والواحـــدى والمرزوقى والتبريزى وأبى العلاء ، ولـــكن الشيخ عبد العزيز البشرى بمنأى عن هذا كله ، فانه لا يصبر على مثل قول والده عقب هذين البيتين :

(١) وضح النهج ص ٧٤

بكل قـــول كريم انت قائلـــه
تحيى القلوب وتحيى ميت الهمم(١)
سرت بشائر بالهادى ومـــولده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

حيث قال الاستاذ الأكبر : معنى احياء القلوب تأثرها بمواعظه صلى الله عليه وسلم ، واحياؤه الهمم ايجادها وابتغائها لعظائم الامور ، وكريم « فى قوله بكل قول كريم) بمعنى الثمين النافع ، وهو صفة أولى لازمة لقول ، وجملة « أنت قائله » صفة ثانيـــة من الوصف بالجملة بعد الوصف بالمفرد ، وهو جائز كعكسه فى قـوله تعـالى : «وهذا كتاب أنزلناه مبارك» واحياء القلوب مجاز عن تأثرها ، ومـوت الهمم مجاز عن فقدانها ، وأقواله المأثورة فى هذا البـاب لا يكاد يأخذها العد ، ويبلغهـا الاحصاء ، وفى الشطر الثانى من البيت الأول الطباق ، ونسبة السريان للبشائر مجاز عقلى ، أو فى الكلام استعارة مكنية ، بتشبيه البشائر بالسارى ، واثبات السرى لها تخييل ، وقد روى فى غير موطن أن البشـرى بمولده صلى الله عليه وسلم شاعت بين الأرض والسمـاء ، واتصلت بجميـع الكائنـات وفى الشطـر الثانى « من البيت الثـانى » •• الطباق بين قوله فى الشرق وفى الغرب وقوله النور والظلم •

كما نجد الطريقة الأزهـــرية للشرح العلمى عند قوله الشيـخ رحمه الله تعليقـــا على قـــول شوقى (٢) •

العاثرات بالبـــاب الرجال وما
أقلن من عثرات الدل فى الرسم

حيث يقول بعد شرح للمفردات تتركه اختصارا : شبه وقـــوع هواهـــن فى كل قلب صـــادفته بالعاثر الـذى تزل به قدمـه فى الطريق الحزن ، وجعـل القلوب مجازا لهـن واعتراضهـا موطىء أقدامهن يخضن فيها ويسلكنهـا سلوك المتعثر ، فيقعـن فى القلب بعد القلب ، كما يقـع العـاثر فى الحفرة بعد الحفـرة من المعـانى البديعة •

وفى الشطر الثانى جعل لهن من جمال المنظر ، وحسن المشية عثرات ولعله سماها « عثرات » مشـاكلة

(١) وضح النهج ص ٥٥

(٢) وضح النهج ص ٧

لما فى صـــدر البيت ، أو أنه شبه تثنيهن وتبخترهن فى مشيتهـــن بالعاثر أيضا ، اذ كان لهن ما له من الميل والاهتزاز ، أو أنه أراد التعثر الحقيقى اذ أنهن يتعثرن فى ثيابهن لطولها وتثنيهـــن ، ويريد بقـــوله « وما أقلن » أن ذلك شىء ملازم لهن ، وان عثرات الدل مقصـــودة بالطبع لا اقالة منها بخـــلاف سائر العثـــرات ، وقوله « فى الرسم احتراس لطيف » .

والأمثلة كثيرة جدا لهذا النوع من الشرح العلمى المحتفل بقواعد البلاغة والنحو والتصريف .

رابعا ــ أمـــا النقدات فكلهـــا دينية شرعية ، ولن تصدر الا من متخصص شرعى ضليع ، فالشيخ يذكر قول شوقى مثلا :

ان جل ذنبى عن الغفران فى امل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم(١)

ويتبعه بقوله : غفـــران الذنب مهما كان قدره ممكن فى ذاته ، والله تعالى لا يخـــرج عن قدرته شىء من الممكنات ، ما يقع منها ، وما لا يقع أصلا ، وقد جاء الشارع الحكيم ببيـــان ما يحتمل الوقوع بالفعل فى هذه المسألة بعينها فقال عز من قائل : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمـــن يشاء » ولعله ــ الشاعر ــ قـــد استولت عليه الدهشة والهيبة مـــن الله تعالى لمـــا أسلف من الذنب العظيم حتى قد وقع فى مخيلتـــه أن مثل هذا الذنب لا يغفر ، فليس مراده ما يتبادر من ظاهر قوله من أن مغفرة الله تضيق عن مثل هذا .

كما يقف الشيخ عنـــد قـــول شوقى :

ونودى اقرا تعـالى الله قائلهـــا
لـم تتصل قبل من قيلت له بفم(٢)

لينفى اعتـــراضا يتضح مـــن قوله : ان خطاب الله تعالى لنبيه عليه السلام بقوله : «اقرأ باسم ربك» لم يتنزل على بشر قبله ، ولم يجربه فم انسان قبل أن يوحى اليه ، وان خوطب الأنبياء قبله بغير هـــذا الخطاب ، كخطاب الله تعالى لموسى عليه السلام : « خذ ما آتيتك وكن من الشاكـــرين » وليحيى عليـــه السلام « يا يحيى خـــذ الكتاب

(١) وضح النهج ص ٢٢

(٢) وضح النهج ص ٤٥

بقوة » وغير ذلك مما وقع بـــه الخطاب للأنبيـــاء صـلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين •

واذ قال شوقى عن البراق :

جبت السموات أو ما فوقهن بهم
على منـــورة درية اللجم (١)

اذا قال شـوقى ذلك استدرك الشيخ فقال : يريد بقوله « منورة درية اللجم » البراق ، والوارد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب البراق الى بيت المقـدس ، أما عروجه الى السماء فلم يـكن على البراق على الصحيح كما يقول عند قول شوقى :

وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة
متى الورود وجبريل الامين ظمى(٢)

يقول : ان الملائـكة لا تظمأ ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه ، وهو الطلب للناس بمعنى أن حاله تقتضى اشفاقا على حالهم لما يرهقهم مـن شدة الظمأ • وحرج الموقف •

فليت شعرى أين الأديب الناشىء عبد العـــزيز البشرى من هـذا كله ؟

لقد كان الدكتور زكى مبـارك طالبا بالأزهر لعهد الاستاذ الأكبر الشيخ سليم البشرى ، وكان يعلم تمام العلم أن كبار الشيوخ حينئذ لم يكونوا يتباهـــون بالتأليـف المطبوع بل كانوا يقررون القاعدة العلمية فى الدروس ويعقبون عليها بالاعتراضات ويتركون للطلاب أن ينقلوا ما يقررون دون ان يهمـوا بطبع ما يقال ، وكل كتاب شرحـه هؤلاء الكبار كان مصدر تعليقات علمية قيلت فى الدرس ، ودونهـا نبغاء الطلاب ممن يستطيعـــون مسايرة الاستاذ ،ومـا جـال فى ذهن أحد من هؤلاء الأعـلام أن يتباهى بعرض اعتراضاته العلميـة فى مؤلفات ! فلم يقبـل الاستاذ الأكبر ان يضـع اسمه على شرح كتبه ولده الناشىء ؟ وهو مـن هو فى عين نفسه وفى عيـــون الناس ؟ وهل يضيف ذلك قليلا أو كثيرا الى مجده العلمى ، وهـو محدث أصولى فقيه ! !

لشد ما يحضرنى قول أبى العلاء فى ختام هذا المقال :

لاتظلموا المونى وان طال المـــدى
انى اخـاف عليكمو أن تلتقـوا

دكتور محمد رجب البيومى

(١) وضح النهج ص ٦١

(٢) وضح النهج ص ٢٧

من أسرار الفريضة الخاتمة

لفضيلة الشيخ معوض عوض ابراهيم

فى آيات من القرآن الكريم ، وفى أحاديث النبى صلى الله وسلم وأقواله ما يكشف النقاب عن جوانب ذوات عدد من أسرار الله تعالى وحكمه فى مشروعية الفريضة الخاتمة لتكاليف الله للأمة الوارثة .

ولا يكاد المرء يملى لعقله قليلا فى قوله تعالى :

« الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » . البقرة .

حتى تطالعه لأول وهلة كلمة « الحج » وقد تكررت ثلاث مرات فى جمل قليلة الكلمات ، فاذا روى المرء لعقله فى ذلك مرة أخرى تبين له وجه من وجوه الاعجاز فى كتاب الله ، فان للكلمة فى كل مرة تكررت فيها معنى يتضح ، وتقدم به وبأخويه حجة الرءوف الرحيم بعباده .

فالكلمة فى أول الآية تحديد لزمان الحج ـ على أشهر ما قيل ـ مما كان معروفا عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن ، وكان الخطاب بذلك اليهم أو الأمر وهم أصحاب لسانه وقد عينه الفقهاء استخلاصا مما صح لديهم نقله عن صاحب الشرع صلوات الله عليه ، وعمن أخذوا عنه ، ومن بلغوهم ذلك .. عينه الخاصة بشوال ، وذى القعدة وذى الحجة كله أو أيام منه تنتهى بأيام التشريق .

وتذكر كلمة « الحج » مرة ثانية مقرونة بطائفة من الآيات ، التى هى فضائل فى كل زمان ومكان ، ولكنها تكون أوجب على من يفد على بيت الله ، وليغشى على مولاه رحماه ، وهل تصدق « لبيك اللهم لبيك » ممن لم يتأدب بآداب ربه ، وهو ــ فى أقل القليل ــ يستظل بظلاله ، ويطمع فى رحمته وكرمه ونواله .

واذا كان الانسان السوى يحترز من اقتراف ما لا يليق بمجالس الآباء ، من أقوال وافعال، ويدير الكلمة فى فيه مستثيرا لها مرات ومرات قلبه وعقله قبل أن تنفرج لها شفتاه ، وينطلق بها لسانه ، وتتكشف عنه ــ والمرء مخبوء تحت لسانه ــ كما يقولون.

فان بيت الله وما حوله من مشاعر الحج أحق بأضعاف هذا التحرز والتصوف والاحتشام من الفحش ودواعيه ، ومن الخروج على حدود الشرع ، وما تستلزمه من تقوى الله ومراقبته ومن المراء والأخذ والرد فيما تبين فيه وجه الحق ، كما قال ربنا جل شأنه : « ولا جدال فى الحج » .

وكم تضيق صدور أقوام فى الأسفار ، وتضعف قوة احتمالهم للظروف التى تلازم الاغتراب ، من اختلاف مألوف طعامهم وشرابهم، ومعتاد ثيابهم ، وان كانت الأسفار بطبيعتها أكبر معلم ، وأقوى ملهم ، حين تصحبها خشية الله ، لكثير من الفضائل ، وخصال الخير ، والعلم بما يقوم بين الجماعات من فوارق ، والحج فى قمة تلكم الأسفار .. ألسنا نستجيب فيه لحق الله على المكلفين الا تتلاحم فيه واخواننا الذين أرادوا من الحج مرادنا ، واجتهدوا فيه اجتهادنا ، وتركوا له أوطانهم وأولادهم كما تركنا أوطاننا وأولادنا ؟! ألم تجمعنا الأعمال والأحوال ، وبخاصة الثياب ، على صدرة لا يبقى معها ــ ولو الى حين ــ سلطان لذى سلطان ، ولا لقب لذى لقب ، ولا نسب لذى نسب ؟! فقد ارتفع على كل ذلك سلطان الايمان

ولقب العبودية للواحـد الديان ، ونسب « ان أكـــرمكم عند الله أتقاكم » .

فكيف يجفو فؤاد حـــاج أو يعنف فعله ، أو يذهب غافلا عمـا استهدفه من رضـوان الله ، الى معصيته والخلاف عن أمره تبارك وتعالى .

ان الارتحـال والانتقال خلال الديار نافعان فى وصل الحاضر ، بالماضى ، واستلهـام العظات التى هى قبس من سير الأولين ، برهم وفاجرهم ، ومؤمنهم وكافـرهم ، على ضوئه نسير ، ويسير الأخلاف .. وتلك أمور يحرص المؤمنـون عليها فى اسفارهم ، بذواتهـم ، واتصـالهم بخـواطرهم وأفكارهم بأول بيت وضع للناس فى مـكة مباركا ، وجعله الله مثابة للنـاس وأمنا ، وتتابعت فيه ومـن حـوله رعاية الله ، فقـد هاجـر ابراهيم باسماعيل وأمه هاجـر ــ عليهـم السلام ــ الى واد غير ذى زرع ، وجعل الله أفئدة النـاس فى أى جانب على ظهر هذا الكوكب تهوى اليه حتى جاء الدنيا نبينا محمـد صلى الله عليه وسلم بخير ما جـاء به نبى قومه من لدن ربه ، وترك رحمة الله المهداة الدين الخاتم الى البشرية بأسرها ، أجمع شريعة ، وأرفع نظام ، وأمثل أسوة فى أعماله وأعمال الذين آمنوا معه ، وهذا عبد الله بن عمـــر بن الخطـاب رضى الله عنهما ، واحد مـــن طلاب مدرسة الوحى ، يتمثـــل القرآن بكل مكان وعلى كل حال ويزداد له تمثلا وهو يرعى البـلد الحـرام والبيت العتيـق فيضرب خيامه خارج حدود الحرم ، ويطوف كل يوم ويصلى ثم يرجع الى خيامه ويبيت فيها ، خشية ان يهين أحـد غلمانه فيه أحـدا فيـكون بذلك واقعا فى قوله تعالى : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عـذاب أليم » . سورة الحج .

وانه لورع من عبد الله رضى الله عنه ، لا تخفى معـه ان استباحـة محارم الله فى البيت الحرام الحاد بظلم ، والالحاد فى الآية فى أصح معانيه هو الانخلاع عن دين الله ، والمعنى اللغوى للالحاد هو الملاحظ فى المعنى الشرعى ، وهو الكفـر

أو الشرك وفعل شيء مما حرمه الله ، وترك شيء مما أوجبه سبحانه .

ولقد أدخل بعض الفقهاء فى الالحاد احتكار الطعام بمكة ، فان احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم ، وقد أخرج البخارى فى تاريخه وأورده السيوطى فى الدر بسنديهما عن عمر بن الخطاب موقوفا قوله :

« احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم » .

ويا ويح الناس ، كم يظلمون فى غير مكان ، ويشتطون فى معاملة ضيوف الرحمن ، وفى مداخلتهم على غير أساس من العدل والاحسان ، واذا كان تاريخ الرفادة والسقاية قد غاب عن الناس ، ولم تفعل اصداء هذا التاريخ من القرآن والسنة فعلها فى القلوب والأفئدة ، فانهم يرون — لا ريب — السهر الموصول ، والجهد المبذول من ولاة الامور فى المملكة لابلاغ وفد الله امنه وسعته بكل منزل وجانب فى المشاعر المقدسة والسبل الموصلة اليها .

وابن الجوزى رحمه الله فى تفسيره أن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ، سئل : هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ !

فقال لا ، الا بمكة ، لتعظيم البلد ! !

قال ابن الجوزى — وأحمد رحمه الله يرى فضيلة المجاورة بها — وقد حرص على ذلك نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، كجابر ابن عبد الله ، وابن عمر ، وانها الأمل يستحوذ على النفوس .. فاللهم عونك !

لكن — المجاورة — ياقومنا — لها آدابها وحقوقها بعامة ، وهى أوفر حقا لبيت الله الحرام « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . الفرقان .

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » . الأنفال .

قال الزبير بن العـوام : لقـد قرأناها « آية الأنفال » ومـا نرى انا من أهلها ، فاذا نحـن مـن أهلها .

ويقول ابن الجوزى فى تفسيره لهذه الآية « أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أيديهـم أو بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب» .

وبعد ، فان من الحماقة بمكان أن يجهل المرء مـكانه وزمـانه واحـوانه ، وأن لا ينفـق فى الصالحات امكانه فى أول فـرصة تواتى ، فالفرص لا تواتى دائما ، وهى حين لا تنتهـز للخير تخلف وراءهـا الغصـص والحسرات لا ريب .

وان فى ختام قـوله تعالى : « الحج أشهر معلومات » دعـوة الى التزود بالتقوى ، خيـر زاد ، وتذييلا بايجاب تقوى الله التى ان صد عن سبيلها الفارغون ، كمـا ينبغى أن يهملها العقـلاء الألبـاء فانا الى ربنا الرجعى ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فـلا تظلم مثقال ذرة .

أترضى أن تكون رفيق قوم
لهم زاد وأنت بغير زاد ؟ !

معوض عوض ابراهيم

« من أقوال الحكماء »

اذا سالت كريما حاجـة فدعه يفكر ، فانه لا يفكر الا فى خير ، واذا سالت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل .

الوليد بن يزيد وتبعات الحكم

الأستاذ السيد حسن قرون

فى سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة وفى يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر بويع الوليد ابن يزيد بالخلافة بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك ودعى أمير المؤمنين ، وخوطب بالامام فى الشعر ، ولو نظر الذين بايعوه نظرة اسلامية لامتنعوا عن تلك البيعة ، ولأراحوا أنفسهم من العبث واللهو والمجون ، واشاعة المظالم بين أمة فتية لها مكانتها فى عالمها وقتئذ ،اذ أن الخلافة الاسلامية توجب على متقلدها أن يكون عفيف اليد واللسان وجميع الجوارح ، وأن تكون التقوى حليته ، وحمل الأمانة مطلبه ، وأن يكون الايمان بالله ورسوله مظهره فى كل مايأتى ومايذر من الأمور ، وأن يعد لذلك من صغره اعدادا سليما ، يشمل جسمه وعقله ووجدانه ، وأن يبصر بسيرة السلف تبصرة تملك عليه حواسه، وتجعله يراهم أمامه فى كل أمر يقدم عليه ، فلا تغيب عنه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ولا سيرة خلفائه الراشدين ، وسيرة أقرب الناس اليه عمر بن عبد العزيز ، ولكنه نشأ فى بيت يتسم بالتدليل والتهاون فى شئون الدين ، فأبوه يزيد بن عبد الملك كان صاحب خلاعة ومجون ، واهتمام بالغوانى والغناء ، وكم رام بنو عبد الملك حرمانه من الخلافة فكانوا يذكرون وصية أبيهم ، لأنه ابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، ولولا مسلمة أخوه كان بجواره أثناء حكمه لفسدت الدولة ودب فيها الوهن ، وفيه يقول أبو حمزة الخارجى من خطبة له مشهورة تحدث فيها عن عهود الحكم منذ رسول الله يقول

عنه : « ثم ولى يزيد بن عبدالملك الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه الذى لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله تعالى فى أموال اليتامى : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » فأمر أمة محمد أعظم ، يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، وقد ضربت فيها الأبشار (ظهور الرعية) وهتكت فيها الأستار ، وأخذت من غير حلها ، (حبابة) عن يمينه ، و (سلامة) عن يساره تغنيانه حتى اذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه ، ثم التفت الى احداهما ، فقال : ألا أطير ؟ نعم « فطر الى لعنة الله وحريق ناره ، وأليم عذابه » هذا الرجل هو الذى تربى فى حجره الوليد ، وقد كان الوليد فى الحادية عشرة من عمره حين ولى أبوه الخلافة ، ولا شك أنه رأى منه ما تحدث عنه أبو حمزة الخارجى ، بل رأى أباه حين ماتت حبابة يمنع دفنها ، وينكب عليها يتشممها أياما حتى أتتنت ، وأجبر على دفنها ، فخرج بين يدى نعشها حتى اذا بلغ القبر نزل فيه ، ورجع الى قصره مريضا ولم تمض سبع عشرة ليلة حتى لحقها . فنشأ ابنه على غراره كلفا بالنساء ، مدمنا للخمر ، متهتكا فى رحلاته لا يصحب الا الماجنين ، وزاد الطين بلة عمه هشام ، اذ كان يكرهه وهو ولى عهده ، ويريد أن يجعلها فى ولده ، فأهمله اهمالا تاما كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن أمة محمد بلغ بها الهوان أن يكون على رأسها الفاسقون ، وقد أراد شيئا وأراد الله غيره ، فلم يتهيأ له على مدى عشرين عاما من حكمه أن يتخذ قرارا بخلعه من ولاية عهده ، شغل نفسه ومستشاريه وولاته بشأن الوليد واقصائه عن مجالسه ، وتشويه سمعته ، ومحاربة من يتصل به ، أو من يعارض أن ينقل العهد من شخص الى آخر حتى استهلك عقله وهو حصيف وجهده وهو جليل الى درجة أن هزيمة بلاط الشهداء شمال الأندلس لم تهزه ، فيرسل من عنده جيشا كثيفا يعيد الهيبة للمسلمين فى الأندلس بعد تلك الهزيمة التى صارت

حاسمة سنة ١١٤ هـ ، ولو وقعت الواقعة فى غير عهـده لقلنا : ان الخليفة ضعيف الهمة واهن العزيمة أما أن تقـع فى عهـد هشـام ثم لا يتحرك فتلك هى الطامة الكبرى، وأساسها فى نظرى شغله بأمر ولاية العهد .. نظر الوليد حولهفوجد قسوة بالغة بعد تدليل ، وجفـاء غليظا بعد تقريبلطيف فتركّ نفسه على سجيتها ، وهو مهيأ لما انغمس فيه ، وانجرف اليه ، بل كان دائم التبدى ، يتخذ من الصحراء مثابة وأمنا معه خلطاؤه من مغنين وطلاب متع ، يسمعون الأغانى ويشربون ويعربدون ، ويتحدثونعن الأحول الخليفة هشام بما يرضى هوى ولى العهد ، وأخباره وآثاره تعمـر مجالس هشام ، وينعتـونه بأحط الألفاظ ، وأخوال هشام : محمد وابراهيم من بنى مخزوم يزينـون خلعه ، وابن شهاب الزهـرى يفتى بخلعه ، وعيـون الوليـد تبلغـه مايحدث فى غيبته .

كتب هشام الى الوليد : ما تدع شيئا من المنكر الا ارتكبتـه ، فليت شعرى : مادينك ؟ فما أدرى على الاسلام أنت أملا ؟ فكتب اليه الوليد ، وكان شاعرا مجيدا :

يابهـا السـائل عـن ديننا
نحـن عـلى دين آبى شـاكر
نشربهـا صرفـا وممزوجـة
بالسـخن احيـانا وبالفـاتر

وينبغى أن نذكر أن أبا شاكر المنوه به هـو مسلمة بن هشـام المرشح لولاية العهد بدل الوليد ، وكان يكنى أبا شاكر لرجل بهذا الاسم مولى لبنى أمية كان يتصف بالجد والرزانة والعمـل الحميد ، ولذا غضب هشام على ابنه وابنه غير مسئول عن شعر الوليد وقال له : يعيرنى بكالوليد وأنا أرشحك للخلافة فالـزم الأدب ، واحضر الصلوات .. وولاه موسم الحج سنة ١١٧ هـ فأظهر مسلمة النسك وقسم بمكة والمدينة أمـوالا ، فقال رجل من أهل المدينة :

يابهـا السـائل عـن ديننا
نحن على دين آبى شـاكر
الـواهب البزل (١) بأرسـانها
ليس بزنديـق ولا كافـر

يعـرض بالوليد . ولكن قولة الوليد مضت فغضت مـن مركـز

(١) الابل استكملت الثامنة وطعنت فى السنة التاسعة الواحد بازل .

مسلمة ، بل ان خالد بن عبد الله القسرى أعلن فى فكاهة : لا يكون خليفة يكنى « أبا شاكر » فجلب عليه هذا القول العزل من ولاية العراق والتنكيل به ، مما أثار اليمانية على الخلافة ، ويذكر صاحب الأغانى أن خالدا القسرى قال : أنا برىء من خليفة يكنى أبا شاكر .

ولم يكن الوليد ليجبن فى موقف من المواقف ، بل كان جريئا يطالب بحقه ، ويدحض مقالة من يتصدى له ، وكم له من صولات مع مناوئيه ولو وجد من يقومه ويهديه ويزين له العمل الشريف لرجع الى الحسنى ، فقد كان يحسن الرد ، والهزء بمن يسخر منه ، وفى أخباره كثير مما جبه به خصمه لو كان الخليفة نفسه ، من ذلك أنه دخل يوما مجلس هشام وفيه سعيد بن هشام ، وابراهيم ابن هشام المخزومى خال الخليفة وأبو الزبير مولى مروان وليس هشام حاضرا ، فجلس الوليد مجلس الخليفة ، ثم أقبل على سعيد ابن هشام . فقال له : من أنت ؟ وهو به عارف . قال : سعيد : ابن أمير المؤمنين . قال مرحبا بك . ثم أقبل على أبى الزبير فقال : من أنت ؟ فقال أبو الزبير : مولاك أيها الأمير . فقال : مرحبا بك . ثم أقبل على خال الخليفة وهو يكن له العداء فقال : من أنت ؟ قال : ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، فقال : من اسماعيل ؟ فقال : اسماعيل بن هشام بن الوليد ابن المغيرة . فقال : من الوليد بن المغيرة ؟ والوليد بن المغيرة رجل عظيم عند بنى مخزوم وعند قريش فقال : الذى لم يكن جدك يرى أنه فى شىء حتى زوجه أبى ، والخليفة بعض ولد ابنته . فقال الوليد : يابن اللخناء ثم تصارعا وأقبل هشام فقيل لهما : قد جاء أمير المؤمنين ، فجلسا وكفا . قال الرواة ، فما كاد الوليد يتنحى عن صدر مجلسه الا أنه زحل له قليلا . فجلس هشام وقال : كيف أنت ياوليد ؟ قال : صالح . قال : مافعلت برابطك ؟ قال : معملة . قال : فما فعل ندماؤك ؟ قال صالحون ، ولعنهم الله ان كانوا شرا ممن

يحضرك • فقال هشـــام : يا بن اللخناء ، جئوا عنقه أى اضربوه ، فلم يفعلوا ودفعوه رويدا • فقـال الوليد :

انا ابن أبى العاصى وعثمان والدى
ومروان جـدى ذو الفعال وعامر
انا ابن عظيم القريتين عزهـا
ثقيف ، وقهر والعصـاة الاكابر
نبى الهدى خالى ومن يك خاله
نبى الهـدى يفخـر به ويكاثر

واذا نظرت الى فخـره وجدته صادقا كل الصدق ، فقد حـوى نسبه المجد من جميع أطـرافه ، فأبو العاصى جده فهو الوليد بـن يزيد بن عبد الملك بن مروان بـن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومروان جده وهو خليفة وعامر من بنى عبد شمس وقرابته ترجـع الى أمهات عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، ومن هذه الامهات من تصل به الى أروى أم عثمان بن عفان ، وأروى بنت البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ، ولهذا عد النبى صلى الله عليه وسلم من أخـواله وعثمـان من آبائه ، وفهر هو قريش • أما صلته بعظيم القريتين فيرجـع الى أمـه فهى (أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفى) وهى بنت أخى الحجـاج والى العراقين وينتهى نسبه مـن جهة أمه الى عروة بن مسعـود الثقفى ، وهو عظيم القريتين •

وفى القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم » والقـريتان مكة والطـائف ، وعظيم مـكة (الوليد بن المغيرة) وعظيم الطائف (عروة) وكان المنتظر ممن يحمل على كتفه هذا النسب العـريق والحسب الحسيب أن يكون على مستوى المسئوليـة العظمى ، وأن يكون له ممـن ذكـرهم نصيب ولكنه تركهم وما أتوا به من أعمال كبار الى مذهب أبيه ، وديدنه فى حب الغانيات وما يلزمهن من غناء وطرب ، وصحاب ليس لهم مـن الدنيا أدب الا معاقـرة الصهباء ، والتغنى بها فى البدو والحضر •

ومن محاورة هشام وولى عهده يتبين لك أن بطانة الخليفة موضع للطعن كما أن بطانة ولى العهـد مظنـة اللـوم والمؤاخـذة

فكل بطانة همها دوام ما فيه من عيش ، ومن ثم كان الرياء من شيم البطانتين ، احداهما تزين للخليفة موقفه من ولاية العهد والحكم والأخرى تدفع بالوليد الى المزيد من الفسوق والخلاعة ، وكلتاهما دون قصد تضرب ملك بنى مروان فى صميم المقاتل ، فالناس قريبو عهد بالحكم الجاد والانطلاق نحو الشعوب لنشر راية الاسلام ، وبث العدالة فى جميع الآفاق ، وأول نذر الظلم من هشام لابن أخيه أنه حرمه مخصصاته المالية ، اذ كان لكل أمير عطاؤه كما أن لجميع أبناء القبائل حقا فى الأموال تصل اليهم فى المدائن والقرى ، بل ان الموالى جعلوا كالعرب فكان لهم اعطياتهم ، فأفرد الوليد بالحرمان ، والحجة أن له أصدقاء سوء ينفق عليهم فيما حرمه الدين ، وكان الواجب الدينى حسب ما كان على عهد عمر أن يقدموا للمحاكمة ومن ثبت عليه شرب الخمر أقيم عليه الحد كما فعل عمر بن الخطاب مع ابنه عبد الرحمن ، لا أن يحرم حقه فيما اقتضته سياسة الدولة ، ولو أحصيت أصحاب الوليد لوجدتهم يعدون على أصابع اليد الواحدة ، ولكنهم مع تبذلهم يملكون عقولا راجحة ، وثقافة واسعة ، وعيبهم الوحيد وهو جماع المنكرات اتباع الوليد فيما يهتف به ، ويعيش له ، منهم عبد الصمد مؤدبه ، وابن سهيل كاتبه ، وعمر الوادى مغنيه ، وقد ينضم الى من ذكرت ابن عائشة ومعبد. وهؤلاء المذكورون يصلحون للحياة العامة ولا يصلحون جلساء لخليفة أو ولى عهد .

ولم يسكت الوليد فكتب الى عمه يذكره بحقه ، وينذره بعقاب الله له ، ويدعوه الى النظر فيما قضى به ليراجعه ودعا له بالتوفيق وكعهده ختم الكتاب بشعر من نظمه منه :

اليس عظيما أن أرى كل وارد
حياضك يوما صادرا بالنوافل ؟
وأرجع محدود الرجاء مصردا
بتحلئة (١) عن ورد تلك المناهل

(١) منع .

فكان الرد من هشام انه قطع عنه أرزاقه تقربا الى الله تعالى ، ونوه بابن سهيل قائلا : « وهل زاد ابن سهيل لله أبوك» علىأنكان زفانا(٢) مغنيا قد بلغ من السفه غـــايته » ونصحه بالكفعما هو فيه ، وكتب فى أسفل الكتاب :

اذا انت سامحتالهوىقادك الهوى
الى كل ما فيـه عليـك مقـــال

وقد كان يحسن أن يضم اليـه ابن أخيه ويجعل نصيحتـــه سرا ويدفعه الى الجد دفعا ، ولا يترك لهؤلاء الملتفينحوله مجالا ، واذاكان الوليد قد ابتلى بجفاء عمه ، ورفقة السوء التى لا تفارقه ، فقـد كان سيىء الحظ فى زواجه ، أو قـل هو سبب نكبته فى زواجه وكيف كان ذلك ؟ قال الـــرواة : تزوج الوليد وهو فى شرخ الشبـــاب « سعدة بنت سعيد » حفيـــدة عثمان بن عفان ، وكانت جميلة . ومرض أبوها سعيد فأتاه الوليد عائدا فدخل فلمح « سلمى بنت سعيد » أخت زوجتـــه ، وكانت فارعة فوقعت فى قلبه . كان ذلك فى عهد أبيه فلما مات طلق زوجته سعدة ، وخطب سلمى الى أبيها ، وتدحلت أخت لهما ثالثدكانت زوج هشـــام فبعثت الى أبيها : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ؟ يطلق هذه وينكح هذه ، فلم يزوجـه سعيد ، ورده أقبح رد .

ولكنه ندم ، وتبين له أنه يحب زوجته المطلقة ، وراسلهـا وقـد تزوجت غيره ، وهـذا يدلك على هوجه وهوسه وجنـون شبابه . بل لجأ الى حيلة للتأثير عليها ، ولا بأس من ذكـرها . بعث الى أشعب المضروب به المثل فى الطمع فقال : يا أشعب ، لك عندىعشرة آلاف درهم على أن تبلغ رسالتى سعدة . فقال : أحضرعشرةالآلاف درهم حتى أنظر اليها ، فأحضرها الوليد ، فوضعهـــا أشعب على عنقه ، وقال : هات رســالتك . فقال : قل لها :

اسعدة هل اليك لنا ســـبيل
وهل حتى القيـــــامة من تلاق
فاصـــبح شامتا ، وتقـــر عينى
ويجمـــع شملنا بعـــد افتراق ؟

فأتى أشعب الباب ، فأخبـرت بمكانه ، فأمرت بفرش لها ففرشت

(٢) راقصـــا .

وجلست فأذنت له ، فلما دخل أنشدها الرسالة • فقالت لخدمها : خذوا الفاسق • فقال : ياسيدتى، انها عشرة آلاف درهم ، فقالت والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتنى• قال : وما تهبين لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى ، قال : قومى عنه فقامت وطواه • ثم قال : هاتى رسالتك • قالت : قل له :

ابكى على لبنى وانت تركتها
فقد ذهبت لبنى فما انت صانع ؟

ووصل الى الوليد برسالتها ، فأنشده البيت • فقال : أوه قتلتنى يا بن ••• ، اختر اما أن أدليك على رأسك منكسا فى بئر أو أرمى بك من فوق القصر ، أو أضرب رأسك بعمودى هذا ضربة ، هذا الذى أنا صانع • فقال :ما كنت لتفعل شيئا من ذلك ، قال : ولم ؟ قال أشعب : ما كنت لتعذب عينين نظرتا الى سعدة • قال : صدقت والله ، أفلت والله • اخرج عنى •

وقد فعل ما هو أخزى مع سلمى التى رد عن خطبتها يقول أبو الفرج فى الأغانى : ذكر أن الوليد بن يزيد خرج يوما يتوقع أن يرى سلمى أخت سعدة فلقيه زيات معه حمار عليه زيت فقال : هل لك أن تأخذ فرسى هذا وتعطينى حمارك وما عليه وتأخذ ثيابى وتعطينى ثيابك ؟ ففعل الزيات ذلك • وجاء الوليد وعليه الثياب وبين يديه الحمار يسوقه متنكرا حتى دخل قصر سعيد ، فنادى : من يشترى الزيت ؟ فاطلع بعض الجوارى فرأينه ، فدخلن الى سلمى فقلن لها : ان بالباب زياتا أشبه الناس بالوليد ، فاخرجى فانظرى اليه ، فخرجت فرأته ورآها ، فرجعت القهقرى وقالت : هو والله الفاسق الوليد وقد رآنى • فقلن له : لا حاجة بنا الى زيتك ، فانصرف وهو يقول شعرا • وسيكون له معها شأن بعد أن يتولى الخلافة .. كل هذا كان يفعله ، وهو ضيق الصدر ، تائه العقل ، ضيئل الصبر ، قد حاصره الخليفة وضيق عليه وحرمه المال والراحة والسكينة وجعل حرمانه قربانا لربه ، ثم هو لا يأوى الى بيت مستقر يجد فيه زوجا تنتظره، أو رفيقة تعينه وتفسح له الأمل

فعول على أن يهرب ، أن يهرب الى الصحراء فاستدعى كاتبه أبا الزبير المنذر بن عمرو فلباه فقال له يا أبا الزبير ، ما أتت على ليلة أطول من هذه الليلة ، عرضت لى أمور ، وحدثت فيها نفسى بأمور ، وهذا الرجل ــ يعنى الخليفة ــ قد أولع بى فاركب بنا تتنفس ، قال أبــو الزبير : فركب وركبت معه ، وسرنا ميلين ، ووقف على تل ، وجعــل يشكو هشاما اذ نظر الى رهج قد أقبل وسمع قعقعة البريد ، فتعوذ بالله من شر هشام ، وقال : ان هذا البريد قد أقبل بموت وحى ، أو بملك عاجل . فقلت : لا يسوءك الله أيها الامير بل يسرك ويبقيك أبدا ، اذ بدا رجلان أحدهما مولى لآل أبى سفيان بن حرب فلما قربا رأيا الوليد ، فنزلا يعدوان حتى دنوا فسلما عليه بالخلافة ، فوجم، وجعلا يكــرران عليــــه التسليم بالخلافة . فقال : ويحكما ! أمات هشام ؟ قالا : نعم . قال : فمرحبا بكما ما معكما ؟ قالا : كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن وسأل عــن عياض بن مسلم كاتبــه . فقالا : لم يزل محبوسا حتى نزل بهشام أمر الله . وتقول الرواية ان عياضا حين علم بما نزل بهشام أمر الخزان ألا يتصرفــوا فى أى درهــم أو دينار ، وخرج من السجــن فختم الأبواب والخزائن ، وأمر بهشــام فأنزل عن فراشه ومنعهم أن يكفنوه من الخزائن ، فكفنه غالب مولى هشام ، ولم يجدوا له اناء مــن نحاس حتى استعاروه .

وقد عبر عما جرى هشــام فى آخر لحظة فى حياته اذ قال : « أرانا كنا خزانا للوليد » ويعقب صاحب الأغانى على هذا بقوله : « ذكــر أن هشام بن عبد الملك كانت تحمل ثيابه على اربعمائة ظهر ، وأفضى الحال عند موته الى أن لم يوجد له كفن حتى كفنه « غالب » هذا. فسبحان من لا يزول ملكه .

تولى الوليد بن يزيد الخــلافة وعيون الناس ناظرة اليه ، متوجسة منه خيفة ، لا يرونه أهلا للحكم ، وقد نجحت فيه دعاية عمه فجعلته موضع الطعن والزراية عليه ، ولو كان موفقا لأقلع عما رمى به ، وذاع

عنه ، فأظهر العدل والصفح وسلك سبيل من افتخر بهم ممن انتسب اليهم من السادة الجحاجح ، والولاة الأماثل ولا سيما رسول الله سيد الخلق صلوات الله عليه • ولكنه كان يحمل قلبا مفعما بالحقد ، تواقا الى سفك الدماء ، نظارا الى شيء غيره ، متجها الى ارضاء نفسه ، والنفس أمارة بالسوء ، فكان أول أمر أصدره الفتك بخالي الخليفة : محمـــد وابراهيم ابنى هشـام المخزومى ، أمر بتعذيبهما وقتلهما واستقبل خلافته بشكر النعمـــة وشكرها سكرة قبل الظهـر على أبيات له تغنى هى :

طاب يومى ولذ شرب السلافه
اذ اتانا تعى من بالرصافـــة
واتانا البريد ينعى هشـــاما
واتانا بخـــاتم للخلافـــة
فاصطبحنا من خمر عانة (١) صرفا
ولهـــونا بقينة مزافـــه

وبعث الى جماعة من أهله فلما حضروا قال : أتدرون لم دعوتكم ؟ قالوا : لا • قال : ليقل قائلكم ، فقال رجل منهم : أردت يا أمير المؤمنين أن ترينا ما جدد الله عـز وجل لك من نعمـــه واحسانه • فقال : نعم ولكن :

اشـــهد الله والملائكة الابرار
والعـابدين أهـل الصـــلاح
اننى اشـتهى السماع وشرب
الكاس والمغنى للخدود المـــلاح
والنديم الكريم والخـادم الفاره
يسـعى الى بالاقـــداح

قوموا اذا شئتم ، ولا شك انهم قاموا يحملون حـزنا وألمـا ، وينظرون الى مستقبل مخيف لدولتهم ومكانتهم ، فان أعداءهم فى ذلك الحين يتربصون بهـم الدوائر ، ويثيرون الشعـوب ضـدهم ، ويشهرون فسقهم وجـورهم ، وليس هناك أشنع مما يصنع الوليد ومن الغريب أنه يذكر المجـون مقرونا بالامامة • يقول والشعـر يروى :

اشرب الـراح واهـــوى
كـل مضـــفون الذؤابـــه
انـــا للنـــاس امـــام
غـير انى ذو صـــبابه

ويخرج على المألوف من أمثاله ، فيستخدم نفوذه فى زواجه بسلمى بنت سعيد ، وقد رد عنها حيـن كان ولى العهد فلما صـار أميـر

(١) بلد على الفرات مشهورة بالخمر .

المؤمنين أجبـر أباها على قبـوله زوجا لها ، وزفت اليه ، ولكن الله حرمه اياها فلم تلبث معه الا مدة يسيرة حتى ماتت

وكل أفعاله وأقواله تدنيه سريعا من الهاوية ، بنو أبيه ينكـرون ما يأتيه ، وخصـوم بنى أميـة يحصون ما يقوله وما يفعله وهـو لا يكف عن العبث ، وكأنه موكل بالاساءة الى نفسـه ، ومـا تزال الدولة الاسـلامية فى غضـاضة البداوة لم تصبها عقابيل الحضارة وكأنه وجد فى زمن غير زمانه ، ويروى عنه أشياء لو صحت لكان من أكبر العصاة وفى مقدمة أئمـة الكفر فحادثة تمـزيق المصحف لو صحت هى وحدها كفيلة باهـدار دمه ، فـكل الكتب التى أرخت لخلافته القصيـرة ، وكتب الأدب ذكرت أن الوليد دعا ذات ليـلة بمصحف فلما فتحه صادف ورقـة فيها :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد • من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » •

فقال : أسجعا علقوه : ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه • ثم قال :

اتوعـد كل جبـار عنيـد
فهانـا ذاك جبـار عنيد
اذا ما جئت ربـك يـوم حشر
فقل يادبى : مزقنى الوليـد

ويروون عن تهتـكه فى خلافته أنه واقع جارية من جواريه وهو سكران فلما فرغ منها آذنه المؤذن بالصلاة فحلف ألا يصلى بالنـاس غيرها ، فخرجت وهى متلثمـة فصلت بالناس •

وبعـث الى « شراعـة بن الزندبوذ » وهو من المجان الندماء فلما قدم عليه : قال ياشراعة ، انى لم أحضرك لأسألك عن العلم ولا لاستفتيك فى الفقه ، ولا لتحدثنى ولا لتقرئنى القرآن • فقـال له شراعة : لو سألتنى عن هذا لوجدتنى فيه حمارا • قال الوليـد : كيف علمك بالفتوة ؟ قال : ابن بجدتها ، وعلى الخبير بها سقطت ، فسل عما شئت • قـال : كيف علمـك بالأشربة ؟ قال : يسـألنى أميـر المؤمنين عما أحب • قال : ما قولك فى الماء ؟ قال هو الحياة ويشركنى

فيه الحمار . قال فاللبن ؟ قال : ما رأيته قـط الا ذكـــرت أمى فاستحييت . قال : فالخمر ؟ قال : تلك السارة البارة وشراب أهـل الجنة . قال : لله درك . قال : فأى شيء أحسن ما يشرب عليه ؟ قال : عجبت لمن قدر أن يشرب على وجه السماء فى كن من الحـــر والقر كيف يختار عليها شيئا ؟

وزاد على ذلك أنه عربد ليلـة على منادمه فقتله ، واسم منادمـه القتيل : القاسم بن الطويل العبادى وكان أديبا ظريفا شاعرا ، وقد ندم حين صحا من سكره وأخـذ فى رثائه ، ويكرر بين جواريه ما أبالى متى جاءنى الموت بعد ابن الطويل .. والموت يتربص به ولا يتركه لفساده .

اجتمع على عداوة الوليد من يعملون للدنيا ومن يعملون للآخرة كما شارك فى قتله بنو أبيه وبنو خصـومه وطلاب الثأر منه ، وكان أحفاد عبد الملك جلهم ضده وفى مقدمتهم أبناء هشام ، وكان أشد الناس عداوة له ، وأقـواهم فى السعى الى الوثوب عليه وقتلـه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبـد الملك ، فانه كان متعبدا ينكـــر الفسوق والانحراف عن السـلوك الحميد ، فدعا الى البيعة لنفسه ، فمشى الى أخيه « العباس بـــن الوليد » وكان امرأ صدق ، وكان أحرص بنى أمية على الاتفـــاق والنفور من الشقاق ، والعمل على وحدة البيت المالك ، ولذا لم يقبل ما دعاه أخوه اليه من الخروج على الوليد وقتله ليكون غيره خليفـة بعده ، وكم حذر من الخـلاف ، وأنه سبيل الادالة من بنى مروان . ولكن يزيد جد فى أمره وجمـع الأعوان حوله ، وأخذ يتنقل فى المدن والبـوادى ليضمـن النصر لنفسه عنـــد الوثوب . جاء من جرود الى دمشق فنزل ومن معـه على مولى لعباد بن زياد ثم تناولوا الطعام عنده ، ومضوا مشـاة الى المـزة الى معـاوية بن مصاد ، ثم خرج الى دمشق ، وصلى العشـاء هو وأصحابه ، وناموا بالمسجـد وراسلوا أصحابه فى جميع الأنحاء فلما طلع الصباح وأقبل الناس على

بيعته واستمرت الوفود الى الظهر، تمثل بقول النابغة مشيـــرا الى جنده :

اذا استنزلوا عنهن للطعن ارقلوا
الى الموت ارقال الجمال المصاعب

فجعـل أصحـابه يتعجبـون ويقولون : انظـروا الى هذا كان قبيل الصبـح يسبح وهـو الآن ينشد الشعر ، ثم أمر ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فوقف بباب الجابية فنادى : من كان له عطاء فليأت الى عطائه ، ومن لم يكن له عطاء فله ألف دهم معونة ، فبايع له النـاس وأمـر بالعطاء وتجمع له جيش كبير سار به الى الخليفة الوليد وهو بقصره بموضع يقال له البخراء بالبـرية وكان العباس بن الوليد غير راض عن تلك الثورة ولكن عبد العزيز ابن الحجاج أمسـك به وقال له بايع ليزيد ، فبايع مكرها ووقف ونصبت راية . وقالوا : هـــذا العباس قد بايع ، ونادى المنادى : من لحق بالعباس بن الوليد فهـو آمن . فقال العباس : خدعة شيطان انا لله هلك والله بنو مـــروان . فتفرق الناس عن الوليـــد وأتوا العباس ، وأراد الوليـد القتـال فلبس الدروع ولكنه لم يجـــد حوله من يقف بجانبه ، وتنادى الناس بقتله ورموه بالحجـارة ، فدخل القصر وأغلق بابه ، وأخـذ ينشد شعرا منه :

خـذوا ملكهم لاثبت الله ملكهم
ثباتا يســـاوى ما حييت عقـــالا

وأغرب ما يروى عنه أنه حيـن أغلق بابه قال لعمر الوادى ياجامع لذتى غننى بهذا الشعر فغناه به ، والجنود تحيـط بقصره وأراد أن يخاطب من تجمعوا من وراء الباب فقال : أما منكم رجل شريف لـه حسب وحياء أكلمه ؟ فقال له يزيد بن عتبـــة السكسكى : كلمنى ، فقال الوليد : يا أخا السكاسك ، مـا تنقمـــون منى ، ألم أزد فى أعطياتـكم وأعطيـة فقـرائكم ؟ وأخدمت مزناكم ، ورفعت عنـكم المؤن ؟ قال : ما ننقم عليـك فى أنفسنا شيئا ، ولكن ننقم عليـك انتهاك ماحرم الله وشرب الخمور، ونكاح أمهـــات أولاد أبيـك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل .

فقال : حسبك يا أخا السكاسك، فلعمرى لقد أغرقت وأكثـرت ،، وان فيما أحل الله سبحانه لسعـة عما ذكرت .. ورجع الى داخـل قصره يائسا فجلس وأخذ المصحف وقال : « يوم كيوم عثمان » ونشر المصحف يقرأ ولم يصبـر عليـه الثوار ، فتسلقوا الحائط ، وكان أول المتسلقين يزيد بن عنبسةفنزل وسيف الوليد الى جنبه ، فقال له يزيد : نح سيفك . قال الوليد : لو أردت السيف لكانت لى ولك حال غير هذه فأخذ بيده وهو يريد أن يدخل به بيتا ويؤامر فيـه ، فنزل من الحائط عشرة منهـــم منصور بن جمهور وعبد الرحمن ابن رواحة مولى يزيد بن عبدالملك والسرى بن زياد بن أبى كبشة ، فضربه ابن رواحة على رأســه وضربـه السرى عـلى وجهـــه ضربة ، وجروه ليخرجوه فصاحت امرأة بالدار فكفوا عنه ، واحتـز رأسه أبو علاثة القضاعى ، وقدم بالرأس على يزيد بن الوليد بـن عبد الملك وهو بدمشق روح بـن مقبل فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق فأحسن صلته .

قال ابن عبـد ربه فى العقـد الفريد : قتل بالبخراء من تدمـر على ثـلاثة أميـال يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخـرة سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن خمس وثلاثين سنة وكانت ولايته سنة وشهـــرين واثنين وعشرين يوما .

وكان مقتله ايذانا بمقتل بنـى أمية ، وما ربك بظلام للعبيد .

السيد حسن قرون

مبادئ الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الإسلامية

للواء محمد جمال الدين محفوظ

يقرر العلم العسكرى مبـــدأ يقول : « يؤسس القـائد خطتـه فى الميدان على مـــا لديه مـن معلومات ، وكلما كانت المعلومات وافية ودقيقة ، كان الامل فى نجاح الخطة كبيـرا . لذلك فمـــن الواجبات الضرورية لجميع القادة اتخاذ كل ما من شـأنه أن يزودهم بالمعلومات عن العـــدو ونواياه وحـــركاته الى غيـــر ذلك من المعلومات .. » .

ولقد عنيت المدرســة العسكرية الاســلامية بالاستطلاع وقررت له عدة مبادىء تقترب منها المبادىء المعمــول بهـا فى الاستطلاع فى الحرب الحديثة .

ونستطيع أن نستخلص مبادىء الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الاسلامية مــن تحليـــل السرايا والغزوات التى جـــرت فى عصر النبوة ، وقد اخترنا منهـا بعض الأمثلة التى برزت فيها هذه المبادىء بوضوح وجلاء .

سرية عبد الله بن جحش :

فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رســول الله صلى الله عليه وسلم عبـــد الله بن جحش الأسدى ومعه ثمانية من المهاجرين، وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظـر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظـر فيه فيمضى لمـا أمـره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

فلما سار عبـــد الله بن جحش يومين ، فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فاذا فيه :

... اذا نظرت فى كتابى هذا، فامض حتى تنـــزل « نخـلة »

(بين مكة والطائف) فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من اخبارهم» .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : « سمعا وطاعة » ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى الى نخلة أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منها بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد .

سيرة ابن هشام :

ولعل أهم ما نلاحظه أن بعث هذه السرية جاء على رأس سبعة عشر شهرا من مقام المسلمين فى المدينة بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى بشهرين ، تلك الغزوة التى تعد أول صدام مسلح له أبعاده وآثاره الاستراتيجية فى الصراع الطويل بين الاسلام وأعدائه ، من أجل ذلك فان هذه السرية ذات أهمية ترجع الى أمرين :

الامر الأول : ان الظروف والأحوال الاستراتيجية التى سادت شبه الجزيرة قبل تنفيذها تكشف عن أفق مشحون بالتربص ونذر الخطر وبالنوايا العدوانية ضد المسلمين سواء من ناحية قريش أو المشركين من الأعراب المجاورين للمدينة أو مشركى ومنافقى المدينة أو من ناحية اليهود .

والامر الثانى : ان هذه السرية تعد ـ من وجهة نظر العلم العسكرى ـ عملا من أعمال الاستطلاع الحربى ، يكشف لأول مرة عن كثير من مبادىء الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الاسلامية ، ويبرز الدور الخطير الذى يؤديه الاستطلاع فى تحقيق الأمن للأمة الاسلامية .

مبادىء الأستطلاع :

أولا : الاستطلاع ضرورة حيوية :

وأول هذه المبادىء هو أن الاستطلاع ضرورة حيوية سواء للتخطيط الاستراتيجى أو لادارة المعركة ، وأنه لا بد أن يسعى القائد الى معرفة أكبر قدر من المعلومات

عن عدوه من حيث كفاءته القتالية وأسلحته ، وأساليبه فى القتال ، وعن مصـــادر قوته من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعن أهدافه ونواياه .. الى غيـر ذلك من المعلومات .

يقول الاستاذ عباس العقاد (١): « أما غرض البعثة كلها (أى سرية عبـــد الله بن جحش) وهـــو الاستطلاع ، فقد كان النبى عليه السلام عليما بمزاياه معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول ، كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به ، قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميـــدان حيث أصيب فى وسائل الاستطلاع، ثم تذكـرنا كيف تكـررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليـون فى روسيـا أمس، وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم « فى الحـرب العالمية الثانية » . فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعهـا فى مجلس الحـرب من بعض الثقات قبـل التوغل فى الحـــرب الروسية ، لاعتقاده خطـأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع . ومن أسباب تلك الهـزيمة أن الـروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطـــرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجـع أو يلتقـط من خلال أجـوبته ما يعينـه على الاستطلاع الـذى كان شـــديد التعويل عليه .. أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هـو أعظم منـــه وأولى بالتحرز والأناة . فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم.. واشتهر أنه أخطـــأ فى استطلاع أخبار القوم اذ خيل اليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويتـــرقب

(١) عبقرية محمد ـ ص٤٣

الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى ، وهو عنصر الجرمان .. ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطىء قط مثل هـــذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم ــ كلما درسنا زمــانه الحافل بالعبر والأمثال الباقية ــ ان دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين » .

ثانيا ــ الكتمان والسرية فى الاستطلاع

وهذا هو المبدأ الثانى من مبادىء الاستطلاع الذى نستخلصه مــن تأملنا لتعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن جحش حيث نلاحظ ما يلى :

١ ــ ان عبــد الله بن جحش وأصحابه كانوا لا يعلمون عن أمر مهمتهم شيئا حتى ولا الدور الذى سيقومون به .

٢ ــ أن أحدا منهم بما فيهــم الأمير ، لم يسأل أى سؤال عــن ذلك ، وانما كانت طاعة مطلقة من الجنود نحو الامير .

٣ ــ ان رسول الله صــلى الله عليه وسلم أراد أن يخفى عن أهل المدينة مسلمين وغيرهم ، أمر هذه السرية حتى لا يتسرب أى خبــر الى الأعداء فتفسد الخطة المترتبة على ذلك .

ولرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حكمة فى كتمان أمــر تلك السرية عمن يحيطــون به ، فليس ببعيد أن يكون منهم جاسوس من قبل قريش ، ولا أن يكون منهــم من يبوح بالخبــر عن ســذاجة ، لا يريد به السوء ، أو لا يــدرك ما فى البوح به من الخطر المنظور، ولا يبعد أن يكون فيهــم ضعيف النفس يفشى السر بتأثير مال أو ضغط ، وفى هذا تحقيق كامــل لسنته صلوات الله وسلامه عليه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وهكذا يقرر الرسول أن استطلاع أحوال العدو يجب أن يحاط بالسرية التامة ، وهذا حق ، لأن العدو اذا أحيط علما بذلك فسوف يستعد استعدادا تاما لحرمان من يقومون بالاستطلاع من الحصــول على

المعلومات التى يريدونها ، وبذلك لا يتحقق الغرض من الاستطلاع ، فضلا عما ينتظر حدوثه من خسائر مؤكدة فى أرواح رجال الاستطلاع أو من وقوعهم فى الأسر ، فيكشف العدو الخطط والنوايا •

وفى الحرب الحـديثة يحـاط الاستطلاع بكل أسباب الكتمان والسرية ، فمفـارز (دوريات) الاستطلاع مثلا تقـوم بعملها فى الليل غالبا تحت ستـر الظلام ، فاذا اضطرت الى العمل نهارا نراها ترعى كل أساليب الاختفاء والحذر والتمويه •

الرسائل المكتومة لأول مرة :

وقد انتهج الرسـول صلى الله عليه وسلم وسيلة بارعة للمحافظة على السرية وهى أمـره لعبد الله ابن جحش بألا يفض الرسالة وينظر فيها الا بعد أن يسير يومين أى حين يكون قد بعد عن المدينة وعن أهلها • وأمثلة ذلك فى التـاريخ الحربى كثيرة ، فان كثيرا من قواد الجيوش والحملات المرسلة للغزو كانوا يخفون أسرار حملتهم عـن جميع مرءوسيهم الا عن هيآتهم الخاصة القليلة العدد وهى « هيئة أركان الحرب» التى تقتضى ضرورة وضع الخطط وترتيب العمليات أن يكونوا على علم بها ••وقد تصدر الى قواد الجيوش والأساطيل أوامر مختومة ليفتحوها فى مـكان معين بعيد عن القاعدة سواء على الأرض أو فى عرض البحر ، ويتفق مـن أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على السر فى حيـن يجهله جميع رجاله حتى اذا بقى على الحركة المقصـودة ساعات معدودات تصدر الأوامـر صريحة تحمل المفاجأة وتدعو الى الاسراع فى العمل المقرر •

ومن أمثلة ذلك ما حـدث فى الحـرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ م من أن الحملة الحربية التى أرسلت بحرا من الهند لغزو العراق ، لم يعـرف رجالهـا وجهتهم الا فى عرض البحر ، وكان ذلك بقصد اخفاء نبأ هذه الحملة عن الاعداء ، وقد حدث مثل هذا فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م وبخاصـة فى عمليات الغزو البحرى •

ثالثا : صغر حجم مفرزة الاستطلاع :

لم يزد عدد أفراد سرية عبد الله ابن جحش عن ثمانية (أو اثنى عشر رجلا فى مصدر آخر) • وقلة عدد أفراد المفرزة التى تكلف مهمة استطلاعية مطلب ضرورى يتفق مع دواعى الكتمان والسرية ، ويقلل من فرص اكتشاف العدو لها•وهذا هو ما تنص عليه النظريات المعاصرة اذ تقضى بأن « تكون مفرزة الاستطلاع صغيرة ما أمكن » •

رابعا : أن يكون مبدأ التطوع أساسا لتشكيل مفرزة الاستطلاع :

فقد أوصى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش ألا يكره أحدا من المسلمين على المسير معه ، فامتثل للأمر وعرض على اصحابه وهو يقول : « وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع » •

ومعنى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر مبدأ هاما هو أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه ، أى أن يكون مبدأ التطوع أساسا لتشكيل مفرزة الاستطلاع ، وهو مبدأ ينطوى على عمق فى التفكير وبعد فى النظر كما يلى :

* فالواقع أن هناك فرقا كبيرا بين الخروج « للقتال » والخروج « للاستطلاع » • فالرجل اذا خرج مكرها على القتال فقد يقاتل لأنه مهدد بالموت المؤكد سواء فى القتال أو اذا حاول الفرار •

* ولكن اذا خرج الرجل للاستطلاع مكرها ، فلا يمكن أن يفيد وسوف يكون خروجه بلا جدوى ، بل ربما يحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها بغير عناية ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم عنه غافلون •

* هذا المبد أمعمول به فى الحرب الحديثة ، فاذا أرادت قيادة الجيش بعث مفرزة للاستطلاع فانها تختار القائد الذى ستناط به المهمة ثم تترك له الحرية المطلقة فى اختيار مرافقيه ، فتراه يختار من يرغب فى الخروج معه ، ومن يثق

بهم .. وكذلك الحال فى كل عمل من الأعمال القتالية التى تنفـــرد بطابع خاص ومـــن ذلك أعمـــال الفدائيين الذين يكلفون مهـــام خطيرة وشاقة تتعرض فيها حياتهم لموت أكيـــد وهـــلاك محقـــق ، فيتطلب القيام بها قدرا كبيرا من الجرأة والشجاعة والاقدام والغيرة، فهل يمكن لمن يخـــرج لمثل تلك الأعمال « مكرها » أن يحقق شيئا من الأهداف المرجوة ؟ .. وهكذا تتجلى حكمة الرســـول صلى الله عليه وسلم فى قوله :

ولا تكرهن أحدا من أصحابك على السير معك .

خامسا : ضرورة تجنب القتال :

واضح من تعليمات الرســـول عليه الصلاة والسلام أنه قد حدد مهمـــة عبـــد الله بن جحش فى « استطلاع » اخبـــار قريش : (فترصد بها قـــريشا وتعلم لنـــا من أخبارهم) .

أى أن الرسول لم يكـــن يريد « قتـــالا » بـــل كان يـــريد « استطلاعا » .

والذى حدث أنه بعد أن قرأ عبد الله بن جحش رسالة النبى عليه الصلاة والسلام مضى ومضى معه أصحابه خـــلا سعد بن أبى وقاص الزهرى وعقبة بن غزوان ، اللذين ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضـــل ، فأسرتهما قريش ، وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا « نخلة » .

هناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى ، وكان يومئذ آخر رجب .. وذكر عبد الله بن جحش ومن معـــه مـــا صنعت قريش بهم ، وما حجرت من أموالهم ، وتشـــاوروا وقال بعضهم لبعض :

« والله لئن تركتم القـــوم هذه الليلة ، ليدخلن الحرم ، فليتمتعن منكم به ، ولئـــن قتلتمـــوهم ، لتقتلنهم فى الشهر الحرام » .

وترددوا وهابوا الاقـــدام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخـــذ ما معهم ، ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهـــم فقتله ، وأسر المسلمون رجلين (١) من قريش .

(١) هما عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول ، فلما رآهم قال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، وأسقط فى يد عبدالله ابن جحش وأصحابه وعنفهم أخوانهم من المسلمين بما صنعوا ، واتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية بأن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ، ودخلت اليهود تريد اشعال نار الفتنة .

اذ ذاك نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (البقرة ٢١٧) .

وسرى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر ، وقبض النبى العير والأسيرين ، فافتدتهما منه قريش فقال :«لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فانا نخشاكم عليهما، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم».. وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبى من الأسيرين .

ويقضى العلم العسكرى بأن المفرزة التى ترسل للاستطلاع يجب أن تتجنب القتال بقدر مايمكن ، ويقضى أيضا بأن الحصول على المعلومات لو تطلب قتالا بالضرورة (أى أنه لا سبيل لتحقيق مهمة الاستطلاع الا بالقتال للحصول على المعلومات عنوة) فان ذلك يقتضى اتخاذ ترتيبات معينة فى تركيب المفرزة الاستطلاعية وفى عدد أفرادها وفى تسليحها ، وذلك حتى تكون قادرة على القتال باعتباره الوسيلة التى تمكنها من هدفها .

والحكمة فى أن تتجنب مفارز الاستطلاع التورط فى القتال ــ الا فى حالة الدفاع عن النفس طبعا ــ هو أن القتال سوف يهدم جانب السرية والكتمان ويعيق المفرزة عن أداء مهمتها .

وهنا تتجلى حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرر هـــذا المبدأ فى سرية عبـــد الله بـــن جحش :

* فى وضوح وجلاء عند تحديد المهمة « فتعلم لنا من أخبارهم » .

* وفى أنه بعـــث السرية فى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التى حرم القتال فيها .

* ثم فى استنكاره لما حـــدث من قتال حين قال : « ما أمـــرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

سادسا : قوة التحمل لدى رجـــال الاستطلاع :

روى أبو القاسم البغـــوى عن سعد بن أبى وقاص قال : بعثنـــا صلى الله عليه وسلم فى سرية قال : لأبعثن عليكم رجلا أصبركم على الجوع والعطش ، فبعث علينـــا عبد الله بن جحش رضى الله عنه . وسماه صلى الله عليه وسلم « أمير المؤمنين » فهو أول من تسمى فى الاسلام به .

ويكشف ذلك عن مبدأ جـــديد هو أن قوة التحمـــل شرط من الشروط التى يجب توفرها فيمـــن يختارون لمهام الاستطلاع قادة أو جندا ، وذلك بالطبع بالاضافة الى شرط الرغبة الذى سبق ذكره .

سابعا : تكريم رجال الاستطلاع :

كذلك ينطوى اطلاق اسم أمير المؤمنين على عبـــد الله بن جحش على تكـــريم وتشريف لرجـــال الاستطلاع بالنظر الى خطورة مهمة الاستطلاع والى صلتهـــا المباشرة بأمن المسلمين وسلامتهم .

ونرى هذا المبـــدأ أيضا من حديث حذيفة بن اليمان حين كلفه الرسول صلى الله عليه وســـلم باستطلاع أخبار العدو ، يقـــول : لقد رأيتنى ليلة الأحـــزاب مـــع رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقال : « من يذهب الى هـــؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم ، أدخله الله الجنة » . وفى نفس الحديث ورد أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « هل من رجل يقوم فينظر لنـــا ما فعل القوم على أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » .

هذه المبادىء التى ذكرناهـــا أمكن استخلاصها من تحليل سرية

عبد الله بن جحش ، على أن هناك مبادىء أخرى يمكن استخلاصها من غزوة بدر الكبرى .

ثامنا : قيام القائد بالاستطلاع الشخصى :

ويقضى هذا المبدأ بأن يقوم القائد بنفسه بالاستطلاع سواء فى مرحلة التحضير للمعركة أو فى مرحلة ادارتها ، أى أنه لا يكتفى بارسال مفارز استطلاع أو المراقبين ، بل يجب أن يحرص على أن يشاهد بعينيه ما يهمه مشاهدته مما يزيد من وضوح الرؤية لديه لكى يأتى التخطيط والقرار بعد ذلك سليما الى أقصى حد ممكن . وهذا ما حدث فى غزوة بدر الكبرى .

فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم قبل المعركة عدة مفارز للاستطلاع كما يلى :

١ ــ مفرزة تتكون من طلحة ابن عبيد الله وسعيد بن زيد لاستطلاع أخبار قافلة قريش عند عودتها من الشام ، حتى اذا وصلا « الحوراء » على طريق الشام ــ مكة مكثا هناك ، فلما مرت بهما القافلة أسرعا يخبران النبى صلى الله عليه وسلم بأمرها ، فقرر عليه السلام الخروج وقال للمسلمين : « هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها » .

٢ ــ مفرزة تتكون من رجلين الى «بدر» للحصول على معلومات عن قريش وعن قافلتها ، فلما وصل المسلمون « وادى ذفران » جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم .. وبناء على هذا الاستطلاع طلب الرسول صلى الله عليه وسلم مشورة أصحابه فى هذا الموقف الجديد (وهو خروج قريش) فاتفقت كلمتهم جميعا مهاجرين وأنصارا على قرار مواجهة قريش .

٣ ــ مفرزة تتكون من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، وقد استطاعت الوصول الى ماء بدر ، وعادت ومعها غلامان لقريش ، فاستنطقهما الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم منهما أن قريشا وراء الكثيب «بالعدوة القصوة» .

ولما أجابا بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش ، ســـألهما النبى : « كم ينحرون يوميا ؟ » فأجابا : « يوما تسعـا ويومـــا عشرا » فاستنبط الرســول صلى الله عليه وسلم من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف ، وعرف مـــن الغلاميـــن كذلك أن أشراف قـريش جميعـا خرجوا مع الجيش .

٤ ــ مفـــرزة من رجلين من المسلمين ، وصلا ماء بدر فسمعـا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « انما تأتى العير غدا أو بعد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » فعاد الرجلان فأخبرا الرسول بما سمعا .

وقد قام الرسول القائد صـلى الله عليه وسلم بالاستطلاع بنفسه حين انطلق أمام الجيش وبصحبته أبو بكر عندما اقترب المسلمـون من بدر ، حتى وقف على شيخ من العرب . فسأله عن قريش وعـن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم .

قال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا أخبرتنا أخبرناك » .

علم الرسول من شيخ العـرب أن عير قريش قريبة منه ، فقال له : « نحن مـــن ماء » ثم انصرف وصاحبه عنـه والشيخ يقـول : «ما من ماء ؟ أمن ماء العراق !؟»

هذا هو ما يسمـونه فى العلم العسكرى « الاستطلاع الشخصى للقائد » ،وهو عمل يحرص عليه القائد دائما وبخاصة قبل المعـركة وفى لحظاتها الحرجة .

ونلاحظ أيضا فى هذه الواقعة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على مبدأ الكتمان والسرية ، فرأينا كيف أخفى هويته عن شيخ العرب حتى لا تعلم قريش بمواضـــع المسلمين ، ويبـدو ذلك واضحـا جليا فى رده الذكى « نحن مـن ماء » .

تاسعا : ضرورة اعلام القـــوات بالمعلومات عن العدو :

وهذا المبدأ تقـرره المدرسـة العسكرية الاسلامية فى مجـــال الاستطلاع ، فتطلب من القائد أن ينشر على قواته من المعلومات عن

العدو بالقدر الذى يراه ضروريا بحسب ظروف المعركة ومتطلباتها. والحكمة فى ذلك تبدو فى الفائدة الكبرى التى تتحقق لصالح المعركة ، لأنه كلما زادت معرفة الرجال بالموقف وبأوضاع العدو وقوته وحركاته وأهدافه ، زادت قدرتهم على العمل الايجابى وعلى حسن التصرف والابتكار فضلا عن ارتفاع روحهم المعنوية لأنهم يعرفون مواقع أقدامهم ولا يضربون فى المجهول .. « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم (الملك) » .

فالرسول القائد صلى الله عليه وسلم حرص على اعلام رجاله بما يهمهم معرفته عن عدوهم الذى سيواجهونه ، وظهر ذلك بكل جلاء فى اعلامهم بادىء الامر بأن قريشا قد خرجت للقتال وطلب مشورتهم، ثم فى اعلامهم بما حصل عليه من معلومات عن قوة جيش العدو وعن قيادته متمثلا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها » .

« ما يصفوا به الود »

قال على بن ابى طالب ـ كرم الله وجهه ـ لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ اخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

محمد جمال الدين محفوظ

رأى فى التفسير العلمى

فضيلة الشيخ عزت الدسوقى

يثور جدل هذه الأيام حول تفسير بعض الآيات الكريمة المتعلقة بالكون فمن قائل بوجوب تفسيرها بما يتفق وما يجد من العلوم والنظريات والاكتشافات وأصحاب هذا الرأى يرون أن القرآن الكريم ــ وان لم يأت بالتفاصيل الدقيقة التى تتميز بها كتب العلوم ــ الا أنه أتى بحقائق من العلم بصورة كلية ، تاركا التفاصيل للباحثين والمتخصصين فهو كتاب علم كما هو كتاب تشريع ووعظ وتنظيم لشئون الحياة كلها بجميع نواحيها • قال تعالى فى سورة الأعراف : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » •

والبعض الآخر يرى أن ننأى بكتاب الله تعالى عن هذا المنزلق لأن العلوم تتطور وتتغير ، فاذا فهمنا فى كتاب الله فهما مطابقا لجديد من العلم فلا نأمن أن يحدث تغيير وتبديل نتيجة للبحوث المتكررة والاكتشافات المستمرة ، وحينئذ يحدث ما لا تحمد عقباه •

وحين أشارك بقلمى المتواضع فى هذا المعترك فلأنى عاصرت أحداثا عرضت أثناء تجوالى فى البلاد العربية والاسلامية مبعوثا للأزهر أجد من واجبى أن أضعها أمام المهتمين بهذا الامر ، ليتخذ كل منهم الموقف المناسب على ضوء هذه الأحداث •

نظرة عامة

لا يختلف اثنان فى أن المسلمين فى هذا العصر ليسوا على المستوى المطلوب منهم كأصحاب رسالة هى خاتم الرسالات وأتباع كتاب مهيمن على الكتاب كله •

فوضعهم الاجتماعى والثقافى والحضارى والعسكرى والاقتصادى متخلف بمراحل كثيرة عن غيرهم من سكان المعمورة ، ما جعل المبشرين ينشطون وسط التجمعات الاسلامية والشبابية بنوع خاص مشككين فى الاسلام كدين وأسلوب حياة .

مسئولية القيادة الاسلامية :

فالمسلمون أينما كانوا عربا أو عجما يسلمون قيادهم عن اقتناع كامل لرجل الدين والسمة الغالبة ـ للأسف ـ لرجل الدين فى أفريقيا وآسيا هى العداء الشديد لكل ما هو جديد من العلم ، ولا زال كثيرون منهم حتى هذه اللحظة ينكرون وصول الانسان الى القمر . ولقد كنت ببلد افريقى حين أذيع وصول الانسان الى القمر فما كان من أئمة المساجد فى هذا البلد الا أن خرجوا فى مظاهرة صاخبة وذهبوا الى السفارة الامريكية ورجموها بالحجارة ، وأخذتهم حمى المعارضة لمدة اسبوعين فمكبرات الصوت فى كل مسجد تحذر الناس من تصديق هذا الخبر ، وتخبرهم بأن القرآن الكريم يكذبهم . ويمنع خروج الانسان من أقطار الأرض، ونشط المبشرون وسط الشباب المثقف يلقون ظلالا كثيفة من الشك على صدق القرآن الكريم الى حد أن ذهب أحد طلاب المدرسة الثانوية المصرية فى هذا البلد الى مدير المدرسة وطلب ملفه ليعدل فيه نوع الديانة من الاسلام الى المسيحية .

ولا زال على قمة رجال الدين فى بلد عربى كبير مفت يحكم بكفر من يقول بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس وحولها وتظهر له بين الحين والحين مؤلفات تحمل هذا المعنى وتدلل على ذلك بآيات من كتاب الله تبارك وتعالى .

قد يكون هذا القول غريبا فى مصر ، ولكن اذا سنحت لك فرصة التجوال فى العالم الاسلامى وخالطت القائمين بقيادة المسلمين من العلماء هالك ما هم عليه من تزمت جعل الكثير منهم يقف حائلا بين أبناء هذا البلد وبين الالتحاق

بالمعاهـد الأزهـرية فى افـريقيا محتجين بأنهم يدرسـون الجغرافيا وهى كفر ..

وحدث مـرة عند انصرافى من محاضرة فىأحد المساجد ببلدعربى شقيق أن تقدم الى شـاب بدوى قائلا : « يا شيخ ! ! يقولون فى المدارس للصبية كما يقول الكفار « ان الأرض تدور ، وأنها كرة ، مع أن القرآن الكريم يقـول : « والأرض فرشناهـا » ، « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ » . فمـا رأيك ؟ »..

تريثت قليـلا قبـل أن أجيب ، فقد كان فى هذا البلد ضجة ضد دراسة الجغرافيا ، وكان المتزعمون لها والمثيرون أوارها هم رجـال الدين ولهـم فى نفـوس الشعب قداستهم ، ومـكانتهم ، وكنت أحظى فى هـذا البلد بتقديرهم واحترامهم ، فماذا يكـون الموقف اذا خرجت على رأيهـم ؟ لقد كان الموقف حرجا ومحيرا ، ولم تطـل حيرتى وأثرت أن أقول ما أعتقده فى هذا الموضوع .

فأجبت الفتى الذى كان يطيـل النظر الىمتعجلا الاجابة ، قائلا : « الحق يابنى أن الأرض كـرة ، وأنها تدور ، والقـرآن الـكريم لا ينفى هـذا لا صراحـة ولا ضمنا » .

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شده الفتى ، وفغر فاه واستدارت عيناه وأخذ يتراجع الى الوراء مما جعلنى أشفق عليه وأشفقعلىكثير من أمثـاله الذين حيـل بينهـم وبين العلم باسم الدين الذىيدعو الى التعلم ويقدر العلماء .

ليس الذهول الذى أصـاب الفتى هو كل ما حـدث بل ان الجمع الغفير من أهل الحى الذى خرج يودعنى كعـادته بعد كل محاضرة انفض من حولى دونتحية أو استئذان والله وحده يعلم ماكان يجول فى خاطرهم وما يعتمل فى صدورهم .

عدت الى بيتى مهموما ، كيـف السبيل الى قلوب هؤلاء الاخـوة لافهامهم أن الاسلام يدعـو الى العلم ولا يعاديه وأن ما فهموه فى

هذا الموضوع وغيره هو من أقوال المفسرين وبالتدقيق قول بعض المفسرين لا قول القرآن نفسه وأن المفسرين بشر يؤخذ من كلامهم ويرد .

ورأيت أنه لا بد للأزهر من أن يقول للمسلمين كلمته فى هذا الموضوع حتى ينفى عن الاسلام ما هو منه براء .

مضى على هذا الحادث بضع سنين ، ولا زلت أتصور هذا الشاب فى زيه البدوى وقد حز فى نفسى هلعه ونفوره ، ورأيت أننا فى أمس الحاجة الى التأمل العميق فى كتاب الله ودراسة هذه الآيات الكريمة التى يتخذ منها العلماء فى البلاد الاسلامية سلاحا لمحاربة العلم ، ولنرى موقف الكتاب الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من هذه الحقائق العلمية والتى أصبح التسليم بها ضرورة لا محيص عنها .

وبعثت الى بلد عربى آخر أسند الى فيه دراسة تفسير الجزء التاسع والعشرين لطلاب احدى المدارس الثانوية ، وكان الكتاب المقرر مؤلفا حديثا ، ولازال مؤلفه حيا يرزق الى الآن وهو أحد أئمة الحرم الشريف .

وبينما أتأهب لدخول الفصل اذا بمدرس علم الهيئة (الجغرافيا) يغادر الفصل . وبيده نموذج للكرة الأرضية ، وكان يشرح للطلبة كيف يحدث الليل والنهار ، وكان موضوع درسى أنا هو تفسير قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » الآية . وكان فضيلة المؤلف قد ذكر فى تفسير كلمة (ذلولا) ان معناها قارة ساكنة ، وهنا سألت نفسى ماذا يكون موقف هؤلاء الطلاب ، وهم يتلقون معلومات متضاربة متعارضة ، فبينما مدرس (الجغرافيا) يقول لهم : ان الأرض متحركة ، ويقيم الأدلة على ذلك مؤكدا أن سبب حدوث الليل والنهار هو دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، اذا بمدرس الدين يقول لهم ان الأرض قارة ساكنة لا تدور ولا تتحرك ولا يملك دليلا على

ذلك الا كلمة (ذلولا) فى القرآن الكريم ، حسب تفسير المفسر فى الكتاب المقرر عليهـــم دراسته . وليست هذه المعلومات نافلة عـلى الطلبة بل مفروضة عليهم فرضا ، وسيؤدون فيها امتحانا آخر العام فهو يقول فى ورقة الـــدين ان الارض قارة وساكنة ، فاذا قـال انها تدور وانها متحركة رسب فى مادة الدين . واذا قال انها قارة وساكنة فى ورقة الجغرافيا رسب فى مادة الجغرافيا ! !

لا ريب أن هـؤلاء الطلبـــة سيقفون حيارى بين العلم وبيـن الدين ، وأنهم ولا شك سيتهمـون رجل الدين بالجهل والقصـــور ــ ان تورعوا عن اتهـــام الدين نفسه ــ لأنهـم الآن يقـــرءون ويسمعون ويشاهدون فى برامـج الاذاعة المرئيةالصواريخ ، والأقمار الصناعية ، وهبوط الانسان على القمر وتنقله فوق سطحه ، ويرون صورة الأرض المأخوذة من أجهزة الهبوط على القمر ، يرون صورة الأرض كرة هائلة ويدرسون فى حصة العلوم أن مضممى الصواريخ والأقمار الصناعيـــة وضعوا فى اعتبارهم دورة الأرض ! !

وهنا تذكرت كلمة لحجةالاسلام الامام الغزالى فى كتابه تهـــافت الفلاسفة فى مثل هذا الموقف حين ادعى علماء المسلمين ان الفلكيين خرجوا على الاسلام فى تنبئهـم بالخسوف والكسوف . قال حجة الاسلام :

« ان من ظن أن المناظـــرة فى ابطال هذا الفن من الدينفقد جنى على الدين نفسه وضعف أمره ، فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا يخفى معهـا ريبة فمن يطلع عليها ويتحققأدلتها حتى يخبـر بسببها عـــن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدةبقائهما الى الانجلاء اذا قيل له ان هـذا على خلاف الشرع لميسترب فيه ، وانما يستريب فى الشرع نفسه اهـ .

من الطبيعى أننى لم أتقيد بمـا قاله المفسر وانمـــا فسرت كلمـة « ذلولا » بأنها مهيأة لما يريد منها الانسان فهـو يستزرعها فتـزرع

ويستخرج منها ما يحتاجه من غذاء وكساء وعلاج ويستمتع بما أودع الله فيها من خيرات .

وخرجت من الدرس وقد عاودنى العزم على التأمل بعمق فى كتاب الله عز وجل ، وخاصة الآيات التى تشير الى الكون وما فيه ، الا اننى ما لبثت أن درت فى دوامة الحياة وقد رسبت كلتا الحادثتين فى نفسى ، تطفوان فى هدأة من الحادثات تطالباننى بعنف أن أؤدى واجبى وآتى بما اعتزمت عليه ، ثم تعودان الى الأعماق مرة أخرى أمام زحمة الحياة وضجيجها .

ولكم تمنيت أن تتاح لى فرصة أخلو فيها الى كتاب الله تبارك وتعالى ، لا ينازعنى فيه منازع ، ولا يصرفنى عنه ما يصرف سائر الناس من هموم الدنيا ومطالب الحياة التى لا تنتهى الا بانتهائها ، الى أن واتتنى لحظة كريمة لفظنى فيها تيار الحياة على الشاطىء ، ومضت الحياة فى سبيلها عجاجة صاخبة وعادت الى نفسى مكدودة لاغبة مما عانت فى موكب الحياة .

وتحسست ثيابى — وقد عييت مما لقيت — فأخرجت منها مصحفا كان ذخرى الوحيد الذى احتفظت به بعد أن تخففت من كل ما يتصل بالدنيا بسبب ، وكان كتاب الله الكريم فى هذه الحقبة من العمر الروح والريحان ، عشت فى رحابه الواسعة صباح مساء لا ينازعنى فيه هم العيش ، ولا ينزعنى من رياضة الغناء الفينانة مطلب من مطالب الحياة ، وكانت حياة روحية ، أكرم بها من حياة ! !

وبدأت صور الماضى تتلاحق وتتوارد ، وكان أبرزها صورة الفتى العربى وهو يرتدالى الوراء مذعورا ، وصورة الطلبة الذين ألزموا باسم الدين أن يعتقدوا أن الأرض قارة ساكنة ، وأيقنوا عن طريق العلم أنها متحركة دائبة الدوران والحركة ، فقلت : لقد جاءت اللحظة التى طالما تمنيتها ، فها أنذا وكتاب الله ، وعلينا باب أحكم رتاجه ، لا ينغص علينا هذه الخلوة الحبيبة أحد .

وعدت الى كتاب الله الكريم أنعم باستعادة حفظه ، وبالتأمل

فى آياته والتـــدبر فى أسلوبه وعباراته ، ولم العجلة وفيم ؟ وقد كفيت مشاغل الحياة .

ولقد وجدت كثيرا من آيـات الله البينات التى تشير الى التأمـل فيما خلق الله فى الكون ، وفيمـا بث فى الآفاق من دلائل قدرته وآيات وجوده ووحدانيته وجدتها كلهـا تؤيد بأسلوبها المجـرد عن تفسير المفسرين وبلفظها الصريح الواضح النظريات العلمية الحديثة التى وقف علماء الاسلام منها موقف الحرب والعداء .

وكان حـــريا بالمسلميـن أن يكونوا أسبق الناس الى القول بها فقد تنزل الكتاب بها عليهم . ولم يحل بين المسلميـن وبيـن فهمها على وجهها الواضح الا ما تطـوع به بعض المفسرين ، فوضعـوا لهـا تفسيرا صرف الآيات الكريمة عن ظاهرها ومدلولها .

والمسلمـون كانوا ولا يزالون ينزلون التفسيـر نفس المنـــزلة المقدسة التى ينزلها من نفوسهـم كتاب الله عز وجل . فليس لهـم أن يجادلوا فيما قاله المفسرون كما ليس لهـم أن يجـادلوا فى كتاب الله الكريم ذاته ! !

وسترى معى حين نستعرض هذه الآيات الكـريمة ـ فى مقـالات لاحقة ـ ان أذن الله ـ أنهـا لا تتعارض مع العلم ، بل ان العلم وما يتجدد من اكتشـافات يزيدنا فهما لكتاب الله تعالى ، ويكشف لنا عن معان جديدة لم يكن السبيل الى ادراكهـا ميسرا قبل هـذه الاكتشافات .

ومن هذه النظريات التى يؤيدها كتاب الله تعـالى دوران الأرض وكرويتها . لو أننا فسرنا هـذه الآيات بمدلولها اللفظى وحده .

والتفسير بما وضعه العـرب لمدلول اللفظ مسلم به ومعتـرف به ما لم يتعارض مع نص صريح صحيح .

روى البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم فقال :

« حدثنا محمد بن سـلام قال أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف عن الشعبى عن أبى جحيفة قال :

قلت لعلى : هل عندكم كتاب ؟ قال : « لا » الا كتاب الله وفهم أعطيه رجل مسلم • الحديث •

قال الكرمانى فى شرحه هذا الحديث ص ١٢٠ فى بيان مايؤخذ منه : « وفيه ارشاد للعالم الى أن للعالم الفهم أن يستخرج من القرآن بفهمه ما لم يكن منقولا عن المفسرين لكن بشرط موافقته الاصول الشرعية : اهـ •

واذن فلا تثريب على من فهم من كلام الله تعالى ما يؤيد ما أجمع عليه العلماء الكونيون وان لم يقل به أحد من المفسرين خاصة اذا كان هذا الفهم هو المطابق للمدلول الوضعى للفظ فى لغة العرب ، ولا يصادم قاعدة لغوية ولا أصلا شرعيا •

وحين يخبر القرآن الكريم بأحدث النظريات العلمية ، أو يكون أوضح دلالة وأجلى بيانا حين يتكشف العلم عن جديد ، لم يكن معلوما عند وضع المفسرين تفسيرهم • انما يحمل أنصع الأدلة على أنه وحى من الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى لأن الوقت الذى نزل فيه القرآن الكريم وبعث فيه أفضل الخلق رسولا كانت الجهالة فيه مطبقة على العالم ، آخذة بتلابيبه ، ولم تكن ثمة أثارة من علم أو مراصد ، أو آلات دقيقة ولا وسائل بحث حديثة •

فاذا تقدمت وسائل العلم ، وخرج العلماء على الناس بجديد فوصلوا اليه بالبحث العلمى المجرد ، بل كان من وصل الى هذا المعلوم الجديد بعيدا كل البعد عن الاسلام ، وما قاله القرآن الكريم ، ثم يستبين لهم أن القرآن الكريم المعجز سبقهم الى ما قالوا وما علموا بمئات السنين ، وأن ما أتوا به يتفق مع منطوق الكتاب الكريم ومدلوله كان ذلك آية لا ريب فيها بأن هذا الكتاب هو الحق وأن رسوله حق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » •

ويجب أن أقرر هنا قبل أن أنتقل الى بحث تفسير هذه الآيات أن القرآن المجيد لا يتعارض أبدا

مع العلم الصحيح بل يؤيد العلم ويشجع البحث الحر الطليق . ويأخذ بيد من يريد الوصول الى جديد من العلم فيشير له الى وسائله ومظانه قال تعالى فى سورة يونس :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

وفى سورة الذاريات :

« وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون » .

وقد بلغ علماء المسلمين الأوائل الحد الأقصى فى حث المسلمين على البحث والتفكر حيث حكموا بأن ايمان المقلد غير معتبر ، وأنه لا ينبغى أن يكون حظ المسلم من الايمان أن ورثه عن آبائه دون اعمال فكر أو بحث بل لا بد ليكون ايمان المسلم معتبرا من أن يبحث ويفكر حتى يصل عن طريق البحث الى ايمان مرتكز على دليل، وهذا غاية ما يمكن من الدعوة الى البحث والتشجيع على العلم والتعلم .

ولا يمكن لدين هذا شأنه أن يتعارض أبدا مع ما يأتى به العلم من حقائق فلم هذا العداء للعلم الذى يفخر به ـ للأسف ـ كثير ممن تصدوا لامامة المسلمين ولبسوا زى العلماء ؟

ومما يزيد الأمر بلاء وخطورة أن يدعى هؤلاء أن ما أتى به العلماء الكونيون من العلم يتنافى مع القرآن العظيم ! ! سبحانك هذا بهتان عظيم .

لما تقدم ولغيره يجب أن يعاد النظر فى تفسير الآيات الكريمة المتعلقة بالكون ، وألا نلقى بالا لما قاله بعض المفسرين فى تفسيرها ما لم يستند الى نص صريح ونقل صحيح فلقد كان لتفسير هذا البعض أثره البالغ فى تخلف المسلمين عن غيرهم فى مضمار العلوم الكونية مما أدى الى تأخرهم فى استغلال العلم والاستفادة به فى تقدمهم اقتصاديا وعسكريا .

وعلى من يتصدى لهذا التفسير أن يتقيد بمدلول الآيات القرآنية وما تتسع له ألفاظها الشريفة من معان .

وسأسير ان شاء الله فى فهمى لهذه الآيات وفى كتابتى عنها على التقيد بالنص القرآنى وما يتسع له من معان صريحة أو مجازية ذلك أننى مؤمن بأن القول الفصل فيما خلق الله فى السموات والأرض انما هو لله خالقه وبارئه ومبدعه وهو بحكم خلقه له يعلمه جملة وتفصيلا .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . فاذا قال الله فى ذلك شيئا فقوله الحق » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

فالأصل عندنا كتاب الله تعالى فليس لنا أن ندع صريح القرآن ومحكمه لقول قائل مهما كان .

فما أتى به العلم من جديد بما لم يتعرض له القرآن الكريم باثبات أو نفى علينا قبوله متى توفرت له الوسائل الصحيحة وقامت عليه الأدلة القاطعة .

وماتعرض له المفسرون نأخذ منه ما يتفق ومدلول القرآن وندع ما يخالف صريحه ومحكمه مهما كان القائل ومهما أتى به من عجائب تخدع الأبصار وتزيغ بها البصائر .

فانه مادام مخالفا لصريح الكتاب ومحكمه لا يلبث أن ينكشف زيفه ويتبين ضلاله ، ويبزغ الحق فى غير جانبه ، لأنه جاء بما يتعارض مع القرآن الكريم ويخالفه ، واليكم هذا المثل :

« نظرية النشوء والارتقاء التى أتى بها داروين لاقت قبولا ورواجا ولمعانا قل أن تلاقيها نظرية أخرى ولقد طبقها داروين على جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات، وبالنسبة للانسان ادعى داروين أن الانسان أول ما وجد على الأرض لم يكن بهذه الكيفية وانما كان كائنا آخر أقل وأدنى حتى صار قردا ثم تطور الى صورته الحالية.

ونحن كمسلمين لا يمكن أن نقبل ما تقوله هذه النظرية أو ما يقوله داروين بالنسبة للانسان ونشأته وتطوره لأنه يخالف صريح القرآن الكريم فى خلق الانسان وفى أصل خلقته ، يقول الله تعالى فى سورة التين :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » .

ولقد أتى على الناس الثلاثينات كانوا يعتنقون هذه النظرية كأنهم يعتنقون دينا . ولقد كان المعارض لها محل سخرية وتجهل ممن لا حظ لهم من العلم الا الاعجاب بمـــا يقوله داروين .

وها نحن الآن والحمد لله نجد معارضة جدية لمقالة داروين لا من أنصاف المتعلمين والعلماء ولكـــن معارضة من علماء توفـــروا عـــلى البحث بوسائل علمية جادة واصبح من يقول بنظـــرية داروين بالنسبة للانسان والحيوان محل استهـــزاء وسخرية بعد ما كان محـــل تقدير واعجاب .

ومما يؤسف له ــ مع ما ثبت من كذب القـــول بتطور الانسان والحيوان ــ أننا لازلنا نرى الكتب المدرسية وخاصة فى رياض الأطفال للبـــراعم الصغيـــرة فى المـــدارس الابتدائية تصور الانسان فى أول عهده بالحياة قردا كبيرا يتســـلق الأشجار ويمســـــك بعصا غليظة وجسمه مغطى بشعر كثيف ممـــــا يؤثر تأثيرا ضارا فى تصور الطفل للانسان ويؤثر بالتالى على عقيدته وايمانه بقول الله تعالى : « لقـــــد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

فهل يتنبه المسئولون عن التعليم فى بلدنا الى هذه الظاهرة ؟

والى لقاء ان شـــــاء الله .. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

عزت الدسوقى

الأزهـــر جامعًا وجامعة
أومصـــر فى ألف عـــام

للأستاذ محمد كمال السيد

— ١٠ —

ذكرنا فى المقال السابق كيف أن العلماء — وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف — اجتمعوا بمنزل محمد على باشا فى ١٣/٥/١٨٠٥ م (١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ) وقرروا عزل أحمد باشا خورشيد الوالى العثمانى • وتعيين محمد على باشا واليا على مصر • وأن خورشيد رفض هذا القرار قائلا انه معين من السلطان فلا يعزل من الفلاحين •

وتحصن خورشيد فى القلعة • ونادى السيد عمر مكرم فى الناس بالجهاد وحمل السلاح • والاستعداد للمفاجآت باقامة المتاريس والسهر ليلا •

وحاصروا القلعة • ومنعوا عنها المؤونة والمياه • وكان قرار عزل خورشيد قد أثر فى بعض أتباعه • فنزل الكثيرون من القلعة• وانفض عنه فريق الانكشارية• وبقيت معه طائفة من الأرنؤود لأغراضهم الشخصية •

وفى المدينة طالب الجند محمد على بنفقاتهم ومرتباتهم • فقال : عندما ينزل أحمد باشا خورشيد من القلعة • فتركوه وتخلوا عن مواقفهم • فلم يفت هذا فى عضد السيد عمر مكرم • وأوقف مكانهم بعض الأهالى •

وأصبح السيد عمر مكرم هو المحرك للثورة • بادى النشاط • كثير الحركات • يلهب حماسة الشعب • ويرتب الأقوات والمؤونة للمحاربين •

وضربوا من القلعة مدافعهم على المدينة • مركزين على بيت محمد على بالأزبـكية • وعلى جهـــة الأزهر • فازداد الشعب اصرارا• وأمكن نقل مدفع كبير كان قد تركه الفرنسيون بقلعة قنطرة الليمـون (قرب ميدان رمسيس) وطلعوا به الى أعلى الجبل • وأخـذوا يطلقون منه القنابل على القلعة •

ونود أن نذكر هنا مناقشـــة حصلت بعد قرار عـزل خورشيد بين السيد عمر مكرم وبين مـن يدعى عمر بك الأرنؤودى من أنصار خورشيد • فقد قال عمـر بك : كيف تعـزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » • فأجاب السيد عمـــر مكرم : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل • وهذا رجل ظالم • وجـــرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة • وهذا شيء من زمـان • حتى الخليفة والسلطان اذا سـار فيهم بالجور فانهـم يعـــزلونه ويخلعونه •

تقرير الدولة لولاية محمد على

واستمر الحال كذلك ما يقرب من شهرين • استمرار حصار القلعة وتبادل النار بين الفريقين • حتى ورد فى ١٨٠٥/٧/٩ (١١ ربيـع الآخر سنة ١٢٢٠ هـ) رسول من الدولة يحمل قرارا بتعيين محمد على باشا والى جدة سابقا واليـا على مصر • ابتـداء من ١٨٠٥/٦/١٨ (٢٠ ربيـع الأول سنـة ١٢٢٠ هـ) • وعـزل خورشـيد باشا وأمره بالسفر للاســكندرية والاستقرار هنـاك لحين صدور أوامر أخرى •

وحصلت مناوشات فى المدينـة بين العسكر والأهالى بسبب تعدى العسكر •

وأصبح اسم السيد عمر مكرم ملء الأفواه والأسماع • ورياسته واضحة ظاهرة • فدبت فى نفوس بعض العلماء روح الغيـرة • أو روح التعقل • واجتمعـــوا فى الأزهـر • وقـرروا فتح الجامع ومعاودة الـدروس • وأن يكف الشعب عن الحـرب ويتفـــرغ لأعماله • وأن يترك معالجة الموقف

لمحمد على ما دام قد أتاه قـــرار الولاية • وأبلغـوا محمـــد على بذلك •

ولم يرتح الشعب لهذا القرار • فهم اذا تركوا السلاح أصبحـوا تحت رحمة العسكر • وراجعـوا السيد عمر مكرم فاعتـذر بأنه لم تكن له يد فى القرار •

ورفض خورشيد باشا قـــرار العـزل • وأرسلت الدولة قبطانا على رأس قـــوة بحـــرية الى الاسكندرية • فاضطر خـورشيد للخضوع • وسـلم القلعـــة فى ١٨٠٥/٨/٥ (٩ جمـادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ) وسافر من بولاق فى ١١ أغسطـس بحـــرا الى الاسكندرية •

قمة النفوذ للعلماء :

وهكذا أمكن للعلماء فـــرض ارادتهم على الدولة • بعزل الوالى المعين منها • وتعييـــن وال آخـر باختيارهم • وكان آخر ما وصلوا اليه من النفوذ قبل ذلك هو عزل الوالى وتعيـين قائمقـام لحـين وصول قـــرار من الدولة بتعيين غيره •

وكانت هذه الحركة هى القمـة فيما وصل اليه علماء الأزهر مـن النفوذ السياسى والأدبى • وبعـد ذلك أخذ شأنهم فى التناقص •

ولاية محمد على

ونمر سريعا على السنوات الأربع التالية •

لم تهدأ القاهـــرة بعد سفـر خورشيد باشا • فقـد زاد تعدى العسكر على الأهالى بحجة نفقاتهم ومرتباتهم المتأخرة • وكانت طائفة الدلاة بما كانوا عليـه من ضعف الوازع الدينى والأخـلاقى مـن أشد الطـوائف ايذاء للنـاس • واضطر محمد على لفرض ضرائب جديدة •

وكان الأمـــراء المماليك قـد وصلوا بقواتهم خارج القاهـــرة يرقبون تقلب الموقف•وأمكن لفريق منهم كسر باب الفتوح ودخلوا المدينة بمواكبهم • وذهبوا الى بيت السيد عمر مكرم فامتنع عن مقابلتهم • فذهبوا الى بيت الشيخ الشرقاوى ولحق بهم السيد عمر مكرم هناك• فطلب العلماء من امـراء المماليك

خروجهم بجنـدهم من المدينة . فخرجـوا من باب البـرقية . اذلم يجدوا الترحيب الذى كانوا يتوقعونه أو يأملون فيه .

وكانت طائفة أخرى منهم قـد واصلوا سيرهم حتى قـرب باب زويلة (بوابة المتولى) فحاصرهم العسكر والأهالى هناك وقضـوا عليهم .

وعين محمـد على الكشاف (المحافظين تقـريبا » للاقاليم . وخرج كل كاشف لجهته يحـارب من فيها من المماليك . وخـرج الجند من القاهرة لمحاربة المماليـك فى المديريات القريبة منها . مثل الجيزة والقليوبيـة والمنوفية . وفرضوا الضرائب على البـلاد . وفعلوا ما اعتادوا عليـه من نهب وسلب وخطف وهتك أعراض . وتكررت الصورة فى هذه المحاربات ممـا لا داعى للاطالة فيـه حتى لا نخرج عن الموضوع الأصلى .

قرار من الدولة بعزل محمد على وتمسك العلماء بولايته :

وفى يونية سنة ١٨٠٦ م (ربيع الآخر سنة ١٢٢١ هـ) وصل الى الاسكندرية قبطان مبعوثا من الدولة على رأس قوة بحرية . ومعه قـرار بعزل محمد على . وتعيـين وال خلافه اسمه موسى باشا . وبالعفو عن الامراء المماليك بشرط قيامهم بالخـراج والضرائب ومـرتبات الحرمين بالحجاز من عوايد نقدية وغلال ومهمات . وبشرط ضمان العلماء لهم . وكان هذا التحول فى سياسة تركيا نتيجة لمساعى الانجليز تنفيذا للاتفاق السابق بينهم وبين محمد بك الألفى .

وقرر محمد على عدم الخضوع لهذا القرار . وأخذ يزود القلعـة بالمؤونة والذخيرة .

واستكتب محمـد على العلماء مكتوبا للدولة يذكرون فيه تطـور الأحوال التى أدت أخيرا الى قرار ولاية محمد على . وأنهم خاضعون لأوامر الدولة . ولكنهم يرجـون اعفاءهم من ضمان المماليـك فـلا سلطة لهم عليهم . ولما تكرر من خيانتهم بقتل على باشا الطرابلسى وسلب الأموال والهجـوم على القاهرة لولا وجود محمد على .

وأثنوا فى هذا المكتوب على محمد على وكفاءته • وان ما فرضه من الضرائب كان ضرورة لحـــرب المماليك المخلين بالأمن والنظام •

وأرسلوا من هذا المـكتوب صورتين احداهما للسلطان والثانية للقبطان •

وكان القبطان من جهة أخـرى قد راسل أمراء المماليك • وقـرر عليهم مبلغا من المال نظير تمكينهم من العودة للحكم • ولكن أمـراء المماليك ــ كعادتهم قـد اختلفوا فى توزيع هـذا المبلغ بينهـم • وحاول كل منهم أن يخفض نصيبه ويؤجله حتى يدفع الباقون •

وفى الوقت نفسه أمكن لمحمد على الاتصـال بالقبطان • وأعطاه أكثر مما طلبه من الأمراء وماطلوه فيه • واتفق معه أن يكتب العلماء والأعيان ورؤساء العسكر طلبـا للدولة يعلنون فيه تأييدهم لمحمـد على واطمئنانهـم لحـكمه • لمـا توسموه فيه من العدل والانصاف • ومحاربة العربان المعتـدين على الأهالى بكل أنواع الاعتداءات • وأن جميع البلاد فى عهده فى غاية من الراحة والاطمئنان والأمـن برا وبحرا بحسن سياسته وامتثاله للأحكام الشرعية ومحبته للعلمـاء وأهل الفضائل •• الخ •

ووقع العلماء على الطلب دون مناقشة • ولم يطلع أكثـرهم على تفصيل ما ورد فيه (الجبـرتى)

وسافر بالطلب ابراهيم بك بـن محمد على (ابراهيم باشـا فيما بعد) ليقـوم مع القبطان الى استانبول • وزوده أبوه بهـدايا كثيرة للسلطان ورؤسـاء الدولة هناك • وسافر معهمـا موسى باشا الذى كان مرشحا للولاية •

ووصل من القبطان قبل سفره استجابته لطلب العلماء واستمـرار محمد على فى ولايتـه على مصر مادام حائزا على ثقة الخاصـة والعامة بشهادة العلمـاء واشراف الناس •

خصومة بين العلماء :

وأوغر بعض العلماء ــ منهـم السيد محمد الدواخلى والسيـد عمر مكرم ــ صدر محمد على ضد

الشيخ الشرقاوى • فأمره بملازمة داره وألا يخرج منها الا لصلاة الجمعة • وظل هكذا شهرا حتى توسط له القاضى • فقال محمد على : أنا لا ذنب لى ولكن الخلاف بينه وبين زملائه فاستأذنه فى فى مصالحتهم • وأولم لهم وليمة • وتصالحوا ولكن على ضغن •

واستمرت المحاربات بين محمد على المماليك • وركز محمد بك الألفى قواته فى الجيزة والبحيرة• وسيطر عليهما بقواته وعربانه • ونهب قراهما • ولكن استعصت عليه دمنهور بفضل ما كان يرسله لها السيد عمر مكرم من الامدادات والتشجيع لأنها كانت فى التزامه•

وفاة الألفى

وتوفى محمد بك الألفى فجأة فى ١٨٠٧/١/٢٩ (٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ) • ففقد المماليك ركنا هاما • ولما بلغ محمد على خبر وفاته قال : « الآن ملكت مصر » •

ومات أيضا بمنفلوط عثمان بك البرديسى • وقبلهما كان توفى محمد بشتك الملقب بالألفى الصغير •

استيلاء الانجليز على الاسكندرية

وكان الاتفاق بين الألفى والانجليز أن يحضروا الى مصر لمساعدته • وفعلا وصلوا الاسكندرية واستولوا عليها فى ١٨٠٧/٣/٢٠ (١٠ من المحرم سنة ١٢٢٢ هـ) • ولكنهم وجدوا الألفى قد مات • فراسلوا المماليك بالصعيد أنهم حضروا لنصرتهم • ولكن تفرق رأى المماليك • وتسجل لأحدهم وهو عثمان بك حسن — وكان من أكبرهم قوة — أنه رفض أن يختم حياته بعد جهاده للفرنسيين بالاستعانة بالأفرنج لينتصر بهم على المسلمين •

وأظهر العسكر الجبن • فقد هربوا من الاسكندرية الى دمنهور• فلما رأوهم عسكر دمنهور هاربين خرجوا أيضا وعلى رأسهم الكاشف الى قوة • وتركوا الأهالى يواجهون الخطر وحدهم •

وحاول الانجليز بعد نزولهم الاسكندرية بأسبوعين الاستيلاء

على رشيد فى ١٨٠٧/٤/٣ ولكن الأهالى كانوا مستعدين • فما أن توسط الانجليز المدينة حتى أطلقوا عليهم النيران من النوافذ وأعلى المنازل والأزقة والحارات • فحصدوهم • وقتلوا الكثيرين • وأرسلوا الباقين أسرى الى القاهرة •

ولما سمع كاشف دمنهور الخبر تشجع وعاد الى المدينة• وبلغ خبر نزول الانجليز محمد على وهو بالصعيد يحارب المماليك فأسرع بالعودة الى القاهرة •

وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد والمتزعم حركة المقاومة بها يطلب النجدة • لأن الانجليز سيعاودون محاولة الاستيلاء على المدينة • فقرأ السيد عمر مكرم الخطاب على الناس وحثهم على الجهاد • ولكن منعهم الكتخدا حتى يحضر محمد على •

والكتخدا أى الوكيل كان وقتذاك محمد بك لاظ أوغلى المنسوب له الميدان والتمثال بجهة الوزارات بحى الناصرية • وقد ذكرنا فى مقال سابق أن التمثال المذكور ليس لشخصه بل لسقاء كان يشبهه • فانهم لما أرادوا عمل تمثال له فى عهد اسماعيل لم تكن للاظ أوغلى صورة • فوجدوا هذا السقاء شبيهه • فألبسوه وعملوا على رسمه التمثال الموجود الآن (اسماء ومسميات من تاريخ القاهرة لكاتب المقال تحت الطبع) •

ولما حضر محمد على رفض خروج الأهالى • وقال ان القتال واجب العسكر • وعلى الأهالى فقط المساعدة بالمال • وقرر مبلغا ألزم السيد عمر مكرم بتحصيله •

واستعد محمد على للسفر • ولكن وصلت الأخبار بتغلب الأهالى على الانجليز • وأنهم طردوهم من الأماكن والقرى التى احتلوها بين رشيد والاسكندرية• ووصل الأسرى منهم مئات • والقتلى مئات • فقطعوا آذان القتلى وملحوها وحنطوها لارسالها بأخبار النصر الى استانبول •

وكان جزاء أهـل رشيد من العسكر عقب هذا الانتصار أن نزل العسكر المدينة ونهبوها • فتعرض لهم السيد حسن كريت • ورحل الكثيرون من أهـل رشيد الى القاهرة بعائلاتهم •

وتأخر سفر محمـد على الى الاسكندرية بسبب مناوشات بينه وبين المماليك حول القاهرة • فقد كان لما علم بقدوم الانجليز قد لاينهم وأوعدهم الوعود•واسترضى بعضهم • واستعصى عليه البعض الآخر •

وأخيرا سافر محمـد على الى الاسكندرية • واتفق على جلاء الانجليز عنها فى سبتمبـر سنة ١٨٠٧ • وعاد الى القاهرة فى أوائل اكتوبر •

وقد ذكرت نزول الانجليز ثم جلاءهم بفضل الشعب وقياداته فى رشيد والقاهرة لاستكمال تسلسل الحوادث •

الجفاء بين محمد على والسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط

استمر فرض الضرائب• واستمر ايذاء العسكر للناس• وكان محمد على يقرر الضرائب للنفقات المتزايدة للعسكر • ويترك للسيد عمر مكرم توزيعها على الأهالى وتحصيلها منهم فكأن السيد عمر مكرم فى نظر الناس هو المتسبب فيها مما أحرج مركزه •

وكان الاتفاق بين محمد على والعلماء عندما أقاموه واليا فى مايو سنة ١٨٠٥ ألا يبت فى شأن من الشئون • أو يفرض ضريبة • الا بعد رأيهم وموافقتهم •

ولكن محمد على استبد بالأمر• ولم يراع هذا الاتفاق • مما جعل السيد عمر مكرم يطلق لسانه بانتقاد محمـد على وتصرفاته • وكان السيد عمر صريحا كطبيعة الأحرار • فدار ما فى نفسه على لسانه فى مجالسه • ونقل أصحاب الأغراض هذه الأقوال الى محمد على ومبالغا فيها •

وكان الساعون فى هذه الوقيعة الشيخ محمد السادات والشيخ محمد المهدى والسيد محمد الدواخلى •

وكثـــرت الضرائب • وضج الناس • وذهبوا يشـكون الى شيوخ الأزهر • فاجتمعوا بقبـلة الجامع • وحضر معهم السيـــد عمر مكرم • وكتبوا شكوى الى محمد على يطلبون رفـــع المظالم والضرائب المستجـدة • ومـــال الأواسى والرزق • وختم الأمتعة • وغير ذلك من الأنواع التى ابتدعها محمد على لزيـادة مـــوارده • وتعاهدوا على الاتحاد •

والأواسى جمـــع أوسية وهى المساحة التى كانت تخصص أصلا لصاحب الالتزام يزرعها لنفســه • والرزق جمع رزقة• وهى مساحات كانت تخصص ايراداتها للمساجد والأعمال الخيرية • وكان الأصـل ألا تدفع الأواسى والرزق ضرائب• ففرض عليها محمد على الضرائب•

وكان محمد على يشتد فى منع العسكر أحيانا • فيخرج بعضهـم خارج القاهرة فيعيثون فسادا فى القرى • ولكن كان ضبط جماحهم من أصعب الامور • فهـم أخلاط من الجاهلين المغرورين بما يحملون من ســـلاح • المنحطى التـربية والأخلاق • فضلا عن حاجتـه لهم فى حروبه ضد المماليك •

وبلغ محمد على اجتماع العلماء• فطلب اجتماعهـم به • ولكنهـم رفضوا • وأمكن لمحمـــد على استجـلاب المهـدى والدواخـلى لجانبه • ولوح لهما بالوعـــود • وكلفهما بملاينة السيد عمـر مكرم حتى يحضر عنده • وأنه مستعد لاجـــابة مطالب العلماء • ولكن السيد عمر مكرم أصر على موقفه وصرح بأن محمد على رجل ظالم لا عهد له • وطلبه ثانية فقال السيد عمر لا أجتمع به عنده بل أقبل الاجتماع به فى منـــزل الشيـخ السادات •

وغضب محمد على فهو الوالى الحاكم ولا يفرض عليه النـزول الى بيت أحد من الناس • وأخيرا طلبه رسميا أمام القاضى للفصـل فيما بينهما • فاعتذر السيد عمـر بأنه شرب دواء ذلك اليـوم ولا يستطيع الحضور •

وأخيرا قرر محمد على أمره • وحزم رأيه • وأمر بخروج السيد عمر مكرم منفيا الى دمياط • وتعيين الشيخ السـادات بدله نقيبـا للأشراف • وخرج السيد عمر من القاهرة تنفيذا للأمـر فى ٨/١٢/ ١٨٠٩ م (أول رجـب سنة ١٢٢٤ هـ) •

وكافأ محمد على الشيخ محمد المهدى بنظر أوقاف الامام الشافعى وسنان باشا كما ذكرنا فى ترجمة المهدى فى مقال سابق • أما السيد محمد الدواخلى فلم يستفد شيئـا غير شفاء ما فى نفسه من الحسد • ولكن لمـا توفى السـادات سنة ١٨١٣ م (١٢٢٨ هـ) عينه محمد على نقيبا للأشراف •

وقال الجبرتى : فركبه الغـرور وعمر دارهم القديمة بكفر الطماعين وأنشأ تجـاها مسجدا • ولما مات ابنه دفنه بهذا المسجـد • وتعاظم الدواخلى فركب الخيـول ولبس التاج الكبيـر •• ومشت أمامه جاويشية النقابة • وتطاول عـلى الموظفين والكتبة • وتداخـل فى أحكام القضاء • فغضب عليه محمد على وعزله من نقـابة الاشراف سنة ١٨١٦ م • ونفاه الى دسوق ثم الى المحلة الكبرى وظل بهـا حتى توفى سنة ١٨١٨ م ودفـن بها • وقال أيضا الجبرتى : ان الذى وقع لهذا الدواخلى انما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم • فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر • اهـ •

وكفر الطماعين شرقى مسجـد الامام الحسيـن • ويوجـد للآن شارع اسمه شارع السيد الدواخلى أمام كلية الشريعة بجامعة الأزهر • وبه المسجد المذكور أولا • وقـد تعدل تخطيط هذه الجهة أخيرا • وظهـر الحقد الكامن فى النفوس على السيد عمر مـكرم • فكتب الشيوخ للدولة فى حقه • واتهموه بشتى الاتهامـات منها انه كاتب امـراء المماليـك وقت الفتنـة • وأنه سعى للايقاع بيـن الباشا والعسكر • وأنه أخذ من الألفى مبلغا من المال ليملكه مصر أثنـاء

فتنة أحمد خورشيد • وأنه أدخل فى دفتر الاشراف بعض منأسلموا من اليهود والنصارى • وغير ذلك من الاتهامات الباطلة •

ولكن لا يعدم الحق انصارا • فامتنع بعض العلماء عن التوقيع• وكان على رأس الممتنعين السيد أحمد الطحطاوى الحنفى فقالوا للممتنعين : أنتم لستم بأروع ولا أورع منا • واضطهدوهم • وكان الطحطاوى شيخا للحنفية بعد وفاة الشيخ ابراهيم الحريرى بن الشيخ محمد الحريرى نسيب المهدى السابق ذكره فى ترجمة المهدى فى مقال سابق• فعزلوا الطحطاوى من مشيخة الحنفية • وظل معزولا حتى أعيد لها سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) فى مشيخة الشيخ محمد الشنوانى للجامع الأزهر •

مذبحة المماليك فى القلعة وهوان شأن العلماء :

وبعد نفى السيد عمر مكرم هان شأن العلماء فى نظر محمد على • فقد أمكنه تفريق وحدتهم • واستغلال ما فى الطبائع البشرية من المطامع الدنيوية •

فلما قضى محمد على ، على المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة فى ١٨١١/٢/٢٨ (٤ صفر سنة ١٢٢٦ هـ) لجأ اثنان من الكشاف المماليك الى الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الازهر يطلبان حمايته ووساطته فى العفو• فطلب الأمان لهما من محمد على• فوعده على أن يحضرا عنده • فلما أرسلهما قتلهما وذهبا مع الباقين•

ولما توفى الشيخ الشرقاوى سنة ١٨١٢ (١٢٢٧ هـ) اجتمع العلماء واتفقوا على تعيين الشيخ محمد المهدى شيخا للأزهر • وصافحوه وهنأوه • ولكن محمد على ضرب باتفاقهم عرض الحائط وعين الشيخ محمد الشنوانى شيخا للأزهر كما سنذكر باذن الله فى المقال الخاص بشيوخ الأزهر •

وانتصر محمد على ، على الوهابيين فى الحجاز • وعينت الدولة ابنه ابراهيم باشا واليا على الحجاز • وأصبح محمد على رجل الدولة المشار له بالبنان •

واستقـــرت له الامـــور فى الداخل • فلم يعد فى حاجـة الى تعضيد العلماء • وانطلق فى تنفيذ مشروعاته واصـلاحاته التى ليس هنا مكان ذكرها • ولكن نذكـر أن من ضمن هذه الاصلاحات نشر التعليم فى مصر على الطـــريقة الحديثة • وبدأ بارسال البعثـات الى أوربا • فأرسل ٢٨ طالبا فى المدة من سنة ١٨١٧ ــ ١٨٢٥ م• وأرسل ٢٩١ طالبا فى المدة مـن سنـة ١٨٢٦ ــ ١٨٣١ م • وكان الكثيرون من هذه البعثات من طلبة الازهر • وسنذكر بعض النابهين البارزين منهم فى المقـــال التالى باذن الله •

محمد كمال السيد

« شكر وتصحيح

نشكر الأخوة الذين كتبوا الينا لتصحيح ما ورد فى مقال « ذو القرنين يفتح المشرف » .

بخصوص ما ورد فى هذا المقال عن موقعة «مرج دابق» والصحيح ان الموقعة التى هزم فيها التتـــار هى موقعة « عين جالوت » .

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزى

جرائم القصاص وجرائم التعزير

المستشار حسن حسب الله

انتهينا فى عدد سابق من الكلام عن جرائم الحدود وتتكلم فى هذا العدد عن جرائم القصاص وجرائم التعزير •

جرائم القصاص :

جرائم القصاص هى جرائم الاعتداء على جسم الانسان سواء بالقتل أو الجرح أو الضرب ويعبر عنها فى الاصطلاح الشرعى بجرائم الاعتداء على النفس وقد كان الناس قديما وحديثا لا يرون أنهم متساوون فحينما يقتل ملك أو أمير أو رئيس أحد عامة الناس فانه لا يصح أن يقتل به وحينما يقتل أحد العظماء فانه لا يصح الاكتفاء بقتل قاتله ولا ادل على بقاء هذا الاختلال حتى الآن من النداءات والوساطات التى بذلها رؤساء بعض الدول لعدم تنفيذ حكم الاعدام فى ذو الفقار على بوتو رئيس الوزراء السابق للباكستان حينما ادين فى جريمة قتل أحد خصومه السياسيين •

ولذلك كان حرص الشريعة الاسلامية على فرض القصاص وعدم تركه لهوى الحكام يفرضونه أو لا يفرضونه ذلك لأن الناس جميعا أمام الله سواء فلا فرق بين غنى وفقير و لابين قوى وضعيف ولا حاكم محكوم فلا طبقية فى الاسلام فقد خلق الله الناس جميعا من طينة واحدة « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء — أول النساء » كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط » •

وقـد أجمع الفقهـاء على أن الحاكم أو السلطان اذا اعتـدى على أحد من الرعية وجب عليـه أن يقدم نفسه ليقتص منه اذ هو واحد منهم وان كان له مزية النظر فى شئونهم كالوصى والوكيـل ، وذلك لا يمنع القصـاص وليس بين الحكام وبين العـامة فرق فى أحـكام الله تعـالى فالاعتداء على جسم الانسـان اعتـداء على أمر لا تختلف فيـه مـراتب النـاس ولا أقـدارهم بل هم فيـه سواء فلا توجد دماء زرقاء ودماء حمراء ولذلك فرض الله القصاص حتى لا يستكين الضعيف ونفسه تغلى بالحقد والمرارة ولا يستهتر القوى بدماء الضعفاء أو يسرف فى الانتقام ان أصابه أى اعتداء .

والقصـاص هو المسـاواة بين الجريمة والعقوبة عليها فيعـاقب الجانى بأن يفعل به نفس ما فعله بالمجنى عليه كلما أمكن ذلك فان كان قتلا قتل وان كان جرحا جرح وان كان قطعا لأحد الاطراف قطع منه الطرف المماثل وهكذا .

والقصاص عقوبة مقـدرة ثبت أصـلها بالـكتاب وثبت تفصيلها بالسنة .

والاعتداء على النفس قد يكون بالقتل وقد يكون بما دونه مـن قطع أو جرح أو ضرب .

وقد نزلت فى جريمـة القتـل آيتـان .

الأولى آية مكيـة وهى قوله تعـالى « ولا تقتلوا النفس التى حـرم الله الا بالحق ومن قتـل مظلوما فقد جعلنا لوليـه سلطانا فـلا يسرف فى القتـل انه كان منصورا ــ الاسراء ٣٣ » وهذه الآية هى أول ما نزل فى القتـل على الاطـلاق .

والآية الثانية مدنية وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنـوا كتب عليكم القصاص فى القتـلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمـة فمن اعتـدى بعد ذلك فله عذاب أليم ــ البقرة ١٧٨ » .

ومقتضى الآية الأولى النهى عن القتل وتحريمه وشأن الاسلام فى ذلك شأن الشرائع السابقة ، كما أخبر الله تعالى عن التوراة « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ـ المائدة ٤٥ » ، فالنفس البشرية أيا كانت معصومة الدم ولا يباح قتلها الا بذنب تأتيه يبيح قتلها فلا يكون قتلها فى تلك الحالة جريمة منهيا عنها .

وقد أورد الكتاب والسنة الحالات التى يباح فيها قتل النفس وهى حدود البغى والحرابة وزنى المحصن والردة ومرتكب الفاحشة مع الرجال أو البهائم والقاتل عمدا دون عذر شرعى وحالات الدفاع الشرعى عن النفس أو المال أو العرض فقد وردت السنة باباحة القتل دفاعا عن هذه الأقسام الثلاثة من الحق بشرط ألا تكون هناك وسيلة للدفاع عنها الا القتل وهذه مسألة تقديرية تترك لقاضى الموضوع يفصل فيها حسب الظروف المحيطة بالزمان والمكان .

ويشترط فى القتل الموجب للقصاص أن يكون ظلما أى بغير حق كما ذكرنا أى عدوانا وأن يكون عمدا ذلك أن للقتل الخطأ حكما آخر نص عليه الكتاب صراحة فى قوله تعالى : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ـ النساء ٩٢ » .

فقد صرحت هذه الآية على أنه لا قصاص على الاطلاق فى جميع صور القتل الخطأ .

والقتل هو ازهاق روح انسان متحقق الحياة بفعل من شأنه عادة أن يزهق الروح يقوم به انسان مؤاخذ بعمله أى شخص بالغ وعاقل .

فمتى قتل انسان عمدا وبغير حق أى ظلما وعدوانا فقد جعل

الله لوليه سلطانا بعـد القتـل فى التصرف مع القاتل بقتله .

وقد اختلف الفقهـاء فى معنى الولى الذى له هذا السلطان .

فذهب البعض الى أنه الوارث مطلقا نسبيا كانأو سببيا ذكرا كان أو انثى . وذهب البعض الى أنه هـو الوارث النسبى فقط فـلا يعتبر أحد الزوجين وليا لدم الآخر وذهب البعض الى أن الولىلايكون الا من الذكور العصبة فقط دون غيرهم من الأقارب ونرى الأخـذ بالتعميم فى معنى الولى وأن يقصد به جميع الورثة من الرجال والنساء لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « وعلى المقتتلين أن ينحجـزوا الأول — فالأول وان كانت امرأة » ويقصد بالمقتتلين أولياء المقتول الطـالبين للقصاص ويقصد بينحجزوا الكف عن طلب القصاص متى عفا أحدهم ولو كان صاحب العفو امرأة .

والسلطان الذى جعله الله للولى هو حـق طلب القصـاص دون اسراف « فلا يسرف فى القتل » فلا يتجاوز عن الحد المطلوب فلا يقتل غير القاتل ولا بكيفية غيـر التى قتـل بها المقتول فلا يمثـل بالقاتل صلبا أو تقطيعـا أو غير ذلك .

والآية الكريمة لم تعرض لبيان صـاحب الاختصاص فى القضـاء بهذا الحق أو تنفيذه اذا ما طلبه صاحبه وهو ولى المقتول وانمـا تركتهم وشـأنهم الذى كانوا يألفونه فى الجاهلية حيث لم يكن بمكة حكومة اسـلامية يمكن أن يعهد اليها بشىء من ذلك .

فلما نشأت الحكومة الاسلامية فى المدينة وأصبح للمسلمين حاكم يقضى وينفذ فيما يقع بين المسلمين من خصومات . نزلت الآية الثانية وبينت أن القصـاص قـد أصبح « فرضا » فى شأن من قتل عمـدا بغـير حق وذلك باستعمالها لفظ « كتب » وأن مسـئولية تنفيـذ القصاص قد أسندت الى الحـاكم فلم تترك لصـاحب الحق وذلك بتوجيـه الخطـاب الى « الذين آمنوا » فالله سبحانه وتعالى قد خاطب جميع المؤمنين بالقصـاص

وهو أمر لا يتهيأ لهم جميعا أن يجتمعوا لتنفيذه ولذلك يقوم السلطان مقامهم فى اقامته واقامة غيره من الحدود فمتى تحققت شروط اقامة القصاص فانه لا يحل للحاكم عدم تنفيذه أو العفو عن الجانى لأى سبب من الأسباب فولى الدم فى هذه الآية لا يملك الا أن يطالب بحقه فى اقامة القصاص وليس له أن يستوفى القصاص بنفسه حتى ولو قضى به القاضى ومتى طلب ولى الدم هذا الحق فليس للحاكم الا أن ينفذ القصاص وليس له حق العفو أو التخفيف لأن هذا الحق فى العفو أو التخفيف قصرته الآية على ولى الدم وحده كما سيجىء •

وقد أثار التنويع والتقسيم الوارد بالآية « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » الخلاف بين الفقهاء فى حالة اختلاف القاتل والمقتول فى النوع كما اذا قتل رجل امرأة أو قتل مسلم غير مسلم فذهب كثير من الفقهاء الى أن المسلم لا يقتل بغير المسلم ولكن تدفع الدية ويعزر أشد تعزير واحتجوا فى ذلك بأن آية القصاص كان الخطاب فيها للمؤمنين فيكون موضوع القصاص اذا كان القتلى مسلمين كما احتجوا بحديثه صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل مسلم بكافر » كذلك ذهبوا الى أن الرجل لا يقتل بالمرأة لأن المرأة بشكل عام لا تساوى الرجل •

وذهب البعض ومنهم الامام أبو حنيفة والنووى وابن أبى ليلى الى أن المسلم يقتل بغير المسلم والرجل يقتل بالمرأة لأن الأساس فى القصاص فى الأنفس هو المساواة فى النفس الانسانية وأن ما احتج به أصحاب الرأى الأول من أن الخطاب فى آية القصاص كان للمؤمنين انما كان لهم باعتبارهم أهل التكليف وأصحاب الحكم سواء كانت الأحكام الشرعية تطبق على المسلمين وحدهم أم تطبق على المسلمين وغير المسلمين وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل مسلم بكافر » فقد ورد فى الحربى

الذى يقاتل المسلمين وهـو أمـر طبيعى فالحربى الذى يشن الحرب على المسلمين يباح لذلك دمه وهو أمـر يختلف عن غير المسلم الذى يعيش مع المسلمين وتحت الحكم الاسلامى .

والواقـع أننا لو ذهبنـا الى تحكيم الأوصـاف والتمـاثل بين القاتل والقتيل لأقامة القصـاص لاضطربت قاعدته وفاتت حكمتـه فلا يقتل الصحيح بالمريض ولا يقتل العاقل بالمجنون ، وهكذا كما أنه لا يوجد ضابط محدد يمـكن أن يتفق عليـه لبحث التسـاوى بين القـاتل والمقتـول وأن الضابط الوحيد الذى يمكن الاتفاق عليه والوثوق به هو مجـرد « النفس المحرمة » وأن سياق الآية « كتب عليكم القصاص فى القتلى » كلام مستقل بنفسه واضح فى دلالتـه وليس محتـاجا الى البيـان أو الايضاح بما بعده وأما ماورد بهـا « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » انما كان ردا على تلك العادة الجاهليـة التى كانت تسرف فى الانتقام بقتل غير القاتل فاذا قتـل من فريق منهم امـرأة انتقموا لأنفسهم بقتل رجـل من الفريق الآخر واذا قتـل من فريق منهم أحد العبيد انتقموا له بقتل أحد الأحرار من الفريق الآخر .

ومن المسـائل التى ثار عليهـا الخلاف أيضا قتـل الوالد لولده فذهب البعض الى عـدم القصاص من الوالد فى هذه الحالة واستندوا فى ذلك الى حديث « لا يقاد والد بولده » كما أحتجوا فى ذلك بأن الوالد هـو سبب وجـود الولد فكيف يصبح الولد سببا فى عـدم الوالد ويرد على هذا الرأى بأن الحديث الذى استند اليه حـديث باطل أما سبب الوجـود وسبب العدم فانه يرد عليه بأن الوالد اذا زنا بابنته فانه يرجم رغم أنه سبب وجـودها .

وعلى ذلك فان الرأى الأرجح والأصوب والذى يتفق مع مبادىء الاسلام باعتبـاره دين المساواة وشريعة الله فى كل أرضـه ولكل خلقـه هـو الرأى القـائل بأن لا اعتبار لشىء من الأوصـاف فى القصاص وعليه يقتل الحر بالعبـد

والعبد بالحر والذكر بالأنثى والأنثى بالذكر والمسلم بغير المسلم وغير المسلم بالمسلم والولد بالوالد والوالد بالولد فالكل نفس محرمة ولوليها بنص القرآن حق طلب القصاص فالقصاص فى النفس تلاحظ فيه النفس فقط والفوس متساوية .

وقد فتحت الآية الثانية من آيات القصاص بابا للتخفيف عن القاتل بقوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » فقد صرحت الآية بأن يفتدى القاتل نفسه بعرض « الدية » على ورثة المقتول (ولى الدم) فان عفا ولى الدم عنه مقابل الدية أو بدون مقابل امتنع على الحاكم تنفيذ القصاص فى القاتل .

وحق العفو لا يشترط فيه أن يكون صادرا عن جميع الورثة فيكفى أن يعفو أحدهم ليسقط القصاص .

وحق العفو لا يجوز الرجوع عنه لنص الآية : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

لأن العفو هنا لا يصدر الا عن نفس قادرة على طلب القصاص وغير مكرهة اطلاقا على العفو ولا يستطيع الحاكم تجاهل طلب القصاص ولا ايقاف تنفيذه ولذلك فان عفو ولى الدم فى الاسلام ليس عن ضعف ولا مهانة ولذلك متى عفا لم يقبل منه بعد ذلك الرجوع عن العفو وطلب القصاص .

وعقوبة القصاص من القاتل عمدا وظلما وعدوانا بقتله من العقوبات التى حرص عليها التشريع الاسلامى لقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ــ البقرة ١٧٩ » لما فيها من حفظ الحياة للناس بعدم تجاوز القاتل والانتقام ممن عداه وأخذ عدة أفراد لم يشتركوا فى القتل بجريرة غيرهم مما يشيع الاضطراب فى الحياة وعدم الأمان ولأن القاتل متى علم بأنه لن يستطيع الافلات من القتل بعد

ارتكابه جريمته وأن ماله ومكانته لن يدرآ عنه القتـل مهمـا كانت ضآلة من قتـله فانه سيفكر بدل المـرة مرات وسيعدل عن ارتكاب جريمته مهما كانت الدوافع قوية على ارتكابها ولهذا كان القصاص احياء للنفـوس وحفظا لهـا ولم تستطع التشريعات الوضعية بعـد الغاء عقوبة الاعـدام الوصـول الى هذا الغرض فان القاتل متى أيقن أنه لن يقتل فانه لا يتوقف عن ارتكاب جريمته وأهل القتيل لن يقبلوا بغير قتله بديلا مهما طال سجنه فهم يتربصـون به لقتـله أو قتل أحد من ذويه وبذلك عدنا الى الجاهلية •

هذا عن جريمة الاعتـداء على النفس بالقتـل •

القصاص فيما دون النفس

أما اذا كان الاعتداء لا يصل الى درجة القتل فان عقوبته يعبر عنها فى الاصطلاح الشرعى باسم (القصاص فيما دون النفس) •

وقد ثبت القصـاص فيما دون النفس بالاجماع وكل كتب الفقـه الاسلامى ومذاهبه المتعددة مجمعة على أحكام القصاص فيمـا دون النفس وعـلى أنه مشـروع فى الاسـلام شرعا عاما وأنه فقـه اسـلامى ، ولكن ليس من فقـه الكتاب والسنة ذلك أن الآية التى وردت بسورة المائدة•• « وكتبنا عليهم فيهـا أن النفس بالنفس والعـين بالعـين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسـن بالسـن والجروح قصاص ــ المائدة ٤٥ » مما كتبه الله فى التوراة ولا يلتزم المسلمون بشرائع من قبلهم لقوله تعالى « لكل جعلنـا منكم شرعة ومنهاجا ــ المائدة ٤٨ » والى هذا القول ذهب الشافعية وابن حـزم والشوكانى وغيرهم •

كذلك لا يصـح الاحتجـاج بالآيات « فمن اعتـدى عليـكم فاعتدوا عليـه بمثـل ما اعتدى عليكم ــ البقرة ١٩٤ » ، « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ــ النحل ١٢٦ » ، « وجزاء سيئة سيئة مثلها ــ الشورى ٤٠ » فكل هـذه الآيات نزلت فى تحـديد العلاقة بين المؤمنين والكافرين فى حـالة الاعتـداء فهى تشريع بين

الامة الاسلامية وغيرها من الامم وليست تشريعا داخليا ينظم العلاقة بين أفراد الامة الاسلامية .

هذا الى جانب أن من يقولون بالنسخ فى أحكام القرآن يرون أن هذه الآيات قد نسختها الآيات الموجبة للقتال فلا تصلح للاستدلال على فرض القصاص فيما دون النفس بالكتاب ولا تصلح أن تكون أصلا لتشريع القصاص فيما دون النفس بين المسلمين بعضهم مع بعض .

أما حديث « كتاب الله القصاص » فهو على فرض صحته حديث آحاد وقد أنكر كثير من الاصوليين صحة الاستدلال به فى فرض القصاص .

وجرائم الاعتداء فيما دون النفس قد تكون بقطع عضو من الاعضاء أو جرحه وكذلك باللطم والضرب .

ويشترط لاقامة القصاص أن تكون الجناية متعمدة وأن يكون الاستيفاء ممكنا من غير تجاوز وأن تتساوى الاعضاء التى يكون القصاص بينها من جهة السلامة والشلل والكمال والنقصان وجميع الاوصاف والمنافع فلا قصاص بين عضو صحيح وعضو أشل ولا بين يد كاملة الاصابع وأخرى ناقصتها ولا بين يد يمنى ويد يسرى .

وقد اختلف الفقهاء فى القصاص فى الأطراف بين المرأة والرجل فذهب الحنفية الى عدم القصاص فى هذه الحالة نتيجة قياسهم الاطراف على حكم الاموال وانه لا قصاص فى الاموال بل تعويض ولذلك لا يحق للمرأة عندهم المطالبة بالقصاص وانما تطالب بالتعويض .

أما جمهور الفقهاء فيرون أن أطراف المرأة وجروحها كأطراف الرجل وجروحه على سواء يجرى فيها القصاص بشرط امكان التماثل وهذا هو الرأى الاصح والاولى بالاتباع .

واذا تعذر اقامة القصاص سواء فى النفس أو ما دونها لعفو ولى الدم أو المجنى عليه أو لعدم توافر شروط اقامة القصاص التى ذكرناها سواء فى القتل أو مادونه

فان حق المجنى عليه يتحـول من القصاص المادى الى قصاص معنوى وهو ما يعبر عنه بالدية .

الدية

ظهر نظـام الدية منـذ وصلت الجماعة الانسانية الى درجـة من التقـدم وأصبحت تعتمـد على الزراعة وتوافرت لديهـا الاموال فيقوم الجـانى وأهله بتسليم عدد من رءوس الماشية لأهل المجنى عليه ليفتدى الجانى نفسه ولتعـويض الضرر الذى حل بالمجنى عليـه وبأهله وتهدئة لخواطرهم .

وقد كان مقـدار الدية متروكا لتقـدير الطـرفين يختلف تبعـا لمركز الجانى والمجنى عليه كما كان قبولها أيضا متروكا لتقديرهما ان شاءا قبلاها وان شاءا رفضاها ولجآ الى الانتقام والثأر ثم تطور هذا النظام فى بدء ظهور نظـام الدولة وأصبحت الدية اجبارية تحـددها السلطة وتلزم الطرفين بقبولها .

وقـد أخـذت كـل الشرائع القديمة بنظـام الدية فى جـرائم الاعتـداء على النفس من قتـل وجرح وضرب غير أن بعضها كان يسوى بين الافراد وبعضها الآخر كان يحدد مقدارها تبعـا للطبقـة التى ينتمى اليها الشخص . وبعض الشرائع كان يعمم تطبيقها فى حالة العمد وغير العمد وبعضها الآخـر يقصر تطبيقهـا على حالات غـير العمـد .

ثم جاء الاسلام فوضع نظـاما مرنا وشاملا للدية . فالأصل أولا اقامة القصـاص فى كل جـرائم الاعتـداء على النفس متى كانت عمـدية والدية اذا كانت هـذه الجرائم غير عمدية . واذا توافرت شروط اقامة القصـاص فللمجنى عليـه أو ورثته اما طلب القصاص واما العفو التـام واما العفو عن القصاص وقبول الدية فاذا ما طلبوا القصـاص فليس للحاكم الحق فى عدم اقامته أو أن يأمرهم بقبـول الدية واذا طلبوا الدية فليس لهـم الرجوع عنها وطلب اقامة القصاص واذا لم تتوافـر شروط اقامـة القصاص فليس لهـم الا قبـول الدية .

والدية متساوية بالنسبة لجميع الاشخاص فلا يتأثر قدرها بمركز الجانى أو مركز المجنى عليه أو أوصافه على الاطلاق .

وقد حددت السنة النبوية الدية فى حالة القتل بمائة من الابل وحددها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بألف دينار من الذهب أو اثنى عشر ألف درهم من الفضة أو مائتى بقرة أو الفى شاه وذلك بسبب ارتفاع قيمة الابل .

وقد أجمع الصحابة على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل فى حالة قتلها ، وذلك قياسا على أن ميراثها على النصف من الرجل فكذلك يكون فى ديتها . أما قطع الأطراف والجروح وغيرها فهى تنسب الى الدية فمثلا اذا قطع أصبع واحد وجب على قاطعه عشر الدية واذا قطع أصبعين وجب الخمس واذا قطع ثلاثة أصابع وجب عليه ثلاثة أعشار وتسمى الدية فى حالة القطع أو الجرح « أرشا » وقد عدد الفقهاء قيمة الارش فى كل حالة فبالنسبة لليد الواحدة تجب نصف الدية أى خمسون من الابل ، وهكذا .

وقد ذهب الشافعى الى أن « الاروش » واحدة ولا تتفاوت بين الرجل والمرأة على عكس ماهو وارد فى جريمة القتل من استحقاقها نصف الدية .

واذا كانت الجريمة على عضو لم تمكن فيه المماثلة سواء كانت الجريمة قد وقعت عمدا أو عن غير عمد فان التعويض يترك تقديره للقاضى وهو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى « بحكومة العدل » ويسرى ذلك على أغلب الجروح وسائر صور الاعتداء على جسم الانسان فيما دون القتل .

والذى نراه بالنسبة لتقدير « الدية » و « الأرش » أنه لا يمكن التمسك بما جرى عليه العمل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحديد بعدد معين من الابل .

وقد ثبت أن خليفة رسول الله قد خرج على هذا التقدير بسبب

ارتفـاع أسـعار الابل وفـرض تقديرات أخرى .

ولذلك لا نرى ما يمنـع مـن تقدير الدية بمبلغ من المال بالعملة السائدة فى بلد المجنى عليـه وأنه لا يوجد ما يمنـع من أن يختلف هذا المبلغ من بلد لآخر وفى نفس البلد لا يوجد ما يمنع من تعديله من وقت لآخر وأن القيد الوحيد فى تقدير الدية هى أن تكون مبلغا واحدا لا يتفاوت بأوصاف الجانى أو المجنى عليه أخذا بالأصل القائم عليـه التشريع الاسـلامى وهـو المساواة وأن هذا الرأى هو الذى يتفـق مع النظـرة الى التشريع الاسلامى كتشريع شامل موجه الى كل بنى الانسـان فى كل زمـان ومكان .

أما التعويض عن القطع والجرح والضرب فيجب أن يترك تقـديره للقضاء يفصل فيـه بالتعـاون مع أهل الخبرة .

والجانى فى جرائم الاعتداء على النفس فى جميع صور هذا الاعتداء لا يفلت من العقاب بمجرد العفو التام أو العفو عن القصاص وقبول الدية وانما يعـاقب رغم ذلك على أساس أن ما ارتكبه يشكل جريمة من جرائم التعزير ولا يملك المجنى عليه أو ورثتـه اعفاءه من هـذه العقوبة كما لا يملك الجانى رفعها عن نفسه مهما قدم من أموال .

جـرائم التعـزير

التعزير معناه التأديب ..

وقد اكتفى كل من الـكتاب والسنة بالنص على أمهات الجرائم التى لا يجب ترك العقاب عليهـا لتقدير الحكام حتى يستقيم أمـر النـاس ولذلك فرضت الحـدود والقصاص بالكتـاب والسـنة ، أما باقى الجرائم فقد ترك أمرهـا للمسلمين يقـدرون عقابها بقـدر ضررها وبقـدر انتشـارها حتى لا يقـدم المسلمون على حـرام ولا يسـمحون بظلم أو عـدوان أو فساد فى الارض .

وعلى ذلك فان جـرائم التعزير لا يمكن أن تكون أمـرا ثابتـا كالحدود والقصاص وانما تختلف من مكان لآخـر وتختلف فى نفس المكان من زمن لآخر كما أن هذه

الجرائم حينما تحدد يمكن أن تختلف عقوباتها من وقت لآخر وأيضا من شخص لآخر .
فالعبرة فيها هى تحقيق مصلحة المسلمين فى الحياة فى المجتمع النظيف .

كذلك يعاقب الجانى تعزيرا اذا كان قد ارتكب حدا من الحدود أو جريمة من جرائم الاعتداء على النفس ولم تتوافر شروط اقامة الحد أو اقامة القصاص عليه .

والتعزير قد يكون بالضرب أو الحبس أو الابعاد .

وقد اختلف الفقهاء فيما اذا كان يمكن التعزير بالعقوبات المالية فذهب ابن قيم الجوزيه الى أن التعزير بالعقوبات المالية مشروع وذهب البعض ومنهم الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد أنه لا يجوز التعزير بأخذ المال ونرى الأخذ بهذا الرأى حيث ثبت عملا أن التعزير بالعقوبات المالية لم ينفع اطلاقا فى الحد من الجرائم المعاقب عليها بذلك كجرائم التهرب من الضرائب وتهريب النقد والبيع بما يزيد على الاسعار المحددة قانونا والاقراض بالربا الفاحش وممارسة العاب القمار وغيرها .

وقد اختلف الفقهاء فيما اذا كان للتعزير حد أقصى لا يجب أن يتجاوزه فذهب كثير من الشافعية والحنابلة وأبو حنيفة الىأنهلا يجب أن يتجاوز التعزير أدنى الحدود أى أربعين جلدة وذهب الامام مالك الى أن التعزير يقدر بحسب المصلحة وعلى قدر الجريمة فيجتهد فيه ولى الأمر ولا حد لأكثره فقد يزيد الامام فيه عن الحد اذا رأى المصلحة العامة فى ذلك ونرى الأخذ برأى الامام مالك ويؤيد هذا الرأى أن حد شرب الخمر هو الجلد ثمانون جلدة ومع ذلك فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتل شارب الخمر متى عاد لشربها للمرة الرابعة « من شرب الخمر فاجلدوه وان عاد فى الرابعة فاقتلوه » كما روى عن عطاء ـ وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمر أن السارق يقتل فى السرقة الخامسة كما ثبت أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أمر بقتل رجل تزوج امـرأة أبيـه وكل هـذه العقـوبات فرضت تعـزيرا وليس حدا من الحدود .

ولذلك نسـتطيع أن نطمئـن لسلامة الرأى القائل بأنه لا يوجد حـد أقصى للعقـوبة المفروضـة بالتعزير ولا يوجـد من القيـود المفروضة على التعزير الاالملاءمـة بين الجريمة والعقـوبة الى المدى الذى تتحقق به مصلحة المجتمـع وأن لا يكون فى التجريم بالتعزير تحريم لما أحله الله .

وعليه فان جميع المعـاصى التى يمكن تحقيقها والكشف عنها دون تعنت أو تجسس يمكن العقـاب عليها تعزيرا وذلك مثل ممارسـة ألعاب القمار والربا وشهادة الزور والغش والتـلاعب فى المـكاييل والمـوازين والرشـوة والسب والقذف بغير الزنى وغير ذلك .

وتحـديد جـرائم التعـزير والعقوبات المقدرة لهـا أمر متروك للحاكم ولا يوجد ما يمنع من الجمع بين عقوبتى الحـد ، والقصـاص والتعزير ، فتقطـع يد السـارق ويحبس مـع ذلك اذا كـان فى اضـافة عقـوبة التعـزير لعقوبة الحـد أو القصـاص مصـلحة للمسلمين .

وتعتبـر قـوانين العقـوبات الوضعية من قبيـل التعـزير وان كانت لا تصل الى الهدف السامى الذى فرض من أجـله العقـاب بالتعزير .

بهذا نكون قد انتهينا من تعداد الجـرائم والعقوبات من حـدود وقصاص وتعزير وتتكلم فى العدد القادم ان شاء الله عـن الاحـكام العامـة فى التشريـع الجنـائى الاسلامى .

حسن حسب الله

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية

بقلم الدكتور محمد شامه

التوسع السياسى وفى هذا الباب :

١ ـ الخلفاء الراشدون :

سرد المؤلف فى هذا الباب أحداث تولى الخلفاء الراشدين ، وجهودهم فى التوسع السياسى ، وأثرهم فى تثبيت اركان الدولة داخليا ، وعلاقة الدولة بأهل الكتاب الذين يقيمون فى المجتمع الاسلامى الجديد ، فبدأ بما حدث بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) من مشاورات لتعيين خليفة له ، فذهب الى أن المجتمع الاسلامى فى المدينة لم يتحد اتحادا كليا على الرغم من الجهود التى بذلها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى دعوته لهم الى نبذ العصبية القبلية ، عن طريق ما نزل عليه من الوحى ، وما ضربه لهم من (أمثال ـ قولا وفعلا ـ فى مقت هذه العصبية وترغيبه اياهم فى أن يكون الرباط بينهم هو الاسلام ، اذ ظهرت معالم الانقسام الى مهاجرين وأنصار بعد موته مباشرة ، فى محاولة كل فريق اختيار الخليفة منه ، ولكن سرعان ما تداركوا الأمن واتفقوا على أن يكون أبو بكر الصديق هو خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

كانت مهمة أبى بكر صعبة جدا ، لأنه سيسوس شعبا دون أن تكون له صفة النبوة ، التى لها تأثير كبير فى نفوس الرعية مما يساعد فى سياستها ، فقد كان محمد آخر الأنبياء . ولم تكن مهمته قيادة دينية فقط ، بل كان أمثال ـ قولا وفعلا ـ فى مقت

دينيـــة كانت ، أو سياســـية أو عســـكرية ، أو اقتصـــادية ، أو قضائيـــة . فاختار لنفسه لقب « خليفة » ولا يقصـــد به خليفـــة الله ، كما كان معـــروفا لدى بعض الشعوب آنذاك ، بل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

رأت القبـــائل فى شمال وشرق وجنـــوب الجـــزيرة العربيـــة ان الفرصة قد سنحت ـ بعـــد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ للتخلص من التبعيـــة للمدينـــة ، فأعلنت عصيانها ، ورفعت شـــعارا سياسيا أكثر منه دينيا ، وكان هذا التمرد أحد خطرين واجها أبا بكر فى بداية ولايته ، أما الخطر الآخر ، فهو كثرة ظهور ادعياء النبوة فى الجزيرة العربيـــة ، الأمـــر الذى هدد الوحـــدة الاســـلامية ، لكن أبا بكر تغلب على كليهما ، فأرسى قواعد الدولة .

يرى المحللون أن الاسباب التى دفعت الشعب العربى الى القتـــال خارج الجزيرة العربية ، يمكن أن تنحصر بعد تولى أبى بكر الخلافة فى سببين :

الأول : التزامهم بتنفيذ ما عزم عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) من تجـــريد حمـــلة ضـــد الدولة البيزنطيـــة ، وهى الحمـــلة التى كانت بقيادة أسامة بن زيد .

الثانى : رغبة الجماهير الفقيرة فى اجتياح منطقة البحـــر الأبيض المتوسط الغنية بثرواتهـــا ، وكان هذا الغـــرض كامنـــا فى نفـــوس العرب من قبل الاسلام ، وقـــد حيل بينهم وبين تحقيقه بقيـــام ، امارتين عازلتين هما الغساسنة فى سوريا ، واللخميين فى الحـــيرة . ولـــكن عنـــدما عبرت الجيـــوش الاسلامية حدود الجزيرة العربيـــة لفتح ما وراءها من أقطار الأرض لم يكن السبب الـــرئيسى لهـــا اقتصاديا ، بل كان دينيا فى المقام الأول ، فقد كانت الرغبة المسيطرة على نفوس المسلمين فى تحـــركهم للقتال خارج الجـــزيرة العـــربية رغبة دينية ، اذ كان هدفهم تكوين دولة اسلاميـــة ، تدين بالقـــرآن وتتبع سنة رسول الله ، ولهذا لزم ـ فى نظـــرهم ـ القضـــاء على

مملكتى كسرى ، وقيصر لتحقيق هــذا الهدف •

كانت الظــروف مهيأة للقضــاء على هاتين المملكتين ، فقد خرجت مملكة كسرى من حربها مع الدولة البيزنطية منهكة القوى ، مفككة الأوصال ، فسقط جنوب منطقــة دجلة والفرات فى يد العرب فى أول هجوم شنوه على دولة كسرى ، واستمر الفتح فى عهــد الخليفــة الثانى ، عمر بن الخطاب ــ وقــد كان رجلا قويا ، وحاكما حازما ــ الذى وجــه حملات الفتــح الى الشمال والشرق ، فخضعت المنطقة كلها للمسلمين ، من منطقــة دجلة والفــرات حتى شواطىء البحــر الأبيض المتوسط • ومن العوامل التى ساعدت على سرعة اجتيــاز الجيوش الاسلامية لهذه المنــاطق ترحيب السكان بالعرب لأنهم رأوا أنهم سيخلصــونهم مــن حــكم البيزنطيين الذى انهــك قــواهم بفــــرض الضرائب الفــــادحة وبالتعصب الدينى الــذى مارسته الــكنيسة معهم •

دخل عمر بن الخطاب مــدينة القدس فى عام ٦٣٨ م ووضع حجر الأساس لأول مسجد فى المنطقة ، وواصلت الجيوش زحفها نحــو الشرق فى عهده ، فضربت الجيش الفارسى ضربة قاضية فى معــركة القادسية ، وتوغلت فى البلاد حيث استقبلهم الارمنيــون بالتــرحيب لأنهــم كانوا ناقمين على سياســة كســــرى •

كان الاســتيلاء عــلى منطقتى ســوريا وبلاد ما وراء النهــرين بمثابة سهمين اعدا للانطلاق لتنفيذ خطة مرسومة لفتح ما وراءهما ، فقد توغلت الجيــوش فى ايران ، كما فتحت مصر فخلصها الجيش الاســلامى من وطــأة تحصــيل الضرائب الفادحة ، التى فرضــها عليهم القيصر لسد نفقات الحرب ، التى دارت بينــه وبين الفــرس • ومما يجدر ذكره هنــا أن المؤلف وصف الدعوى التى تنسب حرق مكتبة الاسكندرية الى العرب بأن لها طابعا أسطوريا ، أى انهــــا لا تقوم على أدلة كافية •

يصف المؤلف عمر بن الخطـاب رضى الله عنه بأنه « لم يكن قائدا عسـكريا ماهـرا فقط ، بل كان سياسـيا محنـكا ، فاليـه يرجع الفضل فى قيـام دولة اسلامية ـ سياسيا وعسـكريا واداريا ـ على انقاض الدولتين ، البيزنطية والفارسية ، اذ أصـبح النظـام الادارى .. الذى وضـعه للدولة أساسا لكل ما فتـح من امصـار فيما بعد ، ومثالا يحتذيه كل من جـاء بعـده ، فقـد سن ـ على سبيل المثال ـ قاعـدة فى الأرض المستولى عليهـا صلحا ، لم تكن معروفة من قبل ، كما نظم العلاقة بين الدولة وبين سـكان الأرض المفتـوحة ، فتـركهم يزرعـون أرضهم فى مقابل حصـة يؤدونهـا للدولة ، وتركهم يديرون شئونهم بأنفسهم وكفـل لهم حرية كاملة فى ممارسة طقـوسهم الدينيـة ، لدرجة أن القسس كانوا يمثلون مصـالح أبنـاء عقيـدتهم لدى الدولة ... و ... و ... الخ ».

قد يبدو التنـاقض الظاهـرى واضحـا فى هذه الاجـراءات ، فالفتح الاسـلامى لم يعد الغرض منه حمل الناس على الدخـول فى الاسلام ، بل كان الهـدف منـه اخضـاع غـيرالمسلمين للحـكم الاسلامى . ولكن هنـاك سبب واقعى جدا ، وهو أن فتح أقطار العالم يحتاج الى أموال طـائلة ، لا يمكن الحصول عليهـا الا اذا دفـع هـؤلاء الذين لم يدخلوا الاسلام من أهل الكتاب فى الأرض المفتـوحة ما فـرض عليهـم من جـزية .

تولى الخـلافة بعـد عمـر : عثمان بن عفان ، فلم يبذل نشاطا فى الفتح مثل ما فعـل عمـر بن الخطـاب ، اذ كرس جهـده على تثبيت سلطان الدولة فى الداخل ، فولى أقرباءه المناصب المهمـة ، الأمر الذى أثار حفيظـة فريق من المسلمين فقتلوه وهو يقرأ القرآن ، فأرسلت أرملتـه قميصـه الملطخ بالدماء الى قريبه معـاوية بن أبى سفيـان ، الذى كان واليـا على الشـام فى ذلك الوقت ، فعـادت غريزة الأخذ بالثأر القديمة تطـل برأسها فى المجتمـع الاسلامى ،

اذ لم يستطع بنــو أميــة ضبط أعصابهم فطالبوا بالأخذ بالثأر من قتلة عثمان بن عفان •

تولى على بن أبى طالب الخلافة بعد عثمان ، وكان ســنه آنذاك خمسا وخمسين ســنة ، فجــاءت توليتــه متأخــرة فى نظــر بعض المســلمين ، لأنهم كانوا يرون أنه كان أحق بالخــلافة من أبى بكر وعمر وعثمــان • فوضــع شيعته كثــيرا من الاحاديث التى تبــين فضله عليهم ، ولكن الجماعة لم تجمع على ولايته حتى قتل عثمان ، فبويع بالخلافة وظل فيها من ٦٥٦ حتى ٦٦١ م حتى قتــله أحــــد الخــوارج الــذين انشقوا عــلى طاعتــه •

ترك على قتــلة عثمــان دون محاكمة ، فثار عليه بنوا أمية بقيادة معاوية ، كما كان هنــاك فــريق آخر خرج عن طاعته وأعلن الحرب عليه ، وكان هــذا الفريق بقيــادة عائشة الا أنه تخلص منه فى معركة الجمل ، أما فريق معاوية فقــــد التقى به فى معــركة صــفين ••• ويمضى المؤلف فى سرد أحــداث النزاع بين على ومعاوية • وبين على والخوارج ، وقتل على ، وتنازل الحسن ابنــــه عــن الخــــلافة لمعــاوية ••• الخ ••• ثم يقول : « وأخــيرا أخضع معــاوية جميع أقطار الدولة الاســلامية لحكمه ، واختار دمشق عاصمــة له ، لأن المدينــة كانت بعيــدة عن مسرح الأحــداث ، ولأن دمشــق كانت أكثر أمنا بالنسبة له ، فقد عضدت سلطانه ••• وهــكذا : أصبحت الخلافة الاسلامية ملكا عضــودا يرثه الأبناء عن الآباء » ••

تخبطت آراء الباحثين الأوربيين فى تعليل الفتح الاسلامى ، فبينما يقول فريق :

••• انه كان اعتــداء وغــزوا للســيطرة على الموارد الماليــة • للاقطار المفتوحة ••

يرى آخــر : انه كان نشرا للاسلام بالقوة •

أما مؤلف كتاب « الأسلام قوة عالمية متحركة » •• فيــذهب الى أنه لم يكن لحمــل النــاس على الدخــول فى الاســلام ، بل كان

الهدف منه سيطرة الاسـلام على العـالم ولمـا كانت الجيـوش الاسـلامية فى حاجة الى أمـوال طائلة ، رأى المسلمون عدم اجبار أهل الكتاب على اعتناق الاسلام ، والاكتفاء بتحصيل الجزية منهم ، ليضمنوا عائدا يساعد الجيـوش على مواصلة فتحها لمناطق العالم •

والسبب الرئيسى فى هـذا التخبط هـو الجـو الذى نشأوا فيـه ، ونوع الثقـافة التى تربوا عليهـا ، ذلك أن الجـو الأوربى العام ينظر الى الاسلام نظرة عداوة وتربص !

من جراء الاحداث التى وقعت بين المسـلمين فى الأندلس ، وبين الامارات المسـيحية المجـاورة لهم منذ الفتح الاسلامى لهذه المنطقة الاوربيـة من عـام ٧١١ م حتى خروجهم منها فى عام ١٤٩٢ م •

وتنيجة لمـا ترسب فى نفـوس الأوربيين عامة من حقد وكراهيـة للاسـلام والمسلمين ذلك الحقـد الذى غرسـته وقائع الحـروب الصليبية فيهم ، فلقنوه لأبنـائهم جيلا بعد جيل •

ولهـذا فهم ينظرون ـ عنـد تحليلهم للاحداث الاسلامية ـ الى الموضـوع من زاوية العـداوة ، فيدفعهم هـذا الموقف الى تصعيد كل ما من شأنه تصوير المسلمين على انهم جفاة ، غلاظ ، لا يعـرفون الا السيطرة وحب المال والجاه •

ونسى هـؤلاء ـ أو أغمضوا أعينهم عنه عمدا ، وأخفـوه عن قرائهم ـ ان المسلمين لم يفتحوا لأجل الغزو والسيطرة ـ وان ظهر من المسلمين أحيانا خلاف ذلك ، فهـو مخـالف لروح الاسلام ، وبعيد أيضا عن الطابع الاسلامى العام الذى تحلى به المسلمون فى جهادهم ـ بدليل أن أهل الكتاب عاشوا فى الدولة الاسلامية احرارا فى عبادتهـم مسـتقلين فى ادارة شئونهم الخاصة ، لم يعتد عليهم أحد فى مال ولا عرض ، ولم تقيد الدولة حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ، فنعموا بحيـاة لم يروها أثنـاء خضـوعهم لاخـوانهم فى العقيدة •

كيف يـكون الفتـح وسـيلة للسيطرة على الموارد المالية وقـد

حرم الاسلام أكل أمـوال الناس بالباطل ، والتزم المسلمون بهـذا التحريم ، فلم ينهبوا ولم يغتصبوا سكان الأرض المفتـوحة ، مثـل ما تفعل الجيوش فى عصر الحضارة الاوربية والمدنية .

أما دعوى أن الفتح كان وسيلة لنشر الاسلام بالقوة ، فقد رددنا عليها فيما سبق من هذا البحث ، وتبقى دعـوى مـؤلف كتـاب « الاسلام قوة عالمية متحـركة » وهى : أن المسلمين تركوا أهـل الـكتاب ، فلم يجبـروهم على الدخول فى الاسـلام ، ليضمنوا موردا ماليا من فرض الجزية عليهم يسـاعد فى نفقـات الجيـوش الاسلامية ، لتواصل فتح أقطـار أخـرى .

والرد على هذه الدعوى يكمن فى الاجابة على سؤالين هما :

هـل كانت الدولة الاسـلامية تعـانى آنذاك مـن نقص فى الأموال ؟

وهل كانت الأموال التى تحصل من الجزية تكفى للخدمات العامة التى تقوم بها الدولة للسكان ؟

لم تكن الدولة الاسـلامية فى أزمـة ماليـة ، بل كانت فى رخاء ليس له حـدود ، لأن الأمـوال فاضت على المسلمين فى هذا العهد من كل صوب ، فتحت لهم كنـوز كسرى وتدفقت عليهم الأموال من خراج وفىء وغنيمة .. و .. الخ لدرجة أن المؤرخين يجمعون على أن خـزائن الدولة كانت مليئـة بالخيرات فـرتبت للجنـد رواتب سـخية ، ومنحت كثـيرا مـن المسلمين عطـاءات ثابتـة من بيت المال ، ومع ذلك لم ينضب ماعندها من « أرصـدة » بل بقى فى بيت المال فائضا ، فكيف يقال :

ان المسلمين احتاجوا الى أموال الجـزية للصرف عـلى جيـوش الفتح ؟

هل كانت المبالغ التى حصلت من الجزية كافيـة لتغطيـة بنـد الخدمات العامة ؟

لا لم تكن كافيـة .. اذاً ، فالمحصل منها كان يصرف أكثر منه على خدمات كان يتمتع بها أهـل الكتاب ، فكيف يقال : انها كانت

موردا يساعد على نفقات الجيش ليواصل الفتح ؟ !!!

لم يكن الغـرض من الفتـح الاسلامى سوى تمكين الدعاة من توصيل كلمة الاسلام الى هـذه الشعوب ، فتختار بنفسها ــ دون ضغط عليها من حكام لا يؤمنون بالله ــ طريق الحق ، فان هـداها الله الى الاسـلام ، اعتنقتـه دون خوف من أحد ، وان اختارت البقاء على ما هى عليه لن يجبرها أحـد لأن واجب المسلمين تبليغ الدعوة فقط :

« فان تولوا فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

٢ ــ العصر الأموى (٦٦١ ــ ٧٥٠م)

تبوأت أقوى قبيلة فى قـريش مقعد الخلافة ، وأخـذ معـاوية البيعة لابنه يزيد فى حياته ، فبدأ الوضع كما لو كان الزمن قد عاد ادراجه ، حيث خـول الانتساب لقبيلة ذات سطوة وسلطان ، الحق فى تصريف مقاليد شئون الحكم ، والتحكم فى مصائر الناس .

تصرف الأمـويون فى الحـكم بالأسـلوب العـربى القـديم ، فأحاطوا الخلفاء بهالة من العظمـة والتقديس ، كما انفـرد الخليفـة باتخاذ القرارات ، وان خالفت رأى مستشاريه ، أو انكرها من خول لهم وضعهم الاجتماعى القدرة على نصيحة الخليفة . وكانت القرارات التى تصدر من الخليفـة تعلن فى المساجد على انها أوامر لا تعارض ، ويجب تنفيذها فور سماعها .

كذلك أهملت الدعوة فى مجال اقناع أهل الـكتاب باعتنـاق الاسـلام ، فتركوهم على دينهم واكتفـوا منهم بدفـع الجزية . وفى سوريا توقفت الاعمال فى اقامة مستوطنات عسكرية تكون عـازلة بين المسلمين وأهـل البـلاد ، وترك العرب المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينيـة حيث شـاءوا ، الى أن وصـل الأمـر الى أن المسيحيين والمسلمين كانوا يتناوبون ــ فى بعض الانحـاء ــ اقامـة شعائرهم فى مكان واحد . وكان باب الخليفة مفتـوحا للمسيحيين يقصـدونه للتشـاور فى جميـع

المجـالات وخاصـة فى النواحى الماليـة • وظلت الادارة فى أيدى أهل البلاد ، كمـا كانت فى أيام حكم الدولة البيزنطيـة ، واكتفى المسلمون بتـولى المنـاصب القيادية •

ظـلت ادارة الدولة تسـتعمل اللغة اليونانية حتى عهد عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ ــ ٧٥٠ م) ، فأمر بتعريبها كما صـك النقـود باللغة العربية • وأدخل تعديلات فى نظام الضرائب •

انـدلعت معارضـة الأمـويين والثورة عليهم فى بادىء الأمر من المدينة ، وكانت انتفاضتهم تقـوم على أسس دينيـة ، لأن تحـول الدولة الى طـابع دنيـوى أثـار حفيظة أهل المدينـة ، الذين رأوا فى سلوك الخلفاء تعارضا واضحا لما كان عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومناقضـا لمـا أمر به ، فثـاروا على الخليفـة ، ولـكن الأمـويين أخمـدوا الثـورة بالقـوة ••• ثم يمضى المؤلف فى حديثه عن الانتفاضات والثـورات ضد الحكم الأموى والمعارك التى دارت بين المعـارضين وقـوات الخليفـة • حتى نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية فى عام ٧٥٠ م •

٣ ــ الفتوحات الاسلامية فى الشرق والمغرب :

ذكر المؤلف فى تناوله لأحـداث الفتح الاسلامى لشمال أفريقيا أن المسلمين أتمـوا فتح المنطقـة فى عام ٦٩٧ م ، ثم عبروا البحر الى أسبانيا فى عام ٧١١ م بقيادة طارق ابن زياد ، فقضـوا على مملكـة القوطيـين ، وبقضـاء المسلمين على هذه المملـكة تخلص السكان مـن نيرهم واسـتعبادهم وتنفس اليهود ــ المقيمـون هنـاكَ ــ الصـعداء ، لأنهم تخلصـوا من الاضطهاد الدينى • فتحـرروا من الضغط الذى مارسه القوطيـون عليهم ليخرجوهم من اليهودية الى النصرانية •

ولم يتوقف الجيش الاسـلامى عن التـوغل فى أوربا ، فواصـل زحفه نحـو الشمال ، ولا يعـلم

أحد شيئا عن هدف المسلمين بهذا التوغل : هل كان هدفهم الاستيلاء على كنوز الكنيسة ؟

أم انهم أرادوا اختـراق أوربا ليصـلوا الى الشـام عن طـريق القسطنطينية ؟

لـكنهم لم يحسـنوا تقـدير قـوة الاوربيـين ، فانهـزموا فى معركة « بواتييه » أمـام « كارل مارتن » الذى أنقـذ أوربا مـن الخطر الاسلامى .. ثم فصل القول فى الخلاف الذى وقع بين المسلمين فى البلاد المفتوحة ، واعلان بعض الأمـراء الاستقلال فى مقـاطعاتهم ومحاربة بعضهم البعض الآخر .

وفى الجـانب الآخـر واصلت الجيـوش الاسلامية زحفها نحـو الشرق ، فاستولوا على البنجـاب فى عام ٧١١ م ثم اتجهت فيمـا بعد صوب الصين ، وتوغلت فى داخل آسيا غير أن الدعاة سبقوا الجيش الى تلك المناطق .

ومن المدهش حقـا انه بينمـا كانت الجيوش الاسـلامية توالى فتحها لمناطق العالم قامت نهضـة حضـارية فى المنـاطق العربيـة ، وتعتبر الانجازات الحضـارية فى العهد الأموى منارات وضـاءة فى التاريخ الاسلامى ، سواء فى مجال الاقتصـاد الـزراعى حيث شقت القنـوات وأقيمت الجسـور .. و .. و .. الخ .. أو فى الفـن المعمارى ، حيث شيدت المساجـد وزينـت بالفسيفساء الذى يعتبـر آية فى الفن المعمارى ، وأنشئت الحمامات العامـة على أحـدث طراز .. الخ .

وفى عرضـه لأسـباب انهيـار الدولة الأموية يقول :

انغمس الخلفـاء فى التـرف والحياة المدنية ، فصاروا يفهمـون فى الخمر والنساء والفن أكثر من فهمهم لواجباتهم كخلفاء ، فلم يبق لديهم أى صفة من صفات خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى يدعونها ، فحفروا قبـورهم بأنفسهم .

ثم تنـاول أحـداث تصـاعد المعارضة ضد الدولة الأموية .. والتفـاف الشعوب غـير العربيـة

ـ وعـــلى الأخص الشـــعب الفارسى ـ حول المطالبين بالخلافة من آل البيت الى أن سقطت دولة بنى أمية فى عام ٧٥٠ م •

أوقفت معـركة « بواتييه » فى سهول فرنسا زحف المسلمين على أوربا ، وردتهم عن مواصـلة فتح أقطارها • ويختلف الباحثـون فى تصوير أحداث هـذه المعـركة ، وتقييم نتائجهـا بالنسبة لأوربا ، فبينما نجد المستشرقين يشـيدون بـ « كارل مارتن » فى قتاله وبسالته ضد المسلمين ، ويرجعون انتصاره عليهم الى طبيعة عقليته العسكرية ، والى تفوق قدرة جنوده على جنود المسلمين فى ميدان القتال ، يجـد الباحث المدقق أن فـوز « كارل مارتن » يرجـع الى الداء الذى أصيب به المسـلمون بعـد فتحهم للاندلس مباشرة ألا وهو :

تكالبهم على الغنائم •

والنزعـة العصبية التى شـاعت بينهم • ففرقتهم الى عرب وبربر •

كـذلك انـه عنـــدما التقى الجيشان استمرت المعارك بينهمـا سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ كل جيش فيها بمركزه ، وفى اليـوم التاسع نشبت بينهما معارك عامة ، فافتتلا بشدة وتعادلا حتى دخول الليل ، واستأنفا القتال فى اليوم التـــالى وأبدى كلاهمـا منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الاعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين • ولكن حدث حينئذ أن افتتح الفـرنج ثغـرة الى معسكر الغنائم الاسـلامى فارتفعت صيحة مجهول فى المراكـز الاسلامية بأن معسكر الغنائم سوف يقع فىأيدى العدو ، فارتدت قوة كبـيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ماوراء الصفوف لحماية الغنائم • وتواثب كثـير مـن الجنـد للدفـاع عن غنائمهم ، فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن الغـافقى ـ قائد المسلمين ـ أن يعيد النظـام وأن يهـدىء روع الجنـد وبينمـا هو يتنقـل أمام لصفوف يقودها ويجمع شتاتها اذ أصابه من جانب الاعداء سهم أودى بحيـاته فسقط قتيـلا من فـوق جـواده ، فعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسـلامى واشـتدت

وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتـل فى صـفوفهم ، ولـكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليـل ، وافترق الجيشان دون فصل .

وهنا اضطرم الجـدل والنزاع بين قـادة الجيش الاسـلامى ، واختلف الـــرأى .. وهـاجت الخـــواطر ، وسرى التـوجس والفزع ، ورأى الزعماء ان كل أمل فى النصر قـد غـاض فقـــرروا الانسـحاب ، وفى الحـال غـادر المسـلمون مراكـزهم وارتدوا فى جوف الليل ، وتحت جنح الظلام ، تاركين أثقـالهم ، ومعظم اسلابهم غنما للعـدو .

ومـن الاسـباب التى عـاقت الجيش الاسلامى عن احـراز نصر حاسم فى تلك الموقعـة حالة القلق التى أصابته ، بسبب الشقاق الذى كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منهـا معظم الجيش ، وكان الكثير منهم يتوق الى الانسحاب مؤثرا النجـاة بغنائمـه الكثيرة ، ذلك أن المسلميـن قد استصفـوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها ، وأديارها الغنيـة . وأثقلوا بمـا لا يقـدر ولا يحصى من الذخـائر والغنائم والسبى .

فكانت هذه الأثقـال النفيسـة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخـلاف والنزاع ، وكانت مـن الأسباب الرئيسية فى تغيير سير المعركة .

أما حديث المؤرخين الأوربيـين عن نتائج هذه المعـركة ، فتظهـر روح الصـليبية واضـحة فى كل سطر كتبوه فيها ، فعـلى سبيل المثال يقـول : « السـير ادوارد كريزى » :

« ان النصر العظيم الذى ناله « كارل مـارتن » على العـرب سنة ٧٣٢ م وضـع حـدا حاسما لفتوح العـرب فى غـرب أوربا ، وانقذ النصرانية من الاسلام » .

ويقول : « ادوارد جيبـون » متصورا النتائج ، لو انتصر العرب فى معركة « بواتييه » :

.. بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد « اكسفورد »

•• وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة •••

ويقــول :

« ان هذه المعركة أنقذت آباءنا البريطانيين ، وجيراننــا الغــالين (الفــرنسيين) من نير القــرآن المدنى والدينى ، وحفظت جــلال رومــــا ، وأخـــرت اســتعباد « قسطنطينية » وشــدت بــأزر النصرانية ، وأوقعت باعدائها بذور التفرقة والفشل » (١) •

ونسى هــؤلاء ــ أو تناسوا ــ أن أوربا ــ والعالم كله ــ خسرت كثيرا من جراء هذه المعركة ، فلو واصل المسلمون فتح أقطارها :

ما نصبت فيها محاكم التفتيش التى راح ضحيتها ألوف الأبرياء •

وما تأخرت نهضتها العلمية قرونا بسبب تحكم الكنيسة ، وتحريمها الاشتغال بعــلوم الطبيعــة ــ لم يتقدم الاوربيون فى هذا المجــال الا بعــد أن تخلصــوا من سيطرة الكنيسة ــ لأن الاسلام لو دخلها فى ذلك التاريخ لمنحهــا الحــرية الكاملة فى البحث فى كل مجالات الحيــاة •

وما استعبدت المــادية الوثنيــة الانسان اليوم ، لأن أوربا حيــن تخلصت من الكنيسة ، خلعت عن نفســها كل الاردية الروحيــة ، وانطلقت فى مجـــال المــادية ، فانغمست فيهــا دون ضــوابط ، وغاصت فى أعماقها دون حدود ، فتحــكمت فى القــوة المــادية • واستخدمتها لتحصل على المــزيد فاخضعت العالم لهــا ، وسيطرت على مجرى الأمور فى جميع مناطقه فخضعت لهــا المجتمعــات كرها ، أو قلدتهــا فى حياتهــا جريا وراء دعاوى التقدم والمدنية فصار العالم كله منغمســا فى مادية جاهليــة ، تاركا وراءه المبادىء الروحية التى جاء بها الوحى ، أو مرددا لهـــا باللسان دون أن يكون لها أثر فى واقع المجتمــع •

هذه هى احدى نتائج معــركة « بواتييه » فلو أنصف الباحثون

(١) بين الاسلام والمسيحية ص ٢٣ ــ ٢٥ •

فى تقييم هـذه المعـركة لرأوهـا واضحة أمام أعينهم ، أما عنـدما يلقى التعصـب الغشـاوة عـلى أبصارهم ويخيم الحقد على قلوبهم وسمعهم ، رأيتهـم يتخبطـون فى الحديث عنها وعن نتائجها متوهمين ان « كارل مارتن » قد أنقذهم ، بينما الواقع يؤكد انه منع عنهـم خيرا كبيرا وكان سببا ـ وان كان غير مباشر ـ فى بعض ما تعـانى منه البشرية اليوم .

٤ ـ الدولة العباسية (٧٥٠ـ١٢٥٨)

بدأت الدولة العبـاسية حقبـة جديدة فى التاريخ الاسلامى ، فقد ذابت الدولة ذات الطابع العربى ، وتحولت الى مملـكة ذات طـابع عالمى ، حيث اندمجت فيها تدريجيا كل الأجناس ، وتساوى فى الحقوق كل المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، كما أصبحت السلطة فى يد الفـارسيين ، فحلوا محـل القبائل المكية فى جميع المجـالات سواء كانت دينيـة أو دنيـوية . وعن طريقهم دخل كثير من التقاليد الفارسية القديمةالى بلاط الخلفاء ، وانتشرت فى جميع أجهزة الدولة . ومما يجدر ذكره هنـا أن هـذه الدولة بهرت العالم بقوتها ونهضتها .. كما فرضت سيطرتها على جميع المنـاطق ، فكانت تخمـد ثورات العـلويين بتوجيـه الضربات القاضية لهـا .

تحدث المؤلف عن أحداث قيام الدولة العباسية ، وجهود العباس وأخيه المنصور من بعده فى بنـاء الدولة ، وتشييد المبانى والمساجد فى بغداد ، كما تنـاول النهضـة التشريعية مبينـا جهـود المدارس الفقهية الأربع فى هـذا المجـال ، وذكر أن عهد المهدى تميز بتعقب المـذاهب الفـارسية القـديمة ، التى كانت تستهدف القضـاء على الاسـلام ، ولم تشفع عنـده أى علاقة فى انزال العقاب بمـن يدين بهذه المذاهب فعلى الرغم من انه كان يحب الشعر والغنـاء ، فقـد راح ضحية هذه الحملة شاعران فارسيان كانا من أقرب المقربين اليه.

أخـذ حديثـه عن هـارون الرشيد مساحة كبـيرة من هـذا

الباب ، حيث ذكر أن شهرته طبقت الآفاق ــ فعرفه الصغير والكبير عن طريق ما ورد عنه فى قصص ألف ليلة وليلة ــ لأن قوة الدولة وصلت ذروتها فى عصره ، وتبادل السفارة والهدايا مع كارل الأكبر ، رجل أوربا الأول فى ذلك الوقت .

عرف هارون الرشيد بحبه للعدل والرحمة . كما اشتهر عنه تذوقه للأدب والشعر والغناء ، ولهذا جمع بلاطه كثيرا من العلماء والشعراء والمغنين ، ولذا وجب على المؤرخين حين يتعرضون لسيرته ــ أن يتناولوا ناحيتين فى شخصيته :

احداهما : حبه للهو والغناء والشعر .

والأخرى : ميله للتدين والصلاح والتقوى ، فقد كان يحج كل عامين ، ويؤدى الصلاة فى خشوع تام ، ويعطف على الفقراء والمساكين .

امتاز هارون الرشيد بفكر ثاقب وعقلية جبارة ، ولذا فقد كان قاضيا منصفا وذا دراية واسعة بشئون الدولة ، بالاضافة الى ما كان يتميز به من هيبة وسلطان ، وضح أثرهما عندما كان يقود الجيوش بنفسه ، الا انه ترك الأمر فى الشئون السياسية والادارية للبرامكة ، فصالوا فيهما وجالوا ، ووصلوا الى حد أثار عليهم حفيظة الخليفة ، فتكفل بهم ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن نكبة البرامكة ، محللا الاسباب التى يمكن أن تكون السبب فى غدر الخليفة بهم ، ولكنه لم يرجح واحدا منها ، ثم يذهب الى أن نجم الخليفة قد أفل بعد نكبة البرامكة ، واختتم حياته بالحملة التى وجهها الى الدولة البيزنطية لاجبار قيصرها على مواصلة دفع ما التزم بتأديته الى الدولة الاسلامية وكانت آخر حملاته تلك التى وجهها ضد الثوار فى خراسان ، وأشرك فيها ابنيه :الأمين والمأمون، الا أنه مات قبل الانتهاء من اخمادها . وكانت وفاته فى عام ٨٠٩ م

كانت الدولة مهددة بالانهيار أثناء النزاع بين الامين والمأمون ، ولكن انتصار المأمون أنقذها ، اذ

سار على طريق والده ، فقاد نهضة كبرى فى جميـع المجـالات ... فازدهـرت العـلوم والمعـارف ، وخاصة فى مجالس الطب والرياضة .. حيث ترجمت أمهـات الكتب الى اللغة العربيـة ، وأنشىء بيت الحكمة ، وأقيم مرصدان فلكيان ، أحـدهما فى بغداد ، والآخر فى دمشق ، وظلت نظـريات الفضـاء التى توصل اليها العلماء فى عصره أساسا يعتمد عليها البـاحثون فى أوربا حتى عصر « كوبرنيك » (١) .. ثم تحدث المؤلف عن :

نشاط المأمون ضد العـلويين ، ومحاولة التصالح معهم بتعيين على ابن موسى وليا للعهد .

ومحاولة قائده طاهر الاستقلال بحكم خراسان بعد نجاحه فى اخماد ثورة الخوارج بها .

واخماد ثورة الاقباط فى مصر .

ومعاركه مع الدولة البيزنطيـة من عام ٨٣٠ حتى ٨٣٣ م .

كما فصـل القـول فى وضـع الدولة بعد المأمون وسيرة الخلفاء بعده ، وتسلط الاتراك على مقاليد الأمور فى بلاط الخلفـاء ، ممـا أضعف هيبة الدولة ، وشجع الولاة على اعـلان استقلالهم ، فتكونت دويلات كان لبعضها دور فى تسيير مجرى الاحداث فى المنطقة الاسلامية فقد قامت دولة الحمدانيين وفرضوا سيطرتهم على بلاد ما وراء النهرين .. كما فتحوا حلب ، ودخلوا فى معارك ضد الدولة البيـزنطية ، واستمر فى سرده لمعاركهـم حتى وصل الى نهاية دولتهم على أيدى الفـاطميين .

ودولة البـويهيين التى أسسـها أبو شجاع بويه فى فارس وحكمت من ٩٣٢ حتى ١٠٥٥ م فقد استولى أبناؤه على والحسن واحمـد على أصفهان وشيراز وكرامان وبغـداد ولقبوا بلقب معز الدولة وعمـاد الـدولة وركن الـدولة وأصـبح أمير المؤمنين على عهـدهم ألعوبة

(١) «كوبرنيك» (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) فلكى بولونى برهن على دوران الكرة الارضية حـول نفسها وحول الشمس .

فى أيديهم ، ويستمر حديثه عنهم حتى نهايتهم على يد طغرل السلطان السلجوقى فى عام ١٠٥٥ م ثم يعقب على ذلك فيقول :

« لم يكن البويهيون أبطالا فى ميدان القتال فقط ، بل كان عندهم أيضا اهتمام بالحضارة ، فقد جمل عضد الدولة أثناء حكمه ٩٤٩ ــ ٩٩٣ م ــ مدينة شيراز بحيث صارت أجمل مدينة فى المملكة الاسلامية وأنفق كثيرا من الأموال لتحسين مدن أخرى وعلى رأسها بغداد » .

٥ ــ الدولة السلجوقية :

أقامها أمراء تركمان نشأوا فى بخارى ، وبدأ نفوذهم يزداد تدريجيا فغزوا ايران فى عام ١٠٣٩م والعراق فى عام ١٠٤٣م وقضى « طغرل » (١) على البويهيين فى بغداد عام ١٠٥٥ م فسمى نفسه « سلطان وملك الشرق والغرب » بدأ نجم الدولة السلجوقية يلمع فى عهده ، اذ لم تركز الدولة على النواحى العسكرية والسياسية فقط ، بل اهتمت أيضا بالعلم والفن ، فبلغت ذروتها فى عهد « ملكشاه » (١٠٧٢ ــ ١٠٩٢ م) حيث اعتنى وزيره نظام الملك بالمؤسسات الثقافية فأسس « نظامية » نيسابور وبغداد ، فازدهرت العلوم الرياضية والفلسفية والشعر ، كما اهتم بالنواحى المعمارية فى المدن وخاصة بغداد .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة السلجوقية ونشاطها الحربى :

ضد الثائرين ، وضد بعضهم البعض فى ميدان الصراع على السلطة ، وضد الصليبيين .. الخ .. الى أن انتهت شهرتهم بظهور المنغوليين ، ففى القرن الثالث عشر ظهر جنكيزخان ، فهدد أركان

(١) « طغرل بك » (ركن الدولة ابو طالب) قائد سلجوقى مؤسس السلالة السلجوقية قضى على البويهيين ودخل بغداد (١٠٥٥ م) فخلع عليه الخليفة القائم العباسى (١٠٣١ ــ ١٠٧٥ م) لقب السلطان وملك الشرق والغرب قهر البساسيرى الذى احتل بغداد وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر ، وأعاد الخليفة العباسى (١٠٦٠) .

الدولة جميعها فيما بين الصيـن والبحر الاسود ، اذ زحف نحـو الغرب مبيدا كل المدن فى طريقه ، مخـربا كل ما قابله من مظـاهر الحضارة والمدنية ، ففى كل مكان تقريبا أكلت النـيران كل ما كانت تملكه الدولة الاسلامية من كنـوز علميـة وحضـارية • ولمـا مات « جنكيزخان » واصـل حفيـده « هولاكو » زحفه نحـو بغـداد فاستولى عليها فى عام ١٢٥٨ م ، واعدم آخـر خليفة عباسى ، كما أعدم كل أفراد أسرته وبذلك انتهت الدولة العباسية •

* * *

٦ ـ الاسلام فى أسبانيا :

اذا تأمل المرء الرقعـة الواسعة للـدولة الاسلاميـة فى القـرون الوسطى ، فان أول ما يبدو له فى كثرة شعوبها المتعـددة الأجنـاس والالوان وفى تغلبها على الدسائس السياسية المتنوعة الاتجاهات ، وفى سيطرتها على مجـرى الأمور التى تتنازعها المصـالح الشخصية ، ان بقاءها لم يكن أمرا عاديا ، بل يبدو كما لو كانت مـؤيدة بمعجـزة ساعدتها على البقاء طـويلا ، رغم الضغوط الداخلية ، والتهـديدات الخارجيـة ، ومن المعجـزات التى صاحبت هذه الدولة أيضا أنه على الرغم من انهيار نظامها السياسى، فقد انتصرت العقيـدة الاسـلامية فى كل الميادين انتصارا لا نظير له مع الأديان الأخرى •

وصل الاسلام الى الاندلس بعد مـوت محمـد (صلى الله عليـه وسـلم) بثمـانين عاما ، أى فى عام ٧١١ م • ذلك التاريخ الذى لم ينسه الاوربيـون • فالفتـح الاسلامى للاندلس تم فى عهـد الأمويين ، وعندما قضى العباسيون عليهم هرب أحد أفراد الأسرة الى الأندلس وأسس دولة مستقلة عن مركـز الخـلافة فى الشرق •• ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة الأموية فى الأندلس وصراعها مع الامارات المسيحية التى تكونت فى الشمال ، واستمرار نشاط الامويين الحربى ثلاثة قرون ضد الثائرين على الدولة من مسيحيين ويهود وامراء طمعوا فى اغتصاب السلطة ، كمـا

تصدوا للفاطميين الذين أقاموا دولة فى شمال أفريقيا ، وهـددوا امارة قرطبة .. لكنهم ما لبثوا أن اتجهوا الى مصر ... ثم يتحدث عن دول الطـوائف ، ومعـركة الزلاقة ، ونجدة المرابطين للمسلمين فى هذه المعركة ، وعن الصراع الذى قام بين المسيحيين والأمراء ، وامتداده بفضل مسـاعدة بنى مرين لهم ، لكنهم حين ضعفوا عن تقديم هـذه المسـاعدة انتهى الصراع باستيلاء « فرديناند » ملك « ارجـوان » و « ايزابيلا » ملـكة « قشتالة » على غرناطة آخر معقل اسلامى فى الاندلس .

٧ ـ شمال افريقيا ومصر :

أسس الفاطميون دولة فى شمال افريقيا فى عام ٩٠٨ م ، والمعروف انهـم كانوا يرفضـون سـلطة العبـاسيين ويدعـون انهم أحـق بالخلافة على جميع أقطار العـالم الاســلامى منهم . اســتطاع الفاطميون فى عصر ازدهار دولتهم أن يبسطوا سلطانهم من مصر على كل شمال افريقيا ، وجزيرة صقلية ، وفى بعض الاحيان على سـوريا ، كما هدد اتباعهم بغداد لمدة عام ، فاعتقدوا انهم وصلوا الى هدفهم ، وهو السيطرة على جميع العـالم الاسلامى ، لكن سرعان ما انهـار سلطانهـم بعـد ازدياد نفـوذ العسكريين فى دولتهم ـ بالضبط كما حدث فى الدولة العباسية ـ حتى أصبح الخلفـاء العـوبة فى أيديهم .

كانت نهايتهم على يد صـلاح الدين الأيـوبى ، الذى اشتهـر بمعاركه ضد الصليبيين ، فقد قضى على دولتهم فى مصر فى عام ١١٧١م .. كما حقـق نصرا ساحقـا على الصليبيين فى عام ١١٨٧ م وعقد معاهدة صلح مع شارل قلب الاسد فى عام ١١٩٢ ثم لم يلبث أن مات بعدها بعام واحـد ... ويمضى المـؤلف فى حـديثه عن الـدولة الايوبيـة وصراع المماليك على السـلطة ، وجهـودهم فى قتـال الصليبيين ، وانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت ، ونسير معه فى سرده لأحداث المماليك حتى الغزو

التـــركى فى عام ١٥١٧ م ثم يختم الباب بقوله :

أصبحت الدولة المملوكية ، بعد سقوط بغـداد مركزا للحضـارة العربية الاسـلامية فساعدها هذا ـ بالاضافة الى وضـع الخليفـة العباسى صوريا على رأسها ـ على تمكين سلطان المماليـك وازدياد نفوذهم وهيبتهم • وظـل تأثيرهم واضـحا فى السياسة والادارة فى أيام الصولجان العثمانى على مصر ، ولم تنته مشاركتهم فى تسيير أمور الدولة الا فى بداية القـرن التاسع عشـر •

* * *

٨ ـ الوضع الجديد بعد الغـــارة المغولية :

دمـرت الغـارة المغوليـة كل ما اجتاحته من بلاد العالم الاسلامى تدميرا شاملا وخاصـة بخـارى وسمرقند وبغـداد ، كمـا تسبب الاهمال الادارى فى انهيار نظـام الرى البديع فى العراق ، فتكبدت الدولة خسـائر فادحـة ، وعانت سوريا كثيرا من جراء ما ارتـكبه المغوليون من سلب ونهب لثرواتها ، كذلك الاناضول ـ مركز المنطقـة التركية ـ وقع تحت سيطرة الدولة المغولية ما يقرب من سبعين عاما •• ثم يمضى المؤلف فى سرد الاحداث التى وقعت فى العـالم الاسـلامى بعد الغارة المغولية ـ بمـا فيهـا دخول المغوليين الاسلام ـ مبينا الجهود التى بذلها الحكام لاستعادة مجدهم وسلطانهم •

انقسم العـالم الاسـلامى بعد الغارة المغولية الى منطقتين :

الأولى : تمركزت فى ايران ، وامتد سـلطانها نحو الغرب عبر الاناضول حتى حـدود المنـاطق الاوربيـة ، ونحـو الشرق حتى الهنـد ، واقتصر استعمال اللغـة العربية فى هذه المنطقة على الدين وعلومه ، أما فى المجالات الاخرى فقد حلت اللغة الفارسية محلها •

الثانية : المنطقـة العربيـة ، وتوزع النفوذ فيهـا بين العـراق ومصر ، التى امتد تأثيرها الثقافى فشمل شمال ووسط أفريقيا •

وقعت المنطقتـان سياسيا تحت تسلط الاتراك والمغوليين ، وكان

الدين هو الرباط الوحيد بينهما ، لكن فى صورته الصــوفية ، التى ظهرت فى أول الأمر فى عام ٧٠٠ م لــكن تعقبهــا كل من الســنيين والشيعيين واتهم بعض رجالهـــا بالزندقة .. ثم ذكــر المؤلف فى معرض حديثه عن الافكار الصوفية ان الغــزالى (١٠٥٨ ــ ١١١١) ــ وهو من أشهر علماء السنة ــ هو الذى مزجها بالمذهب السلفى ، مما جعل الصوفيين يتبوؤن فيمــا بعد مكانا مرموقا عند المسلمين . ثم يختم الباب بقــوله : « اقترب المذهب السنى من الصوفية بعــد الغارة المغولية كثيــرا لدرجة أن الصــوفيين كانوا فى كثــير مــن الاحوال يمثلون الاتجــاه الدينى الرسمى ، على الرغم من أنهم لم يغيروا أساليب طقوسهم الصوفية . فمنذ القرن الثالث عشر الميــلادى والناس ينظرون الى الدرويش على انه نمــوذج للحيــاة الدينيــة فى الاسلام . ومما يحمد للصوفية أن الوحــدة الدينيــة ظلت متماسكة بفضل جهودهم كما كان لهم تأثير فى بقاء المسلم متمسكا بعقيــدته ، اذ انتشرت أفكارهم فى المجتمع فى عهد الضعف والانحلال ، ثم صيغت رسميا فى أول عمل سياسى للدولة العثمانية .

* * *

٩ ــ العثمانيــون :

حول السلجوقيون شرق ووسط الاناضول الى الاسلام ، وعنــدما شن المغوليون غارتهم كانت هــذه المنطقة فى عصرها الذهبى ، فاستمر الســلجوقيون ــ كولاة خاضعين للسلطة المغولية ــ فى الاحتفــاظ بوضعهم حتى بداية القــرن الرابع عشــر الميــلادى . ثم اســتولى الدراويش والمغامرون على السلطة السياسية والدينيــة . وساعدهم فى ذلك الاتراك الرحل الذين فروا من امام الغزو المغولى .

استطاع أحد هؤلاء المغــامرين ــ ويدعى عثمان ــ أن يشن حربا على المناطق المسيحية المجــاورة ، استمرت من ١٢٩٩ ــ ١٣٢٦ م ، ... ويمضى المؤلف فى سرد أخبار خلفــائه وحــروبهم فى أوربا من عام ١٣٥٤ م حينما عبروا مضيــق

الدردنيـــل حتى عهـــد مـــراد الثـــانى (١٤٢١ ــ ١٤٥١ م) الذى قـاد حـــروبا مظفـــرة ضـــد المجـر وبولاندا والصرب واليونان ، ثم تنـاول الوضـع الداخلى للدولة وظهور الاقطاع ، وفساد الحياة السياسية ، واضطرار السلاطين ــ عندما تبين لهم عـدم قدرة السلطة المركزية على حـكم البـلاد لاتساعها ــ الى الاستعانة بالمرتزقة ففشت الرشوة بين رجال الدولة فقـد كان الولاة يشترون مناصبهم ، ثم يحصلون ما دفعوه من سكان ولاياتهم عن طريق فرض الضرائب الفادحة ، فاشتدت الوطأة على الشعب ، كما أهملت المشروعات الاصلاحية ، والخدمات ، فلم تشق قناة ، ولم يعبد طريق ، مما جعل الفـلاحين لا يزرعون من الأرض الا ما يسـد رمقهم وعـائلاتهم ، فانهـار الوضـع الداخلى ، ومن أشهر الامثلة على ذلك ما أصـاب مصر بعـد الغـزو التـركى فى عام ١٥١٧ م فقد كان يتولى امارتها أحد الباشوات ، فكان المماليـك الـذين تولوا الادارة فى الاقاليم يتمـردون عليـه ويشقون عصـا الطاعة لدرجة انهكت قوى الدولة فى الصـراع الـذى اندلـع بين المجمـوعات المتصـارعة على السلطة ، وكان من نتيجـة ذلك انتشار الأمراض والفقر ، وانهيار الاقتصاد فنقص عـدد السكان ، وأصبحت البلد التى كانت تتمتـع بخيرات أرضها الوفيرة تعانى من فقر مدقع .

بدأ الوضع كما لو كان الخلفاء قـد أغمضوا أعينهم عن الحـالة الداخلية المتهورة لكنهم استطاعوا الصمود طويلا بفضـل حمـلاتهم الحربيـة ضـد أوربا المسيحية ، فقضوا على الدولة البيزنطية قضاء تامـا عندمـا استـولوا عـلى القسطنطينيـة فى عـام ١٤٥٣ ، ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث المعارك التى خاضها العثمانيون فى دول البلقان .

* * *

١٠ ــ فارس بين الانحطـــاط والازدهار :

اتجه العثمانيون نحو الشرق ، ففرضـوا سلطانهم على الامارات

المتبقية فى الاناضول ، ومن بينهـا المملكة البيزنطية طرابزون ، التى ضمت فيما بعد الى الدولة التركية بعد زواج « أصون حسن » من أميرتها • كذلك وقعت بينهم وبين القبائل التركستانية ــ الذين حطوا رحالهم فى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات ــ معـارك هزمت فيها تلك القبائل على يد محمـد الثـــانى فى عام ١٤٧٣ ، فمـد العثمانيون سلطانهم على الاراضى الفارسـية ، لـكن الصـــفويين استطاعـوا فى عام ١٥٠٢ اغتصاب الحـكم فى ايران وتكوين دولة شيعية •

أرجع مؤسس الدولة الصفوية نسبه الى على بن أبى طـالب ، وأعلن مذهب الشيعة مذهبا رسميا للدولة ، فقـــامت بين الشيعيين الايرانيـين وبين العثمانيين السنيين عداوة مذهبية ، ظلت نارها متأججة حتى نهـاية الدولة الصـفوية ، وكانت لها آثار سيئة على السنيين المقيمين فى ايران ، اذ اضـطهدتهم الـدولة ، وتعقبتهـــم فى كـل المجالات •

أحرز سليمان الأول نصرا محليا على الصـفويين ، فغـزا المدينـة الايرانيـة تبريز ، لـكن سرعـان ما اسـتعادت الدولة سـلطانها ، ووصلت الى ذروة مجدها فى عهـد عباس الأكبر (١٥٨٧ ــ ١٦٢٩ م) الـذى نقـل مقـر الحـكم الى أصفهان ، وكون أول جيش نظامى فى دولته ، وصرف لأفراده رواتب منتظمـة ، فانتزع به بغـداد من الاتراك ، كما استولى على المدينتين المقدستين عند الشيعة ، وهمـا : مشـهد وكربلاء • لـكن الدولة انهارت تدريجيا بعد موته ، بسبب النفـوذ المتـزايد لرجـال الدين الشيعيين وبسبب غارات الافغانيين الذين استطاعوا فرض سلطانهم على مناطق ايرانية فشاعت الفوضى فى الـدولة ، وأدت الى قيـام دولـة القارجاريين ــ ويجرى فى عروقها دم تركى ــ الذين حـكموا اسما فقط حتى عام ١٩٢٥ م •

كان المنتصر فى هـذا التحول هم الروسيون والاتراك ، فقـد ضم الروسيون فى عهـد بطـرس الأكبر مناطق جـديدة على البحر

الـكاريبى الى دولتهم ، واحتـل العثمانيون غرب فارس .

* * *

١١ ـ سليمان العظيم :

كان عام ١٥١٧ م بداية حقبـة زاهرة فى تاريخ الدولة العثمانية ، وذلك بعد غزو مصر ، فعندما قضى السلطان سليم على آخـر سلطان مملوكى فى مصر ، ومحا واجهـة الخـلافة العباسية فيهـا ، أصبح الطريق الى مكة مفتوحا أمامه ، فوحد السلطة الدينية والسياسية . كما سـهل له استيلاؤه على مصر والمناطق الخاضعة لهـا اخضـاع شمال أفريقيـا له ، وفتـح باب التحكم فى تجارة حوض البحـر الأبيض المتوسط ، فأقام أسـطولا بحريا ليفرض سيطرته على هـذه المنطقـة فى مواجهـة القـوى المسيحية .

لم تظهر فعالية هـذا الاسطول الا فى عهد ابنه سليمان العظيم ، الذى انتقل اليه الحكم بعد أبيه ، دون أن يظهـر الصراع المـألوف ـ فى مثل هذه الاحوال ـ على السـلطة . وصـفه الاوربيـون بـ « العظيم » بسبب ما شاع بينهم عن بلاطـه من أحـداث وقصص خيالية ، أشـبه ما تكون بقصص ألف ليلة وليـلة ، أما المسلمون فيلقبونه بـ « القانونى » لأنه أعاد تنظيم الجيش وأدخل تعديلات فى قوانين الملكية ، وفى أنظمة الدولة .

أدخـل سليمان تعـديلات فى العـلاقات السياسية بالمنـاطق الشمالية فور توليـه الحـكم ، اذ استغل النزاع الداخـلى فيهـا ، فغـزا بلجـراد فى عام ١٥٢١ م ، كما نفـذ خطط أبيـه ، فاستولى على جزيرة رودس ، فقضى بذلك على قراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون حركة التجارة التركية. كذلك استفاد من النزاع الذى كان قائما بيـن القيصر الالمـانى وملك فرنسا ، الذى أيـد سـليمان فى سياسته فى أوربا ، فظل الفرنسيون بفضل هـذه السياسة مفضلين فى بلاط السلطان العثمـانى لعـدة قرون .

هزم سليمان المجر فى موقعة « موهاكس » فأجبر « فرديناند » قيصر النمسا على تتويج « يوحنا زابوليا » ملكا على المجر .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث معاركه فى أوربا ـ وشمال افريقيا حين طرد كارل الخامس من الجزائر ـ وسياسته مع حكامها ، واقامته المساجد فى المناطق التى استولى عليها ، ثم فترة الهدوء النسبى التى سادت الجبهة الأوربية بسبب انشغاله بحروب ضد ايران لتخليص بغداد من الشيعيين وتعقبهم حتى احتل تبريز . ثم بعد الانتهاء من الجبهة الايرانية . استأنف نشاطه فى أوربا حتى أجبر « فرديناند » على دفع الجزية للدولة العثمانية .. ثم ختم الحديث عن سليمان بقوله :

« قويت الدولة فى عهد سليمان ـ الذى امتد ٤٩ عاما ـ الى درجة ، لم تبلغها أى دولة فى آسيا وأوربا فى ذلك التاريخ ، فقد ارتفع الهلال التركى فوق الاناضول وشمال أفريقيا ، ومصر ، وفلسطين ، وسوريا ، والبلقان ، والمجر . وفى المجال السياسى والعسكرى استطاعت الدولة العثمانية أن تثبت قدرتها بتفوق على العمل فى عدة جبهات فى وقت واحد ، فلمع نجمها وتلألأ مجد سلطانها بين الدول . ويرى المؤرخون أن الدولة بلغت ذروة مجدها فى عهد سليمان العظيم ، ثم بدأت طريقها الى الضعف بعد موته ، وأخذت تترنح فى طريق منحدر ، ولم يستطع خلفاؤه انقاذها لأنهم كانوا ضعافا عاجزين .

دكتور محمد شامة

دراسات لغوية :

نظرة إلى الجديد في علوم اللغة

للدكتور توفيق محمد شاهين

— ٢ —

فروع علم اللغة :

اللغة ظاهرة متشابكة ، وتتألف من عناصر كثيرة ، وتختلف طرق تناول كل عنصر منها باعتبار النظرة من الدارسين للغة ، وباعتبار تنوع اغراض الدراسة وتنوع التناول والمنهج .

وكثرة فروع اللغة وتنوعها وتدرجها جعل تحديد المعالم بين الاقسام والفروع يتفق أحيانا ويختلف أحيانا أخرى : فهو نظرى مرة ، وهو تطبيقى مرة أخرى ، وهو نفسه بين بين — بمنظارين — مرة ثالثة .

لذا كان الاتفاق العام ، أو شبهه ضروريا فى تحديد التقسيم فى مثل هذه الدراسة الموجزة تبيانا للدارسين ، وتحديدا للمصطلحات ، وتنميما للفائدة . ويمكن تحديد فروع علم اللغة للدراسة فيمايلى :

أولا : دراسة علم الأصوات أو (الفوناتيك) : Phonetics

كما يسميه الغربيون ، وهو يتناول عنصر الصوت من اللغة لتحديد مخارج الأصوات ، وطرق احداثها وتصنيفها ، وما يعرض لها من تبدلات على مر الزمان وأسباب ذلك ، ودراسة أعضاء النطق التى تتصل بالصوت ، وأثر بعضها على بعض ..

أو بمعنى آخر : (الفوناتيك) هو علم الأصوات المجردة الذى يدرس الأصوات فى ذاتها ولذاتها ، دون الاهتمام بالوظائف التى تقوم بها هذه الأصوات فى اللغة ، وانما يتناول دراسة مكونات الصوت ، وعناصره الأساسية ، وعدد ذبذباته وطبيعتها ...

ويتفرع علم الأصوات الى :

أ ــ علم الأصوات الوصفى : (••• ــ Descriptive)

ويطلق على دراسة أية لغة دراسة صوتية على نحو ما سبق ، لكن فى فترة معينة من الزمان .

ب ــ وعلم الأصوات التاريخى : (••• ــ Historical)

ويعنى بدراسة لغة ما ، دراسة صوتية ، خلال فترة طويلة من الزمان ، بغرض الوقوف على ما أصاب هذه الأصوات من تطور وتبدل ، والبحث عن المؤثرات التى خضع لها هذا التطور .

جـ ــ وعلم الأصوات المقارن : (••• ــ Comparative)

ويعنى دراسة لغتين أو أكثر ، دراسة صوتية ، لبيان أوجه الشبه والاتفاق ، واظهار صلات القربى التى بينها .

د ــ وعلم الأصوات العام : (Phonetics)

حين يكون الغرض من الدراسة ، الوقوف على حقائق الأصوات اللغوية للغات ، والكشف عن القوانين العامة التى تحكم تطورها .

ثانيا : علم الأصوات التشكيلى ، او التنظيمى : (الفونولوجيا) :
Phonology

وهو دراسة تنظيمية تتناول عناصر الصوت من اللغة مثل سابقه ، لبيان وظيفة الصوت فيها : أى انه يدرس النظم الصوتية للغة معينة ، كما ينطقها أصحابها ، وذلك كمعرفة الفرق بين نطق الوسيلة بالترقيق ، والوصيلة ــ بالتفخيم فى العربية ، فالفونولوجيا يكتشف عن التقابلات فيما بين نطق الحرفين . وكقولهم : التاء اذا وقعت بعد حرف مطبق فى صيغة افتعل قلبت طاء : كاصطبر فى اصتبر .

فالصوت فى سياقه يختلف عن الصوت المجرد من حيث كمية الجهد اللازمة لانتاجه ، ومن حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه أو اللاحقة به .

ولهذا التأثر قوانين عامة فى جميع اللغات ، بحيث نجد صوتا

كالنون مثلا فى العربية ، قد ينطق على سبع صور بحسب الصـوت التالى له ، وكل هذه الصور أعضاء لفونيم واحد ، هو (النون) ، وكلمة (فونيم) معناها : ــ مبـدئيا (الوحدة الصوتية) التى تأخـذ عـدة صور باختـلاف المواقـع المؤثرة فيهـا .

علما بأن مبـاحث (الفونتيـك والفونولوجيا) شديدة التـداخل بحيث يعسر أحيانا فصلها ، ولذا فإن بعض العلمـاء يدرجهـا مـع بعضها .

ويتفرع علم (الفونولوجيـا) الى : « الفونولوجيا الوصفية » ، والتاريخية والمقارنة ، والعـامة ، كتفـرع (الفوناتيـك) بحسب الاعتبارات التى ذكرت هناك .

وعرف علماؤنا العـرب دراسـة الأصـوات فى (الفوناتيـك والفونولوجيـا) تحت اسم (علم التجويد) ، الذى بهـر العلمـاء الغربيين بدقته وتنظيمه .

ثالثا : علم المفردات ، او المعجمية .. او متن اللغة : (اللسيكوجرافيا :)
Lexicographia

وهـو يعنى بالمفـردات ، وتصنيفها الى (اسم وفعل وحرف وظرف وصفة ...) وينقسم الى علمين : علم (المورفولوجيا) اذا اهتم بشـكل الكلمة وصيغتها : وعلـم السيماتيـك) اذا اهتـم بمعنـاها .

رابعا : ــ علم الصرف ، الصيغة أو البنية : (المورفولوجيا) :
Morphology

ويبحث فى أحوال الكلمة من : الجمـود ، والاشتقاق وأصـله ، والمجرد والمزيد ، وحروف الزيادة . وما يحدث من تغييرات عند التثنية والجمع ، والتـذكير والتـأنيث ، وما يحدث للفعل عنـد اتصـاله بالضمائر . والطرق القياسية التى تنمى اللغة .

وينقسم علم (المورفولوجيـا) الى أربعة أقسام هى : الوصفية ، والتاريخية ، والمقارنة ، والعامة ، بحسب اعتبارات التقسيم السابقـة فى (الفوناتيك) .

خامسا : علم الدلالة أو (السيمانتيك) : Semantic

وهو يحدد معنى الكلمة أو معانيها المتعددة (كالمشترك والمتضاد والمترادف) والعلاقة بين الكلمة والمعنى ، وتبدل المعنى وأسبابه ، وحياة الكلمة من نشأتها حتى موتها .

سادسا : ـ علم النظم : السنتيكس : Syntax

ومعظم مباحثه تشبه علم النحو عندنا ، مثل بناء الجملة ، وحروف المعانى التى تربط بين اجزاء الكلام ، وفى شكل الجملة (ابتدائية ، أو استفهامية ، أو اخبارية ، أو منفية ، أو تعجبية ...)

وينقسم هذا العلم الى أربعة أقسام : وصفى ، وتاريخى ، ومقارن ، وعام ، كما سلف .

سابعا ـ علم الأساليب : (الستيلستيك) Stylistic

وهو يبحث فى أساليب اللغة ، واختلافها باختلاف فنونها من : (شعر ونثر وخطابة ومحادثة ، وكتابة ، ومسرح ...) وينقسم هذا العلم الى الأقسام الأربعة المعروفة .

ثامنا : ـ علم اللغة الوصفى : Descriptive

وهو مجموع ما مر معنا من فروع علم اللغة الوصفية : فدراسة اللغة فى الأصوات والمفردات والتراكيب دراسة وصفية ، هدفها الكشف عن الحقائق اللغوية فى لغة ما ، وبيان خصائصها فى (فترة محددة) من الزمان ، يسمى : (علم اللغة الوصفى) .

تاسعا : علم اللغة التاريخى : Historical

هو دراسة ما سبق فى (ثامنا فى فترة طويلة من الزمان ، لبيان التبدلات والتغييرات وأسبابها . وبعض المحدثين يسمى دراسة المفردات وحدها ، دون الأصوات والتراكيب باسم : (الايتيمولوجيا) ، .. لبيان تاريخ الكلمات أساسا .

عاشرا : علم اللغة المقارن : Comparative

هو دراسة ما سبق لكن بين لغتين أو أكثر ، دراسة مقارنة بين عناصر اللغة لبيان أوجه الشبه والصلات . كما قارن العلماء بين

الساميات : (العربية ، والارمية ، والاكـــدية ... الخ) . وبين **الآريـات** : (السنسكريتيـة ، والفارسية ، والأرمنية ، والسلافية ، والاغريقية .. الخ) .

حادى عشر : علم اللغة العام :
General linguistics

هو دراسة مجمـوع الفـروع السابقة فى علم اللغة العـام ، بين مجموعة من اللغـات للكشف عن وجوه الاتفاق بينهـا ، والقوانين العامة التى تحكمها .

كمـا انه يتنـاول المشـكلات الآتيـة :

صراع اللغات ، وانشعابها الى لهجـات ، وعـوامل انحطاطهـا ورقيها ...

ملاحظـة :

هناك علوم لغـوية أخـرى ، تحسب ضمن هذه الفروع ، لكن بعض الباحثـين يعـدها علوما مساعدة لا أصلية ، مثـل : نشأة اللغـــة ، والامـــلاء والرسم ، والترجمـة ، ومشـاكلها وتعليم اللغات المحلية والاجنبية ، وعلاج العيوب العائقة عن الكلام ، وعلم النفس اللغوى ، والبيئة اللغوية ، وتحقيق التراث ، ولـكن هـذه كلهـا ـ فى الواقـع ـ فـروع ومباحث لغـوية ، تجب العنـاية بدراستها لاتصالها الوثيق باللغـة وعلومهـا .

من تاريخ البحث فى علوم اللغة :

اللغة خاصية الانسان وميزته ، ومبعث فخـره واعتزازه ، ولذا ما فتىء منذ القدم يحاول كشف سرها ، ويوليها البحث والتفسير ، عله يهتدى الى كنهها ، وكيفيـة اصدارها ، وديناميكيتها .

ويمكن حصر تاريخ الدراسات اللغـوية فى ثلاث حلقـات ، هى دراسة العصور القديمة والدراسة العربية ، ودراسة المحـدثين فى الغرب ، وبذلك نعرف شيئا من تاريخ هذا العلم ، ولا يخلو أحيانا من طرافة أو خرافة :

ففى العصور القديمة :

نجـد أن الدراسات اللغـوية تركزت حول محـورين أساسيين همـا :

البحث عن أصل نشأة اللغة ، وعن العلاقة بين اللفظ والمعنى • وتبع هذين المحورين البحث فى قواعد اللغة ، وتصنيف مفرداتها ••

فالله تعالى هو الذى علم آدم الأسماء كلها ، أو منحه القدرة على التسمية كما جاء فى التوراة ، والقرآن الكريم ، لأن اللغة شىء عظيم ، ولا يمكن أن تكون الا من عظيم قادر مبدع •

والاله (ذوس) عند قدماء المصريين هو أصل (اللغة والكتابة) •

وحاول فرعون مصر (ابسماتيك) فى القرن السابع قبل الميلاد ، معرفة نشأة اللغة الانسانية الأولى •

والبابليون (٣٠٠٠ سنة ق•م) نسبوا اللغة الى الههم (نابو Nabu) •

بينما يعتقد الصينيون : أن السماء أرسلت ماء وسبحت فيها التماسيح ، وفى ظهرها علامات الكتابة •

وأما الهنود فيرون ان الاله (براهما) ، هو الذى منحهم قوة الكتابة ، ولذا اهتموا بلغتهم الفيدو ـ سنسكريتية V. Sankrit) ،

وحافظوا على نطقها ، ووضعوا نحوها فى القرن الرابع قبل الميلاد •

يحكون أن الشعب الشومرى ـ (٣٥٠٠ سنة ق•م) جنوبى العراق ـ ترك لغة عرفناها من نصوصها بالخط المسمارى ، ووضع لها (الاكديون) من الشعوب السامية بعدئذ قواعد لتسهيل استعمالها واتخاذها لغة دين ودنيا ☜

وهكذا خلط الانسان أمر اللغة ـ فى أول الأمر ـ بالاسطورة ، وحاول تلمس نص يرتكز عليه •

وهذه وغيرها نظريات أدت الى اتساع نطاق البحث اللغوى ـ بعدئذ على أسس علمية الا انها لم تؤد الى يقين قاطع فى أصل وماهية اللغات ، لأن مئات الألاف

من السنين مرت قبل أن تتبلور أى لغة ، ولذلك ينفى (ارواد سابير) أن تكون هناك لغات بدائية لأننا لا نعرف أى جماعة بشرية الا وتتكلم لغة كاملة التطور .

واشتغل فلاسفة اليونان (بميتافيزيقا) اللغة وأصل الكلمة .. فى القرن الخامس ق.م. كما اشتغل الرواقيون بفقه اللغة الفلسفى .

وعرف التاريخ من المعاجم اليونانية معجم (يوليوس بوليكس) فى المعانى والموضوعات وكذلك معجم (فاليرموس فيليكس) ، الذى ألف فى عهد الامبراطور (أغسطس) فى معانى الألفاظ .

كما اعتبر اليونانيون أن أفلاطون أول من اكتشف الأسس النحوية .

ويلاحظ المؤرخون أن الأغريق تباطؤا فى دراساتهم اللغوية ، مع أنهم أمة لهم تبكيرهم فى التفكير والنضج العلمى ، لأنهم اعتقدوا أن لغاتهم أفضل لغات العالم ، وأن ما عداها يشبه نقيق الضفادع ، على نحو ما حكى ابن حزم عنهم فى أصول الأحكام .

وشرحت مدرسة الاسكندرية فى القرن الثالث ق.م. ، ما غمض من أشعار (هوميروس) الذى عاش فى القرن التاسع ق.م. ، فنشطت الحركة (الفيلولوجية) .

كما أسهمت روما فى الدراسات اللغوية فى القرن الثانى ق.م .

ويذكر المؤرخون أن معجم (شوفان) لمؤلفه (هوشن) ، والمطبوع سنة ١٥٠ ق.م وكذلك معجم « يوبيان » لمؤلفه (كوبى وانج) ، والمطبوع سنة ٥٣٠ م من أقدم المعاجم التى عرفها الباحثون اللغويون عن الأمة الصينية واليابانية .

وعند علمائنا العرب :

أدت الدراسات القرآنية والعربية الى تطور كبير فى الدراسات اللغوية والأدبية والنحوية :

فقد كان فى الجاهلية مناظرات ومفاضلات أدبية ، على نحو ماروى عن أمرىء القيس واضرابه ،

والأسواق الأدبية ، ومدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجيد الشعر ورائع النثر ، واهتزاز عمر ـ رضى الله عنه ـ للشعر ، وسجدة الفرزدق لبيت عبيد بن الابرص ، لأن المسلمين يعرفون سجدة القرآن .. وهو يعرف سجدة الشعر ، كما قال .

وكان الحافز الدينى هو دافع علماء المسلمين للحفاظ على لغة الضاد ، التى هى وعاء مقدسات الاسلام ، فكان النهوض المبكر من أبى الأسود الدؤلى لوضع الضوابط النحوية ، بدافع منه ، أو اشارة من الامام على ـ رضى الله عنه ـ . ثم اتسع نطاق البحث النحوى عند العرب ، أو (علم التنظيم التعليمى) كما تسميه الفرنجة . واشتد التنافس بين مدرستى البصرة والكوفة ، فنشأت المدرسة البغدادية التى تؤازر السماع ، وتأخذ بوجهة القياس ، وكان من أبرز علمائها : الفارسى وابن جنى ، واستقرت قواعد النحو والصرف فى ذاك العهد ، ولم تضف مدرسة الاندلسيين والمصريين الى تلك الدراسات بعدئذ سوى التفضيل والاختيار والتفصيل ، أو الاجمال والاختصار .

وأقدم مدرسة لغوية هى ماحكى عنها السيوطى ـ فى الاتقان ـ مدرسة (ابن عباس ٦٨ هـ) رضى الله عنه فى سؤالات نافع ابن الأزرق ، وتفسيره القرآن الكريم .

كما يعزى اليه كتاب : « غريب القرآن » وهناك نسخة منه فى برلين .

وسيذكر التاريخ عبقرية الخليل ابن أحمد (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) فى كتبه : (معجم العين ، والايقاع والنغم ، والنقط والشكل ، والعروض ، والشواهد ، والجمل ، ومعانى الحروف) .

وتبعه على الضرب تلاميذه الرواد : صاحب الكتاب « سيبويه ١٨٠ هـ ، وأبو فيد السدوسى (٩٨ ١هـ) والاصمعى (٢١٦) وغيرهم .

وعاصر هؤلاء الاعـلام أو جاء قبلهم من ألف مبدعا ، أو أضـاف جـديدا ، أو وضـح فـكرة فى الدراسات اللغوية ، مثل : أبوعمر ابن العلاء (١٤٥ هـ) ، والمفضل الضبى (١٧٠ هـ) ويـونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ، وأبـو زيـد الانصـارى (١٥ ٢هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام الهروى (٢٢٣ هـ) .. وابن الاعـرابى (٢٣١ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٣ هـ) وغيرهم.

وشغل العـرب باعجاز القـرآن وتحديه ، وبلاغته وروعته فدرسوا ذلك وانتظم لهم ما يعرف (بعلوم البلاغة) ودرست أول أمـرها فى داخـل الرائع من النصـوص على يدى أمثال ابن المعتز ، وأبى هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ... ثم خلطت بالمنطق والفلسفة ، كما صنـع السكاكى فى كتابه : (مفتـاح العـلوم) ، والخطيب القزوينى فى (تلخيص المفتاح). ونلاحظ أن علوم البـلاغة كعلوم جمالية ، تأخرت عن النحو والصرف كعلوم كماليـة . مـع أن العلماء العرب كانوا موسوعة فى ثقافتهم ، فكثير منهم : نحـوى ، لغوى ، صـوتى راوية ، أديب ، قارىء ، وبعضهـم صـوتى ، موسيقى ، رياضى كالخليـل بن أحمد . حتى جاء كتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) غريب القرآن ،خليطا بين منهجى كتب اللغـة وكتب التفسيـر ، وكتاب سيبويه جامعـا لقـواعد العربية ، والأصـوات واللهجات .

وكان قصد العرب الأول هـو المحافظة على ضبط القرآن الكريم وقراءته وتجويده ، فعرفوا الوجوه التى نطقت بهـا العـرب ، وطريقة أداء القرآن ، بالتلقى والمشافهة ، ودرست اللهجات العـربية فى ظل القـراءات القرآنية ، ولو دونها العلماء عند جمع اللغة ،لأسدوا الى لغتهم الجميل الوافر ولأراحونا . على كل تعرفنا على مخارج الحروف وموسيقاها ، وصفاتهـا ، وحتى نظم ذلك فى الشاطبية وغيرها .

فبـداية الـدرس اللغـوى وان كانت نحوية لغوية ، الا أن لغويى ذلك العهد كانوا من القراء وعلماء القـراءات والتجويد الذى بهـر علماء الغرب .

وهـذا اللون من البحث هـو ما عـرف أخيرا عند علماء الغرب بالأصوات الذى يضم (الفونتكس Phonology) ، أى الوصف. و(الفونولونجى Phonetics) أى التنظيمى .

وهـذا الجيل على الرغم من أنه كان حافلا بالكثير من الموالى غير العـرب ـ كمـا يقول الدكتور عبد الصبور شاهين قـد حمـل أمـانة القرآن والعربية حملا عربيا خالصا ، اذ أن العربية كانت تيارا استوعب كل الموجات الداخلة فى المجتمع .

ويروى عن ابن عبـاس ـ رضى الله عنه ـ قوله : « الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله ، رجعنا الى الشعر ، فالتمسنـا معـرفة ذلك منه » .

ويقول : « اذا تعاجم شىء من القرآن فانظـروا فى الشعر ، فان الشعر عربى » ... وكانت لذلك انطلاقة علماء العرب فى جمع الشعر وتدوينـه ، والتنقيب عن معـان غريبة . هادفة فهم كتاب الله : فقد روى أن عمر ـ رضى الله عنـه ـ استفسر عن معنى « تخوف » فى قوله تعالى : « أو يأخـذهم على تخوف » وهو على المنبر ، فقال له اعـرابى تلك لغتنـا يا عمـر ، ومعناها « تنقص » وروى له قول شاعرهم ذى الرمة :

تخوف الرحل منها تامكا قردا.

ومن ثم عظمـت الدراسـات الأدبية ، والعنـاية بتاريخ الأدب ونقـده ، ودرست التـراجم والمؤثرات فى الأدب ، والعـروض والقوافى ...

ولخـوف العرب على لغتهم ، انطلق العلماء الى البـوادى لجمع اللغة من أصحابها الخلص الموثوق بعربيتهم ، وألفوا فى ذلك رسائل خاصة فى الألفاظ أو المعانى مثل : كتاب اللغات فى القرآن لابن عباس .. ولغات القبائل ليونس بن حبيب (١٧٢ هـ) ، وكتـاب الحشرات لأبى خيرة الأعرابى ، استاذ الخليل ابن أحمد . وغـريب الحديث ، لأبى عبيـدة معمـر بن المثنى

(٢١٠ هـ) • وكتاب الأنواء ، لأبى حنيفـة • واسمـاء الوحـوش والغابات للاصمعى • والزاهر فى غـرائب ألفـاظ الامام الشافعى ، لأبى منصـور محمـد بن أحمـد الأزهـرى (٨٢ ٢ــ ٣٧٠ هـ) ، وكتاب النحل والعسل لأبى عمرو الشيبـانى (٢٠٦ هـ) والحيـات والعقارب لأبى عبيدة (٢١٠ هـ) وكتـاب الذباب لأبن الأعـرابى (٢٣١ هـ) وكتـب الحشـرات والجـراد ، والنحـل والعسل ، لأبى حـاتم السجستانى (٢٥٥) •• وكتاب الخيـل وكتاب حلق الانسـان ، لابـن كركرة والنضر ابن شميل (٢٠٤ هـ) • ونوادر ابن الأعـرابى ، وأبى زيـد بن الانصار وجبال العـرب ، لخلف الأحمـر (١٨ هـ) ومنـازل العرب ، وحدودها ، لأبى الوزيـر عمر بن مطرف (١٨٦ هـ) ومياه العرب وجزيرة العرب ، والدارات للاصمعى (٢١٦ هـ) •

فكانت هذه الرسائل وغيرها مما بقى منها ، خير حافظ للغة العرب من الضيـاع ، وأسـاس المدارس المعجمية العـربية المختلفة ، التى نفخر بها الآن •

* أما عنـاية العرب بالمباحث اللغوية فى تخصصها واحتصاصها ، فيمكن التـاريخ لهـا فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، على يدى أبى على الفاسى ، وتلميـذه ابن جنى وابن فارس ، والثعالبى •

فمن مباحث علم اللغة ما عرفته العـرب كالاشتقـاق للاصمعى (٢١٦ هـ » ومبـاحث التعـريف والاشتراك والترادف ، لابن سيده الاندلسى (٣٩٧ ــ ٤٥٨ هـ) فى (المخصص) •

ويعـد كتـابى ابن جنى : الخصائص ، وسر صناعة الاعراب •• من أحفل الـكتب بمباحث علم اللغـة التى يصح أن تفاخر بهـا العرب ، ففى سر صناعة الأعراب أحكام •

حـروف المعجـم ، ومخارجهـا وصفاتها ، وتصريفهـا واشتقاقها ، ونظمها مـع غيرها •• و •• فى : « الخصـائص » منهـج جـديد لدراسة النحو والصرف ، وتناوب

الحروف عن بعضها ، والاطراد والشذوذ ، ونشأة اللغة ، وخصائصها .. وجاء كتاب « المزهر فى علوم اللغة » للسيوطى (٨٤٩ — ٩١١ هـ) حافلة بمباحث الأقدمين فحفظها من الضياع كما أن له مباحث جديدة : كالاقتراح فى أصول النحو ، وحسن المحاضرة ، والشباه والنظائر .

وكذلك كتب التعريب ، والدخيل وضبطهما .

هذا غيض من فيض من عناية العرب بلغتها ، أطلنا فيها ، لأن كثرة من المستشرقين ، بل ومن أبناء العرب ، من ظلموا العرب أجدادهم فى عبقريتهم وسبقهم العلمى .

لكن بعض المحدثين لا يرى ذلك من فروع الدراسات اللغوية الا اذا قصد من دراستها التعرف على الاطوار التاريخية للالفاظ والقواعد والأساليب ، والعوامل التى أثرت فى تطورها . وكذلك الدراسات المقارنة بين هذه الفروع . أما الدراسات المتعلقة بجمع اللغة ، أو القواعد الصرفة ، أو تقوم على الحدس والتخمين ، كنشأة اللغة التى تقوم على أمور ظنية ، فليست كلها من مباحث علم اللغة .

وهذا رأى مبالغ فيه ، لأنها كلها داخلة فى المباحث اللغوية ، كما حددتها مجالات علم اللغة .

فانفصال العلوم النحوية والصرفية والبلاغية فى الدراسة اللغوية ، لا يعنى أنها خارجة عن نطاق الدراسة اللغوية ، والتجديد فى القواميس ما زال يطالعنا كل يوم بجديد نحن بحاجة أكيدة اليه اليوم .

وقد اسعفت الامكانات المتواضعة المتاحة وقتها علماءنا بهذا الاداء الجيد ، والضبط الواعى ، ولم تنقضه الدراسات الحديثة الا لماما .

وكذلك عرف العرب التتبع التاريخى للالفاظ العربية فى العصور المختلفة .

وعند علماء الغرب :

ظلت أوربا حتى نهـاية القـرن الثامن عشر بعيدة عن جو النهوض العلمى • وما سبق لعلمـائهم من دروس وبحوث لغوية قبـل ذلك كانت توصف بأنها مباحث لا تدخل فى نطاق علم اللغة :

مثل : بحوث : نشأة اللغـة ، وبحوث بنية الكلمـة ومادتهـا ، وطريقة استعمالها تماما كما وصفت أبحاث العرب الأقـدمين فى هـذا الجانب •

فلما تهيأ لأوربا فى نهـاية القرن الثـامن عشر أسـباب النهـوض العلمى ، أطلعوا على ترجمة العلوم العربية ، واستفادوا منها ، بينمـا غفا أهلها العـرب غفـوة طويلة ، لأسباب ليس هنا مجال سردها •

ويرى فردينـاند روسـور (١٨٥٧ ـ ١٩١٢ م) على نحـو ما يروى كتاب : « فى علم اللغـة العـام » ان العـلم الذى يدرس الأحداث اللغوية فى الغـرب مـر بثلاث مراحل ، قبـل أن يعـرف وجهته الصحيحة :

١ ـ مرحلة دراسة « النحو » وتنظيم القواعد ، ووصف الواقع ، دون اهتمام باللغة فى ذاتها • على نحـو مـا كان يصنع الاغريق ، والفرنسيون من بعدهم ••

٢ ـ ثم عرفوا (الفيلولوجيـا أوفقه اللغة) ، فى عهد (فردريك أوجست وولف) ابتـداء من عام ١٧٧٧ م ، على غـرار مدرسـة الاسكندرية : (الفيلولوجية) التى كانت تهتم باللغة وتوثيق النصوص ودراسـتها ، والتـاريخ الأدبى ، والنقد واحياء المخطوطات ، فكان ذلك تمهيدا لعلم اللغة التاريخى •

٣ ـ وجاءت مرحلة الفيلولوجيا المقـارنة ، أو النحـو المقـارن ، لاكتشاف العـلاقات بين اللغات ، على يـد المستشرق الانجـليزى (وليم جونز W. Jonce) (١٧٩٤ م) الـذى اكتشف قرب (السنسكريتيـة) لبعض لغـات أوربا وآسيا ، بعد المقارنات أثبت حكمه بأن (السنسكريتيه) أو فى من الاغريقيـة ، وأجمـل من الافريقية واللاتينية ، من جهة أصول

الكلمات وصيغ النحو ، وان جميعها متفرعة من أصل واحد .. كما أثبت العلماء ـ بعدئذ ـ ان الساميات من (صل واحد . كما ذكر د. ابراهيم نجا ، وأدت هذه الدراسات فى القرن التاسع عشر الى ظهور :

أ ـ علم القواعد المقارن : الذى يدرس القواعد دراسة تاريخية تفصيلية تحليلية فى فصيلة من اللغات الانسانية ، أو فى جميع الفصائل ، كما يقوم على الموازنة ، وعلى الأمور الدالية للالفاظ والقواعد وتطورها .

ب ـ وعلم القواعد التاريخى : الذى يبحث لغة واحدة ، ويعتمد على التحليل بلا موازنة ويعنى بالعناصر الخارجية التى تؤثر فى القواعد ، وتنقلها من حال الى حال عبر الأزمنة .

وتتابع البحث فى علم (الفيلولوجيا المقارنة) على يد « فرانز بوب » وماكس مولر Max Millar Franz Bob و (ج. كيرتيوس G. Curtius) و (أوجست شليشر Aug. Schiecher)

وعلى يد هؤلاء وتلاميذهم ارتقى البحث اللغوى .

ولكنه بلغ شأوا بعيدا ، وعرف مكانه الصحيح على يد عالم اللغات الرومانية (ديز Dies) مؤلف كتاب (نحو اللغات الرومانية) المنشور سنة ١٨٣٦ م وعلى يد العالم الامريكى (وايتنى Whitney) الذى ألف كتاب (حياة اللغة) عام ١٩٧٥ م وتوالى على أثرها العلماء : (برجمان Brugmann و (استوف Ostoff) و (براون Braune) و (سفرس Sivars) وعالم السلافية (ليسكيان Leskien) .

وبخاصة وعلى يد الرائد « فرديناند دوسور » فى كتابه : (محاضرات فى علم اللغة العام) وتلميذه (انطوان مييه « فى كتابه علم اللغة التاريخى ، وعلم اللغة العام ») .

ويصف « ماريو باى » مؤلف أسس علـم اللغـــة ، كتـــاب (دورسوسور) « بأنه أول كتاب رسم الأسس الدقيقة لعلم اللغـة الوصفى باعتباره فرعا من فروع علم اللغة » ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين عن أعمال « دوسوسور » العلمية : بأنهـا كانت تدور حول الدراسات المقارنة ومنهـا استطاع أن يقدم أفكاراً عن علم اللغة العام ، أى : انه بدأ تاريخيـا ، وانتهى وصـفيا فأضفى على علم اللغـة الموضوعية » .

ويتفـــق راى مـاريوباى ، ودوسوسور ، على أن لعلم اللغـة فروعا ثلاثة هى :

١ ــ علم اللغـــة الوصـفى أو التركيبى (Descriptive)

٢ ــ وعلم اللغـة التـاريخى : (Historical) .

٣ ــ وعـلم اللغـة الجغـرافى : (Geography).

والأول : أسـاس الدراسـات اللغـوية ، لعنايتـه بالصـــوتيات والفونيمات ، التى هى أكثر فروع اللغة موضـوعية ، ولعنايته كذلك بالاطـالس اللغـوية : تهـــذيبا أو وضعا .

والثانى : يهتم بدراسـة ماضى اللغـة ، للاستفادة منهـا فى حال اللغة أو مستقبلها .

والثالث : يهتم بدراسـة تنوع اللغات ، وأماكنها ، وتعقـد التنوع الجغرافى ، وتعايش اللغات فى مكان واحـد (كمـا فى سويسرا ، التى تعيش فيها الانجـليزية والفرنسية والألمانية جنبـا الى جنب) ، وعن اللغات الأدبية ، وانتشار اللهجـات وتوزعها مكانيا وزمانيا ، وانتشار اللغات ، وأسباب انتشارها ..

فالبحوث اللغوية تنوعت عنـد علماء الغرب ، الى : الصـوتية ، واللهجات الشعبية والعامية ، وعلم النفس اللغوى ، للارتبـاط الوثيق بين الدراسة اللغـوية والنفسية ، ودراسة اللغة من ناحيـة الدلالة ، وعلم الاجتماع اللغـوى ، لبيـان العـلاقة بين الظـــواهر اللغـوية والظواهر الاجتماعية : من ثقافة ، وعادات ، وتقاليد ، وحضارة .

ونحن نقـدر للغـرب جهـوده العلمية ، المبنية على أسس منهجية ،

ولا ننكر اضافاته البناءة • ولكن نأخذ عليهم اغفالهم جهود علمائنا ، وسبقهم فى هذا المضمار ، فهم قد تبعوا مناهجنا ابان نهضتهم، فكانت الحضارة الأوربية نتاج العقل الاسلامى والعقل الأوربى •

يذكر كتاب « فى علم اللغة العام » أنه يأخذ على الأوربيين فى تاريخهم للدراسات اللغوية : انهم يقتصرون فى سرد التاريخ على جهودهم ، بدءاً من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر ، دون أن يعرج أحدهم على ما قدم العلماء العرب من جهود فذة فى هذا الميدان •

وأنا معه فى تلك اللفتة الذكية ، والغمزة اللاذعة لقوم لا يعترفون بالجميل ، ولا ينسبون الفضل للسابق اليه •

ولو كانوا يؤرخون لعلم اللغة التاريخى ، المرتبط بالمقارنات اللغوية بين اللغات المختلفة باعتباره أوربى النشأة •• لعذرناهم فى مسلكهم •

ولكن علماء أوروبا لم يخلوا من منصفين : فالمستشرق الالمانى (أ• شاده) اعترف بجهود العلماء واسهامهم فى الحضارة الانسانية بما قدموا من دراسات لغوية لم يسبقوا اليها فى ميدان : النحو ، والصرف ، والأصوات ، والمعاجم •••

وقد خص (أ• شاده) بالدراسة جانب الأصوات فى بحث بعنوان (علم الأصوات عند سيبوية وعندنا) ــ انتهى فيه الى أن من الصعب اضافة أى تعديل على ما قدم سيبوية من تحديدات علمية •• لكل ما تعرض لدراسته من الظواهر الصوتية ، اللهم فيما عدا موضوع الحنجرة التى لم يعرف العرب لها وظيفة صوتية ، فجعلوها جزءا من الحلق •

وليس فى هذه الشهادة مجاملة من (ا• شاده) :

فقد وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية ، بحسب المخرج ، مرتبة من أقصى الحلق حتى الشفتين ، كما تحدثوا عن مخارجها وتصنيفها ، وأنواعها ، وحددوا الأصوات المميزة لبعضها عن

بعض .. كـل ذلـك بالاجتهـاد والذوق والعقل ، كما صنع الخليل ابن أحمد ،وكما كتـب ابن جنى وغيرهم رحمهم الله .

« للحديث بقية »

من المراجـع :

رجعت فى هذا الفصل الى عدة مراجع ، وجدتها متشابهة ومتحدة أحيـانا ، ولذا أغفلت ذكر المرجع والصفحة لكل اقتباس ، لأنها كثيرة أولا ، ومتفقة أحيانا ثانيا ، وخشية تضـخم الحاشية وكثرة الأرقـام والأقـواس ثالثا . فليرجع اليهـا من شـاء مـزيدا من الفـائدة ، وهى :

١ ــ مقدمة : للعلايلى .

٢ ــ اللغة : لفندريس .

٣ ــ فقه اللغة والأصـوات للدكتور : ابراهيم نجا .

٤ ــ اللغـة والفكر للدكتور عثمان أمين .

٥ ــ فى عـلم اللغـة العـام للدكتور عبـد الصبور شـاهين .

٦ ــ الوجيز فى فقـه اللغـة للدكتور محمد الأنطاكى

٧ ــ منهج البحث فى الأدب واللغة ــ مانسون ومييه ــ ترجمة د. محمد مندور

٨ ــ علم اللغة . د. محمود السعران .

٩ ــ مناهج البحث فى اللغـة د. تمام حسان .

١٠ ــ علم اللغـــة العـام . د. محمد كمال بشر .

١١ ــ أضواء على الدراسـات اللغـوية المعـاصرة ، للدكتور : نايف خرما .

١٢ ــ مجلة الفيصل السعودية عـدد ١٨ ذو الحجـة سـنة ١٣٩٨ هـ مقـال للدكتور محمود اسماعيل صينى ص ٦٨ .

دكتور توفيق محمد شاهين

اللغة الأردية :

نشأتها وتطوّرها

للدكتور سمير عبد الحميد ابراهيم

تعتبر اللغة الأردية ، أو كما يطلق عليها البعض اللغة الاردوية أو لغة الأردو اللغة الرسمية لجمهورية باكستان الاسلامية كما أنها لغة التخاطب بين سكان الهند جميعا .

واللغة الأردية ، التى هى احدى لغات المجموعة الهندو أوربية ، ظهرت فى شبه القارة نتيجة لدخول المسلمين هذه المنطقة ، وهناك اليوم بالهند حركة ترمى الى التخلص من اللغة الأردية والقضاء عليها فهى اللغة التى تربط مسلمى الهند (١٢٠ مليون) باخوانهم فى باكستان والبلاد العربية فالأردية تكتب بالحروف العربية والفارسية وتحتوى على كثير من الكلمات العربية والفارسية وفى الهند تجرى محاولات للقضاء على الخط العربى عن طريق تشجيع الكتب المطبوعة بالحروف الهندية ، ولقد أحسست بهذا أثناء تجوالى بمدن الهند التى كانت فيما مضى مراكز للغة الأردية مثل : دهلى ، على كره ولكهنو ... فاللغة الأردية أصبحت غريبة فى بيتها اذ ألبسوها ثوبا عجيبا حاكوه بخيوط قديمة من حروف اللغة السنسكريتية (ويدناكرى) الا أن حديثها لا يزال كما هو عذبا شفافا رغم اللسعات التى تقوم بها الحكومة على أحبالها الصوتية لتجهدها وتجعلها تنطق نغمات متحشرجة يطلقون عليها اللغة الهندية .. ولكن هيهات هيهات فاللغة التى ترعرعت فى ظل القرآن الكريم وفى ظل اللغة العربية ، لا يمكن أن تتأثر ولو دقوا أوتارها بأظفار من حديد .

وللحق أقول أن مسلمى الهنـد يحاولون بكل ما يملكون ـ رغم قلته ـ الابقاء على اللغـة الاردية بحروفها العربية وقد لمحت فى عيون المثقفـين المسلمين دمـوع الأسى والحزن الا أنها ممزوجـة بالأمل والايمان بحتمية النصر . ومن هنا يفرض علينـا الواجب أن نساعد هـؤلاء ويفـرض على الحكومة الباكستانية الواجب أن تتبنى طبع كتب مفـكرى شبه القـارة ممن يكتبون بالأردية ، وقـد أبكتنى كلمات قرأتها فى كتاب صدر لأحد الكتـاب المسـلمين بالهنـد تحت عنـوان (اردو كا الميـه) أى « مأساة الأردية » أبكتنى كلمات تحت عنـوان « الجيـل الأصم الأبكم » يقول المؤلف الذى أهدى كتابه الى بناته والى بنات الأردية اللاتى سلبن لغتهن الأم :

« ... الأجيال القادمة لا تحمل بين جنباتهـا الأسى فقط بل هى أيضا خرساء صماء ... فى فمها لسان الا أنها لا تقدر على الكلام لها آذان الا أنها لا تسمع وذلك لأنهم سلبوا هـذه الأجيـال لغتها الأم » .

وهذا يكفى لبيـان ما يعانيـه الهنادكة من حساسية تجـاه لفظة (اردو) فالأردية تنتشر فى ربوع الهند رغم محاولتهم التخلص منها والباسـها ثوبا آخـر يرتضـونه ويطلقون عليه (الهندية) الا أن الحقيقـة تظل واضحـة وتعلن عن نفسها يوما بعد يوم . وخلاصـة القـول أن اللغـة الاردية التى سنستعرض هنا تاريخها وتطورها لغة يتحدث بها ويفهمها جميع سكان باكستان وشمال الهند وقطاع ضخم من جنوبها بالاضافة الى عدد كبير من سكان المناطق الجنوبية بافريقيا وعدة ملايين فى لندن وكندا ، كما أنها تدرس كلغة أدبية حضارية فى معظـم جامعـات أوربا وأمـريكا واليابان .

وأهمية اللغة الأردية لنـا نحن العرب والمسلمين لا يمكن انكارها فاللغة الأردية خلفت خـلال عمرها القصير (٣٥٠ سنة) أدبا رفيعـا وثقافة عاليـة تمثلت فى مؤلفـات

قيمة فى مجالات الدراسات الاسلامية : القرآن والحديث ، والتاريخ الاسلامى بالاضافة الى المؤلفات النثرية والشعرية • وأرى من واجبنا هنا الاهتمام بهذه المؤلفات التى انتجها اخواننا من مسلمى شبه القارة الهندية الباكستانية تلك المؤلفات التى تتعلق بديننا وعقيدتنا ، ويجب أن نحرص على تعلم هذه اللغة حتى يمكننا فهم المتكلمين بها ومساعدتهم بقدر ما نستطيع •

والأزهر الشريف ايمانا منه بدوره التاريخى العظيم وافق على افتتاح قسم للغة الاردية وآدابها تبدأ الدراسة به هذا العام ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م وهو بهذا يسبق جامعة القاهرة فى افتتاح هذا القسم فالأردية تدرس بجامعة القاهرة قسم اللغات الشرقية كلغة ثانية وكذلك فى جامعة عين شمس التى وافقت على ادخال الأردية كلغة ثانية منذ العام الماضى فقط ، واننى أرى أن جامعة الأزهر بهذا تؤدى خدمة جليلة للمسلمين جميعا وتوطد أواصر الصداقة والأخوة بينهم •

وقد أشار على الدكتور عبد الودود شلبى بكتابة عدة مقالات أشرح فيها شرحا موجزا عن نشأة اللغة الأردية وتطورها فى ظل الاسلام والثقافة الاسلامية وكانت لمشورته الطيبة وقعا حسنا لدى فعكفت على مكتبتى أستخرج منها ما يتعلق بالموضوع من مراجع محاولا أن أقدم لقراء مجلة الأزهر مادة طيبة على قدر امكانياتى المتواضعة وتجربتى عبر سنوات عشر مضت •

وسوف أعرض فى المقال الأول نبذة مختصرة عن تاريخ شبه القارة لتلك المناطق التى نشأت فيها اللغة الاردية مع بيان أثر الاسلام والعوامل المؤثرة فى نشأة اللغة وتطورها •

نظرة تاريخية :

ــ ١ ــ

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى الا احتلالا لولاية واحدة فى أقصى

الغرب ، مساحتها ضيقة ، ومواردها قليلة ، بينما تعد فتوح الغـزنوى للهند بداية غزو المسلمين الحقيقى لشبه القـارة ، ذلك الغـزو الذى سرعان مـا انتهى بالفاتحيـن الى اتخاذ البلاد المفتوحة مقاما دائمـا لهم • وقد مهدت الدولة الغزنوية التى استمرت قـرابة قـرنين من الزمان ــ لتوطيد أقدام المسلمين بالهند ، وذلك بفضـل فتوحاتهـا العظيمة • وفى هذه الفترة بدأ علماء المسلمين وشيوخهم فى نشر الاسلام وبدأت لاهور تدريجيا تتحول الى مركز للثقافة الاسلامية وانهـارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغـز • وأخـذت الاضطرابات والفتن تجتاح غـزنة وكابل وكافة البلاد المفتوحة بالهنـد حتى ظهـر الأمـراء الغوريون ، وعلى رأسهم محمد الغورى الذى جاب الهنـد غازيا من البنجاب الى البنغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص « ملتـان » من أيدى القرامطة ، ثم أستولى على « بشاور » وأخضع السند جميعه وأخيرا لاهور •

وعهد محمـد الغـورى بادارة أملاكه الى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل بفتوح سيده الى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومتـه واستمر فى فتوحاته ، بينمـا استمر قائـد الغوريين الثانى محمد بن بختيـار الخلجى صوب الشرق ففتح بهـار ونفذ الى البنغال •

وباختصار خضع شمال الهنـد كله لسـلطان الغـوريين وعلى يد جمال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهنـد فقـد تحـول الفاتحـون الى الاستقرار والاقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها •

وبعد وفاة محمد الغورى نصب قطب الدين أيبـك نفسـه سلطانا على الهند (٦٠٢ هـ ــ ١٢٠٦ م) وبهـذا بدأ عهـد دولة المماليـك أو (خاندان غلامان) وقـد أطلق عليهـا هـذا الاسم لأن ثلاثة من ملوكها كانوا من المماليـك ، وهم قطب الدين أيبك (١٢٠٦ــ١٢١٠م) والتوتمش (١٢١٠ ــ ١٢٣٦ م) وغيـاث الدين بلبن (١٢٦٦ ــ ١٢٨٧) وازدهـرت العـلوم والآداب والفنون فى عهـد هذه

الدولة التى لم تلبث أن ضعفت وانتقل الملك الى أيدى الخلجيين عام ٦٨٩ ــ ١٢٩٠م حين تولى جلال الدين الخلجى السلطة وأذن لأبن أخيه علا ءالدين بغزو الدكن عام ١٢٩٤ ــ ٦٩٤ هـ ولم يلبث أن عاد واستولى على الحكم بعد قتل جلال الدين غدرا .

وأمتدت مملكة علاء الدين خلجى من البنجاب الى البنغال ، ومن جبال الهمالايا الى تلال الوندهايا وبعدها بدأ علاء الدين يثبت أقدامه فى منطقة الدكن واستولى قائده كافور على مالوه والكجرات والدكن جميعها ولم يبدأ عام ٢١٢ هـ ــ ١٣١٢ هـ حتى كان الخلجيون يسيطرون على شبه القارة الهندية بأكملها .

وهكذا ... بدأت الثقافة الاسلامية ، وبدأ المجتمع الاسلامى ونظام الحكومة الاسلامى فى بسط ظلاله على هذه المنطقة بأكملها ، وقد عنى سلاطين الدولة بالعلماء والشعراء ونذكر منهم الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

وارتقى غازى ملك تغلق عرش دهلى فى عام ٧٢٠ هـ ــ ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق . ونجح السلطان فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلى ، ونظم ادارة البلاد وشجع الناس على تعمير الأرض وفلاحتها وأصلح طرق الرى وشق العديد من الترع والقنوات ، وخلفه ابنه فخر الدين الذى قام برعاية العلوم والفنون ، وكان السلطان نفسه من المشتغلين بالأدب بمنثوراته ومنظوماته الفارسية والعربية وتفوقه على الشعراء يشهد له بالذوق الأدبى الرفيع ، واشتهر برعاية وتجويد فن الخط والنقش وقد تحدث عنه ابن بطوطة حديثا مشوقا .

وفى عهد فيروز تغلق نشطت الدراسات الهندية القديمة فقد شجع فيروز نفسه البراهمة على حل نقوش أعمدة آشوكا القديمة ، كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية الى الفارسية ، وأنشأ السلطان مئات المدارس

والمساجد ودور الشفاء الى جانب ثلاث مدن كبيرة بالقرب من دهلى هى فـيروز آباد ، وفتـــح آباد وجونبور .

وبعد وفاة فيروز تغلق انتشرت الفوضى فى البلاد وأقبل تيمور لنك بنفسه على الهند فغـزا الهنـد فى عام ٨٠١ هـ ــ ١٣٩٧ م وهو ينوى السيطرة على الهند كلها . وكان للغزو المغـولى التيمورى للهنـد العامل الأكبر الذى أدى الى تفكك الدولة الاسلاميـة التى أحـكمت قبضتها على الهنـد زمان محمـد تغـلق وفيروز تغلق ، فقـد بدأت معظم ولايات الهنـد الكبرى : مالوه والكجـرات وجـونبور ــ البنغال والدكن فى الانفصـال . وأعلن أصحابها استقلالهم بها ولم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات من جديد الا فى عهد الدولة المغوليـة التى أسسها أحفاد تيمورلنك بالهنـد فى القرن العاشر الهجـرى وعمـرت قرون ثلاثة شهدت فيها الهند على أيديهم حضارة رائعـة فاقت مثيـلاتها فى أرقى الدول آنذاك .

وهكذا نشاهد الهند موزعة بين ملوك الطوائف وبالاضافة الى امارة دهلى ، وجـدت امارة الكجرات وامارة مالوه التى تقع الى الشرق من كجرات وامارة خـاندش التى انسلخت عن دهلى ، وامارة جانبور جنـوب شرق دهلى بالاضـافة الى البنغال ثم الدكن .

ويهمنا هنا الاشارة قليـلا الى الدكن لأهميتهـا بالنسبة للدراسة التى نقدمها الآن عن اللغة الاردية ونشأتها وقد قام أمير يدعى علاء الدين ظفر خان بأعلان خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ، وبسط نفوذه على كافة الاقاليم الدكنيـة التى كانت فى يد عـلاء الـدين الخلجى ، ومحمد تغلق وصـارت بلاده تعرف باسم الدولة البهمنية أو « بهمنى سلطنت » وموقعهـا اليوم هو اقليم بمباى وولاية حيدر آباد الدكن .

وانتهت تلك الـدولة فى أوائل عام ٩٣٢ هـ ــ ١٥٢٥ م بعـد أن عمرت حـوالى قرنين من الزمان ، وقسمت أراضيها الى خمس ممالك اسلامية مستقلة هى برار وبيجابور

وأحمد نكر وجولكنده وبيدر ، ومايهمنا هنا هو التركيز على سلطنة أو مملكة بيجابور التى أسسها يوسف عادل شاه وهو أحد أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى وكانت امه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح : الى ايران ومنها الى الدكن فالتحق بالبلاط البهمنى وآخر سلاطين بيجايور هو ابراهيم عادل شاه الثانى الذى ضم الى مملكته سلطنة أحمد نكر .

وكان لسلطنة جولكنده وبيجايور دور كبير فى رقى الأدب الأردى كما سيأتى ذكر هذا فيما بعد أما سلطنة دهلى فكانت تحت حكم أسرة السادات التى كانت تأمل فى استعادة وحدة الهند تحت راية الاسلام ، هذا فى الوقت الذى خضعت فيه أغلب منطقة البنجاب للقائد الأفغانى الثائر بهلول اللودهى الذى استولى على دهلى وقام بعدة اصلاحات الا أن حكمه لم يستمر وانتهت سلطنة اللودهى عام ٩٣٢ هـ ــ ١٥٢٦ م . لتبدأ بالهند حكومة الدولة المغولية على يد زهير الدين بابر الذى دخل آكرا وجلس على عرش اللودهين فى ٢٩ رجب ٩٣٢ هـ وخلفه ابنه همايون الذى اشتهر فى تاريخ الهند ونال اعجاب الهنادكة فضلا عن المسلمين ويعتبره الجميع أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام أشوكا حامى البوذية قديما ، وأكبر هو مؤسس الدين الالهى ويحاول البعض التعظيم من شأن هذا الأمر الا أنه لم يتعدى كونه منتدى يتجمع فيه أصحاب الديانات المختلفة فى دار العبادةالتى أسسها أكبر لهذا الغرض . ولم يحاول أكبر اجبار أحد على دخول هذا الدين أو الانضمام الى هذا النادى الذى أسسه للتقريب بين الديانات المختلفة بالهند .

ونحن نشاهد محاولات عجيبة تحدث فى أيامنا هذه قريبة جدا من محاولة أكبر التى فشلت تماما .

وترك أكبر من بعده لابنه جهانكير دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن وفى عهد جهانكير

بدأ التغلغل الأوربى فى شئون الهند وبدأت شركة الهنـد الشرقيـة البريطانيـة فى تثبيت أقدامهـا فى مناطق كثيرة بالهند ، وذلك ابتداء من عـام ١٦١٥ م وولى الحـكم شاهجهان الذى ضاق ذرعا بالتدخل البرتغالى فى شئون بلاده فهجم على البرتغاليين الذين شاعوا فى الأرض فسـادا باسم التبشـير وحـاول البريطـانيون الاستفادة من هـذا والتقـرب الى السـلطان واعتـلى اورنكزيب عالمكير عـرش الهنـد عام ١٠٦٩ هـ وحـاول ان يصـبغ البلاد بصبغة اسلامية خالصة فحرم شرب الخمر واهتم بتعمير المساجد ونشر التعليم وعين حارسا لمراقبـة سلوك الناس وحملهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواهيه .. ولم يشـتغل اورنكزيب فى حياته بغير علوم القرآن والسنة ، وكان متمكنا من الآداب الفارسية وقد أشرف على تأليف الموسـوعة الفقهيـة (الحنفى) الشـهيرة والمعروفة باسم الفتـاوى الهنـدية أو العـالمكيرية التى طبعت بمصر عام ١١٨٢ هـ .

وخلف اورنكزيب سـلاطين لم يتمكنوا من المحـافظة على الدولة الشاسعة وانتهى حـكمهم بسيطرة الانجليز على البلاد وأصبح منصب السلطان منصبا تقليديا اسميا .

وثار أهل الهند ضد بريطانيـا ثورة عـرفت بالثـورة الشـعبية واشتهرت بعـام الغـدر وقضى الانجليز بمحاكمة صـورية عـام ١٨٥٨ م على آخر سلاطين الدولة المغولية بهادرشاه بنفيه من البـلاد وانطلقوا يمتصون دماء أهل الهند وخيراتها .

وانطلق المسلمون يجاهدون من أجل الحصول على الحـرية ووالى الهنادكة الانجليز وأعملوا القتـل والسلب فى المسلمين مما اضطـر القائد المسلم محمد على جناح الى الموافقة على رأى الشاعر محمـد اقبال بضرورة اقامة وطن منفصل للمسلمين وحصـلت الهنـد على استقلالها وحصـل المسلمون على وطن لهم عام ١٩٤٧ م .

الأسلام وأثـره فى نشـأة اللغـة الاردية .

يتضح من هذا العرض السريع جدا لمنطقة شبه القـارة الهنـدية

الباكستانية كيف انتشر الاسلام فى المنطقة وكيف حدث الامتزاج بين الفاتحين وأهل البلاد ، ولكن كيف جاءت كل هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين ؟

نقول ان سماحة الحكام وعدلهم وقواعد وقوانين الاسلام فيما يتعلق بالمساواة والعدل حدت بالكثير من أهل البلاد ممن طحنتهم قوانين الهندوكية التى تقسم المجتمع على أساس غير انسانى الى الدخول فى الاسلام طواعية ولما كان جيش محمد بن القاسم قد قدم الى السند دون أن ترافق الزوجات أزواجهن من الجنود ، فقد بدأ الجند فى الزواج من الهنادكة بعد قبولهن الاسلام وتنتج عن هذا آلاف من الأسر المسلمة التى ظلت تتزاوج فيما بينها وكان هذا هو حال القادة المسلمين من الاتراك والايرانيين والبطهان وكانت النساء بعد الزواج يتطبعن بطباع الاسلام التى أعجبت العديد من الهنادكة فدخلوا الاسلام .

هذا بالاضافة الى أن غزوات المغول فى آسيا الوسطى فى القرن ١٣ م دفعت بالعديد من المسلمين الأتراك والايرانيين والأفغان الى اللجوء للهند وخاصة المناطق الشمالية ، وحين أسلم المغول قدموا للهند وقدم معهم العديد من المسلمين ، ولا يفوتنا أن نذكر أن المسلمين كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة مما زاد عدد المسلمين عن الهنادكة .

وكان لامتزاج المسلمين مع الهنادكة آثار كثيرة ليس هذا مجال ذكرها الا أننا نقول باختصار أن أفكار « أكبر » الدينية لم تكن الا نتيجة سيئة لهذا الامتزاج الفكرى ، وقد دفع هذا عددا من المسلمين الى محاولة الحفاظ على الاسلام بالهند من شوائب الهندوكية وفلسفتها .

وقد شهدت الهند أيام الحكم الاسلامى عصرا ذهبيا فى جميع الميادين فى التصوير وفى فن العمارة وفن الموسيقى وبرع المسلمون فى فن كتابة التاريخ وكتب التذاكر .

ولكن بأية لغة كانت كل هذه الجيوش تتحدث ؟ وكيف كان

هذا المزيج الاجتماعى يتفاهم ؟

يحدثنا الرحالة العرب أن اللغات التى كانت مستعملة بالسند وقت دخـول المسلمين كانت العربيـة والسندية ، فقد تعـلم المسلمون اللغـة السندية وتداخلت الكلمات العربية بالطبع فى اللغة السندية التى بدأوا يتحـدثونها وحين امتـدت حكومة المسلمين الترك الى شمال غرب البنجاب اختلطت لغة البـلاد المفتوحة ، ومن هنا شاهدنا بعض شعراء بلاط محمـود الغـزنوى (مثل منوجهـرى) يستخدمون الألفـاظ الهنـدية فى أشعارهم ، كمـا بدأ بعض شعراء الهنـادكة يسـتخدمون الألفـاظ العربيـة والفارسية فى أشعارهم وهـكذا بدأت اللغـات العربيـة والفارسية والتركية تترك آثارها على اللغات الاقليمية بالهند .

وتصدرت الفاظ اللغة العربيـة الدينية لغات المناطق المسلمة بالهند بينما انحصرت ألفاظ اللغة التركية على المـأكولات والملبوسـات وما شابهها أما اللغة الفارسية فقـد ظلت لقرون اللغـة الرسمية لتلك المنـاطق التى حكمهـا المسلمون وتتمثل تقريبا فى شمال الهند كله وجزء كبير من الدكن ومن هنا كان لها نصيب كبير فى التأثير على لغات شبه القارة الهندية فكان السكان يستخدمون بعض ألفاظ لغـاتهم المحلية مضافا اليها ما يعرفونه من ألفاظ اللغة الفارسية ليعبروا بذلك عن أنفسـهم ، أما العلمـاء فكان لا بد لهم من معرفة العربية معرفة تامة حتى يفهموا القرآن والحديث والفقه .

وكان لكل سوق من الأسواق لغة خاصة به أما السوق السلطانى فكان له تجار معينون وبضـائع معينة وتقاليد خاصة ولغـة خاصة وكان المـوسيقيون المشهـورون والفنانون والراقصون يجتمعون فى هـذا السوق يتعلمـون أسلوب الحديث وطريقة البيان ، ومن هنا كان هذا السوق السلطانى مدرسة لتعليم أسلوب الحـديث وطريقـة الـكلام .

والمدرسة الثانية التى أدت خدمة جليلة فى سبيل تعليم الناس اللغة

المختلطة هى تكايا الصوفية ، حيث كان المتصوفة يقومون بنشر أفكارهم الاسلامية والصوفية ، وكانت لغة المتصوفة خالية من التعقيد والتكلف فقد كان هدفهم الرئيسى هو افهام العامة مبادىء الاسلام وأفكار المتصوفة وهى لغة تعلموها من بلاط الملوك والأمراء فى فترة حياتهم الأولى . ومرة ثانية تتساءل ما هى اللغة التى ظهرت نتيجة الامتزاج بين هذه الشعوب المختلفة التى تتحدث لغات ولهجات متنوعة ؟ هل هى اللغة التى نطلق عليها اليوم اللغة الاردية أم هى لغة أخرى ؟

والاجابة على هذا السؤال تحتاج الى مئات من الصفحات ولكننا هنا سنوجز بقدر ما هو متاح من صفحات .

فاللغة التى نطلق عليها اليوم « اردو » هى اللغة التى كان الناس يتخاطبون بها حول دهلى وميرته ، وكان الناس فى البنجاب ، واوده والدكن وبهار والكجرات وبمباى ووسط الهند يتحدثونها جنبا الى جنب مع لغاتهم الأخرى ، وكان الهنادكة والمسلمون يتحدثون أيضا الأردية .

ولم تكن اللغة التى يتحدثها سكان منطقة دهلى وميرته وما حولهما مختلفة كثيرا عن اللغة الأردية الحالية ،وقد أسماها أمير خسرو اللغة الدهلوية ثم سميت اردوئى معلى ، فقد كانت لغة البلاط ورجال البلاط ، وكان من تأثير الاسلام أن دخلت الألفاظ العربية والقواعد العربية والفارسية فى هذه اللغة بكثرة (ياء النسبة ، الاضافة ، قواعد الجمع ، بناء المركبات البيانية وغير ذلك) وسارت اللغة حيث سارت خطوط الفتوحات الاسلامية وانتشرت بالتدريج وارتقت تحت ظل السلطان الاسلامى فى الهند ، وفى ظل نشاط أهل التصوف الذين ساعدت كتاباتهم فى تدوين اللغة ووصول بعض نماذجها الأولى الينا اليوم ، ولا أريد أن أخلط هنا بين اللغة وكتابة اللغة لأن اللغةرموز صوتية منطوقة ومسموعة أما الكتابة فهى فى أفضل صورها

لا تعدو أن تكون محاولة للتعبير عن الواقع الصوتى •

واذا كنا سندرس اللغـة فاننـا سندرس التاريخ اللغوى بشقيه ، أولهما التطـور فى بنيـة اللغـة ومعجمهـا ، والثـانى مجـالات الانتشار والاستخدام اللغـوى وهذان الشقان نابعان من الطبيعة الرمزية الصـوتية للبنيـة اللغـوية ومن الوظيفة الاجتماعية لهـا ـ وبنية اللغة تتغير وهـذا التغـير مصدره الفرد ، وهذا يفسر لنـا التطور فى بنية اللغة الاردية ، فاذا ما حدث واستمر فـرد ذو مكانة مرموقة فى النطق على نحو جديد بصـوت مـن الأصـوات أو فى استخـدام كلمة ابتـكرها هـو أو بعثها هـو من سـبات معجمى عميق أو استخدم أسلوبا جديدا ، فسمعه الناس وأعجبوا به عن وعى أو دون وعى فالنتيجة حدوث تغير لغوى • فالتغير اللغـوى أساسه الاستخدام الفردى للغة • فاذا كان هذا المستخدم ذا مكانة اجتماعيـة أو وظيفية أو ثقافية مرموقة وقلده المقربون منه أو من أرادوا التقرب منه ثم اتسعت دائرة المقلدين شيئا فشيئا ، أصبح هـذا التجـديد اللغوى خطـأ سائرا وعرفا ملزما وأصبحت الصـورة النـاتجة هى اللغة المتعارف عليهـا وانقـرضت الصورة القديمة أو توارت •

وفى السطور السابقة شرحنـا كيف أن لغـة السوق السـلطانى أو « شاهى بازار » كانت مختلفة تماما عن اللغة فى الأسواق الصغيرة لأن هذا السوق يضم نوعية خاصة من الناس وتعاملا خاصـا يفرض لغة خاصـة ، وذكرنا أيضـا تلك اللغة التى أطلق عليها اردوى معلى أى « الاردية الراقية » وهى اشارة الى تلك اللغة التى كانت سائدة فى بلاط ملوك المغـول ، أما رجـال التصوف الذين كانوا يحتلون مكانة عالية داخل المجتمع الاسلامى وبين صفوف من أسلم على أيديهـم •• ومن هنـا كان لهم دور عظيم فى نشر تلك اللغـة الخاصـة التى تعلموها ـ كما ذكرنا ـ فى بلاط الملوك فى أيامهم الأولى •

ويتأثر انتشار الصبغة اللغوية بعوامل كثيرة منها التعليم ، وقد تحدثنا عنه ومنها العامل الدينى وهو واضح تماما فى تشكيل اللغة الأردية وتطورها ووجود عدد ضخم من الكلمات العربية .. وخاصة المصطلحات الدينية ونتج عن هذا ارتباط الخط العربى بهذه اللغة رغم المحاولات العديدة التى جرت لتغيير كتابة اللغة من الخط العربى الى الخط الديوكرى التى تكتب به اللغة الهندية .

والعامل السياسى ذو أثر لا يستهان به فى نشأة اللغات أو انتشارها ، واللغة الأردية كما ذكرنا نشأت وانتشرت فى ظل سلطان المسلمين وواكبتهم حيثما انطلقوا فى شمال الهند أو جنوبها ، شرقها أو غربها ، واختلف مدى هذا الأثر السياسى من منطقة لأخرى فىشبه القارة الهندية ، وهذا يمثل تمركز اللغة الأردية فى الدكن وشمال الهند .

أما العامل الاجتماعى فهو من أهم العوامل وأبعدها أثرا فى حياة اللغة فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان الى آخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان القدامى كفيل بخلق علاقات لغوية جديدة ومن المعروف أن فتح العرب لاقليم السند وحدوث التزاوج الاجتماعى بين العرب وأهل السند الأصليين كان له أعظم الأثر فى دخول العديد من الألفاظ العربية فى اللغة السندية وتقبل أهل البلاد المفتوحة لهذه الألفاظ وبالتدريج وجنبا الى جنب مع الفتوحات الاسلامية فى الشمال والجنوب وامتزاج المسلمين مع أهل البلاد الأصليين ظهرت الأردية خليطا من لغة أهل البلاد الأصليين واللغة التركية والفارسية والعربية ولما كانت هذه اللغة الجديدة « اردو » ومعناها بالتركية المعسكر ، هى لغة الطبقة الحاكمة ولغة المثقفين ، أصبحت فيما بعد لغة الأدب والثقافة ولغة الشعب أيضا الذى بدأ فى محاكاة الطبقة العليا وهذا أمر معروف فى المجتمعات ذات الطبقات المتعددة

وملاحظ فى كل مظـاهر الحيـاة الاجتماعية ، والعامل الحضـارى عامل فعال أيضا فى حيـاة اللغـة وانتشـارها فتعلم اللغـــة الاردية أمـر فرضته الثقـافة الاسـلامية ومؤلفـات علمـاء الدين ورجال التصـوف المسلمين ، فقـد دفع هذا القوم الى تعلم اللغة للوقوف على أمور دينهم وشئون شريعتهم وما تحمله هذه اللغة من حضـارة وعلم يفيدهم .

واللغة الأردية لغـة حـديثة لم يتعد تاريخهـا مئـات قليـلة من السنوات ودراسةنشأتها وتطورها ، ودراسة آدابها وتراثهـا ، دراسة تهم كل مسلم يشعر بأن من واجبه معـرفة وطنـه الاسلامى ، فقـد تركت الأردية آثارا أدبية عظيمـة وثقافة لا تزال شعوب شبه القارة الهندية الباكستانية تجتر خيراتهـا حتى اليوم .

ـ وللحديث بقية ـ

دكتور سمير عبد الحميدابراهيم

« اذا استطعت »

كتب رجل الى ابن عمر رضى الله عنهما يسأله عن العلم ! فأجابه : ان العلم اكثـــر من أكتب به اليك ، ولكن اذا استطعت أن تلقى الله كاف اللسان عن أعراض المسلمين ، خفيف الظهر من دمائهم . خميص البطن من اموالهم لازما لجماعتهم فافعل .

التصوف ومقام الإحسان

الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي القرني

حين تضيق بنا الحياة وتتفرق بنا السبل وتتوزعنا الهموم والآلام نجد أنه لا منجاة لنا من كل ذلك الا اذا عدنا الى مثل ديننا القديم فاستنشقنا عبيرها وتمسكنا بأسبابها واعتصمنا بحبلها « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

أجل فما عز انسان الا بعز دينه وما ذل الا بتفريطه فيه ، وقد اعتمد المفكرون الأصلاء على الدين فى تقوية الروابط الاجتماعية وبعث العزة القومية فى الأمة واحياء فضائلها ، ولذلك يقول الرافعى رحمه الله : « الدين من أقوى الوسائل التى يعول عليها فى ايقاظ ضمير الأمة وتنبيه روحها اذ فيه أعظم السلطة التى لها وحدها قوة الغلبة على الماديات ، فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته ، ومتى قوى هذا السلطان فى شعب كان حميا أبيا لا ترغمه قوة ولا يعنو للقهر » .

هذا هو الدين فى مظهره اذا ساد فى شعب فما بالك اذا كانت حقائق هذا الدين ومثله القويمة هى التى تسود ؟ وكيف بك اذا أدركت أن وراء هذا الدين أسرارا تعطيك من روحها كلما تعمقت فيه وتشربت بمبادئه وتحققت بتعاليمه ؟ حين ذاك تصبح انسانا له سلطانه الروحى الذى تخضع الماديات لسلطانه وتضمحل الظواهر أمام قوته .

وقد اعتمد سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فى تمسكهم بدينهم على تفهم أسراره وتشرب مبادئه ، ولم يقفوا عند حدود أداء

الشعائر على ظواهرها ولكنهـــم فهموا معنى الاسلام على حقيقتـــه والايمان على حقيقتـــه والاحســـان عـــلى حقيقتـــه فى ضـــوء هـــذا الحـــديث الشريف الذى ورد فى الصحيحين عن عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه : « بينما نحن عنـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجـــل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعـــر لا يرى عليه أثر السفـــر لا يعرفه منا أحـــد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضـــع كفيـــه على فخذيه ، فقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاســـلام أن تشهد ألا اله الا الله وأن محمـــدا رسول الله وتقيم الصـــلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه ســـبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصـــدقه ، قال : فأخبـــرنى عن الايمان ، قال : أن تؤمـــن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـــوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الاحسان ، قال أن تعبد الله كأنك تـــراه فان لم تكـــن تراه فانه يراك » .

ويوقفنا هـــذا الحديث الشريف على أن هذا الدين الحنيف الذى تتشرف بالانتساب اليه له مراتب ثلاث : أولاها الاسلام وأوسطها الايمان وأعلاها الاحسان ، وقـــد علق الامام النووى شارح صحيـــح مسلم على مرتبة الاحسان بقوله : « هذا من جـــوامع الكلم التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن لو قدرنا ان أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئا يقدر عليه من الخضوع والخشـــوع وحســـن السمت واجتماعه بظاهـــره وباطنه على الاعتناء بتتميمهـــا على أحســـن وجوهها الا أتى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : اعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العيان ، فان التتميم المذكور فى حال العيان انما كان لعلم العبـــد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقـــدم العبد على تقصير فى هذا الحال

للاطلاع عليه ، وهذا المعنى الموجود مع عدم رؤية العبد فينبغى أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الاخلاص فى العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى اتمام الخشوع والخضوع .. وقد ندب أهل الحقائق الى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعا عليه فى سره وعـــلانيته ؟ قال القاضى عياض رحمه الله : وهذا الحديث قد اشتمل على جميـــع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الايمان وأعمال الجوارح واخـــلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمـــال حتى ان عـــلوم الشريعة راجعـــة اليه ومتشعبـــة منه .

الصوفية ارباب هذا المقام :

وقد وقف أهـــل الصـــدق من الصوفية أنفسهم على تحقيق هذا المقام وحثوا تلاميذهم عليـــه لأنه أقرب الطرق للوصول الى حضرة الحق والتعرف عليه ، وقد ندبنـــا الله الى مراعاة الاخلاص فقال جل من قائل : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ».

والاخلاص يستـــــدعى المراقبة والمحاسبة ومتى راقب العبـــد ربه وحاسب نفسه على التقصيـــر فى جنبه سلمت عبـــادته من الخلل ، وخلت أعماله من العلل ، وبعدت خطواته من الزلل .

والاخلاص هـــــو الذى يعطى للعمل قيمته ويحقق له حيويته . قال ابن عطـــاء الله الســـكندرى رضى الله عنه : الأعمال صور قائمة وأرواحهـــا وجود سر الاخـــلاص فيها ، ويعلق الشيخ زروق عـــلى هذه الحكمة فى شرحـــه قائلا : ولا عبرة بصورة لا روح فيها كما أنه لا قيام لروح دون صورتها ، وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه : الاخلاص عند المحققين اخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس ، والاخلاص عند المحبين ألا يعمـــل عمـــلا لأجل النفس والا دخـــل عليه مطالعـــة عوض أو ميـــل الى حظ النفس ، والاخلاص عند الموحدين خـــروج

الخلق من معاملة الحق من النظـر اليهم فى الأفعال وعـدم السكون اليهم فى الأحوال .

والاحسان كما يهدى اليه لفظه يقتضى الأفضليـة ، قال تعالى : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » (مريم ٧٣) « ثم أنشـأناه خلقا آخر فتبـارك الله أحسـن الخالقين » (المؤمنـون ١٤) ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » (المؤمنـون ٩٦) « ولنجزينهم أحسن الـذى كانوا يعمـلون » (العنكبوت ٧) .

كمـا يتطلب الاتقـان فى العمل ، ومن تمام الاتقان خلوه من الشرك الخفى بمعنى ألا يشهد الانسـان مع الله خالقا سواه ولا قادرا غيره . فكل ما سواه نجم آفل . بل فى شهود العارفين باطل . أو كمـا يقول الآخر :

الله قل وذر الوجود وما حـوى
ان كنت مرتـادا لنيـل كمـال
فالـكل دون الله ان حققتـه
عـدم عـلى التفصـيل والاجمـال

ومن تمام الاتقان أيضـا رؤية الله عند كل شىء كما يشيـر ذلك الحديث الشريف الذى تقـدم .

قال تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (البقرة ١١٢) ، « ومن أحسـن دينا ممن أسـلم وجهـة لله وهـو محسـن » (النسـاء ١٢٥) ، « ومن يسلم وجهه الى الله وهـو محسن فقد استمسـك بالعـروة الوثقى » (لقمان ٢٢) فالاحسان هنا هو تمام مشاهدة الحق الذى يصحب اسلام الوجه لله والتفويض الكامـل له لأنه لا موجود بحـق الا هو .

الاحسان أعلى مراتب العبادة :

والاحسان هو أعلى المراتب فى العبادة فقـد سبقته المرتبة الأولى وهى مرتبة الاسلام وهو المدخل الصحيـح الى التعـرف الى الله ولذلك اختـاره الله دينا للبشر جميعا منذ خلق آدم عليه السلام وحتى يطوى الأرض ومن عليها .

والاسلام كما يدل عليه لفظـه يعنى الاستسلام لله ، كمـا يعنى حسن العـلاقة بين الانسان وأخيه الانسان استشهـادا بالحـديث الشريف : « المسـلم من سـلم المسلمـون من لسـانه ويده » .

ويليه مرتبة الايمان الذى يعنى الثقة المطلقة فى الله والايمان بقضاء الله وقدره ، ويظهـــر ذلك من منـاسبة الحـديث الذى قدمتـه بين يدى هذا الكلام فقد روى الامام المسلم فى صحيحه عن يحيى ابن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميـد بـن عبـد الرحمـــن الحميـرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألنا عما يقول هؤلاء فى القدر • فوفق لنا عبد الله بن عمر ابن الخطاب داخـــلا المسجـد فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عـن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيـكل الـكلام الى فقلت : يا أبا عبد الرحمـن انه قد ظهر قبلنا ناس يقـرءون القـرآن ويتقفرون (يطلبـــون) العلـم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف • قال فاذا لقيت أولئك فأخبـرهم انى برىء منهم وأنهـــم براء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمـر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقـه ما قبل الله منه حتى يؤمـن بالقدر ، ثم قال حـــدثنى أبى عمـــر بن الخطاب • وساق الحديث •

فاذا ما أسلم وجهه لله وفوض أمره اليه وتوكل عليه وآمـــن بقضائه وقدره استطاع أن يشاهد آثار القدرة الالهية المحيطة به من كل جـــانب ويرى الله في آياته الظاهرة والباطنة وذلك كفيل بأن يعبد الله حق عبادته • وهذا هو مقام الاحسان الذى اعتنى الصوفية بتحقيقه والتخلق به وجاهـــدوا أنفسهم للوصـول اليه ووضعـوا مناهجهم لمريديهـــم على هـذا الأساس •

وأول خطوة يخطوها الصـوفى فى طريقه هى التـوبة • وتعنى الرجوع عن أمر مذموم فى الشرع الى كل أمر محمود فيه مع الندم على ما حدث من المخـــالفات ؛ والتوبة مقام خطيـــر من مقامات الصوفية يبدأ بالتوبة من المعاصى وينتهى بالتوبة من الخواطر ، حتى قال ذو النون المصرى وقد سئل عن

التوبة : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة ، وقال الثورى : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عـز وجل ، وشتان ـ كما يقـول عبـد الله بن على التميمى ـ ما بين تائب يتوب عن الزلات وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

واذا تحقق المـريد بالتوبة على هذه الصورة فقد وضع قدمـه الصحيح على طريق الاحسان الذى يشـاهد فيه حقـائق الانعـام والاحسان ، ولن تتم هذه التوبة الا بالمجاهدة الصـادقة لدواعى النفس وكبحها بلجام التقوى .

الاحسان والتقوى :

وقـد ورد لفظ الاحسـان فى القرآن الكريم مقـرونا بكلمـة التقوى فى مواضع كثيرة « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » (آل عمران ١٧٢) ، « ثم اتقـوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » (المائدة ٩٣) ، « وان تحسنـوا وتتقوا فان الله كان بمـا تعملون خبيرا » (النساء ١٢٨) ، « ان الله مع الذين اتقـوا والذين هم محسنون » (النحـل ١٢٨) ، « انه من يتق ويصبـر فان الله لا يضيـع أجـر المحسنين » (يوسف ٩٠) .

وتعنى التقوى عند الصـوفية مدلولا خطيرا يفتح الباب الى مقام الاحسان ، فالجريرى فيما يرويه القشيرى فى رسالته يقول : « من لم يحكم بينه وبين الله بالتقـوى والمراقبة لم يصل الى الكشـف والمشاهدة » وقال النصراباذى : « التقوى أن يتقى العبد ما سواه تعالى وهذا هو المعنى الذى يقصده الروذبارى من قوله « التقـوى مجانبة ما يبعدك عن الله » ومـا أجمل قول ابن عطاء : للتقـوى ظاهر وباطـن فظاهـره محافظة الحدود وباطنه النية والاخلاص . ويترتب على كل ذلك صفات مثلى كثيرة هى لدى الصـوفية مقامات رائعة تظهر فى الورع والزهـد والتـوكل والخـوف والرجـاء والخشوع والتواضع وغير ذلـك مما يتخلقون به ويحكمون أمرهم عليه حتى يصلوا الى أعلى درجات اليقين ، وحسبك باليقين من خلق

اذا تخلق به الانســان بلغ نهــاية الكمال ، قال أبو عبدالله الانطاكى فى ذلك : ان أقل اليقين اذا وصل الى القلب يملأ القلب نورا وينفى عنه كل ريب ويمتــلىء به القلب شكرا ومن الله خوفا .

وهكذا نجد الصــوفية يعنون تمام العناية بالجوهـــر واصلاح الباطن ، وهذا هو الأساس الذى يرســون عليه قــواعد طــريقهم ، ومراقبتهم لأحــوال نفوسهم هــو الذى يجعلهم فى يقظــة كاملة لمــا يحدث فى بواطنهم وما يدور فى خواطرهم ويحاسبون أنفسهم على كل تصرف يصدر عنهم ، وهذا كما يقول القشيرى فى رسالته أصــل كل خير ، ولا يكاد المريد يصــل الى هذه الرتبة الا بعد فراغه من المحاسبة ، فاذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله فى الوقت ولازم طــريق الحق واحسن بينــه وبين الله تعالى مراعاة الوقت وحفظ مع الله الأنفاس راقب الله تعالى فى عموم أحــواله ومن راقب الله فى خواطره عصمه الله فى جوارحه .

ومن قصصهم الطريفة فى ذلك أن أحد الشيوخ كان يخص تلميذا له بالرعاية والاقبال أكثر من غيره فسألوه فى ذلك فقال : ابين لكم ، ودفع الى كل واحـــد من تلامذته طائرا وقال له : اذبحه بحيث لايراك أحد ، ودفع الى هذا التلميذ طائرا مثلهم ، فمضوا ورجــع كل منهــم وقد ذبح طائره ولكن هذا التلميذ جاء ولم يذبح طائــره ، فقــال له الشيخ : هلا ذبحتـــه ؟ فقال : أمرتنى بأن أذبحه بحيث لا يرانى أحد ولم أجد موضعا لا يرانى فيه الله جل وعز . فقال الشيخ : لهذا خصصته بالرعاية والاقبال .

قال الصوفية : ومن علامـــة المراقبة ايثار ما آثر الله تعـــالى وتعظيم ما عظم الله وتصغير مــا صغر الله ، ويثمر ذلك الرضا الكامل بالقضاء والقدر ، يقول أحدهم : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القدر ، وقال آخــر : أحببت الله حبا هون على كل مصيبة ورضانى بكل بلية .

وهذه هى الحياة الطيبــة التى فهمها بعض المتذوقيــن من قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر

أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجـرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل ٩٧) . وللصوفية فى ذلك أحـوال نادرة هى من سوابق الهمـم وكبريات العزائم . أليس الصوفية على هذا الأساس هم الناس ؟

انهم عباد الله حقا الذين أفنوا ذواتهم فى حب الله وآثروا رضـاه على رضا الناس ولم يفتنهم حب المظهر عن تطهير المخبر ، لقد سلمت نفوسهم من كل غل وحقد وحققوا قول الله : « والذين جـاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفـر لنـا ولاخـواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنـا غلا للذين آمنوا ربنـا انك رءوف رحيم » (الحشر ١٠) .

ليس الدين مظهـرا فحسب ، ولكنه روح يعمل عمله فى نفس المسلم فاذا به يصبح مثلا أعـلى يتحرك ونموذجا سـويا للـكمال الخلقى لا ينطوى قلبه على دخـل أو رياء أو ضغينة ولا يسارع الى كلمة الكفر يدمغ بها أخا مسلما يشـهد « أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم » .

عبد الحفيظ فرغلى القرشى

الصـــلاة :

ان الصلاة بها الصلات عميقة ... وبها يكـون من الصلاء نجـاكا
واذا بليت من الزمان بشدة ... فافزع لهـا تفزع بهـا بلواكا
هى قرة للعين ، جالبة الرضا ... هى فى الخطوب الحالكات ضياكا
وعمـاد دين الله باب فتوحه ... وطـريق جنته وسر هنـاكا

لـــذة الحـــق

فضيلة الدكتور ابراهيم أبو الخشب

الأعمال التى يمارسها الانسان فى حياته تنتهى الى حالة من السرور والارتياح ، أو السخط والغضب ، أو القبول والرضا ، أو الكراهية والنفـــور • فان وصلت به الى الغاية التى كان متطلعـــا اليها • طامعا فيها • حمـــدالله سبحـــانه وتعالى أن كتب له السداد والرشاد والهداية والتوفيـــق ، وجعله من هؤلاء الذين ظفـــروا بما كانوا يحلمون به ، ويودون أن تساعدهم الظروف المتاحة على تحقيقه ، ولا يجد أحد من الناس لذة تسوقهـــا اليه المقاديـــر • ويطيب له العيش فى جوارها • تساوى تلك اللذة التى يحس بها حينما يطمئن قلبه• وتمتلىء لديه خواطره ، ويشعـــر شعورا لا شك فيه ، أنه قد انتصر للحق ، ودافع عنه ، ووقف الى جانبه •

وربما كانت هـــذه اللذة التى يجدها ، والسعادة التى يشعر بها• سببها المباشر أن نفس المؤمن هكذا يجب أن يكون مـــوقفها من كل سلوك تسلكه• أو عمل تقدم عليه ، أو نية تضمرها ، أو خاطـــر يدور بأمانيها وأحلامها • لأن الله سبحانه وتعالى وهو يعلم ــ فى داخـــل المرء ــ ما توســـوس به نفسه يحاسبه على هواجسه ووساوسه ، ويقول حـــديث رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى»• وربمـــا كانت ــ كذلك ــ لأن رجولة الرجل واكتمال خلال الخير له • وتوفر العظمة فيه • منطلقهـــا الأول فى كل زمان ومكان ، وفى

نظر الدساتيـــر والقـــوانين • بالدنيا ، وانحـــازوا الى جانب
والأعـراف والاصـطلاحات ، أن الرحمن • لا الى جانب الشيطان ،
يكون الحق مظهره ومخبره ، وقوله وقد يلقى أحدهم الهوان والعذاب ،
وفعله ، وهواه وميله ، وأمـــره والايـلام والأذى ، والارهـــاق
ونهيه ، واقبـاله على الشيء أو والعنـف ، والتشـريد والنفى ،
انصرافه عنه • الا أن هذه اللذة والسجن والتعذيب ، لأنه أريد على
التى تتحدث عنها لا يجـدها أو أن يتحول عنه فأبى • وطلب منه
يدركها من كان الحق فى جانبـه أن ينافق فيه فامتنع • وحُمل على
رغم أنفه ـ أو خبط عشواء ـ الباطل فلم يستطع عليه صبرا ••
أو بحـكم المصـادفة والاتفاق ، ومحنـة الامام أحمـد بن حنبل
انما يجدها ويشعر وهو ينعم بهـا ـ فى مسألة القول بخلق القرآن ـ
أن الله جل وعلا قد غمره بالرضا ، التى ظل يقاسى منها على مدى طويل
وشمله باللطف ، وخصه بالزلفى ، من خلافة بنى العباس بتدبيـــر
ورفعـه الى السماوات السبـع ، أحمد بن دؤاد المعتزلى أكبر دليل
فشاهد ملكوته ، ورأى مظاهـر على الاعتزاز بالحـق ، والصمود
سلطانه ، وامتداد نفوذه ، هـذا له ، والوقوف بجـانبه • وعـدم
الذى كان يعمـل له عمل الجـاد ، التخلى عنـه ••• وقد وشى الى
ويقبل عليه اقبال المحب ، ويدافع الخليفة المنصور برجـل من ذيول
عنه دفاع الأبطال ، ويعتقد اعتقادا الأمويين كانت عنده ذخائر وأعلاق
جازما أنه عرضه الذى يغار عليه ، وأموال ، قيل : انها مما ترك خلفاء
ويغضب لـه ، أو دينـه الـذى هذه الدولة بعد ذهاب سلطانها ،
يستشهد فى سبيله ، ويحارب من وغروب شمس خلافتها ، وكان هذا
أجله • هؤلاء الذين تتوفر لهم تلك الرجل من هؤلاء الذين يبالغون فى
الشخصية ، وتتاح لهم هذه الحقيقة السـمو بنفـوسهم ، والتعـالى
قلة نادرة فى هذه الأمة آثروا مـا بكرامتهم ، والاعتزاز بأخلاقهم ،
يبقى على مايفنى ، واشتروا الآخرة وكان الى جانب هذا كله يتيه على

الناس بأنه أقوم من السيف • يغار على الحق غـيرته على حـرماته ، ويهاب الباطل هيبتـــه للموت • فلما قادوه الى الخليفـة ، ووقفوا به بين يديه ، وواجهوه بالجريمـة التى اتهموه بها ، وألزموه بتسليم ما عنده ، لم ترتعد فرائصـه ، أو تتغير ملامحه ، أو يتلجلج منطقه • وقابل الأسئلة التى طلب اليـه أن يجيب عليهـا ، والاتهـامات التى لصقت به ، باغضـاء الغـافل ، وزارية الساخر ، وعدم المبالاة التى تدل على أن ذلك كله لم ينل من اطمئنان قلبه ، وهدوء أعصابه ، وسكون جوارحه • ولم يشأ أن يرد بادىء ذى بدء بما يُشعر أنه فى موقف المتورط الذى يعنيه أن يسلم سلامة الذى لا عليه ولا له • وظل ساكتا سكوت الأخرس حتى ليخيل لمن يراه هـكذا أنه يزور اجابة يتلمس بهـا الخـلاص مـن الذنب ، ثم انطلق انطلاق السهـم من الرميّة يقول : يا أمير المؤمنين ، وبأى وجه أرد اليك ما معى مـن أموال ، قد زعموا أنها مما خلف بنو أمية ، ولست وارثا لهم يطالب بنصيبه فى التركة ، ولا دائنا يقتضى دينه مما أعقبوه ، ولا وصيا على ذريتهم يريد أن يصون لهم تـراث الآباء والأجـداد ، والشأن فيمن يحاسبنى هـذا الحسـاب ، أو يسوقنى الى مثل هذا الموقف أن يكون واحدا من هؤلاء وأنا لا أعدو أن أكون أحد رعايا أميـر المؤمنين ، أدين له بالولاء ، وله منى السمع والطاعة فى حدود مـا أملكه وأستطيع بذله •

وهنالك أخذت الدعوة رأس أبى جعفر ، وودّ لو أنه لم يكن فى هذا الوضع الحرج الذى ساق نفسه اليه ، وهو هـذا الحصيف اللبيب ، ولم يجد قولا يخرج به من تلك الورطة الا أن يقـول للمتهم ــ من جديد ــ ان بنى أمية ظلمـوا الشعب ظلم المستبـد ، واغتصبوا حقوقه اغتصاب الشره ، ونكلوا به تنكيل المستخف ، ونحن حينما نأخذ منك هذا المال انمـا نأخذ للأمة حقا كان مضيعا ، ونرد اليهـا شيئا كان مسلوبا ، فقـال الرجل : ولكنه يا أمير المؤمنين لم تقم على بينـة ، والقاعدة الشرعية

أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، ويمنعنى حيائى أن أذكرك بقول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ومثلك لا يأخذ بالظنّة ، ولا يعاقب على غير جريرة ، ولا يصغى الى الباطل ، أو يتأثر بقول واش .. وكان المنصور لا يخفى اعجابه بالرجل ، وارتياحه لحسن منطقه ، فابتسم له ، وأراه من ملامح وجهه أنه راض كل الرضا لهذا الجدل الحلو ، والبيان الخصب ، والحجة القوية ، والدفاع الذى أعانه عليه حقه الذى لم تطمسه الريبة ، ولم تبطله الوشاية ، ولم تسكته المؤامرة المكذوبة .. ثم أعلن اليه : أن موقف حسابه له ، واتهامه اياه ، قد انتهى الى غير رجعة ، وأنه ابتدأ معه حديث الرجل للرجل ، أو الصديق للصديق وأفهمه : انه على استعداد لأن يزيل عن نفسه ما عسى أن يكون قد علق بها من غضاضة أو غضب ؟ فقال له : اقترح علينا ما شئت فاننا لا نحمل لك الا الاكبار والاعجاب ، والمودة والتقدير ، وقلوبنا قد تفتحت لك ، ونفوسنا قد هفت اليك ، وسوف تجد حاجتك مقضية ، ورجاءك قريبا ، ورغبتك حاضرة .. وهناك قال الرجل لأمير المؤمنين : حسبى من هذه المسيرة كلها أن الحق فى جانبى ، وأن الواشى لم يبلغ منى مأربه . فان ذلك وحده مغنم لا يسعنى معه الا أن أقول « ذلك الفضل من الله » وحسبى به جزاء يملأنى غبطة ، ويرفع رأسى زهوا وخيلاء ، وان كان بعد ذلك رجاء أطلبه وأمل أطمع فيه . فذلك أن تجمع بينى وبين هذا الذى سعى بى هذه السعاية . لأحذر بعد ذلك اختلاقه علىّ ، وضرره بى ؟ فلما فاجأه به ، ووقع بصره عليه ، رأى أنه غلامه الذى أبق منه منذ أيام وقد اختلس منه ثلاثة آلاف درهم ، وكأنما صنع ما صنع لينجو بما أخذه ، ويهرب بخيانته .. ثم لم يلبث هذا المتهم أن عفا عن الغلام وأعتقه لوجه الله ، وكان هذا مثار الاعجاب به ، والثناء عليه .. وكان

أبو جعفر كلما جلس الى أحد من معارفه وأصحابه قص عليهم هذه القصة • لا على أنهـا مثال مـن العفو عند المقـــدرة ، أو الصفح الجميـــل ، والحلم الواسـع ، والتسامح الكريم ، والأدب العالى، والخلق العظيم ، فربما كان على ظهر الأرض ــ أو فى بطنها ــ من لا يقل عن هذا الرجـــل فى تلك السجايا النبيلة ، والمزايا الجليلة، ولكن الذى لفت نظره ، واسترعى انتبـاهه ، أن نشـوة الاحساس بالحق ، ولذة الظفر به ، هى التى ألهمته أن ينطق بهـــذا الكلام ، وحملته على أن يقف هذا الموقف الذى كان كله شجـاعة نادرة • وصرامة بالغة ، وصراحـة قوية ، وقد ضحى بغلامه الآبق ، وماله الضائع ، وهو لم يكن من الأثرياء الذين لا يرهقهم هذا البذل ، وخيل اليه أن الغبطة لا تصـل بمخلوق ظفر بضالته ، ولا بانسان حصـل على غايته • أكثـــر مما وصلت به ••• وهذا هو الحق الذى جعله سبحانه من أسمائه ، وأقام الكون على دعائمه ، وجعل السعادة نفحة منه ، ورغبنا فيه ، وطلب الينا أن تتعاون عليـــه ، ونذود عنـــه ، ونحرص دائما أبدا على أن نكون من جنوده المتفانيـــن فى الوقوف الى جانبه « والله يقول الحـــق وهو يهدى السبيل ٤ : ٣٣ » •

دكتور ابراهيم ابو خشب

« ثلاث خلال »

روى .. ان الرشيد : أحضر رجلا ليوليه القضاء ، فقال له : انى لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه ، فقال له الرشيد : فيك ثلاث خلال : لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، وانت رجل تشاور فى أمرك ، ومن شاور كثر صوابه ، واما الفقه فنضم اليك من تتفقه به • فولى فما وجدوا مطعنا ؟؟•

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٥٢٢ ويقولون : فلان حسيس : يعنون أنه ذو احساس رقيق وبصر بالأمور ، وهذا فاسد ، لأن الحسيس له معنيان لا صلة لكل منهما بمعناهم هذا .

احدهما الصوت الخفى كالحس بكسر الحاء ، ومنه قوله تعالى « لا يسمعون حسيسها » ومثله فى المعنى الركز بكسر الراء ، ومنه قوله سبحانه : « أو تسمع لهم ركزا » أى صوتا خفيا .

والمعنى الآخر من يقتل سريعا، تقول : حسه يحسه حسا فهو حسيس مثل قتله يقتله قتلا فهو قتيل ، ومنه قوله تعالى : « اذ تحسونهم باذنه » .

ومن معانى الحس بالكسر الوجع ، تقول : النفساء تشتكى حسا فى رحمها أى وجعا .

ويقال : أحس فلان الشىء اذا علم به يتعدى بنفسه مع الألف ، وربما زيدت الباء فقيل أحس به على معنى شعر به ،كما تقول : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر وأصل الاحساس الابصار ، ومنه قوله تعالى : « هل تحس منهم من أحد » أى هل ترى منهم أحدا ، ثم أستعمل فى الوجدان والعلم والظن ، ومن هذا قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » والتحسس التطلب ، تقول : اخرج فتحسس . ومن هذا

قوله سبحـــانه : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » .

والحواس المشاعر الخمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس الواحدة حاسة كدابة ودواب .

والصواب أن يقال : فـلان حمساس أو ذو احساس .

٥٢٣ ويطلقـــون على موضـــع السجود من الوجه كلمة قورة بضم القاف ، فيقـــولون : لهذا الرجل قورة عـريضة ، وقال أحـــد شعـــرائهم :

أنا أبو قورة فى البرج عاصى

وفى محافظة الدقهلية أسرة وافرة العدد سميت بأسرة أبى قورة ، وهذا خطأ ، والصواب أن يقال : لهذا الرجل جبهـة عريضة ، وهو أجبه اذا كان واسع الجبهة حسنها ، والمرأة جبهاء ، وجبهتها جلواء أى حسنة واسعة .

ومن معانى الجبهة الخيـل وفى الحـــديث « ليس فى الجبهة صدقة » .

يقال : جاءت جبهة الخيـل لخيـــارها ، قال بعض بنى فزارة :

وليت جبهة خيلى شـطر خيلهم
وواجهونا باسد قابلوا اســـدا

وجبه فلان فلانا كمنعـه اذا ضرب جبهته ورده أو لقيه بما يكره .

والتجبية أن يحمـر وجها الزانيين ، ويحمـلا على بعير أو حمار ويخـالف بيـــن وجهيهما .

ومن المجاز قولك فلان جبهة قومه . كما يقال هو وجههم .

وجمع الجبهة جباه بالكسر كما فى قوله تعالى : « يوم يحمى عليها فى نار جهنـــم فتكوى بها جباههم » .

٥٢٤ ويقولون : فلان لا يحتـكم على أى مقدار من المـــال يعنون أنه فى فقر مـدقع ، وهذا التعبير يشوبه الضلال البعيد ، لأن الاحتكام لايمت بأى صلة الى الفقر ، وانمـا له معنى آخر : تقول : حكم

الرجل أخاه فى ماله تحكيما اذا جعـل اليه الحكم فيـه فاحتـكم عليـه فى ذلك احتكاما بالفعـل المطاوع ، أى قبل أن يحتـكم فيـه احتكاما .

وتقول : لمن لا تأمن شره وخيانته : لا تحتـكم علىَّ فى مالى ، أى ليس لك حكم فى هذا المال .

كما تقـول : احتـكم الخصمـان الى القـاضى احتكاما ، وتحـاكما اليـه تحاكما اذا فوضـا اليه أن يقضى فيما بينهما من خصومة، ليحق الحق ويبطل الباطل ، وهذان الفعلان بمعنى واحد

ويقال : حكم الحاكم على المتهم بكذا حكما وحكومة بضمهما ، وهـو يتـولى الحكومات ، ويفصـل فى الخصومات ، والحاكم ينفذ الحكم كالحكم بالتحريك ، جمعه حكام بتشديد الكاف والحكمة بثلاث فتحات مـا أحاط بحنكى الفـرس من لجامه ، وسميت بذلك لأنها تذلله لراكبه حتى تمنعـه الجماح ، ومنهـا اشتقت الحكمة بكسر الحاء ، لأنهـا تقى صاحبها أخلاق الأراذل، ومن المجـاز قولك ، هـذه قصيدة حكيمة اذا كانت ذات حكمة ، قال :

وقصـيدة تأتى الملوك حكيمـة
قد قلتهـا ليقال من قالها ؟

ويقال : أحكمته التجارب اذا جعلته حكيما ، وأحكم فلان الشىء اذا جعله محكما فاستحكم .

ولاصلاح تعبيرهم ليؤدى المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : فلان لا يملك شروى نقيـر ، والشروى المثـل ، والنقير النكتة أو النقرة فى ظهر النواة .

أو يقال : هـو نقـر بالكسر ، أو أنقور بالضم ، أى فقير جدا .

أو يقال : هو نقير فقيـر اذا أصـابته النـواقر وهى

السهام التى تصيب أهدافها ، وكذا اذا عملت به الفواقـر جمع فاقرة وهى الداهية التى كسرت فقار ظهره ، والنقـر بالتحريك ذهاب المال ، يقال : أعوذ بالله من النقر أى من فقد المال وسوء الحال .

ويقال فى ضد من تقدم : فلان ليس بفقيـر ، ولكنـه يتفاقر أى يدعى الفقـر برغم غناه .

٥٢٥ ويقولون : داخ فـلان فى عمله دوخانا ، يعنون انه قد أغمى عليه أو أخذه دوار فى رأسه فهـم بالسقـوط ، وهـذا خطأ من ناحيتيـن احداهما : أن فعلانا بالتحريك لا يكـون الا مصـدرا لفعل يدل على الاضطـراب والتقلب ، كجال جـولانا وخفق خفقانا وليس الدوخان كذلك ، والأخـرى أن داخ لاتحمل الا معنى ذل واستكان ، تقول داخ الرجل يدوخ دوخا من باب قال اذا ذل ، وداخ القائد البلد اذا قهرها واستولى على أهلها لدوخها وديخها .

ويقال : ليل دائخ اذا كان مظلما ، وداخ لنا العدو اذا ذل وخضع ، ودوخناه فداخ

أى أذللنـاه فـذل فـال
حتى يدوخ لنا من كان عادانـا

ومن المجاز قولك : دوخ السـائح الأرض اذا أكثـر وطأهـا ، ودوخنى الحـر اذا أضعفنى .

٥٢٦ ويقولون : خسر التاجر فى تجارته فهـو خسران بالفتح وزان ندمان ، وهذا التعبيـر مشوب بالخطأ لأن كلمة خسران ليست عـربية ، وانما هى عامية .

والصواب أن يقال : فهو خاسر ، ومنه قيل لسلم بـن عمرو : الخـاسر لأنه بـاع مصحفا ورثه واشترى بثمنـه عودا يضرب به ، وقيل اشترى بثمنه ديوان شعر .

تقول : خسر كفرح وضرب خسـرا بالفتـح ، وخسرا وخسرانا بضمهما ، وخسارة

وخسـارا بفتحهما اذا ضـل فهو خاسر ، وخسر التاجر اذا وضع فى تجارته أو غبـن ، ومـن الخسـار بالفتح قوله تعالى :

« ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا » وقوله « واتبعوا من لم يزده مـاله وولده الا خسارا » ومن الخسر بالضم قوله سبحـانه « والعصر ان الانسـان لفى خسر » وقوله « وكان عاقبة أمرها خسرا » ومن الخسران بالضـم قوله عز وجل « ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقـد خسر خسرانا مبينا » .

تقول : من لم يطع الله فهو خاسر ، وهم خـاسرون ، ومن هذا قوله تعالى « لا جرم أنهـم فى الآخـرة هم الخاسرون » وقوله « ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون»

ويقال : أخسر البائع الميزان اذا نقصه فهو مخسر ، ومنه قوله تعالى : « أوفوا الكيـل ولا تكونوا مـن المخسرين » وأخسر وأكسد اذا وقـع فى الخسران والكساد .

وخسرت فلانا تخسيرا اذا أبعدته ومنه قوله سبحـانه « فمـن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غيـر تخسير » ، وخسرته تخسيرا أيضا اذا نسبته الى الخسران ككذبته تكذيبا اذا نسبته الى الكذب ، وفسقته تفسيقا اذا نسبته الى الفسق .

ويقال : خسر فلان الشىء اذا نقصه وبابه ضرب، وأخسره مثله ، والخسار ، والخسارة، والخسرى بفتحهـن الهلاك والضلال ، والأخسر الضـال كما قال الأخفش ، جمعـه الأخسرون ومنـه قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا» وقوله «وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين»

٥٢٧ ولقد شـاع على ألسنتهـم وأسنة أقلامهم قولهم : من هذا

المنطلق نسبح فى الماء ، ومن هذا المنطلق يجرى السباق وكل من هذين التعبيرين وأمثالهما خطأ بيِّن ، لأن كلمة منطلق بفتح الطاء اسم مفعول من انطلق على رأيهم وهذا الفعل لازم لا يصاغ منه اسم مفعول على هذه الصورة ، اذ أنه مطاوع فعل لا يتعدى بنفسه الا الى مفعول به واحد ، تقول : أطلقت الأسير اذا حللت اساره وخليت عنه فانطلق هو أى ذهب فى سبيله ، ومن هذا يقال : أطلقت القول اذا أرسلته من غير قيد ولا شرط .

وتقول : فلان منطلق اللسان وطلقه وطليقه بفتحهما اذا كان فصيحا عذب المنطق ، وهو طلق الوجه وطليقه ومنطلقه اذا كان ضاحكا ظاهر البشر ، وطلق اليدين اذا كان سمحا كريما .

ويقال : عدا الفرس طلقا أو طلقين بالتحريك فيهما أى شوطا أو شوطين ، ومن هذا تقول : أصبت من مال أخى طلقا بالتحريك أى نصيبا ، قال المسيب :

قبل امرىء ترجى فواضله
قد نالنى من باعه طلق

ولاصلاح تعبيرهم يقال : من هذا المكان ، أو من هذا الموقف ونحو ذلك نعمل كذا

٥٢٨ وهم يسمون العقب بزنة كتف كعبا ، ويقولون ان لكل انسان كعبين ، حتى لقد يقولون ان للحذاء كعبين ، وهذه التسمية خطأ صراح وضلال بعيد .

والحق أن للانسان أربعة كعوب ، لكل قدم كعبان ، قال الأزهرى : الكعبان هما الناتئان فى منتهى الساق مع القدم عن يمنة القدم ويسرتها ، وقال أبو عمرو بن العلاء والأصمعى : الكعب هو العظم الناشز فى جانب القدم عند ملتقى الساق والقدم ، فيكون لكل قدم كعبان عن يمنتها ويسرتها ، وفى التنزيل : « وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى

الكعبين » ، جمعه كعوب وأكعب ، وكعاب بالكسر .

ومن معانى الكعب المجد والشرف ، تقول أعلى الله كعب فلان أى شرفه ، وذهب كعب القوم ، أى ذهب جدهم وشرفهم ، والكعب من القصب الأنبوبة بين العقدنين .

ويقال : كعبت الجارية تكعب من باب قتل كعابة اذا تنأ ثديها للنهود فهى كاعب وكعاب بفتحها وهن كواعب، قال تعالى « وكواعب أترابا » وكعبت البناء تكعيبا ربعته تربيعا ، ومن هذا سمى البيت الحرام كعبة لتربيعه .

أما العقب فهى مؤخر القدم ، جمعها أعقاب ، وفى الحديث « ويل للأعقاب من النار » أى لتارك غسلها فى الوضوء ، ولكل انسان عقبان، واحدة فى كل قدم ، قال تعالى : « الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ، وقوله تعالى : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » .

والعقب بضم العين وسكون القاف أو ضمها العاقبة ، ومن هذا قوله تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا » .

وتقول : جئت فى عقب شهر رمضان وفى عقبانه بضم العين وسكون القاف فيها اذا جئت بعد ما مضى كله ، وجئت فى عقبه بفتح العين وكسر القاف اذا جئت وقد بقى منه بقية وعقب الرجل بكسر القاف وسكونها ولده وولد ولده ، وهى مؤنثة أيضا ، ومنها قوله سبحانه : « وجعلها باقية فى عقبه » . وتقول : هل أعقب فلان ؟ أى هل ترك عقبا ؟ وما لفلان عاقبة أى عقب ، وأعقب فلان اذا مات وخلف عقبا أى ولدا وأكل الرجل أكلة أعقبته سقما أى أورثته علة ، ومن هذا قوله تعالى : « فأعقبهم نفاقا » أى أورثهم بخلهم نفاقا .

والعاقب من يخلف السيد ، وفى الحديث « أنا السيد والعاقب » يعنى آخر الأنبياء والعقبى بضم العين وسكون القاف جزاء الأمر ومنها قوله سبحانه « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ».

ويقال : عقب الحاكم على حكم من كان قبله تعقيبا اذا حكم بغير حكمه ، ومنه قوله سبحانه « لا معقب لحكمه » أى لا أحد يتعقب حكم الله بنقص ولا تغيير .

٥٢٩ ويسمون : أجر العامل على ما يقوم به من عمل : عمولة بضم العين ، فيقول العامل : كم عمولتى على هذا العمل ؟ وهذا فاسد ، لأن جزاء العامل يسمى عمالة مثلثة العين ، وعملة بضمها ، وعملة بكسرها ، أما العملة بفتحها فهى السرقة والخيانة والعملة بالكسر أيضا هيئة العمل ، تقول : فلان حسن العملة .

ويوصف الرجل بأنه عمل وزان طرب ، وعمول وزان صبور اذا كان ذا عمل ، أو كان مطبوعا عليه كما توصف الناقة بأنها عملة وزان فرحة ، وعمالة بتشديد الميم ، ويعملة بفتح كل من الياء والميم اذا كانت فارهة نجيبة ، وتجمع على تعملات ، ومن هذا قول جرير : يا زيد زيد اليعملات الذبل .

والعملة بالتحريك العاملون بأيديهم فى طين البناء .

والتعميل تولية العمل يقال : من الذى عمل عليكم ؟ أى نصب عاملا ، وهو يتعمل فى حاجات المسلمين ، أن يتعنى ويجهد فيها وينصب ، وأنشد سيبويه

ان الكريم وابيك يقتمل
ان لم يجد على من يتكل

يعنى ان لم يعلم

وأنشد الجاحظ لبسامة بن الغدير :

وجدت أبى فيهم وجدى كلاهما
يطاع ويوتى أمره وهو محتبه
فلم اتمهل للسيادة فيهم
ولكن اتتنى طائعا غير متعبه

ويؤدى معنى أجر العامل : جعله وزان فعل ، وجعالته مثلثة الجيم ، وجعيلته وزان سفينة والجعالة مثلثة أيضا الرشوة وما تجعله للغازى اذا غزا عنك بجعل .

وهى بالكسر والضم خرقة ينزل بها القدر كالجعال ، تقول : أجعل الطاهى القدر اذا أنزلها بهذه الأشياء .

وللفعل جعل المعتدى عدة معان :

١ ــ التصيير كما فى قولك : جعل فلان القبيح حسنا .

٢ ــ الظن ، كما فى قولك : جعل السائح البصرة بغداد اذا ظنها اياها .

٣ ــ الاقبال والأخذ ، كما فى قولك : جعل الطفل يصوم ويصلى .

٤ ــ التسمية كما فى قوله تعالى :، « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا» أى سموهم .

٥ ــ التبيين ، كما فى قوله سبحانه : « انا جعلناه قرآنا عربيا » .

٦ ــ الخلق كما فى قوله : « وجعل الظلمات والنور » .

٧ ــ التشريف كما فى قوله : «جعلناكم أمة وسطا» وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ».

٨ ــ التبديل ، كما فى قوله « فجعلنا عاليها سافلها » .

٩ ــ الحكم الشرعى كما فى قوله : «جعل الله الصلوات المفروضة خمسا »

١٠ ــ التحكم البدعى كما فى قوله : « الذين جعلوا القرآن عضين » .

١١ ــ النسب كما فى قولك : جعلت زيدا أخاك ، أى نسبته اليك .

وقد يكون الفعل لازما وهو الداخل فى أفعال المقاربة كما فى قول الشاعر :

وقد جعلت اذا ما قمت يثقلنى
توبى فانهض نهض الشارب الثمل

والجعل وزان صرد الرجل الأسود الدميم تقول مررت بجعل يرمى بشعل أى يأتى بحجج زهر ، جمعه جعلان بالكسر كصرد وصردان ، ويقال أرض مجعلة كمحسنة اذا كانت كثيرة الجعلان .

٥٣٠ ويقولون : يملك فلان عشرين فدانا ، يعنون بهذا مساحة خاصة ، وهذا التعبير غير سليم لأن العرب تقول : ان الفدان هو آلة الثورين يشق بها الأرض للزراعة كالمحراث جمعه فدادين ، والفدادون هم أصحاب الفدادين ، كما يقال لأصحاب الجمال جمالون والفدان مكون من أجزاء هى العضم ، وهو اللوح العريض الذى فى رأسه الحديدة التى تشق بها الأرض ، وهذه الحديدة تسمى بالسكة .

والنير بكسر النون هو الخشبة المعرضة فى عنق الثورين ، جمعه أنيار ونيران والسميق وزان قضيب هو الخشبة التى تحيط بعنق الثور من النير وهما سميقان .

والمقوم بزنة المنبر هو الخشبة التى يمسكها الحراث فى أثناء الحرث .

وقيل ان الفدان هما الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقال للواحد فدان .

أما الفدن بالتحريك فهو القصر ، جمعه أفدان ، تقول : جاءوا بجمال كأنها الأفدان أى القصور ، قال القطامى :

قلما أن جرى سمن عليها
كما طينت بالفدن السياعا

وهذا على القلب ، أى كما طينت الفدان بالسياع ، وهو الطين بالتبن ، ومن المجاز قولك : هذا جمل مفدن ، وقد فدنه الراعى تفدينا أى سمنه وصيره كالفدن ، وقد قالوا لولا الفدان لم تبن الأفران .

٥٣١ ويزعمون أن كلمة تترى فعل مضارع فى قولنا : عاد

الحجاج تترى ، والفصيح أنها اسم وانها قد تنون فيقال : جاءوا تترى وتترى ، وأنهـا فى كلتا الحالين تعرب حالا أى جاءوا متواترين متتابعين، والتواتر معناه التتابع أو مع فترات كما فى قوله تعـالى « ثم أرسلنا رسلنا تترى » أى واحدا بعد واحد .

وأصل تترى وترى مـن الوتر بكسر الواو وفتحها ، ومعناه الفرد ، يقـال : واتر فلان بين أخبـاره مواترة وتارا اذا تابع ، أو لا تكون المـواترة بين الأشياء الا اذا وقعت بينها فترة كما فى الآية السابقة .

ومواترة الصوم أن تصوم يوما وتفطر يوما أو يومين، وتأتى به وترا وترا .

قال أبو هـريرة : لا بأس بقضاء رمضان تتـرى أى متقطعا .

ويقال : تواترت كتب فلان اذا تتابعت وبينها فترة ، واذا شربتم فأوتروا وهم على وتيرة واحدة ، أى على طـريقة وسجيـة ، وفى الحـديث « وما زال على وتيرة واحدة حتى مات » وما فى عمله وتيرة أى فتور ، وطلب فلان وتره وترته قال أبو زيد :

لا ترة عنـدهم فتطلبهـا
ولاهم نهزة لمختـاس

والموتور من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

٥٣٢ ويقولون : سرج الخيـاط الثوب تسريحا واسراجة بالكسر ، وهذا فاسد ، ووجه الكلام أن يقال شرجه تشريجا بالشين لا بالسين ، والتشريج هو الخياطة الأولى المتباعـدة كالمسل بتشديد اللام ، أو يقال شله شلا من باب رد ، كل هذا معنـاه الخياطة الخفيفة أما الخياطة الأخرى فهى الكف بشد الفاء ، تقـول : كف الخياط الثوب كما اذا خاط حاشيته ، وهى الخياطة الثانية بعد الشل ، وقد قالوا : عيبة مكفوفة مشرجة مشـدودة ،

وفى الحديث « وان بينهم عيبة مكفوفة » مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث ، أو معناه أن الشر يكون مكفوفا بينهم كما تكف العباب اذا اشرجت على ما فيها من المتاع .

ومما يؤدى معنى الخياطة الحوص بفتح فسكون ، فتقول : حاص الخياط الثوب حوصا وحياصة من بابى قال وكتب اذا خاطه ، ومنه المثل « ان دواء الشق أن تحوصه » ويضرب فى رتق الفتق واطفاء العداوة.

أما التسريج بالسين فله معان لا صلة لها بالخياطة ، تقول : سرجت الفتاة شعرها تسريجا اذا ضفرته، والسراج هو الكذاب يزيد فى حديثه، تقول : ان فلانا ليسرج الأحاديث تسريجا ، ولقد تسرج على أى تكذب .

ومن المجاز قولك : سرج فلان كذا تسريجا اذا بهجه وحسنه ، ووجه مسرج أى مزين محسن .

٥٣٣ ويقولون : هذا كلب مسعور يعنون أنه مصاب بداء يعدى من يعضه والصواب أن يقال : هذا كلب كَلِب وزان كتف ، أى به كَلَب بالتحريك ، وهو داء يشبه الجنون يعترى الكلب من أكل لحم الانسان غالبا ، فاذا عقر الكلب الكَلِب انسانا أعداه بهذا الداء ، ويسمى المعقور كَلِبا أيضا .

تقول كلب كلب ، وكلاب كلبى ، ورجل كلب ، ورجال كلبى ، ومن المجاز قولك شتاء كَلِب ، ودهر كلب أى شديد الأذى .

أما المسعور فهو الرجل الحريص على الأكل وان كان بطنه مملوءا ، تقول : سعر فلان بالبناء للمجهول اذا اشتد جوعه وعطشه .

ومن المجـاز قـولك ضربه السعار بضم السين وهو حر الليل ، وبه سعار وهو توهج العطش .

٥٣٤ ويقولون لعنقـود التمـر : سباطة بضم السين ، والصواب أن يقال كباســة بالكسر ، جمعها كبائس .

أو يقـال له عـذق بكسر العين أما العذق بفتحها فهو النخلة بحملها .

أو يقال له قنو بكسر القاف فى لغة الحجاز ، وبضمها فى لغة قيس ، جمعه أقناء وقنوان بالكسر .

ومن هذا قوله تعالى «ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب » .

أما السباطة فهى الكناسة ، تقول ، بال الرجل فى سباطة القـوم أى فى كناسـتهم ، والسباطة سقيفة بين حائطين تحتها طريق جمعـه سوابيط وسـابطات ، وسباط بالضم اسم شهر بالرومية ، تقول : ولد فلان فى سـباط أى فى شهر كثير الرياح وهو آخـر شهور الشتاء .

٥٣٥ ويقول لمـا يهدى السفـن فى البحار (فنار) وهذه كلمة أعجمية لا تعرفها العـرب والصواب منارة ، وأصلهـا علم الطريق ، تقول ، اهتدى المسافرون بمنـار الأرض أى بأعلامها ، والمنـارة أيضا هى التى يؤذن عليها للصلاة تقول : بنيت منـارة المسـجد أى مئذنته ، وكذلك هى مايوضع عليه السراج ، ووزنها مفعلة من الاستنارة أى منورة بفتح فسكون ، وجمعها منـاور ، والأكثر الا تهمز الواو لأنها أصلية من النور ، كما لا تهمز الياء فى معايش لاصالتها .

ومن قالوا منائر وهم قليل فقـد شبهوا الأصلى بالزائد كما قالوا فى جمـع مصيبة مصائب وأصله مصاوب .

وأما المنار فهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحد بالهاء فيقال منارة .

وفى الحـــديث : « ان للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق » .

والصوى هى الاعلام من الحجارة ، الواحدة صـــوة بضم الصاد وتشديد الواو .

٥٣٦ ويقولون : رمح الفرس أو الحمار رمحا ، يعنون أنه جرى مسرعا فهو رامح ، ورمـــاح والصواب أن يقـــال : هو سبوح ، وسابح بفتحهمـــا ، وخيل سبح بضمتين وسوابح وذلك لأنها تسبح بيديها ، أو يقال : فرس مطار بضم الميـــم أى حديد الفؤاد طيار مـــن شدة عدوه .

أما الرمح فله معان لا تمت بصلة الى معناهم هذا ، تقول رمحه الفرس اذا ضربه برجله ورفسه ، ورمحـــه أيضا اذا عضه ، ودابة رماحة أى عضادة ورموح أى عضود ، وتقول رمحت فلانا رمحا اذا طعنته بالرمح ، ورجل رماح اذا كان حاذقا فى الرماحة ، والرماحة بالكسر صناعة ، ورجل رامح أى ذو رمح .

ورمح الجنـــدب اذا ضرب الحصى برجليه ، ورمح البرق اذا لمع ، وقـــوس رماحة اذا كانت شديدة الدفع .

ومن المجاز قولك : أصابته رماح الجن أى الطاعـــون ، قال زيد بن جندب الايادى :

لعمـرك ما خشـــيت على ابى
رماح بنى مقيدة الحمـــار
ولكنى خشـــــيت على ابى
رماح الجن أو ايـــاك حـــار

ويقال : كسروا بينهم رمحا اذا وقع بينهم شر ، ومنينـــا بيوم كظل الرمح اذا كان طويلا وضيقا .

قال ابن الطثرية :

ويوم كظل الرمح قصر طـــوله
دم الزق عنا واصطفاق المزاهير

٥٣٧ ويقولون : فلان يحب رجال الأدب سيما الشعراء ، وهذا غير ســـليم ، والفصيح أن يقال : ولا سيما الشعـــراء ، أى أن نصيب الشعـــراء من محبته يفوق نصيب غيرهم ، وذلك لان كلمة سى معناها مثل ، فكأن من يقـــول ذلك

يقصد أن الشعراء لا يماثلهم أحد من رجال الأدب فى ولوعه بهم ومحبته اياهم ، فالتعبير بلاسيما اذن يفيد تفضيل ما بعدها على ما قبلها فى الحكم .

قال ابن يعيش : ولا يستثنى بسيما الا ومعها جحد أى نفى ، ونقل السخاوى عن ثعلب قوله ومن قالها بغير اللفظ الذى جاء به امرؤ القيس فقد أخطأ ، يعنى كلمة لا ، وهو :

الارب يوم كان منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل

ووجه ذلك أن لا وسيما تركبا وصارا كالكلمة الواحدة التى تساق لترجيح ما بعدها على ما قبلها ، قال ابن الحاجب : ولا يستثنى بلا سيما الا مايراد تعظيمه ، فقولهم تستحب الصدقة فى شهر رمضان ولا سيما فى العشر الأواخر منه معناه واستحبابها فى العشر الأواخر . آكد وأفضل ، ولكن لو قيل سيما بغير كلمة لا النافية لاقتضى ذلك التسوية ، وبقى المعنى على التشبيه ، ويكون التقدير تستحب الصدقة فى شهر رمضان استحبابها فى العشر الأواخر .

وتقدير قول امرىء القيس مضى لنا أيام طيبة ليس فيها يوم مثل يوم دارة جلجل فانه أطيب من غيره وأفضل من سائر الأيام ، ولو حذفت كلمة لا لصار المعنى مضت لنا أيام طيبة مثل يوم دارة جلجل ، وحينئذ لا يكون فى الكلام مدح ولا تعظيم .

أما اعراب هذا المثال ونحوه ، فان لا نافية للجنس ، واسمها سى وخبرها محذوف دائما تقديره موجود أو حاصل ، وكلمة ما المتصلة بسى اما زائدة واما اسم موصول واما نكرة موصوفة بمعنى شىء ، وهى فى الحالتين الأخيرتين مضاف اليه .

والاسم الذى بعد لا سيما قد يكون معرفة كما فى المثال

الذى نحن بصـــدده ، وقد يكون نكـــرة كما فى قول امرىء القيس ، وقولك أحب سكنى القرى ولا سيما قرية على النيل فان جاء معرفة كان مرفوعا أو مجرورا .

أما الرفع فعلى أنه خبـر لمبتدأ محـــذوف تقـديره الشعراء ، وتكون هذه الجملة صلة لما على أنها اسم موصول، أو صفة لها على أنهـا نكرة موصوفة .

وأمـا الجر فعلى تقـدير اضافة سى اليه وزيادة ما .

فاذا كان الاسم نكـــرة جاز رفعه وجره على نحو ما تقدم ، وجاز أيضا نصبه على أنه تمييز لما .

٥٣٨ ويزعمون أن العـراء بالفتح والمد مصدر لعرى ، فيقولون خطأ : عرى فلان عـــراء . والصواب أن يقال : عـرى فلان من ثيابه يعرى من باب تعب عريا وعرية بضمها فهـو عريان ، وهم عريانون ، وهو أيضا عار ، وهم عراة كقاض وقضاة .

ويقال : هى عارية وعريانة بالضم ، لأن ماكان من الصفات على فعلان كان مؤنثه بالهـاء كخمصان (١) وخمصانة .

ويقال : فـرس عـرى اذا كان بلا سـرج ، وصـف بالمصدر ثم جعل اسما وجمع فقيل خيل أعراء مثـل قفل وأقفال ، قالوا ولا يقال فرس عريان كما لا يقال رجل عرى ويقال : اعـروى الرجـل الدابة اذا ركبها عريا ، وعرى فلان من العيب يعرى من باب تعب فهو عر اذا سلم منـه ، ويعدى الفعـــل بالهمـــزة والتضعيف فيقال أعريته من ثيابه ، وعريته منها تعرية .

أما العراء (٢) فهو الفضاء لا يستتر فيه بشىء ، جمعه اعراء ، وأعرى الرجل اذاسار فيه وأقام ، ونحـن نعـارى أى نركب الخيل أعراء

(١) الخمصان : من كان ضامر البطن .
(٢) من العراء قوله تعـالى : «فنبذناه بالعراء وهو سقيم » .

والمعرى من الأسماء ما لم يدخل عليه عامل كالمبتدأ .

٥٣٩ وهم يخطئون حين يجمعون كلمة عرب على عربان بالضم ، لأن العربان هو ما يقدمه المشترى من ثمن السلعة التى يريد أن يبتاعها ، ثم يقول لصاحبها ان تم العقد احتسبناه والا فهو لك ومثله العربون بالضم والعربون بالتحريك والعرب أهل الأمصار ، والأعراب سكان البادية لا واحد له جمعه أعاريب ، والنسبة اليهم أعرابى والعرب العاربة والعرباء هم الصرماء الخلص ، أما العرب المتعربة وكذا المستعربة فهم الذين ليسوا بخلص ، وجمع العرب أعرب كزمن و أزمن ، والنسبة عربى .

والعروب بالفتح هى المرأة المتحببة الى زوجها أو الضحاكة وقد قالوا : خير النساء لكعوب العروب وقد تعربت لزوجها اذا تحببت اليه جمعها عرب بضمتين ، ومن هذا قوله تعالى : «فجعلناهن أبكارا عربا» ويقال لها أيضا عربة وزان فرهة وجمعها عربات كفرحات ، والعروبة بالفتح وباللام يوم الجمعة .

٥٤٠ ويقولون : هذه المدينة مملوءة بالعمار بفتح العين ، والصواب أن يقال مملوءة بالعمران بضم العين ، وهو اسم للبنيان . أما العمار فهو الريحان يزين به مجلس الشراب ، وهو أيضا جمع عمارة بالفتح وهى كلمة كان الرجل يحيى بها الملك مع قوله : عمرك الله ، قال الأعشى :

فلما أتانا بفيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

والعمارة بالكسر مايعمر به المكان ، وكذلك هى جماعة أصغر من القبيلة .

والعمارة بالضم أجر العمارة بالكسر ، وعمارة بالضم علم لرجل ومنه عمارة اليمنى الشاعر المعروف .

عباس أبو السعود

قلعة الموت وفردوسها المزعوم

بقلم
عقيد شرطة محمد فتحى عيد

قال عنها القزوينى أنها قلعة حصينة فى ناحية روزبار بين قزوين وبحر الخرز بولاية جيلان من بلاد فارس وكانت على قمة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا يبلغها النشاب (كناية عن ارتفاعها الشاهق) وقيل أن أحد ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد وتبعه فرآه قد وقع على قمة جبل وجدها الملك موقعا حصينا فبنى عليها قلعة وسماها قلعة الموت أى عش العقبان .

وقد جاءت شهرة قلعة الموت بعد استيلاء الحسن بن الصباح عليها سنة ٤٩٣ هـ ١٠٩٠ م واتخاذها مقرا لطائفة الاسماعيلية الشرقية التى يتزعمها ــ وقد كانت هذه القلعة وشيخها حسن بن الصباح مادة خصبة للرواة فى الماضى والحاضر وقد جمح الخيال بكثير من هؤلاء الرواة وتحدثوا عن شيخ الجبل وحرسه الخاص وجناته التى تجرى فيها أنهار من ماء سلسبيل وخمر معتق ولبن صاف وعسل طيب وللأسف الشديد فان هذا الخيال استقر فى أذهان الكثير من أبناء جيلنا والأجيال التى سبقته على أنه حقيقة واقعة لا يتطرق اليها **الشك من قريب أن بعيد** .

البندقى ماركوبولو

وكان أول من كتب عن هذه القلعة ماركو بولو الرحالة البندقى وذلك فى كتابه Devisment du Monde ١٢٩٨ .

« وكان شيخ الجبـل يقطن فى قديم الزمان منطقة ملقط Mulect وهذه الكلمة الفـرنسية تعنى اله الأرض ، سـأقص عليـكم أنا السيد / ماركوبولو قصة هـذا الشيخ كما رواها لى كثير من الناس فى المنطقة .

أقام هذا الشيخ فى واد بيـن جلبين أكبر وأجمـل حديقة رأتها العين مملوءة بشتى أنواع الفاكهـة ـ كما شيد فى الوادى منازل جميلة وقصورا فخمة موشـاة بالزخارف والرسومات ويجرى من تحتها أنهار مملوءة بالنبيذ واللبن والعسـل والماء وفيها غيد حسان يعزفن على جميع الآلات الموسيقية ويغنين أعذب الألحان ويرقصن أجمل الرقصات وكان الشيخ يصـور لأتباعه هـذا المكان بأنه الجنـة التى وعـد بها المتقون . ولا يسمح بدخول هذه الحديقة الا لأفراد طائفة الحشاشين وعند مدخل هذه الحديقة كان يوجد قصر حصين لا يستطيع أحد يستولى عليه كما لا يتيسر لأحـد الوصول الى الحديقة الا عن هـذا الطريق . وكان شيخ الجبل يزود بلاطه الملكى بشبـان من أبنـاء أتباعه يتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ويعـدهم لـكى يكونوا جنـوده . وكان الشيخ يحضر هؤلاء الشبان فى مجموعات صغيرة يتراوح عددها من أربعة الى عشرة أفـراد ثم يسقيهـم شرابا مسكرا فكانوا ينامون بعد تناوله مباشرة وينقلهم وهم نيام الى الحديقة وبعد فترة يستيقظون على ألحـان شجية تطربهم ويفتحون أعينهم على حوريات يرقصن لهم وتسير الحياة بهم رغدة فى الوادى حيث ترضى لهم الفتيات جميع رغباتهـم ـ ثم يسقون شرابا مسكرا وينقلهـم الشيخ وهم نيام من الحديقة الى قصره وبذا يصبحون طوع بنـانه أملا فى الجنة التى ذاقـوا بعض طيباتها . لذا كانوا يقومون بتلبيـة أوامره دون خشية من المخاطـر . وبهذه الطـريقة كان يتسنى للشيخ القضاء على كل من يقف فى طريقه . وبسبب خوف الأمـراء من بطشه كانوا يدفعون له الفـدية رغبة فى صداقته وارضائه .

لقد رويت لكم قصة شيخ الجبل واتباعه الحشاشين وسأقص عليكم الآن كيف قضى عليه • وفى عام ١٢٤٢ علم هولاكو زعيم التتار بخبث هذا الشيخ وقرر قتله فأرسل اليه جيشا كبيرا بقيادة أحد أعوانه فحاصر القصر لمدة ثلاث سنوات ولم يكن من الممكن الاستيلاء على القصر بسبب قوة تحصينه — ولكن أمكن الاستيلاء على القصر بعد نفاد المئونة منه وقتل الشيخ وجميع أتباعه من الحشاشين •

هذه الرواية التى ذكرها ماركوبولو فى كتابه الذى أعيد نشره فى باريس عام ١٩٥٥ ليس لها سند تاريخى •

راية المعلم اللبنانى بطرس البستانى

تحدث المعلم البستانى عن الحسن بن الصباح وعلى قلعة الموت والحشاشين فى موسوعته دائرة المعارف فقال « عندما استولى الحسن بن الصباح على قلعة الموت وجعلها مقرا له ولأتباعه من طائفة الاسماعيلية حصنها بأسوار منيعة وحفر فى الصخر منازل ومخازن واحتفر قناة يجرى فيها الماء أسفل الحوائط ثم زاد فى تحصينها شيئا فشيئا حتى أصبحت أمنع قلعة فى آسيا كلها ولقد استولى الحسن بن الصباح على هوى أتباعه حتى أن السلطان ملك شاه السلجوقى لما أرسل اليه يطلب منه الطاعة دعا ابن الصباح بعض تبعته وقال لأحدهما اقتل نفسك فقتل نفسه وقال للآخر ارم نفسك من الحصن فألقى بنفسه من شاهق فسقط من الهوة قتيلا• وعاد الرسول الى السلطان يخبره بما رآه فسكت عن ابن الصباح وخشى بأسه • وكان لشيخ الجبل حرس خاص ينفذون تعاليمه هم الفداوية أى الفدائيين وقد بث فى روعهم أن سلامتهم متوقفة على فداء أنفسهم وأن أقل مخالفة لتعاليم الشيخ تكون سببا لوقوعهم تحت المسئولية والعقوبة الى الأبد وان لم يبد منهم أى مخالفة وتفانوا فى تنفيذ أوامره وتعليماته فان مآلهم الجنة ولكى يثبت لهم ذلك أنشأ حدائق مسورة قد جمعت فيها

الصناعة كل ما يمكن العقـل أن يتصوره من الأشياء البديعـة التى تأخذ بمجامع القـلوب من أنواع الزهور وشجر الفاكهة والينابيـع والنوافر والشـلالات ، والقاعات الفاخرة ذات الشرفات المصنوعة من الخـزف والصينى والمفروشـة بالسجاجيد العجمية والأثاث اليونانى والمزينة بالآنيـة الذهبيـة والفضية والبلورية وجعـل فيها أجمـل العذارى وأظرف الغلمان الذين كانوا يتمشون فى تلك الحدائق بالابهة والاجلال فيفتنون الأنظار ويشنفون الآذان بأعـذب الأغانى وأحلى الألحان . وكان يختـار الصبية والشباب على أسـاس القـوة الجسمانية والمقـدرة العقلية ثم يدعوهم الى الأكل معه وأثناء تناول الطعام يسقيهم الحشيشة فيغيبون عن الوعى فيأمر بنقلهم الى تلك الحدائق فاذا صحوا وجدوا أنفسهم فى أجمل جنان وأبهج مكان ورأى كل منهم كل الأسباب التى بها يتمتع بأنواع لذاته وشهواته ثم يسقيهم مرة أخرى الحشيشة ويعود بهـم الى مجلس شيخ الجبـل فاذا زال تأثيـر الحشيش اعتقد كل منهم أنه ذاق لذة النعيم وشاهد الفردوس الموعود فيخبر بما حدث له كأنه فى حلم أو فى يقظة ـ ومن ثم كان انقيـاد الفدائيين أو الحشـاشين لشيخ الجبل انقياد أعمى . ويبذل الواحد منهم قصارى جهـده فى تنفيـذ ما يطلب منه أملا فى الحصول على فرصة يضحى بها من أجـل شيخ الجبل حتى يحظى بالسعادة الأبدية والنعيم الذى لا يزول .

وعلى هذا النهج سـار جورجى زيدان فى روايتـه صـلاح الدين الأيوبى والحشاشين كما سار كثير من كتاب الشرق والغرب . وقد أخرجت السينما الامريكيـة كثيرا من الروايات عن شيخ الجبل وجنته المزعومة سواء عند تناولها لسيـرة الحسن بن الصباح أو لسيرة صديقه الشاعر المتصوف عمر بن الخيام .

ولكى نوضح مدى ما فى هـذه الروايات من زيف واختلاق لا بـد وأن نضع اجابة علميـة لأسئـلة ثلاث :

١ ـ ما هى الاسماعيلية ؟

٢ ــ من هو الحسن بن الصباح ؟

٣ ــ من هم الفداوية ؟

الاسماعيلية :

قال عنهم المعلم بطرس البستانى أنهم فرقة من غلاة الشيعة أصلهم من بلاد فارس ظهروا عام ٨٤٠ م ثم انتشروا فى بلاد العرب وسوريا وأفريقيا ديانتهم مؤلفة من الوثنية واليهودية والمسيحية والاسلامية وينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق لأنهم قالوا بامامته .

ولكن استاذنا الفاضل الدكتور محمد كامل حسين الذى أصدر كتابا عن طائفة الاسماعيلية رجع فيه الى وثائق الاسماعيلية والى الكثير من الثقاة منهم وخاصة الأغاخان زعيمهم الدينى الذى كان أتباعه يزنوه سنويا بالبلاتين وكان محبا لمصر ودفن فى مقبرة أقيمت له فى أجمل مكان على ضفاف النيل باسوان .

عالمنا الفاضل الجليل وضع الاجابة العلمية الدقيقة فقال عن الاسماعيلية أنها فرقة من فرق الشيعة أخذت أصولها المذهبية عن الاصول الشيعية التى وجدت قبل ظهور الاسماعيلية ــ تلك الاصول التى لم تكن فى أول الأمر تختلف عما ذهب اليه غيرهم من المسلمين فى شىء وكان الخلاف ينحصر فى نقطة واحدة ليست من صميم الدين فى شىء انما كان الخلاف حول الامامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الشيعة جعلت الامامة حقا شرعيا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولأبنائه من بعده . والاسماعيلية فرقة قالت بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق فنسبوا اليه . وقد قال العالم الجليل أن العقائد الاسماعيلية قد أصبحت الآن مجموعة آراء مختلفة تطورت من بلد الى آخر ومن زمن الى زمن بحيث يصعب دراستها ومعرفتها .

وقد اعتنقت طائفة الاسماعيلية العمل بالتأويل بالباطن دون الظاهر وقد تركوا الظاهر جملة وتفصيلا والذى يظهر من تأويل الباطن أنه وضع لخدمة غرض واحد هو اغداق صفات التمجيد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الاسماعيلية

ولا يوجد الآن فى مصر من يدين بالمذهب الاسماعيلى .

الحسن بن الصباح :

ولد فى مدينة الرى وفى قول آخر فى مدينة قم من أعمال فارس حوالى سنة ٤٣٠ هـ فى أسرة أتخذت من التشيع مذهبا لها — تلقى تعليمه فى نياسابور حيث التقى بصديقه نظام الملك والشاعر المتصوف عمر بن الخيام . ووصل الى مصر عام ٤٧١ هـ كى يتلقى تعليمه الدينى على يد المستنصر بالله امام الاسماعيلية فى القطر المصرى فأكرم المستنصر بالله وفادته وبعد أن تلقى العلم على يديه زوده بالمال الوفير وجنده للدعوة له فى أنحاء البلاد . ولما مات المستنصر بالله ولى الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالى ابن اخته المستعلى امامة الاسماعيلية فثار صاحب الحق الشرعى فى الامامة نزار بن المستنصر بالله ولكن فشلت ثورته وقبض عليه وقتل . ولما أحس الحسن بن الصباح بأن الوزير الجمالى يعد العدة لقتله هرب وعاد الى بلاد فارس حيث جمع حوله الفقراء والمضطهدين والهاربين من قسوة السلاجقة الأتراك وبث فيهم تعاليم الاسماعيلية فنادوا به اماما لهم . وبعد ان استولى الحسن بن الصباح على قلعة الموت جعلها مقرا لأتباعه . وكان الحسن بن الصباح عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر — ذلق اللسان رائع البيان قوى الحجة وقد اشتهر ذكر ابن الصباح وسمى بشيخ الجبل . وقد اتخذ ابن الصباح القتل وسيلة لتحقيق أهدافه وكان يأمر أتباعه باغتيال من يقف فى طريقه — وبجوار سياسته الدموية لتصفية أعدائه كان ابن الصباح يتبع ما يسمى بالحرب الباردة فيبعث بدعاته لمناظرة ومجادلة أصحاب المذاهب الأخرى ودعوتهم الى الدخول فى مذهب الاسماعيلية .

وقد عاش ابن الصباح زاهدا متعبدا متصوفا فكان مثالا للرجل المنصرف الى العبادة على ما كان عليه من سفك الدماء وقتل كل من يخالفه وامتدت به الحياة ملوثة بدماء من اغتالهم من أتباعه — وقد بلغ من أمر شراهته للدماء فى

أخريات أيامه أن قتل ولديه وادعى أمام أتباعه انه قتلهما غيرة على الدين والعقيدة وذهب الى أنه قتل ابنه الأكبر لاشتراكه فى قتل شيخ مشايخ قوهستان وقتل ابنه الثانى لأنه تعاطى الخمر وهكذا شاء الله أن يشرب الحسن بن الصباح من ذات الكأس التى أذاق منها معارضيه . وبعد أن قتل ولديه هجر زوجته وانقطع الى وحدته الى أن مات سنة ٥١٨ هـ فى قلعته ولم تسقط قلعة الموت فى يد التتار الا بعد وفاة شيخ الجبل بسنين طويلة .

الفداوية :

قسم الحسن بن الصباح طائفته ثلاث فئات :

الفئة الأولى :

الدعاة وهم الثقاة من أهل الطائفة وكان عملهم أن يدعوا الناس الى الاسماعيلية وان يرشدوهم الى تعاليمها .

الفئة الثانية :

الرفاق وهم الذين دخلوا المذهب وخضعوا لسلطان شيخ الجبل الدينى والدنيوى .

الفئة الثالثة :

الفداوية أو الفدائيين وهم الذين ينفذون تعاليم شيخ الجبل وكانوا بمثابة حرس خاص له. وقد أخذ الحسن بن الصباح نظام الفدائيين عن القاطميين ففى زيارته لمصر شاهد فى القصر الصغير الفاطمى عدة حجرات كان يقيم فيها شبان صغار السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية جمعهم الامام الفاطمى فى قصره لتربيتهم تربية خاصة حتى يصطنعهم فى حكم دولته بعد أن يبلغوا مبلغ الرجال. وكان اعتماد الامام الفاطمى فى الحكم على هؤلاء الشبان الذين نشأوا فى قصره تحت رعايته وتعلموا فنون الفروسية والسياسة على أيدى اخصائيين مهرة فلما تملك الحسن بن الصباح قلعة الموت جمع اليه طائفة صالحة من الأطفال من أبناء الدعاة المعروفين بغيرتهم للاسماعيلية واستعدادهم للتضحية فى سبيل مذهبهم وأخذ فى تدريبهم على الطاعة العمياء والايمان بكل ما يقوله لهم .

وكان ابن الصباح صـارما فى تنشئة هؤلاء الأطفال قاسيا عليهـم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح فى اعـداد طائفة من الفـدائيين أفزعوا العالم الاسلامى وجماعـة الصليبيين حتى أن الكتاب الغربيين أطلقوا عليهم اسم السفاكين •

أما بالنسبة للحشيشة التى نسب البعض للحسن بن الصباح استعمالها فى التأثير على اتباعه من الفدائيين لايهامهم بالجنة المزعومة فقد تولى العالم الكبير الدكتور محمد كامل حسين الرد على هذه الأكاذيب وقال ان هذه الأقوال خرافية والحقيقـة تخالف ذلك تماما فمن المعروف أن مدمن الحشيش جبان لا يستطيـع القيام بالأعمال التى كان يقوم بهـا الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل النفس اذا فشلت المهمة والحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأشياء وأسرار ربما حاول كتمها بينما الفـدائى الاسماعيلى كان يمتـاز بالفطنـة والكياسة والدقة التامـة فى كل أعمـاله وتصرفاته وتقدير موقفه تقديرا يحقق له النجاح مع شـدة الحرص على الكتمان مما جعـل الـكتاب لا يصـدقون قصـة الحشيشة كما لا يصدقون قصـة الجنـة •

لقد حاول بعض أعداء الاسلام استغلال قصة شيخ الجبل وجنتـه المزعومة فى محاولة للنيل من عظمة الاسلام ولكن خاب سعيهـم وباء بالخسران • ومن بيـن ما ذكره البستانى فى دائرة معارفه فرية عن فرقة من فرق الاسماعيلية وقال ان هذه الفرقة كانت تقيم فى أول كل عام عيدا لها فى كل قرية وفى هذا العيد يدخل الرجال الى منزل مظلم ثم تلحق بهم النساء ويضاجع الرجل من تقع تحت يده من النساء حتى لو كانت أمه أو أخته أو ابنته أو زوجة شخص غيره • ولكن هـذه الفرية التى لا سند لها من التاريخ قد حدثت فى زمننا المعاصر •

لقد نشرت الصحـف أن بعض الأزواج فى احـدى الـولايات المتحدة الامريكية قد اتفقوا سويا على تبـادل زوجاتهـم — وحتى لا يحـدث بينهـم أى خلاف كانت

كل زوجة تضع قطعة من ملابسها الداخلية فى مكان خفى فى المنزل الذى يجتمعون فيه ـ ومن يعثر على هذه القطعة من الرجال تكون صاحبتها من نصيبه .

وفى اسرائيل نشرت الصحف اعلانا هو الأول من نوعه صاحب الاعلان زوج وزوجته وهما يعلنان عن رغبتهما فى عملية تبادل الزوجات بدعوى أن ذلك يجدد الجنس ويطيل العمر .

ان مثل هذه الامور التى تنزع عن البشر صفتهم الانسانية وتعود بهم الى عصر البدائية الحيوانية ليس لها وجود فى مجتمعنا الاسلامى بفضل ايماننا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر . ولم يكن لها وجود حتى فى قلعة الموت زغم شهوة شيخ الجبل العارمة لسفك الدماء .

وسوف تظل الأمة الاسلامية بفضل من عند الله خير أمة أخرجت للناس وصدق قوله تعالى جل شأنه « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

عقيد شرطة / محمد فتحى عيد

« ورع عمر بن الخطاب رضى الله عنه »

ارسل عمر الى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه (٤٠٠) درهم فقال عبد الرحمن : أتستسلفنى وعندك بيت المال ؟ الا تأخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر : اتخوف ان يصيبنى قدرى (أموت) فتقول انت واصحابك : اتركوا هذا لأمير المؤمنين حتى يؤخذ من ميزانى يوم القيامة ولكنى اتسلفها منك لما أعلم من شحك فاذا مت جئت فاستوفيتها من ميراثى .

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : يذهب بعض المسلمين الى الحج ويعود كما ذهب ، لا يكتسب خلقا كريما ولا يغير من عادة مذمومة ، ولا يزداد حرصا على طاعة الله ومرضاته ، والبعد عن عصيانه فما مدى قبول هذا الحج ؟

ج ـ الغاية من خلق الانسان هى عبادة الله « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون » (١) .

والغاية من العبادة هى تطهير النفس وتزكيتها وخضوعها لرب العالمين فلا يرى المسلم حيث نهاه الله ولا يفتقد حيث أمره وهى بمعنى أوضح تحصيل التقوى ، وكما أنه رُبَّ صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » فكذلك رُبَّ حاج ليس له من حجه الا السفر والنصب .. « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » (٢) . « لن ينال الله لحومها و لادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٣) .

يقول أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتاب « أسرار الحج » وهو يتحدث عن عودة الحاج الى بيته : « فاذا دخل بيته قال توبا توبا لربنا أو لا يغادر علينا حوبا ، فاذا استقر فى منزله فلا ينبغى أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة
(٣) الآية ٣٠٧ من سورة الحج

صلى الله عليه وسلم ، فيكفـر تلك النعمة ، بأن يعود الى الغفلة واللهو والخوض فى المعاصى ، فمـا ذلك علامة الحج المبرور ، بل علامته أن يعود زاهدا فى الدنيا راغبـا فى الآخرة ، متأهباً للقـاء رب البيت بعد لقاء البيت » .

ويقول فضيلة الامام الدكتـور عبد الحليم محمود رحمه الله (١) :

« ... انه من فضـل الله على الأمة الاسلامية ، أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها حتى تنال رضاء الله وتنعم بثوابه ... ومن النوافذ الكبرى : الحج المبرور .

وليس من العسير على الانسان أن يخلص وجهـه لله فى أيـام معدودات ، يصبح الانسان بعدها من البراءة والطهر كيوم ولدتـه أمـه خالصـا من الدنس ، مبرءاً من الآثام .. هذه التزكية ، وهذا الطهـر ، يجب أن يستمرا فيمـا يستقبله الحاج من عمره .. واذا كان الله قد هيأ للمسلم هـذه الفرصـة الكبرى ، ليصل بسببها الى المستوى الملائكى فى الطهر ، فانه على المسلم أن يحافظ عليهـا محافظة تامة .. ان الانسان فى مفتتح أعمال الحج يتوب الى الله توبة نصوحا ويعاهده عهدا يعـزم على ألا ينقضه على أن يسير فى حياته متبعا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وهو بهذه التوبة يتطهر باطنيا ، ويشفع التطهـير الباطنى بتطهـير ظاهرى وهو غسل الاحرام ، ويعلن عن اخلاصه فى الطهر الظاهـر ، والطهر الباطن بالصـورة الجميلة صورة ملابس الاحرام نقية طاهرة ، بيضاء صافية خلت خلوا تاما من الدنس والخبـائث .. ويثبت كل ذلك بالشعار القـوى الدائم فى الحج : « لبيك اللهـم لبيك ، لبيك لا شريـك لك لبيك ، ان الحمد والنعمـة لك والملك ، لا شريك لك » .

وهو اذن منذ البدء يتطهـر باطنا ، ويتطهر ظاهرا ، ويتطهـر بالقول ، ويتطهر بالسلوك .

هذا الصفاء وهذا الطهر يجب أن يستمرا ويجب أن يدومـا مدى الحياة . والعهد الذى عاهـد الله

(١) فى كتابه « الحج المبرور . أحكام وأسرار » .

عليه من الاخلاص والتقوى يجب أن يلتزمه طول حياته بقـول الله تعـالى موجها المسلمين الى التزام عهودهم : « وأوفوا بعهـد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليـكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » (١) .

أما هذه المرأة التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فانها كـل امرأة خرقاء ناقصة العقل ، تغزل طول يومها مثابرة دائمة وتحـكم غزلها ، ثم تنقضه آخر النهار .

ومثل كل من يعاهد الله ثم لا يوفى بعهده مثل هـؤلاء النسـوة الحمقاوات اللواتى ينقضن آخـر اليوم ما غزلن فى أوله ..

على أن الاخـلال بالعهد مـع الناس يعتبر عند الله من عـلامات النفاق ، فما بالك بالاخلال بالعهد الذى بين الانسان وربه ؟

على أن هذا الذى يعاهـد الله ثم ينقض عهده يقول ما لا يفعـل وقد هدد الله من يفعل ذلك وتوعده ومقته « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢) .

أما اذا تزكى المسـلم بالحج ، ثم حافظ على هذه التزكية بعـد الحج ، فانه ينال السعادة الحقـة « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبـة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) .

س : هل تقاليد الاسلام تمنـع من التطور ؟

ج : الأصل فى التقـاليد وضع القلادة فى العنق ، وهى ما تتزين به المرأة أو يعـرف بهـا البعـير ومنه قلد البعير وقلدت المرأة .. ثم قيل : قلده العمل اذا أضافه اليه وطلبه منه ، وقيل : قلد فى الرأى اذا اخذ بقول غيره دون حجة ، ويقال: تقلدت المرأة وتقلد فلان العمل . وتقلد مـذهب فلان ، والمعنى فى كل ذلك التزم ما تقلده من عمـل أو رأى أو قلادة ، ومـن هـذا

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف
(٣) الآية ٩٧ من سورة النحل

قيل : تقلدت الأمة كذا ، أى اتخذته كالقلادة اذا التزمته وسارت عليه ، وأطلق (التقليد) على نفس الشىء الذى تقلـدته ، وبـذلك انتقلت الكلمة الى الصورة العمليـة التى تتقلدها وتتمسـك بها الأمم فى نواحى حياتها الاجتماعية .

ومنشأ التقاليد فى الأمة : اما عرف ثبت فيها عم وانتشر . واما مجازة غيرها وأخذها عنه ، وعلى كل حال لم تعهـد الكلمة الا فى العادات التى مصدرها العرف أو التوارث أو النقل من جماعة أخرى مجاورة .

ومن هنا اختلفت تقاليد الأمم فى النواحى الاجتماعية باختـلاف العرف أو التوارث أو النقـل ، وكان لكل جماعة تقليد يغاير تقليد الجماعة الأخرى ، فللعرب فى زيهم تقليد ، وفى موائدهم تقليد ، وفى أفراحهم ومآتمهم تقليد ، وللغرب فى كل ذلك تقليد .

وكثيرا ما تختلف التقاليد مـع اتحاد الدين ووحدة أحكامه ، ودل ذلك على أن التقاليد شىء والدين شىء آخر . ولو وضع الدين موضع التقاليد أو أطلقت على الدين لمـا كان الدين دينا .. ذلك أن الدين وضع الهى ، يبين حدود ما يسير عليه الناس ويلتزمونه فى عقائدهم وعباداتهم ،ومايحل لهم ان يفعلوه، ومـا يحـرم عليهـم ان يفعلـوه ولا سلطان عليه لعرف أو توارث أو نقل . حتى لو اتخذت أحكام الدين باعتبارها عرفا أو توارثا لما كانت دينا ، وانما تكون دينا اذا أخذت مضافة الى مصدرها وهـو رب العالمين .

والدين هو الحاكم على التقاليد فما كان منها لا يخـل بشىء من أحكامه ، ولا يترتب عليه ضرر يأباه الدين ، فان الدين يقره ويسمح به .

وما كان منها يخـل بشىء من أحكامه أو يستبيح ضررا أو فسادا يأباه الـدين فان الـدين ينكـره ويحاربه .

ولقد جاء الاسلام ــ وفى جميع البلاد التى دخلها تقاليد وصـور عملية فى نواحى الاجتماع ــ فأقر الصـالح منهـا وحارب الفاسد ، وحقق تلاؤما بين أهدافه وآثـار التقاليد ، وكان الدين قوة للتقاليد الطيبة الصالحة ، ومطهـرا مـن

التقاليد الخبيثة الفاسدة .

ومما يجب أن نعرفه هنا ، أن الاسلام أطلق لأتباعه حق اختيار ما يرونه محققا لنهوضهم العلمى والاقتصادى والخلقى والاجتماعى، ولم يقيدهم فيما وراء العقائد والعبادات والحلال والحرام بشىء يمنعهم من التقدم والنهوض ، وهو يبيح لهم بل يحتم عليهم أن يسلكوا فى هذا الجانب أحدث ما ينتجه العقل البشرى من صور المجتمعات الفاضلة .

وليس من شك فى أن جماعتنا — وهى اسلامية قبل كل شىء — نزعت فى كثير من عصورها الماضية الى كثير من التقاليد التى أنشأها العرف أو التى جرها عليهم تقليد الامم المختلفة التى حكمتها واستغلت عقليتها وحياتها .

وليس من شك أن كثيرا من هذه التقاليد لا يتفق وأحكام الاسلام : فتقاليد الأفراح والمآتم والأعياد ، وتقاليد بعض طرق التصوف ، وزيارة الأضرحة تقاليد يأباها الدين ، وقد امتدت التقاليد الى دائرة العقيدة والعبادة والحلال والحرام ، واذن فلا بد من تشخيص هذه التقاليد والنظر اليها من جهة موافقتها للدين أو مخالفتها ، ومن جهة ما تغرسه فى الامة من خير أو شر ، ثم تعمل على أخذ الأمة الى السبيل الذى يحفظ لها شخصيتها الاسلامية أولا ، والذى ينهض بمستواها الاجتماعى نهوضا يحفظ عليها كرانها وأخلاقها ويمهد لها سبيل السير فى الكمال .

فان كان هذا هو القصد من التطور فالدين لا يقف عند حد اباحته بل يوجبه ويحتمه ، وان كان القصد من التطور أن يدخل التغيير فى الدوائر الدينية التى رسمها الاسلام وبين أحكامها فهذا ليس تطورا فى التقاليد ، وانما هو من تغليب التقاليد على الدين، وليس سيرا بالتقاليد فى جو الدين (١) .

والله أعلم .

عبد الحميد شاهين

(١) من فتاوى الامام الشيخ محمود شلتوت رحمه الله .

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

((امرأة تتكلم بالقرآن))

قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ خرجت حاجا الى بيت الله الحرام ، فبينما انا فى بعض الطريق اذا انا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فاذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ، فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت:((سلام قولا من رب رحيم)) قال : فقلت لها : يرحمك الله : ما تصنعين فى هذا المكان ؟ قالت : ((من يضلل الله فلا هادى له)) فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : ((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى)) فعلمت انها قضت حجها وهى تريد بيت المقدس ، فقلت لها : انت منذ كم فى هذا الموضع ؟ قالت : ((ثلاث ليال سويا)) فقلت : ما ارى معك طعاما تاكلين ؟ قالت : ((هو يطعمنى ويسقين)) فقلت : من أى شىء تتوضئين ، قالت : ((فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا)) فقلت لها : ان معى طعاما فهل لك فى الاكل ؟ قالت : ((ثم اتموا الصيام الى الليل)) فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت : ((ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم)) فقلت قد أبيح لنا الافطار فى السفر ، قالت : ((وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون)) فقلت : لم لا يكلمينى مثل ماأكلمك ؟ قالت : ((مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد)) فقلت فمن اى الناس انت ؟ قالت : ((ولا تقف ما ليس لك به علم)) فقلت قد اخطأت ؟! فاجعلينى فى حل قالت : ((لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)) فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ، قالت : ((وما تفعلوا من خير يعلمه الله)) قال : فأناخت ناقتى قالت : ((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)) ففضضت بصرى عنها ، وقلت لها : اركبى فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها ، فقالت : ((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)) فقلت لها أصبرى حتى أعقلها قالت : ((ففهمناها سليمان)) فعقلت الناقة وقلت لها : أركبى ، فلما ركبت قالت : ((سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين)) فلما مشيت بها قليلا سالتها ألك زوج ؟ قالت : ((يايها الذين آمنوا لا تسالوا عن

أشياء ان تبد لكم تسؤكم » فسكت حتى ادركت بها القافلة فقلت هـذه القـافلة فمن لك فيها ؟ قالت : « واتخذ الله ابراهيم خليـلا » ، « وكلم الله موسى تكليمـا » ، « يايحيى خـذ الـكتاب بقـوة » فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيى فاذا أنا بشبان كأنهم الأقمـار قـد أقبلوا فلمـا استقر بهم الجـلوس قالت : « فابعثوا أحـدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منـه » فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يـدى ، فقـالت : « كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم فى الايام الخالية » فقلت : الآن طعامكم حـرام حتى تخبرونى بامرها ، فقالوا : هـذه أمنا لها منذ اربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على من يشاء . فقلت : « ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

« خير المكاسب وشرها »

قيل لبعض الحكماء : ما خير المكسب ؟ قال : خير مكاسب الدنيا طلب الحـلال لزوال الحـاجة ، والأخذ منه للقوة على العبـادة ، وتقديم فضله لزاد يوم القيامة .

واما خير مكاسب الآخرة : فعلم معمول به نشرته ، وعمل صـالح قدمته وسنة حسنة أحييتها .

قيل : وما شر المكاسب ؟ قال : أما شر مـكاسب الدنيـا فحـرام جمعته ، وفى المعاصى انفقته ، ولمن لا يطيع ربه خلفته .

وأما شر مكاسب الآخرة : فحق أنكرته حسدا ، ومعصية قدمتهـا اصرارا ، وسنة سيئة أحييتهـا عـدوانا .

« ببابك انزلت حاجتى »

قصـد أعـرابى مالك بن طـوق التغلبى (١) صاحب الرحبة (٢) ، وكان رث الهيئة ، زرى الحـال ، فمنع من الدخول عليه مدة ، الى أن خـرج مـالك ذات يوم يريد النزهة حول مدينته ، فاعترض له الاعرابى ، فرده رجاله ازدراء به ، فلم ينثن ، بل اقترب منه حتى أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : ايها الأمير ، أنا عائذ بك (٣) من شر حرسك ! فنهنهم عنـه (٤) ، وقـال له : ما حاجتـك ؟ قال : ان تصغى الى كلامى بسمعك ، وتنظر الى بطرفك .. وتقبل على بوجهك ، ثم أنشد :

ببابك دون الناس انزلت حاجتى
وأقبلت أسعى نحـوه وأطـوف
ويمنعنى الحجاب والليل مسبل
وأنت بعيـد والرجـال صفوف
يطوفون حـولى عابسين كأنهم
ذئاب جيـاع بينهن خـروف
فكيف وقد أبصرت وجهك مقبلا
ترد امـرأ وافـاك وهـو لهيف

(١) مالك بن طوق : احد ندماء الرشيد ، اقطعه ارضـا بناها ونسبت اليه ، ثم خرج على الرشيد فانفذ اليه الجيـوش حتى ظفـروا به ، وحبس ثم عفا عنه .

(٢) مدينة جميلة بين بغداد والرقة . (٣) عاذبه : لجـأ اليـه .

(٤) نهنهم : زجرهم وكفهم .

ومالى فى الدنيا سواك وما لمن
تركت ورائى مربع ومصيف (١)

فجئتك أبغى الخير منك فراعنى
ببابك من ضرب العبيد صنوف

فلا تجعلن لى نحـو بابك عودة
ففلبى من صنع القساة مخوف

فضحك مالك ، ثم قال لحرسه ، من يعطيه درهما بدرهمين ؟ فمـا أتم كلمته حتى نثرت الدراهم على الاعرابى من كل جانب حتى تحير ، واختـلط لديه الحـابل بالنـابل ، لـكثرة ما أعطى .

فعند ذلك التفت اليـه مالك ، وقال له : هـل بقيت لك حاجـة يا أخا العرب ؟ قال : اما اليك فلا .

فقال : والى مـن ؟ قال : الى الله أن يبقيك للعـرب ، فانهم ان يزالوا بخير ما بقيت لهم !

« دواء هاضم »

اهدى يوما صديق لعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهمـا ـ وعاء مملوءا ،

فقال ابن عمر : « ما هذا ؟! »

قال الصـديق : « دواء عظيم جئتك به من العراق » .

قال ابن عمر : « وما يطيب هذا الدواء ؟ » .

قال الصديق : « يهضم الطعام »

وابتسم عبد الله وقال لصاحبه : « يهضم الطعام ..؟! انى لم أشبع من طعام قط منذ اربعين عاما » .

« الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم »

روى أن رجلا كان يطوف حول الـكعبة ، وهـو يكثر من الصـلاة والسلام على رسول الله ، فقال له شخص يا هذا ، لم تركت الذكـر المسنون ، واشتغلت بالصـلاة والسلام على رسول الله ؟ فقال له : خرجت أنا ووالدى لتادية فريضة الحج ، وفى الطريق مرض والدى ، فجلست بجواره أعلله ، وما هى الا لحظات حتى رايت وجه أبى قد أسود ثم مات ، فحزنت على ما حل بأبى ، وخصوصا لسواد وجهـه ، فغطيت وجـه أبى بمنـديل ، ثم أخذتنى سنة من النوم ، فرأيت فى منامى رجلا لم أر أجمـل منـه وجها ، ولا أطيب رائحة ، يتقدم نحو أبى ويرفع المنديل عن وجهه ، ثم يمسح الوجـه الذى اسـود ، فيعود أبيض ناصـعا ، فتعلقت به وقلت له : من انت الذى من الله بك على أبى ونحن فى أرض الغربة ؟ فقال : أو ما تعرفنى ؟ أنا محمد بن عبد الله رسول الله : لقد كان ابوك يكثر من الصلاة والسـلام على ، فلما حل به ما حل استغاث بى ، وأنا غيـاث لكل من يصلى على ، لذلك اكثرت من الصـلاة والسلام على هذا النبى الـكريم ، فعـلى المسلمين أن يكثروا من الصـلاة والسلام على رسول الله فانها نور فى القبر ، وثقل فى الميـزان ، قال تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبى يايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

(١) المربع : منزل القوم فى الربيع خاصة .

« حيا وميتا »

ذكر بعض المؤرخين ، ان أبا جعفر المنصور ناظر الامام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ، فقـال له مالك : يا أمير المؤمنـين لا ترفع صـوتك فى هـذا المسجد فان الله تعالى :

ادب قوما فقال : « لا ترفعـوا أصواتكم فوق صوت النبى .. »

ومدح قوما فقال : « ان الذين يغضون أصواتهم عند رسـول الله أولئـك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وذم قوما فقـال : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ، وان حرمته ميتـا كحرمته حيـا ... فاستكان لهـا المنصور .

« فصـاحة صبى »

دخل الحسن بن الفضـل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهـل العـلم ، فأحب الحسن أن يتكلم فزجره ، وقال : يا صبى تتكلم فى هذا المقام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان كنت صبيا فلست بأصـغر من هدهد سليمان ، ولا أنت أكبر من سليمان ـ عليـه السلام ـ حين قال : « أحطت بمـالم تحط به » ثم قال : « الم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى » .

ولما افضت الخـلافة الى عمـر ابن عبد العزيز أتته الوفود ، فاذا فيهم وفد الحجاز ، فنظـر الى صبى صغير السن ، وقد أراد أن يتكلم ، فقال : ليتكلم من هو أسن منك ، فانه أحق بالكلام منـك ، فقال الصبى : يا أمير المؤمنين لو كان القول كمـا تقـول لـكان فى مجلسك هذا من هو أحق به منك ، قال : صدقت فتكلم ، فقال يا أمير المؤمنين : انا قدمنا عليـك من بلد نحمـد الله الذى من علينـا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك ، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك فى منازلنا ، وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعـدلك ، فنحن وفد الشكر والسلام .

فقال له عمر ـ رضى الله عنه ـ عظنى يا غلام ،فقال يا أمير المؤمنين : ان أناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليـه فتزل قـدمك وتكون من الذين قال الله فيهـم : «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » فنظـر عمر فى سن الغلام فاذا هى اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر ـ رضى الله تعـالى عنـه ـ :

تعـلم فليس المـرء يولد عالمـا
وليس أخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القـوم لا علم عنـده
صغير اذا التفت عليـه المحـافل

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

فهـــــرس العـــــــدد

الموضـــــــوع	صفحة
العلامة المودودى فى ذمة الله !! دكتور عبد الودود شـــلبى	٢٢٤١
أبو الاعلى المودودى ومكانته فى الدعوى الاسلامية دكتـــور رءوف شـــلبى	٢٢٥٠
مواجهة الالحاد المعاصر : عدم كفاية العلم فى مجال المعرفة للدكتـــور يحيى هاشـــم	٢٢٦٥
مناقشة هادئة :	
دفع افتراء صارخ حول شيخ الاسلام سليم البشرى للدكتور محمد رجب البيومى	٢٢٨٦
من اسرار الفريضة الخاتمة لفضيلة الشيخ معوض عوض ابراهيم	٢٢٩٥
الوليد بن يزيد وتبعات الحكم للاستاذ السيد حسن قرون	٢٣٠٠
مبادىء الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الاسلامية للواء محمد جمال الدين محفوظ	٢٣١٤
رأى فى التفسير العلمى فضيلة الشيخ عزت الدسوقى	٢٣٢٦
الازهر جامعا وجامعة (أو مصر فى ألف عام) للاستاذ محمد كمال الســـيد	٢٣٣٧
جرائم القصاص وجرائم التعزير المستشار حسن حسب اللـــه	٢٣٤٩
الاسلام فى الفكر الاوروبى عرض وتحليل لمؤلفات أوروبية بقلم الدكتور محمد شامه	٢٣٦٣
دراسات لغوية : نظرة الى الجديد فى علوم اللغة للدكتور توفيق محمد شاهين	٢٣٨٨
اللغـــة الاردية : نشأتها وتطورها للدكتور سمير عبد الحميد ابراهيم	٢٤٠٥

الموضـــــــوع

صفحة

التصوف ومقام الاحســـان
للاستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى ٢٤١٩
لــذة الحق
فضيلة الدكتور ابراهيم ابو الخشب ٢٤٢٧
أخطــاء شــائعة
للاســتاذ عباس أبو السعود ٢٤٣٢
قلعة الموت وفردوسها المزعوم
بقلم عقيد شرطة محمد فتحى عيد ٢٤٤٩
بــاب الفتــاوى
للاستاذ عبد الحميد شاهين ٢٤٥٨
حكــم .. وطــرائف
اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٢٤٦٣